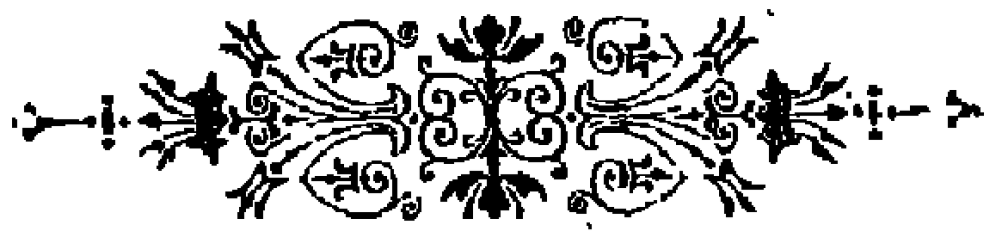
(فهرست)

الجزء الاول من كتاب الخطط للعلامة المقريزي

(تمت فهرست الجزء الاول من الخطط المقريزيه)



كتاب الخطط المقريزية

المسماة

بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص
ذلك باخبار أقليم مصر والنيل وذكر القاهرة
وما يتعلق بها وباقليمها (تأليف) سيدنا
الشيخ الامام علامة الأنام تقي الدين
أحمد بن على بن عبد القادر بن
محمد المعروف بالمقريزى
رحمه الله ونفع
بعلومه آمين

الجزء الأول

(مبيعه بمكتبة ملتزمه)
(حضرة الفاضل الشيخ احمد علي المليجي الكتبي الشهير)
« بمصر قريباً من الجامع الازهر المنير »
(طبع بمطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرّف وفهم • وعلّم الانسان ما لم يكن يعلم . وأسبغ على عباده نعما باطنة وظاهره • ووالى عليهم من مزيد آلائه مننا متظافرة متواتره • وبثهم في أرضه حينا يتقلبون واستخلفهم في ماله فهم به يتنعمون • وهدى قوما الى اقتناص شوارد المعارف والعلوم • وشوّقهم للتفنن في مسارح التدبر والركض بميادين الفهوم • وأرشد قوما الى الانقطاع من دون الخلق اليه . ووفقهم للاعتماد في كل أمر عليه . وصرف آخرين عن كل مكرمة وفضيله • وقيض لهم قرناء قادوهم الى كل ذميمة من الاخلاق ورذيله • وطبع على قلوب آخرين فلا يكادون يفقهون قولا • وثبطهم عن سبل الخيرات فما استطاعوا قوّة ولا حولا. ثم حكم على الكل بالفناء • ونقلهم جميعا من دار التمحيص والابتلاء • الى برزخ البيود والبلاء وسيحشرهم أجمعين الى دار الجزاء • ليوفى كل عامل منهم عمله • ويسأله عما أعطاه وخوّله وعن موقفه بين يديه سبحانه وما أعدّ له • لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .أحمده سبحانه حمد من علم أنه اله لا يعبد الا اياه • ولا خالق للخلق سواه • حمدا يقتضي المزيد من النعماء ويوالي المنن بتجدّد الآلاء • وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله • ونبيه وخليله • سيد البشر • وأفضل من مضى وغبر . الجامع لمحاسن الاخلاق والسير • والمستحق لاسم الكمال على الاطلاق من البشر • الذي كان نبيا وآدم بين الماء والطين. ورقم اسمه من الأزل في عليين . ثم تنقل من الاصلاب الفاخرة الزكيه • الى الارحام الطاهرة المرضيه حتى بعثه الله عزوجلّ الى الخلائق أجمعين • وختم به الأنبياء والمرسلين • وأعطاه مالم يعط أحدا من العالمين • وعلى آله وصحابته والتابعين • وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

(وبعد) فان علم التاريخ من أجل العلوم قدرا . وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا . لما يحويه من المواعظ والانذار • بالرحيل الى الآخرة عن هذه الدار . والاطلاع على مكارم الاخلاق ليقتدى بها • واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أو لو النهى . لاجرم ان كانت الانفس الفاضلة به رامقه . والهمم العالية اليه مائلة وله عاشقه • وقد صنف فيه الائمة كثيرا • وضمن الاجلة كتبهم منه شيئاً كبيرا • وكانت مصر هي مسقط راسي . وملعب أترابي ومجمع ناسي . ومغني عشيرتي وحامتي • وموطن خاصتي وعامتي • وجؤجؤى الذي ربي جناحي في وكره •

وعش مأربى فلا تهوى الانفس غير ذكره • لا زلت مذ شذوت العلم • وآتاني ربي الفطانة والفهم • أرغب في معرفة أخبارها • وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها • وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها • فقيدت بخطى في الاعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب • أو يحويها لعزتها وغرابتها اهاب • الا أنها ليست بمرتبة على مثال • ولا مهذبة بطريقة مانسج على منوال • فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقيه • عن الامم الماضية والقرون الخاليه . وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم . ولم يبق الا أن يمحو رسمها الفناء والعدم . وأذكر ما بمدينة القاهره من آثار القصور الزاهره • وما اشتملت عليه من الخطط والاصقاع • وحوته من المباني البديعة الاوضاع • مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الاماثل . والتنويه بذكر الذي شادها من سراة الاعاظم والافاضل . وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفه . وحكما بديعة شريفه • من غير اطالة ولا اكثار • ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار • بل وسط بين الطرفين . وطريق بين بين • فلهذا سميته (كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) واني لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى عند الملوك • ولا ينبو عنه طباع العامي والصعلوك • ويجله العالم المنتهي • ويعجب به الطالب المبتدى • وترضاه خلائق العابد الناسك ولا يمجه سمع الخليع الفاتك • ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمرا • ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا . يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الابدال • ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الامور الى حال بعد حال • فان كنت أحسنت فيما جمعت وأصبت في الذى صنعت ووضعت . فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله • وعظيم أنعمه علي وجليل طوله • وان أنا أسأت فيما فعلت • وأخطأت اذ وضعت • فما أجدر الانسان بالاساءة والعيوب • اذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب

وما أبرئ نفسي انني بشر * أسهو وأخطئ مالم يحمني قدر
ولا ترى عذرا اولى بذى زلل * من أن يقول مقرا انني بشر

فليسبل الناظر فى هــذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره ان مرت به هفوه . وليغض تجاوزا وصفحا ان وقف منــه على كبوة أو نبوه • فأى جواد وان عتق ما يكبو . وأى عضب مهند لا يكل ولا ينبو • لاسيما والخاطر بالافكار مشغول • والعزم لالتواء الامور وتعسرها فاتر محلول • والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل • والقلب لتوالى المحن وتواتر الاحن عليل

يعاندني دهرى كأني عدوه * وفي كل يوم بالكريهة يلقاني
فان رمت شيئاً جاءني منه ضده * وان راق لى يوما تكدر في الثاني

اللهمّ غفرا ما هـذا من التبرّم بالقضـاء ولا التضجر بالمقدور . بل أنة سـقيم ونفثة مصدور * يستروح ان أبدى التوجع والانين * ويجد خفا من ثقله اذا باح بالشكوى والحنين

ولو نظروا بين الجوانح والحشا * رأوا من كتاب الحب في كبدي سطرا
ولو جرّبوا ما قد لقيت من الهوى * اذاً عذروني أو جعلت لهم عذرا

والله أسأل أن يحلي هـذا الكتاب بالقبـول عند الجلة والعلماء . كما أعوذ به من تطرّق أيدي الحساد اليه والجهـلاء . وأن يهديني فيـه وفيما سواه من الاقوال والافعال الى سواء السبيل * انه حسبنا ونعم الوكيل * وفيه جلت قدرته لي سلوّ من كل حادث * وعليه عز وجل أتوكل في جميع الحوادث . لااله الا هو ولا معبود سواه

ذكر الرؤس الثمانيه

اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤس الثمانية قبـل افتتاح كل كتاب وهى الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبـة وصحة الكتاب ومن أى صناعة هو وكم فيه من اجزاء وأىّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول (أما الغرض) في هذا التأليف فانه جمع ماتفرق من أخبـار أرض مصر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار أقليم مصر وهى التي اذا حصلت في ذهن انسان اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبايدة ويقص أحوال من ابتـدأها ومن حلها وكيف كانت مصاير أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لهـا بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر (وأما عنوان هذا الكتاب) أعني الذى وسمته به فاني لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرقة فلم يتهيأ لى اذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتبا على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لاسيما فى الاعصر الخالية ولا أن أضعها على أسماء النـاس لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرقتها في ذكر الخطط والآثار فاحتوى كل فصل منها على ما يلايمه ويشاكله وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبـدد من أخبار مصر ولم أتحاش من تكرار الخبر اذا احتجت اليـه بطريقة يستحسنها الاريب ولا يستهجنها الفطن الاديب كي يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول فلذلك سميته (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) *(وأما منفعة هذا الكتاب) فان الامر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه أعني أن منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الازمنة المتطاولة والاعوام الكثيرة فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ويعرف فنـاء الدنيا فيحظى بالاعراض عنها والاقبال على ما يبقى (وأما مرتبة هذا الكتاب) فانه من جملة أحد قسمي العلم اللذين هما العقلي والنقلي فينبغي أن يتفرغ لمطالعته وتدبر مواعظه بعد اتقان ما تجب معرفته

من العلوم النقلية والعقلية فانه يحصل بتدبره لمن أزال الله أكنة قلبه وغشاوة بصره نتيجة العلم بما صار اليه أبناء جنسه بعد التخول فى الاموال والجنود من الفناء والبيود فاذاً مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقلية ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل (وأما واضع هذا الكتاب ومرتبه) فاسمه أحمد بن علي بن عبد القادر ابن محمد ويعرف بالمقريزى رحمه الله تعالى ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعدسنة ستين وسبعمائة من سني الهجرة المحمدية ورتبته من العلوم مايدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه (وأما من أى علم هذا الكتاب) فانه من علم الاخبار وبها عرفت شرائع الله تعالى التي شرعها وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هداهم الذى يقتدى به من وفقه الله تعالى الى عبادته وهداه الى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة مادونوه من العلوم والصنائع وتأتي لهم علم ماغاب عنهم من الاقطار الشاسعة والامصار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم ولكل مصر من الامصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر في كل عصر ولو استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم في ذلك لتجاوز حد الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره (وأما أجزاء هذا الكتاب فانها سبعة) أولها يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها * وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها * وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها * ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار * وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الاحوال * وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها * وسابعها يشتمل على ذكر الاسباب التي نشأ عنها خراب أقليم مصر * وقد تضمن كل جزء من هذه الاجزاء السبعة عدة أقسام (وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت في هذا الكتاب) فاني سلكت فيه ثلاثة أنحاء • وهي النقل من الكتب المصنفة فى العلوم • والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس • والمشاهدة لما عاينته ورأيته * فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها في أنواع العلوم فأني أعزو كل نقل الى الكتاب الذى نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته فكثيراً ممن ضمني واياه العصر واشتمل علينا المصر صار لقلة اشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس يهجم بالانكار على ما لا يعرفه ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ولا يحتاج فى الشريعة اليه

وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه * وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فاني فى الغالب والاكثر أصرح باسم من حدثني الا أن لا يحتاج الى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقل ما يتفق مثل ذلك * وأما ما شاهدته فاني أرجو ان أكون والله الحمد غير متهم ولا ظنين • وقد قلت فى هذه الرؤس الثمانية ما فيه قنع وكفاية ولم يبق الا أن أشرع فيما قصدت وعزمي أن أجعل الكلام في كل خط من الاخطاط وفي كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الاخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولا والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم

(فصل) أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها فى ديوان جمعه أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ثم كتب بعده القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى كتابه المنعوت بالمختار فى ذكر الخطط والآثار ومات في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة فدثر أكثر ما ذكراه ولم يبق الا يلمع وموضع بلقع بما حل بمصر من سنى الشدة المستنصرية من سنة سبع وخمسين الى سنة أربع وستين وأربعمائة من الغلاء والوباء فمات أهلها وخربت ديارها وتغيرت أحوالها واستولى الخراب على عمل فوق من الطرفين بجانبي الفسطاط الغربى والشرقي فأما الغربى فمن قنطرة بني وائل حيث الوراقات الآن قريبا من باب القنطرة خارج مدينة مصر الى الشرف المعروف الآن بالرصد وأنت مار الى القرافة الكبرى وأما الشرقي فمن طرف بركة الحبش التي تلى القرافة نحو جامع أحمد بن طولون ثم دخل أمير الجيوش بدر الجمالي مصر فى سنة ست وستين وأربعمائة وهذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها قد أبادهم الوباء والتباب وشتتهم الموت والخراب ولم يبق بمصر الا بقايا من الناس كانهم أموات قد اصفرت وجوههم وتغيرت سحنهم من غلاء الاسعار وكثرة الخوف من العسكرية وفساد طوائف العبيد والملحية ولم يجد من يزرع الاراضي هذا والطرقات قد انقطعت بحرا وبرا الا بخفارة وكلفة كثيرة وصارت القاهرة أيضاً يباباً داثرة فأباح للناس من العسكرية والملحية والارمن وكل من وصلت قدرته الى عمارة أن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها فأخذ الناس فى هدم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها فى القاهرة وكان هذا أول وقت اختط الناس فيه بالقاهرة ثم كان المنبه بعد القضاعى على الخطط والتعريف بها تلميذه أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى في تأليف لطيف نبه فيه الافضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى على مواضع قد اغتصبت وتملكت بعد ما كانت أحباسا ثم كتب الشريف محمد بن أسعد الجوانى كتاب النقط بعجم ما أشكل من الخطط نبه فيه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت

وآخر من كتب فى ذلك القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج كتاب ايقاظ المتأمل وايقاظ المتغفل فى الخطط بين فيه جملا من أحوال مصر وخططها الى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع واربعين وسبعمائة ثم فى وباء سنة احدى وستين ثم فى غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة وكتب القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ففتح فيه بابا كانت الحاجة داعية اليه ثم تزايدت العمارة من بعده فى الايام الناصرية محمد بن قلاوون بالقاهرة وظواهرها الى أن كادت تضيق على أهلها حتى حل بها وباء سنة تسع واربعين وسنة احدى وستين ثم غلاء سنة ست وسبعين فخربت بها عدة أماكن فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة شمل الخراب القاهرة ومصر وعامة الاقليم وسأورد من ذكر الخطط ماتصل اليه قدرتى ان شاء الله تعالى

ذكر طرف من هيئة الافلاك

اعلم أنه لما كانت مصر قطعة من الارض تعين قبل التعريف بموقعها من الارض وتبيين موضع الارض من الفلك أن أذكر طرفا من هيئة الافلاك ثم اذكر صورة الارض وموضع الاقاليم منها وأذكر محل مصر من الارض وموضعها من الاقاليم وأذكر حدودها واشتقاقها وفضائلها وعجائبها وكنوزها وأخلاق أهلها وأذكر نيلها وخلجانها وكورها ومبلغ خراجها وغير ذلك مما يتعلق بها قبل الشروع فى ذكر خطط مصر والقاهرة فأقول علم النجوم ثلاثة أقسام الاول معرفة تركيب الافلاك وكمية الكواكب واقسام البروج وابعادها وعظمها وحركتها ويقال لهذا القسم علم الهيئة والقسم الثانى علم الزيج وعلم التقويم والقسم الثالث معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج على الحوادث قبل كونها ويسمى هذا القسم علم الاحكام والغرض هنا ايراد نبذ من علم الهيئة تكون توطئة لما يأتى ذكره * اعلم ان الكواكب أجسام كريات والذى أدرك منها الحكماء بالرصد الف كوكب وتسعة وعشرون كوكبا وهى على قسمين سيارة وثابتة فالسيارة سبعة وهى زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر وقد نظمت فى بيت واحد وهو

زحل شرى مريخه من شمسه * فتزاهرت بعطارد الاقمار

ويقال لهذه السبعة الخنس وقيل انها التى عناها الله تعالى بقوله فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس والتى عناها الله تعالى بقوله فالمدبرات أمرا وقيل لها الخنس لاستقامتها فى سيرها ورجوعها وقيل لها الكنس لانها تجرى فى البروج ثم تكنس أى تستتر كما يكنس الظبى وقيل الكنس والخنس منها خمسة وهى ماسوى الشمس والقمر سميت بذلك من الانخناس وهو الانقباض وفى الحديث الشيطان يوسوس للعبد فاذا ذكر الله

خنس أى انقبض ورجع فيكون الخنس على هـذا في الـكواكب بمعنى الرجوع وسميت بالكنس من قولهم كنس الظبي اذا دخل الكناس وهو مقره فالـكنس على هـذا في الـكواكب بمعنى اختفائها تحت ضوء الشمس ويقال لهذه الـكواكب المتحيرة لانها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة الشرقيـة وتتبع الغربية في رأى العين فيكون هـذا الارتداد لها شبه التحير وهـذه الاسماء التي لهذه الـكواكب يقال انها مشتقة من صفاتها فزحل مشتق من زحل فلان اذا أبطأ سمي بذلك لبطء سيره وقيـل للزحل والزحل الحقد وهو بزعمهـم يدل على ذلك ويقال انه المراد في قوله تعـالى والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب والمشترى سمى بذلك لحسنه كانه اشترى الحسن لنفسه وقيل لانه نجم الشراء والبيع ودليل الربح والمـال في قولهم والمريخ مأخوذ من المرخ وهو شجر يحتك بعض أغصانه ببعض فيورى نارا سمى بذلك لاحمراره وقيـل المريخ سهم لاريش له اذا رمى به لايستوى في ممره وكذا المريخ فيـه التواء كثير في سيره ودلالته بزعمهم تشبه ذلك والشمس لما كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية لانهم من فوقها وثلاثة سفلية لانهم من تحتها سميت بذلك لان الواسطة التي في المخنقة تسمى شمسة والزهرة من الزاهر وهو الابيض النير من كل شيء وعطارد هو النافذ في كل الامور ولذلك يقال له أيضا الـكاتب فانه كثير التصرف مع ما يقارنه ويلابسه من الـكواكب والقمر مأخوذ من القمرة وهي البياض والاقمر الابيض ويقال لزحل كيوان وللمشترى تير والبرجيس أيضا وللمريخ بهرام وللشمس مهر وللزهرة أياهيـد وسدحت أيضاً ولعطارد هرمس وللقمر ماه وقد جمعت في بيت واحد وهو هذا

لازلت تبقى وترقى للعـلا أبدا * ما دام للسبعة الافلاك احكام
مهر وماه وكيوان وتير معا * وهرمس وأياهيد وبهرام

ويقال لما عدا هذه الـكواكب السبعة من بقية نجوم السماء الـكواكب الثابتة سميت بذلك لثباتها في الفلك بموضع واحد وقيل لبطء حركتها فانها تقطع الفلك بزعمهم بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة شمسية مرة واحدة * ولـكل كوكب من الـكواكب السـبعة السيارة فلك من الافلاك يخصه والافلاك أجسام كريات مشفات بعضهـا في جوف بعض وهي تسعة أقربها الينا فلك القمر وبعده فلك عطارد ثم بعده فلك الزهرة وبعده فلك الشمس وفوقه فلك المريخ ثم فلك المشترى وفوقه فلك زحل ثم فلك الثـوابت وفيـه كل كوكب يرى في السماء سوى السبعة السـيارة ومن فوق فلك الثوابت الفلك المحيط وهو الفلك التاسع ويسمي الاطلس وفلك الافـلاك وفلك الكل وقد اختلف في الافلاك فقيل هى السموات وقيل بل السموات غيرها وقيـل بل هي كرية وقيل غير ذلك وقيل الفلك

الثامن هو الكرسى والفلك التاسع هو العرش وقيل غير ذلك وهذا الفلك التاسع دائم الدوران كالدولاب ويدور في كل أربعـة وعشرين ساعة مستوية دورة واحدة ودورانه يكون أبداً من المشرق الى المغرب ويدور بدورانه جميع الافلاك الثمـانية وما حوته من الكواكب دورانا حركته قسرية لادارة التاسع لهـا وعن حركة التاسع المذكور يكون الليـل والنهار فالنهار مدة بقاء الشمس فوق أفق الارض والليل مدة غيبوبة الشمس تحت أفق الارض وفلك الكواكب الثابتة مقسوم باثني عشر قسما كحجز البطيخة كل قسم منها يقال له برج وهى الحمل • والثور • والجوزاء • والسرطان • والاسد • والسنبلة • والميزان • والعقرب والقوس • والجدى • والدلو • والحوت • وكل برج من هذه البروج الاثنى عشر ينقسم ثلاثين قسما يقال لكل قسم منها درجة وكل درجة من هـذه الثلاثين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها دقيقة وكل دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها ثانية وهكذا الى الثوالث والروابع والخوامس الى الثوانى عشر وما فوقها من الاجزاء وكل ثلاثة بروج تسمى فصلا فالزمان على ذلك أربعة فصول وهى الربيع والصيف والخريف والشتاء * وجهات الاقطار أربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب * والاركان أربعة النار • والهواء . والماء . والتراب * والطبائع أربعة • الحرارة . والبرودة . والرطوبة • واليبوسة • والاخلاط أربعة • الصفراء . والسوداء • والبلغم • والدم والرياح أربعة . الصبا • والدبور والشمال • والجنوب * فالبروج منها ثلاثة ربيعية صاعدة فى الشمال زائدة النهار على الليل وهي الحمل والثور والجوزاء وثلاثة صيفية هابطة في الشمال آخذة الليل من النهار وهي السرطان والاسد والسنبلة وثلاثة خريفيـة هابطة فى الجنوب زائدة الليـل على النهار وهي الميزان والعقرب والقوس وثلاثة شتوية صاعدة في الجنوب آخذة النهار من الليل وهي الجدى والدلو والحوت * والفلك المحيط كما تقدّم دائم الدوران كالدولاب يدور أبدا من المشرق الى المغرب فوق الارض ومن المغرب الى المشرق تحتها فيكون دائما نصف الفلك وهو ستة بروج بمائة وثمانين درجة فوق الارض ونصفه الآخر وهو ستة بروج بمائة وثمانين درجة تحت الارض وكلما طلعت من أفق المشرق درجة من درجات الفلك التي عدّتها ثلثمائة وسـتون درجة غرب نظيرها فى أفق المغرب من البرج السابع فلا يزال دائما ستة بروج طلوعها بالنهار وستة بروج طلوعها بالليل والافق عبارة عن الحدّ الفاصل من الارض بين المرئيّ والخفيّ من السماء والفلك يدور على قطبين شمالىّ وجنوبى كما يدور الحق على قطبي المخروطة ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين متساويين بعدها من كلا القطبين سواء وتسمى هـذه الدائرة دائرة معدّل النهار فهي تقاطع فلك البروج ودائرة فلك البروج تقاطع دائرة معدّل النهار ويميل نصفها الى الجانب الشمالى بقدر أربع وعشرين درجة تقريبا وهـذا النصف

فيه قسمة البروج الستة الشمالية وهي من أول الحمل الى آخر السنبلة ويميل نصفها الثانى عنها الى الجنوب بمثل ذلك وفيه قسمة البروج الستة الجنوبية وهي من أول برج الميزان الى آخر برج الحوت وموضع تقاطع هاتين الدائرتين أعنى دائرة معدل النهار ودائرة فلك البروج من الجانبين هما نقطتا الاعتدالين أعنى رأس الحمل ورأس الميزان ومدار الشمس والقمر وسائر النجوم على محاذاة دائرة فلك البروج دون دائرة معدل النهار وتمر الشمس على دائرة معدل النهار عند حلولها بنقطتي الاعتدالين فقط لانهما موضع تقاطع الدائرتين وهذا هو خط الاستواء الذى لا يختلف فيه الزمان بزيادة الليل على النهار ولا النهار على الليل لان ميل الشمس عنه الى كلا الجانبين الشمالى والجنوبى سواء فالشمس تدور الفلك وتقطع الاثنى عشر برجا في مدة ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم بالتقريب وهذه هى مدة السنة الشمسية وتقيم في كل برج ثلاثين يوما وكسرا من يوم وتكون أبدا بالنهار ظاهرة فوق الارض وبالليل بخلاف ذلك واذا حلت في البروج الستة الشمالية التي هى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة فانها تكون مرتفعة في الهواء قريبة من سمت رؤسنا وذلك زمن فصل الربيع وفصل الصيف واذا حلت في البروج الجنوبية وهى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت كان فصل الخريف وفصل الشتاء وانحطت الشمس وبعدت عن سمت الرؤس وزعم وهب بن منبه أن أول ما خلق الله تعالى من الازمنة الاربعة الشتاء فجعله باردا رطبا وخلق الربيع فجعله حارا رطبا وخلق الصيف فجعله حارا يابساً وخلق الخريف فجعله بارداً يابساً وأول الفصول عند أهل زماننا الربيع ويكون فصل الربيع عند ما تنتقل الشمس من برج الحوت وقد اختلف القدماء فى البداية من الفصول فمنهم من اختار فصل الربيع وصيره أول السنة ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفى ومنهم من اختار تقديم الاعتدال الخريفى ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الشتوى فاذا حلت أول جزء من برج الحمل استوي الليل والنهار واعتدل الزمان وانصرف الشتاء ودخل الربيع وطاب الهواء وهب النسيم وذاب الثلج وسالت الاودية ومدت الانهار فيما عدا مصر ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلألأ الزهر وأورق الشجر وتفتح النور واخضر وجه الارض ونتجت البهائم ودرت الضروع وأخرجت الارض زخرفها وازينت وصارت كصبية شابة قد تزينت للناظرين ولله در القائل وهو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعمرى رحمه الله تعالى

واستنشقوا لهوا الربيع فانه * نعم النسيم وعنده ألطاف
يغذى الجسوم نسيمه وكأنه * روح حواها جوهر شفاف

وقال ابن قتيبة ومن ذلك الربيع يذهب الناس الى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ويأتي فيه النور والورد ولا يعرفون الربيع غيره والعرب تختلف في ذلك فمنهم من يجعل الربيع

الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذى تدعوه العامة الربيع ثم فصل القيظ وهو الذي تدعوه العامة الصيف ومن العرب من يسمى الفصل الذي يعتدل وتدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الاول ويسمى الفصل الذى يتلوه الشتاء ويأتي فيه الكمام والنور الربيع الثانى وكلهم مجتمعون على أن الربيع هو الخريف فاذا حلت الشمس آخر برج الجوزاء وأول برج السرطان تناهى طول النهار وقصر الليل وابتدأ نقص النهار وزيادة الليل وانصرم فصل الربيع ودخل فصل الصيف واشتد الحر وحمى الهواء وهبت السمائم ونقصت المياه الا بمصر ويبس العشب واستحكم الحب وأدرك حصاد الغلال ونضجت الثمار وسمنت البهائم واشتدت قوة الابدان ودرت اخلاف النعم وصارت الارض كانها عروس فاذا بلغت آخر برج السنبلة وأول برج الميزان تساوي الليل والنهار مرة ثانية وأخذ الليل فى الزيادة والنهار في النقصان وانصرم فصل الصيف ودخل فصل الخريف فبرد الهواء وهبت الرياح وتغير الزمان وجفت الانهار وغارت العيون واصفر ورق الشجر وصرمت الثمار ودرست البيادر واختزن الحب واقتنى العشب واغبر وجه الارض الا بمصر وهزلت البهائم وماتت الهوام وانجحرت الحشرات وانصرف الطير والوحش يريد البلاد الدافئة وأخذ الناس يخزنون القوت للشتاء وصارت الدنيا كأنها امرأة كهلة قد أدبرت وأخذ شبابها يولى ولله در القائل وهو الامام عز الدين أبو الحسن أحمد بن على بن معقل الازدى المهلبي الحمصى حيث يقول

لله فصل الخريف المستلذ به * برد الهواء لقد أبدى لنا عجبا
أهدي الى الارض من أوراقه ذهبا * والارض من شأنها أن تهدى الذهبا

وقال أيضا
لله فصل الخريف فصلا * رقت حواشيه فهو رائق
فالماء يجرى من قلب سال * والدمع يبدو بوجه عاشق
فبرد هذا ولون هذا * يلذه ذائق ووامق

وقال أيضا
أتى فصل الخريف بكل طيب * وحسن معجب قلبا وعينا
أرانا الدوح مصفرا نضارا * وصافى الماء مبيضا لجينا
فأحسن كل احسان الينا * وأنعم كل انعام علينا

وقال آخر يذم الخريف

خذ فى التدثر فى الخريف فانه * مستوبل ونسيمه خطاف
يجرى مع الاجسام جرى حياتها * كصديقها ومن الصديق يخاف

وقال آخر
ياعائبا فصل الخريف وغائبا * عن فضله في ذمه لزمانه
لاشيء ألطف منه عندى موقعا * أبدا يعري الغصن من قمصانه

وتراه يفرش تحتـه أثوابه * فاعجب لرأفته وفرط حنانه
وألذ ساعات الوصال اذا دنا * وقت الرحيل وحان حين أوانه

فاذا حلت الشمس آخر برج القوس وأول برج الجدى تناهي طول الليل وقصر النهار وأخذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان وانصرم فصل الخريف وحل فصل الشتاء واشتد البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وغارت الحيوانات فى جوف الارض وضعف قوى الابدان وعرى وجه الارض من الزينة ونشأت الغيوم وكثرت الانداء وأظلم الجو وكلح وجه الارض الا بمصر وامتنع الناس من التصرف وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت فاذا بلغت آخر برج الحوت وأول برج الحمل عاد الزمان كما كان عام أول وهـذا دأبه ذلك تقدير العزيز العليم وتدبير الخبير الحكيم لااله الا هو وقد شبه بطليموس فصل الربيع بزمان الطفولية وفصل الصيف بالشباب والخريف بالكهولة والشتاء بالشيخوخة • وعن حركة الشمس وتنقلها فى البروج الاثنى عشر المذكورة تكون أزمان السنة وأوقات اليوم من الليل والنهار وساعاتهما وعن حركة القمر في البروج الاثني عشر تكون الشهور القمرية والسنة القمرية فالقمر يدور البروج الاثنى عشر ويقطع الفلك كله في مدة ثمانية وعشرين يوما وبعض يوم ويقيم فى كل برج يومين وثلث يوم بالتقريب ويقيم فى كل منزلة من منازل القمر الثمانية والعشرين منزلة يوما وليلة فيظهر عند اهلاله من ناحية الغرب بعد غروب جرم الشمس ويزيد نوره فى كل ليلة قدر نصف سبع حتى يكمل نوره ويمتلئ في ليلة الرابع عشر من اهلاله ثم يأخذ من الليـلة الخامسة عشر في النقصان فينقص من نوره فى كل ليـلة نصف سبع كما بدا الي أن يمحق نوره في آخر الثمانية وعشرين يوما من اهلاله ويمر فى هـذه المدة منـذ يفارق الشمس ويبدو في ناحية الغرب ويستمر الى أن يجامعها بثمانية وعشرين منزلة وهى السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانا والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعـد السعود وسعد الاخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر وبطن الحوت *ولحساب ذلك كتب موضوعة وفيما ذكر كفاية والله يعلم وأنتم لا تعلمون

﴿ ذكر صورة الارض وموضع الاقاليم منها ﴾

ولما تقدم في الافلاك من القول ما يتبين به لمن ألهمه الله تعالى كيف تكون الحركة التي بها الليل والنهار وتركب الشهور والاعوام منهما جاز حينئذ الكلام على الارض فأقول* الجهات من حيث هي ست الشرق وهو حيث تطلع الشمس والقمر وسائر الكواكب في كل قطر من الافق والغرب وهو حيث تغرب والشمال وهو حيث مدار الجدي والفرقدين

والجنوب وهو حيث مدار سهيل والفوق وهو مما يلي السماء والتحت وهو مما يلي مركز الارض * والارض جسم مستدير كالكرة وقيل ليست بكرية الشكل وهي واقفة في الهواء بجميع جبالها وبحارها وعامرها وغامرها والهواء محيط بها من جميع جهاتها كالمخ في جوف البيضة وبعدها من السماء متساو من جميع الجهات وأسفل الارض ما تحقيقه هو عمق باطنها مما يلي مركزها من أى جانب كان ذهب الجمهور الى أن الارض كالكرة موضوعة في جوف الفلك كالمخ في البيضة وأنها في الوسط وبعدها في الفلك من جميع الجهات على التساوي وزعم هشام بن الحكم أن تحت الارض جسما من شأنه الارتفاع وهو المانع للارض من الانحدار وهو ليس محتاجا الى ما بعده لانه ليس يطلب الانحدار بل الارتفاع وقال ان الله تعالى وقفها بلا عماد وقال ريقراطس أنها تقوم على الماء وقد حصر الماء تحتها حتى لا يجد مخرجا فيضطر الى الانتقال وقال آخر هي واقفة على الوسط على مقدار واحد من كل جانب والفلك يجذبها من كل وجه فلذلك لا تميل الى ناحية من الفلك دون ناحية لان قوة الاجزاء متكافئة وذلك كحجر المغناطيس في جذبه الحديد فان الفلك بالطبع مغناطيس الارض فهو يجذبها فهي واقفة في الوسط وسبب وقوفها في الوسط سرعة تدبير الفلك ودفعه اياها من كل جهة الى الوسط كما اذا وضعت ترابا في قارورة وأدرتها بقوة فان التراب يقوم في الوسط وقال محمد بن أحمد الخوارزمي الارض في وسط السماء والوسط هو السفلى بالحقيقة وهي مدورة مضرسة من جهة الجبال البارزة والوهاد الغائرة وذلك لا يخرجها عن الكرية اذا اعتبرت جملتها لان مقادير الجبال وان شمخت يسيرة بالقياس الى كرة الارض فان الكرة التي قطرها ذراع أو ذراعان مثلا اذا نتأ منها شيء أو غار فيها لا يخرجها عن الكرية ولا هذه التضاريس لاحاطة الماء بها من جميع جوانبها وغمرها بحيث لا يظهر منها شيء فحينئذ تبطل الحكمة المؤدية المودعة في المعادن والنبات والحيوان فسبحان من لا يعلم أسرار حكمه الا هو * وأما سطحها الظاهر المماس للهواء من جميع الجهات فانه فوق والهواء فوق الارض يحيط بها ويجذبها من سائر الجهات وفوق الهواء الافلاك المذكورة فيما تقدم واحدا فوق آخر الى الفلك التاسع الذى هو أعلى الافلاك ونهاية المخلوقات بأسرها وقد اختلف فيما وراء ذلك فقيل خلاء وقيل ملاء وقيل لا خلاء ولا ملاء وكل موضع يقف فيه الانسان من سطح الارض فان رأسه أبدا يكون مما يلي السماء الى فوق ورجلاه أبدا تكون أسفل مما يلي مركز الارض وهو دائما يرى من السماء نصفها ويستر عنه النصف الآخر حدبة الارض وكلما انتقل من موضع الى آخر ظهر له من السماء بقدر ما خفي عنه * والارض غامرة بالماء كعنبة طافية فوق الماء قد انحسر عنها نحو النصف وانغمر النصف الآخر في الارض وصار المنكشف من الارض نصفين كأنما قسم بخط مسامت لخط معدل النهار يمر تحت دائرته

وجميع البلاد التى على هذا الخط لاعرض لها البتة والقطبان غير مرئيين فيها ويكونان هناك على دائرة الافق من الجانبين وكلما بعد موضع بلد عن هذا الخط الى ناحية الشمال قدر درجة ارتفع القطب الشمالي الذى هو الجدى على أهل ذلك البلد درجة وانخفض القطب الجنوبى الذي هو سهيل درجة وهكذا ما زاد ويكون الامر فيما بعد من البلاد الواقعة في ناحية الجنوب كذلك من ارتفاع القطب الجنوبي وانحطاط القطب الشمالي وبهذا عرف عرض البلدان وصار عرض البلد عبارة عن ميل دائرة معدل النهار عن سمت رؤس أهله وارتفاع القطب عليهم وهو أيضا بعد ما بين سمت رؤس أهل ذلك البلد وسمت رؤس أهل بلد لاعرض له فأما ما انكشف من الارض مما يلي الجنوب من خط الاستواء فانه خراب والنصف الآخر الذي يلي الشمال من خط الاستواء فهو الربع العامر وهو المسكون من الارض وخط الاستواء لا وجود له فى الخارج وانما هو فرض بوهمنا أنه خط ابتداؤه من المشرق الى المغرب تحت مدار رأس الحمل وسمي بذلك من أجل أن النهار والليل هناك ابدا سواء لا يزيد ولا ينقص أحدهما عن الآخر شيأ البتة في سائر أوقات السنة كلها ونقطتا هـذا الخط ملازمتان للافق احداهما على مدار سهيـل فى ناحيـة الجنوب والاخرى مما يلي الجدى فى ناحيـة الشمال * والعمارة من المشرق الى المغرب مائة وثمانون درجة من الجنوب الى الشمال من خط أريس الى بنات نعش ثمان وأربعون درجة وهو مقدار ميل الشمس مرتين وخلف خط أريس وهو مقدار ستة عشر درجة وجملة معمور الارض نحو من سبعين درجة لاعتـدال مسير الشمس في هذا الوسط ومرورها على ما وراء الحمل والميزان مرتين فى السنة وأما الشمال والجنوب فالشمس لا تحاذيهما الا مرة واحدة ولان اوج الشمس مرتين في جهة الشمال كانت العمارة فيه لارتفاعها وانتفاء ضرر قوتها غير ساكنة ولان حضيضها في الجنوب عدمت العمارة هنالك * وقد اختلف الناس فى مسافة الارض فقيل مسافتها خمسمائة عام ثلث عمران وثلث خراب وثلث بحار وقيل المعمور من الارض مائة وعشرون سنة تسعون ليأجوج ومأجوج واثنا عشر للسودان وثمانية للروم وثلاثة للعرب وسبعة لسائر الأمم وقيل الدنيا سبعة أجزاء ستة ليأجوج ومأجوج وواحد لسائر الناس وقيل الارض خمسمائة عام البحار ثلثمائة ومائة خراب ومائة عمران وقيـل الارض أربعة وعشرون ألف فرسخ للسودان اثنا عشر ألف وللروم ثمانية آلاف ولفارس ثلاثة آلاف وللعرب ألف * وعن وهب بن منبـه ما العمارة من الدنيا في الخراب الا كفسطاط فى الصحراء وقال ازدشير بن تابك الارض أربعة أجزاء جزء منهـا للترك وجزء للعرب وجزء للفرس وجزء للسودان وقيل الاقاليـم سبعة والاطراف أربعة والنواحى خمسة وأربعون والمداين عشرة آلاف والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا وقيـل المدن والحصون أحد وعشرون ألفا وستمائة مدينة وحصن فى الاقليم الاول

ثلاثة آلاف ومائة مدينة كبيرة وفي الثاني الفان وسبعمائة وثلاثة عشر مدينة وقرية كبيرة وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون مدينة وقرية وفي الرابع وهو بابل ألفان وتسعمائة وأربع وسبعون مدينة وفي الخامس ثلاثة آلاف مدينة وست مدائن وفي السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن وفي السابع ثلاثة آلاف وثلاثمائة مدينة في الجزائر وقال الخوارزمي قطر الارض سبعة آلاف فرسخ وهو نصف سدس الارض والجبال والمفاوز والبحار والباقي خراب يباب لا نبات فيه ولا حيوان وقيل المعمور من الارض مثل طائر رأسه الصين والجناح الايمن الهند والسند والجناح الايسر الخزر وصدره مكة والعراق والشام ومصر وذنبه المغرب • وقيل قطر الارض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ودورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل وذلك جميع ما أحاطت به من بر وبحر وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخي طول الارض من أقصى المشرق الى أقصى المغرب نحو أربعمائة مرحلة وعرضها من حيث العمران الذي من جهة الشمال وهو مساكن يأجوج ومأجوج الى حيث العمران الذي من جهة الجنوب وهو مساكن السودان مائتان وعشرون مرحلة وما بين براري يأجوج ومأجوج الى البحر المحيط في الشمال وما بين براري السودان والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة ويقال ان مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ وهذه أقوال لا دليل على صدقها • والطريق في معرفة مساحة الارض أنا لو سرنا على خط نصف النهار من الجنوب الى الشمال بقدر ميل دائرة معدّل النهار عن سمت رؤسنا الى الجنوب درجة من درج الفلك التي هي جزء من ثلاثمائة وستين جزأ وارتفع القطب علينا درجة نظير تلك الدرجة فانا نعلم أنا قد قطعنا من محيط جرم الارض جزأ من ثلاثمائة وستين جزأ وهو نظير ذلك الجزء من الفلك فلو قسنا من ابتداء مسيرنا الى انتهاء مكاننا الذي وصلنا اليه حيث ارتفع القطب علينا درجة فانا نجد حقيقة الدرجة الواحدة من الفلك قد قطعت من الارض ستة وخمسين ميلا وثلثي ميل عنها خمسة وعشرون فرسخا فاذا ضربنا حصة الدرجة الواحدة وهو ما ذكر من الاميال في ثلاثمائة وستين خرج من الضرب عشرون ألفا وأربعمائة ميل وذلك مساحة دور الارض فاذا قسمنا هذه الاميال التي هي مساحة دور الارض على ثلاثة وسبع خرج من القسمة ستة آلاف وأربعمائة وأربعون ميلا وهي مساحة قطر الارض فلو ضربنا هذا القطر في مبلغ دور الارض لبلغت مساحة بسط الارض بالتكسير مائة ألف ألف واثنين وثلاثين ألف ألف وستمائة ألف ميل بالتقريب فعلى هذا مساحة ربع الارض المسكون بالتكسير ثلاثة وثلاثون ألف ألف ميل ومائة وخمسون ألف ميل وعرض المسكون من هذا الربع بقدر بعد مدار السرطان عن القطب وهو خمسة وخمسون جزأ و سدس جزء وهذا هو سدس الارض

وانتهاؤه الى جزيرة تولى في برطانية وهي آخر المعمور من الشمال وهو من الاميال ثلاثة آلاف وسبعمائة وأربعة وستون ميلا فاذا ضربنا هذا السدس الذى هو مساحة عرض الارض في النصف وهو مقدار الطول كان المعمور من الشمال قدر نصف سدس الارض وأما الطول فانه يقل لتضايق أقسام كرة الارض ومقداره مثل خمس الدور وهو بالتقريب أربعة آلاف وثمانون ميلا وفي الربع المسكون من الارض سبعة أبحر كبار وفى كل بحر منها عدة جزائر وفيه خمسة عشر بحيرة منها مالح وعذب وفيه مائتا جبل طوال ومائتا نهر وأربعون نهرا طوالا ويشتمل على سبعة أقاليم تحتوى على سبعة عشر ألف مدينة كبيرة * وقال في كتاب هروشيوس لما استقامت طاعة بوليس الملقب قيصر الملك في عامة الدنيا تخير أربعة من الفلاسفة سماهم فأمرهم أن يأخذوا له وصف حدود الدنيا وعدة بحارها وكورها أرباعا فولى أحدهم أخذ وصف جزء المشرق وولى آخر أخذ وصف جزء المغرب وولى الثالث أخذ وصف جزء الشمال وولى الرابع أخذ وصف جزء الجنوب فتمت كتابة الجميع على أيديهم فى نحو من ثلاثين سنة فكانت جملة البحار المسماة في الدنيا تسعة وعشرين بحرا قد سموها منها بجزء الشرق ثمانية وبجزء الغرب ثمانية وبجزء الشمال أحد عشر وبجزء الجنوب اثنان وعدة الجزائر المعروفة الامهات أحدى وسبعون جزيرة منها في الشرق ثمان وفي الغرب ست عشرة وفي جهة الشمال احدى وثلاثون وفى جهة الجنوب ست عشرة وعدة الجبال الكبار المعروفة في جميع الدنيا ستة وثلاثون وهى أمهات الجبال وقد سموها فما فسروه منها في جهة الشرق سبعة وفي جهة الغرب خمسة عشر وفي الشمال اثنا عشر وفي الجنوب اثنان والبلدان الكبار ثلاثة وستون منها في المشرق سبعة وفي المغرب خمسة وعشرون وفى الشمال تسعة عشر وفى الجنوب اثنا عشر وقد سموها والكور الكبار المعروفة تسع ومائتان منها في المشرق خمس وسبعون وفي المغرب ست وستون وفي الشمال ست وفي الجنوب اثنان وستون والانهار الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة وخمسون منها لجزء الشرق سبعة عشر ولجزء الغرب ثلاثة عشر ولجزء الشمال تسعة عشر ولجزء الجنوب سبعة والاقاليم السبعة كل أقليم منها كانه بساط مفروش قد مد طوله من الشرق الى الغرب وعرضه من الشمال الى الجنوب وهذه الاقاليم مختلفة الطول والعرض فالاقليم الاول منها يمر وسطه بالمواضع التي طول نهارها الاطول ثلاثة عشر ساعة والسابع منها يمر وسطه بالمواضع التي طول نهارها الاطول ست عشر ساعة لان ما حاذى حد الاقليم الاول الى نحو الجنوب يشتمل عليه البحر ولا عمارة فيه وما حاذى الاقليم السابع الى الشمال لا يعلم فيه عمارة فجعل طول الاقاليم السبعة من الشرق الى الغرب مسافه أثني عشرة ساعة من دور الفلك وصارت عروضها تتفاضل نصف ساعه من ساعات النهار الاطول فأطولها وأعرضها الاقليم الاول وطوله من المشرق الى

المغرب نحو ثلاثة آلاف فرسخ وعرضه من الشمال الى الجنوب مائة وخمسون فرسخاً وأقصرها طولا وعرضا الاقليم السابع وطوله من الشرق الى الغرب ألف وخمسمائة فرسخ وعرضــه من الشمال الى الجنوب نحو من سبعين فرسخا وبقية الاقاليم الخمسة فيما بين ذلك وهذه الاقاليم خطوط متوهمة لا وجود لها في الخارج وضعها القدماء الذين جالوا في الارض ليقفوا على حقيقة حدودها ويتيقنوا مواضع البلدان منها ويعرفوا طرق مسالكها هــذا حال الربع المسكون وأما الثلاثة الارباع الباقية فانها خراب فجهة الشمال واقعة تحت مدار الجــدى قد أفرط هناك البرد وصارت ستة أشهر ليلا مستمرا وهى مدة الشتاء عندهم لايعرف فيها نهار ويظلم الهواء ظلمة شــديدة وتجمد المياه لقوة البرد فلا يكون هناك نبات ولا حيوان ويقابل هذه الجهة الشمالية ناحية الجنوب حيث مدار سهيل فيكون النهار ستة أشهر بغير ليل وهى مدة الصيف عنــدهم فيحمى الهواء ويصير سموما محرقا يهلك بشــدة حره الحيوان والنبات فلا يمكن سلوكه ولا السكنى فيه وأما ناحية الغرب فيمنع البحر المحيط من السلوك فيــه لتلاطم أمواجه وشدة ظلماته وناحية الشرق تمنع من سلوك الجبال الشامخة وصار الناس أجمعهم قد انحصروا في الربع المسكون من الارض ولا علم لاحد منهم بالارض أى بالثــلاثة الارباع الباقية والارض كلها بجميع ماعليها من الجبال والبحار نسبتها الى الفلك كنقطة في دائرة وقد اعتبرت حدود الاقاليم السبعة بساعات النهار وذلك أن الشمس اذا حلت برأس الحمل تساوى طول النهار والليــل فى سائر الاقاليم كلها فاذا انتقلت فى درجات برج الحمل والثور والجوزاء اختلفت ساعات نهار كل أقليم فاذا بلغت آخر الجوزاء وأول برج السرطان بلغ طول النهار في وسط الاقليم الاول ثلاث عشرة ساعة سواء وصارت في وسط الاقليم الثاني ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة وفي وسط الاقليم الثــالث اربع عشرة ساعة وفى وسط الاقليم الرابع اربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي وسط الاقليم الخامس خمس عشرة ساعة وفي وسط الاقليم السادس خمس عشرة ساعة ونصف ساعة وفى وسط الاقليم السابع ست عشرة ساعة سواء وما زاد على ذلك الى عرض تسعين درجة يصير نهارا كله * ومعنى طول البلد هو بعدها من أقصى العمارة في الغرب وعرضها هو بعدها عن خط الاستواء وخط الاستواء كما تقدم هو الموضع الذى يكون فيه الليل والنهار طول الزمان سواء فكل بلد على هــذا الخط لاعرض له وكل بلد في أقصى الغرب لا طول له ومن أقصى الغرب الى أقصى الشرق مائة وثمانون درجة وكل بلد يكون طوله تسعين درجة فانه في وسط ما بين الشرق والغرب وكل بلد كان طوله أقل من تسعين درجة فانه أقرب الى الغرب وأبعد من الشرق وما كان طوله من البلاد أكثر من تسعين درجة فانه أبعد عن الغرب وأقرب الى الشرق * وقد ذكر القدماء أن العالم السفلي مقسوم سبعة أقسام كل قسم يقال له أقليم فاقليم

الهند لزحل وأقليم بابل للمشترى وأقليم الترك للمريخ وأقليم الروم للشمس وأقليم مصر لعطارد وأقليم الصين للقمر • وقال قوم الحمل والمشترى لبابل والجدى وعطارد للهند والاسد والمريخ للترك والميزان والشمس للروم ثم صارت السنة على اثنى عشر برجا فالحمل ومثلاه للمشرق والثور ومثلاه للجنوب والجوزاء ومثلاها للمغرب والسرطان ومثلاه للشمال قالوا وفي كل أقليم مدينتان عظيمتان يحسب بين كل كوكب الا أقليم الشمس وأقليم القمر فانه ليس في كل أقليم منهما سوى مدينة واحدة عظيمة وجميع مدائن الاقاليم السبعة وحصونها أحد وعشرون ألف مدينة وستمائة مدينة وحصن بقدر دقائق درج الفلك وقال هرمس اذا جعلت هذه الدقائق روابع كانت أناس هذه الاقاليم واذا مات أحد ولد نظيره ويقال ان عدد مدن الاقليم الاول من مطالع الشمس وقراها ثلاثة آلاف ومائة مدينة وقرية كبيرة وأن في الثاني ألفان وسبعمائة وثلاث عشرة مدينة وقرية كبيرة وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون وفى الرابع وهو بابل ألفان وتسعمائة وأربع وسبعون وفي الخامس ثلاثة آلاف وست مدن وفى السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن وفى السابع ثلاثة آلاف وثلاثمائة مدينة وقرية كبيرة فى الجزائر • فالاقليم الاول يمر وسطه بالمواضع التي طول نهارها الاطول ثلاث عشرة ساعة ويرتفع القطب الشمالي فيها عن الافق ست عشرة درجة وثلثا درجة وهو العرض وانتهاء عرض هذا الاقليم من حيث يكون طول النهار الاطول فيه ثلاث عشرة ساعة وربع ساعة وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض عشرون درجة ونصف درجة وهو مسافة أربعمائة وأربعين ميلا وابتداؤه من أقصى بلاد الصين فيمر فيها الى ما يلي الجنوب ويمر بسواحل الهند ثم ببلاد السند ويمر فى البحر على جزيرة العرب وأرض اليمن ويقطع بحر القلزم فيمر ببلاد الحبشة ويقطع نيل مصر الى بلاد الحبشة ومدينة دنقلة من أرض النوبة ويمر في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر الى نحو البحر المحيط وفي هذا الاقليم عشرون جبلا فيها ما طوله من عشرين فرسخا الى ألف فرسخ وفيه ثلاثون نهرا طوالا منها ما طوله ألف فرسخ الى عشرين فرسخا وفيه خمسون مدينة كبيرة وعامة أهل هذا الاقليم سود الالوان ولهذا الاقليم من البروج الحمل والقوس وله من الكواكب السيارة المشترى وهو مع فرط حرارته كثير المياه كثير المروج وزرع أهله الذرة والارز الا أن الاعتدال عندهم معدوم فلا يثمر عندهم كرم ولا حنطة والبقر عندهم كثير لكثرة المروج وفي مشرقه البحر الخارج وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة وفى مغربه النيل وبحر الغرب ومن هذا الاقليم يأتى نيل مصر وشرقهم معمور بالبحر الشرقى الذى هو بحر الهند واليمن • والاقليم الثانى حيث يكون طول النهار الاطول ثلاث عشرة ساعة ونصف ويرتفع القطب الشمالى فيه قدر أربعة وعشرين جزأ وعشر جزء وعرضه من حد الاقليم الاول الى حيث يكون النهار الاطول

ثلاث عشرة ساعة ونصف وربع ساعة وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض سبعة وعشرون درجة ونصف درجة ومساحة هذا الاقليم أربعمائة ميل ويبتدئ من بلاد الشرق مارا ببلاد الصين الى بلاد الهند والسند ثم بملتقى البحر الاخضر وبحر البصرة ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة فيدخل في هذا الاقليم اليمامة والبحران وهجر ومكة والمدينة والطائف وأرض الحجاز ويقطع بحر القلزم فيمر بصعيد مصر الاعلى ويقطع النيل فيصير فيه مدينة قوص واخميم واسنى وانصنا واسوان ويمر فى أرض المغرب على وسط بلاد افريقية فيمر على بلاد البربر الى البحر فى المغرب وفي هذا الاقليم سبعة عشر جبلا وسبعة عشر نهرا طوالا وأربعمائة وخمسون مدينة كبيرة وألوان أهل هـذا الاقليم مابين السمرة والسواد وله من البروج الجدي ومن السيارة زحل ويسكن هـذا الاقليم الرحالة فى المغرب منهم حداله وصنهاجة ولمتونه ومسوفه ويتصل بهم رحالة مصر من الواح وفى هذا الاقليم يكون يحل وفيه مكة والمدينة ومن السماوة من أهل العراق الى رحاله الترك * والاقليم الثالث وسطه حيث يكون طول النهار الاطول اربع عشرة ساعة وارتفاع القطب وهو العرض ثلاثون درجة ونصف وخمس درجة وعرض هذا الاقليم من حـد الاقليم الثانى الى حيث يكون النهار الاطول أربع عشرة ساعة وربع ساعة وارتفاع القطب وهو العرض ثلاث وثلاثون درجة ومسافته ثلاثمائة وخمسون ميلا ويبتدئ من الشرق فيمر بشمال الصين وبلاد الهند وفيه مدينة الهندهار ثم بشمال السند وبلاد كابل وكرمان وسجستان الى سواحل بحر البصرة وفيه اصطخر وسابور وشيراز وسيراف ويمر بالاهواز والعراق والبصرة وواسط وبغداد والكوفة والانبـار وهيت ويمر ببلاد الشام الى سامية وصور وعكا ودمشق وطبرية وقيسارية وبيت المقدس وعسقلان وغزة ومدين والقلزم ويقطع أسفل أرض مصر من شمال انصنا الى فسطاط مصر وسواحل البحر وفيه الفيوم والاسكندرية والعرما وتنيس ودمياط ويمر ببلاد برقة الى افريقة فيدخل فيه القيروان وينتهى فى البحر الى الغرب وبهذا الاقليم ثلاث وثلاثون جبلا كبارا واثنان وعشرون نهرا طوالا ومائة وثمانية وعشرون مدينة وأهله سمر الالوان وله من البروج العقرب ومن السيارة الزهرة وفى هذا الاقليم العمائر المتواصلة من أوله الى آخره اهـ * والاقليم الرابع وسطه حيث يكون النهار الاطول أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وارتفـاع القطب الشمالى وهو العرض ست وثلاثون درجة وخمس درجة وحدّ هذا الاقليم من حد الاقليم الثالث الى حيث يكون النهـار الاطول أربع عشرة ساعة ونصف وربع ساعـة والعرض تسعا وعشرين درجة وثلث درجة ومسافة هـذا الاقليم ثلاثمائة ميل ويبتدئ من الشرق فيمر ببلاد البيت وخراسان وحجنده وفرغانه وسمرقند وبخاري وهراه ومرو والرود وسرخس وطوس ونيسابور وجرجان وقومس وطبرستان

وقزوين والديلم والرى وأصفهان وهمذان ونها وند ودينور والموصل ونصيبين وآمد وراس العين وشميساط والرقة ويمر ببلاد الشام فيدخل فيه بالس ومسح وملطية وحلب وانطاكية وطرابلس والصيصة وحماه وصيدا وطرسوس وعمورية واللاذقية ويقطع بحر الشام على جزيرة قبرس ورودس ويمر ببلاد طنجه فينتهي الى بحر المغرب وفي هذا الاقليم خمسة وعشرون جبلا كبارا وخمسة وعشرون نهرا طوالا ومائتا مدينة واثنتا عشرة مدينة وألوان أهله ما بين السمرة والبياض وله من البروج الجوزاء ومن السيارة عطارد وفيه البحر الرومي من مغربه الى القسطنطينية ومن هـذا الاقليم ظهرت الانبياء والرسـل صلوات الله عليهـم أجمعين ومنه انتشر الحكماء والعلماء فانه وسط الاقاليم ثلاثة جنوبية وثلاثة شمالية وهو فى قسم الشمس ويعده في الفضيلة الاقليم الثالث والخامس فانهما على جنبيه وبقية الاقاليم منحطة أهلوها ناقصون ومنحطون عن الفضيلة لسماجة صورهم وتوحش أخلاقهم كالزنج والحبشة وأكثر أمم الاقليم الاول والثانى والسادس والسابع يأجوج ومأجوج والتغرغر والصقالبة ونحوهم * والاقليم الخامس وسطه حيث يكون النهار الاطول خمس عشر ساعة وارتفاع القطب الشمالى وهو العرض احدى وأربعون درجة وثلث درجة وابتداؤه من نهاية عرض الاقليم الرابع الى حيث يكون النهار الاطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة والعرض ثلاثا وأربعين درجة ومسافته خمسون ومائتا ميل ويبتـدئ من المشرق الى بلاد يأجوج ومأجوج ويمر بشمال خراسان وفيه خوارزم واسبيجاب واذربيجان وبردعه وسجستان وأردن وخلاط ويمر على بلاد الروم الى رومية الكبرى والاندلس حتى ينتهى الى البحر الذى فى المغرب وفى هـذا الاقليم من الجبال الطوال ثلاثون جبلا ومن الانهار الكبار خمسة عشر نهرا ومن المدائن الكبار مائتا مدينة وأكثر أهـله بيض الالوان وله من البروج الدلو ومن السيارة القمر * والاقليم السادس وسطه حيث يكون النهار الاطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض خمسا وأربعين درجة وخمسى درجة وابتداؤه من حد نهاية عرض الاقليم الخامس الى حيث يكون النهار الاطول خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة والعرض سبعا وأربعين درجة وربع درجة ومسافة هذا الاقليم مائتا ميل وعشرة أميال ويبتدئ من المشرق فيمر بمساكن الترك من أبحر خير والتغرغر الى بلاد الخزر من شمال نجومهم على اللان والشرير وأرض برجان والقسطنطينية وشمال الاندلس الى البحر المحيط الغربي وفي هذا الاقليم من الجبال الطوال اثنان وعشرون جبلا ومن الانهار الطوال اثنان وثلاثون نهرا ومن المدن الكبار تسعون مدينة وأكثر أهل هذا الاقليم ألوانهم ما بين الشقرة والبياض وله من البروج السرطان ومن السيارة المريخ * والاقليم السابع وسطه حيث يكون النهار الاطول ست عشرة ساعة سواء وارتفاع القطب الشمالي وهو العرض ثمانيا وأربعين درجة

وثاني درجة وابتداء هذا الاقليم من حد نهاية الاقليم السادس الى حيث يكون النهار الاطول ست عشرة ساعة وربع ساعة والعرض خمسين درجة ونصف درجة ومسافته مائة وخمسة وثمانون ميلا فتبين أن ما بين أول حد الاقليم الاول وآخر حد الاقليم السابع ثلاث ساعات ونصف وأن ارتفاع القطب الشمالي ثمانية وثلاثون درجة تكون من الاميال ألفين ومائة وأربعين ميلا ويبتدئ الاقليم السابع من المشرق على بلاد يأجوج ومأجوج ويمر ببلاد الترك على سواحل بحر جرجان مما يلى الشمال ويقطع بحر الروم على بلاد جرجان والصقالبة الى أن ينتهى الى البحر المحيط فى المغرب وبهذا الاقليم عشرة جبال طوال وأربعون نهرا طوالا واثنتان وعشرون مدينة كبيرة وأهله شقر الالوان وله من البروج الميزان ومن السيارة الشمس وفى كل أقليم من هذه الاقاليم السبعة أمم مختلفة الألسن والالوان وغير ذلك من الطبائع والاخلاق والآراء والديانات والمذاهب والعقائد والاعمال والصنائع والعادات والعبادات لا يشبه بعضهم بعضا وكذلك الحيوانات والمعادن والنبات مختلفة في الشكل والطعم واللون والريح بحسب اختلاف أهوية البلدان وتربة البقاع وعذوبة المياه وملوحتها على ما اقتضته طوالع كل بلد من البروج على أفقه ومر الكواكب على مسامتة البقاع من الارض ومطارح شعاعاتها على المواضع كما هو مقرر فى مواضعه من كتب الحكمة ليتدبر أولو النهى ويعتبر ذوو الحجى بتدبير الله في خلقه وتقديره لما يشاء وفعله لما يريد لا اله الا هو ومع ذلك فان الربع المسكون من الارض على تفاوت أقطاره مقسوم بين سبع أمم كبار وهم الصين والهند والسودان والبربر والروم والترك والفرس فجنوب مشرق الارض فى يد الصين وشماله فى يد الترك ووسط جنوب الارض في يد الهند وفى وسط شمال الارض الروم وفي جنوب مغرب الارض السودان وفي شمال مغرب الارض البربر وكانت الفرس في وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأمم الست

﴿ ذكر محل مصر من الارض وموضعها من الاقسام السبعة ﴾

واذ يسر الله سبحانه بذكر جمل أحوال الارض ومعرفة ما في كل أقليم من أقاليم الارض فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول ديار مصر بعضها واقع في الاقليم الثانى وبعضها واقع في الاقليم الثالث فما كان منها في الصعيد الاعلى كقوص واخميم واسنى وأنصنا وأسوان فان ذلك واقع في أقسام الاقليم الثانى وما كان من ديار مصر في جهة الشمال من انصنا وهو الصعيد الادنى من سيوط الى فسطاط مصر والفيوم والقاهرة والاسكندرية والفرما وتنيس ودمياط فان ذلك من أقسام الاقليم الثالث وطول مدينة مصر الفسطاط والقاهرة وهو بعدها من أول العمارة في جهة المغرب خمس وخمسون درجة والعرض وهو البعد من خط الاستواء ثلاثون درجة وطول النهار الاطول أربع عشرة ساعة وغاية

ارتفاع الشمس فى الفلك بها ثلاث وثمانون درجة وثلث وربع درجة وفسطاط مصر مع القاهرة من مكة شرفها الله تعالى واقعان فى الربع الجنوبى الشرقي والصعيد الاعلى أشد تشريقا لبعده عن مدينة الفسطاط بأيام عديدة فى جهة الجنوب فيكون على ذلك مقابلا لمكة من غربيها ومصر لا يتوصل اليها الا من مفازة ففى شرقيها بحر القلزم من وراء الجبل الشرقي وفى غربيها صحراء المغرب وفى جنوبها مفازة النوبة والحبشة وفي شمالها البحر الشامي والرمال التي فيما بين بحر الروم وبحر القلزم وبين مصر وبغداد على ما ذكره ابن خرداذبه في كتاب الممالك والمسالك ألف وسبعمائة وعشرة أميال يكون خمسمائة وسبعين فرسخا ومائة وبضعا وأربعين بريدا وبين مصر والشام أعنى دمشق ثلاثمائة وخمسة وستون ميلا تكون من الفراسخ مائة واحدى وعشرين فرسخا وثلثي فرسخ عنها ثلاثون بريدا وكسر وقال ابن خرداذبه أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين وأرض مصر جزء واحد من ستين جزأ من أرض السودان وأرض السودان جزء واحد من الارض كلها وفي كتاب هردوشيش بلد مصر الادنى شرقه فلسطين وغربه أرض لبيبه وأرض مصر الاعلى تمتد الى ناحية الشرق وحده فى الشمال خليج الغرب وفي الجنوب البحر المحيط وفى الغرب مصر الادنى وفى الشرق بحر القلزم وفيه من الاجناس ثمانية وعشرون جنسا

ذكر حدود مصر وجهاتها

اعلم أن التحديد هو صفة المحدود على ماهو عليه والحد هو نهاية الشيء والحدود تكثر وتقل بحسب المحدود والجهات التى تحد بها المساكن والبقاع أربع جهات وهى جهة الشمال التى هي اشارة الى موضع قطب الفلك الشمالي المعروف من كواكبه الجدى والفرقدان ويقابل جهة الشمال الجهة الجنوبية والجنوب عبارة عن موضع قطب الفلك الجنوبى الذى يقرب منه سهيل وما يتبعه من كواكب السفينة والجهة الثالثة جهة المشرق وهو مشرق الشمس فى الاعتدالين اللذين هما رأس الحمل أول فصل الربيع ورأس الميزان أول فصل الخريف والجهة الرابعة جهة المغرب وهو مغرب الشمس فى الاعتدالين المذكورين فهذه الجهات الاربع ثابتة بثبوت الفلك غير متغيرة بتغير الاوقات وبها تحد الاراضي ونحوها من المساكن وبها يهتدي الناس فى أسفارهم وبها يستخرجون سمت محاريبهم فالمشرق والمغرب معروفان والشمال والجنوب جهتان مقاطعتان لجهتي المشرق والمغرب على تربيع الفلك فالخط المار بنقطتي الشمال والجنوب يسمى خط نصف النهار وهو مقاطع للخط المار بنقطتي المشرق والمغرب المسمي بخط الاستواء على زوايا قائمة وأبعاد مابين هذين الخطين متساوية فالمستقبل للجنوب يكون أبدا مستدبرا للشمال ويصير المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره وهذه الجهات الاربع هى التي ينسب اليها مايحد من البلاد والاراضى والدور الا أن أهل

مصر يستعملون في تحـديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية فيقولون الحد القبـلى ينتهي الى كذا ولا يقولون الحد الجنوبي وكذلك يقولون الحد البحرى ينتهي الى كذا ويريدون بالبحرى الحد الشمالى وقد يقع في هاتين الجهتين الغلط فى بعض البلاد وذلك أن البلاد التي توافق عروضها عرض مكة اذا كانت أطوالها أقل من طول مكة فان القبلة تكون فى هذه البلاد نفس الشرق بخلاف التي توافق عروضها عرض مكة الا أن أطوالها أطول من طول مكة فان القبلة في هذه البلاد تكون نفس الغرب فمن حدّد في شئ من هذه البلاد أرضاً أو مسكناً بحدود أربعة فانه يصير حدان منها حدّا واحدا وكذلك جهة البحر لما جعلوها قبالة جهة القبلة وحددوا ما بينهما من الاراضى والدور بما يسامتها منه فانهم أيضا ربما غلطوا وذلك أن القبلة والبحر يكونان في بعض البلاد في جهة واحدة فاذا عرفت ذلك فاعلم أن أرض مصر لها حدّ يأخذ من بحر الروم من الاسكندرية وزعم قوم من برقة في البر حتي ينتهى الى ظهر الواحات ويمتد الى بلد النوبة ثم يعطف على حدود النوبه في حد أسوان على حد أرض السبخة فى قبلى أسوان حتي ينتهي الى بحر القلزم ثم يمتد على بحر القلزم ويجاوز القلزم الى طورسينا ويعطف على تيه بني اسرائيل مارا الى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح ويرجع الى الساحل مارا على بحر الروم الى الاسكندرية ويتصل بالحد الذى قدّمت ذكره من نواحي برقة وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز في رسالته المصرية أرض مصر باسرها واقعة في المعمورة في قسمي الاقليم الثانى والاقليم الثالث ومعظمها فى الثالث وحكي المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التي فى جنوب البحر الرومي الى ايلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ومسافة ذلك قريب من أربعين يوما وحدّها في العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الاعلى المتاخم لارض النوبة الى رشيد وما حاذاها من مساقط النيل في البحر الرومي ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما ويكتنفها فى العرض الى منتهاها جبلان أحدهما في الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم والآخر في الضفة الغربية منه والنيل متسرب فيما بينهما وهما جبلان أجردان غير شامخين يتقاربان جدا فى وضعهما من لدن اسوان الى أن ينتهيا الى الفسطاط ثم يتسع ما بينهما وينفرج قليلا ويأخذ المقطم منهما مشرّقا والآخر مغرّبا على وراب فى مأخذيهما وتفريج في مسلكيهما فتتسع أرض مصر من الفسطاط الى ساحل البحر الرومي الذى عليه الفرماء وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية فهناك تنقطع فى عرضها الذى هو مسافة ما بين أوغلها في الجنوب وأوغلها في الشمال واذا نظرنا بالطريق البرهانية في مقدار هذه المسافة من الاميال لم تبلغ ثلاثين ميلا بل تنقص عنها نقصانا ماله قدر وذلك لان فضل ما بين عرض مدينة أسوان التي هى أوغلها فى الجنوب وعرض مدينة تنيس التي

هي أوغلها في الشمال تسعة أجزاء ونحو سدس جزء وليس بين طوليها فضل له قدر يعتد به وينوب ذلك نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالتقريب وذلك مسافة عشرين يوما أو قريب منها وفي هذه المدة من الزمان تقطع السفار ما بين البلدين بالسير المعتدل أو أكثر من ذلك لما في الطريق من التعويج وعدم الاستقامة وقال القضاعي الذي يقع عليه اسم مصر من العريش الى آخر لوبية ومراقية وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس وهي برقة ومن العريش فصاعدا يكون ذلك مسيرة أربعين ليلة وهو ساحل كله على البحر الرومي وهو بحريّ أرض مصر وهو مهب الشمال منها الى القبلة شيأ ما فاذا بلغت آخر أرض مراقية عدت ذات الشمال واستقبلت الجنوب وتسير في الرمل وأنت متوجه الى القبلة يكون الرمل من مصبه عن يمينك الى أفريقة وعن يسارك من أرض مصر الى أرض الفيوم منها وأرض الواحات الأربعة فذلك غربي مصر وهو ما استقبلته منه ثم تعوج من آخر أرض الواحات وتستقبل المشرق سائرا الى النيل تسير ثماني مراحل الى النيل ثم على النيل فصاعدا وهي آخر أرض الاسلام هناك ويليها بلاد النوبة ثم ينقطع النيل فتأخذ من أسوان في المشرق منكبا عن بلد أسوان الى عيذاب ساحل البحر الحجازي فمن أسوان الى عيذاب خمس عشرة مرحلة وذلك كله قبلي أرض مصر ومهب الجنوب منها ثم ينقطع البحر الملح من عيذاب الى أرض الحجاز فينزل الحوراء أول أرض مصر وهي متصلة باعراض مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا البحر المحدود هو بحر القلزم وهو داخل في أرض مصر بشرقيه وغربيه وبحريه فالشرقي منه أرض الحوراء وطنسه والنبك وأرض مدين وأرض ايلة فصاعدا الى المقطم بمصر والغربي منه ساحل عيذاب الى بحر النعام الى المقطم والبحري منه مدينة القلزم وجبل الطور ومن القلزم الى الفرماء مسيرة يوم وليلة وهو الحاجز فيما بين البحرين بحر الحجاز وبحر الروم وهذا كله شرقي أرض مصر من الحوراء الى العريش وهو مهب الصبا منها فهذا المحدود من أرض مصر وما كان بعد هذا من الحد الغربي فمن فتوح أهل مصر وثغورهم من البرقة الى الاندلس

﴿ ذكر بحر القلزم ﴾

القلازم الدواهي والمضايقة ومنه بحر القلزم لانه مضيق بين جبال ولما كانت أرض مصر منحصرة بين بحرين هما بحر القلزم من شرقيها وبحر الروم من شماليها وكان بحر القلزم داخلا في ارض مصر كما تقدم صار من شرط هذا الكتاب التعريف به فنقول هذا البحر انما عرف في ناحية ديار مصر بالقلزم لانه كان بساحله الغربيّ في شرقيّ أرض مصر مدينة تسمى القلزم وقد خربت كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى في موضعه من هذا الكتاب عند ذكري قرى مصر ومدنها فسمى هذا البحر باسم تلك المدينة وقيل له بحر القلزم على

الاضافة ويقال له بالعبرانية ثم تسوب وهذا البحر انما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالارض الذي يقال له بحر اقيانس ويعرف أيضا بحر الظلمات لتكاثف البخار المتصاعد منه وضعف الشمس عن حله فيغلظ وتشتد الظلمة ويعظم موج هذا البحر وتكثر اهواله ولم يوقف من خبره الا على ما عرف من بعض سواحله وما قرب من جزائره وفي جانب هذا البحر الغربي الذي يخرج منه البحر الرومي الآتي ذكره ان شاء الله الجزائر الخالدات وهي فيما يقال ست جزائر يسكنها قوم متوحشون وفي جانب هذا البحر الشرقي مما يلي الصين ست جزائر أيضاً تعرف بجزائر السبلى نزلها بعض العلويين فى أول الاسلام خوفا على أنفسهم من القتل ويخرج من هذا المحيط ستة أبحر أعظمها اثنان وهما اللذان عناهما الله تعالى بقوله مرج البحرين يلتقيان وقوله وجعل بين البحرين حاجزا فأحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصيني والبحر الهندي والبحر الفارسي والبحر اليمني والبحر الحبشي بحسب ما يمر عليه من البلدان وأما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومي فأما البحر الهندى الخارج من جهة الشرق فان مبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة ويجرى الى ناحية الغرب فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند الى مدينة كنبانه والى التعير من بلاد كمران فاذا صار الى بلاد كمران ينقسم هناك قسمين أحدهما يسمى بحر فارس والآخر يسمى بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن جبل خارج في البحر يسمى هذا الركن رأس الجمجمة فيمتد من هناك الى مدينة طفار ويسير الى الشحر وساحل بلاد حضرموت الى عدن والى باب المندب وطول هذا البحر الهندي ثمانية آلاف ميل في عرض ألف وسبعمائة ميل عند بعض المواضع وربما ضاق عن هذا القدر من العرض فاذا انتهى الى باب المندب يخرج الى بحر القلزم والمندب جبل طوله اثنا عشر ميلا وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البر تجاهه فاذا فارق باب المندب مر فى جهة الشمال بساحلي زبيد والحرون الى عثر وكانت عثر مقر الملك فى القديم ويمر من هناك على حلي الى عسفان انمار وهى فرضة المدينة النبوية على ا لحال بها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام ومنها على ما يقابل الجحفة حيث يسمي اليوم رابغ الي الحوراء ومدين وايلة والطور وفاران ومدينة القلزم فاذا وصل الي القلزم انعطف من جهة الجنوب ومن الي القصير وهى فرضة قوص ومن القصير الى عيذاب وهي فرضة التجبة ويمتد من عيذاب الى بلد الزيلع وهو ساحل بلاد الحبشة ويتصل ببربر وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل وعرضه من أربعمائة ميل الي مادونها وهو بحر كريه المنظر والرائحة وفي هذا البحر مصب دجلة والفرات وعلى أطرافه بلاد السند وبلاد اليمن كانها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث وهو نهر يردع مهران كردع البحر

الرومي انيل مصر وفيه فما بين مدينة القلزم ومدينة أيلة مكان يعرف بمدينة فاران وعندها جبل لا يكاد يجو منه مركب لشدة اختلاف الريح وقوة مرها من بين شعبتي جبلين وهي بركة سعتها ستة أميال تعرف ببركة الغرندل يقال ان فرعون غرق فيها فاذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة ويقال أن الغرندل اسم صنم كان في القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضبا للملك أوفارا منه وأن موسى عليه السلام لما خرج ببني اسرائيل من مصر وسار بهم مشرقا أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون ظن أن الصنم قد حبس موسي ومن معه ومنعهم من المسير كما يعهدونه منه فخرج بجنوده في طلب موسى وقومه ليأخذهم بزعمه فكان من غرقه ماقصه الله تعالى وسيرد خبر موسى عليه السلام عند ذكر كنيسة دموه من هذا الكتاب في ذكر كنائس اليهود وفي بحر القلزم هذا خمس عشرة جزيرة منها أربع عامرات وهي جزيرة دهلك وجزيرة سواكن وجزيرة النعمان وجزيرة السامري ويخرج من هذا البحر خلجان خليج لطيف ببلاد الهند المتصلة بالبحر الاعظم وخليج يجول بين بلاد السودان وبلاد اليمن عرض دقاقه نحو من فرسخين ويقرب هذا البحر من البحر الرومى في أعمال بلاد الشام وديار مصر حتي يكون بينهما نحو يوم

﴿ ذكر البحر الرومي ﴾

ولما كانت عدة بلاد من أرض مصر مطلة على البحر الرومى كمدينة الاسكندرية ودمياط وتنيس والفرماء والعريش وغير ذلك وكان حد أرض مصر ينتهي في الجهة الشمالية الى هذا البحر وهو نهاية مصب النيل حسن التعريف بشيء من أخباره وقد تقدم أن مخرج البحر الرومى هذا من جهة الغرب وهو يخرج في الاقليم الرابع بين الاندلس والغرب سائرا الى القسطنطينية ويقال أن اسكندر الجبار حفره وأجراه من البحر المحيط الغربى وأن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضاً واحدة يسكنها البربر والاشبان فكان بعضهم يغير على بعض الي أن ملك اسكندر الجبار ابن سلقوس بن اعريقس بن دوبان فرغب اليه الاشبان فى أن يجعل بينهم وبين البربر خليجا من البحر يمكن به احتراز كل طائفه عن الاخرى لحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا في عرض اثني عشر ميلا وبنى بجانبيه سكرين وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها وجعل عندها حرسا يمنعون البربر من الجواز عليها الا باذن وكان قاموس البحر أعلى من أرض هذا الزقاق فطما الماء حتى غطى السكرين مع القنطرة وساق بين يديه بلادا كثيرة وطغى على عدة بلاد ويقال أن المسافرين فى هذا الزقاق بالبحر يخبرون أن المراكب في بعض الاوقات يتوقف سيرها مع وجود الريح فيجدون المانع لها كونها قد سلكت بين شرافات السور وبين حائطين ثم عظم هذا الزقاق في الطول والعرض

حتى صار بحرا عرضه ثمانية عشر ميلا .ويذكرون أن البحر اذا جزر ترى القنطرة حينئذ وهذا الخبر أظنه غير صحيح فان أخبار هذا البحر وكونه بسواحل مصر لم يزل ذكره في الدهر الاول قبل اسكندر بزمان طويل فاما أن يكون ذلك قد كان فى أول الدهر مما عمله بعض الاوائل واما أن يكون خبرا واهيا والا فزمان اسكندر حادث بعد كون هذا البحر والله أعلم * وهذا الزقاق صعب السلوك شديد الهول متلاطم الامواج واذا خرج البحر من هذا الزقاق مر مشرقا في بلاد البربر وشمال الغرب الاقصى الى وسط بلاد المغرب على افريقة وبرقة والاسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين والسواحل من بلاد الشام ثم يعطف من هناك الى العلايا وانطاكية الى ظهر بلاد القسطنطينية حتى ينتهى الى البحر المحيط الذى خرج منه وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل وقيل ستة آلاف ميل وعرضه من سبعمائة ميل الى ثلاثمائة ميل وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة فيها أمم كثيرة معروفة الا أنه ليس من شرط هذا الكتاب منها صقلية وصورقه واقريطش وقبالة البحر الهندى من جهة المغرب بحر خارج من المحيط في مغرب بلاد الزنج ينتهى الى قريب من جبل القمر وفيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة وفى أسفله جزائر الخالدات التي هي منتهى الطول في المغرب ويقابل البحر الشامى من ناحية المشرق بحر جرجان .وقيل انه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة وبحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الاقليم السادس والاقليم السابع وهو متسع وفيه جزائر كثيرة ومنها جزيرة الاندلس الا أنها تتصل بالبر الكبير وهو جبل كالذراع يتصل بهذا البر عند بر سلونه ولهم بحر يعرف بيأجوج ومأجوج غزير وفيه عجائب الا انه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها ويقال ان مسافة هذا البر الرومى نحو أربعة أشهر وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن وقد كان حرض بعض ملوك الفرس في بعض استيلائهم على مصر على أن يحفروا ما بين البحرين القلزم والرومى ويرفعوا من بينهما البرزخ وكان أولهم شاسيس بن طراطس الملك ثم من بعده دارنوش الملك فلم يتمكن لهم ذلك لارتفاع ماء القلزم على أرض مصر فلما كانت دولة اليونانيين جاء بطليموس الثالث ففعل ذلك على يد أرسمدس بحيث يحصل الغرض بلا ضرر فلما كانت دولة الروم القياصرة طموه منعا لمن يصل اليهم من أعدائهم وذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الاسكندرية وبلادها وبين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز وكانت مسكونة وخمة وكان أهلها من اليونانية وأن الاسكندر خرق اليها البحر فغلب على تلك الارض وكان بها فيما يزعمون الطائر الذى يقال له ققنس وهو طائر حسن الصوت واذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لانه يغلب

على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع وأنه يدركه قبل موته طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح وزعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت قفنس في تلك الحال نخشى ان هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سدا محكما ثم قرب اليه فجعل يفتح من أذنيه شيأ بعد شيء حتى استكمل فتح الاذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل الى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه في أول مرة فيأتي عليه وزعموا أن ذلك الطائر هلك ولم يبق منه ولا من فراخه شيء بسبب هجوم ماء البحر عليه وعلى رهطه بالليل في الاوكار فلم يبق له بقية ويقال ان بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحا فيه سم ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرة وفرح فقال له ما هذا أيها الحكيم فقال هل أعجز أن أكون مثل قفنس

ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعداد أسمائها

ويقال كان اسمها في الدهر الاول قبل الطوفان جزله ثم سميت مصر وقد اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله سميت هذه الارض بمصر فقال قوم سميت بمصر بن مركابيل ابن دوابيل بن عرياب بن آدم وهو مصر الاول وقيل بل سميت بمصر الثاني وهو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصريم الاول وبه سمي مصر بن بنصر بن حام بعد الطوفان وقيل بل سميت بمصر الثالث وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح وهو اسم أعجمي لا ينصرف وقال آخرون هي اسم عربي مشتق فأما من ذهب الى أن مصر اسم أعجمي فانه استدل بما رواه أهل العلم بالاخبار من نزول مصر بن بنصر بهذه الارض وقسمها بين أولاده فعرفت به اهـ وذكر الحسن بن أحمد الهمداني أن مصر بن حام وهو مصريم وقيل أن بنصر بن هرمس ابن هردوس جد الاسكندر قال ونكح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح فولدت له بوقير وقبط أبا القبط قبط مصر ومن ههنا أن مصر بن حام وانما هو مصر بن هرمس بن هردش بن بيطون بن روى بن ليطى بن يونان وبه سميت مصر فهي معدونية وذكر أبو الحسن المسعودي في كتاب أخبار الزمان أن بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار بن مصريم بن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام في نيف وسبعين راكبا من بني عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا من الارض يقطنون فيه فرارا من بني أبيهم فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا الى النيل فأطالوا المشي عليه فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه أعجبهم وقالوا هذه بلد زرع وعمارة فأقطنوا فيه واستوطنوا وبنوا فيه الابنية المحكمة والصنائع العجيبة وبنى نقراوس مصر وسماها باسم أبيه مصريم وكان نقراوس جبارا له قوة وكان مع ذلك عالما وله ائتمر الجن في هلاك بني أبيه ولم يزل مطاعا وقد كان وقع اليه من العلوم التي كان زواميل علمها لآدم عليه السلام ما قهر به الجبابرة الذين كانوا قبله

وملوكهم ثم امر حين ملك بنباء مدينة في موضع خيمته فقطعوا له الصخور من الجبال وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة سماها امسوس وأقاموا فيها أعلاما طول كل علم منها مائة ذراع وزرعوا وعمروا الارض ثم امرهم ببناء المدائن والقرى وأسكن كل ناحية من الارض من رأى ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى انما كان ينطبح ويتفرق في الارض حتى يتوجه الى النوبة فهندسوه وساقوا منه انهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهرا الى مدينتهم امسوس يجرى في وسطها ثم سميت مصر بعد الطوفان بمصر بن بنصر بن حام بن نوح وذلك أن قليمون الكاهن خرج من مصر ولحق بنوح عليه السلام وآمن به هو وأهله وولده وتلامذته وركب معه في السفينة وزوج ابنته من بنصر بن حام بن نوح فلما خرج نوح من السفينة وقسم الارض بين اولاده وكانت ابنته قليمون قد ولدت لبنصر ولدا سماه مصرايم فقال قليمون لنوح ابعث معي يانبي الله ابني حتى أمضي به بلدى وأظهره على كنوزى وأوقفه على علومه ورموزه فأنفذه معه في جماعة من أهل بيته وكان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بني له عريشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الارض ثم بني له بعد ذلك في هذا الموضع مدينة وسماها درسان أى باب الجنة فزرعوا وغرسوا الاشجار والا جنة من درسان الى البحر فصارت هناك زروع وأجنة وعمارة وكان الذى مع مصرايم جبابرة فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا في أرغد عيش ويقال ان اهل مصر أقاموا عليهم مصرايم بن بنصر ملكا في ايام تالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح فملك مصر وهى مدينة منيعة على النيل وسماها باسمه ويقال ان مصرايم غرس الاشجار بيده وكانت ثمارها عظيمة بحيث يشق الاترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها وكان القثاء في طول أربعة عشر شبرا ويقال انه أول من صنع السفن بالنيل وان أول سفينة كانت ثلثمائة ذراع طولا في عرض مائة ذراع ويقال أن مصرايم نكح امرأة من بني الكهنة فولدت له ولدا فسماه قبطيم ونكح قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر قبطيم واشمون وأتريب وصا فكثروا وعمروا الارض وبورك لهم فيها وقيل أنه كان عدد من وصل معهم ثلاثين رجلا فبنوا مدينة سموها نافة ومعنى نافة ثلاثون بلغتهم وهى منف وكشف اصحاب قليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم وأثاروا المعادن وعلموهم علم الطلسمات ووضعوا لهم علم الصنعة وبنوا على غير البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية ولما حضر مصرايم الوفاة عهد الى ابنه قبطيم وكان قد قسم ارض مصر بين بنيه فجعل لقبطيم من قفط الى اسوان ولا شمون من اشمون الى منف ولا تريب الحوف كله ولصا من ناحية صا البحرية الى قرب برقة وقال لاخيه فارق لك من برقة الى الغرب فهو صاحب افريقة واولاد الافارق وأمر كل

واحد من بنيه أن يبني لنفسه مدينة في موضعه وأمرهم عند موته أن يحفروا له في الارض سربا وان يفرشوه بالمرمر الابيض ويجعلوا فيه جسده ويدفنوا معه جميع مافي خزائنه من الذهب والجوهر ويزبروا عليه اسماء الله تعالى المانعة من أخذه فحفروا له سربا طوله مائة وخمسون ذراعا وجعلوا في وسطه مجلسا مصفحا بصفائح الذهب وجعلوا اربعة ابواب على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر وهو جالس على كرسي من ذهب قوائمه من زبرجد وزبروا في صدر كل تمثال آيات مانعة وجعلوا جسده في جسد مرمر مصفح بالذهب وزبروا على مجلسه مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان ولم يعبد الاصنام اذ لاهرم ولا سقام ولا حزن ولا اهتمام وحصنه باسماء الله العظام ولا يصل اليه الا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديان ويؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعي الى الايمان آخر الزمان وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس وألف برنية مملوءة من الدر الفاخر والصنعة الالهية والعقاقر والطلسمات العجيبة وسبائك الذهب وسقفوا ذلك بالصخور وهالوا فوقها الرمال بين جبلين وولي ابنه قبطيم الملك قال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب التحائف أن عبد شمس بن يشحب بن يعرب بن قحطان بن هود أخي عاد بن عامر بن شالخ بن أرفخشد ابن سام بن نوح عليه السلام واسم عبد شمس هذا عامر وعرف بعبد شمس لانه أول من عبد الشمس وقيل له أيضا سبا لانه أول من سبا وهو سبا الاكبر ابو حمير وكهلان ملك بعد أبيه يشحب بأرض اليمن جمع بني قحطان وبني هود عليه السلام وحثهم على الغزو ثم سار بهم الى أرض بابل ففتحها وقتل من كان بها من الثوار حتى بلغ أرض ارمينية وملك أرض بني يافث بن نوح وأراد أن يعبر من هناك الى الشام وأرض الجزيرة فقيل له ليس لك مجاز غير الرجوع في طريقك فبني قنطرة على البحر وجاز عليها الى الشام فأخذ تلك الاراضي الى الدرب ولم يكن خلف الدرب اذ ذاك أحد ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل وجمع اهل مشورته وقال لهم اني رأيت أن أبني مصرا الى حد بين هذين البحرين يعني بحر الروم وبحر القلزم فيكون فاصلا بين الشرق والغرب فقالوا نعم الرأى أيها الملك فبنى مدينة سماها مصر وولى عليها ابنه بابليون ومضى الى بني حام بن نوح وهم نزول في البراى الى يعونية ويعمونية القبط فاوقع بجميع تلك الطوائف وسبي ذراريهم كما فعل ببلاد الشرق فقيل له من أجل ذلك سبا ثم عاد الى مصر ومضى فيها الى الشام يريد الحجاز وأوصى ابنه بابليون عند رحيله اه

ألا قل لبابليون والقول حكمة * ملكت زمام الشرق والغرب فاجمل

وخذ لبني حام من الامر وسطه * فان صدفوا يوما عن الحق فاقبل

وان جنحوا بالقول للرفق طاعة * يريدون وجه الحق والعدل فاعدل
ولا تظهرن الرأى فى البأس يعبروا * عليك به واجعله ضربة فيصل
ولا تأخذن المال في غير حقه * وان جاء لا تدنيـه نحوك وابذل
وداوى ذوى الاحقاد بالسيف انه * متى يلق منك العزم ذو الحقد يجمل
وجد لذوي الاحساب لينا وشدة * ولا تك جبـارا عليهم وأجمـل
وكن لسؤال الناس غوثا ورحمة * ومن يك ذا عرف من الناس يسأل
واياك والسـفر القريب فانه * سيغنى بما يوليـه في كل منهل

ثم عاد الى اليمن وبنى سد مارب وهو سد فيه سبعون نهرا ويصل اليه السيل من مسيرة ثلاثة اشهر في مثلها ثم مات عن خمسمائة سنة وقام من بعده ابنه حمير بن سبا فعتا بنو حام على بابليون وأرادوا تخريب مصر فاستدعي أخاه حمير لينجده عليهم فقدم عليه مصر ومضي الى بلاد المغرب فأقام بها مائة عام يبنى المـدائن ويتخذ المصانع فمات بابليون بن سبا بمصر وولى بعده ابنه امرئ القيس بابليون ثم مات حمير بن سبا عن أربعمائة سنة وخمس وأربعين سنة منها فى الملك اربعمائة سنة وأقام من بعده ويل بن حمير ثم مات فقام من بعده ابنه مليفيك ابن وائل الذى يقال له مقعقع الحمد وقد افترق ملك حمير فحارب الثوار وسار الى الشام فلقيـه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبا بالرملة وقد ملك بعدابيه وقدم له هدية فأقره على مصر حتي قدم عليه ابراهيم الخليل عليه السلام ووهبه هاجر * وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم في كتاب فتوح مصر وأخبارها عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد سام وحام ويافث ويحطون وأن نوحا رغب الى الله عز وجل وسأله أن يرزقه الاجابة في ولده وذريته حين تكاملوا بالنماء والبركة فوعده ذلك فنادى نوح ولده وهم نيام عند السحر فنادي ساما فأجابه يسعى وصاح سام فى ولده فلم يجبه أحد منهم الا ابنه أرفخشد فانطلق به معه حتى أتياه فوضع نوح يمينه على سام وشماله على أرفخشد بن سام وسأل الله عز وجل أن يبارك في سام أفضل البركة وأن يجعل الملك والنبوة في ولد أرفخشد ثم نادى حاما وتلفت يمينا وشمالا فلم يجبه ولم يقم اليـه هو ولا أحد من ولده فدعا الله عز وجل نوح أن يجعل ولده أذلاء وأن يجعلهم عبيدا لولد سام وكان مصر ابن بنصر بن حام نائمـا الى جنب جده فلما سمع دعاء نوح على جده وولده قام يسعى الى نوح وقال ياجدى قد أجبتك اذ لم يجبك جدى ولا أحد من ولده فاجعل لى دعوة من دعائك ففرح نوح ووضع يده على رأسه وقال اللهم انه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الارض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا واجعل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الارض وذللها لهم وقوهم عليها ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه أحد

من ولده فدعا الله عليهم أن يجعلهم شرار الخلق وعاش سام مباركا الى أن مات وعاش ابنه أرفخشد ابن سام مباركا حتى مات وكان الملك الذى يحبه الله والنبوة والبركة فى ولد أرفخشد بن سام وكان أكبر ولد حام كنعان بن حام وهو الذى حمل به فى الرجز فى الفلك فدعا عليه نوح فخرج اسود وكان في ولده الملك والجبروت والجفاء وهو أبو السودان والحبش كلهم وابنه الثاني كوش بن حام وهو أبو السند والهند وابنه الثالث قوط بن حام وهو أبو البربر وابنه الاصغر الرابع بنصر ابن حام وهو أبو القبط كلهم فولد بنصر بن حام أربعة مصر بن بنصر وهو أكبرهم والذى دعا له نوح بما دعا له وفارق بن بنصر وماح بن بنصر وقيل ولد مصر أربعة قفط بن مصر وأشمن بن مصر واتريب بن مصر وصا بن مصر وعن أبي لهيعة وعبد الله بن خالد أول من سكن مصر بنصر بن حام بن نوح عليه السلام بعد أن أغرق الله تعالى قومه وأول مدينة عمرت بمصر منف فسكنها بنصر بولده وهم ثلاثون نفسا منهم أربعة اولاد له قد بلغوا وتزوجوا وهم مصر وفارق وياح وماح وكان مصر اكبرهم فبنوا مصر وكان اقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ونقروا هناك منازل كثيرة وكان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يسكنه الله الارض الطيبة المباركة التي هى أم البلاد وغوث العباد ونهرها افضل الانهار ويجعل له فيها افضل البركات ويسخر له الارض ولولده ويذللها لهم ويقويهم عليها فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها قالوا وكان مصر بن بنصر مع نوح فى السفينة لما دعا له وكان بنصر بن حام قد كبر وضعف فساق ولده مصر وجميع اخوته الى مصر فنزلوها وبذلك سميت مصر فلما قر قرار بنصر وبنيه بمصر قال لمصر اخوته فارق وماح وياح بنو بنصر قد علمنا أنك أكبرنا وأفضلنا وأن هذه الارض التى اسكنك اياها جدك نوح ونحن نضيق عليك أرضك وذلك حين كثر ولده وأولادهم ونحن نطلب اليك البركة التي جعلها فيك جدنا نوح أن تبارك لنا فى أرض نلحق بها ونسكنها وتكون لنا ولاولادنا فقال نعم عليكم بأقرب البلاد الى ولا تباعدوا منى فان لى في بلادى مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسي فتكون لى ولولدى ولاولادهم فحاز مصر بن بنصر لنفسه مابين الشجرتين التي بالعريش الى اسوان طولا ومن برقة الى ايلة عرضاً وحاز فارقا لنفسه ما بين برقة الى أفريقية وكان ولده الافارقة ولذلك سميت افريقية وذلك مسيرة شهر وحاز ماح ما بين الشجرتين من منتهى حد مصر الى الجزيرة مسيرة شهر وهو أبو قبط الشام وحاز ياح ماوراء الجزيرة كلها ما بين البحر الى الشرق مسيرة شهر وهو أبو قبط العراق ثم توفى بنصر بن حام ودفن في موضع دير ابي هرميس غربي الاهرام فهى أول مقبرة قبر فيها بأرض مصر وكثر أولاد مصر وكان الاكابر منهم قفط واتريب واشمن وصا والقبط منّ ولد مصر هذا ويقال أن قبط أخو قفط وهو بلسانهم قفطيم وقبطيم ومصرايم قال ثم ان بنصر بن حام توفى واستخلف

ابنه مصر وحاز كل واحد من اخوة مصر قطعة من الارض لنفسه سوى ارض مصر التي حازها لنفسه ولولده فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم قطع مصر لكل واحد من ولده قطيعة يحوزها لنفسه ولولده وقسم لهم هذا النيل فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها وبه سميت قفط قفطا وما فوقها الى اسوان وما دونها الى اشمون فى الشرق والغرب وقطع لاشمن من اشمون فما دونها الى منف فى الشرق والغرب فسكن اشمن اشمون فسميت به وقطع لاتريب ما بين منف الى صا فسكن اتريبا فسميت به وقطع لصا ما بين صا الى البحر فسكن صا فسميت به فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء جزأين بالصعيد وجزأين بأسفل الارض قال البكري ومصر مؤنثة قال تعالى أليس لي ملك مصر وقال ادخلوا مصر وقال عامر بن أبي واثلة الكناني لمعاوية أما عمرو بن العاص فأقطعته مصر وأما قوله سبحانه اهبطوا مصرا فانه أراد مصرا من الامصار وقرأ سليم الاعمش اهبطوا مصر وقال هي مصر التي عليها سليم بن على فلم يجرّها وقال القضاعي وكان بنصر بن حام قد كبر وضعف فساقه ولده مصر وجميع اخوته الى مصر فنزلوها وبذلك سميت مصر وهو اسم لاينصرف في المعرفة لانه اسم مذكر سميت به هذه المدينة فاجتمع فيها التأنيث والتعريف فمنعاها الصرف ثم قيل لكل مدينة عظيمة يطرقها السفار مصر فاذا أريد مصر من الامصار صرف لزوال احدى العلتين وهى التعريف وأما قوله تعالى اخبارا عن موسى عليه السلام اهبطوا مصرا فانّ لكم ما سألتم فانه مصروف في قراءة سائر القراء وفي قراءة الحسن والاعمش غير مصروف فمن صرفها فله وجهان أحدهما انه اراد اهبطوا مصرا من الامصار لانهم كانوا يومئذ فى التيه والآخر أنه اراد مصر هذه بعينها وصرفها لانه جعل مصرا أسماء للبلد وهو مذكر اسم سمى به مذكر فلم يمنعه الصرف وأما من لم يصرفه فانه اراد بمصر هذه المدينة وكذلك قوله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام أدخلوا مصر ان شاء الله آمنين وقول فرعون أليس لي ملك مصر انما يراد بهمصر هذه فاما المصر في كلام العرب فهو الحدّ بين الارضين ويقال ان اهل هجر يقولون اشتريت الدار بمصورها أي بحدودها وقال الجاحظ في كتاب مدح مصر انما سميت مصر بمصر لمصير الناس اليها واجتماعهم بها كما سمى مصير الجوف مصيرا ومصر انا لمصير الطعام اليه قال وجمع المصر من البلدان أمصار وجمع مصير الطعام مصر ان وليس لمصر هذه جمع لانها واحدة قال وقال الاخطل هممت بالاسلام ثم توقفت عنه قيل ولم ذلك قال أتيت امرأة لى وانا جائع فقلت أطعميني شيئاً فقالت ياجارية ضعى لابي مالك مصيرا في النار ففعلت فاستعجلتها بالطعام فقالت ياجارية أين مصير أبي ما لك قالت في النار قال فتطيرت وهممت بأن اسلم فتوقفت وقال الجوهري في كتاب الصحاح مصر هي المدينة المعروفة تذكر وتؤنث عن ابن السراج والمصر ان الكوفة والبصرة وقال

ابن خالويه في كتاب ليس أحد فسر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما الا في اللسان العبراني قال مقدونية مغيث وانما سميت مصر لما سكنها بنصر بن حام وتزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعا وقف على الكنيسة العظمى التي بالقسطنطينية ويسمون بلاد مقدونية الاوصفية وهي عندهم الاسكندرية وما يضاف اليها وهي مصر كلها بأسرها الا الصعيد الاعلى ويقال لمصر ام خنور وتفسيره النعمة والمصر الفرق بين الشيئين قال الشاعر يصف الله تعالى

وجاعل الشمس مصرا لاخفاءبه * بين النهار وبين الليل قد فصلا

هذا البيت قائله عدى بن زيد العبادي ويروى لامية بن الصلب الثقفي وهو من أبيات أولها

اسمع حديثا كما يوما تحدثه * عن ظهر غيب اذا ماسائل سألا
كيف بدا ثم ربالله نعمته * فينا وعلمنا آياته الأولا
كانت رياح وسيل ذو كرانية * وظلمة لم تدع فتقا ولا خللا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت * وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الارض بسطا ثم قدرها * تحت السماء سوا ميل وما نقلا
وجاعل الشمس مصرا لاخفاءبه * بين النهار وبين الليل قد فصلا
وفي السماء مصابيح تضيء لنا * ما ان تكلفنا زيتا ولا فتلا
قضى لستة أيام من خليقته * وكان آخر شيء صور الرجلا
فاخذ الله من طين فصوره * لما رأى أنه قد تم واعتدلا
دعاه آدم صوتا فاستجاب له * فنفخ الروح في الجسم الذي جبلا
ثمة اورثه الفردوس يسكنها * وزوجه صلعة من جنبه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة * من شجر طيب ان شم او أكلا
وكانت الحية الرقشاء اذ خلقت * كما ترى ناقة في الخلق أو جملا
فلامها الله اذ أطغت حليفته * طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الارض ماعمرت * والترب تأكله حزنا وان سهلا

وقال الحافظ أبو الخطاب مجد الدين عمر بن دحية ومصر أخصب بلاد الله وسماها الله بمصر وهي هذه دون غيرها باجماع القراء على ترك صرفها وهي اسم لاينصرف في معرفة لانه اسم مذكر سميت به هذه المدينة واجتمع فيه التأنيث والتعريف فمنعاه الصرف وهي عندنا مشتقة من مصرت الشاة اذا اخذت من ضرعها اللبن فسميت مصر لكثرة مافيها من الخير مما ليس في غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدر عليه منها كالشاة التي ينتفع بلبنها وصوفها وولادتها وقال ابن الاعرابي المصر الوعاء ويقال للمعا المصير وجمعه مصران ومصارين وكذلك هي خزائن الارض قال أبو نضرة الغفاري من اصحاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم مصر خزائن الارض كلها ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الارض انى حفيظ عليم فأغاثه الله بمصر يومئذ وخزائنها كل حاضر وباد ذكره الحوفى فى تفسيره وقال البكرى أم خنور بفتح أوله وتشديد ثانيه وبالراء المهملة اسم لمصر وقال أرطاه بن شهبة قال ذبيان ذودوا عن دمائكم * ولا تكرنوا كقوم أم خنور يقول لاتكونوا أذلاء ينالكم من اراد ويأخذ منكم من حب كما ينال مصر وهي أم خنور قال كراع أم خنور النعمة ولذلك سميت مصر أم خنور لكثرة خيرها وقال على بن حمزة سميت أم خنور لانها يساق اليها القصار الاعمار ويقال للضبع خنور وخنوز بالراء والزاى وقال ابن قتيبة فى غرائب الحديث ومصر الحد واهل هجر يكتبون في شروطهم اشترى فلان الدار بمصورها كلها أى بحدودها وقال عدى بن زيد

وجاعل الشمس مصرا لاخفاء به * بين النهار وبين الليل قد فصلا

أى حدا

ذكر طرف من فضائل مصر

ولمصر فضائل كثيرة منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء * قال تعالى اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم قال أبو محمد عبد الحق بن عطية في تفسيره وجمهور الناس يقرؤن مصرا بالتنوين وهو خط المصاحف الا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان رضى الله عنه وقال مجاهد وغيره من صرفها أراد مصرا من الامصار غير معين واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه وقالت طائفة ممن صرفها أراد بمصر فرعون بعينها واستدلوا بما في القرآن ان الله تعالى أورث بنى اسرائيل ديار فرعون وآثاره وأجازوا صرفها قال الاخفش لخفتها وشبهها بهند ودعد وسيبويه لا يجيز هذا وقال غير الاخفش أراد المكان فصرف وقرأ الحسن وابان بن ثعلب وغيرهما اهبطوا مصر بترك الصرف وكذلك هى في مصحف أبي بن كعب وقال هى مصر فرعون قال الاعمش هى مصر التي عليها صالح بن على وقال أشهب قال لى مالك هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون قال تعالى ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن فرقد السبخي قال خرج يوسف عليه السلام يتلقى يعقوب عليه السلام وركب أهل مصر مع يوسف وكانوا يعظمونه فلما دنا أحدهما من صاحبه وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا فنظر يعقوب الى الخيل والى الناس فقال يايهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب عليه السلام عليك ياذاهب الاحزان عني * هكذا قال ياذاهب الاحزان عني وقال تعالى وأوحينا الى موسى وأخيه

أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة قال الطبرى عن ابن عباس وغيره كانت بنو اسرائيل تخاف فرعون فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها قال قتادة وذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وأن يوجهوا نحو القبلة وعن مجاهد بيوتكم قبلة قال نحو الكعبة حين خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرا وعن مجاهد في قوله أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً قال مصر الاسكندرية * وقال تعالى مخبرا عن فرعون انه قال أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون قال ابن عبد الحكم وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس وغيرهما عن أبي زهم السماعي انه قال فى قوله تعالى أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي قال ولم يكن يومئذ في الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع أهل الارضين يحتاجون الى مصر وأما الانهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا فهذا ما ذكره الله سبحانه في مصر من آي الكتاب العزيز بصريح الذكر (وأما) ماوقعت اليها الاشارة فيه من الآيات فعدة * قال تعالى ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق وقال تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين قال ابن عباس وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه هي مصر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه هي الاسكندرية وقال تعالى فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم وقال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين قال ابن يونس في قول الله سبحانه فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم قال أبو زهم كانت الجنات بحافتي النيل من أوله الي آخره من الجانبين ما بين أسوان الى رشيد وسبعة خليج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج سردوس وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر الى آخرها مما يبلغه الماء وكان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا لما قد دبروا من قناطرها وجسورها قال والمقام الكريم المنابر كان بها ألف منبر وقال مجاهد وسعيد بن جبير المقام الكريم المنابر وقال قتادة ومقام كريم أى حسن ونعمة كانوا فيها فاكهين ناعمين قال أى والله أخرجه الله من جنانه وعيونه وزروعه حتى ورطه في البحر وقال سعيد ابن كثير بن عفير كنا بقبة الهواء عند المأمون لما قدم مصر فقال لنا ما أدري ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول أليس لى ملك مصر فقلت أقول يا أمير المؤمنين فقال قل ياسعيد فقلت ان الذي ترى بقية مدمر لان الله عز وجل يقول ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون قال صدقت ثم أمسك وقال تعالى ونريد أن نمن على الذين

استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وقال تعالى مخبرا عن فرعون انه قال ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقال تعالى مخبرا عن قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض يعني أرض مصر وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام انه قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم روى ابن يونس عن أبي نضرة الغفارى رضى الله عنه قال مصر خزائن الارض كلها وسلطانها سلطان الارض كلها ألا ترى الى قول يوسف عليه السلام لملك مصر اجعلني على خزائن الارض ففعل فاغيث بمصر وخزائنها يومئذ كل حاضر وباد من جميع الارض وقال تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء فكان ليوسف بسلطانه بمصر جميع سلطان الارض كلها لحاجتهم اليه والى ماتحت يديه وقال تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام انه قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم وقال تعالى عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون وقال تعالى وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد يعني أرض مصر وقال تعالى ان فرعون علا في الارض يعنى أرض مصر وقال تعالى حكاية عن بعض اخوة يوسف عليه السلام فلن أبرح الارض يعني أرض مصر وقال تعالى ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض يعني أرض مصر قال ابن عباس رضي الله عنهما سميت مصر بالارض كلها في عشرة مواضع من القرآن فهذا ما يحضرني مما ذكرت فيه مصر من آي كتاب الله العزيز * وقد جاء في فضل مصر أحاديث روى عبد الله بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال حدثني عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض قال أبو بكر رضى الله عنه ولم ذلك يا رسول الله قال لانهم في رباط الى يوم القيامة وعن عمرو بن الحمق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكون فتنة أسلم الناس فيها أو خير الناس فيها الجند العربى قال فلذلك قدمت عليكم مصر وعن تبيع بن عامر الكلاعي قال أقبلت من الصائفة فلقيت أبا موسى الاشعرى رضى الله عنه فقال لي من أين أنت فقلت من أهل مصر قال من الجند العربى فقلت نعم قال الجند الضعيف قال قلت أهو الضعيف قال نعم قال أما انه ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته اذهب الى معاذ بن جبل حتى يحدثك قال فذهبت الى معاذ بن جبل فقال لي ما قال لك الشيخ فاخبرته فقال لي وأى شيء تذهب به الى بلادك

أحسن من هذا الحديث أكتبت فى أسفل ألواحك فلما رجعت الى معاذ أخبرنى أن بذلك أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ابن وهب من حديث صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فتح الله بابا للتوبة في الغرب عرضه سبعون عاما لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه وروى ابن لهيعة من حديث عمر بن العاص حدثني عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة وروى ابن وهب قال أخبرني حرملة بن عمران التجيبي عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال سمعت أباذر رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما فاذا رأيتم رجلان يقتتلان في موضع لبنة فاخرجوا منها قال فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها وفى رواية ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلهافان لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصهرا الحديث ورواه مالك والليث وزاد فاستوصوا بالقبط خيرا أخرجه مسلم فى الصحيح عن أبى الطاهر عن ابن وهب قال ابن شهاب وكان يقال ان أم اسماعيل منهم قال الليث بن سعد قلت لابن شهاب ما رحمهم قال ان أم اسماعيل بن ابراهيم صلوات الله عليهما منهم وقال محمد بن اسحاق قلت للزهرى ما الرحم التي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت هاجر أم اسماعيل منهم وروي ابن لهيعة من حديث أبى سالم الجيشاني أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستكونون أجنادا وان خير أجنادكم أهل الغرب منكم فاتقوا الله فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر وعن مسلم بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال استوصوا بالقبط خيرا فانكم ستجدونهم نعم الاعوان على قتال العدو وعن يزيد بن أبي حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال الله الله في قبط مصر فانكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله وروى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقى عن رجل من الرند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأغمى عليه ثم أفاق فقال استوصوا بالادم الجعد ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمى عليه الثالثة فقال مثل ذلك فقال القوم لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الادم الجعد فأفاق فسألوه فقال قبط مصر فانهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم قالوا كيف يكونون أعوانا على ديننا يارسول الله قال يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضى بما يؤتى اليهم كالفاعل بهم والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم

كالمتنزه عنهم وعن عمرو بن حريب وأبي عبد الرحمن الحلبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انكم ستقدمون على قوم جعد رؤسهم فاستوصوا بهم خيرا فانهم قوة لكم وبلاغ الى عدوكم باذن الله يعني قبط مصر وعن ابن لهيعة حدثني مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله الله في أهل المدرة السوداء السحم الجعاد فان لهم نسبا وصهرا قال عمر مولى عفرة صهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى فيهم ونسبهم ان أم اسماعيل عليه السلام منهم قال ابن وهب فاخبرني ابن لهيعة أن أم اسماعيل هاجر من أم العرب قرية كانت أمام الفرما من مصر وقال مروان القصاص صاهر الى القبط من الانبياء ثلاثة ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسري هاجر ويوسف تزوج بنت صاحب عين شمس ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية وقال يزيد بن ابى حبيب قرية هاجر باق التي عندها أم دنين وقال هشام العرب تقول هاجر وآجر فيبدلون من الهاء الالف كما قالوا هراق المـاء وأراق المـاء ونحوه وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه أنه قال الامصار سبعة * فالمدينة مصر والشأم مصر ومصر مصر والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة وقال مكحول أول الارض خرابا أرمينة ثم مصر وقال عبد الله بن عمرو قبطة مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها وقال كعب الاحبار من أراد أن ينظر الى شبه الجنة فلينظر الى مصر اذا أخرفت وفي رواية اذا أزهرت (ومن فضائل مصر) أنه كان من أهلها السحرة وقد آمنوا جميعا فى ساعة واحدة ولا يعلم جماعة اسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط وكانوا في قول يزيد بن أبي حبيب وغيره اثنى عشر ساحرا رؤساء تحت يد كل ساحر منهم عشرون عريفا تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة فكان جميع السحرة مائتي ألف وأربعين الفا ومائتين واثنين وخمسين انسانا بالرؤساء والعرفاء فلما عاينوا ما عاينوا أيقنوا أن ذلك من السماء وأن السحر لا يقوم لامر الله فخر الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سجدا فاتبعهم العرفاء واتبع العرفاء من بقى وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال تبيع كانوا من أصحاب موسى عليه السلام ولم يفتتن منهم احد مع من افتتن من بني اسرائيل في عبادة العجل قال تبيع ما آمن جماعة قط في ساعة واحدة مثل جماعة القبط وقال كعب الاحبار مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت نبتت حتى يخرب الله عز وجل بهم وبصناعتهم جزائر الروم وقال عبد الله بن عمرو خلقت الدنيا على خمس صور على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه فالرأس مكة والمدينة واليمن والصدر الشام ومصر والجناح الايمن العراق وخلف العراق امة يقال لها واق وخلف واق امة يقال لها واق واق وخلف ذلك من الامم مالا يعلمه الا الله عز وجل والجناح الايسر السند وخلف

السند الهند وخلف الهند امة يقال لها ناسك وخلف ناسك امة يقال لها منسك وخلف ذلك من الامم مالا يعلمه الا الله عز وجل والذنب من ذات الحمام الى مغرب الشمس وشر ما في الطير الذنب وقال الجاحظ الامصار عشرة*الصناعة بالبصرة*والفصاحة بالكوفة*والتخنيث ببغداد*والعي بالري*والجفا بنيسابور *والحسن بهراة*والطرمدة بسمرقند*والمروءة ببلخ والتجارة بمصر * والبخل بمرو الطرمدة كلام ليس له فعل وعن يحيى بن داخر الحافري أنه سمع عمرو بن العاص يقول في خطبته واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية وعن عبد الرحمن بن غنم الاشعري أنه قدم من الشام الى عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال ما أقدمك الى بلادنا قال كنت تحدثني أن مصر أسرع الارض خرابا ثم أراك قد اتخذت منها وبنيت فيها القصور واطمأننت فيها قال ان مصر قد أوفت خرابها حطمها البخت نصر فلم يدع فيها الا السباع والضباع فهي اليوم أطيب الارضين ترابا وأبعدها خرابا ولا يزال فيها بركة مادام في شئ من الارض بركة ويقال مصر متوسطة الدنيا قد سلمت من حر الاقليم الاول والثاني ومن برد الاقليم السادس والسابع ووقعت في الاقليم الثالث فطاب هواها وضعف حرها وخف بردها وسلم أهلها من مشاتي الاهواز * ومصايف عمان *وصواعق تهامة * ودماميل الجزيرة * وجرب اليمن * وطواعين الشام *وبرسام العراق * وعقارب عسكر مكرم * وطحال البحرين * وحمي خيبر * وأمنوا من غارات الترك *وجيوش الروم*وهجوم العرب*ومكايد الديلم*وسرايا القرامطة *ونزف الانهار*وقحط الامطار وبها ثمانون كورة مافيها كورة الاوبها طرائف وعجائب من أنواع البر والابنية والطعام والشراب والفاكهة وسائر ماتنتفع به الناس وتدخره الملوك يعرف بكل كورة وجهاتها وينسب كل لون الى كورة فصعيدها أرض حجازية حره حر العراق وينبت النخل والاراك والقرظ والدوم والعشر وأسفل أرضها شامي يمطر مطر الشأم وينبت ثمار الشأم من الكروم والزيتون واللوز والتين والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين ويقع به الثلج والبرد *وكورة الاسكندرية ولوبية ومراقية براري وجبال وغياض تنبت الزيتون والاعناب وهي بلاد ابل وماشية وعسل ولبن وفي كل كورة من كور مصر مدينة في كل مدينة منها آثار كريمة من الابنية والصخور والرخام والعجائب وفي نيلها السفن التي تحمل السفينة الواحدة منها مايحمله خمسمائة بعير وكل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة يؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالي وابعث في المدائن حاشرين ويعمل بمصر معامل كالتنانير يعمل بها البيض بصنعة يوقد عليه فيحاكي نار الطبيعة في حضانة الدجاجة لبيضها ويخرج من تلك المعامل الفراريج وهي معظم دجاج مصر ولا يتم عمل هذا بغير مصر وقال عمر بن ميمون خرج موسى

عليه السلام بنى اسرائيل فلما أصبح فرعون أمر بشاة فأتى بها فأمر بها أن تذبح ثم قال لايفرغ من سلخها حتى يجتمع عندى خمسمائة ألف من القبط فاجتمعوا اليه فقال لهم فرعون ان هؤلاء لشرذمة قليلون وكان أصحاب موسى عليه السلام ستمائة ألف وسبعين ألفاً ووصف بعضهم مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء فأما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه فلا سبيل الى قرية من قراها الا في الزوارق • وأما المسكة السوداء فان في أشهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الارض فتصير أرضا سوداء وفي هذه الاشهر تقع الزراعات وأما الزمردة الخضراء فان في أشهر طوبه وأمشير وبرمهات يكثر نبات الارض وربيعها فتصير خضراء كأنها زمردة • وأما السبيكة الحمراء فان في أشهر برمودة وبشنش وبؤنة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد فيكون كالسبيكة التي من الذهب منظراً ومنفعة * وسأل بعض الخلفاء الليث بن سعد عن الوقت الذى تطيب فيه مصر • فقال اذا غاض ماؤها وارتفع وباها وجف ثراها وأمكن مرعاها * وقال آخر نيلها عجب * وأرضها ذهب * وخيرها جلب * وملكها سلب * ومالها رغب *وفي أهلها صخب وطاعتهم رهب*وسلامهم شغب * وحربهم حرب * وهى لمن غلب * وقال آخر مصر من سادات القرى ورؤساء المدن * وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى فان لم يصبها وابل فطل هى مصر ان لم يصبها مطر أزكت وان أصابها مطر أضعفت قاله المسعودى في تاريخه ويقال لما خلق الله آدم عليه السلام مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الامم ومن يملكها من الملوك فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تحدر فيه البركة ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة فى سفحه أشجار مثمرة وفروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا آدم عليه السلام في النيل بالبركة ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك في نيلها وجبلها سبع مرات وقال يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة وتربتك مسكة يدفن فيها غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة لاخلتك يامصر بركة ولا زال بك حفظ ولا زال منك ملك وعز يا أرض مصر فيك الخبايا والكنوز ولك البر والثروة وسال نهرك عسلا كثر الله زرعك ودر ضرعك وزكى نباتك وعظمت بركتك وخصبت ولا زال فيك خير ما لم تجبرى وتتكبرى أو تخوني فاذا فعلت ذلك عداك شر ثم يعود خيرك فكان آدم أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة * وعن ابن عباس أن نوحا عليه السلام دعا لمصر بن بيصر بن حام فقال اللهم انه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفى ذريته وأسكنه

الارض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أنهار الدنيا واجمل فيها أفضل البركات وسخر له ولولده الارض وذللها لهم وقوهم عليها * وقال كعب الاحبار لولا رغبتي في بيت المقدس لما سكنت الا مصر فقيل له لم فقال لانها بلد معافاة من الفتن ومن أرادها بسوء أكبه الله على وجهه وهو بلد مبارك لاهله فيه وقال ابن وهب أخبرني يحي ابن أيوب عن خالد بن يزيد عن ابن أبي هلال أن كعب الاحبار كان يقول اني لاحب مصر وأهلها لان مصر بلد معافاة وأهلها أصحاب عافية وهم بذلك مفارقون ويقال ان في بعض الكتب الالاهية مصر خزائن الارض كلها فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى * وقال عمرو ابن العاص ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة يعني اذا جمع الخراج مع الامارة * وقال أحمد ابن مدبر تحتاج مصر الى ثمانية وعشرين ألف ألف فدان وانما يعمر منها الف الف فدان وقد كشفت أرض مصر فوجدت غامرها أضعاف عامرها ولو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا وقال بعضهم ان خراج العراق لم يكن قط أوفر منه في ايام عمر بن عبد العزيز فانه بلغ الف الف درهم وسبعة عشر الف الف درهم ولم تكن مصر قط أقل من خراجها في ايام عمرو بن العاص وأنه بلغ اثنى عشر الف الف دينار وكانت الشامات باربعة عشر الف الف سوى الثغور * ومن فضائل مصر أنه ولد بها من الانبياء موسى وهارون ويوشع عليهم السلام ويقال ان عيسى بن مريم صلوات الله عليه أخذ على سفح الجبل المقطم وهو سائر الى الشام فالتفت الى أمه وقال يا أماه هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويذكر أنه ولد في قرية اهناس من نواحي صعيد مصر وانه كانت به نخلة يقال انها النخلة المذكورة في القرآن بقوله سبحانه وتعالى وهزى اليك بجذع النخلة وهذا القول وهم فانه لاخلاف بين علماء الاحبار من أهل الكتاب ومن يعتمد عليه من علماء المسلمين أن عيسى صلوات الله عليه ولد بقرية بيت لحم من بيت المقدس ودخل مصر من الانبياء ابراهيم خليل الرحمن وقد ذكر خبر ذلك عند ذكر خليج القاهرة من هذا الكتاب ودخلها أيضا يعقوب ويوسف والاسباط وقد ذكر ذلك في خبر الفيوم ودخلها ارميا وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى عليه الله جل جلاله فى القرآن ويقال انه ابن فرعون لصلبه وأظنه أنه غير صحيح وكان منها جلساء فرعون الذين أبان الله فضيلة عقلهم بحسن مشورتهم فى امر موسى وهارون عليهما السلام لما استشارهم فرعون فى امرهما فقال تعالى قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم وأين هذا من قول أصحاب النمرود فى ابراهيم صلوات الله عليه حيث أشاروا بقتله قال تعالى حكاية عنهم قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين * ومن أهل مصر امرأة فرعون التى مدحها الله

تعالى في كتابه العزيز بقوله وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ومن اهلها ماشطة بنت فرعون وآمنت بموسى عليه السلام فمشطها فرعون بامشاط الحديد كما يمشط الكتان وهي ثابتة على ايمانها بالله * وقال صاعد اللغوى فى كتاب طبقات الامم ان جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى وهو أول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية وهو أول من ابتنى الهياكل ومجد الله فيها وأول من نظر فى علم الطب وألف لاهل زمانه قصائد موزونة فى الاشياء الارضية والسماوية وقالوا انه اول من أنذر بالطوفان ورأى أن آفة سماوية تصيب الارض من الماء أو النار فخاف ذهاب العلم واندراس الصنائع فبنى الاهرام والبرابى التي فى صعيد مصر الاعلى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم فيها صفات العلوم حرصا على تخليدها لمن بعده وخيفة أن يذهب رسمها من العالم • وهرمس هذا هو ادريس عليه السلام وقال أبو محمد الحسن بن اسماعيل بن الفرات في أخبار مصر أن الخضر جاز البحر مع موسى عليه السلام وكان مقدما عنده وكان بمصر من الحكماء جماعة ممن عمرت الدنيا بكلامهم وحكمهم وتدبيرهم وكان من علومهم علم الطب وعلم النجوم وعلم المساحة وعلم الهندسة وعلم الكيمياء وعلم الطلسمات ويقال كانت مصر في الزمن الاول يسير اليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم وتجود أذهانهم ويتميز عندهم الذكاء وتدق الفطنة * ومن فضائل مصر أنها تميز أهل الحرمين وتوسع عليهم ومصر فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ما سواها فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه الي الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق وثغر اسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلاد المغرب ومن جهة الصعيد يحمل الي بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن وبمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى وهي البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والاشتوم والفرما والورادة والعريش وأسوان وقوص والواحات فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان وبمصر عدة مشاهد وكثير من المساجد وبها النيل والاهرام والبرابى والاديار والكنائس وأهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى انه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد وبمصر دهن البلسان الذى عظمت منفعته وصارت ملوك الارض تطلبه من مصر وتعتنى به وملوك النصرانية تترامى على طلبه والنصارى كافة تعتقد تعظيمه وترى أنه لا يتم تنصير نصرانى الا بوضع شئ من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها وبها السقنقور ومنافعه لا تنكر وبها النمس والعرس

ولهما في أكل الثعابين فضيلة لا تنكر فقد قيل لولا العرس والنمس لما سكنت مصر من كثرة الثعابين وبها السمكة الرعادة ونفعها في البرء من الحمى اذا علقت على المحموم عجيب وبمصر حطب السنط ولا نظير له في معناه فلو وقد منه تحت قدر يوما كاملا لما بقى منه رماد وهو مع ذلك صلب الكسر سريع الاشتعال بطيء الخمود ويقال انه أبنوس غيرته بقعة مصر فصار أحمر وبها الافيون عصارة الخشخاش ولا يجهل منافعه الا جاهل وبها البنج وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر الا أنه انقطع قبل سنة سبعمائة من الهجرة وبها الاترج قال أبو داود صاحب السير في كتاب الزكاة شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبرا ورأيت أترجة على بعير قطعتين وصيرت مثل عدلين قال المسعودى في التاريخ والاترج المدور حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سني الهجرة وزرع بعمان ثم نقل منها الى البصرة والعراق والشام حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وفي انطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد ولا يعرف فعدمت منه الاراهيج الحمراء الطيبة واللون الحسن الذي كان فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد وفي مصر معدن الزمرد ومعدن النفط والشب والبرام ومقاطع الرخام ويقال كان بمصر من المعادن ثلاثون معدنا وأهل مصر يأكلون صيد بحر الروم وصيد بحر اليمن طريا لان بين البحرين مسافة مابين مدينة القلزم والفرما وذلك يوم وليلة وهو الحاجز المذكور في القرآن قال تعالى (وجعل بين البحرين حاجزا) قيل هما بحر الروم وبحر القلزم وقال تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) قال بعض المفسرين البرزخ ما بين القلزم والفرما ومن محاسن مصر أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول والمشموم دون ماعداه من بقية الشهور فيقال رطب توت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه وخروف أمشير ولبن برمهات وورد برموده ونبق بشنس وتين بؤنه وعسل أبيب وعنب مسرى * ومنها أن صيفها خريف لكثرة فواكهه وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ والكتان • ومن محاسنها أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء يوجد حينئذ بمصر ومنها أن أهل مصر لا يحتاجون في حر الصيف الى استعمال الخيش والدخول في جوف الارض كما يعانيه أهل بغداد ولا يحتاجون في برد الشتاء الى لبس الفرو والاصطلاء بالنار الذى لا يستغنى عنه أهل الشام كما أنهم أيضا في الصيف غير محتاجين الى استعمال الثلج ويقال زبرجد مصر وقباطى مصر وحمير مصر وثعابين مصر ومنافعها في الدرياق جليلة • ومن فضائل مصر أن الرخامه التي في الحجر من الكعبة من مصر بعث بها محمد بن طريف مولى العباس بن محمد في سنة احدى وأربعين ومائتين مع رخامة أخرى خضراء هدية للحجر فجعلت احدى الرخامتين على

سطح مدر الكعبة وهما من أحسن الرخام في المسجد خضرة وكان المتولى عليهما عبد الله بن محمد بن داود ذرعها ذراع وثلاث أصابع قاله الفاكهي فى أخبار مكة * ومن فضائل مصر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى من أهلها وولد له صلى الله عليه وسلم من نساء مصر ولم يولد له ولد من غير نساء العرب الا من نساء مصر * قال ابن عبد الحكم لما كانت سنة ست من مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية بعث الى الملوك فمضى حاطب بن أبي بلتعة بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الى الاسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر وركب البحر فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل اليه فلما قرأ الكتاب قال مامنعه ان كان نبيا أن يدعو عليّ فيسلط عليّ فقال له حاطب ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به ويفعل فوجم ساعة ثم استعادها فأعادها عليه حاطب فسكت فقال له حاطب انه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الاعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا تعتبر بك وان لك دينا لن تدعه الا لما هو خير منه وهو الاسلام الكافي الله به فقد ماسواه وما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به * ثم قرأ الكتاب فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فلما قرأه أخذه فجعله في حق من عاج وختم عليه * وعن ابان بن صالح قال أرسل المقوقس الى حاطب ليلة وليس عنده أحد الا الترجمان فقال له ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها فاني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك قلت لا تسألني عن شئ الا صدقتك قال الى م يدعو محمد قال الى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتخلع ما سواه ويأمر بالصلاة قال فكم تصلون قال خمس صلوات في اليوم والليلة وصيام شهر رمضان وحج البيت والوفاء بالعهد وينهى عن أكل الميتة والدم قال من أتباعه قال الفتيان من قومه وغيرهم قال وهل يقبل قوله قال نعم قال صفه لى قال فوصفته بصفة من صفته ولم آت عليها قال قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها في عينيه حمرة قل ما تفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة يركب الحمار ويلبس الشملة ويجتزي بالتمرات والكسر لا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم قلت هذه صفته قال أعلم قد كنت أن نبيا بقي وقد كنت أظن أن مخرجه الشام وهناك كانت تخرج الانبياء من

قبله فأراه قد خرج في أرض العرب في أرض جهد وبؤس والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحاورتي اياك وسيظهر على البلاد ويترك أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفا فارجع الى صاحبك قال ثم دعا كاتبا يكتب بالعربية فكتب « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقي وقد كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام) * وعن عبد الرحمن بن عبد القارى قال لما مضى حاطب بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل المقوقس الكتاب وأكرم حاطبا وأحسن نزله ثم شرحه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين احداها أم ابراهيم ووهب الاخرى لجهم بن قيس العبدرى فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ويقال بل وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة الانصارى ويقال بل لدحية بن خليفة الكلبي وقيل بل لحسان بن ثابت * وعن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه الى صدره وقال هذا زمان يخرج فيه النبي الذى نجد نعته وصفته فى كتاب الله تعالى وانا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وأن جلساءه المساكين وأن خاتم النبوة بين كتفيه ثم دعا رجلا عاقلا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها وهما من أهل حفن بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون بعده من كورة أنصنا فبعث بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له بغلة شهباء وحمارا أشهب وثيابا من قباطي مصر وعسلا من عسل بنها و بعث اليه بمال صدقة ويقال ان المقوقس أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جوارى وقيل جاريتين وبغلة اسمها الدلدل وحمارا اسمه يعفور وقباء ألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا من قباطي مصر وخصيا يسمي مايور ويقال انه ابن عم مارية وفرسا يقال لها الكرار وقدحا من زجاج وعسلا من عسل بنها فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ودعا فيه بالبركة وقال ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه فان المقوقس قال خيرا وأكرم حاطب بن أبي بلتعة وقارب الامر ولم يسلم * وقال ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر الواقدى أبو يعقوب ابن محمد بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال أهدى المقوقس صاحب الاسكندرية الى النبي صلى الله عليه وسلم فى سنة سبع من الهجرة مارية وأختها سيرين وألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا وبغلته الدلدل وحماره عفيرا وخصيا يقال له مايور فعرض حاطب على مارية الاسلام فأسلمت هى وأختها ثم أسلم الخصى بعد وكان الذى بعثه

المقوقس مع مارية اسمه ابن عبد الله القبطى مولى بنى عفار قال ابن عبد الحكم وأمر رسوله أن ينظر من جلساؤه وينظر الى ظهره هل يرى شامة كبيرة ذات شعر ففعل ذلك الرسول فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم اليه الاختين والدابتين والعسل والثياب وأعلمه أن ذلك كله هدية فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدية وكان لا يردها من أحد من الناس قال فلما نظر الى مارية وأختها اعجبتاه وكره أن يجمع بينهما وكانت احداهما تشبه الاخرى فقال اللهم اختر لنبيك فاختار الله له مارية وذلك انه لما قال لهما اشهدا أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله فبادرت مارية فشهدت وآمنت قبل أختها ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت فوهب رسول الله صلى الله عليه وسلم أختها لمسلمة ابن محمد الانصاريّ وقال بعضهم بل وهبها لدحية بن خليفة الكلبي * وعن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الرحمن بن شامة المهرى عن عبد الله بن عمر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمّ ابراهيم أم ولده القبطية فوجد عندها نسيبا لها كان قدم معها من مصر وكان كثيرا ما يدخل عليها فوقع فى نفسه شئ فرجع فلقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعرف ذلك في وجهه فسأله فاخبره فاخذ عمر السيف ثم دخل على مارية وقريبها عندها فأهوى اليه بالسيف فلما رأى ذلك كشف عن نفسه وكان مجبوبا ليس بين رجليه شيء فلما رآه عمر رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جبريل أتانى فاخبرنى أن الله عزوجل قد برأها وقريبها وأن في بطنها غلاما منى وأنه أشبه الخلق بى وأمرنى أن أسميه ابراهيم وكنانى بأبى ابراهيم * وقال الزهري عن أنس لما ولدت أمّ ابراهيم ابراهيم كانه وقع في نفس النبي صلى الله عليه وسلم منه شيء حتى جاءه جبريل فقال السلام عليك ياأبا ابراهيم ويقال ان المقوقس بعث معها بخصي كان يأوى اليها وقيل ان المقوقس أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جوارى منهن أم ابراهيم وواحدة وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى جهم بن حذيفة وواحدة وهبها لحسان ابن ثابت فولدت مارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم وكان أحب الناس اليه حتى مات فوجد به وكان سنه يوم مات ستة عشر شهرا وكانت البغلة والحمار أحب دوابه اليه وسمى البغلة الدلدل وسمى الحمار يعفورا وأعجبه العسل فدعا فى عسل بنها بالبركة وبقيت تلك الثياب حتى كفن فى بعضها صلى الله عليه وسلم وكان اسم أخت مارية قيصر وقيل بل كان اسمها سيرين وقيل حمنة * وكلم الحسن بن على معاوية بن أبي سفيان فى أن يضع الجزية عن جميع قرية أم ابراهيم لحرمتها ففعل ووضع الخراج عنهم فلم يكن على احد منهم خراج وكان جميع أهل القرية من أهلها وأقربائها فانقطعوا * ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لو بقى ابراهيم ما تركت قبطيا الا وضعت عنه الجزية وماتت

مارية في محرم سنة خمس عشرة بالمدينة وقال ابن وهب أخبرني يحي بن أيوب وابن لهيعة عن عقيل عن الزهري عن يعقوب بن عبد الله بن المغيرة بن الاخفش عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال دخل ابليس العراق فقضى حاجته منها ثم دخل الشام فطردوه حتى دخل جبل شاق ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقريه حديث صحيح غريب وقد عاب بعضهم مصر فقال محاسنها مجلوبة اليها حتى العناصر الاربعة الماء وهو في النيل مجلوب من الجنوب والتراب مجلوب في حمل الماء والا فهي رمل محض لا تنبت الزرع والنار لا يوجد بها شجرها والهواء لا يهب بها الامن أحد البحرين اما من الرومي واما من القلزم وقد زاد هذا في تحامله * وقال كعب الاحبار الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب ارمينه ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة والكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة

﴿ ذكر العجائب التي كانت بمصر من الطلسمات والبرابي ونحو ذلك ﴾

ذكر في كتاب عجائب الحكايات وغرائب الماجريات أنه كان بمصر حجر من جمع كفيه عليه تقيأ جميع ما في جوفه قال القضاعي ذكر الجاحظ وغيره أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها بسائر الدنيا عشر أعجوبات وهي • مسجد دمشق • وكنيسة الرها • وقنطرة سنجر وقصر غمدان • وكنيسة رومية • وصنم الزيتون • وايوان كسرى بالمدائن • وبيت الريح بتدمر • والخورنق • والسدير بالحيرة . والثلاثة الاحجار ببعلبك وذكر أنها بيت المشتري والزهره وانه كان لكل كوكب من السبعة بيت فيها فهدمت (ومنها بمصر عشرون أعجوبة) فمن ذلك الهرمان وهما أطول بناء وأعجبه ليس على وجه الدنيا بناء باليد حجر على حجر أطول منهما واذا رأيتهما ظننت انهما جبلان موضوعان ولذلك قال بعض من رآهما ليس من شئ الا وأنا أرحمه من الدهر الا الهرمين فاني لأرحم الدهر منهما • ومن ذلك صنم الهرمين وهو بلهوية ويقال بلهيت ويقال انه طلسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزه • ومن ذلك بربا سمنود وهو من أعاجيبها وذكر عن أبي عمرو الكندي أنه قال رأيته وقد خزن فيه بعض عمالها قرظا فرأيت الجمل اذا دنا من بابه بحمله واراد ان يدخله سقط كل دبيب في القرظ لم يدخل منه شيء الى البربا ثم خرب عند الخمسين والثلثمائة • ومن ذلك بربا اخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور وأعاجيب وصور الملوك الذين يملكون مصر وكان ذو النون الاخميمي يقرأ البرابي فرأى فيها حكما عظيمة فأفسد أكثرها • ومن ذلك بربا دندره وهو بربا عجيب فيه ثمانون ومائة كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ثم الثانية حتى تنتهي الى آخرها ثم تكر راجعة الى موضع بدائها • ومن ذلك حائط العجوز من العريش الى اسوان يحيط بأرض مصر شرقا وغربا * ومن ذلك الاسكندرية وما فيها من العجائب فمن عجائبها المنارة والسوارى والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة

ثم يرمون بكرة فلا تقع فى حجر أحد الا ملك مصر وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص فوقعت الكرة فى حجره فملك البلد بعد ذلك في الاسلام ثم يحضر هذا الملعب ألف ألف من الناس فلا يكون فيهم أحد الا وهو ينظر فى وجه صاحبه ثم ان قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب نوع من أنواع اللعب رأوه عن آخرهم لايتطاولون فيه بأكثر من المراتب العلية والسفلية * ومن عجائبها المسلتان وهما جبلان قائمان على سرطانات نحاس فى اركانهما كل ركن على سرطان فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئاً حتى يعبره من جانبه الآخر لفعل * ومن عجائبها عمودا الاعيا وهما عمودان ملقيان وراء كل عمود منهما جبل حصبا كعبير الجمار بمنى يقبل المعنى التعب النصب بسبع حصيات حتى يلتقى على احدها ثم يرمي وراءه السبع ويقوم ولا يلتفت ويمضى لطيته فكأنما يحمل حملا لايحس بشيء من تعبه ومن عجائبها القبة الخضراء وهى أعجب قبة ملبسة نحاسا كانه الذهب الا بريز لايبليه القدم ولا يخلقه الدهر * ومن عجائبها منية عقبة وقصر فارس وكنيسة أسفل الارض ثم هى مدينة على مدينة ليس على وجه الارض مدينة بهذه الصفة سواها ويقال انها ارم ذات العماد سميت بذلك لان عمدها ورخامها من البدنجا والاصطنيدس المخطط طولا وعرضا * ومن عجائب مصر أيضا الجبال التي هي بصعيدها على نيلها وهى ثلاثة أجبل فمنها جبل الكهف ويقال الكف • ومنها الطيلمون • ومنها جبل زماجير الساحرة يقال ان فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل لايصل اليها احد يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم * ومن عجائبها شعب البوقيرات بناحية اشمون من ارض الصعيد وهو شعب في جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات في يوم من السنة كان معروفا فتعرض انفسها على الصدع فكلما أدخل بوقير منها منقاره في الصدع مضى لسبيله فلا يزال يفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها فتحبسه وتمضى كلها ولا يزال ذلك الذى يحبسه متعلقا حتى يتساقط ويتلاشى * ومن عجائبها عين شمس وهي هيكل الشمس وبها العمود ان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعا وهما محمولان على وجه الارض وفيهما صورة انسان على دابة وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس فاذا جاء النيل قطر من رأسهما ماء وتستبينه وتراه منهما واضحا ينبع حتى يجري في أسفلهما فينبت في أصلهما العوسج وغيره واذا حلت الشمس دقيقة من الجدى وهو أقصر يوم في السنة انتهت الى الجنوبى منها فطلعت عليه على قمة رأسه وهى منتهى الميلين وخط الاستواء في الواسطة منهما ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة كذا يقول أهل العلم بذلك * ومن عجائبها منف وعجائبها وأصنامها وأبنيتها ودفائنها وكنوزها ومايذكر فيها أكثر من أن يحصى من آثار الملوك والحكماء والانبياء لايدفع ذلك * ومن عجائبها الفرما وهي أكثر عجائبا وأكثر آثارا * ومن عجائبها الفيوم * ومن عجائبها نيلها . ومن عجائبها

الحجر المعروف بحجر الخل يطفو على الخل ويسبح فيه كأنه سمكة وكان يوجد بها حجر اذا أمسكه الانسان بكلتا يديه تقايأ كل شئ فى بطنه وكان بها خرزة تحملها المرأة على حقوها فلا تحبل وكان بها حجر يوضع على حرف التنور فيتساقط خبزه وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتتقد كالمصابيح *ومن عجائبها حوض كان بدلالات تدور من حجارة يركب فيها الواحد والاربعة ويحركون الماء بشئ فيعبرون من جانب الى جانب لايعلم من عمله فأخذه كافور الاخشيدى الى مصر فنظر اليه ثم أخرج من الماء فالقى في البر وكان في اسفله كتابة لايدرى ماهي ثم بطل* ومن عجائبها أن بصعيدها ضيعة تعرف بدشنى فيها سنطة اذا تهددت بالقطع تذبل وتجتمع وتضمر فيقال لها قد عفونا عنك وتركناك فتتراجع والمشهور وهو الموجود الآن سنطة في الصعيد اذا نزلت اليد عليها دبلت واذا رفعت عنها تراجعت وقد حملت الى مصر وشوهدت وبها نوع من الخشب يرسب في الماء كالآبنوس وبها الخشب السنط الذى يوقد منه القدر الكثير في الزمن الطويل فلايوجد له رماد • وذكر ابن نصر المصرى أنه كان على باب القصر الكبير الذى يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة صنم من نحاس على خلقة الجمل وعليه رجل راكب عليه عمامة متنكب قوسا عربية وفي رجليه نعلان كانت الروم والقبط وغيرهم اذا تظالموا بينهم واعتدى بعضهم على بعض تجاروا اليه حتى يقفوا بين يدي ذلك الجمل فيقول المظلوم للظالم أنصفنى قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل فيأخذ الحق لي منك شئت أم أبيت يعنون بالراكب النبي محمدا صلى الله عليه وسلم فلما قدم عمرو بن العاص غيبت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم قال ابن لهيعة بلغني أن تلك الصورة في ذلك الموضع قد أتى الآن عليها سنين لايدرى من عملها * قال القضاعى فهذه عشرون أعجوبة من جملتها ما يتضمن عدة عجائب فلو بسطت لجاء منها عدد كثير ويقال ليس من بلد فيه شئ غريب الا وفي مصر مثله أو شبيه به * ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التي ليست في بلد سواها • وفي كتاب تحفة الالباب انه كان بمصر بيت تحت الارض فيه رهبان من النصارى وفي البيت سرير صغير من خشب تحته صبي ميت ملفوف في نطع اديم مشدود بحبل وعلى السرير مثل الباطية فيها انبوب من نحاس فيه فتيل اذا اشتعل الفتيل بالنار وصار سراجا خرج من ذلك الانبوب الزيت الصافي الحسن الفائق حتى تمتلئ تلك الباطية وينطفى السراج بكثرة الزيت فاذا انطفأ لم يخرج من الدهن شئ فاذا خرج الصبي الميت من تحت السرير لم يخرج من الزيت شئ والباطية يريقها الانسان فلا يرى تحتها شيئاً ولا موضعا فيه ثقب وأولئك الرهبان يتعيشون من ذلك الزيت يشتريه الناس منهم فينتفعون به* وقال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه عديم الملك ابن تقطريم كان جبارا لايطاق عظيم الخلق وأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الاولون وكان في وقته الملكان اللذان أهبطا

من السماء وكانا في بئر يقال له اقتاره وكان يعلمان اهل مصر السحر وكان يقال ان الملك عديم بن البسودشير استكثر من علمهما ثم انتقلا الى بابل وأهل مصر من القبط يقولون انهما شيطانان يقال لهما مهله وبهاله وليس هما الملكين والملكان ببابل في بئر هناك يغشاها السحرة الى أن تقوم الساعة ومن ذلك الوقت عبدت الاصنام وقال قوم كان الشيطان يظهر وينصبها لهم وقال قوم أول من نصبها بدوره وأول صنم أقامه صنم الشمس وقال آخرون بل النمرود الاول أمر الملوك بنصبها وعبادتها وعديم أول من صلب وذلك أن امرأة زنت برجل من اهل الصناعات وكان لها زوج من اصحاب الملك فأمر بصلبهما على منارين وجعل ظهر كل واحد منهما الى ظهر الآخر وزبر على المنارين اسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذي عمل ذلك بهما فيه فانتهى الناس عن الزنا وبني اربع مداين وأودعها صنوفا كثيرة من عجائب الاعمال والطلسمات وكنز فيها كنوزا كثيرة وعمل في الشرق منارا وأقام على رأسه صنما موجها الى الشرق مادا يديه يمنع دواب البحر والرمال أن تجاوز حده وزبر في صدره تاريخ الوقت الذي نصبه فيه ويقال ان هذا المنار قائم الى وقتنا هذا ولولا هذا لغلب الماء الملح من البحر الشرقي على ارض مصر وعمل على النيل قنطرة في أول بلد النوبة ونصب عليها اربعة اصنام موجهة الى اربع جهات الدنيا في يدي كل واحد من الاصنام حربتان يضرب بهما اذا أتاهم آت من تلك الجهة فلم تزل بحالها الى أن هدمها فرعون موسى عليه السلام وعمل البربا على باب النوبة وهو هناك الى وقتنا هذا وعمل في احدى المداين الاربع التي ذكرناها حوضا من صوان أسود مملوء ماء لا ينقص طول الدهر ولا يتغير ماؤه لانه اجتلب اليه من رطوبة الهواء وكان اهل تلك الناحية واهل تلك المدينة يشربون منه ولا ينقص ماؤه وعمل ذلك لبعدهم عن النيل وذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح فان الشمس ترفع بحرها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزء بالهندسة او بالسحر وتجعله يختلط ذلك في ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل وتمده بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر ولو شرب منه العالم وعمل قدحا لطيفا على مثل هذا العمل وأهداه حوميل الملك الى اسكندر اليوناني وملكهم عديم مائة واربعين سنة ومات وهو ابن سبعمائة وثلاثين سنة ودفن في احدى المدائن ذات العجائب وقيل في صحراء قفط * وذكر بعض القبط أن ناووس عديم عمل في صحراء قفط على وجه الارض تحت قبة عظيمة من زجاج اخضر براق معقود على رأسها كرة من ذهب عليها طائر من ذهب موشح بجوهر منشور الجناحين يمنع من الدخول الى القبة وكان قطرها مائة ذراع في مثلها وجعل جسده في وسطها على سرير من ذهب مشبك وهو مكشوف الوجه وعليه ثياب منسوجة بالذهب المغروز بالجوهر المنظوم وطول القبة اربعون ذراعا وجعل في القبة مائة وسبعين مصحفا من مصاحف الحكمة وسبع

موائد بأوانيها منها مائدة من در رماني احمر وأوانيها منها ومائدة من ذهب قلموني أوانيها منها ومائدة من حجر الشمس المضيء بآنيتها وهو الزبرجد الذى اذا نظرت اليه الافاعي سالت اعينها ومائدة من كبريت احمر مدبر بآنيتها ومائدة من ملح ابيض مدبر براق بآنيتها ومائدة من زيبق معقود وجعل في القبة جواهر كثيرة وبراني صنعة مدبرة وحوله سبعة اسياف وأتراس من حديد أبيض مدبر وتماثيل افراس من ذهب عليها سروج من ذهب وسبعة توابيت من دنانير عليها صورته وجعل معه من اصناف العقاقير والسمومات والادوية في براني من حجارة وقد ذكر من رأى هذه القبة أنهم أقاموا أياما فما قدروا على الوصول اليها وأنهم اذا قصدوها وكانوا منها على ثمانية اذرع دارت القبة عن ايمانهم أو عن شمائلهم * ومن اعجب ماذكروه أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزجا أزجا فلا يرون غير الصورة التي يرونها من الازج الآخر على معنى واحد وذكروا انهم رأوا وجه الملك قدر ذراع ونصف بالكبير ولحيته كبيرة مكشوفة وقدّروا طول بدنه عشرة اذرع وزيادة وذكر هؤلاء الذين رأوها أنهم خرجوا الحاجة فوجدوها اتفاقا وانهم سألوا اهل قفط عنها فلم يجدوا احدا يعرفها سوى شيخ منهم وأوصى عديم الملك ابنه شداب بن عديم ان ينصب في كل حيز من أحياز ولايته منارا ويزبر عليه اسمه فانحدر الى الاشمونين وعمل مناراتها وزبر عليها اسمه وعمل بها ملاعب وعمل في صحرائها منارا اقام عليه صنما برأسين على اسم كوكبين كانا مقترنين في الوقت الذي خرج فيه الى اتريب وبنى فيها قبة عظيمة مرتفعة على عمد وأساطين بعضها فوق بعض وعلى رأسها صنما صغيرا من ذهب وعمل هيكلا للكواكب ومضى الى حيز صا فعمل فيه منارا على رأسه مرآة من اخلاط تورى الاقاليم ورجع وعمل شداب ابن عديم هيكل ارمنت وأقام فيه اصناما باسماء الكواكب من جميع المعادن وزينه بأحسن الزينة ونقشه بالجواهر والزجاج الملون وكساه الوشي والديباج وعمل في المدائن الداخلة من انصنا هيكلا وأقام فيه باتريب وهيكلا شرقي الاسكندرية وأقام صنما من صوان اسود باسم زحل على عبرة النيل من الجانب الغربي وبنى في الجانب الشرقي مداين في احداها صورة صنم قائم وله احليل اذا أتاه المعقود والمسحور ومن لاينتشر ذكره فمسحه بكلتي يديه انتشر ذكره وقوى على الباه وفي احداها بقرة لها ضرعان كبيران اذا انعقد لبن امرأة أتتها ومسحتها بيديها فانه يدر لبنها وجمع التماسيح بطالسم عمله بناحية اسيوط فكانت تنصب من النيل الى اخميم انصبابا فيقتلها ويستعملها جلودا في السفن وغيرها * وعمل منقاوس الملك بيتا تدور به تماثيل بجميع العلل وكتب على رأس كل تمثال ما يصلح من العلاج فانتفع الناس بها زمانا الى أن افسدها بعض الملوك وعمل صورة امرأة متبسمة لايراها مهموم الازال همه ونسيه فكان الناس يتناوبونها ويطوفون حولها ثم عبدوها من جملة ماعبدوه

بعد ذلك * وعمل تمثالا من صفر مذهب بجناحين لايمر به زان ولا زانية الا كشف عورته بيده وكان النــاس يمتحنون به الزناة فامتنعوا من الزنا فرقا منه فاما ملك كاكن عشقت حظية عنده رجلا من خدمه وخافت أن تمتحن بذلك الصنم فأخذت في ذكر الزواني مع الملك وأكثرت من سبهن وذمهن فذكر كاكن ذلك الصنم وما فيه من المنافع فقالت صدق الملك غير أن منقاوس لم يصب في امره لانه أتعب نفسه وحكماءه فيما جمله لاصلاح العامة دون نفسه وكان حكم هذا ان ينصب في دار الملك حيث يكون نساؤه وجواريه فان اقترفت احداهن ذنبا علم بها فيكون رادعا لهن متى عرض بقلوبهن شيء من الشهوة فقال كاكن صدقت وظن أن هذا منها نصح فأمر بنزع الصنم من موضعه ونقله الى داره فبطل عمله وعملت المرأة ما كانت همت به * وبنى هيكلا على جبل القصير للسحرة فكانوا لايطلقون الرياح للمراكب المقامة الا بضريبة يأخذونها منهم للملك * وبنى منــاوس بن منقاوس في صحراء الغرب مدينة بالقرب من مدينة السحرة تعرف بقنطرة ذات عجائب وجعل بوسطها قبة عليها كالسحابة تمطر شتاء وصيفا مطرا خفيفا وتحت القبة مطهرة فيها ماء أخضر يداوى به من كل داء فيبريه وعمل في شرقيها بربا لطيفا له اربعة ابواب لكل باب عضادتان في كل عضــادة صورة وجه يخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث في يومه فمن دخل البربا على غير طهارة نفخا في وجهه فأصابه رعدة فظيعة لاتفارقه حتي يموت وكانوا يقولون ان في وسطه مهبط النور في صورة العمود من اعتنقه لم يحتجب عن نظره شيء من الروحانية وسمع كلامهم ورأي مايعملون وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب في يده مصحف فيه علم من العلوم فمن أحب معرفة ذلك العلم اتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرّها على صدره فيثبت ذلك العلم في صدره ويقال ان هاتين المدينتين بنيتا على اسم هرمس وهو عطارد وأنهما بحالهما (وحكي) عن رجل انه أتى عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر فعرفه أنه تاه في صحراء الشرق فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صــنف من الفاكهة وأنه اكل منها وتزود فقال له رجل من القبط هــذه احدى مدينتي هرمس وفيها كنوز كثيرة فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهرا فلم يقفوا لها على اثر * وعملت أم ميلاطس الملك بركة عظيمة في صحراء الغرب وجعلت في وسطها عمودا طوله ثلاثون ذراعا وفي أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص ابدا وجعلت حول البركة اصناما من حجارة ملونة على صور الحيوانات من الوحش والطير والبهائم فكان كل جنس يأتى الي صورته ويألفها فيؤخذ باليد وينتفع به * وعملت لابنها متنزها لانه كان يحب الصيد فجعلت فيه مجالس مركبة على اساطين من مرمر مصفح بالذهب مرصع بالجوهر والزجاج الملون وزخرفته بالتصاوير العجيبة والنقوش فكان الماء يطلع من

فوارات وينصب الى أنهار قد صفحت بالفضة تجرى الى حدائق فيها بديع الفروشات وقد أقيم حولها تماثيل تصفر بانواع اللغات وأرخت على المجالس ستورا من ديباج واختارت لابنها من حسان بنات عمه وبنات الملوك وزوجته وحولته الى هذه الجنة وبنت حول الجنة مجالس للوزراء والكهنة وأشراف اهل الصناعات فكانوا يرفعون اليه جميع ما يعملونه فاذا فرغوا من أعمالهم حمل اليهم الطعام والشراب وكان ميلاطس تقلد الملك بعد ابيه مرقوه وهو صبي وكانت أمه مدبرة الملك وهي حازمة مجربة فأجرت الامور على ما كانت عليه فى حياة ابيه وأحسنت وعدلت في الرعية ووضعت عنهم بعض الخراج وكانت ايامه سعيدة كلها في الخصب الكثير والسعة للناس والعدل وكان له يوم يخرج فيه الى الصيد ويرجع الى جنته فيأمر لكل من معه بالجوائز والاطعمة ويجلس للنظر يوما في مصالح الناس وقضاء حوائجهم ويخلو يوما بنسائه وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وجدر فمات * وعمل قرسون بن قيلمون ابن اتريب منارا على بحر القلزم وعلى رأسه مرآة تجتذب بها المراكب الى شاطئ البحر فلا يمكنها أن تبرح الا أن تعشر فاذا عشرت سترت المرآة حتى تجوز المراكب وأقام فرسون مائتي سنة وستين سنة وعمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الاسود الشرقي فى وسطه قبة حولها اثنا عشر بيتا في كل بيت أعجوبة لاتشبه الاخرى وزبر عليها اسمه ومدة ملكه * وكان مرقونس الملك حكيما محبا للنجوم والعلوم والحكمة فعمل في ايامه درهما اذا ابتاع به صاحبه شيئاً اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطالب عليه زيادة فيغتر البائع بذلك ويقبل الشرط فاذا تم ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم ارطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه وكان اذا أحب أن يدخل في وزنه اضعاف تلك الارطال دخل وقد وجد هذا الدرهم فى كنوزهم ثم في خزائن بني أمية وكان الناس يتعجبون منه ووجدوا دراهم أخر قيل انها عملت في وقته ايضا فيكون الدرهم منها في ميزان الرجل فاذا اراد أن يبتاع حاجة أخذ ذلك الدرهم وقبله وقال اذكر العهد وابتاع به ما اراد فاذا اخذ السلعة ومضى الى بيته وجد الدرهم قد سبقه الى منزله ويجد البائع موضع ذلك الدرهم ورقة آس أو قرطاسا أو مثل ذلك بدور الدرهم وفى وقته عملت الآنية الزجاج التى توزن فاذا ملئت ماء أو غيره ثم وزنت لم تزد عن وزنها الاول شيئاً وعمل فى وقته الآنية التى اذا جعل فيها الماء صار خمرا فى لونه ورائحته وفعله وقد وجد من هذه الآنية باطفيح في امارة هارون بن جارويه بن احمد بن طولون شربة جزع بعروة زرقاء ببياض وكان الذى وجدها ابو الحسن الصائغ الخراساني هو ونفر معه فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمرا سكروا منه وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع فاغتم الرجل وجاء بها الى هارون فاسف عليها وقال لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكى * وأما الآنية النحاسية التي تجعل الماء خمرا

فانها منسوبة الى قلوبطرة بنت بطليموس ملكة الاسكندرية فكثير وفى وقته عملت الصور الحيثمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات وكانت اذا جعلت فى موضع اجتمع اليها ذلك الجنس ولا يقدر على مفارقة تلك الصورة حتى يقتل وكأنه يعمل اعماله كلها بصور درج الفلك واسمائها وطوالعها فيتم له من ذلك ما يريده * وعمل فى صحراء الغرب ملعبا من زجاج ملون في وسطه قبة من زجاج اخضر صافى اللون فاذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على مواضع بعيدة وعمل فى جوانبه الاربعة اربعة مجالس عالية من زجاج كل مجلس لون ونقش عليها بغير لونها طلسمات عجيبة ونقوشات غريبة وصورا بديعة كل ذلك من زجاج مطاق يشف وكان يقيم فى هذا الملعب الايام وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة فكان الناس يحجون اليه في كل عيد ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام ولم يزل هذا الملعب تقصده الامم فانه لم يكن له نظير ولا عمل في العالم مثله الى أن هدمه بعض الملوك لعجزه عن عمل مثله * وكانت أم مرقونس ابنة ملك النوبة وكان أبوها يعبد الكوكب الذى يقال له السها ويسميه الها سألت ابنها أن يعمل لها هيكلا يفردها به فعمله وصفحه بالذهب والفضة وأقام فيه صنما وأرخى عليه الستور الحرير فكانت تدخل اليه بجواريها وحشمها وتسجد له فى كل يوم ثلاث مرات وعملت لكل شهر عيدا تقرب له قرابين وتبخره ليله ونهاره ونصبت له كاهنا من النوبة يقوم به ويقرب له ويبخره ولم تزل بابنها حتى سجد له ودعا الى عبادته فلما رأى الكاهن الامر فى عبادة الكواكب قد تم وأحكم من جهة الملك أحب أن يكون لكوكب السها مثالا في الارض على صورة حيوان يتعبد له فاقام يعمل الحيلة فى ذلك الى أن اتفق أن العقبان كثرت بمصر وأضرت بالناس فاحضر الملك هذا الكاهن وسأله عن سبب كثرتها فقال ان الهك أرسلها لتعمل لها نظيرا ليسجد له فقال مرقونس ان كان يرضيه ذلك فانا فاعله فقال ان ذلك رضاه فأمر بعمل عقاب طوله ذراعان في عرض ذراع من ذهب مسبوك وعمل عينيه من ياقوتتين وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر وفى منقاره درة معلقة وسروله بالدر الاحمر وأقامه على قاعدة من فضة منقوشة قد ركبت على قائمة زجاج أزرق وجعله فى ازج عن يمين الهيكل وألقى عليه ستور الحرير وجعل له دخنة من جميع الافاويه والصموغ وقرب له عجلا أسود وبكارة الفراريج وباكورة الفواكه والرياحين فلما تمت له سبعة أيام دعاهم الى السجود اليه فأجابه الناس ولم يزل الكاهن يجهد نفسه فى عبادة العقاب وعمل له عيدا فلما تم لذلك أربعون يوما نطق الشيطان من جوفه * وكان أول ما دعاهم اليه أن يبخر له فى أنصاف الشهور بالمندل ويرش الهيكل بالخمر العتيقة التى تؤخذ من رؤس الخوابي وعرفهم أنه قد أزال عنهم العقبان وضررها وكذلك يفعل في غيرها مما يخافون فسر

الكاهن بذلك وتوجه الى أم الملك يعرفها ذلك فسارت الى الهيكل وسمعت كلام العقاب فسرها ذلك وأعظمته وبلغ الملك فركب الى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه فسجد له وأقام له سدنة وأمر أن يزين بأصناف الزينة وكان مرقونس يقوم بهذا الهيكل ويسجد لتلك الصورة ويسألها عما يريد فتخبره * وعمل من الكيمياء ما لم يعمله أحد من الملوك فيقال انه دفن فى صحراء الغرب خمسمائة دفين * ويقال انه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم فى صورة امرأة جالسة وفى يدها مرآة تنظر اليها وكان العليل يأتى الى هذه المرآة وينظر فيها أو ينظر له أحد فيها فان كان يموت من علته تلك رؤى ميتا وان كان يعيش رآه حيا وينظر فيها أيضا للمسافر فان رأوه مقبلا بوجهه علموا أنه راجع وان رأوه موليا علموا أنه يتمادي فى سفره وان كان مريضا أو ميتا رأوه كذلك فى المرآة * وعمل بالاسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة وعلى رأسه كالبرنس وفي يده كالعكاز فاذا مر به تاجر جعل بين يديه شيئا من المال على قدر بضاعته فان تجاوزه ولو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز وثبت قائما مكانه فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرق في الزمنى والضعفا والفقرا * وعمل في زمنه كل أعجوبة ظريفة وأمر أن يزبر اسمه عليها وعلى كل علم وكل طلسم وكل صنم * وعمل لنفسه ناووسا فى داخل الارض عند جبل يقال له سدام وعمل تحته ازجا يقال ان طوله مائة ذراع وارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وصفحه بالمرمر والزجاج الملون وسقفه بالحجارة وعمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة اعجوبة وفي وسط الازج دكة من زجاج على كل ركن من اركانها صورة تمنع الدنو اليها وبين كل صورتين منارة عليها حجر مضئ وفي وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعد ما ضمده بالادوية الماسكة ونقل اليه ذخائره من الذهب والجوهر وغيره وسد باب الازج بالصخور والرصاص وهيل عليها الرمال وكان ملكه ثلاثا وسبعين سنة وعمره مائتين وأربعين سنة وكان جميلا ذا وفرة حسنة فتنسكت نساؤه ولزمن الهيكل من بعده وملك بعده ابنه ايساد ثم صا بن ايساد وقيل صا بن مرقونس أخو ايساد فعمل مرآة في مدينة منف ترى الاوقات التي تخصب فيها مصر وتجدب وبنى بداخل الواحات مدينة ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة * وعمل خلف المقطم صنما يقال له صنم الحيلة فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه ويبخره فيتيسر ذلك الامر له وعمل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر وما يحدث فيه من أقصى ما يصل اليه البصر على مسيرة أيام وهو أول من اتخذها ويقال انه بنى اكثر مدينة منف وكل بنيان عظيم بالاسكندرية * ولما ملك بدارس بن صا الاحياز كلها بعد ابيه وصفا له ملك مصر بنى فى غربى مدينة منف بيتا عظيما لكوكب الزهرة وأقام فيه صنما عظيما من لازورد مذهب وتوجه بذهب يلوح بزرقة وسوره بسوارين

من زبرجد اخضر وكان الصنم في صورة امرأة لهـا ضفيرتان من ذهب اسود مدبز وفي رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب وبيدها قضيب مرجان وهي تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من في الهيكل وجعل بحذائها تمثال بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بذهب موشحة بحجر اللازورد ووجه البقرة تجاه وجه الزهرة وبينهما مطهرة من اخلاط الاجساد على عموم رخام مجزع وفي المطهرة ماء مدبر يستشفى به من كل داء وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها فى كل سبعه أيام وجعل فى الهيكل كراسى للكهنة قد صفحت بالذهب والفضة وقرب لهذا الصنم ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير وكان يحضر يوم الزهرة و يطوف به وفرش الهيكل وستره وجعل فيه تحت قبة صورة رجل راكب على فرس له جناحان ومعه حربة في سنانها رأس انسان معلق ولم يزل هذا الهيكل الى أن هدمـه بخت نصر في أيام ماليق بن تدارس وكان موحدا على دين قبطيم ومصرايم خرج فى جيش عظيم في البر والبحر فغزا البربر وأرض أفريقيـة وبلاد الاندلس وأرض الافرنج الى البحر وعمل فى البحر اعلاما زبر عليها أسمه ومسيره ورجع فهابه ملوك الارض وكان فى غربي مصر مدينة يقال لها قرميده بها قوم قدملكوا عليهم امرأة ساحرة فغزاهم فلم ينل منهم قصدا ورجع فارادت ملكتهم افساد مصر فعملت من سحرها وأمرت فألقى في النيل ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها وكثرت التماسيح والضفادع وفشت الامراض في الناس وانبثت فيهم الثعابين والعقارب فاحضر ماليق الكهنة والحكماء فى دار حكمتهم وألزمهم بالنظر لذلك فنظروا في نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب وان امرأة عملته وألقته فى النيل فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة واجتهـدوا في دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد وهلكت الدواب المضرة وجهزوا قائدا فى جيش الى المدينة فلم يجدوا بها غير رجل واحد فاخذوا من الاموال والجواهر والاصنام مالايحصى * فمن ذلك صورة كاهن من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الاسباديم وصورة روحاني من ذهب رأسه من جوهر أحمر وله جناحان من درو في يده مصحف فيه كثير من علومهم في دفتين مرصعتين بجوهر ومطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة زجاج أخضر فيهاماء لدفع الاسقام وفرس من فضة اذا عزم عليه بعزائمه ودخن بدخنته وركبه أحد طار به فأحضر ذلك وغيره من عجائب السحرة وأصنامهم والاموال والجواهر الى مصر ومعهم الرجل فسأله الملك عن أعجب أعمالهم قال قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كثيف وتخاييل هائلة فاغلق أهل مدينتنا حصنهـم ولجوا الى الاصنام فأتى الـكاهن الى بركة عظيمة بعيـدة القعر كانوا يشربون منها فجلس على حافتها وأحاط رؤساء الـكهنة بها وأخذ يزمزم على المـاء حتى فار وخرج من وسطه نار في وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء نخر الجماعة لها سجودا وتلك الصورة تعظم حتى صعدت

وخرقت القبة وسمع منها قد كفيتم شر عدوكم فقاموا واذا بعدوهم قد هلك وسائر من معه وذلك أن صورة الشمس التى ظهرت من الماء مرت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها * ولما ملك كلكن مصر بعد أبيه خربيا كان النمرود فى وقته فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره ووجه اليه أن يلقاه وكان النمرود يسكن سواد العراق وغلب على كثير من الامم فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله لها أجنحة قد أحاطت به كالنار وحوله صور هائلة فدخل بها وهو متوشح بثعبان ومحزم ببعضه وذلك التنين فاغر فاه ومعه قضيب آس أخضر كلما حرك التنين رأسه ضربه بالقضيب فلما رأى النمرود ذلك هاله واعترف له بجليل الحكم * وتقول القبط أن كلكن كان يرتفع فيجلس على الهرم الغربى في قبة تلوح على رأسه وكان أهل البلد اذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم ويقولون انه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل ولا يشرب ثم انه استتر مدة حتي توهموا أنه هلك فطمع الملوك في مصر وقصدها ملك من المغرب يقال له سادوم في جيش عظيم الى أن بلغ وادى هيب فأقبل كلكن وجللهم من سحره بشئ كالغمام شديد الحرارة وهم تحته اياما لا يدرون أين يتوجهون ثم ارتفع وصار بمصر يعرفهم ما عمل وأمرهم فخرجوا فاذا بالقوم ودوابهم قد ماتوا فهابه جميع السكهنة وصوروه فى سائر الهياكل وبني هيكلا لزحل من صوان اسود في ناحية الغرب وجعل له عيدا * (وفي ايام دارم بن الريان) وهو الفرعون الرابع الذى يقال له عند القبط دريموش ظهر معدن فضة على ثلاثة ايام من النيل فأثاروا منه شيأ عظيما وعمل صنما على اسم القمر لان طالعه كان برج السرطان ونصبه على القصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرقي النيل ونصب حوله اصناما كلها من الفضة وألبسها الحرير الاحمر وعمل للصنم عيدا كلما دخل برج السرطان ولما ولى اكسايس الملك بعد أبيه معدان بن معاديوس بن دارم بن دريموس وهو الفرعون السادس أقام أعلاما كثيرة حول منف وجعل عليها اساطين يمشي من بعضها الى بعض وعمل برقودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الارض أعلاما ومنائر للوقود وطلسمات كثيرة وعمل كودة من فضة ونقش عليها صورة الكواكب ودهنها بالدهن الصينى وأقامها على منار في وسط منف وعمل فى هيكل أبيه روحانى زحل من ذهب أسود مدبر وعمل فى وقته ميزانا يعتبر به الناس كفتاه من ذهب وعلاقته من فضة وسلاسله من ذهب فكان معلقا في هيكل الشمس وكتب على احدي كفتيه حق والاخرى باطل وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء الكواكب فيدخل الظالم والمظلوم يأخذ كل منهما فصا من تلك الفصوص ويسمى عليه مايريده ويجعل أحد الفصين في كفة والآخر فى كفة فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم ومن أراد سفرا أخذ فصين وذكر على أحدهما اسم السفر وعلى الآخر الاقامة وجعل كل واحد في كفة فان ثقلا جميعا ولم يرتفع احدهما على الآخر لم يسافر وان ارتفعا سافر وان ارتفع

احدها أخر السفر ثم سافر وكذا من عليه دين ومن له غائب أو ينظر في صلاح أمره وفساده * ويقال أن بخت نصر لما دخل الى مصر حمل هذا الميزان معه فيما حمل الى بابل وجعله في بيت من بيوت النار وعمل في ايامه تنورا أيضا يشوى فيه من غير نار ويطبخ فيه بغير نار وسكينا تنصب فاذا رآها شيء من البهائم أقبل حتي يذبح نفسه بها وعمل ماء يستحيل نارا وزجاجا يستحيل هواء وشيأ من النيرنجيات والنواميس * (وأما البرابى) فذكر ابن وصيف شاه أن سوريد الذى بنى الاهرام هو الذى بني البرابى كلها وعمل فيها الكنوز وزبر عليها علوما ووكل بها روحانية تحفظها ممن يقصدها وقال فى كتاب الفهرست وبمصر أبنية يقال لها البرابى من الحجارة العظيمة الكبيرة وهى على اشكال مختلفة وفيها مواضع الصحن والسحق والحل والعقد والتقطير تدل على انها عملت لصناعة الكيمياء وفي هذه الابنية نقوش وكتابات لا يدرى ماهي وقد أصيبت تحت الارض فيها هذه العلوم مكتوبة في التوز وهى صفائح الذهب والنحاس وفي الحجارة * وذكر الحسن بن أحمد الهمدانى أن برابى مصر تنسب الى براب بن الدرمسيل بن نحويل بن خنوخ بن قار بن آدم عليه السلام * وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب الاشارات الباقية عن القرون الخالية أن كنيسة في بعض قرى مصر قد شاهدها الموثوق بقولهم المأخوذ برأيهم المأمون من جهتهم الرواية عنهم فيها سرداب ينزل اليه بنيف وعشرين مرقاة وفيه سرير تحته رجل وصبي مشدودين فى نطع وفوقه ثور رخام في جوفه باطية زجاج يدخلها قنينة من نحاس فى جوفها فتيلة كتان توقد فيصب فيها زيت فلا يلبث الا أن تمتلئ الباطية الزجاج زيتا وتفيض الى الثور الرخام فينفق على تلك الكنيسة وقناديلها * وذكر الجيهانى انه صار اليه من وثق به ورفع الباطية عن الثور وأفرغ الزيت من الباطية والثور جميعا وأطفأ النار وأعادها جميعا الا الزيت فانه صب زيتا من عنده وأبدله فتيلة أخرى وأشعلها فما لبث الزيت أن فاض الى الباطية الزجاج ثم فاض الى الثور الرخام من غير مدد ولا عنصر * وذكر الجيهانى أنه اذا خرج الميت من تحت السرير انطفأت النار ولم يفض الزيت * وذكر عن اهل القرية أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملا تحمل ذلك الصبى وتضمه في حجرها فيتحرك ولدها فى البطن ان كان الحمل حقيقة أو تيأس ان لم تحس بحركة * قال المؤلف رحمه الله أخبرني داود ابن رزق الله بن عبد الله وكانت له سياحات كثيرة بأراضى مصر ومعرفة أحوالها أنه عبر فى مغارة كبيرة يقال لها مغارة شقاقيل بالوجه القبلى فاذا فيها كوم عظيم من سندروس وأنه غطاه ومضى فاذا شيء كثير الى الغاية من السمك وجميعها ملفوفة بثياب كأنها قد كفنت بعد الموت وأنه أخذ منها سمكة وفتشها فاذا فى فمها دينار عليه كتابة لا يحسن قراءتها وأنه صار يأخذها سمكة سمكة ويخرج من فم كل واحدة دينارا حتى اجتمع له من ذلك عدة دنانير

وأنه أخذ تلك الدنانير ورجع ليخرج حتى جاء الى الكوم السندروس واذا به ارتفع حتى سدّ عليه الموضع فعاد الى السمك وأعاد الدنانير الى مواضعها وخرج فاذا السندروس كما كان أولا بحيث يتجاوزه ويخرج فعاد وأخذ الدنانير ومشى يخرج بها فاذا السندروس قد ارتفع حتى سدّ عليه الموضع فعاد الى السمك وأعاد الدنانير الى موضعها وخرج فاذا السندروس على حاله كما كان أولا بحيث يتجاوزه ويخرج وأنه كرّر أخذ الدنانير واعادتها مرارا والحال على ما ذكر حتى خشي الهلاك فتركها وخرج فلما كان مدة سكن موضعها فرأى حجرا في جدار وقد قوّر ووضع حجر آخر فحاول الحجر الآخر حتى رفعه فاذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التي وجدها في أفواه السمك فأخذ منها واحدا وترك البقية في موضعها وأعاد الحجر على الحجر وقدّر الله بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدى من البر الشرقى الى البر الغربى قال فلما توسط البحر واذا بالاسماك تثب من الماء وتلقى أنفسها في المركب حتى كدنا نغرق من كثرتها فصاح الركاب خوفا من الهلاك قال فتذكرت الدينار الذى معي وأن هذا ربما كان بسببه فأخرجته من جيبي وألقيته في الماء فتواثبت الاسماك من المركب وألقت نفسها في الماء حتى لم يبق منها شيء * قلت وأخبرنى قديما بعض من لا أتهمه أنه ظفر بطلسم من هذا المعنى وأنه عنده وأراد أن يرينى السمك بيبت من الماء فلم يقدر لى أن أرى ذلك قال ابن عبد الحكم لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف منهن وموضع وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة فملكوها فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الاشراف وقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانا لا نأمن أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع ارض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت فى كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فاتاهم الخبر من اى وجه كان في ساعة واحدة فنظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر ممن ارادها وفرغت من بنائه في ستة اشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة قال المسعودى وقيل انما بنته خوفا على ولدها وكان كثير القنص فخافت عليه سباع البر والبحر

واغتيال من جاور ارضهم من الملوك والبوادى لحوطت الحائط من التماسيح وغيرها وقد قيل غير ما وصفنا فملكتهم ثلاثين سنة فى قول قال المؤلف رحمه الله قد بقى من حائط العجوز هذا في بلاد الصعيد بقايا أخبرنى الشيخ المعمر محمد بن المسعودى أنه سار في بلاد الصعيد على حائط العجوز ومعه رفقة فاقتلع احدهم منها لبنة فاذا هى كبيرة جدا تخالف المعهود الآن من اللبن في المقدار فتناولها القوم واحدا بعد واحد يتأملونها وبيناهم فى رؤيتها اذ سقطت الى الارض فانفلقت عن حبة فول فى غاية الكبر الذى يتعجب منه لعدم مثله فى زماننا فقشروا اما عليها فوجدوها سالمة من السوس والعيب كأنها قريبة عهد بحصادها لم يتغير فيها شئ البتة فاكلها الجماعة قطعة قطعة وكأنها انما خبئت لهم من الزمن القديم والاعصر الخالية انه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها * قال ابن عبد الحكم وكان ثم عجوز ساحرة يقال لها بدور وكانت السحرة تعظمها وتقدمها في علمهم وسحرهم فبعثت اليها دلوكة ابنة زبا انا قد احتجنا الى سحرك وفزعنا اليك ولا نأمن أن يطمع فينا الملوك فاعملى لنا شيئا نغلب به من حولنا فقد كان فرعون يحتاج اليك فكيف وقد ذهب أكابرنا يعني في الغرق مع فرعون موسي وبقى أقلنا فعملت بربا من حجارة فى وسط مدينة منف وجعلت لها اربعة ابواب كل باب منها الى جهة القبلة والبحر والغرب والشرق وصورت فيه صور الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال وقالت لهم قد عملت لكم عملا يهلك به كل من أرادكم من كل جهة تؤتون منها برا أو بحرا وهذا يغنيكم عن الحصن ويقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة فانهم ان كانوا فى البر على خيل أو بغال أو ابل أو فى سفن أو رجالة تحركت هذه الصور من جهتهم التى يأتون منها فما فعلتم بالصور من شئ أصابهم ذلك فى انفسهم على ما تفعلون بهم فلما بلغ الملوك حولهم أن امرهم قد صار الى ولاية النساء طمعوا فيهم وتوجهوا اليهم فلما دنوا من عمل مصر تحركت تلك الصور التي في البربا فطفقوا لايهيجون تلك الصور بشيء ولا يفعلون بها شيئا الا أصاب ذلك الجيش الذى كان اقبل اليهم مثله ان كان خيلا فما فعلوا بتلك الخيل المصورة فى البربا من قطع رؤسها أو سوقها أو فقء عيونها أو بقر بطونها أثر مثل ذلك بالخيل التي ارادتهم وان كانت سفنا أو رجالة فمثل ذلك وكانوا أعلم الناس بالسحر وأقواهم عليه وانتشر ذلك فتبادرهم الناس وكان نساء اهل مصر حين غرق فرعون وقومه ولم يبق الا العبيد والاجراء لم يصبرن عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه وتتزوج الاخرى أجيرها وشرطن على الرجال أن لايفعلوا شيئا الا باذنهن فاجابوهن في ذلك فكان أمر النساء على الرجال قال يزيد بن أبي حبيب ان نساء القبط على ذلك الى اليوم اتباعا لمن مضى منهم لايبيع احد منهم ولا يشترى الا قال استأمر امرأتي فملكتهم دلوكة بنت زبا عشرين سنة تدبر أمرهم بمصر حتى بلغ صبي من أبناء أكابرهم وأشرافهم يقال له دركون بن بلوطس فملكوه

عليهم فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة وكلما انهدم من ذلك البربا الذى صور فيه الصور لم يقدر أحد على اصلاحه الا تلك العجوز وولدها وولد ولدها وكانوا أهل بيت لا يعرف ذلك غيرهم فانقطع اهل ذلك البيت وانهدم من البربا موضع في زمان لقاس بن مرينوس فلم يقدر أحد على اصلاحه ومعرفة علمه وبقى على حاله وانقطع ما كان يقهرون به الناس وبقوا كغيرهم الا أن الجمع كثير والمال عندهم فلما قدم بخت نصر بيت المقدس وظهر على بني اسرائيل وسباهم وخرج بهم الى ارض بابل قصد مصر وخرب مدائنها وقراها وسبي جميع اهلها ولم يترك بها شيئاً حتى بقيت مصر اربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن يجرى نيلها ويذهب لا ينتفع به ثم رد أهل مصر اليها بعد أربعين سنة فعمروها ولم تزل مقهورة من يومئذ * وقال بعض الحكماء رأيت البرابي وأخذت أتأملها فوجدتها مستحكمة على جميع أشكال الفلك والذى ظهر لي أنه لم يعملها حكيم واحد بل تولى عملها قوم بعد قوم حتى تكاملت في دور كامل وهو ستة وثلاثون ألف سنة شمسية لان مثل هذه الاعمال لا تعمل الا بالارصاد ولا يتكامل رصد المجموع في اقل من هذه المدة المذكورة وكانوا يجعلون الكتاب حفرا ونقرا في الصخور ونقشا في الحجارة وحلقة مركبة في البنيان وربما كان الكتاب هو الحفر اذا كان متضمنا لامر جسيم أو عهدا لامر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو أحياء شرف يريدون تخليد ذكره وقد كتب غير المصريين كذلك كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مارب وعلى ركن المستقر وعلى الابلق المفرد وعلى باب الرها وكانوا يعمدون الى الاماكن الشريفة والمواضع المذكورة فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور وأمنعها من الدروس وأحذر أن يراها من مربها ولا ينسى على طول الدهر * وقال المسعودى واتخذت دلوكة بمصر البرابي والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت فى البرابي صور من يرد من كل ناحية ودوابهم ابلا كانت أو خيلا وصورت فيها من يرد من البحر في المراكب من بحر الغرب والشام وجمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الاحجار والنباتات والحيوانات وجعلت ذلك في اوقات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية وكانوا اذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عورت تلك الصور التي في البربا من الابل وغيرها فيتعور ما فى ذلك الجيش وينقطع عنهم ناسه وحيوانه واذا كان الجيش من نحو الشام فعل فى تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع فى تلك الصور التي من تلك الجهة وكذلك من ورد من جيوش الغرب ومن ورد في البحر من رومية والشام وغير ذلك من الممالك فهابهم الملوك والامم ومنعوا ناحيتهم من عدوهم واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز واتقانها لزم أقطار المملكة وأحكامها

السياسية *(وقد) تكلم من سلف وخالف فى هذه الخواص وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر وهذا الخبر من فعل العجوز مستفيض لايشكون فيه والبرابى بمصر من صعيدها وغيره باقية الى هذا الوقت وفيها انواع الصور مما اذا صورت فى بعض الاشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له وصنعت من اجله على حسب قولهم فى الطبائع والله أعلم بكيفية ذلك (قال) وأخبرنى غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذى النون بن ابراهيم المصري الاخميمى الزاهد وكان حكيما وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها وكان ممن يقر على اخبار هذه البرابي وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال رأيت فى بعض البرابي كتابا تدبرته فاذا هو أحذر العبيد المعتقين والاحداث والجند المتعبدين والنبط المستعربين ورأيت فى بعضها كتابا تدبرته فاذا فيه يقدر المقدر والقضاء يضحك وفى آخره كتابة تثبتها فى ذلك العلم فوجدتها

تدبر بالنجوم ولست تدري * ورب النجم يفعل ما يريد

قال وكانت هذه الامة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر فى أحكام النجوم من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون في الارض ولم يقطع على ذلك الطوفان ما هو أنار تأتى على الارض فتحرق ما عليها أو ماء يغرقها أو سيف يبيد أهلها فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء اهلها فاتخذت هذه البرابي ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة وجعلت بنيانها نوعين طينا وحجارة وفرزت مابنى بالطين مما بنى بالحجارة وقالت ان كان هذا الطوفان نارا استحجر ما بنى بالطين وان كان الطوفان الوارد ماء أذهب مابنينا بالطين ويبقى مابنى بالحجارة وان كان الطوفان سيفا بقى كل من النوعين مما هو من الطين وما هو من الحجر وهذا ما قيل والله أعلم انه كان قبل الطوفان وان الطوفان الذى كانوا يرقبونه ولم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف كان سيفا أتى على جميع اهل مصر من أمة غشيتها وملك نزل عليها فأباد أهلها ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباء عم اهلها ومصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المتقذرة من الناس من صغير وكبير وذكر وأنثي كالجبال العظام وهى المعروفة ببلاد تنيس من ارض مصر بذات الكوم وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض في الكهوف والغيران والنواويس ومواضع كثيرة من الارض لا يدرى من اى الامم هم فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ولا اليهود تقول انهم من اوائلهم ولا المسلمون يدرون من هؤلاء ولا تاريخ ينبئ عن حالهم وعليهم أثوابهم وكثيرا ما يوجد فى تلك البرابي والجبال من حليهم * والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا التي بأخميم والتي بسمنود وغير ذلك

﴿ ذكر الدفائن والكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب ﴾

الاصل في جواز تتبع الدفائن مارواه أبو عمرو بن عبد البر والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف من الطائف مر بقبر أبي رغال فقال هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف كان اذا هلك قوم صاح في الحرم فنعه الله فلما خرج من الحرم رماه بقارعة وآية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب فابتدر المسلمون قبره فنبشوه واستخرجوا العمود منه ومن حديث عبد الله بن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين خرجنا معه الى الطائف فررنا بقبر فقال هذا قبر أبي رغال وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التي اصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه عصا من ذهب ان نبشتم عليه اصبتموه معه فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذي كان معه * وبمصر كنوز يوسف عليه السلام وكنوز الملوك من قبله والملوك من بعده لانه كان يكنز ما يفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر وهو قول الله عز وجل فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ويقال ان علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية نقلت اليها من طليطلة ويقال ان الروم لما خرجت من الشام ومصر اكتنزت كثيرا من أموالها في مواضع أعدتها لذلك وكتبت كتبا بأعلام مواضعها وطرق الوصول اليها وأودعت هذه الكتب قسطنطينية ومنها يستفاد معرفة ذلك وقيل ان الروم لم تكتتب وانما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين والكلدانيين والقبط فلماخرجوا من مصر والشام حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة وقيل انه لايعطى من ذلك احد حتى يخدم الكنيسة مدة فيدفع اليه ورقة تكون حظه قال المسعودى ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الارض وغيرهم من الامم ممن سكن تلك الارض وتدعى بالمطالب الى هذه الغاية وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا * (فمن أخبارها) ما ذكره يحيى بن بكير قال كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لاخيه عبد الملك بن مروان فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال بالقبة الفلانية كنز عظيم قال عبد العزيز وما مصداق ذلك قال هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر ثم ينتهى بنا الحفر الى باب من الصفر تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرذ ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود فأمر له عبدالعزيز بنفقة لاجرة من يحفر من الرجال في ذلك ويعمل فيه وكان هناك تل عظيم فاحتفروا حفيرة عظيمة في الارض والدلائل المقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر فازداد عبد العزيز حرصا على ذلك وأوسع فى النفقة واكثر من الرجالة ثم انتهوا فى حفرهم الى ظهور رأس الديك فبرق عند ظهوره

لمعان عظيم لما في عينيه من الياقوت ثم بان جناحاه ثم بانت قوائمه وظهر حول العمود عمود من البنيان بانواع الحجارة والرخام وقناطر مقنطرة وطاقات على أبواب معقودة ولاحت منها تماثيل وصور اشخاص من أنواع الصور الذهب وأجربة من الاحجار قد أطبق عليها أغطيتها وسبكت فركب عبد العزيز بن مروان حتي أشرف على الموضع فنظر الى ماظهر من ذلك فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة من نحاس ينتهي الى ماهناك فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا وهوى جسمه سفلا فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك صفيرا عجيبا أسمع من كان بالبعد من هناك وحرّك جناحيه وظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات اذا مال وقع على بعض تلك الدرج شيء أوماسها شيء انقلبت فتهاوي من هناك من الرجال الى أسفل تلك الحفرة وكان فيها من يحفر ويعمل وينقل التراب وينظر ويجول ويأمر وينهى نحو ألف رجل فهلكوا جميعا فخرج عبد العزيز وقال هذا ردم عجيب الامر ممنوع النيل نعوذ بالله منه وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس فكان الموضع قبرا لهم * قال المسعودى وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قداعتنى وأغري بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الارض ببلاد مصر قد وقع اليهم كتاب ببعض الاقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الاهرام بأن فيه مطلبا عجيبا فأخبروا الاخشيد محمد بن طفج بذلك فأمرهم بحفره وأباحهم استعمال الحيلة في اخراجه فحفروا حفرا عظيما الى أن انتهوا الى أزج وأقباء وحجارة مجوفة في صخرة منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب قد طلي بالاطلية المانعة من سرعة البلاء وتفرق الاجزاء والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والزبرجد والفيروزج ومنها ما وجوهها ذهب وفضة فكسر بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها رمما بالية وأجساما فانية والى جانب كل تمثال منها نوع من الابنية كالبرابي وغيرها من المرمر والرخام وفيه من الطلى الذي قد طلى منه ذلك الميت الموضوع في التماثيل الخشب والطلاء دواء مسحوق واخلاط معمولة لارائحة لها فجعل منه على النار شيء ففاح منه ريح طيبة مختلفة لاتعرف فى نوع من انواع الطيب وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة مافيه من الناس على اختلاف اسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم وبازاء كل تمثال تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الاخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف أحد على استخراجها من أهل الملل وزعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم منذ فقد من أرض مصر أربعة

آلاف سنة وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا نصاري ولم يؤدهم الحفر الا لما ذكرناه من هـذه التماثيل وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وقد كان من سلف وخلف من ولاة مصر من أحمد بن طولون وغيره الى هذا الوقت وهو سنة ثنتين وثلاثين وثلثمائة لهم أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والاموال والجواهر وما أصيب فى هذه المطالب من القبور وقد أتينا علي ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا *(وركب) احمد بن طولون يوما الى الاهرام فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ومعهم المساحي والمعاول فسألهم عن مايعملون فقالوا نحن قوم نطلب المطالب فقال لهم لاتخرجوا بعدها الا بمشورتي أو رجل من قبلي وأخبروه أن في سمت الاهرام مطلبا قد عجزوا عنه فضم اليهم الرافقى وتقدم الى عامل الجيزة في اعانتهم بالرجال والنفقات وانصرف فأقاموا مدة يعملون حتي ظهر لهم فركب احمد بن طولون اليهم وهم يحفرون فكشفوا عن حوض مملوء دنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بالبربطية فأحضر من قرأه فاذا فيه انا فلان بن فلان الملك الذى ميز الذهب من غشه ودنسه فمن أراد أن يعلم فضل ملكي على ملكه فلينظر الى فضل عيار ديناري على عيار ديناره فان مخلص الذهب من الغش مخلص في حياته وبعد وفاته فقال احمد بن طولون الحمد لله ان مانبهتني عليه هـذه الكتابة أحب الى من المـال ثم أمر لكل من القوم المطالبية بمائتي دينار منه ولكل من الصناع بخمسة دنانير بعد توفية أجرة عمله وللرافقى بثلثمائة دينار ولنسيم الخادم بألف دينار وحمل باقي الدنانير فوجدها أجود من كل عيار وشدد من حينئذ في العيار بمصر حتي صار عيار ديناره الذي عرف بالاحمدى اجود عيار وكان لايطلى الا به

ذكر هلاك أموال أهل مصر

قال الله عز وجل وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتي يروا العذاب الاليم قال قد أجيبت دعوتكما هذا دعاء من موسى عليه السلام على فرعون وقومه من أهل مصر لكفرهم أن يهلك الله أموالهم قال الزجاج طمس الشئ اذهابه عن صورته * عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وعن محمد بن كعب القرظى أنهما قالا صارت اموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا فلم يبق معدن الا طمس الله عليه فلم ينتفع به احد بعدهم وقال قتادة بلغنا أن اموالهم وزروعهم صارت حجارة وقال مجاهد وعطية أهلكها الله تعالى حتي لاترى يقال عين مطموسة أى ذاهبة وطمس الموضع اذا عفا ودرس وقال ابن زيد صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة وقال محمد بن كعب وكان الرجل منهم يكون مع اهله وفراشه وقد صارا

حجر بن قال وقد سألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك فدعا بخريطة اصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وانها لحجارة وقال محمد بن شهاب الزهرى دخلت على عمر ابن عبد العزيز فقال يا غلام ائتني بالخريطة فجاء بخريطة نثر ما فيها فاذا فيها دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس وفول فقال كل يا ابن شهاب فاهويت فاذا هو حجارة فقلت ما هذا يا أمير المؤمنين قال هذا مما أصاب عبد العزيز بن مروان في مصر اذ كان عليها واليا وهو مما طمس الله عليه من اموالهم وقال المضارب بن عبد الله الشامى أخبرني من رأي النخلة بمصر مصروعة وانها لحجر ولقد رأيت ناسا كثيرا قياما وقعودا فى أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم أناس وانهم لحجارة ولقد رأيت الرجل من رقيقهم وانه لحارث على ثورين وانه وثوريه لحجارة ونقل وسمة بن موسي فى قصص الانبياء أن فرعون لما هلك وقومه وآمنت بنو اسرائيل بما تلته ندب موسي عليه السلام من نقبائه الاثني عشر نقيبين احدهما كالب بن موقيا والآخر يوشع بن نون مع كل واحد من سبطه اثنا عشر الفا وأرسلهما الي مصر وقد خلت من حاميها لغرق اهلها مع فرعون فأخذوا ذخائر فرعون وكنوزه وعادوا الى موسى فذلك توريثهم أرض مصر يعني قول الله عز وجل عن قوم فرعون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها قوما آخرين وقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها يعني ارض مصر اورثناها بني اسرائيل لانهم هم المستضعفون الذين كانوا فيها بدليل قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض * قال جامعه ومؤلفه رحمه الله تعالى أخبرنى داود بن رزق ابن عبد الله وكانت له سياحات كثيرة بارض مصر أنه عبر الى واد بالقرب من القامون بالوجه القبلى فرأى فيه مقاثات كثيرة ما بين بطيخ وقثاء وتفاح وكلها حجارة وكان قد أخبرني قديما بعض الاعيان أنه شاهد فى سفره الى البلاد من ارض مصر بطيخا كثيرا كله حجارة وكذلك البطيخ من الصيف الذى يقال له العبدلى

﴿ ذكر أخلاق اهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم ﴾

قال ابو الحسن على بن رضوان الطبيب مصر اسم فيما نقلت الرواة يدل على احد اولاد نوح النبى عليه السلام فانهم ذكروا أن مصر هذا نزل بهذه الارض فأنسل فيها وعمرها فسميت باسمه والذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الارض التي يفيض عليها النيل ويحيط بها حدود اربعة وهي أن الشمس تشرق على اقصي العمارة بالشرق قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالغرب بثلاث ساعات وثلثى ساعة فيجب من ذلك أن تكون هذه الارض فى النصف الغربى من الربع العامر والنصف الغربي من الربع العامر علي ما قال

ابقراط وبطليموس أقل حرارة وأكثر رطوبة من النصف الشرقى لانه قسم كوكب القمر والنصف الشرقي في قسم كوكب الشمس وذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقي قبل شروقها على النصف الغربي والقمر يهل على النصف الغربي قبل النصف الشرقي وقد زعم قوم من القدماء أن أرض مصر فى وسط الربع من المعمور من الارض بالطبع فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها فى النصف الغربى والحد الثالث هو أن أول بعد هذه الارض عن خط الاستواء في جهة الجنوب اسوان وبعدها عن خط الاستواء أثنان وعشرون درجة ونصف فالشمس تسامت رؤس اهلها مرتين في السنة عند كونها في آخر الجوزاء أو فى أول السرطان وفي هذين الوقتين لا يكون للقائم باسوان نصف النهار ظل أصلا فالحرارة واليبس والاحراق غالب على مزاجها لان الشمس تنشف رطوباتها ولذلك صارت ألوانهم سودا وشعورهم جعدة لاحتراق ارضهم والحد الرابع هو أن آخر بعد أرض مصر عن خط الاستواء في جهة الشمال طوف بحر الروم وعليه من أرض مصر بلدان كثيرة كالاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما وبعد دمياط عن خط الاستواء في الشمال أحد وثلاثون جزأ وثلث وهذا البعد هو آخر الاقليم الثالث وأول الاقليم الرابع فالشمس لا تبعد عنهم كل البعد ولا تقرب منهم كل القرب فالغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير الى الحرارة فان الموضع المعتدل على الصحة من البلدان العامرة وهو أول وسط الاقليم الرابع وأيضا فمجاورة دمياط للبحر واحاطته بها تجعلها معتدلة بين الحر والبرد خارجة عن الاعتدال الى الرطوبة فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذى ليس بحار ولا بارد ولذلك صارت ألوانهم سمرا وأخلاقهم سهلة وشعورهم سبطة واذا كان اول مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق وآخرها من جهة الشمال الغالب عليها الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة فما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة وتكون قوة حرارته بقدر بعده من أسوان وقربه من بحر الروم ومن أجل هذا قال أبقراط وجالينوس ان المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة قال وجبل لوقا فى مشرق هذه الارض يعوق عنها ريح الصبا فانه لم يوجد بفسطاط مصر صبا خالصة لكن متى هبت الصبا عندهم هبت نكبا بين المشرق والشمال أو المشرق والجنوب وهذه الرياح يابسة مانعة من العفن وقد عدمت أهل مصر هذه الفضيلة ومن أجل ذلك صارت المواضع التى تهب فيها ريح الصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها كالاسكندرية وتنيس ويعوق أيضا هذا الجبل اشراق الشمس على أرض مصر واذا كانت على الافق فيكون زمان لبث الشعاع على هذه الارض أقل من الطبيعي ومثل هذه الحال سبب لركود الهواء وغلظه وأرض مصر أرض كثيرة الحيوان والنبات جدا لا تكاد تجد فيها موضعا خلوا من الحيوان والنبات وهى أرض متخلخلة فانك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحمأة فاذا حلت

الحرارة مافيها من الرطوبة تشققت شقوقا عظاما والمواضع الكثيرة الحيوان والنبات أرض كثيرة العفونة وقد اجتمع على أرض مصر حرارة مزاجها وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات فأوجب ذلك احتراقها وسواد طينها فصارت أرضا سوداء وما قرب منها من الجبل سبخ اما بورقي أو مالح ويظهر من أرض مصر بالعشيات بخار أسود أو أغبر وخاصة في أيام الصيف وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة ويختص كل جزء منها بشيء دون غيره وعلة ذلك ضيق عرضها واشتمال طولها على عرض الاقليم الثاني والثالث فان الصعيد فيه من النخل والسنط وآجام القصب والبردى ومواضع احراق الفحم وغير ذلك شيء كثير والفيوم فيه من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شيء كثير وأسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتتفضل عن غيرها قال والنيل يرطب يبس الصيف والخريف فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية وانها ذات أجزاء كثيرة وأن هواءها وماءها رديئان وقد بين الاوائل أن المواضع الكثيرة العفن يتحلل منها في الهواء فضول كثيرة لاتدعه يستقر على حال لاختلاف تصعدها وقد كان استبان أن هواء أرض مصر يسرع اليه التغير لان الشمس لايثبت على أرض مصر شعاعها المدة الطبيعية فمن أجل هذين كثر اختلاف هواء أرض مصر فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة مرة حر ومرة برد ومرة يابس وأخرى رطب ومرة متحرك وأخرى ساكن ومرة الشمس صاحية ومرة قد سترها الغيم وبالجملة هواء مصر كثير الاختلاف غير لازم لطريقة واحدة فيصير من أجل ذلك في الاوعية والعروق من أخلاط البدن لايلزم حدا واحدا وأيضا فان ما يتحلل كل يوم من البخار الرطب بأرض مصر يعوقه اختلاف الهواء وقلة سمك الجبال وكثرة حرارة الارض عن الاجتماع فى الجو فاذا برد الهواء ببرد الليل انحدر هذا البخار على وجه الارض فيتولد عنه الضباب الذى يحدث عنه الطل والندا وربما تحلل هذا البخار بالتحلل الخفى فاذا يتحلل كل يوم ما كان اجتمع من البخار في اليوم الذى قبله فمن أجل هذا لايجتمع الغيم الممطر بأرض مصر الا فى الندرة وظاهر أيضا أن أرض مصر يترطب هواؤها فى كل يوم بما يترقي اليه من البخار الرطب وما يتحلل (وقد قال) بعض الناس ان الضباب يتكون من استحالة الهواء الى طبيعة الماء فاذا انضاف هذا الى ما قلناه كان أزيد فى بيان سرعة تغير الهواء بأرض مصر وكثرة العفونة فيها وقد استبان أن أرض مصر كثيرة الاختلاف كثيرة الرطوبة الفضلية التي يسرع اليها العفن (والعلة القصوى) فى جميع ذلك هو أن أخص الاوقات بالجفاف فى الارض كلها يكثر فيه بمصر الرطوبة لانها تترطب فى الصيف والخريف بمد النيل وفيضه وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأخر * وقد علمنا أبقراط أن

رطوبة الصيف والخريف فضلية أعني خارجة عن المجرى الطبيعي كرطوبة المطر الحادث في الصيف ومن أجل هذه قلنا ان رطوبة مصر فضلية وذلك أن الحرارة واليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعي وانما عرض له ما أخرجه عن اليبس الى الرطوبة الفضلية بمد النيل في الصيف والخريف ولذلك كثرت العفونات بهذه الارض فهذا هو السبب الاعظم في أن صارت أرض مصر على ما هي عليه من سخافة الارض وكثرة العفن ورداءة الماء والهواء الا أن هذه الاشياء لا تحدث في ابدان المصريين استحالة محسوسة اذا جرت على عادتها من أجل الف المصريين لهذه الحال ومشاكلة ابدانهم لها فان كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر في سخافة الابدان وضعف القوى وكثرة التغير وسرعة الوقوع في الامراض وقصر المدة كالحنطة بمصر فانها وشيكة الزوال سريع اليها العفن في المدة اليسيرة ولا مطعن أن أبدان الناس وغيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة وكيف لايكون الامر كذلك وأبدانهم مبنية من هذه الاشياء فحال ما يتولد بأرض مصر من النبات والحيوان في السخافة وكثرة الفضول والعفن وسرعة الوقوع في الامراض كحال سخافة أرضها وعفنها وفضولها وسرعة استحالتها لان النسبة واحدة ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها ونبات النبات بها فان هذه الاشياء من حيث ناسبتها ولم تبعد من مشاكلتها أمكن حياتها (فاما) الاشياء الغريبة فانها اذا دخلت الى مصر تغيرت في أول لقائها لهذا الهواء حتى اذا استقرت وألفت الهواء واستمرت عليه صحت مشاكلة لارض مصر *قال وأما جنس مايؤكل ويشرب بارض مصر فان الغلات سريعة التغير سخيفة متخلخلة تفسد في الزمان اليسير كالحنطة والشعير والعدس والحمص والباقلاء والجلبان فان هذه تسوس في المدة القليلة ليس لشيء من الاغذية التي تعمل منها لذاذة ما لنظيره في البلدان الأخر وذلك أن الخبز المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوما واحدا بليلته لايؤكل وان أكل لم يوجد له لذاذة ولا تماسك لبعضه ببعض ولا يوجد فيه علوكة ولكنه يتكرج في الزمان اليسير وكذلك الدقيق وهذا خلاف أخبار البلدان الأخر وكذلك الحال في جميع غلات مصر وفواكهها وما يعمل فيها فانها وشيكة الزوال سريعة الاستحالة والتغير فأما مايحمل من هذه الى مصر فظاهر أن مزاجها يتبدل باختلاف الهواء عليها ويستحيل عما كانت عليه الى مشاكلة أرض مصر الا أن ما كان جديدا قريب العهد بالسفر فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة فهذا حال الغلات (وأما) الحيوان الذي يأكله الناس فالبلدي منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس بهذه الاراضي في السخافة وسرعة الاستحالة فهو على هذا ملايم لطبائعهم والمجلوب كالكباش البرقية فالسفر يحدث في ابدانها تحلا ويبسا وأخلاطا لاتشاكل أخلاط المصريين ولهذا اذا دخلت مصر مرض اكثرها فاذا استقرت زمانا صالحا تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين (وأهل مصر) يشرب الجمهور منهم من ماء

النيل وقد قلنا في ماء النيل ما فيه كفاية وبعضهم يشرب مياه الآبار وهي قريبة من مشاكلتهم والمياه المخزونة فقل من يشربها بأرض مصر وأجود الاشربة عندهم الشمشي لان العسل الذي فيه يحفظ قوته ولا يدعه يتغير بسرعة والزمان الذي يعمل فيه خالص الحر فهو ينضجه والزبيب الذي يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواء (وأما الخمر) فقل من يعتصرها الا ويلقي معها عسلا وهي معتصرة من كرومهم فتكون مشاكلة لهم ولهذا صاروا يختارون الشمسي عليها وما عدا الشمسي والخمر من الشراب بأرض مصر فردئ لاخير فيه لسرعة استحالته من فساد مادته النبيذ التمرى والمطبوخ والمزر المعمول من الحنطة*وأغذية أهل مصر مختلفة فان أهل الصعيد يغتذون كثيرا بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها الى الفسطاط وغيرها لتباع هناك وتؤكل وأهل اسفل الارض يغتذون كثيرا بالقلقاس والجلبان ويحملون ذلك الى مدينة الفسطاط وغيرها فتباع هناك وتؤكل وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريا ومالحا وكثيرا يكثرون أكل الالبان وما يعمل منها وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كمكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها وبالجملة فكل قوم منهم قد باينت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها الا أن الغالب على أهل مصر الاغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة وهذا أيضا مما يؤكد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الامراض وأهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن ولذلك هم أصح أبدانا لان الرياضة تصلب أعضاءهم وتقويها وأهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتخلخلا وسخافة لشدة حرارة أرضهم من أسفل الارض وأهل أسفل الارض بمصر أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول لفتور حرارة أرضهم واستعمالهم للاشياء الباردة والغليظة كالقلقاس (وأما) أخلاط المصريين فبعضها شبيه ببعض لان قوى النفس تابعة لمزاج البدن وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شئ الى شئ والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي الى السلطان وذم الناس وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الانفس وليس هذه الشرور عامة فيهم ولكنها موجودة في أكثرهم ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الاسد واذا دخلت ذلت ولم تتناسل وكلابها أقل جراءة من كلاب غيرها من البلدان وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الاخر ما خلا ما كان منها في طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والارنب * وقال ان جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال ويناقض من ظن أنه حار رطب ومن شأن هذا الفصل أن تصح فيه الابدان

ويجود هضمها وتنتشر الحرارة الغريزية فيه ويصفو الروح الحيواني لاعتدال الهواء وصفائه ومساواة ليله لنهاره وغلبة الدم والهواء المعتدل هو الذى لا يحس فيه ببرد ظاهر ولا حر ولا رطوبة ولا يبس ويكون في نفسه صافيا نقيا فيقوى فيه الروح الحيوانى لهذا السبب وتصح الابدان ويكثر نشاط الحيوان وتنمو الاشياء وتزيد وتتوالد واذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده في وقت من السنة الا في أمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس عند ما تكون الشمس في النصف الاخير من الدلو والحوت والحمل والثور فانا نجد بمصر في هذا الزمان أياما معتدلة نقية صافية لا يحس فيها بحر ظاهر ولا برد ولا رطوبة ولا يبوسة وتكون الشمس فيها نقية من الغيوم والهواء ساكنا لا يتحرك الا أن يكون ذلك في برموده وبشنس فانه يحتاج الى أن تهب ريح الشمال ليعتدل ببردها حر الشمس وفي هذا الزمان تكثر حركة الحيوان وسفاده وتحسن أصواته وتورق الاشجار ويعقد الزهر وتقوي القوة المولدة ويغلب كيموس الدم وهذا الفصل في أرض مصر يتقدم زمانه الطبيعي بمقدار ما ينقص عن آخره وعلة ذلك قوة حرارة هذه الارض وقد يعرض في أول هذا الفصل أيام شديدة البرد وذلك في أمشير اذا هبت ريح الشمال وكانت الشمس غير نقية من الغيوم وعلة ذلك دخول فصل الربيع في فصل الشتاء فاذا هبت ريح الشمال برد ببردها الهواء فاعادته بعد الاعتدال الى البرد ولكثرة ما يصعد من الارض في هذا الزمان من البخار الرطب يرطب الهواء ويعود الى حاله في فصل الشتاء وربما برد الهواء من هبوب رياح أخر فان ريح الجنوب التي هي أشد الرياح حرارة اذا هبت في هذا الزمان اكتسبت برودة من الارض والماء اللذين قد بردها هواء الشتاء فاذا مرت بشيء بردته ببرودتها العرضية حتى اذا دام هبوبها أياما كثيرة متوالية عادت الى حرارتها وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا والدليل على أن برد رياح الجنوب التي تعرفها المصريون بالمريسى يتولد من برد مياه مصر وأرضها لا بشيء طبيعى لها أنه لا يجتمع في الجو في أيام هبوبها الضباب الذى يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار وجمع البرودة له بالليل فحرارة ريح الجنوب تفرق البرودة عن جمعه وتبدده فى الهواء واذا دام هبوب هذه الريح أسخنت الماء والارض وعادت الى طبيعتها في الحرارة واذا كان فصل الربيع يتقدم زمانه الطبيعي ويختلف هذا الاختلاف والهواء فى الاصل بمصر يختلف بكثرة استحالته وما يرقى اليه من البخار فما ظنك بغيره من الفصول ولذلك كثرت فيه الرياح وأخر الاطباء فيه سقي الادوية المسهلة الى أن يستقر أمره فى شمس الحمل مع الثور ثم يدخل فصل الصيف في آخر بشنس وبؤنة وأبيب وبعض مسرى عند ما تكون الشمس فى الجوزاء والسرطان والاسد وبعض السنبلة فيشتد الحر واليبس فى هذا الزمان وتجف الغلات وتنضج الثمار ويجتمع من أكلها في الابدان كيموسات

رديئة واذا نزلت الشمس فى السرطان أخذ النيل في الزيادة والفيض على أرض مصر فيتغير مزاج الصيف الطبيعي بكثرة ما يترقى الى الهواء من بخار الماء ويوجد فى أول هذا الفصل عند ما تكون الشمس في الجوزاء أيام يشا كل هواؤها هواء الربيع عند ما تكون الشمس مستورة بالغيوم أو تكون الريح الشمال هابة ولهـذا يغلط كثير من الاطباء ويسقى الادوية المسهلة في هذا الزمان لظنه أن فصل الربيع لم يخرج الا من كان منهم أحذق فهو يختار ما كان من هذه الايام أسكن حرارة والا كثر لا يشعرون البتة بهـذه الحال * وفى آخر الصيف يكون فيض النيل فظاهر أن هذا الفصل يتقدم دخوله الزمان الطبيعي بقدر مايتقدم آخره وانه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقي اليه من بخار الارض فلولا استمرار أبدانهم على هـذا الاختلاف ومشا كلتهم لهذه الحال لحدثت فيهم الامراض التى ذكر ابقراط أنها تحدث اذا كان الصيف رطبا * ثم يدخل فصل الخريف وطبيعته يابسة من النصف الاخير من مسرى ثم توت وبابة وبعض أيام هاتور وتكون الشمس فى آخر السنبلة والميزان والعقرب فتكمل زيادة النيل فى أول هذا الفصل ويطلق على الارضين فيطبق أرض مصر ويرتفع منه فى الجو بخار كثير فينتقل مزاج الخريف عن اليبس الى الرطوبة حتي انه ربما وقع فيه الامطار وكثرة الغيم في الجو ويوجـد في هذا الفصل أيام شديدة الحر لانها على الحقيقة ضعيفة فاذا نقى الجو من البخار الرطب عادت الى طبيعتها من الحرارة وفيه أيضا أيام شديدة الشبه بأيام الربيع تكون عند ما يساوى الليل النهار ويرطب الماء يبس الهواء ويشتد في هذا الفصل اضطراب الهواء بكثرة ما يرتقى اليه من البخار الرطب فيكون مرة حارا وأخري باردا ومرة يابسا وأكثر أوقاته يغلب عليه الرطوبة فلا يزال كذلك يتمزج حتى يغلب عليه. وطوبة الماء فى آخر الامر ويصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جـدا يولد أكلها فى الابدان أخلاطا لزجة وكثيرا ما يستحيل الى الصفراء اذا صادفت فى البدن خلطا صفراويا فمن أجل ذلك يضطرب ما في الابدان من الروح الحيوانى وتهييج الاخلاط ويفسد الهضم فى البطون والاوعية والعروق ويتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الاخلاط بعضها مرة صفراء وبعضها مرة سوداء وبعضها بلغم لزج وبعضها خلط خام وبعضها مرة محترقة وكثير منها يتركب من هـذه الاشياء فتثير الامراض حتى اذا انصرف النيـل فى آخر الخريف وانكشفت الارض وبرد الهواء وكثرت الاسماك واحتقن البخار وكثر ما يرتفع به من الارض من العفونة واستحكم عند ذلك وجود العفن تزايدت الامراض ولولا ألف أهل مصر لهذه الاشياء لكان ما يحدث فيهم من الامراض أكثر من ذلك ثم يدخل فصـل الشتاء وطبيعته باردة رطبـة من النصف الآخر من هاتور ثم كيهك وطوبة وذلك عنـد ما تكون الشمس في القوس والجدى وبعض الدلو

وذلك أقل من ثلاثة أشهر والعلة في ذلك قوة حرارة أرض مصر وكون الابدان مضطربة وتنكشف الارض في أول هذا الفصل وتحرث وتعفن بالجملة لكثرة ما يلقى فيها من البزور ومافيها من أزبال الحيوان وفضولها ولانها سخيفة وهي كالحمأة في هذا الزمان فيتولد فيها من أنواع الفار والدود والنبات والعشب وغير ذلك ما لا يحصى كثرة ويحلل منها في الجو أبخرة كثيرة حتى يصير الضباب بالغدوات ساترا للابصار عن الالوان القريبة ويصاد أيضا من الاسماك المحبوسة في المياه المخزونة شيء كثير وقد داخلها العفن لقلة حركتها فيولد أكلها في الابدان فضولا كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن فتقوي الامراض في أول هذا الفصل حتى اذا اشتد البرد وقوى الهضم في الابدان واستقر الهواء على شيء واحد وعادت الحرارة الغريزية الى داخل وتطبقت الارض بالنبات وسكنت عفونتها صحت عند ذلك الابدان وهذا يكون في آخر كيهك أو في طوبة فقد استبان أن الفصول بارض مصر كثيرة الاختلاف وأن أردأ أقوات السنة عندهم وأكثرها أمراضا هو آخر الخريف وأول الشتاء وذلك في شهر هاتور وكيهك فاذا اختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة فمضرة الفصول اذا بالابدان في أرض مصر أقل منها في البلدان الأخر اذا اختلفت هذا الاختلاف واستبان أيضاً أن السبب الاول في ذلك هو مدّ النيل في أيام الصيف وتطبيقه الارض في أيام الخريف بخلاف ماعليه مياه الانهار في العمارة كلها فانها انما تمد في أخص الاوقات بالرطوبة وهو الشتاء والربيع * قال وقد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضلية بأرض مصر كثيرة وظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة فاني أنا فلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها لايشوبها في أول أمرها البلغم والخلط الخام والامراض كلها تحدث عندهم في الاوقات كلها كما قال أبقراط وأكثر أمراضهم هي الفضلية أعني العفنة من أخلاط صفراوية وبلغمية على مايشاكل مزاج أرضهم وما ذكرناه فيما تقدم يوجب حدوث الامراض كثيرا إلا أن مشاكلة هذه بعضها بعضا واتفاقها في سنة واحدة تمنع من أن تكون في أنفسها ممرضة متى لزمت العادة فأما اذا خرجت عن عادتها فهي تحدث مرضا وخروجها عن عادتها بمصر هو الذي أعده اختلافا ممرضا لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم والنيل ليس يحدث في الابدان كل سنة مرضا ولكنه اذا أفرطت زيادته ودام مدة تزيد على العادة كان ذلك سببا لحدوث المرض الوافد فان قيل اذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة على ما ذكرت فلعلها في مرض دائم فالجواب لسنا نبالي بهذا كيف كان لان المرض هو ما يضر بالفعل ضررا محسوسا من غير توسط فمن أجل ذلك ليس أبدان المصريين في مرض دائم ولكنها كثيرة الاستعداد نحو الامراض قال أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية وظهر أن أكثرها الامراض الفضلية التي يشوبها صفراء وخام على أن باقي

الامراض تحدث عنــدهم بسرعة وقرب وخاصة في آخر الخريف وأول الشتاء * وأما الامراض الوافدة ومعنى المرض الوافد هو ما يعم خلقا كثيرا فى بلد واحد وزمان واحــد ومنه نوع يقــال له الموتان وهو الذى يكثر معه الموت وحدوث الامراض الوافدة تكون عن أسباب كثيرة يجتمع في أجناس أربعة وهى تغير كيفية الهواء وتغير كيفية الماءوتغير كيفية الاغذية وتغير كيفية الاحداث النفسانية فالهواء تغير كيفيته على ضربين أحدهما تغيره الذى جرت به العــادة وهذا لايحدث مرضا وافدا وليس تغيرا ممرضا والثاني التغير الخارج عن مجرى العادة وهــذا هو الذى يحــدث المرض الوافد وكذلك الحال فى الاجناس الباقية وخروج تغير الهواء عن عادته يكون اما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يرطب أو يجفف أو يخالطه حال عفنة والحالة العفنة اما أن تكون قريبة أو بعيــدة فان ابقراط وجالينوس يقولان انه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض واحد عن عفونة اجتمعت فى بلاد الحبشة وتراقت الى الجو وانحدرت على اليونانيين فأحدثت فيهم المرض الوافد وقد يتغير أيضا مزاج الهواء عن العادة بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر وساءت أخلاطهم فيخالط الهواء منها شيء كثير ويقع الاعداء في الناس ويظهر المرض الوافد والماء أيضا قد يحــدث المرض الوافد اما بأن يفرط مقداره في الزيادة أوالنقصان أو يخالطه حال عفنة ويضطر الناس الى شربه ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم وهذه الحال تخالطه اما قريبا أو بعيدا بمنزلة مايمر فى جريانه بموضع جرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شيء كثير أو بمياه تقاطع عفنة فيحدرهــا معه ويخالط جسمه والاغذية تحدث المرض الوافد اما اذا لحقها اليرقان وارتفعت أسعارها واضطر الناس الى أكلها واما اذا أكثر الناس منها فى وقت واحد كالذى يكون فى الاعياد فيكثر فيهم التخم ويمرضون مرضا متشابها واما من قبيل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل أو فساد الماء الذى يشرب والاحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متي حدث فى الناس خوف عام من بعض الملوك فيطول سيرهم وتفكرهم فى الخلاص منه وفي وقوع البلاء فيسوء هضمهم وتتغير حرارتهم الغريزية وربما اضطروا الى حركة عنيفة في هذه الحال أو يتوقعوا قحط بعض السنين فيكثرون الحركة والاجتهاد في ادخار الاشياء ويشتد غمهم بما سيحدث فجميع هذه الاشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد متي كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد ووقت واحد وظاهر أنه اذا كثر في وقت واحد المرضى بمدينة واحدة ارتفع من أبدانهم بخار كثير فيتغير مزاج الهواء فاذا صادف بدنا مستعدا أمرضه وان كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض اليه الناس فالامراض الوافدة بمصر تحدث اما عن فساد لم تجر به العادة يعرض الهواء سواء كان مادة فساده من أرض مصر أو من البلاد التي تجاورها كالسودان والحجاز والشــام وبرقة أو يعرض للنيل بأن تفرط

زيادته فتكثر زيادة الرطوبة والعفن أو تقل زيادته جدا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس الى شرب مياه رديئة أو يخالطه عفونة تحدث عن جرب يكون بأرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعفنه ويتصل عفنه اليهم أو يسيل الماء ويحمل معه العفن أو يغلو السعر أو يلحق الغلات آفة أو يدخل على الكباش ونحوها مضرة أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط وكل واحد من هذه الاسباب يحدث فى أرض مصر مرضا وافدا يكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له وان كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع فى القتل * قال فمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية وما قرب من الجنوب بارض مصر كان أسخن وأقل عفنا فى ماء النيل مما كان منها فى الشمال ولا سيما من كان فى شمال الفسطاط مثل أهل البشمور فان طباعهم أغلظ والبله عليهم أغلب وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدا ويشربون من الماء الردىء * وأما اسكندرية وتنيس وأمثال هذه فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم ولا يعرض لهم ما يعرض لاهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية واحاطة البحر بمدينة تنيس توجب غلبة الرطوبة عليها وما يسر أخلاق أهلها قال انه لما كانت أرض مصر وجميع ما فيها سخيفة الاجسام سريعا اليها التغير والعفن وجب على الطبيب أن يختار من الاغذية والادوية ما كان قريب العهد حديثا لان قوته تعد باقية عليه لم تتغير كل التغير وان يجعل علاجه ملايما لما عليه الابدان بأرض مصر ويجتهد فى أن يجعل ذلك الى الجهة المضادة أميل قليلا ويجتنب الادوية القوية الاسهال وكل ماله قوة مفرطة وان نكاية هذه الابدان سريعة سيما وأبدان المصريين سريعة الوقوع في النكايات ويختار ما يكون من الادوية المسهلة وغيرها ألين قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين منها كلفة ولا يلحق أبدانهم مضرة ولا يقدم على الادوية الموجودة فى كتب أطباء اليونانيين والفرس فان أكثرها عملت لابدان قوية البنية عظيمة الاخلاط وهذه الاشياء قلما توجد بمصر فلذلك يجب على الطبيب أن يتوقف في اعطاء هذه الادوية للمرضى ويختار ألينها وينقص عن مقدار شرباتها ويبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه فيتخذ السكنجبين السكرى فى مقام العسلي والجلاب بدلا من ماء العسل واعلم ان هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الادوية ضعفا فى قوتها فأعمار الادوية المفردة والمركبة المعجون منها وغير المعجون بمصر أقصر من أعمارها في غير مصر فيحتاج الطبيب بمصر الى تقدير ذلك وتمييزه حتى لا يشتبه عليه شئ مما يحتاج اليه واذا لم يكتف في تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة فلا بأس باعادته بعد أيام فان ذلك أحمد من ايراد الدواء الشديد القوة في دفعة واحدة قال ولكون أرض مصر تولد في الاجسام سخافة وسرعة قبول للمرض وجب أن تكون الابدان

على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جداً فأما الابدان الباقية فكثيرة وأن تكون الصحة التامة عندهم على الامر الاكثر في القرينة من الهيئة الفاضلة والطريق الاولى التي تدبر بها الابدان ان في الهيئة الفاضلة يحتاج فيها بأرض مصر الى أن يدبر الهواء والغذاء والماء وسائر الاشياء تدبيرا يصير به في غاية الاعتدال ولان الهضم كثيرا ما يسوء بأرض مصر وكذلك الروح الحيواني فيجب صرف العناية الى مراعاة أمر القلب والدماغ والكبد والمعدة والعروق وسائر الاعضاء الباطنة في تجويد الهضم واصلاح أمر الروح الحيواني وتنظيف الاوساخ الاححة وقال في شرح كتاب الاربع لبطليموس وأما سائر أجزاء الربع الذى يميل الى وسط جميع الارض المسكونة أعنى بلاد برقة وسواحل البحر من مريوط الى الاسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما وأسفل الارض بمصر ونواحي مدينة منف ومدينة الفسطاط وما يلي شرقي النيل من صعيد مصر والفيوم الى أعلى الصعيد مما في غرب النيل وأرض الواحات وأرض النوبة والبجة والارض التي على البحر في شرقي بلاد النوبة والحبشة فان هـذه البلاد موضوعة في الزاوية التي تؤثر في جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور والجنوب وهى من جملة النصف الغربي من الربع المعمور والكواكب الخمسة المتحيرة تشترك في تدبيرها فصار أهلها محبين لله ويعظمون الجن ويحبون النوح ويدفنون موتاهم فى الارض ويخفونهم ويستعملون سننا مختلفة وعادات وآراء شتى لميلهم الى الاسرار التي تدعو كل طائفة منهم الى أمر من الامور الخفية فيعتقده ويوافقه جماعة ومن أجل هـذه الاسرار كان المستخرج للعلوم الدقيقة كالهندسة والنجوم وغيرها في الزمان الاول أهل مصر ومنهم تفرقت فى العالم واذا ساسهم غيرهم كانوا اذلاء والغالب عليهم الجبن والاستحذاء في الكلام واذا ساسوا غيرهم كانت انفسهم طيبة وهممهم كثيرة ورجالهم يتخذون نساء كثيرة وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال وهم منهمكون في الجماع ورجالهم كثيرو النسل ونساؤهم سريعات الحمل وكثير من ذكر انهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة * وقال أبو الصلت وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفو الاصناف والاجناس من قبط وروم وعرب واكراد وديلم وحبشان وغير ذلك من الاصناف الا أن جمهورهم قبط قالوا والسبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها من العمالقة واليونانيين والروم وغيرهم فلهذا اختلطت أنسابهم واقتصروا من التعريف بأنفسهم على الاشارة الى مواضعهم والانتماء الى مساقطهم فيها وحكي أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل الى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصروا وبقوا على ذلك الى أن فتحها المسلمون فأسلم بعضهم وبقي بعضهم على دين النصرانية وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات والاشتغال بالترهات والتصديق بالمحالات وضعف المرائر

والعزمات ولهم خبرة بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية اليه لما في اخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر وخصوا بالافراط فيها دون جميع الامم حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا وفي خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى * ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية * أكول لحيات البلاد شروب
فان يك باق افك فرعون فيكم * فان عصا موسى بكف خصيب

قال مؤلفه رحمه الله تعالى وقد مر لى قديما أن منطقة الجوزاء تسامت رؤس أهل مصر فلذلك يتحدثون بالاشياء قبل كونها ويخبرون بما يكون وينذرون بالامور المستقبلة ولهم في هذا الباب أخبار مشهورة (قال) ابن الطوير وقد ذكر استيلاء الفرنج على مدينة صور فساد الحفظ والحراسة على مدينة عسقلان فما زالت محمية بالابدال المجردة اليها من العساكر والاساطيل والدولة تضعف أولا فأولا باختلاف الآراء فثقلت على الاجناد وكبر أمرها عندهم واشتغلوا عنها فضايقها الفرنج حتى أخذوها في سنة ثمان واربعين وخمسمائة ولقد سمعت رجلا قبل ذلك بسنين يحدث بهذه الامور ويقول فى سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالامان* ومن هذا الباب واقعة الكنائس التي للنصارى وذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وسبعمائة والناس فى صلاة الجمعة كانما نودى فى أقليم مصر كله من قوص الى الاسكندرية بهدم الكنائس فهدم في تلك الساعة بهذه المسافة الكبيرة عدد كثير من الكنائس كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى ومن هذا الباب واقعة ألدمر وذلك أنه خرج الامير ألدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة في سنة ثلاثين وسبعمائة وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة فاشيع في هذا اليوم بعينه فى القاهرة ومصر وقلعة الجبل بأن واقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر فطار هذا الخبر في ريف مصر واشتهر فلم يكترث الملك الناصر محمد بن قلاون بهذا الخبر فلما قدم المبشرون على العادة أخبروا بالواقعة وقتل الامير سيف الدين ألدمر في ذلك اليوم الذى كانت الاشاعة فيه بالقاهرة قال جامع السيرة الناصرية كنت مع الامير علم الدين الخازن في الغربية وقد خرج اليها كاشفا فلما صليت انا وهو صلاة الجمعة وعدنا الى البيت قدم بعض غلمانه من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة قتل فيها جماعة من الاجناد وقتل فيها الامير ألدمر أمير جندار فقال له الامير علم الدين هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر قال لا فقال ويحك الناس ماتحضر من منى بمكة الا ثالث يوم بعد عيد النحر فكيف سمعتم هذا الخبر الذى لايسمعه عاقل فقال قد استفيض ذلك وكان الامر كما أشيع (ووقع) لى في شهر

رمضان من شهور سنة احدى وتسعين وسبعمائة أني مررت في الشارع بين القصرين بالقاهرة بعد العتمة فاذا العامة تحدث بأن الملك الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك واجتمع عليه الناس فضبطت ذلك فكان اليوم الذى خرج فيه من السجن وفي هذا الباب من هذا كثير * (ومن) اخلاق أهل مصر قلة الغيرة وكفاك ماقصه الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف عليه السلام ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه وشهادة شاهد من أهلها عليها بما بين لزوجها منها السوء فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله استغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين * وقال ابن عبد الحكم وكان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم مع فرعون ولم يبق الا العبيد والاجراء لم يصبرن عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوّجه وتتزوّج الاخرى أجيرها وشرطن على الرجال أن لايفعلوا شيئاً الا باذنهن فأجابوهن الى ذلك فكان امر النساء على الرجال فحدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن نساء القبط على ذلك الى اليوم اتباعا لمن مضى منهم لايبيع احدهم ولا يشترى الا قال أستأمر امرأتي وقال ان فرعون لما غرق ومعه أشراف مصر لم يبق من الرجال من يصلح للمملكة فعد الناس فى مراتبهم بنت الملك ملكة وبنت الوزير وزيرة وبنت الوالى وبنت الحاكم على هذا الحكم وكذلك بنات القوّاد والاجناد فاستولت النساء على المملكة مدة سنين وتزوجن بالعبيد واشترطن عليهم أن الحكم والتصرف لهن فاستمر ذلك مدة من الزمان ولهذا صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدوهن وأخبرني الامير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد ابن الغرابيلي الكركى رحمه الله تعالى انه منذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة في أخلاقه وترخصا لاهله ولينا ورقة طبع من قلة الغيرة ومما لم نزل نسمعه دائما بين الناس ان شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه * ومن أخلاق أهل مصر الاعراض عن النظر فى العواقب فلا تجدهم يدخرون عندهم زادا كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان بل يتناولون أغذية كل يوم من الاسواق بكرة وعشيا ومن أخلاقهم الانهماك فى الشهوات والامعان من الملاذ وكثرة الاستهتار وعدم المبالاة قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب وقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل كعب الاحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال ان الله تعالى لما خلق الاشياء جعل كل شيء لشيء فقال العقل انا لاحق بالشام فقالت الفتنة وانا معك وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك * ويقال لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق الايمان والحياء والنجدة والفتنة والكبر والنفاق والغني والفقر والذل والشقاء فقال الايمان أنا لاحق باليمن فقال الحياء وأنا معك

وقالت النجدة أنا لاحقة بالشام فقالت الفتنة وأنا معك وقال الكبر أنا لاحق بالعراق فقال النفاق وأنا معك وقال الغني أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك وقال الفقر أنا لاحق بالبادية فقال الشقاء وأنا معك وعن ابن عباس رضى الله عنهما المكر عشرة أجزا تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس ويقال أربعة لا تعرف في أربعة السخاء في الروم والوفاء في الترك والشجاعة فى القبط والعمر في الزنج * ووصف ابن العربية أهل مصر فقال عبيد لمن غلب أكيس الناس صغارا وأجهلهم كبارا (وقال المسعودى) لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك كتب الى حكيم من حكماء العصر انا لناس عرب قد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الارض ونسكن البلاد والامصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والاهوية فى سكانها فكتب اليه وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء ديار الفراعنة ومساكن الجبابرة ذمها أكثر من مدحها هواؤها كدر وحرها زائد وشرها مائد تكدر الالوان والفطن وتركب الاحن وهي معدن الذهب والجوهر ومغارس الغلات غير أنها تسمن الابدان وتسود الانسان وتنمو فيها الاعمار وفي أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة وهي بلدة مكسب ليست بلدة مسكن لترادف فتنها واتصال شرورها وقال عمر بن شبه ذكر ابن عبيدة في كتاب أخبار البصرة عن كعب الاحبار خير نساء على وجه الارض نساء أهل البصرة الا ماذكر النبي صلى الله عليه وسلم من نساء قريش وشر نساء على وجه الارض نساء أهل مصر وقال عبد الله بن عمر ولما أهبط إبليس وضع قدمه بالبصرة وفرخ بمصر وقال كعب الاحبار ومصر أرض نجسة كالمرأة العاذل يطهرها النيل كل عام * وقال معاوية بن أبي سفيان وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى والثلث الذين لاناس المسالمة يعنى القبط

﴿ ذكر شئ من فضائل النيل ﴾

أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه في حديث المعراج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثم رفعت الي سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت ماهذا ياجبريل قال هذه سدرة المنتهى واذا أربعة انهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ماهذا ياجبريل قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفي التوراة وخلق فردوسا في عدن وجعل الانسان فيه وأخرج منه نهران فقسمهما اربعة أجزاء جيحون المحيط بأرض حويلا وسيحون المحيط بأرض كوش وهو نيل مصر ودجلة الآخذ الى العراق والفرات * وروى ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال نيل مصر سيد الانهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب فاذا أراد الله أن يجرى

نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فتمده الانهار بمائها وفجر الله له الارض عيونا فأجرته الى ما أراد الله عز وجل فاذا انتهت جريته أوحى الى كل ماء أن يرجع الى عنصره وعن يزيد ابن أبي حبيب أن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه سأل كعب الاحبار هل تجد لهذا النيل في كتاب الله خبرا قال أى والذى فلق البحر لموسى اني لاجده في كتاب الله ان الله يوحى اليه في كل عام مرتين يوحى اليه عند جريته ان الله يأمرك أن تجري فيجرى ما كتب الله له ثم يوحى اليه بعد ذلك يانيل عد حميدا وعن كعب الاحبار أنه قال أربعة انهار من الجنة وضعها الله في الدنيا النيل نهر العسل في الجنة والفرات نهر الخمر في الجنة وسيحان نهر الماء فى الجنة وجيحان نهر اللبن في الجنة وقال المسعودى نهر النيل من سادات الانهار وأشراف البحار لانه يخرج من الجنة على ماورد به خبر الشريعة وقد قال ان النيل اذا زاد غاضت له الانهار والاعين والآبار واذا غاض زادت فزيادته من غيضها وغيضه من زيادتها وليس في أنهار الدنيا نهر يسمي بحرا غير نيل مصر لكبره واستبحاره * وقال ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث وفى حديثه عليه السلام نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ انما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الارض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب في ذلك ولا مؤنة وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لانهما لايفيضان على الارض ولا يسقيان الا شيئاً قليلا وذلك القليل بتعب ومؤنة فهذان في الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين

﴿ ذكر مخرج النيل وانبعاثه ﴾

اعلم ان البحر المحيط بالمعمور اذا خرج منه نهر الهند افترق قطعا كما تقدم وكان منه قطعة تسمى بحر الزنج وهي مما يلى بلاد اليمن وبحر بربر وفى هذه القطعة عدة جزائر منها جزيرة القمر بضم القاف واسكان الميم وراء مهملة ويقال لهذه الجزيرة أيضا جزيرة ملاى وطولها أربعة أشهر في عرض عشرين يوما الى أقل من ذلك وهذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب وفيها عدة بلاد كثيرة منها قرية واليها ينسب الطائر القمرى ويقال ان بهذه الجزيرة خشب ينحت من الخشبة ساق طوله ستون ذراعا يجذف على ظهره مائة وستون رجلا وان هذه الجزيرة ضاقت بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم يقال له جبل القمر * واعلم ان الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الارض وهو المسمى بجبل قاف وهو أم الجبال كلها تتشعب منه فيتصل في موضع وينقطع في آخر وهو كالدائرة لايعرف له أول اذ كان كالحلقة المستديرة لايعرف طرفاها وان لم يكن استدارة كرية ولكنها استدارة احاطة وزعم قوم أن أمهات الجبال جبلان خرج أحدهما من البحر المحيط في المغرب آخذا جنوبا وخرج الآخر من البحر الرومي آخذا شمالا حتى تلاقيا عند

السد وسموا الجنوبي قاف وسموا الشمالي قاقونا والا ظهر أنه جبل واحد ومحيط بغالب بسيط المعمور وانه هو الذى يسمى بجبل قاف فيعرف بذلك في الجنوب ويعرف في الشمال بجبل قاقونا ومبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السد آخذا من وراء صنم الخط المشجوج الى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين أخذا على غربي صين الصين ثم ينعطف على جنوبه مستقيما في نهاية الشرق على جانب البحر المحيط مع الفرجة المنفرجة بينه وبين البحر الهندى الداخلة ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندى المحيط مع خط الاستواء حيث الطول مائة وسبعون درجة ثم يتصل من شعبة البحر الهندي الملاقى لشعبة المحيط الخارجة الى بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير من وراء مخرج البحر الهندى في الجنوب وتبقى الظلمات من هاتين الشعبتين شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا مغربا ومخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل ثم ينفرج برأس البحرين شعبتان على مبدا هذا الجبل ويبقى الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء ومبدأ هــذا الجبل هنا وراء قبة ارين عن شرقيها وبعده منها خمس عشرة درجة ويقال لهذا الجبــل فى أوله المجرد ثم تمتد حتى تنتهى في القسم الغربى الى طوله الى خمس وستين درجة من أول المغرب وهناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر وينصب منه النيل وبه أحجار براقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت ويسمي مغناطيس الناس ويتشعب منه شعب تسمى اسيقى أهله كالوحوش ثم ينفرج منه فرجة ويمر منه شعب الى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى جبل وحشية به سباع لها قرون طوال لاتطاق وينعطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب منها شعبتان الى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيــل من الشرق والغرب فالشرقى يعرف بجبل قاقول وينقطع عند خط الاستواء والغربي يعرف بادمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى بحر الدمادم وينقطع تلقاء مجالات الحبشة مابين مدينة سفرة وحيمي وراء هذه الشعبة يمتد منه شعبة هى الام من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيقى المذكور الى خط الاستواء حيث الطول هناك عشرون درجة ويعرف هناك بجبل كرسقا به وبه وحوش ضارية ثم ينتهى الى البحر المحيط وينقطع دونه بفرجة وذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبورا ووراء هذا الجبل سودان يقال لهم تمتم يأكلون الناس ثم تتصل الام من ساحل البحر الشامى في شماله شرقي رومية الـكبرى مسامتا للشـعبة المسماة أدمدمه المنقطعة بين سمعرة وحيمي لا يكاد يخطوها حيث الطول خمس وثلاثون درجة ويقع منشأ اتصال هذه الام على عرض خمسين درجة وكذلك تقع شعبها الآخذة في الجنوب على عرض خمسين درجة عند آخرها مابين سردانة وبلنسية وتتناهى وصلة هــذه الام الى البحر المحيط في نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانيــة

وتبقى سوسية داخل الجبل ثم تمد هذه الام بعد انقطاع لطيف وينعطف انعطاف خرجة البحر المحيط في المغرب على الصقلب المسماة بحر الانفلشين ممتداً الى غاية المشرق ويسمى هناك بجبل قاقونا ويبقى وراءه البحر جامدا لشدة البرد ثم ينعطف من الشمال الى المشرق جنوبا بتغريب الى كتف السدّ الشمالى فيتلاقي هناك الطرفان وبينهما في الفـرجة المنفرجة سوّى ذو القرنين بين الصـدفين وفي جودة القمر ثلاثة أنهـار أحـدها في شرقيها من قنطورا ومعلا وثانيها في غربيها ينصب من جبل قدم آدم على مدينة سبا ويأخذ مارا على مدينة فردرا ويجر هناك بحيرة في جنوبها مدينة كما حيث محـل السودان الذين يأكلون الناس وثالثهـا في غربيها أيضا ويخرج من الجبل المشـبه ماء محدودب الذيل يطوف بمدينة دهما فتبقى مدينـة دهما في جزيرة بينهما يكون هو محيطا بهـا شرقا وجنوبا وغربا ويصـير لذلك كالجزيرة ويتصل شمالهـا بالبحر الهندى وتقع مدينـة قواره في غربيه حيث يصب في البحر الهندي * ومن جبـل القمر يخرج نهر النيـل وقد كان يتبدّد على وجه الارض فلما قدم نقراوش الجبار بن مصريم الاوّل بن مركابيل بن دوابيـل بن عرباب بن آدم عليه السـلام الى أرض مصر ومعه عدة من بني عرباب واستوطنوها وبنوا بها مدينـة أمسوس وغيرها من المدائن حفروا النيل حتى أجروا ماءه اليهم ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل ينبطح ويتفرق في الارض حتي وجه الى النوبة الملك نقراوش فهندسوه وساقوا منه أنهارا الى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها وساقوا منه نهرا الى مدينة أمسوس ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان وكانت أيام البودشير بن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام عدّل جانبي النيل تعديلا ثانيا بعد ما أتلفه الطوفان * قال الأستاذ ابراهيم ابن وصيف شاه فملك البودشير وتجبر وهو أول من تكهن وعمل بالسحر واحتجب عن العيون وقد كانت أعمـامه أشمن وأتريب وصا ملوكا على أحيازهم الا أنه قهرهم بجبروته وقوّته فكان الذكر له كما تجبر أبوه على من قبله لانه كان أكبرهم وكذلك أغضوا عنـه فيقال انه أرسل هرمس الكاهن المصرى الى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته حتي عمل هناك التماثيل النحاس وعدل البطيحة التي ينصب فيها ماء النيل ويقال انه الذي عدل جانبي النيل وقد كان يفيض وربما انقطع فى مواضع وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ومصاب مدورة وقنوات يجرى فيها الماء وينصب اليها اذا خرج من تحت جبل القمر حتي يدخل من تلك الصور ويخرج من حلوقها وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع وأذرع مقدرة وجعل ما يخرج من هـذه الصور من الماء ينصب الى الانهار ثم يصير منها الى بطيحتين ويخرج منهما حتي ينتهى الى البطيحة الجامعة للماء الذي يخرج من تحت الجبل وعمـل لتلك الصور مقادير

من الماء الذي يكون معه الصلاح بأرض مصر وينتفع به أهلها دون الفساد وذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر ذراعا بالذراع الذي مقداره اثنان وثلاثون أصبعا وما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور وشمالها الى مسارب يخرج ويصب في رمال وغياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء ولولا ذلك لغرق ماء النيل البلدان التي يمر عليها * قال وكان الوليد بن درمع العمليقي قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها فلما صار الى الشام انتهى اليه خبر مصر وعظم قدرها وان أمرها قد صار الى النساء وباد ملوكها فوجه غلاما له يقال له عون الى مصر وسار اليها بعده واستباح أهلها وأخذ الاموال وقتل جماعة من كهنتها ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الامم فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه وخرج في جيش عظيم فلم يمر بأمة الا أبادها ومر على أمم السودان وجاوزهم ومر على أرض الذهب فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل فيها من الانهار التي تخرج من تحت جبل القمر وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر وهو جبل عال وانما سمي جبل القمر لان القمر لا يطلع عليه لانه خارج من تحت خط الاستواء ونظر الى النيل يخرج من تحته فيمر في طرايق وأنهار دقاق حتى ينتهي الى حظيرتين ثم يخرج منهما في نهرين حتى ينتهي الى حظيرة أخرى فاذا جاوز خط الاستواء مدته عين تخرج من ناحية نهر مكران بالهند وتلك العين أيضا تخرج من تحت جبل القمر الى ذلك الوجه ويقال ان نهر مكران مثل النيل يزيد وينقص وفيه التماسيح والاسماك التي مثل أسماك النيل ووجد الوليد بن دومع القصر الذي فيه التماثيل النحاس التي عملها هرمس الاول في وقت البودشير بن قفطريم بن قبطيم بن مصرايم وقد ذكر قوم من أهل الاثر أن الانهار الاربعة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي من وراء البحر المظلم وهي سيحون وجيحون والفرات والنيل وأن تلك الارض من أرض الجنة وأن تلك القبة من زبرجد وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور وممن جاء بهذا رجل من ولد العيص بن اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام وصل الى تلك القبة وقطع البحر المظلم وكان يقال له حايد وقال آخرون تنقسم هذه الانهار على اثنين وسبعين قسما حذاء اثنين وسبعين لسانا للامم وقال آخرون هذه الانهار من ثلوج تتكاثف ويذيبها الحر فتسيل الى هذه الانهار وتسقى من عليها لما يريد الله عز وجل من تدبير خلقه قالوا ولما بلغ الوليد جبل القمر رأى جبلا عاليا فعمل حيلة الى أن صعد اليه ليرى ما خلفه فأشرف على البحر الاسود الزفتي المنتن ونظر الى النيل يجري عليه كالانهار الدقاق فأتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من أجلها فأسرع النزول بعد أن كاد

يهلك * وذكر قوم أنهم لم يروا هناك شمسا ولا قمراً الا نورا أحمر كنور الشمس عند غيابها وأما ما ذكر عن حايد وقطعه البحر المظلم ماشيا عليه لا يلصق بقدمه منه شيء وكان فيما يذكر نبيا وأوتي حكمة وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك فيقال انه أقام يمشي عليه ثلاثين سنة في عمران وعشرين سنة في خراب قالوا وأقام الوليد في غيبته أربعين سنة وعاد ودخل منف وأقام بمصر فاستعبدأهلها واستباح حريمهم وأموالهم وملكهم مائة وعشرين سنة فأبغضوه وسئموه الى أن ركب في بعض أيامه متصيدا فألقاه فرسه في وهدة فقتله واستراح الناس منه (وقال) قدامة بن جعفر في كتاب الخراج انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب الى بطيحة ثم يخرج من كل بطيحة نهران وتجرى الانهار الاربعة الى بطيحة كبيرة في الاقليم الاول ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل وقال في كتاب نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ان هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين يأكلون من وقع اليهم من الناس ومن هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة وبحر الحبشة فاذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى وبلاد ينه وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة فاذا بلغ دنقلة مدينة النوبة عطف من غربيها وانحدر الى الاقليم الثاني فيكون على شطيه عمارة النوبة وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى ثم يشرق الى الجنادل* وقال المسعودي رحمه الله تعالى رأيت في كتاب جعفر النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنى عشرة عينا فتصب تلك المياه الى بحيرتين هنالك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمر برمال هناك وجبال ويخرق أرض السودان فيما يلي بلاد الزنج فيتشعب منه خليج يصب في بحر الزنج ويجرى على وجه الارض تسعمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ في عامر وغامر من عمران وخراب حتى يأتي أسوان من صعيد مصر * وقال في كتاب هردسوس نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ثم يميل الى ناحية الغرب فيصير في وسطه جزيرة وآخر ذلك يميل الى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر وقيل ان مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل ثم يغيب في الرمال ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة ثم يميل على اليسار الى أرض مصر فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم اذ كان مجراه على ماحكيناه قال ونهر النيل وهو الذي يسمي باون مخرجه خفي ولكن ظاهر اقباله من أرض الحبشة ويصير له هناك محبس عظيم مجراه اليه مائتا ميل وذكر مخرجه حتى ينتهى الى البحر قال وكثيرا ما يوجد في نهر النيل التماسيح واقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد وعدة أمياله من مخرجه المعروف الى موقفه مائة ألف وتسعون ألفاً وتسعمائة وثلاثون ميلا وماء النيل عكر مرمل

عذب وفي انتهى والنيل اذا وصل الى الجنادل كان عند انتهاء مراكب النوبة انحدارا ومراكب الصعيد اقلاعا وهناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها الا في أيام زيادة النيل ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه أسوان من الصعيد الاعلى ويمر بين جبلين يكتنفان أعمال مصر أحدهما شرقي والآخر غربي حتى يأتي مدينة فسطاط مصر فتكون في بره الشرقي فاذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم صار فرقتين فرقة تمر حتى تصب في بحر الروم عند دمياط وتسمى هذه الفرقة بحر الشرق والفرقة الاخرى هي عمود النيل ومعظمه يقال لها بحر الغرب تمر حتى تصب في بحر الروم أيضا عند رشيد وكانت مدينة كبيرة في قديم الزمان * ويقال ان مسافة النيل من منبعه الى أن يصب في البحر عند رشيد سبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا وأنه يجرى في الخراب أربعة أشهر وفي بلاد السودان شهرين وفي بلاد الاسلام مسافة شهر * وذهب بعضهم الى أن زيادة ماء النيل انما تكون بسبب المد الذى يكون في البحر فاذا فاض ماؤه تراجع النيل وفاض على الاراضى ووضع في ذلك كتابا حاصله ان حركة البحر التى يقال لها المد والجزر توجد في كل يوم وليلة مرتين وفي كل شهر قمرى مرتين وفي كل سنة مرتين فالمد والجزر اليومي تابع لقرص القمر ويخرج الشعاع عنه من جنبتي جرم الماء فاذا كان القمر وسط السماء كان البحر في غاية المد وكذا اذا كان القمر في وتد الارض فاذا بزغ القمر طالعا من الشرق أو غرب كان الجزر والمد الشهرى يكون عند استقبال القمر للشمس في نصف الشهر ويقال له الامتلاء أيضا عند الاجتماع ويقال له السرار والجزر يكون أيضا في وقتين عند تربيع القمر للشمس في سابع الشهر وفي ثاني عشريه * والمد السنوى يكون أيضا في وقتين أحدهما عند حلول الشمس آخر برج السنبلة والآخر عند حلول الشمس بآخر برج الحوت فان اتفق أن يكون ذلك في وقت الامتلاء أو الاجتماع فانه حينئذ يجتمع الامتلاآن الشهري والسنوى ويكون عند ذلك البحر في غاية الفيض لا سيما ان وقع الاجتماع أو الامتلاء في وسط السماء ووقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة فانه يعظم الفيض فان وقع كوكب فصاعدا مع أحد النيرين تزايد عظم الفيض وكانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدا وزاد أيضا نهر مهران فان كان الاجتماع أو الامتلاء زائلا عن وسط السماء وليس مع احد النيرين كوكب فان النيل ونهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الانوار التي تثير المياه ويكون بمصر في السنة الغلاء والجزر السنوي يكون عند حلول الشمس برأسي الجدى والسرطان فأما المدّ اليوميّ الدافع من البحر المحيط فانه لا ينتهي في البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية ومساحتها من الارض نحو من ستين ميلا ثم ينصرف وانصرافه هو الجزر وكذلك الاودية اذا كانت الارض وهدة والمد الشهري ينتهى الى أقاصي البحار

وهو يمسكها حتى لا تنصب فى البحر المحيط وحيث ينتهي المد الشهرى فهناك منتهى ذلك البحر وطرفه وأما المد السنوى فانه يزيد فى البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة بينة ومن هـذه الزيادة تكون زيادة النيل وامتلاؤه وامتلاء نهر مهران والديتلو الذي ببلاد السند (قال) ولمـا جاء ارسطو الى مصر مع الاسكندر ورأى مصب النيل وعلم ان من المحال ان يكون النيل فى اسوان واد من الاودية وكلـا اسحل اتسع حتى ان عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى الى مائة ميل عنـد غاية الفيض وله أفواه كثيرة شارعة في البحر تسع كل ما يهبط من الميزان في ذلك الصنع فرأى محالا أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتي به أعلاه مع ضيق أعلاه وسعة أسفله فلما رأى ذلك قال ان رياحا تستقبل جرية الماء وتردعه فيفيض لذلك وقال الاسكندر ان من المحال ان يكون الريح يردع الماء السائل في الوادى حتى يفيض اكثر من مائة ميل ولو كانت الريح تفعل ذلك لـكان المـاء ينفلت من أسفل الوادى ويسيل الى البحر لان البحر لا يمسك الا أعلاه ولـكن الرياح تقذف الرمل في أفواه تلك الشوارع التي تفضي الى البحر فيعثر بها شبه الردم فيفيض قال وأغفل ان الرمل جسم متخلخل فالماء يتخلله وينفذه سائلا الى البحر مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحس والماء سائل في كل حين على حلق تنيس ودمياط وحلق رشيد وحلق الاسكندرية ففطنوا لاستحالة كونه سائلا عن سيل حامل ونسبوا توقفه الى الريح والرمل وهم استقصوا الهواء واستقصوا الارض وأغفلوا الاستقصاء الثالث الذي هو المـاء لانهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لانها لا تبلغ الغاية الا فى ثلاثة أشهر فلا يظهر مقدار صعودها فى كل يوم للحس ولذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر * قال والمد كله واحد وهو أن القمر يقابل الماء كما تقابل الشمس لارض فنور القمر اذا قابل كرة الارض سخنها كما تسخن الشمس الهواء المحيط فيعتري الهواء المحيط بالمـاء بعض تسخين يذيب الماء فيفيض وينمو بخاصته كالمرآة المحرقة الملهبة للجو حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرآة والشمس فهذا مثاله في المقابلة ومثاله فى المسرار كون الزجاجة المملوءة ماء يلقى الشعاع الى حلقها فتحترق القطنة أيضاً فالقمر جسم نوريّ باكتسابه ذلك من الشمس فاذا حال بين الشمس والارض خرج عن جانبى الماء شعاع نافذ يمر مع جنبى الماء فيسخن ما قابله فينمو المـاء جسم شفاف عن جانبيه يخرج الشعاع كما يخرج عن جانبي الزجاجة فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو بالارض فيقترف الماء شبه تسخين يمو به ويزيد وذلك قبالة القرص وقبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر فهذا هو المد دائما ويستدير باستدارة الفلك وتدويره لفلك القمر وتدوير فلك القمر للقمر والمد الشهري هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها لانه ليس الا كون القمر قباله الشمس لـكونه فى تربيع الشمس أضعف وفى

المقابلة أقوى وكذلك اذا قابلها على وسط كرة الارض بحيث تكون الحركة أشد والاكتناف للماء والارض أعم فذلك هو المد السنوى

فصل فى الرد على من اعتقد ان النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم مايجيء على وجه الارض انه سيل ومن تفطن الى عظمه واتساعه في أسفله وضيقه في أعلاه ولم ينظر الى ماء ولا أرض ولا هواء نسب ذلك الى الخيال المحض كما فعل صاحب كتاب المسالك والممالك الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن الى النيل تحت الارض فيمده لان النيل انما يفيض فى الخريف والعيون والآبار في ذلك الوقت يقل ماؤها والنيل يكثر فرأوا كثرة وقلة فأضافوا أحدهما الى الآخر بالخيال ومما يدلك على أنه ليس عن سيل يفيض أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر ولا يفيض النيل لسكون البحر في الجزر فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع (ومنها) أن فيض النيل على تدريج مدة ثلاثة اشهر من حلول الشمس رأس السرطان الى حلولها بآخر برج السنبلة والناس يحسبون به قبل فيضه بعدة شهرين ولعامل مصر فى وسط النيل مقياس موضوع وهو سارية فيها خطوط يسمونها اذرعا يعلم بها مقدار صعوده في كل يوم (ومنها) أن فيضه أبدا في وقت واحد فلو كان بالسيل لاختلف بعض الاختلاف (ومنها) أنه قد يجيء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض (ومنها) أن الحذاق بمصر اذا رأوا الحر يزيد علموا أن النيل سيزيد لان شدة الحر تذيب الهواء فيذوب الماء ولا يكون الا عن زيادة كوكب ودنو نور (ومنها) أن موضع مصبه من أسوان انما هو واد من الاودية وما أسحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحوا من مائة ميل وأسوان هو منتهى بلوغ الردع فما ظنك بسيل مسيره نصف شهر لان نسبة بين مصب أعلاه واسفله كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء اسفله عن السيل (ومنها) أن أهل اسوان انما يرقبون بلوغ الردع اليهم مراقبة ويحافظون عليه بالنهار محافظة فاذا جن الليل أخذوا حقة خزف فوضعوا فيها مصباحا ثم يضعونه على حجر معد عندهم لذلك وجعلوا يرقبونه فاذ اطفئ المصباح يطفو الماء عليه علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم بأخذه فى الجزر فيكتبوا بذلك الى أمير مصر يعلموه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم وأنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب فحينئذ يأمر بكسر الاسداد التى على أفواه قرص المشارب فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة (ومنها) أن جميع تلك المشارب تسد عند ابتداء النيل بالخشب والتراب ليجتمع ما يسيل من الماء العذب فى النيل ويكثر ويعم جميع أرضهم ويمنع بجملته دخول الماء الملح عليه فلو كان سيلا ما احتاج الى ذلك ولفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره (ومنها) أن الخلجان اذا سدت ولم يكن لها رادع من البحر كان السيل من جنبه الى البحر اذ أسفل النيل اوسع

وأخفض من أعلاه (ومنها) أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد وتنيس ودمياط كما يفعل فى سائر الاودية التى تدخل المد والجزر فلو كان النيل خاليا من الماء العذب وصل البحر من أسوان الى منتهى بلوغ الردع لان الماء يطلب بطبعه ما انخفض من الارض وأن يكون فى صفحة كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة الى المحيط متساوية (ومنها) انها اذا فتحت تلك الاسداد وكسرت الخليج وفاض النيل على بطائح أرض مصر شعر بذلك أهل اسوان للحين وقالوا فى هذه الساعة كسرت الخليج وفاض ماء النيل على أرض مصر لان ذلك يتبين لهم بحول الماء دفعة فلو كان سيلا وهم على أعلى المصب لقالوا قد ارتفع المطر عن الارض التي يسيل منها السيل (ومنها) أن قسيمه الذى يمر ببلاد الحبشة المنبعث واياه من جبل القمر لايفيض كمدة فيض النيل ثلاثة أشهر ولا يقيم على وجه الارض مدة مقامه لكنه اذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها واذا نضبت مادته أردع عليه فلو كان فيض النيل عن السيل وهما من شعب واحد لكان شأنهما واحدا ولا نقول ان فيض النيل بسبب فيض البحر فقط اذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر اليه ولكان شاطئ ديار مصر كسائر السواحل المجاورة له ولولا السيل السائل فيه لردمه البحر اذ عادة البحر ردم السواحل وانما دخل الشك على أهل مصر فى أيام النيل لانهم لم يشاهدوا منشأه ولا عاينوا مبداه من جبل القمر لانه في موضع لاساكن عليه ولا تحققوا المد السنوى الرادع له فلم يحققوا شيئاً من أمره لانه بعيد من أذهان العامة أن يعلموا أن ماء البحر يعظم في أيام الصيف لان المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء وطمو البحر فى الشتاء انما يكون عن الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه فيفيض ويخرج الى الجانب الآخر الا ما كان من البحر المحيط فانه يتحرك أبدا من داخل البحر الى البر وهو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الارض والارض ليست بسيطة فهى تمانعه بما فيها من التركيب فهو يطلب أبدا أن يعلوها ويركبها ببردها قال والسبب فى عظم المد والجزر كثرة الاشعة فاذا زاحمت الشمس والقمر الكواكب السيارة عظم فيض البحر واذا عظم فيض البحر فاضت الانهار وكذلك اذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار وصعد الى كورة الزمهرير ونزل المطر فاذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل كما يكون في نصف النهار عند توسط الشمس لرؤس الخلق وكما يكون عند حلول الكواكب الكبيرة على وسط خط أرين والله تعالى أعلم بالصواب (قال) مؤلفه رحمه الله تعالى الذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر وان زيادته انما هي من فيض البحر عند المد فاما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم اذ لانزاع في ذلك وأما كون زيادته لاتكون الا من ردع البحر له بما حصل فيه من المد فليس كذلك نعم توالي هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة وردع

البحر له اعانة على الزيادة ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ولا بد فانه لايزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة فاذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ومال لونه الى الخضرة وصار بحيث اذا وضع في اناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب وسبب ذلك أن البطيحة التي فى أعالي الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها فاذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف وعظمت السيول الهابطة في هذه البطيحة فاض منها ما تغير من الماء وجرى الى أرض مصر فيقال عند ذلك توحم النيل ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزاد عكره بزيادة الماء فاذا وضع منه أيام الزيادة شيء في اناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التي تنصب في النيل حتى تكون زيادته منها وفيه يكون الزرع بعد هبوط النيل والا فارض مصر سبخة لاتنبت ولا ينبت منها الا مامر عليه ماء النيل وركد منه هذا الطين وقوله ان السيل يكون فى غير وقت فيض البحر ولا يفيض النيل لكون البحر في الجزر فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع غير مسلم وأن العادة أن السيول التي عليها زيادة ماء النيل لاتكون الا عن غزارة الامطار ببلاد الجنوب وأمطار الجنوب لاتكون الا في أيام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه انما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول وانما استدلاله بصب النيل في أسوان واتساعه أسفل الارض فانما ذلك لانه يصب من علو فى منخرق بين جبلين يقال لهما الجنادل وينبطح في الارض حتى يصب فى البحر فاتساعه حيث لايجد حاجزا يحجزه عن الانبساط وأما قوله ان الاسداد اذا كثرت فاض الماء على الارض دفعة فليس كذلك بل يصير الماء عند كسر كل سد من الاسداد في خليج ثم يفتح ترع من الخليج الى الخليج الى بناء على جانبيه من الاراضي حتى يروى فمن تلك الاراضى مايروى سريعا ومنها مايروى بعد أيام ومنها مالا يروى لعلوه وأما قوله ان جميع تلك المشارب تستد عند ابتداء صعود النيل ليجتمع مايسيل من الماء في النيل ويكثر فيعم جميع أرضهم ويمنع بجملته دخول الماء المالح عليه فغير مسلم أن تكون السداد كما ذكر بل أراضى مصر أقسام كثيرة منها عال لا يصل اليه الماء الا من زيادة كثيرة ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة والاراضى متفاوتة في الارتفاع والانخفاض تفاوتا كثيرا ولذلك احتيج في بلاد الصعيد الى حفر الترع وفي أسفل الارض الى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليروى أهل النواحي على قدر حاجتهم اليه عند الاحتياج والا فهو يزيد أولا في غير سقى الاراضى حتى اذا اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الاراضى فى وقت خلو الاراضى من الغلال وذلك غالبا في أثناء شهر مسرى فتح سد الخليج حتى يجرى فيه الماء الى حد معلوم ووقف حتى يروى ماتحت ذلك الحد الذى وقف عنده الماء من الارض

ثم فتح ذلك الحد فى يوم النيروز حتي يجرى الى حد آخر ويقف عنده حتي يروى ماتحت هذا الحد الثانى من الاراضى ثم يفتح هـذا الحد في يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوما حتي يجرى المـاء ويقف على حد ثالث حتى يروى ماتحت هذا الحد من الاراضي ثم يفتح هذا الحد فيجرى الماء ويروى ماهنالك من الاراضي ويصب فى البحر الملح هذا هو الحال في سدود أراضي مصر وقوله ان ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد وتنيس ودمياط فلو كان خاليا من الماء العذب لوصل البحر من اسوان الى منتهى بلوغ الردع فنقول هذا قول من لم يعرف أرض مصر فان النيل عند مصبه بأعالى اسوان يكون أعلى منه عند كونه أسفل الارض بقامات عديدة فاذا فاض ماء البحر حبسه أن يتدافع هو وماء النيل وربما غلب ماء البحر ماء النيل فى أيام نقصان النيل حتى يملح ماء النيل فيما بين دمياط وفارس كور وأما في أيام زيادة النيل فاني شاهدت مصب النيل فى البحر من دمياط وكل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه حتى صارا متمانعين عبرة لمن اعتبر وقوله ان الاسداد اذا فتحت علم أهل اسوان بذلك فى الحال غير مسلم بل لم نزل نشاهد النيل فى الاعوام الـكثيرة اذا فتح منه خليج أو انقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة لايظهر النقص فيه الا فيما قرب من ذلك الموضع وما برح المفرد يخرج من قوص ببشارة وفاء النيل وقد أوفي عندهم ستة عشر ذراعا فلا يوفي ذلك المقياس بمصر الا بعد ثلاثة أيام ونحوها وأما قوله انما كان من النيل يمر ببلاد الحبشة يخالفه فليس كذلك بل الزيادة في النيل أيام زيادته تكون ببلاد النوبة وما وراءها في الجنوب كما تكون فى أرض مصر ولا فرق بينهما الا فى شيئين أحدهما أنه في أرض مصر يجرى فى حدود وهناك يتبدد على الاراضي والثاني أن زيادته تعتبر بالقياس في أرض مصر وهناك لايمكن قياسه لتبدده ومن عرف أخبار مصر علم أن زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب * ويقال ان النيل ينصب من عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم ذكره كل خمسة أنهار من شعبة ثم تتبحر تلك الانهار العشرة فى بحرين كل خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطيف يأخذ شرقا على جبل قاقولى ويمتد الى مدن هناك ثم يصب في البحر الهندى ويخرج من البحيرتين سـتة انهار من كل بحيرة ثلاثة أنهار وتجتمع الانهار الستة فى بحيرة متسعة تسمي البطيحة وفيها جبل يفرق المـاء نصفين يخرج أحدهما من غرب البطيحة وهو نيل السودان ويصير نهرا يسمي بحر الدمادم ويأخذ مغربا ما بين سمغرة وغانة على جنوبى سمغرة وشمالى غانة ثم ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوبا الى غانة ثم تمر على مدينة برنسه وتأخذ تحت جبل في جنوبها خارج خط الاستواء الى زفيلة ثم تتبحر في بحيرة هناك وتستمر الفرقة الثانية مغربة الى بلاد مالى والتكرور حتى تنصب في البحر المحيط شمالى مدينـة قلبتو ويخرج النصف

الآخر متشاملا آخذا على الشمال الى شرقي مدينة حيما ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا الى مدينة سحرت ثم ترجع جنوبا ثم تعطف شرقا بجنوب الى مدينة سحرتة ثم الى مدينة مركه وينتهي الى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة ويتبحر هناك بحيرة ويسمي عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقي مدينة شيمي متشاملا آخذا على أطراف بلاد الحبشة ثم يتشامل على بلاد السودان الى مدينة دنقلة حتي يرمي على الجنادل الى اسوان وينحدر وهو يشق بلاد الصعيد الى مدينة فسطاط مصر ويمر حتي يصب في البحر الشامي وقد استفيض ببلاد السودان أن النيل ينحدر من جبال سود يبين على بعد كأن عليها الغمام ثم يتفرق نهرين يصب أحدهما في البحر المحيط الى جهة بحر الظلمة الجنوبي والآخر يتصل الى مصر حتي يصب في البحر الشامي ويقال انه في الجنوب يتفرق سبعة أنهار تدخل في صحراء منقطعة ثم تجتمع الانهار السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا في بلاد السودان

ذكر مقاييس النيل وزيادته

قال ابن عبد الحكم أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام ووضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا وهي صاحبة حائط العجوز مقياسا بانصنا وهو صغير الذرع ومقياسا باخميم ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وهو صغير ووضع أسامة بن زيد التنوخي في خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهو أكبرها قال يحيي بن بكير أدركت القياس يقيس في مقياس منف ويدخل بزيادته الى الفسطاط * وقال القضاعي كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام وبنى مقياسا بمنف وهو أول مقياس وضعه عليه السلام وقيل ان النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة الى أن بني مقياس منف وان القبط كانت تقيس عليه الى أن بطل ومن بعده دلوكة العجوز بنت مقياسا بانصنا وهو صغير الذرع وآخر باخميم وهي التي بنت الحائط المحيط بمصر وقيل انهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرصاصة فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الأكسية ومعالمه هناك الى أن ابتني المسلمون بين الحصن والبحر أبنيتهم الباقية الآن وكان للروم أيضا مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من دخل منه في داخل الزقاق أثره قائم الى اليوم وقد بنى عليه وحواليه * ثم بني عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياسا باسوان ثم بني بموضع يقال له دندرة ثم بني في أيام معاوية مقياس بانصنا فلم يزل يقاس عليه الى أن بني عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وكانت منزله وكان هذا المقياس صغير الذرع فاما المقياس القديم الذى بني في الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد وقيل انه كسر فيه ألفي أوقية وهو الذي بني بيت المال بمصر ثم كتب أسامة بن زيد التنوخي عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه فكتب اليه سليمان بأن يبني مقياسا في الجزيرة فبناه في سنة سبع وتسعين ثم بني المتوكل فيها مقياسا

في أول سنة سبع وأربعين ومائتين في ولاية يزيد بن عبد الله التركي على مصر وهو المقياس الـكبير المعـروف بالجديد وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه فجعل يزيد بن عبد الله التركي على المقياس أبا الرداد المعلم واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي الرداد المؤذن كان يقول القمي أصله بالبصرة قدم مصر وحدث بها وجعل على قياس النيل وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير في كل شهر فلم يزل المقياس من ذلك الوقت في يد أبي الرداد وولده الى اليوم وتوفى أبو الرداد سنة ست وستين ومائتين * ثم ركب احمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين ومعـه أبو أيوب صاحب خراجه وبكار بن قتيبة القاضي فنظر الى المقياس وأمر باصلاحه وقدر له ألف دينار فعمر وبنى الحارث في الصناعة مقياسا وأثره باق لا يعتمد عليه * وقال ابن عبد الحـكم ولما فتح عمرو ابن العاص مصر أتى أهلها الى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لا يجرى الا بها فقال لهم وما ذاك قالوا انه اذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من أبويها فارضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل مايكون ثم ألقيناها في النيل فقال لهم عمرو ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى قليـلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك فكتب اليه عمر أن قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها في داخل النيل اذا أتاك كتابي فلما قدم الـكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر * وذكر بعضهم أن حاطبا الصدفي هو الذى جاء ببطاقة عمر رضى الله عنه الى النيل حين توقف فجرى باذن الله تعالى وقال يزيد بن أبي حبيب ان موسى عليه السلام دعا على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء فطلبوا الى موسى أن يدعو الله فدعا الله رجاء أن يؤمنوا وذلك ليلة الصليب فاصبحوا وقد أجراه الله في تلك الساعة ستة عشر ذراعا فاستجاب الله بطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيـه موسى عليه السلام قال القضاعى ووجدت في رسالة منسوبة الى الحسن بن محمـد بن عبد المنعم قال لما فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه مايلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّه في مقياس لهم فضلا عن تقاصره وان فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار وأن الاحتكار

يدعو الى تصاعد الاسعار بغـير قحط فكتب عمر الى عمرو يسأله عن شرح الحال فاجابه اني وجدت ماتروى به مصر حتي لايقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتي يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعافي النقصان وثمانية عشر ذراعا في الزيادة هذا والبلد في ذلك الوقت محفور الانهارمعقود الجسور عند ماتسلموه من القبط وخميرة العمارة فيه فاستشـار أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليا رضي الله عنه فى ذلك فأمره أن يكتب اليه أن يبنى مقياسا وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا وأن يقر ما بعدها على الاصل وأن ينقص من كل ذراع بعدالستة عشر ذراعا أصبعين ففعل ذلك وبناه بحلوان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الارجاف وزوال مامنه كان يخاف بأن جعل الاثني عشر ذراعا اربع عشرة لان كل ذراع أربع وعشرون أصبعا فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها الى الاثنى عشر ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثني عشر ثمانيا واربعين أصبعا وهى الذراعان وجعل الاربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثماني عشرة والثماني عشرة عشرين * (قال) القضاعى وفى هذا الحساب نظر في وقتنا لزيادة فساد الانهار وانتقاض الاحوال وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها الى آخرها أربع وعشرون أصبعا كل ذراع والمقاييس الاسلامية على ما ذكر منها المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخي بالجزيرة وهو الذى هدمه الماء وبنى المأمون آخر باسفل الارض بالبروذات وبني المتوكل آخر بالجزيرة وهو الذى يقاس عليه الماء الآن وقد تقدم ذكره * (قال) ابن عفير عن القبط المتقدمين اذا كان الماء فى اثني عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة ذراعا فهي سنة ماء والا فالماء ناقص واذا تم ست عشرة ذراعا قبل النوروز فالماء يتم فاعلم ذلك وقال أبو الصلت وأما النيل وينبوعه فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر فانه يبتدئ في التزايد فى شهر أبيب والمصريون يقولون اذا دخل أبيب كان للماء دبيب وعنـد ابتـدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته ويفسد والسبب في ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه الى تغير ذلك مما يحتمله فاذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا وزاد من السادس عشر أصبعا واحدا كسر الخليج ولـكسره يوم معدود ومقام مشهود ومجتمع خاص يحضره العام والخاص فاذا كسر فتحت الترع وهى فوهات الخلجان ففاض الماء وساح وغمر القيعان والبطاح وانضم الناس الى أعالى مساكنهم من الضياع والمنازل وهى على آكام وربا لاينتهى الماء اليها ولا يتسلط السيل عليها فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرا غامرا لما بين جبليها ريثما يبلغ الحد المحدود في مشيئة الله عز وجل له وأكثر ذلك يحوم حول ثماني عشرة ذراعا ثم يأخذ عائدا في صبه الي مجرى النيل ومسربه فينضب أولا عما كان من الارض عاليا ويصير فيما كان منها متطامنا فيترك كل قرارة كالدرهم ويغادر كل

ملقة كالبرد المسهم وقال القاضي أبو الحسن علي بن محمد الماوردي في كتاب الاحكام السلطانية وأما الذراع السوداء فهي أطول من ذراع الدور بأصبع وثلثي اصبع وأول من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد قدّرها بذراع خادم اسود كان على رأسه قائما وهي التي تتعامل الناس بها في ذرع البز والتجارة والابنية وقياس نيل مصر * وأكثر ما وجد في القياس من النقصان سنة سبع وتسعين ومائة وجد في المقياس تسعة أذرع وأحد وعشرون اصبعا وأقل ما وجد منه سنة خمس وستين ومائة فانه وجد فيه ذراع واحد وعشر أصابع وأكثر مابلغ في الزيادة سنة تسع وتسعين ومائة فانه بلغ ثمانية عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا وأقل ما كان في سنة ست وخمسين وثلثمائة الهلالية فانه بلغ اثني عشر ذراعا وتسع عشرة أصبعا وهي أيام كافور الاخشيدي * والمقياس عمود رخام أبيض مثمن في موضع يحصر فيه الماء عند انسيابه اليه وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالاصابع ماعدا الاثنى عشر ذراعا الاولى فانها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعا كل ذراع * وقال المسعودي قالت الهند زيادة النيل ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالي الانواء وكثرة الامطار * وقالت الروم لم يزد قط ولم ينقص وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت * وقالت القبط زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه وقيل لم يزد قط وانما زيادته بريح الشمال اذا كثرت واتصلت تحبسه فيفيض على وجه الارض وقال قوم سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد السودان والحبشة والنوبة فيأتي مدده الى أرض مصر بزيادة النيل ومع ذلك فان البحر الملح يقف ماؤه على وجه النيل فيتوقف حتى يروى البلاد وفي ذلك يقول

فاسمع فللسامع أعلى يدا * عندي وأسمى من يد المحسن
فالنيل ذو فضل ولكنه * الشكر في ذلك للملتن

ويبتدئ النيل بالتنفس والزيادة بقية بؤنة وهو حزيران وأبيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله وهو أيلول الى انقضائه فاذا انتهت الزيادة الى الذراع الثامن عشر ففيه تمام الخراج وخصب الارض وهو ضار بالبهائم لعدم الرعي والكلا * وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا وفي ذلك كفايتها وريّ جميع أرضها واذا زاد على ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفي ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من الاستبحار واذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعا * وقد بلغ في خلافة عمر بن عبد العزيز اثني عشر ذراعا ومساحة الذراع الى أن يبلغ

اثنى عشرة ذراعا ثمان وعشرون أصبعا ومن اثني عشرة ذراعا الى مافوق ذلك يكون الذراع أربعا وعشرين أصبعا وأقل مايبقى في قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع وفى تلك السنة يكون الماء قليلا والا ذرع التي يستسقى عليها بمصر هي ذراعان تسميان منكرا ونكيرا وهى الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر فاذا انصرف الماء عن هذين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة استسقى الناس بمصر فكان الضرر الشامل لكل البلدان واذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه وكان ذلك نقصا من خراج السلطان والنبيذ يتخذ بمصر من ماء طوبة وهو كانون الثانى بعد الغطاس وهو لعشرة تمضى من طوبة وأصفى ما يكون ماء النيل في ذلك الوقت وأهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل في هذا الوقت وفيه يخزن الماء أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرى البحيرة * وقد كانت مصر كلها تروي من ست عشرة ذراعا غامرها وعامرها لما أحكموا من جسورها وبناء قناطرها وتنقية خلجانها وكان الماء اذا بلغ في زيادته تسع أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا * قال والمعمول عليه في وقتنا هذا وهو سنة خمس وأربعين وثلثمائة انه ان زاد على السنة عشر ذراعا أو نقص عنها نقص من خراج السلطان وقد تغير في زماننا هذا عامة ما تقدم ذكره لفساد حال الجسور والترع والخلجان وقانونه اليوم انه يزيد في القيظ اذا حلت الشمس برج السرطان والاسد والسنبلة حين تنقص عامة الانهار التي في المعمور ولذلك قيل ان الانهار تمده بمائها عند غيضها فتكون زيادته وتبتدئ الزيادة من خامس بؤنة وتظهر في ثاني عشره وأول دفعه فى الثانى من أبيب وتنتهى زيادته في ثامن بابه ويأخذ في النقصان من العشرين منه فتكون مدة زيادته من ابتدائها الى أن ينقص ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما وهي أبيب ومسرى وتوت وعشرون يوما من بابه ومدة مكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوما ثم يأخذ فى النقصان* ومن العادة أن ينادي عليه دائما فى اليوم السابع والعشرين من بؤنة بعد مايؤخذ قاعه وهو مابقى من الماء القديم في ثالث عشر بؤنة ويفتح الخليج الكبير اذا أكمل الماء ستة عشر ذراعا وأدركت الناس يقولون نعوذ بالله من أصبع من عشرين وكنا نعهد الماء اذا بلغ أصابع من عشرين ذراعا فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع وها نحن في زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة اذا بلغ الماء في سنة أصبعا من عشرين لا يعم الارض كلها لما قد فسد من الجسور وكان الى مابعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة وهى في الحقيقة ثمانية عشر ذراعا وكانوا يقولون اذا زاد على ذلك ذراعا واحدة زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من الاراضي العالية فان بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى فان الثمانية عشر ذراعا في مقياس الجزيرة اثنان وعشرون ذراعا

في الصعيد الاعلى فان زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من الارض المنخفضة * قال ابن ميسر فى حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا وأربعة أصابع وبلغ الماء الباب الجديد أوّل الشارع خارج القاهرة وكان الناس يتوجهون الى القاهرة من مصر من ناحية المقابر فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل الى الباب الجديد أظهر الحزن والانقطاع فدخل اليه بعض خواصه وسأله عن السبب فاخرج له كتابا فاذا فيه اذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الامام عبد المجيد ثم قال هذا الكتاب الذى تعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي بعدها فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة ومات في أول سنة أربع وأربعين وخمسمائة * وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة ست وسبعين وخمسمائة وفى يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الاول وهو السادس عشر من مسرى وفى النيل على ستة عشر ذراعا وهو الوفاء ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدم وهذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا فانه صار يوفى فى أوائل مسرى ولقد كان الوفاء فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة في اليوم التاسع والعشرين من أبيب قبل مسرى بيوم وهذا من أعجب ما يؤرخ في زيادات النيل واتفق أن في الحادى عشر من جمادى الاولى سنة تسع وسبعمائة وفي النيل وكان ذلك اليوم التاسع عشر من بابه بعد النوروز بتسعة وأربعين يوما قال وفي تاسع عشره يعنى شوّال سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كسر بحرابي المنجي وباشر الملك العزيز عثمان كسره وزاد النيل فيه أصبعا وهي الاصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعا وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى فانظر كيف يسمى القاضي الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى وانه والعياذ بالله لو بلغ ماء النيل في سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس وما ذاك الا لما أهمل من عمل الجسور ويحصل لاهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعا فرح عظيم فان ذلك كان قانون الري في القديم واستمر ذلك الى يومنا هذا ويتخذ ذلك اليوم عيداً يركب فيه السلطان بعساكره وينزل في المراكب لتخليق المقياس * وقد ذكرنا ما كان في الدولة الفاطمية من الاهتمام بفتح الخليج عند ذكر مناظر اللؤلؤة وقال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى ان يوم الوفا هو اليوم الذي وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع في قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون في هذا الوقت * ومن أحسن السياسات في أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق في سيرة العزيز لدين الله قال وفي هذا الشهر يعنى شوال سنة اثنتين وستين وثلثمائة منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل وأن لا يكتب بذلك الا اليه والى القائد جوهر فلما تم أباح النداء يعنى لما تم ست عشرة ذراعا

وكسر الخليج فتأمل ما أبدع هذه السياسة فان الناس دائما اذا توقف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلا يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ويجتهد من عنده مال في خزن الغلة اما لطلب السعر أولطلب ادخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء فان زاد الماء انحل السعر والا كان الجدب والقحط ففي كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة وقال المسبحي في تاريخ مصر وخرج أمر صاحب القصر الى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم اذا نادوا على النيل فقال نعم لا تحصى من خزائن الله لا تفى زاد الله في النيل المبارك كذا ومن عادة نيل مصر اذا كان عند ابتداء زيادته اخضر ماؤه فتقول عامة أهل مصر قد توحم النيل ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر ويقال في سبب اخضراره أن الوحوش سيما الفيلة ترد البطيحات التي في أعالي النيل وتستنقع فيها مع كثرة عددها لشدة الحر هناك فيتغير ماء تلك البطيحات فاذا وقع المطر في الجهة الجنوبية في أوقاته عندهم تكاثرت السيول حينئذ في البطيحات فخرج ما كان فيها من الماء الذي قد تغير ومر الى مصر وجاء عقيبه الماء الجديد وهو الزيادة بمصر وحينئذ يكون الماء محمراً لما يخالطه من الطين الذي تأتي به السيول فاذا تناهت زيادته غشي أرض مصر فتصير القرى التي في الاقاليم فوق التلال والروابي وقد أحاط بها الماء فلا يتوصل اليها الا في المراكب أو من فوق الجسور الممتدة التي يصرف عليها اذا عملت كما ينبغي ربع الخراج ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتي ينتهي ري كل مكان الى الحد المحتاج اليه فاذا تكامل ري ناحية من النواحي قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد ومشايخها في أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحية من النواحي فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص ولولا اتقان ما هنالك من الجسور وحفر الترع والخلجان لقل الانتفاع بماء النيل كما قد جرى فى زماننا هذا وقد حكي أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم في القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رى البلاد الذي به مصالح العباد وستقف ان شاء الله تعالى عن قريب على ما كان من أعمال القدماء ومن بعدهم في ذلك وكان للمقياس في الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجارى الماء خمسون ديناراً في كل سنة تطلق لابن أبي الرداد

ذكر الجسر الذى كان يعبر عليه فى النيل

اعلم أنه كان في النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط والجزيرة يعرف اليوم بالروضة وكان فيما بين الجزيرة والجزيرة أيضاً جسر فى كل جسر منها ثلاثون سفينة

ذكر ما قيل في ماء النيل من مدح وذم

قال الرئيس أبو علي بن سيناء عفا الله عنه وقوم يفرطون في مدح النيل افراطا شديدا ويجمعون محامده في أربعة بعد منبعه وطيب مسلكه وغمورته وأخذه الى الشمال عن الجنوب فاخذه الى الشمال عن الجنوب ملطف لما يجرى فيه من المياه وأما غمورته فيشاركه فيها غيره قال فأفضل المياه مياه العيون ولا كل العيون ولكن مياه العيون الحرة الارض التي لا يغلب على تربتها شئ من الاحوال والكيفيات الغريبة أو تكون حجرية فتكون أولى بأن لا تعفن عفونة الارضية لكن التي هي من طينة حرة خير من الحجرية ولا كل عين حرة بل التي هي مع ذلك جارية ولا كل جارية بل الجارية المكشوفة للشمس والرياح وان هذا مما يكسب الجارية فضيلة وأما الراكدة فربما اكتسبت بالكشف رداءة لا تكسبها بالغور والستر* واعلم أن المياه التي تكون طينية المسيل خير من التي تجرى على الاحجار فان الطين ينقي الماء ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويروقه والحجارة لا تفعل ذلك لكنه يجب أن يكون طين مسيله حرا لاحمأة ولا سبخة ولا غير ذلك فان اتفق ان كان هذا الماء غمرا شديد الجرية يحيل لكثرة ما يخالطه الى طبيعته فان كان يأخذ الى الشمس في جريانه فيجرى الى المشرق وخصوصا الى الصيفي منه فهو أفضل لا سيما اذا بعد جدا من ميدانه ثم ما يتوجه الى الشمال والمتوجه الى المغرب والجنوب ردىء خصوصا عند هبوب ريح الجنوب والذى ينحدر من مواضع عالية مع سائر الفضل أفضل وما كان بهذه الصفة كان عذبا يخيل أنه حلو ولا يحتمل الخمر اذا مزج به منه الا قليلا وكان خفيف الوزن سريع البرد والتسخين لتخلخله باردا في الشتاء حارا في الصيف لا يغلب عليه طعم البتة ولا رائحة ويكون سريع الانحدار من الشراسيف سريعا لهرى ما يهرى فيه وطبخ ما يطبخ فيه قال الرئيس علاء الدين على ابن أبي الحرم بن نفيس في شرح القانون هذه المحامد التي ذكرها ليست علامات للحمد بل هي من الاشياء الموجبة لكونه محمودا وأحد هذه الاربعة بعد منبعه وقد بينا أن ذلك يوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته واعلم أن منبع النيل من جبل يقال له جبل القمر وهذا الجبل وراء خط الاستواء بأحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة فاؤه أعظم دائرة في الارض بثلاثمائة درجة وستين وابتداء هذا الجبل من السادسة والاربعين درجة وثلاثين دقيقة من أول العمارة من جهة المغرب وآخره عند آخر احدى وستين درجة وخمسين دقيقة فيكون امتداد هذا الجبل مقدار خمس عشر درجة وعشرين دقيقة مما به أعظم دائرة في الارض ثلثمائة وستون درجة ويخرج من هذا الجبل عشرة انهار من أعين فيه ترمي كل خمسة منها الى بحيرة عظيمة مدورة واحدى هاتين البحيرتين مركزها حيث البعد من ابتداء العمارة بالمغرب خمسون درجة والبعد من خط الاستواء في الجنوب سبع درج واحدى وثلاثون

دقيقة ومركز الثانية حيث البعد عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة وحيث البعد من خط الاستواء في الجنوب سبع درج واحدى وثلاثون دقيقة وهاتان البحيرتان متساويتان وقطر كل واحدة منهما مقـدار خمس درج ويخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار ترمي الى بحيرة صغيرة مدورة فى الاقليم الاول بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الاقليم الاول ومقدار قطرها درجتان ويصب كل واحد من الانهار الثمانية في بحيرة وفى هـذه البحيرة نهر واحد وهو نيل مصر ويمر ببلاد النوبة نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء كبيرة مستديرة مقدار قطرها ثلاث درج وبعد مركزها من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون درجة ويلتقى نهر هذه العين لنهر النيل حيث البعد من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون دقيقة واذا تعدى النيل مدينة مصر الى بلد يقال له شطنوف يفرق هنالك الى نهرين يرميان الى البحر المالح أحدهما يعرف بحر رشـيد ومنه يكون خليج الاسكندرية وثانيهما يعرف بحر دمياط وهـذا البحر اذا وصل الى المنصورة يفرغ منه نهر يعرف بحر اشمون يرمي الى بحيرة هناك وباقيـه يرمى الى البحر المـالح عند دمياط وزيادة النيل هى من امطار كثيرة ببلاد الحبشة والله أعلم (واعلم) أن الموزون من الدستورات المتنجحة من حال الماء فان الاخف فى أكثر الاحوال أفضل فهذا ما ذكره الرئيس ابن سيناء من صفات المياه الفاضلة واعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع في ماء النيل * فأوله أن ماء النيل عين تمر على أراضى حرة ولا يغلب على تربه مايمر به شئ من الاحوال والكيفيات الردية كمعادن النفط والشب والاملاح والكباريت ونحوها بل يمر على الاراضى التي تنبت الذهب بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب وقد عانى جماعة تصويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل فربحوا منه مالا وفضيلة كون الذهب فى الماء لاتنكر * الثاني أن النيل في جريانه أبدا مكشوف للشمس والرياح * الثالث أن طينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار تمر على أراضى حرة ويظهر لك ذلك من عطرية روائح الطين اذا نديته بمـاء * الرابع غمورة ماء النيل وشدة جريته التي تكاد تقصف العمد اذا اعترضتها وتدفع الاثقال العظيمة اذا عارضتها * الخامس بعد مبدا خروجه من مصبه في البحر المالح وقد تقدم من طول مسافته مالا تجده في نهر غيره من أنهار المعمور * السادس انحداره من علو فان الجنوب مرتفع عن الشمال لاسيما اذا صار الى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع الى وادى مصر * وذكر ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث من حديث جرير بن عبـد الله البجلي حين سأله رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن منزله ببلنسة فذكره الى أن قال وماؤنا يمتنع أن يجري من علو فقال النبي صلى الله عليـه وسلم خير المـاء السنم أى ما كان

ظاهرا على وجه الارض والسنم الماء على وجه الارض وكل شئ علا شيئاً فقد تسنمه مأخوذ من سنام البعير لعلوه وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ومزاجه من تسنيم أى يمزج بما ينزل من علو * السابع أنه يمر من الجنوب الى الشمال فتستقبله ريح الشمال الطيبة دائما * الثامن خفته في الوزن وقد اعتبر ذلك غير مرة مع غيره من المياه نخف عنها فى الوزن * التاسع عذوبة طعمه وحسن أثره في هضم الغذاء واحداره عن المعدة بحيث انه يحدث بعد شربه جشاء وهذه صفات ان كنت ممن مارس العلم الطبيعي وعرف الطب فانه يعظم عندك قدر ماء النيل وتبين لك غزارة نفعه وكثرة محاسنه * ويقال ان ذا القرنين كتب كتابا فيه ماشاهده من عجائب الدنيا فضمنه كل أعجوبة ثم قال في آخره وليس ذلك بعجب بل العجب نيل مصر وقال بعض الحكماء لولا ما جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة في زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد أقليم مصر وتعذر سكناه لانه ليس فيه أمطار كافية ولا عيون جارية تعم أرضه الا بعض أقليم الفيوم ولله در القائل

واها لهذا النيل أى عجيبة * بكر بمثل حديثها لايسمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم * حتي اذا ما مل عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره * أبدا يزيد كما يريد ويرجع

وقال آخر

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقال تميم بن المعتمر

يوم لنا بالنيل مختصر * ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجرى كالخيول بنا * صعدا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه عكن * وكأنما داراته سرر

وقال أيضاً أما ترى الرعد بكي واشتكى * والبرق قد أومض واستضحكا
فاشرب على غيم بصنع الدجى * يضحك وجه الارض لما بكى
وانظر لماء النيل في مده * كأنما صندل أو مسكا

وقال آخر والله مجرى النيل منه اذا الصبا * أرينا به من برها عسكرا مجرا
بشط بنهى السمهرية ذبلا * وموج بنهر البيض هندية بترا
اذا مر حاكى الورد غضا وان صفا * حكي ماءه لونا ولو بعده مرا

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدريج زيادة النيل وعظم منفعته

أرى أبدا كثيرا من قليـل * وبدرا فى الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل خليج ماء * بمصر مسبب بخليج مال
زيادة أصبع في كل يوم * زيادة أذرع فى حسن حال

وقال الشهاب احمد بن فضل الله العمري

بمصر فضـل باهر * لعيشها الرغد النضر
فى سفح روض يلتقى * ماء الحيـاة والخضر

وقال ابن قلاقس

انظر الى الشمس فوق النيل غاربة * وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعـاعا منه يخلفهـا * كأنما احترقت بالمـاء فى الغرق
وللهلال فهـا وافي لينفدها * في أثر هازورق قد صيغ من ورق

وقال بشر الملك ابن المنجم

يا رب سامية فى الجو قمت بها * أمد طرفي فى أرض من الافق
حيث الغشيمة في التمثيل معـتزل * اذا رآها جبان مات للفرق
للشمس غاربة للغرب ذاهبـة * بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالسنان بدا * من سورة الطعن لا من دمة الشفق

قال القاضي الفاضل رحمة الله تعالى عليه وأما النيل فقد ملأ البقاع وانتقل من الاصبع الى الذراع فكأنما غار على الارض فغطاها وأغار عليها فاستقعدها وما تخطاها فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب الا اياه * ونيل مصر مخالف فى جريه لغالب الانهار فانه يجرى من الجنوب الى الشمال وغيره ليس كذلك الا نهران فانهـما يجريان كما يجرى النيل وهما نهر مكران بالسند ونهر الاربط وهو الذى يعرف اليـوم بنهر العاصي فى حماه أحد مدائن الشام * وقد عاب ماء النيل قوم قال ابو بكر بن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية وأما ماء النيـل فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقـال لهـا جبال القمر وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقته لا كل الاحراق بل أسخنته اسخانا طويلا لينا لا تزعجه الحرارة ولا تقوى عليه بحيث تبدد أجزاءه الرطبة وتبقي أجزاءه الراسخة بل يعتدل عليه فصار ماؤه لذلك حلوا جدا وصار كثرة شربه يعفن البدن ويحدث البثور والدماميل والقروح وصار أهل مصر الشاربون منه دمويين محتاجين الى استفراغ الدم عن أبدانهم في كل مدة قصيرة فمن كان عالما منهم بالطبيعة فهو يحسن مداراة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل والا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات وانتشار البثر والدماميل وذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه قد صير له الطبخ قواما هو أثخن من قوام

الماء فصار اذا خالط الطعام في الابدان كثر فيها الفضول الردية العفنة فيحدث من ذلك ماذ كرناه ودواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل ادمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة وأخذ الادوية المستفرغة للفضول ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل وطال طبخها له لصار مالحا بمنزلة ماء البحار الراكدة التي لاحركة لها الاوقت جزر البحر وهبوب الرياح وهو أوفق للزروع والمنابت من الحيوان وقال ابن رضوان والنيل يمر بأمم كثيرة من السودان ثم يصير الى ارض مصر وقد غسل مافي بلاد السودان من العفونات والاوساخ ويشق مارا بوسط أرض مصر من الجنوب الى الشمال الى أن يصب فى بحر الروم ومبدأ زيادته في فصل الصيف وتنتهى زيادته فى فصل الخريف ويرتقى في الجو منه في أوقات مده رطوبات كثيرة بالتحلل الخفى فيرطب ذلك يبس الصيف والخريف واذا مد النهر فاض على أرض مصر فغسل مافيها من الاوساخ نحو جيف الحيوانات وأزبالها وفضول الآجام والنبات ومياه النقاع وأحدر جميع ذلك معه وخالطه من تراب هذه الارض وطينها مقدار كثير من أجل سخافتها وباض فيه من السمك الذى تربي فيه وفى مياه النقائع ومن قبل ذلك تراه في أول مدة يخضر لونه بكثرة مايخالطه من مياه النقائع العفنة التي قد اجتمع فيها العرمض والطحلب واخضر لونها من عفنها ثم يتعكر حتي يصير آخر أمره مثل الحمأة واذا صفا اجتمع منه في الاناء طين كثير ورطوبة لزجة لها سهوكة ورائحة منكرة وهذا من أوكد الاشياء فى ظهور رداءة هذا الماء وعفنه وقد بين بقراط وجالينوس أن أسرع المياه الى العفن مالطفته الشمس بمياه الامطار ومن شأن هذا الماء أن يصل الى أرض مصر . وهو فى الغاية من اللطافة من شدة حرارة بلاد السودان فاذا اختلط به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته ولذلك يتولد منه من أنواع السمك شيء كثير جدا فان فضول الحيوانات والنبات وعفونة هذا الماء وبيض السمك يصير جميعها موادا في تكوّن هذه الاسماك كما قال ارسطاليس فى كتاب الحيوان وذلك شيء ظاهر للحس فان كل شيء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان ولهذا صار مايتولد من الدود والفأر والثعابين والعقارب والزنابير والذباب وغيرها بأرض مصر كثيرا فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية وأنها ذات أجزاء كثيرة وأن هواءها وماءها رديان وربما انقطع النيل في آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط فيعفن بكثرة ما يلقى فيه الى أن يبلغ عفنه الى أن يصير له رائحة منكرة محسوسة وظاهر أن هذا الماء اذا صار على هذه الحالة غير مزاج الناس تغيرا محسوسا وينبغي أن يستقى ماء النيل من الموضع الذى فيه جريه أشد والعفونة فيه أقل ويصفى كل انسان هذا الماء بحسب مايوافق مزاجه أما المحرورون فى أيام الصيف فبالطباشير والطين الارمنى والمغرة والنبق المرضوض والزعرور المرضوض والخل وأما المبرودون في أيام الشتاء فباللوز المر وداخل

نوى المشمش والصعتر والشب وينبغي أن ينظف ماروّق ويشرب وان شئت أن تصفيه بأن تجعله فى آنية الخزف والفخار والجلود وما يحصل من ذلك بالرشح وان شئت طبخته بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق ثم نظفت منه مايروق واستعملته* واذا ظهرت فيه كيفيات رديآت فاطبخه بالنار ثم برده تحت السماء في برودة الليل وصفه بأخلاط الادوية التي ذكرتها وأجود ما اتخذ هذا الماء أن يصفى مرارا وذلك بأن يسخنه أو يطبخه ثم يبرده في هواء الليل ويقطف مايروق منه فتصفيه أيضا ببعض الادوية ثم تأخذ مايروق فتجعله في آنية تعمل في برد الليل وتأخذ بالرشح فتشربه واجعل آنية هذا الماء في الصيف الخزف والفخار المعمولين في طوبة والظروف الحجرية والقرب ونحوها مما يبرد وفى الشتاء الآنية الزجاج والمدهون وما يعمل في الصيف من الفخار والخزف ويكون موضعه في الصيف تحت الاسراب وفي مخاريق ريح الشمال وفي الشتاء بالمواضع الحارة ويبرد فى الصيف بأن يخلط معه ماء الورد ويؤخذ خرقة نظيفة ويشد فيها طباشير وبزر رجلة أو خشخاش أبيض أو طين أرمني أو مغرة ويلقى فيه كيما يأخذ من بردها ولا يخالطه جسمها وتغسل ظروفه في الصيف بالخزف المدقوق وبدقيق الشعير والباقلاء والصندل وفي الشتاء بالاشنان والسعد ويبخر بالمصطكي والعود وأردأ ما يكون ماء النيل بمصر عند فيضه وعند وقوف حركته فعند ذلك ينبغي أن يطبخ ويبالغ في تصفيته بقلوب نوى المشمش وسائر ما يقطع لزوجته وأجود ما يكون في طوبة عند تكامل البرد ومن أجل هذا عرفت المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه في القوارير الزجاج والصيني ويشربه السنة كلها ويزعم أنه لا يتغير وصاروا أيضاً لا يصفونه فى هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخلاص وأما أنت فلا تسكن الى ذلك وصفه على أي حالة كان فالماء المخزون لا بد أن يتغير فهذا ماعندي من ذم ماء النيل وحاصله أن الماء تتغير كيفيته بماء يمر عليه لا أن ذاته ردية فلا يهولنك ما تسمع فما الامر الا ماقلت لك واذا كان الضرر بحسب ماتغير من كيفيته لامن كميته فقد عرفت ماتعالجه به كي يزول مايخالطه من الكيفيات الردية والله الموفق بمنه وكرمه

ذكر عجائب النيل

ومن عجائب النيل فرس البحر قال عبد الله بن احمد بن سليم الاسوانى في كتاب أخبار النوبة ومسافة ما بين دنقلة الى أول بلد علوة أكثر مما بين دنقلة واسوان وفي ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشي والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف مافي الجانب الذي يلي أرض الاسلام * وفي هذه الاماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الحيات والوحوش والسباع ومفاوز يخاف فيها العطش وماء النيل ينعطف من هذه النواحي الى مطلع الشمس والى مغربها مسافة أيام حتى يصير الصعيد كالمنحدر وهي الناحية التي تبلغ

العطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشنكة وهي بلد معروف بشنقير ومنه يخرج القمرى وفرس البحر يكثر فى هـذا الموضع * وحدثني سيمون صاحب عهد علوة أنه أحصى فى جزيرة سبعين دابة منها وهى من دواب الشطوط في خلق الفرس فيغلظ الجاموس قصيرة القوائم لها حفف وهى فى ألوان الخيل بأعراف وآذان صغار كآذان الخيسل وأعناقها كذلك وأذنابها مثل أذناب الجواميس ولهـا خرطوم عريض يظن الناظر اليها أن عليها مخلاة لها صهيل وأنياب لا يقوم حذاءها تمساح وتعترض المراكب عند الغضب فتغرقها ورعيها فى البر العشب وجلدها فيه متانة عظيمة يتخذ منه دبابيس انتهى * وهو كفرس البر الا أنه أكبر عرفا وذنبا وأحسن لونا وحافره مشقوق كحافر البقر وجثته أكبر من الحمار بقليل وهو يأكل التمساح أكلا ذريعا ويقوى عليه قوة ظاهرة وربما خرج من المـاء ونزا على فرس البر فيتولد بينهما فرس في غاية الحسن * واتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل ومعه حجرة فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض فنزا على الحجرة فحملت منه وولدت مهرا عجيب الصورة فطمع فى مهر آخر فجاء بالحجرة والمهر الى ذلك الموضع فخرج الفرس من الماء وشم المهر ساعة ثم وثب الى الماء ومعه المهر فصار الرجل يتعهد ذلك المكان كثيرا فلم يعد الفرس ولا المهر اليـه * (قال المسعودى) وفي نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من الحيوانات فمن ذلك السمك المعروف بالرعاد والواحدة نحو الذراع اذا وقعت في شبكة الصياد ارتعدت يده وعضده فيعلم بوقوعها فيبادر الى أخذها واخراجها من شبكته ولو أمسكها بخشب أو قصب فعات ذلك وقد ذكرها جالينوس وانها ان جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة هدأ من ساعته قال ابن البيطار عن جالينوس هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر وزعم قوم أنه اذا أدنى من رأس من يشتكي الصداع سكن صداعه وان أدنى من مقعدة من انقلبت مقعدته أصلحها ولـكن أنا جربت الامرين جميعا فلم أجده يفعل ولا واحدا منهما ففـكرت اني أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ماهو حي لانني ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الادوية فوجدته ينفع مادام حيا قال ديسقوريدوس هو سمكة بحرية مخدرة اذا وضعت على الرأس الذى عرض له الصداع المزمن سكن شدة وجعه واذا احتمله ذو المقعدة التي تبرز الى خارج أصلحها وقال يونس الزيت الذى يطبخ فيـه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة اذا دهنت به قال ابن البيطار رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الاندلس سمكة عريضة لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء وباطنها أبيض وفعلها في تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر أو أشد الا انها لا تؤكل البتة وقال بعضهم اذا علقت المرأة شيئاً من الرعاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها وكذلك ان علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة ان تفارقه * والسقنقور وهو صنف

يتوالد من السمك والتمساح فلا يشاكل السمك لان له يدين ورجلين ولا يشاكل التمساح لان ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرس وذنب التمساح سخيف مضرس ويتعالج بشحم السقنقورا للجماع ولا يكون بمكان الا في النيل وفي نهر مهران من أرض الهند ولقد بلغني أن أقواما شووها وأكلوا منها فماتوا كلهم في ساعة واحدة * والسقنقور قال ابن سيناء هو ورن يصاد من نيل مصر يقولون انه من نسل التمساح وأجود ما يصطاد في الربيع وقال آخر انه فرخ التمساح فاذا خرج من البيض فما قصد الماء صار تمساحا وما قصد الرمل صار سقنقورا وقال ابن البيطار هو جنس من الجراد يجفف في الخريف اذا شرب منه وزن درهمين من الموضع الذى يلي كلاه بشراب انهض الجماع وهو شديد الشبه بالورن يوجد بالرمال التي تلي نيل مصر في نواحي صعيدها وهو مما يسعى في البر ويدخل في الماء يعني النيل ولهذا قيل له الورن المائي لشبهه به ولدخوله في الماء وهو يتولد من ذكر وأنثى ويوجد للذكر خصيتان كخصيتي الديك في خلقهما وموضعهما وانائه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها في الرمل وللذكر من السقنقور إحليلان وللانثى فرجان والسقنقور يعض الانسان ويطلب الماء فان وجده دخل فيه وان لم يجده بال وتمرغ في بوله واذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته وسلم السقنقور فان اتفق ان سبق المعضوض الى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرغه في بوله مات السقنقور لوقته وسلم المعضوض والافضل الذكر منه والابلغ في نفع الباه بل هو المخصوص بذلك دون الانثى والمختار من أعضائه مايلي أصل ذنبه ويحاذى سرته والوقت الذي يصاد فيه الربيع فانه يكون فيه هائجا للسفاد فيكون في هذا الوقت أبلغ نفعا فاذا أخذ ذكي في يوم صيده فانه ان ترك حياً زال شحمه وهزل لحمه وضعف فعله ثم يقطع رأسه وطرف ذنبه من غير استئصال ويشق جوفه طولا ويلقى ما فيه الا كلاه وكيسه فاذا نظف حشي ملحاً وخيط الشق وعلق منكوسا في ظل معتدل الهواء حتى يجف ويؤمن فساده ثم يرفع في اناء متخرقة للهواء كالسلاسل المضفورة من قضبان شجر الصفصاف والخوص ونحوه الى وقت الحاجة ولحمه طريا حار رطب والمجفف أشد حرارة وأقل رطوبة ولا يوافق استعماله من مزاجه حار يابس وانما يوافق ذوي الامزجة الباردة الرطبة وخاصة لحمه وشحمه انهاض شهوة الجماع ويهيج الشبق ويقوى الانعاظ وينفع أمراض العصب الباردة وخاصة ما يلي سرته ويحاذى ذنبه وينفع مفردا ومركباً واستعماله مفرداً أبلغ والمقدار منه بعد تجفيفه من مثقال الى ثلاثة مثاقيل بحسب السن والمزاج والبلد والوقت الحاضر يسحق ويذاب بشراب أو ماء العسل أو نقيع الزبيب أو يذر على صفرة بيض الدجاج النيمرشت ويحسى وكذلك يفعل بلحمه اذا أخذ منه من درهم الى درهمين وذر على صفرة البيض بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق ولا يوجد السقنقور

الا في بلاد الفيوم خاصة وأكثر صيده في الاربعينات اذا اشتد البرد وخرج من الماء الى البر فحينئذ يصاد * وقال المسعودى والفرس الذى يكون فى نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الارض علم أهل مصر أن النيل يزيد الى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه لا يخلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب وفي ظهوره من الماء ضرر بأرباب الارض والغلات لرعيه الزرع وذلك أنه يظهر من الماء في الليل فينتهى الى موضع من الزرع ثم يولى عائدا الى الماء فيرعى في حال رجوعه من الموضع الذى انتهى اليه مسيره ولا يرعى من ذلك الذى قد رعاه شيئاً في ممره واذا رعى ورد الماء وشرب ثم قذف مافي جوفه فى مواضع شتى فينبت ذلك مرة ثانية واذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع طرحوا له من الترمس في الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبدرا مبسوطا فيأكله ثم يعود الى الماء فاذا شرب منه ربا الترمس في جوفه وانتفخ فينشق جوفه منه ويموت ويطفو على الماء ويقذف به الى الساحل والموضع الذى يرى فيه لايرى به تمساح وهو على صورة الفرس الا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك وجبهته واسعة * وقال المسيحي ان الصنف المعروف بالبلطي من أصناف السمك أوّل ما عرف بنيل مصر في أيام الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ولم يكن يعرف قبله في النيل وظهر في أيامه أيضاً سمك يعرف باللبيس وانما سمى باللبيس لانه يشبه البوري الذي بالبحر الملح فالتبس به وغالب الظن أنها من أسماك البحر الملح دخلت في الحلو * ومن حيوان البحر التمساح قال ابن البيطار التمساح حيوان معروف يكون في الانهار الكبار وفي النيل كثيرا ويوجد في نهر مهران وقد يوجد فى بلاد السودان وهو الورن النيلي وقال ابن زهران كل حيوان يحرك فكه الاسفل اذا أكل ماخلا التمساح فانه يحرك فكه الاعلى دون الاسفل وشحم التمساح اذا عجن بالسمن وجعل فيه فتيلة وأسرج في نهر أو أجمة لم ينعق ضفادعها مادامت تقد وان طيف بجلد تمساح حول قرية ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد في تلك القرية واذا عض التمساح انسانا فوضع على العضة شحم التمساح برأ من ساعته وان لطخ بشحمه جبهة كبش نطاح نفر كل كبش يناطحه وهرب منه ومرارته يكتحل بها للبياض في العين فيذهبه وكبده يبخر بها المجنون فيبرأ وزبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم وان قلعت عيناه وهو حي وعلقت على من به جذام أوقفه ولم يزد عليه شئ وان علق شئ من التي بالجانب الايمن على رجل زاد في جماعه وعينه اليمني لمن يشتكى عينه اليمني وعينه اليسرى لمن يشتكى عينه اليسرى وشحمه اذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين وزاد في الباه واذا أخذ دم التمساح وخلط به هليلج وأملج وطلى به على الوضح أذهبه وغير لونه واذا طلى به على الجبهة والصدغين نفع من وجع الشقيقة واذا أكل لحمه أسفيد باجا سمن

البدن النحيف وشحمه اذا قطر بعد أن يذاب في الاذن الوجعة نفعها وان أد من تقطيره فى الاذن نفع من الصمم واذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه وحمه وردئ الكيموس وقال المسعودي وكذلك التمساح آفته من دويبة تكون فى سواحل النيل وجزائره وهو أن التمساح لادبر له وما يأكله يتكون في بطنه دودا فاذا أذاه ذلك خرج الى البر فاستلقى على قفاه فاغرافاه فينقض اليه طير الماء وقد اعتاد ذلك منه فيأكل مايظهر من جوفه من ذلك الدود العظيم وتكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل فتثب الى حلقه وتصير الى جوفه وتخرج فيخبط بنفسه الى الارض ويطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حشو جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج وربما قتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته وهذه الدويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عرس ذات قوائم شتى ومخالب ويقال ان بجبال فسطاط مصر طلسم معمول بها وكان التمساح لايستطيع القرب حوله بل كان اذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره فيعبث به الصبيان الى أن يجاوز نهاية المدينة ثم يعود مستويا ويعود الى طباعه ثم ان هذا الطلسم كسر فبطل فعله ويقال ان التمساح يبيض كبيض الاوز وربما تولد فيه جرادين صغار ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع وتزداد طولا كلما عمرت والتمساح يرتعش ستين مرة في حركة واحدة ومحل واحد وسنه اليسرى نافعة للناقض

﴿ ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل فى كل سنة ﴾

قال ابن رضوان فى شرح الاربع وقد يحتاج أمر النيل الى شروط منها أن تكون الامطار متوالية في نواحي الجنوب قبل مده وفى وقت مده ولذلك وجب أن يكون النيل متى كانت الزهرة وعطارد مقترنين في مدخل الصيف كثير الزيادة لرطوبة الهواء ومتى كان المريخ أو بعض المنازل في ناحية الجنوب فى مدخل الربيع أو الصيف كان قليلا لقلة الامطار فى تلك الناحية ومنها أن تكون الرياح شمالية لتوقف جريه فأما الجنوبية فانها تسرع انحداره ولا تدعه يلبث فاذا علمت ما يكون فى ناحية الجنوب من كثرة الامطار أو قلتها وفي ناحية مصر من هبوب الرياح فى فصلي الربيع والصيف فقد علمت حال النيل كيف يكون وتعلم من حاله ما يعرض بمصر من الخصب والجدب وقال أبو سامر بن يونس المنجم عن بطليموس اذا أردت أن تعلم مقدار النيل فى الزيادة والنقصان فانظر حين تحل الشمس برج السرطان الى الزهرة وعطارد والقمر فان كانت أحوالها جيدة وهي برية من النحوس فالنيل يمتد وتبلغ الحاجة به وان كانت أحوالها بخلاف ذلك وهي ضعيفة فانعكس القول فان ضعف بعضها وصلح البعض توسط الحال في النيل والضابط أن قوة الثلاثة تدل على تمام النيل وضعفه على توسطه وانحاسها أو احتراقها أو وقوعها في بعدها الا بعد من الارض على النقص وانه قليل جدا الا أن احتراق الزهرة في برج الاسد يستنزل الماء من الجنوب وقال

أبو معشر ينظر عند انتقال الشمس الى برج السرطان للزهرة وعطارد والقمر فان كانت في سيرها الاكبر فان زيادة النيل عظيمة وان كانت في سيرها الاوسط فاعرف كم أكثر مسيرها وكم اقله وانسبه بحسب ماتراه وان كانت بطيئة السير فزيادة النيل قليلة وان اختلف مسير هذه الثلاثة فكان بعضها في مسيره الاكبر وبعضها بطيء السير فغلب أقواها وامزج الدلالة وقل بحسب ذلك * وقالت القبط ينظر أول يوم من شهر برمودة ما الذى يوافقه من أيام الشهر العربي فما كان من الايام فزد عليه خمسة وثمانين فما بلغ خذ سدسه فانه يكون عدد مبلغ النيل من الاذرع فى تلك السنة قالوا ومن المعتبر أيضاً في أمر النيل أن تنظر اليوم الذى تفطر فيه النصارى اليعاقبة بمصر وما بقى من الشهر العربي فزد عليها أربعا وثلاثين فما بلغ أسقطه اثنى عشر فان بقى بعد ذلك الاسقاط من العدد زيادة على اثني عشر فهو زيادة النيل من الاذرع في تلك السنة مع الاثنى عشر وان بقى اثنى عشر فهى سنة رديئة قالوا واذا كان العاشر من الشهر العربي موافقا لشهر أبيب والقمر في برج العقرب فان كان مقارنا لقلب العقرب كان النيل مقصرا والا فهو جيد قالوا وينظر أول يوم من بؤنة فان هبت الريح شمالا في بكرة النهار كان النيل عاليا وان هبت وسط النهار فانه متوسط وان هبت آخر النهار كان نيلا قاصرا وان لم تهب لم يطلع تلك السنة وقيل يعتبر هكذا أول خميس من بؤنة * ومن المعتبر الذى جربته أنا سنين وأخبرنى بعض شيوخنا أنه جربه وأخبره به من جربه فصح أن ينظر أول يوم من مسرى كم مبلغ النيل فزد عليه ثمانية اذرع فما بلغ فهو زيادة النيل في تلك السنة ومما اشتهر عند أهل مصر وجربته أيضاً فصح أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل بيوم في وقت الظهر من الطين الذى مر عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهما سواء وترفع فى اناء مغطى الى بكرة يوم عيد ميكائيل وتوزن فما زاد على وزنها من الخراريب كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد ذلك الخراريب لكل خروبة ذراع ومن ذلك أخذ شيء من دقيق القمح وعجنه بماء النيل في اناء فخار وقد عمل من طين مر عليه النيل وتركه مغطي طول ليلة عيد ميكائيل فاذا وجد بكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه كان النيل تاما وافيا وان وجده لم يختمر دل على قصور هذا النيل ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل الى الهواء فان هبت طيابا فهو نيل كبير وان هبت غير طياب فهو نيل مقصر لاسيما ان هبت مريسيا فانه يكون نيلا كافيا والشأن عندهم انما هو في دلالة العلامات الثلاث على شيء واحد فأما اذا اختلف فالحكم لايكاد يصح * وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية وذكر أصحاب التجارب أنه اذا تقدم فعمد الى لوح وزرع عليه من كل زرع ونبات حتى اذا كانت الليلة الخامسة والعشرون من شهر تموز أحد شهور الروم وهى آخر أيام الباحور ثم وضع اللوح بارزا لطلوع الكواكب وغروبها

لايحول بينه وبين السماء شيء فان كل مالا يزكو في تلك السنة من الزروع يصبح أصفر وما يصلح ريعه منها يبقى أخضر وكذلك كانت القبط تفعل ذلك وقد جربت أنا على ما أفادنيه بعض الكتاب انه اذا حصل مطر ولو قل في شهر بابة ينظر ماذلك اليوم من الشهر القبطي فانه يبلغ سعر الويبة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة وأول ما جربت هذا انه وقع مطر في بابة يوم الخميس الخامس عشر منها فبيعت الويبة تلك السنة بخمسة عشر درهما

ذكر عيد الشهيد

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه فرج مصر وهواليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط ويزعمون أن النيل بمصر لايزيد فى كل سنة حتى يلقي النصاري فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع اسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيدا ترحل اليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر ولا يبقي مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لايحصيهم الا خالقهم وتصرف أموال لاتنحصر ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس ويباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبا وباع نصراني فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبري من ضواحى القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائما في وفاء الخراج على مايبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال على ماذكر من الاجتماع كذلك الى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ استادار السلطان والامير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر فقام الأمير بيبرس في ابطال ذلك قياما عظيما وكان اليه أمور ديار مصر هو والامير سلار والناصر تحت حجرهما لايقدر على شبع بطنه الا من تحت أيديهما فتقدم أمر الامير بيبرس أن لايرمي أصبع في النيل ولا يعمل له عيد وندب الحجاب ووالي القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرى على عادتهم وخرج البريد الى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب الى الولاة باجهار النداء واعلانه فى الاقاليم بأن لايخرج أحد من النصاري ولا يحضر لعمل عيد الشهيد فشق ذلك على أقباط مصر كلهم من أظهر الاسلام منهم وزعم أنه مسلم ومن هو باق على نصرانيته ومشي بعضهم الى بعض وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعاني الكتابة وهو يومئذ فى خدمة الامير بيبرس وقد احتوى

على عقله واستولى على جميع اموره كما هى عادة ملوك مصر وأمرائها من الاتراك في الانقياد لكتابهم من القبط سواء منهم من أسر الكفرومن جهر به * وما زال الاقباط بالتاج الى أن تحدث مع مخدومه الامير بيبرس في ذلك وخيل له من تلف مال الخراج اذا بطل هذا العيد فان أكثر خراج شبرى انما يحصل من ذلك وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبدا ويخرب اقليم مصر لعدم طلوع النيل ونحو ذلك من هتف القول وتميق المكر فثبت الله الامير بيبرس وقواه حتى أعرض عن جميع مازخرفه من القول واستمر على منع عمل العيد وقال للتاج ان كان النيل لايطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله سبحانه هو المتصرف فيه فنكذب النصاري فبطل العيد من تلك السنة ولم يزل منقطعا الى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعمر الملك الناصر محمد بن قلاون الجسر فى بحر النيل ليرمي قوة التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزة كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب فطلب الامير يلبغا اليحياوي والامير الطنبغا الماردينى من السلطان أن يخرجا الى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهما وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما الى الصيد وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضيا منه بذلك وأشيع فى الاقليم اعادة عمل عيد الشهيد فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الامراء النيل في الشخاتير بغير حراريق واجتمع الناس من كل جهة وبرز ارباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات وتوسع الامراء في تنوع الاطعمة والحلاوات وغيرها توسعا خرجوا فيه عن الحد فى الكثرة البالغة وعم الناس منهم مالا يمكن وصفه لكثرته واستمروا على ذلك ثلاثة أيام وكانت مدة انقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الامير بيبرس الى أن أعاده الملك الناصر ستا وثلاثين سنة واستمر عمله فى كل سنة بعد ذلك الى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبعمائة تحرك المسلمون على النصارى وعملت أوراق بما قد وقف من أراضى مصر على كنائس النصارى ودياراتهم وألزم كتاب الامراء بتحرير ذلك وحمل الاوراق الى ديوان الاحباس فلما تحررت الاوراق اشتملت على خمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الديارات والكنائس فعرضت على أمراء الدولة القائمين بتدبير الدولة فى أيام الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون وهم الامير شيخو العمرى والامير صرغتمش والامير طاز فتقرر الحال على أن ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار وهدمت لهم عدة كنائس كما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الكنائس فلما كان العشر الاخير من شهر رجب من السنة المذكورة خرج الحاجب والامير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة الى ناحية شبرى الخيام من

ضواحي مصر فهدمت كنيسة النصارى وأخذ منها أصبع الشهيد في صندوق واحضر الى الملك الصالح وأحرق بين يديه فى الميدان وذري رماده في البحر حتي لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ الى هذا العهد ولله الحمد والمنة

(ذكر الخلجان التي شقت من النيل)

اعلم أن النيل اذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يخرق الماء فيها يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجري النيل واكثر الخلجان والترع والجسور والاخوار بالوجه البحرى وأما الوجه القبلي وهو بلاد الصعيد فان ذلك قليل فيه وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنالك والمشهور من الخلجان خليج منجا * وخليج منف وخليج المنهى وخليج اشموم طناح وخليج سردوس وخليج الاسكندرية وخليج دمياط وخليج القاهرة وبحر أبي المنجا والخليج الناصرى ظاهر القاهرة* قال ابن عبد الحكم عن أبى رهم السماعي قال كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا ويرسلونه كيف شاؤا فذلك قوله تعالى عما حكي عن قول فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ فى الارض ملك أعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله الى آخره فى الجانبين معا جميعا ما بين أسوان الى رشيد وسبع خلج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهى وخليج سردوس جنات متصلة لاينقطع منها شيء عن شيء والزرع ما بين الجبلين من أول مصر الى آخرها مما يبلغه الماء (وكان) جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها فذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم قال والمقام الكريم المنابر كان بها ألف منبر (خليج سخا) وخليج سخا حفره ندارس بن صا بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح وهو أحد ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر في الدهر الاول * قال ابن وصيف شاه ندارس الملك أول من ملك الاحياز كلها بعد أبيه صا وصفا له ملك مصر وكان ندارس محتنكا مجربا ذا أيد وقوة ومعرفة بالامور فأظهر العدل وأقام الهيا كل وأهلها قياما حسنا ودبر جميع الاحياز ويقال انه الذى حفر خليج سخا وارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار وقصده بعض عمالقة الشام فخرج اليه واستباحه ودخل فلسطين وقتل بها خلقا وسبي بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك وعلى رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنج والنوبة في أرضه وعاثوا وأفسدوا فجمع الجيوش من أعمال مصر وأعد المراكب ووجه قائدا يقال له فلوطس في ثلثمائة ألف وقائدا آخر فى مثلها ووجه فى النيل ثلثمائة سفينة في كل سفينة كاهن يعمل أعجوبة من

العجائب ثم خرج في جيوش كثيرة فلقى جمع السودان وكانوا في زهاء ألف ألف فهزمهم وقتل أكثرهم أبرح قتل وأسر منهم خلقا وتبعتهم جيوشه حتى وصلوا الى أرض الفيلة من بلاد الزنج فأخذوا منها عدة ومن النمور والوحوش وساقوها الى مصر فذللها وعمل على حدود بلده منارا وزبر عليه مسيره وظفره والوقت الذى سار فيه ومات بمصر فدفن فى ناووس نقل اليه شيئاً كثيرا من أصناف الكواكب ومن الذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وزبر عليه اسمه وتاريخ هلاكه وجعل عليه طلسمات تمنع منه وعهد الى ابنه ماليق بن تدارس (خليج سردوس) حفره هامان قال ابن وصيف شاه طلما بن قومس الملك جلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان فى خزائنهم وهو الذي تذكر القبط أنه فرعون موسى * فأما أهل الاثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب وانه من العمالقة وذكروا أن الفراعنة سبعة وكان طلما فيما حكي عنه قصيرا طويل اللحية أشهل العينين صغير العين اليسرى في جبينه شامة وكان أعرج وزعم قوم أنه من القبط ونسب أهل بيته مشهور عندهم وذكر آخرون أنه دخل منف على أتان عليها نطرون جاء ليبيعه وكانوا قد اضطربوا فى تولية الملك فرضوا أن يملكوا عليهم أول من يطرأ من الناس فلما رأوه ملكوه عليهم ولما جلس في الملك بذل الاموال وقرب من أطاعه وقتل من خالفه فاعتدل أمره واستخلف هامان وكان يقرب منه فى نسبه وأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدائن والعمارات وحفر خلجانا كثيرة ويقال انه الذى حفر خليج سردوس وكان كلما عرّجه الى قرية من قرى الحوف حمل اليه أهلها مالا حتى اجتمع من ذلك مال كثير فأمر برده على أهله * وقال ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ان فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطونه مالا قال وكان يذهب به الى هذه القرية من نحو الشرق ثم يرده الى قرية من نحو دبر القبلة ثم يرده الى قرية فى الغرب ثم يرده الى أهل قرية فى القبلة ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار فأتى بذلك يحمله الى فرعون فسأله عن ذلك فأخبره بما فعل في حفره فقال له فرعون ويحك انه ينبغي للسيد أن يعطف على عباده ويفيض عليهم ولا يرغب فيما بأيديهم رد على أهل كل قرية ما أخذت منهم فرده كله على أهله قال فلا يعلم بمصر خليج أكثر انعطافا منه لما فعل هامان في حفره وكان هامان نبطيا (خليج الاسكندرية) قال ابن عبد الحكم ويقال أن الذى بني منارة الاسكندرية فليطرة الملكة وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الاسكندرية ولم يكن يدخلها الماء كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وهي التي بلطت قاعته وقال الكندي ان الحارث بن مسكين قاضى مصر حفر خليج الاسكندرية وقال الاسعد بن مماتي

في كتاب قوانين الدواوين خليج الاسكندرية عليه عدة ترع وطوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة وستمائة قصبة وعرضة من قصبتين ونصف الى ثلاث قصبات ونصف ومقام الماء فيه بالنسبة الى النيل فان كان مقصرا قصرت مدة اقامته فيه وان كان عاليا أقام فيه مايزيده على شهرين * ورأيت جماعة من أهل الخبرة وذوى المعرفة يقولون انه اذا عملت من قبالة منية نتيج الى نتيج زلاقة استقر الماء فيه صيفا وشتاء ورأيت البحيرة جميعها وحوف ودمسيس والكفور الشاسعة وقد زرعت عليه القصب والقلقاس والنيلة وأنواع زراعة الصيفى وجرى مجرى بحر الشرق والمحلة وتضاعفت عليه البلاد وعظم ارتفاعها واقامة هذه الزلاقة ممكنة لوجود الحجارة في ربوة والطوب فى البحيرة وانهم قدروا مايحتاج اليه فوجدوه يناهز عشرة آلاف دينار ويقال انه كان الماء فيه جاريا طول السنة وكان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الاطفال بالخرق فضمنه بعض الولاة بمال ومنع الناس من صيده فعدم منه السمك ولم ير بعد ذلك فيه سمكة فصار يخرج بالشباك (خليج الفيوم والمنهى) مما حفره نبي الله يوسف الصديق عليه السلام عند ماعمر الفيوم كما هو مذكور في خبر الفيوم من هذا الكتاب وهو مشتق من النيل لاينقطع جريه أبدا واذا قابل النيل ناحية دورة سريام التي تعرف اليوم بدورة الشريف يعنى ابن يغلن النائب في الايام الظاهرية بيبرس تشعبت منه في غربيه شعبة تسمى المنهى تستقل نهرا يصل الى الفيوم وهو الآن عرف ببحر يوسف وهو نهر لاينقطع جريانه فى جميع السنة فيسقى الفيوم عامة سقيا دائما ثم يجر فضل مائه في بحيرة هناك ومن العجب أنه ينقطع ماؤه من فوهته ثم يكون له بلل دون المكان المندى ثم يجرى جريا ضعيفا دون مكان البلل ثم يستقل نهرا جاريا لا يقطع الا بالسفن ويتشعب منه أنهار وينقسم قسما يعم الفيوم يسقى قراه ومزارعه وبساتينه وعامة أماكنه والله أعلم (خليج القاهرة) هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربي فيما بينها وبين المقس عرف في أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين وتسميه العامة اليوم الخليج الحاكمي وبخليج اللولوة وهو خليج قديم أول من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف وهو الذى قدم ابراهيم الخليل صلوات الله عليه فى ايامه الى مصر وأخذ منه امرأته سارة وأخدمها هاجر أم اسماعيل صلوات الله عليهما فلما أخرجها ابراهيم هى وابنها اسماعيل الى مكة بعثت الى طوطيس تعرفه انها بمكان جذب وتستغيثه فأمر بحفر هذا الخليج وبعث اليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها الى جدة فأحيا بلد الحجاز ثم ان اندرومانوس الذى يعرف بايليا أحد ملوك الروم بعد الاسكندر بن فلبس المقدوني جدد حفر هذا الخليج وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة سنة ثم أن عمرو بن العاص رضي الله عنه جدد حفره لما فتح مصر وأقام في حفره ستة أشهر وجرت فيه السفن

بحمل الميره الى الحجاز فسمى خليج أمير المؤمنين يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه هو الذى أشار بحفره ولم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر الى مدينة القلزم التي كانت على حافة البحر الشرقي حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر بالسويس وكان يصب ماء النيل في البحر من عند مدينة القلزم الى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمس ومائة فطم وبقى منه ماهو موجود الآن وسيأتي الكلام عليه مبسوطا ان شاء الله تعالى عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب (بحر أبى المنجا) هذا الخليج تسميه العامة بحر أبي المنجا الذى حفره الافضل بن أمير الجيوش في سنة ست وخمسمائة وكان على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى فعرف به وقد ذكر خبر هذا الخليج عند ذكر مناظر الخلفاء ومواضع نزههم من هذا الكتاب (الخليج الناصرى) هذا الخليج فى ظاهر المقس حفره الناصر محمد بن قلاون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة وقد ذكر في موضعه من هذا الكتاب

ذكر ماكانت عليه أرض مصر فى الزمن الاول

قال المسعودي وقد كانت أرض مصر على مازعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد الى أسفل الارض وموضع الفسطاط في وقتنا هذا وكان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والنوبة الى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه وما يتصل من النوبة بتياره من موضع الى موضع فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر وسكن الناس بلاد مصر ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر وطرّقوا للماء وحفروا له الخلجان وعقدوا فى وجهه المسببات الى أن خفى ذلك على ساكنيها لان طول الزمان ذهب بمعرفة أول سكناهم كيف كان انتهى قلت ومما ذكر أرسطاطاليس فى كتاب الآثار العلوية ان أرض مصر كان النيل ينبسط عليها فيطبقها كأنها بحر ولم يزل الماء ينضب عنها وييبس ماعلا منها أولا فأولا ويسكن الى أن امتلأت بالمدن والقرى والناس ويقال ان الناس كانوا قبل سكنى مدينة منف يسكنون بسفح الجبل المقطم في منازل كثيرة نقروها وهى المغاير التي في الجبل المقابل لمنف من قبلي المقطم فى الجبل المتصل بدير القصير الذى يعرف بدير البغل المطل على ناحية طرى ومن وقف عند اهرام نهيا رأى المغائر في الشرقى وبينهما النيل ومن صعد من طرى الى الجبل وسار فيه دخلها وهى مغاير متسعة وفيها مغائر تنفذ الى القلزم تسع المغارة منها أهل مدينة واذا دخلها أحد ولم يهتد على مايدله على المخرج هلك فى تحيره ويقال كانت مصر جرداء لانبات بها فاقطعها متوشلح بن أخنوخ بن برد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم لطائفة من أولاده فلما نزلوها وجدوا نيلها

قد سد مابين الجبلين فنضب الماء عن أرض زروعها فأخرجت الارض بركاتها ثم بعد زمان أخذها عنقام الاول بن عرياب بن آدم بالغلبة ونسل بها خلقا عظيما وجهز لقتال أولاد برد سبعين ألف مقاتل وحفر من البحر الى الجبل نهرا عرضه أربعون قصبة ليمنع من يأتيه فأتاه بنو برد فلم يجدوا اليه سبيلا ففزعوا الى الله تعالى فبعث على أرض مصر نارا

﴿ ذكر أعمال الديار المصرية وكورها ﴾

أعلم ان أرض مصر كانت في الزمن الاول الغابر مائة وثلاثا وخمسين كورة فى كل كورة مدينة وثلثمائة وخمس وستون كورة فلما عمرت أرض مصر بعد بخت نصر صارت على خمس وثمانين كورة ثم تناقصت حتى جاء الاسلام وفيها أربعون عامرة بجميع قراها لاتنقص شيئاً ثم استقرت أرض مصر كلها فى الجملة على قسمين الوجه القبلى وهو ما كان فى جهة الجنوب من مدينة مصر والوجه البحري وهو ما كان في شمال مدينة مصر * وقد قسمت الارض جميعها قبليها وبحريها على ستة وعشرين عملا وهى الشرقية والمرتاحية والدقهلية والايوانية وثغر دمياط الوجه البحري جزيرة قويسنا والغربية والسمنودية والدنجاوية والمنوفية والستراوية وفوه والمزاحميتين وجزيرة بني نصر والبحيرة واسكندرية وضواحيها وحوف دمسيس والوجه القبلى الجيزة والاطفيحية والبوصيرية والفيومية والبهنساوية والاشمونين والمنفلوطية والاسيوطية والاخميمية والقوصية وهى أيضا ثلاثون كورة وهى كورة الفيوم وفيها مائة وست وخمسون قرية ويقال انها كانت ثلثمائة وستين قرية وكورة منف ووسيم خمس وخمسون قرية وكورة الشرقية وتعرف بالاطفيحية سبع عشرة وقريةوقرى أهناس ومنها قمن ثماني قرى وكور تادلاص وبوصير ست قرى وكورة أهناس خمس وتسعون قرية سوى الكفور وكورة البهنسا مائة وعشرون قرية وكورة الفشن سبع وثلاثون قرية وكورة طحا سبع وثلاثون قرية وحوز سنودة ثمان قرى وكورة الاشمونين مائة وثلاثون قرية وكورة أسفل انصنا إحدى عشرة قريةوكورة سيوط سبع وثلاثون قرية وكورة شطب ثمان قرى وكورة أعلى انصنا ثنتا عشرة قرية وكورة قهقوه سبع وثلاثون قرية وكورة أخميم والدوير ثلاث وستون قرية وكورة السبابةوالواحات ثلاث وستون قرية سوى الكفور وكورة هو عشرون قرية وكورة فاو ثمان قرى وكورة قنا سبع قرى وكورة دندرة عشر قرى وكورة قفط ثنتان وعشرون قرية وكورة الاقصر خمس قرى وكورة أسنا خمس قرى وكورة أرمنت سبع قرى وكورة أسوان سبع قرى فجميع قرى الصعيد ألف وثلاث وأربعون قرية سوى المنى والكفور فى ثلاثين كورة * كورة أسفل الارض الحوف الشرقى خمس وستون قرية كورة أتريب مائة وثمان قرى سوى المنى والكفور كورة بنو سبع وثمانون قرية سوى المنى والكفور كورة نما مائة وخمسون قرية .

سوى المنى والكفور كورة بسطة تسع وثلاثون قرية كورة طرابيسة ثمان وعشرون قرية منها السدير والهامة وفاقوس كورة هربيط ثمان عشرة قرية سوى المنى والكفور كورة صا وابليل ست وأربعون قرية منها سنهور والفرما والعريش فجميع قرى الحوف الشرقي خمسمائة وتسع وعشرون قرية سوى المنى فى سبع كور بطن الريف كورتا دمسيس ومنوف مائة وأربع قرى سوى المنى والكفور كورة تاطورة منوف اثنتان وسبعون قرية سوى المنى والكفور كورة سخا مائة وخمس عشرة قرية كورة بيده والافراحون ثلاث وعشرون قرية سوى المنى والكفور كورة البشرود أربع وعشرون قرية كورة نقر اثنتا عشرة قرية سوى المنى كورة ببا وبوصير ثمان وثمانون قرية سوى المنى والكفور كورة سمنود مائة وثمان وعشرون قرية سوى المنى والكفور كورة نوسا احدى وعشرون قرية سوى المنى كورة الاوسية أربعون قرية سوى المنى كورة النجوم أربعون قرية سوى المنى تنيس ودمياط ثلاث عشرة قرية سوى المنى وهى شيء كثير * الاسكندرية الحوف الغربي كورة صا ثلاث وسبعون قرية سوى المنى والكفور كورة شباس اثنان وعشرون قرية سوى المنى والكفور كورة اليدقون ثلاث وأربعون قرية سوى المني والكفور حيز اليدقون تسع وعشرون قرية سوي المنى والكفور الشراك والقرى كورة ترنوط ثمان قرى كورة خربتا اثنان وستون قرية سوى المني والكفور كورة قرطسا اثنان وعشرون قرية سوى المنى والكفور كورتا مصيل والمليدس تسع وأربعون قرية سوى المني كورتا احنور ورشيد سبع عشرة قرية البحيرا والحصص بالاسكندرية والكرومات والبعل ومريوط ومدينة الاسكندرية ولوبية ومراقيه مائة وأربع وعشرون قرية سوى المنى فالحوف الغربي أربعمائة وتسع وأربعون قرية سوى المني في ثلاث عشرة كورة قال المسيحي في تاريخه تصير قرى مصر أسفل الارض الفاً وأربعمائة وتسعاً وثلاثين قرية ويكون جميع ذلك بالصعيد وأسفل الارض ألفين وثلثمائة وخمساً وتسعين قرية * وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى أرض مصر قسمين فمن ذلك صعيدها وهو مايلي مهب الجنوب منها وأسفل أرضها وهو مايلي مهب الشمال منها فقسم الصعيد على ثمان وعشرين كورة فمن ذلك كورة الفيوم كلها وكورتا منف ووسيم وكورة الشرقية وكورتا دلاص وأبو صير وكورة اهناس وكورتا الفشن والبهنسا وكورة طحا وحيز سنوده وكورة بويط وكورتا الاشمونين وأسفل انصنا وأعلاها وشطب قوص قام وكورة سيوط وكورة قهقوه وكورتا اخميم والدير وابشاية وكورة هو وأقنا وفاوودندرة وكورة قفط والاقصر وكورة اسنا وأرمنت وكورة اسوان فهذه كور الصعيد ومن ذلك كور أسفل الارض وهي خمس وعشرون كورة وفي نسخة ثلاث وثلاثون كورة وفي نسخة ثمان وثلاثون كورة فمن ذلك كور الحوف الشرقي كورتا اتريب وعين شمس وكورتا بني

وهي وكورتا بسطه وطرابية وكورة هربيط وكورة صا وابليل وكورة الفرما والعريش والجفار ومن ذلك كور بطن الريف من أسفل الارض كورة بنا و بوصير وكورتا سمنود وبوساوكورتا الاوسية والنجوم وكورة دقهلة وكورتا تنيس ودمياط ومنها كورة الجزيرة من أسفل الارض وكورة دمسيس ومنوف وكورة طوه ومنوف وكورة سخا وبيدة والافراحون وكورة مقين وديصا وكورة البشرود * ومن ذلك كور الحوف الغربي كورة صا وكورة شباس وكورة اليدقون وحيزها وكورة الخيس والشراك وكورة خربتا وكورة قرطسا ومصيل والمليدس وكورتا اخنا والبحيرة ورشيد وكورة الاسكندرية وكورة مريوط وكورة لوبيه ومراقية * ومن كور القبلة كرى الحجاز وهي كورة الطور وفاران وكورة راية والقلزم وكورة ايله وحيزها ومدين وحيزها والعونيد والحوراء وحيزها ثم كورة بدا وشغب * وذكر من له معرفة بالخراج وأمر الديوان انه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شغا الكاتب القبطي المعروف بالبولس متولي خراج مصر للدولة الاخشيدية يشتمل على ذكر كور مصر وقراها الى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ان قرى مصر بالصعيدين وأسفل الارض ألفان وثلثمائة وخمس وتسعون قرية منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبأسفل الارض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية وهذا عددها في الوقت الذي جردت فيه الجرايد المذكورة وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ماخرب منها * وقال ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى الله عنه لما ولي الوليد بن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر في تعديل الخراج عليهم فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ اسوان ومعه جماعة من الكتاب والاعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير وثلاثة أشهر بأسفل الارض وأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحصر في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل والذى استقر عليه الحال في دولة الناصر محمد بن قلاوون أن الوجه القبلي ستة أعمال وهي من قوص وهو أجلها ومنه اسوان وغرب قوله وعمل اخميم وعمل سيوط وعمل منفلوط وعمل الاشمونين وبها الطحاوية وعمل البهنساوية الغربي وهو عبارة عن قرى على غربي المنهى المار الى الفيوم وعمل الفيوم وعمل اطفيح وعمل الجيزة * والوجه البحرى ستة أعمال عمل البحيرا وهو متصل البر بالاسكندرية وبرقة وعمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها مابين البحرين وهما البحر المار مسكبه عند دمياط ويسمى الشرقي والبحر الثاني مسكبه عند رشيد ويسمى الغربي والمنوفية ومنها ابيار وجزيرة بني نصر وعمل قليوب وعمل الشرقية وعمل اسموم طناح ومنها الدقهلية والمرتاحية وهناك موقع ثغر البرلس وثغر رشيد والمنصورة وفى هذا الوجه الاسكندرية ودمياط ولا عمل

لها * وأما الواحات فمنقطعة وراء الوجه القبلي مغاوبة لم تعد في الولايات ولا في الاعمال ولا يحكم عليها والي السلطان وانما يحكم عليها من قبل مقطعها والله تعالى أعلم

(ذكر ما كان يعمل في أراضى مصر من حفر الترع وعمارة الجسور ونحو ذلك من أجل ضبط ماء النيل وتصريفه في أوقاته)

قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب وكانت فريضة مصر بحفر خليجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً معهم المساحى والطوريات والاداة يعتقبون ذلك لايدعونه شتاء ولا صيفا * وعن أبي قبيل قال زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذى كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها كل قرية بكراء معلوم لا ينقص عنهم الا في كل أربع سنين من أجل الظمأ وتنقل اليسار فاذا مضت أربع سنين نقض ذلك وعدل تعديلا جديدا فيرفق بمن استحق الرفق ويزاد على من احتمل الزيادة ولا يحمل عليهم من ذلك مايشق عليهم فاذا جبى الخراج وجمع كان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه يصنع به مايريد والربع الثاني لجنده ومن يقوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه والربع الثالث فى مصلحة الارض وما تحتاج اليه من جسورها وحفر خلجها وبناء قناطرها والقوة للزارعين على زرعهم وعمارة أرضهم والربع الرابع يخرج منه ربع مايصيب كل قرية من خراجها فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية فكانوا على ذلك والذى يدفن في كل قرية من خراجها هي كنوز فرعون التي يتحدث الناس بها أنها ستظهر فيطلبها الذين يتتبعون الكنوز * وذكر أن بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين وسبعين الف الف دينار وأن من عمارته أنه أرسل ويبة قمح الى أسفل الارض والى الصعيد فى وقت تنظيف الارض والترع من العمارة فلم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها وذكر أنه كان عند تناهي العمارة يرسل بأربع ويبات برسيم الى الصعيد والى أسفل الارض والى أي كورة فان وجد لها موضعاً خالياً فزرعت فيه ضرب عنق صاحب الكورة وكانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخاً في مثلها والفرسخ ثلاثة أميال والبريد أربعة فراسخ فتكون عشرة برد فى مثلها ولم تزل الفراعنة تسلك هذا المسلك الى أيام فرعون موسى فانه عمرها عدلا وسماحة وتتابع الظمأ ثلاث سنين في أيامه فترك لاهل مصر خراج ثلاث سنين وأنفق على نفسه وعساكره من خزائنه ولما كان في السنة الرابعة أضعف الخراج واستمر فاعتاض ما أنفق * وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص رضى الله عنه ان اسئل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس عمارتها وخرابها من وجوه خمسة أن يستخرج خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ويرفع خراجها في ابان

واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ويحفر في كل سنة خلجانها و تسد ترعها وجسورها ولا يقبل مطال أهلها يريد البغي فاذا فعل هـذا فيها عمرت وان عمل فيها بخلافه خربت * وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنـه عمرو بن العاص رضى الله عنه في الخراج كتب اليه أن ابعث الي رجلا من أهل مصر فبعث اليه رجلا قديما من القبطة فاستخبره عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شئ الا بعد عمارتها وعاملك لاينظر الى العمارة وانما يأخذ ماظهر له كأنه لايريدها الا لعام واحد فعرف عمر رضى الله عنـه ما قال وقبل من عمرو ما كان يعتذر به * وقال عمرو بن العاص رضى الله عنـه للمقوقس أنت وليت مصر فبم تكون عمـارتها فقال بخصال أن تحفروا خلجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها الا من غلتها ولا يقبل مطال أهله ويوفي لهم بالشروط ويدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا ويرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم فبذلك تعمر ويرجى خراجها* ويقال ان ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام قسم لخاصة الملك وقسم لارزاق الجند وقسم لمصالح الارض وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها* ولما ولي عبيدالله بن الحبحاب خراج مصر لهشام بن عبدالملك خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها عامرها وغامرها مما يركبه النيل فوجد فيها مائة ألف ألف فدان والباقي استبحر و تلف واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما والحراث يحرث خمسين فدانا وكانت محتاجة الى أربعمائة الف وثمانين الف حراث

﴿ ذكر مقدار خراج مصر فى الزمن الاوّل ﴾

قال ابن وصيف شاه وكان منقاوس قسم خراج البلاد أرباعا فربع للملك خاصة يعمل فيـه ما يريد وربع ينفق فى مصالح الارض وما تحتاج اليه من عمل الجسور وحفر الخليج وتقوية أهلها على العمارة وربع يدفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل وربع للجند وكان خراج البـلد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف دينار وقسمها على مائة وثلاث كور بعدّة الآلاف ويقال ان كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الاسلامية وهي اليـوم خمس وثمانون كورة أسفل الارض خمس وأربعون كورة والصعيد أربعون كورة وفي كل كورة كاهن يدبرها وصاحب حرب وارتفع مال البلد على يد ندارس بن صا مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار وفي أيام كلـكن بن خربتا بن ماليق بن ندارس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار ولما زالت دولة القبط الاولى من مصر وملكها العمالقة اختل أمرها وكان فرعون الاوّل يجبيها تسعين ألف ألف دينـار يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس من أولاد الملوك وأهل التعفف وعشرة آلاف ألف دينار لاولياء الامر والجند والـكتاب وعشرة آلاف ألف دينار

لمصالح فرعون ويكنزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار * وبلغ خراج مصر في أيام الريان بن الوليد وهو فرعون يوسف عليه السلام سبعة وتسعين ألف ألف دينار فاحب أن يتمه مائة ألف ألف دينار فامر بوجوه العمارات واصلاح جسور البلد والزيادة في استنباط الارض حتى بلغ ذلك وزاد عليه * وقال ابن دحية وجبيت مصر فى أيام الفراعنة فبلغت تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعوني وهو ثلاثة مثاقيل من مثقالنا المعروف الآن بمصر الذي هو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ثلاث حبات من قمح فيكون بحساب ذلك مائتي ألف ألف وسبعين ألف ألف دينار مصرية وذكر الشريف الحراني أنه وجد في بعض البرابي بالصعيد مكتوبا باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف عليه السلام وهو الريان بن الوليد من أموال مصر بحق الخراج مما يوجبه الخراج وسائر وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير تأول ولا اضطهاد ولا مشاحة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه وبعد وضع مايجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين وتقوية لحالهم من العين أربعة وعشرون ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وذكر مافيه كما فى خبر الحسن بن على الاسدي * وقال الحسن ابن علي الاسدي أخبرني أبي قال وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية مما نقل الى اللغة العربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون مصر بحق الخراج الذي يوجد وسائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدي لرسمه وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان رفقا بالمعاملين وتقوية لهم من العين أربعة وعشرين ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار من جهات مصر وذلك ما يصرف في عمارة البلاد لحفر الخلج واتقان الجسور وسد الترع واصلاح السبل والساسة ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البذار وغير ذلك وثمن الآلات وأجرة من يستعان به من الاجراء لجمل الاصناف وسائر نفقات تطريق أراضيهم من العين ثمانمائة ألف دينار ولما يصرف فى أرزاق الاولياء الموسومين بالسلاح وحملته والغلمان وأشياعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهم من الخزان ومن يجري مجراهم وعدتهم مائة ألف وأحد عشر ألف رجل من العين ثمانية آلاف ألف دينار ولما يصرف فى الارامل والايتام فرضا لهم من بيت المال وان كانوا غير محتاجين اليه حتى لاتخلو آمالهم من بر يصل اليهم من العين أربعمائة ألف دينار ولما يصرف فى كهنة برابيهم وأئمتهم وسائر بيوت صلواتهم من العين مائة ألف دينار ولما يصرف في الصدقات وينادي فى الناس برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة فليحضر فلا يرد عند ذلك أحد والامناء جلوس فاذا رؤى رجل لم تجر عادته بذلك أفرد

بعد قبض ما يقبضه حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدة دخل أمناء فرعون اليه وهنوه بتفرقة المال ودعوا له بالبقاء والسلامة وأنهوا حال الطائفة المذكورة فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس ويمد الاسمطة ويأكلون ويشربون ثم يستعلم من كل واحد سبب فاقته فان كان من آفة الزمان رد عليه مثل ما كان وأكثر وان كان عن سوء رأى وضعف تدبير ضمه الى من يشرف عليه ويقوم بالامر الذي يصلح له من العين مائتا ألف دينار فذلك جملة ماتيين وفصل فى هذه الجهات المذكورة من العين تسعة آلاف ألف وثمانمائة ألف دينار ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه فرعون فى بيوت أمواله عدة لنوائب الدهر وحادثات الزمان من العين أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار وقيل لبعضهم متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار قال فى الوقت الذى أرسل فرعون بويبة قمح الى أسفل الارض والى الصعيد فلم يجد لها موضعا تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة

(ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر في الخراج وما كان من أمر مصر في ذلك مع القبط)

قال زهير بن معاوية حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مدها ودينارها ومنعت مصر أردبها وعدتم من حيث بدأ ثم قال أبو عبيد قد أخبر صلى الله عليه وسلم بما لم يكن وهو فى علم الله كائن فخرج لفظه على لفظ الماضى لانه ماض في علم الله وفى اعلامه بهذا قبل وقوعه مادل على اثبات نبوته ودل على رضاه من عمر رضى الله عنه ما وظفه على الكفرة من الخراج في الامصار * وفي تفسير المنع وجهان * أحدهما انه علم أنهم سيسلمون ويسقط عنهم ماوظف عليهم فصاروا مانعين باسلامهم ماوظف عليهم يدل عليه قوله وعدتم من حيث بدأتم * وقيل معناه أنهم يرجعون عن الطاعة والاول أحسن * وقال ابن عبد الحكم عن عبد الله بن لهيعة لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ على دينارين دينارين فأحصوا ذلك فبلغت عدتهم ثمانية آلاف الف وعن هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر ان من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته وان قبطيا من أرض الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزا فارسل اليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه في السجن وعمرو يسأل عنه هل تسمعونه يسأل عن أحد فقالوا لا انما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه ثم كتب الى ذلك الراهب ان ابعث الى بما عندك وختمه بخاتمه فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها مالكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو الى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهبا مصريا

مضروبة فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغي على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس * وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي من قبط مصر لانه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين ويكتب اليهم بذلك فاستخرج منه بضعا وخمسين أردبا دنانير قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يبعث الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت فريضة مصر لحفر خلجها وأقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً معهم الطور والمساحي والاداة يعتقبون ذلك لايدعون ذلك صيفا ولا شتاء ثم كتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف عرضا ولا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولاتدعهم يتشبهون بالمسلمين في ملبوسهم* وعن يزيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى أمراء الاجناد أن لايضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق وأربعة دنانير على أهل الذهب وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة وثلاثة أقساط من زيت في كل شهر لكل انسان من أهل الشام والجزيرة وودك وعسل لا أدرى كم هو ومن كان من أهل مصر فأردب في كل شهر لكل انسان ولا أدرى كم الودك والعسل وعليهم من البز الكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس ويضيفون من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاثة أيام وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل انسان ولا أدرى كم لهم من الودك وكان لايضرب الجزية على النساء والصبيان وكان يختم في أعناق رجال أهل الجزية وكانت ويبة عمر في ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد قال وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الامراء أقر قبطها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وأن قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم يجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج ثم ينظرون مابقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم

فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك ولذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا وجعل لكل فدان عليهم نصف أردب قمح وويبتين من شعير الا القرظ فلم يكن عليه ضريبة والويبة ستة أمداد وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ماسمى على نفسه لايضع من ذلك شيئاً ولا يزيد عليه ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئاً يؤديه نظر عمر في أمره فاذا احتاجوا خفف عنهم وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم * وقال هشام بن أبي رقية اللخمي قدم صاحب أخنا على عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال له أخبرنا ماعلى أحدنا من الجزية فنصبر لها فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة لو أعطيتني من الارض الى السقف ما أخبرتك ما عليك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم ومن ذهب الى هذا الحديث ذهب الى أن مصر فتحت عنوة * وعن يزيد بن أبي حبيب قال قال عمر بن عبد العزيز أيما ذمي أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله وما كان من أرض فانها من فئ الله على المسلمين وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم * وقال الليث كتب الىّ يحيي بن سعيد أن ماباع القبط في جزيتهم وما يؤخذون به من الحق الذى عليهم من عبد أو وليدة أو بعير أو بقرة أو دابة فان ذلك جائز عليهم فمن ابتاعه منهم فهو غير مردود عليهم ان أيسروا وما أكروا من أرضهم فجائز كراؤه الا أن يكون يضر بالجزية التي عليهم فلعل الارض أن ترد عليهم ان أضرت بجزيتهم وان كان فضلا بعد الجزية فانا نرى كراءها جائزا لمن يكراها منهم قال يحيي فنحن نقول الجزية جزيتان جزية على رؤس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤس الرجال فانا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لاولد له ولا وارث ان أرضه ترجع الى قريته في جملة ماعليهم من الجزية ومن هلك ممن جزيته على رؤس الرجال ولم يدع وارثا فان أرضه للمسلمين وقال الليث عن عمر بن عبد العزيز الجزية على الرؤس وليست على الارضين يريد أهل الذمة * وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم وهذا يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة وان الجزية انما هي على القرى فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم وان موت من مات منهم لايضع عنهم من الجزية شيئاً قال ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح فذلك الصلح ثابت على من بقى

منهم وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئاً * قال الليث وضع عمر بن عبد العزيز الجزية على من أسلم من أهل الذمة من أهل مصر وألحق في الديوان صلح من أسلم منهم فى عشائر من أسلموا على يديه وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف ثم كتب عبد الملك بن مروان الى عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة في ذلك فقال أعيذك الله أيها الامير أن تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف نضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك * وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فان الله تبارك وتعالى قال فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون * وكتب حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان فان رأى أمير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل * فكتب اليه عمر أما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا فضع الجزية عن من أسلم قبح الله رأيك فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه قال ولما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فاني فكرت في أمرك والذى انت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلدا وقوة فى بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد أكثرت في مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع الى ذلك فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى في نفسى لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا أن البراءة لنافعة وان كنت مضيعا نطعا ان الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع الى ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك

الا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلففب اتخذوك كهفا وعندى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبــد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنــه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام * فكتب اليه عمرو بن العاص بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو أما بعــد فقد بلغنى كتابك أمير المؤمنين في الذى استبطأني فيه من الخراج والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وتربت وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقدعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نري غير ذلك قبيحا والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا وتصدق فيــه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فأمض عملك فان الله قــد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعــد كتابك الذي لم تستبق فيــه عرضا ولم تكرم فيه أخا والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك منى أشــد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما وما عملت من عمل أري عليه فيه متعلقا ولــكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب مازدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولــكن الله عظم من حقك مالا يجهل * فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنــه من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فانى أحمــد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعــد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الى بثنيات الطرق وقد علمت أني لست أرضي منك الا بالحق البين ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمــة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياســتك فاذا أتاك كتابى هــذا فاحمل الخراج فانما هو فئ المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام * فكتب اليه عمرو بن العاص بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص ســلام عليــك فانى أحمــد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعــد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم أني أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولــكن أهــل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام *

وقال الليث بن سعد رضي الله عنــه جباها عمرو بن العاص رضى الله عنه اثني عشر ألف ألف دينار وجباها المقوقس قبـله لسنة عشرين ألف ألف دينار فعنــد ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب بما كتب وجباها عبد الله بن سعد بن سرح حين استعمله عثمان رضى الله عنه على مصر أربعة عشر ألف ألف دينار فقال عثمان لعمرو بن العاص بعد ما عزله عن مصر يا أبا عبد الله درت اللقحة بأ كثر من درها الاول قال أضررتم بولدها فقال ذلك ان لم يمت الفصيل * وكتب معاوية بن أبي سفيان الى وردان وكان قد ولى خراج مصر أن زد على كل رجل من القبط قيراطا فكتب اليه وردان كيف نزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم شيء فعزله معاوية وقيــل فى عزل وردان غير ذلك وقال ابن لهيعة كان الديوان في زمان معاوية أربعين ألفا وكان منهم أربعــة آلاف في مائتين مائتين فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهــم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البــلاد من الجسور وأرزاق الـكتبة وحملان القمح الى الحجاز ثم بعث الى معاوية بستمائة ألف دينار فضــل * وقال ابن عفير فلما نهضت الابل لقيهم برح بن كسحل المهرى فقال ما هذا ما بال مالنا يخرج من بلادنا ردوه فردوه حتي وقف على باب المسجد فقال أخذتم عطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالـكم ونوائبـكم قالوا نعم قال لا بارك الله لهم فيه خذوه فساروا به * وقال بعضهم جبي عمرو بن العاص عشرة آلاف دينار فكتب اليــه عمر بن الخطاب يعجزه ويقول له جباية الروم عشرون ألف ألف دينار فلما كان العام المقبل جباه عمرو اثني عشر ألف ألف دينار* وقال ابن لهيعة جبى عمرو بن العاص الاسكندرية الجزية ستمائة ألف دينار لانه وجد فيهـا ثلاثمائة ألف من أهل الذمة فرض عليهم دينارين دينارين والله تعالى أعلم

ذكر انتقاض القبط وما كان من الاحداث في ذلك

خرّج الامام أبو عبــد الله محمد بن اسماعيل البخارى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال كيف أنتم اذا لم تجبوا دينارا ولا درهما قالوا وكيف نرى ذلك كائناً يا أبا هريرة قال أي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق المصــدوق قالوا عم ذلك قال تنتهك ذمته وذمة رسوله فيشد الله عز وجل قلوب أهل الذمة فيمنعون ما فى أيديهم قال أبو عمرو محمد ابن يوسف الـكندي فى كتاب أمراء مصر وفى امرة الحر بن يوسف أمير مصر كتب عبدالله بن الحبحاب صاحب خراجها الى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطا فانتقضت كورة تنوديمي وقربيط وطرابيه وعامة الحوف الشرقي فبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير وذلك أول انتقاض القبط بمصر وكان انتقاضهم في سنة سبع ومائة ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر ثم انتقض أهل الصعيد وحارب القبط عمالهم في ســنة احدى وعشرين ومائة فبعث اليهم حنظلة بن

صفوان أمير مصر أهل الديوان فقتلوا من القبط ناساً كثيراً وظفر بهم وخرج بجيش رجل من القبط في سمنود فبعث اليه بعبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير أمير مصر فقتل بجيش في كثير من أصحابه وذلك في سنة اثنين وثلاثين ومائة وخالفت القبط برشيد فبعث اليهم مروان بن محمد الجعدي لما دخل مصر فارا من بني العباس بعثمان بن أبي قسعة فهزمهم وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العمال وأخرجوهم وذلك في سنة خمسين ومائة وصاروا الى شبرى سنباط وانضم اليهم أهل البشرود والاريسية والنجوم فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه مصر فخرجوا اليهم فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين فألقى المسلمون النار في عسكر القبط وانصرف المسلمون الى مصر منهزمين وفي ولاية موسى بن علي بن رباح على مصر خرج القبط ببلهيب في سنة ست وخمسين ومائة فخرج اليهم عسكر فهزموهم ثم انتقضوا مع من انتقض في سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الافشين في ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال فبيعوا وسبي أكثرهم ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان وغلب المسلمون على القرى فعاد القبط من بعد ذلك الى كيد الاسلام وأهله باعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج وكان للمسلمين فيهم وقائع يأتي خبرها في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

(ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشا وما كان في نزولهم من الاحداث)

قال الكندي وفي ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي على مصر نقلت قيس الى مصر في سنة تسع ومائة ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك الا ما كان من فهم وعدوان فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتا فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على أن لا ينزلهم بالفسطاط ففرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فانزلهم الحوف الشرقي وفرقهم فيه ويقال ان عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام ابن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظاً الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان فكتب الى هشام ان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم واني قدمت مصر ولم أر لهم حظاً الا أبياتاً من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا وهي بلبيس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل فكتب اليه هشام انت وذاك فبعث الى البادية

فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤونة فى علف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا اليهم فوصل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت فصار ببلبيس الف وخمسمائة أهل بيت من قيس حتى اذا كان زمن مروان بن محمد وولي الحوثرة بن سهيل الباهلي مصر مالت اليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم * وفى سنة ثمان وسبعين ومائة كشف اسحاق بن سليمان ابن علي بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا فبعث اليهم الجيوش وحاربهم فقتل من الجيش جماعة فكتب الى أمير المؤمنين هارون الرشيد يخبره بذلك فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم وبعث به الى مصر فنزل الحوف وتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله ثم ان أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر وذلك انه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس الى الليث فلم يسمع منهم فعسكروا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ست وثمانين ومائة فالتقى معهم في رمضان فانهزم عنه الجند في ثانى عشره وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤس القيسية ورجع الى الفسطاط وعاد أهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فخرج ليث الى أمير المؤمنين هارون الرشيد في محرم سنة سبع وثمانين ومائة وسأله أن يبعث معه بالجيوش فانه لايقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش يبعث معه وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد فرفع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها وفى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيي بن معاذ فى أمرهم فنزل بلبيس فى شوال سنة احدى وتسعين ومائة وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة وولي مالك بن دلهم وفرغ يحيي بن معاذ من أمر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الآخرة فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى أهل الحوف أن اقدموا حتى أوصي

بكم مالك بن دلهم وأدخل بينكم وبينه في أمر خراجكم فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد أعد لهم القيود فأمر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد فقيدهم وتوجه بهم للنصف من رجب منها * وفي امارة عيسى بن يزيد الجلودى على مصر ظلم صالح بن شير زاد عامل الخراج الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أهل أسفل الارض وعسكروا فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم فنزل بلبيس وحاربهم فنجا من المعركة بنفسه ولم ينج أحد من أصحابه وذلك في صفر سنة أربع عشرة ومائتين فعزل عيسى عن مصر وولى عمير بن الوليد التميمي فاستعد لحرب أهل الحوف وسار في جيوشه في ربيع الآخر فزحفوا عليه واقتتلوا فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه فعطف عليه كمين لاهل الحوف فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر فولى عيسى الجلودى ثانياً وسار اليهم فلقيهم بمنية مطر فكانت بينهم وقعة آلت الى أن انهزم منهم الى الفسطاط وأحرق ماثقل عليه من رحله وخندق على الفسطاط وذلك في رجب وقدم أبو اسحاق ابن الرشيد من العراق فنزل الحوف وأرسل الى أهله فامتنعوا من طاعته فقاتلهم فى شعبان ودخل وقد ظفر بعدة من وجوههم الى الفسطاط في شوال ثم عاد الى العراق في المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجمع من الاسارى فلما كان في جمادى الاولى سنة ست عشرة ومائتين انتقض أسفل الارض بأسره عربها وقبطها وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت الى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون الى مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين فسخط على عيسى بن منصور الرافقي وكان على امارة مصر وأمر بحل لوائه وأخذه بلباس البياض عقوبة له وقال لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتني الخبر حتى تفاقم الامر واضطرب البلد * ثم عقد المأمون على جيش بعث به الى الصعيد وارتحل هو الى سخا وبعث بالافشين الى القبط وقد خلعوا الطاعة فأوقع بهم في ناحية البشر ودو حصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال فسبي أكثرهم وتتبع المأمون كل من يومي اليه بخلاف فقتل ناسا كثيرا ورجع الى الفسطاط في صفر ومضى الى حلوان وعاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر وكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما وكان خراج مصر قد بلغ في أيام المأمون على حكم الانصاف في الجباية أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار * ويقال ان المأمون لما سار في قرى مصر كان يبني له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله وكان يقيم فى القرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت اليه

عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها وكان لايمشي أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له ان القبطيـة قالت ياأمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضـيعتي ليكون لي الشرف ولعقبي ولا تشمت الاعداء بي وبكت بكاء كثيرا فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ونزل فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله كم تحتـاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته فأحضر جميع ذلك اليـه بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكثم والقاضى أحمد بن داود فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ولم تكل أحدا منهم ولا من القوّاد الى غيره ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيرا حتى انه استعظم ذلك فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناه والصـبر فلما وضعت ذلك بين يديه اذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها باعادته فقالت لا والله لاأفعل فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت ياأمير المؤمنين لاتكسر قلوبنـا ولا تحتقر بنا فقال ان في بعض ماصنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك فردى مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الارض وقالت ياأمير المؤمنين هذا واشارت الى الذهب من هذا وأشارت الى الطينة التي تناولتها من الارض ثم من عدلك ياأمير المؤمنين وعندى من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها

(ذكر قبالات أراضى مصر بعد مافشا الاسلام في القبط ونزول العرب في القرى وماكان من ذلك الى الروك الاخير الناصرى)

وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط الى اظهـار الاسلام واختلاط أنسابهـم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات أن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذى تتهيأ فيـه قبـالة الاراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البـلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متـولى الخراج يكتبون ماينتهى اليـه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس وكانت البـلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى هـذا الامر

خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة في ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين يقال لما تأخر من مال الخراج البواقي وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيما يحتاج الى التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص الى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار العسكر منزلا لامراء مصر فنقل الديوان الى جامع أحمد بن طولون ثم نقل أيام العزيز بالله نزار الى دار الوزير يعقوب بن كلس فلما مات الوزير نقل الديوان الى القصر بالقاهرة واستمر به مدة الدولة الفاطمية ثم نقل منه بعدها وسأتلو عليك من نبأ ذلك مايتضح به ما ذكرت قال ابن ذولاق في كتاب أخبار الماردانيين كتاب مصر وحضر أبو الحسن وهب بن اسماعيل مجلس أبي بكر بن علي الماردانى في المسجد الجامع وهو يعقد الضياع فقال له أبو بكر الساعة آمر بالنداء على صفقة نخذها شركة بيني وبينك فنودي على صفقة فقال أبو بكر اعقدوها على أبي الحسن فعقدت عليه وتحملها فأفضلت له أربعين ألف دينار فاستنض عشرين ألف دينار ولم يدر ما يعمل فيها الى أن اجتمع مع أبي يعقوب كاتب أبي بكر ليتحدثا فقال أبو يعقوب رأيت الشيخ يعني أبا بكر الماردانى في اليوم مشغول القلب أراد جمع مال وقد عجز عنه فقال له أبو الحسن عندي نحو عشرين ألف دينار فقال جئني بها فأنفذها اليه وجاءه خطه بالمبلغ فاتفق ان مضى أبو الحسن الى أبي بكر المارداني فقال له تلك الصفقة قد غلقت ماعليها وفضل أربعون ألف دينار وقد حصل عندي عشرون ألف دينار حملتها الى أبي يعقوب وأرسلت في استخراج الباقي فاحمله فقال المارداني ماهذا العجز انما قلت لك تكون بيني وبينك خوفا من تفريطك وانما أردت حفظ المال عليك ثم أمر أبا يعقوب أن يرد عليه مادفعه اليه وقال لابي الحسن رد عليه خطه فقبض مادفعه الى أبي يعقوب وبلغ خراج مصر في السنة التي دخل فيها جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا وقال في كتاب سيرة المعز لدين الله معد ولست عشرة بقيت من المحرم سنة ثلاث وستين وثلثمائة قلد المعز لدين الله الخراج ووجوه الاموال وغير ذلك يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن وجلسا في هذا اليوم في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات وطلبوا البقايا من الاموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال وقال جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن

ابن على البازوري وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليقايس بينهما فتقدم الى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع مايجري في ديوانه وما عليه من النفقات فعمل ذلك وسلمه الى متولى ديوان المجلس وهو زمام الدواوين فنظم عليه عملا جامعا وأحضره اياه فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار منها الشام ألف ألف دينار ونفقاته بإزاء ارتفاعه ومنها الريف وباقي الدولة ألف ألف دينار يقف منها عن معلول ومنكسر على موتى وهراب ومفقود مائتا ألف دينار ويبقى ثمانمائة ألف دينار يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلثمائة ألف دينار وعن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة يحملها كل سنة الى بيت المال المصون فحظى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه قال وانتهى ارتفاع الاوض السفلي الى مالا نسبة له من ارتفاعها الاول يعني بعد موت البازوري وحدوث الفتن وهو قبل سنى هذه الفتن يعني في أيام البازورى ستمائة ألف دينار كانت تحمل في دفعتين فى السنة في مستهل رجب ثلاثمائة ألف دينار وفي مستهل المحرم ثلثمائة ألف دينار فاتضع الارتفاع وعظمت الواجبات وقال ابن ميسرة وأمر الافضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر فجاء خمسة آلاف ألف دينار وكان متحصل الامراء ألف ألف اردب وقال الامير جمال الدين والملك موسى ابن المأمون البطائحي في تاريخه من حوادث سنة احدى وخمسمائة ثم رأى القائل أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من كون اقطاعاتهم قد خس ارتفاعها وساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها وان اقطاعات الامراء قد تضاعف ارتفاعها وأزدادت عن غيرها وان في كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجيئ بالعسف وبتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها فخاطب الافضل بن أمير الجيوش في أن يحل الاقطاعات جميعها ويروكها وعرفه ان المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين والديوان لان الديوان يحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقورة فأجاب الى ذلك وحل جميع الاقطاعات وراكها وأخذ كل من الاقوياء والمميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتين وأملاكا ومعاصر في نواحيهم فقال له من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل في الاقطاع وهو محكم ان شاء باعه وان شاء آجره فلما حلت الاقطاعات أمر الضعفاء من الاجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة فى اقطاعات الاقوياء الى أن انتهت الى مبلغ معلوم وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم الى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد وأحضر الاقوياء وقال لهم ما تكرهون من الاقطاعات التى كانت بيد الاجناد قالوا كثرة غيرها وقلة متحصلها وخرابها وقلة الساكن بها فقال لهم

ابذلوا في كل ناحية ما تحمله وتقوى رغبتكم فيه ولا تنظروا فى العبرة الاولى فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها الى أن بلغت الى الحد الذي رغب كل منهم فيه فأقطعوا به وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم وحصل للديوان بلاد مقورة بما كان مفرقا في الاقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار * وقال في حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان قد تقدم أمر الاجل المأمون بعمل حساب الدولة من الهلالى والخراجي وجعل نظمه على جملتين احداهما الى سنة عشر وخمسمائة الهلالية الخراجية والجملة الثانية الى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة هلالية وما يوافقها من الخراجية فعقدت على جملة كثيرة من العين والاصناف وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها فلما أحضرت أمر بكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقي الى آخر سنة عشر وخمسمائة ونسخته بعد التصدير ولما انتهى الينا حال المعاملين والضمناء والمتصرفين وما في جهاتهم من بقايا معاملاتهم أنعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً فى استخلاص ضامن طالت غفلته وخربت ذمته وانقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته وتوفير الرغبة على عمارتها وجريها فيها على قديم عادتها ولما كان ذلك من جميل الاحدوثة التي لم نسبق اليها ولا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال ايرادها في هذا الكتاب وايداعها هذا الباب لما اطلعنا عليه مما انتهت اليه أحوال الضمناء والمعاملين بالمملكة من الاختلال وتجمد البقايا فى جهاتهم والاموال عطفنا عليهم برأفة ورحمة وطالعنا المقام الاشرف النبوى بالتفصيل من أمورهم والجملة واستخرجنا الامر العالى بوضع ذلك فى الحال وأنشأ السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الاحسان وتنفيذها الى جميع البلدان ليقرأ على رؤس الاشهاد بسائر البلاد ومبلغ ما انتهت اليه هذه المسامحة الى حين ختم هذا السجل من العين ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون ديناراً ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط ومن الفضة النقرة أربعة دراهم ومن الورق سبعة وستون ألفاً وخمسة دراهم ونصف وسدس درهم ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون أردبا وثمن ونصف سدس وثلثى قيراط ومن العناب ربع أردب ومن ورق الصباغ ألفان وأربعمائة وثلاثة أرادب ونصف ومن زريعة الوسمة عشرة أرادب وربع ومن الصباغ ألف وأربعمائة وثمانون قنطاراً ورطل ونصف ومن القوة أربعمائة وسبعون رطلا ومن الشب تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً ونصف ومن الحديد خمسمائة رطل واحد وثلاثون رطلا ومن الزفت ألف وثلثمائة وثلاثة أرطال وربع وسدس ومن القطران تسعة عشر رطلا وثلث ومن الثياب الحابي ثلاثة أثواب ومن المئازر مائة مئزر صوف ومن الغرابيل مائة وسبعون غربالا ومن الاغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلثمائة وخمسة أرؤس

ومن البسر ثلثمائة وثلاثة عشر قنطاراً وثمانية وثلاثون رطلا ومن السحيل ثلاثمائة ألف وخمسة وسبعون ألفاً وخمسمائة وخمسون باعا ومن الجريد أربعمائة ألف وثمانيــة وثلاثون الفاً وسبعمائة وثلاثة وخمسون جريدة ومن السلب ألف واربعمائة وثلاثة وعشرون سلبة ومن الاطراف ســتة آلاف وسبعمائة وثلاثة أطراف ومن الملح ألفان وســبعمائة وثلاثة وتسعون أردبا وثلث ومن الاشنان أحد عشر أردبا ومن الرمان ألفا حبة ومن العسل النحل خمسمائة وأحد وأربعون قنطاراً وسدس ومن الشهد اثنان وثلاثون زيرا وقادوسا واحداً ومن الشمع أربعمائة واربعون رطلا ومن الخــلايا ثلاثة آلاف وأربعمائة وخليتــان ومن عسل القصب مائة وثمانية وثلاثون قنطاراً ومن الابقار اثنان وعشرون الفاً ومائة واربعة وستون رأسا ومن الدواب اربعة وسبعون رأساً ومن السمن الفان وتسعمائة وستة وتسعون مطراً وسدس وثمن ومن الجبن ثلثمائة وعشرون رطلا ومن الصوف اربعــة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جزة ومن الشعر ستة آلاف وخمــــون رطلا وربع ومن بيوت الشعر بيتان وفصــل ذلك بجهاته ومعاملاته قال ولما انتهى الى المأمون ما يعتمد فى الدواوين من قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد فيها المشقة والتعب وتسليمها الى باذل الزيادة من غير كلفة ولا نصب انكر ذلك ومنع من ارتكابه ونهى عن الولوج في بابه وخرج امره بأعفاء الــكافة اجمعين والضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه و يستولون عليه ما داموا مغلقين وبأقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرئ في الجامعين الازهر بالقاهرة و العتيق بمصر وديوانى المجلس والخاص الامر بين السعيدين و نسخته بعد التصدير * ولما انتهى الى حضرتنا ما يعتمد في الدواوين ويقصده جماعــة من المتصرفين والمستخدمين من تضمين الابواب والرباع والبساتين والحمامات والقياسر والمساكن وغير ذلك من الضمانات للراغبين فيها ممن تستمر معاملته ولا تنكر طريقته فما هو الا أن يحضر من يزيد عليه في ضمانه حتى قد نقض عليه حكم الضمان وقبل ما يبذل من الزيادة كائناً من كان وقبضت يد الضامن الاول عن التصرف ومكن الضامن الثانى من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الاول ولا تحرز في فسخه الذى لا يبيحه الشرع ولا يتأول أنكرنا ذلك على معتمديه وذممنا من قصــدنا عليه ومرتكبيه اذ كان للحق مجانبــا وعن مذهب الصواب ذاهباً وعرضنا ذلك بالمواقف المقدســة المطهرة ضاعف الله أنوارها وأعلى أبداً منارها واستخرجنا الاوامر المطاعة في كتب هذا المنشور الى سائر الاعمال بأنه أى أحد من الناس ضمن ضمانا من باب أو ربع أو بستان أو ناحيــة أو كفر وكان لاقســاط ضمانه مؤديا ولما يلزمه من ذلك مبديا وللحق متبعاً فان ضمانه باق فى يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المعقود عملا بالواجب والنظام المحمود واتباعا لما أمر الله تعالى به في كتابه

المجيد اذ يقول جل من قائل (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) الى أن تنقضي مدة الضمان ويزول حكمها ويذهب وضعها ورسمها حملا على قضية الواجب وسننها واعتماداً على حكم الشريعة التي ما ضل من اهتدى بفرائضها وسننها فأما من ضمن ضماناً ولم يقم بما يجب عليه فيه وأصر على المدافعة والمغالطة التي لا يعتمدها الا كل ذميم الطباع سفيه فذلك الذى فسخ حكم ضمانه بنقضه الشرط المشروطة عليه وحكمه حكم من اذا زيد عليه في ضمانه نقل عنه وأخرج من يديه لانه الذى بدأ بالفسخ وأوجد السبيل اليه فليعتمد كافة أرباب الدواوين وجميع المتصرفين والمستخدمين العمل بما تضمنه هذا المنشور وامتثال المأمور وحمل هؤلاء الضمناء والمعاملين على ما نص فيه والحذر من تجاوزه وتعديه بعد ثبوته فى ديوانى المجلس والخاص الامر بين السعيدين وبحيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى قال ووصلته المكاتبة من الوالى والمشارف ومن كان ندب صحبته لكشف الاراضى والسواقي ومساحتها متضمنة ما أظهره الكشف وأوضحته المساحة على من بيده السواقي وهم عدة كثيرة ومن جملتها ساقية مساحتها ثلثمائة وستون فدانا تشتمل على النخل والكرم وقصب السكر بمدينة اسنا خراجها فى السنة عشرة دنانير وما يجرى فى الاعمال هذا المجرى وانهم وضعوا يد الديوان على جميعها وطلبوا من أرباب السواقى ما يدل على ما بأيديهم فذكروا أنها انتقلت اليهم ولم يظهروا ما يدل عليها وقد سيروا ملاكها الى الباب تحت الحوطة ليخرج الامر بما يعتمد عليه في أمرهم وعند وصولهم أوقع الترسيم عليهم الى أن يقوموا بما يجب من الخراج عن هذه السواقي فان الاملاك بجملتها لا تقوم بما يجب عليها فوقف المذكورون للمأمون في يوم جلوسه للمظالم فأمر بحضورهم بين يديه وتقدم الى القاضى جلال الملك أبو الحجاج يوسف بن أبي أيوب المغربى وهو يومئذ قاضي القضاة لما كتبهم فجرى له معهم مفاوضة أوجبت الحق عليهم وألزمهم بالقيام بما يستغرق أموالهم وأملاكهم فحصل من تضررهم ما أوجب العاطفة عليهم وأخذهم بالخراج من بعد وأن يضرب عما تقدم صفحاً وكتب منشور نسخته قد علم الكافة ما نراه من افاضة سحب العدل عليهم والاحسان والنظر في مصالح كل قاص منهم ودان وانا لا ندع ضرراً يتوجه الى أحد من الرعية الا حسمناه ولا نعلم صلاحا يعود نفعه عليه الا قوينا سببه ووصلناه حسبما يتعين على رعاة الامم وعملا بالواجب في البعيد والامم وسلوكا لمحجة الدولة الفاطمية خلد الله ملكها القويمة واستمراراً على قضاياها وسجاياها الكريمة ولما كنا نرى النظر في مصالح الرعايا أمراً واجباً ونصرف الى سياستهم عزماً ماضياً ورأياً ثاقباً كذلك نرى النظر في أمور الدواوين واستيفاء حقوقها المصروفة الى حماية البيضة والمحاماة عن الدين وجهاد الكفرة والملحدين ليكون ما نراعيه وننظر فيه جارياً على سنن الواجب محروساً من الخلل باذن الله من جميع الجوانب

ومن الله تستمد مواد التوفيق فى الحل والعقد * ونسأله الارشاد الى سواء السبيل والقصد وما توفيقنا الا بالله عليه نتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل * وكان القاضي الرشيد بن الزبير أيام مشارفته الصعيد الاعلى قد طالع المجلس الافضلي بحال أرباب الاملاك هناك وانهم قد استضافوا الى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها ومواضع مجاورة لاملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها وحازوها ورسم له كشفها ونظم المشاريح بها وارتجاعها للديوان وان يعتمد في ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت في كل قطر ومكان وبآخر ذلك سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته وانهائه على طيته فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف في هذه الاملاك ووردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أوساقية مايشهد بصحة ملكه ومبلغ فدنه وذكر حدوده فلم يحضر أحدمنهم كتابا ولا أوضح جوابا وأصدروا الى الديوان المشاريح بما كشفوه وأوضحوه فوجدوا التعدي فيه ظاهرا وباب الحيف والظلم غير متقاصر والشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله ومطالبة صاحبه بريعه واستغلاله لاسيما وليس بيده كتاب يشهد بصحة الملك رأساً ولا يستند في ذلك الى حجة ادّخرها احترازا عن مجاهدة سبيله واحتراسا ولكن نحكم بما نراه من المصلحة للرعية والعدل الذي أقمنا مناره وأحيينا معالمه وآثاره مع الرغبة في عمارة البلاد ومصالح أحوالها واستنباط الارضين الدائرة وانشاء الغروس واقامة السواقي بها أمرنا بكتب هذا المنشور وتلاوته بأعمال الصعيد الاعلى باقرار جميع الاملاك والارضين والسواقى بأيدي أربابها الآن من غير انتزاع شيء منها ولا ارتجاعه وأن يقرر عليها من الخراج مايجب تقريره ويشهد الديوان على أمثالهم بمثله احساناً اليهم لم نزل نتابع مثله ونواليه وانعاماً مابرحنا نعيده عليهم ونبديه وقدأنعمنا وتجاوزنا عما سلف ونهينا من يستأنف وسامحنا من خرج عن التعدي الى المألوف وجرينا على سنننا في العفو والمعروف وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم الله منه وطولب بمستأنفه وأمسه وبرئت الذمة من ماله ونفسه وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة وسدت فى وجهه أبواب الشفاعة والسلامة وقد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب في عمارة أرض حلفاء دائرة وادارة بئر مهجورة معطلة في أن يسلم اليه ذلك ويقاس عليه ولا يؤخذ منه خراج الا فيالسنة الرابعة من تسليمه اياه وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤبدا وأمراً مؤكدا فليعتمد ذلك النواب وحكام البلاد ومن جرت العادة بحضوره عقد مجلس واحضار جميع أرباب الاملاك والسواقي واشعارهم ماشملهم من هذا الاحسان الذي تجاوز آمالهم فياجابتهم الى ما كانوا يسألون فيه وتقرير مايجب على الاملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذى مثلناه ويجيز الديوان تقريره ويرضاه مع تضمين الاراضي الدائرة والآبار المعطلة لمن يرغب في ضمانها ونظم

المشاريح بذلك واصدارها الى الديوان ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هـذا المنشور بحيث يثبت مثله قال ولما سرت هذه المصالح الى جميع أهل هـذه الأعمال حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان وعمارة البلاد * واعلم انه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى اجناد الدولة التركية وانما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الامراء والاجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم لا يعرف هذه الابذة التي يقال لها اليوم الفلاحة ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحيـة الا انه لا يرجو قط ان يباع ولا ان يعتق بل هو قن ما بقي ومن ولد له كذلك بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدم وحمل ماعليه لبيت المـال فاذا صار مال الخراج بالديوان أنفق في طوائف العسكر من الخزائن وكان مع ذلك اذا انحط ماء النيل عن الاراضى وتعلقت نواحي مصر باصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة وخرج معه عدول يوثق بهم وكانت لهم معرفة بعلم الخراج وكثيراً ما كان هـذا الـكاتب من النصارى الاقباط ويخرج الى كل ناحية من ذكرنا فيحررون مساحة ما شمله الري من الاراضي مما لعله بار أو شرق ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالقدن والقطائع على جميع الاصناف المزروعة ويحضر الى دواوين الباب فاذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الاجناد من عرف بالحماسة وقوّة البطش وعين معه من الـكتاب العدول من قد اشتهر بالامانة وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة وساروا الى كل ناحية كذلك فاستخرج مباشروا كل بلد ثلث ماوجب من مال الخراج على ما شهدت به المـكلفات فاذا أحضر هذا الثلث صرف في واجبات العساكر وهكذا العمل في استخراج كل قسط طول الزمان من كل سنة وكانت تبقى في جهات الضمان والمتقبلين جملة بواق وكانت بلاد مصر اذ ذاك تقبل بعين وغلة واصناف وقد عرف ذلك من نسخة المسموح الذي تضمن ترك البواقى فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحى ورأيت بخط الاسعد بن مهذب بن زكريا بن مماتى الـكاتب المصرى سألت القاضي الفاضل عبد الرحيم كم كانت عدة العساكر في عرض ديوان الجيش لما كان سيدنا يتولى ذلك في أيام رزيك بن الصالح فقال أربعـين ألف فارس ونيفا وثلاثين ألف راجل من السودان وقال أبو عمرو عثمان النابلسى في كتاب حسن السريرة فى اتخـاذ الحصن بالجزيرة أن ضرغاما لما ثار على شاور وفر شاور الى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يستنجد به على ضرغام ويعده بأنه يكون نائبا عنه بمصر ويحمل اليه الخراج انشأ لنور الدين عزما لم يكن فجهز ألف فارس وقدم عليهم أسد الدين شيركوه وأمره بالتوجه فأبي وقال لا أمضي أبدا فإن هلاكي ومن معي وسوء ما سمعه السلطان معلوم من هنا وكيف أمضي

بألف فارس الى أقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة سهبد فيها عشرة آلاف مقاتل وأربعون ألف عبد وقوم مستوطنون في أوطانهم فرأيت حرابتهم ونحن نأتيهم من تعب السفر بهذه العدة القليلة قال ثم أجابه بعد ذلك هذا أعزك الله بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ما ستراه في ذكر القطائع إن شاء الله تعالى ثم ما كان من عساكر الامير أبي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهي على ما حكاه غير واحد منهم ابن خلكان أنها كانت أربعمائة ألف ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر تغير الحال بعض التغير لا كله * قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة في ثامن المحرم خرجت الاوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها بعد أن أنذر حاضرها وغائبها وتوفي وصولها وتكامل سلاحها وخيولها لحضر في هذا اليوم جموع شهد كل من علاسنه وقرطس ظنه أن ما ملكا من ملوك الاسلام لم يحز مثلها وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أرغم أنوف الكفرة ولم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب وطلبا بعد طلب والطلب بلغة الغز هو الامير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعدة من مائتي فارس الى مائة فارس الى سبعين فارسا الى أن انقضى النهار ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبا والغائب منها عشرون طلبا وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس أكثرها طواشية والطواشي من رزقه من سبعمائة الى ألف الى مائة وعشرين وما بين ذلك وله برك من عشرة رؤس الى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل وله غلام يحمل سلاحه وقراغلامية تتمة الجملة قال وفى هذه السفرة عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة آلاف فارس واستقرت عدتهم على ألف وثلثمائة فارس لا غير وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب وكان أصله ألف ألف دينار على حكم الاعتداد الذى يتأصل ولا يتحصل وكلف التغالبة ذلك فامتنعوا ولوحوا بالتحيز الى الفرنج * وقال فى متجددات شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر في أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها والنقص منها والزيادة فيها واثبات المحروم وزيادة المشكور الى أن استقرت العدة على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارساً امراء مائة وأحد عشر أميرا طواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون قرا غلامية الف وخمسمائة وثلاثة وخمسون والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة الف وسبعون الفاً وخمسمائة دينار وذلك خارج عن المحلولين من الاجناد الموسومين بالحوالة على العشر وعن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة وعن الكنانيين والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية وعما يجرى بالديوان ولا يقصر عن ألف ألف دينار * وقال في متجددات سنة خمس وثمانين وخمسمائة أوراق بما استقر عليه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب الى

آخر الرابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة خارجا عن الثغور وأبواب الاموال الديوانية والاحكار والحبس ومنفلوط ومنقباط وعدة نواح أوردت أسماءها ولم يعين لها في الديوان عبرة من جملة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين ألفا وتسعة عشر دينارا يعد مايجرى في الديوان العادلي السعيد وغيره عن الشرقية والمرتاحية والدقهلية وبوش وغير ذلك وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعون ألفا وتسعمائة وثلاثة وعشرون دينارا (تفصيل ذلك) الديوان العادلي سبعمائة ألف وثمانية وعشرون ألفا ومائتان وثمانية وأربعون دينارا الامراء والاجناد المرسوم بابقاء اقطاعاتهم بالاعمال المذكورة مائة ألف وثمانية وخمسون ألفا ومائتان وثلاثة دنانير ديوان السور المبارك والاشراف ثلاثة عشر ألفا وثمانمائة وأربعة دنانير العربان مائتا ألف وأربعة وثلاثون ألفا ومائتان وستة وتسعون دينارا الكنانية خمسة وعشرون ألفا وأربعمائة واثنا عشر دينارا القضاة والشيوخ سبعة آلاف وأربعمائة وثلاثة دنانير القيمارية والصالحية والاجناد المصريون أثنا عشر ألفا وخمسمائة وأربعة دنانير الغزاة والعساقلة المركزة بدمياط وتنيس وغيرهم عشرة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرون دينارا البارز ثلاثة آلاف ألف وأربعمائة ألف واثنان وستون ألفا وخمسة وتسعون دينارا (الوجه البحرى) ألف ألف ومائة ألف وأحد وخمسون ألفا وستمائة وثلاثة وخمسون دينارا (تفصيله) ضواحي ثغر الاسكندرية ثمانمائة ألف ومائة وثمانية وثلاثون دينارا ثغر رشيد ألفا دينار البحيرة مائة ألف وخمسة عشر ألفا وخمسمائة وستة وسبعون دينارا حوف رمسيس اثنان وتسعون ألفا وأربعمائة وثلاثة دنانير قوّه والمزاحميتين عشرة آلاف ومائة وخمسة وعشرون دينارا النبراوية خمسة عشر ألفا وثلثمائة وخمسة دنانير جزيرة بنى نصر مائة ألف واثنا عشر ألفا وستمائة وستة وأربعون دينارا جزيرة قوسنيا مائة ألف وثلاثون ألفا وخمسمائة واثنان وتسعون دينارا الغربية ستمائة ألف وأربعة وسبعون ألفا وستمائة وخمسة دنانير السمنودية مائتا ألف وخمسة وأربعون ألفا وأربعمائة وتسعة وسبعون دينارا الدجاوية ستة و أربعون ألفا ومائتان وأربعة وسبعون دينارا المنوفية مائة ألف وثمانية وأربعون ألفا وثلثمائة وسبعة وأربعون دينارا (الوجه القبلى) ألف ألف وستمائه ألف وعشرة آلاف وأربعمائة وأحد وأربعون دينارا (تفصيل ذلك) الجيزة مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفا ومائتان وأربعة دنانير الاطفيحية تسعة وخمسون ألفا وسبعمائة وثمانية وعشرون دينارا البوصيرية ستون الفا واربعمائة وستة وستون دينارا الفيومية مائة الف واثنان وخمسون الفا وستمائة واربعة وثلاثون دينارا البهنسية ثلثمائة الف واثنان وخمسون الفا وستمائة واربعة وثلاثون دينارا الواحات الداخلة والخارجتين وواح البهنسا خمسة وعشرون الف دينار الاشمونين مائة الف وسبعة واربعون الفا وسبعمائة واثنان

وثلاثون دينارا السيوطية خارجا عن منفلوط ومنقباط اثنان وسبعون الفا وخمسمائة واربعة دنانير الاخميمية مائة الف وثمانية آلاف وثمانمائة واثنا عشر دينارا الاعمال القوصية ثلثمائة الف واثنان وستون الفا وخمسمائة دينار ثغر اسوان خمسة وعشرون الف دينار ثغر عيذاب يجرى في غير هذا الديوان * وقال في متجددات سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والذى انعقد عليه ارتفاع الديوان السلطانى ثلثمائة الف واربعة وخمسون الفا واربعة واربعون دينارا والذى يميز زائد الارتفاع لسنة سبع وثمانين وخمسمائة على ارتفاع سنة ست وثمانين اثنان وعشرون الفا واربعمائة وخمسة واربعون دينارا والذى انساق من البواقي للسنة المذكورة احد وثلاثون الفا وستمائة واثنان وعشرون دينارا والذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكي الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع وثمانين وخمسمائة ثلثمائة الف واربعة وخمسون الفا واربعمائة واربعة وخمسون دينارا ونصف وثلث وثمن

﴿ ذكر الروك الاخير الناصري ﴾

وكان الجندي اقطاعه بمفرده وله تبع واحد من عشرين الف درهم الى ثلاثين وفيهم من اقطاعه خمسة عشر الفا واقلهم عشرة آلاف وذلك سوى الضيافة وبلغ خمسة آلاف درهم في الاقطاع الثقيل وكان الجندى يخرج الى آلسكان بطوالة خيل ويخرج مقدم الحلقة كامير عشرة وتكون مضافته اذا نزل حوله واكثرهم يأكل على سماطه ولا يمكن الامير أن يأكل الا وجميع اجناده معه ويأخذ غلمان اجناده كل يوم الطعام من مطبخه واذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال ان فلانا اشتهى كذا فيغضب ممن لا يأكل عنده ومع ذلك كانت اشكالهم بشعة وملابسهم غير خائلة فلما أفضت السلطنة الى المنصور لاجين راك البلاد وذلك أن ارض مصر كانت اربعة وعشرين قيراطا فيختص السلطان منها بأربعة قراريط ويختص الاجناد بعشرة قراريط ويختص الامراء بعشرة قراريط وكان الامراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شئ ويصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية وتصير مأكلة لاعوان الامراء ومستخدميهم ومضرة على اهل البلاد التي تجاورها فأبطل السلطان ذلك ورد تلك الاقطاعات على اربابها واخرجها بأسرها من دواوين الامراء واول ما بدأ به ديوان الامير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة فأخرج منه ما كان فيه من هذه الاقطاعات وكان يحصل له منها مائة الف اردب غلة في كل سنة واقتدى به جميع الامراء وأخرجوا ما في اقطاعاتهم من ذلك فبطلت الحمايات وجعل السلطان في هذا الروك للامراء والاجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة قراريط ليخدم بها عسكرا ويقطعهم اياها ثم رتب أوراقا بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط ووفر قيراطا لزيادة من عساه يطلب زيادة

لقلة متحصل أقطاعه وأفرد لخاص السلطان عدة أعمال جليلة وأفرد للنائب منكوتمر لتفرقة المثالات في تابعيه فتنكرت قلوب الامراء حتى كان من المنصور لاجين ونائبه منكوتمر ما كان فلما كانت الايام الناصرية راك الناصر محمد البلاد قال جامع السيرة الناصرية وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ان يروك الديار المصرية وان يبطل منها مكوسا كثيرة ويفضل لخاص مملكته شيئاً كثيرا من اراضى مصر وكان سبب ذلك انه اعتبر كثيرا من أخباز المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير والامير سلار وسائر المماليك البرجية فاذا هى مابين ألف دينار الى ثمانمائة دينار وخشى من قطع أخباز المذكورين فولد له الرأى مع القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك ديار مصر ويقرر اقطاعات مما يختار ويكتب بها مثالات سلطانية فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقا بما عليه عبر النواحي ومساحتها وعين السلطان لكل اقليم من أقاليم ديار مصر اناسا وكتب مرسوما للامير بدر الدين جيكل بن البابا أن يخرج لناحية الغربية ومعه أعزل الحاجب ومن الكتاب المكين بن قرويته وان يخرج الامير عز الدين ايدمر الخطيرى الى ناحية الشرقية ومعه الامير ايتمش المجدى ومن الكتاب أمين الدولة ابن قرموط وأن يخرج الامير بلبان الصرخدى والقليجي وابن طرنطاى وبيبرس الجمدار الى ناحية المنوفية والبحيرة وان يخرج البليلي والمرتيني الى الوجه القبلي وندب معهم كتابا ومستوفين وقياسين فساروا الى حيث ذكر فكان كل منهم اذا نزل بأول عمله طلب مشايخ كل بلد ودلاءها وعدولها وقضاتها وسجلاتها التي بأيدى مقطعيها وفحص عن متحصلها من عين وغلة وأصناف ومقدار ماتحتوي عليه من الفدن ومزروعها وبورها وما فيها من ترايب وبواق وغرس ومستبحر وعبرة الناحية وما عليها لمقطعها من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكشك وكعك وغير ذلك من الضيافة فاذا حرر ذلك كله ابتدأ بقياس تلك الناحية وضبط بالعدول والقياسين وقاضى العمل ما يظهر بالقياس الصحيح وطلب مكلفات تلك القرية وغنداقها وفضل مافيها من الخاص السلطاني وبلاد الامراء واقطاعات الاجناد والرزق حتى ينتهى الى آخر عمله ثم حضروا بعد خمسة وسبعين يوما وقد تحرر في الاوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف فطلب السلطان الفخر ناظر الجيش والتقى الاسعد بن أمين الملك المعروف بكاتب سرلغى وسائر مستوفى الدولة وألزمهم بعمل أوراق تشتمل على بلاد الخاص السلطاني التي عينها لهم وعلى اقطاعات الامراء وأضاف على عبرة كل بلد ما كان على فلاحيها من ضيافة لمقطعها وأضاف الى العبرة مافي الاقطاع من الجوالى وكتب مثالات للاجناد باقطاعات على هذا الحكم فاعتد منها بما كان يصرف في كلف حمل الغلال من النواحي الى ساحل

القاهرة وما كان عليها من المكس وابطل السلطان عدة مكوس منها مكس ساحل الغلة وكان جل متحصل الديوان وعليه اقطاعات الامراء والاجناد ويتحصل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وعليه اربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف الى ثلاثة آلاف ولكل من الامراء من أربعين ألفا الى عشرة آلاف وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدا وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم فان مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق وكيالين تبخس وشادّين وكتاب يريد كل منهم شيئاً وكان مقرر الاردب درهمين للسلطان ويلحقه نصف درهم غير ما ينهب ويسرق وكان لهذه الجهة مكان يعرف بخص الكيالة في ساحل بولاق يجلس فيه شاد وستون متعمماً ما بين كتاب ومستوفين وناظر وثلاثون جنـدياً مباشرون ولا يمكن أحداً من الناس أن يبيع قدحاً من غلة فى سائر النواحي بل تحمل الغلات حتى تباع في خص الكيالة ببولاق ومما أبطل أيضاً نصف السمسرة وهو عبارة عن أن من باع شيئاً من الاشياء فانه يعطى أجرة الدلال على ما تقرر من قديم عن كل مائة درهم درهمين فلما ولي ناصر الدين الشيخي الوزارة قرر على كل دلال من دلالته درهما من كل درهمين فصار الدلال يعمل معدله ويجتهد حتى ينال عادته وتصير الغرامة على البـائع فتضرر الناس من ذلك وأوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان ومما أبطل رسوم الولاية وكانت جهـة تتعلق بالولاة والمقدمين فيجبيها المذكورون من عرفاء الاسواق وبيوت الفواحش ولهـذه الجهة ضامن وتحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس ومما أبطل مقرر الحوائص والبغال من المدينة وسائر أعمـال مصر كلها من الوجه القبـلي والبحري فكان على كل من الولاة والمقدمين مقرر يحمل في كل قسط من أقساط السنة الى بيت المـال عن ثمن حياصة ثلثمائة درهم وعن ثمن بغل خمسمائة درهم وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ويفضل منها مايحمل وكان يصيب الناس من هذه الجهة مالا يوصف ويحل بهم من عسف الرقاصين مايهون معه الموت ومن ذلك مقرر السجون وهو عبارة عمـا يؤخذ من كل من يسجن فللسجان على حكم المقرر ستة دراهم سوى كلف أخرى وعلى هـذه الجهة عدة مقطعين ويرغب فيها الضمان ويتزايدون فى مبلغ ضمانها لـكثرة مايتحصل منها فانه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالي الى السجن فبمجرد ما يدخل السجن ولو لم يقم به الا لحظة واحدة أخذ منه المقرر وكذلك كان على سجن القضاة أيضا *(ومن ذلك مقرر طرح الفراريج)* ولهـا ضمان عدة في سائر نواحي أرض مصر يطرحون على الناس الفراريج فيمر بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم وتقاسي الارامل من العسف والظلم شيئاً كثيرا وكان على هذه الجهة

عدة مقطعين ولا يمكن أحدا من الناس في جميع الاقاليم أن يشتري فروجا فما فوقه الا من الضامن ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت *(ومن ذلك مقرر الفرسان)* وهو عبارة عما يجبيه ولاة النواحي من سائر البلاد فلا يؤخذ درهم مقرر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين ويقاسي الناس فيه أهوالا صعبة * ومن ذلك مقرر الاقصاب والمعاصر) وهو ما يجبى من مزارعي قصب السكر ومن المعاصر ورجال المعاصر * (ومن ذلك مقرر رسوم الافراح) ويجبى من سائر النواحي ولهذه الجهة عدة ضمان ولا يعرف لهذه الجهة أصل البتة وانما يجبى بضرائب ينال الناس فيها مع المقرر غرامات وروعات *(ومن ذلك حماية المراكب) وهي عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرر الحماية وكانت هذه الجهة أشد ما ظلم به الناس فيؤخذ من كل من ركب البحر للسفر حتى من السؤال والمكدين * (ومن ذلك حقوق القينات) وهو عبارة عما يجمع من الفواحش والمنكرات فيجبيه مهتار الطشتخاناه السلطانية من أوباش الناس * (ومن ذلك شد الزعماء) وهي جهة مفردة وحقوق السودان وكشف المراكب ومقرر ماعلى كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين ومتوفر الجراريف وهو ما يجبى من سائر النواحي فيحمل ذلك مهندسو البلاد الى بيت المال باعانة الولاة لهم في تحصيل ذلك وعلى هذه الجهة عدة مقطعين من الجند ومقرر المشاعلية وهو عبارة عما يؤخذ عن كسح الافنية وحمل ما يخرج منها من الوسخ الى الكيمان فكان اذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط أو تربة أو منزل من منازل سائر الناس لا يمكنه ولو بلغ من العظمة ماعسى أن يبلغ التعرض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة ويقاوله على كسح ذلك بما يريد وكان من عادة الضامن الاشطاط في السوم وطلب أضعاف القيمة فان لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن والا تركه وانصرف فلا يقدر على مقاساة نرك الوسخ ويضطر الى سؤاله ثانيا فيعظم تحكمه ويشتد بأسه الى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه ورفع ما هنالك من الاقذار *(ومن ذلك ابطال المباشرين من النواحي) وكانت بلاد مصر كلها من الوجهين القبلي والبحرى ما من بلد صغير وكبير الا وفيه عدة من كتاب وشاد ونحو ذلك فأبطل السلطان المباشرين وتقدم منعهم من مباشرة النواحي الا من بلد فيها مال السلطان فقط فأراح الله سبحانه الخلق بابطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وصفه * ولما أبطل السلطان هذه الجهات وفرغ من تعيين الاقطاعات للامراء والاجناد أفرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدة نواح مما كان في اقطاعات البرجية وهي الجيزة وأعمالها وهو والكوم الاحمر ومنفلوط والمرج والخصوص وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الاقليم وصار لاقطاعات

الامراء والاجناد وغيرهم أربعة عشر قيراطا ومكر الاقباط فيما أمكنهم المكر فيه فبدؤا بأن أضعفوا عسكر مصر ففرقوا الاقطاع الواحد فى عدة جهات فصار بعض الجبي فى الصعيد وبعضه في الشرقية وبعضه فى الغربية اتعاباً للجندى وتكثيراً للكلفة وأفردوا جوالي الذمة من الخاص وفرقوها فى البلاد التي أقطعت للامراء والاجناد فان النصارى كانوا مجتمعين في ديوان واحد كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم الى مقطع تلك الضيعة فاتسع مجال النصارى وصاروا يتنقلون في القرى ولا يدفعون من جزيتهم الا ما يريدون فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته وأفردوا ما بقى من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التى تصرف للسماط ليتناولوا ذلك ويوردوا منه ما شاؤا ثم يتولوا صرف ما يحصل منه فى جهات تستهلك بالاكل وصارت جهات المكوس مما يتحدث فيه الوزير وشاد الدواوين * ثم نظر السلطان فيما كان بيد الاميرين بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطنة من البلاد فأخذ ما كان باسم كل منهما وباسم حواشيه ولم يدع من ذلك شيأ مما كانوا قد وقفوه حتي حله وجعل الجميع اقطاعات واعتد فى سائر الاقطاعات بما كان يستهديه المقطع من فلاحه فحسب ذلك وأقامه من جملة عبر الاقطاع وأبطل الهدية فلم يتهيأ له الفراغ من ذلك الى آخر السنة فلما أهل المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة وقد نظمت الحسبانات على ثلث مغل سنة خمس عشرة جلس السلطان في الايوان الذي استجده بقلعة الجبل وقد تقدم لسائر نقباء الاجناد على لسان نقيب الجيش بالحضور باجنادهم وجعل للعرض فى كل يوم أميرين من الامراء المقدمين بمضافيهما فكان الامير مقدم الالف يقف ومعه مضافوه وناظر الجيش يستدعيهم من تقدمة ذلك الامير باسمائهم على قدر منازلهم فيقدم نقيب الجيش الواحد بعد الواحد من يد نقيبه الى ما بين يدى السلطان فاذا مثل بحضرته سأله السلطان بنفسه من غير واسطة عن اسمه وأصله وجنسه ووقت حضوره الى ديار مصر ومع من قدم والى من صار من الامراء وغيرهم وعن مشاهده التى حضرها في الغزو وعما يعرفه من صناعة الحرب وغير ذلك من الاستقصاء فاذا انتهى استفهامه اياه ناوله بيده مثالا من غير تأمل بحسب ما قسم الله له فلم يمر به في مدة العرض احد إلا وقد عرفه وأشار الى الامراء بذكر شيء من خبره هذا وقد تقدم الى سائر الامراء بأسرهم بأن يحضروا الى الايوان عند العرض ولا يعارض أحد منهم السلطان في شيء يفعله فكانوا يحضرون وهم سكوت لايتكلم أحد منهم خوفا من مخالفة السلطان لما يقوله وأخذ السلطان فى مواربة الامراء فما أثنوا على أحد فى مجلس العرض الا وأعطاه السلطان مثالا باقطاع ردىء فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة وانفرد بالاستبداد باموره دونهم فما عرف منه أنه قدم اليه أحد الاوسأله ان كان مملوكا عمن أقدمه من التجار وسائر ما تقدم وان كان شيخا فعن أصله وسنه وكم

مصاف حضرها حتى أتى على الجميع وأفرد المشائخ العاجزين فلم يعطهم اقطاعات وجعل لكل
منهم مرتبا يقوم به فانتهى العرض في طول المحرم وتوفر كثير من مثالات الاجناد فبلغ عدة
مائتي مثال ثم أخذ في عرض أطباق المماليك السلطانية ووفر من جوامكهم كثيرا وقطع عدة
رواتب من رواتبهم وعوضهم عن ذلك اقطاعات وجعل جهة مكس قطيا لضعفاء الاجناد ممن
قطع خبزه فجعل لكل منهم في السنة ثلاثة آلاف درهم .وكان لبيبرس وسلار الجوكندار
تعلقات كثيرة في بيت المال وفي الاعمال كالجيزة والاسكندرية من متجر وحمايات
فار تجع ذلك وأبطله وما شابهه وأضاف ما لم يقطعه الى ديوان الخاص ومما أمر به في مدة
العرض أن لا يرد أحد مثالا أخذه من السلطان ولو استقله ولا يشفع أمير في جندي وان
من خالف ذلك ضرب وحبس ونفي وقطع خبزه فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمته
ولم يجسر أحد أن يرد عليه مثالا أخذ من السلطان ولا استطاع امير أن يتكلم لاحد وصار
كثير ممن كان اقطاعه مثلا ألف دينار الى اقطاع مائتي دينار ونحوها وكثير ممن كان اقطاعه
قليلا الى اقطاع معتبر فانه كان يعطي المثال من غير تأمل كيفما وقعت يده عليه وقدر الله
سبحانه وتعالى أن السلطان كان من جملة صبيان مطبخه رجل مضحك يهزل بحضرته
فيضحك منه ويعجب به ولا يعترض فيما يقول من السخف فجلس السلطان في بعض أيام
العرض في البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصة من الامراء فدخل هذا المضحك وأخذ في
السخرية على عادته ليضحك السلطان الى أن قال وجدت بعض أجناد الروك الناصري وهو راكب
الاكديش وخرجه خلفه ورمحه فوق كتفه يقصد بهذا السخرية والطعن فغضب السلطان
غضبا شديدا وصاح خذوه وعروه ثيابه فتبادره الاعوان وجروه برجله ونزعوا ثيابه
وربطوه في الساقيــة مع القواديس واكثروا من ضرب الابقار حتى أسرعت بدوران
الساقية فصار المسكين ينقلب مع القواديس ويغطس في الماء تارة ويرقى اخرى ثم ينتكس
والماء يمر عليه مقدار ساعة الى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك واشتد رعب الامراء
لما رأوا من قوة غضب السلطان ثم تقدم الامير طغاى الدوادار في طائفة من الامراء
الخاصكية واعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد الا أن يضحك السلطان من كلامه ولم يقصد
عيب الاجناد ولا انتقاصهم ونحو هــذا من القول الى أن أمر بحله فاذا ليس فيه حركة
فسحب ورسم السلطان بأنه ان كان حيالا يبيت بديار مصر فأخرج من وقته منفيــا وحمد
الله كل من الامراء على ما وفقه من السكوت عن الكلام في حال العرض وما زال الامر
بمصر على ما رسمه الملك الناصر في هذا الروك الى أن زالت دولة بني قلاون بالملك الظاهر
برقوق في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة فأبقى الأمر على ذلك الا أن أشياء منه
اخذت تتلاشى قليلا قليلا الى ان كانت الحوادث والمحن في سنة ست وثمانمائة حيث حدث

من أنواع التغيرات وتنوع الظلم ما لم يخطر ببال أحد وسيمر بك جمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب اقليم مصر ان شاء الله تعالى وكانت لاراضى مصر تقاو مخلدة في نواحيها وهى على قسمين تقاو سلطانية وتقاو بلدية فالتقاوي السلطانية وضعها الملوك في النواحى وكان الامير أوالجندى عند ما يستقر على الاقطاع يقبض ماله من التقاوى السلطانية فاذا خرج عنه طولب بها فلما كان الروك الناصرى خلدت تقاوي كل ناحية بها وضبطت في الديوان السلطاني فبلغت جملتها مائة ألف وستين ألف أردب سوى التقاوى البلدية

ذكر الديوان

قال أقضى القضاة أبو الحسن الماوردى الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال وفي تسميته ديوانا وجهان أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أى مجانين فسمي موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل ديوان والثاني أن الديوان اسم بالفارسية للشياطين فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالامور ووقوفهم على الجلى والخفى وجمعهم لماشذ وتفرق واطلاعهم على ما قرب وبعد ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان انتهى واعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام كتابة الجيوش وكتابة الخراج وكتابة الانشاء والمكاتبات ولابد لكل دولة من استعمال هذه الاقسام الثلاثة وقد أفرد العلماء في كتابة الخراج وفي كتابة الانشاآت عدة مصنفات ولم أر أحدا جمع شيأ في كتابة الجيوش والعساكر وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفا مدرجة فلما انقضت أيام بني أمية وقام عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح استوزر خالد بن برمك بعد أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج الى أن تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في الامور أيام الرشيد فاتخذ الكاغذ وتداوله الناس من بعده الى اليوم * وذكر أبو النمر الوراق قال حدثني أبو حازم القاضى قال قال لى أبو الحسن بن المدبر لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا وقال ان أرض مصر مساحتها للزراعة ثمانية وعشرون ألف ألف فدان وانما المعمر منها ألف ألف فدان قال وقال لى ابن المدبر أنه كان يتقلد ديوان المشرق وديوان المغرب قال ولم أبت قط ليلة من الليالي حتى أنهيه ولا بقيته وتقلدت مصر فكنت ربما نمت وقد بقي على شيء من العمل فاستتمه اذا أصبحت

ذكر ديوان العساكر والجيوش

يقال ان أول من وضع ديوان الجند بخيلهم كهراسف أحد ملوك الطبقة الثانية من

الفرس وان كيقباذ قبله كان قد أخذ العشر من الغلات وصرفه في ارزاق جنده وأما في الاسلام فماخرجه البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل الحديث ذكره البخاري في باب كتابة الامام الناس وللبخاري من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني اكتتبت في غزوة كذا وكذا وأمرأتي حاجة قال ارجع فاحجج مع أمرأتك وقال عمرو بن منبه عن معمر عن قتادة قال آخر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين فما قام من مجلسه حتى أمضاه ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم بيت مال ولا لأبي بكر وأول من اتخذ بيت مال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال ابن شهاب عمر أول من دون الدواوين وروى ابن سعد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قسم أبي الفيء عام أول فأعطى الحر عشرة والمملوك عشرة والمرأة عشرة وأمتها عشرة ثم قسم العام الثاني فأعطاهم عشرين عشرين فقيل ان سببه أن أباهريرة رضي الله عنه قدم على عمر رضى الله عنه بمال من البحرين فقال له عمر ماذا جئت به فقال خمسمائة ألف درهم فاستكثره عمر وقال أتدرى ماتقول قال نعم مائة ألف خمس مرات فقال عمر أطيب هو قال لا أدرى فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلا وان شئتم عددنا لكم عدا فقام اليه رجل فقال ياأمير المؤمنين قد رأيت الاعاجم يدونون ديوانا لهم فدون أنت ديوانا فدون عمر * وقيل بل سببه أن عمر بعث بعثا وعنده الهرمزان فقال لعمر هذا بعث قد أعطيت أهله الاموال فان تخلف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به فأثبت لهم ديوانا فسأله عن الديوان حتى فسره له فاستشار المسلمين في تدوين الدواوين فقال له على بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال ولا تمسك منه شيأ وقال عثمان رضى الله تعالى عنه أري مالا كثيرا يسع الناس فان لم يحصوا حتي يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر وقال خالد ابن الوليد رضى الله عنه قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا فدون ديوانا وجند جنودا فأخذ بقوله ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش فقال اكتبوا الناس على منازلهم فبدؤا ببني هاشم وكتبوهم ثم أتبعوهم أولاد أبي بكر وقومه ثم عمر وقومه وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ثم رفعوا ذلك الى عمر رضي الله عنه فلما نظر فيه قال لا ولكن أبدؤا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقرب فالاقرب حتي تضعوا عمر حيث وضعه الله فشكره العباس رضى الله عنه على ذلك وقال وصلت رحمك وقد اختلف في السنة التى فرض فيها عمر رضى الله عنه الاعطية ودون الدواوين فقال الكلبي في سنة خمس عشرة وحكى ابن سعد عن عمر

الواقدي أنه جعل ذلك في سنة عشرين قال الزهري وكان ذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة وقيل لما فتح الله على المسلمين القادسية وقدمت على عمر رضي الله عنه الفتوح من الشام جمع المسلمين وقال ما يحل للوالي من هذا المال فقالوا جميعا أما الخاصة فقوته وقوت عياله لا وكس ولا شطط وكسوته وكسوتهم للشتاء والصيف ودابتان الى جهاده وحوائجه وحملانه الى حجته وعمرته والقسم بالسوية وأن يعطي أهل البلاد على قدر بلادهم ويرم امور الناس بعد ويتعاهدهم في الشدائد والنوازل حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفيء ثم يجوزهم الى كل مغلوب ما بلغ الفيء وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما لما افتتحت القادسية وصالح من صالح من أهل السواد وافتتحت دمشق وصالح أهل الشام قال عمر رضي الله عنه للناس اجتمعوا فأحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي علي وعمر رضي الله عنهما أن يأخذوه من قبل القرآن فقالوا ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى يعني من الخمس فلله وللرسول يعني من الله الامر وعلى الرسول القسم ولذي القربى واليتامى والمساكين ثم فسروا ذلك بالآية الاخرى التي تليها للفقراء المهاجرين الآية فأخذوا أربعة الاخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدئ به وثني وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه الآية من تلك الطبقات الثلاث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه فقسم الاخماس على ذلك فاجتمع على ذلك عمر وعلي وعمل به المسلمون بعد ذلك فبدأ بالمهاجرين ثم الانصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم ثم فرض الاعطية من الجزا على من صالح أو دعا الى الصلح من حرابة فرده عليهم بالمعروف وليس في الجزا أخماس الجزا لمن منع الذمة ووفى لهم ممن ولي ذلك منهم ولمن لحق بهم فأعانهم باسوة الا أن يواسوا بفضله عن طيب أنفس منهم من لم ينل مثل الذي نالوا وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال عمر رضي الله عنه اني مجند المسلمين على الاعطية ومدونهم ومتحري الحق فقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلي رضي الله عنهم ابدأ بنفسك قال لا أبدأ الا بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الاقرب فالاقرب منهم من رسول الله ففرض للعباس وبدأ به ثم فرض لاهل بدر خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد بدر الى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى أن أقلع أبو بكر رضي الله عنه عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ودخل في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشام أصحاب اليرموك ألفين ألفين وفرض لاهل البلاد النازح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة فقيل له لو ألحقت أهل القادسية بأهل الايام فقال لم أكن لالحقهم بدرجة من لم يدركوا لاها الله أذن وقيل له قد سويتهم على بعد دارهم بمن قد قربت

داره وقاتل عن فنائه فقال هم كانوا أحق بالزيادة لانهم كانوا ردء الحقوق وشجي للعدو وايم الله ماسويتهم حتى استطبتهم فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سوينا بين السابقين من المهاجرين وبين الانصار وقد كانت نصرة الانصار بفنائهم وهاجر اليهم المهاجرون من بعد وفرض للروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية واليرموك بعد الفتح ثلثمائة ثلثمائة سوى كل طبقة في العطاء ليس بينهم تفاضل قويهم وضعيفهم عربيهم واعجميهم في طبقاتهم سواء حتى اذا حوى أهل الامصار من حووا من سباياهم وردفت المربع من الروادف فرض لهم على خمسين ومائتين وفرض لمن ردف من الروادف الخمس على مائتين فكان آخر من فرض له عمر رضى الله عنه أهل هجر على مائتين ومات عمر على ذلك وأدخل في أهل بدر أربعة من غير أهل بدر الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان وقال أبو سلمة فرض عمر للعباس على خمسة وعشرين ألفا وقال الزهرى على اثنى عشر ألفا وجعل نساء أهل بدر الى الحديبة على أربعمائة أربعمائة ونساء من بعد ذلك الى الايام قبل القادسية على ثلثمائة ثلثمائة ثم نساء أهل القادسية على مائتين مائتين ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل للصبيان من أهل بدر وغيرهم مائة مائة ثم دعا ستين مسكينا فأطعمهم خبزا بماح فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جريتين نفرض لكل انسان يقوم بالامر له ولعياله جريتين جريتين فى كل شهر مسلمهم وكافرهم وفرض لازواج النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف الا من جرى عليه البيع فقالت أمهات المؤمنين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضلنا عليهن في القسمة ولكن كان يسوى بيننا فسو بيننا فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف وفضل عائشة رضى الله عنها بألفين فأبت فقال لفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أخذتها فشأنك وكان الناس أعشارا فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف كل عريف على عشرة ورزق الخيل على اعرافها فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة والبصرة فغيرت العرفاء والاعشار وجعلت أسباعا وجعل مائة عريف على كل مائة ألف درهم عريف وكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة وأربعين رجلا وثلاثا وأربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة ألف درهم وكل عرافة من أهل الايام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة ولكل عيل مائة على مائة ألف درهم وكل عرافة من الرادفة الاولى ستين رجلا وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم وكان العطاء يدفع الى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على ايادى العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله في دورهم فمات عمر رضى الله عنه والامر على ذلك وقد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف وقال لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف ألف يخلفها الرجل

في أهله وألف يتزودها معه فى سفره وألف يتجهز بها وألف يترفق بها فمات وهو في ارتياد ذلك قبل أن يفعل وكان يقرى البعوث على قدر المسافة ان كان بعيدا فسنة وان كان دون ذلك فستة أشهر فاذا أخل الرجل بثغره نزعت عمامته وأقيم في مسجد حيه فقيل هـذا فلان قد أخل وقال سيف بن عمر أول عطاء أخذ سنة خمس عشرة وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يبعث من مصر الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه فلما استخلف عثمان رضى الله عنه لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين زاد الناس مائة وكان أول من زاد ورفد أهل الامصار وهو أول من رفدهم وصنع فيهم الصنائع فاستن به الخلفاء في الزيادة وكان عمر قد فرض لكل نفس منفوسة من أهل الفيء في رمضان درهما فى كل يوم وفرض لامهات المؤمنين درهمين فقيل له لو صنعت لهم به طعاما فجمعتهم عليه فقال أشبعوا الناس فى بيوتهم فأقر عثمان رضى الله عنه ذلك وزاد فوضع لهم طعام رمضان وقال هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد ولابن السبيل وللمعترين بالناس في رمضان فاقتدى به الخلفاء من بعده * وكان بمصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعون ألفا وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين وكان انما يحمل الى معاوية ستمائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند وما يصرف الى الناس وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وعياله فاذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك وأعطى مسلمة ابن مخلد الانصاري أمير مصر أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز وبعث الى معاوية ستمائة ألف دينـار فضلا وأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العـاص رضى الله عنه ثم دون عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا ودون قرة بن شريك التـدوين الثالث ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا ثم لم يكن بعد تدوين بشر شئ له ذكر الا ما كان من الحاق قيس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان فلما انقرضت دولة بني أمية وغلبت المسودة بنو العباس أحدثوا أشياء حتى اذا مات عبد الله المأمون بن هرون الرشـيد لسبع خلون من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين وبويع أخوه المعتصم أبو اسحاق محمد بن هرون كتب الى كندر بن نصر الصفدي أمير مصر يأمره باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك وكان مروان بن محمد الجعدي آخر خلائف بنى أمية قطع عن أهل مصر العطاء سنة ثم كتب اليهم كتابا يعتذر فيـه اني انما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو حضرني فاحتجت الى المال وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه

السنة فكلوه هنيئاً مريأ وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه ولما قطع كندر عطاء أهل مصر خرج يحيى بن الوزير الجروي في جمع من لخم وجذام وقال له هذا أمر لايقوم فينا أفضل منه لانا منعنا حقنا وفيئنا فاجتمع اليه نحو خمسمائة رجل ومات كندر في ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين وولي ابنه المظفر مصر من بعده فسار الى يحيى وقاتله في بحيرة تنيس وأخذه أسيرا فانقرضت دولة العرب من مصر وصار جندها العجم والموالي من عهد المعتصم الى أن ولي الامير أبو العباس أحمد بن طولون مصر فاستكثر من العبيد وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق ثم استجد ابنه الامير أبو الجيش خمارويه بعده عدة من شناترة حوف مصر فلما كانت امارة الامير أبي بكر محمد بن طفج الاخشيد على مصر بلغت عدة عساكره بمصر والشام أربعمائة ألف تشتمل على عدة طوائف ثم ان الاستاذ أبا المسك كافورا الاخشيدي استجد عدة من السودان في أيام تحكمه بمصر فلما تغلب الامام المعز لدين الله أبو تميم معد الفاطمي على مصر صارت عساكرها مابين كتامة وزويلة ونحوهامن طوائف البربر وفيهم الروم والصقالبة وهم في العدد كما قيل * ومنهم معد * ولم تكن جيوشه تعد * ولا لما أوتيه كان حد * من كل ما يسعد فيه جد * وحتى قيل انه لم يطأ الارض بعد جيش الاسكندر بن فليبش المقدوني أكثر عددا من جيوش المعز فلما قام في الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار استخدم الديلم والاتراك واختص بهم *وذكر الامير المختار عبدالملك المسيحي في تاريخه أن خزانة الخاص حملها لما خرج العزيز الى الشام عشرون ألف جمل خارجا عن خزائن القواد وأكابر الدولة * وذكر ابن ميسر في تاريخه أن عبيد السيدة أم المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن على بن الحاكم بامر الله أبي علي منصور بن العزيز بالله خاصة كانت عدتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكر ورأيت بخط الاسعد بن مماتي أن عدة الجيوش بمصر في أيام رزيك ابن الصالح طلائع بن رزيك كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل وزادغيره وعشرة شواني بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية فلمازالت دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أزال جند مصر من العبيد السود والامراء المصريين والعربان والارمن وغيرهم واستجد عسكرا من الاكراد والاتراك خاصة وبلغت عدة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس لاغير فلمامات افترقت من بعده ولم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة فارس الا أن فيهم من له عشرة اتباع وفيهم من له عشرون وفيهم من له أكثر من ذلك الى مائة تبع لرجل واحد من الجند فكانوا اذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتي ألف ثم لم يزالوا فى افتراق واختلاف حتى زالت

دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الاتراك فحذوا حذو مواليهم بني أيوب واقتصروا على الاتراك وشئ من الاكراد واستجدوا من المماليك التي تجلب من بلاد الترك شيأ كثيرا حتي يقال ان عدة مماليك الملك المنصور قلاون كانت سبعة آلاف مملوك ويقال اثني عشر ألفا وكانت عدة مماليك ولده الاشرف خليل بن قلاون اثني عشر الف مملوك ثم لم تبلغ بعد ذلك قريبا من هذا الى أن زالت دولة بنى قلاون فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة بالملك الظاهر برقوق فاخذ في محو المماليك الاشرفيـة وأنشأ لنفسه دولة من المماليك الجركسية بلغت عدتهم مابين مشترى ومستخدم أربعة آلاف أو تزيد قليلا فلما قام من بعده ابنه الناصر فرج افترقوا واختلفوا فلم يقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل وغيره وعساكر مصر فى الدولة التركية على قسمين أجناد الحلقة والمماليك السلطانية واكثر ماكانت أجناد الحلقة في ايام الناصر محمد بن قلاون فانهـا بلغت على مارأيتـه في جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى أربعة وعشرين ألف فارس ثم مازالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلة عدتهـا سواء منها الالف والواحد فانها لاتنفع ولا تدفع وأما المماليك فانها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لاتكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس يصلح منها لان يباشر القتال ألف أو دونها وهي اليوم قسمان أجناد الحلقة والمماليك السلطانية والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام ظاهرية وناصرية ومؤيدية والمؤيدية مابين حكمية ونوروزية ومن استجده المؤيد وان خوفى ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيد أبى النصر شيخ خلد الله ملـكه يتلاشى الى أن يؤيد الله الملك بابنه الامير صارم الدين ابراهيم شد الله به أزره فانه فتح من البلاد الرومية مالا ملـكه أحد من ملوك مصر فى الدولة الاسلامية قبله *والشبل فى المخبر مثل الاسد*وابن السري اذا سرى اسراهما* ولا غرو أن يحذو الفتي حذو والده * بأبه اقتدى عدى في الـكرم * ومن يشابه أبه فما ظلم * ان الاصول عليها ينبت الشجر * ثم لما ملك الاشرف برسباى صارت المماليك سبع طوائف ظاهرية وناصرية ومؤيدية ونوروزية وحكمية وططرية واشرفية كل طائفة منها مباينة لجميعها فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم وأمنت على السلطان غائلتهم ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وان كانوا مجتمعين وتباينهم وان كانوا في الظاهر متفقين واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المومنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء أو العمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى أن كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وفرقت الاراضى اقطاعات على الجند وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك ابو على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسى وزير البرشلان بن داود

ابن ميكال بن سلجوق ثم وزر لابنه ملكشاه بن البرشلان وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو اكثر أو أقل على قدر اقطاعه لانه رأى أن في تسليم الاراضى الى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعها بأمرها بخلاف ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد فان الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد ففعل نظام الملك ذلك وعمرت به البلاد وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين واربعمائة الى يومنا هذا وكانت الخلفاء ترزق من بيت المال فذكر عطاء بن السائب فى حديث أن أبا بكر رضى الله عنه لما استخلف فرض له كل يوم شطر شاة وما يكسى به الرأس والبطن وذكر عن حميد بن هلال أنه فرض له بردان اذا أخلقهما وضعهما واخذ مثلهما وظهره اذا سافر ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف وذكر ابن الاثير في تاريخه أن الذي فرضوا له ستة آلاف درهم في السنة وفرض لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لما استخلف مايصلحه ويصلح عياله بالمعروف وقال له على رضى الله عنه ليس لك غيره فقال القوم القول ماقال على يأخذ قوته وفرض عمر لمعاوية بن ابي سفيان على عمله في الشام عشرة آلاف دينار في السنة وقيل بل رزقه ألف دينار وهو أشبه

﴿ ذكر القطائع والاقطاعات ﴾

يقال اقتطع طائفة من الشيء أخذها والقطيعة ما اقتطعه منه وأقطعني اياها اذن لي في اقتطاعها واستقطعه اياها سأله أن يقطعه اياها واقطعه نهرا وأرضا أباح له ذلك وقد أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتألف على الاسلام قوما وأقطع الخلفاء من بعده من رأوا في اقطاعه صلاحا * روى ابن أبي نجيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا فلم يعمروها فجاء قوم فعمروها فخاصمهم الجهنيون أو المزنيون الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال عمر لو كانت مني أو من أبي بكر لرددتها ولكنها قطيعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لايعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها * وقال هشام بن عروة عن أبيه أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أرضا فيها نخل من أموال بني النضير وذكر أنها أرض يقال لها الجرف * وذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقطع العقيق أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة فقال ابن الزبير المستقطعون فتد اليوم فان يك فيه خير فتحت قدمي قال خوات بن جبير أقطعنيه فأقطعه أياه وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أقطع أبا بكر وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وقال أشعث بن سوار عن حبيب بن أبي ثابت عن صلت المكي عن أبي رافع قال أعطى النبي صلى الله عليه وسلم قوما أرضا فعجزوا عن عمارتها فباعوها في زمن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه بثمانية آلاف دينار أو بثمانمائة ألف درهم فوضعوا أموالهم عند على ابن ابى طالب رضى الله عنـه فلما اخذوها وجدوها ناقصة فقالوا هذا ناقص قال احسبوا زكاته قال فحسبوا زكاته فوجدوه وافيا فقال أحسبتم أن أمسك مالا ولا ازكيه وقد سأل تميم الدارى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه ففعل وسأله ابو ثعلبة الخشني أن يقطعه ارضا كانت بيـد الروم فأعجبه ذلك وقال ألا تسمعون ما يقول فقال والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتابا وقال ثابت ابن سعد عن ابيه عن جده ان الابيض بن حمال استقطع رسول الله صلى الله عليـه وسلم ملح مارب فأقطعه فقـال الاقرع بن حابس التميمي يارسول الله انى وردت هـذا الملح في الجاهلية وهو بأرض ليس فيها ملح من ورده اخذه وهو مثل الماء العذب بالارض فاستقال الابيض فقال قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة فقال النبي صلى الله عليـه وسلم هو منك صدقة وهو مثل الماء العذب من ورده أخذه وقال كثير بن عبـد الله بن عوف المزنى عن ابيه عن جده أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن الحارث المعادن القبلية جليّهـا وغوريّها وقال مالك عن ربيعة عن قوم من علمائهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطع بلال بن الحرث المزنى معادن بناحية الفرع *وعن ربيعة عن الحرث بن بلال عن ابيه بلال بن الحرث أن النبي صلى الله عليـه وسلم أقطعه العقيق أجمع وعن حماد بن سلمة عن ابى مكين عن ابى عكرمة مولى بلال بن الحرث قال أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا ارضا فيها جبل معدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضا منها فظهر فيها معدن أوقال معدنان فقالوا انما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن وجاؤا بكتاب النبي صلى الله عليـه وسلم لهم في جريدة فقبلها عمر وفتح ومسح بها عينيه وقال لقيمه أنظر ماخرج منها وما أنفقت فقاصهم بالنفقة ورد عليهم الفضل واصطفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أرض السواد أموال كسري وأهل بيته وما هرب عنه أربابه أو هلكوا فكان مبلغ غلته تسعة آلاف ألف درهم كان يصرفها في مصالح المسلمين ولم يقطع شيئاً منها ثم ان عثمان رضي الله عنـه أقطعها لانه رأى اقطاعهـا أوفر لغلتها من تعطيلها وشرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفئ فكان مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم كان منها صلاته وعطاياه ثم تناقلها الخلفاء بعـده فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين وثمانين فى فتنة عبدالرحمن بن الاشعث أحرق الديوان وأخذ كل قوم مايليهم وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابن سندر منية الاصبغ فحاز منها لنفسه ألف فدان وقال وكيع عن سفيان عن جابر الجعفى عن عامر لم يقطع أبو بكر ولا عمر ولا على رضى الله عنهم وأول من أقطع القطائع عثمان رضى الله عنه وبيعت الارضون في خلافة عثمان قال الليث بن سعد ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئاً من أرض

مصر الا ابن سندر فانه أقطعه أرض منية الاصبغ فلم تزل له حتى مات فاشتراها الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثتــه فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل وقال الاعمش عن ابراهيم بن المهاجر عن موسى بن طلحة قال أقطع عثمان رضى الله عنه عبــد الله بن مسعود النهرين وعمار بن ياسر استنسا واقطع خبابا وصهيبا واقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز وكان عبد الله بن مسعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والربع * وقال سيف بن عمر عن عمرو بن محمد عن عامر قال اقطع الزبير وخباب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبــار أزمان عثمان فان يكن عثمان اخطأ فالذين قبــلوا منه الخطأ أخطأوا وهم الذين أخذنا عنهم ديننا وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلحة وجرير بن عبد الله والربيل بن عمرو وأقطع أبا مفرز دار النيل في عدة ممن أخذنا عنه وانما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء الله وكتب عمر رضى الله عنــه الى عثمان بن حنيف مع جرير بن عبد الله البجلي أما بعد فأقطع جرير بن عبد الله قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط فكتب عثمان الى عمر ان جريرا قدم على بكتاب منك تقطعه ما يقوته فكرهت أن أمضى ذلك حتى أراجعك فيه فكتب اليه صدق جرير فأنفذ ذلك وقد أحسنت في مؤامرتي وأقطع أبو موسى الاشعرى وأقطع على بن أبي طالب رحبة كردوس بن هاني واقطع سويد بن غفلة الجعفي قال سيف عن ثابت بن هريمة عن سويد بن غفلة قال استقطعت عليا فقال اكتب هــذا ما أقطع على سويدا أرضا لدوابه ما بين كذا الى كذا ماشاء الله وذكر أبو القسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحــكم ما أقطعه معاوية بن أبي سفيان ومن بعده من الخلفاء من دور مصر فأورد شيئاً كثيرا * وقد كان خلفاء بني أمية وخلفاء بنى العباس يقطعون الاراضى من أرض مصر النفر من خواصــهم لا كما هو الحال اليــوم بل يكون مال خراج أرض مصر يصرف منه اعطية الجنــد وسائر الــكلف ويحمل مايفضــل الى بيت المال وما أقطع من الاراضى فانه بيــد من أقطعــه وأما منــذ كانت أيام السلطان صــلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنــا هــذا فان اراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده * وارض مصر اليوم على سبعة أقسام قسم يجرى في ديوان السلطان وهذا القسم ثلاثة أقسام منه ما يجرى في ديوان الخاص ومنه مايجرى في الديوان المفرد وقسم من أراضى مصر قد اقطع للامراء والاجناد وقد ذكر تفصيل ذلك عند ذكر الروك الناصري وقسم ثالث جعل وقفــا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى جهات البر وعلى ذرارى واقفى تلك الاراضى وعتقائهم وقسم رابع يقال له الاحباس يجري فيه أراض بأيدي قوم يأكلونها اما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع واما يكون لهم لافي مقابلة عمل * وقسم خامس قدصار ملكا يباع ويشترى ويورث ويوهب لــكونه اشترى من بيت المال * وقسم سادس لايزرع

للعجز عن زراعته فترعاه المواشي أو ينبت الحطب ونحوه * وقسم سابع لايشمله ماء النيل فهو قفر وهذا القسم منه مالم يزل كذلك منذ عرفت احوال الخليقة ومنه ماكان عامرا في الدهر الاول ثم خرب وسائر هذه الاقسام مذكورة أخبارها في هذا الكتاب تجدها ان انت تأملته ان شاء الله تعالى وقال ابو عبد الله القاسم بن سلام في كتاب الاموال في الكلام على حديث معمر عن عبد الله بن طاوس عن ابيه طاوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عادي الارض لله ولرسوله ثم هى لكم قلت مامعنى ذلك قال تكون اقطاعا هذا الخبر اصل في الاقطاع والعادى كل ارض كان لها سكان فانقرضوا أى فصارت خرابا فان حكمها الى الامام قال وأما الارض التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الناس وهى عامرة لها اهل فاعطاء الامام يكون على وجه النفل ومن ذلك ماأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميما الدارى فانه أعطاه ارضا بالشام من قبل أن يفتح الشام وقبل أن يملكها المسلمون فجعلها له نفلا من اموال اهل الحرب اذا ظهر عليهم كما فعل نائبه نفيلة لماوهبها الشيبانى قبل افتتاح الحيرة فامضاها له خالد بن الوليد رضى الله عنه وكذلك أمضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتميم الدارى لما فتحت فلسطين ماكان النبي صلى الله عليه وسلم نفله انتهى فقد خرج ابو عبد الله هذه العطية المعلقة مخرج النفل الذى ينفله الامام بعض المقاتلة * وقال أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى في الاحكام السلطانية والاقطاع ضربان اقطاع استغلال واقطاع تمليك والثانى ينقسم الى موات وعامر والثانى ضربان احدها مايتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه الا بتلك الارض فى حق لبيت المال اذا كانت في دار الاسلام فان كانت في دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فانه يجوز فقد سأل تميم الدارى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيه عيون البلد الذي كان منه قبل أن يفتح الشام ففعل وسأله أبو ثعلبة الخشني أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم فأعجبه ذلك وقال ألا تسمعون مايقول هذا فقال والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتابا قال الماوردى وهكذا لو استوهب أحد من الامام مالا في دار الحرب وهو على ملك أهلها أو استوهبه شيئاً من سبيها أو ذراريها ليكون أحق به اذا فتحت جاز وصحت العطية منه مع الجهالة بها لتعلقها بالامور العامة * وقد روى الشعبي أن خزيمة بن أوس الطائي قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان فتح الله عليك الحيرة فأعطني بنت نفيله فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة قال له خزيمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطانى بنت نفيله فلا تدخلها في صلحك فشهد له بشر بن سعد ومحمد بن مسلمة فاستثناها من الصلح ودفعها الى خزيمة فاشتريت بألف درهم وكانت عجزت وحالت عما عهد منها فقيل له قد أرخصتها وكان أهلها يدفعون لك أضعاف ماسألت فقال ما كنت أظن ان عددا يكون أكثر

من ألف قال الماوردى واذا صح الاقطاع والتمليك على هــذا الوجه نظر حال الفتح فان كان صلحا خلصت الارض لمقطعها وكانت خارجة عن حكم الصلح بالاقطاع السابق وان كان الفتح عنــوة كان المقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبــه من الغانمين ونظر في الغانمين فان كانوا علموا بالاقطاع أو الهبة قبل الفتح فليس لهم المطالبــة بعوض وان لم يعلموا حتى فتحوا عاوضــهم الامام بما يستطيب نفوسهم من غير ذلك من الغنائم وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لايلزم الامام استطابة نفوسهم منه ولا من غيره من الغنائم اذا رأى المصلحة في ذلك

﴿ ذكر ديوان الخراج والاموال ﴾

يقال لـكتابة الخراج قلم التصريف وأول مادون هذا الديوان في الاسلام بدمشق والعراق على ما كان عليه قبل الاسلام وكان ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية وديوان مصر بالقبطية فنقلت دواوين هذه الامصار الى العربية والذي نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية عبــد الله بن عبــد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية وصرف أثناش عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وأول من نقل الدواوين من الفارسية الى العربية الوليد بن هشام بن مخزوم ابن سليمان بن ذكوان وتوفى سنة اثنتين وعشرين ومائتين والاكثرون على أن الذى نقل ديوان العراق الى العربيــة صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج وكان مولى لبني سعد وهو يومئذ صاحب دواوين العراق وذلك بعد سنة ثمانين وسبب ذلك أن صالح بن عبد الرحمن هذا كان أبوه من سبي سجستان ومهر صالح في الكتابة وكتب لزادان فروخ كاتب الحجاج ابن يوسف الثقفي وخط بين يديه بالفارســية والعربيــة فخف على قلب الحجاج فخاف من زادان وقال له أنت الذى رقيتني حتى وصلت الى الامير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك فقال زادان لاتظن ذلك هو أحوج الى مني اليه لانه لايجد من يكفيه حسابه غيرى فقــال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته قال فحول منه أسطرا حتى أرى ففعل فقال له تمارض فتمارض فبعث اليــه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زادان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن زادان قتل في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله فاستكتب الحجاج بعده صالحا فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في امضائه فنقله من الفارسية الى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مائة ألف درهم على أن لايظهر النقل فأبي عليهم فقال له مروان شاه بن زادان فروخ قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على

الكتاب وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية الى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل واختلف في وقت نقله فقيل نقل في خلافة عبد الملك بن مروان وقيل في خلافة هشام بن عبد الملك وكان الذى يكتب على ديوان الشام سرجون ابن منصور النصرانى في أيام معاوية بن أبي سفيان ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون

﴿ ذكر خراج مصر في الاسلام ﴾

أول من جبى خراج مصر في الاسلام عمرو بن العاص رضى الله عنه فكانت جبايته اثنى عشر ألف ألف دينار بفريضة دينارين دينارين من كل رجل ثم جبى عبدالله بن سعد ابن أبي سرح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لعمرو بن العاص يا أباعبدالله درت اللقحة بأكثر من درها الاول فقال أضررتم بولدها وهذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله انما هو من الجماجم خاصة دون الخراج وانحط خراج مصر بعدهما للنمو الفساد مع الزمان وسريان الخراب في أكثر الارض ووقوع الحروب فلم يجبها بنو أمية وخلفاء بنى العباس الادون الثلاثة آلاف ألف ماخلا أيام هشام بن عبدالملك فانه وصى عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة فيقال انه لم يظهر من خراج مصر بعد تناقصه كثرة الا فى وقتين * أحدهما في خلافة هشام بن عبد الملك عند ماولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب فخرج بنفسه ومسح العامر من أراضى مصر والغامر مما يركبه ماء النيل فوجد قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فدان سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض فراكها كلها وعدلها غاية التعديل فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار هذا والسعر راخ والبلد بغير مكس ولا ضريبة وفي سنة سبع ومائة لاول أيام هشام بن عبد الملك وظف ابن الحبحاب بمصر طبقات معلومة منسوبة في الدواوين ولم تزل الى ما بعد ذهاب بنى امية ومبلغها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وثمانمائة وسبعة وثلاثون دينارا منها على كور الصعيد ألف ألف واربعمائة دينار وعشرون دينارا ونصف والباقي على كور اسفل الارض ويقال ان اسامة بن زيد جباها فى خلافة سليمان بن عبد الملك مبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار * والوقت الثاني فى امارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر وقد خربت أرض مصر حتى بقى خراجها ثمانمائة ألف ألف دينار فاستقصى أحمد بن طولون فى العمارة وبالغ فيها فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار وجباها ابنه الامير أبو الجيش خمارويه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار مع رخاء الاسعار أيامئذ فانه ربما بيع في الايام الطولونية القمح كل عشرة أرادب بدينار * وذكر ابن خرداذبه ان خراج مصر فى أيام فرعون كان ستة وتسعين ألف ألف دينار وان ابن الحبحاب جباها الفى ألف وسبعمائة ألف وثلاثة وعشرين ألفاً وثمانمائة وتسعة وثلاثين دينارا وهذا وهم منه فان هذا القدر هو ما حمله الى بيت المال بدمشق بعد

أعطية أهل مصر وكلفها قال وحمل منها موسى بن عيسى الهاشمي ألفي ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار يعني بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف قال وكان خراج مصر اذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا بعشر أصابع أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار والمقبوض عن الفدان دينارين في خلافة المأمون وغيره وبلغ خراج مصر في ايام الامير أبي بكر محمد بن طفج الاخشيد ألفي ألف دينار سوى ضياعه التي كانت ملكا له والاخشيد أول من عمل الرواتب بمصر وكان كاتبه ابن كلا قد عمل تقديرا عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتي ألف دينار فقال له الاخشيد كيف نعمل قال حط من الجرايات والارزاق فليس هؤلاء اولى من الواجب فقال غدا تجيئني وندبر هذا فلما أتاه من الغد قال له الاخشيد قد فكرت فيما قلت فاذا أصحاب الرواتب الضعفاء وفيهم المستورون وأبناء النعم ولست آخذ هذا النقص الا منك فقال ابن كلا سبحان الله فقال تسبيحا وما زال به الاخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك فعوتب على ما صنعه فقال يا قوم اسمعوا ايش كان يعمل جاءه أحمد بن محمد بن الماردانى فقال له ما بيني وبين السلطان معاملة ولا للاخشيد على طريق وهذه هدية عشرة آلاف دينار للاخشيد وألف دينار لك فجاءني وقال لك قبل ابن الماردانى مطالبة فقلت لا فقال هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء فاعطاني ألفا وأخذ عشرة آلاف دينار وأهدى الىّ محمد بن على الماردانى فى وقت عشرين ألف دينار على يده فاستقللتها فلما اجتمعنا عاتبته فقال لى أرسلت اليك مائة ألف دينار ولابن كلا كاتبك عشرين ألف دينار فأخذ المائة واعطانى العشرين الفاً فذكرت قول محمد بن على له فقال ما أبرد هذا حفظت لك المائة ألف لوقت حاجتك تريدها خذها وانا أعلم أنك تتلفها * (وبلغت الرواتب) في أيام كافور الاخشيدي خمسمائة ألف دينار في السنة لارباب النعم والمستورين واجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الاعمال فحسن له على بن صالح الروذبادى الكاتب أن يوفر من مال الرواتب شيأ ينتقصه من أرزاق الناس فساعة جلس يعمل حكه جبينه فحكه بقامه والحكاك يزيد به الى أن قطع العمل وقام لمابه فعولج حينئذ بالحديد حتى مات في رمضان سنة سبع وأربعين وثلثمائة وهذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء قال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله * ولما مات كافور نزلت محن شديدة كثيرة بمصر من الغلاء والفناء والفتن فاتضع خراجها الى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد فجبى الخراج لسنة ثمان وخمسين وثلثمائة ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا وأمر الوزير الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن اليازورى وزير مصر في خلافة المستنصر بالله بن الظاهر أن يعمل قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات فعمل ارباب كل ديوان

ارتفاعه وما عليه وسلم الجميع لمتولى ديوان المجلس وهو زمام الدواوين فنظم عليه عملا جامعا وأتاه به فوجد ارتفاع الدولة الفى الف دينار منها الشام الف الف دينار ونفقاته بازاء ارتفاعه والريف وباقى الدولة ألف ألف دينار * قال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج في علم الخراج وقفت على مقايسة عملت لامير الجيوش بدر الجمالى حين قدم مصر في أيام الخليفة المستنصر وغلب على أمرها وقهر من كان بها من المفسدين شرح فيها أن الذى اشتمل عليه الارتفاع فى الهلالى لسنة ثلاث وثمانين واربعمائة وفي الخراجي على ما يقتضيه الديوان فيه مما كان جاريا في الاعمال المصرية من الخراج وما يجرى معه والمضمون والمقطع والمورد بغيره والمحلول بالقاهرة ومصر وضواحيهما وناحيتى الشرقية والغربية من أسفل الارض وأعمالها وتنيس ودمياط واعمالهما والإسكندرية والبحيرة والاعمال الصعيدية العالية والدانية وواحات وعيذاب لسنة ثمانين واربعمائة الخراجية على الرسوم المصرية وما كان من الاعمال الشامية التي أولها من حد الشجرتين وهو أول الاعمال الفلسطينية والاعمال الطرابلسية ولسنة ثمان وسبعين وأربعمائة الخراجية على ما استقرت عليه الجملة عينا ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار وأن الذى استقر عليه جملة ما كان يتأدى في سنة ست وستين وأربعمائة الهلالية قبل نظر أمير الجيوش الموافقة لسنة ثلاث وستين واربعمائة الخراجية فكان مبلغها الفي ألف وثمانمائة ألف دينار وكان الزائد للسنة الجيوشية عما قبلها ثلثمائة ألف دينار مما أعرب عنه حسن العمارة وشمول العدل وكان نظم هذه المقايسة سنة ثلاث وثمانين واربعمائة * وذكر ابن ميسر أن الافضل بن أمير الجيوش أمر بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر فجاء خمسة آلاف ألف دينار * وذكر القاضي الفاضل في ميا وماته أنه عبر البلاد من اسكندرية الى عيذاب لسنة خمس وثمانين وخمسمائة خارجا عن الثغور وارباب الاموال الديوانية وعدة نواح أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين الفاً وتسعة وعشرين دينارا ثم تقاصرت الى أن جباها القاضى الموفق أبو البكرم بن معصوم الماصمى التنيسى عينا خالصا الى بيت المال بعد المؤن والكلف ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار الى آخر سنة اربعين وخمسمائة ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية * وسبب اتضاع خراج مصر بعد مابلغ مع الروم في آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين الف الف دينار أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق في كلف عمارة الارض فانها تحتاج أن ينفق عليها ما بين ربع متحصلها الى ثلثه وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوما ومساحة أرضها مائة الف الف وثمانين الف الف فدان يزرع منها في مباشرة ابن مدبر أربعة وعشرون الف الف فدان وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها اربعمائة الف وثمانون الف حراث يلزمون العمل فيها دائما فاذا أقيم بها هذا

القدر من العمال في الارض تمت عمارتها وكمل خراجها وآخر ما كان بها مائة الف وعشرون ألف مزارع في الصعيد سبعون الفاً وفي اسفل الارض خمسون الفاً وقد تغير الآن جميع ما كان بها من الاوضاع القديمة واختلت اختلالا فاضحا

ذكر اصناف اراضي مصر واقسام زراعتها

اعلم ان اراضي مصر عدة اصناف اعلاها قيمة واوفاها سعرا واعلاها قطيعة الباق وهو اثر القرط والمقاثي فانه يصلح لزراعة القمح وبعد الباق ري الشراقي وهو الارض التي ظمئت في الخالية فلما رويت في الآتية وصارت مستريحة من الزرع وزرعت أنجب زرعها والبرايب وهو اثر القمح والشعير وسعرها دون الباق لضعف الارض بزراعة هذين الصنفين فمتى زرعت على اثر احدهما لم يجب كنجابة الباق والبرايب صالح لزراعة القرط والقطاني والمقاثي فان الارض تستريح بزراعة هذه الاصناف وتصير في القابل ارض باق والسقماهية اثر الكتان فان زرعت قمحا خسر والشتونية اثر ما روي وبار في السنة الماضية وهو دون الشراقي والسلايح ماروى وبار فحرث وتعطل وهو مثل ري الشراقي فان زرعه يكون ناجبا والنقا كل ارض خلت من اثر مازرع فيها ولم يبق بها شاغل عن قبول مايزرع فيها من اصناف الزراعات والوسخ كل ارض استحكم وسخها ولم يقدر الزراعون على ازاحته كله منها بل حرثوا وزرعوا فيها فجاء زرعها مختلطا بالحلفاء ونحوها والغالب كل ارض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة ومنع كثرته من زراعتها وصارت مراعي والخرس كل ارض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع وكانت بها مراع وهو اشد من الوسخ الغالب واذا أدمن على ازالة مافيها من الموانع تهيأ صلاحها والشراقي كل ارض لم يصل اليها الماء اما لقصور ماء النيل او علو الارض أو سد طريق الماء عنها أو غير ذلك والمستبحر كل أرض وطيئة حصل بها الماء ولم يجد مصرفا حتى فات أوان الزرع وهو باق في الارض والسباخ كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت ولم ينتفع بها في زراعة الحبوب وربما زرعت مالم يستحكم السباخ فيها غير الحبوب كالهليون والباذنجان ويزرع فيها القصب الفارسي * ومما لاغنى لاراضي مصر عنه الجسور وهي على قسمين سلطانية وبلدية فالجسور السلطانية هي العامة النفع في حفظ النيل على البلاد كافه الى حين يستغنى عنه ولها رسوم موظفة على الاعمال الشرقية والاعمال الغربية وكانت في القديم تعمل من أموال النواحي ويتولى عملها مستقبلو الاراضي ويعتد لهم بما صرف عليها مما عليهم من قبالات الاراضي ثم صار بعد ذلك يستخرج برسم عملها من هذين العملين مال بايدي المستخدمين من الديوان ويصرف عليها ويفضل من المال بقية تحمل الى بيت المال ثم صار يتولى ذلك أعيان امراء الدولة الى أن حدثت الحوادث في أيام الناصر فرج فصار يجبي من البلاد مال عظيم ولا

يصرف منه شئ البتة بل يرفع الى السلطان ويتفرق كثير منه بايدى الاعوان ويسخر أهل البلاد في عمل الجسور فيجئ الخلل كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر أسباب الخراب * وأما الجسور البلدية فانها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية ويتولى اقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية ومحل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته وكفاية الرعية أمره ومحل الجسور البلدية محل الدور التي من داخل السور فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها ومن العادة أن المقطع اذا انفصل وكان قد أنفق شيئاً من مال اقطاعه في اقامة جسر لاجل عمارة السنة التي انتقل الاقطاع عنه فيها فان له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما أنفقه من مال سنته في عمارة سنة غيره * وأصلح مازرع القمح في أثر الباق والشراقي وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير ويزرع القمح من نصف شهر بابه الى آخر هتور وهذا في العوالي من الارض التي تخرج بدرياوأماالبحائر المتأخرة فيمتد وقت الزرع فيها الى آخر كيهك ومقدار ما يحتاج اليه الفدان الواحد من بذر القمح يختلف بحسب قوة الارض وضعفها ورقتها وتوسطها وما يزرع في اللوق وما يزرع في الحرث وأكثر البذر من أردب الى خمس ويبات وأربع ويبات أيضا ويوجد في الصعيد أراض تحتمل دون هذا وفى حوف رمسيس أراض يكفى الفدان منها نحو الويبتين ويدرك الزرع بمصر في بشنس وهو نيسان ويختلف مايخرج من فدان القمح بحسب الاراضي فيرمي من أردبين الى عشرين أردبا وقال أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة وذكر أن في مصر اذا زرعوا يخرج من المد ثلثمائة مد والعلة في ذلك حرارة هواء بلادهم مع سمن أرضهم وكثرة كدورة ماء النيل * ولما كان في سنة ست وثمانمائة انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم التي يقال لها اليوم بحر يوسف فزرعت وجاء زرعها عجيبا رمى الفدان منها أحدا وسبعين أردبا من شعير بكيل الفيوم وأردبها تسع ويبات وكانت قطيعة فدان القمح ببلاد الصعيد في أيام الفاطمية ثلاثة أرادب فلما مسحت البلاد فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة تقرر على كل فدان أردبان ونصف ثم صار يؤخذ أردبان عن الفدان وأما أراضى اسفل الارض فيؤخذ عنها عين لاغلة * ويزرع الشعير في أثر القمح وغيره في الأرض التي غرقت وهي رطبة ويتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام وكذلك حصاده فانه يحصد قبل القمح ويحتاج الفدان منه أن يبذر فيه بحسب الارض ويخرج أكثر من القمح ويكون ادراكه في برموده وهو أدار * ويزرع الفول في الحرث أثر البرايب من اول شهر بابه ويؤكل وهو أخضر في شهر كيهك ويحتاج الفدان من البذر منه الى ثلاث ويبات ونحوها ويدرك في برمودهويحصل من فدانه ما بين عشرين اردبا الى ما دون ذلك * ويزرع العدس والحمص من هتور الى

كيهك والجلبان لايزرع الا فى ارق الاراضى حرثا من الارض العاليـة ويزرع تلويقا في الاراضى الخرس ويبذر فى كل فدان من الحمص من اردب الى ثمان ويبات ومن الجلبان من اردب الى اربع ويبات ومن العدس من ويبتين الى مادونهما وتدرك هذه الاصناف فى برموده ويحصل من فدان الحمص من اربعة ارادب الى عشرة ومن الجلبان من عشرة ارادب الى ما دونها والعـدس من عشرين اردبا فما دونها * وأنجب مايكون الكتان اذا زرع فى البرش ويحتاج أن يسبخ بتراب سباخ وهو اذا طال رقد ويقلع قضبانا ويسمى حينئذ اسلافا وينشر فى موضعه حتى يجف فاذا جف حمل وهدر وعزل جوزه فيخرج منه بزر الكتان ويستخرج منه الزيت الحار ويزرع الكتان فى شهر هتور ويحتاج الفدان أن يبذر فيـه من البزر مابين إردب وثلث الى مادون ذلك ويدرك فى شهر برموده ويخرج من الفدان مابين ثلاثين شدة الى مادون ذلك ومن البزر من ستة ارادب الى مادونها وكانت قطيعة الفـدان منه في القديم بأرض الصعيد من خمسة دنانير الى ثلاثة وفى دلاص ثلاثة عشر دينـارا * وفيما عدا ذلك ثلاثة دنانير * ويزرع القرط عند أخذ ماء النيل فى النقصان ولا ينبغى تأخير زرعه الى أوان هبوب الريح الجنوبية التي يقال لها المريسية واول مايبذر فى شهر بابه وربما زرع بعد النوروز والحراثى منه يزرع فى كيهك وطوبه ويزرع احيانا فى هتور ويبذر فى كل فدان من ويبتين ونصف الى ماحولها ويدرك الاخضر منه فى آخر شهر كيهك ويدرك الحراثى فى طوبه وامشير ويحصل من الفـدان الحراثى مابين اردبين الى اربع ويبات * ويزرع البصل والثـوم من شهر هتور الى نصف كيهك ويبذر فى فدان البصل من نصف وربع ويبة الى ويبة والثوم من مائة حزمة الى مائة وخمسين حزمة ويدرك ذلك فى برموده والبصل الذى يخرج ليزرع زريعة فانه يزرع من اول كيهك الى العاشر من طوبه ويخرج من زريعته عشرة أرادب من الفدان ويدرك في بشنس * ويزرع الترمس في طوبه وزريعته لـكل فدان أردب ويدرك في برموده ويحصل من الفدان مابين عشرين أردبا الى مادونها وهذه هي الاصناف الشتوية * (وأما الاصناف الصيفية) * فانّ البطيخ واللوبيا يزرعان من نصف برمهات الى نصف برموده * ويزرع في الفدان قدحان ويدرك في بشنس * ويزرع السمسم فى برموده وزريعته ربع ويبة للفدان ويدرك فى أبيب ومسرى ويحصل من الفدان مابين أردب الى ستة أرادب * ويزرع القطن فى برموده وزريعته أربع ويبات حب للفدان ويدرك فى توت فيخرج من الفدان من ثمانية قناطير بالجروى الى مادونها * ويزرع قصب السكر من نصف برمهات فى أثر الباق والبرش وتبرش أرضه سبع سكك وأنجبه ما تكامل له ثلاث عرقات قبل انقضاء شهر بشنس ومقدار زريعته ثمن فدان وما حوله لـكل فدان ويحتاج القصب الى أرض جيـدة دمثة قد شملها الرى وعلاها ماء النيل وقلع مابهـا من

الحلفاء ونظفت ثم برشت بالمقلقلات وهى محاريث كبار ستة وجوه وتجرف حتى تمهد ثم تبرش ستة وجوه أخرى وتجرف ومعنى البرش الحرث فاذا صاحت الارض وطابت ونعمت وصارت ترابا ناعما وتساوت بالتجريف شقت حينئذ بالمقلقلات ويرمى فيها القصب قطعتين قطعة مثناة وقطعة مفردة بعد أن تجعل الارض أحواضا وتفرز لها جداول يصل الماء منها الى الاحواض ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل وبعض انبوبة من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها ويختار ما قصرت أنابيبه وكثرت كعوبه من القصب ويقال لهذا الفعل النصب فاذا كمل نصب القصب أعيد التراب عليه ولا بد فى النصب أن تكون القطعة ملقاة لاقامة ثم يسقى من حين نصبه فى أول فصل الربيع لكل سبعة أيام مرة فاذا نبت القصب وصار أوراقا ظاهرة نبتت معه الحلفاء والبقلة الحمقاء التي يسميها أهل مصر الرجلة فعند ذلك تعزق أرضه ومعنى العزاق أن تنكش أرض القصب وينظف ما نبت مع القصب ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يغزر القصب ويقوى ويتكاثف فيقال عند ذلك طرد القصب عزاقه فانه لايمكن عزاق الارض ولا يكون هذا حتى يبرز الانبوب منه ومجموع مايسقى بالقادوس ثمانية وعشرون ماء والعادة أن الذى ينصب من الاقصاب على كل مجال بحر انى أى مجاور للبحر اذا كانت مزاحة الغلة بالابقار الجياد مع قرب رشا الآبار ثمانية أفدنة ويحتاج الى ثمانية أرؤس بقر فان كانت الآبار بعيدة عن مجرى النيل لايمكن حينئذ أن يقوم المجال بأكثر من ستة أفدنة الى أربعة فاذا طلع النيل وارتفع سقى القصب عند ذلك ماء الراحة وصفة ذلك أن يقطع عليه من جانب جسر يكون قد أدير عليه ليقيه من الغرق عند ارتفاع النيل بالزيادة فيدخل الماء من ثلمة فى ذلك الجسر حتى يعلو على أرض القصب نحو شبر ثم يسد عنه الماء حتى لايصل اليه ويترك الماء فوق الارض قدر ساعتين أو ثلاث الى أن يسخن ثم يصرف من جانب آخر حتى ينضب كله ويجدد عليه ماء آخر كذلك فيتعاهد ما ذكرنا مرارا فى أيام متفرقة بقدر معلوم ثم يفطم بعد ذلك فاذا عمل ماقلناه وفى القصب حقه فان نقص عن ذلك حصل فيه الخلل ولا بد للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لايسوس ويكسر القصب في كيهك ولا بد من حرق آثار القصب بالنار ثم سقيه وعزقه كما تقدم فينبت قصبا يقال له الخلفة ويسمى الاول الرأس وقنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس ووقت ادراك الرأس في طوبه والخلفة فى نصف هتور وغاية ادارة معاصر القصب الى النوروز ويحصل من الفدان ما بين أربعين ابلوجة قند الى ثمانين أبلوجة والابلوجة تسع قنطارا فما حوله * ويزرع القلقاس مع القصب ولكل فدان عشرة قناطير قلقاس جروية ويدرك في هتور * ويزرع الباذنجان في برمهات وبرموده وبشنس وبؤونة ويدرك من بؤونة الى مسرى * وتزرع النيلة من بشنس والزريعة للفدان ويبة ويدرك من أبيب * ويزرع

الفجل طول السنة وزريعه الفدان من قدح واحد الى قدحين *ويزرع اللفت في أبيب وزريعة الفدان قدح واحد ويدرك بعد أربعين يوما *ويزرع الخس في طوبه شتلا ويؤكل بعد شهرين * ويزرع الكرنب في توت شتلا ويدرك في هتور* ويغرس الكرم في أمشير نقلا وتحويلا *ويغرس التين والتفاح في أمشير * ويقلم التوت في برمهات * ويغرس ويبل اللوز والخوخ والمشمش في ماء طوبة ثلاثة أيام وهى قضبان ثم يغرس ويحول شجرها في طوبة * ويزرع نوي التمر ثم يحول ودياً فينقل * ويدفن بصل النرجس في مسرى* ويزرع الياسمين في أيام النسيء وفي أمشير* ويزرع المرسين فى طوبه وأمشير غرسا * ويزرع الريحان فى برموده * ويزرع حب المنثور في أيام النيل * ويزرع الموز الشتوي فى طوبة والصيفى في أمشير * ويحول الخيار شنبر فى برمهات * وتقلم الكروم على ريح الشمال الى ليال من برمهات حتى تخرج العين منها * وتقلم الاشجار في طوبة وأمشير إلا السدر وهو شجر النبق فانه يقلم في برموده* وتسقى الاشجار في طوبة ماء واحدا ويسمونه ماء الحياة وتسقى فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر وتسقى في برمهات ماءين آخرين الى أن ينعقد التمر وتسقى في بشنس ثلاث مياه وتسقى في بؤونة وأبيب ومسرى ماء في كل سبعة أيام وتسقى في توت وبابة مرة واحدة تغريقا من ماء النيل وتسقى فى هتور من ماء النيل بتغريق المساطب ويسقى البعل من الكروم في هتور من ماء النيل مرة واحدة تغريقا * وجميع أراضي مصر تقاس بالفدان وهو عبارة عن أربعمائة قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة واحدة والقصبة ستة اذرع وثلثا ذراع بذراع القماش وخمسة اذرع بذراع النجار تقريباً وقال القاضي أبو الحسن فى كتاب المنهاج خراج مصر قد ضرب على قصبة فى المساحة اصطلح عليها زرع المزارع على حكمها وتكسير الفدان اربعمائة قصبة لانه عشرون قصبة طولا فى عشرين قصبة عرضا وقصبة المساحة تعرف بالحاكمية وهى تقارب خمسة أذرع بالنجارى

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر في زمننا ينقسم قسمين أحدهما يقال له خراجي والآخر يقال له هلالى فالمال الخراجي ما يؤخذ مسانهة من الاراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف*والمال الهلالى عدة أبواب كلها أحدثوها ولاة السوء شيأ بعد شئ وأصل ذلك فى الاسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الهند فيأخذون منهم العشر فكتب الى أبي موسى الاشعرى وهو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتي درهم خمسة دراهم وخذ من كل تاجر من تجار العهد يعني أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم

درهما وقيل لابن عمر كان عمر يأخذ من المسلمين العشر قال لا ونهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك وكتب ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس ولكنه النجس * وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتاه ناس من أهل الشام فقالوا أصبنا دواب وأموالا نخذ منها صدقة تطهرنا بها فقال كيف أفعل مالم يفعل من كان قبلى وشاور فقال على بن أبي طالب رضى الله عنه لا بأس به ان لم يأخذه من بعدك فأخذ عن العبد عشرة دراهم وكذلك عن الفرس وعن الهجين ثمانية وعن البرذون والبغل خمسة * وأول من وضع على الحوانيت الخراج في الاسلام أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور فى سنة سبع وستين ومائة وولى ذلك سعيد الجرسى * وأول من أحدث ما لا سوى مال الخراج بمصر أحمد ابن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين فانه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلا الذى ترعاه البهائم ما لاسماه المراعى وقرر على مايطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد الى غير ذلك فانقسم حينئذ مال مصر الى خراجى وهلالى وكان الهلالى يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون فلما ولى الامير أبو العباس احمد بن طولون امارة مصر وأضاف اليه امير المؤمنين المعتمد على الله الخراج والثغور الشامية رغب وتنزه عن ادناس المعاون والمرافق وكتب باسقاطها فى جميع اعماله وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار في كل سنة وله في ذلك خبر فيه أكبر معتبر قد ذكرته عند ذكر أخبار الجامع الطولوني من هذا الكتاب ثم اعيدت الاموال الهلالية في اثناء الدولة الفاطمية عند ماضعفت وصارت تعرف بالمكوس فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين ابو المظفر يوسف بن ايوب بملك مصر أمر باسقاط مكوس مصر والقاهرة فكتب عنه القاضي الفاضل مرسوما بذلك وكان جملة ذلك فى سنة مائة ألف دينار تفصيلها مكس البهار وعمالته ثلاثة وثلاثون الفا وثلثمائة واربعة وستون دينارا مكس البضائع والقوافل وعمالتها تسعة آلاف وثلثمائة وخمسون دينارا منفلت الصناعة عن مكس البز الوارد اليها والنحاس والقزدير والمرجان والفاضلات خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون دينارا الصادر عن الصناعة بمصر ستة آلاف وستمائة وستة وستون دينارا سمسرة التمر ثلثمائة دينار الفندق بالمنية عن مكس البضائع ثمانمائة دينار وستة وخمسون دينارا رسوم دار القند ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير رسوم الخشب الطويل والملح ستمائة وستة وسبعون دينارا رسوم العلب المنسوبة الى بلبيس والبورى مائة دينار رسوم التفتيش بالصناعة عن البهار وغيره مائتان وسبعة عشر دينارا خيمة أرمنت عن الوارد اليها سبعة وستون دينارا فندق القطن ألفا دينار سوق الغنم بالقاهرة ومصر والسمسرة وعبور الاغنام بالجيزة ثلاثة آلاف وثلثمائة

وأحد عشر دينارا عبور الاغنام والكتان والابقار بباب القنطرة ألف ومائتا دينار واجب ماورد من الكتان الحطب الى الصناعة مائتا دينار رسوم واجب الغلات كالحبوب الواردة الى الصناعة والمقس والمنية والجسر والتبانين ومقالت جزيرة الذهب وطموه ومنير الدرج ستة آلاف دينار مكس ما يرد الى الصناعة من الاغنام ستة وثلاثون دينارا الاغنام البيتوتية اثنا عشر دينارا العرصة والسرسناوى بالجيزة ومكس الاغنام مائة وتسعون دينارا منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة ومن البضائع الواردة من الفيوم وغيره أربعة آلاف ومائة وستون دينارا مكس الورق المجلوب الى الصناعة ورسم التفتيش مائتا دينار الحصة بساحل الغلة والاقوات والرسائل سبعمائة وثمانية وستون دينارا دار التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة ألف وسبعمائة دينار رسم ابن المليجي مائتا دينار دار الجبن ألف دينار مشارفة الخزائن مائتان وأربعون دينارا واجب الحلى الوارد من الوجه البحرى والقطن ألف وعشرون دينارا رسم سمسرة الصفا ألف ومائتا دينار منفلت الصعيد مائة وأحد وستون دينارا خاتم الشرب والديبقى ألف وخمسمائة دينار مكس الصوف مائتا دينار نصف الموردة بساحل المقس أربعة عشر دينارا دكة السمسار ثلثمائة وخمسون دينارا منفلت العريف بالصناعة وحملة البهار والبضائع مائتان وستة عشر دينارا الحلفاء الواردة من القبلة مائة وخمسة وثلاثون دينارا الوقد والسرقين والطع بدار التفاح ومنفلت القبلة بالتبانين والجسر خمسة وثلاثون دينارا رسوم الصفا والحمراء ورسوم دار الكتان ستون دينارا حماية الغلات بالمقس ودار الجبن مائة وأربعون دينارا الحلفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس مائة دينار خمس البرنية بالجيزة عشرون دينارا تل التعريف بالصناعة ثمانية وعشرون دينارا منفلت الغلات بمعدية جزيرة الذهب عشرة دنانير رسوم الحمام بساحل الغلة خمسمائة وأربعة وثلاثون دينارا واجب الحناء الواردة في البر ثمانمائة دينار واجب الحلفاء والقصاب ثلاثة وستون دينارا مكس ما يرد من البضائع الى المنية مائة وأربعة وثمانون دينارا مسلخة شطنوف والبرانية مائتا دينار سوق السكريين خمسون دينارا رسوم خيمة الحلى بالشارع وسوق وردان تسعة عشر دينارا واجب الفحم الوارد الى القاهرة عشرة دنانير معدية الجسر بالجيزة مائة وعشرون دينارا خيمة البقرى أربعون دينارا الخيمة بدار الدباغة تسعة عشر دينارا سمسرة الجبس الجيوشى ثلثمائة واثنا عشر دينارا دكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل بالقاهرة خمسمائة دينار الخل الحامض وما معه أربعمائة دينار بيوت الغزل والمصطبة ثلثمائة وخمسون دينارا ذبائح الابقار ألف دينار سوق السمك بالقاهرة ومصر ألف ومائتا دينار رسوم الدلالة ثلثمائة دينار سمسرة الكتان ثلثمائة دينار رسوم حماية الصناعتين أربعمائة دينار مربعة العسل مائتان واثنان وثلاثون دينارا معادى جزيرة الذهب وغيرها ثلثمائة دينار خاتم

الشمع بالقاهرة ثلاثة وستون دينارا زربية الذبحة سبعمائة دينار معدية المقياس وانبابة مائتا دينار حمولة السلجم ثلثمائة وثلاثون دينارا دكة الدباغ ثمانمائة دينار سوق الرقيق خمسمائة دينار معمل الطبرى مائتان وأربعون دينارا سوق منبوبة مائة واربعة وستون دينارا ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل السنط عشرة دنانير نخ السمك خمسة دنانير تنور الشوى مائة دينار نصف الرطل من مطابخ السكر مائة وخمسة وثلاثون دينارا سوق الدواب بالقاهرة ومصر أربعمائة دينار سوق الجمال مائتان وخمسون دينارا قبان الحناء ثلاثون دينارا واجب طاقات الادم ستة وثلاثون دينارا منفلت الحام بالشاشيين ثلاثة وثلاثون دينارا أنولة القصار أربعون دينارا بيوت الفروج ثلاثون دينارا الشعر والطارات أربعة دنانير رسوم الصبغ والحرير ثلثمائة وأربعة وثلاثون دينارا وزن الطفل مائة وأربعون دينارا معمل المزر أربعة وثمانون دينارا الفاخور بمصر والقاهرة مائتان وستة وثلاثون دينارا * وذكر ابن أبي طي أن الذى اسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار وألفى ألف أردب سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أعاد المكوس وزاد في شناعتها قال القاضي الفاضل فى متجددات سنة تسعين وخمسمائة وكان قد تتابع في شعبان أهل مصر والقاهرة في أظهار المنكرات وترك الانكار واباحة أهل الامر والنهي لها وتفاحش الامر فيها الى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره وأقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن حشيش المزر وأفردت برسمه وحميت بيوت المزر وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة فمنها ما انتهى أمره فى كل يوم الى ستة عشر دينارا ومنع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من البيوت المحمية وحملت أواني الخمر على رؤس الاشهاد وفي الاسواق من غير منكر وظهر من عاجل عقوبة الله عز وجل وقوف زيادة النيل عن معتادها وزيادة سعر الغلة فى وقت ميسورها * وقال فى متجددات سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم الى أن يحمل في بعض الاوقات لاكلها لبعض مايتبلغ به من خبز وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع ووقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان وفيما يصرف الى عياله وفيما يقتات به أولاده وما يغتصب من أربابه وأفضى هذا الى غلاء الاسعار فان المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون في أسعار المأكولات العامة بمقدار مايؤخذ منهم للدار السلطانية فأفضى ذلك الى النظر في المكاسب الخبيثة وضمن المزر والخمر باثني عشر ألف دينار وفسح في أظهار منكره والاعلان به والبيع له في القاعات والحوانيت مع قرب استهلال رجب وما استطاع أحد من العامة الانكار لا باليد ولا باللسان وصار هذا السحت مما ينفرد السلطان به لنفقته وطعامه وانتقل مال الثغور ومال الجوالى الحل الطيب الى أن

يصير حوالات لمن لايبالي من أين أخذ المال ولا يفرق بين الحرام والحلال وفي شهر رمضان غلا سعر الاعناب لكثرة العصير منها وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطاني واستيفاء رسمه بأيدي مستخدميه وبلغ سمانه سبعةعشر ألف دينار وحصل منه شئ حمل اليه فبلغني أنه صنع به آلات للشراب ذهبيات وفضيات وكثر اجتماع النساء والرجال في شهر رمضان لاسيما على الخليج لما فتح وعلى مصر لما زاد الماء وتلقى فيه النيل بمعاص نسأل الله أن لايؤاخذنا بها وان لايعاقبنا عليها بجراءة أهلها * وقال جامع السيرة التركية ولما استقل الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي بمملكة مصر في سنة خمسين وستمائة بعد انقراض دولة بني أيوب استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي أحد كتاب الاقباط وكان قد أظهر الاسلام من أيام الملك الكامل وترقي في خدمة الكتابة فقرر في وزارته أموالا على التجار وذوى اليسار وأرباب العقار ورتب مكوسا وضمانات سموها حقوقا ومعاملات ولما ولى الملك المظفر سيف الدين قطز مملكة مصر بعد خلعه الملك المنصور على بن المعز أيبك أحدث عند سفره الذى قتل فيه مظالم كثيرة لاجل جمع المال وصرفه في الحركة لقتال جموع التتر منها تصقيع الاملاك وتقويمها وزكاتها وأحدث على كل انسان دينارا يؤخذ منه وأخذ ثلث التركات الاهلية فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار في كل سنة فلما قتل قطز وجلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل أبطل ذلك جميعه وكتب به مساميح قرئت على المنابر ثم أبطل ضمان المزر وجهاته في سنة اثنتين وستين وستمائة وكتب وهو بالشام الى الامير عز الدين الحلى نائب السلطنة بمصر أن يبطل بيوت المزر ويعفي آثاره ويخرب بيوته ويكسر مواعينه ويسقط ارتفاعه من الديوان فان بعض الصالحين تحدث معي في ذلك وقال القمح الذى جعله الله تعالي قوتا للعالم يداس بالارجل وقد تقربت الى الله تعالى بابطاله ومن ترك شيأ لله عوضه خيرا منه ومن كان له على هذه شيء يعوضه الله من المال الحلال فابطل الحلى ذلك وعوض المقطعين عليه بدله وفي سنة ثلاث وستين أبطل حراسة النهار بالقاهرة ومصر وكانت جملة مستكثرة وكتب بذلك توقيعا وأبطل من أعمال الدقهلية والمرتاحية عن رسوم الولاية أربعة وعشرين ألف دينار وفي خامس عشرى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة قرئ بجامع مصر مكتوب بابطال ماقرر على رسوم ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم مصرية فبطل ذلك وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة خمس وستين وستمائة وأمر باراقة الخمور وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطئ بجميع أقطار مملكة مصر والشام فطهرت من ذلك البقاع ولما وردت المراسيم بذلك على القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير قال

ليس لابليس عندنا أرب * غير بلاد الامير مأواه
حرفته الخمر والحشيش معا * حرمتا ماؤه ومرعاه

وقال الاديب الفاضل أبو الحسين الجزار

قد عطل الكوكب من حبابه * واخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكي * على الذى فات من شبابه

وفى تاسع جمادي الآخرة سنة ست وستين وستمائة أمر الملك الظاهر بيبرس باراقة الخمور وابطال الفساد ومنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر وسائر الاعمال المصرية فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر ونهبت الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب أهلها جميع ما كان لهم ونفي بعضهم وحبست النساء حتى يتزوجن وكتب الي جميع البلاد بمثل ذلك وحط المال المقرر على البغايا من الديوان وعوض الحاشية من جهات حل بنظيره وفي سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة أريقت الخمور وابطل ضمانه وكان كل يوم الف دينار وكتب توقيع بذلك قرئ على المنابر وافتتح سنة سبعين باراقة الخمور والتشدد في ازالة المنكرات وكان يوما مشهودا بالقاهرة وبلغه في سنة أربع وسبعين عن الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز وكان قد تمكن منه تمكنا كثيرا أنه يشرب الخمر فشنقه تحت قلعة الجبل * ولما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاون الالفى مملكة مصر أبطل زكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عند زكاة ماله أبدا ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته وأبطل ما كان يجبي من أهل أقاليم مصر كله اذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر على قدر طبقاتهم ويجتمع من ذلك مال كثير وأبطل ما كان يجبي من أهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر من كل تاجر دينار وأبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى وحلوى وفاكهة فى المقياس وجعل مصرف ذلك من بيت المال وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط * وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاون عدة جهات قد ذكرت فى الروك الناصرى وآخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغاني وضمان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة على يد الملك الاشرف شعبان بن حسين محمد بن قلاون * فأما ضمان الاغانى فكان بلاء عظيما وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء اذا تنفست أو عرس امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير اذن

الضامنة حل به بلاء لا يوصف * وأما ضمان القراريط فانه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما وكان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا *وأبطل الملك الظاهر برقوق ما كان يؤخذ من اهل البرلس وشورى وبلطيم شبه الجالية فى كل سنة ستين ألف درهم وأبطل ما كان على القمح من مكس يؤخذ من الفقراء بثغر دمياط ممن يبتاع من اردبين فما دونهما وأبطل ما كان يؤخذ مكسا من معمل الفروج بالنحريرية والاعمال الغربية وأبطل ما كان يؤخذ تقدمة لمن يسرح الى العباسة من الخيل والجمال والغنم وغير ذلك وأبطل ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بباب النصر خارج القاهرة وأبطل ضمان الاغاني بمنية ابن خصيب بأعمال الاشمونين وبزفتا بالاعمال الغربية وأبطل الابقار التى كانت ترمى بالوجه البحرى عند فراغ الجسور وأبطل الامير يلبغا السالمي لما ولى استادار السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق في سنة احدى وثمانمائة تعريف الغلال بمنية ابن خصيب وضمان العرصة بها وأخصاص الغسالين وكانت من المظالم القبيحة وأبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر ثم أعاده القبط من بعده * وقد بقيت الى الآن من المكوس بقايا أخبرني الامير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمي فى ايام وزارته أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ فى كل يوم بضعا وسبعين الف درهم وانه اعتبرها فلم يجدها تصرف في شيء من مصالح الدولة بل انما هي منافع للقبط وحواشيهم وكان قد عزم على ابطال المكوس فلم يمهل* (والمال الهلالي) عبارة عما يستأدي مشاهرة كأجر الاملاك المسقفة من الآدر والحوانيت والحمامات والافران والطواحين وعداد الغنم والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة وعد بعض الكتاب أحكار البيوت وريع البساتين التي تستخرج أجرها مشاهرة ومصايد السمك ومعاصر الشيرج والزيت في المال الهلالي * ومن اصطلاح كتاب مصر القدماء أن تورد جزية أهل الذمة من اليهود والنصارى قلما واحدا مستقلا بذاته بعد الهلالي وقبل الخراجي وذلك انها تستأدى مسانهة وكانوا يرون وجوبها مشاهرة وفائدته فيمن أسلم أو مات أثناء الحول فانهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل اسلامه أو وفاته فلذلك أوردت فيما بين الهلالي والخراجي * وكانوا في الاقطاعات الجيشية يجرونها مجرى المال الهلالي عند خروج اقطاع من يقطع ودخول آخر على ذلك الاقطاع فانها كانت تستخرج على حكم الشهور الهلالية لا الشمسية بحيث لو تعجلها مقطع في غرة السنة على العادة في ذلك وخرج الاقطاع عنه في أثناء السنة بوفاة أو نقلة الى غيره استحق منها نظير مامضى من شهور السنة الى حين انتقال الاقطاع عنه لا على حكم ما استحق من المغل ويستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره كعادة النقود والمتخلل بينهما من المدة مستحق ذلك الديوان فيرد من جملة المحلولات من الاقطاعات وكان من أبواب الهلالي جهات تسمى المعاملات وهي الزكاة

والموازيث والثغور والمتجر والشب والنطرون والجبس الحيوشي ودار الضرب ودار العيار والجاموس وأبقار الجبس والاغنام والغروس والبساتين والاحكار والرباع والمراكب وما يستأدى من الذمة غير الجوالي وساحل السنط والخراج والقرظ ومقرر الجسور وموظف الاتبان ومقرر القصب ومقرر البريد ومقرر البسط وعشر العرق وغير ذلك من جهات المكوس فأما الجزية وتعرف في زمننا بالجوالي فانها تستخرج سلفا وتعجيلا في غرة السنة وكان يحصل منها مال كثير فيما مضى * قال القاضي الفاضل فى متجددات الحوادث الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالي لسنة سبع وثمانين وخمسمائة مائة ألف وثلاثون ألف دينار وأما في وقتنا هذا فان الجوالي قلت جداً لكثرة اظهار النصارى للاسلام في الحوادث التي مرت بهم ولما استبد السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله ولي رجلا جباية الجوالي فكثر الاستقصاء عن الذمة والكد في الاستخراج منهم فبلغت الجوالي في سنة ست عشرة وثمانمائة أحد عشر ألف دينار وأربعمائة دينار سوى ماغرمهم للاعوان وهو قدر كثير * وأما المراعى وهو الكلأ المطلق المباح الذي أنبته الله تعالى لرعى دواب بني آدم فأول من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر ولما ولي الخراج وصير لذلك ديوانا وعاملا جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعى أو يشتروها الامن جهته وأدركنا المراعى ببلاد الصعيد مما يضاف الى الاقطاعات فيأخذ الامير ممن يرعى دوابه في أرض بلده الكتيبح فى كل سنة مالا عن كل رأس فيجبي من صاحب الماشية بعدد أنعامه فلما اختل أمر الصعيد فى الحوادث الكائنة منذ سنة ست وثمانمائة تلاشي الامر فى ذلك وكانت العادة القديمة أن يندب للمراعي مشد وشهود وكاتب فيعدون المواشي ويستخرجون من أربابها عن كل رأس شيئاً ولا يكون ذلك الا بعد هبوط النيل ونبات الكلأ واستهلاكه للمرعي * وأما المصايد فهى ما أطع الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوانا واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الاوتار ومغارس الشباك فاستمر ذلك وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب الى عدة جهات مثل خليج الاسكندرية وبحيرة الاسكندرية وبحيرة نسترو وثغر دمياط وجنادل ثغر أسوان وغير ذلك من البرك والبحيرات فيخرجون عند هبوط النيل ورجوع الماء من المزارع الى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد سكرت وأبواب القناطر قد سدت عند انتهاء زيادة النيل كيا يتراجع الماء ويتكاثف مما يلى المزارع ثم تنصب شباك وتصرف المياه فيأتي السمك وقد اندفع مع الماء الجارى فتصده الشباك عن الانحدار مع الماء ويجتمع فيها فيخرج الى البر ويوضع على انخاخ ويملح ويوضع فى الامطار فاذا استوى بيع وقيل له الملوحة والصير ولا يكون ذلك الا فيما كان من السمك

فى قدر الاصبع فما دونه ويسمون هذا الصنف اذا كان طريا بسارية فتؤكل مشوية ومقلية ويصاد من بحيرة نسترو وبحيرة تنيس وبحيرة الاسكندرية أسماك تعرف بالبوري وقيل لها ذلك لانها كانت تصاد عند قرية من قرى تنيس يقال لها بورة وقد خربت والنسبة اليها البوري ونسب اليها جماعة من الناس منهم بنو البوري وقيل لهذا السمك البوري إضافة الى القرية المذكورة وقد بطل في زمننا اليوم أمر هذه المصايد الامن بحيرة نسترو بالبرلس وبحيرة تنيس بدمياط فقط وهاتان البحيرتان تجريان فى ديوان الخاص وهما مضمنتان وما يخرج منهما من البوري وغيره من أنواع السمك فالسلطان لايقدر أحد أن يتعرض لصيد شئ منه الا أن يكون من صياديهما القائمين بالضمان وما عدا هاتين البحيرتين من البرك والاملاق والخلجان فليست للسلطان وأما بحيرة اسكندرية فقد جفت وثغر أسوان فقد خرج عن يد السلطنة وتغلب عليه أولاد الكفرة وثم برك بأيدي أقوام كبركة الفيل بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس وبركة الرطلي بيد أولاد الامير بكتمر الحاجب وغير ذلك فان أسماكها مضمنة لهم يبيعونها ومع ذلك لايمنع أحد الصيد منها * وأما بحر النيل فما صيد منه يحمل الى دار السمك بالقاهرة فيباع ويؤخذ منه مكس السلطان الا أن الامير جمال الدين يوسف الاستادار زاد فيما كان يؤخذ من الصيادين مكسا ومن حينئذ قل السمك بالقاهرة وغلا سعره وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس في تاريخ مصر ان صنما كان بالاسكندرية يقال له شراحيل على حشفة من حشاف البحر مستقبلا باصبع من كفه قسطنطينية لايدرى أكان مما عمله سليمان النبي أم عمله الاسكندر فكانت الحيتان تدور بالاسكندرية وتصاد عنده فيما زعموا قال زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أخبرني أبي عن أبيه انه انبطح على بطنه ومديديه ورجليه فكان طوله طول قدم الصنم فكتب رجل يقال له أسامة بن زيد كان عاملا على مصر للوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين أن عندنا بالاسكندرية صنما يقال له شراحيل من نحاس وقد غلت علينا الفلوس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزله ويضربه فلوسا فعل وان رأى غير ذلك فليكتب الي من أمره فكتب اليه لاتنزله حتى أبعث اليك ضمناء يحضرونه فبعث اليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فضربه فلوسا فانطلقت الحيتان فلم ترجع الى ماهنالك * وأما الزكاة فان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أول من جباها بمصر قال القاضى الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة ثالث عشر ربيع الآخر فرقت الزكوات بعدما جمعت على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين بعد أن رفع الى بيت المال السهام الاربعة وهي سهام العاملين والمؤلفة وفي سبيل الله وفي الرقاب وقررت لهم فريضة واستودى على الاموال والبضائع وعلى ما يتقرر عليه من المواشي والنخل والخضراوات قال والذى انعقد

عليه ارتفاع الجوالي لسنة سبع وثمانين وخمسمائة ثلاثون ألف دينار والزائد في معاملة الزكاة و دار الضرب لسنتي ست وسبع وثمانين وخمسمائة أحد وعشرون ألف دينار وثمانمائة وأحد وستون دينارا وقال في سنة ثمان وثمانين واستخدم ابن حمد ان في ديوان الزكاة وكتب خطه بما مبلغه اثنان وخمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة وجعل الطواشي قراغش الشاد في هذا المال وأن لايتصرف فيه بل يكون في صندوق ،ودعا للمهمات التي يؤمر بها ولما قدم ابن عنين الشاعر من عند الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب ابن شادي ملك اليمن الى مصر وقد أجزل صلته عندما وفد عليه وفارقه وقد أثرى ثراء كثيرا قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ماقدم به من المتجر وطالبوه بزكاة مامعه وكان ذلك في أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي فقال

ما كل من يتسمى بالعزيز لها * أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين فرق في فعالهما * هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقه

ثم ان العزيز كشف عما يستأدى من الزكاة فانه انتهى اليه فيها أقوال شنيعة منها انه أخذ من رجل فقير يبيع الملح في قفة على رأسه زكاة عما في القفة وأنه بيع جمل بخمسة دنانير ذهب فأخذ زكاتها خمسة دراهم فأمر بتفويض أمرها الى أرباب الاموال ومن وجب عليه حق ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب أخرج من زكاة الاموال التي كانت تجبى من الناس سهمي الفقراء والمساكين وأمر بصرفهما في مصارفهما الشرعية ورتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء والصلحاء وأهل الخير تجرى عليهم فاستحسن ذلك من فعله وحمله الى ديوان الزكاة قبل منه ومن لم يحمل لا يتعرض اليه فبخل الاغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرر الفقراء والمساكين وأخذ السعاة يبذلون في ضمانها الاموال لتعود الى ما كانت عليه فولي النظر في ديوان الزكاة القاضي الاسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مماتي فاستخرج الزكاة من أربابها ثم ضمنت بمال كثير وعاد الامر فيها الى ما كان عليه من العسف والجور وكانت أعوان متولي الزكاة يخرج الى منية ابن خصيب واخميم وقوص لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم فيبحثون عن جميع ما معهم ويدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال ويحلفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم وما عندهم غير ما وجدوه وتقوم طائفة من مردة هذه الاعوان وبأيديهم المسال الطوال ذوات الانصبة فيصعدون الى المراكب ويجسون بمسالهم جميع ما فيها من الاحمال والغرائر مخافة أن يكون فيها شيء من بضاعة أو مال فيبالغون في البحث والاستقصاء بحيث يقبح ويستشنع فعلهم ويقف الحجاج بين يدى هؤلاء الاعوان مواقف خزى ومهانة لما يصدر منهم عند تفتيش اوساطهم وغرائر أزوادهم ويحل بهم من العسف وسوء المعاملة مالا يوصف

وكذلك يفعل في جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب * وأما الثغور فهي دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب واسوان والاسكندرية وهي أعظمها قدرا فانه كان فيها عدة جهات منها الخمس والمتجر فالخمس مايستأدى من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضي ما صولحوا عليه وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون دينارا وربما انحط عن عشرين دينارا ويسمى كلاهما خمسا ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ولذلك ضرائب مقررة وقال القاضي الفاضل والحاصل من خمس الاسكندرية في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ثمانية وعشرون ألف دينار وستمائة وثلاثة عشر دينارا والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو اليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة * قال جامع سيرة الوزير اليازوري وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعين وأربعمائة ولم يكن في مخازن الغلات شئ فاشتدت المسغبة بمصر وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك وهو أن الوزير الناصر للدين لما اضيف اليه القضاء في أيام أبي البركات الوزير كان يبتاع للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف درهم وتجعل متجرا فمثل القاضي بحضرة الخليفة المستنصر بالله وعرفه أن المتجر الذي يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن في المخازن وتتلف وأنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغيره في المخازن ولا انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك فأمضى السلطان له مارآه واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس فوسعوا فيه مدة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر وآخر من عمله الظاهر برقوق * وأما الشب فان معادنه بالصعيد وكانت عادة الديوان الانفاق في تحصيل القنطار منه بالليثي يبلغ ثلاثين درهما وكانت العربان تحضره من معادنه الى ساحل اخميم وسيوط البهنسا ليحمل الى الاسكندرية أيام النيل في الخليج ويشترى بالقنطار الليثي ويباع بالقنطار الجروي فيباع منه على تجار الروم قدر اثني عشر ألف قنطار بالجروي بسعر أربعة دنانير كل قنطار الى ستة دنانير ويباع منه بمصر على اللبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروي سعر ستة دنانير ونصف القنطار ولا يقدر احد على ابتياعه من العربان ولا غيرهم فان عثر على أحد أنه اشترى منه شيأ أو باعه سوى الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه وقد بطل هذا * (وأما النطرون) فيوجد في البر الغربي من أرض مصر بناحية الطرانة وهو أحمر وأخضر ويوجد منه بالفاقوسية شئ دون ما يوجد في الطرانة وهو أيضاً مما حظر عليه ابن مدبر من الاشياء التي كانت مباحة وجعله في ديوان السلطان وكان من بعده على ذلك الى اليوم وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه في كل سنة عشرة آلاف قنطار ويعطى الضمان منها في كل سنة قدر ثلاثين قنطارا يتسلمونها

من الطرانة فتباع في مصر بالقنطار المصرى وفي بحر الشرق والصعيد بالجروى وفي دمياط بالليثي قال القاضى الفاضل وباب النطرون كان مضمونا الى آخر سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفا وخمسمائة دينار وحصل منه في سنة ست وثمانين مبلغ سبعة آلاف وثمانمائة دينار وأدركنا النطرون اقطاعا لعدة أجناد* فلما تولى الامير محمود بن على الاستادارية وصار مدبر الدولة فى أيام الظاهر برقوق حاز النطرون وجعل له مكانا لايباع في غيره وهو الى الآن على ذلك (وأما الحبس الجيوشي) فكان في البرين الشرقى والغربي ففي الشرقي بهتين والاميرية والمنية وكانت تسجل هذه النواحى بعين وفي الغربي سنطونها ووسيم وهذه النواحي حبسها أمير الجيوش بدر الجمالي على عقبه هي والبساتين ظاهر باب الفتوح فلما مات وطال العهد استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة ثم ادخلت فى الديوان قال ابن المأمون في تاريخه وجميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم لم تزل في مدة أيام الوزير المأمون البطائحي بأيديهم لم تخرج عنهم بضمان ولا بغيره فلما توفي الخليفة الآمر بأحكام الله وجلس أبو على بن الافضل بن أمير الجيوش في الوزارة أعاد الجميع الى الملاك ليكون نصيبه فى ذلك الاوفر فلما قتل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله أمر بالقبض على جميع الاملاك وحل الاحباس المختصة بأمير الجيوش فلم يزل يانس به لانه غلام الافضل والوزير في ذلك الوقت وعز الملك غلام الاوحد بن أمير الجيوش يتلطفان ويراجعان الخليفة مع الكتب التى أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء الى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم ثم ارتفعت الحوطة عنها في سنة سبع وعشرين وخمسمائة للديوان الحافظي ولما خدم الخطير والمرتضى في سنة احدى وثلاثين وخمسمائة في وزارة رضوان بن ولخشى أعاد البساتين خاصة دون البلاد على الورثة بحكم ما آل أمرها اليه من الاختلال ونقص الارتفاع ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة أفتي فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس فقبضت النواحي وصارت من جملة الاموال السلطانية فمنها ما هو اليوم في الديوان السلطاني ومنها ما صار وقفا ورزقا أحباسية وغير ذلك *(وأما دار الضرب) فكان بالقاهرة دار الضرب وبالاسكندرية دار الضرب وبقوص دار الضرب ولايتولى عيار دار الضرب الا قاضي القضاة أو من يستخلفه ثم رذلت فى زمننا حتي صار يليها منالمة فسقة اليهود المصرين على الفسق مع ادعائهم الاسلام وكان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره الى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة وكانت بمصر المعاملة بالورق فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب فى سنة بضع وعشرين وضرب الدرهم المدور الذى يقال له الكاملي وجعل فيه من النحاس قدر الثلث ومن الفضة الثلثين ولم يزل يضرب بالقاهرة الى أن أكثر الامير محمود الاستادار من ضرب الفلوس

بالقاهرة والاسكندرية فبطلت الدراهم من مصر وصارت معاملة أهلها الى اليوم بالفلوس وبها يقوم الذهب وسائر المبيعات وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر اسباب خراب مصر وكانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير فقل في زماننا لقلة الاموال ودار الضرب اليوم جارية في ديوان الخاص * (وأما دار العيار) فكانت مكانا يحتاط فيه للرعية وتصليح موازينهم ومكاييلهم به ويحصل منها للسلطان مال وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة وقد ذكرت في خطط القاهرة من هذا الكتاب * (وأما الاحكار) فانها اجر مقررة على ساحات بمصر والقاهرة فمنها ماصار دورا للسكني ومنها ما أنشئ بساتين وكانت تلك الاجر من جملة الاموال السلطانية وقد بطل ذلك من ديوان السلطان وصارت أحكار مصر والقاهرة وما بينهما أوقافا على جهات متعددة * (وأما الغروس) فكانت في الغربية فقط عدة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدان مقرر معلوم وقد بطل ذلك من الديوان * (وأما مقرر الجسور) فكان على كل ناحية تقرير بعدة قطع معلومة يجبى منها عن كل قطعة عشرة دنانير لتصرف في عمل الجسور فيفضل منها مال كثير يحمل الى بيت المال وقد بطل هذا أيضا وجدد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت في أسباب الخراب * (وأما موظف الاتبان) فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام قسم للديوان وقسم للمقطع وقسم للفلاح فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الاقاليم ويؤخذ في التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وسدس دينار فيحصل من ذلك مال كثير وقد بطل هذا أيضاً من الديوان * وأما الخراج) فانه كان في البهنساوية وسفط ريشين والاشمونين والاسيوطية والاخميمية والقوصية أشجار لاتحصى من سنط لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الاسطول فلا يقع منها الا ماتدعو الحاجة اليه وكان فيها ماتبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار * وكان يستخرج من هذه النواحي مال يقال له رسم الخراج ويحتج في جبايته بأنه نظير ماتقطعه أهل النواحي وتنتفع به من أخشاب السنط في عمائرها ومقرر آخر كان يجبي منهم يعرف بمقرر السنط فيصرف من هذا المقرر أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار وعلى المستخدمين في ذلك أن لايقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الاسطول لكنهم انما يقطعون الاطراف التي ينتفع بها في الوقود فقط ويقال لهذا الذى يقطع حطب النار فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ويكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم فاذا وردت المراكب بالحطب الى ساحل مصر اعتبرت عليهم وقوبل ما فيها بما عين في الرسالة الواردة واستخرج الثمن على مافي الرسالة وكانت العادة أنه لايباع مما في البهنسا الا مافضل عن احتياج المصالح السلطانية وقد بطل هذا جميعه واستولت الايدى على تلك الاشجار فلم يبق منها شئ البتة ونسى هذا من

الديوان *(وأما القرظ) فانه ثمر شجر السنط وكان لايتصرف فيه الا الديوان ومتى وجد منه مع أحدشيء اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ماوجد معه منه فاذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع ويؤخذ من ثمنها الربع عند ما تصل الى ساحل مصر بعد ماتقوم أو ينادى عليها وكان فيها حيف كبير وقد بطل ذلك * (وأما مايتأدى من أهل الذمة) فانه كان يؤخذ منهم عما يرد ويصدر معهم من البضائع في مصر والاسكندرية وأخميم خاصة دون بقية البلاد ضرائب بتقرير في الديوان وقد بطل ذلك أيضا *(وأما مقرر الجاموس ومقرر بقر الخيس ومقرر الاغنام)* فانه كان للسلطان من هذه الاصناف شيء كثير جدا فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب في نظير مايتحصل منه في كل سنة من خمسة دنانير الى ثلاثة دنانير ومن اللاحق بحق النصف من الراتب وأقل ماتنتج كل مائة خمسون الى غير ذلك من ضرائب مقررة على الجاموس وعلى أبقار الخيس وعلى الغنم البيض والغنم الشمارى وعلى النحل وقد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان واعراضه عن العمارة وأسبابها وتعاطي أسباب الخراب *(وأما المواريث)* فانها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من أجل أن مذهبهم توريث ذوى الارحام وأن البنت اذا انفردت استحقت المال بأجمعه فلما انقضت أيامهم واستولت الايوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية وهي التي يستحقها بيت المال عند عدم الوارث فتعدل فيها الوزارة مرة وتظلم أخرى (وأما المكوس) فقد تقدم حدوثها وما كان من الملوك فيها والذى بقي منها الى الآن بديار مصر يلي أمره الوزير وفي الحقيقة انما هو نفع للاقباط يتخولون فيه بغير حق وقد تضاعفت المكوس فى زمننا عما كنا نعهده منذ عهد تحدث الامير جمال الدين يوسف الاستادار فى الاموال السلطانية كما ذكر في أسباب الخراب *(وأما البراطيل)* وهي الاموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك فى ولاة النواحي فقط ثم بطل وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانا وعمله الامير شيخون في الولاة فقط ثم أفحش فيه الظاهر برقوق كما يأتى فى أسباب الخراب (وأما الحمايات والمستأجرات) فشيء حدث في أيام الناصر فرج وصار لذلك ديوان ومباشرون وعمل مثل ذلك الامراء وهو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر فى موضعه ان شاء الله تعالى

ذكر الاهرام

اعلم ان الاهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدا منها بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار هدمت فى أيام السلطان

صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش وبني بها قلعة الجبل والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة وأعظم الاهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف الناس في وقت بنائها واسم بانيها والسبب في بنائها وقالوا في ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح وسأقص عليك من نبا ذلك مايشفي ويكفي ان شاء الله تعالى * قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب في أخبار مصر وعجائبها في أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هو صال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون في مدينة أمسوس الآتي ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب وهو الذي بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين الى شداد بن عاد والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة قد رأى سوريد في منامه كأن الارض انقلبت بأهلها وكأن الناس قد هربوا على وجوههم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا باصوات هائلة فغمه ذلك ولم يذكره لاحد وعلم أنه سيحدث في العالم أمر عظيم ثم رأى بعد ذلك بايام كأن الكواكب الثابتة نزلت الى الارض في صور طيور بيض وكأنها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين وكان الجبلين قد انطبقا عليهم وكأن الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة فانتبه مرعوبا مذعورا ودخل الى هيكل الشمس وتضرع ومرغ خديه على التراب وبكى فلما أصبح جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر وكانوا مائة وثلاثين كاهنا فخلا بهم وحدثهم ما رآه أولا وآخر فأولوه بأمر عظيم يحدث في العالم فقال عظيم الكهان ويقال له أقليمون ان أحلام الملوك لاتجرى على محال لعظم أقدارهم وأنا أخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة ولم أذكرها لاحد من الناس رأيت كأني قاعد مع الملك على وسط المنار الذي بامسوس وكأن الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب رؤسنا وكان علينا كالقبة المحيطة بنا وكأن الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها قد خالطتها في صور شتى مختلفة الاشكال وكأن الناس قد جفلوا الى قصر الملك وهم يستغيثون به وكأن الملك قد رفع يديه حتى بلغتا رأسه وأمرني أن أفعل كما فعل ونحن على وجل شديد اذ رأينا منها موضعا قد انفتح وخرج منه نور مضيء وطلعت علينا منه الشمس وكأنا استغثنا بالشمس فخاطبتنا أن الفلك سيعود الى موضعه فانتبهت مرعوبا ثم نمت فرأيت كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها والاصنام تهوى على رؤسها وكأن أناسا نزلوا من السماء بأيديهم مقامع من حديد يضربون الناس بها فقلت لهم ولم تفعلون بالناس كذا قالوا لانهم كفروا بالههم قلت فما بقى لهم من خلاص قالوا نعم من أراد الخلاص فليلحق بصاحب السفينة فانتبهت مرعوبا فقال الملك خذوا الارتفاع للكواكب وانظروا هل من حادث فبلغوا غايتهم في استقصاء ذلك وأخبروا بأمر الطوفان وبعده بالنار التي تخرج من برج الأسد

تحرق العالم فقال الملك انظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا فقالوا نعم تأتي في الطوفان على أكثره ويلحقه خراب يقيم عدة سنين قال فانظروا هل يعود عامرا كما كان أو يبقى مغمورا بالماء دائما قالوا بل تعـود البلاد كما كانت وتعمر قال ثم ماذا قالوا يقصدها ملك يقتل أهلها ويغنم مالها قال ثم ماذا قالوا يقصدها قوم مشوهون من ناحية جبل النيل ويملكون أكثرها قال ثم ماذا قالوا ينقطع نيلها وتخلو من أهلها فأمر عنـد ذلك بعمل الاهرام وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل الى مكان بعينه ثم يفيض الى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وأصناما وأجساد ملوكهـم وأمر الكهان فزبروا عليها جميع ماقالته الحكماء وزبر فيها وفي سقوفهـا وحيطانها وأسطواناتها جميع العـلوم الغامضة التي يدعيها أهل مصر وصور فيها صور الكواكب كلها وزبر عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها وعلم الطلسمات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسرا لمن يعرف كتابتهم ولغتهم * ولما شرع في بنائها أمر بقطع الاسطوانات العظيمة ونشر البلاط الهائل واستخراج الرصاص من أرض المغرب واحضار الصخور من ناحية أسوان فبني بها أساس الاهرام الثلاثة الشرقي والغربي والملون وكانت لهم صحائف وعليها كتابة اذاقطع الحجر وتم احكامه وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم ثم يعاودون ذلك حتى يصل الحجر الى الاهرام وكانوا يمدون البلاطة ويجعلون في ثقب بوسطها قطبـا من حديد قائما ثم يركبون عليها بلاطة أخرى مثقوبة الوسط ويدخلون القطب فيها ثم يذاب الرصاص ويصب في القطب حول البلاطة بهندام واتقان الى أن كملت وجعل لها أبوابا تحت الارض بأربعين ذراعا فأما باب الهرم الشرقى فانه من الناحية الشرقية على مقدار مائة ذراع من وسط حائط الهرم وأما باب الهرم الغربي فانه من الناحية الغربية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط وأما باب الهرم الملون فانه من الناحية الجنوبية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط فاذا حفر بعـد هـذا القياس وصل الى باب الازج المبني ويدخل الى باب الهرم وجعل ارتفاع كل واحد من الاهرام في الهواء مائة ذراع بالذراع الملكي وهو بذراعهـم خمسمائه ذراع بذراعنا الآن وجعل طول كل واحد من جميع جهاته مائة ذراع بذراعهم ثم هندسها من كل جانب حتى تحددت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا وكان ابتداء بنائها في طالع سعيد اجتمعوا عليه وتخيروه فلما فرغت كساها ديباجا ملونا من فوقها الى أسفلها وعمل لها عيـدا حضره أهل مملكته بأجمعهـم ثم عمل في الهرم الغربي ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملون وملئت بالاموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر من السلاح الذى لا يصدأ والزجاج الذي ينطوى ولا ينكسر والطلسمات الغريبة وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة والسموم القاتلة وعمل في

الهرم الشرقي أصناف القباب الفلكية والكواكب وما عمله أجداده من التماثيل والدخن التي يتقرب بها الى الكواكب ومصاحفها وكون الكواكب الثابتة وما يحدث في ادوارها وقتاوقتاوماعمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت والاوقات التي ينتظر فيهامايحدث وكل من يلي مصر الى آخر الزمان وجعل فيها المطاهر التى فيها المياه المدبرة وما أشبه ذلك وجعل فى الهرم الملون أجساد الكهنة في توابيت من صوان اسود ومع كل كاهن مصحف فيه عجائب صناعاته وأعماله وسيرته وما عمل في وقته وما كان وما يكون من أول الزمان الى آخره وجعل في الحيطان من كل جانب أصناما تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها وصفة كل صنعة وعلاجها ومايصلح لها ولم يترك علما من العلوم حتي زبره ورسمه وجعل فيها اموال الكواكب التي أهديت الى الكواكب وأموال الكهنة وهو شئ عظيم لا يحصى وجعل لكل هرم منها خادما فخادم الهرم الغربي صنم من حجارة صوان مجزع وهو واقف ومعه شبه حربة وعلى رأسه حية قد تطوق بهـا من قرب منه وثبت اليه وطوقت على عنقه وقتلته ثم تعود الى مكانها وجعل خادم الهرم الشرقي صنما من جزع أسود مجزع بأسود وأبيض له عينان مفتوحتان براقتان وهو جالس على كرسى ومعه حربة اذا نظر أحد اليه سمع من جهته صوتا يفزع منه فيخر على وجهه ولا يبرح حتي يموت وجعل خادم الهرم الملون صنما من حجر البهت على قاعدة منه من نظر اليه جذبه حتي يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت فلما فرغ من ذلك حصن الاهـرام بالارواح الروحانية وذبح لهـا الذبائح لتمنع عن انفسهامن ارادها الا من عمل لها اعمال الوصول اليها * وذكر القبط في كتبهم أن عليها منقوشا تفسيره بالعربية اناسوريد الملك بنيت هـذه الاهرام في وقت كذا وكذا وأتممت بناءها في ست سنين فمن أتى بعدى وزعم انه ملك مثلي فليهدمها في ستمائة سنة وقد علم أن الهدم أيسر من البنيان واني كسوتها عند فراغها بالديباج فليكسها بالحصر فنظروا فوجدوا انه لا يقوم بهدمها شئ من الازمان الطوال * وحكي القبط في كتبهم أن روحانية الهرم الشمالى غلام امرد أصفر اللون عريان في فمه أنياب كبار وروحانية الهرم الجنوبى امرأة عريانة بادية الفرج حسناء في فمها أنياب كبار تستهوى الانسان اذا رأته وتضحك له حتي يدنو منها فتسلبه عقله وروحانيـة الهرم الملون شيخ في يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها وقد رأى غير واحد من الناس هذه الروحانيات مرارا وهي تطوف حول الاهرام وقت القائلة وعند غروب الشمس قال ولما مات سوريد دفن في الهرم ومعه أمواله وكنوزه وقالت القبط ان سوريد هو الذى بني البرابي وأودع فيها كنوزا وزبر عليها علوما ووكل بها روحانيات تحفظها ممن يقصدها قال وأما الاهرام الدهشورية فيقال ان شدات بن عديم هو الذى بناها من الحجارة التي كانت قد قطعت فى زمن ابيه وشدات هذا يزعم بعض الناس

أنه شداد بن عاد وقال من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر انما غلطوا باسم شدات بن عديم فقالوا شداد بن عاد لكثرة مايجرى على ألسنتهم شداد بن عاد وقلة ما يجرى على السنتهم شدات بن عديم والا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوى على أهلها غير بخت نصر والله أعلم * وذكر أبو الحسن المسعودي فى كتابه أخبار الزمان ومن أباده الحدثان أن الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد لما قدم مصر وأتى على الاهرام أحب أن يهدم احدها ليعلم مافيها فقيل له انك لا تقدر على ذلك فقال لا بد من فتح شئ منه ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد وخل يرش ومعاول وحدادين يعملون فيها حتى أنفق عليها اموالا عظيمة فوجدوا عرض الحائط قريبـا من عشرين ذراعا فلما انتهوا الى آخر الحائط وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب وزن كل دينار أوقية وكان عددها ألف دينار فجعل المامون يتعجب من ذلك الذهب ومن جودته ثم أمر بجملة ما أنفق على الثلمة فوجدوا الذهب الذي أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه ولا ينقص فعجب من معرفتهم بمقدار ما ينفق عليه ومن تركهم ما يوازيه فى الموضع عجبا عظيما وقيل ان المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد فأمر المأمون بحملها الى خزانته وكان آخر ماعمل من عجائب مصر وأقام الناس سنين يقصدونه وينزلون فيه الزلاقة التى فيه فمنهم من يسلم ومنهم من يهلك فاتفق عشرون من الاحداث على دخوله وأعدوا لذلك ما يحتاجون من طعام وشراب وحبال وشمع ونحوه ونزلوا في الزلاقة فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالعقبان يضرب وجوههم ثم انهم أدلوا أحدهم بالحبال فانطبق عليه المكان وحاولوا جذبه حتى اعياهم فسمعوا صوتا أرعبهم فغشى عليهم ثم قاموا وخرجوا من الهرم فبينماهم جلوس يتعجبون مما وقع لهم اذ أخرجت الارض صاحبهم حيا من بين أيديهم يتكلم بكلام لم يعرفوه ثم سقط ميتا فحملوه ومضوا به فاخذهم الخفراء واتوا بهم الى الوالى فحدثوه خبرهم ثم سألوا عن الكلام الذى قال صاحبهم قبل موته فقيل لهم معناه هذا جزاء من طلب ما ليس له وكان الذى فسر لهم معناه بعض أهل الصعيد * وقال على بن رضوان الطبيب فكرت فى بناء الاهرام فأوجب علم الهندسة العملية ورفع الثقيل الى فوق أن يكون القوم هندسوا سطحا مربعا ونحتوا الحجارة ذكرا وانثى ورصوها بالجبس البحرى الى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للمربع الاسفل مربعـا أصغر من المربع السفلاني ثم عملوا فى السطح المربع الفوقاني مربعـا أصغر بمقدار ما بقى في الحاشية ما يمكن رفع الثقيل اليه وكلما رفعوا حجرا مهندما رصوه اليه ذكرا وانثى الى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الاول ولم يزالوا يفعلون ذلك الى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقيل ونزلوا

في النحت من فوق الى أسفل وصار الجميع هرما واحدا * وقياس الهرم الاول بالذراع التي تقاس بها اليوم الابنية بمصر كل حاشية منه أربعمائة ذراع يكون بالذراع السوداء التي طول كل ذراع منها أربعة وعشرون أصبعا خمسمائة ذراع وذلك أن قاعدته مربع متساوى الاضلاع والزوايا ضلعان منهما على خط نصف النهار وضلعان على خط المشرق والمغرب وكل ضلع بالذراع السوداء خمسمائة ذراع والخط المنحدر على استقامة من رأس الهرم الى نصف ضلع المربع اربعمائة وسبعون ذراعا يكون اذا تم أيضا خمسمائة ذراع وأحيط بالهرم اربع مثلثات ومربع كل مثلث منها متساوى الساقين كل ساق منه اذا تم خمسمائة وستون ذراعا والمثلثات الاربعة تجتمع رؤسها عند نقطة واحدة وهى رأس الهرم اذا تم فيلزم أن يكون عموده اربعمائة وثلاثين ذراعا وعلى هذا العمود مراكز أثقاله ويكون تكسير كل مثلث من مثلثاته مائة وخمسة وعشرين ألف ذراع اذا اجتمع تكاسيرها كان مبلغ تكسير سطح هذا الهرم خمسمائة ألف ذراع بالسوداء وما أحسب على وجه الارض بناء اعظم منه ولا أحسن هندسة ولا اطول والله أعلم* وقد فتح المامون نقبا من هذا الهرم فوجد فيه زلاقة تصعد الى بيت مربع مكعب ووجد في سطحه قبر رخام وهو باق فيه الى اليوم ولم يقدر أحد يخطه وبذلك أخبر جالينوس أنها قبور فقال في آخر الخامسة من تدبير الصحة بهذا اللفظ وهم يسمون من كان في هذا السن الهرم وهو اسم مشتق من الاهرام التى هم اليها صائرون عن قريب وقال الحوقلي في صفة مصر وبها الهرمان اللذان ليس على وجه الارض لهما نظير في ملك مسلم ولا كافر ولا عمل ولا يعمل لهما وقرأ بعض بنى العباس على أحدها اني قد بنيتهما فمن كان يدعى قوة في ملكه فليهدمهما فالهدم ايسر من البنيان فهم بذلك وأظنه المامون أو المعتصم فاذا خراج مصر لا يقوم به يومئذ *وكان خراجها على عهده بالانصاف في الجباية وتوخي الرفق بالرعية والمعدلة اذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا وعشر اصابع أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار والمقبوض على الفدان دينارين فأعرض عن ذلك ولم يعد فيه شيأ* وفى حد الفسطاط فى غربى النيل ابنية عظام يكثر عددها مفترشة في سائر الصعيد تدعي الاهرام وليست كالهرمين اللذين تجاه الفسطاط وعلى فرسخين منها ارتفاع كل واحد منهما أربعمائة ذراع وعرضه كارتفاعه مبنى بحجارة الكدان التى سمك الحجر وطوله وعرضه من العشر اذرع الى الثمان بحسب ما دعت الحاجة الى وضعه فى زيادته ونقصه وأوجبته الهندسة عندهم لانهما كلما ارتفعا فى البناء ضاقا حتي يصير اعلاها من كل واحد منهما مثل مبرك جمل وقد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية وقد ذكر قوم أنهما قبران وليس كذلك وانما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الارض الا ما حصن في مثلهما تخزن ذخائره وأمواله

فيهما وأتى الطوفان ثم نضب فصار ما كان فيهما الى بيصر بن مصرايم بن حام بن نوح وقد خزن فيهما بعض الملوك المتاخرين وجعلهما هراءه والله أعلم * وقال أبو يعقوب محمد بن اسحاق النديم الوراق في كتاب الفهرست وقد ذكر هرمس البابلي قد اختلف في أمره فقيل انه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة وأنه كان لترتيب عطارد وباسمه سمى فان عطارد باللغة الكلدانية هرمس وقيل انه انتقل الى أرض مصر بأسباب وانه ملكها وكان له أولاد منهم طاوصا وأشمن وأتريب وقفط وأنه كان حكيم زمانه وانه لما توفي دفن في البناء الذى يعرف بمدينة مصر بأبى هرميس ويعرفه العامة بالهرمين فان أحدهما قبره والآخر قبر زوجته وقيل قبر ابنه الذى خلفه بعد موته وهذه البنية يعنى الاهرام طولها بالذراع الهاشمى أربعمائة ذراع وثمانون ذراعا على مساحة أربعمائة وثمانين ذراعا ثم ينخرط البناء فاذا حصل الانسان في رأسه كان مقدار سطحه أربعين ذراعا هذا بالهندسة وفي وسط هذا السطح قبة لطيفة في وسطها شبيهة بالمقبرة وعند رأس ذلك القبر صخرتان في نهاية النظافة والحسن وكثرة التلون وعلى كل واحدة منهما شخصان من حجارة صورة ذكر وانثى وقد تلاقيا بوجهيهما وبيد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة وبيد الانثى مرآة والرف ذهب نقشه نقاش وبين الصخرتين برنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب فلما قلع فاذا فيها شبيه بالقار بغير رائحة قد يبس وفيها حقة ذهب فنزع رأسها فاذا فيها دم عبيط ساعة قرعه الهواء جمد كما يجمد الدم وجف وعلى القبور اغطية حجارة فلما قلعت اذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة والجفاف بين الخلقة ظاهر الشعور والى جنبه امرأة على هيئته قال وذلك السطح منقر نحو قامة كما يدور مثل المسمار ذات آزاج من حجارة فيها صور وتماثيل مطروحة وقائمة وغير ذلك من الآلة التي لا تعرف أشكالها * وقال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبى العز يوسف بن أبى البركات محمد ابن على بن سعد البغدادى المعروف بابن المطحن في سيرته وجاء رجل جاهل مجمى تخيل الى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب فاخرج اليه الحجارين وأكثر العسكر وأخذوا في هدمه وأقاموا على ذلك شهورا ثم تركوه عن عجز وخسران مبين في المال والعقل ومن يرى حجارة الهرم يقول انه قد استوصل الهرم ومن يرى الهرم لا يجد به الا تشعيثا يسيرا وقد أشرفت على الحجارين فقلت لمقدمهم هل تقدرون على اعادته فقال لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكنا ذلك * وقال أبو الحسن المسعودى فى مروج الذهب وأما الاهرام فطولها عظيم وبنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات بأقلام الامم السالفة والممالك الدائرة لا يدرى ما تلك الكتابة ولا المراد بها وقد قال من عنى بتقدير ذرعها ان مقدار ارتفاع الهرم الكبير ذهابا فى الجو نحو أربعمائة ذراع أو أكثر

وكلما صعد دق ذلك والعرض نحو ما وصفنا وعليها من الرسوم علوم وخواص وسحر وأسرار الطبيعة وأن من تلك الكتابة مكتوبا انا بنيناها فمن يدعي موازاتنا في الملك وبلوغ القدرة وانتهاء أمر السلطان فليهدمها وليزل رسمها فان الهدم أيسر من البناء والتفريق اسهل من التأليف * وقد ذكر أن بعض ملوك الاسلام شرع يهدم بعضها فاذا خراج مصر لايفي بقلعها وهي من الحجر والرخام وأنها قبور للملوك وكان الملك منهم اذا مات وضع في حوض من حجارة ويسمى بمصر والشام الجرون واطبق عليه ثم بني من الهرم على مقدار ما يريدون من ارتفاع الاساس ثم يحمل الحوض ويوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان ثم يرفعون البناء على المقدار الذي يرونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريق في الارض ويعقد أزج طوله تحت الارض مائة ذراع أو أكثر ولكل هرم من هذه الاهرام باب مدخله على ما وصفت قال وكان القوم يبنون الهرم من هذه الاهرام مدرجا ذا مراق كالدرج فاذا فرغوا نحتوه من فوق الى أسفل فهذه كانت حيلتهم وكانوا مع ذلك لهم قوة وصبر وطاعة * وقال في كتاب البنية والاشراف والهرمان اللذان في الجانب الغربي من فسطاط مصر هما من عجائب بنيان العالم كل واحد منهما أربعمائة ذراع في سمك مثل ذلك مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الاربع كل ركن من أركانهما يقابل ريحا منها فأعظمها فيهما تأثيرا ريح الجنوب وهي المريسي وأحد هذين الهرمين قبر أغاذيمون والآخر قبر هرمس وبينهما نحو ألف سنة وأغاذيمون المتقدم وكان سكان مصر وهم الاقباط يعتقدون نبوتهما قبل ظهور النصرانية فيهم على مايوجبه رأي الصابئين في النبوات لاعلى طريق الوحي بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت وتهذبت من أدناس هذا العالم فاتحدت بهم مواد علوية فاخبروا عن الكائنات قبل كونها وعن سرائر العالم وغير ذلك وفي العرب من اليمانية من يرى أنهما قبر شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم وهي عند من ذكرنا من الصابئين قبور أجساد طاهرة * وذكر أبو زيد البلخي أنه وجد مكتوبا على الاهرام بكتابتهم خط فعرب فاذا هو بني هذان الهرمان والنسر الواقع في السرطان فحسبوا من ذلك الوقت الى الهجرة النبوية فاذا هو ست وثلاثون ألف سنة شمسية مرتين يكون اثنتين وسبعين ألف سنة شمسية * وقال الهمداني في كتاب الاكليل لم يوجد مما كان تحت الماء وقت الغرق من القرى قرية فيها بقية سوى نهاوند وجدت كما هي اليوم لم تتغير واهرام الصعيد من أرض مصر * وذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم القيسي في كتاب تحفة الالباب أن الاهرام مربعة الجملة مثلثة الوجوه وعددها ثمانية عشر هرما في مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة اهرام اكبرها دوره الفا ذراع في كل وجه خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع وكل حجر من حجارتهما

ثلاثون ذراعا في غلظ عشرة أذرع قد أحكم الصاقه ونحته ومنها عند مدينة فرعون يوسف هرم أعظم واكبر دوره ثلاثة آلاف ذراع وعلوه سبعمائة من حجارة كل حجر خمسون ذراعا وعندمدينةفرعون موسي أهرام اكبر واعظم وهرمآخر يعرف بهرم مدون كأنه جبل وهو خمس طبقات وفتح المامون الهرم الكبير الذى تجاه الفسطاط قال وقد دخلت فى داخله فرأيت قبة مربعة الاسفل مدورة الاعلى كبيرة في وسطها بئر عمقها عشرة أذرع وهي مربعة ينزل الانسان فيها فيجد في كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى الى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم اكفان كثيرة اكثر من مائة ثوب على كل واحد قد بليت بطول الزمان واسودت وأجسامهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض وأجسادهم قوية لايقدر الانسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالقنا لطول الزمان وفى تلك البئر أربعة من الدور مملوءة باجساد الموتى وفيها خفاش كثير وكانوا يدفنون أيضا جميع الحيوان فى الرمال ولقد وجدت ثيابا ملفوفة كثيرا مقدار جرمها اكثر من ذراع وقد احترقت تلك الثياب من القدم فازلت الثياب الى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب فيها أعلام من الحرير الاحمر وفي داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه ولا من جسده شيء كأنه قد مات الآن * وفي القبة التي في الهرم باب يفضي الى علو الهرم وليس فيه درج عرضه نحو خمسة أشبار يقال انه صعد فيها في زمان المأمون فأفضوا الى قبة صغيرة فيها صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج فاخرجت الى المامون فاذا هي مطبقة فلما فتحت وجد فيها جسد آدمي عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر وعلى صدره نصل سيف لاقيمة له وعند رأسه حجرياقوت أحمر كبيضة الدجاجة يضيء كلهب النار فأخذه المامون * وقد رأيت الصنم الذي أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر في سنة احدى عشرة وخمسمائة * وقال القاضى الجليل أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى روى على بن الحسن بن خلف بن قديد عن يحيى بن عثمان بن صالح عن محمد بن على بن صخر التميمي قال حدثني رجل من عجم مصر من قرية من قراها تدعي قفط وكان عالما بأمور مصر وأحوالها وطالبا لكتبها القديمة ومعادنها قال وجدنا في كتبنا القديمة قال وأما الاهرام فان قوما احتفروا قبرا فى دير أبي هرميس فوجدوا فيه ميتا فى اكفانه وعلى صدره قرطاس ملفوف فى خرق فاستخرجوه من الخرق فرأوا كتابا لا يعرفونه وكان الكتاب بالقبطية الاولى فطلبوا من يقرأه لهم فلم يقدروا عليه فقيل لهم ان بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرأه فخرجوا اليه وقد ظنوا انه فى الصحيفة فقرأ لهم وكان فيه كتب هذا الكتاب في أول سنة من ملك ديقلطيانس الملك وانا استنسخناه من كتاب نسخ في اول سنة من ملك فيلبش الملك وان فيلبش استنسخه

من صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا وكان من الكتاب الاول ترجمه له اخوان من القبط يقال لاحدهما ايلو والآخر يرنا وان الملك فيلبش سألهما عن سبب معرفتهما بما جهله الناس من قراءته فذكرا أنهما من ولد رجل من اهل مصر الاوائل لم ينج من الطوفان من أهل مصر أحد غيره وكان سبب نجاته انه أتى نوحا عليه السلام فآمن به ولم يأته من أهل مصر غيره فحمله معه فى السفينة فلما نضب ماء الطوفان أتى مصر ومعه نفر من ولد حام بن نوح وكان بها حتى هلك فورث ولده علم كتاب أهل مصر الاول فورثناه عنه كابرا عن كابر وكان تاريخه الذى مضى الى أن استنسخه فيلبش ألفا وثلثمائة واثنتين وسبعين سنة وان الذى استنسخه في صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا على ما وجده فيلبش وان تاريخه الى أن استنسخه ألف وسبعمائة سنة وخمس وثمانون سنة * وكان الكتاب المنسوخ انا نظرنا فيما تدل عليه النجوم فرأينا أن آفة نازلة من السماء وخارجة من الارض فلما بان لنا الكون نظرنا ماهو فوجدناه ماء مفسدا للارض وحيوانها ونباتها فلما تم اليقين من ذلك عندنا قلنا لملكنا سوريد بن سهلوق مر ببناء افروشات وقبر لك وقبر لاهل بيتك فبني لهم الهرم الشرقى وبنى لاخيه هوجيت الهرم الغربى وبني لابن هوجيت الهرم الملون وبنيت افروشات في أسفل مصر واعلاها فكتبنا في حيطانها علم غامض أمر النجوم وعللها والصنعة والهندسة والطب وغير ذلك مما ينفع ويضر ملخصا مفسرا لمن عرف كلامنا وكتابتنا وان هذه الآفة نازلة باقطار العالم وذلك عند نزول قلب الاسد فى أول دقيقة من رأس السرطان ويكون الكوكب عند نزوله اياها في هذه المواضع من الفلك الشمس والقمر فى اول دقيقة من رأس الحمل وقوريس في درجة وثمان وعشرين دقيقة من الحمل وراويس في الحوت فى تسع وعشرين درجة وثمان وعشرين دقيقة وآويس في الحوت فى تسع وعشرين درجة وثلاث دقائق وافرد وبطن فى الحوت في ثمان وعشرين درجة ودقائق وهرمس في الحوت فى سبع وعشروين ودقائق والجوزهر فى الميزان واوج القمر في الاسد فى خمس درجات ودقائق* ثم نظرنا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر بالعالم فأصبنا الكواكب تدل على أن آفة نازلة من السماء الى الأرض وانها ضد الآفة الاولى وهى نار محرقة اقطار العالم ثم نظرنا متى يكون هذا الكون المضر فرأيناه يكون عند حلول قلب الاسد في آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشر من الاسد ويكون ايليس معه فى دقيقة واحدة متصله بقوريس من تثليث الرامى ويكون راويس مشترى في أول الاسد في آخر احتراقه ومعه آويس فى دقيقة ويكون سليس فى الدلو مقابلا لايليس الشمس ومعه الذنب فى اثنتين وعشرين ويكون كسوف شديد له مكث يوازى القمر ويكون هرمس عطارد في بعده الا بعد أمامها مقبلين أما أفرد وبطن فللاستقامة وأما هرمس فللرجعة * قال الملك فهل عندكم من خبر توقفونا عليه غير هاتين الآفتين قالوا

اذا قطع قلب الاسد ثلثى سدس ادواره لم يبق من حيوان الارض متحرك الاتلف. فاذا استتم ادواره تحللت عقد الفلك وسقط على الارض قال لهم وأى يوم فيه انحلال الفلك قالوا اليوم الثانى من بدو حركة الفلك فهذا ما كان في القرطاس* فلما مات الملك سوريد ابن سهلوق دفن فى الهرم الشرقي ودفن هوجيت في الهرم الغربي ودفن كرورس في الهرم لذى أسفله من حجارة اسوان واعلاه كدان * ولهذه الاهرام أبواب فى ازج تحت الارض طول كل ازج مائة وخمسون ذراعا * فأما باب الهرم الشرقي فمن الناحية البحرية وأما باب ازج الهرم الموزر فمن الناحية القبلية * وفي الاهرام من الذهب وحجارة الزمرذ مالا يحتمله الوصف * وان مترجم هذا الكتاب من القبطى الى العربي أجمل التاريخين الى أول يوم من توت وهو يوم الاحد طلوع شمسه سنة خمس وعشرين ومائتين من سنى العرب فبلغت أربعة آلاف وثلثمائة واحدى وعشرين سنة لسنى الشمس ثم نظركم مضى للطوفان الى يومه هذا فوجده ألفا وسبعمائة واحدى وأربعين سنة وتسعة وخمسين يوما وثلاث عشرة ساعة وأربعة أخماس ساعة وتسعة وخمسين جزأ من أربعمائة جزء من ساعة فألقاها من الجملة فبقى معه ثلثمائة وتسع وتسعون سنة ومائتان وخمسة أيام وعشرساعات وأحد وعشرون جزأ من أربعمائة جزء من ساعة فعلم أن هذا الكتاب المؤرخ كتب قبل الطوفان بهذه السنين والايام والساعات والكسر من الساعة * وأما الهرم الذى بدير أبي هرميس فانه قبرقرياس وكان فارس أهل مصر وكان يعد بألف فارس فاذا لقيهم لم يقوموا به وانهزموا وانه مات فجزع الملك عليه جزعا بلغ منه واكتأبت لموته الرعية فدفنوه بدير هرميس وبنوا عليه الهرم مدرجا وكان طينه الذى بنى به مع الحجارة من الفيوم وهذا معروف اذا نظر الى طينه لم يعرف له معدن الا بالفيوم وليس بمنف ووسيم له شبه من الطين * وأما قبر الملك صاحب قرياس هذا فانه الهرم الكبير من الاهرام التي فى بحرى دير أبي هرميس وعلى بابه لوح كدان مكتوب فيه باللازورد طول اللوح ذراعان فى ذراع وكله مملوء كتبا مثل كتب البرابى يصعد الى باب الهرم بدرج بعضها صحيح لم يخرم وفي هذا الهرم ذخائر صاحبه من الذهب وحجارة الزمرذ وانما سد بابه حجارة سقطت من اعاليه ومن وقف عليه رآه بينا * وقال ابن عفير عن اشياخه ان جياد بن مياد بن شمر بن شداد بن عاد بن عوص بن ارم ابن سام بن نوح عليه السلام ملك الاسكندرية وكانت تسمى ارم ذات العماد فطال ملكه وبلغ ثلثمائة سنة وهو الذى سار وبنى الاهرام وزبر فيها أنا جياد بن مياد بن شمر بن شداد الشاد بزراعة الواد المؤيد الاوتاد الجامع الصخر فى البلاد المجند الاجناد النساء ب العماد الكند الكناد تخرجه أمة اسم نبيها حماد آية ذلك اذا غشى بلد البلاد سبعة ملوك أجناس السواد تاريخ هذا الزبر ألف سنة وأربعمائة سنة عداد * وقال ابن عفير وابن عبد

الحكم وفى زمان شداد بن عاد بنيت الاهرام فيما ذكر بعض المحدثين ولم نجد عند أحد من أهل العلم من أهل مصر معرفة في الاهرام ولاخبر ثبت * وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ما أحسب الاهرام بنيت الا قبل الطوفان لانها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس * وقال عبد الله بن شبرمة الجرهمى لما نزلت العماليق أرض مصر حين اخرجها جرهم من مكة بنت الاهرام واتخذت لها المصانع وبنت فيها العجائب ولم تزل بمصر حتي أخرجها مالك بن دعر الخزاعى * وقال محمد بن عبدالحكم كان من وراء الاهرام الى المغرب أربعمائة مدينة سوي القرى من مصر الى المغرب في غربى الاهرام * وقال ابن عفير ولم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون الاهرام بناها شداد بن عاد وهو الذى بنى المغار وجند الاجناد فالمغار والاجناد هى الدفائن وكانوا يقولون بالرجعة واذا مات احدهم دفن معه ماله كائنا ما كان وان كان صانعا دفن معه آلة صنعته وكانت الصابئة تحج الى الاهرام* وقال أبو الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية والفرس والمجوس تنكر الطوفان وأقربه بعض الفرس لكنهم قالوا كان بالشام والمغرب منه شيء في زمان طمهورث ولكنه لم يعم العمران كله ولم يتجاوز عقبة حلوان ولم يبلغ ممالك الشرق وأن أهل المغرب لما انذربه حكماؤهم بنوا ابنية كالهرمين بمصر ليدخلوها عند الآفة وأن آثار ماء الطوفان وتأثيرات الامواج كانت بينة على انصاف الهرمين لم تتجاوزهما انتهى ويقال ان الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوي نها وند وجدت كما هى واهرام مصروبرابيها وهى التي بناها هرميس الاول الذى تسميه العرب ادريس وكان قد الهمه الله علم النجوم فدلته على أنه سينزل بالارض آفة وانه سيبقى بقية من العالم يحتاجون فيها الى علم فبني هو وأهل عصره الاهرام والبرابى وكتب علمه فيها * وقال أبو الصلت الاندلسى فى رسالته وقد ذكر أخلاق أهل مصر الا انه يظهر من أمرهم انه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم وخصوصا علم الهندسة والنجوم ويدل على ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالاهرام والبرابي فانها من الآثار التى حيرت الاذهان الثاقبة واستعجزت الافكار الراجحة وتركت لها شغلا بالتعجب منها والتفكر فيها وفى مثلها يقول أبو العلاء احمد بن سليمان المعرى من قصيدته التي يرثي بها اباه

تضل العقول الهبرزيات رشدها * ولا يسلم الرأي القويم من الافن
وقد كان أرباب الفصاحة كلما * رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وأى شيء أعجب وأغرب بعد مقدورات الله عز وجل ومصنوعاته من القدرة على بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة مربع القاعدة مخروط الشكل ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع وتسعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الاضلاع طول كل ضلع

منها أربعمائة ذراع وستون وهو مع العظم من احكام الصنعة واتقان الهندام وحسن التقدير بحيث لم يتأثر الى هلم جرا بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي على ماشاهدناه منهما وقد ذكرت عجائب مصر وان ما على وجه الارض بنية الا وأنا أرثي لها من الليل والنهار الا الهرمان فأنا أرثي لليل والنهار منهما وهذان الهرمان لهما اشراف على أرض مصر واطلال على بطائحها واصعاد في جوفها وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبي بقوله شعر

اين الذى الهرمان من بنيانه * ماقومه ما يومه ما المصرع
تخلف الآثار عن سكانها * حينا ويدركها الفناء فتتبع

واتفق يوما أنا خرجنا اليهما فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما كثر التعجب منهما فقال بعضنا

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا * على طول ما أبصرت من هرمي مصر
انافا عنانا للسماء وأشرفا * على الجو اشراف السماك أو النسر
وقد وافيا نشزا من الارض عاليا * كأنهما نهدان قاما على صدر

وزعم قوم ان الاهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور* ولما وصل الخليفة المأمون الى مصر أمر بنقبها فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد وعناء طويل فوجدوا داخله مهاوي ومراقي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعبا طول كل ضلع من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع وفي وسطه حوض رخام مطبق فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية قد أتت عليها العصور الخالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ماسواه ويقال ان النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة *ومن الناس من زعم أن هرمس الاول المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة وهو الذى تسميه العبرانيون خنوخ بن برد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام وهو ادريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الارض فأكثر من بنيان الاهرام وايداعها الاموال وصحائف العلوم وما يشفق عليه من الذهاب والدروس حفظا لها واحتياطا عليها ويقال ان الذى بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق وقال آخرون أن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شداد بن عاد لرؤيا رآها والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر وتحقق أن بانيها سوريد لرؤيا رآها وهي أن آفة تنزل من السماء وهي الطوفان وقالوا انه بناهما في مدة ستة أشهر وغشاهما بالديباج الملون وكتب عليهما قد بنيناهما فى ستة أشهر قل لمن يأتي من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة فالهدم ايسر من البنيان وكسوناهما الديباج الملون فليكسهما حصرا فالحصر أهون من

الديباج ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من اعلاها الى اسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها لا تعرف اليوم احرفها ولا تفهم معانيها وبالجملة الامر فيها عجيب حتى ان غاية الوصف لها والاغراق فى العبارة عنها وعن حقيقة الموصوف منها بخلاف ماقاله على بن العباس الرومى وان تباعد الموصوفان وتباين المقصودان اذ يقول

اذا ما وصفت امرأ لامرئ * فلا تغل في وصفه واقصد

فانك ان تغل تبد الظنون * فيه الى الغرض الابعد

فيصغر من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

ويقال ان المأمون أمر من صعد الهرم الكبير أن يدلي حبلا فكان طوله ألف ذراع بالذراع الملكي وهو ذراع وخمسان وتربيعه أربعمائة ذراع في مثلها وكان صعوده في ثلاث ساعات من النهار وانه وجد مقدار رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال *ويقال انه وجد على المقبور في الهرم حلة قد بليت ولم يبق منها سوى سلوكها من الذهب وأن ثخانة الطلاء الذي عليه قدر شبر من مر وصبر * ويقال انه وجد في موضع من هذا الهرم ايوان في صدره ثلاثة أبواب على ثلاثة بيوت طول كل باب منها عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع من رخام منحوت محكم الهندام وعلى صفحاته خط أزرق لم يحسنوا قراءته وانهم أقاموا ثلاثة أيام يعملون الحيلة فى فتح هذه الابواب الى أن رأوا أمامها على عشرة أذرع منها ثلاثة أعمدة من مرمر وفي كل عمود خرق في طوله وفي وسط الخرق صورة طائر ففي الاول من هذه العمد صورة حمام من حجر أخضر وفي الاوسط صورة بازى من حجر أصفر وفي العمود الثالث صورة ديك من حجر أحمر فحركوا البازي فتحرك الباب الاول الذى في مقابلته فرفعوا البازى قليلا فارتفع الباب وكان بحيث لا يرفعه مائة رجل من عظمه فرفعوا التمثالين الآخرين فارتفع البابان الآخران فدخلوا الى البيت الاوسط فوجدوا فيه ثلاثة سرر من حجارة شفافة مضيئة وعليها ثلاثة من الاموات على كل ميت ثلاث حلل وعند رأسه مصحف بخط مجهول ووجدوا في البيت الآخر عدة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة فيها أوان من الذهب عجيبة الصنعة مرصعة بأنواع الجواهر ووجدوا في البيت الثالث عدة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة فيها آلات الحرب وعدد السلاح فقيس منها سيف فكان طوله سبعة أشبار وكل درع من تلك الدروع اثنا عشر شبرا فأمر المأمون بحمل ماوجد في البيوت وأمر فحطت العمد فانطبقت الابواب كما كانت * ويقال كانت عدة الاهرام ثمانية عشر هرما منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة أكبرها دوره ألفا ذراع وهو مربع في كل وجه من وجوهه الاربعة خمسمائة ذراع ويقال ان المأمون لما فتحه وجد فيه حوضا من حجر مغطى بلوح من رخام وهو مملوء بالذهب وعلى اللوح مكتوب

بقلم عرب فكان انا عمرنا هذا الهرم في ألف يوم وأبحنا لمن يهدمه في ألف سنة والهدم أسهل من العمارة وكسونا جميعه بالديباج وأبحنا لمن يكسوه الحصر والحصر أيسر من الديباج وجعلنا في كل جهة من جهاته مالا بقدر ما يصرف على الوصول اليه فأمر المأمون أن يحسب ما صرف على النقب فبلغ قدر ماوجد في الحوض من غير زيادة ولا نقص * ويقال انه وجد فيه صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج فيها طبق كالدواة ففتح فاذا فيه جسد آدمى عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر وعلى صدره نصل سيف لاقيمة له وعند رأسه حجر من ياقوت أحمر في قدر بيضة الدجاجة فأخذه المأمون وقال هـذا خير من خراج الذهب * وذكر بعض مؤرخي مصر أن هذا الصنم الاخضر الذى وجدت الرمة فيه لم يزل معلقا عند دار الملك بمدينة مصر الى سـنة احدى عشرة وستمائة من سنى الهجرة * وكان عند مدينة فرعون هرمان وعند ميدوم هرم وهذا آخرها * وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة من سنى الهجرة ظهر بتربة بوصير من ناحيـة الجـيزة بيت هرميس ففتحه القـاضي ابن الشهرزوري وأخذ منه أشياء من جملتها كباش وقرود وضفادع من حجر بازهر وقوارير من دهنج وأصنام من نحاس * وقال ابن جرداويه من عجيب البنيان أن الهرمين بمصر سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع وكلما ارتفع دق وهما من رخام ومرمر والطول أربعمائة ذراع في عرض أربعمائة ذراع مكتـوب عليهما باليـد كل سحر وكل عجيب من الطب ومكتـوب عليهما اني بنيتهما فمن يدعي قوة في ملكه فليهدمهما فان الهدم أيسر من البناء فاعتـبر ذلك فاذا خرج الدنيا لا يفي بهدمهما * وقال في كتاب عجائب البنيان عن الاهرام قد انفردت مصر بهذه الاشكال فليس لها بغـيرها تمثال يظنهما الناظر للديار المصرية نهدين ويحسبهما القـابل أن مكارم أهلها قد أعدتهما للتكرم أبلوجين تراهما العين على بعد المسافة واذا حـدثت عن عجائبهما يظن انه حديث خرافه وقد أكثر الناس في ذكر الاهرام ووصفها ومسـاحتها وهي كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة على سمت مصر القديمة تمتد نحوا من مسـافة ثلاثة أيام وفي بوصـير منها شئ كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين وبعضها لبن وأكثرها حجر وبعضهـا مدرج وأكثرهـا مخروط أملس * وقد كان منها بالجيزة عدد كثير كلها صغار هدمت في زمن السلطان صـلاح الدين يوسف ابن أيوب على يد الطواشي بهاء الدين قراقوش أخذ حجـارتها وبنى بها القناطر في الجيزة وقد بقى من هـذه الاهرام المهدومة تلها وأما الاهرام المتحدث عنها فهى ثلاثة اهرام موضوعة على خط مسـتقيم بالجـيزة قبالة الفسطاط وبينها مسافات كثيرة وزوايا متقابلة نحو الشرق واثنان عظيمان جداً في قدر واحد وهما متقاربان ومبنيان بالحجارة البيض وأما الثالث فصغير عنهما نحو الربع لـكنه مبني بحجارة الصوان الاحمر المنقط الشديد القـوة

والصلابة ولا يكاد يؤثر فيه الحديد الا في الزمان الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينك فاذا أتيت اليه وأفردته بالنظر هالك مرآه وحير النظر في تأمله * وقد سلك في بناء الاهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على مر الايام .لا بل على ممرها صبر الزمان فانك اذا تأملتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ماعندها والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثالا في غاية امكانها حتى انها تكاد تحدث عن قوة قومها وتخبر عن سيرتهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم وذلك أن وضعها على شكل مخروط ويبتدئ من قاعدة مربعة وينتهي الى نقطة * ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض وليس له جهة اخرى يتساقط عليها * ومن عجيب وضعه أنه أشكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان الريح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية وليست كذلك عند ما تلقى السطح * وذكر المساح أن قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربعمائة ذراع بالذراع السوداء وينقطع المخروط في أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع في مثلها وذكر أن بعض الرماة رمى سهما في قطر أحدهما وفي سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة وذكر أن ذرع سطحها احد عشر ذراعا بذراع اليد وفي أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضي بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك على ما يحكيه من يلجه وأن أناسا كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه فيتوغلون في أعماقه ولا بد أن ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه * وأما المسلوك المطروق كثيرا فزلاقة تفضي الى اعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناوس من حجر وهذا المدخل ليس هو الباب في أصل البناء وانما هو منقوب نقبا صادف اتفاقا وذكر أن المأمون فتحه * وحكي من دخله وصعد الى البيت الذي في أعلاه فلما نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوه وانه مملوء بالخفافيش وأبوالها وتعظم فيه حتى تكون قدر الحمام وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه كأنها عملت مسالك للريح ومنافذ للضوء بحجارة جافية طول الحجر منها من عشرة أذرع الى عشرين ذراعا وسمكه من ذراعين الى ثلاثة أذرع وعرضه نحو ذلك * والعجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس في الامكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة وبينهما طين لونه الزرقة لا يدرى ماهو ولا صفته وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم يوجد بديار مصر من يزعم أنه سمع من يعرفه وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما عليها الى صحف لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة وقرأت في بعض كتب الصابئة القديمة ان أحد هذين الهرمين قبر أغاذيمون والآخر قبر هرمس ويزعمون أنهما بيتان

عظيمان وأن أعاديمون أقدم وأعظم وانه كان يحج اليهما ويهدى اليهما من اقطار البلاد * وكان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الاهرام فبدأ بالصغير الاحمر فأخرج اليه النقابين والحجارين وجماة من أمراء دولته وعظماء مملكته وأمرهم بهدمه فخيموا عنده وحشروا الرجال والصناع ووفروا عليهم النفقات وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد الجهد واستفراغ بذل الوسع الحجر والحجرين فقوم من فوق يدفعونه بالاسافين وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان فاذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف الجبال وتزلزل الارض ويغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه ويضربون فيه بالاسافين بعد ماينقبون لها موضعا ويثبتونها فيه فيتقطع قطعا وتسحب كل قطعة على العجل حتى يلقى في ذيل الجبل وهى مسافة قريبة فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهت عزائمهم كفوا محسورين لم ينالوا بغية بل شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ومع ذلك فان الرائي لحجارة الهرم يظن أنه قد استؤصل فاذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شئ وانما سقط بعض جانب منه وحين ماشوهدت المشقة التي يجدونها فى هدم كل حجر سئل مقدم الحجارين فقيل له لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردوا حجرا واحدا الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم فأقسم بالله انهم ليعجزون عنه ولو بذل لهم أضعاف ذلك * وبازاء الاهرام مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الاغوار لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكبرها وسعتها وبعدها ويظهر من حالها انها مقاطع حجارة الاهرام * وأما مقاطع حجارة الهرم الاحمر فيقال انها بالقلزم وباسوان وعند هذه الاهرام آثار أبنية جبابرة ومغاير كثيرة منقبة وقلما ترى من ذلك شيئاً الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول ولله در الفقيه عمارة اليمني حيث يقول

خليلي ما تحت السماء بنية * تماثل في اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما * على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها * ولم يتنزه في المراد بها فكرى

أخذ هذا من قول بعض الحكماء كل شئ يخشى عليه من الدهر الا الاهرام فانه يخشى على الدهر منها وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر بن الحاجب ومات في سنة سبع وثمانين وثلثمائة

أنظر الى الهرمين اذ برزا * للعين في علو وفى صعد
وكأنما الارض العريضة قد * ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة * تدعو الاله لفرقة الولد

فأجابها بالنيل يشبعها * ريا وينقذها من الكمد
لكرامة المولى المقيم بها * خير الانام مقوم الاود

وقال سيف الدين بن جبارة

لله أى عجيبة وغريبة * في صنعة الاهرام للالباب
أخفت عن الاسماع قصة أهلها * ونضت عن الابداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة * من غير ما عمد ولا أطناب

وقال آخر أنظر الى الهرمين واسمع منهما * ما يرويان عن الزمان الغابر
وانظر الى سر الليالى فيهما * نظرا بعين القلب لا بالناظر
لو ينطقان لخبرانا بالذى * فعل الزمان بأول وبآخر
واذا هما بديا لعيني ناظر * وصفا له أذني جواد عاثر

وقال الامام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى

ألست ترى الاهرام دام بناؤها * ويفني لدينا العالم الانس والجن
كأن رحي الافلاك أكوارها على * قواعدها الاهرام والعالم الطحن

وقال قد كان للماضين من * سكان مصر همم * فالفضل عنهم فضلة * والعلم فيهم علم
ثم انقضت أعلامهم * وعلمهم واحتطموا * وانظر تراها ظاهرا * بادعليها الهرم

وقال خليلي لاباق على الحدثان * من الاول الباقى فيحدث ثاني
الى هرمي مصر تناهت قوى الورى * وقد هرمت في دهرها الهرمان
فلا تعجبا أن قد هرمت فانما * رماني بفقد ان الشباب زماني
وعوجا بقرطا جنة فانظرا بها * جنايتى العادين تنتحبان
وايوان كسرى فانظراه فانه * يخبر كما بالصدق كل أوان
فلا تحسبا أن الفناء يخصني * ألا كل ما فوق البسيطة فاني

ووجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحي بن أبي حجلة التلمسانى أنشدنى القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى لنفسه فى الاهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة وأجاد

أمبانى الاهرام كم من واعظ * صدع القلوب ولم يفه بلسانه
اذ كرني قولا تقادم عهده * أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن * تمتد فوق الارض عن كيوانه
لو أن كسرى جالس في سفحها * لأجل مجلسه على ايوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده * مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس في احراقها والريح عند * هبوبها والسيل في جريانه

هل عابد قد خصها بعبادة * فبناني الاهرام من أوثانه
أو قائل يقضي برجعي نفسه * من بعد فرقته الى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه * قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد * يختار راصدها أعز مكانه
أو أنها وصفت شؤون كواكب * احكام فرس الدهر أو يونانه
او أنهم نقشوا على حيطانها * علما يحار الفكر في تبيانه
في قلب رائيها ليعلم نقشها * فكر يعض عليه طرف بنانه

ذكر الصنم الذي يقال له أبو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا ببلهيب وتقول اهل مصر اليوم أبو الهول * قال القضاعي صنم الهرمين وهو بلهوبه صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط تسميه العامة بابي الهول ويقال بلهيب ويقال انه طاسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزة * وقال في كتاب عجائب البنيان وعند الاهرام رأس وعنق بارزة من الارض في غاية العظم تسميه الناس أبا الهول ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الارض ويقتضي القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا وفي وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كانه يضحك تبسما * وسئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى فقال تناسب وجه أبي الهول فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة فان انف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الانف لرجل كان مشوها وكذلك انف الرجل لو كان لصبي لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار ما هيته بالقياس الى الصورة وعلى نسبتها والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ التناسب للاعضاء مع عظمها وانه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه * ويقابلا في بر مصر قريبا من دار الملك صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب الاعضاء كما وصف وفي حجره مولود وعلى رأسه ماجور الجميع صوان ماتع يزعم الناس أنه امرأة وانها سرية أبي الهول المذكور وهي بدرب منسوب اليها ويقال لو وضع على رأس أبي الهول خيط ومد الي سريته لكان على رأسها مستقيما ويقال ان أبا الهول طاسم الرمل يمنعه عن النيل وان السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر * وقال ابن المتوج زقاق الصنم هو الزقاق الشارع أوله باول السوق الكبير بجوار درب عمار ويعرف الصنم بسرية فرعون وذكر أنه طاسم النيل لئلا يغلب على البلد وقيل ان بلهيب الذي عند الاهرام يقابله وان ظهر بلهيب الى الرمل وظهر هذا الى النيل وكل منهما مستقبل الشرق وقد نزل في سنة احدى عشرة وسبعمائة امير

يعرف بـلاط في نفر من الحجارين والقطاعين وكسروا الصنم المعروف بالسرية وقطعوه أعتابا وقواعد ظنا أن يكون تحته مال فلم يوجـد سوى أعتاب من حجر عظيمة فحفر تحتها الى الماء فلم يوجد شيء وجعل من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التي بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف بالجامع الجديد الناصرى وأزيل عين هذا الصنم من مكانه والله أعـلم * وفي زمننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء قام في نحو من سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير اشياء من المنكرات وسار الى الاهرام وشوه وجه ابي الهول وشعثه فهو على ذلك الى اليوم ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة واهل تلك النواحي يرون ان سبب غلبة الرمل على الاراضي فساد وجه أبي الهول ولله عاقبة الامور وما أحسن قول ظافر الحداد

تأمل هيئة الهرمين واعجب * وبينهما ابو الهول العجيب
كعمارتين على رحيـل * بمحبوبين بينهمـا رقيب
وماء النيـل تحتهمـا دموع * وصوت الريح عندهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب * تخلف فهو محزون كئيب

ويقال ان اتريب بن قبط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح أوصى أخاه صا عند موته أن يحمله في سفينة ويدفنه بجزيرة في وسط البحر فلما مات فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر فاتهمه الناس بقتل اتريب وحاربوه تسع سنين فلما مضى من حربهم خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أتريب فحفروه فلم يجدوا به شيأ وقد نقلته الشياطين الى موضع أبي الهول ودفنته هناك بجانب قبر أبيه وجده بيصر فازدادوا له تهمة وعادوا الى مدينة منف وتحاربوا فأتاهم ابليس فدلهم على قبر اتريب حيث نقله فأخرجوه من قبره ووضعوه على سرير فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به وسجدوا له وعبدوه فيما عبدوا من الاصنام وقتلوا صا ودفنوه على شاطئ النيل فكان النيل اذا زاد لا يعلو قبره فافتتن به طائفة وقالوا قد قتل صا ظلما وصاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لاتريب فعمد آخرون الى حجر فنحتوه على صورة اشموم وكان يقال له أبو الهول ونصبوه بين الهرمين وجعلوا يسجدون له فصار أهل مصر ثلاث فرق ولم تزل الصابئة تعظم أبا الهول وتقرب له الديكة البيض وتبخره بالصندروس

ذكر الجبال

اعلم ان أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب الى الشمال قليلي الارتفاع وأحدهما أعظم من الآخر والاعظم منهما هو الجبل الشرقي المعروف بجبـل لوقا والغربي جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض والمسافة بينهما تضيق في بعض المواضع وتتسع في بعضها

وأوسع مايكون بأسفل أرض مصر وهذان الجبلان أقرعان لاينبت فيهما نبات كما يكون في جبال البلدان الاخر وعلة ذلك انهما بورقيان مالحان لان قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة في التكوين ولان قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب وكذلك مياه الآبار منهما مالحة وهذان الجبلان يجففان مايدفن فيهما فان أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار * وجبل لوقا في مشرق أرض مصر يعوق عنها ريح الصبا فعدمت مصر هذا الريح ويعوق أيضا اشراق الشمس على أرض مصر اذا كانت على الافق وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الاقاليم فيطل على الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم

ذكر الجبل المقطم

اعلم أن الجبل المقطم أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط ويمر على بلاد الططر حتى يأتي فرغانة الى جبال اليتم الممتد بها نهر السغد الى أن يصل الجبل الى جيحون فيقطعه ويمضي في وسطه بين شعبتين منه وكانه قطع ثم في وسطه ويستمر الجبل الى الجورجان ويأخذ على الطالقان الى أعمال مروالرود الى طوس فيكون جميع مدن طوس فيه ويتصل به جبال أصبهان وشيراز الى أن يصل الى البحر الهندي وينعطف هذا الجبل ويمتد الى شهرزور فيمر على الدجلة ويتصل بجبل الجودي موقف سفينة نوح عليه السلام في الطوفان ولا يزال هذا الجبل مستمراً من أعمال آمدوميا فارقين حتى يمر بثغور حلب فيسمى هناك جبل اللكام الى أن يعدي الثغور فيسمى نهرا حتى يجاوز حمص فيسمى لبنان ثم يمتد على الشام حتى ينتهي الى بحر القلزم من جهة ويتصل من الجهة الاخرى ويسمى المقطم ثم يتشعب ويتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب ويقال انه عرف بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام * وجبل المقطم يمر على جانبي النيل الى النوبة ويعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب الى أرض مقراوة ويمضي مغربا الى سجلماسة ومنها الى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر * وقال ابراهيم بن وصيف شاه وذكر مجيء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح الى أرض مصر وكشف أصحاب اقليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم التي هي بخط البرابي وآثارهم والمعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك ووصفوا لهم عمل الصنعة يعني الكيمياء فجعل مصرايم أمرها الى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقي فسمي به المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء واختصر من اسمه وبقي مايدل عليه فقيل له جبل المقطم يعني جبل مقيطام الحكيم وقال البكري رحمة الله تعالى عليه المقطم بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها جبل متصل بمصر يوارون فيه موتاهم وقال القضاعي المقطم ذكر أبو عبد الله اليمني ان هذا الجبل نسب الى المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح وكان عبداً

صالحاً فانفرد بعبادة الله عز وجل فيه فسمي الجبل باسمه وليس هذا بصحيح لانه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم * والذي ذكره العلماء أن المقطم مأخوذ من القطم وهو القطع فكأنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمي مقطما ذكر ذلك علي بن الحسن الهنائي الدوسي المنبوذ بكراع وغيره * وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى الله عنه قال سأل المقوقس عمرو بن العاص رضى الله عنه أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار وفي نسخة بعشرين ألف دينار فعجب عمرو من ذلك وقال أكتب بذلك الى أمير المؤمنين فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تزرع ولا يستنبط بها ماء فسأله فقال انا لنجد صفتها في الكتب أن فيها غراس الجنة فكتب بذلك الى عمر فكتب اليه انا لا نعلم غراس الجنة الا المؤمنين فاقبر فيها من مات قبلك من المؤمنين ولا تبعه بشئ فكان أول من قبر فيها رجلا من المعافر يقال له عامر فقيل عمرت فقال المقوقس لعمرو وما ذلك وما على هذا عاهدتنا فقطع لهم الحد الذي بين المقبرة وبينهم * وذكر عمر بن أبي عمر الكندي في فضائل مصر أن عمرو بن العاص رضى الله عنه سار في سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس فقال له ما بال جبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام فلو شققنا في أسفله نهراً من النيل وغرسناه نخلا فقال المقوقس وجدنا في الكتب انه كان أكثر الجبال أشجاراً ونباتاً وفاكهة وكان منزل المقطم ابن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام فلما كانت الليلة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام أوحى الله الى الجبال اني مكلم نبياً من أنبيائي على جبل منكم فسمت الجبال كلها وتشامخت الا جبل بيت المقدس فانه هبط وتصاغر فأوحي الله اليه لم فعلت ذلك وهو به أخبر فقال اعظاماً واجلالا لك يارب قال فأمر الله سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقي كما ترى فأوحي الله اليه اني معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غراس الجنة فكتب بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه اني لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين فاجعله لهم مقبرة ففعل فغضب المقوقس من ذلك وقال لعمرو ما على هذا صالحتني فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى قال وروي أن موسى عليه السلام سجد فسجد معه كل شجرة من المقطم الى طرا * وروى أنه مكتوب واذا فتح مقدسي يريد وادي مسجد موسى عليه السلام بالمقطم عند مقطع الحجارة فان موسى عليه السلام كان يناجي ربه بذلك الوادي * وروى أسد بن موسى قال شهدت جنازة مع موسى ابن لهيعة فجلسنا حوله فرفع رأسه فنظر الى الجبل فقال ان عيسى بن مريم عليه السلام مرّ بسفح هذا الجبل وعليه جبة صوف وقد شد وسطه بشريط وأمه الى جانبه فالتفت

اليها وقال يا أمه هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وروى عبد الله بن لهيعة عن عياش ابن عباس أن كعب الاخبار رضى الله عنه سأل رجلا يريد مصر فقال له أهدنى تربة من سفح مقطمها فأتاه منه بجراب فلما حضرت كعباً الوفاة أمر به فجعل في لحده تحت جثته * وروى عن كعب انه سئل عن جبل مصر فقال انه لمقـدس مابين القصير الى اليحموم قال ابن لهيعة والمقطم مابين القصير الى مقطع الحجارة وما بعـد ذلك فمن اليحموم وفي هـذا الجبل حجر الجوهر وشيء من الفولاذ وهو يمتد الى أقاصى بلاد السودان

الجبل الاحمر

. هذا الجبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالي ويعرف باليحموم قال القضاعي اليحاميم هي الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقي وجبابها وتنتهى هذه الجبال الى بعض طرق الجب وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها واليحموم في كلام العرب الاسود المظلم * وقال ابن عبد الحـكم عن سعي بن عبيد انه لما قدم مصر وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبي عون التي في العسكر فقال مالهم وضعوا مصلاهم في الجبل الملعون وتركوا الجبل المقدس يعني المقطم * وقال ابن عبد الظاهر الجبل الاحمر ذكر القضاعى أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره * وقال البكري اليحموم بفتح اوله واسكان ثانيه قال الحربي اليحموم جبل بمصر * وروى من طريق أبي قبيل عن عبد الله بن عمر وأنه سأل كعبا عن المقطم أملعون قال ليس بملعون ولـكنه مقدس من القصير الى اليحموم * وذكر البكرى أيضا أن عابدا بالباء الموحدة والدال المهملة على وزن فاعل جبل بمصر قبل المقطم

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر عليه الجامع الطولوني قال القضاعي جبل يشكر هو يشكر بن جديلة من لخم وهو الذى عليه جامع ابن طولون ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل فعرف بجبل يشكر لذلك * قال ابن عبد الظاهر وجامع ابن طولون على جبل يشكر وهو مكان مشهور باجابة الدعاء ومكان مبارك وقيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات وكان هذا الجبل يشرف على النيل وليس بينه وبين النيل شيء وكان يشرف على البركتين أعني بركة الفيل والبركة التي تعرف اليوم ببركة قارون .وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التي تجرب قبل ارسالها الى الثغور * (الـكبش) هو جبل بجوار يشكر كان قديما يشرف على النيل من غربيه ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى وسمي الكبش * (الشرف) اسم لثلاثة مواضع فاثنان منها فيما بين القاهرة ومصر وواحد

فيما بين بركة الحبش وفسطاط مصر فاما الذي بظاهر القاهرة فأحدهما عليه الآن قلعة الجبل وهو من جملة الجبل المقطم والآخر فيما بين الجامع الطولوني ومصر فيشرف غربيه على جهة الخليج الكبير ويصير فيما بين كوم الجارح وخط الجامع الطولوني وكان من خطة تجيب ثم صار من جملة العسكر وأما الشرف الثالث فيعرف اليوم بالرصد وهو يشرف على راشدة وكان يقال للشرف سند والسند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح ويقال فلان سند أي معتمد

﴿ ذكر الرصد ﴾

هذا المكان شرف يطل من غربيه على راشدة ومن قبليه على بركة الحبش فيحسبه من رآه من جهة راشدة جبلا وهو من شرقيه سهل يتوصل اليه من القرافة بغير ارتقاء ولا صعود وهو محاذ للشرف الذى كان من جملة العسكر والشرف الذى يعرف اليوم بالكبش وكان يقال له قديما الجرف ثم عرف بالرصد من أجل أن الافضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي أقام فوقه كرة لرصد الكواكب فعرف من حينئذ بالرصد قال في كتاب عمل الرصد وحمل الى الافضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر من الشام تقاويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سني الهجرة قيل مائة تقويم أونحوها وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبي وابن الهيثمي وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم في كل سنة وكان كل منهم يجتهد في حسابه وما تصل قدرته اليه فاذا كان فى غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير فانكر ذلك فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند احضار التقاويم على العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب في الخلف بين التقاويم فقالوا الشامي يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأمونى ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمي لقرب عهده وبين المتقدم والمتاخر تفاوت وخلف وقد أجمع القدماء أن القريب العهد أصح من المتقدم لتنقل الكواكب وتغير الحساب وتحدثوا في معنى ذلك بما هو مذكور في موضعه وأشاروا عليه بعمل رصد مستجد يصحح به الحساب ويخرج به المعمور والتفاوت وتحصل به المنفعة العظيمة والفائدة الجليلة والسمعة الشريفة والذكر الباقي فقال من يتولى ذلك فقال صاحب دسته ومشيره الشيخ الاجل أبو الحسن ابن أبي أسامة هذا القاضي ابن أبي العيش الطرابلسي المهندس العالم الفاضل وكان ابن أبي العيش صهره زوج ابنته وهو شيخ كبير السن والقدر كثير المال وساعده على ذلك القائد أبو عبد الله الذي تقلد الوزارة بعد الافضل ودعي بالمأمون بن البطائحي فاستصوب الافضل ذلك وقال جرّوه يهتم بذلك ويستدعي مايحتاج اليه فكان أول مابدأ به لما حصل ذلك أن

مدح نفسه وكان الافضل غيورا على كل شيء أشد ماعليه من يفتخر أو يلبس ثيابا مذكورة ثم قال هذه الآلات عظيمة وخطرها جسيم ولا كل أحد يقوم عليها ولا يحسنها وأكثر الكلام والتوسعة وقال يحتاج أن الذى يتولى ذلك يعتمد معه الانعام والاكرام لتطيب نفسه للمباشرة وينشرح صدره ويقدح خاطره لما يعمل في حقه فضجر الافضل من ذلك وقال لقد أكثر في مدح نفسه ولدده وما يعاملنا بعد لاحاجة الى معاملته فأشار القائد بن البطائحي وقال هنا من يبلغ الغرض بأسهل مأخذ وأقرب وقت وأسرعه وألطف معنى أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح والسروج والصناعات وغير ذلك فأحضره للوقت فاتفق له من الحديث الحسن السهل وما سبب عمل الآلات ومن ابتدأها من الاول وذكر القدماء في العلم ومن رصد منهم واحدا واحدا الى آخرهم شرحا مستوفيا كانه يحفظه ظاهرا أو يقرأه من كتاب فأعجب الافضل والحاضرين وقال أى شيء تحتاج فقال ما أحتاج كبير أمر والامور سهلة وكل ما أحتاجه في خزائن السلطان خلد الله ملكه النحاس والرصاص والآلات وكل ما أحتاج أستدعيه أولا أولا الانفقات وأجرة الصناع فيتولاها غيرى فأعجب به وقال يطلق له جار لنفسه فقال أنا مستخدم في عدة خدم لجوارى تكفيني فأنا مملوك الدولة ما أحتاج الى جار واذا بلغت الغرض وأنهيت الاشغال فهو المقصود وكان قيل للافضل هذا الرصد يحتاج الى أموال عظيمة فقال كم تقول يحتاج اليه فقال ماينفق عليه الا مثل ماينفق على مسجد أو مستنظر فرجع يكرر عليه القول فقال هاتوا ورقة فكتب فيها المملوك يقبل الارض وينهى دعت الحاجة الى خروج الامر العالي الى دار الوكالة باطلاق مائتي قنطار من النحاس الشجر وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الاندلسى وأربعين قنطارا من النحاس الاحمر ومن الرصاص ألف قنطار ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج اليه ومن الاخشاب ومن النفقة مائة دينار على يد شاهد ينفق عليه فاذا فرغت أستدعى غيرها وأختار موضعا يصلح الرصد فيه ويكون العمل والصناعة فيه ومباشرة السلطان فيما يتوقف عليه وما يستأمر فيه فاستصوب الافضل جميع ذلك وأراد أن يخلع عليه فقال القائد هذا فيما بعد اذا شوهدت أعماله فخدم من اول الحال الى آخرها ولم يحصل له الدرهم الفرد لانه كان يستحي أن يطلب وهو مستخدم عندهم وكانوا بأجمعهم يؤملون طول المدة والبقاء فقتل الافضل ثاني سنة وتغيرت الاحوال ثم انهم اختاروا للرصد مسجد التنور فوق المقطم فوجدوه بعيدا عن الحوائج فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير وكان قد صرف على المسجد خاصة ستة آلاف دينار فحفروا في مسجد الفيلة نقرا في الجبل مكان الصهريج الآن فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة وقطرها عشرة اذرع ودورها ثلاثون ذراعا وهندموه وحرروه أياما وعمل حوله عشر هرج على كل هرجة منفاخان وفي كل هرجة

أحد عشر قنطارا نحاساوأقل وأكثروا لجميع مائة قنطار وكسر قسموها على الهرج وطرح فيها النار من العصر ونفخوا الى الثانية من النهار وحضر الافضل بكرة وجاس على كرسى فلما تهيأت الهرج ودارت أمر الافضل بفتحها وقد وقف على كل هرجة رجل وأمروا بفتحها في لحظة ففتحت وسال النحاس كالماء الى القالب وكان قد بقى فيه بعض النداوة فلما استقر به النحاس بحرارته تقعقع المكان الندى فلم تتم الحلقة ولما بردت وكشف عنها أذهى تامة ماخلا المكان الندى فضجر الافضل وضاق صدره ورمى الصناع بكيس فيه ألف درهم وغضب وزكب فلاطفه ابن قرقة وقال مثل هذه الآلة العظيمة التي ماسمع قط بمثلها لوأعيد سبكهاعشر مرات حتى تصح ماكان كثيرا فقال له الافضل اهتم فى اعادتها فسبكت وصحت ولم يحضر الافضل فى المرة الثانية ففرح بصحتها وعملت ورفعت الى سطح مسجد القيلة وأحضر لها جميع صناع النحاس وعمل لها بركار خشب من السنديان وهو بركار عجيب وبني في وسط الحلقة مسطبة حجارة منقبة لرجل البركار وهوقائم مثل عروس الطاحون وفيه ساعد مثل ناف الطاحون وقد لبس بالحديد والجميع سنديان جيد وطرف الساعد مهيأ لعدة فنون تارة لتصحيح وجه الحلقة وتارة لتعديل الاجناب وتارة للخطوط والحزوز وأقام في التصحيح فيها وأخذ زوائدها بالمبارد مدة طويلة وجماعة الصناع. والمهندسين وأرباب هذا العلم حاضرون واستدعي لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع وعقد تحت الحلقة أقباء وثيقة وأرادوا قيامها على سطح مسجد الفيلة فلم يتهيأ لهم فانهم وجدوا المشرق لاول بروزالشمس مسدودا فاتفقوا على نقلها الى المسجد الجيوشي مجاور الانطاكى المعروف أيضا بالرصد وكان الافضل بناه ألطف من جامع الفيلة ولم يكمل فلما صار برسم الرصد كمل فحضر الافضل في نقل الحلقة من جامع الفيلة الى المسجد الجيوشي وقد احضرت الصوارى الطوال العظام والسرياقات والمنجانات من الاسكندرية وغيرها وجمت الاسطولية ورجال السودان وبعض أصحاب الركاب والجند حتى أدلوه وحملوه على العجل الى مسجد الرصد الجيوشي وثاني يوم حضروا بأجمهم حتى رفعوه الى السطح وكملوه وأقاموا الحلقة وجعلوا تحت أكتافها عمودين من رخام سبكوهما بالرصاص من أسفلهما وأعلاهما حتى لايرتخي ثقل النحاس وجعل فى الوسط عمود رخام وبأعلاه قطب العضادة مسبوك بالنحاس الكثير لتدور عليه العضادة وعملت من نحاس فما تمارست ولا دارت فعملوها من خشب ساج وقطبها وأطرافها من نحاس صفائح ليخف الدوران ثم رصدوا بها الشمس بعد كلفة وكانت الحلقة ترخى الدرجة والدقائق كل وقت للثقل فعمل عمود من نحاس فوق عمود الرخام ليمسك رخوها وغلبوا بعد ذلك فكانت تختلف لشدة ما كانوا يحررونها بالشواقيل وعضادة الخشب وتردداليها الافضل مع كبر سنه وهو يرتعش والقائد يحمله الى فوق ويقعد زمانا من التعب لايتكلم ويده ترتعش

فرصدوا قدامه وفى خلال ذلك قتل الافضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة وقيل للافضل عن ابن قرقة انه أسرف في كبر الحلقة وعظم مقدارها فقال له الافضل لو اختصرت منها كان أهون فقال وحق نعمتك لو أمكنني أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الاهرام والاخرى على التنور فعلت فكلما كبرت الآلة صح التحرير وأين هذا في العالم العلوى ثم أكثروا عليه فعمل حلقة دونها في الموضع المهندم بالطوب الاحمر تحت المسجد الجيوشى كان قطرها أقل من سبعة أذرع ودورها نحو أحد وعشرين ذراعا فلما كملت قتل الافضل ولم ينفق من مال السلطان في الاجرة والمؤن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينارا فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحي أحب أن يكملها ويقال له الرصد المأموني المصحح كما قيل للاول الرصد المأموني الممتحن فأخرج الامر بنقل الرصد الى باب النصر بالقاهرة فنقل على الطريقة الاولى بالعتالين والاسطولية وطوائف الرجال وكان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جملة دراهم فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد الى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة وتعبوا في دخوله من باب النصر تعبا عظيما لخوفهم أن يصدم فيتغير فنصبوا الصوارى على عقد باب النصر من داخل الباب وتكاثر الرجال في جذب المياحين من أسفل ومن فوق حتى وصل الى السطح الكبير ثم نقلوه من السطح الكبير الى السطح الفوقانى وأوقفوا له العمد كما تقدم ذكره ورصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجرف فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط ثم اهتموا بعمل ذات حلق يكون قطرها خمسة أذرع وسبكت في فندق بالعطوفية من القاهرة وكان الامر فيها سهلا عندما لحقهم من العناء العظيم في الحلقة الكبيرة والحلقة الوسطى وتجرد المأمون لعملها والحث فيها وكان ابن قرقة يحضر كل يوم دفعتين ويحضر أبو جعفر ابن حسنداى وأبو البركات بن أبي الليث صاحب الديوان وبيده الحل والعقد فقال له المأمون اطلع اليهم كل يوم وأي شئ طلبوه وقع لهم به من غير مؤامرة وكان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال الرصد المأمونى المصحح فلو أراد الله أن يبقى المأمون قليلا كان كمل جميع رصد الكواكب لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة وكان من جملة ماعدد من ذنوبه عمل الرصد المذكور والاجتهاد فيه وقيل أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سماه الرصد المأموني ونسبه الى نفسه ولم ينسبه الى الخليفة الآمر بأحكام الله وأما العامة والغوغاء فكانوا يقولون أرادوا أن يخاطبوا زحل وأرادوا أن يعلموا الغيب وقال آخرون منهم عمل هذا للسحر ونحو ذلك من الشناعات فلما قبض على المأمون بطل وأنكر الخليفة على عمله فلم يجسر أحد أن يذكره وأمر فكسر وحمل الى المناخات وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص وكان فيه من المهندسين

برسم خدمته وملازمته في كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد الشيخ أبو جعفر بن حسنداى والقاضي بن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الاسكندرانى المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس وغيرهم من الحساب والمنجمين كابن الحلبي وابن الهيثمى وابي نصر تلميذ سهلون وابن دياب والقاضي وجماعة يحضرون كل يوم الى ضحوة النهار فيحضر صاحب الديوان ابن أبى الليث وكان ابن حسنداى ربما تأخر فى بعض الايام فانه كان امرأ عظيما صاحب كبرياء وهيبة وفى كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة ويطالعه بمن غاب منهم لانه كان كثير التفقد للامور كلها وله غمازون واصحاب أخبار لا تنام ولا يكاد يفوته شئ من أحوال الخاصة والعامة بمصر والقاهرة ومن يحدث وجعل في كل بلد من الاعمال من يأتيه بسائر أخبارها وأنا أدركت هذا الموضع الذى يعرف اليوم بالرصد حيث جامع الفيلة عامرا فيه عدة مساكن ومساجد وبه اناس مقيمون دائما وقد خرب ما هناك وصار لا أنيس به وكان الملك الناصر محمد بن قلاون قد أنشأ فيه سواقى لنقل الماء من اماكن قد حفر لها خليج من البحر بجوار رباط الآثار النبوية فاذا صار الماء في سفح هذا الجرف المسمي بالرصد نقل بسواق هناك وقد أنشئت الى أن يصير الى القلعة فمات ولم يكمل ما أراده من ذلك كما ذكر في اخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب وما زال موضع هذا الرصد متنزها لاهل مصر ويقال أن المعز لدين الله معدا لما قدم من بلاد المغرب الى القاهرة لم يعجبه مكانها وقال للقائد جوهر فاتك بناء القاهرة على النيل فهلا كنت بنيتها على الجرف يعني هذا المكان ويقال ان اللحم علق بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة وعلق بقلعة الجبل فتغير بعد يومين وليلتين وعلق في موضع الرصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها لطيب هوائه ولله در القائل

ياليلة عاش سرورى بها * ومات من يحسدنا بالكمد
وبت بالمشوق في المشتهى * وبات من يرقبنا بالرصد

ذكر مدائن أرض مصر

قال ابن سيده مدن بالمكان أقام والمدينة الحصن يبنى فى أسطمة الارض مشتق من ذلك والجمع مدائن ومدن ومن هنا حكم أبو الحسن فيما حكى الفارسى عنه أن مدينة فعيلة وقال العلامة اثير الدين أبو حيان المدينة معروفة مشتقة من مدن فهى فعيلة ومن ذهب الى أنها مفعلة من دان فقوله ضعيف لاجماع العرب على الهمز فى جمعها فانهم قالوا مدائن بالهمز ولا يحفظ مداين بالياء ولا ضرورة تدعو الى انها مفعلة من دان ويقطع بأنها فعيلة جمعهم لها على فعل فانهم قالوا مدن كما قالوا صحف فى صحيفة واعلم أن مدائن مصر كثيرة منها ما دثر وجهل اسمه ورسمه ومنها ماعرف اسمه وبقى رسمه ومنها ما هو عامر • وأول مدينة عرف اسمها

في أرض مصر مدينة امسوس وقد محا الطوفان رسمها ولها أخبار معروفة وبها كان ملك مصر قبل الطوفان ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف وكان بها ملك القبط والفراعنة الى أن خربها بخت نصر فلما قدم الاسكندر بن فيليبش المقدوني من مملكة الروم عمر مدينة الاسكندرية عمارة جديدة وصارت دار المملكة بمصر الى أن قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين وفتح أرض مصر فاختط فسطاط مصر وصارت مدينة مصر الى أن قدم جوهر القائد من الغرب بعساكر المعز لدين الله أبي تميم معد وملك مصر واختط القاهرة فصارت دار المملكة بمصر الى أن زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فبنى قلعة الجبل وصارت القاهرة مدينة مصر الى يومنا هذا. وفي أرض مصر عدة مدائن ليست دار ملك وهى مدينة الفيوم ومدينة دلاص ومدينة اهناس ومدينة البهنسا ومدينة القيس ومدينة طلخا ومدينة الاشمونين ومدينة انصنا ومدينة قوص ومدينة سيوط ومدينة فاو ومدينة أخميم ومدينة البلينا ومدينة هو ومدينة قنا ومدينة دندره ومدينة قفط ومدينة الاقصر ومدينة اسنا ومدينة أرمنت ومدينة ادفو وثغر اسوان وادركناه مدينة هذه مدائن الوجه القبلي وكان أهل مصر يسمون من سكن من القبط بالصعيد المريس ومن سكن منهم أسفل الارض يسمونه البيما وفى الوجه البحرى مدينة نوب من الحوف الشرقي بأسفل الارض ومدينة عين شمس ومدينة اتريب ومدينة تنوا ومن قراها ناحية زنكلون ومدينة نمي ومدينة بسطه ويعرف اليوم موضعها بتل بسطه ومدينة قربيط ومدينة البتنون ومدينة منوف ومدينة طره ومدينة منوف أيضا ومدينة سخا ومدينة الاوسه وهي دميره ومدينة تيدة ومدينة الافراخون ومن جملة قراها نشا ومدينة بقيره ومدينة بنا ومدينة شبراساط ومدينة سمنود ومدينة نوسا ومدينة سبق ومدينة النجوم وقد غلب على مدينة النجوم الرمال والسباخ ويعرف اليوم منها قرية أدكو على ساحل البحر بين اسكندرية ورشيد ومدينة تنيس ومدينة دمياط ومدينة الفرما ومدينة العريش ومدينة صا ومدينة برانوط ومدينة قرطسا ومدينة أخنو ومدينة رشيد ومدينة مريوط ومدينة لوبية ومراقية وليس بعد لوبية ومراقية الا أرض انطابلس وهي برية وفي كور القبلة مدينة فاران ومدينة القلزم ومدينة راية ومدينة ايلة ومدينة مدين واكثر هذه المدائن قد خرب ومنها ماله أخبار معروفة وقد استحدث فى الاسلام بعض مدائن وسيأتي من أخبار ذلك ان شاء الله ما يكفى . وديار مصر اليوم وجهان قبلي وبحرى جملتهما خمس عشرة ولاية . فالوجه القبلي اكبرهما وهو تسعة أعمال عمل قوص وهو أجلها ومنه اسوان وغرب قولة واسوان حد المملكة من الجنوب وعمل أخميم وعمل سيوط وعمل منفلوط وعمل الاشمونين وبها الطحاوية وعمل البهنسا وعمل الفيوم وعمل

أطفيح وعمل الجيزة • والوجه البحرى ستة أعمال عمل البحيرة وهو متصل البربالاسكندرية وبرقة وعمل الغربية وهي جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين بحر دمياط وبحر رشيد والمنوفية ومنها ابيار التي تسمى جزيرة بني نصر وعمل قليوب وعمل الشرقية وعمل أشموم طناح ومنها الدقهلية والمرتاحية وهنا موضع ثغر البرلس وثغر رشيد والمنصورة وفي هذا الوجه الاسكندرية ودمياط وهما مدينتان لا عمل لهما • وذكر أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن الكوكة وهي امة من أهل ايلة ملكوا الارض وقسموا الصعيد على ثمانين كورة وجعلوه اربعة اقسام وكان عدد مدن مصر الداخلة في كورها ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب والكور مثل أخميم وقفط وقوص والفيوم ويقال ان مصر بن بيصر قسم الارض بين اولاده فأعطى ولده أشمون من حد بلده الى رأس البحر الى دمياط وأعطى ولده أتصنا من حد انصنا الى الجنادل وأعطي لولده صا من صا أسفل الارض الى الاسكندرية وأعطي لولده منوف وسط الارض السفلي منف وماحولها وأعطى لولده قفط غربي الصعيد الى الجنادل وأعطي لولده أتريب شرقي الارض الى البرية برية فاران وأعطي لبناته الثلاثة وهن الفرما وسريام وبدورة بقاعا من أرض مصر محددة فيما بين اخوتهن

﴿ ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها ﴾

قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب في كتاب أخبار مصر وعجائبها وكانت مصر القديمة اسمها أمسوس وأول من ملك أرض مصر نقراوش الجبار بن مصرايم ومعنى نقراوش ملك قومه الاول ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام ركب في نيف وسبعين راكبا من بني عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا يقطنون فيه فرارا من بني أبيهم عند ما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وبغي عليهم بنو قابيل بن آدم فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا الى النيل فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه أعجبهم فأقاموا فيه وبنوا الأبنية المحكمة وبني نقراوش مصر وسماها باسم أبيه مصرايم ثم تركها وأمر ببناء مدينة سماها أمسوس وقال ابن وصيف شاه وكان قد وقع اليه علم ذلك من العلوم التي تعلمها دوابيل من آدم عليه السلام فبني الاعلام وأقام الاساطين وعمل المصانع واستخرج المعادن ووضع الطلسمات وشق الانهار وبنى المدائن فكل علم جليل كان في ايدى المصريين انما هو من فضل علم نقراوش واصحابه كان ذلك مرموزا على الحجارة ففسره قليمون الكاهن الذي ركب مع نوح عليه السلام في السفينة ونقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون لها ومنها صنم من حجر أسود في وسط المدينة تجاهه صنم مثله اذا دخل الى المدينة سارق لا يقدر أن يزول

حتى يسلك بينهما فاذا دخل بينهما اطبقا عليه فيؤخذ وعمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء وعمل على حد البلاد أصناما من نحاس مجوفة وملأها كبريتا ووكل بها روحانية النار فكانت اذا قصدهم قاصد ارسلت تلك الاصنام من أفواهها نارا أحرقته وعمل فوق جبل بطرس منارا يفور بالماء ويسقى ما حوله من المزارع ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان ويقال انه هو الذى أصلح مجرى النيل وكان قبله يتفرق بين الجبلين وانه وجه الى بلاد النوبة جماعة هندسوه وشقوا نهرا عظيما منه بنوا عليه المدن وغرسوا الغروس وأحب أن يعرف مخرج النيل فسار حتى بلغ خلف خط الاستواء ووقف على البحر الاسود الزفتي ورأى النيل يجري على البحر مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر ويخرج منه الى بطائح ويقال انه هو الذي عمل التماثيل التي هناك وعاد الى أمسوس وقسم البلاد بين أولاده فجعل لابنه الاكبر واسمه نقاوش الجانب الغربي ولابنه شورب الجانب الشرقي وبنى لابنه الاصغر واسمه مصرايم مدينة برسان وأسكنه فيها وأقام ملكا على مصر مائة وثمانين سنة ولما مات لطخ جسده بأدوية ماسكة وجعل في تابوت من ذهب وعمل له ناوس مصفح بالذهب ووضع فيه ومعه كنوز واكسير وأوان من ذهب لايحصى ذلك لكثرته وزبروا على الناوس تاريخ موته وأقاموا عليه طلسما يمنعه من الحشرات المفسدة . وملك بعده ابنه نقاوش بن نقراوش وكان كأبيه في علم الكهانة والطلسمات وهو أول من عمل بمصر هيكلا وجعل فيه صور الكواكب السبعة وكتب على هيكل كل كوكب منافعه ومضاره وألبسها كلها الثياب الفاخرة وأقام لها خدمة وسدنة وخرج من أمسوس مغربا حتى بلغ البحر المحيط وأقام عليه أساطين على رؤسها أصنام تسرج عيونها في الليل ومضى على بلاد السودان الى النيل وأمر ببناء حائط على جنب النيل وعمل له أبوابا يخرج منها الماء وبنى في صحراء الغرب خلف الواحات ثلاث مدن على اساطين مشرفات من حجارة ملونة شفافة وفي كل مدينة عدة خزائن من الحكمة وفى أحداها صنم للشمس على صورة انسان وجسد طائر من ذهب وعيناه من جوهر أصفر وهو جالس على سرير من مغناطيس وفي يده مصحف العلوم وفي احداها صنم رأسه رأس انسان بجسد طائر ومعه صورة امرأة جالسة قد عملت من زئبق معقود لها ذؤابتان في يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب وقد رفعت المرآة بيديها الى وجهها وفى احداها مطهرة فيها سبعة ألوان من سائل يرد اليها ولا يغير بعضها لون بعض وفي بعضها صورة شيخ جالس قد عمل من الفيروزج وبين يديه صبية جلوس كلهم من عقيق وفي بعضها صورة هرمس يعني عطارد وهو ينظر الى مائدة بين يديه من نوشادر على قوائم من كبريت أحمر وفي وسطها صحفة من جوهر وجعل فيها صورة عقاب من زبرجد أخضر وعيناه من ياقوت

أصفر وبين يديه حية زرقاء من فضة قد لوت ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تنفخ عليه وجعل فيها صفة المريخ وهو راكب على فرس وفى يده سيف مسلول من حديد أخضر وجعل فيها عمودا من جوهر أحمر وعليه قبة من ذهب فيها صورة المشترى وجعل فيها قبة من آنك على أربعة اعمدة من جزع أزرق وفى سقفهـا صورة الشمس والقمر متحاذيين فى صورة رجل وامرأة يتحادثان وجعل فيها قبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على هيئة امرأة ممسكة بضفائرها وتحتها رجل من زبرجد أخضر فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها وجعل فى بقية الخزائن من كنوز الاموال والجواهر والحلى واكسير الصنعة وصنوف الادوية والسموم القاتلة مالا يحصى كثرة وجعل على باب كل مدينة طلسما يمنع من دخولها وأنفذ لهـا مسارب تحت الارض ينفذ بعضها الى بعض طول كل سرب ثلاثة اميال وبنى ايضا مدينة بأرض مصر اسمها حلجمة وعمل فيها جنة صفح حيطانها بالجواهر الملونة بالذهب وغرس فيها اصناف الاشجار وأجرى تحتها الانهار وغرس فيها شجرة مولدة تطعم سائر الفواكه وعمل فيها قبة من رخام أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ووكل بها شياطين اذا خرج أحد من بيته في الليل هلك وأقام بها أساطين زبر عليها جميع العلوم وصور العقاقير ومنافعها ومضارها وجعل لهذه المدينة مسارب تتصل بمسارب تلك المدن الثلاث بين كل سرب منها وبين هذه المدينة عشرون ميلا فلم تزل هذه المدائن حتى أفسدها الطوفان ولما مات بعد مائة وتسع سنين من ملكه على مصر جعل في ناوس مطلسم ودفن فيه * وملك بعده أخوه مصرام بن نقراوش الجبار بن مصرايم ويقال به سميت مصر وكان حكيما فعمل هيكلا للشمس من مرمر مموه بذهب أحمر وفي وسطه فرس من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر وعلى رأسه قنديل من الزجاج فيه حجر مدبر يضئ أكثر من السراج ثم انه ذلل الاسد وركبها وسار الى البحر المحيط وجعل في وسطه قلعة بيضاء عليها صنم للشمس وزبر عليه اسمه وصفته وعمل صنما من نحاس زبر عليه أنا مصرام الجبار كاشف الاسرار الغالب القهار وضعت الطلسمات الصادقة وأقمت الصور الناطقة ونصبت الاعلام الهائلة على البحار السائلة ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد أشد من ايدى وعاد الى أمسوس واحتجب عن الناس ثلاثين سنة واستخلف رجلا يقال له عيقام من ولد عرياب بن آدم وكان كاهنا ساحرا فلما مضت المدة أحب أهل مصر أن يروه فجمعهم عيقام بعد ما أعلم مصرام فظهر لهم في أعلى مجلس مزين بأصناف الزينة في صورة هائلة ملأت قلوبهم رعبـا فخروا له ساجدين ودعوا له ثم أحضر اليهم الطعام فأكلوا وشربوا وأمرهم بالرجوع الى مواضعهم ولم يروه بعدها * فملك بعده خليفته عيقام وقد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تصدقها العقول ويقال ان ادريس عليه السلام رفع في أيامه وانه رأى في علمه كون الطوفان فبني

خلف خط الاستواء في سفح جبل القمر قصرا من نحاس وجعل فيه خمسةوثمانين تمثالامن نحاس يخرج ماء النيل من حلوقها ويصب في بطحاء تنتهى الى مصر وسار اليه من أمسوس فشاهد حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه وما فيها من النقوش من صور الافلاك وغيرها وكان قصرا تسرج فيه المصابيح وتنصب فيه الموائد وعليها من كل الاطعمة الفاخرة في الاواني النفيسة مالوأكل منها عسكر لما نقصت ذرة ولا يعرف من عملها ولا من وضعها وفي وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر وترى حركته من وراءماجمد منه فأعجب بما رأى وعاد الى أمسوس واستخلف ابنه عرياق وقلده الملك وأوصاه وعاد الى ذلك القصر وأقام به حتى هلك والى عيقام هذا يعزي مصحف القبط الذى فيه تواريخهم وجميع مايجرى فى آخر الزمان * فقام من بعد ابنه عرياق ويقال أرياق بن عيقام ويقال له الاثيم فعمل أعمالا عجيبة منها شجرة صفراء لها أغصان من حديد بخطاطيف اذا قرب الظالم منها أخذته تلك الخطاطيف ولا تفارقه حتى يقر بظلمه ويخرج منه لخصمه ومنها صنم من كدان اسود سماه عبد زحل كانوا يحاكمون اليه فمن زاغ عن الحق ثبت في مكانه ولم يقدر على الخروج منه حتي ينصف خصمه من نفسه ولو أقام سنة ومن كانت له حاجة قام ليلا ونظر الى الكوكب وتضرع وذكر اسم غرياق فاذا اصبح وجد حاجته على بابه وعمل شجرة من حديد ذات أغصان ولطخها بدواء مدبر فكانت تجلب كل صنف من الدواب والسباع والوحوش اليها حتى يتمكن من صيدها وكان اذا غضب على أهل أقليم سلط عليهم الوحوش والسباع وتارة يجعل ماءهم من الايداق ويقال ان هاروت وماروت كانا في زمانه وانه بني جنة عظيمة واغتصب النساء الحسان واسكنهن فيها فعملت عليه امرأة منهن وسمته فهلك • وملك بعده لوجيم بن نقاوش ويقال بل هو من بني نقراوش الجبار ويعرف بلوجيم الفتى وهو الذى أخذ الملك من عرياق بن عيقام الكاهن ورده لبنى نقراوش بعدما خرج منهم بلا حرب ولاقتل وكان عالما بالكهانة والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة منها أن الغداف والغراب كثر فى ايامه وأتلف الزرع فعمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس الاربعة وعلى كل منارة صورة غراب في فمه حية قد التوت عليه فنفرت عنهم الطيور المضرة من حينئذ ولم تقربهم حتي زالت المنارات بالطوفان وكان حسن السيرة منصفا للرعية عادلا مقربا للكهنة ولما مات دفن في ناوس ومعه كنوزه وعمل عليه طلسم يمنعه * وملك بعده ابنه خصليم وكان فاضلا عالما كاهنا فعمل أعمالا عجيبة وهو أول من عمل مقياسا لزيادة ماء النيل بأن جمع أرباب العلوم والهندسة فقدروا بيتا من رخام على حافة النيل وفي وسطه بركة صغيرة من نحاس فيها ماء موزون وعليها من جانبيها عقابان من نحاس أحدهما ذكر والآخر انثى فاذا كان أول الشهر الذي يزيد فيه النيل فتح هذا البيت وجمع الكهان فيه بين يديه وزمزم الكهان

بكلامهم حتى يصفر أحد العقابين فان صفر الذكر كان الماء تاما وان صفرت الانثى كان الماء ناقصا فيستعدون عند ذلك لغلاء الاسعار بما يصلحون به شأنهم وهو الذى بني القنطرة ببلاد النوبة على النيل ولما مات جعل في ناوس ومعه كنوزه وعمل عليه طلسم * وملك بعده ابنه هوصال ويقال يوصال ومعناه خادم الزهرة ويقال نسو مال بن لوجيم الملك النقراوشي من بني نقراوش الجبار ويقال ان نوحا عليه السلام ولد فى أيامه وكان فاضلا كاهنا عالما بالسحر والطلسمات فعمل عجائب منها أنه بني مدينة عمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها ويبيت مغربا ويصبح مشرقا وعمل سربا تحت النيل فشق الارض وخرج منه متنكرا حتى بلغ مدينة بابل وكشف أعمال الملوك وكان نوح عليه السلام في زمانه ولد له عشرون ولدا فجعل مع كل ولد منهم قطراوهو رأس الكهنة وأقام في الملك مائة وسبع وعشر سنة ثم لزم الهياكل وأقام أولاده على حالهم كل منهم في قسمه الذى أعطاه أياه أبوه مدة سبع سنين * ثم اجتمعوا على واحد منهم وملكوه عليهم وكان اسمه تدرشان وقيل تدرسان فاما ملك نفي جميع اخوته الى المدائن الداخلة فى الغرب واقتصر على امرأة من بنات عمه وكانت ساحرة وعمل له قصرا من خشب منقوشا فيه صورة الكواكب وبسطه بأحسن الفرش وحمله على الماء وصار يجلس فيه فبينما هو فيه ذات يوم اذهبت ريح شديدة اضطرب منها الماء فانقلب القصر وتكسر فغرق هو ومن كان معه في القصر * وملك بعده أخوه نمرود الجبار ويقال شمرود بن هوصال فاحسن السيرة وأنصف الرعية وبسط العدل وجمع اخوته وفرق عليهم كنوز أخيهم فسر الناس به وطلب امرأة أخيه الساحرة ففرت منه بابنها الى مدينة ببلاد الصعيد وامتنعت عليه بسحرها وأقامت مدة واجتمع السحرة الى ابنها وكان اسمه توميدون وحملوه على طلب الملك فسار وخرج اليه شمرود واخوته فاقتتلوا قتالا عظيما كان فيه الظفر لتوميدون فقتله * وملك من بعده فقام توميدون بن تدرسان بالملك في مدينة أمسوس وكان عالما فاضلا فتقوى بسحر أمه وعملت له أعمالا عجيبة منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك وصورت فيها صور الكواكب فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم فاما ماتت امه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلي جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات ودفنت تحت صنم القمر ويقال انها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الارواح وتخبرهم بعجائب وتجيب عما تسأل عنه ولما مات توميدون بعد مائة سنة من ملكه عمل له صورة من زجاج مقسومة نصفين وأدخل فيها بعد ماطلي بالادوية المانعة من النتن وأطبقت الصورة عليه حتى التحمت واقيم في هيكل الاصنام ودفنت كنوزه عنده وصار يعمل له في كل سنة عيد * وملك بعده ابنه شرياق ويقال له سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هو صال وكان كأبيه في علم الكهانة والسحر

والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة منها على باب مدينة أمسوس هيئة بطة من نحاس قائمة على اسطوانة اذا دخل غريب من ناحية من النواحي صفقت بجناحيها وصرخت فيؤخذ ذلك الغريب ويكشف أمره حتى يعرف فيما قدم وشق من النيل نهرا يمر الى مدائن الغرب وبنى عليه أعلاما ومدنا ومنتزهات وسار ملك من بني فراشي بن آدم ويقال من بني صوانيق بن آدم خرج من ناحية العراق في أيامه وغلب على بلاد الشام وقصد مصر ليأخذ ملكها فقيل له انك لا تقدر عليها لسحر أهلها فتنكر ودخل في جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر فلما وصل الى أول حد مصر حبسه الموكلون بذلك الحد هو ومن معه حتى يأمر الملك فيهم بأمره وبعثوا اليه بصفتهم وكان قد رأى في منامه كأنه على منار عال وكأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه فحاد عنه حتى كاد يسقط من المنار فجاوزه الطائر وسلم منه فانتبه مذعورا وقص رؤياه على كبير الكهنة فقال يطلبك ملك ولايقدر عليك ونظر في نجومه فرأى الملك الذى يطلب ملكه قد دخل الي مصر وكان ذلك هو الوقت الذى قدم عليه فيه الرسل بصفات الذين وصلوا الى حد مصر فأمر باحضارهم اليه بعد ما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليروها فأوثقوهم وساروا بهم واوقفوهم على عجائب أرض مصر وما فيها من الطلسمات حتى بلغوا الى الاسكندرية ثم الى أمسوس ثم الى الجنة التى عملها مصرام وكان الملك شرياق مقيما بها فعند ما وصلوا اليها أظهرت السحرة التماثيل العجيبة فدخلوا عليه وحوله الكهنة وبين يديه نار لا يصل اليه أحد حتى يخوضها فمن كان بريأ لم تضره ومن كان يريد بالملك سوأ أوأضمر له مكروها أخذته النار فشق القوم فى وسط النار واحدا بعد واحد من غير أن تضرهم حتى انتهي الامر الى ملك العراق فعند ما دنا من النار أخذته بحرها فولى هاربا فاتبعوه حتى أخذوه وأوقفوه بين يدى شرياق فلم يزل به حتى اعترف فأمر بصلبه فصلب على الحصن الذى أخذ منه ونودي عليه هذا جزاء من طلب مالا يصل اليه وعفا عن الباقين فساروا من مصر وتحدثوا بما رأوه من العجائب فانقطع طمع ملوك الارض عن طلب ملك مصر ومات شرياق بعد ما ملك مصر مائة وثلاثين سنة فجعل في ناوس ومعه أمواله وطلسم يحفظه ممن يقصده * وملك بعده ابنه شهلوق وكان عالما بالكهانة والطلسمات فقسم ماء النيل موزونا يصرف الى كل ناحية قسطها ورتب الدولة وعمل بيت نار وهو أول من عبد النار وعمل بأمسوس عجائب منها شجرة على أعلى الجبال تقسم بها الرياح التي تمنع من أراد مصر بأذى أو فساد من جنى أو انسى أو سبع أو طائر وعمل بالمدينة قبة مركبة على سبعة أركان ولها سبعة أبواب على كل ركن باب وفي وسط القبة قبة من صفر وفي أعلاها صور الكواكب السبعة وتحت القبة قبة اخرى معلقة على سبع أساطين وعلى الباب الاول من القبة أسد ولبوة من صفر وهما رابضان كان يذبح لهما جروا أسود ويبخرهما

بشعره وعلى البـاب الثانى ثور وبقرة يذبح لهما عجلا ويبخرهما بشعره وعلى البـاب الثالث خنزير وخنزيرة يذبح لهمـا خنوصا ويبخرهما بشعره وعلى البـاب الرابع كبش وشاة يذبح لهما سخلة ويبخرهما بشعرها وعلى البـاب الخامس ثعلب وثعلبة يذبح لهما فرخ ثعلب ويبخرها بشعره وعلى الباب السادس عقاب وانثاه يذبح لهما فرخ عقاب ويبخرهما بريشه وعلى الباب السابع نسر وأنثاه يذبح لهما فرخ نسر ويبخرها بريشه ويلطخ كلا منهما بدم ماذبح له ويحرق سائر القرابين ويوضع رمادها تحت عتبات أبواب القبـة وجعل لهذه القبة سدنة يشعلون المصابيح ليلا ونهارا وقسم الناس بمصر سبع مراتب لكل مرتبة منهم باب من أبواب تلك القبة فكان الخصم اذا تقـدم الى شيء من تلك الصور وكان ظالما فانه يلتصق بها ولا يخلص منها حتى يخرج من الحق الذى عليه الذكر للذكر والانثى للانثى فيعرفون بذلك الظالم من المظلوم ولم تزل هـذه القبة بأمسوس حتى أزالها الطوفان ويقال انه رأى أباه في النوم وهو يأمره أن ينطلق الى جبل وصفه له من جبـال مصر فان فيه كوة صفتها كذا على بابها أفعى لها رأسان اذا أقبل اليها كشرت فى وجهه فخذ معك طائرين صغيرين ذكرا وأنثى فاذبحهما لها وألقمها اياها فانها تأخذ برأسيهما وتنتحى بهما الى سرب فاذا غابت ادخل الـكوة تجد فيها امرأة عظيمة من نور حار يابس فانها تسطع لك وتحس بحرارتها فلا تدون منها تحترق ولـكن اقعد حذاءها وسلم عليها فانها تخاطبك فافهم ماتقول لك واعمل به فانك تشرف بذلك وتدلك على كنوز جدك مصرام فانها حافظة لها فلما انتبه عمل ما أمره أبوه فلما قعد بجانب المرأة وسلم قالت له أتعرفنى قال لاقالت أنا صورة النار المعبودة فى الامم الخالية وقد أردت أن تحيي ذكرى وتجدد لي بيتا تقد لي فيه نارا دائمة بقدر واحد وتتخذ لها عيدا في كل سنة تحضره أنت وقومك فانك تتخذ بذلك عندي يدا أنيلك بها شرفا الى شرفك وملكا الى ملكك وأمنع عنك من يطلبك بسوء وأدلك على كنوز جدك مصرام فضمن لها أن يفعل كل ما أمرته به فدلته على الكنوز التي تحت المدائن المعلقة وعلمته كيف يصير اليها وكيف يحترس من الارواح الموكلة بها وما يجيء منها ثم قال لها كيف لي بأن أراك في وقت آخر قالت لاتعد فان الافعي لاتمكنك ولكن بخر في بيتك بكذا فاني آتيك فسر بذلك وغابت عنه وخرج ففعل ما أمرته به من عمل بيت النار وأخذ كنوز مصرام ولما مات جعل في ناوس ومعه سائر أمواله وكنوزه وجعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده * وملك بعد ابنه سوريد وكان حكيما فاضلا وهو أول من جبى الخراج بمصر وأول من أمر بالانفـاق على المرضى والزمني من خزائنه وأول من سن رقعة الصباح وعمل أعمالا عجيبة منها مرآة من أخلاط كان ينظر فيها الى الاقاليم فيعرف فيها ماحدث من الحوادث وما يخصب منهـا وما يجدب وأقام هذه المرآة في وسط مدينة أمسوس وكانت من نحاس وعمل فى أمسوس صورة امرأة

جالسة فى حجرها صبى ترضعه وكانت المرأة من نساء مصر اذا أصابتها علة فى موضع من جسمها أتت هذه الصورة ومسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة فتزول عنها العلة وان قل لبنها مسحت ثديها بثدي الصورة فيغزر لبنها وان قل حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها وان كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة وان عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبي الذى في حجر الصورة فتضع حملها وان أرادت التحبب الى زوجها مسحت وجهها وتقول افعلي كذا وكذا فاذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتي تتوب ولم تزل هـذه الصورة الى أن أزالها الطوفان وفي كتب القبط انها وجدت بعد الطوفان وأن أكثر الناس عبدوها وعمل سوريد صنما من أخلاط كثيرة فكان من أصابته علة في موضع من جسده غسل ذلك الموضع من الصنم بماء وشرب الماء فانه يبرأ وسوريد هـذا هو الذي بني الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين الى شداد بن عاد والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم ولما مات سوريد دفن في الهرم ومعه كنوزه ويقال انه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة وانه ملك مائة سنة وتسعين سنة * فملك بعده ابنه هرجيب وكان كأبيه حكيما فاضلا في علم السحر والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة واستخرج معادن كثيرة وأظهر علم الكيمياء وبني اهرام دهشور وحمل اليها اموالا عظيمة وجواهر نفيسة وعقاقير وسمومات وجعل عليها روحانيات تحفظها وشج رجل رجلا فامر بقطع اصابعه وسرق رجل مالا فملك المسروق له رق السارق ولما مات دفن فى الهرم ومعه جميع أمواله وذخائره * وملك بعده ابنه مناوس ويقال منقاوس وكان كأبيه في الحكمة الا انه كان جبارا فاسقا كالدماء ينتزع النساء من أزواجهن ويبيح ذلك لخواصه وعمل أعمالا عجيبة واستخرج كنوزا وبني قصورا من ذهب وفضة وأجري فيها الانهار وجعل حصباءها من اصناف الجواهر النفيسة وسلط رجلا جبارا اسمه قرناس على الناس ووجهه لمحاربة الامم الغريبة فقتل منهم خلائق ولما مات دفن فى بعض قصوره ومعه أمواله وعمل عليه طلسم يحفظه ويمنعه من كل طالب * وملك بعده ابنه أفروس وكان كأبيه في العلم والحكمة ولما ملك أظهر العدل وأحسن السيرة ورد النساء اللاتي غصبن في أيام أبيه على أزواجهن وعمل قبة طولها خمسون ذراعا في عرض مائة ذراع وركب في جوانبها طيورا من صفر تصفر بأصوات مختلفة مطربة لا تفتر ساعة وعمل في وسط مدينة أمسوس منارا عليه رأس انسان من صفر كلما مضى من النهار أو الليل ساعة صاح صيحة يعلم من سمعها بمضى ساعة وعمل منارا عليه قبة من صفر مذهب ولطخها بلطوخات فاذا غربت الشمس في كل ليلة اشتعلت القبة نورا تضيء له مدينة أمسوس طول الليل حتى يصير مثل النهار لا تطفئها الرياح ولا الامطار فاذا طلع النهار خمد ضوءها وأهدى لبعض ملوك بابل مدهنا من زبرجد

قطره خمسة اشبار ويقال انه وجد بعد الطوفان وعمل فى الجبل الشرقي صنما عظيما قائما على قاعدة وهو مصبوغ مصفر بالذهب ووجهه الى الشمس يدور معها حتي تغرب ثم يدور ليلا حتى يحاذي المشرق مع الفجر فاذا أشرقت الشمس استقبلها بوجهه وبنى بصحراء الغرب مدنا كثيرة وأودعها كنوزا عظيمة ونكح ثلثمائة امرأة ولم يولد له ولد فان الله تعالى كان قد أعقم الارحام لما يريد من اهلاك العالم بالطوفان ووقع الموت فى الناس والبهائم ولما مات وضع في ناوس بالجبل الشرقي ومعه أمواله وطلسم عليه * وملك بعده ارمالينوس فعمل أعمالا عجيبة وبنى مدنا ومصانع وجدد الطلسمات وكان له ابن عم يسمى فرعان وكان جبارا فأبعده وجعله على جيش سار به عنه فقهر ملوكا وقتل اما عظيمة وغنم اموالا كثيرة وعاد فشغفت به امرأة من نساء الملك وما زالت به حتى اجتمع بها وتآلفا وأقاما على ذلك مدة فخافا الملك أن يفطن بهما فعملت المرأة لارمالينوس سما في شرابه هلك منه *وملك بعده ابن عمه فرعان بن مشور فلم ينازعه أحد لشجاعته وسياسته ولم تطل أعوامه حتى رأى قليمون الكاهن كان طيورا بيضا قد نزلت من السماء وهي تقول من أراد النجاة فليلحق بصاحب السفينة وكان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد وبنائه الاهرام لاجل ذلك واتخذ الناس سراديب تحت الارض مصفحة بالزجاج قد حبست الرياح فيها بتدبير وعمل منها فرعان لنفسه ولاهله عدة فما كذب أن جمع أهله وولده وتلاميذه ولحق بنوح عليه السلام وآمن به وأقام معه حتي ركب في السفينة وجاء الطوفان في أيام فرعان فأغرق أرض مصر كلها وخرب عمائرها وأزال تلك المعالم كلها وأقام الماء عليها ستة أشهر ووصل الى أنصاف الهرمين العظيمين وسيأتى خبر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر محن مصر من هذا الكتاب ويقال ان فرعان كان عاتيا متجبرا يغصب الاموال والنساء وانه كتب الى الدرشيل بن لحويل ببابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام وانه استخف بالكهنة والهيا كل ففسدت فى أيامه أرض مصر ونقص الزرع وأجدبت النواحي لانهماكه في ضلاله وظلمه واقباله على لهوه ولعبه وان الناس اقتدوا به ففشا ظلم بعضهم لبعض وانه لما أقبل لما الطوفان وسحت الامطار قام سكران يريد الهرب الى الهرم فتخلخلت الارض به وطلب الابواب فخانته رجلاه وسقط يخور حتي هلك وهلك من دخل الاسراب بالغم والله تعالى أعلم

﴿ ذكر مدينة منف وملوكها ﴾

هذه المدينة كانت في غربي النيل على مسافة اثني عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر وهي أول مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التى تقدم ذكرها الى أن أخربها بخت نصر وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

فى كتاب جامع البيان في تفسير القرآن عن السدي أنه قال كان موسى عليه السلام حين كبر يركب كمراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس وكان انما يدعي ابن فرعون ثم ان فرعون ركب مركبا وليس عنده موسى فلما جاء موسى عليه السلام قيل له ان فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل فى أرض يقال لها منف فدخلها نصف النهار وقد تغلقت اسواقها وليس في طرقها أحد وهي التي يقول الله جل ذكره ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وقال ابن عبد الحكم عن عبد الله بن لهيعة أول من سكن بمصر بعد أن أغرق الله قوم نوح عليه السلام بيصر بن حام بن نوح فسكن منف وهي أول مدينة عمرت بعد الطوفان هو وولده وهم ثلاثون نفسا منهم أربعة اولاد قد بلغوا وتزوجوا وهم مصر وفارق وماج وياج بنو بيصر وكان مصر أكبرهم فبذلك سميت مافه ومافه بلسان القبط ثلاثون وكانت اقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم ونقروا هناك منازل كثيرة وقال ابن جرداويه في كتاب المسالك والممالك ومدينة منف هي مدينة فرعون التى كان ينزلها واتخذ لها سبعين بابا من حديد وجعل حيطان المدينة من الحديد والصفر وفيها كانت الانهار تجرى من تحت سريره وهى أربعة ويروى أن مدينة منف كانت قناطر وجسوروا بتدبير وتقدير حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا ويرسلونه كيف شاؤا فذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون وكان بها كثير من الاصنام لم تزل قائمة الى أن سقطت فيما سقط من الاصنام في الساعة التي أشار فيها النبي صلى الله عليه وسلم الى الاصنام يوم فتح مكة بقضيب فى يده وهو يطوف حولها ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا فما أشار الى صنم منها في وجهه الا وقع لقفاه ولا أشار لقفاه الا وقع لوجهه حتى مابقى منها صنم الا وقع وفي تلك الساعة سقطت أصنام الارض من الشرق الى الغرب وبقى أصحابها متعجبين لا يعلمون لها سببا أوجب سقوطها وبقيت أصنام مدينة منف ساقطة من ساعته وفيها الصنمان الكبيران المجاوران للبيت الاخضر الذى كان به صنم العزيز وكان من ذهب وعيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما ثم قطعت الاصنام والبيت الاخضر من بعد سنة ستمائة * ويقال كانت منف ثلاثين ميلا طولا فى عشرين ميلا عرضا وان بعض بني يافث بن نوح عمل في أيام مصرايم آلة تحمل الماء حتى تلقيه على أعلى سور مدينة منف وذلك انه جعلها درجا مجوفة كلما وصل الماء الى درجة امتلأت الاخرى حتى يصعد الماء الى أعلى السور ثم يحط فيدخل جميع بيوت المدينة ثم يخرج من موضع الى خارج المدينة * وكان بمنف بيت من الصوان الاخضر المانع الذى لا يعمل فيه الحديد قطعة واحدة وفيه صور منقوشة وكتابة وعلى وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها لو اجتمع ألوف من الناس على تحريكه ماقدروا لعظمه وثقله والصابئة تقول

انه بيت القمر وكان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت بمنف للكواكب السبعة وهذا البيت الاخضر هدمه الامير سيف الدين شيخون العمرى بعد سنة خمسين وسبعمائة ومنه شئ في خانقاهه وجامعه الذى بخط الصليبة خارج القاهرة وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي فى كتابه تحفة الالباب ورأيت فى قصر فرعون موسى بيتا كبيرا من صخرة واحدة أخضر كالآس فيه صورة الافلاك والنجوم لم تر عجبا أحسن منه * وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى وكانت دار الملك بمصر فى قديم الدهر مدينة منف وهى فى غربي النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط فلما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية رغب الناس في عمارتها فكانت دار العلم ومقر الحكمة الى ان فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط فانتشر أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم الى سكناها فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها الى وقتنا هذا* وقال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب وقد ذكر أخبار مدينة أمسوس وخراب عمائر أرض مصر بطوفان نوح عليه السلام ولما نزل الماء كان أول من ملك مصر بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح وكان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله وولده فاجتمعوا وبنوا مدينة منف ونزلوا بها وكان قليمون الكاهن الذى تقدم ذكره في خبر مدينة أمسوس من جملتهم وكان قد زوج ابنته ببيصر المذكور وجاءت معه الى مصر وولدت منه ولدا سماه مصرايم فلما مات بيصر دفن في موضع دير أبي هرميس ويقال دير أبي هرميس غربى الاهرام ويقال انها أول مقبرة دفن بها بأرض مصر وكان موته بعد ألف وثمانمائة وست سنين مضت من وقت الطوفان وقال غيره ثم بنى مصرايم مدينة سماها باسمه فجاءه رجل من بنى يافث فعمل له سورا قائما وصنع له درجا وأجرى الماء الى أن بقى يصعد الى أعلى السور بحكمة أتقنها ثم ينزل ذلك الماء من أعلى السور الى المدينة فينتفع به فيها بغير مشقة ولا كلفة ثم يخرج من ناحية أخرى وكتب على السور هذه صنعة من يموت لاصنعة من يدوم* وملك بعد بيصر ابنه مصرايم (ويقال له مصر) بن بيصر فأظهره قليمون الكاهن على كنوز مصر وعلمه قراءة خطهم وأطلعه على حكمهم وبنى مصرايم المدن وشق الانهار وغرس الاشجار وبنى مدينة عظيمة سماها درسان وهي العريش ونكح امرأة من أولاد الكهنة فولدت له ابنا سماه قفطيم وبنى مدينة رقودة مكان الاسكندرية ولما مات مصرايم جعل له سرب طوله مائة وخمسون ذراعا وبسط بالمرمر الابيض وعمل في وسطه مجلس مصفح بصفائح الذهب وله أربعة ابواب على كل باب تمثال من ذهب على رأسه تاج من ذهب وهو جالس على كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد ونقش فى صدر كل تمثال آيات مانعة وجبسوا جسده فى جسد من زبرجد أخضر شبه تابوت طوله اربعون ذراعا دفن فيه ومعه جميع ما كان فى خزائنه

من ذهب وفضة وجوهر منها ألف قطعة من زبرجد مخروط وألف تمثال من جوهر نفيس وألف برنية من ذهب مملوءة درا نفيسا وألف آنية من ذهب وعدة سبائك من فضة وعمل عليه طلسم مانع من الوصول اليه وزبروا عليه مات مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد ألفين وستمائة عام وقيل بعد سبعمائة سنة مضت من الطوفان ولم يعبد الاصنام فصار الى جنة لاهرم فيها ولا سقم ولا هم ولا حزن وكتب اسم الله الاعظم عليه حتى لا يصل اليه أحد الا ملك يأتي فى آخر الزمان يدين بدين الملك الديان ويؤمن بالبعث والفرقان والنبي الداعي الى الايمان في آخر الزمان وسقفوا فوق السرب بالصخور العظام وهالوا عليه الرمال حتى سدوا بين جبلين متقابلين * ويقال كان مصر بن بيصر مع جد أبيه نوح عليه السلام في السفينة فدعا له أن يسكنه الله الارض الطيبة المباركة التي هى أم البلاد وغوث العباد ونهرها أفضل الانهار ويجعل له فيها إفضل البركات ويسخر له الارض ولولده ويذللها ويقويهم عليها فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف فساقه ولده مصرايم وجميع اخوته الى مصر فنزلوها وبذلك سميت مصر * وملك بعده ابنه قبطيم (ويقال له قفط) بن مصرايم وهو أول من عمل العجائب بعد الطوفان فاستخرج المعادن وشق الانهار ونصب الاعلام والمنارات وعمل الطلسمات * ويقال ان مصرايم لما مات اختلف أولاده من بعده وكان قفط أصغرهم فاجتمعوا عند الاهرام ورضوا بأن من غلب منهم أخاه أخذ الملك فتحارب أشموم وأتريب فغلب أتريب ثم تحارب صا هو وأشموم فغلب ثم تحارب قفط وصا فغلب قفط فأخذ قفط الملك بعد أبيه وأطاعه اخوته وسكن مدينة منف دار مملكة أبيه وتزوج امرأة ولدت له أربعة أولادهم قفطريم وأشمون وأتريب وصا فتناسلوا وكثروا وعمروا البلاد ثم انه قسم الارض بين أولاده الاربعة عند وفاته فجعل لولده قفطريم من أسوان الى قفط وجعل لولده أشمون من مدينة قفط الى مدينة منف وجعل لولده أتريب الجرف كله وجعل لولده صا من ناحية البحيرة الى الغرب وجعل أمرهم الى قفطريم وأمر كل واحد منهم أن يبني لنفسه مدينة في حيزه وجعل لنفسه سربا تحت الجبل الكبير وصفحه بالمرمر وعمل فيه منافذ للريح فصارت تخرق فيه بدوي عظيم وأقام في السرب رؤسا من نحاس مطلية تضيء كالسرج ليلا ونهارا ولما مات وضع جسده بهذا السرب في جرن من ذهب بعدما ألبس ثيابا منسوجة بالدر والمرجان وأقيم عند رأسه عمود من مرمر عليه جوهرة تضيء وعمل حول الجرن توابيت من حجارة ملونة حولها مصاحف الحكمة ووضعت عنده أمواله وكنوزه وذخائره وزبروا عليه كما زبروا على أبيه وانتقل كل من أولاده الى حيزه فانتقل صا بأهله وأولاده وسكن مدينة صا الآتي ذكرها* ويقال كانت البلبلة في أيام قفط وانه ألهمه الله تعالى اللغة القبطية وأنه أقام ملكا أربعمائة

وثمانين سنة ومات فدفن بأرض الواحات وملك بعده أخوه اشمن بن مصر وقيل بل اسكن في حياته ابنه ققطريم في حيزه فشرع فى العمارة وكان جبارا عظيم الخلقة فأثار من المعادن مالم يثره أحد قبله وبني مدينة دندرة وعمل في جبل ققط منارا عاليا يرى منه البحر الشرقي ووجد هناك معادن من الزئبق وعمل البركة التي سماها صيادة الطير وهلك عاد بالريح في آخر أيامه وفى ايامه أثارت الشياطين الاصنام التي أغرقها الطوفان فعبدت وأقام ملكا أربعمائة وثمانين سنة ومات * وذكر ابن عبد الحكم بعد مصر بن بيصر ققط بن مصر وأن الذى ملك بعد ققط أخوه اشمن ثم أتريب بن مصر ثم صا بن مصر ثم ابنه تدراس بن صا ثم ابنه ماليق بن تدراس ثم ابنه حزايا بن ماليق ثم ابنه كلكلي بن حزايا ويقال ان أشمن لما ملك بعد أخيه سار اليه شداد بن هداد بن شداد بن عاد وملك أرض مصر وهدم مبانيها وبنى اهراما ومضى الى موضع الاسكندرية فبناها وأقام دهرا ثم خرجت العادية من أرض مصر فعاد اشمن الى ملكه وأنه ملك بعده أخوه صا ثم ملك بعد صا ابنه تدراس وفي ايامه بعث الله صالحا الى ثمود ومات * فملك ابنه ماليق البودسير وكان من الجبابرة العظام عمل أعمالا عظيمة منها منار فوقه قبة لها أربعة اركان في كل ركن كوة يخرج منها في يوم معلوم عندهم من كل سنة دخان ملتف في ألوان شتى يستدلون بكل لون على شيء فان خرج الدخان أخضر دل على العمارة والخصب فى تلك السنة وان خرج أبيض دل على الجدب وقلة الخير وان خرج أحمر دل على الحروب وقصد الاعداء وان خرج أصفر دل على النيران وآفات تحدث من الملك وان خرج اسود دل على الامطار والسيول وفساد بعض الارض وان خرج مختلطا دل على كثرة الظلم وبغى الناس بعضهم على بعض وعمل شجرة من نحاس تجذب سائر الوحوش حتى تصل اليها فلا تستطيع الحركة الى أن تؤخذ فشبع أهل مصر من لحوم الوحوش واتفق أن غرابا نقر عين صبي من أولاد الكهنة فقلعها فعمل شجرة من نحاس عليها غراب منشور الجناحين وفي منقاره حية وعلى ظهره أسطر فكانت الغربان تقع على هذه الشجرة ولا تبرح حتى تموت وكانت الرمال قد كثرت فى ايامه على أرض مصر من ناحية الغرب فعمل صنما من صوان اسود على قاعدة منه وفوق كتفه قفة فيها مسحاة ونقش على وجهه وصدره وذراعيه كتابة وجعل وجهه الى الغرب فانكشفت الرمال ورجعت بها الرياح الى ورائها وصارت تلالا عالية وبعث بهرمس الحكيم الى جبل القمر الذى يخرج منه النيل فعمل تماثيل النحاس وعدل جانبي النيل وكان قبله يفيض في مواضع وينقطع في مواضع وسار مغربا لينظر ماوراء ذلك فوقع على أرض واسعة يخرق فيها الماء والاشجار فبني فيها منتزهات وأقام بها وحول اليها عدة من أهله فعمروا تلك النواحي حتى صارت أرض الغرب كلها معمورة ثم خالطتهم البربر وجرت بينهم حروب كثيرة أفنتهم فخربت تلك البلاد ولم يبق منها الا الواحات ثم ان البودسير احتجب

عن الناس وصار يبرز وجهه من مقعده في النادر وربما خاطبهم من حيث لا يرونه * وذكر أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن أول من تحقق بالكهانة وغير الدين وعبد الكواكب البودسير وتزعم القبط أن الكواكب كانت تخاطبه وأن له عجائب كثيرة منها أنه استترعن الناس عدة سنين من ملكه وكان يظهر لهم وقتا بعد وقت مرة في كل سنة وهو حلول الشمس في برج الحمل ويدخل الناس اليه فيخاطبهم وهم يرونه فيأمرهم وينهاهم ويحذرهم مخالفة أمره ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب فصار يجلس في أعلاها وله وجه عظيم فيخاطبهم * (فلما مات ملك بعده ابنه ارقليمون) وكان كاهنا ساحرا فعمل أعمالا عظيمة منها أنه كان يجلس في السحاب فيرونه فى صورة انسان عظيم وأقام مدة على ذلك ثم انه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أول برج الحمل فأمرهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطيم وأعلمهم أنه ما بقى يعود اليهم * (فولوا عليهم عديم بن قفطيم) وكان جبارا عظيما وهو أول من صلب بمصر وذلك أن امرأة ورجلا زنيا فصلبهما وجعل ظهر كل منهما لظهر الآخر وبني أربع مدائن أودعها كنوزا عظيمة وجعل عليها طلسمات وعدة عجائب وعمل منارا على البحر الشرقي وعليه صنم الى الشرق حتى لا يغلب البحر على أرض مصر وعمل قنطرة على النيل في أرض النوبة وأقام ملكا مائة واربعين سنة ومات وعمره سبعمائة وثلاثون سنة * (وملك بعده ابنه شدات بن عديم) وهو الذى تسميه العامة شداد بن عاد وكان عالما كاهنا ساحرا ويقال انه هو الذى بني الاهرام الدهشورية وعمل أعمالا عظيمة وطلسمات عجيبة وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص وغزا الحبشة وسباهم وأقام ملكا تسعين سنة وهو أول من اتخذ الجوارح وصاد بها وولد الكلاب السلوقية وعمل في بركة سيوط تماسيح منصوبة تنصب اليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها ويعلق جلودها فى السفن واتفق أنه طرد صيدا فكبا به فرسه في وهدة فهلك وكان قد غضب على بعض خدمه فرماه من جبل عال فتقطع فرأى أنه يصيبه مثل ذلك ولما هلك وضع فى ناوس ودفنت معه امواله وعمل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده وكتب عليه لا ينبغي لذى القدرة أن يخرج عن الواجب ولا يفعل مالا يجوز له فعله فيجازي بعمله هذا ناوس بن شدات بن عديم فعل مالا يحل له فعله فكوفئ عليه بمثله * (وملك بعده منقاوش) وكان حكيما فاضلا كاهنا عمل أعمالا عجيبة وبني إشياء معجبة منها أنه عمل هيكلا لصور الكواكب على ثمانية فراسخ من منف وكنز من الاموال مالا يحصي وفتح عليه من المعادن مالم يفتح به على غيره وسار في الجنوب يوما ثم سار مغربا يوما وبعض آخر فانتهى فى اليوم الثالث الى جبل اسود فعمل تحته أسرابا ومغاير ودفن فيها امواله وزبر عليها حتى أنه من كثرتها يقال انه دفن حمل اثنى عشر ألف عجلة ذهبا وجواهر وأقام أربع سنين يرسل

فى كل سنة عجلا كثيرة يدفنها وبقيت آثار العجل ترى في ما بين منف والمغرب زمانا طويلا وبنى هيكلا للقمر ويقال انه هو الذى بنى مدينة منف لبناته وكن ثلاثين بنتا وأنه ألزم الناس بعمل الكيمياء فكانوا لا يفترون عن عملها ليلا ولا نهارا حتى اجتمع عنده مال عظيم وجوهر كثير وهو الذي بنى مدينة عين شمس وقسم خراج مصر أرباعا جعل الربع للملك والربع للجند والربع ينفق في مصالح الارض والربع الرابع يدفن لحادثة تحدث وهو الذى قسم أرض مصر على مائة وثلاثين كورة وأقام ملكا أحدى وتسعين سنة ومات *(فملك بعده ابنه عديم بن منقاوش) وكان جبارا لا يطاق وفي أيامه كان نزول الملكين اللذين يعلمان الناس السحر والقبط تزعم أنهما نزلا بأرض مصر ثم نقلا الى بابل* ثم ملك بعده أخوه مناوش ابن منقاوش وكان عالما كاهنا فاضلا بنى مواضع كثيرة فى الجبال والصحارى وكنز فيها كنوزا عظيمة وأقام عليها أعلاما وبنى في صحراء الغرب مدينة وأقام لها منارا وكنز حولها كنوزا عظيمة وجعل فيها شجرة تطلع كل لون من الفاكهة وهو أول من عبد البقر بمصر وكان يطالب الحكمة ويستخرج كتبها وكذا كان كل من ملك منهم يجتهد في أن يعمل له غريبة من الاعمال لم تعمل لمن كان قبله وتثبت في كتبهم وتزبر على الحجارة *(ولما مات ملك بعده ابنه هرميس) وكان قليل الحكمة فلم يعمل شيأ مما عمله آباؤه ومات وقد أقام احدى عشرة سنة * (فملك بعده اشمون) بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح وكان حيزه من أشمون الى منف في الغرب وحيزه في الشرق الى حد البحر الملح مما يحاذى برقة وهو آخر حد مصر ومن بلاد الصعيد الى حدود أخميم وكانت منزله بمدينة الاشمونين وكان طولها اثنى عشر ميلا فى مثلها وبنى في شرقي النيل مدينة انصنا وبنى بها قصرا عظيما واتخذ بها أبنية وملاعب وعجائب كثيرة وبنى مدينة طهراطيس وهو أول من لعب بالكرة والصولجان ويقال أنه بنى مدنا كثيرة عمل فيها عجائب منها مدينة في سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب فعلى الباب الشرقي صورة عقاب وعلى الباب الغربي صورة ثور وعلى الباب الشمالى صورة أسد وعلى الباب الجنوبي صورة كلب وفي هذه الصور روحانيات تنطق فاذا قدم غريب لا يقدر على الدخول اليها الا باذن الموكلين بها ودفن تحت كل شكل من هذه الاشكال الاربعة صنفا من الكنوز وغرس في هذه المدينة شجرة مولدة تثمر كل لون من الفاكهة ونصب منارا طوله ثمانون ذراعا فوقه قبة تتلون كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود الى اللون الاول فكانت تلك المدينة تكسي من تلك الالوان شعاعا مثل لونها وأجرى حول المنار ماء شقه من النيل وجعل فيه سمكا من كل لون وأقام حول المدينة طلسمات في هيئة أناس رؤسها كالقردة وأسكن هذه المدينة السحرة فعرفت بمدينة السحرة وكانوا يعملون فيها أصناف السحر وبنى بالقرب منها مدينة عرفت

بذات العجائب وبني مجالس مصفحة بزجاج ملوّن في وسط النيل وبنى سربا تحت الارض من الاشمونين الى أنصنا وقيل انه هو الذى بنى مدينة عين شمس وانه ملك ثمانمائة سنة وان قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة وأقاموا بمصر تسعين سنة فأصابهم وباء خرجوا منه الى المدينة بطريق الحجاز الى وادي القرى فعاد أشمون بعدخروج العادية الى ملك مصر وهو أول من عمل النوروز بمصر وفى زمانه بنيت مدينة البهنسا ولما مات جعل له ناوس فى آخر حدّ الاشمونين ودفن فيه ومعه كنوزه العظيمة وعجائبه الكثيرة منها ألف برنية من العقاقير المدبرة لفنون الاعمال وزبروا على ناوسه اسمه ونسبه وجعل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده * (وملك بعده ابنه صا) ثم بعد صا ابنه تدراس * (وقيل ملك مناقيوش) وكان شجاعا فاضلا فاستأنف العمارة وبنى القري ونصب الاعلام وعمل العجائب الهائلة وبنى مدائن منها مدينة اخميم وحوّل الكهنة اليها وأقام ملكا نيفاوأربعين سنة ومات فدفن في الهرم الشرقيّ ومعه كنوزه (وملك بعده ابنه)وقد اختلف في اسمه وكان فاضلا حازما معظما عند أهل مصر وهو أول من عمل المارستان وأول من عمل الميدان للرياضة وفي أيامه بنيت مدينة سنترية في صحراء الواحات ثم ان نساءه تغايرن عليه فقتلته احداهن بسكين فدفن في ناوس ومعه أمواله وعمل عليه طلسم يحفظه * (وملك بعده ابنه مرقوره) وكان حكيما كاهنا وهو أول من ذلل السباع وركبها وبني المدن وعمر الهيا كل وأقام الاصنام ولما مات جعل له ناوس في صحراء الغرب ودفن معه ماله * (وملك بعده ابنه بلاطس) وكان صبيا فدبرت أمه أمر الملك وكانت حازمة فأجرت الامور على أحسن ما يكون وأظهرت العدل ووضعت عن الناس الخراج فأحبوها ولما كبر ابنها أحب الصيد فعملت له أمه أعمالا عجيبة وأقام ملكا ثلاث عشرة سنة وجدر فمات وانتقل الملك الى أعمامه * فلك بعده أتريب بن قبطيم بن مصرايم وهو الثالث عشر من ملوك مصر بعد الطوفان وهو الذى بنى مدينة أتريب وعاش خمسمائة سنة منها مدة ملكه ثلثمائة وستون سنة ويقال ان النيل وقف في أيام أتريب مائة وأربعين سنة حتى أكلت البهائم بأرض مصر ولم يبق بها بهيمة ورؤى أتريب ماشيا وهو يبسط يديه ويقبضهما من الجوع ومات عامة أهل مصر جوعا ثم أغيثوا بعد ذلك وكثر الرخاء ودام مدة مائتي سنة وبيع كل أردب بدانق وأقل ولما مات اتهم أخوه صابقتله وحاربه أهل مصر تسع سنين وقتلوه* (فملكت بعده ابنته تدرورة) وكانت كاهنة ساحرة فساست الملك أحسن سياسة ودبرت الملك أجود تدبير وعملت طلسمات عجيبة منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من النيل حتى مات أكثرها عطشا ووقعت في زمانها صيحة ارتجت لها الارض فهلكت * (وملك بعدها أخوها قليمون بن أتريب) وكان حكيما فاضلا فبنى البنيان وعمل الطلسمات

وفي أيامه بنيت مدينة تنيس الاولى وبنيت مدينة دمياط وأقام ملكا تسعين سنة ومات فدفن في ناوس * (وملك بعده ابنه فرسون) وكان فاضلا كاهنا بنى المدائن وجدد الهيا كل وكان حدثا فقصده بعض ملوك حمير في جموع عظيمة فخرج اليهم ولقيه بمدينة ايليا وقاتله قتالا شديدا حتي تفاني من الفريقين معظمهما وأظهر المصريون أشياء من من سحرهم فانهزم الحميرى فى طائفة يسيرة وقتل فرسون عامة أصحابه وأخذ ما كان معهم وعاد مظفرا الى مدينة منف وعمل منارا على بحر القلزم فى رأسه مرآة تجذب المراكب الى الساحل حتى يؤخذ منها ما هو مقرر عليها من المال وأقام ملكا مائتي سنة وستين سنة ومات فدفن في ناوس خلف الجبل الاسود الشرقي وعمل فيه قبة تحتوي على اثنى عشر بيتا فى كل بيت أعجوبة ودفن معه ماله وعمل عليه طلسم يحفظه * (وملك بعده نحو أربعة وصار الملك الى صا بن قبطيم) وكان أصغر ولد أبيه وأحبهم اليه * (ولما مات ملك بعده نونية الكاهنة) وكانت ساحرة فكانت تجلس على سرير من نار فاذا تحاكم اليها أحد وكان صادقا شق تلك النار من غير أن تضره وان كان كاذبا أخذته تلك النار وكانت تتصور كل يوم فى صور كثيرة الاشكال ثم بنت قصرا واحتجبت فيه وجعلت في سوره أنابيب من نحاس مجوفة وكتبت على كل أنبوب فنا من الفنون التى يتحاكم الناس بها اليها فكان من أتاها في محاكمة وقف عند الانبوب الذي فيه محاكمته وتكلم بما يريده وسأل عنه بصوت خفى فاذا فرغ جعل أذنه في الانبوب فيأتيه منه جواب ما سأل ولم يزل هذا القصر والانابيب حتي أتلفه بخت نصر * (وملك بعدها مرقونس) وكان فاضلا حكيما وكانت أمه بنت ملك النوبة فعملت عجائب وصنع فى أيامه كل غريبة وملك ثلاثا وسبعين سنة ومات وعمره مائتان وأربعون سنة* (فملك بعده ابنه ايساد وهو ابن خمس وأربعين سنة) وكان جباراً طماح العين فانتزي امرأة أبيه وانكشف أمره معها وكان أكبر همه اللهو واللعب فجمع كل ملة فى مملكته ورفض العلوم وأهمل أمر الهيا كل والكهنة وترك النظر فى أحوال الناس وبنى قصورا على النيل ليتنزه فيها وأتلف أكثر الاموال فى اللعب فكرهه الناس وكرهم الى أن سموه فمات عن مائة وعشرين سنة *(وملك بعده ابنه صا) ويقال ان صا هو ابن مرقونس وهو اخو ايساد ولما ملك سكن منف ووعد الناس بخير وملك الاحياز كلها وعمل بها عجائب وطلسمات ورد الكهنة الى مراتبهم ونفى الملهين وأهل الشر ونصب العقاب الذى عمله أبوه وشرف هيكله ودعا اليه وبني بداخل الواحات مدينة ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة وجعل على الاطراف اصحاب اخبار يرفعون اليه ما يجرى في حدودهم وعمل على حافتي النيل منابر يوقد عليهم اذا حزبهم أمر أو قصدهم أحد وجعل بحافتي بحر الملح منارا يعلم به أمر البحر ويقال انه بني أكثر مدينة منف وكل

بنيان عظيم بالاسكندرية وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء ونظر في النجوم وكان بها حاذقا فرأى أن مصر لا بد أن تغرق من نيلها وانها تخرب على يد رجل يأتي من ناحية الشام فجمع كل فاعل بمصر وبني مدينة في الواح الاقصى وقصده ملك الافرنجة وملك منه مدينة منف وقدم معه ألف مركب وهدم اكثر الاسكندرية ودخل الى النيل من رشيد حتى أخذ منف وفر منه صا الى المدائن الداخلة وتحصن بها من عدوه فامتنعت بالطلسمات أياما كثيرة ثم كانت العاقبة له وعاد عدوه منهزما ورجع الى منف فتتبع الكهنة وقتل منهم كثيرا وأقام ملكا سبعا وستين سنة وعاش مائة وسبعين سنة *(وملك ابنه تدراس) واستولى على الاحياز كلها وصفا له الوقت وملك مصر وكان محتكما مجربا ذا أيد وقوة ومعرفة بالامور فأظهر العدل وأقام الهيا كل وأهلها قياما حسنا وبنى بيتا للزهرة وحفر خليج سخا وحارب بعض عمالقة الشام ودخل الى فلسطين وقتل بها خلقا وسبى بعض أهلها الى مصر وغزا السودان من الزنج والحبشة ووجه في النيل بثلثمائة سفينة فلقى السودان وكانوا زهاء ألف ألف فهزمهم وقتل أكثرهم وأسر منهم خلقا كثيرا وساق الفيلة والنمور الى مصر وعمل على حدود بلده منارات زبر عليها اسمه ومسيره وظفره وفي أيامه بعث الله نبيه صالحا الى ثمود ويقال انه هو الذى انزل النوبة حيث هي وذلك أنه لما أوغل في أرض الحبشة وقتل امم السودان وجد فيهم امة تقرأ صحف آدم وشيث وادريس فمن عليها وأنزلها على نحو من شهر من أرض مصر فسموا النوبة ومات بمنف *(فملك بعده ابنه ماليق) وكان عاقلا كريما حسن الصورة مجربا مخالفا لابيه وأهل مصر في عبادة الكواكب والبقر ويقال انه كان موحدا على دين أجداده قبطيم ومصرايم وكانت القبط تذمه لذلك وأمر الناس باتخاذ كل فاره من الخيل واقتنى السلاح وأكثر الاسفار وانشأ فى بحر المغرب مائتى سفينة وخرج فى جيش عظيم فى البر والبحر وأتي البربر فهزمهم واستاصل أكثرهم وبلغ أفريقية وسار الى الاندلس يريد الافرنجة فلم يمر بامة الا أبادها فحشد له ملك الافرنجة وحاربه شهرا ثم طلب صلحه وأهدى اليه فسار عنه ودوخ الامم المتصلة بالبحر الاخضر والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة وعمل أعمالا على البحر وزبر عليها اسمه ومسيره وخرب مدن البربر ورجع فتلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين وأنواع اللهو وفرشت له الطرقات فهابه الملوك وحملوا اليه الهدايا وما زال موحدا حتى مات *(فملك بعده ابنه حزابا) وكان لينا سهل الخلق قد عرفه أبوه التوحيد ونهاه عن عبادة الاصنام فرجع عن ذلك بعده الى دين قومه وغزا الهند والسودان بعد ما عمل مائة سفينة على شكل سفن الهند وتجهز وحمل معه امرأته ووجوه أصحابه واستخلف ابنه كلكلي على مصر وكان صبيا وجعل معه وزيرا كاهنا فر على ساحل اليمن وعاث في مدائنه وبلغ سرنديب وأوقع بأهلها

وبلغ جزيرة بين الهند والصين فأذعن له أهلها وتنقل فى تلك الجزائر سنين فيقال انه أقام في سفره سبع عشرة سنة ورجع غانمـا فهابه الملوك وبنى عدة هياكل وأقام بها الاصنـام للكواكب ثم غزا نواحي الشام فأطاعه أهله ورجع فغزا النوبة والسودان وضرب عليهم خراجا يحملونه اليه ورفع أقـدار الكهنة ومصاحفهم وكان يرى أن هـذا الظفر بمعونة الكواكب له ومات وقد ملك خمسا وسبعين سنة *(فقام ابنه كالكلي) وعقدله بالاسكندرية فأقام بها شهرا ثم قدم الى منف وكان أصناميـا فسربه أهل مصر وكان يحب الحكمة واظهار العجائب ويقرب أهلها ويجيزهم وعمل الكيمياء وخزن اموالا عظيمـة بصحارى الغرب وهو أول من أظهر علم الكيمياء بمصر وكان علمها مكتوما وكان من تقدمه من الملوك أمروا بترك صنعتها فعملها كالكلي وملأ دور الحكمة منها حتي لم يكن الذهب في زمن بمصر اكثر منه في وقتـه ولا الخراج لانه كان مائة ألف ألف وبضعة عشر ألف ألف مثقال فاستغنوا عن اثارة المعادن وعمل أيضا من الحجارة الملونة التى تشف شيأ كثيرا وعمل من الفيروزج وغيره أشياء واخترع امورا تخرج عن حد العقل حتى سمى حكيم الملوك وغلب جميع الكهنة في علومهم وكان يخبرهم بمـا يغيب عنهم وكان نمرود ابراهيم عليه السلام في وقته فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره وكان النمرود جبارا مشوه الخلق يسكن السواد من العراق وآتاه الله قوة وقدرة وبطشا فغلب على كثير من الامم فتقول القبط ان النمرود لما استزار كالكلي وجه اليه أن يلقاه بموضع كذا فسـار الى الموضع على أربعـة أفراس تحمله ذوات أجنحة وقد أحاط به نور كالنار وحوله صور هائلة وقد خيل بها وهو متوشح بثعبان متحزم ببعضه وقد فغرفاه وهو يضرب به بقضيب آس فلما رآه النمرود هاله وأقرله بجليـل الحكمة وسأله أن يكون ظهيراله ويقال انه كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربي في قبة تلوح على رأسه فاذا دهم أهل البلد امر اجتمعوا حول الهرم فيقيم أياما لا يأكل ولا يشرب ثم استتر مدة حتي توهموا أنه هالك فطمع فيه الملوك وقصده ملك من الغرب فى جيش عظيم حتي قـدم وادى هبيب فاقبل حتى جللهم من سحره بشئ كالغمام شديد الحر فأقاموا تحته أياما متحيرين ثم طار الى مصر وأمرهم بالخروج الى الجيش فوجدوهم قدماتوا هم ودوابهم فهابه الكهنة مهابة لم يهابوها أحدا قبله وعمر طويلا وغاب فلم يعلم خبره* وقال ابن عبـد الحكم ان كالكلى بن حزابا ملكهم نحو مائة سنة ثم مات ولا ولد له * (فملك أخوه ماليا بن حزابا قال ابن وصيف شاه وقام أخوه ماليا)وكان شرها كثيرا لاكل والشرب منفردا بالرفاهية غير ناظر في شئ من الحكمة وجعل أمر البلد الى وزيره واشتغل بالنساء وكان له من النسـاء ثمانون امرأة فهجم عليه ابنه طوطيس وهو سكر ان فقتله وقتل امرأة كانت عنده *(وملك بعده ابنه طوطيس) ويقال انه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون

ابن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ويقال الوليد بن الريان وأنه أحد فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن أمراز بن أشود بن سام بن نوح وقيل فراعنة مصر من ولد عملاق الاول ابن لاود بن سام بن نوح وكان جبارا جريا شديد الباس مهابا والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر وهو فرعون ابراهيم عليه السلام ويقال ان الفراعنة سبعة هو أولهم وحفر نهرا في شرقي مصر بسفح الجبل حتي ينتهى الى مرفا السفن في البحر الملح وكان يحمل الى هاجر أم اسماعيل التى أعطاها ابراهيم عليه السلام الحنطة واصناف الغلات فتصل الى جدة فأحيي بلد الحجاز مدة ويقال ان كل ما حليت به الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر ولكثرة ما حمل الى الحجاز سمته العرب من جرهم الصادوق * وفي كتاب هروشيش أن سلطان المصريين في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام كان بايدى قوم يدعون ببني فاليق بن دارش ودام ملكهم بمصر مائة وعشرين سنة وقال ابن اسحق عن بعضهم ان فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن امراز بن اشود بن سام بن نوح قال والمشهور أنهم من العماليق منهم الريان بن الوليد ويقال الوليد بن الريان فرعون يوسف والوليد بن مصعب فرعون موسى ومنهم سنان بن علوان قال ابن وصيف شاه وانما قيل له فرعون لانه أكثر القتل ولم يرزق غير ابنة وكانت عاقلة فخافت لكثرة قتله الناس فقتلته بسم وله في الملك مائة وسبعون سنة *(وملكت بعده جورياق)* فوعدت الناس بالاحسان وجمعت الاموال وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم وجددت الهياكل وصار من لم يرضها الى مدينة أتريب وملكوا رجلا من ولد أتريب وقد تقدم خبره في الاسكندرية وجورياق أول امرأة ملكت مصر من ولد نوح عليه السلام وماتت *(فملكت بعدها ابنة عمها زلفى بنت مأمون)* وكانت عذراء عاقلة فوعدت الناس بالجميل وقام عليها أيمن الأتريبي واستنصر بملك العمالقة فسير معه قائدا فأخرجت اليه جيشا فالتقوا بالعريش واقتتلوا حتى فنى منهم كثير من الناس ثم انهزم أصحاب زلفى الى منف وهم فى أقفيتهم فخرجت زلفى الى الصعيد ونزلت الاشمونين فكان بينها وبين عساكر العمالقة حروب انهزموا فيها وخرجوا عن منف بعد ماعاثوا فيها وعدوا الى الجرف فامتنعوا به وصارت مصر بينهم نصفين ثم ان زلفى عاودت الحرب فاستمرت ثلاثة أشهر حتى انهزمت الى قوص وأيمن خلفها فلما أيقنت انها تؤخذ سمت نفسها فهلكت وقال ابن عبد الحكم ثم توفى طوطيس بن ماليا فاستخلفت ابنته جورياق ابنة طوطيس ولم يكن له ولد غيرها ثم توفيت جورياق فاستخلفت ابنة عمها زلفى ابنة مأمون بن ماليا فعمرت دهرا طويلا وكثروا ونموا وملأوا أرض مصر كلها فطمعت فيهم العمالقة فغزاهم الوليد بن دومع فقاتلهم قتالا عظيما ثم رضوا أن يملكوه عليهم فملكهم نحوا من مائة سنة فطغي وتكبر وأظهر الفاحشة فسلط الله عليه سبعا فافترسه

وأكل لحمه * والذى ملك مصر من الفراعنة خمسة * وملك أيمن وتجبر وقتل خلقا ممن حاربه وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج في جيش كثيف فبعث غلاما يقال له فرعون الى مصر ففتحها ثم قدم بعده واستباح أهل مصر وأخذ أموالهم ثم خرج ليقف على مصب النيل فرأى جبل القمر وأقام في غيبته أربعين سنة ورجع الى مصر وقد خالفه فرعون وفر منه فاستعبد أهل مصر وملكهم مائة وعشرين سنة حتى هلك *(وملك ابنه الريان بن الوليد بن دومع)* أحد العمالقة وكان أقوى أهل الارض في زمانه وأعظمهم ملكا * والعمالقة ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح وهو فرعون يوسف عليه السلام والقبط تسميه نهراوش وقيل فرعون يوسف اسمه الريان بن الوليد بن ليث بن قاران بن عمرو ابن عمليق بن بلقع بن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح وقيل فرعون يوسف هو جد فرعون موسى أبو أبيه واسمه برخو وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا فوعد الناس الجميل وأسقط عنهم الخراج لثلاث سنين وفرق المال فيهم * وملك رجلا من أهل بيته يقال له اطفين وهو الذي يقال له العزيز وكان عاقلا أديبا مستعملا للعدل والعمارة فأمر أن ينصب له سرير من فضة في قصر الملك يجلس عليه ويخرج وجميع الكتاب والوزراء بين يديه فكفى نهراوش ماخلف ستره وقام بجميع اموره وخلاه للذاته فأقام على قصفه مدة والبلد عامر فقصده رجل من العمالقة وسار الى مصر في جيوشه فخرج اليه وقاتله وهزمه وسار خلفه ودخل الشام وعاث هنالك فهابته الملوك ولا طفته وقيل انه بلغ الموصل وضرب على أهل الشام خراجا وخرج لغزو بلاد المغرب في تسعمائة ألف ومر بأرض البربر وجلا كثيرا منهم ومر الى البحر الاخضر وسار الى الجنوب فقدم النوبة وعاد الى مدينة منف وكان من خبر يوسف معه ماذكر عند ذكر الفيوم *(وملك بعده ابنه دريموش)* ويقال له دارم بن الريان وهو الفرعون الرابع فخالف سنة أبيه وكان يوسف خليفته فيقبل منه تارة ويخالفه تارة وظهر فى أيامه معدن فضة فأثار منه شيئاً عظيما وفي أيامه مات يوسف عليه السلام فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس وأخذ أموالهم فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما ثم زاد في التجرى حتى اقتلع كل امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها فكان لايسمع بامرأة حسناء في موضع الا وجه اليها فحملت اليه فاضطرب الناس وشنعوا عليه وعطلوا الصنائع والاعمال والاسواق فهدأ عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وزاد الامر حتى اجتمعوا على خلعه فبرزلهم وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين وأنفق فيهم مالا فسكتوا وفي أيامه ثار القبط على بني اسرائيل وطلبوا من الوزير أن يخرجهم من مصر فما زال بهم حتى أمسكوا وبلغ الملك ذلك وكان قد خرج الى الصعيد فتوعد أهل مصر فشغبوا عليه وحشدوا له فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا وظفر بمن بقى فقتلهم وصلبهم على حافتي النيل وعاد الى أعظم

ما كان عليه من أخذ الاموال والنساء واستخدام أشراف القبط وبني اسرائيل فأجمع الكل على ذمه فركب النيل للنزهة وثاربه ريح عاصف فغرق فلم يوجد الا بناحية شطنوف وقيل فيما بين طرا وحلوان *(فقدم الوزير ابنه معاديوس)* وكان صبيا ويقال له معدان فأسقط عن الناس ما أسقطه أبوه من الخراج ووعد بالاحسان فاستقام له الامر ورد نساء الناس وهو خامس الفراعنة وحدث في زمانه طوفان مصر وكثر بنو اسرائيل وعابوا الاصنام فأفردوا ناحية عن البلد بحيث لايختلط بهم غيرهم وأقطعوا موضعا في قبلي منف فاجتمعوا فيه وبنوا فيه معبدا وغلب بعض الكنعانيين على الشام ومنع من الضريبة التي كانت على أهل الشام لملك مصر فاجتمع الناس الى معدان وحثوه على المسير لحربه فامتنع من المسير ولزم الهيكل فزعموا أنه قام في هيكل زحل للعبادة فتجلى له زحل وخاطبه وقال له قد جعلتك ربا على أهل بلدك وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم وسأرفعك الى فلا تخل من ذكرى فعظم عند نفسه وتجبر وأمر الناس أن يسموه ربا وترفع عن أن ينظر في شيء من أمر الملك وجعل عليه ابنه اكسامس *(فقام ابنه اكسامس في الملك)* ويقال كاسم بن معدان فرتب الناس مراتب وقسم الكور والاعمال وأمر باستنباط العمارات واظهار الصناعات ووسع على الناس في أرزاقهم وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها وزاد في القرابين وهو الذي يقال له كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع العمابقي وهو سادس الفراعنة وسموا فراعنة بفرعان الاول فصارا سما لكل من تجبر وعلا أمره فطال ملكه وأقام أعلاما كثيرة حول منف وعمل مدنا كثيرة ومناير للوقودات وطلسمات وأقام سبع سنين بأجمل أمر فلما مات وزير أبيه استخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس وكان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما متصرفا في كل فن وكانت نفسه تنازعه الملك فأصلح أمر الملك وبني مدنا من الجانبين ورأى في نجومه أنه سيكون حدث فبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع وشكا اليه القبط من الاسرائيليين فقال هم عبيدكم فأذلوهم من حينئذ وخرج الى ناحية البربر فعاث وقتل وسبي وفي أيامه بنيت منارة الاسكندرية وهاج البحر الملح فغرق كثيرا من القرى والجنان والمصانع ومات اكسامس وكان ملكه احدى وثلاثين سنة منها احدى عشرة سنة يدبر أمره ظلما فلما مات اضطرب الناس واتهموا ظلما أنه سمه فقام *(وولي لاطيس بن اكسامس)* وكان جريأ معجبا صلفا فأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم وقال أنا مستقيم ما استقمتم وان ملتم عن الواجب ملت عنكم وحط جماعة عن مراتبهم وصرف ظلما عن خلافته واستخلف غيره وأنفذ ظلما الى الصعيد في جماعة من الاسرائيليين وجدد بناء الهياكل وبنى القرى وأثار معادن كثيرة وكنز في صحراء الشرق عدة كنوز وكان يحب الحكمة ثم تجبر وعلا أمره

وأمر أن لايجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك لا كاهن ولا غيره بل يقومون على أرجلهم حتى يمضوا وزاد في أذى الناس والعنف بهم ومنع فضول ما بأيديهم وقصرهم على القوت وجمع أموالهم وطلب النساء وانتزع كثيرا منهن وفعل أكثر مما فعله من تقدم قبله واستعبد بني اسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعام وثار ظلما بالصعيد وكاتب وجوه الناس فكتب لاطيس بصرفه عن العمل فامتنع وحارب عساكره وزحف حتى دخل منف * ظلما بن قومس فرعون موسى يقال ان اسمه الوليد بن مصعب بن أراهون بن الهلوت بن قاران بن عمرو بن عمليق بن يلقع بن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح وانه من العمالقة وكان قصيرا طويل اللحية أشهل العين اليمنى صغير العين اليسرى أعرج وزعم قوم انه من القبط وان نسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم وقيل غير ذلك وكان من خبره ماذكرنا في كنيسة دموه وقال ابن عبد الحكم ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق الا العبيد والاجراء والنساء فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة يقال لها دلوكة *(فملكت دلوكة ابنة زبا)* ويقال دلوكة بنت قاران وكان لها عقل وتجارب ومعرفة وكانت في شرف منهن وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة فبنت جدارا حصنت به مصر من الاعداء وكان من حد زنج الى أفريقية الى الواحات الى بلد النوابة على كل موضع منه حرس قيام ليلهم ونهارهم يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها في ستة أشهر وهو حائط العجوز وفي أيامها بنت تدورة الساحرة البرابي في وسط منف فملكتهم دلوكة عشرين سنة حتى بلغ صبي من أبناء أكابرهم يقال له * دركون بن بلاطس ثم مات واستخلف ابنه تودست ثم توفي تودست بن دركون فاستخلف أدقاش فلم يملك الا ثلاث سنين حتى مات فاستخلف أخوه مرينا بن مرينوس ثم توفي فاستخلف استادس ابن مرينا فطغى وتكبر وسفك الدم وأظهر الفاحشة فخلعوه وقتلوه وبايعوا رجلا من أشرافهم يقال له بلطوس بن مينا كيل فملكهم أربعين سنة ثم توفي فقام ابنه مالوس ثم توفي مالوس فاستخلف أخوه مينا كيل بن بلطوس بن مينا كيل فملكهم زمانا ثم توفي واستخلف ابنه نوله بن مينا كيل فملكهم مائة وعشرين سنة وهو الاعرج الذي سبي ملك بيت المقدس وقدم به الى مصر وكان قد تمكن وطغى وبلغ مبلغاً لم يبلغه أحد ممن قبله بعد فرعون فصرعته دابته فمات وقيل له الاعرج لانه لما غزا أهل بيت المقدس ونهبهم وسبي ملكهم يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا هم أن يصعد على كرسي نبي الله سليمان ابن داود وكان بلولب لايمكن أحدا أن يصعد عليه الا برجليه جميعا فصعد برجل واحدة وهي اليمني فدار اللولب على ساقه الاخرى فاندقت فلم يزل يخمع بها الى أن مات فلذلك

سمي الاعرج * فاستخلف مرنيوس بن نولة فلكهم زمانا ثم توفي واستخلف ابنه قرقورة فلكهم ستين سنة ثم توفي واستخلف أخوه نقاس بن مرنيوس وانهدم البربا في زمنه فلم يقدر أحد على اصلاحه ثم توفي نقاس واستخلف ابنه قوميس بن نقاس فلكهم دهرا وحاربه بخت نصر وقتله وخرب مدينة منف وغيرها من المدائن وسبى أهل مصر ولم يترك بها أحدا حتى بقيت أرض مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن* وذكر في ترجمة كتاب هروشيش الاندلسي في وصف الدول والحروب أن فيما بين غرق فرعون موسى الى مائة وسبع سنين كان بمصر ملك يسمى نوشردس كان يقتل الغرباء والاضياف ويذبحهم لاوثانه ويجعل دماءهم قربانا لها وأن بعد غرق فرعون الى ثلثمائة وثمان وعشرين سنة كان بمصر ملك يسمي بروبه وكان عظيم المملكة قوي السلطان أخذ بالحرب أكثر نواحي الجنوب براً وبحرا وهو أول من حارب الروم الذين قيل لهم بعد ذلك الغوط وكان قد أرسل اليهم يدعوهم الى طاعته ويخوفهم حربه فأجابوه ليس من الرأى المحمود للملك الغني محاربة قوم فقراء لكثرة نوازل الحروب واختلاف حوادثها بالظفر والهلاك وانا لا ننتظر مجيئك بل نسرع لغارتك وأتبعوا قولهم عملا وخرج فرعون اليهم فخرجوا مسرعين اليه وهزموا جيوشه ونهبوا عساكره وأمواله وعدده وجميع ذخائره ومضوا فنهبوا أرض مصر حتى كادوا يغلبون عليها لولا وحول عرضت لهم منعتهم مما خلفها ثم انصرفوا الى بلاد الشام بحروب متصلة حتي أذلوا أهلها وجعلوهم يؤدون اليهم المغارم وأقاموا محاربين لمن خالفهم في غزوتهم خمس عشرة سنة ولم ينصرفوا الى بلادهم حتي أتتهم من نسائهم من يقلن لهم اما أن تنصرفوا واما أن نتخذ الازواج ونطلب النسل من عند المجاورين لنا فعند ذلك انصرفوا الى بلادهم وقد امتلأت أيديهم أموالا وأوقاراً جمة وقد خلفوا وراءهم ذكرا مفزعا ويقال ان ملوك مدين ملكوا مصر خمسمائة عام بعد غرق فرعون وهلاك دلوكة حتي أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داود فعاد الملك بعدهم الى القبط وان جالوت ابن بالوت لما قتله داود سار ابنه جالوت بن جالوت الى مصر وبها ملوك بمدين فأنزله ملك مصر بالجانب الغربي فأقام بها مدة ثم سار الى بلاد الغرب ويقال ان القبط ملكوا مصر بعد دلوكة وابنها مدة ستمائة سنة وعشرين سنة وعدتهم سبعة وعشرون ملكا هم ديوسقوليطا ومدته ثمان وسبعون سنة وقيل ثمان وثمانون سنة ثم ملك بعده سماناودوس ستا وعشرين سنة وقام بعده سوماناس مدة مائة سنة ثم ملك مفخراس أربع سنين ثم ملك أماناقوناس تسع سنين ثم أسحورينس ست سنين ثم فسيناخس تسع سنين ثم فسوسانس خمسا وثلاثين سنة ثم ملك سوناخوسيس احدى وعشرين سنة ثم ملك أساليون خمس عشرة سنة ثم طافالونيس ثلاث عشرة سنة ثم نطافاناسطلس خمسا وعشرين سنة ثم اساراثون تسع سنين

ثم ملك فسامرس عشر سنين ثم اوفاينواس أربعاً وأربعين سنة ثم ساياقوورنتي عشرة سنة ثم سخس الحبشي نتي عشرة سنة ثم طراحوش الحبشي عشرين سنة ثم امراس الحبشي نتي عشرة سنة ثم استطافيناس سبع سنين ثم باخفاسوس ست سنين ثم ياخو ثمان سنين ثم فساماماطيقوش أربعاً وأربعين سنة ثم بخنوقا ست سنين ثم فسامرتاس سبع عشرة سنة ثم وافرس خمسا وعشرين سنة ثم أماسلس اثنتين وأربعين سنة * وملك بعد هؤلاء مصر خمسة ملوك من ملوك بابل وهم أمرطيوش ست سنين ثم مافرطاس سبع سنين ثم اوخرس اثنتي عشرة سنة ثم فساموت مدة سنتين ثم ملك موتاطوس سبع سنين * ثم ملك ثلاثة ملوك من أثور وهم الجرامقة الذين ملكوا الموصل والجزيرة وهم نافاطانبوش ثلاث عشرة سنة ثم طوس سبع سنين ثم نافاطانيناس ثمان عشرة سنة * ثم انتقل ملك مصر منهم الى الاسكندر بن فيلبش اليوناني وهذه أسماء رومية ولعلها أو بعضها متداخل فيما تقدم ذكره ممن ملك بعد دلوكة وبين بخت نصر وبين الطوفان ألفا سنة وثمانمائة وست وخمسون سنة وأشهر ويجتمع من حساب ما وقع في التوراة أن بين الطوفان وبين خراب بيت المقدس على يد بخت نصر من السنين ألفاً وستمائة وأربعاً وثمانين سنة وهذا خلاف ما نقله المسعودى والله تعالى أعلم بالصواب

﴿ ذكر مدينة الاسكندرية ﴾

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا وقد بنيت غير مرة فأول ما بنيت بعد كون الطوفان في زمان مصرايم بن بيصر بن نوح وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقودة ثم بنيت بعد ذلك مرتين فلما كان في أيام اليونانيين جددها الاسكندر بن فيلبش المقدونى الذى قهر دارا وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية فعرفت به ومنذ جددها الاسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف الى الاسكندرية فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل على ذلك حتى ظهر دين الاسلام وقدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين وفتح الحصن والاسكندرية وصارت ديار مصر أرض اسلام فانتقل تخت الملك حينئذ من الاسكندرية الى فسطاط مصر وصار الفسطاط من بعد الاسكندرية دار مملكة ديار مصر * وسأقص عليك من أخبار الاسكندرية ما وصل اليه علمي ان شاء الله تعالى * (ذكر) أبو الحسن المسعودى في كتاب أخبار الزمان أن الكوكة وهى أمة في غابر الدهر من أهل ايلة ملكوا الارض وقسموها على ثلاثين كورة وأربعة أقسام كل قسم عمل وبنوا في كل عمل مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب وله بربا وهى بيت الحكمة وله هيكل على اسم كوكب فيه أصنام من ذهب وجعلوا الاسكندرية واسمها رقودة خمس عشرة كورة وجعلوا فيها كبار الكهنة ونصبوا في هيا كلها من أصنام.

الذهب أكثر مما نصبوا في غيرها فكان ما بها مائتا صنم من ذهب وقسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام وثلاثين مدينة فيها جميع العجائب * وذكر بطليموس في كتاب الاقاليم ووصف الجزائر والبحار والمدن أن مدينة الاسكندرية لبرج الاسد ودليلها المريخ وساعاتها أربع عشرة ساعة وطولها ستون درجة ونصف درجة يكون ذلك أربع ساعات مستوية وثلث عشر ساعة * وقال ابن وصيف شاه في ذكر أخبار مصرايم بن بيصر ابن نوح وعلمهم ايضاً عمل الطلسمات وكانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم وجنانهم وبنيانهم فعملوا لها الطلسمات فغابت ولم تعد وبنوا على غير البحر مدنا منها مدينة رقودة مكان الاسكندرية وجعلوا في وسطها قبة على اساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة اشبار وارتفاع القبة مائة ذراع فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان مما يهمهم وكان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشيء فأحرقته فلم تزل الى ان غلب البحر عليها ويقال ان الاسكندر انما عمل المنارة تشبيها بها وكان عليها ايضاً مرآة يري فيها من يقصدهم من بلاد الروم فاحتال عليهم بعض ملوكهم ووجه اليها من ازالها وكانت من زجاج مدبر قال وذكر بعض القبط ان رجلا من بني الكهنة الذين قتلهم ايساد ملك مصر صار الى ملك كان في بلاد الافرنجة فذكر له كثرة كنوز مصر وعجائبها وضمن له ان يوصله الى ملكها واموالها ويرفع عنه اذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يريد فلما اتصل بصا بن مرقونس اخي ايساد وهو ملك مصر يومئذ ان صاحب بلاد الافرنجة يتجهز اليه عمد الى جبل بين البحر الملح وشرقي النيل فأصعد اليه اكثر كنوزه وبنى عليها قبابا مصفحة بالرصاص وظهر صاحب بلاد الافرنجة في الف مركب فكان لا يمر بشيء من اعلام مصر ومنازلها الا هدمه وكسر الاصنام بمعونة ذلك الكاهن حتى اتى الاسكندرية الاولى فعاث فيها وفيما حولها وهدم اكثر معالمها الي ان دخل النيل من ناحية رشيد وصعد الى منف واهل النواحي يحاربونه وهو ينهب ما مر به ويقتل ما قدر عليه الى ان طاب المدائن الداخلة لاخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق والشداخات فأقام عليها أياما كثيرة فلم يمكنه الوصول اليها وغضب على الكاهن فقتله من أجل أن جماعة من أصحابه هلكوا فاجتمع أهل النواحي وقتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقا وأحرقوا بعض المراكب وقام أهل مصر بسحرهم وتهاويلهم فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه وقد خرج فعاد الناس الى منازلهم وقراهم ورجع الملك صا الى مدينة منف وأقام بها وتجهز لغزو بلدان الروم وبعث اليها وخرب الجزائر فهابته الملوك وتتبع الكهنة فقتل منهم خلقا كثيرا وأقام ملكا سبعا وستين سنة ومات وعمره مائة وسبعون سنة ودفن بمنف

في وسطها تحت الارض ومعه الاموال والجواهر والتماثيل والطلسمات كما فعل آباؤه منها أربعة آلاف مثقال ذهبا على صور حيوانات برية وبحرية وتمثال عقاب من حجر أخضر وتمثال تنين من ذهب وزبروا عليها اسمه وغلبته الملوك وسيرته وعهد الى ابنه تدراس قال ولما جلست جورياق ابنة طوطيس أول فراعنة مصر وهو فرعون ابراهيم الخليل عليه السلام على سرير الملك بعد قتلها لأبيها وعدت الناس بالاحسان وأخذت في جمع الاموال فاجتمع لها مالم يجتمع لملك وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم وأمرت بتجديد الهيا كل وصار من لم يرضها الى مدينة أتريب وملكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له أيداخس فعقد على رأسه تاجا واجتمع اليه جماعة فأنفذت اليه جيشا فهزموه وقتلوا أكثر أصحابه فهرب الى الشام وبها الكنعانيون فاستغاث بملكهم فجهزه بجيش عظيم ففتحت جورياق الخزائن وفرقت الاموال وقوت السحرة فعملوا أعمالهم وتقدم أيدا خس بجيوش الكنعانيين وعليها قائد منهم يقال له جيرون فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لها من عقلاء النساء الى القائد سرا عن ايداخس تعرفه رغبتها في تزوجه وانها لاتختار أحدا من أهل بيتها وأنه ان قتل ايداخس تزوجت به وسلمته ملك مصر ففرح بذلك وسم ايداخس بسم أنفذته اليه فقتله وبعث اليه بعد قتل ايداخس أنه لايجوز أن أتزوجك حتى يظهر قومك في بلدى وتبني لي مدينة عجيبة وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان واقامة الاعلام وعمل العجائب وقالت انتقل من موضعك الى غربي بلدى فثم آثار لنا كثيرة فاقتفف تلك الاعمال وابن عليها ففعل وبنى مدينة في صحراء الغرب يقال لها قيدومة وأجرى اليها من النيل نهرا وغرس حولها غروسا كثيرة وأقام بها منارا عاليا فوقه منظر مصفح بالذهب والفضة والزجاج والرخام وهي تمده بالاموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لايعلم فلما فرغ منها قالت له ان لنا مدينة أخرى حصينة كانت لاوائلنا وقد خربت منها أمكنة وتشعث حصنها فامض اليها واعمل في اصلاحها حتي أنتقل انا الي هذه المدينة التي بنيتها فاذا فرغت من اصلاح تلك المدينة فأنفذ الى جيشك حتى اصير اليك وابعد عن مدينتي واهل بيتي فاني أكره أن تدخل علي بالقرب منهم فمضى وجد في عمل الاسكندرية الثانية * واهل التاريخ يذكرون ان الذى قصدها الوليد بن دومع العمليقي ثاني الفراعنة وكان سبب قصدها انه كان به علة فوجه الى الاقطار ليحمل اليه من مائها حتى يرى مايلائمه فوجه الى مملكة مصر غلاما فوقف على كثرة خيراتها وحمل اليه من مائها والطافها وعاد اليه فعرفه حال مصر فسار اليها في جيش كثيف وكاتب الملكة يخطبها لنفسه فأجابته وشرطت عليه ان يبنى لها مدينة يظهر فيها ايده وقوته ويجعلها لها مهرا فأجابها وشق مصر الى ناحية الغرب فبعثت اليه اصناف الرياحين والفواكه وخلقت وجوه الدواب فمضى الى الاسكندرية وقد خربت بعد خروج

العادية منها فنقل ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع اساس مدينة عظيمة وبعث اليها مائة الف فاعل وأقام في بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من المال وكلما بني شيئاً خرج من البحر دواب فتقلعه فاذا أصبح لم يجد من البنـاء شيئاً فاهتم لذلك وكانت جورياق قد أنفذت اليه الف رأس من المعز اللبون يستعمل البانها في مطبخه وكانت مع راع تثق به يرعاها هنالك فكان اذا اراد ان ينصرف عند المساء خرجت اليـه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسه اليها فاذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه فان صرعها كانت له وان صرعته اخذت من المعز رأسين فكانت طول الايام تصرعه وتأخذ الغنم حتى اخذت اكثر من نصفهـا وتغير باقيها لشغله بحب الجارية عن رعيها ونحل جسمه فمر به صاحبه وسأله عن حاله فأخبره الخبر خوفا من سطوته فلبس ثياب الراعي وتولى رعى الغنم يومه الى المساء فخرجت اليه الجارية وشرطت عليه الشرط فأجابها وصارعها فصرعها وشدها فقالت ان كان ولا بد من اخذي فسلمني لصاحبي الاول فانه الطف بي وقد عذبته مدة فردها اليه وقال له سلها عن هذا البنيان الذي نبنيه ويزال من ليلته من يفعل ذلك وهل في ثباته من حيلة فسألها الراعي عن ذلك فقالت ان دواب البحر التي تنزع بنيانكم فقال فهل من حيلة قالت نعم تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية وتجعلون فيها اقواما يحسنون التصوير ويكون معهـم صحف وانقاش وزاد يكفيهم اياما وتحمل التوابيت في المراكب بعـد ما تشد بالحبال فاذا توسطوا الماء امروا المصورين أن يصوروا جميع ما يمر بهم ثم ترفع تلك التـوابيت فاذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها اشباها من صفر أو حجارة أو رصاص وانصبوها قدام البنيان الذي تبنونه من جانب البحر فان تلك الدواب اذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد فعرف الراعي صاحبـه ذلك ففعله وتم البنيان وبنى المدينة * وقال قوم ان صاحب البنـاء والغنم هو جيرون كان قصدهم قبل الوليد وانما اتاهم الوليد بعد جورياق وقهرهم وملك مصر * وذكروا ان الاموال التي كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة ولم تتم فأمر الراعي ان يخبر الجارية فقالت ان فى المدينة التي خربت ملعبا مستديرا حوله سبعة عمد على رؤسها تماثيل من صفر قيام فقرب لكل تمثال منها ثورا سمينا ولطخ العمود الذي تحته من دم الثور وبخره بشعر من ذنبه وشيء من نحاتة قرونه وأظلافه وقل له هذا قربانك فأطلق لي ماعندك ثم قس من كل عمود الى الجهة التي يتوجه اليها وجه التمثال مائة ذراع واحفر عند امتلاء القمر واستقامة زحل فانك تنتهي بعد خمسين ذراعا الى بلاطة عظيمة فلطخها بمرارة الثور واقلعها فانك تنزل الى سرب طوله خمسون ذراعا في آخره خزانة مقفلة ومفتاح القفل تحت عتبـة البـاب فخذه ولطخ الباب ببقية المرارة ودم الثور وبخره بنحاتة قرونه وأظلافه وشعر ذنبه وادخل فانه يستقبلك صنم فى عنقه لوح من صفر مكتوب فيه جميع مافي الخزانة فخذ ماشئت ولا تعترض

ميتا تجده ولا ماعليه وكذلك كل عمود وتمثاله فانك تجد مثل تلك الخزانة وهذه نواويس سبعة من الملوك وكنوزهم فلما سمع ذلك سر به وامتثله فوجد مالا يدرك وصفه ووجد من العجائب شيئاً كثيرا فتم بناء المدينة وبلغ ذلك جورياق فساءها وكانت قد أرادت اتعابه وهلاكه بالحيلة ويقال انه وجد فيما وجد درجا من ذهب مختوما فيه مكحلة زبرجد فيها ذرور أخضر ومعها عرق أحمر من اكتحل من ذلك الذرور بالعرق وكان أشيب عاد شابا واسود شعره وأضاء بصره حتى يدرك الروحانيين ووجد تمثالا من ذهب اذا ظهر غيمت السماء وأمطرت ومثال غراب من حجر اذا سئل عن شئ صوت وأجاب عنه ووجد في كل خزانة عشر أعجوبات * فلما فرغ من بناء المدينة وجه الى جورياق يحثها على القدوم اليه فحملت اليه فرشا فاخراً ليبسطه في المجلس الذى يجلس فيه وقالت له اقسم جيشك أثلاثا فأنفذ الى ثلثه حتى اذا بلغت ثلث الطريق فأنفذ الثلث الآخر فاذا جزت نصف الطريق فأنفذ الثلث الباقي ليكونوا من ورائي لئلا يراني أحد اذا دخلت عليك ولا يكون عندك الا صبية تثق بهم يخدمونك فاني أوافيك في جوار تكفيك الخدمة ولا احتشمهن ففعل وأقامت تحمل الجهاز اليه والاموال حتى علم بمسيرها فوجه اليها ثلث جيشه فعملت لهم الاطعمة والاشربة المسمومة وأنزلهم جواريها وحشمها وقدموا اليهم الاطعمة والاشربة والطيب وأنواع اللهو فلم يصبح منهم أحد حيا وسارت فلقيها الثلث الآخر ففعلت به مثل ذلك وهي توجه اليه انها أنفذت جيشه الى قصرها ومماكنها يحفظونهما وسارت حتى دخلت عليه هي وظئرها وجواريها فنفخت ظئرها في وجهه نفخة بهت اليها ورشت عليه ما كان معها فارتعدت أعضاؤه وقال من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبته النساء ثم انها قصدت عروقه وقالت دماء الملوك شفاء وأخذت رأسه ووجهت به الى قصرها ونصبته عليه وحولت تلك الاموال الى مدينة منف وبنت منارا بالاسكندرية وزبرت عليه اسمها واسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت فلما بلغ خبرها الملوك هابوها وأطاعوها وهادوها وعملت بمصر عجائب كثيرة وبنت على حد مصر من ناحية النوبة حصنا وقنطرة يجرى ماء النيل من تحتها واعتلت فقلدت ابنة عمها زلفى بنت مأمون وماتت * وقال ابن جرداويه روى أن الاسكندرية بنيت في ثلثمائة سنة وأن اهلها مكثوا سبعين سنة لايمشون فيها بالنهار الا بخرق سود مخافة على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ومنارتها العجيبة على سرطان زجاج في البحر وانه كان فيها سوى أهلها ستمائة ألف من اليهود خول لاهلها * وقال ابن وصيف شاه وكانت العمارة ممتدة في رمال رشيد والاسكندرية الى برقة فكان الرجل يسير في أرض مصر فلا يحتاج الى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ولا يسير الا في ظلال تستره من حر الشمس وعمل الملك صا بن قبطيم في تلك الصحارى قصوراً وغرس فيها غروسا وساق اليها من النيل أنهارا فكان يسلك من

الجانب الغربي الى حد الغرب فى عمارة متصلة فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكي ما رآه فيها من الآثار والعجائب * وقال ابن عبد الحكم وكان الذى بنى الاسكندرية وأسس بناءها ذو القرنين الرومى واسمه الاسكندر وبه سميت الاسكندرية وهو أول من عمل الوشى وكان أبوه أول القياصرة وقيل انه رجل من اهل مصر اسمه مرزبان مرزبه اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح صلى الله عليه وسلم وقيل كان من أهل لوبية كورة من كور مصر الغربية وقال ابن لهيعة وأهلها روم ويقال هو رجل من حمير قال تبع

قد كان ذوالقرنين جدي مسلما * ملكا تدين له الملوك بحشد
بلغ المغارب والمشارق يبتغي * أسباب علم من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها * فى عين ذى خلب وثاط حرمد

ويروى قد كان ذوالقرنين قبلى مسلما وحدثنى عثمان بن صالح حدثنى عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن سعد بن مسعود التجيبي عن شيخين من قومه قالا كنا بالاسكندرية فاستطلنا يومنا فقلنا لو انطلقنا الى عقبة بن عامر نتحدث عنده فانطلقنا اليه فوجدناه جالسا فى داره فأخبرناه انا استطلنا يومنا فقال وأنا مثل ذلك انما خرجت حين استطلته ثم أقبل علينا فقال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أخدمه فاذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب فقالوا استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرفت اليه فأخبرته بمكانهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالى ولهم يسألوني عما لا أدري انما أنا عبد لا أعلم الا ما علمني ربي ثم قال ابلغني وضوأ فتوضأ ثم قام الى مسجد بيته فركع ركعتين فلم ينصرف حتي عرفت السرور فى وجهه والبشر ثم انصرف فقال أدخلهم ومن وجدت بالباب من أصحابى فأدخله قال فأدخلتهم فلما وقفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم ان شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا وان أحببتم تكلمتم وأخبرتكم قالوا بلى أخبرنا قبل أن نتكلم قال أحببتم أن تسألوني عن ذى القرنين وسأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم أن أول امره أنه غلام من الروم أعطى ملكا فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر فابتني عنده مدينة يقال لها الاسكندرية فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استقله فرفعه فقال انظر ما تحتك فقال أرى مدينتى وأرى مدائن معها ثم عرج به فقال انظر فقال قد اختلطت مدينتي مع المدائن فلا أعرفها ثم زاد فقال انظر فقال أرى مدينتى وحدها ولا أري غيرها قال له الملك انما تلك الارض كلها والذى تري يحيط بها هو البحر وانما أراد ربك أن يريك الارض وقد جعل لك سلطانا فيها سوف يعلم الجاهل ويثبت العالم فسار حتى بلغ مغرب الشمس ثم سار حتى بلغ مطلع

الشمس ثم أتى السدين وهما جبلان لينان يزلق عنهما كل شئ فبنى السد ثم جاز يأجوج ومأجوج فوجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ثم قطعهم فوجد امة قصارا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار ثم مضى فوجد أمة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة ثم افضى الى البحر المدير بالارض فقالوا نشهد أن امره هكذا كما ذكرت وانا نجده هكذا في كتابنا * وعن خالد بن معدان الكلاعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال ملك مسح الارض من تحتها بالاسباب قال خالد وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أمارضيتم أن تسموا بالانبياء حتى تسميتم بالملائكة وقال قتادة عن الحسن كان ذو القرنين ملكا وكان رجلاصالحا قال وانما سمى ذا القرنين لان عليا رضى الله عنه سئل عن ذي القرنين فقال لم يكن ملكا ولا نبيا ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله ونصح لله فنصحه الله بعثه الله عز وجل الى قومه فضربوه على قرنيه فمات فسمى ذا القرنين ويقال انما سمى ذا القرنين لأنه جاوز قرني الشمس من المغرب والمشرق ويقال انما سمى ذا القرنين لانه كان له غديرتان من شعر رأسه يطافيهما وقيل بل كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة * وعن ابن شهاب انما سمى ذا القرنين لانه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مشرقها * وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال كان أول شأن الاسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس وكان أول من عمرها وبنى فيها فلم تزل على بنائه ومصانعه ثم تداولها ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الاسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الارض اتخذ بها مجالسا وبنى فيها مسجدا ثم ان ذا القرنين ملكها فهدم ما كان من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم الابناء سليمان لم يهدمه ولم يغيره وأصلح ما كان رث منه وأقر المنارة على حالها ثم بنى الاسكندرية من أولها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولها الملوك بعده من الروم وغيرهم ليس من ملك الا يكون له بها بناء يضمه بالاسكندرية يعرف به وينسب اليه * قال ابن لهيعة وبلغني أنه وجد بالاسكندرية حجر مكتوب فيه أنا شداد بن عاد وأنا الذى نصب العماد وحيد الاحياد وشد بذواعه الواد بنيتهن اذلا شيب ولاموت واذ الحجارة في اللين مثل الطين وفي رواية وكنزت في البحر كنزا على اثنى عشر ذراعا لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن لهيعة والاحياد كالمغار وقال أبو على القالى في كتاب الامالى وأنشدا بن الاعرابي وغيره

تسألنى عن السنين كم لى * فقلت لو عمرت عمر الحسل * أو عمر نوح زمن الفطحل
لو أنني أوتيت علم الحكل * وعشت دهرا زمن الفطحل * لكنت رهن هرم أو قتل

وفي رواية علم سليمان كلام النمــل * أيام كان الصخر مثل الوحل

وقال آخر زمن الفطحل اذ السلام رطاب * وعند هم ان زمن الفطحل زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب وحسنت أحوال اهله وقال بعضهم زمن الفطحل زمن لم يخلف بعد وقوله علم الحكل الحكل مالا يسمع صوته من الحيوان وهذا الرجز لروبة بن العجاج بن روبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حي بن بكر بن ربيعة بن سعد بن مالك بن زيد مناه بن تميم وذلك أنه وردماء لعكل فرأى فتــاة فأعجبته فخطبها فقــالت أرى سنافهل من مال قال نعم قطعة من ابل قالت فهل من ورق قال لا قالت ياآل عكل أكبرا واممارا فقال روبة لما ازدوت قدرى وقات ابلى * تألفت واتصلت بعكل * حظي وهزت رأسها تستبلى تسألني عن السنين كم لى * فقلت لو عمرت عمر الحسل * أو عمر نوح زمن الفطحل والصخر مبتل كطين الوحل

وفي رواية لو انني أوتيت علم الحكل * علم سليمان كلام النمــل

وسألت أبا بكر بن دريد عن زمن الفطحل فقــال تزعم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارة رطبة * قال ابن عبد الحكم ويقال ان الذي بني الاسكندرية شداد بن عاد والله أعلم * وكانت الاسكندرية ثلاث مدن بعضها الى جنب بعض منيعة وهي موضع المنارة وما والاها والاسكندرية وهي موضع قصبــة الاسكندرية اليوم ونقيطة وكان على كل واحدة منهن سور وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا وقيل كان على الاسكندرية سبعة حصون منيعة وسبعة خنادق قال وان ذا القرنين لما بنى الاسكندرية رخمهــا بالرخام الابيض جدرها وأرضها فكان لباسهم فيها السواد والحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام واذا كان القمر أدخل الرجل الذى يخيط بالليل في ضوء القمر مع بياض الرخام الخيط في ثقب الابرة ويقال بنيت الاسكندرية في ثلثمائة سنة وسكنت ثلثمائة سنة وخربت ثلثمائة سنة ولقد مكثت سبعين سنة مايدخلها أحد الاوعلى بصره خرقة سوداء من بياض جصها وبلاطها ولقد مكثت سبعين سنة ما يستسرج فيها قال وكانت الاسكندرية بيضاء تضئ بالليل والنهار وكانوا اذا غربت الشمس لم يخرج أحد من بيته ومن خرج اختطف وكان منهم راع يرعى على شاطئ البحر فكان يخرج من البحر شئ فيــأخذ من غنمه فكمن له الراعى في موضع حتى خرج فاذا جارية قد نفشت شعرها وما نعته عن نفسها فقوي عليها فذهب بها الى منزله فأنست به فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم فقالوا من خرج منا اختطف فهيأت لهم الطلسمات فكانت أول من وضع الطلسمات بمصر في الاسكندرية وقيل كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة النهار كالعجين فاذا انتصف النهار اشتــد * وقال المسعودىّ ذكر جماعــة

من أهل العلم أن الاسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده وسار حتي يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتي انتهى الى موضع الاسكندرية فأصاب فيها أثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام وفي وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الاول من أقلام حمير وملوك عاد أنا شداد بن عاد شددت بساعدى الواد وقطعت عظيم العماد وشوامخ الجبال والاطواد وبنيت ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها في البلاد وأردت أن أبني هنا مدينة كارم وأنقل اليها كل ذى قدم وكرم من جميع العشائر والامم وذلك اذ لا خوف ولا هرم ولا اهتمام ولا سقم فاصابني ما أعجلني وعما أردت قطعني ومع وقوعه طال همي وشجني وقل نومي وسكنى فارتحلت بالامس عن دارى لا لقهر ملك جبار ولا لخوف جيش جرار ولا عن رغبة ولا عن صغار ولكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى فلا يغتر بالدنيا بعدى فانها غرارة غدارة تأخذ منه ما تعطي وتسترجع منه ما تؤتى وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها * فنزل الاسكندر مفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث يحشر الصناع من البلاد وخط الأساس وجعل طولها وعرضها أميالا وجمع اليها العمد والرخام وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والاحجار من جزيرة صقلية وبلاد أفريقية وأقريطش وأقاصي بحر الروم مما يلي مصب بحر اقيانوس وحمل اليه أيضاً من جزيرة رودس وأمر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة وجعل على كل قطعة من الارض خشبة قائمة وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام وكان أمام مضربه وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتاً وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع انهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرساً صغيراً حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك في وقت يختاره وطالع سعد فحرك الاسكندر رأسه وأخذته نعسة في حال ارتقابه الوقت المحمود فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال وخفق ما عليها من الاجراس الصغار وكان ذلك معمولا بحركات هندسية وحيل حكمية فلما رأى الصناع تلك الحبال قد تحركت وسمعوا الاصوات وضعوا الاساس دفعة واحدة وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر فأخبر بذلك فاعجب وقال أردت أمراً وأراد الله غيره ويأبي الله الا ما يريد أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك اياها وان الاسكندر لما أحكم بناءها وثبت أساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب

البحر فأتت على جميع البنيان فقال الاسكندر حين أصبح هذا بدو الخراب في عمارتها وتحقق مراد البارى سبحانه من زوالها فتطير من فعل الدواب فلم تزل البناة فى كل يوم تبني وتحكم ويوكل من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر فيصبحون وقد خرجت وخربت البنيان فقلق الاسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر فأقبل يفكر ما الذى يصنع وأى حيلة تنفع فى ذلك حتي تدفع الاذية عن المدينة فسنحت له الحيلة عند خلوه بنفسه وايراده الامور واصدارها فلما أصبح دعا الصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الاطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء الى التابوت وقد جعل فيها مواضع للحبال ودخل الاسكندر في التابوت ورجلان من كتابه ممن له علم باتقان التصوير وأمر أن تسد عليه الابواب وأن تطلى بما ذكرنا من الاطلية وأمر بمركبين عظيمين فأخرجا الى لجة البحر وعلق في التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا وجعل التابوت بين المركبين وألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا وشد حبال التابوت الى المركبين وطول حباله فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر فاذا بصور الشياطين على مثال الناس وفيهم من له مثل رؤس السباع وفي أيديهم الفوس مع بعضهم وفي أيدى بعضهم المناشير والمقامع يحكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء فأثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور وحكوها بالتصوير في القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقها وقدودها ثم حرك الحبال فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت فخرج الاسكندر وأمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صور فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر ثم أمرهم فبنوا فلما جن الليل ظهرت الدواب والآفات من البحر فنظرت الى صورها على العمد مقابلة الى البحر فرجعت ولم تعد بعد ذلك فبنيت الاسكندرية وشيدت وأمر الاسكندر أن يكتب على أبوابها هذه الاسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور ولم يرد البارى عز وجل ملك السموات والارض ومفنى الامم أن يثبتها كذلك فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها وآتاني الله عز وجل من كل شئ علما وحكمة وسهل لى وجوه الأسباب فلم يتعذر علىّ في العالم شئ مما أردته ولا امتنع عني شئ مما طلبته لطفاً من الله عز وجل وصنعاً لى وصلاحا لعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين لا اله إلا هو رب كل شئ ورسم بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الاحداث بعده في مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب وما

يؤول امرها اليه الى وقت دثور العالم * (وكان بناء الاسكندرية طبقات) وتحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق ومتنفسات للضياء ومنافذ للهواء وقد كانت الاسكندرية تضئ بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر وكانت أسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة كلها لايصيب أهلها شئ من المطر وكان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الالوان بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصول وربما تعلق في المدينة شقاق الحرير الاخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه فلما أحكم بناءها وسكنها أهلها كانت آفات البحر وسكانه على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير فلما علم بذلك الاسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعي المسال وهى باقية الى هذه الغاية كل واحد من هذه الاعمدة على هيئة السروة وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة * قال مؤلفه رحمه الله فيما تقدم من حكاية ابن وصيف شاه مايتبين به وهم ما نقله المسعودى من أن الاسكندر هو الذي عمل التابوت حتى صوّر أشكال حيوانات البحر فان ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر وكذلك ما ذكره المسعودي من أن المسال من عمل الاسكندر وهم أيضا بل هذه المسال هى المناير التى كان ينور عليها والاعلام التى كانت ملوك مصر القدماء تنصبها وهى من أعمال ملوك القبط الاول ومن أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان

ذكر الاسكندر

هو الاسكندر بن فليبش بن آمنته (ويقال آمنتاس) بن هركلش (ويقال هرقول) الجبار الذي هو ابن الاسكندر الاعظم ولى أبوه فليبش الملك فى بلد مجدونية (ويقال مقدونية) خمساً وعشرين سنة استنبط فيها ضروبا من المكر وابتدع أنواعا من الشر تقدم فيها كل من ولى الملك بها قبله * وكان في اول امره قد جعله اخوه الاسكندر رهينة عند امير من الروم فأقام عنده ثلاث سنين وكان فيلسوفا فتعلم عنده ضروب الفلسفة فلما قتل اخوه الاسكندر اجتمع الناس على تولية فليبش فولوه اميرا فقام فى السلطان مقاماً عظيما فحارب الروم وغلب عليهم ومضى الى البرية فقتل بها من الناس آلافا وغلب على مدائن فاجتمع له جمع لا يقاد وجيش لا يرام فأذل جميع الروم وذهبت عينه في بعض الحروب وغمر البلدان والمدائن عمارة وهدما وسبيا وانتهابا ثم حشد جميع أهل بلد الروم وعبى عسكرا فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين ومن غيرهم من أجناس اليونانيين يريد غزو الفرس * فبينما هو يجمع هذا الجمع نظر في تزويج ابنة

له يقال لها قلوبطره من ختنـه أخي امرأته وخال ولده الاسكندر وجلس قبل العرس بيومين يحدث قواده اذ سئل عن أي الموتات أحق أن يتمناها الانسان فقال الواجب على الرجل القوي الظافر المجرب يريد نفسه أن لايتمنى الموت الا بالسيف فجأة لئلا يعذبه المرض وتحل قوته الاوجاع فعجل له ما تمنى فى ذلك العرس وذلك أنه حضر لعبا كان على الخيل بين ولده الاسكندر وختنه الاسكندر فبينما هو في ذلك غافله أحد أحداث الروم بطعنة فقتله بها ثأرا بأبيه عند ما تمكن منه منفردا فولى الاسكندر الملك بعد أبيه فليبش وكان أول شئ أظهر فيه قوته وعزمه في بلد الروم وكانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين الى طاعة الفرس فدرسهم واستأصلهم وخرب مدنهم وجعلهم سبيا مبيعا وجعل سائر بلادهم وكورهم تؤدى اليه الخراج ثم قتل جميع أختانه وأكثر أقاربه فى وقت تعبيته لمحاربة الفرس وكان جميع عسكره اثنين وعشرين ألف فارس وستين ألف راجل وكانت مراكبه خمسمائة مركب وثمانين مركبا فحرك بهذه العدة كبار ملوك الدنيا وسار الى الاسكندرية ودخل بيت المقدس وقرب فيه لله تعالى قربانا وخرج يريد محاربة دارا وكان في عسكر دارا ملك الفرس في أول ملاقاته اياه ستمائة ألف مقاتل فغلبه الاسكندر وكانت اذ ذاك على الفرس وقعة شنعاء ونكبة دهياء قتل فيها منهم عدد لايحصي ولم يقتل من عسكر الاسكندر الا مائة وعشرون فارسا وتسعون راجلا * ومضى الاسكندر ففتح مدائن وانتهب ما فيها فبلغه أن دارا قد عبى وأقبل نحوه بجمع عظيم فخاف أن يلحقه في ضيق الجبال التى كان فيها فقطع نحوا من مائة ميل في سرعة عجيبة حتى بلغ مدينة طرسوس وكاد يهلك لفرط البرد حتى انقبض عصبه فلاقاه دارا فى ثلثمائة ألف راجل ومائة الف فارس فلما التقى الجمعان كاد الاسكندر يفر لكثرة ما كان فيه دارا وقلة ما كان فيه ووقع القتال بينهما وباشر القواد الحرب بأنفسهم وتنازل الابطال واختلف الطعن والضرب وضاق الفضاء بأهله فباشر كلا الملكين الحرب بأنفسهما دارا والاسكندر وكان الاسكندر أكمل أهل زمانه فروسية وأشجعهم وأقواهم جسما فباشرا حتى جرحا جميعا وتمادى الحرب بينهما حتى انهزم دارا ونزلت الوقيعة بالفرس فقتل من راجلهم نحو من ثمانين ألفا ومن فرسانهم نحو من عشرة آلاف وأسر منهم نحو من أربعين ألفا ولم يسقط من عسكر الاسكندر الا مائتان وثلاثون راجلا ومائة وخمسون فارسا فانتهب الاسكندر جميع عسكر الفرس وأصاب فيه من الذهب والفضة والامتعة الشريفة مالا يحصى كثرة وأصيب من جملة الاساري أم دارا وزوجته واخته وابنتاه فطلب دارا من الاسكندر فديتهن بنصف ملكه فلم يجبه الى ذلك فعبى دارا مرة ثالثة وحشد الفرس عن آخرهم واستجاش بكل من قدر عليه من الامم فبعث الاسكندر قائدا في أسطول للغارة على بلد الفرس ومضي الاسكندر الى الشام فتلقاه هنالك

ملوك الدنيا خاضعين له فمقاعن بعض ونفى بعضا وقتل بعضا ومضى الى احراز طرسوس وكانت مدينة زاهرة قديمة عظيمة الشان وأهلها قد وثقوا بعون أهل أفريقيــة لهم لصهر كان بينهم فحاصرهم فيها حتى افتتحها ومضى منها الى رودس والى مصر فانتهب الجميع وبني مدينة الاسكندرية بأرض مصر وقال هروشيوش وله في بنيانها أخبار طويلة وسياسات كرهنــا تطويل كتابنابها * ثم ان دار المــايشس من مصالحته أقبل في أربعمائة ألف راجل ومائة ألف فارس فتلقى الاسكندر مقبلا من ناحيــة مصر في أعمال مدينــة طرسوس فكانت بينهما معركة عجيبة شنيعة اجتهادا من الروم على ما كانوا خبروه واعتادوا من الغلبة والظفر واجتهادا من الفرس بالتوطين على الهلاك وتفضيل الموت على الرق والعبودية فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه في تلك المعركة فلما نظر دارا الى أصحابه يتغلب عليهم ويهزمون عزم على استعجال الموت في تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه والصبر حتى يقتل معترضا للقتل فلطف به بعض قواده حتى سلوه فانهزم وذهبت قوة الفرس وعزهم وذل بعــدها سلطانهم وصار بلد المشرق كله في طاعة الروم وانقطع ملك الفرس مدة أربعمائة عام وخمسين عاما واشــتغل الاسكندر بتحصيل ما أصاب في عسكر الفرس والنظر فيــه وقسمته على عسكره ثلاثين يوما ثم مضى الى مدينة الفرس التي كانت رأس مملـكتهم والتي اجتمعت فيها اموال الدنيا ونعمها فهدمها ونهب ما فيها فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم مكبلا في كبول من فضة فتهيأ وخرج في ستة آلاف فوجده بالطريق مجروحا جراحات كثيرة فلم يلبث ان هلك منها فأظهر الاسكندر الحزن عليه والمرثية له وأمر بدفنه في مقابر الملوك من أهل مملكته وكان في أمر هذه الثلاث معارك عبرة لمن اعتبر ووعظ لمن اتعظ اذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف بين راكب وراجل من أهل بلد آسيا وهي العراق وقد كان قتل من أهل تلك المملـكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف الى ألف ألف ما بين راكب وراجل من أهل بلد العراق والشام وطرسوس ومصر وجزيرة رودس وجميع البلدان الذين درسهم الاسكندر أجمعــين وكان سلطان الدنيــا مقسوما بين قواده بعد ما زلزل بدواهيه العظيمة العالم كله وعم أهله بعضا بالمنــايا الفظيعة وبعضا بالتوطين عليها والمباشرة لاهوالها وأوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم في اليونانيين بعده بيطليموس تهويلا للاعداء لان معناه الحربي فهذا هو الصحيح من خبر الاسكندر فلا يلتفت الى ما خالفه * ويقال انه كان أشقر أزرق وهو أول من سمر بالليــل وكان له قوم يضحكونه ويحكون له الخرافات يريد بذلك حفظ ملـكه وحراسة نفسه لا اللذة وبه اقتدي الملوك في السمر واتخاذ المضحكين والمخرفين .

﴿ ذكر تاريخ الاسكندر ﴾

قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني تاريخ الاسكندر اليوناني الذي يلقبه بعضهم بذي القرنين على سني الروم وعليه عمل اكثر الامم لما خرج من بلاد يونان وهو ابن ست وعشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس * ولما ورد بيت المقدس أمر اليهود بترك تاريخ داود وموسى عليهما السلام والتحول الى تاريخه فأجابوه وانتقلوا الى تاريخه واستعملوه فيما يحتاجون اليه بعد أن عملوه من السنة السادسة والعشرين لميلاده وهو أول وقت تحركه ليتموا ألف سنة من لدن موسى عليه السلام وبقوا معتصمين بهذا التاريخ ومستعملين له وعليه عمل اليونانيين وكانوا قبله يؤرخون بخروج يونان بن نورس عن بابل الى المغرب* وأول تاريخ الاسكندر يوم الاثنين اول تشرين الاول وموافقه اليوم الرابع من بابه ومبادي الايام عندهم من وقت طلوع الشمس الى وقت غروبها والى أن يصبح الصباح وتطلع الشمس فقد كمل يوم بليلته ومبادي الشهور ترجع الى عدد واحد له نظام يجرى عليه دائما وعدد شهور سنتهم اثنا عشر شهرا يخالف بعضها بعضا في العدد وهذه أسماؤها وعدد أيام كل شهر منها (تشرين الاول) أحد وثلاثون يوما (تشرين الثانى) ثلاثون يوما (كانون الاول) أحد وثلاثون يوما (كانون الثانى) أحد وثلاثون يوما (شباط) ثمانية وعشرون يوما وربع (آذار) أحد وثلاثون يوما (نيسان) ثلاثون يوما (ايار) أحد وثلاثون يوما (حزيران) ثلاثون يوما (تموز) أحد وثلاثون يوما (آب) أحد وثلاثون يوما (أيلول) ثلاثون يوما فسبعة أشهر كل شهر منها أحد وثلاثون يوما وأربعة أشهر كل شهر منها ثلاثون يوما وشهر واحد ثمانية وعشرون يوما وربع يوم وذلك انهم جعلوا شباط كل ثلاث سنين متواليات ثمانية وعشرين يوما وجعلوه في السنة الرابعة تسعة وعشرين يوما فيكون عدد أيام سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم ويجعلون السنة الرابعة ثلثمائة وستة وستين يوما ويسمونها السنة الكبيسة وانما زادوا الربع في كل سنة ليقرب عدد أيام سنتهم من عدد أيام السنة الشمسية حتى تبقى امورهم على نظام واحد فتكون شهور البرد وشهور الحرّ وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر في وقت معلوم من السنة لا يتغير وقت شئ من ذلك البتة وكان ابتداء الكبيس في السنة الثالثة من ملك الاسكندر وبين يوم الاثنين اول يوم من تاريخ الاسكندر هذا وبين يوم الخميس أول شهر المحرم من السنة التى هاجر نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة تسعمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة ومائة وخمسة وخمسون يوما وبينه وبين يوم الجمعة أول يوم من الطوفان ألفا سنة وسبعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة ومائة وثلاثة وتسعون يوما وبين ابتداء ملك بخت نصر وبين أول تاريخ الاسكندر أربعمائة وخمس وثلاثون سنة شمسية ومائتا يوم وثمانية

وثلاثون يوما * وقال أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية الشهر المسمى تموز فيما ذكر القبط بحسب ما وجدت في كتبهم اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة وهو أنه دعا ملكا الى عبادة الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر وان الملك قتله وعاش بعد القتلة ثم قتله قتلات بعد ذلك قبيحة وفي كلها يعيش ثم مات في آخرها وان شهورهم هذه كل واحد منها اسم رجل فاضل عالم كان في القديم من النبط الذين كانوا مكان اقليم بابل قبل الكسدانيين وذلك أن تموز هذا ليس من الكسدانيين ولا الكنعانيين ولا العبرانيين ولا الجرامقة وانما هو من الخرناسيين الاولين ولذلك يقولون في كل شهورهم انها اسماء رجال مضوا وان تشرين الاول وتشرين الثانى اسما أخوين كانا فاضلين في العلوم وكذلك كان كانون الاول وكانون الثاني وان شباط اسم رجل نكح ألف امرأة أبكارا كلهن ولم ينسل نسلا ولا ولد ولدا فجعلوه فى آخر الشهور لنقصانه عن النسل فصار النقصان من العدد فيه والصابئون من البابليين والخرناسيين جميعا الى وقتنا هذا ينوحون ويبكون على تموز فى الشهر المسمى تموز فى عيد لهم فيه منسوب الى تموز ويعددون تعديدا عظيما وخاصة النساء فانهن يقمن ههنا جميعا وينحن ويبكين على تموز ويهذين فى أمره هذيانا طويلا وليس عندهم علم من أمره اكثر من أن يقولوا هكذا وجدنا أسلافنا ينوحون ويبكون على تموز في هذا العيد المنسوب الى تموز والنصارى تذكر أنهم يعملونه لرجل يسمى جورجيس أحد حوارى عيسى عليه السلام دعا ملكا من الملوك الى دين النصرانية فعذبه الملك بتلك القتلات فلا أدري وقع الى النصارى قصة تموز فأبدلوا مكانها اسم جورجيس وخالفوا الصابئين في الوقت لان الصابئين يعملون ذكران تموز أول يوم من شهر تموز والنصارى يعملون لجورجيس في آخر نيسان ويقال ان بعض ملوك رومية زاد في شهور الروم كانون الثاني وشباط فان شهورهم كانت الى زمانه عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما * ويقال ان فيوفيوس أول من ملك مدينة رومية وانه أقام ملكا ثلاثا وأربعين سنة وزاد كانون الثاني وشباط في شهور الروم بحكم انها كانت الى ذلك الزمان عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما وكان سبب نقص شباط يومين وقوع غارة في أيام فيطن رئيس جيش الروم مع خلاف وحروب بينه وبين فريوريوس آلت الى نصرة فيطن وأخذه مملكة الروم وأمر بفريوريوس فنودى عليه أعيا مرديا وتفسيره أخرج ياشباط ثم غرق في البحر وسموا شهر شباط فريوريوس ليكون تذكار سوء له فان هذا الفعل كان في يومي التاسع والعشرين والثلاثين من شباط فنقصوهما من شباط وزادوهما في تموز وكانون الثاني فجعلوا كل شهر منهما أحدا وثلاثين يوما ثم بعد زمان جاء ملك آخر فقال لايحسن أن يكون شباط في وسط السنة فنقله الى آخرها ولم يزل الروم من ذلك الوقت يتطيرون من شباط

ذكر الفرق بين الاسكندر وذى القرنين وانهما رجلان

اعلم أن التحقيق عند علماء الاخبار أن ذا القرنين الذى ذكره الله فى كتابه العزيز فقال ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شئ سببا الآيات عربي قد كثر ذكره في أشعار العرب وأن اسمه الصعب بن ذى مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال ذى سدد بن عادذى منح بن عامر الملطاط ابن سكسك بن وائل ابن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وانه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة ويقال لهم أيضا العرب العرباء وكان ذو القرنين تبعا متوجا ولما ولي الملك تجبر ثم تواضع لله واجتمع بالخضر وقد غلط من ظن أن الاسكندر بن فليبش هو ذو القرنين الذى بني السد فان لفظة ذو عربية وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن وذاك رومي يوناني قال أبو جعفر الطبري وكان الخضر في أيام أفريدون الملك بن الضحاك في قول عامة علماء أهل الكتاب الاول وقبل موسى بن عمران عليه السلام وقيل انه كان على مقدمة ذي القرنين الاكبر الذى كان على أيام ابراهيم الخليل عليه السلام وان الخضر بلغ مع ذى القرنين أيام مسيره في البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لايعلم به ذو القرنين ولا من معه فخلد وهو حي عندهم الى الآن وقال آخرون ان ذا القرنين الذى كان على عهد ابراهيم الخليل عليه السلام هو أفريدون بن الضحاك وعلى مقدمته كان الخضر * وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان في معرفة ملوك الزمان بعد ماذكر نسب ذى القرنين الذى ذكرناه وكان تبعا متوجا لما ولي الملك تجبر ثم تواضع واجتمع بالخضر ببيت المقدس وسار معه مشارق الارض ومغاربها وأوتى من كل شئ سببا كما أخبر الله تعالى وبنى السد على ياجوج ومأجوج ومات بالعراق * وأما الاسكندر فانه يوناني ويعرف بالاسكندر المجدوني (ويقال المقدوني) سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذى القرنين ممن كان فقال من حمير وهو الصعب بن ذى مراثد الذى مكنه الله تعالى فى الارض وآتاه من كل شئ سببا فبلغ قرني الشمس ورأس الارض وبنى السد على ياجوج ومأجوج قيل له فالاسكندر قال كان رجلا صالحا روميا حكيما بنى على البحر فى أفريقية منارا وأخذ أرض رومة وأتى بحر الغرب وأكثر عمل الآثار في الغرب من المصانع والمدن * وسئل كعب الاحبار عن ذى القرنين فقال الصحيح عندنا من أحبارنا وأسلافنا انه من حمير وانه الصعب بن ذي مراثد والاسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن اسحق بن ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما ورجال الاسكندر أدركوا المسيح بن مريم منهم جالينوس وأرسطاطاليس * وقال الهمداني في كتاب الانساب وولد كهلان بن سبأ زيدا فولد زيد عريبا ومالكا وغالبا وعميكرب وقال الهيثم عميكرب بن سبأ

أخو حمير وكهلان فولد عميكرب أبا مالك فدرحا ومهيليل ابنى عميكرب وولد غالب جنادة بن غالب وقد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ وولد عريب عمرا فولد عمرو زيدا والهميسع ويكنى أبا الصعب وهو ذو القرنين الاول وهو المساح والبناء وفيه يقول النعمان بن بشير

فمن ذا يعاددنا من الناس معشرا * كراما فذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثي

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه * في الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذى القرنين يقبله * أهل الحجي فأحق القول ماقبلا

وفيه يقول ابن أبى ذئب الخزاعي

ومنا الذى بالخافقين تغربا * وأصعد في كل البلاد وصوبا
فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا * وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا
وذلك ذو القرنين تفخر حمير * بعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمدانى وعلماء همدان تقول ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الاعلى بن ربيعة بن الحيار بن مالك وفي ذى القرنين أقاويل كثيرة وقال الامام فخر الدين الرازى فى كتاب تفسير القرآن الكريم ومما يعترض به على من قال ان الاسكندر هو ذو القرنين أن معلم الاسكندر كان ارسطاطاليس بأمره يأتمر وبنهيه ينتهى واعتقاد ارسطاطاليس مشهور وذو القرنين نبي فكيف يقتدى نبي بأمر كافر فى هذا اشكال * وقال الجاحظ في كتاب الحيوان ان ذا القرنين كانت أمه آدمية وأبوه من الملائكة ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا ينادى رجلا ياذا القرنين قال أفرغتم من أسماء الانبياء فارتفعتم الى أسماء الملائكة وروى المختار بن أبي عبيد ان عليا رضى الله عنه كان اذا ذكر ذا القرنين قال ذلك الملك الامرط والله أعلم

ذكر من ولي الملك بالاسكندرية بعد الاسكندر

قال في كتاب هروشيوش ان الاسكندر ملك الدنيا اثنتى عشرة سنة فكانت الدنيا ماسورة بين يديه طول ولايته فلما مات تركها بين يدى قوّاده المستخلفين تحته فكان مثله معهم كمثل الاسد الذى ألقى صيده بين يدى أشباله فتقاتلت عليه تلك الاشبال بعده وذلك انهم اقتسموا البلاد فصارت مصر وأفريقية كلها وبلاد الغرب الى قائده وصاحب خيله الذى ولي مكانه وهو بطليموس بن لاوى ويقال بطليموس بن أرنبا المنطقى وذكر بقية ممالك القواد من أقصى بلاد الهند الى آخر بلاد المغرب ثم قال فثارت بينهم حروب وسببها رسالة كانت خرجت من عند الاسكندر بأن يرجع جميع الغرباء المنفيين الى بلادهم ويسقط عنهم الرق

والعبودية فاستنقل ذلك ملك بلاد الروم اذخاف أن يكون الغرباء والمنفيون اذا رجعوا الى بلدانهم ومواطنهم يطالبون النقمة لانفسهم فكان هذا الامر سبب خروجهم عن طاعة سلطان المجدونيين * وقال غيره وبطليموس هذا سبي بني معد بعد ماغزا فلسطين ثم أطلقهم وحباهم بآنية جوهر وضعت في بيت المقدس وملك عشرين سنة وقال غيره ولي أربعين سنة وقيل ثمانيا وثلاثين سنة وقيل ان اسمه فيلدلفوس وهو محب الاب وكان مجدونيا وهو الذى غنم اليهود ونقل كثيرا منهم الى مصر وفي زمانه كان زينون الفيلسوف وكان هذا الملك فيلسوفا وأقبل برديقا أحد قواد الاسكندر الى مصر بعسكر عظيم وجيش عرمرم فتفرق سلطان مجدونية على قسمين ثم ان بطليموس جمع عساكر مصر وأفريقية ولاقي برديقا فهزمه وأصاب عسكره ثم قتله وأصاب ما كان معه وحارب عدة من قواد الاسكندر * وقال غيره وكان بطليموس هذا حكيما عالما شابا مدبرا وهو أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها وكان من قبله من الملوك لايلعب بها ولما مات ملك الاسكندرية بعده بطليموس الثانى واسمه فيلوذوفوس ويقال له محب الاخ وكانت مدة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة وهو الذي أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصر ورد الاوانى المقدسة على عزير النبي وهو الذي تخير السبعين مترجما من علماء اليهود الذين ترجموا كتب التوراة والأنبياء من اللسان العبرانى الى اللسان الرومى اليونانى واللاطينى وكان فيلسوفا منجما ومات فولي بعده ابنه بطليموس أوراخيطس المعروف بمحب الاب ستا وعشرين سنة ثم ولي بعده أخوه بطليموس فيلوبطور سبع عشرة سنة وهو الذى قتل من اليهود نحوا من ستين ألفا وتغلب عليهم ويقال انه صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطى * ثم ملك بعده ابنه بطليموس أسفاميش محب الام أربعا وعشرين سنة * ثم ولي بعده ابنه بطليموس فلو ناطره وهو الصانع خمسا وثلاثين سنة وهو الذي غلب ملك الشام وحمل اليهود أنواع البلاء والعذاب * ثم ملك الاسكندرية بعده ابنه بطليموس ابرياطيش وهو الاسكندرانى تسعا وعشرين سنة وفى زمانه غلب الرومانيون على الاندلس واحترقت مدينة قرطاجنة بالنار وأقامت النار فيها سبعة عشر يوما فهدمت وحولت أساساتها حتى صار رخام أسوارها غبارا وذلك الى تسعمائة سنة من وقت بنيانها وبيع جميع أهلها رقيقا الا قليلا من خيارهم وأشرافهم وكان المتولى لتخريبها قواد رومة * ثم ولي بعده ابنه بطليموس شوطار الذي يقال له الجديد سبع عشرة سنة وكان قبيح السيرة تزوج بأخته ثم فارقها على أقبح حال مما تزوجها عليه في خبر له ثم تزوج ربيبته التي كانت بنت أخته ثم زوجها من ابنه المولود له من أخته وكثرت فواحشه حتى نفاه أهل الاسكندرية فمات منفيا * وولى أخوه بطليموس الاسكندر وهو الجوال عشر سنين * ثم ولى بعده ابنه بطليموس ديوشيش ثمانيا وثلاثين سنة وفى زمانه غلب قائد الرومانيين على بيت المقدس

وجعل اليهود يؤدون اليه الجزية * وظهرت فى ذلك الزمان علامات في السماء مهولة منها أنه ظهر في السماء بناحية مطلع الشمس من مدينة رومة ممايلى ناحية الجنوب نار ملتهبة عظيمة وكسر قوم خبزا في صنع لهم فانفجر من الخبز دم سائل ونزل بمدينة رومة مدة سبعة أيام متوالية برد كان يوجد في داخله حجارة وشقاف وانفتحت الارض فصار فيها غور عظيم وخرج منه لهب اشتعل حتى ظنوه بلغ السماء ونظر أهل رومة يومئذ الى عمود من الارض الى السماء لونه لون الذهب وكان من عظمه تكاد الشمس أن تغيب منه * ثم ولى الاسكندرية بعده كلو باطرة سنتين فدامت مملكة الاسكندرية وهى الدولة الجدونية الى أول ملوك قيصر الذي هو أول ملوك الرومانيين مائتين واحدى وثمانين سنة فبعث قيصر قائدين بعساكر كثيرة لفتح مصر فتزوج أحدهما كلو باطرة ابنة ديوشيش الملقب بطليموس وقتل القائد الآخر وخالف قيصر فسار اليه قيصر بنفسه وجرت أمور آلت الى فتح الاسكندرية بعد حروب واستولى قيصر على مملكة مصر وقتل كلو باطرة وولديها وقتل القائد الذى تزوجها ويقال بل سمت نفسها عند ماتيقنت غلبة قيصر لها ويقال انها كانت ذات حزم ومعرفة وتدبير وانها حفرت خليج الاسكندرية وأجرت فيه الماء من مصر وبنت بالاسكندرية أبنية عجيبة منها هيكل زحل وعملت فيه صنما من نحاس اسود وكان أهل مصر والاسكندرية يعملون له عيدا فى اليوم الثاني والعشرين من هتور ويحج اليه اليونانيون من سائر الاقطار ويذبحون له ذبائح لاتحصى كثرة فلما ظهرت ملة النصارى فى الاسكندرية جعلوا هيكل زحل كنيسة ولم تزل الى أن هدمها جيوش المعز لدين الله عند قدومهم من المغرب الى أرض مصر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة من سنى الهجرة النبوية * ويقال ان كلو باطرة هي التى بنت حائط العجوز بمصر ويشبه أن يكون هذا غير صحيح ويقال انها بنت مقياسا بمدينة أخميم ومقياسا آخر بأنصنا ويقال كانت مدة ملكها ثلاثين سنة وليس بصحيح وبموت كلو باطرة انقطعت مملكة مصر وصارت تحت يد ملوك الروم من أهل مدينة رومة ثم تحت يد ملوك الروم من أهل قسطنطينية فلم تزل تحت أيديهم يولون فيها من قبلهم من شاؤا فيقيم الى الاسكندرية ويقيم بها الى أن قدم عمرو بن العاص بالمسلمين وفتح الله على يده الحصن والاسكندرية وجميع أرض مصر ويقال معنى كلو باطرة الباكية فكان جميع المدة التى ما بين ذهاب دولة البطالسة من الاسكندرية وقدوم عمرو بن العاص الى مصر وفتحها ستمائة سنة ويضعا وسبعين سنة وفي خلال هذه المدة قوى جانب ملوك الفرس على القياصرة وملكوا منهم بلاد الشام واستولوا على أرض مصر والاسكندرية فى أيام كسرى أبرويز بن هرمز فبعث قائدا الى مصر وملك الاسكندرية وقتل الروم وأقاموا بالاسكندرية مدة عشر سنين فلما استبد هرقل بمملكة الروم وخرج من القسطنطينية لجمع الاموال من سائر مملكته أخذ بجانب

ودمشق وصار الى بيت المقدس وقد خربها الفرس فأمر ببنائها وسار منها الى أرض مصر ودخل الاسكندرية وقتل من بها من الفرس وأقام بها بطريقا ثم عاد الى قسطنطينية فاستمرت مصر بعده تحت ايالة الروم حتى ملكها المسلمون ويقال ان كل بناء بمصر من آجر فهو للفرس وما فيها من بناء حجر فهو للروم والله أعلم .

ذكر منارة الاسكندرية

قال المسعودى فأما منارة الاسكندرية فذهب الاكثرون من المصريين والاسكندرانيين ممن عنى باخبار بلدهم أن الاسكندر بن فيلبش المقدونى هو الذى بناها ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومن الناس من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها ومنهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومة هوالذى بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته باستيلائه على الاكثر من ممالك العالم فشهرت به وذكروا في ذلك أخبارا كثيرة يستدلون بها على ماقالوا والاسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدو ولا هاب ملكا يرد اليه في بلده و يغزوه في داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا وان الذى بناها جعلها على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر وعلى طرف اللسان الذى هو داخل في في البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره منها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس اينما كانت من الفلك واذا علت في الفلك فأصبعه يشير بها نحوها فاذا انخفضت صارت يده سفلا تدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل أوالنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ماصوت في الساعة التى قبلها وصوته مطرب * وقد كان ملك الروم فى ملك الوليد بن عبد الملك ابن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء فجاء مستأمنا الى بعض الثغور فورد بآلة حسنة ومعه جماعة فجاء الى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك وأنه أراد قتله لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وأنه استوحش ورغب في الاسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قلبه وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما صارت الى الوليد تلك الاموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك فسأله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال ملوك الارض وذلك أن الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك مصر فبنى لها

ازجا تحت الارض وقنطر لها الاقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر وبني فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها في الهواء ألف ذراع والمرآة في علوه والدبادبة جلوس حوله فاذا نظروا الى العدو في البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فتحذر الناس وتنذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش واناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من هذا وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها فلما علم الخادم استفاضة ذلك وانه سينم الى الوليد وانه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب في الليل في مركب كان قد أعده وواطأ على ذلك فتمت حيلته وبقيت المنارة على ماذكرنا الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وكانت حوالى منارة الاسكندرية في البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر يقال ان ذلك من آلات اتخذها الاسكندر للشراب فلمامات كسرتها أمه ورمت بها في تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا في كل عصر ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لان ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر والاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد في البحر من عدوهم وكان من يدخلها يتيه فيها الا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها وقد ذكر أن المغاربة حين وافوا في خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة فتاهوا فيها وفى طرق تؤول الى مهاوتهوى الى السرطان الزجاج وفيه مخارق الى البحر فتهورت دوابهم وفقد منهم عدد كثير وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهورهم كان على كرسى لها قدامها وفي المنارة مسجد في هذا الوقت يرابط فيه مطوعة المصريين وغيرهم وفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة سقط رأس المنارة من زلزلة ويقال ان منارة الاسكندرية كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج وتلك القناطر على ظهر سرطان وكان فى المنارة ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض وكانت الدابة تصعد بحملها الى سائر البيوت من داخل المنارة ولهذه البيوت طاقات تشرف على البحر وكان على الجانب الشرقى من المنارة كتابة عربت فاذا هى بنت هذه المنظرة قريبا بنت مريبنوس اليونانية لرصد الكواكب * وقال ابن وصيف شاه وقد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح وبنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الاسكندرية وجعلوا في وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة أشبار وكان ارتفاع القبة مائة ذراع فكانوا اذا قصدهم قاصد من الامم التي حولهم فان كان

مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشيء فاحرقته فلم تزل على حالها الى أن غاب عليها البحر فنسفها ويقال ان الاسكندر انما عمل المنار الذى كان شبيها بها وقد كان أيضا عليه مرآة يري فيها من يقصدهم من بلاد الروم فاحتال بعض ملوك الروم فوجه من أزالها وكانت من زجاج مدبر * وقال المسعودى فى كتاب التنبيه والاشراف وقد كان وزير المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان لما أمر المستعين بنفيه الى برقة في سنة ثمان وأربعين ومائتين صار الى الاسكندرية من بلاد مصر فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التي بها وقت المغيب فقدر أنه يلزمه أن لايفطر اذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الارض فأمر انسانا أن يصعد الى أعلى منارة الاسكندرية ومعه حجر وأن يتأمل موضع سقوط الشمس فاذا سقطت رمي بالحجر ففعل الرجل ذلك فوصل الحجر الى قرار الارض بعد صلاة العشاء الآخرة فجعل افطاره بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد اذا صام في مثل ذلك الوقت وكان عند رجوعه الى سر من رأى لايفطر الا بعد العشاء الآخرة وعنده أن هذا فرضه وان الوقتين متساويان وهذا غاية مايكون من قلة العلم بالفرض ومجاري الشرق والغرب وقد ذكر ارسطاطاليس في كتاب الآثار العلوية أن بناحية المشرق الصيفي جبلا شامخا جدا وان من علامة ارتفاعه أن الشمس لاتغيب عنه الى ثلاث ساعات من الليل وتشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات * ومنارة الاسكندرية أحد بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الاسكندر بن فيليبش الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب فى البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا في أعاليها مرآة عظيمة من نوع الاحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر اذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها فكانوا يراعون ذلك فى تلك المرآة فيستعدون قبل ورودهم وطول المنارة في هذا الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع فهدمت على طول الازمان وترادف الزلازل والامطار لان بلد الاسكندرية تمطر وليس سبيلها سبيل فسطاط مصر اذ كان الاغلب عليها أن لاتمطر الا اليسير وبناؤها ثلاثة أشكال فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل بناؤه بأحجار بيض يكون نحوا من مائة ذراع وعشرة أذرع على التقريب ثم من بعد ذلك مثمن الشكل مبني بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا وحواليه فضاء يدور فيه الانسان وأعلاها مدور * وكان أحمد بن طولون رم شيئا منها وجعل في أعلاه قبة من الخشب ليصعد اليها من داخلها وهي مبسوطة موربة بغير درج وفي الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يونانى طول كل حرف ذراع في عرض شبر ومقدارها على جهة الارض نحو من مائة ذراع وماء البحر قد بلغ أصلها وقد كان تهدم احد أركانها الغربية مما يلي البحر فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وبينها وبين مدينة الاسكندرية في هذا

الوقت نحو من ميل وهي على طرف لسان من الارض قد ركب البحر جنبتيه وهي مبنية على فم مينا الاسكندرية وليس بالمينا القديم لان القديم في المدينة العتيقة لا ترسي فيه المراكب لبعده عن العمران والمينا هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر * وأهل الاسكندرية يخبرون عن أسلافهم انهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحوا مما بين المدينة والمنارة في هـذا الوقت فغلب عليه ماء البحر في المدة اليسيرة وأن ذلك فى زيادة قال وتهدم في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلثمائة نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التي كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب في ساعة واحدة على ما وردت به علينا الاخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية وذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من هذا الشهر وهو الخامس من كانون الآخر والتاسع من طوبة وكان لهذه المنارة مجمع في يوم خميس العدس يخرج سائر أهل الاسكندرية الى المنارة من مساكنهم بما كلهم ولا بد أن يكون فيها عدس فيفتح باب المنار ويدخله الناس فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ولا يزالون الى نصف النهار ثم ينصرفون ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو * وكان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد فاذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة فاذا رآها الحرس ضربوا الابواق والاجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو * ويقال ان المنار كان بعيدا عن البحر فلما كان في أيام قسطنطين بن قسطنطين هاج البحر وغرق مواضع كثيرة وكنائس عديدة بمدينة الاسكندرية ولم يزل يغلب عليها بعد ذلك ويأخذ منها شيئاً بعد شيء * وذكر بعضهم أنه قاسه فكان مائتي ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة واحدى وعشرون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثانية مثمنة وهي احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وهي احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع * وذكر ابن جبير في رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا وانه ذرع أحد جوانبه الأربعة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فأناف على خمسين ذراعا وان طول المنار أزيد من مائة وخمسين قامة وفي أعلاه مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه * وقال ابن عبد الحكم ويقال ان الذى بني منار الاسكندرية كلوباطرة الملكة وهي التي ساقت خليجها حتى أدخلته الاسكندرية ولم يكن يبلغها انما كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وهي التي بلطت قاعه * ولما استولى أحمد بن طولون على الاسكندرية بني في أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح وفي أيام الظاهر بيبرس تداعي بعض اركان المنار وسقط فأمر ببناء ما انهدم منه في سنة ثلاث وسبعين وستمائة وبنى مكان هذا القبة مسجدا وهدم في ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمائة

عند حدوث الزلزلة ثم بنى في شهور سنة ثلاث وسبعمائة على يد الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو باق الى يومنا هذا ولله در الوجيه الدروي حيث يقول في منار الاسكندرية

وسامية الارجاء تهدي أخا السرى * ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا * فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتني من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابي أنجما
تخيل أن البحر تحتي غمامة * وأني قد خيمت في كبد السما

وقال ابن قلاقس من أبيات

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا * كأنما فيه للنسرين أوكار
راسي القرارة سامي الفرع في يده * للنون والنور أخبار وأخبار
أطلقت فيه عنان النظم فاطردت * خيل لها في بديع الشعر مضمار

وقال الوزير أبو عبدالله محمد بن الحسن بن عبدربه

لله در منار اسكندرية كم * يسمو اليه على بعد من الحدق
من شامخ الانف في عرنينه شمم * كأنه باهت في دارة الافق
للمنشآت الجواري عند رؤيته * كموقع النوم في أجفان ذي أرق

وقال عمر بن أبي عمر الكندي في فضائل مصر ذكر أهل العلم أن المنارة كانت في وسط الاسكندرية حتى غلب عليها البحر فصارت في جوفه ألا ترى الابنية والاساسات في البحر الى الآن عيانا * وقال عبد الله بن عمرو عجائب الدنيا أربعة مرآة كانت معلقة بمنارة الاسكندرية فكان يجلس الجالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر وذكر الثلاثة

﴿ ذكر الملعب الذي كان بالاسكندرية وغيره من العجائب ﴾

قال القضاعي ومن عجائب مصر الاسكندرية وما بها من العجائب فمن عجائبها المنارة والسواري والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ثم يرمون بأكرة فلا تقع في حجر أحد الا ملك مصر وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص فوقعت الاكرة في حجره فملك البلد بعد ذلك في الاسلام ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس فلا يكون فيهم أحد الا وهو ينظر في وجه صاحبه ثم إن قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية والسفلية * وقال ابن عبد الحكم فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة وقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية خلا به عمرو بن العاص واستأذنه في المسير الى مصر وكان عمرو قد دخل في الجاهلية مصر

وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها وكان سبب دخوله اياها أنه قدم الى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش فاذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح وكان عمرو يرعى ابله وابل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم فبينا عمرو يرعى ابله اذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو ماهذه فأخبره عمرو انه رماها فقتلها فأقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال قد أحياني الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا فقال له الشماس وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك قال رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرا فاني لا أملك الا بعيرين فآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا أصحاب ابل انما نحن أصحاب دنانير قال تكون ألف دينار فقال له الشماس اني رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسي وقد قضيت ذلك وأنا اريد الرجوع الى بلادي فهل لك أن تتبعني الى بلادي ولك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لان الله عز وجل احياني بك مرتين فقال له عمرو وأين بلادك قال مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو لا أعرفها ولم ادخلها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفي لي بما تقول ولي عليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم لك والله على العهد والميثاق أن أفي لك وان أردك الى أصحابك فقال له عمرو كم يكون مكثي في ذلك قال شهرا تنطلق معي ذاهبا عشرا وتقيم عندنا عشرا وترجع في عشر ولك على أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو أنظرني حتى أشاور أصحابي في ذلك فانطلق عمرو الى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال لهم تقيمون على حتى أرجع اليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به فقالوا نعم وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك ومضى الى الاسكندرية فنظر عمرو الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة أهلها فازداد عجبا ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروا من تلك الكرة على ما

وصفها من مضى منهم أنها من وقعت الكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم * فلما قدم عمرو الاسكندرية اكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها بأكمامهم فرمي بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا ماكذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابى يملكنا هذاما لا يكون أبدا وان ذلك الشماس مشى في أهل الاسكندرية وأعلمهم أن عمرا أحياه مرتين وانه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوا ودفعوها الى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه الى اصحابهما فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها اموالا فلما رجع عمرو الى أصحابه دفع اليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا قال عمرو وكان أول مال اعتقدته وتأثلته

(ذكر عمود السوارى)

هـذا العمود حجر أحمر منقط وهو من الصوان الماتع كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الاسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه اذا قدموا ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وانه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقال ان ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا وقطره خمسة أذرع وذكر بعضهم أن طوله بقاعدتيه اثنان وستون ذراعا وسدس ذراع وهو على نشز طوله ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع فجملة ذلك خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع وطول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا وطول القاعدة العليا سبعة أذرع ونصف * قال المسعودى وفي الجانب الغربي من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا يحملون ما عملوا بعد النقر فاما العمد والقواعد والرؤس التي يسمونها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله وقد رأيت في جبل اسوان أخا هذا العمود وقد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحمل ما ظهر منه وانما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم انتهى * وكان بالاسكندرية من العمد العظام وانواع الحجارة والرخام الذى لا تقل القطعة منه الا بألوف من الناس وقد علقت بين السماء والارض على فوق المائة ذراع وفوق رؤس أساطين دائر الاسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا الى العشرين ذراعا

والحجر فوقه عشرة أذرع في عشرة أذرع في سمك عشرة أذرع بغرائب الالوان * وكان بالاسكندرية قصر عظيم لا نظيرله في معمور الارض على ربوة عظيمة بازاء باب البلد طوله خمسمائة ذراع وعرضه على النصف من ذلك وبابه من أعظم بناء وأتقنه كل عضادة منه حجر واحد وعتبته حجر واحد وكان فيه نحو مائة اسطوانة وبازائه اسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها غلظها ستة وثلاثون شبرا وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء وتحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة عرض كل ضلع منه عشرون شبرا في ارتفاع ثمانية اشبار والاسطوانة منزلة في عمود من حديد قد خرقت به الارض فاذا اشتدت الرياح رأيتها تحرك وربما وضع تحتها الحجارة فطحنتها لشدة حركتها وكانت هذه الاسطوانة احدى عجائب الدنيا وقد زعم قوم أنها مما عمله الجن لسليمان ابن داود عليهما السلام كما هي عادتهم في نسبة كل مايستعظمون عمله الى أنه من صنيع الجن وليس كذلك بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر * وكان في وسطه قبة ومن حولها أساطين وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع * ويقال ان بعض ملوك مصر دخل الاسكندرية فأعجبه هذا القصر وأراد أن يبنى مثله فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته فما منهم الا من اعترف بعجزه عن مثله الا شيخا منهم فانه التزم أن يصنع مثله فسر الملك ذلك وأذن له في طلب مايحتاج اليه من المؤن والآلات والرجال فقال ائتوني بثورين مطيقين وعجلة كبيرة فللحال أتي بذلك فمضى الى المقابر القديمة وحفر منها قبرا أخرج منه جمجمة عظيمة رفعها عدة من الرجال على العجلة فما جرها الثوران مع قوتهما الا بعد جهد وعناء فلما وقف بها بين يدى الملك قال أصلح الله سيدنا أن أتيتني بقوم رؤسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن اقامة مثل ذلك القصر * وقد ذكر أنه كان بالاسكندرية ضرس انسان عند قصاب يزن به اللحم زنته ثمانية أرطال * ويقال ان عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الاسكندرية أحد سبعة أعمدة أتي بأحدها البتون بن مرة العادى وهو يحمله تحت ابطه من جبل بريم الاحمر قبلى اسوان الى الاسكندرية فانكسر ضلعه لانه كان ضعيف القوى في قومه فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد وقال ليتني فديته بنصف ملكي وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودى وكان قويا فحمله من اسوان تحت ابطه وجاء بقية رجالهم كل رجل بعمود فأقام العمد السبعة الجارود بن قطن المؤتفكي وكان بناؤها بعد أن اختاروا لها طالعا سعيدا كما هي عادتهم فى عامة أعمالهم وقد ذكر غير واحد أن الصخور في القديم من الدهر كانت تلين فعمل منها اعمدة ناعط ومارب وبينون ومآثر اليمن وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر وأن كل شيء كان يتكلم قال أمية بن أبي الصلت

واذهم لالبوس لهم عراة * واذصخر السلام لهم رطاب

وقال قوم عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة وذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب الى خمس فرق وهم أصحاب الرواق هذا واصحاب الاسطوانة وكانوا ببعلبك وأصحاب المظال وهم بانطاكية وأصحاب البرابي وكانوا بصعيد مصر والمشاؤون وكانوا بمقدونية وكأني بمن قل علمه ينكر على ايراد هذا الفصل ويراه من قبيل المحال ومما وضعه القصاص ويجزم بكذبه فلا يوحشنك حكايتي له واسمع قول الله تعالى عن عاد قوم هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة أى طولا وعظم جسم قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم وقيل على خلق قوم نوح وقال وهب بن منبه كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم وروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال ان كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الامة لم يطيقوه وان كان أحدهم ليغمز بقدمه الارض فيدخل فيها وروى عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافرى عن ابن بجرة قال استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام في خف رجل من العماليق وعن زيد بن أسلم بلغني أن الضبعة وأولادها ربين في حجاج عين رجل من العماليق وقال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها في البلاد قال المبرد وقولها يعنى الخنساء رفيع العماد انما تريد الطول يقال رجل معمد يريد طويلا ومنه قوله تعالى ارم ذات العماد أى الطوال وقال البغوي سموا ذات العماد لانهم كانوا أهل عمد سيارة وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ورواية عطاء عن ابن عباس وقال بعضهم سموا ذات العماد لطول قاماتهم قال ابن عباس يعنى طولهم مثل العماد قال مقاتل كان طول أحدهم اثني عشر ذراعا وفى كشاف الزمخشرى لم يخلق مثلها مثل عاد في البلاد عظم أجرام وقوة كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم وقد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله أبى الفضل جعفر ابن المعتضد كنز بمصر فيه ضلع انسان طوله أربعة عشر شبرا في عرض ثلاثة أشبار * واعلم أن أعين بني آدم ضيقة وقد نشأت نفوسهم فى محل صغير فاذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه الا ما يشاهدونه أو يألفونه عجلوا الى الارتياب فيه وسارعوا الى الشك في الخبر عنه الا من كان معه علم وفهم فانه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله أورده وكيف يرد مثل هذه الاخبار وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم طوله ستون ذراعا في السماء

ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن وذكر محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي في كتاب تحفة الالباب قال نقل الشعبي في كتاب سير الملوك أن الضحاك بن علوان لما هرب منه لام بن عامر الى ناحية الشمال أرسل في طلبه أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين خرج أحدهما قاصدا الى بلغار والآخر الى باشقرد فأقام أولئك الجبارون في أرض بلغار وفي باشقرد قال الاقليشي وقد رأيت صورهم في باشقرد ورأيت قبورهم بها فكان مما رأيته ثنية أحدهم طولها أربعة أشبار وعرضها شبران وقد كان عندي في باشقرد نصف أصل الثنية أخرجت لي من فك الاسفل فكان عرضها شبرا ووزنها ألف مثقال ومائتا مثقال أنا وزنتها بيدي وهي الآن في داري في باشقرد وكان دورفك ذلك العادي سبعة عشر ذراعا وفي بيت بعض أصحابي في باشقرد عضد أحدهم طوله ثمانية وعشرون ذراعا وأضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كاللوح الرخام وأخرج الي نصف وسغ يد أحدهم فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدي جميعا قال ولقد رأيت في بلد بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل العاديين رجلا طوالا كان طوله أكثر من سبعة أذرع وكان يسمي دنقي وكان يأخذ الفرس تحت أبطه كما يأخذ الانسان الطفل الصغير وكان اذا وقع القتال بتلك الناحية يقاتل بشجرة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده لو ضرب بها الفيل قتله وكان خيرا متواضعا كلما التقاني سلم علي ورحب بي وأكرمني وكان رأسي لا يصل الى حقوه وكان له أخت على طوله رأيتها في بلغار مرارا عدة قال لي القاضي يعقوب بن النعمان يعني قاضي بلغار ان هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان من أقوى أهل بلغار ضمته الى صدرها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته قال ولم يكن في بلغار حمام تسعهم الا حمام واحدة واسعة الابواب انتهى * وقد حدثني الحافظ أبو عبدالله محمد بن احمد بن محمد الفريابي عن أبيه أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من أفريقية فاذا جثة رجل قدر عظم رأسه كثورين عظيمين ووجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند وهو قلم عاد وحروفه مقطعة ما نصه أنا كوش بن كنعان ابن الملوك من آل عاد ملكت بهذه الارض ألف مدينة وبنيت بها على ألف بكر وركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف حمر وصفر وشهب وبيض ودهم ثم لم يغن عني ذلك شيأ وجاءني صائح فصاح بي صيحة أخرجتني من الدنيا فمن كان عاقلا ممن جاء بعدي فليعتبر بي وأنشد

يا واقفا يرعي السهى * برسم ربع قد وهى
قف واستمع ثم اعتبر * ان كنت من أهل النهى
بالامس كنا فوقها * واليوم صرنا تحتها
لكل حد غاية * لكل أمر منتهى

قال فأمر السلطان أبو بكر بن يحيى الحفصي صاحب تونس بطمه فطم القبر قال مؤلفه رحمه الله تعالى وأنا أدركت شيأ من ذلك وهو أنه ترافع في بعض الايام طائفة من الحجارين الى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام بضع وتسعين وسبعمائة وقد اختلفوا على مال وجدوه بجبـل المقطم وهو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغـار فيما يلي قلعة الجبل من بحريها فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة فاجتمعوا على قطع ما بين يدى هذا الحجر طمعا في وجود مال فانتهي بهم القطع الى عمود عظيم قائم في قلب الجبل فلعجلتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا فاذا هو مجوف وانسان قائم على قدميه بطوله وتناثر لهم من جهـة رأسه دنانير كثيرة فاقتسموها وتنافسوا في قسمتها واختلفوا حتي اشتهر أمرهم وترافعوا الى السلطان فبعث من كشف المغار فوجد الحجر والعمود وقد تكسر فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ولم يجد من يعرف ماقد كتب على الحجر وتسامع الناس بالخبر فاقبلوا الى المغـار وعبثوا برمة الميت فأخبرني من شاهد سنا من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة وان عظم ساقه فيما بين قدمه الى ركبته خمسة أذرع فيجيء هـذا من حساب طوله عشرين ذراعا وأزيد ودماغ سن واحدة من أسنانه فى قدر الباذنجانة ماهو الا كالقبة الكبيرة وأخـبرني السيد الشريف قاضي القضاة بدمشق شهـاب الدين أحمد بن على بن ابراهيم الحسيني المعروف بابن عدنان وبابن أبي الجن أنه وقف في سنة أربع عشرة وثمانمائة بمقبرة باب الصغير من دمشق على قبر ليدفن فيه ميت لهم فلما تهيأ القبر ولم يبق الا أن يدلى فيه الميت انخسف وخرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الالوان حتي كادت تظلهم فنزل الحفار فى الخسف فاذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعا وفيه بطوله ميت قدصار كالرماد وأخبرني أيضا انه شاهد بهذه المقبرة ضرس انسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة وهو فى قدر البطيخة وانه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواقى بالرطل الشامي وان القطعة التى انكسرت منه نحو اوقيتين بالشامي فيكـون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرى والله تعالى أعلم

ذكر طرف مما قيل في الاسكندرية

قال أبو عمرو الـكندى أجمع الناس أنه ليس في الدنيـا مدينة على ثلاث طبقات غير الاسكندرية ولمـا دخل عبد العزيز بن مروان الاسكندرية سأل رجلا من علماء الروم عنها وعن عدد أهلها فقال والله أيها الامير ما أدرك علم هذا أحد من الملوك والذى أخبرك كم كان فيها من اليهود فان ملك الروم أمر باحصائهم فكانوا ستمائة الف قال فما هذا الخراب الذى فى أطرافها قال بلغني عن بعض ملوك فارس حين ملـكوا مصر أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم لعمران الاسكندرية فأتاه كبراء أهلها وعلماؤهم وقالوا أيها الملك لاتتعب فان

الاسكندرية أقام الاسكندر على بنائها ثلثمائة سنة وعمرت ثلثمائة سنة وانها لخراب منذ ثلثمائة سنة ولقد أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون فيها نهارا الا بخرق سود فى أيديهم خوفا على أبصارهم من شدة بياضها * ومن فضائلها ما قاله بعض المفسرين من أهل العلم انها المدينة التى وصفها الله عز وجل في كتابه العزيز فقال ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وقال احمد بن صالح قال لى سفيان بن عيينة يامصرى أين تسكن قلت أسكن الفسطاط فقال أتأتي الاسكندرية قلت نعم قال تلك كنانة الله يجعل فيها خيار سهامه * وقال عبد الله بن مرزوق الصدفي لما نعي لى ابن عمي خالد بن يزيد وكان قد توفي بالاسكندرية لقيني موسي بن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين كلهم يقول أليس مات بالاسكندرية فأقول نعم فيقولون هو حي عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ماقامت الدنيا وله أجر شهيد حتي يحشر على ذلك وقال الذين ينظرون فى الاهوية والبلدان وترتب الاقاليم والامصار أنه لم تطل أعمار الناس في بلد من البلدان طولها بمريوط من كورة الاسكندرية ووادى فرغانة وقال الحسن بن صفوان وأما الاسكندرية وتنيس وأمثالهما فقربهما من البحر وسكون الحرارة والبرد عندهم وظهور ريح الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم وليس يعرض لهم مايعرض لاهل اليشمون من غلظ الطبع والحمارية وقد وصف أهل الاسكندرية بالبخل قال جلال الدين بن مكرم بن أبي الحسن بن احمد الخزرجي ملك الحفاظ

نزيل سكندرية ليس يقرى * بغير الماء أونعت السوارى
ويتحف حين يكرم بالهواء الـ * ـملائن والاشارة للمنار
وذكر البحر والامواج فيه * ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمع نزيلهم بخبز * فما فيها لذاك الحرف قاري

وقال احمد بن جرداديه من الفسطاط الى ذوات الساحل أربعة وعشرون ميلا ثم الى مريوط ثلاثون ميلا ثم الى كوم شريك ثلاثون ميلا ثم الى كريون أربعة وعشرون ميلا ثم الى الاسكندرية أربعة وعشرون ميلا وقال آخر وطريق الاسكندرية اذا انضب ماء النيل يأخذ بين المدائن والضياع وذلك اذا أخذت من شطنوف الى سبك العبيد فهو منزل فيه منية لطيفة وبينهما اثنا عشر سقسا ومن سبك الى مدينة منوف وهي كبيرة فيها حمامات وأسواق وبها قوم فيهم يسار ووجوه من الناس وبينهما ستة عشر سقسا ومن منوف الى محلة صرد وفيها منبر وحمام وفنادق وسوق صالح ستة عشر سقسا ومن محلة صرد الى سخا وهي مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع وأقليم جليل له عامل بعسكر اوجند وبه الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة ستة عشر سقسا ومن سخا الى شبركيه وهي مدينة كبيرة بها جامع وأسواق ستة عشر سقسا ومن شبركيه الى مسير

وهي مدينــة بها جامع وأسواق ستة عشر سقسا ومن مسير الى سنهور وهي مدينة ذات أقليم كبير وبهــا حمامات وأسواق وعمل كبير ســتة عشر سقسا ومن سنهور الى التخوم وهي أقليم وبها حمامات وفنادق وأسواق ستة عشر سقسا ومن التخوم الى نسترو وكانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون عشرون سقسا ومن نسترو الى البرلس وهي مدينة كثيرة الصيد في البحيرة وبها حمامات عشر سقسات ومن البرلس الى أختا وهي حصن على شط بحر الملح عشر سقسات ومن أختا الى رشـيد وهي مدينة على النيل ومنها يصب النيل في البحر من فوهة تعرف بالاشـتوم وهي المدخل ثلاثون سقسا وكان بها أسواق صالحة وحمام وبها نخيل وضريبة على مايحمل من الاسكندرية * وهذا الطريق الآخذ من شطنوف الى رشيد ربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل والثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها وتحمل الى أقطار الارض وفي ثياب الاسكندرية مايباع الـكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة

﴿ ذكر فتح الاسكندرية ﴾

قال أبو عمرو الـكندي لما حاز المسلمون الحصن بما فيــه أجمع عمرو على المسير الى الاسكندرية فسار اليها في ربيع الاول سنة عشرين وقال غيره بل سار في جمادى الآخرة منها * وذكر سيف بن عمر أن عمرو بن العاص بعث الى الاسكندرية وهو على عين شمس عوف بن مالك فنزل عليها وبعث يقول لاهلها ان شئتم أن تنزلوا فلكم الامان فقالوا نعم فراسلهم وتربصوا أهل عين شمس وسار المسلمون من بين ذلك * وقال ابن عبدالحكم ويقال ان المقوقس انما صالح عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر وألح عليهم فخافوه وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط على أن يستنظر رأي الملك فحدثنا يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس الرومي الذي كان ملكا على مصر صالح عمرو بن العاص على أن يسير من أراد من الروم المسير ويقر من أراد من الروم على أمر قد سماه فبلغ ذلك هرقل ملك الروم فسخط أشد السخط وأنكر أشد الانـكار وبعث الجيوش فأغلقوا أبواب الاسكندرية وآذنوا عمرا بالحرب فخرج اليــه المقوقس فقال أسألك ثلاثا قال ما هن قال لاتبذل للروم ما بذلت لي فاني قد نصحت لهم فاستغشوني ولا تنقض القبط فان النقض لم يأت من قبلهم وأن تأمر بي اذا مت فادفني في بحنس فقال عمرو هــذه أهونهن علينا قال فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والاسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح فخرج اليهم عمرو من الفسطاط متوجها الى الاسكندرية فلم

ير منهم أحدا حتى بلغ مربوط فلقي فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالا خفيفا فهزمهم الله ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولي الروم أكتافهم * ويقال بل أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمي في آثارهم فأدركهم عند الكوم الذي يقال له كوم شريك فهزمهم وكان على مقدمة عمرو وعمرو بمربوط فألجأوه الى الكوم فاعتصم به وأحاطت به الروم فلما رأى ذلك شريك بن سمي أمر بأبا عمة مالك بن ناعمة الصدفي وهو صاحب الفرس الاشقر الذى يقال له أشقر صدف وكان لا يجارى سرعة فانحط عليهم من الكوم وطلبته الروم فلم تدركه حتى أتى عمرا فأخبره فأقبل عمرو متوجها وسمعت به الروم فانصرفت ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا قتالا شديدا ثم هزمهم الله تعالى ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات كثيرة فقال ياوردان لو تقهقرت قليلا نصيب الروح فقال وردان الروح تريد الروح امامك وليس خلفك فتقدم عبد الله فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال

أقول لها اذا جشأت وجاشت * رويدك تحمدى أو تستريحي

وهذا البيت لعمرو بن الاطنابة وهو أن رجلا من بني النجار كان مجاور المعاذ بن النعمان فقتل فقال معاذ لاأقتل به الا عمرو بن الاطنابة وهو يومئذ أشرف الخزرج فقال عمرو

ألا من مبلغ الاكفاء عني * وقد تهدى النصيحة للنصيح
بأنكم وما تزجون شطرى * من القول المرغى والصريح
سيقدم بعضكم عجلا عليه * وما أثر اللسان الى الجروح
أبت لي عفتي وأبى بلائى * وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وأعطائى على المكروه مالي * واقدامي على البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحي
لادفع عن مآثر صالحات * وأحمي بعد عن عرض صحيح
بذى شطب كلون الملح صاف * ونفس لم تقر على القبيح

الشطب سعف النخل الاخضر الواحدة شطبة وجشأت ارتفعت من حزن أو فزع وجاشت دارت للغثيان وقيل هما بمعنى ارتفع والمشيح البارد المنكمش * فرجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال فقال عمرو هو ابني حقا وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف ثم فتح الله للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة فأقاموا شهرين ثم تحول فخرجت عليه خيل

من ناحية البحيرة مستترة بالحصن فواقعوه فقتل يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلا ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظهرت العرب على الاسكندرية ففي ذلك انقطاع الروم وهلاكهم لانه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وانما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالاسكندرية فقال الملك لئن غلبونا على الاسكندرية هلكت الروم وانقطع ملكها فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه الى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه فلما فرغ من جهازه صرعه الله عز وجل فأماته وكفى المسلمين مؤنته وكان موته في سنة تسع عشرة فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه* وقال الليث مات هرقل في سنة عشرين وفيها فتحت قيسارية الشام قال واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية فقاتلوهم قتالا شديدا وخرج طرف من الروم من باب حصن الاسكندرية فحملوا على الناس فقتلوا رجلا من مهرة واحتزوا رأسه ومضوا به فجعل المهريون يتغضبون ويقولون لا ندفنه الا برأسه فقال عمرو تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم احملوا على القوم اذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم فخرجت الروم اليهم فاقتتلوا فقتل من الروم رجل من بطارقتهم فاحتزوا رأسه ورموا به الروم فرمت الروم برأس المهرى اليهم فقال دونكم الآن فادفنوا صاحبكم* وكان عمرو يقول ثلاث قبائل من مصر أما مهرة فقوم يقتلون ولا يقتلون وأما غافق فقوم يقتلون ولا يقتلون وأما بلى فأكثرها رجلا صحب النبي صلى الله عليه وسلم وأفضلها فارسا وقال رجل لعمرو لو جعلت المنجنيق ورميتهم به لهدم حائطهم فقال عمرو تستطيع أن يفنى مقامك من الصف وقيل له ان العدو قد غشوك ونحن نخاف على رايطة يريدون امرأته فقال اذا يتخذوا أرياطا كثيرة* ولما استحر القتال بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه وهوى اليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه وكان مسلمة لا يقاوم ولكنها مقادير ففرحت بذلك الروم وشق على المسلمين وغضب عمرو بن العاص لذلك وكان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن فقال عمرو عند ذلك ما بال الرجل الستة الذى يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم فغضب من ذلك مسلمة ولم يراجعه ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الاسكندرية فقاتلهم العرب فى الحصن ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعا من الحصن الا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقوا عليهم باب الحصن أحدهم عمرو بن العاص والآخر مسلمة ولم نحفظ الآخرين وحالوا بينهم وبين أصحابهم ولا يدرى الروم من هم فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجأوا الى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به فأمروا روميا أن يكلمهم بالعربية فقال لهم انكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم فامتنعوا عليه ثم قال لهم ان فى ايدي أصحابكم منا رجالا أسروهم

ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم فأبوا عليه فلمارأى ذلك الرومى منهم قال لهم هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم وان غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم الى أصحابكم فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه وعمرو ومسلمة وصاحبهما في الحصن فى الديماس فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته وقالوا يبرز رجل منكم لصاحبنا فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال ماهذا تخطئ مرتين تشذ من أصحابك وأنت أمير وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لايدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك وأنا أكفيك ان شاء الله تعالى فقال عمرو دونك فربما فرجها الله بك فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله عليه فقتله فكبر مسلمة وأصحابه ووفي لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك وأكلوا أيديهم تغيظا على ما فاتهم فلما خرجوا استحيا عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب فقال عمرو عند ذلك استغفر لي ما كنت قلت لك فاستغفر له وقال عمرو ما أفحشت قط الاثلاث مرار مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة الا وقد ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك والله اني لارجو أن لاأعود الى الرابعة مابقيت قال وأقام عمرو محاصر الاسكندرية أشهرا فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ما أبطؤا بالفتح الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو بن العاص أما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر انكم تقاتلونهم منذ سنين وماذاك الا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك وتعالى لاينصر قوما الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف الا أن يكونوا غيرهم ماغير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الاربعة فى صدور الناس ومر الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعجّ الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم فلما أتى عمرو ابن العاص رضى الله عنه الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر رضي الله عنه ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا الى الله تعالى ويسألوه النصر ففعلوا ففتح الله عليهم * ويقال ان عمرو بن العاص استشار مسلمة فقال أشر عليّ في قتال هؤلاء فقال له مسلمة أرى أن تنظر الى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعقد له على الناس فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيكه فقال عمرو من ذلك قال عبادة بن الصامت فدعاه عمرو فأتاه وهو راكب على

فرسه فلما دنا منه أراد النزول فقال له عمرو عزمت عليك ان نزلت ناولني سنان رمحك فناوله اياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم فتقدم عبادة مكانه فصادف الروم وقاتلهم ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك وكان حصار الاسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أشهر قبل ذلك وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين وقال أبو عمرو الكندى وحاصر عمرو الاسكندرية ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وهو الفتح الاول ويقال بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة احدى وعشرين * قال القضاعيّ عن الليث أقام عمرو بالاسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها داراً في ذي القعدة * وقال ابن عبد الحكم فلما هزم الله تعالى الروم وفتح الاسكندرية هرب الروم فى البر والبحر فخلف عمرو بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرا فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان الله قد فتح علينا الاسكندرية بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر رضى الله عنه يقبح رأيه ويأمره أن لايجاوزها قال ابن لهيعة وهو فتح الاسكندرية الثانى وكان سبب فتحها هذا أن رجلا يقال له ابن بسامة كان بوابا فسأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له البـاب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو وقتل من المسلمين من حين كان من أمر الاسكندرية ما كان الى أن فتحت اثنان وعشرون رجلا وبعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدا الى عمر بن الخطاب بشيرا له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معى فقال له عمرو وما أصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت * فلما قدم على عمر أخبره بفتح الاسكندرية فخر عمر ساجدا وقال الحمد لله وقال معـاوية بن خديج بعثنى عمرو بن العاص الى عمر رضى الله عنه بفتح الاسكندرية فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب المسجد ثم دخلت المسجد فبينا أنا قاعد فيه اذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرأتني شاحبا على ثيـاب السفر فأتتني وقالت من أنت فقلت أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص فانصرفت عنى ثم أقبلت تشد أسمع حفيف أزارها على ساقها حتى دنت مني ثم قالت قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك فتبعتها فلما دخلت فاذا بعمر يتناول رداءه باحدى يديه ويشد ازاره بالاخرى فقال ما عندك فقلت خير يا أمير المؤمنين فتح الله الاسكندرية فخرج معى الى المسجد فقال للمؤذن أذن في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس ثم قال لي قم فأخبر أصحابك فقمت فأخبرتهـم ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال يا جارية هل من طعام فأتت بخبز وزيت فقال كل فأكلت حياء ثم

قال كل فان المسافر يحب الطعام فلو كنت آكلا لا كلت معك فأ بت على حياء ثم قال يا جارية هل من تمر فأتت بتمر في طبق فقال كل فأكلت على حياء ثم قال ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد قال قلت أمير المؤمنين قائل قال بئس ما قلت أو بئس ما ظننت لئن نمت النهار لاضيعن الرعية ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية * ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك الى عمر بن الخطاب أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك وعن أبي قبيل أن عمرا لما فتح الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الاخضر وترحل من الاسكندرية فى الليلة التي دخلها عمرو وفى الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو سبعون ألف يهودى * وكان بالاسكندرية فيما أحصى من الحمامات أثنا عشر ألف ديماس أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس كل مجلس يسع جماعة نفر وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتي ألف رجل فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ماقدروا عليه من المال والمتاع والاهل وبقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمها فكان أكثر الناس يريدون قسمها فقال عمر ولا أقدر على قسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر لاتقسمها وذرها يكون خراجها فيأ للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين على كل رجل لايزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الارض والزرع الا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم لانّ الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة * وقد كانت قرى من قرى مصر قاتلت فسبوا منها قرية يقال لها بلهيب وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس فوقع سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط اهل ذمة * وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرا سبى أهل بلهيب وسلطيس وقرطيا وسخا فتفرقوا وبلغ أولهم المدينة حين نقضوا ثم كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بردهم فرد من وجد منهم وفى رواية ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب فى اهل سلطيس خاصة من كان منهم فى أيديكم فخيروه بين الاسلام فان أسلم فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم وان اختار دينه فخلوا بينه وبين قريته فكان البلهيبي خير يومئذ فاختار الاسلام * وفي رواية ان أهل سلطيس وصا وبلهيب ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم

المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه عمر أن تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين وتضرب عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعل ذلك * ويقال انما ردهم عمر رضي الله عنه لعهد كان تقدم لهم وقال ابن لهيعة جبي عمرو جزية الاسكندرية ستمائة ألف دينار لانه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمة فقدر عليهم دينارين دينارين فبلغت ذلك وقيل كانت جزية الاسكندرية ثمانية عشر ألف دينار فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار ويقال ان عمرو بن العاص استبقى أهل الاسكندرية فلم يقتل ولم يسب بل جعلهم ذمة كاهل النوبة

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالاسكندرية وانتقاض الروم

قال ابن عبد الحكم فأما الاسكندرية فلم يكن بها خطط وانما كانت أخائذ من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنو ابيه وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص فقال معاوية بن خديج ننزل فنزل عمرو القصر ونزل أبوذر منزلا كان غربي المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلي البحر وقد انهدم ونزل معاوية بن خديج فوق التل وضرب عبادة بن الصامت خباء فلم يزل فيه حتى خرج من الاسكندرية ويقال ان أبا الدرداء كان معه والله أعلم قال فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو ابن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس وربعا في السواحل والنصف مقيمون معه وكان يصير بالاسكندرية خاصة الربع في الصيف بقدر ستة أشهر ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه واتخذوا فيها أخائذ * وعن يزيد بن أبي حبيب أن المسلمين لما سكنوا الاسكندرية في رباطهم ثم قفلوا ثم غزوا ابتدروا فكان الرجل منهم يأتي المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه فلما غزوا قال عمرو اني اخاف أن تخربوا المنازل اذا كنتم تتعاورونها فلما كان عند الكريون قال لهم سيروا على بركة الله فمن ركز منكم رمحه في دار فهي له ولبني ابيه فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في منزل منها ثم يأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث وكانوا يسكنونها حتي اذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها وكان يزيد بن أبي حبيب يقول لايحل من كرائها شيء ولا بيعها ولا يورث منها شيء انما كانت لهم يسكنوها في رباطهم * وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال ما كنا قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جري النيل فكتب عمر الى عمرو اني

لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفا فتحول عمرو بن العاص الى الفسطاط قال وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية أن لاتجعلوا بيني وبينكم ماء .تى ما أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت فتحول سعد بن أبي وقاص من مدائن كسري الى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط وكان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية وكان على الولاء لايغفلها ويكنف مرابطها ولا يأمن الروم عليها * وكتب عثمان رضى الله عنه الى عبد الله ابن سعد بن أبي سرح قدعلمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية وقد نقضت الروم مرتين فالزم الاسكندرية مرابطها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر قال وكانت الاسكندرية انتقضت وجاءت الروم عليهم منويل الخصى فى المراكب حتي أرسوا بالاسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وقد كان عثمان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فلما نزلت الروم سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتي يفرغ من قتال الروم فأن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل وكان على الاسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتي يكون مثل بيت الزانية يؤتي من كل مكان فخرج اليهم عمرو في البر والبحر فضموا الى المقوقس من أطاعه من القبط وأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن حذافة لعمرو ناهضهم قبل أن يكثر مددهم فلا آمن أن تنتقض مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا الي فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينتهبون مامروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبدأت الروم القبط فرموا بالنشاب فى الماء رميا شديدا حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو في لبته وهو في البر فعقر فنزل عنه عمرو ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنفحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيأ وحملوا على المسلمين حملة ولي المسلمون منها وانهزم شريك بن سمي في خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف وبرز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز اليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى أبا مذحج فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح أبا مذحج فيجيبه لبيك

والناس على شاطئ النيل فى البر على تعبيتهم وصفوفهم فتجاولا ساعة بالسيف ثم حمل عليه البطريق فاحتمله وكان نحيفا فاخترط حومل خنجرا كان في منطقته أو في ذراعه فضرب به نحر العلج أو تر قوته فأثبته ووقع عليه فاخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه الله فرؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتي دفنه بالمقطم ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطلبهم المسلمون حتي ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى وقتلهم عمرو حتى أمعن في مدينتهم فكلم فى ذلك فأمر برفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا وهو المسجد الذى بالاسكندرية الذى يقال له مسجد الرحمة سمي بذلك لرفع عمرو السيف هناك وهدم سورها كله وجمع ما أصاب منهم فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة وقال بعضهم لعمرو ماحل لك ماصنعت بنا كان لنا أن تقاتل عنا لانا في ذمتك ولم ننقض فأما من نقض فأبعده الله فندم عمرو وقال ياليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية وكان سبب نقض الاسكندرية هذا أن ظلما صاحب اخنا قدم على عمرو فقال أخبرنا ماعلي أحدنا من الجزية فيصبر لها فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة لو اعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم فغضب صاحب اخنا وخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم الله تعالى وأسر فأتي به الى عمرو فقال له الناس اقتله فقال لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر وسوره وتوجه وكساه برنس أرجوان فرضى باداء الجزية فقيل له لو أتيت ملك الروم فقال لو أتيته لقتلنى وقال قتلت أصحابى وعن أبى قبيل أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة القطيفى على الاسكندرية وبعث معه اثنى عشر ألفا فكتب علقمة الى معاوية بن أبى سفيان يشكو عتبة حين غرر به وبمن معه فكتب اليه معاوية انى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة فكان في الاسكندرية سبعة وعشرون الفا وفى رواية أن علقمة بن يزيد كان على الاسكندرية ومعه اثنى عشر الفا فكتب الى معاوية انك خلفتنى بالاسكندرية وليس معي الا اثنا عشر الفا ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة فكتب اليه معاوية انى قد أمددتك بعبدالله بن مطيع في أربعة آلاف من أهل المدينة وأمرت معن بن يزيد السلمي أن يكون بالرملة في اربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم متي بلغهم عنك فزع يعبروا اليك قال ابن لهيعة وقد كان عمرو بن العاص يقول ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة *وكان عمرو حين توجه الى الاسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان * واختلف علينا السبب الذى خربت له فحدثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه الى نقيوس لقتال الروم

عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه اهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر باخرابها واخراجهم منها وقيل كان اهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من ساقة عمرو فقتلوهم بعد ان بلغ عمرو الكريون فأقام عمرو ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها فهي خراب الى اليوم وقيل كان أهل الخربة أهل تويت وخبت فارسل عمرو الى أرضهم فأخذ له منها جراب فيه تراب من ترابها فكلمهم فلم يجيبوه الى شيء فامر باخراجهم ثم أمر بالتراب ففرش تحت مصلاه ثم قعد عليه ثم دعاهم فكلمهم فأجابوه الى ما أحب ثم أمر بالتراب فرفع ثم دعاهم فلم يجيبوه الى شيء فعل ذلك مرارا فلما رأى عمرو ذلك قال هذه بلدة لا يصلح أن توطأ فأمر باخرابها فلما هزم الله الروم أراد عثمان رضى الله عنه أن يكون عمرو بن العاص على الحرب وعبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو انا اذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبي عمرو وكان فتح عمرو هذا عنوة قسرا في خلافة عثمان سنة خمس وعشرين وبينه وبين الفتح الاول أربع سنين وقال الليث كان فتح الاسكندرية الاول سنة اثنتين وعشرين وكان فتحها الآخر سنة خمس وعشرين وأقامت الجيش (٣) من السماء يقاتلون الناس سبع سنين بعد أن فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض قال ثم غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح ذا الصواري في سنة أربع وثلاثين وكان من حديث هذه الغزوة ان عبد الله بن سعد لما نزل ذو الصواري أنزل نصف الناس مع بسر بن ارطاة في البر فلما مضوا أتى آت الى عبد الله بن سعد فقال ما كنت فاعلا حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب فافعله الساعة وكانت مراكب المسلمين مائتي مركب ونيفا فقام عبد الله ابن سعد بين ظهراني الناس فقال بلغني ان ابن هرقل قد أقبل اليكم في ألف مركب فأشيروا عليّ فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع اليهم أفئدتهم ثم قام الثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس ثم قام الثالثة فقال انه لم يبق شيء فأشيروا عليّ فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال أيها الامير ان الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا. فركبوا وانما في كل مركب نصف شحنته لانه قد خرج النصف الآخر الى البر مع بسر فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف اليه بالاخبار فقال ماقعلوا قالوا قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال غلبت الروم ثم أتوه فقال مافعلوا قالوا قد نفد النبل

(٣) قوله وأقامت الخ هكذا فى الاصول التي بيدي وانظر ما معني هذه العبارة فانها لاتخلو عن سقط أو تحريف فاحش وكذا قوله قبلها باسطر أهل تويت وخبت فانه بعد المراجعة لم يفهم له معني ولعله محرف عن برنة وجبت ومعناها الحذاقة بالامر والسحر وحرر اه

والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم ثم أتوه فقال ما فعلوا قالوا قد نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف قال غلبت الروم وكانت السفن اذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال قال فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الامير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو يجتر مركب عبد الله اليهم فقام علقمة بن يزيد القطيفي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسيسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب من رأيت أشد قتالا قالت علقمة صاحب السلسلة وكان عبد الله قد خطب بسيسة الى أبيها فقال له ان علقمة قد خطبها وله على فيها وأى فان تركها أفعل فكلم عبد الله علقمة فتركها فتزوجها عبد الله بن سعد ثم هلك عنها عبد الله فتزوجها بعده علقمة بن يزيد ثم هلك عنها علقمة فتزوجها بعده كريب بن أبرهة وماتت تحته وقيل مشت الروم الى قسطنطين بن هرقل في سنة خمس وثلاثين فقالوا أنترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهي مدينتنا الكبرى فقال ما أصنع بكم ما تقدرون أن تمالكوا ساعة اذا لقيتم العرب قالوا اخرج على أنا نموت فتبايعوا على ذلك فخرج في ألف مركب يريد الاسكندرية فسار فى أيام غالبة الرياح فبعث الله عليهم ريحا فغرقتهم الا قسطنطين فانه نجا بمركبه فألقته الريح بصقلية فسألوه عن أمره فأخبرهم فقالوا شتت النصرانية وأفنيت رجالها لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم فقال خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه فقال ويلكم يذهب رجالكم وتقتلون ملككم قالوا كأنه غرق معهم ثم قتلوه وخلوا من كان معه في المركب قال أبو عمرو الكندى وانما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صواري المراكب واجتماعها

﴿ ذكر بحيرة الاسكندرية ﴾

قال ابن عبد الحكم كانت بحيرة الاسكندرية كروما كلها لامرأة المقوقس فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم فكثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعا فقالت لا حاجة لى في الخمر أعطوني دنانير فقالوا ليس عندنا فأرسلت اليهم الماء فغرقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها الخلفاء من بنى العباس فسدوا جسورها وزرعوها ثم صارت بحيرة طولها اقلاع يوم فى عرض يوم ويصير اليها الماء من اشتوم في البحر الرومي ويخرج منها الى بحيرة دونها في خليج عليه مدينتان احداها الحدبة والاخري اتكو وهى كثيرة المقاثي والنخل وكلها في الرمل ويصب فى هذه البحيرة خليج من النيل يسمى الحافر طوله نصف يوم اقلاعا وهو كثير الطير والسمك والعشب وكان السمك بوجود هذه البحيرة فى الاسكندرية غاية فى الكثرة يباع بأقل القيم وأبخس الأثمان ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة منذ

﴿ ذكر خليج الاسكندرية ﴾

يقال ان كلوباطرة الملكة هي التي ساقت خليج الاسكندرية حتى أدخلته اليها ولم يكن يبلغها الماء فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية وبلطت قاعه بالرخام من أوله الى آخره ولم يزل يوجد ذلك فيه وقال أبو الحسن المخزومي في كتاب المنهاج أما خليج الاسكندرية فانه من فوهة الخليج الى ترعة بودرة ليس على شئ منها سد بومنحرج محلة بتوك أسينة اوربن محلة فرنو محلة حسن منية طراد وتعرف بالقاعة محلتا نصر ومسروق فأما ترعة لقانة فانها تفتح بعد سبعة أيام من توت والترعة الجديدة تفتح في السادس عشر من توت وترعة بودره تفتح بعد سبعة أيام من توت وترعة بو يحيي وترعة بو السحما وترعة القهوقية ليس على شئ من ذلك سد وترعة الشراك تفتح بعد سبعة ايام من توت وترعة بوخراشة وترعة البربيط يشرب منها ديسو وسمخراط وشيرنويه ومنية حمادوسنادة وبعض محلة مارية وترعة فيشة بلخا تفتح في ثاني عشر توت وجرت العادة أن تفتح في النوروز ترعة بويط ومقطع سمديسة يفتح في الثاني والعشرين من توت ومقطع ياطس يفتح في تاسع عشر توت ولما سد المقطع المذكور عملت بعد ذلك ترعة تروى الصفقة القبلية منها فتفتح في يوم النوروز ولما استحدثت ترعة افلاقة وخرجت في أرض ياطس جرت العادة اذا رويت الصفقة القبلية من افلاقة تطلق الترعة المذكورة على القسم البحري من ياطس الى أن يروى وترعة القارورة محدثة وترعة بفوها تفتح في ثاني عشر توت وترعة افلاقة تفتح في عاشر توت وترعة اسكنيدة تفتح في سادس توت * تراع بحر دمنهور تفتح في العشرين من مسرى الى سادس توت ويروي منها بعض طاموس وبعض كنيسة الغيط وبعض قرطسا ودمنهور * ترعة القواديس منها تشرب شبرا النخلة وكوم التلول وتراع شبرا النخلة تفتح على أعاليها من أول توت وترعة بنطرى تفتح في خامس عشر مسري وترعة مسيد تفتح في ثامن توت وترعة سنتوية تفتح في ثامن عشر توت وبحر دمشوية يفتح في العشرين من مسرى ومنه تشرب منية رزقون وسفط كرداسة ودمشوية ومحلة الشيخ ومصيل وترعة دمشوية تفتح في تاسع توت ويقيم الماء عليها سبعة عشر يوما وتفتح الى محلة الشيخ ومصيل يقيم الماء عليها ثلاثين يوما ويسد بعد ذلك على دمشوية سبعة أيام وعلى سفط ومنية رزقون ترعة برسيق كانت تفتح في أول توت * محلة برسيق ليس عليها سد * محلة الكروم تفتح في ثامن توت ومنها تشرب عدة أماكن وهي محلة الكروم وكفورها وهي دنيسة وكوم الولائد وكوم الصخرة وديرامس والصفاصف وما يخرج عن كفورها وهي تلسنا والجاسون من حقوق محلة كيل ومنها تشرب الجهة الغربية * شبزا باريس عليها سد وترعة قافلة كانت تفتح في ثامن توت وليس عليها الآن سد وترعة بلقطر وكفورها كانت تفتح في

تاسع توت وليس عليها الآن سد * ترعة الراهب ليس عليها سد وترعة دسونس المقاريفي تسقى الحلفاية وتفتح في ثامن توت وكذلك ترعة مرحنا والملعقية وترعة نيسلامة وبيشاى وآخر تواع الحجيجة وترعة السكريون تفتح في ثامن توت وترعة السلقون كانت تفتح في سادس توت وليس عليها الآن سد وترعة أرمياخ تفتح في ثانى عشر توت وترعة أبلوق تفتح في سادس توت وأما جون رمسيس فان بحر رمسيس كان يضرب السد فيه على تراع رمسيس من أول النيل الى سابع عشر توت والذي يشرب من السد المذكور من النواحي والكفور رمسيس ومحلة جعفر وفليشان وبعض أبنية البعيدى وبعض خربتا وبعض البلكوس وبعض بولين وبعض محلة وافد والبيضاء وبعض طيلاس ثم يفتح سد دكدولة وهو محدث يقيم الماء عليه عشرة أيام وتشرب منه دكدولة ومحلة معن ومنية أسامي وبعض صيفية ثم يقطع سد الفطامى وهو محدث ومنه يشرب بعض جنبوية وبليانة البحرية والسرة وأبو حمار والبهوط ثم يقطع سد رسونس وأبو دينار وترعة طبرينة فيشرب منه دنسال وطاموس يقيم الماء عليها ستة أيام ومنه تشرب منية عطية وسلطيس * وأما بحر دمنهور فانه يسد على سلطيس الى سابع عشر توت ومنه تشرب سلطيس وزهرا وبعض طابوس وبعض قرطسا وبعض كنيسة الغيط ودمنهور ثم يقطع سد ندبة وهو محدث فيقيم ثمانية أيام ومنه تشرب ندبة ودقرس والعميرية والنسرين ثم يفتح ويسد على محلة خفض ومحلة كيسل ومحلة نمير ثم يقطع سد سلطيس وهو محدث فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماءين بحر دمنهور ورمسيس ثم يقطع جسر ملولة ومنه تشرب تروجة وأرسيس والمراسى وغابة الاعساس وبعض سمرو ومحلة نمير ويبقى هناك الى انقضاء النيل * وأما ترعة طبرينة فهي محدثة واذا رويت طبرينة تطلق على دسونس أم دينار ثم تقطع على طاموس بمقدار ربها ثم تطلق فى النيل العالى على أرض قراقس ويطلق الماء على قرطسا وكنيسة الغيط وخليج الطبرينة اذا خرج الماء منه يسقى منه في أول النيل الى أن يضرب جسر شبرا وسيم فيسقى منه شبرا وسيم وبعض البلكوس وحفيرة الزعفرانى وبعض بولين ومسجد غانم والصواف وكوم شريك ومنية مغيين وتل الفطامى ومحلة وافد ثم يقطع جسر دليجة ومنه يشرب بعض خربتا وبعض فليشان وبعض بولين والبيضاء ودنست وتليانة الابراج وتل بقاوالحدين واليهودية والنسوم وأبو صهادة والحصن وقلاوة بني عبيد وطوخ دخاية ودرشا وسقرا ودليجة ولحة وطية ثم يقطع على منية وزراقة الحجر والمحزون وبعض جيارس وافريم وأبو سمار وأم الضروع * خليج ابن زلوم ويعرف بخليج ابن ظلوم وسد مخرج التعيدي لا يفتح الى عشرة أيام من توت ومنه يشرب شابور وكنيسة مبارك وبعض سرسيقة وبعض دموشة ومنية يزيد وحوض الماصلي وحصة سلمون وبعض سنيت وبعض التعيدي وبعض فليشان ثم يفتح فيشرب منه أمليط وبعض انباى وبعض

كنيسة عبد الملك وبعض أرمنية وميسنا وبعض محلة عبيد وسفط خالد وبرنامة وشبرا نوبة وكيان شراس وبعض دمشوه وتقام الحراس على جسر سفط ويشرب من خليج الاسكندرية وما يفيض منه أهل الباطن وأهل البحيرة في فحاج وأودية فيكون ذلك الماء صلة وهم قبيل من دنانة والرحانة وبنى يزان وقبائل البربر ويزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج وبين مشارق الفرما من ناحية جوجير وفاقوس وبين آخر مايشرب من خليج الاسكندرية مسيرة شهر كان عامرا كله في محلول ومعقود الى مابعد الخمسين وثلثمائة من سني الهجرة وقدخرب معظم ذلك * وقال أبو بكر الطرطوسي عمن حدثه من مشايخ البحر انه قال شاهدت الاسكندرية والصيد في الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يطفو الماء به كثرة حتى تصيده الاطفال بالخرق ثم حجره الوالي ومنع الناس من صيده فذهب حتى كاد لايرى فيه الا الواحدة بعد الواحدة الى يومنا هذا * وقال أبو عمرو الكندى في كتاب الموالي عن الحارث بن مسكين انه تقلد قضاء مصر من قبل أمير المؤمنين الواثق بالله في سنة تسع وثلاثين ومائتين فذكر سيرته وقال وحفر خليج الاسكندرية وورد الكتاب بصرفه في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين * وقال جامع السيرة الطولونية وفي ربيع الاول سنة تسع وخمسين ومائتين أمر أحمد بن طولون بحفر خليج الاسكندرية * وقال المسعودى وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وقد كان الاسكندر بني الاسكندرية على هذا الخليج من النيل وكان عليها معظم ماء النيل فكان يسقى الاسكندرية وبلاد مريوط وكانت بلاد مريوط في نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة وكانت السفن تجرى في النيل وتتصل باسواق الاسكندرية وقد بلط أرض خليجها في المدينة بالاحجار والمرمر وانقطع الماء عنها العوارض سدت خليجها ومنعت الناس دخوله فصار شربهم من الآبار وصار النيل على يوم منهم * وذكر المسيحي أن الحاكم بأمر الله أبا منصور بن العزيز أطلق لحفر خليج الاسكندرية في سنة أربع وأربعمائة خمسة عشر ألف دينار لحفر كله وفي سنة اثنتين وستين وستمائة بعث الملك الظاهر بيبرس الامير عليا أمير جاندار لحفر خليج الاسكندرية وقد امتلأت فوهته بالطين وقل الماء في الاسكندرية فابتدأ بالحفر من التعيدى وأنشأ هناك مسجدا وتولى مباشرة هذا الحفر المعلم تعاسيف ناظر الدواوين ثم بعث السلطان فى سنة أربع وستين وستمائة لحفر هذا الخليج الامير علم الدين سنجر المسروري ثم سار بعامة الامراء والاجناد وباشر الحفر بنفسه وعمل فيه الامراء وجميع الناس الى أن زالت الرمال التي كانت على الساحل بين التعيدى وفم الخليج ثم عدي الى بارنبار وغرق مراكب هناك وبني عليها بالحجارة فلما تم الغرض عاد الى قلعة الجبل ثم تعطل استمرار جريان الماء فيه بطول السنة وصار يجف سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء اليه واحتاج أهل

الاسكندرية فى طول السنة الى الشرب من الصهاريج التي يخزن فيها الماء الى أن كانت سنة عشر وسبعمائة فقدم الامير بدر الدين بكتوت الخزنداري المعروف بأمير شكار متولي الاسكندرية الى قلعة الجبل وحسن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون حفره وذكر له مافي ذلك من المنافع أولها حمل الغلال وأصناف المتجر الى الاسكندرية في المراكب وفي ذلك توفير للكلف وزيادة فى مال الديوان وثانيها عمارة ماعلى حافتي الخليج من الاراضى بانشاء الضياع والسواقي فينمو الخراج بهذا نموا كثيرا وثالثها انتفاع الناس به في عمارة بساتينهم وشرب مائه دائما فأعجب السلطان ذلك وندب الامير بدر الدين محمد بن كندعدى ابن الوزيرى مع بكتوت لعمله وتقدم الى جميع أمراء الدولة باخراج مباشريهم لاحضار رجال النواحي الجاريه في اقطاعاتهم للعمل للحفير وكتب لولاة الاعمال بالوقوف في العمل فاجتمع من النواحى نحو الاربعين ألف رجل جمعت في نحو العشرين يوما ووقع العمل في شهر رجب من السنة المذكورة وأفرد لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل فجاء قياس الحفر من فم بحر النيل الى ناحية شنبار ثمانية آلاف قصبة حاكمية ومن شنبار الى الاسكندرية مثلها وكان الخليج الاصلي يدخل الماء اليه من حد شنبار فجعل فم هذا البحر يرمى عليه وعمل عمقه ست قصبات في عرض ثماني قصبات فلما انتهوا الى حد الخليج الاول حفر أيضا على نظير الخليج المستجد فصارا بحرا واحدا وركبت عليه السدود والقناطر ووجد في الخليج الاول عند حفره من الرصاص المبني تحت الصهاريج شئ كثير جدا فلم يتعرض السلطان لشئ منه وأنعم به على الامير بكتوت وعظمت المشقة في حفر هذا الخليج فان الذى تجاوز البحر منه غلب عليه الماء فصارت الرجال تغطس فيه وترفع الطين من أسفله ثم كثر الماء فركبت السواقي حتى نزحته الأن عظم النفع به سهل جميع ذلك فان السفن جرت فيه طول السنة واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج وبادر الناس للعمارة على جانبي الخليج فلم يمض غير قليل حتى استجد عليه مايزيد على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباخا وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم وفوق الاربعين ضيعة وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية وعمرت منه عدة بلاد كثيرة وتحول عالم عظيم الى سكنى ما استجد عليه * وفيه ولما فرغ العمل في الخليج شرع الامير بكتوت في عمل جسر من ماله فان الناس كانوا فى وقت هيجان البحر يجدون مشقة عظيمة لغلبة الماء على أراضى السباخ فأقام ثلاثة أشهر حتى بني رصيفا دك أساسه بالحجر والرصاص وأعلاه بالحجر والكلس وعمل فيه ثلاثين قنطرة وأنشأ خانا ينزله الناس ورتب فيه الخفراء ووقف على مصالحه رزقة فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية سوى ما أخذ من الحجارة التي بعضها من قصر قديم كان خارج الاسكندريه وسوى ماوجده من الرصاص في سرب بأسفل هذا

القصر ينتهى بمن يمشى فيه الى قريب البحر وسوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج ولم يزل الخليج فيه الماء طول السنة الى مابعد سنة سبعين وسبعمائة فانقطع الماء منه وصار الماء لايدخل اليه الا فى أيام زيادة ماء النيل فقط ثم يجف عند نقصه فتلف من أجل هـذا أكثر بساتين الاسكندرية وخربت وتلاشى كثير من القرى التي كانت على هـذا الخليج * وسبب انقطاع الماء عنـه غلبة الروم على الاشـتوم الذي كان يعبر منه ماء بحر الملح الى بحيرة الاسكندرية حتى جفت وصار الرمل تلقيه الرياح في الخليج فانطم فمه وعلا قاعه وقصد من أدركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرة فلم يتهيأ ذلك الى أن كانت سلطنة الملك الأشرف برسباى فندب لحفره الامير جرباش الـكريمي المعروف بعاشق فتوجه اليه وجمع له من قدر عليه من رجال النواحي فبلغت عدتهم ثمانمائة وخمسة وسبعين رجلا ابتدؤا في حفره من حادى عشر جمادى الاولى سنة ست وعشرين وثمانمائة الى حادى عشر شعبان لتمام تسعين يوما فانتهى عملهم ومشي المـاء في الخليج حتى انتهى الى حده من مدينة الاسكندرية وجرت فيه السفن فسر الناس به سرورا كبيرا وجبي ما أنفق على العمال في الحفر من أرباب النواحي التي على الخليج ومن أرباب البساتين بالاسكندرية ولم يكن في حفره كبير شناعة مما جرت به عادة الولاة في مثل ذلك ولله الحمد وعندما انتهى قدم الامير جرباش الى قلعة الجبل فخلع السلطان عليه وشكره ثم عمله حاجب الحجاب فلم يستمر ذلك الا قليلا حتى انطم بالرمل وتعذر سلوك الخليج بالمراكب الا في أيام النيل فقط

ذكر جمل حوادث الاسكندرية

وفى سنة تسع وتسعين ومائة عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد الله الخزاعي أمير مصر وبين عبـد العزيز ابن الوزير الجروي الثائر بتنيس فعقد المطلب على الاسكندرية لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن خديج فاستخلف محمد خاله عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج الذى يقال له عمر بن ملاك ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك وكانت بالاسكندرية مراكب الاندلسيين قد قفلوا من غزوهم وكان سبب قدوم هذه المراكب ماجرى لاهل قرطبة بوقعة الربض مع الحـكم بن هشام في سـنة اثنتين وثمانين ومائة فأخرج جماعة منهـم فوصلوا الى ثغر الاسكندرية زيادة على عشرة آلاف وكان سبب ثورتهم أن قصابا من الاسكندرية رمى وجه رجل منهـم بكرش فأنفوا من ذلك وصاروا الى ماصاروا اليه وذلك لما نزلوا رمل الاسكندرية ليبتاعوا مايصلحهم وكذلك كانوا على الزمان وكانت الامراء لاتبيحهم دخول الاسكندرية انما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم فلما عزل عمر بن ملاك كتب اليه عبد العزيز الجروى يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها فبعث عمر بن ملاك الى الاندلسيين فدعاهم الى القيام معه في اخراج

الفضل عنها فساروا معه وأخرج الفضل ودعا للجروى فوثب أهل الاسكندرية على الاندلسيين وأخرجوهم وردوا الفضل وقتل من الاندلسيين نفر وانهزم الباقون الى مراكبهم فعزل المطلب أخاه وولي عليها اسحاق بن أبرهة بن الصباح في شهر رمضان سنة تسع وتسعين ثم عزله بأبي ذكر بن جنادة المعافرى فلما اقتتل السرى بن الحكم هو والمطلب بن عبد الله وغلب السرى على مصر وثب عمر بن ملاك على أبى ذكر وأخرجه من الاسكندرية ودعا للجروي وأقبل الاندلسيون اليه فأفسدوا فأمرهم بالخروج الى مراكبهم فشق ذلك عليهم وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى أموره فترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي فصاروا مع الاندلسيين يدا واحدة واعتضدوا بلخم وكانت لخم أعز من في ناحية الاسكندرية فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفي الى عمر بن ملاك فى امرأة فقضى على أبى عبد الرحمن فوجد في نفسه من ذلك وخرج الى الاندلسيين فألف بينهم وبين لخم ورجا أهل الاندلس أن يدركوا ثارا من عمر ابن ملاك فساروا الى عمر بن ملاك وهم زهاء عشرة آلاف فحصروه في قصره وخشى أن القصر لايمنعه منهم وخاف أن يدخلوا عليه عنوة فيفضح في حرمه فاغتسل وتحنط وتكفن وأمر أهله أن يدلوه اليهم فدلى فأخذته السيوف فقتل ثم ولي أخوه محمد بن عبد الله الذى يلقب جيوس فقتل ثم ولي عليهم عبد الله البطال ابن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج فقتل ثم ولي عليهم أخوه أبو هبيرة الحارث فقتل ثم ولي عليهم خديج ابن عبد الواحد فقتل وانصرف القوم وذلك في ذى القعدة ثم فسد مابين لخم والاندلسيين عند مقتل ابن ملاك واقتتلوا فانهزمت لخم فظفر الاندلسيون بالاسكندرية فى ذى الحجة فولوها أبا عبد الرحمن الصوفي فبلغ من الفساد والنهب والقتل مالم يسمع بمثله فعزله الاندلسيون وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ثم حاربت بنو مدلج الاندلسيين فظفر بهم الاندلسيون ونفروهم عن البلاد فلم يقدر بنو مدلج على الرجوع الى أرض الاسكندرية حتى طلب السرى من الاندلسيين أن يردوهم فأذنوا لهم حينئذ ورجعوا وكان أبو قبيل يقول أنا على الاسكندرية من أربعين مركبا مسلمين وليسوا بمسلمين تأتى فى آخر الصيف أخوف مني عليها من الروم فيقال له ماهذه الاربعون مركبا فى هذا الخلق لو كانت نيرانا تضطرم فيقول اسكت ويلك منها وممن فيها يكون خراب الاسكندرية وما حولها وبلغ عبد العزيز الجروي قتل ابن ملاك فسار في خمسين ألفا حتى نزل على حصن الاسكندرية وحصرها حتى أجهد من فيها فبلغه أن السرى بن الحكم بعث الى تنيس بعثا فكر راجعا في المحرم سنة احدى ومائتين فدعا الاندلسيون للسرى ثم لما خلع أهل مصر المأمون ودعوا لابراهيم بن المهدي وقام الجروي بذلك سار الى الاسكندرية وحصر الاندلسيين حتى دخلها صلحا ودعي له

له بها ثم سار عنها الى الفسطاط فحارب السرى وقتل ابنه ثم انصرف فسار الاندلسيون يعامل الجروى وأخرجوه من الاسكندرية وخلعوا الجروى ودعوا للسرى فسار اليهم الجروى فى شهر رمضان سنة ثلاث ومائتين فعارضته القبط بسخا وأمدتهم بنو مدلج وهم في نحو من مائتي ألف فهزمهم وبعث بجيوشه الى الاسكندرية فحاصروها وكانت بين السرى وبين أهل الصعيد حروب ثم ان الجروى سار الى الاسكندرية سيره الرابع وحاصرها ونصب عليها المجانيق سبعة أشهر من أول شعبان سنة أربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس فأصاب الجروى فلقة من حجر منجنيقه فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين وقام من بعده ابنه على فلم تزل الفتن بالاندلسيين في الاسكندرية متصلة الى أن قدم عبد الله بن طاهر الى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون وأخرج عبيد الله بن السرى من مصر وسار الى الاسكندرية فى قواد العجم من أهل خراسان مستهل صفر سنة اثنى عشرة ومائتين فحاصرها بضع عشرة ليلة حتى خرج اليه أهلها بأمان وصالحه الاندلسيون على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا على أن لا يخرجوا في مراكبهم أحدا من أهل مصر ولا عبداً ولا آبقا فان فعلوا فقد حلت له دماؤهم ونكث عهدهم وتوجهوا فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم فأمر باحراق مراكبهم فسألوه أن يردهم الى شرطهم ففعل وساروا الى جزيرة اقريطش وملكوها وكان الامير منهم أبو حفص عمر بن عيسى ثم ملكها ولده من بعده وعمرها الاندلسيون الى أن غزاها الروم سنة خمس وأربعين وثلثمائة وملكها بعد حصار طويل وولي على الاسكندرية الياس بن أسد ابن سامان ورجع الى الفسطاط فى جمادى الآخرة ثم سار الى العراق ولما انتقض أسفل الارض في جمادي الاولى سنة ست عشرة ومائتين وحاربهم الافشين ومعه عيسى بن منصور الرافقى أمير مصر وبعث عبد الله بن يزيد بن مزيد الشيباني الى الغربية فانهزم الى الاسكندرية واستجاشت عليه بنو مدلج وحصروه في شوال فسار الافشين وأوقع بمن في طريقه حتى قدم الاسكندرية فى جنوده فلقيته طائفة من بنى مدلج فهزمهم مرتين وأسر منهم وقتل ودخل الاسكندرية لعشر بقين من ذى الحجة ففر منه رؤساؤها وكان عليها معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج فأصلح أمرها ثم خرج الى أهل البشرود فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون الى مصر فصار الى البشرود والافشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدم ذكره * ولما ولي ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الاغلب أفريقية في سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير في الطرق وهى آمنة وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة الى الاسكندرية فيصل الخبر منها الى الاسكندرية في ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر * وفي

سنة اثنتين وثلثمائة دخل حباسة فى جيوش أفريقية الى الاسكندرية في المحرم ومعه مائة ألف أو زيادة عليها وقدمت الجيوش من المشرق مدد التكين أمير مصر وسار حباسة من الاسكندرية ونودى بالنفير فى الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة فلم يتخلف عن الخروج الى الجيزة أحد من الخاصة والعامة الامن عجز عن الحركة لمرض أو عذر وأتاهم حباسة فاقوه وهزموه ثم دار عليهم فقتل من أهل مصر نحوا من عشرة آلاف ونهض حباسة الى أفريقية وأقاموا بمصر مضطربين فأقبل مونس الخادم من العراق فى رمضان بجيوش كثيرة نصرف تكين فى ذي القعدة وولي ذكاء الاعور فى صفر سنة ثلاث وثلثمائة فخرج فى جيوشه الى الاسكندرية وتتبع كل من يومأ اليه بمكاتبة صاحب أفريقية فسجن منهم وقتل كثيرا وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية في شوال سنة أربع وثلثمائة خوفا من صاحب برقة * وفى سنة سبع وثلثمائة سارت مقدمة المهدى عبيد الله من أفريقية مع ابنه أبي القاسم الى لوبية فهرب أهل الاسكندرية وجلوا عنها وخرج منها مظفر بن ذكاء الاعور فى جيشه ودخلت اليها العساكر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر وفر أهل القوة من الفسطاط الى الشأم نخرج ذكاء أمير مصر الى الجيزة وعسكر بها ثم مرض ومات على مصافه بالجيزة فى ربيع الاول فولى تكين بعد ولايته الثانية من قبل المقتدر ونزل الجيزة وأقبلت مراكب صاحب أفريقية الى الاسكندرية عليها سليمان الخادم فقدم ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس فالتقيا برشيد فى شوال فاقتتلا فبعث الله ريحا على مراكب سليمان ألقتها الى البر فتكسر أكثرها وأخذ من فيها أخذا باليد وقتل أكثرهم وأسر من بقي وسيقوا الى الفسطاط فقتل منهم نحو سبعمائة رجل وسار أبو القاسم بن المهدي من الاسكندرية الى الفيوم وملك جزيرة الاشمونين والفيوم وأزال عنها جند مصر فمضى ثمل الخادم فى مراكبه الى الاسكندرية فقاتل من بها من أهل أفريقية فظفر بهم ونقل أهل الاسكندرية الى رشيد وعاد الى الفسطاط ومضى فى مراكبه الى اللاهون ولحقته العساكر فدخلوا الى الفيوم فى صفر سنة سبع وثلثمائة نخرج أبو القاسم بن المهدى الى برقة ولم يكن بينهما قتال ورجعت العساكر الى الفسطاط وما زالت الاسكندرية وأعمالها فى اضطراب الى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فملكتها وما برحت الى أن قام بها نزار بن المستنصر وكان من أمره ماقد ذكر عند ذكر خزائن القصر * وفى سنة ثنتى عشرة وستمائة اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج وقدمت بطسة الى الميناء فيها من ملوك الفرنج ملكان فهموا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد ويملكوها فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب اليها وقبض على التجار المذكورين وعلى من بالبطسة واستصفى أموالهم وسجنهم وسجن الملكين وجرت خطوب حتى أطاق السلطان نساءهم وعاد الي القاهرة *

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصنا من لبن * وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة كانت وقعة البابين بين الوزير شاور وأسد الدين شيركوه فانهزم عسكر شيركوه ومضى منهم طائفة الي الاسكندرية ثم كانت لشيركوه على شاور فانهزم منه الي القاهرة ومضى شيركوه الي الاسكندرية فخرج اليه أهل الثغر وفيهم نجم الدين محمد بن مصال والى الثغر وقاضيه الاشرف بن الحباب وناظره القاضي الرشيد بن الزبير وسروا بقدومه وسلموه المدينة ثم سار منها يريد بلاد الصعيد واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر في ألف فارس فنزل عليه شاور ومعه مرى ملك الفرنج فقام معه أهل الثغر واستعدوا لقتال شاور فكان ما أخرجوه أربعة وعشرين ألف فرس فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس والواجبات ويعطيهم الخمس اذا سلموه صلاح الدين فأبوا ذلك وألحوا في قتاله فحصرهم حتى قل الطعام عندهم فتوجه اليهم شيركوه وقد حشد من العربان جموعا كثيرة فبعث اليه شاور وبذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع الى الشام فأجابه الى ذلك وفتحت المدينة وخرج صلاح الدين الى مري ملك الفرنج وجلس معه فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافقه بل سيره الى عمه شيركوه من البحر على عكا بمن معه الى دمشق ودخل شاور الى الاسكندرية فى سابع عشر شوال فاستتر ابن مصال وفر الى الشأم وقبض على ابن الحباب وعوقب حتي فداه أهله بمال جزيل ولم يقدر على ابن الزبير وخرج الى رشيد هذا وقد امتنع الفقيه أبو الطاهر بن عوف وجماعة كثيرة بالمنار فوقف عليهم شاور فقال له ابن عوف اعذرنا يا أمير الجيوش وسامحنا بما فعلناه فعفا عنهم وولى القاضى الاشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا ناظراً على الاموال وخرج معه مرى ملك الفرنج الى القاهرة ثم توجه مرى الى بلاده * وفي سنة احدى وسبعين وستمائة ورد الخبر بحركة الفرنج الى ثغور مصر فاهتم الملك الظاهر بيبرس بامر الشواني ونصب على أسوار الاسكندرية نحو مائة منجنيق * وفي يوم الخميس خامس شهر رجب سنة سبع وعشرين خرج بعض تجار الفرنج الي ظاهر باب البحر حيث تجتمع العامة للفرجة وتعرض الي صبى أمرد يراوده عن نفسه فأنكر ذلك بعض من هناك من المسلمين وقال هذا ما يحل فأخذ الفرنجي خفا كان بيده وضرب به على وجهه فصاح بالناس فأتوه فقام الفرنج مع صاحبهم واتسع الخرق الى أن ركب متولى الثغر وأغلق أبواب المدينة وطلب من أثار الفتنة ففروا وعاد الى داره وترك الابواب مغلقة وكان بظاهر المدينة خلق كثير قد توجهوا على عادتهم في حوائجهم فحيل بينهم وبين بيوتهم وجاء الليل وهم قيام على الابواب يضجون ويصيحون فمضى أعيان البلد الى المتولى وما زالوا به حتي فتح لهم فدخلوا مبادرين وهم يزدحمون فمات منهم زيادة على عشرة أنفس وتلفت أعضاء جماعة وذهب من عمائم الناس ومناديلهم وغير ذلك شيء

كثير وعظم البكاء والصراح طول الليل فلما كان من الغد ركب الوالى لكشف أحوال الناس فتكاثروا عليه ورجموه فانهزم منهم الى داره فتبعوه وقاتلوه فقاتلهم من أعلى الدار حتى سفكت بينهما دماء كثيرة وأحرقوا بابه ونهبوا دورا بجانبه فكتب يستنجد والى دمنهور ومن حوله من العربان فأتوه واحتاطوا بالمدينة وسرح الطائر الى السلطان بخروج أهل الاسكندرية عن الطاعة فاشتد غضبه وخشى من اطلاقهم الامراء المسجونين وبعث الى القضاة فجمعهم واستفتاهم في قتالهم فكتبوا بما يجب وخرج اليهم الوزير مغلطاي الجمالى وطوغان شاد الدواوين وأيدمر أمير جندار وعدة من المماليك السلطانية وناظر الخاص ومع الوزير تذكرة بازاقة دماء أهل الفساد ومصادرة جماعة وأخذ أموال أهل البلد والقبض على الاسلحة المعدة بها للغزاة وامساك القاضي والشهود وحمل الامراء المسجونين الى القاهرة فساروا في عاشره وقدموا الثغر بعد ثلاثة أيام ونزل الوزير بالخيس وفرض على الناس خمسمائة ألف دينار مصرية وأحضر قاضي القضاة عماد الدين ونائبه في الحديد وأنكر عليهما كونهما شهرا النداء في البلد بالغزاة في سبيل الله فأنكرا وقوع هذا منهما وأنهما لم يكن في قدرتهما رد السواد الاعظم فضرب نائبه ابن الشيبي ضربا مبرحا وألزمه بحمل ستمائة ألف درهم وألزم القاضي بخمسمائة ألف درهم وكان قد رسم بشنقه فتلطف في مكاتبة السلطان واعتذر عنه وبرأه حتى عفا عنه وتتبع العامة فوسط منهم ثلاثين رجلا في يوم الجمعة ثالث عشره فتسارع الناس الى دورهم من الخوف فذهبت عدة عمائم واشتد الخوف مدة عشرين يوما وكتب السلطان تتوالى بالايقاع بأهل الثغر وأخذ أموالهم والوزير يحسن في الجواب الى أن جهز الامراء المسجونين وسار من الثغر وقد استعرض ما به من السلاح فوجد ستة آلاف عدة كاملة جعلها جميعها في قاعة وختم عليها وبلغت الجناية من الناس ما ينيف على مائتين وستين ألف دينار فكانت هذه من المحن العظيمة والحوادث الشنيعة ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر مدينة أتريب

هذه المدينة بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام قال ابن وصيف شاه وكان أتريب قد انتقل الى حيزه بعد موت أبيه قبطيم وهى المدينة التى كان أبوه بناها له وكان طولها اثني عشر ميلا ولها اثنا عشر بابا وجعل في شارعها الاعظم ثلاث قباب عالية على أعمدة بعضها فوق بعض منها قبة في وسط المدينة وقبتان في طرفيها وجعل على كل قبة مرقبا كبيرا وفي كل ناحية منها ملعبا ومجالس ومتنزهات تشرق وشق في غربيها نهرا وعقد عليه قناطر وجعل من فوقها مجالس متصلة وحولها المنازل تدور بالخليج متصلة بالقناطر على رياض مزروعة من خلفها الجنان والبساتين وعلى كل باب من

الابواب أعجوبة من تماثيل وأصنام متحركة وأصنام تمنع من يؤذى وجعل فى داخل كل باب صورة شيطانين من صفر فاذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يمنة الباب وان كان من أهل الشر بكى الشيطان الذي عن يسرة الباب وجعل في كل منتزه منها من الوحش الآلف والطيور المغردة كل مستحسن وفوق قباب المدينة صورا تصفر اذا هبت الرياح ونصب مرآة تري البلاد البعيدة وبنى حذاءها في الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب وأصناما بارزة في صور مختلفة وفى وسطها بركة اذا مر بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ وجعل لها حصناً باثني عشر باباً على كل باب تمثال يعمل أعجوبة وعمل حواليها جنانا وجعل بالقرب منها في ناحية الشرق مجلساً منقوشا على ثمانى أساطين وفوقه قبة عليها طائر منشور الجناحين يصفر في كل يوم ثلاث تصفيرات بكرة ونصف النهار وعند غروب الشمس وأقام فيها أصناما وعجائب كثيرة وبني مدنا كثيرة وأقام فيها رجلا يقال له برسان يعمل الكيمياء وضرب منها دنانير في كل دينار سبعة مثاقيل عليها صورته وعاش أتريب ملكا ثلثمائة وستين سنة وبلغ من العمر خمسمائة سنة وعمل له ناوس فى جبل بالشرق حفر له تحته سرب يطن بالزجاج والمرمر وجعل على سرير من ذهب مرصع وحملت اليه ذخائره وجعلوا على بابه صورة تنين لا يدنو منه أحد الا أهلكه وسووا عليه الرمال وزبروا عليه اسمه وتاريخ وقته * وقال ابن الكندى أربع كور بمصر ليس على وجه الارض أفضل منها ولا تحت السماء لهن نظير * كورة الفيوم * وكورة أتريب * وكورة سمنود * وكورة انصنا * وكورة أتريب من جملة كور أسفل الارض وهى مائة وثماني قرى وكان يقال مدائن السحرة من ديار مصر سبع وهى أرمنت * وببا * وبوصير * وانصنا * وصان * واتريب * وصا

﴿ ذكر مدينة تنيس ﴾

تنيس بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكسر النون المشددة وياء آخر الحروف وسين مهملة بلدة من بلاد مصر في وسط الماء وهي من كورة الخليج سميت بتنيس بن حام ابن نوح ويقال بناها قليمون من ولد اتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم * قال ابن وصيف شاه وملكت بعد اتريب ابنته فدبرت الملك وساسته بأيد وقوة خمساً وثلاثين سنة وماتت فقام بالملك من بعدها ابن أختها قليمون الملك فرد الوزراء الى مراتبهم وأقام الكهان على مواضعهم ولم يخرج الامر عن رأيهم وجد في العمارات وطلب الحكم * وفي أيامه بنيت تنيس الاولى التى غرقها البحر وكان بينه وبينها شئ كثير وحولها الزرع والشجر والكروم وقرى ومعاصر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها فأمر الملك أن يبني له في وسطها مجالس وينصب له عليها قباب وتزين بأحسن الزينة والنقوش وأمر بفرشها

واصلاحها وكان اذا بدا النيل يجرى انتقل الملك اليها فأقام بها الى النوروز ورجع وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه ويعطون كل قرية قسطها وكان على تلك القرى حصن يدور بقناطر وكان كل ملك يأتي يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلهاله متنزها * ويقال ان الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز اذ يقول واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل الا آيات كانتا لاخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه وكان الملك يتنزه فيهما ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول ويعمل له من الاطعمة والاشربة ما يستطيبه فعجب بذلك المكان أحد الاخوين وكان كثير الضيافة والصدقة ففرق ماله فى وجوه البر وكان الآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله وكلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه حتى بقي لا يملك شيئا وصارت تلك الجنة لاخيه واحتاج الى سؤاله فانتهره وطرده وعيره بالتبذير وقال قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ونفعني امساكي فصرت أكثر منك مالا وولدا وولى عنه مسرورا بماله وجنته فأمر الله تعالى البحر فركب تلك القرى وغرقها جميعها فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا قال الله جل جلاله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله * وفي زمان قليمون الملك بنيت دمياط وملك قليمون تسعين سنة وعمل لنفسه ناوسا في الجبل الشرقي وحول اليه الاموال والجواهر وسائر الذخائر وجعل من داخله تماثيل تدور بلواليب في أيديها سيوف من دخل قطعته وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب من أتاه حطماه وزبر عليه هذا قبر قليمون بن اتريب بن قبطيم بن مصر عمر دهرا وأتاه الموت فما استطاع له دفعا فمن وصل اليه فلا يسلبه ما عليه وليأخذ من بين يديه* ويقال أن تنيس أخ لدمياط وقال المسعودي في كتاب مروج الذهب وغيره تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع وكانت فيها مجار على ارتفاع من الارض ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الارض ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها الا الفيوم وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء يسقون جنانهم اذا شاؤوا وكذلك زروعهم وسائره يصب الى البحر من جميع خلجانه ومن الموضع المعروف بالاشتوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض مسيرة يوم وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوك الى قبرس تسلكه الدواب يبسا ولم يكن بين العريش وجزيرة قبرس فى البحر سير طويل حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وقبرس فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدي وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه وصار يزيد في كل عام حتى أغرقها بأجمعها فما كان من القرى التي في قرارها غرق

وأما الذى كان منها على ارتفاع من الارض فبقي منه تونة وبورا وغير ذلك مما هو باق الي هذا الوقت والماء محيط بها وكان أهل القري التي في هـذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس فنبشوهم واحدا بعد واحد وكان استحكام غرق هذه الارض بأجمعها قبل أن تفتح مصر بمائة سـنة قال وقد كان لملك من الملوك التى كانت دارها الفرما مع أركون من أراكنة البليتا وما اتصل بها من الارض حروب عملت فيها خنادق وخلجان فتحت من النيل الي البحر يمتنع بها كل واحد من الآخر وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الارض * وقال في كتاب أخبار الزمان وكانت تنيس عظيمة لها مائة باب وقال ابن بطلان تنيس بلد صغير على جزيرة في وسط البحر ميله الى الجنوب عن وسط الاقليم الرابع خمس درج وأرضه سبخة وهواؤه مختلف وشرب أهله من مياه مخزونة في صهاريج تملأ في كل سنة عنـد عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل اليها وجميع حاجاتها مجلوبة اليها فى المراكب واكثر أغذية أهلهـا السمك والجبن وألبان البقر فان ضمان الجبن السلطانى سبعمائة دينار حسابا عن كل ألف قالب دينـار ونصف وضمان السمك عشرة آلاف دينار وأخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة الى الرطوبة والانوثة قال أبو السرى الطبيب انه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة واكثرهم يبيتون سكارى وهم قليلو الرياضة لضيق البلد وابدانهم ممتلئة الاخلاط وحصل بها مرض يقال له الفواق التنيسى أقام بأهلهـا ثلاثين سنة * وقال جامع تاريخ دمياط وكان على تنيس رجل يقال له ابو ثور من العرب المتنصرة فلما فتحت دمياط سار اليها المسلمون فبرز اليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور فى أيدي المسلمين وانهزام أصحابه فدخل المسلمون البلد وبنوا كنيستها جامعا وقسموا الغنائم وساروا الى الفرما فلم تزل تنيس بيد المسلمين الى أن كانت امرة بشر بن صفوان الكلبي على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك في شهر رمضان سنة احدى ومائة فنزل الروم تنيس فقتل مزاحم بن مسلمة المرادى أميرها في جمع من الموالى وفيهم يقول الشاعر

الم تربع فيخبرك الرجال * بمالاقى بتنيس الموالى

وكانت تنيس مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للاوائل وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء واكثرهم حاكة وبها يحاك ثياب الشروب التى لايصنع مثلها في الدنيا وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لايدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيـه بالذهب بصناعة محكمة لاتحوج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو سادج بغير ذهب مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط وكان النيل اذا أطلق يشرب منه من بمشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس من خليج

تنيس فكانت من أجل مدن مصر وان كانت شطا وديفو ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع فليس ذلك يقارب التنيسى والدمياطى وكان الحمل منها الى مابعد سنة ستين وثلثمائة يبلغ من عشرين ألف دينار الى ثلاثين الف دينار لجهاز العراق فلما تولى الوزير يعقوب بن تدبير كاس المال استأصل ذلك بالنوائب وكان يسكن بمدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة وكان أهل تنيس يصيدون السمانى وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم والسمانى طائر يخرج من البحر فيقع في تلك الشباك وكانت السفن تركب من تنيس الى الفرما وهى على ساحل البحر * ولما مات هرون الرشيد وقام من بعده ابنه محمد الامين وأراد الغدر والنكث بالمأمون كان على مصر حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الامين فلما ثار عليه أهل تنو ونمي بعث اليهم السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى فغلبا بعد الثمانية من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ثم ولى الامير جابر بن الاشعث الطائي مصر وصرف حاتم بن هرثمة وكان جابر لينا فلما تباعد مابين محمد الامين وبين أخيه عبدالله المأمون وخلع محمد أخاه من ولاية العهد وترك الدعاء له على المنابر وعهد الى ابنه موسى ولقبه بالشديد ودعى له تكلم الجند بمصر بينهم في خلع محمد غضبا للمأمون فبعث اليهم جابر ينهاهم عن ذلك ويخوفهم عواقب الفتن وأقبل السرى بن الحكم يدعو الناس الى خلع محمد وكان ممن دخل الى مصر في أيام الرشيد من جند الليث بن الفضل وكان خاملا فارتفع ذكره بقيامه في خلع محمد الامين * وكتب المأمون الى أشراف مصر يدعوهم الى القيام بدعوته فاجابوه وبايعوا المأمون فى رجب سنة ست وتسعين ومائة ووثبوا بجابر فاخرجوه وولوا عباد بن محمد فبلغ ذلك محمدا الامين فكتب الى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشي وكان رئيس قيس الحوف فانقاد أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسها وأظهروا دعوة الامين وخلع المأمون وساروا الى الفسطاط لمحاربة أهلها واقتتلوا فكانت بينهما قتلى ثم انصرفوا وعادوا مرارا الى الحرب فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروى وسيره في جيش ليحارب القوم فى دارهم فخرج في ذي القعدة سنة سبع وتسعين ومائة وحاربهم بعمريط فانهزم الجروى ومضى فى قومه من لخم وجذام الى فاقوس فقال له قومه لم لاتدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الارض فمضى فيهم الى تنيس فنزلها ثم بعث بعماله يجبون الخراج من أسفل الارض فبعث ربيعة بن قيس يمنعه من الجباية وسار أهل الحوف فى المحرم سنة ثمان وتسعين الى الفسطاط فاقتتلوا وقتل جمع من الفريقين وبلغ أهل الحوف قتل الامين فتفرقوا وولى امرة مصر مطلب بن عبد الله الخزاعي من قبل المأمون فدخلها في ربيع الاول وولى عبد العزيز الجروى شرطته ثم عزله وعقد له على حرب أسفل الارض ثم صرف المطلب وولى العباس بن موسي بن عيسي في شوال فولى عبد

العزيز الشرطة فلما ثار الجنـد وأعادوا المطلب في المحرم سنة تسع وتسعين هرب الجروى الى تنيس وأقبل العباس بن موسى بن عيسى من مكة الى الحوف فنزل ببلبيس ودعا قيسا الى نصرته ثم مضي الى الجروي بتنيس فأشار عليه أن ينزل دارقيس فرجع الى بلبيس في جمادى الآخرة وبها مات مسموما في طعـام دسه اليـه المطلب على يد قيس فدان أهل الاحواف للمطلب وبايعوه وسارعوا الى جب عميرة وسالموه عند مالقوه وبعث الى الجروى يأمره بالشخوص الى الفسطاط فامتنع من ذلك وسار في مراكبه حتي نزل شطنوف فبعث اليه المطلب السرى بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم اليه ثم اجتهد فى الغدر بهم فتيقظوا له فمضى راجعا الى بنا فاتبعوه وحاربوه ثم عاد فدعاهم الى الصلح ولاطف السرى فخرج اليه في زلاج وخرج الجروي في مثله فالتقيا فى وسط النيل مقابل سندفا وقد أعد الجروى فى باطن زلاجه الحبال وأمر أصحابه بسندفا اذا لصق بزلاج السرى أن يجروا الحبال اليهم فاصق الجروي بزلاج السري فربطه في زلاجه وجر الحبال وأسر السرى ومضى به الى تنيس فسجنه بها وذلك فى جمادى الاولى ثم كر الجروي وقاتل فلقيـه جموع المطلب بسفط سليط فى رجب فظفر ولمـا عزل عمر بن ملاك عن الاسكندرية ثار بالاندلسيين ودعا للجروى فأقبل عبد الله بن موسى بن عيسى الى مصر طالبا بدم اخيه العباس في المحرم سنة مائتين فنزل على عبد العزيز الجروى فسار معه في جيوش كثيرة العدد في البر والبحر حتى نزل الجيزة فخرج اليـه المطلب فى أهـل مصر فحاربوه في صـفر فرجع الجروى الى شرقيون ومضى عبد الله بن موسى الى الحجاز وظهر المطلب على أن أبا حرملة فرجا الاسود هو الذى كاتب عبـد الله بن موسى وحرضه على المسير فطلبه ففر الى الجروى وجد المطلب فى أمر الجروى فأخرج الجروي السرى بن الحـكم من السجن وعاهده وعاقده على أن يثور بالمطلب ويخلعه فعاهده السرى على ذلك فاطلقه وألقى الى أهل مصر أن كتابا ورد بولايته فاستقبله الجند من أهل خراسان وعقدوا له عليهم وامتنع المصريون من ولايتـه فنزل داره بالحمراء وأمده قيس بجمع منهم وحارب المصريين فهزمهم وقتل منهم فطلب المطلب منـه الامان فأمنه وخرج من مصر واستبد السرى بن الحـكم بأمر مصر فى مستهل شهر رمضان * فلما قتل الاندلسيون عمر بن ملاك بالاسكندرية سار اليها الجروى في خمسين ألفا فبعث السرى الى تنيس بعثا فكر الجروى راجعا الى تنيس في محرم سنة احدى ومائتين فلما ثار الجند بالسرى في شهر ربيع الاول وبايعوا سليمان بن غالب قام عباد بن محمد عليه وخلعه وقام بالامر على بن حمزة بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس في مستهل شعبان فامتنع عباد أن يبايعه ولحق بالجروي ثم لحق به أيضاً سليمان بن غالب فكان معه وعاد السري الى ولاية مصر في شعبان وقوي سلطانه فلما كان في المحرم سنة اثنتين

ومائتين ورد كتاب المأمون اليه يأمره بالبيعة لولي عهده على بن موسى الرضى فبويع له بمصر وقام فى فساد ذلك ابراهيم بن المهدى ببغداد وكتب الى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولي عهده وبالوثوب على السرى فقام بذلك الحارث بن زرعة بن محرم بالفسطاط وعبدالعزيز ابن الوزير الجروى بأسفل الارض ومسلمة بن عبد الملك الطحاوى الازدى بالصعيد وخالفوا السرى ودعوا الى ابراهيم بن المهدى وعقدوا على ذلك الامر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الازدى فحاربه السرى وظفر به في صفر ولحق كل من كره بيعة على الرضى بالجروى لمنعته بتنيس وشدة سلطانه فسار الى الاسكندرية وملكها ودعى له بها وبلاد الصعيد ثم سار في جمع كبير لمحاربة السري واستعد كل منهما لصاحبه بأعظم ماقدر عليه فبعث اليه السرى ابنه ميمونا فالتقيا بشطنوف فقتل ميمون فى جمادى الاولى سنة ثلاث ومائتين وأقبل الجروى في مراكبه الى الفسطاط ليحرقها فخرج اليه أهل المسجد وسألوه الكف فانصرف عنها وحارب الاسكندرية غير مرة وقتل بها من حجر أصابه من منجنيقه في آخر صفر سنة خمس ومائتين ومات السرى بعده بثلاثة أشهر فى آخر جمادى الاولى وقام بعد الجروي ابنه على بن عبد العزيز الجروى فحارب أبا نصر محمد بن السرى أمير مصر بعد أبيه بشطنوف ثم التقيا بدمنهور فيقال ان القتلي بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف وانهزم ابن السري الى الفسطاط فتبعته مراكب ابن الجروى ثم عادت فدخل أبو حرملة فرج بينهما حتى اصطلحا ومات ابن السرى فى شعبان سنة ست ومائتين فولي بعده أخوه عبيدالله بن السري فكف عن ابن الجروى وبعث المأمون خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني الى مصر فى جيش من ربيعة فامتنع عبيد الله بن السرى من التسليم له ومانعه فاقتتلوا وانضم على بن الجروي الى خالد بن يزيد وأقام له الانزال وأغاثه وسار حتى نزل على خندق عبيد الله بن السري فاقتتلا فى شهر ربيع الاول سنة سبع ومائتين وجرت بينهما حروب بعد ذلك آلت الى ترفع خالد الى أرض الحوف فكره ذلك ابن الجروى ومكر به حتى أخرجه من عمله الى غربي النيل فنزل نهيا وانصرف ابن الجروى الى تنيس فصار خالد فى ضر وجهد وعسكر له ابن السرى فى شهر رمضان وأسره وأخرجه من مصر الى مكة فى البحر وبعث المأمون بولاية عبيد الله بن السرى على مافى يده وهو فسطاط مصر وصعيدها وغربيها وبولاية على بن عبد العزيز الجروي تنيس مع الحوف الشرقي وضمنه خراجه وأقبل ابن الجروى على استخراج خراجه من أهل الحوف فمانعوه وكتبوا الى ابن السرى يستمدونه عليه فامدهم بأخيه فالتقيا بكورة بنا فى بلقينة فاقتتلوا في صفر سنة تسع ومائتين وامتدت الحروب بينهما الى اثناء ربيع الاول وهم منتصفون فانصرف ابن الجروى فيمن معه الى دمياط فسار ابن السرى الى محلة شريقون ونهبها وبعث الى تنيس

ودمياط فملكهما ولحق ابن الجروى بالفرما وسار منها الى العريش فنزل فيما بينهاو بين غزة ثم عاد وأغار على الفرما في جمادى الآخرة ففر أصحاب ابن السرى من تنيس وسار ابن الجروي الي شطنوف فخرج اليه ابن السرى واقتتلا فكانت لابن الجروى فى أول النهار ثم أتاه كمين ابن السرى فانهزم وذلك في رجب فمضى الى العريش وسار ابن السرى الى تنيس ودمياط ثم أقبل ابن الجروى في المحرم سنة عشر ومائتين وملك تنيس ودمياط بغير قتال فبعث اليه ابن السرى البعوث فحاربهم فبيناهم في ذلك اذ قدم عبد الله بن طاهر فتلقاه ابن الجروى بالاموال والانزال وانضم اليه ونزل معه ببلبيس فامتنع ابن السرى ودافع ابن طاهر فتراخى له وبعث فجبي المال ونزل زفتا وبعث الى شطنوف عيسى الجلودي على جسر عقده من زفتا وجعل ابن الجروى على سفنه التى جاءته من الشام لمعرفته بالحرب فهزم مراكب ابن السرى في المحرم سنة احدى عشرة وصالح ابن طاهر عبيد الله بن السرى فى صفر وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار وأقره بالخروج الى المأمون فكانت فتن مصر بعبد الله بن طاهر* وفي سنة سبع وسبعين وثلثمائة ولدت بتنيس معزى جدياله قرون عدة ورأسه مع صدره وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخره بشعر اسود وذنبه ذنب شاة وولدت امرأة سخلة لها رأس مدور ولها يدان ورجلان وذنب ولثلاث بقين من ذى الحجة من هذه السنة حدث بتنيس رعد وبرق وريح شديدة وسواد عظيم في الجو ثم ظهر وقت السحر فى السماء عمود نار احمرت منه السماء والارض أشد حمرة وخرج غبار ودخان يأخذ بالانفاس فلم يزل الى الرابعة من النهار حتى ظهرت الشمس ولم يزل كذلك خمسة أيام * وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة حضر عند قاضي تنيس أبي محمد عبد الله ابن أبي الريس رجل وامرأة فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه فقال الرجل تزوجت بها منذ خمسة أيام فوجدت لها ما للرجال وما للنساء فبعث اليها القاضى امرأة لتشرف عليها فأخبرت أن لها فوق القبل ذكرا بخصيتين والفرج تحتها والذكر أقلف وانها رائعة الحسن فطلقها الزوج * قال ابو عمرو الكندي حدثنى أبو نصر أحمد بن على قال حدثني يس بن عبد الاحد قال سمعت أبي يقول لما دخل عبد الله بن طاهر مصر كنت فيمن دخل عليه فقال حدثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي قبيل عن سبيع قال يا أهل مصر كيف بكم اذا كان فى بلدكم فتن فوليكم فيها الاعرج ثم الاصفر ثم الامرد ثم يأتي رجل من ولد الحسين لايدفع ولا يمنع تبلغ راياته البحر الاخضر يملأها عدلا فقلت كان ذلك كانت الفتنة فوليها السرى وهو الاعرج والاصفر ابنه أبو النصر والامرد عبيد الله بن السرى وأنت عبد الله بن طاهر بن الحسين ثم ان عبد الله بن طاهر سار الى الاسكندرية وأصلح أمرها وأخرج ابن الجروى الى العراق ثم قدم به الافشين الي مصر في ذى الحجة سنة خمس

عشرة وقد أمر الافشين أن يطالبه بالاموال التى عنده فان دفعها اليه والا قتله فطالبه فلم يدفع اليه شيأ فقدمه بعد الاضحي بثلاث فقتله * وفي جمادى الآخرة سنة تسع عشرة ومائتين ثار يحيي بن الوزير فى تنيس فخرج اليه المظفر بن كندر أمير مصر فقاتله في بحيرة تنيس وأسره وتفرق عنه أصحابه * وفى سنة تسع وثلاثين ومائتين أمر المتوكل ببناء حصن على البحر بتنيس فتولى عمارته عنبسة بن اسحاق أمير مصر وأنفق فيه وفي حصن دمياط والفرما مالا عظيما وفى سنة تسع وأربعين ومائتين عذبت بحيرة تنيس صيفا وشتاء ثم عادت ملحا صيفا وشتاء وكانت قبل ذلك تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة وفي سنة ثمان واربعين وثلثمائة وصلت مراكب من صقلية فنهبوا مدينة تنيس وفي سنة ثمان وسبعين وثلثمائة صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعا ونصف من ذلك طول رأسه تسعة أذرع ودائر بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعا وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرا وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف وله يدان يجذف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع وهو أملس أغبر غليظ الجلد مخطط البطن ببياض وسواد ولسانه أحمر وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمشاط شبه الذبل وله عينان كعيني البقر فأمر أمير تنيس أبو اسحاق ابن لوبة به فشق بطنه وملح بمائة أردب ملح ورفع فكه الاعلى بعود خشب طويل وكان الرجل يدخل الى جوفه بقفاف الملح وهو قائم غير منحن وحمل الى القصر حتى رآه العزيز بالله وفى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الاول سنة تسع وسبعين وثلثمائة شاهد أهل تنيس تسعة أعمدة من نار تلتهب في آفاق السماء من ناحية الشمال فخرج الناس الى ظاهر البلد يدعون الله تعالى حتى اصبحوا فخبت تلك النيران وفيها صيد ببحيرة تنيس حوت طوله ذراع ونصفه الاعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر على صورة أسد ويداه فى صدره بمخالبه ونصفه الادني صورة حوت بغير قشر فحمل الى القاهرة وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة ولدت جارية بنتا برأسين أحدهما بوجه أبيض مستدير والآخر بوجه أسمر فيه سهولة في كل وجه عينان فكانت ترضعهما وكلاهما مركب على عنق واحد في جسد واحد بيدين ورجلين وفرج ودبر فحملت الى العزيز حتى رآها ووهب لامها جملة من المال ثم عادت الى تنيس وماتت بعد شهور وفي سنة احدى وسبعين وخمسمائة وصل الى تنيس من شواني صقلية نحو أربعين مركبا فحصروها يومين وأقلعوا ثم وصل اليها من صقلية أيضا في سنة ثلاث وسبعين نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها وكان محمد ابن اسحاق صاحب الاسطول قد حيل بينه وبين مراكبه فتحيز فى طائفة من المسلمين الى مصلى تنيس فلما أجنهم الليل هجم بمن معه البلد على الفرنج وهم في غفلة فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤسهم فاصبح الفرنج الى المصلى وقاتلوا من بها من المسلمين فقتل

من المسلمين نحو السبعين وسار من بقي منهم الى دمياط فسار الفرنج على تنيس وألقوا فيها النار فأحرقوها وساروا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والاسرى الى جهة الاسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس أربعة أيام ثم لما كانت سنة ست وسبعين وخمسمائة نزل فرنج عسقلان فى عشر حراريق على أعمال تنيس وعليها رجل منهم يقال له المعز فأسر جماعة وكان على مصر الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف عند ما سار الى بلاد الشام ثم مضى المعز وعاد فأسر ونهب فثار به المسلمون وقاتلوه فظفرهم الله به وقبضوا عليه وقطعوا يديه ورجليه وصلبوه * وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها عند ما اشتد خوف أهل تنيس من الاقامة بها فقدر لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثمن أصناف وآجر * وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة كتب باخلاء تنيس ونقل أهلها الى دمياط فأخليت في صفر من الذرارى والاثقال ولم يبق بها سوى المقاتلة في قلعتها * وفي شوال من سنة أربع وعشرين وستمائة أمر الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بهدم مدينة تنيس وكانت من المدن الجليلة تعمل بها الثياب السرية وتصنع بها كسوة الكعبة * قال الفاكهي فى كتاب أخبار مكة ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربي يعني من الكعبة مكتوبا عليها مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة ورأيت شقة من قباطي مصر في وسطها الا انهم كتبوا في أركان البيت بخط دقيق أسود مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين ورأيت كسوة من كسا المهدي مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة * قال المسبحي في حوادث سنة أربع وثمانين وثلثمائة وفي ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة * وفي ذي الحجة سنة اثنتين وأربعمائة وردت هدية تنيس الواردة في كل سنة منها خمس نوق مزينة ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها وتجافيف وصناعات عدة وثلاث قباب دبيقية بعماريها ومتحرقات وبنود وما جرى الرسم بحمله من المتاع والمال والبز ولما قدم الحاكم استدعت أخته السيدة سيدة الملك الى عامل تنيس عن الحاكم بأن يحمل مالا كان اجتمع قبله ويعجل توجيهه

وقيل انه كان ألف ألف دينار وألفي ألف درهم اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين وأمره الحاكم بتركها عنده فحمل ذلك اليها وبه استعانت على مادبرت * وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبي هاشم على بن الحاكم بأمر الله أن السودان وغيرهم ثاروا بتنيس وطلبوا أرزاقهم وضيقوا على العامل حتى هرب وانهم عاثوا فى البلد وأفسدوا ومدوا أيديهم الى الناس وقطعوا الطرقات وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار فقام الجرجراي وقعد وقال كيف يفعل هذا بخزانة السلطان وساءنا فعل هذا بتنيس أو بيت المال وسير خمسين فارسا للقبض على الجناة وما زالت تنيس مدينة عامرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها ولا أحصن من عمارتها الى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فى سنة أربع وعشرين وستمائة فاستمرت خرابا ولم يبق منها الا رسومها فى وسط البحيرة وكان من جملة كورة تنيس بورا ومنها وايوان وشطا وبحيرتها الآن يصاد منها السمك وهى قليلة العمق يسار فيها بالعادى وتلتقى السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة وقلع كل واحدة منهما مملوء بالريح سيرهما فى السرعة مستو توسط البحيرة عدة جزائر تعرف اليوم بالعزب جمع عزبة بضم العين المهملة وزاى ثم باء موحدة سكنها طائفة من الصيادين وفى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته وماؤها ملح وقد يحلو أيام النيل *(تونة)* وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة يعمل بها طراز تنيس ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا * قال الفاكهي ورأيت أيضاً كسوة لهرون الرشيد من قباطي مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة * (سمناى)* قرية من قرى تنيس غلبت عليها بحيرة تنيس فصارت جزيرة فلما كان فى شهر ربيع الاول سنة سبع وثلاثين وثمانمائة كشف عن حجارة وآجر بها فاذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الامام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله نزار ومنها ماعليه اسم الامام الحاكم بأمر الله ومنها ماعليه اسم الامام الظاهر لاعزاز دين الله ومنها ماعليه اسم المستنصر وهو أكثرها أخبرني بذلك من شاهده ورآه *(بورا)* كانت فيما بين تنيس ودمياط واليها ينسب السمك الذى يقال له البورى واليها ينسب أيضا بنو البورى الذين كانوا بالقاهرة والاسكندرية * وفي سنة عشر وستمائة وصل العدو اليها بشوانيه وسباها فقدمت اليها القطائع التي كانت على رشيد فسار عنها العدو *(القيس)* بفتح القاف وبعدها سين مهملة بلد ينسب اليها الثياب القيسية آثارها الى اليوم باقية على البحر الملح فيما بين السوادة والورادة وبعدها من مدينة الفرما قريب من ستة برد في البر وهناك تل عظيم من رمل خارج في البحر الشامي يقطع

الفرنج عنده الطريق على المارة وبالقرب من التل سباخ ينبت فيه ملح يحمله العربان الى غزة والرملة وبقرب هذا السباخ آبار يزرع عندها مقاثي لعربان تلك البوادي

(ذكر مدينة صا)

قال ابن وصيف شاه ولما قسم قبطيم بن مصرايم الارض بين أشمون وأتريب وقفط وصا انتقل كل واحد الى قسمه وحيزه فخرج صا بأهله وولده وحشمه الى حيزه وهو بلد البحيرة والاسكندرية حتى انتهى الى برقة ونزل مدينة صا قبل أن تبني الاسكندرية وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبهم اليه فلما ملك حيزه أمر بالنظر في العمارات وبناء المدائن والبلدان والهيا كل واظهار العجائب كما صنع اخوته وطلب الزيادة في ذلك * وقال مرهون الهندى صاحب بانه فبني من حد صا الى حدلوبية ومراقية على البحر أعلاما وجعل على رؤس تلك الاعلام مرائى من أخلاط شتى فكان منها مايمنع من دواب البحر وأذاها ومنها ما اذا قصدهم عدو من الجزائر وأصابها الشمس ألقت شعاعا على مراكبهم فأحرقتها ومنها مايرى المدائن التي تحاذيهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها ومنها ماينظر فيها الى أقليم مصر فيعلم منه مايخصب وما يجدب في كل سنة وجعل فيها حمامات تقد من نفسها وجعل مستشرفات ومتنزهات وكان ينزل كل يوم منها في موضع بمن يخصه من خدمه وحشمه وجعل حوالها بساتين وسرح فيها الطيور المغردة والوحش المستأمن والانهار المطردة والرياض المونقة وجعل شرفات قصوره من حجارة ملونة تلمع اذا أصابتها الشمس فينشر شعاعها على ماحولها ولم يدع شيئاً من آلة النعمة والرفاهية الا استعمله فكانت العمارة ممتدة في رمال رشيد ورمال الاسكندرية الى برقة وكان الرجل يسافر في أرض مصر لايحتاج الى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ولا يسير الا في ظلال تستره من الشمس وعمل في تلك الصحاري قصورا وغرس فيها غروسا وساق اليها من النيل أنهارا فكان يسلك من الجانب الغربي الى حد الغرب في عمارة متصلة فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكي ما رآه فيها من الآثار والعجائب * قال مؤلفه رحمه الله حدثني الثقة عمن دخل مدينة صا ومشى في خرابها فاذا هو بلبنة طولها أربعة أشبار فتناولها وأخذ يتأملها ثم كسرها فاذا فيها سنبلة قدر شبر وافر كانها كما حصدت وفركها بيده فخرج منها قمح أبيض كبار حبه جدا فى قدر حب اللوبيا فأكله كله فلم يجد فيه تغيرا ودخل آخر اليها قبيل سنة تسعين وسبعمائة وأخذ منها لبنة طولها ذراع ونصف فى عرض ذراع فكسرها فاذا فيها سنبلة قمح ثخن كل قمحة منها فى مقدار مايكون أكبر من الحمص فلم يطق كسره الا بعد مارضه بالحجارة رضا ووجد بصا صنم لطيف طول أصبع فاتفق انه ألقى فى خابية ماء فصار خمرا وكان ذلك عند رجل من

تنيس فصلحت حاله من بيعه ذلك الخمر فطلبه الامير الا وحد مستولى تنيس وما زال به حتى أخذ الصنم منه

رمل الغرابى

اعلم أن هذا الرمل ممتد فى الارض ويسميه بعضهم الرمل الهبير وطوله من وراء جبل طي الى أن يتصل مشرقا بالبحر ويمضى من وراء جبل طي الى أرض مصر ثم الى بلد النوبة ويمتد الى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر ومنه عرق يضرب من القادسـية الى البحرين فيعبر البحرين فيمر على مشارق خورستان وفارس الى أن يرد سجستان ويمر مشرقا الى مر وآخذا على جيحون فى برية خوارزم ويأخذ فى بلاد الحد لجيـة الى الصين والبحر المحيط فى جهة الشرق وهو على ما وصفته وسقته من المحيط بالمشرق الى المحيط بالمغرب وفيه جبال عظام لاترتقى وبعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان الى مكان ومنه أصفر لين اللمس وأحمر وأزرق سماوى وأسود حالك وأكحل مشبع كالنيـل وأبيض كالثلج ومنه مايحكى الغبار نعومة ومنه خشن جريش اللمس وزعم بعضهم أن رمل الغرابي وما يتصل به من حد العريش الى أرض العباسة حادث * وذكر فى سبب كونه خبر فيه معتبر وهو أن شدّاد بن هداد بن شداد بن عاد أحد الملوك العـادية قدم الى مصر وغلب بكثرة جيـوشه أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ملك مصر وهدم مابنـاه هو وآباؤه وبني لنفسه اهراما ونصب أعلاما زبر عليها الطلسمات واختط موضع الاسكندرية وأقام هنـاك دهرا الى أن نزل به وبقومه وباء فخرجوا من أرض مصر الى جهة وادى القرى فيما بين المدينة النبوية وأرض الشام وعمروا الملاعب والمصانع لحبس المياه التي تجتمع من الامطار والسيول فكان سعة كل مصنع ميلا في ميل وغرسوا النخل وغيره وزرعوا أصناف الزراعات فيما بين راية وأيلة الى البحر الغربي وامتدت منازلهم من الدثنة الى العريش والجفار فى أرض سهلة ذات عيون تجرى وأشجار مثمرة وزروع كثيرة فأقاموا بهذه الارض دهرا طويلا حتى عتوا وبغوا وتجبروا وطغوا وقالوا نحن الا كثرون قوة الا شدون الاغلبون فسلط الله عليهم الريح فأهلكتهم ونسفت مصانعهم وديارهم حتى سحلتها رملا فما تراه من هذه الرمال التي بأرض الجفار مابين العباسة حيث المنزلة التي تعرف اليوم بالصالحيـة الى العريش من رمل مصانع العادية وسحالة صخورهم لما أهلكهم الله بالريح ودمرهم تدميرا واياك وانـكار ذلك لغرابته ففي القرآن الكريم مايشهد لصحته قال تعالى وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم أى كالشيء الهالك البالي وقيل الرميم نبات الارض اذا يبس وديس وقيل الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم والرميم الخلق البالي من كل شيء *(مراقية)* مدينة مراقية كورة من كور مصر الغربية وهى آخر حد أرض مصر وفي آخر أرض مراقية

تلق أرض انطاباس وهي برقة وبعدها من مدينة سنتريه نحو من بريدين وكان قطرا كبيرا به نخل كثير ومزارع وبه عيون جارية وبها الي اليوم بقية وثمرها جيد الى الغاية وزرعها اذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح مائة سنبلة وأقل ماتنبت تسعون سنبلة وكذلك الارزبها فانه جيد زاك وبها الى اليوم بساتين متعددة وكانت مراقية في القديم من الزمان سكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين فنزلها منهم خلائق ومنها تفرقت البربر فنزلت زناتة ومغيلة وضريسة الجبال ونزلت لواتة أرض برقة ونزلت هوارة طرابلس المغرب ثم انتشرت البربر الى السويس فلما كان في شوال سنة أربع وثلثمائة من سنى الهجرة المحمدية جلى أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من صاحب برقة ولم تزل في اختلال الى أن تلاشت في زمننا وبها بعد ذلك بقية جيدة *(كوم شريك)* هذا المكان بالقرب من الاسكندرية له ذكر في الاخبار عرف بشريك بن سمى بن عبد يغوث ابن جزء المرادى القطيفى من الصحابة رضى الله عنهم وكان على مقدمة عمرو بن العاص في فتح الاسكندرية الثانى فعندما كثرت جمائع الروم انحاز شريك الى هذا الكوم بأصحابه ودافع الروم حتى أدركه عمرو وكوم شريك هذا من جملة حوف رمسيس *(غيفة)* قرية تقارب مدينة بلبيس من الفسطاط اليها مرحلتان كانت منزلة قافلة الحاج ويقال ان صواع الملك الذى فقد من مدينة مصر وجد في رحال اخوة يوسف عليه السلام بغيفة هذه *(سمنود)* كان بها بربا عليه هيئة درقة فيها كتابة حكى ابن زولاق عن أبي القاسم مأمون العدل انه نسخ الكتابة في قرطاس وصوره على درقة قال فما كنت أستقبل به أحدا الاولى هاربا وكان بها أيضاً تماثيل وصور من يملك مصر فيهم قوم عليهم شاشيات وبأيديهم الحراب وعليهم مكتوب هؤلاء يملكون مدينة مصر

ذكر مدينة بلبيس

وسميت في التوراة أرض جاشان وفيها نزل يعقوب لما قدم على ولده يوسف عليهما السلام فأنزله بأرض جاشان وهي بلبيس الى العلاقة من أجل مواشيهم قال ابن سعيد بلبيس واليها يصل حكمه الى الورادة وهي آخر حد مصر واليها تنتهى المعاملة بفضة السواد ويصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها الى العريش وهي أول الشام وقيل هي آخر مصر * وقال أبو عبيد البكرى بلبيس بفتح أوله واسكان ثانيه بعده باء مثل الاولى مفتوحة أيضا وياء ساكنة وسين مهملة وهو موضع قريب مصر معروف وذكر ابن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك أن بين بلبيس ومدينة فسطاط مصر أربعة وعشرين ميلا * وذكر الواقدى أن المقوقس زوج ابنته ارمانوسة من قسطنطين بن هرقل وجهزها بأموالها وجواريها وغلمانها وحشمها لتسير اليه حتى يبني عليها في مدينة قيسارية وهم محاصرون فلما خرجت

الي بلبيس وأقامت بها وبعث حاجبها الكبير فى ألفى فارس الي الفرما ليحفظ الطريق ولا يدع أحدا من الروم ولاغيرهم يعبر الي مصر وبعث المقوقس رسله الي اطراف بلاده ممايلى الشام أن لايتركوا أحدا يدخل أرض مصر مخافة أن يحدثوا بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب في قلوب عساكره فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية وسار عمرو بن العاص الى مصر نزل على بلبيس وبها أرمانوسة ابنة المقوقس فقاتل من بها وقتل منهم زهاء ألف فارس وأسر ثلاثة آلاف وانهزم من بقى الى المقوقس وأخذت ارمانوسة وجميع مالها وسائر ما كان للقبط في بلبيس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته أرمانوسة مكرمة في جميع مالها مع قيس بن أبي العاص السهمى فسر بقدومها ثم سار عمرو الى القصر ولم تزل من مدائن مصر الكبار حتى نزل عليها مرى ملك الفرنج وأخذها عنوة بعد حصار طويل وقتل منها آلافا ولها أخبار كثيرة وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر بعد سنة ست وثمانمائة بعد ما أدركناها وبها عمارة كثيرة وفيها عدة بساتين وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية

﴿ ذكر بلد الورادة ﴾

الورادة من جملة الجفار قال عبيد الله بن عبد الله بن خرداديه في كتاب المسالك والممالك وصفة الطريق والارض من الرملة الى أزدود اثنا عشر ميلا ثم الى غزة عشرون ميلا ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا في رمل ثم الى الورادة ثمانية عشر ميلا ثم الى الغريب عشرون ميلا ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا قال الخليفة المأمون

للملك كان بالميدا * ن أقصر منه بالفرما غريب في قرى مصر * يقاسي الهم والسدما

ثم الى جرير ثلاثون ميلا ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم الى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس أحد وعشرون ميلا ثم الى فسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا * وقال جامع تاريخ دمياط ولما افتتح المسلمون الفرما بعد ما افتتحوا دمياط وتنيس ساروا الى البقارة فأسلم من بها وساروا منها الي الورادة فدخل أهلها في الاسلام وما حولها الى عسقلان * وقال القاضي الفاضل في متجددات شهر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة وصابحنا الورادة فبتنا على ميناء الورادة ودخلنا الورادة فرأيت تاريخ منارة جامعها سنة ثمان وأربعمائة واسم الحاكم بأمر الله عليها والورادة من جملة الجفار ويقال أخذ اسمها من الورود ولم يزل جامعها عامرا اتقام به الجمعة الى مابعد السبعمائة وبلد الورادة القديمة في شرقى المنزلة التي يقال لها اليوم الصالحية وبها آثار عمائر ونخل قليل *(الصالحية)* هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادى بأرض السانح والعلاقمة في أول الرمل الذي بين مصر والشام وأنشأ بها قصورا وجامعا وسوقا لتكون منزلة العساكر اذا خرجوا من الرمل وذلك في سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر مدينة ايلة

ذكر ابن حبيب أن أثال بضم أوله ثم ثاء مثلثة وادي أيلة وأيلة بفتح أوله على وزن فعلة مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم عليه السلام وايلة أول حد الحجاز وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح بها التجارة الكثيرة وأهلها اخلاط من الناس وكانت حد مملكة الروم في الزمن الغابر وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان فيه مسلحته يأخذون المكس وبين ايلة والقدس ست مراحل والطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام على يوم وليلة من ايلة وكانت فى الاسلام منزلا لبني أمية وأكثرهم موالي عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج وكان بها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزروع وعقبة أيلة لا يصعد اليها من هو راكب وأصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون وسوى طريقها ورم ما استرم منها وكان بأيلة مساجد عديدة وبها كثير من اليهود ويزعمون أن عندهم برد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه اليهم أمانا وكانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا فى الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط ويقال ان ايلة هي القرية التي ذكرها الله تعالى فى كتابه حيث قال واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون وقد اختلف فى تعيين هذه القرية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والسدى هي أيلة وعن ابن عباس أيضا انها مدينة بين أيلة والطور وعن الزهري أنها طبرية وقال قتادة وزيد بن أسلم هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها معناة وسئل الحسين بن الفضل هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جزافا قال نعم في قصة ايلة اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم * وكان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بنى اسرائيل وقد حرم الله عليهم العمل في يوم السبت فزين لهم ابليس الحيلة وقال انما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان اليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الاحد وقيل كان الرجل يأخذ خيطا ويضع فيه وهقه ويلقيه فى ذنب الحوت وهو بحريك الماء واسكانها حبل كالطول ويجعل في الطرف الآخر من الخيط وتدا ويتركه كذلك الى يوم الاحد ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى حتى كثر الصيد للحيتان ومشى به في الاسواق وأعلن الفسقة بصيده فقامت طائفة من بنى اسرائيل وجاهرت بالنهى واعتزلت وقالت لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان للناس لشأنا فعلوا على الجدار فاذا هم قردة فدخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الانس فجعلت تأتيهم فتشم

ثيابهم وتبكي فيقول الناهون للقردة ألم ننهكم فتقول برأسها نعم قال قتادة فصارت الشباب قردة والشيوخ خنازير فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم وقيل ان ذلك كان في زمن نبي الله داود عليه السلام وقيل ان ايلة أصلها أيلياليه وقد وقع ذكرها في التوراة كذلك وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى دكالة من البربر بطن من المصامدة وقالت طائفة ان دكالة ولد ايلة ويقال ايل الذى سميت به عقبة أيلة وأخوانهم من دغفل بن ايلة وانهم يعزون الى البربر ويقولون نحن من ربيعة الفرس وفي ذلك خلاف عظيم * وذكر المسعودي أن يوشع بن نون عليه السلام حارب السميدع بن هزبر بن مالك العمليقى ملك الشام ببلد أيلة نحو مدين وقتله واحتوى على ملكه وفي ذلك يقول عون بن سعيد الجرهمي

ألم تر أن العماقى بن هرمز * بأيلة أمسي لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل * ثمانون ألفاً حاسرين ودرعا

وهى أبيات كثيرة وقال ابن اسحاق فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك أتاه تحية بن روبة صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل حرباء وأذرح فأعطوه الجزية وكتب لهم كتابا فهو عندهم وكتب لتحية بن روبة بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسوله لتحية بن روبة وأهل ايلة أساقفهم وسائرهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ما له دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل ابن حسنة باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة ولم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة * وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبد الله بن ادريس الجعفرى أيلة ومعه بعض بنى الجراح ونهبها وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال وسبي النساء والاطفال ثم انه صرف عن ولاية وادي القرى فسارت اليه سرية من القاهرة لمحاربته * قال القاضى الفاضل وفي سنة ست وستين وخمسمائة أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب مراكب مفصلة وحملها على الجمال وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة ايلة وكانت قد ملكها الفرنج وامتنعوا بها فنازلها في ربيع الاول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر وشحنها بالمقاتلة والاسلحة وقاتل قلعة ايلة في البر والبحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر وقتل من بها من الفرنج وأسرهم وأسكن بها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة فى آخر جمادى الاولى * وفي سنة سبع وسبعين وصل كتاب النائب بقلعة ايلة ان المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج ثم وصل الابريس لعنه الله الى ايلة وربط العقبة وسير

عسكره الى ناحية تبوك وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر فلما كان في شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة حتى صارت به مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر ووهت لضعف أساسها فتداركها أصحابها وأصلحوها * وذكر أبو الحسن المسعودي في كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان الكوكة وهم أمة لهم أربعة ملوك ملكوا أرض ايلة والحجاز وبني كل واحد منهم مدينة سماها باسمه وجعلوا سائر الأرض خيامات وقسموها على ثلاثين كورة وجعلوها أربعة أعمال لكل عمل ملك يجلس على منبر ذهب في مدينته وعمل بربا وهي بيت الحكمة وعمل هيكلا لاخذ الكواكب وجعل فيه أصناما من ذهب كل صنم له مرتبة وكانت الاسكندرية واسمها رقودة فجعلوا لها خمس عشرة كورة وجعلوا فيها كبار الكهنة ونصبوا فى هيا كلها من أصنام الذهب أكثر مما فى غيرها وكان فيها مائتا صنم من ذهب وقسموا الصعيد على ثمانين كورة وجعلوه أربعة أقسام وكان عددمدن أهل مصر الداخلة فى كورها ثلاثين مدينة فيها العجائب وقيل ان حميرا الاكبر واسمه العرنجج بن سبأ الاكبر واسمه عامر ويعرف بعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه وسار يطأ الامم ويدوس الممالك كما فعل أبوه فأمعن فى المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج الى مطالع الشمس ثم قفل نحو المغرب فجاءه قبائل من أهل اليمن من بنى هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح يشكون من ثمود بن عاثر ابن ارم بن سام بن نوح وما نزل بهم من ظلمهم فأمر برفعهم من أرض اليمن وأنزلهم ايلة فعمروها من ايلة الى ذات الاصال الى أطراف جبل نجد فقطعت ثمود هناك الصخور ونحتوا من الجبال البيوت وتكبروا وطغوا فبعث الله فيهم صالحا نبيا ورسولا فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة فأخرجها لهم فعقروها فأهلكهم الله بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * وقد ذكر أن موسى عليه السلام سار ببني اسرائيل بعد موت أخيه هرون الى أرض أولاد العيص وهى التى تعرف بجبال السراة جنب بلد الشوبك ثم مر فيها الى ايلة وتوجه بعد أيام الى برية باب حيث بلاد الكرك حتي حارب تلك الامم وكان الى جانب ايلة مدينة يقال لها عصيون جليلة عظيمة *(مربوط)* كورة من كور الاسكندرية كانت لشدة بياضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل الا بعد وقت وكان الناس يمشون فيها وفي أيديهم خرق سود خوفا على أبصارهم ومن شدة بياضها لبس الرهبان السواد وكانت بلاد مربوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة وهى اليوم من قرى الاسكندرية يزرع بها الفواكه وغيرها وقد وقفها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير على جهات ر بالجامع الحاكمي من القاهرة وبها جامع عمر في سنة ست وستين وستمائة ثم استأجرها

الملك المؤيد شيخ المحمودي في سنة احدى وعشرين وثمانمائة وجدد عمارة بستانها وقد خرب لترداد عرب لبدة وبرقة اليه فاستمرت في ديوان السلطان * (وادى هبيب) * هذا الوادى بالجانب الغربي من أرض مصر فيما بين مربوط والفيوم يجلب منه الملح والنطرون عرف بهبيب بن محمد بن معقل بن الواقعة بن حزام بن عفان الغفارى أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد فتح مكة وروي عنه أبو تميم الجيشاني وأسلم مولي تجيب وسعيد ابن عبد الرحمن الغفارى وكان قد اعتزل عند فتنة عثمان رضى الله عنه بهذا الوادى فعرف به وكان يقول لا يفرق بين قضاء دين رمضان ويجمع بين الصلاتين في السفر ويقال لهذا الوادى أيضا وادى الملوك ووادى النطرون وبرية شهاب وبرية الاسقيط وميزان القلوب وكان به مائة دير للنصارى وبقى به سبعة ديورة وقد ذكرت عند ذكر الاديار من هذا الكتاب وهو واد كثير الفوائد فيه النطرون ويتحصل منه مال كثير وفيه الملح الاندرانى والملح السلطاني وهو على هيئة ألواح الرخام وفيه الوكت والكحل الاسود ومعمل الزجاج وفيه الماسكة وهو طين أصفر في داخل حجر أسود يحك في الماء ويشرب لوجع المعدة وفيه البردى لعمل الحصر وفيه عين الغراب وهو ماء في هيئة البركة وطولها نحو خمسة عشر ذراعا في عرض خمسة أذرع في مغار بالجبل لا يعلم من أين يأتي ولا الي أين يذهب وهو حلو رائق * ويذكر أنه خرج منه سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز فتلقوا عمرو ابن العاص بالطرانة مرجعه من الاسكندرية يطلبون أمانه لهم على أنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم وكتب لهم أيضا بجراية الوجه البحرى فاستمرت بأيديهم وان جرايتهم جاءت في سنة زيادة على خمسة آلاف أردب وهي الآن لا تبلغ مائة أردب

﴿ ذكر مدينة مدين ﴾

أعلم أن مدين امة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم عليه السلام وامهم قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم امم ومدين على بحر القلزم تحاذى تبوك على نحو ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت * قال الفراء مدين اسم بلد وقطر وقيل اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين ويقال له مديان بن ابراهيم قاله مقاتل وغيره والجمهور على أن مدين اعجمى وقيل عربي فان كان عربيا فانه يحتمل أن يكون فعيلا من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر وقيل مهمل أو مفعلا من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال سواء كان اسم الارض أو اسم القبيلة عجميا أو عربيا * وقال المسعودى قد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مر بن عيقا بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وكان لسانه العربية فمنهم من رأى أنهم من العرب الداثرة والامم البائدة وبعض من ذكرنا من الاجيال الخالية

ومنهم من رأى أنهم من ولد المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين بن ابراهيم الخليل وأن شعيبا آخرهم في النسب وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا فى ممالك متصلة فمنهم المسمى بأبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت وهم على ماذ كرنا بنو المحصن بن جندل وأحرف الجمل هى أسماء هؤلاء الملوك وهي الاثنان والعشرون حرفا التي عليها حساب الجمل وقد قيل في هذه الحروف غير ماذ كرنا من الوجوه فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج وهي الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد وكلمن وسعفص وقرشت ملوك بمدين وقيل ببلاد مصر وكان كلمن على ملك مدين ومن الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سمينا مشاعا متصلا على ماذ كرنا وان عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم وان شعيبا دعاهم فكذبوه فوعدهم بعذاب يوم الظلة ففتح عليهم باب من السماء من نار ونجا شعيب بمن آمن معه الى الموضع المعروف بأيلة وهى غيضة نحو مدين فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبوا شعيبا ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم والهواء لا يجدون فيها ألم العذاب فأخرجوا شعيبا ومن آمن معه من مواضعهم وأزالوهم عن اماكنهم وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم فجعلها الله عليهم نارا فاتت عليهم فرثت جارية بنت كلمن أباها وكانت بالحجاز فقالت

كلمن هدم ركني * هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ * ـحتف نارا وسط ظله
كونت نارا فأضحت * دار قومي مضمحله

وقال المنتصر بن المنذر المدينى

الا ياشعيب قد نطقت مقالة * أبدت بها عمرا وتحيي بنى عمرو
هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه * كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
وهم قطنوا البيت الحرام وزينوا * قطورا وفازوا بالمكارم والفخر
ملوك بنى حطي وسعفص ذي الندى * وهوز أرباب الثنية والحجر

قال المسعودي ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها وابادتهم من كان فيها قبلهم من الامم وقيل ان الايكة المذكورة فى قوله عز وجل ولقد كذب أصحاب الايكة المرسلين وفي قوله سبحانه وتعالى وان كان أصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم هي مدين وقيل من ساحل البحر الى مدين وقيل هي غيضة نحو مدين وقيل بل أصحاب الايكة الذين بعث اليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر وأول الشام ولم يكن شعيب منهم وانما كان من مدين وقال أبو عبيد البكرى الأيكة المذكورة فى كتاب الله تعالى التي كانت منازل قوم شعيب روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما

فيها روايتان احداهما ان الايكة من مدين الى شعيب والرواية الثانية انها من ساحل البحر الى مدين وكان شجرهم المقل والايكة عند أهل اللغة الشجر الملتف وكانوا أصحاب شجر ملتف وقال قوم الايكة الغيضة وليكة اسم البلد وما حولها كما قيل مكة وبكة وقال أبو جعفر النحاس ولا يعلم ليكة اسم البلد وقال ابن قتيبة وكان بعضهم يزعم ان بكة هو موضع المسجد وما حولها مكة كما فرق بين الايكة وليكة فقيل الايكة الغيضة وليكة البلد حولها* وقال البكري مدين بلد بالشام معلوم تلقاء غزة وهو المذكور في كتاب الله تعالى وهذا وهم بل مدين من أرض مصر وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الى مدينة مدين أميرهم زيد بن حارثة رضي الله عنه فأصاب سبيا من أهل ميتا قال ابن اسحاق وميتا هي السواحل فبيعوا وفرق بين الامهات والاولاد فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون فقال مالهم فأخبر خبرهم فقال لاتبيعوهم الا جميعا ومدين من منازل جذام بن عدى بن الحارث ابن مرة بن ادد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان وشعيب النبي المبعوث الى أهل مدين أحد بني وائل بن جذام وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفد جذام مرحبا بقوم شعيب وأصهار موسي ولا تقوم الساعة حتي يتزوج فيكم المسيح ويولد له وقال محمد بن سهل الاحول مدين من أعراض المدينة مثل فدك والفرع ورهاط * قال مؤلفه رحمه الله تعالى وكان بارض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقى منها الى يومنا هذا وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة نحو الاربعين مدينة قائمة منها ما يعرف اسمه ومنها ما قد جهل اسمه فمما يعرف اسمه فيما بين أرض الحجاز وبلاد فلسطين وديار مصر ست عشرة مدينة منها في ناحية فلسطين عشر مدائن وهى الخلصة والسنيطة والمدرة والمنية والاعوج والخويرق والبيرين والماءين والسبع والمعلق وأعظم هذه المدائن العشر الخلصة والسنيطة وكثيرا مانتقل حجارتها الى غزة ويبنى بها هناك ومن مدائن مدين بناحية بحر القلزم والطور مدينة فاران ومدينة الرقة ومدينة القلزم ومدينة ايلة ومدينة مدين وبمدينة مدين الى الآن آثار عجيبة وعمد عظيمة * ووجد في مدينة الاعوج أعوام بضع وستين وسبعمائة جب يقلعها بعيد المهوى يبلغ عمقه نحو مائة ذراع وبقاعه عدة أسفار على رفوف حمل منها سفر طوله ذراعان وأزيد قد غلف بلوحين من خشب وكتابته بالقلم المسند طول الالف واللام نحو شبر فوجد ببلاد الكرك من قرأه فاذا هو سفر من عشرة أسفار قد ابتدأه بحمد الله ثم قال خروج موسى من أرض مصر الي بلاد مدين وملوك بنى مدين فيما بعد شعيب فذكر لموسى عليه السلام عدة اسماء منها اسمه بالعربية موسى بن عمران وبالعبرانية موشى وبالفارسية داران و بالقبطية هروسيس وذكر أنه تزوج ابنة شعيب وأنه أقام بمدين ثماني حجج ثم قال لابن شعيب قد أتممت لك شرطك وسأزيدك سنتين فضلا مني

(بقية خبر مدينة مدين)

قال وخرج موسى متوجها الى مصر والملك يومئذ على مدين ابجد قال وقوى أمر أبجد فطغى حتى ملك الحجاز واليمن وكان له خمسة أولاد هم هوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت فأقام ابجد ملكا باليمن مائة سنة ومات وقد استخلف من بعده ابنه كلمن باليمن وجعل ابنه هوز على الحجاز وابنه حطي على أرض مصر وابنه سعفص على الجزيرة وبلادها حيث الموصل وحران الى أرض العراق وابنه قرشت على العراق ومشارقها من خراسان وكان قرشت هو الجبار فيهم وكان سعفص وهوز وكلمن أهل عدل وحلم وكان حطي صاحب بطش وجرأة وكان بنو اسرائيل اذ ذاك بالشام فلم يملك أولاد ابجد أرض الشام ولا احتووا عليها وكانت مدة ملكهم نحوا من مائة وخمسين سنة فتم لهم بدولة أبيهم أبجد ثلثمائة سنة روزيت بن هوز وعرزيت بن حطي بن ابجد وأزيد ثم ملك بعدهم على بني اسرائيل نحو سبع سنين ثم خرجت الدولة عن أولاد أبجد وأقام هذا الكتاب عندهم زمانا ثم أعادوه الى الجب من قلعة الاعوج حدثني بهذا الخبر الحافظ المتقن الضابط أبو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن عبد الرحمن الغرياني التونسي المالكي قال حدثني به شتر ابن غنيم العامري شيخ لقيه بارض فلسطين أنه شاهد الكتاب المذكور وهو شاب وحفظ منه ماتقدم ذكره وقيل ان مالك بن دعر بن حجر بن جديلة بن لخم كان له أربعة وعشرون ولدا ذكرا فكثرت أولادهم حتى بنوا المداين والقرى والحصون وعمروا بلاد مدين كلها وغلبوا على بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها خمسمائة سنة وقيل انما كان استيلاء ملوك مدين على مصر خمسمائة سنة بعد غرق فرعون موسى وهلاك دلوكة بنت زفان حتى أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داود فعاد الملك الى القبط بعدهم

﴿ ذكر مدينة فاران ﴾

هذه المدينة بساحل بحر القلزم وهى من مدن العماليق على تل بين جبلين وفي الجبلين نقوب كثيرة لاتحصى مملوءة أمواتا ومن هناك الى بحر القلزم مرحلة واحدة ويقال له هناك ساحل بحر فاران وهو البحر الذى أغرق الله فيه فرعون وبين مدينة فاران والتيه مرحلتان ويذكر ان فاران اسم لجبال مكة وقيل اسم لجبال الحجاز وهى التى ذكرت في التوراة والتحقيق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية وهى غير فاران المذكورة في التوراة وقيل ان فاران بن عمرو بن عمليق هو الذى نسب اليه جبال الحرم فقيل جبال فاران وبعضهم يقول جبال فران وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الى اليوم وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره وبها نهر عظيم وهى خراب يمر بها العربان

﴿ ذكر أرض الجفار ﴾

اعلم أن الجفار اسم لخمس مدائن وهي الفرما والبقارة والورادة والعريش ورفيح والجفار كله رمل وسمي بالجفار لشدة المشي فيه على الناس والدواب من كثرة رمله وبعد مراحله والجفار تجفر فيه الابل فاتخذ له هذا الاسم كما قيل للحبل الذى يهجر به البعير هجار وللذى يحجر به حجار وللذى يعقل به عقال وللذى يبطن به بطان وللذى يخطم به خطام وللذي يزم به زمام واشتقت البقارة من البقر والورادة من الوريد والعريش أخذ من العرش وقيل ان رفيح اسم جبل * وكان يسكن الجفار في القديم خذام بن العريان ويقال ان أرض الجفار كانت في الدهر الاول والزمن الغابر متصلة العمارة كثيرة البركات مشهورة بالخيرات لكثرة زراعة أهلها الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً عذباً ثم صار بها نخل يحدق بها من كل النواحي الى أن دمرها الله تدميرا فصارت الى اليوم ذات رمل عظيم يسلك فيه الى العريش والى رفيح كله قفر تعرف بقعته برمل الغرابي قليل الماء عديم المرعي لا أنيس به فسبحان محيل الاحوال

﴿ ذكر صعيد مصر ﴾

الصعيد المرتفع من الارض وقيل الارض المرتفعة من الارض المنخفضة وقيل ما لم يخالطه رمل ولا سبخة وقيل هو وجه الارض وقيل الارض الطيبة وقيل هو كل تراب طيب وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم انما حدث فى الاسلام سماها العرب بذلك لانها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر ولذلك يقال فيها أعلى الارض ولانها أرض ليس فيها رمل ولا سباخ بل كلها أرض طيبة مباركة ويقال للصعيد أيضا الوجه القبلى * قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه ولما حضرت مصرايم الوفاة عهد الى ابنه قبطيم وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه فجعل لقبطيم من بلد قفط الى أسوان ولاشمون من بلد أشمون الى منف ولاتريب الحوف كله ولصا من ناحية صا البحيرة الى قرب برقة وقال لاخيه فارق لك من برقة الى الغرب فهو صاحب أفريقية وولده الافارق وأمر كل واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة في موضعه * وقال ابن عبد الحكم فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه ولولده وقسم لهم هذا النيل فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها وبه سميت قفط قفطا وما فوقها الي أسوان وما دونها الى أشمون في الشرق والغرب وقطع لاشمون من أشمون فما دونها في الشرق والغرب الى منف فسكن أشمون أشمون فسميت به وقطع لاتريب ماين منف الي صا فسكن أتريب فسميت به وقطع لصا ما بين صا الي البحر فسكن صا فسميت به فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء جزأين بالصعيد وجزأين بأسفل الارض * وقال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر

الادفوي فى كتاب الطالع السعيد في تاريخ الصعيد مسافة اقليم الصعيد الاعلى مسيرة اثنى عشر يوما بسير الجمال وعرضه ثلاث ساعات وأكثر بحسب الاماكن العامرة ويتصل عرضه في الكورة الشرقية بالبحر الملح وأراضى البجة وفي الغربية بالواح وهى كورتان شرقية وغربية والنيل بينهما فاصل وأول الشرقية من مرج بنى هميم المتصلة أرضها بأراضى جرجا من عمل أخميم وآخرها من قبلى الهو ويليها أول أراضى النوبة وفي هذه الكورة تبج وقفط وقوص وأول الكورة الغربية برذيس تتصل أرضها بأرض جرجا وفي هذه الكورة الغربية سمهود وآخر الكورة الغربية أسوان وبحافته أكثر النخل من الجانبين تكون مساحة الاراضي التي فيها النخل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان والمستولى على اقليم الصعيد المشترى *ويقال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمراً فغصبها بعض الولاة فلم تحمل في ذلك العام ولا تمرة واحدة وكانت هذه النخلة في الجانب الغربي ويبيع منها في الغلاء كل ويبة بدينار ويقال لما صورت الدنيا لامير المؤمنين هرون بن محمد الرشيد لم يستحسن الا كورة سيوط من صعيد مصر فانها ثلاثون الف فدان في استواء من الارض لو وقعت فيها قطرة ماء لانتشرت في جميعها * وبالصعيد بقايا سحر قديم * حكى الامير طقطبا والي قوص في أيام الناصر محمد بن قلاون قال أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها أريد أن أبصر شيئا من سحرك فقالت أجود عملي أن أسحر العقرب على اسم شخص بعينه فلا بد أن تقع عليه ويصيبه سمها فتقتله فقلت أريني هذا واقصديني بسحرك فأخذت عقرباً وعملت ما أحبت ثم أرسلت العقرب فتبعني وأنا أتنحي عنه وهو يقصدني فجلست على تخت وضعته على بركة ماء فأقبل العقرب الي ذلك الماء وأخذ في التوصل الي فلم يطق ذلك فمر الي الحائط وصعد فيه وأنا أشاهده حتى وصل الي السقف ومر فيه الى أن صار فوقى وألقى نفسه علي وسعى نحوى حتى قرب مني فضربته فقتلته ثم قتلت الساحرة أيضا * وأرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه حتى ان الرأس الواحد من نعاج الضأن يتولد عنه فى عشر سنين ألف وأربع وعشرون رأسا وذلك بتقدير السلامة وأن تلد كلها اناثا وتلد مرة واحدة في كل سنة ولا تلد في كل بطن غير رأس واحد والا فان ولدت في السنة مرتين وكان في كل بطن رأسان تضاعف العدد وتأمل حساب ما قلناه تجده صحيحا وقد شوهد كثيرا أن من أغنام الصعيد ما يلد فى السنة ثلاث مرات ويلد في البطن الواحد ثلاثة أرؤس * وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم بنو هلال وبلى وجهينة وقريش ولواته وبنو كلاب وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الانصار ومن مزينة وبني دراج وبني كلاب وثعلبة وجذام * وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل في أيام الناصر محمد بن قلاون وما بعدها كان يمر من القاهرة الي أسوان فلا

يحتاج الي نفقة بل يجد بكل بلد وناحية عدة دور للضيافة اذا دخل داراً منها أحضر لدابته علفها وجيء له بما يليق به من الاكل ونحوه وآل أمره الآن الي أن لا يجد الرجل أحدا فيما بين القاهرة وأسوان يضيفه لضيق الحال ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقي في أيام الاشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون سنة ست وسبعين وسبعمائة وتزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاة ولم يزل فى ادبار الي أن كانت سنة ست وثمانمائة وشرقت مصر بقصور مد النيل فدهى أهل الصعيد من ذلك بمالا يوصف حتى انه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف انسان ومات من مدينة سيوط أحد عشر ألف انسان بمن غسل وكفن ومن مدينة هو خمسة عشر ألف انسان وذلك كله سوى الطرحى على الطرقات ومن لا يعرف من الغرباء ونحوهم ثم دمر فى أيام المؤيد شيخ فلم يبق منه الا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها نسأل الله حسن الخاتمة

﴿ ذكر الجنادل ولمع من أخبار أرض النوبة ﴾

الجندل ما يقل الرجل من الحجارة وقيل هو الحجر كله الواحدة جندلة والجندل الجنادل قال سيبويه وقالوا جندل يعنون الجنادل وصرفوه لنقصان البناء عما لا ينصرف وأرض جندلة ذات جندل وقيل الجندل المكان الغليظ فيه حجارة ومكان جندل كثير الجندل * قال عبد الله بن أحمد بن سليم الاسواني فى كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل * وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان اليها خمسة أميال وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببلاق بينها وبين قرية النوبة ميل وهو ساحل بلد النوبة ومن أسوان الى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر لا تسلكها المراكب الا بالحيلة ودلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك لان هذه الجنادل متقطعة وشعاب معترضة فى النيل ولانصبابه فيها خرير عظيم ودوى يسمع من بعد وبهذه القرية مسلحة وباب الى بلد النوبة ومنها الى الجنادل الاولى من بلد النوبة عشر مراحل وهي الناحية التي يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها قرب أملاك ويتجرون فى أعلاها وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية وشجرها كثير وهى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال وما تخرج عن النيل وقراها متسطرة على شاطئه وشجرها النخل والمقل وأعلاها أوسع من أدناها وفى أعلاها الكروم والنيل لا يروى مزارعها لارتفاع أرضها وزرعها الفدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب والقمح عندهم قليل والشعير أكثر والسلت ويعتقبون الارض لضيقها فيزرعونها فى الصيف بعد تطريتها بالزبل والتراب الدخن والذرة والجاورس والسمسم واللوبيا وفى هذه الناحية بجراش مدينة المريس وقلعة ابريم وقلعة أخري دونها وبها مينا تعرف بأدواء ينسب اليها لقمان الحكيم وذو النون وبها بربا عجيب ولهذه الناحية وال من

قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الاسلام ومن يخرج الى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه في تجارة أو هدية اليه أو الى مولاه يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق ولا يطلق لاحد الصعود الى مولاه لا لمسلم ولا لغيره * وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هي ساحل واليها تنتهي مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ولا تجاوزها المراكب ولا يطلق لاحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها الا باذن من صاحب جبلهم ومنها الى المقس الا على ست مراحل وهي جنادل كلها وشرّ ناحية رأيتها لهم لصعوبتها وضيقها ومشقة مسالكها أما بحرها فجنادل وجبال معترضة فيه حتى ان النيل ينصب من شعاب ويضيق في مواضع حتى يكون سعتها بين الجانبين خمسين ذراعا وبرها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة حتى لايمكن الراكب أن يصعد منها والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ورمال في غربها وشرقها وهذه الجبال حصنهم واليها يفزع أهل الناحية التي قبلها المتصلة بأرض الاسلام وفي جزائرها نخل يسير وزرع حقير وأكثر اكلهم السمك ويدهنون بشحمه وهي من أرض مريس وصاحب الجبل واليهم والمسلحة بالمقس الاعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها حتى ان عظيمهم اذا صار بها وقف به المسلحي وأوهم أنه يفتش عليه حتى يجد الطريق الى ولده ووزيره فمن دونهما ولا يجوزها دينار ولا درهم اذ كانوا لايتبايعون بذلك الا دون الجنادل مع المسلمين وما فوق ذلك لابيع بينهم ولا شراء وانما هي معاوضة بالرقيق والمواشي والجمال والحديد والحبوب ولا يطلق لاحد أن يجوزها الا باذن الملك ومن خالف كان جزاؤه القتل كائنا من كان وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى ان العسكر منهم يهجم على البلد الى البادية وغيرهم فلا يعلمون به والسنباذ الذي يخرط به الجوهر يخرج من النيل في هذه المواضع يغطس عليه فيوجد جسمه باردا مخالفا للحجارة فاذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرق ومن هذه المسلحة الى قرية تعرف بساى جنادل أيضا وهي آخر كرسيهم ولهم فيها أسقف وفيها ربما ثم ناحية سقلودا وتفسيرها السبع ولاة وهي أشبه الارض بالارض المتاخمة لارض الاسلام في السعة والضيق في مواضع والنخل والكرم والزرع وشجر المقل وفيها شئ من شجر القطن ويعمل منه ثياب وخشنة وبها شجر الزيتون وواليها من قبل كبيرهم وتحت يده ولاة يتصرفون وفيها قلعة تعرف بأصطنون وهي أول الجنادل الثلاثة وهي أشد الجنادل صعوبة لان فيها جبلا معترضا من الشرق الى الغرب في النيل والماء ينصب من ثلاثة أبواب وربما رجع الى بابين عند الحساره شديد الخرير عجيب المنظر يتحدر الماء عليه من علو الجبل وقبليه فرش حجارة في النيل نحو ثلاثة برد الى قرية تعرف بيستو وهي آخر قرى مريس وأول بلد مقرة ومن هذا الموضع الى حد المسلمين لسانهم مريسي وهي آخر عمل متملكهم

ثم ناحية بقون وتفسيرها العجب وهي عند اسمها لحسنها وما رأيت على النيل أوسع منها وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق الى الغرب مسيرة خمس مراحل الجزائر تقطعه والانهار منه تجري بينها على أرض منخفضة وقرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجة حمام ومواش وأنعام وأكثر ميرة مدينتهم منها وطيورها النقيط والنوبي والببغا وغير ذلك من الطيور الحسان وأكثر نزهة كبيرهم في هذه الناحية * قال وكنت معه في بعض الاوقات فكان سيرنا في ظل شجر من الحافتين في الخلجان الضيقة وقيل ان التمساح لا يضر هناك ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الانهار سباحة ثم سفد بقل وهي ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم الأان فيها جزائر حسانا وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالابنية الحسان والكنائس والاديار والنخل الكثير والكروم والبساتين والزرع ومروج كبار فيها ابل وجمال صهب مؤبلة للنتاج وكبيرهم يكثر الدخول اليها لان طرفها القبلي يحاذي دنقلة مدينتهم ومن مدينة دنقلة دار المملكة الى أسوان خمسون مرحلة وذكر صفتها ثم قال انهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط وبخشب الساج الذي يأتي به النيل في وقت الزيادة ستالات منحوتة لايدرى من أين تأتي ولقد رأيت على بعضها علامة غريبة ومسافة مابين دنقلة الى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين اسوان وفي ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشي والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف مافي الجانب الذي يلي أرض الاسلام وفي هذه الاماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الجبال والوحش والسباع ومفاوز يخاف فيها العطش والنيل ينعطف من هذه النواحي الى مطالع الشمس والى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر وهي الناحية التي تبلغ العطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشلة وهو بلد يعرف بشنقير ومنه خرج العمري وتغلب على هذه الناحية الى أن كان من أمره ماكان وفرس البحر يكثر في هذه المواضع ومن هذا الموضع طرق الى سواكن وباضع ودهلك وجزائر البحر ومنها عبر من نجا من بني أمية عند هربهم الى النوبة وفيها خلق من البجة يعرفون بالرنافج انتقلوا الى النوبة قديما وقطنوا هناك وهم على حدتهم في الرعي واللغة لايخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم وعليهم وال من قبل النوبة

﴿ ذكر تشعب النيل من بلاد علوة ومن يسكن عليه من الامم ﴾

اعلم أن النوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل فالنوبة هم المريس المجاورون لارض الاسلام وبين أول بلدهم وبين اسوان خمسة أميال ويقال ان سلها جد النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن وقيل النوبة ومقرى من حمير وأكثر أهل الانساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية وأول أرض المقرة قرية تعرف بتافة على مرحلة من أسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على أقل من عشر

مراحل من أسوان ويقال ان موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في أيام فرعون فأخرب نافة وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها ثم تنصروا جميعا النوبة والمقرة ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم وأول بلاد علوة قرى في الشرق على شاطئ النيل تعرف بالابواب ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح *والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار فمنها نهر يأتي من ناحية المشرق كدر الماء يجف في الصيف حتى يسكن بطنه فاذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء وزادت البرك التي فيه وأقبل المطر والسيول فى سائر البلد فوقعت الزيادة فى النيل وقيل ان آخر هذا النهر عين عظيمة تأتى من جبل قال مؤرخ النوبة وحدثني سميون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد فى بطن هذا النهر حوت لاقشر له ليس هو من جنس مافى النيل يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج وهو كبير وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة يأتى من عندهم طير يعرف بحمام بازين وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة ثم النيل الابيض وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن قال وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذي عندهم وعن لونه فذكر أنه يخرج من جبال الرمل أو جبل الرمل وانه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ثم ينصب الى مالا يعرف وانه ليس بأبيض فاما أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمر عليه أو من نهر آخر ينصب اليه وعليه أجناس من جانبيه ثم النيل الاخضر وهو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق شديد الخضرة صافى اللون جدا يرى مافي قعره من السمك وطعمه مخالف لطعم النيل يعطش الشارب منه بسرعة وحيتان الجميع واحدة غير أن الطعم مختلف ويأتى فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء وخشب له رائحة كرائحة اللبان وخشب غليظ ينحت ويعمل منه مقدام وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضا وقيل انه وجد فيه عود البخور قال وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التي تأتى فيه وقت الزيادة علامة غريبة ويجتمع هذان النهران الابيض والاخضر عند مدينة متملك بلد علوة ويبقيان على ألوانهما قريبا من مرحلة ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما قال وأخبرنى من نقل النيل الابيض وصبه في النيل الاخضر فبقى فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا وبين هذين النهرين جزيرة لايعرف لها غاية وكذلك لايعرف لهذين النهرين نهاية فأولهما يعرف عرضه ثم يتسع فيصير مسافة شهر ثم لاتدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض لان فيهما أجناسا كثيرة وخلقا عظيما قال وبلغني أن بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأت عليه بعد سنين وان في طرفها القبلي جنسا يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الارض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة والانهار الاربعة الباقية تأتى أيضا من القبلة مما يلى الشرق أيضا فى وقت واحد ولا

يعرف لها نهاية أيضا وهي دون النهرين الابيض والاخضر في العرض وكثرة الخلجان والجزائر وجميع الانهار الاربعة تنصب فى الاخضر وكذلك الاول الذى قدمت ذكره ثم يجتمع مع الابيض وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها وأحد هذه الاربعة يأتى مرة من بلاد الحبشة قال ولقد أكثرت السؤال عنها واستكشفتها من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول انه وقف على نهاية جميع هذه الانهار والذى انتهى اليه علم من عرفنى عن آخرين الى خراب وانه يأتي في وقت الزيادة في هذه الانهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك فيدل على عمارة بعد الخراب فاما الزيادة فيجمعون انها من الامطار مع مادة تأتى من ذاتها والدليل على ذلك النهر الذي يجف ويسكن بطنه ثم ينبع وقت الزيادة ومن عجائبه أن زيادته في أنهار مجتمعة وسائر النواحى والبلدان في مصر وما يليهـا والصعيد واسوان وبلد النوبة وعلوة وما وراء ذلك في زمان واحـد وأكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربمـا وجدت مثلا باسوان ولاتوجد بقوص ثم تأتي بعد فاذا كثرت الامطار عندهم واتصلت السيول علم أنها سنة رى واذا قصرت الامطار علم أنها سنة ظمأ قال وأما من طرق بلاد الزنج فانهم أخبروني عن مسيرهم في بحر الصين الى بلاد الزنج بالريح الشمالى مساحلين للجانب الشرقي من جزيرة مصر حتى ينتهوا الى موضع يعرف برأس حفرى وهو عندهم آخر جزيرة مصر فينظرون كوكبا يهتدون به فيقصدون الغرب ثم يعودون الى البحرى ويصير الشمال في وجوههم حتى يأتوا الى قبيلة من بلاد الزنج وهى مدينة متملكهم وتصير قبلتهم للصلاة الى جدة قال وبعض الانهار الاربعة يأتي من بلاد الزنج لانه يأتي فيه الخشب الزنجي وسوبة مدينة العلوى شرقي الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الابيض والاخضر فى الطرف الشمالى منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذى يجف ويسكن بطنه وفيهـا ابنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الارز منها خبزهم ومزرهم واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة العظيمة السعة حتى انه لا يوصل الى الجبل الا في أيام وعنـدهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية يفسرونهـا بلسانهم وهم أقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير فى بلده * ومما في بلده من العجائب أن في الجزيرة الكبرى التى بين البحرين جنسا يعرف بالكرنينا لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر فاذا

كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر واختط على مقدار ما معه وزرع في أربعة أركان الخطة يسيرا وجعل البذر في وسط الخطة وشيأ من المزر وانصرف عنه فاذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فاذا كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر وينصرف فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرن فاذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش فيلفظ بقلع شئ من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع وهذه الناحية التي فيها ماذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب * قال وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ولا يرتابون به ولولا أن اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثل لما ذكرت شيأ منه لشناعته. فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجن تفعل ذلك وانها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وان السحاب يطيعهم * قال ومن عجائب ما حدثني به متملك المقرة للنوبة انهم يمطرون في الجبال ويلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الارض وسألتهم عن جنسه فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر قال وقد رأيت جماعة وأجناسا ممن تقدم ذكر اكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لايعرف الباري ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة وذكر أنه رأى رجلا في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال مسافته الي النيل ثلاثة أهلة وسأله عن دينه فقال ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد وانه قال له فأين يكون قال في السماء وحده وقال انه اذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضي حاجتهم قبل أن ينزلوا وسأله هل أرسل فيكم رسول قال لا فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه وما أيدوا به من المعجزات فقال اذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ثم قال قد صدقتهم ان كانوا فعلوا * قال مؤلفه رحمه الله وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة وبقي بدنقلة جامع يأوى اليه الغرباء واعلم أن على ضفة النيل ايضا الكانم وملكها مسلم وبينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جدا وقاعدة ملكه بلدة اسمها حيمي وأول مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زرلا وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكا وبينهما نحو ثلاثة أشهر وهم يتلثمون وملكهم متحجب لا يرى الا يومي العيدين بكرة وعند العصر وطول السنة لا يكلمه أحد الا من وراء حجاب وغالب عيشهم الارز وهو ينبت من غير بذر وعندهم القمح والذرة والتين والليمون والباذنجان واللفت والرطب ويتعاملون بقماش ينسج عندهم

اسمه دندى طول كل ثوب عشرة أذرع يشترون به من ربع ذراع فأكثر ويتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسر والورق وجميع ذلك بسعر ذلك القماش وفي جنوبها شعارى وصحارى فيها أشخاص متوحشة كالغيول قريبة من شكل الآدمي لايلحقها الفارس تؤذى الناس ويظهر في الليل أيضا شبه نار تضئ فاذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه ولو جرى اليها لا يصل اليها بل لاتزال امامه فإذا رماها بحجر فأصابها تشظي منها شرر وتعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها في النيل * وهذه البلاد بين أفريقية وبرقة ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الاوسط وهي بلاد قحط وشطن وسوء مزاج واول من بث بها الاسلام الهادى العثماني ادعى انه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه وصارت بعده لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن وهم على مذهب الامام مالك بن انس رحمه الله والعدل قائم بينهم وهم يابسون فى الدين لايلينون وبنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق في سنى أربعين وستمائة وصارت وفودهم تنزل بها وسيرد ذكرها فى المدارس ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر البجه ويقال انهم من البربر ﴾

اعلم أن أول بلد البجه من قرية تعرف بالخزية معدن الزمرد في صحراء قوص وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل وذكر الجاحظ انه ليس في الدنيا معدن للزمرد غير هذا الموضع وهو يوجد فى مغاير بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة وحوله غشيم دونه فى الصبغ والجوهر وآخر بلاد البجه أول بلاد الحبشة وهم فى بطن هذه الجزيرة أعني جزيرة مصر الى سيف البحر الملح مما يلي جزائر سواكن وباضع ودهلك وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود وأنسابهم من جهة النساء ولكل بطن منهم رئيس وليس عليهم متملك ولا لهم دين وهم يورثون ابن البنت وابن الاخت دون ولد الصلب ويقولون ان ولادة ابن الاخت وابن البنت اصح فانه ان كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال وكان لهم قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه يسكن قرية تعرف بهجر هى اقصى جزيرة البجه ويركبون النجب الصهب وتنتج عندهم وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضا والمواشى من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام ومنها جم وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن واكلهم للجبن قليل وفيهم من يأكله وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص وألوانهم مشرقة الصفرة وهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون

ويقطعون عليها من البلاد مايتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فأخذها صاحبها وان وقعت في الارض ضرب الجمل بجرانه الارض فأخذها صاحبها ونبغ منهم في بعض الاوقات رجل يعرف بكلاز شديد مقدام وله جمل ماسمع بمثله في السرعة وكان أعور وصاحبه كذلك التزم لقومه انه يشرف على مصلى مصر يوم العيد وقد قرب العيد قربا لايكون للبلوغ اليها في مثله حقيقة فوفى بذلك واشرف على المقطم وضربت الخيل خلفه فلم يلحق وهذا هو الذي أوجب أن يكون في السفح طليعة يوم العيد وكان الطولونية وغيرهم من أمراء مصر يوقفون في سفح الجبل المقطم مما يلي الموضع المعروف بالحبش جيشا كثيفا مراعيا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم في كل عيد وهم أصحاب ذمة فاذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوبا على حربة وقال هذا عرش فلان يعني أبا الغادر فتصير سيئة عليه الي أن يترضاه وهم يبالغون في الضيافة فاذا طرق أحدهم الضيف ذبح له فاذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الانعام اليه سواء كانت له أو لغيره وان لم يكن شي نحر راحلة الضيف وعوضه ماهو خير منها وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة اذرع والعود أربعة اذرع وبذلك سميت سباعية والحديدة في عرض السيف لايخرجونها من أيديهم الا في بعض الاوقات لان في آخر العود شيأ شبيها بالفلكة يمنع خروجها عن ايديهم وصناع هذه الحراب نساء في موضع لايختلط بهن رجل الا المشترى منهن فاذا ولدت احداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها وان ولدت غلاما قتلته ويقلن ان الرجال بلاء وحرب ودرقهم من جلود البقر مشعرة ودرق مقلوبة تعرف بالاكسومة من جلود الجواميس وكذلك الدهلكية ومن دابة في البحر وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط يرمون عليها بنبل مسموم وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا فاذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده وسيل الدم ثم شممه هذا السم فاذا تراجع الدم علم انه جيد ومسح الدم لئلا يرجع الى جسمه فيقتله فاذا أصاب الانسان قتل لوقته ولو مثل شرطة الحجام وليس له عمل في غير الجرح والدم وان شرب منه لم يضر وبلدانهم كلها معادن وكلما تصاعدت كانت أجود ذهبا وأكثر وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيثا والجمست والزمرذ وحجارة شطبا فاذا بلت الشطبة منها بزيت وقدت مثل الفتيلة وغير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه والبجه لاتتعرض لعمل شي من هذه المعادن وفي أوديتهم شجر المقل والاهليلج والاذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان وغير ذلك وباقصي بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لم يزرعه أحد وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الارض والزباد ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان

على لون الذهب قليلة البقاء اذا صيدت ومن الطيور البغا والنقيط والنوبي والقماري ودجاج الحبش وحمام بازين وغير ذلك وليس منهم رجل الا منزوع البيضة اليمني وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن وانه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج بمقدار ذكر الرجل ثم قل هذا الفعل عندهم وقيل ان السبب في ذلك أن ملكا من الملوك حاربهم قديما ثم صالحهم وشرط عليهم قطع ثدي من يولد لهم من النساء وقطع ذكور من يولد من الرجال أراد بذلك قطع النسل منهم فوفوا بالشرط وقابوا المعنى في أن جعلوا قطع الثدى للرجال والفروج للنساء وفيهم جنس يقلعون ثناياهم ويقولون لا نتشبه بالحمير وفيهم جنس آخر فى آخر بلاد البجه يقال لهم البازه نساء جميعهم يتسمون باسم واحد وكذلك الرجال فطرقهم في وقت رجل مسلم له جمال فدعا بعضهم بعضا وقالوا هذا الله قد نزل من السماء وهو جالس تحت الشجرة فجعلوا ينظرون اليه من بعد * وتعظم الحيات ببلدهم وتكثر أصنافها ورؤيت حية في غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها فرؤي شحمها قد خرج من دبرها من شدة الضغطة وبها حية ليس لها رأس وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة اذا مشى الانسان على أثرها مات واذا قتلت وأمسك القاتل ماقتلها به من عود أو حربة في يده ولم يلقه من ساعته مات وقتلت حية منها بخشبة فانشقت الخشبة واذا تأمل هذه الحية أحد وهي ميتة أوحية أصابه ضررها وفي البجه شر وتسرع اليه ولهم في الاسلام وقبله اذية على شرق صعيد مصر خربوا هناك قرى عديدة وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحيانا لحاجتهم الى المعادن وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر ولهم في المعادن آثار مشهورة وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر * قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم وتجمع لعبد الله بن سعد بن أبي سرح في انصرافه من النوبة على شاطئ النيل البجه فسأل عن شأنهم فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون اليه فهان عليه أمرهم وتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولي ويذكر أنه وجد في كتاب ابن الحبحاب لهم ثلثمائة بكر فى كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجارا غير مقيمين على أن لا يقتلوا مسلما ولا ذميا فان قتلوه فلا عهد لهم ولا يؤوا عبيد المسلمين وان يردوا آبقيهم اذا وقعوا اليهم ويقال انهم كانوا يؤاخذون بهذا وبكل شاة أخذها البجاوى فعليه أربعة دنانير وللبقرة عشرة وكان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب اسلاما ضعيفا وهم شوكة القوم ووجوههم وهم مما يلي مصر من أول حدهم الى العلاقى وعيذاب المعبر منه الى جدة وما وراء ذلك ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج هم أكثر عددا من الحدارب غير أنهم تبع لهم وخفراؤهم يحمونهم ويجبونهم المواشي ولكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج

في حملته فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديما أظهر عليهم ثم كثرت اذيتهم على المسلمين وكان ولاة اسوان من العراق فرفع الى أمير المؤمنين المأمون خبرهم فأخرج اليهم عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم الكبير الذى يكون بقريتهم هجر المقدم ذكرها كتابا نسخته هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجه بأسوان انك سألتني وطلبت الى أن أومنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أمانا علىّ وعلى جميع المسلمين فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين الا انك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجه وعلى أن تؤدى اليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجه وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال والخيار فى ذلك لامير المؤمنين ولولاته وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم وعلى أن أحدا منكم ان أعان المحاربين على أهل الاسلام بمال أودله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه وعلى أن أحدا منكم ان قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا او عبدا أو احدا من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لاحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجه أو ببلاد الاسلام أو ببلاد النوبة أو في شيء من البلدان برا أو بحرا فعليه فى قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة اضعافه وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تؤوا أحدا من آبقي المسلمين فان أتاكم آت فعليكم أن تردوه الى المسلمين وعلى أن تردوا أموال المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزم فى ذلك وعلى انكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحا ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل

الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالا وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال وعلى أن أحدا من البجه لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حدا لا عمدة عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجه الامان على ماسمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فان زاغ كنون اوعاث فلا عهد له ولا ذمة وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجه وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه باعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجه عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الامير أبي اسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ماوفي كنون بن عبد العزيز بجميع ماشرط عليه فان غير كنون أو بدل أحد من البجه فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الامير أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم وترجم جميع مافي هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبدالله بن اسمعيل القرشي ثم نسق جماعة من شهود اسوان فأقام البجه على ذلك برهة ثم عادوا الى غزو الريف من صعيد مصر وكثر الضجيج منهم الى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله فندب لحربهم محمد بن عبد الله القمي فسأل أن يختار من الرجال من أحب ولم يرغب الى الكثرة لصعوبة المسالك نخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة وسارت المراكب في البحر فاجتمع البجه لهم في عدد كثير عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فشغلهم بكتاب طويل كتبه في طومار ولفه بثوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي أعناق الخيل الاجراس فنفرت الجمال بالبجه ولم تثبت لصلصلة الاجراس فركب المسلمون أقفيتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وقتل كبيرهم فقام من بعده ابن أخيه وبعث يطلب الهدنة فصالحهم على أن يطأ بساط أمير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل بسر من رأى في سنة احدى وأربعين ومائتين فصولح على أداء الاداوة والبقط واشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن وأقام القمي باسوان مدة وترك فى خزائنها ماكان معه من السلاح وآلة الغزو فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئاً فلما كثر المسلمون فى المعادن واختلطوا بالبجه قل شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان وقدم عليهم أبو عبدالرحمن ابن عبد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة فى سنة خمس وخمسين ومائتين ومعه

وبيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجه حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم الى عيذاب ومالت البجه الى ربيعة وتزوجوا اليهم وقيل ان كهان البجه قبل اسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معافهم على ذلك فلما قتل العمرى واستولت ربيعة على الجزائر والاهم على ذلك البجه فأخرجت من خالفها من العرب وتصاهروا الى رؤساء البجه وبذلك كف ضررهم عن المسلمين والبجه الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر الملح الى أول الحبشة ورجالهم في الظعن والمواشي واتباع الرعى والمعيشة والمراكب والسلاح كحال الحدارب الا أن الحدارب أشجع وأهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكهانهم ولكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها فاذا رأوا استخباره عما يحتاجون اليه تعرى ودخل الى القبة مستدبرا ويخرج اليهم وبه أثر جنون وصرع يقول الشيطان يقرئكم السلام ويقول لكم ارحلوا عن هذه الحلة فان الرهط الفلاني يقع بكم وسألتم عن الغزو الى بلد كذا فسيروا فانكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي والجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلانى والغنم التى من صفتها كذا ونحو هذا القول فيزعمون أنه يصدقهم في أكثر من ذلك فاذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه الى الكاهن يتموله ويحرمون ألبان نوقها على من لم يقبل فاذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد فيزعمون أن ذلك الجمل لا يثور الا بجهد وكذلك سيره ويتصبب عرقا والخيمة فارغة لا شئ فيها وقد بقى في الحدارب جماعة على هذا المذهب ومنهم من يتمسك بذلك مع اسلامه * قال مؤرخ النوبة ومنه لخصت ما تقدم ذكره وقد قرأت في خطبة الاجناس لامير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه ذكر البجه والكجة ويقول عنهم شديد كلبهم قليل سلبهم فالبجه كذلك وأما الكجة فلا أعرفهم انتهى ما ذكره عبد الله بن أحمد مؤرخ النوبة * وقال أبو الحسن المسعودى فأما البجه فانها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر وتشعبوا فرقا وملكوا عليهم ملكا وفي أرضهم معادن الذهب وهو التبر ومعادن الزمرد وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب الى بلاد النوبة فيغزون ويسبون وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجه الى أن قوى الاسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجه فقويت البجه ثم صاهرها قوم من ربيعة فقويت ربيعة بالبجه على من ناواها وجاورها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار وصاحب المعدن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بشر بن مروان بن اسحاق بن ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف ألف من ربيعة وأحلافها

من مصر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجه فى الجحف التحاوية وهم الحدارب وهم مسلمون من بين سائر البجه والداخلة من البجه كفار يعبدون صنمالهم والبجه المالكة لمعدن الزمرذ يتصل ديارها بالعلاقى وهو معدن الذهب وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة وأقرب العمارة اليه مدينة أسوان وجزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض وأهلها طائفة من البجه تسمي الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك * وقال الهمداني نكح كنعان بن حام أرتيب بنت شاويل بن ترس ابن يافث فولدت له حقا والاساود ونوبة وقران والزنج والزغاوة وأجناس السودان وقيل البجه من ولد حام بن نوح وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام وقيل البجه قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر وألوانهم أشد سواداً من الحبشة يتزيون بزى العرب وليس لهم مدن ولا قرى ولا مزارع ومعيشتهم مما ينقل اليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة وكانت البجه تعبد الاصنام ثم أسلموا في امارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفيهم كرم وسماحة وهم قبائل وأفخاذ لكل فخذ رئيس وهم أهل نجعة وطعامهم اللحم واللبن فقط

﴿ ذكر مدينة أسوان ﴾

أسوان من قولهم أسى الرجل يأسى أسى اذا حزن ورجل أسيان وأسوان أى حزين وأسوان فى آخر بلاد الصعيد وهى ثغر من ثغور الاقليم يفصل بين النوبة وأرض مصر وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضراوات والبقول وكانت كثيرة الحيوان من الابل والبقر والغنم ولحمانها هناك غاية في الطيب والسمن وكانت أسعارها أبدا رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منها الى بلاد النوبة ولا يتصل باسوان من شرقها بلد اسلامي وفي جنوبها جبل به معدن الزمرذ وهو فى برية منقطعة عن العمارة وعلى خمسة عشر يوما من أسوان معدن الذهب ويتصل باسوان من غربيها الواحات ويسلك من أسوان الى عيذاب ويتوصل من عيذاب الى الحجاز والى اليمن والهند * قال المسعودى ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان ونزار بن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش وأكثرهم من الحجاز والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة في الارض فتنبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ولمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الاسلام فى دولة بني أمية وبنى العباس وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد وفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه ان أناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وانها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين فيها فجعل المأمون أمرهم الى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها

من أهل العلم والشيوخ وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان انها ستنزع من أيديهم فاحتالوا على ملك النوبة بأن يقدموا الي من ابتيع منهم من النوبة انهم اذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقروا لملكهم بالعبودية وأن يقولوا سبيلنا معاشر النوبة سبيلكم مع ملككم يجب علينا طاعته وترك مخالفته فان كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفوهم عليه من هذا المعنى فمضى البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين من وصفنا أحرار غير عبيد والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لاسوان وهي بلاد مريس * قال وأما النوبة فافترقت فرقتين فرقة فى شرق النيل وغربه فأناخت على شاطئه واتصلت ديارها بديار القبط من أرض صعيد مصر واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة والفرقة الاخرى من النوبة يقال لها علوة وبنوا مدينة عظيمة سموها سرقته والبلد المتصل مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس واليه تضاف الريح المريسية وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان قال وفى الجانب الشرقي من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها فاما العمد والقواعد والرؤس التى يسميها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية * وفى ذى الحجة سنة أربع وأربعين وثلثمائة أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور بن الاخشيد في محرم سنة خمس وأربعين فساروا في البر والبحر وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة وسار الخازن حتى فتح مدينة ابريم وسبى أهلها وقدم الى مصر في نصف جمادى الاولى سنة خمس وأربعين بمائة وخمسين أسيرا وعدة رؤس * وقال القاضى الفاضل ان متحصل ثغر أسوان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة بلغ خمسة وعشرين ألف دينار وقال الكمال جعفر الادفوى وكان باسوان ثمانون رسولا من رسل الشرع وتحصل من أسوان في سنة واحدة ثلاثون ألف أردب تمراً وأخبرنا من وقف على مكتوب كان فيه أربعون شريفاً خاصة وان مكتوبا آخر رأى فيه ستين شريفاً دون من عداهم قال ووقفت أنا على مكتوب فيه نحو من أربعين مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة من الهجرة * وكان بثغر أسوان بنو الكنز من ربيعة أمراء ممدوحون مقصودون صنع لهم الفاضل الشديد أبو الحسن بن عرام سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم ومن ورد عليهم

ولما أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا الى كنز الدولة وأصحابه ترحلوا عن البلاد فدخلوا بيوتهم فوجدوا بها قصائد من مدحهم منها قصيدة أبي محمد الحسن ابن الزبير قال فيها

ويجده أن خانه الدهر أو سطا * اناس اذا ما أنجد الذل أتهموا
أجاروا فما تحت الكواكب خائف * وجادوا فما فوق البسيطة معدم

وانه أجازه عليها بألف دينار ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار وكان باسوان رجال من العسكر مستعدون بالاسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك فسار ملك النوبة في عشرة آلاف ونزل تجاه أسوان في جزيرة وأسر من كان فيها من المسلمين ثم تلاشى بعد ذلك امر الثغر واستولى عليه اولاد الكنز من بعد سنة تسعين وسبعمائة فأفسدوا فسادا كبيرا وكانت لهم مع ولاة اسوان عدة حروب الى ان كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة وخرب اقليم الصعيد فارتفعت يد السلطنة عن ثغر اسوان ولم يبق للسلطان في مدينة أسوان وال واتضع حاله عدة سنين ثم زحفت هوارة في محرم سنة خمس عشرة وثمانمائة الى اسوان وحاربت أولاد الكنز وهزموهم وقتلوا كثيرا من الناس وسبوا ماهناك من النساء والاولاد واسترقوا الجميع وهدموا سور مدينة اسوان ومضوا بالسبي وقد تركوها خرابا يبابا لا سكن بها فاستمرت على ذلك بعد ما كانت بحيث يقول عنها عبد الله ابن أحمد بن سليم الاسواني في كتاب أخبار النوبة ان أبا عبد الرحمن عبدالله بن عبدالحميد العمرى لما غلب على المعدن كتب الى اسوان يسأل التجار الخروج اليه بالجهاز من طريق المعدن فخرج اليه رجل يعرف بعثمان بن حيخلة التميمي في ألف راحلة فيها الجهاز والبر * وذكر أن العمرى لما عاد الى بلاد البجه بعد حروبه للنوبة كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم الى عيذاب قال ومما شاهده جماعة من شيوخنا الثقات باسوان بقرية تدعى اساشي هي من اسوان على مرحلتين ونصف انهم رأوا شرقها من جانب النيل قرية بسور وخارج بابها جميزة وناس يدخلون ويخرجون فاذا عبروا الى الموضع لم يجدوا شيئا وهذا يكون في الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس والناس مجمعون على رؤيتها وصحة هذا الخبر وكان بها أنواع من التمر وأنواع من الرطب منها نوع من الرطب أشد ما يكون من خضرة الساق وأمر هرون الرشيد أن يجمع له من ألوان تمر اسوان من كل صنف تمرة واحدة فجمع له ويبة ولا يعرف في الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطبا الا باسوان

(ذكر بلاق)

بلاق أجل حصن للمسلمين وهى جزيرة تقرب من الجنادل محيط بها النيل فيها بلد

كبير يسكنه خلق كثير من الناس وبها نخل عظيم ومنبر في جامع واليها تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من اسوان وبينها وبين القرية التي تعرف بالقصر وهي أول بلد النوبة ميل واحد وبينها وبين اسوان أربعة أميال ومن اسوان الى هذا الموضع جنادل فى البحر لاتسلكها المراكب الا بالحيلة ودلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك وبالقصر مسلحة وباب الى بلد النوبة.

(ذكر حائط العجوز)

هذا الحائط كان حصنا لارض مصر يحدق بجميعها وكان فيه محارس ومسالح ومن ورائه خليج يجري فيه الماء معقود عليه القناطر عملته دلوكة بنت زبا وقد وهي وتلاشي ولم يبق منه الا يسير فى شط النيل الشرقي ينتهي الى اسوان قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم في كتاب فتوح مصر فبقيت مصر بعد غرقهم يعني فرعون وجنوده وليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا وكان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت فى شرف منهن وموضع وهي يومئذ بنت مائة سنة وستين سنة فملكوها فخافت أن يتناولها ملوك الارض فجمعت نساء الاشراف فقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانا لانأمن من أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت في كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم الى بعض بالاجراس فأتاهم الخبر من أى جهة كانت فى ساعة واحدة فنظروا في ذلك فمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه في ستة أشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كبيرة والله أعلم

(ذكر البقط)

البقط مايقبض من سبي النوبة فى كل عام ويحمل الى مصر ضريبة عليهم فان كانت هذه الكلمة عربية فهى اما من قولهم فى الارض بقط من بقل وعشب أى نبذ من مرعي فيكون معناه على هذا نبذة من المال او يكون من قولهم ان فى بني تميم بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ومنه بقط الارض فرقة منها وبقط

الشيء فرقه والبقط أن تعطى الحبة على الثلث او الربع والبقط ايضا ماسقط من التمر اذا قطع فأخطأ المخرف فيكون معناه على هذا بعض مافي ايدي النوبة وكان يؤخذ منهم في قرية يقال لها القصر مسافتها من أسوان خمسة اميال فيما بين بلد بلاق وبلد النوبة وكان القصر فرضة لقوص واول ما تقرر هذا البقط على النوبة في امارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد فتح مصر الى النوبة سنة عشرين وقيل سنة احدى وعشرين في عشرين ألفا فمكث بها زمانا فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع اليه فلما مات عمرو رضي الله عنه نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم و بين عبد الله بن سعد وكثرت سراياهم الى الصعيد فأخربوا وأفسدوا فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو على امارة مصر في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة احدى وثلاثين وحصرهم بمدينة دنقلة حصارا شديدا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرف وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك وطلب ملكهم واسمه قليدوروث الصلح وخرج الى عبد الله وابدى ضعفا ومسكنة وتواضعا فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأسا في كل سنة ووعده عبد الله بحبوب يهديها اليــه لما شكاله قلة الطعام ببلده وكتب لهم كتابا نسخته بعد البسملة عهد من الامير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض اسوان الى حد أرض علوة أن عبــد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيــد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم أن لانحاربكم ولا ننصب لــكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وان عليكم رد كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى أرض الاسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره الى أن ينصرف عنــه وعليكم حفظ المسجد الذي ابتنــاه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها الى امام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكر ان واناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك الى والى اسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لــكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة الى أرض اسوان فان انتم آويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأسا فقــد برئت منكم هذه الهدنة والامان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير

الحاكمين علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم ماتدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة احدى وثلاثين * وكانت النوبة دفعت الى عمرو بن العاص ماصولحوا عليه من البقط قبل نكثهم وأهدوا الى عمرو أربعين رأسا من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية الى كبير البقط ويقال له سمقوس فاشترى له بذلك جهازا وخمرا ووجهه اليه وبعث اليهم عبد الله بن سعد ماوعدهم به من الحبوب قمحا وشعيرا وعدسا وثيابا وخيلا ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة وصارت الاربعون رأسا التي أهديت الى عمرو يأخذها والى مصر وعن أبي خليفة حميد بن هشام البحترى أن الذى صولح عليه النوبة ثلثمائة وستون رأسا لفئ المسلمين ولصاحب مصر أربعون رأسا ويدفع اليهم ألف أردب قمحا ولرسله ثلثمائة اردب ومن الشعير كذلك ومن الخمر الف اقتيز للمتملك ولرسله ثلثمائة اقتيز وفرسين من نتاج خيل الامارة ومن اصناف الثياب مائة ثوب ومن القباطي اربعة أثواب للمتملك ولرسله ثلاثة ومن البقطرية ثمانية أثواب ومن المعلمة خمسة أثواب وجبة مجملة للملك ومن قمص ابى بقطر عشرة أثواب ومن احاص عشرة أثواب وهى ثياب غلاظ قال ابو خليفة ليس في كتاب عبد الله بن وهب ولا في كتاب الواقدى تسمية ينتهى اليها وانما اخذت التسمية من ابي زكريا قال ابو زكريا سمعت والدى عمرو بن صالح يقول هذا الخبر فحفظت منه ماوقفت عليه وقال حضرت مجلس الامير عبد الله بن طاهر وهو على مصر فقال أنت عثمان بن صالح الذى وجهنا اليك في كتاب بقط النوبة قلت نعم فأقبل على محفوظ بن سليمان فقال ما أعجب أمر هذه البلدة وجهنا اليهم نطلب علماً من علومهم والى هذا الشيخ فما شفانا أحد منهم فقلت أصلح الله الامير ان الذي طلبت من خبر النوبة عندى قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك والهدنة والصلح الذى جرى بين عبد الله بن سعد وبين النوبة ثم حدثته عن أخبارهم كما سمعت فأنكر عطية الخمر فقلت قد أنكرها عبد العزيز بن مروان وكان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة احدى عشرة ومائتين بعد أن تم الصلح بينه وبين عبد الله بن السرى بن الحكم التميمي الامير كان قبله قال عثمان بن صالح فوجه الامير الى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر فاستخرج منه خبر النوبة فوجده كما ذكرت فسره ذلك.* وعن مالك بن أنس أنه كان يرى أن أرض النوبة الى حد علوة صالح وكان لا يجيز شراء رقيقهم وكان أصحابه مثل عبد الله بن عبد الحكم وعبد الله بن وهب والليث بن سعد ويزيد بن أبي حبيب وغيرهم من فقهاء مصر يرون خلاف ذلك قال الليث ابن سعد نحن أعرف بأرض النوبة من الامام مالك بن أنس انما صولحوا على أن لا يغزوهم

ولا تمنع منهم عدواً فما استرقه متملكهم أو غزا بعضهم بعضا فشراؤه جائز وما استرقه بغاة المسلمين وسراقهم فغير جائز وكان عند جماعة منهم جوار نوبيات لفرشهم ولم يزل النوبة يؤدون البقط في كل سنة ويدفع اليهم ما تقدم ذكره الى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبي اسحاق بن الرشيد وكبير النوبة يومئذ زكرياء بن بحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ويمنع من اخراج الجهاز اليهم فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكرياء على أبيه بذله الطاعة لغيره واستعجزه فيما يدفع فقال له أبوه فما نشاء قال عصيانهم ومحاربتهم قال أبوه هذا شئ رآه السلف من آبائنا صوابا وأخشى أن يفضى هذا الامر اليك فتقدم على محاربة المسلمين غير اني أوجهك الى ملكهم رسولا فأنت ترى حالنا وحالهم فان رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة والا سألته الاحسان الينا فشخص فيرقي الى بغداد وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن والمحدر بالحداره رئيس البجه بأسبابه ولقيا المعتصم فنظرا الى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداه في طريقهما فقرب المعتصم فيرقي وأدناه وأحسن اليه احسانا تاما وقبل هديته وكافأه بأضعافها وقال له تمن ما شئت فسأله في اطلاق المحبوسين فاجابه الى ذلك وكبر في عين المعتصم ووهب له الدار التي نزلها بالعراق وأمر أن يشتري له في كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم فانه امتنع من دخول دار لاحد في طريقه فأخذ له بمصر دار بالجيزة وأخرى ببني وائل وأجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينار وفرساً وسرجا ولجاما وسيفاً محلى وثوبا مثقلا وعمامة من الخز وقميص شرب ورداء شرب وثيابا لرسله غير محدودة عند وصول البقط الى مصر ولهم حملان وخلع على المتولي لقبض البقط وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرفين معه وما يهدى اليهم بعد ذلك فغير محدود وهو عندهم هدية يجازون عليها ونظر المعتصم الى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط وأنكر عطية الخمر وأجرى الحبوب والثياب التى تقدم ذكرها وقرر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين وكتب لهم كتابا بذلك بقي في يد النوبة وادعى النوبى على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكا من عبيده فأمر المعتصم بالنظر في ذلك فأحضر والى البلد والمختار للحكم فيه التابعين من النوبة وسألاهم عما ادعاه صاحبهم من بيعهم فأنكروا ذلك وقالوا نحن رعية فزال ما ادعاه وطلب أشياء غير ذلك من ازالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها الى الحد الذي بينهم وبين المسلمين لان المسلحة على أرضهم فلم يجبه الى ذلك ولم يزل الرسم جاريا بدفع البقط على هذا التقرير ويدفع اليهم ما أجراه المعتصم الى أن قدمت الدولة الفاطمية الى مصر ذكر ذلك مؤرخ النوبة وقال أبو الحسن المسعودي والبقط هو مايقبض من النبي في كل سنة ويحمل الى مصر ضريبة عليهم وهو ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأسا

لبيت المال بشرط الهدنة بين النوبة والمسلمين وللامير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأساً وخليفته المقيم باسوان وهو المتولى لقبض البقط عشرون رأساً وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة أرؤس ولاثني عشر شاهدا عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي على حسب ما جري به الرسم في صدر الاسلام في بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة وقال البلادري فى كتاب الفتوحات ان المقرر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاما أي غلة وألزمهم أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبي جعفر المنصور ثلثمائة وستين رأسا وزرافة وفي سنة أربع وسبعين وستمائة كثر خبث داود متملك النوبة وأقبل الى أن قرب من مدينة أسوان وحرق عدة سواق بعد ما أفسد بعيذاب فمضى اليه والى قوص فلم يدركه وقبض على صاحب الخيل فى عدة من النوبة وحملهم الى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بقلعة الجبل فوسطهم وقدم سكندة ابن أخت متملك النوبة متظلما من خاله داود فجرد السلطان معه الامير شمس الدين آق سنقر الفارقاني الاستادار والامير عز الدين ايبك الافرم وأمير جاندار في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات وعربان الوجه القبلي والزراقين والرماة ورجال الحراريق فساروا في أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا الى أرض النوبة فخرجوا الى لقائهم على النجب بأيديهم الحراب وعليهم دكا دك سود فاقتتل الفريقان قتالا كبيرا انهزم فيه النوبة وأغار الافرم على قلعة الدر وقتل وسبى وأوغل الفارقاني فى أرض النوبة برا وبحرا يقتل ويأسر فحاز من المواشي مالا يعد ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ونفر المراكب من الجنادل ففر النوبة الى الجزائر وكتب لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أمانا فحلف لسكندة على الطاعة وأحضر رجال المريس ومن فر وخاض الافرم الى برج في الماء وحصره حتى أخذه وقتل به مائتين وأسر أخا لداود فهرب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام وهم يقتلون ويأسرون حتى أذعن القوم وأسرت أم داود وأخته ولم يقدر على داود فتقرر سكندة عوضه وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من اناثها ومائة نجيب أصهب وأربعمائة رأس من البقر المنتجة على أن تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجنادل فانها كلها للسلطان لقربها من أسوان وهى نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية فيدفع كل بالغ منهم في السنة دينارا عيناً وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة ونسخة يمين أخرى حلفت عليها الرعية وخرب الاميران كنائس النوبة وأخذ ما فيها وقبض على نحو عشرين أميرا من أمراء النوبة وأفرج عمن كان بأيدى

التوبة من أهل أسوان وعيذاب من المسلمين في أسرهم وألبس سكندة تاج الملك وأقعد على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب الي السلطان مع البقط القديم وهو أربعمائة رأس من الرقيق في كل سنة وزرافة من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة وستون رأسا ولنائبه بمصر أربعون رأسا على أن يطلق لهم اذا وصلوا بالبقط تاما من القمح ألف أردب لمتملكهم وثلثمائة أردب لرسله

ذكر صحراء عيذاب

اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون الى مكة شرفها الله تعالى الا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الي عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب الى جدة ساحل مكة وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر الى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء الي قوص ومنها يردون مدينة مصر فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى ان كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها أحد الى أن يأخذها صاحبها فلم تزل مسلكا للحجاج في ذهابهم وايابهم زيادة على مائتى سنة من اعوام بضع وخمسين وأربعمائة الى أعوام بضع وستين وستمائة وذلك منذ كانت الشدة العظمى في أيام الخليفة المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر وانقطاع الحج في البر الى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحا ثم اخرج قافلة الحاج من البر في سنة ست وستين وستمائة فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة وتلاشى امر قوص من حينئذ وهذه الصحراء مسافتها من قوص الى عيذاب سبعة عشر يوما ويفقد فيها الماء ثلاثة ايام متوالية وتارة يفقد اربعة ايام وعيذاب مدينة على ساحل بحر جدة وهي غير مسورة واكثر بيوتها اخصاص وكانت من اعظم مراسى الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن الى ان كانت اعوام بضع وعشرين وثمانمائة فصارت جدة أعظم مرامي الدنيا وكذلك هرمز فانها مرسى جليل وعيذاب في صحراء لانبات فيها وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء وكان لاهلها من الحجاج والتجار فوائد لاتحصى وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التي تحملهم في البحر الى جدة ومن جدة الى عيذاب فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم ولم يكن في أهل عيذاب الا من له جلبة فاكثر على قدر يساره وفي

وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها تخرج اليه الغواصون فى وقت معين من كل سنة فى الزوارق حتى يوافوه بتلك الجزائر فيقيمون هنالك أياما ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ والمغاص فيها قريب القعر وعيش أهل عيذاب عيش البهائم وهم أقرب الي الوحش فى أخلاقهم من الانس وكان الحجاج يجدون في ركوبهم الجلاب على البحر أهوالا عظيمة لان الرياح تلقيهم في الغالب بمراس فى صحارى بعيدة مما يلى الجنوب فينزل اليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال ويسلكون بهم على غير ماء فربما هلك أكثرهم عطشا وأخذ التجار ما كان معهم ومنهم من يضل ويهلك عطشا والذى يسلم منهم يدخل الى عيذاب كأنه نشر من كفن قد استحالت هيآتهم وتغيرت صفاتهم وا كثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ومنهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب وهو الاقل وجلباتهم التي تحمل الحجاج في البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة انما يخيط خشبها بالقنبار وهو متخذ من شجر النارجيل ويخللونها بدسر من عيدان النخل ثم يسقونها بسمن أودهن الخروع أو دهن القرش وهو حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى وقلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل ولاهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت فانهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتي يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الاجرة ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر بل يقولون دائما علينا بالالواح وعلى الحجاج بالارواح وأهل عيذاب من البجاة ولهم ملك منهم وبهاوال من قبل سلطان مصر وأدركت قاضيها عندنا بالقاهرة أسود اللون والبجاة قوم لادين لهم ولا عقل ورجالهم ونساؤهم أبدا عراة وعلى عوراتهم خرق وكثير منهم لايسترون عوراتهم وعيذاب حرها شديد بسموم محرق

﴿ ذكر مدينة الاقصر ﴾

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة يقال ان اهلها المريس ومنها الحمير المريسية

﴿ ذكر البلينا ﴾

هذه (٢) وذكر الكمال الادفوى أنه وقع بين أهل البلاد ووالى قوص فتوجهوا الى القاهرة وصرفوه وولى غيره وطلع الخطيب بالبلينا صحبته وكان اقطاعه ارمنت فلما وصل اليها أضافه أهلها بستين منسفا من طعام اللبن فقال للخطيب فى بلادكم مثل هذا فقال الخطيب وحلوى فلما وصل الى اخميم تقدم الخطيب الى البلينا فعند ما وصل الوالى اليها أخرجوا له ستين منسفا حلوى وستين منسفا شواء قال وبعض الحكام بها في عيد من الاعياد امتدحه من أهلها خمسة وعشرون شاعرا وفيها من لا يرضي بمدح القاضي وفيها من تقصر رتبته عن ذلك قال وكان فيها عدة مسابك للسكر ويوصف أهلها بالمكارم

(ذكر سمهود)

هـذه المدينة بالجانب الغربي من النيل قال الادفوى كان بسمهود سبعة عشر حجرا لاعتصار قصب السكر ويقال أن الفار لايدخل قصبها

(ذكر ارجنوس)

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا بها كنيسة بظاهرها فيها بئر يقال لهابئرسيرس صغيرة لها عيديعمل في اليوم الخامس والعشرين من بشنس أحد شهور القبط فيفور بها المـاء عند مضى ست ساعات من النهـار حتي يطفو ثم يعود الى ماكان عليـه ويستدل النصارى على زيادة النيل في كل سنة بقدر ماعلا المـاء من الارض فيزعمون أن الامر في النيل وزيادته يكون موافقا لذلك

(ذكر ابوبط)

هذه المدينةأيضا من جملة البهنساوية كان بها منارة محكمة البناء اذا هزها الرجل تحركت يمينا وشمالا فيرى ميلها رؤية ظاهرة بانتقال ظلها عن موضعه

(ذكر ملوى)

هذه المدينة بالجانب الغربي من النيل وأرضها معروفة بزراعة قصب السكر وكان بهـا عدة أحجار لاعتصاره وآخر من كان بها أولاد فضيل بلغت زراعتهم في أيام الناصر محمد بن قلاون ألفا وخمسمائة فـدان من القصب في كل سنة فأوقع النشو ناظر الخاص الحوطة على موجودهم في سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة فوجد من جملة مالهم أربعة عشر ألف قنطار من القند حملها الى دار القند بمصر سوى العسل وألزمهم بحمل ثمانية آلاف قنطار بعد ذلك وافرج عنهم فوجدوا لهم حاصلا لم يهتد له النشوفيه عشرة آلاف قنطار قنـد سوى مالهم من عبيد وغلال وغير ذلك

(ذكر مدينة انصنا)

اعلم أن مدينة انصنا احدي مدائن صعيد مصر القديمة وفيها عدة عجائب منها الملعب ويقال انه كان مقياس النيل وانه من بنـاء دلوكة أحد من ملك مصر وكان كالطيلسان وفي دائره عمد على عدة أيام السنة الشمسية كلها من الصوان الاحمر الماتع ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة انسان وكان ماء النيل يدخل الى هذا الملعب من فوهة عند زيادة المـاء فاذا بلغ ماء النيل الحد الذي كان اذ ذاك يحصل منه رى أرض مصر وكفايتها جلس الملك عند ذلك في مشرف له وصـعد القوم من خواصه الى رؤس الاعمدة المذكورة فيتعادون عليها مابين ذاهب وآت ويتساقطون من الاعمدة الى الملعب وهو ممتلئ بالماء قال ابو عبيد البكري أنصنا بفتح أوله واسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف كورة من كور مصر معروفة

منها كانت سرية النبي صلى الله عليه وسلم ام ابنه ابراهيم من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة ويقال ان سحرة فرعون كانوا منها وأنه جلبهم منها يوم الموعد للقاء موسى عليه السلام ويقال ان التمساح لا يضر بساحل انصنا لطلاسم وضعت بها وانه اذا حاذى برهـا انقلب على ظهره حتى يجاوزها ويقال ان الذى بني مدينة انصنا اشمون بن مصرايم بن بيصر ابن حام بن نوح وهى واقعة في شرقى النيل وكانت حسنة البساتين والمتنزهات كثيرة الثمار والفواكه وهي الآن خراب وقال ابو حنيفة الدينورى ولا ينبت البنج الا بانصنا وهو عود ينشر منه ألواح للسفن وربما أرعفت ناشرها ويباع الألوح منها بخمسين دينارا ونحوها واذا شد لوح منها بلوح وطرح في الماء سنة أيام صارا لوحا واحدا وكان لانصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعل على كل مركب منحدر في النيل جزأ من حمل صخره الى القاهرة فنقل باسره اليها

(ذكر القيس)

اعلم أن القيس من البلاد التى تجاور مدينة البهنسا وكان يقال القيس والبهنسا قال ابن عبد الحكم بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث الى الصعيد فسار حتي اتى القيس فنزل بهـا فسميت به وقال ابن يونس قيس بن الحارث المرادى ثم الكعبي شهد فتح مصر يروى عن عمر بن الخطاب وكان يفتى الناس في زمانه روى عنه سويد بن قيس وقيل شديد بن قيس ابن ثعلبة وروى عنه عسكر بن سوادة وهو الذى فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بالقيس فنسبت اليه وقال ابن الكندى ولهم ثياب الصوف واكسية المرعز وليس هى بالدنيـا الا بمصر وذكر بعض أهل مصر أن معاوية بن أبي سفيان لما كبر كان لا يدفأ فاجتمعوا أنه لا يدفيه الا الاكسية تعمل بمصر من صوفها المرعز العسلي اللين المصبوغ فعمل له منها عدد فما احتاج منهـا الا الى واحد ولهم طراز القيس والبهنسا في الستور والمضارب يعرفون به ومنه طراز أهل الدنيـا * وظهر بها بالقرب من البهنسا سرب فى أيام السلطـان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فأمر متولى البهنساوية بكشفـه فجمع له أهل المعرفة بالعـوم والغطس فكانوا ما ينيف على مائتي رجل ما فيهم الا من نزل السرب فلم يجـد له قرارا ولا جوانب فأمر بعمل مركب طويل رقيق بحيث يمكن ادخاله من رأس السرب وشحنه بالازواد والرجال وركب فيه حبالا مربوطة فى خوازيق عند رأس السرب وحمل مع الرجال آلات يعرفون بها أوقات الليل والنهار وعدة شموع وغيرها مما تستخرج به النار وتشعل به وأمرهم أن يسلكوا بالمركب في السرب حتى ينفد نصف مامعهم من الزاد فساروا بالمركب في ظلمة وهم يرخون الحبال ولا يجدون لما هم سائرون فيه من الماء جوانب فما زالوا حتي قلت ازوادهم فأبطلوا حركة المركب بالمجاذيف الى داخل السرب

وجروا الحبال ليرجعوا الى حيث دخلوا حتى انتهوا الى رأس السرب فكانت مدة غيبتهم في السرب ستة أيام أربعة منها دخولا الى جوفه وتطواف جوانبه ويومان رجوعا الى رأس السرب ولم يقفوا في هـذه المدة على نهاية السرب فكتب بذلك الامير علاء الدين الطنبغا والى البهنسا الى الملك الكامل فتعجب عجبا كثيرا واشتغل عن ذلك بمحاربة الفرنج على دمياط فلما رحلوا عن دمياط وعادوا الى القاهرة خرج بعد ذلك حتى شاهد السرب المذكور

﴿ ذكر دروط بلهاسة ﴾

اعلم أن دروط وهى بفتح الدال المهملة وضم الراء وسكون الواو وطاء اسم لثلاث قرى دروط أشموم من الاشمونين ودروط سربان من الاشمونين أيضا ودروط بلهاسة من ناحية البهنسا بالصعيد وبها جامع إنشاء زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكي ومات في المحرم سنة احدى وتسعين ومائة فدفن به وقال فيه الشاعر

حلف الجود حلفة بر فيها * مابرا الله واحدا كزياد
كان غيثا لمصر اذ كان حيا * وأمانا من السنين الشداد

ومات أخوه ابراهيم بن المغيرة سنة سبع وتسعين ومائة فقال الشاعر فيه

ابن المغيرة ابراهيم من ذهب * يزداد حسنا على طول الدهارير
لو كان يملك مافى الارض عجله * الى العفاة ولم يهمم بتأخير

ومات أحمد بن زياد بن المغيرة في المحرم سنة ست وثلاثين ومائتين فقال الشاعر فيه

أحمد مات ماجدا مفقودا * ولقد كان أحمد محمودا
ورث المجد عن أب ثم عم * مثله ليس بعده موجودا

﴿ ذكر سكر ﴾

هي من الاطفيحية تجاهها وادبه الى وقتنا هذا شكل جمل من الحجر كأكبر مايرى من الجمال وأحسنها هيئة وهو قائم على أربعة وقد استقبل بوجهه المشرق وعلى فخذه الايمن كتابة بقلمهم وهي أحرف مقطعة في ثلاثة أسطر ثم على نحو مائة وخمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء ووجهه الى وجه الجمل الاول وليس عليه كتابة وفيما بين الجملين المذكورين هيئة أعدال قد ملئت قماشا عدتها أربعون زكيبة موضوعة بالارض عشرين تجاه عشرين وجميعها من حجارة ولا يشك من رآها انها أحمال قماش وبعد مائة وخمسين خطوة منها جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين وهو أيضا قائم وظهره الى ظهر الجمل الثاني ووجهه الى الجبل وهناك آخر الوادي وليس على هذا الجمل أيضا كتابة أخبرني بذلك من لا أتهم روايته

(ذكر منية الخصيب)

هـذه المدينة تنسب الى الخصيب بن عبـد الحميد صاحب خراج مصر من قبل أمير

المؤمنين هرون الرشيد

(ذكر منية الناسك)

هي بلدة من جملة الاطفيحية عرفت بالناسك أخى الوزير بهرام الارمني في أيام الخليفة الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن محمد ولي من قبل أخيه مدينة قوص سنة تسع وعشرين وخمسمائة وولاية قوص يومئذ أجل ولايات مصر فجار على المسلمين واشتد عسفه واذاه لهم فعندما وصل الخبر بقيام رضوان بن ولخشي على بهرام وهزيمته منه وتقلده الوزارة بعده ثار أهل قوص بالناسك في جمادى الآخرة سنة احدى وثلاثين وخمسمائة وقتلوه وربطوا كلبا ميتا في رجله وسحبوه حتى ألقوه على مزبلة وكان نصرانيا

(ذكر الجيزة)

قال ابن سيده الجيزة الناحية والجانب وجمعها جيز وجيز والجيز جانب الوادي وقد يقال فيه الجيزة واعلم أن الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربي تجاه مدينة فسطاط مصر لها في كل يوم أحد سوق عظيم يجيء اليه من النواحي أصناف كثيرة جدا ويجتمع فيه عالم عظيم وبها عدة مساجد جامعة * وقد روى الحافظ أبو بكر بن ثابت الخطيب من حديث نبيط بن شريط قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيزة روضة من رياض الجنة ومصر خزائن الله في أرضه ويقال ان مسجد التوبة الذي بالجيزة كان فيه تابوت موسى عليه السلام الذى قذفته أمه فيه بالنيل وبها النخلة التي أرضعت مريم تحتها عيسى فلم يثمر غيرها* وقال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب فاستحبت همدان ومن والاها الجيزة فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يعلمه بما صنع الله للمسلمين وما فتح عليهم وما فعلوا في خططهم وما استحبت همدان من النزول بالجيزة فكتب اليه عمر يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له كيف رضيت أن تفرق أصحابك لم يكن ينبغي لك أن ترضى لاحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر ولا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا وأعجبهم موضعهم بالجيزة ومن والاهم على ذلك من رهطهم يافع وغيرها وأحبوا ما هنالك فبني لهم عمرو بن العاص الحصن في الجيزة في سنة احدى وعشرين وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين ويقال ان عمرو بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا الى الفسطاط قالوا مقدم قدمناه في سبيل الله ما كنا لنرحل منه الى غيره فنزلت يافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب وهمدان وذو اصبح فيهم أبو شمر بن ابرهة وطائفة من الحجر * وقال القضاعي ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل الفسطاط جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك

الناحية فجعل فيها آل ذى أصبح من حمير وهم كثير ويافع بن زيد من رعين وجعل فيها همدان وجعل فيها طائفة من الازديين بني الحجر بن الهبو بن الازد وطائفة من الحبشة وديوانهم في الازد فلما استقر عمرو في الفسطاط أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا اليه فكرهوا ذلك وقالوا هـذا مقدم قدمناه في سبيل الله وأقمنا به ما كنا بالذين نرغب عنـه ونحن به منذ أشهر فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بذلك يخبره أن همدان وآل ذى أصبح ويافعا ومن كان معهم أحبوا المقام بالجيزة فكتب اليه كيف رضيت أن تفرق عنك اصحابك وتجعل بينك وبينهم بحرا لاتدرى مايفجأهم فلعلك لاتقدر على غيـاثهم فاجمعهم اليك ولا تفرقهـم فان أبوا وأعجبهم مكانهم فابن عليهم حصنا من فيء المسلمين فجمعهم عمرو وأخـبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجيزة فأمر عمرو ببناء الحصن عليهـم فكرهوا ذلك وقالوا لاحصن احصن لنا من سيوفنا وكرهت ذلك همدان ويافع فأقرع عمرو بينهم فوقعت القرعة على يافع فبني فيهم الحصن في سـنة احدى وعشرين وفرغ من بنائه في سنة اثنتين وعشرين وأمرهم عمرو بالخطط بها فاختط ذو أصبح من حمير من الشرق ومضوا الى الغرب حتى بلغوا أرض الحرث والزرع وكرهوا أن يبني الحصن فيهـم واختط يافع بن الحرث من رعين بوسط الجيزة وبني الحصن في خططهم وخرجت طائفة منهم عن الحصن انفة منه واختطت بكيل بن جشم بن نوف من همدان في مهب الجنوب من الجيزة في شرقيها واختطت حاشد بن جشم بن نوف في مهب الشمال من الجيزة في غربيها واختطت الجياوية بنو عامر بن بكيل في قبلي الجيزة واختطت بنو حجر بن ارحب بن بكيل في قبلي الجيزة واختط بنو كعب بن مالك بن الحجر بن الهبـو بن الازد فيما بين بكيل ويافع والحبشة اختطوا على الشارع الاعظم والمسجد الجامع بالجيزة بناه محمد بن عبد الله الخازن في المحرم سـنة خمسين وثلثمائة بأمر الامير على بن الاخشيد فتقدم كافور الى الخازن ببنائه وعمل له مستغلا وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة في مسجد همدان وهو مسجد مراحق بن عامر بن بكيل كان يجمع فيـه الجمعة في الجيزة وشارف بناء هذا الجامع مع الخازن أبو الحسن بن أبي جعفر الطحاوى واحتاجوا الى عمد للجامع فمضى الخازن في الليل الى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمـدها ونصب بدلها أركانا وحمل العمد الى الجامع فترك أبو الحسن بن الطحاوى الصلاة فيـه مذ ذاك تورعا قال اليمني وقد كان ابن الطحاوى يصلي في جامع الفسطاط العتيق وبعض عمـده أو أكثرها ورخامه من كنائس الاسكندرية وأرياف مصر وبعضه بناه قرة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك ويقـال ان بالجيزة قبر كعب الاحبـار وانه كان بها أحجار ورخام قد صورت فيها التماسيح فكانت لاتظهر فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة منع الملك الناصر محمد بن قلاون الوزير أن يتعرض الى شئ مما يحصل من مال الجيزة فصار جميعه يحمل اليه

ذكر سجن يوسف عليه السلام

قال القضاعي سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن به المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين وكان الوحي ينزل عليه فيه وسطح السجن موضع معروف باجابة الدعاء يذكر أن كافور الاخشيدي سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف باجابة الدعاء ليدعو فيه فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن والنبي الآخر موسي عليه السلام وقد بني على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى أخبرنا أبو الحسن علي بن ابراهيم الشرفي بالشرف قال حدثنا أبو محمد عبد الله بن الورد وكان قد هلكت أخته وورث منها موروثا وكنا نسمع عليه دائما وكان لسجن يوسف وقت يمضي الناس اليه يتفرجون فقال لنا يوما يا أصحابنا هذا أوان السجن ونريد أن تذهب اليه وأخرج عشرة دنانير فناولها لاصحابه وقال لهم ما اشتهيتموه فاشتروه فمضى أصحاب الحديث واشتروا ما أرادوا وعدينا يوم أحد الجيزة كلنا وبتنا في مسجد همدان فلما كان الصباح مشينا حتي جئنا الى مسجد موسى وهو الذى في السهل ومنه يطلع الى السجن وبينه وبين السجن تل عظيم من الرمل فقال الشيخ من يحملني ويطلع بي الى هذا السجن حتى أحدثه بحديث لا أحدثه لاحد بعده حتي تفارق روحي الدنيا قال الشرفي فأخذت الشيخ وحملته حتي صرت فى أعلاه فنزل وقال معك ورقة قلت لا قال أبصر لى بلاطة فأخذ فحمة وكتب حدثني يحيي بن أيوب عن يحيي بن بكير عن زيد بن أسلم ابن يسار عن ابن عباس قال ان جبريل أتى الى يوسف في هذا السجن في هذا البيت المظلم فقال له يوسف من أنت الذي مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجها منك فقال له أنا جبريل فبكي يوسف فقال ما يبكيك يا نبي الله فقال ايش يعمل جبريل في مقام المذنبين فقال أما علمت أن الله تعالى يطهر البقاع بالانبياء والله لقد طهر الله بك السجن وما حوله فما أقام الى آخر النهار حتى أخرج من السجن قال القضاعي سقط بين يحيي وزيد رجل وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى وذكر سجن يوسف لو سافر الرجل من العراق ليصلي فيه وينظر اليه لما عنفته في سفره وقال الفقيه أبو اسحاق المروزى لو سافر الرجل من العراق لينظر اليه ما عنفته * وذكر المسيحي في حوادث شهر ربيع الاول سنة خمس عشرة وأربعمائة ان العامة والسوقة طافت الاسواق بمصر بالطبول والبوقات يجمعون من التجار وأرباب الاسواق ماينفقونه في مضيهم الي سجن يوسف فقال لهم التجار شغلنا بعدم الاقوات يمنعنا من هذا وكان قد اشتد الغلاء وأنهوا حالهم الي الحضرة المطهرة

يعني أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله فرسم لنائب الدولة أبي طاهر بن كافي متولى الشرطة السفلى الترسيم على التجار حتي يدفعوا اليهم ماجرت به رسومهم ورسم لهم بالخروج الى سجن يوسف ووعدوا أن يطلق لهم من الحضرة ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية من الهبة فخرجوا وفى يوم السبت لتسع خلون من جمادى الاولى ركب القائد الاجل عز الدولة وسناها معضاد الخادم الاسود فى سائر الاتراك ووجوه القواد وشق البلد ونزل الى الصناعة التى بالجسر بمن معه ثم خرج من هناك وعدى في سائر عساكره الى الجيزة حتي رتب لامير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه لانه عدى يوم الاثنين لاحدى عشرة خلت منه فى أربع عشاريات وأربع عشرة بغلة من بغال النقل وفي جميع من معه من خاصته وحرمه الي سجن يوسف عليه السلام وأقام هناك يومين وليلتين الي أن عاد الرمادية الخارجون الي السجن بالتماثيل والمضاحك والحكايات والسماجات فضحك منهم واستظرفهم وعاد الى قصره بكرة يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت منه وأقام أهل الاسواق نحو الاسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل ويطلعون الى القاهرة بذلك ليشاهدهم أمير المؤمنين ويعودون ومعهم سجل قد كتب لهم أن لا يعارض أحد منهم في ذهابه وعوده وأن يعتمد اكرامهم وصيانتهم ولم يزالوا على ذلك الى أن تكامل جميعهم وكان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لاربع عشرة بقيت من جمادي الاولى وشقوا الشوارع بالحكايات والسماجات والتماثيل فتعطل الناس في ذلك اليوم عن أشغالهم ومعايشهم واجتمع في الاسواق خلق كثير لنظرهم وظل الناس اكثر هذا اليوم على ذلك وأطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم وكانوا اثنى عشر سوقا ونزلوا مسرورين وبخارج مدينة الجيزة موضع يعرف بأبي هريرة فيظن من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابي وليس كذلك بل هو منسوب الى ابن ابنته

(ذكر قرية ترسا)

قال القضاعى وذكر ان القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر بني فى الجيزة قرية تعرف بترسا والقاسم هذا خرج الى مصر وولى خلافة عن ابيه عبيد الله بن الحبحاب السلولى على الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك ثم امره هشام على خراج مصر حين خرج ابوه الى امارة افريقية في سنة ست عشرة ومائة فلم يزل الى سنة اربع وعشرين ومائة فنزع عن مصر وجمع لحفص بن الوليد عربها وعجمها فصار يلى الخراج والصلاة معا وبترسا هذه كانت وقعة هرون بن محمد الجعدى

(ذكر منية أندونة)

هى احدى قرى الجيزة عرفت بأندونة كاتب احمد المدايني الذى كان يتقلد ضياع موسى

ابن بغا التي بمصر فقبض احمد بن طولون علي اندونة هذا وكان نصرانيا فأخذ منه خمسين ألف دينار

(ذكر وسيم)

قال ابن عبد الحكم وخرج عبدالله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر الي وسيم وكانت لرجل من القبط فسأل عبد الله أن يأتيه الي منزله ويجعل له مائة ألف دينار فخرج اليه عبد الله بن عبد الملك وقيل انما خرج عبد الله الي قرية أبي النمرس مع رجل من الكتاب يقال له ابن حنظلة فأتى عبد الله العزل وولاية قرة بن شريك وهو هناك فلما بلغه ذلك قام ليلبس سراويله فلبسه منكوسا وقيل ان عبد الله لما بلغه العزل رد المال على صاحبه وقال قد عزلنا وكان عبد الله قد ركب معه الي المعدية وعدى أصحابه قبله وتأخر فورد الكتاب بعزله فقال صاحب المال والله لا بد أن تشرف منزلى وتكون ضيفى وتأكل طعامى ووالله لا عادلى شيء من ذلك ولا أدعك منصرفا فعدى معه

(ذكر منية عقبة)

هذه القرية بالجيزة عرفت بعقبة بن عامر الجهني رضى الله عنه * قال ابن عبدالحكم كتب عقبة بن عامر الي معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما يسأله أرضا يسترفق فيها عند قرية عقبة فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع فقال له مولي له كان عنده أنظر أصلحك الله أرضا صالحة فقال عقبة ليس لنا ذلك ان فى عهدهم شروطاً ستة منها أن لا يؤخذ من أرضهم شيء ولا من نسائهم ولا من أولادهم ولا يزاد عليهم ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم وأنا شاهد لهم بذلك وفى رواية كتب عقبة الى معاوية يسأله نقيعاً فى قرية يبني فيه منازل ومساكن فأمر له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع فقال له مواليه ومن كان عنده أنظر الي أرض تعجبك فاختط فيها وابتن فقال انه ليس لنا ذلك لهم في عهدهم ستة شروط منها أن لا يؤخذ من أرضهم شيء ولا يزاد عليهم ولا يكلفوا غير طاقتهم ولا تؤخذ ذراريهم وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم قال أبو سعيد بن يونس وهذه الارض التى اقتطعها عقبة هى المنية المعروفة بمنية عقبة في جيزة فسطاط مصر * (عقبة بن عامر) بن عيسى بن عمرو بن عدي بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدى ابن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة كذا نسبه أبو عمرو الكندى وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر عقبة بن عامر بن حسن الجهني من جهينة بن زيد بن مسود ابن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وقد اختلف في هذا النسب يكنى أبا حماد وقيل أبا أسد وقيل أبا عمرو وقيل أبا سعاد وقيل أبا الاسود وقال خليفة بن خياط وقتل أبو عامر عقبة بن عامر الجهني يوم النهروان شهيدا وذلك سنة ثمان وثلاثين وهذا غلط منه وفي

كتابه بعد وفي سنة ثمان وخمسين توفى عقبة بن عامر الجهنى قال سكن عقبة بن عامر مصر وكان واليا عليها وابتنى بها دارا وتوفى فى آخر خلافة معاوية روى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وأبو امامة ومسلمة بن مخلد وأما رواته من التابعين فكثير وقال الكندي ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاوية وجمع له صلاتها وخراجها فجعل على شرطته حمادا وكان عقبة قارئا فقيها فرضيا شاعرا له الهجرة والصحبة السابقة وكان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء الذي يقودها في الاسفار وكان صرف عقبة عن مصر بمسلمة ابن مخلد لعشر بقين من ربيع الاول سنة أربعين فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وقال ابن يونس توفى بمصر سنة ثمان وخمسين ودفن في مقبرتها بالمقطم وكان يخضب بالسواد رحمه الله تعالى

﴿ ذكر حلوان ﴾

يقال انها تنسب الي حلوان بن بابليون بن عمرو بن امرئ القيس ملك مصر بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان حلوان هذا بالشام على مقدمة أبرهة ذى المنار أحد التبابعة * قال ابن عبد الحكم وكان الطاعون قد وقع بالفسطاط فخرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط فنزل بحلوان داخلا في الصحراء فى موضع منها يقال له أبو قرقورة وهو رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان وساقها الى نخيله التى غرسها بحلوان فكان ابن خديج يرسل الى عبد العزيز في كل يوم بخبر ما يحدث في البلد من موت وغيره فأرسل اليه ذات يوم رسولا فأتاه فقال له عبد العزيز ما اسمك فقال أبو طالب فثقل ذلك على عبد العزيز وغاظه فقال له عبد العزيز أسألك عن اسمك فتقول أبو طالب ما اسمك فقال مدرك فتفاءل بذلك ومرض فى مخرجه ذلك ومات هنالك فحمل في البحر يراد به الفسطاط حتى تغير فأنزل في بعض خصوص ساحل مريس فغسل فيه وأخرجت من هنالك جنازته وخرج معه بالمجامر فيها العود لما كان قد تغير من ريحه وأوصى عبد العزيز أن يمر بجنازته اذا مات على منزل جناب بن مرثد بن زيد بن هانئ الرعيني صاحب حرسه وكان صديقا له وقد توفى قبل عبد العزيز فمر بجنازته على باب جناب وقد خرج عيال جناب ولبسن السواد ووقفن على الباب صائحات ثم اتبعنه الى المقبرة وكان لنصيب من عبد العزيز ناحية فقدم عليه فى مرضه فاذن له فلما رأي شدة مرضه أنشأ يقول

ونزور سيدنا وسيد غيرنا * ليت التشكي كان بالعواد
لو كان يقبل فدية لفديته * بالمصطفى من طارفي وتلادي

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار واستبشر بذلك آل عبد العزيز وفرحوا به ثم مات * وقال الكندى ووقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين فخرج عبد العزيز بن

مروان منها الى الشرقيــة متنديا فنزل حلوان فأعجبته فاتخــذها وسكنها وجعل بها الحرس والاعوان والشرط فكان عليهــم جناب بن مرثد بحلوان وبني عبــد العزيز بحلوان الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وأحكمها وغرس نخلها وكرمها فقال ابن قيس الرقيات

سقيالحلوان ذى الـكروم وما * صنف من تينــه ومن عنبه

نخــل مواقير بالقناء من الــ * ــبرني يهــتز ثم في سربه

أسود ســكانه الحمــام فما * ينفك غربانه على رطبــه

ولما غرس عبد العزيز نخل حلوان وأطم دخله والجند معه فجعل يطوف فيه ويقف على غروســه ومساقيه فقال يزيد بن عروة الجلي ألا قلت أيها الامير كما قال العبد الصالح ما شاء الله لا قوة الا بالله فقال أذكرتني شكراً يا غلام قل لانيتاس يزيد في عطائه عشرة دنانير * (عبد العزيز) بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبــد شمس بن عبد مناف القرشي الاموى أبو الاصبغ أمه ليلى ابنــة زبان بن الاصبغ الـكندى روى عن أبي هريرة وعقبة بن عامر الجهنى وروى عنه على بن رباح وبحير بن داخرة وعبيدالله ابن مالك الخولانى وكعب بن علقمة ووثقه النسائى وابن سـعد ولما سار أبوه مروان الي مصر بعثه فى جيش الى ايلة ليدخل مصر من تلك الناحية فبعث اليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم زهير بن قيس البلوى فالتى عبد العزيز ببصاق وهي سطح عقبة ايلة فقاتله فانهزم زهير ومن معه فلما غلب مروان على مصر في جمادي الآخرة سنة خمس وستين جعل صلاتها وخراجها الى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شـهرين فقال عبد العزيز يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحــد من بنى أبى فقال له مروان يا بني عمهم باحســانك يكونوا كلهم بنى أبيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم وأوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عينا على غــيره وينقاد قومه اليك وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنساً وجعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وما عليك يا بني أن تكون أميرا بأقصى الارض أليس ذلك أحسن من اغلاق بابك وخمولك فى منزلك وأوصاه عند مخرجه من مصر الي الشام فقال أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأوصيك أن لا تجعل لداعى الله عليك سبيلا فان المؤذن يدعوا الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وأوصيك أن لا تعد النــاس موعدا الا أنفذته لهم وان حملته على الاسنة وأوصيك أن لا تعجل في شئ من الحـكم حتى تستشير فان الله لو أغنى أحدا عن ذلك لاغنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن ذلك بالوحى الذى يأتيه قال الله عز وجل وشاورهم فى الامر * وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة خمس وستين فوليها عبد العزيز على صلاتها وخراجها وتوفى مروان لهلال رمضــان

وبويع ابنه عبد الملك بن مروان فأقر أخاه عبد العزيز ووفد على عبد الملك في سنة سبع وستين وجعل على الحرس والخيل والاعوان جناب بن مرثد الرعيني فاشتد سلطانه وكان الرجل اذا أغاظ لعبد العزيز وخرج تناوله جناب ومن معه فضربوه وحبسوه وعبدالعزيز أول من عرف بمصر فى سنة احدى وسبعين قال يزيد بن أبي حبيب أول من أحدث القعود يوم عرفة في المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مروان * وفى سنة اثنتين وسبعين صرف بعث البحر الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير وجعل عليهم مالك بن شرحبيل الخولاني وهم ثلاثة آلاف رجل فيهم عبد الرحمن بن بحنس مولى ابن ابزى وهو الذي قتل ابن الزبير وخرج الي الاسكندرية فى سنة أربع وسبعين ووفد على أخيه عبد الملك في سنة خمس وسبعين وهدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه من جوانبه كلها في سنة سبع وسبعين وأمر بضرب الدنانير المنقوشة وقال ابن عفير كان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل وكتب عبد الملك اليه أن ينزل له عن ولاية العهد ليعهد الي الوليد وسليمان فأبى ذلك وكتب اليه ان يكن لك ولد فلنا أولاد ويقضى الله ما يشاء فغضب عبد الملك فبعث اليه عبد العزيز بعلى بن رباح يترضاه فلما قدم على عبد الملك استعطفه على أخيه فشكا عبد الملك وقال فرق الله بيني وبينه فلم يزل به علي حتى رضى فقدم علي عبد العزيز فأخبره عن عبد الملك وعن حاله ثم أخبره بدعوته فقال افعل أنا والله مفارقه والله مادعا دعوة قط الا أجيبت وكان عبد العزيز يقول قدمت مصر في امرة مسلمة بن مخلد فتمنيت بها ثلاث أماني فأدركتها تمنيت ولاية مصر وأن أجمع بين امرأتي مسلمة ويحجبنى قيس بن كليب حاجبه فتوفي مسلمة وقدم مصر فوليها وحجبه قيس وتزوج امرأتى مسلمة وتوفى ابنه الاصبغ بن عبد العزيز لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ست وثمانين فمرض عبد العزيز وتوفى ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الاولي سنة ست وثمانين فحمل فى النيل من حلوان الى الفسطاط فدفن بها*وقال ابن أبي مليكة رأيت عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول ألا ليتني لم أك شيئا مذكورا ألا ليتنى كنابتة من الارض أو كراعى ابل فى طرف الحجاز ولما مات لم يوجد له مال ناض الا سبعة آلاف دينار وحلوان والقيسارية وثياب بعضها مرقوع وخيل ورقيق وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ولم يلها في الاسلام قبله أطول ولاية منه * وكان بحلوان في النيل معدية من صوان تعدى بالخيل تحمل فيها الناس وغيرهم من البر الشرقي بحلوان الى البر الغربى فلما كان (٣) وهذا من الاسرار التي في الخليقة فان جميع الاجسام المعدنية كالحديد والنحاس والفضة والرصاص والذهب والقصدير اذا عمل من شئ منها اناء يسع من الماء أكثر من وزنه فانه يعوم على

وجه الماء ويحمل ما يمكنه ولا يغرق وما برح المسافرون في بحر الهند اذا أظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الي معرفة الجهات يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبالغون في ترقيقها جهد المقدرة ثم يعمل في فم السمكة شيء من مغناطيس جيداً ويحك فيها بالمغناطيس فان السمكة اذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها واستدبرت القطب الشمالي وهذا أيضاً من أسرار الخليقة فاذا عرفوا جهتي الجنوب والشمال تبين منهما المشرق والمغرب فان من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال وصار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره فاذا تحددت الجهات الاربع عرفوا مواقع البلاد بها فيقصدون حينئذ جهة الناحية التي يريدونها

﴿ ذكر مدينة العريش ﴾

العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين وأقليم مصر وهي مدينة قديمة من جملة المدائن التي اختطت بعد الطوفان * قال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه عن مصرايم بن بيصر ابن حام بن نوح عليه السلام وكان غلاما مرفهافلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الارض ثم بنى له بعد ذلك في هذا الموضع مدينة وسماها درسان أي باب الجنة فزرعوا وغرسوا الاشجار والجنان من درسان الى البحر فكانت كلها زروعا وجنانا وعمارة * وقال آخر انما سميت بذلك لان بيصر بن حام بن نوح تحمل في ولده وهم أربعة ومعهم أولادهم فكانوا ثلاثين ما بين ذكر وأنثى وقدم ابنه مصر بن بيصر أمامه نحو أرض مصر حتى خرج من حد الشام فتاهوا وسقط مصر في موضع العريش وقد اشتد تعبه ونام فرأى قائلا يبشره بحصوله في أرض ذات خير ودر وملك ونخر فانتبه فزعا فاذا عليه عريش من اطراف الشجر وحوله عيون ماء فحمد الله وسأله أن يجمعه بأبيه واخوته وان يبارك له في أرضه فاستجيب له وقادهم الله اليه فنزلوا في العريش وأقاموا به فأخرج الله لهم من البحر دواب ما بين خيل وحمر وبقر وغنم وابل فساقوها حتى أتوا موضع مدينة منف فنزلوه وبنوا فيه قرية سميت بالقبطية مافة يعني قرية ثلاثين فنمت ذرية بيصر حتى عمروا الارض وزرعوا وكثرت مواشيهم وظهرت لهم المعادن فكان الرجل منهم يستخرج القطعة من الزبرجد يعمل منها مائدة كبيرة ويخرج من الذهب ما تكون القطعة منه مثل الاسطوانة وكالبعير الرابض * وقال ابن سعيد عن البيهقي كان دخول اخوة يوسف وأبويه عليهم السلام عليه بمدينة العريش وهي أول أرض مصر لانه خرج الى تلقيهم حتى نزل المدينة بطرف سلطانه وكان له هناك عرش وهو سرير السلطنة فأجلس أبويه عليه وكانت تلك المدينة تسمى في القديم بمدينة العرش لذلك ثم سمتها العامة مدينة العريش فغلب ذلك عليها ويقال انه كان ليوسف عليه السلام حرس في اطراف أرض مصر من جميع جوانبها فلما أصاب الشام القحط وسارت اخوة

يوسف لتمتار من مصر أقاموا بالعريش وكتب صاحب الحرس الى يوسف ان أولاد يعقوب الكنعاني يريدون البلد لقحط نزل بهم فعمل اخوة يوسف عند ذلك عريشا يستظلون به من الشمس حتى يعود الجواب فسمي الموضع العريش وكتب يوسف بالاذن لهم فكان من شأنهم ماقد ذكر في موضعه ويقال للعرش الج فهذا كما ترى وابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر * وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة طرق عبد الله بن ادريس الجعفرى العريش بمعاونة بني الجراح وأحرقها وأخذ جميع مافيها * وقال القاضي الفاضل وفى جمادي الآخرة سنة سبع وسبعين وخمسمائة ورد الخبر بأن نخل العريش قطع الفرنج أكثره وحملوا جذوعه الى بلادهم وملئت منه ولم يجدوا مخاطبا على ذلك ونقل عن ابن عبد الحكم أن الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى في غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان وأن قول الله تعالى ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون عن هذه المواضع وأن العمارة كانت متصلة منه الى اليمن ولذلك سميت العريش عريشا وقيل انها نهاية التخوم من الشام وان اليه كان ينتهى رعاة ابراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه وانه عليه السلام اتخذ به عريشا كان يجلس فيه حتى تحلب مواشيه بين يديه فسمي العريش من أجل ذلك وقيل ان مالك بن دعر بن حجر بن جذيلة بن لخم كان له أربعة وعشرون ولدا منهم العريش بن مالك وبه سميت العريش لانه نزل بها وبناها مدينة وعن كعب الاحبار أن بالعريش قبور عشرة أنبياء

﴿ ذكر مدينة الفرماء ﴾

قال البكرى الفرماء بفتح أوله وثانيه ممدود على وزن فعلاء وقد يقصر مدينة تلقاء مصر وقال ابن خالويه فى كتاب ليس الفرما هذه سميت بأخى الاسكندر كان يسمي الفرما وكان كافرا وهي قرية أم اسمعيل بن ابراهيم انتهى ويقال اسمه الفرما بن فيلقوس ويقال فيه ابن فليس ويقال بليس وكانت الفرما على شط بحيرة تنيس وكانت مدينة خصباء وبها قبر جالينوس الحكيم وبني بها المتوكل على الله حصنا على البحر تولى بناءه عنبسة بن اسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عند ما بني حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالا عظيما ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس أنفذ الى الفرماء أبرهة بن الصباح فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم فرحل عنهم الى البقارة * وفي سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة نزل الروم عليها فنفر الناس اليهم وقتلوا منهم رجلين ثم نزلوا في جمادى الاولى سنة تسع وأربعين وثلثمائة فخرج اليهم المسلمون وأخذوا منهم مركبا وقتلوا من فيه وأسروا عشرة * وقال اليعقوبي الفرما أول مدن مصر من جهة الشمال وبها أخلاط من الناس وبينها وبين البحر الاخضر ثلاثة أميال * وقال ابن الكندى ومنها الفرما وهى أكثر عجائب وأقدم آثارا ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق الى جزيرة قبرس في البر

فغلب عليها البحر ويقولون انه كان فيما غاب عليه البحر مقطع الرخام الا بلق وان مقطع الابيض بلوبية * وقال يحيى بن عثمان كنت أرابط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون في أخصاص على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله وقال ابن قديد وجه ابن المدبر وكان بتنيس الى الفرما فى هدم أبواب من حجارة شرقى الحصن احتاج أن يعمل منها جيرا فلما قلع منها حجر أو حجران خرج أهل الفرما بالسلاح فنعوا من قامها وقالوا هذه الابواب التي قال الله فيها على لسان يعقوب عليه السلام يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة والفرما بها النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا فيبتدئ هذا الرطب من حين يلد النخل فى الكوانين فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجيء البلح فى الربيع وهذا لايوجد فى بلد من البلدان لا بالبصرة ولا بالحجاز ولا باليمن ولا بغيرها من البلدان ويكون فى هذا البسر ماوزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهما وفيه ماطول البسرة نحو الشبر والفتر * وقال ابن المأمون البطايحي فى حوادث سنة تسع وخمسمائة ووصلت النجابون من والى الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الى أعمال الفرما فسير الافضل بن أمير الجيوش للوقت الى والى الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها وسير الراجل من العطوفية وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم الى العربان بأسرهم بأن يكونوا فى الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر اليهم فاعتمد ذلك ثم أمر باخراج الخيام وتجهيز الاصحاب والحواشى فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان وطاردوا الفرنج وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة اليه وتحقق أن الاقامة لاتمكنه أمر أصحابه بالنهب والتخريب والاحراق وهدم المساجد فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد وعزم على الرحيل فاخذه الله سبحانه وتعالى وعجل بنفسه الى النار فكتم أصحابه موته وساروا بعد أن شقوا بطن بغدوين وملأوه ملحا حتى بقى الى بلاده فدفنوه بها وأما العساكر الاسلامية فانهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان وكتب الى الامير ظهير الدين طغدكين صاحب دمشق بأن يتوجه الى بلاد الفرنج فسار الى عسقلان وحملت اليه الضيافات وطولع بخبر وصوله فأمر بحمل الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والاعلام وسيف ذهب ومنطقة ذهب وطوق ذهب وبدلة طقم وخيمة كبيرة مكملة ومرتبة ملوكية وفرشها وجميع آلاتها وما تحتاج اليه من آلات الفضة وسير برسم شمس الخواص وهو مقدم كبير خلعة مذهبة ومنطقة ذهب وسيف وسير برسم المميزين من الواصلين خلع وسيوف وسلم ذلك بثبت لاحد الحجاب وسير معه فراشان برسم الخيام وأمر بضرب الخيمة الكبيرة وفرشها وأن يركب والى عسقلان وظهير الدين وشمس الخواص وجميع الامراء الواصلين والمقيمين

بعسقلان الى باب الخيمة ويقبلوه ثم الى بساطها والمرتبة المنصوبة ثم يجلس الوالي وظهير الدين وشمس الخواص والمقدمون ويقف الناس بأجمعهم اجلالا وتعظيما ويخلع على الامير ظهير الدين وشمس الخواص وتشد المناطق في أوساطهما ويقلدا بالسيوف ويخلع بعدهما على المميزين ثم يسير ظهير الدين والمقدمون بالتشريف والاعلام والرايات المسيرة اليهم الى أن يصلوا الى الخيام التي ضربت لهم فاذا كان كل يوم يركب الوالي والاميران والمقدمون والعساكر الى الخيمة الملوكية ويتفاوضون فيما يجب من تدبير العساكر فامتثل ذلك وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا فسيرت اليهم الخلع ثانيا وجعل لشمس الخواص خاصة في هذه السفرة عشرة آلاف دينار وتسلم ظهير الدين الخيمة الكبيرة بما فيها وكان تقدير ماحصل له ولاصحابه ثلاثين ألف دينار وبلغ المنفق في هذه النوبة وعلى ذهاب بغدوين وهلاكه مائة ألف دينار * وفي شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة نزل الفرنج على الفرما في جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها وآخر أمرها أن الوزير شاور خربها لماخرج منها متوليها ملهم أخو الضرغام في سنة (٣) فاستمرت خرابا لم تعمر بعد ذلك وكان بالفرما والبقارة والورادة عرب من جذام يقال لهم القاطع وهو جرى بن عوف بن مالك بن شنوءة بن بديل بن جشم بن جذام منهم عبدالعزيز بن الوزير بن صابي بن مالك بن عامر بن عدى ابن حرش بن بقر بن نصر بن القاطع مات في صفر سنة خمس ومائتين وللسروي والجروى هنا أخبار كثيرة نبهنا عليها في كتاب عقد جواهر الاسفاط في أخبار مدينة الفسطاط وقال ابن الكندى وبها مجمع البحرين وهو البرزخ الذى ذكره الله عز وجل فقال مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان وقال وجعل بين البحرين حاجزا وهما بحر الروم وبحر الصين والحاجز بينهما مسيرة ليلة مابين القلزم والفرما وليس يتقاربان في بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع وبينهما في السفر مسيرة شهور

ذكر مدينة القلزم

القلزم بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى وميم بلدة كانت على ساحل بحر اليمن في أقصاه من جهة مصر وهى كورة من كور مصر واليها ينسب بحر القلزم وبالقرب منها غرق فرعون وبينها وبين مدينة مصر ثلاثة أيام وقد خربت ويعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود ولم يكن بالقلزم ماء ولا شجر ولا زرع وانما يحمل الماء اليها من آبار بعيدة وكان بها فرضة مصر والشام ومنها تحمل الحمولات الى الحجاز واليمن ولم يكن بين القلزم وفاران قرية ولا مدينة وهي نخل يسير فيه صيادو السمك وكذلك من فاران وجيلان الى أيلة قال ابن الطوير والبلد المعروف بالقلزم أكثرها باق الى اليوم ويراها الراكب السائر من مصر الى الحجاز

وكانت في القديم ساحلا من سواحل الديار المصرية ورأيت شيئاً من حسابه من جهة مستخدميه في حواصل القصر وما ينفق على واليه وقاضيه وداعيه وخطيبه والاجناد المركزين به لحفظه وقربه وجامعه ومساجده وكان مسكونا مأهولا * قال المسيحي في حوادث سنة سبع وثمانين وثلثمائة وفي شهر رمضان سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أهل مدينة القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب وقال ابن خردادبه عن التجار فيركبون في البحر الغربي ويخرجون بالفرماء ويحملون تجاراتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى تجار جدة ثم يمضون الى السند والهند والصين ومن القلزم ينزل الناس في برية وصحراء ست مراحل الى أيلة ويتزودون من الماء لهذه المراحل الست ويقال ان بين القلزم وبحر الروم ثلاث مراحل وان مابينهما هو البرزخ الذى ذكره الله تعالى بقوله بينهما برزخ لايبغيان

(التيه)

هو أرض بالقرب من أيلة بينهما عقبة لايكاد الراكب يصعدها لصعوبتها الا أنها مهدت في زمان خمارويه بن أحمد بن طولون ويسير الراكب مرحلتين في محض التيه هذا حتى يوافي ساحل بحر فاران حيث كانت مدينة فاران وهناك غرق فرعون والتيه مقدار أربعين فرسخا في مثلها وفيه تاه بنو اسرئيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة ولا أووا الى بيت ولا بدلوا ثوبا وفيه مات موسي عليه السلام ويقال ان طول التيه نحو من ستة أيام واتفق أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين في سنة أثنتين وخمسين وستمائة مر طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم تراأى لهم في اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه فاذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر فدخلوا بها وطافوا بها فاذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طم أسواقها ودورها ووجدوا بها أواني وملابس وكانوا اذا تناولوا منها شيئاً تناثر من طول البلى ووجدوا في صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا عليها صورة غزال وكتابة عبرانية وحفروا موضعا فاذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء أبرد من الثلج ثم خرجوا ومشوا ليلة فاذا بطائفة من العربان فحملوهم الى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة فاذا عليها أنها ضربت في أيام موسى عليه السلام ودفع لهم في كل دينار مائة درهم وقيل لهم ان هذه المدينة الخضراء من مدن بني اسرائيل ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخرى لايراها الاتائه والله أعلم

(ذكر مدينة دمياط)

اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسخا ويقال سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ويقال ان ادريس

عليه السلام كان أول ما أنزل عليه ذو القوة والجبروت أنا الله مدين المدائن الفلك بأمري وصنعي أجمع بين العذب والملح والنار والثلج وذلك بقدرتي ومكنون علمي الدال والميم والالف والطاء قيل هم بالسريانية دمياط فتكون دمياط كلة سريانية أصلها دمط أي القدرة اشارة الى مجمع العذب والملح وقال الاستاذ ابراهيم بن وصيف شاه دمياط بلد قديم بني في زمن قليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصرايم على اسم غلام كانت أمه ساحرة لقليمون * ولما قدم المسلمون الى أرض مصر كان على دمياط رجل من اخوال المقوقس يقال له الهاموك فلما افتتح عمرو بن العاص مصر امتنع الهاموك بدمياط واستعد للحرب فأنفذ اليه عمرو بن العاص المقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فحاربهم الهاموك وقتل ابنه في الحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه أصحابه فاستشارهم في أمره وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال أيها الملك ان جوهر العقل لاقيمة له وما استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لاحد عليهم قدرة ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والرأى أن تعقد مع القوم صلحا تنال به الامن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عارف عاقل وله دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها وبرز الهاموك للحرب فلم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد وقد ملكوه فعند ما رأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور لحق بالمسلمين ومعه عدة من أصحابه ففت ذلك في عضد أبيه واستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واستخلف المقداد عليها وسير بخبر الفتح الى عمرو بن العاص وخرج شطا وقد أسلم الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مددا للمسلمين وعونا لهم على عدوهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس فبرز لاهلها وقاتلهم قتالا شديدا حتى قتل رحمه الله في المعركة شهيدا بعد ما أنكى فيهم وقتل منهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط وكان قتله في ليلة الجمعة النصف من شعبان فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة موسما يجتمع الناس فيها من النواحي عند شطا ويحيونها وهم على ذلك الى اليوم وما زالت دمياط بيد المسلمين الى أن نزل عليها الروم في سنة تسعين من الهجرة فأسروا خالد بن كيسان وكان على البحر هناك وسيروه الى ملك الروم فأنفذه الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك نازل الروم دمياط في ثلثمائة وستين مركبا فقتلوا وسبوا وذلك في سنة احدى وعشرين ومائة ولما كانت الفتنة بين الاخوين محمد الامين وعبد الله المأمون وكانت الفتن بأرض مصر طمع

الروم في البلاد ونازلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملكوها وما فيها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وأهل الذمة فنفر اليهم عنبسة بن اسحاق يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس اليهم فلم يدركوهم ومضى الروم الى تنيس فأقاموا بأشتومها فلم يتبعهم عنبسة فقال يحيي بن الفضيل للمتوكل

أترضى بأن يوطا حريمك عنوة * وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتي دمياط والروم وثب * بتنيس رأى العين منه وأقرب

مقيمون بالاشتوم يبغون مثل ما * أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا ولا درى * من العجز ما يأتي وما يتجنب

فلا تنسنا انا بدار مضيعة * بمصر وان الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط فابتدئ في بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وأنشأ من حينئذ الاسطول بمصر فلما كان في سنة سبع طرق الروم دمياط في نحو مائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الاخشيدي طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة في بضع وعشرين مركبا فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين * وفي سنة ثمان وأربعمائة ظهر بدمياط سمكة عظيمة طولها مائتان وستون ذراعا وعرضها مائة ذراع وكانت حمير الملح تدخل في جوفها موسوقة فتفرغ وتخرج ووقف خمسة رجال في قحفها ومعهم المجاريف يجرفون الشحم ويناولونه الناس وأقام أهل تلك النواحي مدة طويلة يأكلون من لحمها وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى والوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك نزل على دمياط نحو ستين مركبا في جمادي الآخرة سنة خمسين وخمسمائة بعث بها لوجيز بن رجا وصاحب صقلية فعاثوا وقتلوا ونزلوا تنيس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد ثم كانت خلافة العاضد لدين الله في وزارة شاور بن مجير السعدي الوزارة الثانيــة عند ما حضر ملك الفرنج مرى الى القاهرة وحصرها وقرر على أهلها المال واحترقت مدينة الفسطاط فنزل على تنيس وأشموم ومنية غمر وصاحب أسطول الفرنج في عشرين شونة فقتل وأسر وسبي وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد وصل الفرنج الى دمياط في شهر ربيع الاول سنة خمس وستين وخمسمائة وهم فيما يزيد على ألف ومائتي مركب فخرجت العساكر من القاهرة وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوما وكانت صعبة شديدة وانهم في هذه

النوبة عـدة من أعيان المصريين بمالاة الفرنج ومكاتبتهم وقبض عليهم الملك الناصر وقتلهم وكان سبب هذه النوبة أن الغز لما قدموا الى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خشية من تمكن الغز بها فاستمدوا اخوانهم أهـل صقلية فأمدوهم بالاموال والسلاح وبعثوا اليهم بعدة وافرة فساروا بالدبابات والمجانيق ونزلوا على دمياط في صفر وهم في العدة التي ذكرنا من المراكب وأحاطوا بها بحرا وبرا فبعث السلطان بابن أخيه تقى الدين عمرو وأتبعه بالامير شهاب الدين الحازمي في العساكر الى دمياط وأمدها بالاموال والميرة والسلاح واشتد الامر على أهل دمياط وهم ثابتون على محاربة الفرنج فسير صلاح الدين الى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستنجده ويعلمه بأنه لا يمكنه الخروج من القاهرة الى لقاء الفرنج خوفا من قيام المصريين عليه فجهز اليه العساكر شيئا بعد شئ وخرج نور الدين من دمشق بنفسـه الى بلاد الفرنج التي بالساحل وأغار عليهـا واستباحها فبلغ ذلك الفرنج وهم على دمياط فخافوا على بلادهم من نور الدين أن يتمـكن منها فرحلوا عن دمياط في الخامس والعشرين من ربيع الاول بعدما غرق لهم نحو الثلثمائة مركب وقلت رجالهم بفناء وقع فيهم وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها وكان صلاح الدين يقول ما رأيت أكرم من العاضد أرسل الىّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوي ما أرسله الى من الثياب وغيرها * وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة رتبت المقاتلة على البرجين وشدت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ورمشعث سور المدينة وسدت ثلمه وأتقنت السلسلة التي بين البرجين فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار واعتبر السور فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعا * وفى سـنة ثمان وثمانين وخمسمائة أمر السلطان بقطع أشجار بساتين دمياط وحفر خندقها وعمل جسر عند سلسلة البرج * وفى سنة خمس عشرة وستمائة كانت واقعة دمياط العظمى وكان سبب هذه الواقعة أن الفرنج في سنة أربع عشرة وسـتمائة تتابعت أمدادهم من رومية الـكبري مقر البابا ومن غيرها من بلاد الفرنج وساروا الى مدينة عكا فاجتمع بها عدة من ملوك الفرنج وتعاقدوا على قصد القدس وأخذه من أيدى المسلمين فصـاروا بعكا في جمع عظيم وبلغ ذلك الملك أبا بكر بن أيوب فخرج من مصر في العساكر الى الرملة فبرز الفرنج من عكا في جموع عظيمة فسار العادل الى بيسان فقصده الفرنج فخافهم لكثرتهم وقلة عسكره فاخذ على عقبة فيق يريد دمشق وكان أهل بيسان وما حولها قد اطمأنوا لنزول السلطان هناك فاقاموا في أماكنهم وما هو الا أن سار السلطان واذا بالفرنج قد وضعوا السيف فى الناس ونهبوا البلاد فحازوا من أموال المسلمين ما لا يحصى كثرة وأخذوا بيسان وبانياس وسائر القرى التى هنـاك وأقاموا ثلاثة أيام ثم عادوا الي مرج عكا بالغنائم والسبي

وهلك من المسلمين خلق كثير فاستراح الفرنج بالمرج أياما ثم عادوا ثانيا ونهبوا صيدا والشقيف وعادوا الى مرج عكا فاقاموا به وكان ذلك كله فيما بين النصف من شهر رمضان وعيد الفطر والملك العادل مقيم بمرج الصفر وقد سير ابنه المعظم عيسى بعسكر الى نابلس لمنع الفرنج من طروقها والوصول الى بيت المقدس فنازل الفرنج قلعة الطور سبعة عشر يوما ثم عادوا الى عكا وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر وساروا الى دمياط في صفر فنزلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الاول سنة خمس عشرة وستمائة الموافق لثامن حزيران وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على عسكرهم خندقا وأقاموا عليه سورا وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول الى ديار مصر في النيل وذلك أن النيل اذا انتهى الى فسطاط مصر مر عليه في ناحية الشمال الى شطنوف فاذا صار الى شطنوف انقسم قسمين أحدهما يمر فى الشمال الى رشيد فيصب في البحر الملح والشطر الآخر يمر من شطنوف الى جوجر ثم يتفرق من عند جوجر فرقتين فرقة تمر الي أشموم فتصب فى بحيرة تنيس وفرقة تمر من جوجر الى دمياط فتصب فى البحر الملح هناك وتصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط والبر الغربي وهذا البر الغربي من دمياط يعرف بجزيرة دمياط يحيط بها ماء النيل والبحر الملح وفى مدة اقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي وأقاموا أبراجا يزحفون بها فى المراكب الى برج السلسلة ليملكوه فانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة ومصر وكان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة فتحيل الفرنج عليه وعملوا برجا من الصواري على بسطة كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه وقاتلوا من به حتى أخذوه فبلغ نزول الفرنج على دمياط الملك الكامل وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه من العساكر في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الفرنج لخمس خلون منه وأمر والى الغربية بجمع العربان وسار في جمع كبير وخرج الاسطول فأقام تحت دمياط ونزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط وامتدت عساكره الى دمياط لتمنع الفرنج من السور والقتال مستمر والبرج ممتنع مدة أربعة أشهر والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئا بعد شئ حتي تكاملت عند الملك الكامل واهتم الملك لنزول الفرنج على دمياط واشتد خوفه فرحل من مرج الصفر الى عالقين فنزل به المرض ومات في سابع جمادى الآخرة فكتم الملك المعظم عيسى موته وحمله فى محفة وجعل عنده خادما وطبيبا راكبا الي جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الي الخادم فيشربه ويوهم الناس أن السلطان شربه الى أن دخلوا به الي قلعة دمشق وبصارت

اليها الخزائن والبيوتات فأعلن بموته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق وبلغ الملك الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية قرب دمياط. فاستقل بمملكة ديار مصر واشتد الفرنج وألحوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم فى بحر النيل وتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما لمنع الفرنج من عبور النيل فقاتلت الفرنج عليه قتالا شديدا الى أن قطعوه وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار وكان الكامل يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتدبير الامور واعمال الحيلة في مكايدة الفرنج فأمر الملك الكامل أن يفرق عدة من المراكب فى النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل فعمد الفرنج الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى فيه قديما فحفروه وعمقوا حفره وأجروا فيه الماء الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه الى بورة على أرض جيزة دمياط مقابل المنزلة التي بها السلطان ليقاتلوه من هناك فلما صاروا في بورة حاذوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا اليه عدة مرار فلم يظفروا منه بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج وأبواب المدينة مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر والعربان تخطف الفرنج في كل ليلة بحيث امتنعوا من الرقاد خوفا من غاراتهم فلما قوى طمع العرب فى الفرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارا ويأخذون الخيم بمن فيها أكمن الفرنج لهم عدة كمناء وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأدرك الناس الشتاء وهاج البحر على مخيم المسلمين وغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم وألح الفرنج فى القتال وكادوا أن يملكوا فبعث الله ريحا قطعت مراسي مرمة الفرنج وكانت من عجائب الدنيا فمرت الى بر المسلمين فأخذوها فاذا هي مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا وبعث الكامل الى الآفاق سبعين رسولا يستنجد أهل الاسلام لنصرة المسلمين ويخوفهم من غلبة الفرنج على مصر فساروا فى شوال وأتته النجدات من حماه وحلب وبينا الناس فى ذلك اذ طمع الامير عماد الدين أحمد ابن الامير سيف الدين أبي الحسين على بن أحمد الهكارى المعروف بابن المشطوب فى الملك الكامل عند ما بلغه موت الملك العادل وكان له لفيف ينقادون اليه ويطيعونه وكان أميرا كبيرا مقدما عظيما في الاكراد الهكارية وافر الحرمة عند الملوك معدودا بينهم مثل واحد منهم وكان مع ذلك عالي الهمة غزير الجود واسع الكرم شجاعا أبي النفس تهابه الملوك وله الوقائع المشهورة وهو من أمراء دولة صلاح الدين يوسف فاتفق مع جماعة من الجند والاكراد على خلع الملك الكامل واقامة أخيه الملك الفائز ابراهيم ليصير له الحكم ووافقه الامير عز الدين الحميدى والامير أسد الدين الهكارى والامير مجاهد

الدين وجماعة من الامراء فلما بلغ ذلك الملك الكامل دخل عليهم وهم مجتمعون والمصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز فلما رأوه انفضوا فخشى على نفسه فخرج فاتفق وصول الصاحب صفي الدين بن سكر من آمد الى الملك الكامل فانه كان استدعاه بعد موت أبيه فتلقاه وأكرمه وذكر له ما هو فيه فضمن له تحصيل المال فلما كان فى الليل ركب الملك الكامل وتوجه من العادلية فى جريدة الى أشموم طناح فنزلها وأصبح العسكر بغير سلطان فركب كل منهم هواه ولم يعطف الاخ على أخيه وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان فبادر الفرنج في الصباح الى مدينة دمياط ونزلوا البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة بغير منازع ولا مدافع وأخذوا سائر ما كان في عسكر المسلمين وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وداخل السلطان وهم عظيم وكاد أن يفارق البلاد فانه تخيل من جميع من معه واشتد طمع الفرنج في أرض مصر كلها وظنوا أنهم قد ملكوها الا أن الله سبحانه وتعالى أغاث المسلمين وثبت السلطان ووافاه أخوه الملك المعظم بأشموم طناح فاشتد به أزره وقوى جاشه وأطلعه على ما كان من ابن المشطوب فوعده بازاحة ما يكره ثم ان المعظم ركب الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه للركوب معه ومسايرته فاستمهله حتى يلبس خفيه وثياب الركوب فلم يمهله وأعجله فركب معه وسايره حتى خرج به من العسكر الكاملي ثم قال له يا عماد الدين هذه البلاد لك وأشتهى أن تهبها لنا وأعطاه نفقة وسلمه الى جماعة من أصحابه يثق بهم وقال لهم أخرجوه من الرمل ولا تفارقوه حتى يخرج من الشام فلم يسع ابن المشطوب الا امتثال ما قال المعظم لانه معه بمفرده ولا قدرة له على الممانعة فساروا به الى حماه ثم مضى منها الى المشرق ولما شيع الملك المعظم ابن المشطوب رجع الى الملك الكامل وأمر أخاه الفائز ابراهيم أن يسير الى ملوك الشام في رسالة عن أخيه الملك الكامل لاستدعائهم الى قتال الفرنج فمضى الى دمشق وخرج منها الى حماه فمات بها مسموما على ما قيل فثبت للملك الكامل أمر الملك وسكن روعه هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط برا وبحرا وأحدقوا وضيقوا على أهلها ومنعوا القوت من الوصول اليهم وحفروا على عسكرهم المحيط بدمياط خندقا وبنوا عليه سورا وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلة الاقوات ثم ان المعظم فارق الملك الكامل وسار الى بلاد الشام وأقام الكامل لمحاربة الفرنج وانتدب شمائل أحد الجاندارية فى الركاب للدخول الى دمياط فكان يسبح فى الماء ويصل الى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات فحظي بذلك عند الكامل وتقرب منه حتى عمله والى القاهرة واليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة فلم يزل الحال على ذلك الى أن دخلت سنة ست عشرة فجهز الملك المنصور محمد بن عمرو بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ابنه المظفر تقي الدين محمودا الى مصر نجدة لخاله الملك الكامل على الفرنج

فى جيش كثيف فوصل الى العسكر وتلقاه الملك الكامل وأنزله فى ميمنة العسكر منزلة أبيه وجده عند السلطان صلاح الدين يوسف فألح الفرنج فى القتال وكان بدمياط نحو العشرين ألف مقاتل فنهكتهم الامراض وغلت عندهم الاسعار حتي بلغت بيضة الدجاجة عندهم عدة دنانير * قال الحافظ عبد العظيم المنذرى سمعت الشيخ أبا الحسن على بن فضل يقول كان لبعض بني خيار بقرة فذبحوها وباعوها فى الحصار فجاءت ثمانمائة دينار وقال فى المعجم المترجم سمعت الامير أبا بكر بن حسن بن خسويام يقول كنت بدمياط فى حصار العدو بها فبيع السكر بها بمائة وأربعين دينارا الرطل والدجاجة بثلاثين دينارا قال واشتريت ثلاث دجاجات بتسعين دينارا والراوية بأربعين درهما والقبر يحفر بأربعين مثقالا وأخذت أختى جملا فشقت جوفه وملأته دجاجا وفاكهة وبقلا وغير ذلك وخاطته ورمته في البحر وكتبت اليّ تقول قد فعلت كذا فاذا رأيتم جملا ميتاً فخذوه فوقع لنا ليلا فأخذناه وكان فيه ما يساوى جملة ففرقته على الناس ثم عمل بعد ذلك ثلاثة جمال على هيئته ففطن لها الفرنج فأخذوها وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد من الموتى وعدمت الاقوات وصار السكر كعزة الياقوت وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه وآلت بهم الحال الى أن لم يبق بها سوى قليل من القمح والشعير فقط فتسور الفرنج وأخذوا منه البلد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان وكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ولما أخذوا البلد وضعوا السيف في الناس فتجاوزوا الحد فى القتل وأسرفوا في مقدار القتلى وبلغ ذلك السلطان فرحل بعد أخذ دمياط بيومين ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ورأس بحر دمياط وخيم في المنزلة التى صار يقال لها المنصورة وحصن الفرنج أسوار دمياط وجعلوا الجامع كنيسة وبثوا سراياهم في القرى فقتلوا ونهبوا وسير السلطان الكتب الى الآفاق ليستحث الناس على الحضور لدفع الفرنج عن ملك مصر وشرع العسكر في بناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق بمنزلة المنصورة وجهز الفرنج من أسروه من المسلمين في البحر الى عكا وخرجوا من دمياط ونازلوا السلطان تجاه المنصورة وصار بينهم وبينه بحر أشموم وبحر دمياط وكان الفرنج فى مائتي ألف راجل وعشرة آلاف فارس فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة واجتمع الناس من القاهرة ومصر وسائر النواحي من اسوان الى القاهرة ووصل الامير حسام الدين يونس والفقيه تقى الدين أبو الطاهر محمد بن الحسن بن عبد الرحمن المحلى فأخرجا الناس من القاهرة ومصر ونودى بالنفير العام وخرج الامير علاء الدين جلدك وجمال الدين بن صيرم لجمع الناس فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقى فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر وأنزل السلطان على ناحية شارمساح ألف فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على رأس

بحر المحلة وعليها الامير بدر الدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر وسارت عساكر المسلمين من الشرق والشام الى الديار المصرية وكان قد خرج الفرنج من داخل البحر لمدد الفرنج على دمياط فقدم منهم أمم لا تحصي يريدون التوغل في أرض مصر فلما تكاملوا بدمياط خرجوا منها في حدهم وحديدهم ونزلوا تجاه الملك الكامل كما تقدم فقدمت النجدات يقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وأنزلهم عنده بالمنصورة في ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة وتتابع مجيء الملوك حتي بلغت عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاربوا الفرنج في البر والبحر وأخذوا منهم ست شواني وجلاسة وبطسة وأسروا من الفرنج ألفين ومائتين ثم ظفر المسلمون بثلاث قطائع أخر فتضعضع الفرنج لذلك وضاق بهم المقام فبعثوا يطلبون الصلح فقدم عند مجيء رسلهم أهل الاسكندرية في ثمانية آلاف مقاتل وكان الذى طلب الفرنج القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ليرحلوا عن ديار مصر فبذل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد خلا مدينة الكرك والشوبك فامتنع الفرنج من الصلح وقالوا لابد من أخذهم الكرك والشوبك ومبلغ ثلثمائة ألف دينار عوضا عما خربه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس وكان المعظم لما مات أبوه العادل واستولى الفرنج على دمياط ونازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة خاف أن يصل منهم في البحر من يأخذ القدس ويحصنوا به فأمر بتخريب أسواره وكانت أسواره وأبراجه في غاية العظمة والمنعة فأتى الهدم على جميعها ماخلا برج داود وانتقل أكثر الناس من القدس ولم يبق به الا القليل ونقل المعظم ما كان بالقدس من الاسلحة والآلات فامتنع المسلمون من اجابة الفرنج الى ذلك وقاتلوهم وعبر جماعة من المسلمين في بحر المحلة الى الارض التي عليها الفرنج وحفروا مكانا عظيما في النيل وكان في قوة الزيادة فركب الماء أكثر تلك الارض وصار حائلا بين الفرنج ومدينة دمياط وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة فأمر السلطان للوقت بنصب الجسور عند أشموم طناح فعبرت العساكر عليها وملكت الطريق التي يسلكها الفرنج الى دمياط اذا أرادوا الوصول اليها فاضطربوا وضاقت عليهم الارض واتفق مع ذلك وصول مرمة عظيمة للفرنج في البحر حولها عدة حراقات تحميها وقد ملئت كلها بالميرة والأسلحة فقاتلتهم شواني المسلمين وظفرها الله بهم فأخذها المسلمون وعندما علم الفرنج ذلك أيقنوا بالهلاك وصار المسلمون يرمونهم بالنشاب ويحملون على اطرافهم فهدموا حينئذ خيامهم ومجانيقهم وألقوا فيها النار وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم ليتخلصوا الى دمياط فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه الراكبة على الارض وخشوا من الاقامة لقلة أقواتهم فذلوا وسألوا

الامان على أن يتركوا دمياط للمسلمين فاستشار السلطان فى ذلك فاختلف الناس عليه فمنهم من امتنع من تأمين الفرنج ورأى أن يؤخذوا عنوة ومنهم من جنح الى اعطائهم الامان خوفا ممن وراءهم من الفرنج في الجزائر وغيرها ثم اتفقوا على الامان وأن يعطي كل من الفريقين رهائن فتقرر ذلك في تاسع شهر رجب سنة ثمان عشرة وسير لفرنج عشرين ملكا رهنا عند الملك الكامل وبعث الملك الكامل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وجماعة من الامراء الى الفرنج وجلس السلطان مجلسا عظيما لقدوم ملوك الفرنج وقد وقف اخوته وأهل بيته بين يديه وصار في أبهة وناموس مهاب وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم الى دمياط فسلموها للمسلمين في تاسع عشره وكان يوم تسليمها يوما عظيما وعندما تسلم المسلمون دمياط وصارت بأيديهم قدمت نجدة في البحر للفرنج فكان من جميل صنع الله تأخرها حتى ملكت دمياط بأيدى المسلمين فانها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج فان المسلمين وجدوا مدينة دمياط قد حصنها الفرنج وصارت بحيث لا ترام ولما تم الامر بعث الفرنج بولد السلطان وأمرائه اليه وسير اليهم السلطان من كان عنده من الملوك في الرهن وتقررت الهدنة بين الفرنج والمسلمين مدة ثماني سنين وكان مما وقع الصلح عليه أن كلا من المسلمين والفرنج يطلق ماعنده من الاسرى وحلف السلطان واخوته وحلفت ملوك الفرنج وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل الى دمياط باخوته وعساكره وكان يوم دخوله اليها من الايام المذكورة ورحل الفرنج الى بلادهم وعاد السلطان الي مقر ملكه وأطلقت الاسرى من ديار مصر وكان فيهم من له من أيام السلطان صلاح الدين يوسف وسارت ملوك الشام بعساكرها إلى بلادها وعمت بشارة أخذ المسلمين مدينة دمياط من الفرنج سائر الآفاق فان التتر كانوا قد استولوا على ممالك المشرق فأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر من ايدى المسلمين وكانت مدة نزول الفرنج على دمياط الى أن أقلعوا عنها سائرين الى بلادهم ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما فلما كان في سنة ست وأربعين وستمائة حدث بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ورم في مأبضه تكون منه ناصور فتح وعسر برؤه فمرض من ذلك وانضاف اليه قرحة فى الصدر فلزم الفراش الا أن علو همته اقتضى مسيره من ديار مصر الى الشام فسار في محفة ونزل بقلعة دمشق فورد عليه رسول الامبرطور ملك الفرنج الالمانية بجزيرة صقلية في هيئة تاجر وأخبره سرا بأن بواش الذى يقال له رواد فرنس عازم على المسير الى أرض مصر وأخذها فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ونزل بأشموم طناح في المحرم سنة سبع وأربعين وجمع فى مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيرا خوفا أن يجرى على دمياط ماجرى في أيام أبيه فأخذت بغير

ذلك ولما نزل السلطان بأشموم كتب الى الامير حسام الدين أبي على بن أبي على الهدباني نائبه بديار مصر أن يجهز الاسطول من صناعة مصر فشرع في الاهتمام بذلك وشحن الاسطول بالرجال والسلاح وسائر مايحتاج اليه وسيره شيئاً بعد شيء وجهز السلطان الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومعه الامراء والعساكر فنزل بجيرة دمياط من برها الغربي وصار النيل بينه وبينها فلما كان في الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر وردت مراكب الفرنج البحريين وفيها جموعهم العظيمة وقد انضم اليهم فرنج الساحل وأرسوا بازاء المسلمين وبعث ملكهم الى السلطان كتابا نصه أما بعد فانه لم يخف عليك اني أمين الامة العيسوية كما انه لايخفى على انك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وأنا قد أبديت لك مافيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وأدخلت على الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك في أعز البقاع اليك فاما أن تكون البلاد لي فياهدية حصلت في يدى واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممتدة الى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير ابن محمد الجواب بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أربابه السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغي علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيئ الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام * وفي يوم السبت ورد الفرنج وضربوا خيامهم في أكثر البلاد التي فيها عساكر المسلمين وكانت خيمة الملك رواد فرنس حمراء فناوشهم المسلمون القتال واستشهد يومئذ الامير نجم الدين يوسف ابن شيخ الاسلام والامير صارم الدين أزبك الوزيري فلما أمسي الليل رحل الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ

بعساكر المسلمين جبنا وصلفا وسار بهم في بر دمياط وسار الى جهة أشموم طناح فخاف من كان في مدينة دمياط وخرجوا منها على وجوههم فى الليل لايلتفتون الى شيء وتركوا المدينة خالية من الناس ولحقوا بالعسكر فى أشموم وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء والاولاد ومروا هاربين الى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطريق ماعليهم من الثياب وتركوهم عرايا فشنعت القالة على الامير فخر الدين من كل أحد وعد جميع مانزل بالمسلمين من البلاء بسبب هزيمته فان دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة والازواد العظيمة والاسلحة وغيرها خوفا أن يصيبها فى هذه المدة ما أصابها فى أيام الكامل فانه مأتى عليها ذاك الامن قلة الاقوات بها ومع ذلك امتنعت من الفرنج أكثر من سنة حتى فنى أهلها كما تقدم ولكن الله يفعل مايريد ولما أصبح الفرنج يوم الاحد لسبع بقين من صفر قصدوا دمياط فاذا أبواب المدينة مفتحة ولا أحد يدفع عنها فظنوا أن ذلك مكيدة وتمهلوا حتى ظهر لهم خلوها فدخلوا اليها من غير مانع ولا مدافع واستولوا على مابها من الاسلحة العظيمة وآلات الحرب والاقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة والاموال والامتعة صفوا بغير كلفة فأصيب الاسلام والمسلمون ببلاء لولا لطف الله لمحى اسم الاسلام ورسمه بالكلية وانزعج الناس في القاهرة ومصر انزعاجا عظيما لما نزل بالمسلمين مع شدة مرض السلطان وعدم حركته وأما السلطان فانه اشتد حنقه على الامير فخر الدين وقال أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج وأقام عليه القيامة لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر والاغضاء وغضب على الكنانيين الذين كانوا بدمياط ووبخهم فقالوا ما نعمل اذا كانت عساكر السلطان بأجمعهم وأمراؤه هربوا وأخربوا الزردخاناه كيف لانهرب نحن فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من دمياط بغير اذن وكانت عدة من شنق من الامراء الكنانية زيادة على خمسين أميرا في ساعة واحدة ومن جملتهم أمير جسيم له ابن جميل سأل أن يشنق قبل ابنه فأمر السلطان أن يشنق ابنه قبله فشنق الابن ثم الاب ويقال ان شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء فخاف جماعة من الامراء وهموا بالقيام على السلطان فأشار عليهم الامير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ بأن السلطان على خطة فان مات فقد كفيتم أمره والا فهو بين أيديكم وأخذ السلطان فى اصلاح سور المنصورة وانتقل اليها لخمس بقين من صفر وجعل الستائر على السور وقدمت الشواني الى تجاه المنصورة وفيها العدد الكاملة وشرع العسكر في تجديد الابنية هناك وقدم من العربان وأهل النواحى ومن المطوعة خلق لايحصى عددهم وأخذوا في الاغارة على الفرنج فملا الفرنج اسوار مدينة دمياط بالمقاتلة والآلات فلما كان أول ربيع الاول قدم الى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العربان ستة وثلاثون منهم فارسان وفي خامس ربيع الآخر ورد منهم تسعة وثلاثون وفي سابعه ورد اثنان وعشرون أسيرا وفي سادس عشره ورد خمسة

وأربعون أسيرا منهم ثلاثة خيالة وفي ثامن عشر جمادى الاولى ورد خمسون أسيرا هـذا
ومرض السلطان يتزايد وقواه تتناقص حتى أيس الاطباء منه وفي ثالث عشر رجب قدم الى
القاهرة سبعة وأربعون أسيرا وأحد عشر فارسا وظفر المسلمون بمسطح للفرنج في البحر
فيه مقاتلة بالقرب من نستراوة فلما كانت ليلة الاحد لاربع عشرة مضت من شعبان مات الملك
الصالح بالمنصورة فلم يظهر موته وحمل في تابوت الى قلعة الروضة وقام بأمر العسكر الامير
فخر الدين ابن شيخ الشيوخ فان شجرة الدر زوجة السلطان لما مات أحضرت الامير فخر
الدين والطواشي جمال الدين محسنا واليه أمر المماليك البحرية والحاشية وأعلمتهما بموته فكتما
ذلك خوفا من الفرنج لانهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر فقام الامير فخر الدين
بالتدبير وسيروا الى الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا الفارس اقطاى لاحضاره وأخذ
الامير فخر الدين في تحليف العسكر للملك الصالح وابنه الملك المعظم بولاية العهد من بعده
وللامير فخر الدين بأتابكية العسكر والقيام بأمر الملك حتى حلفهم كلهم بالمنصورة وبالقاهرة
في دار الوزارة عند الامير حسام الدين بن أبي على في يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من
شعبان وكانت العلامات تخرج من الدهاليز السلطانية بالمنصورة الى القاهرة بخط خادم يقال
له سهيل لايشك من رآها انها خط السلطان ومشى ذلك على الامير حسام الدين بالقاهرة
ولم يتفوه أحد بموت السلطان الى أن كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ورد الامر الى
القاهرة بدعاء الخطباء في الجمعة الثانية للملك المعظم بعد الدعاء للسلطان وأن ينقش اسمه على
السكة فلما علم الفرنج بموت السلطان خرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم وشوانيهم تحاذيهم
في البحر حتى نزلوا فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فورد في يوم الجمعة من الغد
كتاب الى القاهرة من العسكر أوله انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وأنفسكم في سبيل
الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون وفيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد فقرئ على منبر
جامع القاهرة وقد جمع الناس لسماعه فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والعويل
وأيقن الناس باستيلاء الفرنج على البلاد لخلو الوقت من ملك يقوم بالامر لكنهم لم يهنوا
وخرجوا من القاهرة ومصر وسائر الاعمال فاجتمع عالم عظيم فلما كان يوم الثلاثاء أول
شهر رمضان اقتتل المسلمون والفرنج فاستشهد العلائي أمير مجلس وجماعة ونزل الفرنج
شارمساح وفي يوم الاثنين سابعه نزلوا البرمون فاضطرب الناس وزلزلوا زلزالا شديدا
لقربهم من العسكر وفي يوم الاحد ثالث عشره وصلوا تجاه المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين
بحر أشموم وخندقوا عليهم وأداروا على خندقهم سورا ستروه بكثير من الستائر ونصبوا
المجانيق ليرموا بها على المسلمين وصارت شوانيهم بازائهم في بحر النيل وشوانى المسلمين
بازاء المنصورة والتحم القتال برا وبحرا وفي سادس عشره نفر الى المسلمين ستة خيالة

أخبروا بمضايقة الفرنج وفي يوم عيد الفطر أسروا من الفرنج كند من أقارب الملك وأبلى
عوام المسلمين في قتال الفرنج بلاء كبيرا وأنكوهم نكاية عظيمة وصاروا يقتلون منهم في
كل وقت ويأسرون ويلقون أنفسهم في الماء ويمرون فيه الى الجانب الذي فيه الفرنج
ويحيلون في اختطاف الفرنج بكل حيلة ولا يهابون الموت حتى ان انسانا قور بطيخة وحملها
على رأسه وغطس في الماء حتى حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتى يأخذها فخطفه
وأتى به الى المسلمين وفي يوم الاربعاء سابع شوال أخذ المسلمون شونة للفرنج فيها كند
ومائتا رجل وفي يوم الخميس النصف منه ركب الفرنج الى بر المسلمين واقتتلوا فقتل منهم
أربعون فارسا وسير في عدة الى القاهرة بسبعة وستين أسيرا منهم ثلاثة من أكابر الدوادارية
وفي يوم الخميس ثاني عشريه أحرقت للفرنج مرمة عظيمة في البحر واستظهر المسلمون عليهم
وكان بحر أشموم فيه مخايض فدل بعض من لا دين له ممن يظهر الاسلام الفرنج عليها
فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة أو رابعه ولم يشعر المسلمون بهم الا وقد هجموا
على العسكر وكان الامير فخر الدين قد عبر الى الحمام فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا
على العسكر فركب دهشا غير معتد ولا متحفظ وساق ليأمر الامراء والاجناد بالركوب في
طائفة من مماليكه فلقيه عدة من الفرنج الدوادارية وحملوا عليه ففر أصحابه وأتته طعنة في
جنبه وأخذته السيوف من كل جانب حتى لحق بالله عز وجل وفي الحال غدت مماليكه
في طائفة الى داره وكسروا صناديقه وخزائنه ونهبوا أمواله وخيوله وساق الفرنج عند
مقتل الامير فخر الدين الى المنصورة ففر المسلمون خوفا منهم وتفرقوا يمنة ويسرة وكادت
الكسرة أن تكون وتمحو الفرنج كلمة الاسلام من أرض مصر ووصل الملك روادفرنس
الى باب قصر السلطان ولم يبق الا أن يملكه فأذن الله تعالى أن طائفة المماليك من البحرية
والجمدارية الذين استجدهم الملك الصالح ومن جملتهم بيبرس البندقدارى حملوا على الفرنج
حملة صدقوا فيها اللقاء حتى أزاحوهم عن مواقفهم وأبلوا في مكافحتهم بالسيوف والدبابيس
فانهزموا وبلغت عدة من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه النوبة ألفاً وخمسمائة فارس
وأما الرجالة فانها كانت وصلت الى الجسر لتعدى فلو تراخى الامر حتى صاروا مع المسلمين
لاعضل الداء على أن هذه الواقعة كانت بين الازقة والدروب ولولا ضيق المجال لما أفلت
من الفرنج أحد فنجا من بقى منهم وضربوا عليهم سورا وحفروا خندقا وصارت طائفة
منهم في البر الشرقي ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط وكانت البطاقة عند الكبسة
سرحت على جناح الطائر الى القاهرة فانزعج الناس انزعاجا عظيما ووردت السوقة وبعض
العسكر ولم تغلق أبواب القاهرة ليلة الاربعاء وفي يوم الاربعاء سقط الطائر بالبشارة بهزيمة
الفرنج وعدة من قتل منهم فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل وسار المعظم توران

شاه الى دمشق فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان واستولى على من بها ولاربع مضين من شوال سقط الطائر بوصوله الي دمشق فضربت البشائر فى العسكر بالمنصورة وفي قلعة الجبل وسار من دمشق لثلاث بقين منه فتواترت الاخبار بقدومه وخرج الامير حسام الدين بن أبى على الى لقائه فوافاه بالصالحية لاربع عشرة بقيت من ذى القعدة ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح بعد ما كان قبل ذلك لا ينطق أحد بموته البتة بل الامور على حالها والدهليز السلطانى بحاله والسماط على العادة وشجرة الدر أم خليل زوجة السلطان تدبر الامور وتقول السلطان مريض ما اليه وصول ثم سار من الصالحية فتلقاه الامراء والمماليك واستقر بقصر السلطنة من المنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة وفي أثناء هذه المدة عمل المسلمون مراكب وحملوها على الجمال الي بحر المحلة وألقوها فيه وشحنوها بالمقاتلة فعند ما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة وتلك المراكب فيه مكمنة خرجت عليهم ووقع الحرب بينهما وقدم الاسطول الاسلامى من جهة المنصورة وأحاط بالفرنج فظفر باثنين وخمسين مركبا للفرنج وقتل وأسر منهم نحو ألف رجل فانقطعت الميرة عن الفرنج واشتد عندهم الغلاء وصاروا محصورين فلما كان أول يوم من ذى الحجة أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق وفر من كان فيها من المسلمين وفى يوم عرفة برزت الشوانى الاسلامية الى مراكب قدمت للفرنج فيها ميرة فأخذت منها اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شواني فوهنت قوة الفرنج وتزايد الغلاء عندهم وشرعوا فى طلب الهدنة من المسلمين على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بدلا منها القدس وبعض بلاد الساحل فلم يجابوا الى ذلك فلما كان اليوم السابع والعشرون من ذى الحجة أحرق الفرنج أخشابهم كلها وأتلفوا مراكبهم يريدون التحصن بدمياط ورحلوا في ليلة الاربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة الى دمياط وأخذت مراكبهم فى الانحدار قبالتهم فركب المسلمون أقفيتهم بعد ما عدوا الى برهم وطلع الفجر من يوم الاربعاء وقد أحاط المسلمون بالفرنج وقتلوا وأسروا منهم كثيرا حتى قيل ان عدد من قتل من الفرسان على فارسكور يزيد على عشرة آلاف وأسر من الخيالة والرجالة والصناع والسوقة ما يناهز مائة ألف ونهب من المال والذخائر والخيول والبغال مالا يحصى وانحاز الملك روادفرنس وأكابر الفرنج الى تل ووقفوا مستسلمين وسألوا الامان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحي ونزلوا على أمانه وأحيط بهم وسيقوا الى المنصورة فقيد روادفرنس واعتقل في الدار التى كان ينزل فيها القاضي فخر الدين ابراهيم ابن لقمان كاتب الانشاء ووكل به الطواشى صبيح المعظمى واعتقل معه أخوه ورتب له راتب يحمل اليه في كل يوم ورسم الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطورى أحد من وصل صحبته من الشرق أن يتولى قتل الاسرى فكان

يخرج منهم كل ليلة ثلثمائة رجل ويقتلهم ويلقيهم في البحر حتى فنوا * ولما قبض على الملك روادفرنس رحل الملك المعظم من المنصورة ونزل بالدهليز السلطاني على فارسكور وعمل له برجا من خشب وتراخي في قصد دمياط وكتب بخطه الى الامير جمال الدين بن يغمور نائبه بدمشق وولده توران شاه الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وما النصر الا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وأما بنعمة ربك فحدث وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها نبشر المجلس السامى الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين فانه كان قد استكمل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاد والاهل والاولاد فنودوا لا تيأسوا من روح الله ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة وهى سنة ثمان وأربعين وستمائة تمم الله على الاسلام بركتها فتحنا الخزائن وبذلنا الاموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم الا الله جاؤا من كل فج عميق ومكان سحيق فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا ولما كانت ليلة الاربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين فسرنا فى آثارهم طالبين وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل وقد حل بهم الخزى والويل فلما أصبحنا يوم الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج وأما الاسرى فحدث عن البحر ولا حرج والتجأ الفرنسيس الي المينة وطلب الامان فأمناه وأخذناه وأكرمناه وسلمناه دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته وبعث مع الكتاب غفارة الملك فرنسيس فلبسها الامير جمال الدين بن يغمور وهى أشكرلاطا أحمر بفروسنجاب فقال الشيخ نجم الدين بن اسرائيل

ان غفارة الفرنسيس جاءت * فهى حقاً لسيد الامراء
كبياض القرطاس لونا ولكن * صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال آخر

أسيد أملاك الزمان بأسرهم * تنجزت من نصر الاله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمي العدى * ويلبس أثواب الملوك عبيده

وأخذ الملك المعظم يهدد زوجة أبيه شجرة الدر ويطالبها بمال أبيه فخافته وكاتبت مماليك الملك الصالح تحرضهم عليه وكان المعظم لما وصل اليه الفارس أقطاى الي حصن كيفا وعده أن يعطيه امرة فلم يف له بها وأعرض مع ذلك عن مماليك أبيه وأطرح أمراءه وصرف الامير حسام الدين بن أبي على عن نيابة السلطنة وأحضره الى العسكر ولم يعبأ به وأبعد غلمان أبيه واختص بمن وصل معه من المشرق وجعلهم فى الوظائف السلطانية فجعل الطواشي مسرورا خادمه استادارا وعمل صبيحا وكان عبدا حبشيا فحلا خازنداره وأمرأن

تكون له عصا من ذهب وأعطاه مالا جزيلا واقطاعات جليلة وكان اذا سكر جمع الشمع وضرب رؤسها بالسيف حتى تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية فانه كان فيه هوج وخفة واحتجب على العكوف بملاذه فنفرت منه النفوس وبقى كذلك الى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم وقد جلس على السماط فتقدم اليه أحد المماليك البحرية وضربه بسيف قطع أصابع يديه ففر الى البرج فاقتحموا عليه وسيوفهم مصلتة فصعد أعلى البرج الخشب فرموه بالنشاب وأطلقوا النار في البرج فألقى نفسه ومر الى البحر وهو يقول ماأريد ملككم دعوني أرجع الى الحصن يامسلمين مافيكم من يصطنعني ويجيرني وسائر العساكر بالسيوف واقفة فلم يجبه أحد والنشاب يأخذه من كل ناحيـة وأدركوه فقطع بالسيوف ومات حريقا غريقا قتيلا في يوم الاثنين المذكور وترك على الشط ثلاثة أيام ثم دفن ولما قتل الملك المعظم اتفق هل الدولة على اقامة شجرة الدر والدة خليل في مملكة مصر وأن يكون مقدم العسكر الامير عز الدين أيبك التركماني الصالحي وحلف الكل على ذلك وسيروا اليها عز الدين الرومي فقدم عليها في قلعة الجبل وأعلمها بما اتفق فرضيت به وكتبت على التواقيع علامتها وهي والدة خليل وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة وجرى الحديث مع الملك رواد فرنس في تسليم دمياط وتولى مفاوضته فى ذلك الامير حسام الدين بن أبي على الهدباني فأجاب الى تسليمها وأن يخلى عنه بعد محاورات وسير الى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها الى المسلمين فسلموها بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات في يوم الجمعة ثالث صفر ورفع العلم السلطاني على سورها وأعلن فيها بكلمة الاسلام وشهادة الحق بعدما أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهرا وسبعة أيام وأفرج عن الملك رواد فرنس وعن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه الى البر الغربي وركبوا البحر من الغـد وهو يوم السبت رابع صفر وأقلعوا الى عكا * وفى هـذه النوبة يقول الوزير جمال الدين يحيي بن مطروح

قل للفرنسيس اذا جئته * مقال نصح عن قؤول نصيح
آجرك الله عـلى ماجرى * من قبل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها * تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم * ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لايرى منهم * الا قتيل أو أسير جريح
وفقـك الله لامثـالهـا * لعل عيسى منـكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا * فرب غش قد أتى من نصيح
قل لهم أن أضمروا عودة * لاخـذ ثار أو لقصـد صحيح

دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صبيح

وقدر الله أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة جمع عدة جموع وقصد تونس فقال شاب من أهلها يقال له أحمد بن اسمعيل الزيات

يافرنسيس هذه أخت مصر * فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فكان هذا فالا حسنا فانه مات وهو على محاصرة تونس ولما تسلم الامراء دمياط وردت البشري الى القاهرة فضربت البشائر وزينت القاهرة ومصر فقدمت العساكر من دمياط يوم الخميس تاسع صفر فلما كان في سلطنة الاشرف موسى ابن الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل والملك المعز عز الدين التركماني وكثر الاختلاف بمصر واستولى الملك الناصر يوسف ابن العزيز على دمشق اتفق أرباب الدولة بمصر وهم المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفا من مسير الفرنج اليها مرة أخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة حتى خربت كلها ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع وصار في قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء وسموها المنشية وهذا السور هو الذي بناه أمير المؤمنين المتوكل على الله كما تقدم ذكره فلما استبد الملك الظاهر بيبرس البند قدارى الصالحي بمملكة مصر بعد قتل الملك المظفر قطز اخرج من مصر عدة من الحجارين في سنة تسع وخمسين وستمائة لردم فم بحر دمياط فمضوا وقطعوا كثيرا من القرابيص وألقوها في بحر النيل الذي ينصب من شمال دمياط في البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط وهو الى اليوم على ذلك لاتقدر مراكب البحر الكبار أن تدخل منه وانما ينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم واحدها جرم وتصير مراكب بحر الملح واقفة بآخر البحر قريبا من ملتقى البحرين ويزعم أهل دمياط الآن أن سبب امتناع دخول مراكب البحر جبل في فم البحر أو رمل يتربى هناك وهذا قول باطل حملهم عليه مايجدونه من تلاف المراكب اذا هجمت على هذا المكان وجهلهم باحوال الوجود وما مر من الوقائع والى يومنا هذا يخاف على المراكب عند ورودها فم البحر وكثيرا ماتتلف فيه * وقد سرت اليه حتى شاهدته ورأيته من أعجب مايراه الانسان * وأما دمياط الآن فانها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط وعمل هناك أخصاص وما برحت تزداد الى أن صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ودورها تشرف على النيل الاعظم ومن ورائها البساتين وهي أحسن بلاد الله منظرا * وقد أخبرني الامير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمي رحمه الله أنه لم ير في البلاد التي سلكها من سمرقند الى مصر أحسن من دمياط هذه فظننت أنه يغلو في

مدحها الى أن شاهدتها فاذا هي أحسن بلد وأنزهه * وفيها أقول

سقى عهد دمياط وحياه من عهد * فقد زادني ذكراه وجدا على وجد
ولا زالت الانواء تسقى سحابها * ديارا حكت من حسنها جنة الخلد
فياحسن هاتيك الديار وطيبها * فكم قد حوت حسنا يجل عن العد
فلله أنهار تحف بروضها لكا * لمرهف المصقول أو صفحة الخد
وبشنينها الريان يحكي متيما * تبدل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقا * يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الاقدام تحسب انه * لطول انتظار من حبيب على وعد
ولا سيما تلك النواعير انها * تجدد حزن الواله المدنف الفرد
اطارحها شجوى وصارت كانما * تطارح شكواها بمثل الذي أبدى
فقد خالتها الافلاك فيها نجومها * تدور بمحض النفع منها وبالسعد
وفي البرك الغراء ياحسن نوفر * حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
سماء من البلور فيها كواكب * عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفي شاطئ النيل المقدس نزهة * تعيد شباب الشيب في عيشه الرغد
وتنشى رياحا تطرد الهم والاسى * وتنشى ليالي الوصل من طيبها عندى
وفي مرج البحرين جم عجائب * تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كأن التقاء النيل بالبحر اذ غدا * مليكان سارا في الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا * ولا طعن الا بالمثقفة الملد
فظلا كما باتا وما برحا كما * هما من جليل الخطب في اعظم الجهد
فكم قد مضى لي من افانين لذة * بشاطئها العذب الشهى لذى الورد
وكم قد نعمنا في البساتين برهة * بعيش هنيء في أمان وفي سعد
وفى البرزخ المأنوس كم لي خلوة * وعند شطا عن أيمن العلم الفرد
هناك ترى عين البصيرة ما ترى * من الفضل والافضال والخير والمجد
فيارب هيء لى بفضلك عودة * ومنّ بها في غير بلوى ولا جهد

وبدمياط حيث كانت المدينة التي هدمت جامع من أجل مساجد المسلمين تسميه العامة مسجد فتح وهو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط أول مافتح الله أرض مصر علي يد عمرو بن العاص وعلي بابه مكتوب بالقلم الكوفى انه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة وفيه عدة من عمد الرخام منها ما يعز وجود مثله وانما عرف بجامع فتح لنزول شخص يقال له فاتح به فقالت العامة جامع فتح وانما هو فاتح بن عثمان الاسمر التكرورى

قدم من مراكش الى دمياط على قدم التجريد وسقى بها الماء في الاسواق احتسابا من غير أن يتناول من أحد شيئا ونزل في ظاهر الثغر ولزم الصلاة مع الجماعة وترك الناس جميعا ثم أقام بناحية تونة من بحيرة تنيس وهي خراب نحو سبع سنين ورم مسجدها ثم انتقل من تونة الي جامع دمياط وأقام في وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحدا الا اذا أقيمت الصلاة خرج وصلى فاذا سلم الامام عاد الي وكره فان عارضه أحد بحديث كلمه وهو قائم بعد انصرافه من الصلاة وكانت حاله أبدا اتصالا في انفصال وقرباً في ابتعاد وأنساً فى نفار وحج فكان يفارق أصحابه عند الرحيل فلا يرونه الا وقت النزول ويكون سيره منفرداً عنهم لا يكلم أحدا الى أن عاد الى دمياط فأخذ في ترميم الجامع وتنظيفه بنفسه حتى نقي ما كان فيه من الوطواط بسقوفه وساق الماء الي صهاريجه وبلط صحنه وسبك سطحه بالجبس وأقام فيه وكان قبل ذلك من حين خربت دمياط لا يفتح الا فى يوم الجمعة فقط فرتب فيه اماما راتبا يصلي الخمس وسكن فى بيت الخطابة وواظب على اقامة الاوراد به وجعل فيه قراء يتلون القرآن بكرة وأصيلا وقرر فيه رجلا يقرأ ميعادا يذكر الناس ويعلمهم وكان يقول لو علمت بدمياط مكانا أفضل من الجامع لاقمت به ولو علمت في الارض بلدا يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت اليه وأقمت به وكان اذا ورد عليه أحد من الفقراء ولا يجد ما يطعمه باع من لباسه ما يضيفه به وكان يبيت ويصبح وليس له معلوم ولا ما يقع عليه العين أو تسمعه الاذن وكان يؤثر في السر الفقراء والارامل ولا يسأل أحدا شيئا ولا يقبل غالباً واذا قبل ما يفتح الله عليه آثر به وكان يبذل جهده فى كتم حاله والله تعالى يظهر خيره وبركته من غير قصد منه لذلك وعرفت له عدة كرامات وكان سلوكه على طريق السلف من التمسك بالكتاب والسنة والنفور عن الفتنة وترك الدعاوى واطراحها وستر حاله والتحفظ فى أقواله وأفعاله وكان لا يرافق أحدا فى الليل ولا يعلم أحد يوم صومه من يوم فطره ويجعل دائما قول ان شاء الله تعالى مكان قول غيره والله ثم ان الشيخ عبد العزيز الدميرى أشار عليه بالنكاح وقال له النكاح من السنة فتزوج فى آخر عمره بامرأتين لم يدخل على واحدة منهما نهارا البتة ولا أكل عندهما ولا شرب قط وكان ليله ظرفا للعبادة لكنه يأتي اليهما أحيانا وينقطع أحيانا لاستغراق زمنه كله في القيام بوظائف العبادات وايثار الخلوة وكان خواص خدمه لا يعلمون بصومه من فطره وانما يحمل اليه ما يأكل ويوضع عنده بالخلوة فلا يرى قط آكلا وكان يحب الفقر ويؤثر حال المسكنة ويتطارح على الخمول والجفا ويتواضع مع الفقراء ويتعاظم على العظماء والاغنياء وكان يقرأ في المصحف ويطالع الكتب ولم يره أحد يخط بيده شيئاً وكانت تلاوته للقرآن بخشوع وتدبر ولم يعمل له سجادة قط ولا أخذ على أحد عهدا ولا لبس طاقية ولا

قال أنا شيخ ولا أنا فقير ومتى قال في كلامه انا تفطن لما وقع منه واستعاذ بالله من قول أنا ولا حضر قط سماعا ولا أنكر على من يحضره وكان سلوكه صلاحا من غير اصلاح ويبالغ في الترفع على ابناء الدنيا ويترامي على الفقراء ويقدم لهم الاكل ولم يقدم لغني أكلا البتة واذا اجتمع عنده الناس قدم الفقير على الغني واذا مضى الفقير من عنده سار معه وشيعه عدة خطوات وهو حاف بغير نعل ووقف على قدميه ينظره حتى يتوارى عنه ومن كان من الفقراء يشار اليه بمشيخة جلس بين يديه بأدب مع امامته وتقدمه في الطريق ويقول ما أقول لاحد افعل أو لا تفعل من أراد السلوك يكفيه أن ينظر الى أفعاله فان من لم يتسلك بنظره لا يتسلك بسمعه وقال له شخص من خواصه ياسيدي ادع الله لنا أن يفتح علينا فنحن فقراء فقال ان أردتم فتح الله فلا تبقوا في البيت شيئاً ثم اطلبوا فتح الله بعد ذلك فقد جاء لا تسأل الله ولك خاتم من حديد ومن كلامه الفقير بحال البكر اذا سأل زالت بكارته وسأله بعض خواصه أن يدعو له بسعة وشكا له الضيق فقال انا ما أدعو لك بسعة بل أطلب لك الافضل والاكمل وكان مع اشتغاله بالعبادة واستغراق أوقاته فيها لا يغفل عن صاحبه ولا ينسى حاجته حتى يقضيها ويلازم الوفاء لاصحابه ويحسن معاشرتهم ويعرف احوال الناس على طبقاتهم ويعظم العلم ويكرم الايتام ويشفق على الضعفاء والارامل ويبذل شفاعته في قضاء حوائج الخاص والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك ويكثر من الايثار في السر ولا يمسك لنفسه شيئاً ويستقل ما منه مع كثرة احسانه ويستكثر ما يدفع اليه وان كان يسيرا ويكافئ عليه باحسن منه ولم يصحب قط أميرا ولا وزيرا بل كان في سلوكه وطريقه يرفع في تواضع ويعزز مع مسكنة وقرب في ابتعاد واتصال في انفصال وزهد في الدنيا وأهلها وكان أكبر من خبره ومن دعائه لنفسه ولمن يسأل له الدعاء اللهم بعدنا عن الدنيا وأهلها وبعدها عنا وما زال على ذلك الى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة وترك ولدين ليس لهما قوت ليلة وعليه مبلغ ألفي درهم دينا ودفن بجوار الجامع وقبره يزار الى يومنا هذا

ذكر شطا

شطا مدينة عند تنيس ودمياط واليها تنسب الثياب الشطوية ويقال انها عرفت بشطا بن الهاموك وكان أبوه خال المقوقس وكان على دمياط فلما فتح الله الحصن على يد عمرو بن العاص واستولى على أرض مصر جهز بعثا لفتح دمياط فنازلوها الى أن ملكوا سور المدينة فخرج شطا في ألفين من اصحابه ولحق بالمسلمين وقد كان قبل ذلك يحب الخير ويميل الى ما يسمعه من سيرة أهل الاسلام ولما ملك المسلمون دمياط امتنع عليهم صاحب تنيس فخرج شطا الى البرلس والدميرة وأشموم طناح يستنجد فجمع الناس لقتال أهل تنيس وسار بهم مع

من كان بدمياط من المسلمين ومن قدم مددا من عند عمرو بن العاص الى قتال أهل تنيس فالتقى الفريقان وأبلي شطا منهم بلاء حسنا وقتل من أبطال تنيس اثنى عشر رجلا واستشهد في ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة احدى وعشرين من الهجرة فقبر حيث هو الآن خارج دمياط وبني على قبره وصار الناس يجتمعون هناك في ليلة النصف من شعبان كل عام ويفدون للحضور من القرى وهم على ذلك الى يومنا هـذا وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا قال الفاكهي ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هرون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها بسم الله بركة من الله لعبد الله هرون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته في طراز شطا كسوة الكعبة سنة احدى وتسعين ومائة* ومن المواضع المشهورة بدمياط *(البرزخ)* وهو مسجد بجيرة دمياط تسميه العامة البرزخ ولا أعرف مستندهم في ذلك وشاهدت فيه عجبا وهو أن به منارة كبيرة مبنية من الآجر اذا هزها أحد اهتزت فلما صعدت أعلاها حيث يقف المؤذنون وحركتها رأيت ظلها قد تحرك بتحريكي لها ويوجد حول هذا المسجد رمم أموات يشبه أن تكون ممن استشهد في وقائع الفرنج والله يعلم وأنتم لا تعلمون *(ديبق)* قرية من قرى دمياط ينسب اليها الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة والديبقي العلم المذهب وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل وحدثت هذه العمائم وغيرها في أيام العزيز بالله بن المعز سنة خمس وستين وثلثمائة الى أن مات في شعبان سنة ست وثمانين وثلثمائة *(النحريرية)* قرية من الاعمال الغربية أسس حكرها الامير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيش في أيام الناصر محمد بن قلاون وبالغ في عمارتها فبلغت في أيامه عشرة آلاف درهم فضة ثم خرج عنها فعمرت للسلطان واتسع أمرها حتى أنشئ فيها زيادة على ثلاثين بستانا ووصل حكرها لكثرة سكانها الى ألف درهم فضة لكل فدان وصارت بلدا كبير العمل يبلغ في السنة مابين خراجي وهلالي ثلثمائة ألف درهم فضة عنها خمسة عشر ألف دينار ذهبا ومات سنقر هذا في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة واليه تنسب المدرسة السعدية بخط حدرة البقر خارج باب زويلة *(جزيرة بني نصر)* منسوبة الى بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وذلك أن بني حماس بن ظالم بن جعيل بن عمرو بن درهمان بن نصير بن معاوية بن بكر بن هوازن كانت لهم شوكة شديدة بأرض مصر وكثروا حتى ملؤا أسفل الارض وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواتة ولواتة تزعم انها من قيس فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار فصاروا أهل قرى في مكان عرف بهم وسط النيل وهي جزيرة بني نصر هذه

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر ودمشق

اعلم أن البريد أول من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيبشتاسف بن كيهراسف أحد ملوك الفرس وأما فى الاسلام فأول من أقام البريد أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبي جعفر المنصور أقامه فيما بين مكة والمدينة واليمن وجعله بغالا وابلا وذلك في سنة ست وستين ومائة وأصل هذه الكلمة بريد ذنب فان دارا أقام في سكك البريد دواب محذوفة الاذناب سميت بريد ذنب ثم عربت وحذف منها نصفها الاخير فقيل بريد وهذا الدرب الذى الذى يسلكه العساكر والتجار وغيرهم من القاهرة على الرمل الى مدينة غزة ليس هو الدرب الذى يسلك فى القديم من مصر الى الشام ولم يحدث هذا الدرب الذى يسلك فيه من الرمل الآن الا بعد الخمسمائة من سني الهجرة عند ما انقرضت الدولة الفاطمية وكان الدرب أولا قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هذا قال أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه فى كتاب المسالك والممالك وصفة الارض والطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلا ثم الى جاسم أربعة وعشرون ميلا ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلا ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلا ثم الى القلنسوة عشرون ميلا ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلا والطريق من الرملة الى ازدود اثنا عشر ميلا ثم الى غزة عشرون ميلا ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلا فى رمل ثم الى الورادة ثمانية عشر ميلا ثم الى أم العرب عشرون ميلا ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلا ثم الي جرير ثلاثون ميلا ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلا ثم الى مسجدقضاعة ثمانية عشر ميلا ثم الى بلبيس أحد وعشرون ميلا ثم الى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلا فهذا كما ترى انما كان الدرب المسلوك من مصر الى دمشق على غير ما هو الآن فيسلك من بلبيس الى الفرما فى البلاد التى تعرف اليوم ببلاد السباخ من الحوف ويسلك من الفرما وهى بالقرب من قطية الى أم العرب وهى بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والورادة ويقصدها قوم من الناس ويحفرون في كيمانها فيجدون دراهم من فضة خالصة ثقيلة الوزن كبيرة المقدار ويسلك من أم العرب الى الورادة وكانت بلدة فى غير موضعها الآن قد ذكرت فى هذا الكتاب فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة لاخذ البلاد من أيدى المسلمين وأخذ بغدوين الشوبك وعمره في سنة تسع وخمسمائة وكان قد خرب من تقادم السنين وأغار على العريش وهو يومئذ عامر بطل السفر حينئذ من مصر الي الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج الى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدى الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وأكثر من الايقاع بالفرنج وافتتح منهم عدة بلاد بالساحل

وصار يسلك هذا الدرب على الرمل فسالكه المسافرون من حينئذ الى أن ولى ملك مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فأنشأ بأرض السباخ على طرف الرمل بلدة عرفت الى اليوم بالصالحية وذلك في سنة أربع وأربعين وستمائة وصار ينزل بها ويقيم فيها ونزل بها من بعده الملوك فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى رتب البريد في سائر الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل الى دمشق في أربعة أيام ويعود فى مثلها فصارت أخبار الممالك ترد اليه في كل جمعة مرتين ويحكم في سائر ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة وأنفق فى ذلك مالا عظيما حتى تم ترتيبه وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة وما زال أمر البريد مستمرا فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيول المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين وأحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد الا بمرسوم سلطاني فتارة يمنع الناس من ركوبه الا من انتدبه السلطان لمهماته وتارة يركبه من يريد السفر من الاعيان بمرسوم سلطاني وكانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج اليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الامن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة الي الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زادا ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها وحرقها في سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن وما دهوا به من كثرة الفتن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشاً والامر على ذلك الي وقتنا هذا وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة

ذكر مدينة حطين

هذه المدينة آثارها الي اليوم باقية فيما بين حبوة والعاقولة بأرض العاقولة فيما بين قطيه والعريش تجاهها بميل ماء عذب تسميه العرب أبا العروق وهو شرقيها وهذه المدينة تنسب الى حطين ويقال حطى بن الملك أبي جاد المديني وأهل قطية اليوم يسمون تلك الارض ببلاد حطين والجفر وملك حطين هذا أرض مصر بعد موت أبيه وكان صاحب حرب وبطش وكان ينزل بقلعة فى جبال الاردن قريباً من طبرية واليه تنسب قرية حطين التى بها الآن قبر شعيب بالقرب من صفد

ذكر مدينة الرقة

هذه المدينة من جملة مدائن مدين فيما بين بحر القلزم وجبل الطور كان بها عندما خرج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر قوم من لخم آل فرعون يعبدون البقر واياهم

عني الله بقوله تعالى وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم الآية قال قتادة أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانت أصنامهم تماثيل البقر ولهذا أخرج لهم السامري عجلا وآثار هذه المدينة باقية الى اليوم فيما بقي من مدينة فاران والقلزم ومدين وأيلة تمر بها الاعراب

ذكر عين شمس

وكان يقال لها في القديم رعمساس وكانت عين شمس هيكلا يحج الناس اليه ويقصدونه من أقطار الارض في جملة ما كان يحج اليه من الهياكل التي كانت في قديم الدهر ويقال ان الصابئة أخذت هذه الهياكل عن عاد وثمود ويزعمون أنه عن شيث بن آدم وعن هرمس الاول وهو ادريس وان ادريس هو أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية وبنى الهياكل ومجد الله فيها ويقال ان الهياكل كانت عدتها في الزمن الغابر اثني عشر هيكلا وهي هيكل العلة الاولى وهيكل العقل وهيكل السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس وبعده هيكل المشتري وهو مثلث ثم هيكل المريخ وهو مربع وهيكل الشمس وهو أيضاً مربع وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل وهيكل عطارد مثلث في جوف مربع مستطيل وهيكل القمر مثمن وعللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا لما كان صانع العالم مقدسا عن صفات الحدوث وجب العجز عن ادراك جلاله وتعين أن يتقرب اليه عباده بالمقربين لديه وهم الروحانيون ليشفعوا لهم ويكونوا وسايط لهم عنده وعنوا بالروحانيين الملائكة وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي هياكلها وانه لا بد لكل روحاني من هيكل ولا بد لكل هيكل من فلك وأن نسبة الروحاني الى الهيكل نسبة الروح الى الجسد وزعموا أنه لا بد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه اليه العبد بنفسه ويستفيد منه ففزعوا الى الهياكل التي هي السيارات فعرفوا بيوتها من الفلك وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها وما لها من الايام والليالي والساعات والاشخاص والصور والاقاليم وغير ذلك مما هو معروف في موضعه من العلم الرياضي وسموا هذه السبعة السيارة أربابا وآلهة وسموا الشمس اله الآلهة ورب الارباب وزعموا أنها المفيضة على الستة أنوارها والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون الى الهياكل تقربا الى الروحانيين لتقربهم الى الباري لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين وكل من تقرب الى شخص فقد تقرب الى روحه وكانوا يصلون لكل كوكب يوما يزعمون أنه رب ذلك اليوم وكانت صلاتهم في ثلاثة أوقات الاولى عند طلوع الشمس والثانية عند استوائها في الفلك والثالثة عند غروبها فيصلون لزحل يوم السبت وللمشتري يوم الاحد وللمريخ يوم الاثنين وللشمس يوم الثلاثاء وللزهرة يوم الاربعاء ولعطارد يوم

الخميس وللقمر يوم الجمعة ويقال انه كان ببلخ هيكل بناه بنو حمير على اسم القمر لتعارض به الكعبة فكانت الفرس تحجه وتكسوه الحرير وكان اسمه نوبهر فلما تمجست الفرس عملته بيت نار وقيل للموكل بسدانته برمك يعني والى مكة وانتهت البرمكة الى جد خالد جد جعفر بن يحيى بن خالد فأسلم على يد هشام بن عبد الملك وسماه عبد الله وخرب هذا الهيكل قيس بن الهيثم في أول خلافة معاوية سنة احدى وأربعين وكان بناء عظيما حوله أروقة وثلثمائة وستون مقصورة لسكن خدامه وكان بصنعاء قصر غمدان من بناء الضحاك وكان هيكل الزهرة وهدم في خلافة عثمان بن عفان وكان بالاندلس في الجبل الفارق بين جزيرة الاندلس والارض الكبيرة هيكل المشترى من بناء كلوبطرة بنت بطليموس وكان بفرغانة بيت يقال له كلوسان هيكل للشمس بناه بعض ملوك فارس الاول خربه المعتصم وقد اختلف فيمن بني هيكل عين شمس وسأقص من أخباره مالم أره مجموعا في كتاب * قال ابن وصيف شاه وقد كان الملك منقاوس اذا ركب عملوا بين يديه التخاييل العجيبة فيجتمع الناس ويعجبون من أعمالهم وأمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له خصوصا ويجعل فيه قبة فيها صورة الشمس والكواكب وجعل حولها أصناما وعجائب فكان الملك يركب اليه ويقيم فيه سبعة أيام وجعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذي عمله فيه وهما باقيان الى اليوم وهو الموضع الذي يقال له عين شمس ونقل الى عين شمس كنوزا وجواهر وطلسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها وأقام ملكا احدى وتسعين سنة ومات من الطاعون وقيل من سم وعمل له ناوس في صحراء الغرب وقيل في غربي قوص ودفن معه مصاحف الحكمة والصنعة وتماثيل الذهب والجوهر ومن الذهب المضروب شئ كثير ودفن معه تمثال روحاني الشمس من ذهب يلمع وله جناحان من زبرجد وصنم على صورة امرأته وكان يحبها فلما ماتت أمر أن تعمل صورتها في الهيا كل كلها وعمل صورتها من ذهب بذؤابتين سوداوين وعليها حلة من جواهر منظومة وهي جالسة على كرسي وكان يجعلها بين يديه في كل موضع يجلس فيه يتسلى بذلك عنها فدفنت هذه الصورة معه تحت رجليه كانها تخاطبه * وقال الحكيم الفاضل أحمد بن خليفة في كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء واشتاق فيثاغورس الى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر فورد على أهل مدينة الشمس المعروفة في زماننا بعين شمس فقبلوه قبولا كريها وامتحنوه زمانا فلم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا فوجهوا به الى كهنة منف كي يبالغوا في امتحانه فقبلوه على كراهة واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيبا ولا أصابوا له عثرة فبعثوا به الى أهل ديوسوس ليمتحنوه فلم يجدوا عليه طريقا ولا الى ادحاضه سبيلا ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين فقبل ذلك وقام به فاشتد

اعجابهم به وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره الى أماسيس ملك مصر فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم ولم يعط ذلك لغريب قط ويقال انه كان للكواكب السبعة السيارة هيا كل تحج الناس اليها من سائر أقطار الدنيا وضعها القدماء فجعلوا على اسم كل كوكب هيكلا في ناحية من نواحي الارض وزعموا أن البيت الاول هو الكعبة وانه مما أوصى ادريس الذي يسمونه هرمس الاول المثلث أن يحج اليه وزعموا أنه منسوب لزحل والبيت الثانى بيت المريخ وكان بمدينة صور من الساحل الشامي والبيت الثالث للمشترى وكان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد وموضعه الآن جامع بني أمية والبيت الرابع بيت الشمس بمصر ويقال انه من بناء هرشيك أحد ملوك الطبقة الاولى من ملوك الفرس وهو المسمى بعين شمس والبيت الخامس بيت الزهرة وكان بمنتيسح والبيت السادس بيت عطارد وهو بصيدا من ساحل البحر الشامي والبيت السابع بيت القمر وكان بحران ويقال انه قلعتها ويسمى المدور ولم يزل عامرا الى أن خربه التتر ويقال انه كان هو هيكل الصابئة الاعظم * وقال شافع بن على في كتاب عجائب البلدان وعين شمس مدينة صغيرة تشاهد سورها محدقا بها مهدوما ويظهر من أمرها انها كانت بيت عبادة وفيها من الاصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة مايكون طول الصنم بقدر ثلاثين ذراعا واعضاؤه على تلك النسبة من العظم وكل هذه الاصنام قائمة على قواعد وبعضها قاعد على نصبات عجيبة واتقانات محكمة وباب المدينة موجود الى الآن وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير على شكل الانسان وغيره من الحيوان وكتابة كثيرة بالقلم المجهول وقلما ترى حجرا خلا عن كتابة أو نقش أو صورة وفي هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتي فرعون وصفة المسلة قاعدة مربعة طولها عشرة أذرع في مثلها عرضا في نحوها سمكا قد وضعت على أساس ثابت في الارض ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع يبتدئ من القاعدة ببسطة قطرها خمسة أذرع وينتهي الى نقطة وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع وقد تزنجر بالمطر وطول المدة واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة وكلها عليها كتابات بذلك القلم وكانت المسلتان قائمتين ثم خربت احداها وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها ثم ان حولها من الاصنام شيئاً كثيرا لايحصى عدده على نصف تلك العظمى أو يليها وقلما يوجد في هذه المسال الصغار ماهو قطعة واحدة بل فصوصها بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها * وقال محمد بن ابراهيم الجزرى في تاريخه وفي رابع شهر رمضان يعني من سنة ست وخمسين وستمائة وقعت احدى مسلتي فرعون التي بأراضي المطرية من ضواحي القاهرة فوجدوا داخلها مائتي قنطار من نحاس وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار * ويقال انعين شمس بناها الوليد بن دومع من الملوك العماليق وقيل بناها الريان بن الوليد

وكانت سرير ملكه والفرس تزعم أن هرشيك بناها * ويقال طول العمودين مائة ذراع وقيل أربعة وثمانون ذراعا وقيل خمسون ذراعا ويقال ان بخت نصر هو الذى خرب عين شمس لما دخل الى مصر وقال القضاعى وعين شمس وهى هيكل الشمس بها العمود ان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعا وهما محمولان على وجه الارض وبينهما صورة انسان على دابة وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس فاذا جاء النيل قطر من رأسيهما ماتستبينه وتراه منهما واضحا ينبع حتى يجري من أسافلهما فينبت فى أصلهما العوسج وغيره واذا دخلت الشمس دقيقة من الجدى وهو أقصر يوم فى السنة انتهت الى الجنوبى منهما فطلعت عليه على قمة رأسه ثم اذا دخلت دقيقة من السرطان وهو أطول يوم في السنة انتهت الى الشمالي منهما فطلعت على قمة رأسه وهما منتهى الميلين وخط الاستواء في الواسطة منهما ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة كذا يقول أهل العلم بذلك * وقال ابن سعيد في كتاب المغرب وكانت عين شمس فى قديم الزمان عظيمة الطول والعرض متصلة البناء بمصر القديمة حيث مدينة الفسطاط الآن ولما قدم عمرو بن العاص نازل عين شمس وكان جمع القوم حتى فتحها * وقال جامع السيرة الطولونية كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق من كذان أبيض محكم الصنعة يخيل من استعرضه أنه ناطق فوصف لاحمد بن طولون فاشتاق الى تأمله فنهاه ندوسة عنه وقال مارآه وال قط الاعزل فركب اليه وكان هذا فى سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأمله ثم دعا بالقطاعين وأمرهم باجتثاثه من الارض ولم يترك منه شيئاً ثم قال لندوسة خازنه ياندوسة من صرف منا صاحبه فقال أنت أيها الامير وعاش بعدها أحمد ثنتي عشرة سنة أميرا * وبني العزيز بالله نزار بن المعز قصورا بعين شمس * وقال أبو عبيد البكرى عين شمس بفتح الشين واسكان ثانيه بعده سين مهملة عين ماء معروفة قال محمد بن حبيب عين شمس حيث بني فرعون الصرح وزعم قوم أن عين شمس الى هذا الماء اضيف وأول من سمى هذا الاسم سبا بن يشجب وذكر الكلبي ان شمسا الذى تسموا به صنم قديم وقال ابن خرداديه واسطوانتين بعين شمس من أرض مصر ومن بقايا أساطين كانت هناك فى رأس كل اسطوانة طوق من نحاس يقطر من احداهما ماء من تحت الطوق الى نصف الاسطوانة لايجاوزه ولا ينقطع قطره ليلا ولا نهارا فموضعه من الاسطوانة أخضر رطب ولا يصل الماء الى الارض وهو من بناء أو سهنك * وذكر محمد بن عبد الرحيم في كتاب تحفة الالباب أن هذا المنار مربع علوه مائة ذراع قطعة واحدة محدد الرأس على قاعدة من حجر وعلى رأس المنار غشاء من صفر كالذهب فيسه صورة انسان على كرسي قد استقبل المشرق ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يسيل مقدار عشرة أذرع وقد نبت منه شيء كالطحلب فلا يبرح لمعان المـاء على تلك الخضرة أبدا

صيفا وشتاء لاينقطع ولا يصل الى الارض منه شئ وبعين شمس نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم يتخذ منه دهن البلسان لايعرف بمكان من الارض الا هناك وتؤكل لحي هذه القضبان فيكون له طعم وفيه حرارة وحرافة لذيذة وبناحية المطرية من حاضرة عين شمس البلسان وهو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك وهـذه البئر تعظمها النصارى وتقصدها وتغتسل بمائها وتستشفي به ويخرج لاعتصار البلسان أوان ادراكه من قبل السلطان من يتولى ذلك ويحفظه ويحمل الى الخزانة السلطانية ثم ينقل منه الى قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين ولا يؤخذ منه شئ الا من خزانةالسلطان بعد أخذ مرسوم بذلك وللملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج فيه غلو عظيم وهم يتهادونه من صاحب مصر ويرون أنهم لايصح عنـدهم لاحد أن يتنصر الى أن ينغمس في ماء المعمودية ويعتقدون انه لابد أن يكون في ماءالمعمودية شئ من دهن البلسان ويسمونه الميرون وكان في القديم اذا وصل من الشام خبر انتهى الى صاحب عين شمس ثم يرد من عين شمس الى الحصن الذي عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر ثم يرد من الحصن الى مدينة منف حيث كانت منف تخت الملك وسبب تعظيم النصارى لدهن البلسان ما ذكره في كتاب السنكسار وهو يشتمل على أخبار النصارى أن المسيح لما خرجت به أمه ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس فرارا من هيرودس ملك اليهود نزلت به أول موضع من أرض مصر مدينة بسطة في رابع عشري بشنس فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها وأقاموا أياما ثم ساروا الى مدينـة سمنود وعدوا النيل الى الغربية ومشوا الى مدينة الاشمونين وكان بأعلاها اذ ذاك شكل فرس من نحاس قائم على أربعة أعمـدة فاذا قدم اليها غريب صهل فخاؤا ونظروا في أمر القادم فعند ما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام الى المدينة سقط الفرس المذكور وتكسر فدخلت به أمه وظهرت له عليه السلام في الاشمونين آية وهو أن خمسة جمال محملة زاحمتهم في مرورهم فصرخ فيها المسيح في الاشمونين فصارت حجارة ثم انهم ساروا من الاشمونين وأقاموا بقرية تسمي فيلس مدة أيام ثم مضوا الى مدينة تسمى قس وقام وهي التي يقال لها اليوم القوصية فنطق الشيطان من أجواف الاصنام التي بها وقال ان امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم فخرج اليهم مائة رجل بسلاحهم وطردوهم عن المدينـة فمضوا الى ناحية ميرة في غربي القوصـية ونزلوا في الموضع الذي يعرف اليوم بدير المحرق وأقاموا به ستة أشهر وأياما فرأى يوسف النجار في منامه قائلا يخبره بموت هيرودس ويأمره أن يرجع بالمسيح الى القـدس فعادوا من ميرة حتي نزلوا حيث الموضع الذي يعرف اليوم في مدينة مصر بقصر الشمع وأقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بوسرجة ثم خرجوا منها الى عين شمس فاستراحوا هناك بجوار ماء فغسلت مريم من ذلك المـاء ثياب المسيح وقد

انسحت وصبت غسالتها بتلك الاراضي فأنبت الله هنالك البلسان وكان اذ ذاك بالاردن فانقطع من هناك وبقي بهذه الارض وغمرت هذه البئر التي هي الآن موجودة هناك على ذلك الماء الذي غسلت منه مريم وبلغني أنها الى الآن اذا اعتبرت يوجد ماؤها عيناً جارية في أسفلها فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر وللبلسان فانه انما سقي منها والله أعلم

المنصورة

هذه البلدة على رأس بحر أشموم تجاه ناحية طلخابناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في سنة ست عشرة وستمائة عند ما ملك الفرنج مدينة دمياط فنزل في موضع هذه البلدة وخيم به وبني قصرا لسكناه وأمر من معه من الامراء والعساكر بالبناء فبنى هناك عدة دور ونصبت الاسواق وأدار عليها سورا مما يلى البحر وستره بالآلات الحربية والستائر وتسمى هذه المنزلة المدينة المنصورة ولم يزل بها حتي استرجع مدينة دمياط كما تقدم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا فصارت مدينة كبيرة بها الحمامات والفنادق والاسواق ولما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفرنج ورحل الفرنج الى بلادهم جلس بقصره في المنصورة وبين يديه اخوته الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسي صاحب بلاد الشرق وغيرهما من أهله وخواصه فأمر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها

ولما طغى فرعون عكا وقومه * وجاء الى مصر ليفسد في الارض
أتي نحوهم موسى وفي يده العصا * فأغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب الاشرف وقال لها بالله كررى فشق ذلك على الملك الكامل وأسكتها وقال لجاريته غني أنت فأخذت العود وغنت

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا * لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه * وموسي جميعاً ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة أولها (أبي الوجد الا أن أبيت مسهدا) فأعجب ذلك الملك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار فنهض القاضي الصدر الاجل الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة وكان من جملة الجلساء على قدميه وأنشد يقول

هنيئاً فان السعد جاء مخلدا * وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا لنا بدا * مبينا وانعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه * وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغي البحر الخضم بأهله ال * طغاة وأضحي بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه * صقيلا كما سل الحسام المهندا

فلم ينج الا كل شـلو مجـدل * ثوى منهم أو من تراه مقيـدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعا * عقيرته فى الخـافقين ومنشدا
أعباد عيسى ان عيسى وحزبه * وموسى جميعاً ينصران محمـدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من أحسن ليلة مرت للملك من الملوك وكان عند انشـاده يشير اذا قال عيسى الى عيسى المعظم واذا قال موسي الي موسى الاشرف واذا قال محمـدا الى السلطان الملك الكامل وقد قيل ان الذي أنشد هذه الابيات انما هو راجح الحلى الشاعر

(العباسة)

هـذه القرية فيما بين بلبيس والصالحية من أرض السدير لم يزل متنزها للملوك مصر وبها ولد العباس بن أحمد بن طولون فسماه لذلك أبوه العباس وولد بها أيضاً الملك الامجد تقى الدين عباس بن العادل أبي بكر بن أيوب وكان الملك الكامل محمد بن العادل يقيم بها كثيرا ويقول هذه تعلو مصر اذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء والسمك من الماء والوحش من الفضاء ويصل الخبز من قلعة الجبل اليَّ بها في قلعتي وهو سخن وبني بها آدرا ومناظر وبساتين وبنى أمراؤه بها أيضاً عدة مساكن فى البساتين ولم تزل العباسة على ذلك حتى أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل المنزلة الصالحيـة فتلاشى حينئذ أمر العباسـة وخربت المناظر في سلطنة الملك المعز أيبك فلما كانت سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس مر على السدير وهو فم الوادي فأعجب به وبنى في موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية وأنشأ بها جامعا وذلك فى سنة ست وستين وستمائة * وسميت بالعباسة بنت أحمد بن طولون فانها خرجت الى هـذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لما حملت الى المعتضد وضربت هناك فساطيطها ثم بنت قرية فسميت باسمها

(ذكر مدينة قفط بصعيد مصر)

هذه المدينة عرفت بقفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكانت فى الدهر الاول مدينة الاقاليم وانما بدا خرابها بعـد الاربعمائة من تاريخ الهجرة النبوية وآخر ما كان فيها بعد السبعمائة من سني الهجرة أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب ويقال كان فيها قباب بأعالي دورها وكانت اشارة من ملك من أهلهـا عشرة آلاف دينار أن يجعل في داره قبة وبالقرب منها معدن الزمرذ ولم يبطل الا من قريب فان قفطريم ولى الملك بعد أبيه قبطيم قال ابن وصيف شاه كان أكبر ولد أبيه وكان جبـارا عظيم الخلق وهو الذى وضع أساسات الاهرام الدهشورية وغيرها وهو الذي بنى مدينة دندرة ومدينة الاصنام وهلـكت عاد بالريح في آخر أيامه وأثار من المعادن مالم يثره غيره وكان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحى ومن الزبرجد مثل الاسطوانة ومن الاسـبادشم

في صحراء الغرب كالقلة وعمل من العجائب شيئاً كثيرا وبني منارا عاليا على جبل قفطريى منه البحر الشرقي ووجد هناك معدن زئبق فعمل منه تمثالا كالعمود لا يحـل ولا يذوب وعمل البركة التى سماها صيادة الطير اذا مر عليها طائر سقط فيها ولم يقدر على الحركة حتى يؤخذ وهذه البركة يقال انها هناك الى الآن وأما المنار فسقط وعمل عجائب كثيرة وفي أيامه أثار عبادة الاصنام التى كان الطوفان غرقها وزين الشيطان أمرها وعبادتها ويقـال انه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب وبنى غربي النيل وخلف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ووكل بها الروحانيين الذين يمنعون منها فما يستطيع أحـد أن يدنو اليها ولا يدخلها الا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين وأقام قفطريم ملـكا أربعمائة وثمانين سنة وأكثر العجائب عملت في وقته ووقت ابنه البودسير ولذلك كان الصعيد أكثر عجائب من أسـفل لان حيز قفطريم فيه ولما حضر قفطريم الوفاة عمل ناوسا فى الجبـل الغربي قرب مدينة الـكهان في سرب تحت الارض معقود على آزاج الى الارض ونقر تحت الجبل دارا واسعة وجعل دورها خزائن منقورة وفي سقفها مسارب للرياح وباط السرب وجميع الدار بالمرمر وجعل في وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان مصفحا بالزجاج الملون المسبوك وجعل فى سقفه جواهر تسرج وجعل في كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق الذى يبوق به وتحت القبة دكة مصفحة بذهب ولها حواف من زبرجد وفوق الدكة فرش من حرير وجعل عليها جسد بعد أن لطخ بالادوية المجففة ووضع في جانبـه آلات كافور وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مكلل وعن جوانب الدكة أربعة تماثيل مجوفات من زجاج مسبوك في صور النساء بأيديهن مراوح من ذهب وعلى صدره من فوق الثياب سيف فاخر قائمته من زبرجد وجعل فى تلك الخزائن من الذخائر وسبائك الذهب والتيجان والجوهر وبرابى الحـكم وأصناف العقاقير والطلسمات ومصاحف العلوم مالا يحصى كثرة وجعل على باب المجلس ديكا من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبورا عليه آيات مانعة وجعل على كل مدخل أزج صورتين من نحاس بأيديهما سيفان وقدامهما بلاطة تحتها لوالب من وطئها ضرباه باسيافهما فقتلاه وفي سقف كل أزج كرة وعليها لطوخ مدبر يسرج فيقد طول الزمان وسد باب الازج بالاساطين المرصصة ورصوا على سقفه البلاط العظام وردموا فوقها الرمال وزبروا على باب الازج هذا المدخل الى جسد الملك المعظم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذي الايد والفخر والغلبة والقهر أفل نجمه وبقى ذكره وعلمه فلا يصل أحد اليه ولا يقدر بحيلة عليه وذلك بعد سبعمائة وسبعين ودورات مضت من السنين * وقال المسعودي ومعدن الزمرذ في عمل الصعيد الاعلى من مدينة قفط ومنها يخرج الى هذا المعدن والموضع الذى هو فيه يعرف بالخربة وهي مفازة وجبال والبجه تحمي

هذا المكان المعروف بالخربة واليها يؤدى الخفارات من يرد الى حفر الزمرذ ووجدت جماعة من صعيد مصر من ذوى الدراية ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن و عرف هذا النوع من الجوهر يخبرون أنه يكثر ويقل في فصول السنة فيكثر في قوة مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الاربع وتقوى الخضرة فيه والشعاع النورى في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر و بين الموضع المعروف بالخربة الذى فيه معدن الزمرذ و بين ما اتصل من العمارة وقرب منه من الديار مسيرة سبعة أيام وهي قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر وقوص راكبة النيل و بين النيل وقفط نحو من ميلين * ولمدينتي قفط وقوص أخبار عجيبة في بدء عمارتهما وما كان فى أيام القبط من أخبارها الا أن مدينة قفط فى هذا الوقت متداعية للخراب وقوص أعمر والناس فيها أكثر وكان بقفط بربا موكل بها روحاني فى صورة جارية سوداء تحمل صبيا أسود صغيرا حتى أنها رؤيت بها مرارا ومعدن الزمرذ فى البر المتصل باسوان وكان له ديوان فيه شهود وكتاب وينفق على العمال به وتنال لهم المؤن لحفره واستخراج الزمرذ منه وهو فى جبال مرملة يحفر فيه وربما سقط على الجماعة به فماتوا وكان يجمع مايخرج منه ويحمل الى الفسطاط ومنه يحمل الى البلاد وقد كان الناس يسيرون من قوص الى معدن الزمرذ فى ثمانية أيام بالسير المعتدل وكانت البجاه تنزل حوله وقريبا منه لاجل القيام بحفره وحفظه وهـذا المعدن فى الجبل الآخذ علي شرقي النيل فى بحرى قطعة عظيمة من هـذا الجبل تسمى اقرشندة وليس هنـاك من الجبال أعلى منها وهو فى منقطع من البر لاعمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه والماء عنه مسيرة نصف يوم أو أزيد وهو مايحصل من المطر ويعرف بغديرأ عين يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته وهذا المعدن فى صدر مفازة طويلة فى حجر أبيض يستخرج منه الزمرذ وهذا الحجر الابيض ثلاثة أنواع أحدها يقال له طلق كافورى والثاني يقال له طلق فضى والثالث يقال له حجر جروى ويضرب فى هذه الحجارة حتى يخرج الزمرذ وهو كالعريق فيه وأنواعه الرياني وهو أقل من القليل لايخرج الا في النادر واذا استخرج ألقي في الزيت الحار ثم يحط في قطن ويصر ذلك القطن في خرق خام أو نحوها وكان الاحتراز على هذا المعدن كثيرا جدا ويفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم حتى تفتش عوراتهم ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم في ذلك ولم يزل هـذا المعدن يستخرج منه الزمرذ الى أن ابطل العمل منه الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون في سنة بضع وستين وسبعمائة *وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة كانت فتنة كبيرة بمدينة قفط سببها أن داعيا من بني عبد القوى ادعي أنه داود بن العاضد فاجتمع الناس عليه فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف وصلبهم على شجرها

ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم

﴿ ذكر مدينة دندرة ﴾

هي احدى مدن الصعيد الاعلى القديمة بناها قفطريم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكان فيها بربا عظيمة فيها مائة وثمانون كوة تدخل الشمس في كل يوم من كوة حتى تأتي على آخرها ثم تكر راجعة الى حيث بدأت وكانت روحانيتها الموكلة بها تظهر في هيئة انسان له رأس أسد بقرنين وكان بها أيضا شجرة تعرف بشجرة العباس متوسطة وأوراقها خضر مستديرة اذا قال الانسان عندها يا شجرة العباس جاءك الفاس تجتمع أوراقها وتحزن لوقتها ثم تعود كما كانت وبين دندرة وبين قوص بريد واحد وكانت بربا دندرة أعظم من بربا اخميم

(ذكر الواحات الداخلة)

الواحات منقطعة وراء الوجه القبلي في مغاربه ولا تعد في الولايات ولا في الاعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال وانما يحكم عليها من قبل مقطعها * وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة بعضها داخل ببعض وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا يفتقر الى سواه وأرضها شبية وزاجية وعيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل وعيون مختلفة الطعوم من الحامض والقابض والمالح ولكل نوع منها خاصية ومنفعة وهي على قسمين واحات داخلة وواحات خارجة جملتها أربع واحات ويقال ان الواحات ولدو حويلا بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح وان أخر سبا بن كوش أبو الحبش وأبو شنيا بن كوش أبو زغاوة وأبو شفحيا بن كوش أبو الحبش الرمرم * قال ابن وصيف شاه ويقال ان قفطريم بني المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب منها الماء القائم كالعمود لايتحلل ولا يذوب والبركة التي تسمى فلسطين أي صيادة الطير اذا مر عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه الخروج منها حتى يؤخذ وعمل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر اذا قرب الاسد أو الحيات أو غيرها من الاشياء المضرة من تلك المدينة صفر تصفيرا عاليا فترجع تلك الدواب هاربة وعمل على أربعة أبواب هذه المدينة أربعة أصنام من نحاس لايقرب منها غريب الا ألقى عليه النوم والسبات فينام عندها ولا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون في وجهه ليقوم وان لم يفعلوا ذلك لا يزال نائما عند الاصنام حتى يهلك وعمل منارا لطيفا من زجاج ملون على قاعدة من نحاس وعمل على رأس المنار صورة صنم من أخلاط كثيرة وفي يده كالقوس كانه يرمي عنها فان عاينه غريب وقف في موضعه ولم يبرح حتى ينحيه أهل المدينة وكان ذلك الصنم يتوجه الى مهب الرياح الاربع من نفسه وقيل ان هذا الصنم على حاله الى الآن وان الناس تحاموا تلك المدينة على كثرة مافيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفا

من ذلك الصنم أن تقع عين انسان عليه فلا يزال قائما حتى يتلف وكان بعض الملوك عمل على قلمه فما أمكنه وهلك لذلك خلق كثير ويقال انه عمل فى بعض المدائن الداخلة مرآة يري فيها جميع ما يسأل الانسان عنه وبني غربي النيل وخلف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ووكل الروحانيين بها الذين يمنعون منها فما يستطيع أحد أن يدنو اليها ولا يدخلها أو يعمل قرابين أولئك الروحانيين فيصل اليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ماأحب من غير مشقة ولا ضرر وبني الملك صا بن الساد وقيل صا بن مرقونس بداخل الواحات مدينة وغرس حولها نخلا كثيرا وكان يسكن منف وملك الاحياز كلها وعمل عجائب وطلسمات ورد الكهنة الى مراتبهم ونفي الملهيين وأهل الشر ممن كان يصحب الساد بن مرقونس وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون اليه مايجرى في حدودهم وعمل على غربي النيل منابر يوقد عليها اذا حزبهم امر أو قصدهم قاصد وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء اليه ونظر في نجومه وكان بها حاذقا فرأى أن بلده لابد أن تغرق بالطوفان من نيلها ورأى أنها تخرب على يد رجل يأتي من ناحية الشام فجمع كل فاعل بمصر وبني في الواح الاقصى مدينة جعل طول حصنها في الارتفاع خمسين ذراعا وأودعها جميع الحكم والاموال وهي المدينة التي وقع عليها موسى بن نصير في زمن بني أمية لما قدم من المغرب فلما دخل مصر أخذ على الواح الاقصى وكان عنده علم منها فأقام سبعة أيام يسير في رمال بين الغرب والجنوب فظهرت له مدينة عليها حصن وأبواب من حديد فلم يمكنه فتح الابواب وكان اذا صعد اليها الرجال وعلوا الحصن وأشرفوا على المدينة ألقوا أنفسهم فيها فلما أعياه أمرها مضى وهلك من أصحابه عدة قال وفي تلك الصحارى كانت متنزهات القوم ومدنهم العجيبة وكنوزهم الا أن الرمال غلبت عليها ولم يبق يملك ملك الاوقد عمل للرمل طلسما لدفعه ففسدت طلسماتها لقدم الزمان قال ولا ينبغي لاحد أن ينكر كثرة بنيانهم ولا مدائنهم ولا مانصبوه من الاعلام العظام فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم وان آثارهم لبينة مثل الاهرام والاعلام والاسكندرية وما في صحارى الشرق والجبال المنحوتة التي جعلوا كنوزهم فيها والاودية المنحوتة ومثل مابالصعيد من البرابى وما نقشوه عليها من حكمتهم فلو تعاطي جميع ملوك الارض أن يبنوا مثل الهرمين ماتهيأ لهم وكذلك أن ينقشوا ربما لطال بهم الامد ولم يمكنهم * وحكى عن قوم من البنائين في ضياع الغرب أن عاملا عندهم عنف بهم ففروا في صحراء الغرب ومعهم زاد الى أن تنصلح أحوالهم ويرجعوا فلما كانوا على مسيرة يوم وبعض آخر قدموا الى سفح جبل فوجدوا عيرا أهليا قد خرج من بعض الشعاب فتبعه بعضهم فانتهى الى مساكن وأشجار ونخل ومياه تطرد وقوم هناك يرعون ولهم مساكن وكلمهم وأعجب بهم فجاء الى أصحابه وقدم بهم على أولئك القوم فسألوهم

عن حالهم فأخبروهم وأقاموا عندهم حتى صلحت أحوالهم وخرجوا ليأتوا بأهاليهم ومواشيهم ويقيموا عندهم فساروا مدة وهم لا يعرفون الطريق ولا يتأتى لهم العود فأسفوا على ما فاتهم * وضل آخرون عن الطريق في الغرب فوقعوا على مدينة عامرة كثيرة الناس والمواشي والنخل والشجر فأضافوهم وأطعموهم وسقوهم وباتوا في طاحونة فسكروا من الشراب وناموا فلم ينتبهوا الا من حر الشمس فاذاهم في مدينة خراب ليس فيها أحد فخافوا وخرجوا وظلوا يومهم سائرين الى المساء فظهرت لهم مدينة أكبر من الاولى وأعمر وأكثر أهلا وشجرا ومواشي فأنسوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة الاولى فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون وانطلقوا بهم الى وليمة لبعض أهل المدينة فأكلوا وشربوا وغنوا بهم حتى سكروا فلما كان من الغد انتبهوا فاذاهم في مدينة عظيمة ليس فيها أحد وحولها نخل قد تساقط ثمره وتكدس فخرجوا وهم يجدون ريح الشراب ومبادي الخمار فساروا يوما الى المساء واذا راع يرعى غنما فسألوه عن الطريق فدلهم فساروا بعض يوم من الغد فوصلوا مدينة الاشمونين بالصعيد قال وهذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجان ومنها ما سترته عن العيون فلا ينظر اليها أحد وقال ان البودسير بن قفطريم بن قبطيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام في أيامه بنيت بصحراء الغرب منابر ومنتزهات وحول اليها جماعة من أهل بيته فعمروا تلك النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عامرة كلها وأقامت على ذلك مدة كثيرة فخالطهم البربر ونكحوا منهم ثم تحاسدوا فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات وبادت الابقية منازل تسمى الواحات

(ذكر مدينة سنترية)

ومدينة سنترية من جملة الواحات بناها مناقيوش باني مدينة اخميم كان أحد ملوك القبط القدماء قال ابن وصيف شاه وكان في حزم أبيه وحنكته تعظم في أعين أهل مصر وهو أول من عمل الميدان وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه وأول من عمل المارستان لعلاج المرضى والزمنى وأودعه العقاقير ورتب فيه الاطباء وأجري عليهم ما يسعهم وأقام الامناء على ذلك وصنع لنفسه عيدا فكان الناس يجتمعون اليه فيه وسماه عيد الملك في يوم من السنة فيأكلون ويشربون سبعة أيام وهو مشرف عليهم من مجلس على عمد قد طوقت بالذهب وألبست فاخر الثياب المنسوجة بالذهب وعليه قبة مصفحة من داخل بالرخام والزجاج والذهب وفي أيامه بنيت سنترية في صحراء الواحات عملها من حجر أبيض مربعة وفي كل حائط باب في وسطه شارع الى حائط محاذ له وجعل في كل شارع يمنة ويسرة أبوابا تنتهي طرقاتها الى داخل المدينة وفي وسط المدينة ملعب يدور به من كل ناحية سبع درج وعليه قبة من خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام وفي وسطه منار من رخام عليه صنم من

صوان أسود يدور مع الشمس بدورانها وبسائر نواحي القبة صور معلقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة فكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء وعلى الثالثة رؤساء الجيش وعلى الرابعة الفلاسفة والمنجمون والاطباء وأرباب العلوم وعلى الخامسة أصحاب العمارات وعلى السادسة أصحاب المهن وعلى السابعة العامة فيقال لكل صنف منهم أنظروا الى من دونكم ولا تنظروا الى من فوقكم لا تلحقونهم وهذا ضرب من التأديب وقتلته امرأته بسكين فمات وكان ملكه ستين سنة وسنترية الآن بلد صغير يسكنه نحو ستمائة رجل من البر يعرفون سيوة ولغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زناتة وبها حدائق نخل وأشجار من زيتون وتين وغير ذلك وكرم كثير وبها الآن نحو العشرين عيناً تسيح بماء عذب ومسافتها من الاسكندرية أحد عشر يوما ومن جيزة مصر أربعة عشر يوماوهى قرية يصيب أهلها الحمي كثيرا وثمرها غاية في الجودة وتعبث الجن بأهلها كثيرا وتختطف من انفرد منهم وتسمع الناس بها عزيف الجن

(ذكر الواحات الخارجة)

بناها أحد ملوك القبط الاول ويقال له البودسير بن تفطيم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام قال ابن وصيف شاه وأراد البودسير أن يسير مغربا لينظر الى ما هنالك فوقع على أرض واسعة متخرقة بالمياه والعيون كثيرة العشب فبني فيها مناير ومتنزهات وأقام فيها جماعة من أهل بيته فعمروا تلك النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فنكح بعضهم من بعض ثم انهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض فكانت بينهم حروب تخرب ذلك البلد وباد أهله الا بقية منازل تسمى الواحات * وقال المسعودي وأما بلاد الواحات فهى بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والغرب وأرض الاحابش من النوبة وغيرهم وبها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم وصاحب الواحات في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة عبد الملك بن مروان وهو رجل من لواتة الا أنه مرواني المذهب ويركب في آلاف من الناس خيلا ونجبا وبينه وبين الاحابش نحو من ستة أيام وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة وفي أرضه خواص وعجائب وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا يفتقر اليه ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب * وحدثني وكيل أبي الشيخ المعز حسام الدين عمرو بن محمد بن زنكي الشهرزوري أنه سمع ببلاد الواحات أن فيها شجرة نارنج يقطف منها في سنة واحدة أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء سوى ما يتناثر وسوى ما هو أخضر فلم أصدق ذلك لغرابته وقمت حتي شاهدت الشجرة المذكورة

فاذا هي كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر وأكبر وسألت مستوفي البلد عنها فأحضر الىّ جرائد حسباناته وتصفحتها حتى أوقفني على أن منها في سنة كذا قطف من النارنجة الفلانية أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء سوي ما بقي عليها من الاخضر وسوى ما تناثر منها وهو صغير * وبالواحات الشب الابيض بواد تجاه مدينة ادفو كان في زمن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر وفي زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب على مقطعي الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض في كل سنة الى القاهرة ويطلق لهم في نظير ذلك جوالي الواحات ثم أهمل هذا فبطل * وفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة سار ملك النوبة في جيش عظيم الى الواحات فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيرا

(ذكر مدينة قوص)

اعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد وهي على النيل بنيت بعد قفط في أيام ملك من ملوك القبط الاول يقال له سدان بن عديم بن البودسير بن قفطريم قيل سميت باسم قوص ابن قفط بن أخميم بن سيقاف بن أشمن بن مصر قال ابن وصيف شاه سدان بن عديم هو الذى بنى الاهرام المشورية من الحجارة التى قطعت في زمن أبيه وعمل مصاحف النيرنجات وهيكل أرمنت وعمل في المدائن الداخلة من أنصنا هيكلا وأقام فيه في أتريب وهيكلا في شرقي الاسكندرية وبنى في الجانب الشرقي مدائن وفي أيامه بنيت قوص العالية وأسكن فيها قوما من أهل الحكمة وأهل الصناعات وكانت الحبش والسودان قد عاثوا في بلده فأخرج لهم ابنه منقاوش في جيش عظيم فقتل منهم وسبى واستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنة لهم واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك السبي يعملون فيه ويحملون الذهب اليه وهو أول من أحب الصيد واتخذ الجوارح وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الاهلية وعمل من العجائب والطلسمات لكل فن ما لا يحصى كثرة * وقال الادفوى في تاريخ الصعيد وقوص بجانب قفط حكي بعض المؤرخين انها شرعت فى العمارة وشرعت قفط في الخراب من سنة أربعمائة قيل انه حضر مرة قاضي قوص فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة الى لقائه *وفي شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة أحضر الى الملك الظاهر بيبرس فلوس وجدت مدفونة بقوص فأخذ منها فلس فاذا على أحد وجهيه صورة ملك واقف وفى يده اليمنى ميزان وفى اليسري سيف وعلى الوجه الآخر رأس فيه اذن كبيرة وعين مفتوحة وبدائر الفلس كتابة فقرأها راهب يونانى فكان تاريخه الى وقت قراءته ألفين وثلثمائة سنة وفيه أنا غلياث الملك ميزان العدل والكرم فى يمينى لمن أطاع والسيف في يسارى لمن عصي وفي الوجه الآخر أنا غلياث الملك أذنى مفتوحة لسماع المظلوم وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى وقوص كثيرة العقارب والشام أبرص وبها صنف من

العقارب القتالات حتى انه كان يقال بها أ كلة العقرب لانه كان لايرجى لمن لسعته حياة واجتمع بها مرة في يوم صائف على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا واحدا وكان الواحد من أهلها اذا مشى في الصيف ليلا خارج داره يأخذ بأحدى يديه مسرجة تضئ له وبالاخرى مشك من حديد يشك به العقارب ثم انها تلاشت بعد سنة ثمانمائة فلما كانت الحوادث والمحن مات بها سبعة عشر ألف انسان في سنة ست وثمانمائة وكانت من العمارة بحيث انه تعطل منها في شراقى البلاد سنة ست وسبعين وسبعمائة مائة وخمسون مغلقا والمغلق عندهم بستان من عشرين فدانا فصاعدا وله ساقية بأربعة وجوه وذلك سوى ما تعطل مما هو دون ذلك وهو كثير جداً

(ذكر مدينة أسنا)

قال الادفوي وذكر أن أسنا في سنة حصل منها أربعون ألف أردب تمر واثنا عشر ألف أردب زبيب واسنا تشتمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل وقيل انه كان بها في وقت سبعون شاعرا

(ذكر مدينة ادفو)

ومدينة ادفو يقال بالدال المهملة ويقال أيضا بالتاء المثناة من فوق قال الادفوى أخبرني الخطيب العدل أبو بكر خطيب ادفو أن جمارة طرحت ثلاثة شماريخ في كل شمروخ تمرة واحدة وانه قلع الجمارة بأصلها ووزنها فجاءت خمسة وعشرين درهما كلها بجريدها وخشبها وذلك بأدفو ولما كان بعد سنة سبعمائة حفر صناع الطوب فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسي وعليها مثال شبكة وفي ظهرها لوح مكتوب بالقلم اليوناني رأيتها على هذه الحالة في مدينة ادفو

(اهناس)

هي كورة من كور الصعيد يقال ان عيسى بن مريم عليه السلام ولد بها وان نخلة مريم عليها السلام التي ذكرت في قوله تعالى وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيالم تزل بها الى آخر أيام بنى أمية والذى عليه الجماهرة أن عيسى عليه السلام انما ولد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس وباهناس شجر البنج

(ذكر مدينة البهنسا)

هذه المدينة في جهة الغرب من النيل بها تعمل الستور البهنسية وينسج المطرز والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار والثياب المحبرة وكان يعمل بها من الستور مايبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج مائتا مثقال ذهب واذا صنع بها شئ من الستور والاكسية والثياب من الصوف أو القطن فلابد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا على ذلك مضوا

جيلا بعد جيل * وقبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه مريم كانا بالبهنسا ثم انتقلا عنها الى القدس * وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى عن المسيح وأمه وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين الربوة البهنسا وهذه المدينة بناها ملك من القبط يقال له مناوش بن منقاوش * قال ابن وصيف شاه واستخلف مناوش الملك فطلب الحكمة مثل أبيه واستخرج كتبها واكرم أهلها وبذل فيهم الجوائز وطلب الاغراب في عمل العجائب وكان كل من ملوكهم يجهد جهده في أن يعمل له غريبة من الاعمال لم تعمل لمن كان قبله وثبت فى كتبهم وزبر على الحجارة فى تواريخهم وهو أول من عبد البقر من أهل مصر وكان السبب فى ذلك أنه اعتل علة يئس منه فيها فرأى فى منامه صورة روحاني عظيم يقول له انه لايخرجك من علتك الا عبادتك البقر لان الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين ففعل ذلك وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة وعمل له مجلسا فى قصره وسقفه بقبة مذهبة فكان يبخره ويطيب موضعه ووكل به سائسا يقوم به ويكنس تحته ويعبده سرا من أهل مملكته فبرأ من علته وهو أول من عمل العجل في علته فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب وعمل ذلك من أحب من نسائه وخدمه الى المواضع والمتنزهات وكان البقر يجره فاذا مر بمكان نزهة أقام فيه واذا مر بمكان خراب أمر بعمارته فيقال انه نظر الى ثور من البقر الذى يجر عجلته أبلق حسن الشية فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه اعجابا به وجعل عليه جلا من ديباج فلما كان فى يوم وقد خلا فى موضع صار اليه وقد انفرد عن عبيده وخدمه والثور قائم اذ خاطبه الثور وقال له لو رفهني الملك عن السير معه وجعلني فى هيكل وعبدني وأمر أهل مملكته بعبادتي كفيته جميع مايريد وعاونته على أمره وقويته فى مملكته وأزلت عنه جميع علله فارتاع لذلك وأمر بالثور فغسل وطيب وأدخل فى هيكل وأمر بعبادته فأقام ذلك الثور يعبد مدة وصار فيه آية وهو أنه لايبول ولا يروث ولا يأكل الا اطراف ورق القصب الاخضر فى كل شهر مرة فافتتن الناس به وصار ذلك أصلا لعبادة البقر وبنى مواضع كنز فيها كنوزا وأقام عليها أعلاما وبنى في صحراء الغرب مدينة يقال لها دبماس وأقام فيها منارا ودفن حولها كنوزا ويقال ان هذه المدينة قائمة وان قوما جازوا بها من نواحى الغرب وقد ضلوا الطريق فسمعوا بها عزيف الجن ورأوا ضوأ يتراأى بها وفي بعض كتبهم أن ذلك الثور بعد مدة من عبادتهم له أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه ويجعل في التمثال المذكور وعرفهم أنه يلحق بعالمه وأمرهم أن يجعلوا جسده في جرن من حجر أحمر ويدفن في الهيكل وينصب تمثاله عليه وزحل في شرفه والشمس تنظر اليه من تثليث القمر زائد النور وينقش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك وكللوه بجميع الاصناف من الجواهر وجعلوا عينيه جزعتين

وغرسوا في الهيكل عليه شجرة بعد مادفنوه في الجرن الاحمر وبنوا منارا طوله ثمانون ذراعا على رأسه قبة تتلون كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود الى اللون الاول وكسوا الهيكل ألوان الثياب وشقوا نهرا من النيل الى الهيكل وجعل حوله طلسمات رؤسها رؤس القرود على أبدان الناس كل واحد منها لدفع مضرة وجلب منفعة وأقام عند الهيكل أربعة اصنام على أربعة أبواب ودفن تحت كل صنم صنفا من الكنوز وكتب عليها قربانها وبخورها واسكنها الشجرة فكانت تعرف بمدينة الشجرة ومنها كانت اصناف الشجر تخرج وهو أول من عمل النيروز بمصر وفي زمانه بنيت البهنسا وأقام بها اسطوانات وجعل فيها فوقها مجلسا من زجاج أصفر عليه قبة مذهبة اذا طلعت الشمس القت شعاعها على المدينة ويقال انه ملكهم ثمانمائة وثلاثين سنة ودفن في أحد الاهرام الصغار القبلية وقيل في غربي الاشمونين ودفن معه من المال والجوهر والعجائب شئ كثير وأصناف الكواكب (٣) السبعة التي يرى الدفين والحية وألف سرج ذهبا وفضة وعشرة آلاف جام وغضار من ذهب وفضة وزجاج وألف عقاقير لفنون الاعمال وزبروا عليه اسمه ومدة ملكه ووقت موته * وفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ظهر بالاشمونين في واد بين جبلين فساقي مربعة مملوءة ماء عذبا صافيا فمشى شخص على حافتها طول يوم وليلة فلم يبلغ آخرها ويقال انها من عمل سوريد باني الاهرام لتكون عدة لما كانوا قد توقعوه من حدوث طوفان ناري فردم هذا الوادى بعد ذلك خوفا من تلاف الناس * يقول الشيخ الامام محمد بن أحمد الغرياني حدثنى على بن حسن بن خالد الشعرى ثلاث مرات لم يختلف قوله على فيها قال حدثنى رجل من فزارة السا كنين بكورة البهنسا قال خرجت أنا ورجل رفيق لي نرتاد البلاد ونطلب الرزق في الارض وذلك بعد سنة عشر وثمانمائة فقطعنا الجبل الغربى من ناحية البهنسا وسرنا متوكلين على الله تعالى فأقمنا أياما ونحن نمشي مابين الغرب والجنوب فوقعنا فى واد كثير الشجر والنبات والماء والكلا ليس فيه أنيس وهو واد واسع فى الطول والعرض نحو يوم في الطول ويوم فى العرض كله أعين وبساتين نخل وزيتون كثير الابل والمعز والذئب والضبع به كثير والابل به متوحشة وكذلك المعز قد صارت به وحشية بعد أن كانت آنسة به وليس بالوادى لا رائح ولا غادمن الناس قال فأخبرنى أنهما أقاما بالوادى نحوا من شهرين أو ثلاثة وانهما رأيا فى وسط الوادي مدينة حصينة منيعة عالية السور شاهقة القصور فاذا تقربا من سورها سمعا ضجيجا عظيما وأصواتا مهولة مخوفة ورأيا دخانا يرتفع الى جو السماء حتى يغطي سور المدينة وجميع مافيها وان تلك الابل الوحشية عدت على رواحلهما الانسية فآذتها وقتلتها فتحيل عند ذلك الرجلان الفزاريان بحيل وفتلا حبالا وأشراكا شباكا من ليف النخل وقيدا تلك الابل الوحشية وفتلا خوصا وضفرا قفافا من الخوص لزادهما وملآها تمرا وزللا من تلك الابل الوحشية

مكان رواحلهما عوضا عنها وركباها متوجهين نحو الشرق وحملا معهما من الجريد أعني جريد النخل مايعرفان به الطريق التي بينهما وبينها ويجعلان ذلك أمارات لمرورهما اليها فكانا كلما مرا على شرف جعلا عليه جريدتين عاما حتى وصلا الى الجبل الغربي من مصر فنزلا الى البهنسا فعرفا قومهما وتحملا بأهاليهما فلما علوا سطح الجبل الغربي وجدا كل مافرقاه من جريد النخل على رؤس الآكام مجتمعا في مكان واحد في أعلى الجبل فرجعا عند ذلك لاهاليهما ومن معهم الى أرض البهنسا وهذا ماحدثني به والله أعلم

ذكر مدينة الاشمونين

كانت من أعظم مدن الصعيد يقال انها من بناء أشمون بن مصر بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام * وقال ابن وصيف شاه كان أشمون أعدل ولد أبيه وأرغبهم في صنعة تبقى ويبقى ذكرها وهو الذي بني المجالس المصفحة بالزجاج الملون وسط النيل وتقول القبط انه بني سربا تحت الارض من الاشمونين الى أنصنا تحت النيل وقيل انه حفره وعمله لبناته لانهن كن يمضين الي هيكل الشمس وكان هذا السرب مبلط الارض والحيطان والسقف بالزجاج الثخين الملون وقيل ان أشمون كان أطول اخوته ملكا وقال أهل الاثر انه ملك ثمانمائة سنة وان قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة من ملكه وأقاموا تسعين سنة واستولوا على البلد فانتقلوا الى الدثينة من طريق الحجاز الى وادى القرى فعمروها واتخذوا بها المنازل والمصانع وسلط الله عليهم الذر فأهلكهم وعاد ملك مصر الى أشموم ويقال انه عمل على باب الاشمونين اوزة من نحاس فكان الغريب اذا جاء ليدخل المدينة صاحت الاوزة وصفقت بجناحيها فيعلم به فان أحبوا منعوه وان أحبوا تركوه وكثرت الحيات في وقته فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها أدوية وترياقات ثم ساقوها بسحرهم الي وادى الحيات في جبال لوبية ومراقية فسجنوها هناك * وقال في كتاب هروشيش ان أشمون ابن قبط أول ملوك المصريين وانه كان في زمان شاروح بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن أرنخشد بن سام بن نوح وان سني الدنيا صارت الى زمان شاروح ألفين وتسعمائة وخمس سنين يكون ذلك بعد الطوفان بستمائة وثلاث وستين سنة وبها كانت فرهة الخيل والبغال والحمير وكان يعمل بها فرش القرمز الذى يشبه الارمني وكان ينزل بأرض الاشمونين عدة بطون من بني جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه وكانوا بادية أصحاب شوكة وكان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان حلفاء لهم ومعهم بطن آخر يقال لهم بنو عسكر يقال ان أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان ويزعمون أنهم من بني أمية صلبية وكان معهم أيضا حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ينزلون أرض دلجة عند أشمون

﴿ ذكر مدينة اخميم ﴾

ضبطها البكري بكسر الهمزة واسكان الخاء ثم ميم وياء وميم على بناء افعيل وهي في الجانب الشرقي من النيل والذى بناها مناقيوش أحد ملوك القبط الاول * قال ابن وصيف شاه كان جلدا محتكما فاستأنف العمارة وبني القرى ونصب الأعلام وجمع الحكم ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب وبنى لنفسه مدينة انفرد بها وعمل عليها حصنا ونصب عليه أربعة أعلام فى كل ركن من أركانه علم وبين تلك الاعلام ثمانون صنما من نحاس واخلاط فى أيديها السلاح وزبر على صدرها آياتها وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع وكان يعلم الغلمان السحر فاذا حذقوا علم غيرهم فأمر الملك أن يبني له مدينة ويحول اليها وهى اخميم فملكهم مناقيوش نيفا وأربعين سنة ومات فدفن فى الهرم المحاذى لاطفيح ومعه شئ كثير من المال والجوهر والآنية والتماثيل وزبر عليه اسمه والوقت الذى هلك فيه قال وذكر أهل اخميم أن رجلا أتي من الشرق وكان يلزم البربا ويأتي اليــه كل يوم بخور وخلوق فيبخر ويطيب صورة فى عضادة الباب فيجد تحتها دينارا فيأخذه وينصرف ففعل ذلك مدة حتى وشى به غلام له الى عامل البلد فقبض عليه فبذل مالا وخرج عن البلد * وكانت بربا اخميم من أعجب البرابى وأعظمها قد بنيت لخزن برهم فانهم قضوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن لكنهم اختلفوا فيه فقال بعضهم تكون نار فتحرق ماعلى جميع وجه الارض وقال آخرون بل يكون ماء فعملوا هذه البرابي قبل الطوفان وكان فى هذه البربا صور الملوك الذين يملكون مصر وكانت مبنية بحجر المرمر وطول كل حجر منها خمسة أذرع في سمك ذراعين وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع مدهونة باللازورد وغيره من الاصباغ التى يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجدتها وكان كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيارة وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيآت والمقادير فيها رموز علوم القبط من الكيمياء والسيمياء والطلسمات والطب والنجوم والهندسة وغير ذلك أودعوها تلك الصور * وذكر ابن جبير فى رحلته أن طول هذه البربا مائتان وعشرون ذراعا وسعتها مائة وسبعون ذراعا وأنها قائمة على أربعين سارية سوى الحيطان دور كل سارية خمسون شبرا وبين كل ساريتين ثلاثون شبرا ورؤسها في نهاية العظم كلها منقشة من أسفلها الى أعلاها ومن رأس كل سارية الى الاخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت فيها ماذرعه ستة وخمسون شبرا طولا فى عرض عشرة أشبار وارتفاع ثمانية أشبار وسطحها من ألواح الحجارة كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة والاصبغة الغريبة كهيئة الطيور والآدميين وغير ذلك فى داخلها وخارجها وعرض حائط البربا ثمانية عشر شبرا من حجارة مرصوصة كذا قاسها ابن جبير فى سنة ثمان

وسبعين وخمسمائة ويقال ان ذا النون عرف منها علم الكيمياء وما زالت هذه البربا قائمه الي سنة ثمانين وسبعمائة فخربها رجل من أهل اخميم يعرف بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين على ونال منها مالا فلم تطل حياته ومات ومن حينئذ تلاشى أمر اخميم الى أن خربت وقد ذكر جماعة أن بربا اخميم كانت في هيئة غلام أمرد عريان وأن قوما دخلوها مرة فتبعهم وأخذ يضربهم ضربا وجيعا حتى خرجوا هاربين وحكي مثل ذلك عمن دخل الاهرام أيضا * وقد حكي أن رجلا ألصق على صورة من بربا اخميم شمعة فكان اذا تركها في موضع التجأت العقارب اليها واذا وضع الشمعة في تابوت اجتمعت العقارب حوله ويقال انه كان في بربا اخميم شيطان قائم على رجل واحدة وله يد واحدة وقد رفعها الي الهواء وفي جبهته وحواليه كتابة وله احليل ظاهر ملتصق بالحائط وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الاحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر ويعلقه على وسطه فانه لا يزال منعظا الي أن ينزعه ويجامع ماأحب ولا يفتر مادام معلقا عليه وأن بعض من ولي اخميم اقتلعه فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك وكانت الانطاع تجاب من اخميم وبها تعمل ويقال انه كان بها اثنا عشر ألف عريف على السحرة وكان بها شجر البنج ويقال ان الذي بني بربا اخميم اسمه دومريا وانه جعل هذه البربا مثلا للامم الآتية بعده وكتب فيها تواريخ الامم والاجيال ومفاخرهم التي يفتخرون بها وصور فيها الانبياء والحكماء وكتب فيها من يأتي من الملوك الى آخر الدهر وكان بناؤه اياها والنسر برأس الحمل والنسر يقيم عندهم في كل برج ثلاثة آلاف سنة قالت والنسر في زماننا بآخر باب برج الجدى فيكون على ذلك لهذه البربا منذ بنيت نحو الثلاثين الف سنة * وذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسيّ في كتاب تحفة الالباب أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة ولها أربعة أبواب يفضى كل باب الى بيت له أربعة أبواب كلها مظلمة ويصعد منها الي بيوت كالغرف على قدرها

ذكر مدينة العقاب

قال المسعودى مدينة العقاب غربي اهرام أبو صير بالجيزة على مسيرة خمسة أيام بلياليها للراكب المجد وقد عوّر طريقها وعمي المسلك اليها والسمت الذى يؤدى نحوها وفيها عجائب البنيان والجواهر والاموال * وقال ابن وصيف شاه وكان الوليد بن دومع العمليقيّ قد خرج في جيش كثيف يتنقل في البلدان ويقهر ملوكها فلما صار بالشام وجه غلاماً له يقال له عون فسار الى مصر وفتحها ثم سار فتلقاه عون ودخل مصر فاستباح أهلها ثم سنح له أن يقف على مصب النيل فخرج في جيش كثيف واستخلف عوناً على مصر وأقام في غيبته أربعين سنة وان عوناً بعد سبع سنين من مسيره تجبر وادعى أنه الملك وأنكر أن يكون غلام الوليد وانما هو أخوه وغلب بالسحر وسبي الحرائر فمال الناس اليه ولم يدع

امرأة من بنات ملوك مصر الا نكحها ولا مالا الا أخذه وقتل صاحبه وهو مع ذلك يكرم الكهنة ويعظم الهياكل فاتفق انه رأى الوليد فى منامه وهو يقول له من أمرك أن تتسمى باسم الملك وقد علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل ونكحت بنات الملوك وأخذت الاموال بغير واجب ثم أمر بقدر ملئت زيتاً وأحميت حتى غلت ونزع ثيابه ليلقيه فيها فأتاه عقاب فاختطفه وحلق به فى الجو وجعله في هوة على رأس جبل فسقط الى واد فيه حمأة منتنة فانتبه مرعوباً وقص ذلك على كهنته فقالوا نحن نخلصك منه بأن تعمل عقاباً وتعبده فانه الذي خلصك في نومك فقال أشهد لقد قال لي اعرف لي هذا المقام ولا تنسه فعمل عقاباً من ذهب وجعل عينيه جوهرتين ووشحه بالجوهر وعمل له هيكلا لطيفاً وأرخي عليه ستور الحرير وأقبلوا على تبخيره وقربانه حتى نطق لهم فأقبل عون على عبادته ودعا الناس الى ذلك فأجابوه ثم أمر فجمع له كل صانع بمصر وأخرج أصحابه الى صحراء الغرب لطلب أرض سهلة حسنة الاستواء يدخل اليها من مواضع صعبة وجبال وعرة بحيث يقرب من مغيض الماء التي هي اليوم الفيوم وكانت مغيضاً لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام ليجرى الماء منها الى المدينة فخرجوا وأقاموا شهرا يطوفون حتى وجدوا بغيته فلم يبق بمصر فاعل ولا مهندس ولا أحد له بصر بالبناء وقطع الصخور ونحتها الا وجه اليها وأنفذ الف رجل من الجيش وسبعمائة ساحر لمعاونتهم وأنفذ معهم الآلات والازواد على العجل وطريق هذه العجل الى الفيوم في صحراء الغرب واضحة من خلف الاهرام فلما تكامل له ما أراد من نحت الحجارة خطوا المدينة فرسخين فى مثلهما وحفروا في الوسط بئرا جعلوا فيها تمثال خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة نحاس ووجهه الى الشرق وذلك بطالع بيت زحل واستقامته وسلامته وكان في شرفه وذبحوا خنزيرا ولطخوا التمثال بدمه في وجهه وبخروه بشئ من شعره وحشوا جوفه بدمه وشعره وعظامه ولحمه ومرارته وجعلوا في اذنيه من مرارته وحرقوا بقية الخنزير وجعلوا رماده فى قلة من نحاس بين يدي التمثال ونقشوه بآيات زحل ثم بشقوا فى البئر من الجهات الاربع فى كل جهة سربا الى حيطان المدينة وعملوا على أفواهها منافس تجذب الهواء وسدوا البئر وعقدوا فيها قبة على عمد مرتفعة على حيطان المدينة وجعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع بباب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل وجعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديها حراب ووجوهها تجاه الابواب وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود فوقه حجر أحمر عليه حجر أصفر من فوقه حجر أخضر وفوق الجميع حجر أبيض يشف وكلها مبنية بالرصاص المصبوب بين الحجارة وفى قلوبها اعمدة من حديد على بناء الاهرام وجعلوا طول حصنها ستين ذراعا في عرض عشرين وعلى رأس كل باب حصن بأعلاه عقاب كبير من صفر وأخلاط قد نشر

جناحيه وهو أجوف وعلى كل ركن فارس بيده حربة ووجهه الى خارج المدينة وساق الماء الى الباب الشرقي يحدر فى صبه الى الباب الغربي ويخرج الى صهاريج وكذلك من الباب الجنوبى الى الشمالي وترب للعقاب عقبانا ذكورا واجتاب الرياح الى أفواه التماثيل فصار يسمع لها اصوات هائلة ووكل بها ارواحا تمنع الداخل اليها الا أن يكون من أهلها ونصب العقاب الذى يتعبد له تحت القبة فى وسط المدينة على قاعدة بأربعة اركان على كل ركن وجه شيطان وجعلها على عمود يديرها فكان العقاب يدور الى الجهات فيقيم فى كل جهة ربع السنة فلما تم ذلك نقل الى المدينة الاموال والجواهر التي بمصر من عهد الملوك والتماثيل والحكم وتراب الفضة والعقاقير والسلاح وحول اليها كبار السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار وقسم المساكن بينهم لئلا يختلط أهل صناعة بسواهم وعمل بهاربضا لاصحاب المهن والزراعة وعقد على تلك الانهار قناطر يمشى عليها الداخل الى المدينة وجعل الماء يدور حول الربض ونصب عليها أعلاما وحرسا ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل والكرم وجميع اصناف الشجر على أقسام مقسومة ومن وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة كل ذلك خوفا من الوليد * قال وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام وكان يقيم فيها ويخرج اليها ثم يعود الى منف وكان لها أربعة أعياد فى السنة وهى الاوقات التي يحول العقاب فيها فلما تم لعون ذلك اطمأن قلبه الى أن وافى اليه كتاب الوليد من النوبة يأمره بحمل الازواد ونصب الاسواق فوجه اليه فى البر والبحر بما أراد وحول أهله ومن اصطفاه من بنات الملوك والكبراء الى المدينة فلما قرب الوليد خرج اليها وتحصن فيها واستخلف على منف فقدم الوليد وقد سمع مافعله عون فغضب وهم أن يبعث اليه جيشا فعرف بخبر المدينة ومنعتها وخبر السحرة فكتب اليه أن يقدم عليه ويحذره عاقبة التخلف فأجابه ماعلى الملك مني مؤنة ولا تعرض ولا عيب في بلده لانى عبده وأنا له ردء فى هذا المكان من كل عدو يأتيه من الغرب ولا أقدر على المسير اليه لخوفى منه فليقرنى الملك بحالي كأحد عماله وأوجه اليه مايلزمني من خراجه وهداياه وبعث اليه بأموال جليلة وجوهر نفيس فكف عنه وأقام الوليد بمصر حتى مات

ذكر مدينة الفيوم

اعلم أن موضع الفيوم كان مغيض ماء النيل فلما ولي السيد يوسف الصديق عليه السلام تدبير أمور مصر عمرها * قال ابن وصيف شاه ثم ملك الريان بن الوليد وهو فرعون يوسف والقبط تسميه نهراوش فجلس على سرير الملك وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا متمكنا فوعد بالجميل وأسقط عن الناس خراج ثلاث سنين وفرق المال في الخاص والعام وملك على البلد رجلا من أهل بيته يقال له أطفين وهو الذي يسميه أهل الاثر العزيز فأمر أن ينصب

له في قصر الملك سرير من فضة يجلس عليه ويغدو فيه ويروح الى باب الملك ويخرج العمال والكتاب بين يديه فكفى نهراوش ماخلف ستره وقام بجميع أموره وخلاه للذته فانغمس نهراوش في لهوه ولم ينظر في عمل ولا ظهر للناس حينا والبلد عامر وهو لايسأل عن شئ وعمل له مجالس من زجاج ملون وحولها ماء فيه أسماك مفرطة وبلور ملون فكان اذا وقعت عليه الشمس ظهر له شعاع عجيب وعملت له عدة منتزهات على عدد أيام السنة فكان كل يوم في موضع منها وعمل له في كل موضع من الآنية والفرش ماليس لغيره فاتصل بملوك النواحي تشاغله بلذته وتدبير أطفين فسار ملك من العمالبق يقال له أبو قابوس عاكر بن يحوم الى مصر ونزل على حدودها فجهز اليه العزيز جيشا عليه قائد يقال له بريانس فأقام يحاربه ثلاث سنين فظفر به العمليقي وقتله وهدم الاعلام والمصانع وقوى طمعه في البلد فاجتمع الناس الى قصر الملك واستغاثوا فخرج اليهم وعرض جيوشه وخرج في ستمائة ألف مقاتل سوي الاتباع فالتقوا من وراء الحوف وكان بينهما قتال شديد فانهزم العمليقي وتبعه نهراوش الى حد الشام وقتل خلقا من أصحابه وأفسد زروعهم وأشجارهم وحرق وصلب ونصب أعلاما على الاماكن التي وصلها وزبر عليها اني لمن تجاوز هذا المكان بالمرصاد وقيل انه بلغ الموصل وضرب على أهل الشام خراجا وبني عند العريش مدينة لطينة وشحنها بالرجال ورجع الى مصر فحشد من جميع الاعمال جنودا واستعد لغزو ملك الغرب وخرج في سبعمائة ألف فمر بأرض البربر وأجلي كثيرا منهم وجهز قائدا في السفن من ناحية رقودة الى جزائر بني يافث فعاث فيها وخرج من ناحية أرض البربر فقتل وصالح بعضهم على مال حملوه اليه ومضي الى أفريقية وقرطاجنة فصالحوه على مال ومر حتى بلغ مصب البحر الاخضر الى بحر الروم وهو موضع أصنام النحاس فأقام هناك صنما زبر عليه اسمه وتاريخ خروجه وضرب على أهل تلك النواحى الخراج وعدى الى الارض الكبيرة وسار الى الاندلس فحاربه ملكها اياما ثم صالحه على مال وأن يمنع من يغزو مصر من ناحيته وانصرف على غير البحر مشرقا في بلاد البربر فلم يمر بأمة الا ودخلت في طاعته ومر في الجنوب فقتل خلقا وبعث قائدا الى مدينة على البحر الاسود فخرج اليه ملكها وذكر له حال الريان ومصالحة الملوك له فقال مابلغنا أحد قط وسأله القائد عن البحر هل ركبه أحد قط فقال مايقدر أحد على ركوبه وربما أظله غمام فلا يرى اياما وقدم الريان فحملوا الهدايا اليه وفاكهة أكثرها الموز وحجارة سوداء اذا جعلت في الماء صارت بيضاء ثم سار الملك على أمم السودان الى مملكة الدمدم الذين يأكلون الناس فخرجوا اليه عراة فهزمهم وظفر بهم ومر على البحر المظلم فغشيهم منه غمام فترجع شمالا حتى انتهى الى تمثال من حجر أحمر يومئ بيده ارجعوا وعلى صدره مزبور ماوراءئ أحد فسار الى مدينة النحاس فلم يصل اليها ومضى الى الوادى

المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يرون أحداً لشدة ظلمته وسار الى وادي الرمل فرأى على معبره أصناما عليها اسماء الملوك فأقام عليه صنما زبر عليه اسمه فلما أثبت الرمل جاز عليه الى الخراب المتصل بالبحر الاسود فرأى سباعا يزئر بعضها على بعض فحكم أنه لامذهب له من ورائها فرجع وعدى وادي الرمل ومر بأرض العقارب فهلك بعض اصحابه ودفعوا عن أنفسهم أذاها بالرقى وجازها الى مدينة الحكماء وتعرف بمدينة السكند ففروا منه الى جبل فأقام عليه اياما حتى كاد يهلك جيشه عطشا فنزل اليه من الجبل رجل من أفاضل الحكماء وقد لبس شعره جسده فقال للملك أين تريد أيها المغرور الممدود له في الاجل المرزوق فوق الكفاية أتعبت نفسك وجيشك ألا اجترأت بما تملكه واتكلت على خالقك وربحت الراحة وتركت العناء والغرر بهذا الخلق فعجب من قوله وسأله عن الماء فدله عليه وسأله عن موضعهم فقال موضع لايصل اليه أحد ولا بلغه قبلك أحد فقال ماعيشك قال من أصول النبات نقنع به ويكفينا اليسير قال فمن أين تشربون قال من الامطار والثلوج قال فلم هربتم منا قال زهادة في مخالطتكم والا فليس لنا مانخافكم عليه قال فكيف بكم اذا حميت الشمس قال نأوى الى غيران تحت هذا الجبل قال فهل لكم في مال اخلفه لكم قال انما يريد المال أهل الترف ونحن لانستعمل منه شيئاً استغنينا عنه بما قد اكتفينا به وعندنا منه مالو رأيته لاحتقرت ماعندك قال فأرنيه فانطلق بنفر من أصحابه الى أرض في سفح جبالهم فيها قضبان ذهب نابتة وأراهم واديالهم في حافتيه حجارة زبرجد وفيروز فأمر نهراوش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة ففعلوا ورأى الحكيم جماعة الملك يصلون الى صنم يحملونه معهم فسأل الملك أن لايقيم بأرضهم وخوفه من عبادة الاصنام فودعه وسار فلم يمر بأمة الا أثر فيها حتى بلغ النوبة فصالحهم على مال وأقام على دنقلة صنما وزبر عليه اسمه ومسيره وسار يريد مدينة منف فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح والسرور والرياحين والطيب الى أن بلغ منف فخرج أهلها اليه مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب وكان العزيز قد بني له مجلسا من زجاج ملون وفرشه بأحسن فرش وغرس حوله الاشجار والرياحين وجعل فيه بحرة من زجاج سماوي وفي أرضه شبه السمك من زجاج أبيض فنزل الملك فيه وأقام الناس يأكلون ويشربون اياما كثيرة وتفقد جيشه ففقد منهم سبعين ألفا ووجد فيهم ممن أسره نيفا وخمسين ألفا فكانت مدة غيبته عن مصر في مسيره هذا احدى عشرة سنة فلما بلغ الملوك قدومه هابوه واشتد بأسه وتجبر وبني في الجانب الشرقي قصورا من رخام ونصب عليها أعلاما وأمر بالعمارة واصلاح الجسور واستنباط الاراضى حتى زاد الخراج على مائة ألف ألف دينار ودخل الى البلد في أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه اخوته وباعوه وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم فوقف الغلام ونودى عليه وهو *

يوسف الصديق ابن يعقوب بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم وسلامه فاشتراه اطفين ليهديه الى الملك فلما أتى به قصره رأته امرأته زليخا وهي ابنة عمه فقالت اتركه لنا نربيه لينفعنا وكان من أمرها ما قصه الله تعالى فى القرآن فكانت تكتم حبه حتى غلبت نحلت به وتزينت له وعرفته أنها تحبه وانه ان واتاها على ما تريده منه حبته بمال عظيم فامتنع من ذلك ورأت أن تغلبه فما زالت تعاركه وهو ممتنع منها الى أن وافى زوجها ورآه وهو هارب منها وكان العزيز عنينا لا يأتي النساء فجعل يوسف يعتذر اليه وقالت انى كنت نائمة فأتاني يراودني عن نفسي وتبين من شاهد أهلها أن الامر من قبل امرأته فقال ليوسف أعرض عن هذا أي عن اعتذارك وقال لها استغفرى لذنبك وقد كان خبر أطفين والغلام بلغ الملك وكان نهراوش عاود العكوف على اللهو والاحتجاب عن الناس واتصل خبر زليخا ويوسف بنساء الخاصة فعيرنها بذلك فدعت جماعة منهن وصنعت لهن طعاما وشرابا وعملت مجلسين مذهبين وفرشتهما بديباج أصفر مذهب وأرخت عليهما ستور الديباج وأمرت المواشط بتزيين يوسف واخراجه من المجلس الذى يحاذى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه وكان المجلس محاذيا للشمس فأخذته المواشط ونظمن شعره بأصناف الجواهر وألبسنه ثوب ديباج أصفر قد نسج بدارات حمر مذهبة فيها اطيار صغار خضر مبطن ببطانة خضراء ومن تحته غلالة حمراء وعلى رأسه تاج قد نظم بالدر والجوهر وأخرجن من تحت التاج أطراف شعره على جبهته ورددن ذوائبه على صدره وجعلن جبهته مكشوفة والتاج محيط بها وفي اذنيه قرطى جوهر ومن خلف طوق القباء شعر مسبل بين كتفيه منظوم مشبك بالذهب والجوهر وفي عنقه طوق منظوم بذهب مشدد بجوهر أحمر ودر فاخر وفى وسطه منطقة ذهب فيها والواب جو هو ملون ولها معاليق منظومة وألبسنه خفين أبيضين منقوشين بأخضر على نقوش ذهب وجعلن للقباء الذى عليه وشاحين وافراورا يحيط بأسفله وكميه من جوهر أخضر وعقر بن صدغيه على خديه وكحلن عينيه ودفعن اليه مذبة شعرها أخضر فلما فرغ النساء من طعامهن وشربن أقداحا قدمت اليهن سكاكين قبضهن من جوهر ليقطعن بها الفاكهة فيقال انهن اخذن اترجا وهن يقطعنه اذ قالت لهن قد بلغني حديثكن فى أمري مع عبدى فقلن لها الامر كما بلغك لانك أعلى قدرا من هذا ومثلك يرتفع عن أولاد الملوك لحسنك وشرفك فكيف ترضين بغلامك فقالت لم يبلغكن الصدق ولا هو عندى بهذا وأومأت الى المواشط أن يخرجن يوسف فرفعن الستور عن المجلس الذى يحاذى مجلسها وبرز منه يوسف محاذيا بوجهه الشمس فأشرق المجلس وما فيه من وجه يوسف وأقبل بالمذبة وهن يرمقنه فوقف على رأس زليخا يذب عنها فاشتغل النساء برؤيته وجعلن يقطعن أيديهن موضع الفاكهة التي كانت معهن ولا يبين الكلام ذهولا منهن بما رأين من حسن يوسف فقالت

لهن زليخا مالكن قد اشتغلتن عن خطابي بالنظر الى عبدى فقلن معاذ الله ماهذا عبدك ان هذا الاملاك كريم ولم يبق منهن امرأة الا حاضت وأنزلت شهوة من محبته فقالت زليخا عند ذلك فهذا الذى لمتنني فيه فقلن ماينبغي لاحد أن يلومك في هذا ومن لامك فقد ظامك فدونكه قالت قد فعلت فأبي على فخاطبنه لي فكانت كل واحدة منهن تخاطبه وتدعوه سرا الى نفسها وتبتذل له وهو يمتنع عليها فاذا يئست منه أن يجيبها لنفسها خاطبته من جهة زليخا وقالت مولاتك تحبك وأنت تكرهها ماينبغي أن تخالفها فقال مالي بذلك حاجة فلما رأين ذلك احجمن على أخذه غصبا فقالت زليخا لايجوز هذا لكنه ان لم يفعل لامنعنه اللذات ولأسجننه وأنزع جميع ماأعطيته فقال يوسف رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه فأقسمت بالهها وكان صنما من زبرجد أخضر باسم عطارد انه ان لم يفعل لتسجنان له ذلك ثم أمرت بنزع ثيابه وألبسته الصوف وسألت العزيز حبسه ليزول ماقذفها به فأمر به فحبس ورأى الملك في منامه كان آتيا أتاه فقال له ان فلانا وفلانا قد عزما على قتلك يريد صاحبي طعامه وشرابه فلما أصبح قررهما فاعترفا له وقيل اعترف أحدهما وأنكر الآخر فأمر بحبسهما وكان اسم صاحب الطعام راسان واسم صاحب الشراب مرطس وكان يوسف عليه السلام وهو في السجن رؤفا بمن فيه ويعدهم الفرج فأخبره صاحبا طعام الملك وشرابه برؤياهما التي قصها الله في كتابه فوقع كما قصه يوسف ورأى الملك البقرات والسنابل فعرفه الساقي خبر يوسف فمضى اليه وقصها عليه فلما عاد الى الملك قال جيؤني به فقال يوسف ما أخرج أو يكشف أمر النسوة اللاتي من أجلهن حبست فكشف عن ذلك فاعترفت زليخا بالقصة ووجه اليه فأخرج وغسل من درن السجن وألبس مايليق بالدخول على الملوك فلما رآه امتلأ قلبه من حبه واكباره وسأله عن الرؤيا ففسرها كما قال الله تعالى فقال الملك ومن يقوم لي بذلك قال أنا فخلع عليه خلع الملوك وألبسه تاجا وأمر أن يطاف به وركب الجيش معه وتردد الى قصر الملك وجلس على سرير العزيز واستخلفه الملك على ملكه مكانه * ويقال ان العزيز أطفين كان قدمات فزوجه امرأته وقال لها يوسف هذا أصلح مما أردت فقالت اعذرني ان زوجي كان عنينا ولم ترك امرأة الاصبا قلبها اليك من حسنك وجاءت سنو خصب في مصر فجمع يوسف الغلال وخزنها وأكثر منها فلما جاءت سنو الجدب بدأ النيل في النقصان وكان ينقص كل سنة أكثر من التي قبلها فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال والجوهر والدواب والثياب والآنية والعقار وكاد أهل مصر يرحلون عنها لولا تدبير يوسف وقحط الشام أيضاً وكان من مجيء اخوة يوسف ماقصه الله تعالى ووجه الى أبيه فحمل الى مصر وجميع أهله وخرج في وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك وكان يعقوب مهابا فأعظمه الملك وسأله عن سنه وصناعته وعبادته فقال سني عشرون ومائة سنة وأما صناعتي فلنا غنم ترعى ننتفع بها

وأعبد رب العالمين الذى خاقك وخلقنى وهو اله آبائي والهك واله كل شئ وكان في مجلس الملك كاهن جليل القدر فقال للملك انى أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هـذا فقال له الملك فأنى لنا خبره فقال الكاهن ليعقوب أرنى الهك أيها الشيخ قال الهى أعظم من أن يرى قال فانا نرى آلهتنا قال ان آلهتكم من ذهب وفضة وحجارة وجوهر ونحاس وخشب مما يعمله بنو آدم وهم عبيد الهى لااله الا هو العزيز الحكيم قال الكاهن ان كل شئ لاتراه العيون ليس بشئ فغضب يعقوب وكذبه وقال ان الله شئ لا كالاشياء وهو خالق كل شئ لااله الا هو قال فصفه لنا قال انما يوصف المخلوق لـكنه خالق واحد قديم مدبر أزلي يرى ولا يرى وقام يعقوب مغضبا فأجلسه الملك وأمر الكاهن فـكف عنه فقال الكاهن انا نجد فى كتبنا أن خراب مصر يجرى على ايدى هؤلاء فقال الملك هذا يكون في ايامنا قال لا ولا الى مدة كثيرة والصواب أن يقتله الملك ولا يبقى من ذريته أحدا فقال الملك ان كان الامر كما تقول فلا يمكننا أن ندفعه ولا نقدر على قتل هؤلاء وأنزل يعقوب ومن معه بوادى السدير الى أن مات فحمل الى قرية ابراهيم عليه السلام ودفن عنده ويقـال أن نهراوش الملك آمن وكتم ايمانه خوفا من فساد أمره وأقام ملكا مائة وعشرين سنة وفي وقته عمل يوسف الفيوم فان أهل مصر كانوا وشوا به الى الملك وقالوا قد كبر ونقص نفعه فاختبره فقال له انى وهبت هذه الناحية لابنتي وكانت مغايض للماء فدبرها لها فعملها يوسف واحتال للمياه حتى أخرجها وقلع او حالها وساق النهى وبنى اللاهون وجعل المـاء فيها مقسوما موزونا وفرغ منها في شهور أربعة فعجبوا من حكمته * ويقال انه أول من هنـدس بمصر ومات نهراوش فخلف ابنه درجوش وسمته أهل الاثر دارم بن الريان وهو الفرعون الرابع عندهم فخالف سنة أبيه وكان يوسف خليفته فتبل منه بعضا وخالفه في البعض فمات يوسف فى أيامه وله مائة وعشرون سنة فكفن وجعل في تابوت من رخام ودفن فى الجانب الغربى فأخصب ونقص الشرقى فحول اليه فأخصب ونقص الغربى فاتفقوا على أن يجعلوه فى الشرقى عاما وفى الغربي عاما ثم حدث لهم من الرأى أن يجعلوا له حلقا وثاقا ويشدوا التابوت فى وسط النيل فأخصب الجانبان كلاهما * وقال ابن عبد الحكم فلكهم الريان بن الوليد بن دومع وهو صاحب يوسف النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأى الملك رؤياه التى رأى وعبرها يوسف أرسل اليـه الملك فأخرجه من السجن قال ابن عباس رضي الله عنهما فأتاه الرسول فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له أهل السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سـنة فلما أتاه رأى غلاما حدثا فقال أيعلم هذا رؤياي ولا تعلمها السحرة والـكهنة وأقعده قدامه وقال له لاتخف قال فلما استنطقه وسأله عظم في عينيه وجعل اليه أمره فدفع اليه خاتمه وولاه ما خلف بابه وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب بالطبل

بمصر ان يوسف خليفة الملك * وعن عكرمة أن فرعون قال ليوسف قد سلطتك على مصر غير أني أريد أن أجعل كرسي أطول من كرسيك بأربع أصابع قال يوسف نعم وأجلسه على السرير ودخل الملك بيته مع نسائه وفوض أمر مصر كلها اليه فبسبب عبارة رؤيا الملك ملك يوسف مصر * وعن الليث بن سعد قال حدثني مشيخة لنا قالوا اشتد الجوع على أهل مصر فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهبا فاشتروا بالفضة حتى لم يجدوا فضة فاشتروا بأغنامهم حتى لم يجدوا غنما فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة ولا ذهب ولا شاة ولا بقرة في تلك السنين فأتوه في الثالثة فقالوا لم يبق لنا الا أنفسنا وأهلونا وأرضونا فاشترى يوسف أرضهم كلها لفرعون ثم أعطاهم يوسف طعاما يزرعونه على أن لفرعون الخمس ويقال في خبر بناء يوسف عليه السلام مدينة الفيوم أنه لما وزر لفرعون ثلاثين سنة عزله فقال لم عزلتني فقال لم أعزلك لريبة ولا أنسى بركتك ولكن آبائي عهدوا الى أن لا يتولى لنا وزير أكثر من ثلاثين سنة وأنا نخشى أن يتأصل الوزير حتى يدبر على الملك فقال له يوسف قد علمت نصحي لك حتى صيرت ديار مصر كلها ملكا لك فأقطعني أرضا تكون لقوتي وقوت أهلي وعشيرتي فقال له فرعون اختر حيث شئت فمشى يوسف في قفار الارض حتى رأى أرض الفيوم وفيها جبل حائل بين النيل وبينها فوزن ماء النيل حتى رأى أن قاعها يركبه النيل فخرق خرقا في ذلك الجبل وساق الماء فيه الى الفيوم فسقى الارض وعمل في جوانب الماء ثلثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة وشحنها بالغلال والاقوات التي ازدرعها فكان اذا نقص النيل ووقع الجوع بأرض مصر باع كل يوم ماجمعه في قرية من قرى الفيوم حتى ملك مصر لنفسه كما جمعها للملك فعظم شأن يوسف وكثر ماله فرده الملك بعد مدة الى وزارته وتوفى وهو وزير فأوصى بخروج جثته الى الارض المقدسة فخرج بها هارون بن افرايم بن يوسف في مائة ألف من بنى اسرائيل فهزمته الجبابرة فيما بين مصر والشام وهلك أكثر من معه وعاد بمن بقى معه الى مصر فأقاموا بها حتى بعث الله موسى بن عمران عليه السلام الى فرعون رسولا فخرج ببنى اسرائيل من مصر ومعه جثة يوسف عليه السلام وفي ذلك الزمان استنبطت الفيوم وقيل كان سبب ذلك أن يوسف عليه السلام لما ملك مصر وعظمت منزلته من فرعون وجاوز سنه مائة سنة قال وزراء الملك له ان يوسف قل علمه وتغير عقله ونفدت حكمته فعنفهم فرعون ورد عليهم مقالتهم وأساء اللفظ لهم فكفوا ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين فقال لهم هلموا ماشئتم من أى شئ أختبره به وكان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة وانما كانت لمصالة ماء الصعيد وفضوله فاجتمع رأيهم على أن تكون هى المحنة التي يمتحنون بها يوسف فقالوا لفرعون سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها ويخرجه منها فتزداد بلدا الى بلدك وخراجا الى خراجك فدعا يوسف فقال تعلم مكان

ابنتي فلانة مني وقد رأيت اذا بلغت أن أطلب لها بلدا واني لم أصب لها الا الجوبة وذلك أنه بلد بعيد قريب لا يرى بوجه من الوجوه الا من غابة أو صحراء وكذلك ليست هي تؤتى من ناحية من النواحي من مصر الا من مفازة وصحراء فالفيوم وسط مصر كمثل مصر في وسط البلاد لان مصر لا تؤتى من ناحية من النواحي الا من صحراء أو مفازة قال وقد اقتطعتها اياها فلا تتركن وجها ولا نظرا الا بلغته فقال يوسف نعم أيها الملك متى أردت ذلك فابعث الى فاني ان شاء الله فاعل ذلك قال ان أحبه الى وأرفعه اعجله فأوحي الي يوسف أن تحفر ثلاثة خلج خليجا من أعلى الصعيد من موضع كذا الى موضع كذا وخليجا شرقيا من موضع كذا الى موضع كذا وخليجا غربيا من موضع كذا الى موضع كذا فوضع يوسف العمال لحفر خليج المنهى من أعلى أشمون الى اللاهون وأمر البنائين أن يحفروا اللاهون وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقى وحفر خليجا بقرية يقال لها بنهمت من قرى الفيوم وهو الخليج الغربى نخرج ماؤها من الخليج الشرقى فصب في النيل وخرج من الخليج الغربى فصب فى صحراء بنهمت الى الغرب فلم يبق فى الجوبة ماء ثم أدخلها الفعلة فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء وأخرجه منها وكان ذلك ابتداء جرى النيل وقد صارت أرض الجوبة نقية برية وارتفع ماء النيل فدخل في رأس المنهي فجرى فيه حتي انتهي الى اللاهون فقطعه الى الفيوم فدخل خليجها فسقاها فصارت لجة من النيل وخرج اليها الملك ووزراؤه وكان هذا كله فى سبعين يوما فلما نظر اليها الملك قال لوزرائه أولئك هذا عمل الف يوم فسميت الفيوم وأقامت تزرع كما تزرع غوائط مصر قال وقد سمعت فى استخراج الفيوم غير هذا أن يوسف عليه السلام ملك مصر وهو ابن ثلاثين فأقام يدبرها أربعين سنة فقال أهل مصر قد كبر يوسف واختلف رأيه فعزلوه وقالوا اختر لنفسك من الموات أرضا نقطعها لنفسك وتصلحها وتعمل رأيك فيها فان رأينا من رأيك وحسن تدبيرك ما نعلم انك في زيادة من عقلك رددناك الى ملكك فاعترض البرية فى نواحى مصر فاختار موضع الفيوم فاعطيها فشق اليها خليج المنهي من النيل حتي أدخله الفيوم كلها وفرغ من حفر ذلك كله فى سنة * قال يزيد بن أبي حبيب وبلغنا أنه انما عمل ذلك بالوحي وقوى على ذلك بكثرة الفعلة والاعوان فنظروا فاذا الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له بمصر كلها مثلا ولا نظيرا فقالوا ما كان يوسف قط أفضل عقلا ولا رأيا ولا تدبيرا منه اليوم فردوا اليه الملك فأقام ستين سنة أخرى تمام مائة سنة حتي مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة قال ثم بلغ يوسف قول وزراء الملك وانه انما كان ذلك على المحنة منهم له فقال للملك عندى من الحكمة والتدبير غير ما رأيت فقال له الملك وما ذاك قال أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهل بيت وآمر أهل كل بيت أن يبنوا لانفسهم قرية وكانت قرى الفيوم على

عدد كور مصر فاذا فرغوا من بناء قراهم صيرت لكل قرية من الماء بقدر ما أصير لها من الارض لايكون في ذلك زيادة ولانقص وأصير لكل قرية شربا في زمان لاينالهم الماء الا فيه واصير مطاطئا للمرتفع ومرتفعا للمطاطئ باوقات من الساعات فى الليل والنهار وأصير لها قبضات فلا يقصر باحد دون حقه ولا يزداد فوق قدره فقال له فرعون هذا من ملكوت السماء قال نعم فبدأ يوسف فأمر ببنيان القرى وحدد لها حدودا وكانت أول قرية عمرت بالفيوم قرية يقال لها سانه وهى القرية التي كانت تنزلها بنت فرعون ثم امر بحفر الخليج وبنيان القناطر فلما فرغوا من ذلك استقبل وزن الارض ووزن الماء ومن يومئذ حدثت الهندسة ولم يكن الناس يعرفونها قبل ذلك وكان أول من قاس النيل بمصر يوسف ووضع مقياسا بمنف * قال جامعه وفي التوراة ان فرعون ألزم بني اسرائيل البناء وضرب اللبن فبنوا له عدة مدن محصنة منها فيثوم وعرمسيس قال الشارح هى الفيوم وحوف رمسيس وفي زمان الريان بن الوليد دخل يعقوب عليه السلام وولده مصر وهم ثلاثة وسبعون نفسا ما بين رجل وامرأة فأنزلهم يوسف مابين عين شمس الى الفرما وهى أرض ريفية برية وكان يعقوب لما دنا من مصر أرسل يهودا الى يوسف فخرج اليه يوسف فلقيه فالتزمه وبكى فلما دخل يعقوب على فرعون كلمه وكان يعقوب شيخا كبيراً حليما حسن الوجه واللحية جهير الصوت فقال له فرعون أيها الشيخ كم أتي عليك قال عشرون ومائة وكان بهمن ساحر فرعون قد وصف صفة يعقوب ويوسف وموسى صلوات الله عليهم في كتبه وأخبر أن خراب مصر وهلاك أهلها يكون على أيديهم ووضع البربايات وصفات من تخرب مصر على يديه فلما رأى يعقوب قام الى مجلسه فكان أول ما سأله عنه أن قال من تعبد أيها الشيخ قال له يعقوب أعبد الله اله كل شيء فقال فكيف تعبد من لاترى قال يعقوب انه أعظم وأجل من أن يراه أحد قال فنحن نرى آلهتنا قال يعقوب ان آلهتكم من عمل أيدى بنى آدم من يموت ويبلى وان الهي لأعظم وأرفع وهو أقرب الينا من حبل الوريد فنظر بهمن الى فرعون فقال هذا الذى يكون هلاك بلادنا على يديه قال فرعون أفي أيامنا أوفي أيام غيرنا قال ليس في أيامك ولا أيام بنيك قال الملك فهل تجد هذا فيما قضى به الهكم قال نعم قال فكيف تقدر أن تقيل من يريد الهه هلاك قومه على يديه فلا يعبأ بهذا الكلام * وعن كعب أن يعقوب عاش في أرض مصر ست عشرة سنة فلما حضرته الوفاة قال ليوسف لا تدفني بمصر فاذا مت فاحملوني فادفنوني في مغارة جبل حبرون وحبرون مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام وبينه وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا قال فلما مات لطخوه بمر وصبر وجعلوه في تابوت من ساج فكانوا يفعلون به ذلك أربعين يوما حتى كلم يوسف فرعون فأعلمه أن أباه قد مات وانه سأله أن يقبره في أرض كنعان فأذن له وخرج معه أشراف أهل مصر

حتي دفنه وانصرف وقيل قبر يعقوب بمصر فأقام بها نحوا من ثلاث سنين ثم حمل الى بيت المقدس وأوصاهم بذلك عند موته قال ثم مات الريان بن الوليد فملكهم من بعده ابنه دارم بن الريان وفي زمانه توفي يوسف عليه السلام فلما حضرته الوفاة قال انكم ستخرجون من أرض مصر الى أرض آبائكم فاحملوا عظامي معكم فمات فجعلوه في تابوت ودفنوه في أحد جانبي النيل فأخصب الجانب الذي كان فيه وأجدب الجانب الآخر فحولوه الى الجانب الآخر فأخصب الجانب الذي حولوه اليه وأجدب الآخر فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فجعلوها في صندوق من حديد وجعلوا فيه سلسلة وأقاموا عمودا على شاطئ النيل وجعلوا في اصله سكة من حديد وجعلوا السلسلة في السكة وألقوا الصندوق في وسط النيل فاخصب الجانبان جميعا* وكان سبب حمل عظام يوسف من مصر الى الشام أن سارة ابنة أسر بن يعقوب عمرت حتى صارت عجوزا كبيرة ذاهبة البصر فلما سرى موسى عليه السلام ببني اسرائيل غشيتهم ضبابة حالت بينهم وبين الطريق أن يبصروه وقيل لموسي لن تعبر الا ومعك عظام يوسف قال ومن يدرى أين موضعها قالوا عجوز كبيرة ذاهبة البصر تركناها في الديار فرجع موسى فلما سمعت حسه قالت ماردك قال أمرت أن أحمل عظام يوسف قالت ما كنتم لتعبروا الا وأنا معكم قال دليني على عظام يوسف فدلته عليها فأخذ عظام يوسف معه الى التيه *(يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم)* خليل الرحمن صلوات الله عليهم أحد الاسباط الاثنى عشر ولد بارض كنعان من بلاد الشام ورای الاحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين وعمره سبع عشرة سنة وكاد اخوته على ذلك وباعوه من قوم مدنيين فساروا به الى مصر وباعوه لقائد فرعون فأقام في منزله اثنى عشر شهرا ثم راودته امرأة العزيز عن نفسه فاعتصم وكذبت عليه الى أن حبس ومكث في السجن عشر سنين وقيل غير ذلك فلم يزل في السجن الى أن رأى الساقي والخباز ذينك المنامين وفسر لهما يوسف وخرجا فأنسى الساقي يوسف سنتين الى أن رأى الملك البقر والسنابل فذكره وأتاه فقص عليه الرؤيا وعبرها فأخرج من السجن وله حينئذ ثلاثون سنة فاستوزره الملك ومن ذلك الوقت الى أن صار يعقوب الي مصر تسع سنين منها سبع سنين من سني الشبع وسنتان من سني الجوع وكان ليعقوب في السنة التى صار فيها الى مصر مائة سنة وثلاثون سنة وكان أهل بيته حينئذ سبعين نفسا ومنذ سار الى مصر الى أن ولد موسى عليه السلام مائة وثلاثون سنة أخري فلما مضى له بمصر سبع عشرة سنة توفي وعمره مائة وسبع وأربعون سنة فخاف الاسباط حينئذ مقابلة يوسف اياهم فقالوا ان أباك أوصى أن تغفر ذنب اخوتك فانك وهم عبيد الله اله أبيك فبكى يوسف وقال لهم لا تحتاجون الي ذلك ووعدهم بخير تممه لهم ومات يوسف وله مائة سنة وعشر سنين والله أعلم

﴿ ذكر ما قيل في الفيوم وخلجانها وضياعها ﴾

قال اليعقوبي كان يقال في متقدم الايام مصر والفيوم لجلالة الفيوم وكثرة عمارتها وبها القمح الموصوف وبها يعمل الخيش * وحكى المسعودى أن معنى الفيوم ألف يوم * قال القضاعي الفيوم وهي مدينة دبرها يوسف النبي عليه السلام بالوحي وكانت ثلثمائة وستين ضيعة تمير كل ضيعة منها مصر يوما واحدا فكانت تمير مصر السنة وكانت تروى من اثنى عشر ذراعا ولا يستبحر ما زاد على ذلك فان يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى ورتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه وقومه بالحجارة المنضدة وبنى به اللاهون * وقال ابن رضوان الفيوم يخزن فيه ماء النيل ويزرع عليه مرات في السنة حتى انك ترى هذا الماء اذا خلي يغير لون النيل وطعمه وأكثر ما تحتن هذه الحالة في البحيرة التي تكون في أيام القيظ سفط ونهيا وصاعدا الى ما يلي الفيوم وهذه حالة تزيد في رداءة أهل المدينة يعني مصر ولا سيما اذا هبت ريح الجنوب فان الفيوم فى جنوب مدينة مصر على مسافة بعيدة من أرضها وقال القاضي السعيد أبو الحسن على بن القاضي المؤتمن بقية الدولة أبي عمرو عثمان بن يوسف القرشي المخزومي في كتاب المنهاج في علم الخراج وهذه الاعمال من أحسن الاشياء تدبيرا وأوسعها أرضاً وأجودها قطرا وانما غلب على بعضها الخراب لخلوها من أهلها واستيلاء الرمل على كثير من أرضها وقد وقفت على دستور عمله أبو اسحاق ابراهيم بن جعفر بن الحسن بن اسحاق لذكر خلجان الاعمال المدثورة وما عليها من الضياع وقد أوردته ههنا وان كان منه ما قد دثر ومنه ما تغيرت أسماؤه ومنه ما جهلت مواضعه بالدثور ولكن أوردته ليعلم منه حال العامر الآن ويستقصى به من له رغبة في عمارة مايقدر عليه من الغامر وفي ايراده مصلحة ليعلم شرب كل موضع ونسخته *(دستور)* على ما أوضحه الكشف من حال الخلج الامهات بمدينة الفيوم وما لها من المواضع وشرب كل ضيعة منها ورسمها فى السد والفتح والتعديل والتحرير وزمان ذلك عمل في جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة نبتدئ بعون الله وحسن توفيقه بذكر حال البحر الاعظم الذى منه هذا الخليج فنذكر مادته التي صلاحه بصلاحها *(خليج الفيوم الاعظم)* يصل الماء الى هذا الخليج من البحر الصغير المعروف بالمنهى ذي الحجر اليوسفي وفوقه هذا البحر عند الجبل المعروف بكرسى الساحرة من أعمال الاشمونين ومنه شرب بعض الضياع الاشمونية والقيسية والاهناسية وعلى جانبيه ضياع كثيرة شربها منه وشرب كروم ماله كروم منها قال *(الحجر اليوسفى)* والحجر اليوسفى جدار مبني بالطوب والجير المعروف عند المتقدمين بالصاروج وهو الجير والزيت وبناؤه من جهة الشمال الى الجنوب ويتصل من نهايته من الجنوب بجدار بناؤه مثل بنائه على استقامة من الغرب الى الشرق ويحصره ميلان منه فى نهايته وطوله مائتا

ذراع بذراع العمل ويتصل بهذا الجدار على طول ثمانين ذراعا منه من جهة الغرب نهاية الجدار الاعظم من الجنوب وفائدة بناء الجدار الاعظم رد الماء اذا انتهى الى حدود اثنى عشرة ذراعا الى مدينة الفيوم وطول مايتصل منه الجدار الذى من جهة الغرب الى الشرق ثم يتصل بالميل ثم يخفض من حدود هذا الميل الى ميل مثله يقابله من جهة الشمال خمسون ذراعا و بعد مابين هذين الميلين وهو المنخفض مائة ذراع وعشرة أذرع ومقدار المنخفض منه أربعة أذرع وهـذا المنخفض هو الذى يسد بجسر من حشيش يسمى ابشا وعرض ما يجري عليه الماء وهو موضع اللبش وما قابله الى جهة الشرق أربعون ذراعا وعليه مسك اللبش الثانى ويتصل بهذا الميل الى جهة الشمال ماطوله ثلثمائة واثنان وسبعون ذراعا ثم يتصل به على نهاية هذا الطول جدار يمر على استقامته الى الحجر مبنى بالحجر طوله على استقامته الى جهة الشرق مائة ذراع ثم ينخفض أيضا من حيث يتصل بهذا الجدار ما طوله عشرون ذراعا وقدر المنخفض منه ذراعان وهذا المنخفض أيضا يسد بجسر حشيش يسمى اللكيد وطول بقية الجدار الى نهايته من جهة الشمال مائة وستة و ثلاثون ذراعا وقبالة هذا بطوله منه مباطط وفيه قناطر مبنية بالحجر كانت قديما ترد الماء الى الفيوم من الخليج القديم الذى عنده السدود اليوم وكان عليها أبواب وعدتها عشر قناطر قديمة فيكون جميع ذرع الجدار الاعظم من نهايته سبعمائة واثنين وسبعين ذراعا بذراع العمل دون الجدار المعترض من الغرب الى الشرق ويمر هـذا الجدار الاعظم من كلتا جهتيه جميعا حتى يتصل بالجبل فتوجد آثاره في القيظ مرورا على غير استقامة وعرضه مختلف وكلما انتهى الى سطحه قل عرضه وعرض أعلاه مع الظاهر من أسفله جميعا ستة عشر ذراعا وفيه منافس يخرج منها الماء وهي برابخ زجاج ملونة بشبه المينا وأزرق وسليمانى وهو من العجائب الحسنة فى عظم البناء واتقانه لانه من الابنية اللاحقة بمنارة الاسكندرية وبناء الاهرام فمن معجزته أن النيل يمر عليه من عهد يوسف عليه السلام الى هـذه الغاية وما تغير عن مستقره ويدخل الماء من هذا البحر فى هذا الزمان الى مدينة الفيوم من خليجها الاعظم ما بين أرض الضيعتين المعروفتين بدمونة واللاهون ومنه شرب هاتين الضيعتين وغيرهما سيحا ومنه شرب كرومها بالدواليب على أعناق البقر وان قصر النيل عن الصعود الى سوادها سقيت منه على أعناق البقر و زرعت وينتهى فى الخليج الاعظم الى خليج يعرف بخليج الاواسي وليس عليه رسم فى سد ولا فتح ولا تعديل وينتهى الى الضيعة المعروفة ببياض فيملأ بركها وغيرها من البرك وللبرك مقاسم يصل الى كل مقسم منها لغايته ومقدار شرب ما عليه وينتهي الى الضيعة المعروفة بالاوسية الكبرى فمنه شربها من مقسمين لها و برسمها باب ومنه يشرب نخلها وشجرها وعلى هذا الحد طاحونة تعمل بالماء ثم ينتهى الى ثلاثة مقاسم آخرها الضيعة المعروفة بمرطينة منها مقسم لها ومقسم

لقبالات عدة والمقسم الثالث يسقى أحد أحياء النخل وبهذا الحى سواق وبساتين قد خربت وجميز دائر به وكان بها بيوت فى أقنية النخل ثم ينتهى الى حي ثان على صفة الاول ثم ينتهى الي الضيعة المعروفة بالجوبة فيملأ بركها وينتهى الى ثلاثة مقاسم في صنف وفوقهـا خليج معطل ويشرب من هذه المقاسم عدة ضياع ثم ينتهى الماء من هذا الخليج الى البطس وهو نهايته وعلى الخليج الاعظم بعد هـذا أبالبز شربها منه من أفواه لها سيحا فاذا نضب ماء النيل نصب على أفواهها برسم صيد السمك شباك ثم ينتهى الخليج الاعظم على يمنة من يريد الفيوم الى خليج يعرف *(بخليج سمسطوس)* منـه شرب سمسطوس وغيرها وأبالبز كثيرة تجاوز الصحراء من المشرق منه ومن قبليه وهي ما بين هذا الخليج وخليج الاواسى ثم ينتهى الخليج الاعظم أيضا الى *(خليج ذهالة)* ومنـه شرب عدة ضياع وعليه يزرع الارز وغيره ثم ينتهى الخليج الاعظم الى ثلاث خلج ثم ينتهى الى *(خليج بينطاوة)* وبهـذا الخليج ثلاثة ابواب قديمة يوسفية سـعة كل باب منها ذراعان بذراع العمل ويمر فيه الماء وينتهى أيضا الى بابين يوسفيين ورسم هذا الخليج أن يسد هو وسائر المطاطية على استقبال عشر تخلو من هاتور الى سلخه ويفتح على استقبال كيهك الى عشر تبقى منه ثم يسد الى عشر تخلو من طوبة ثم يفتح ليلة الغيطاس الى سلخ طوبة ثم يسد على استقبال أمشير الى عشرة تبقى منه ثم يفتح لعشر تبقى منه الى عشر تخلو من برمهات ثم يفتح الى عشر تخلو من برمودة ثم يعدل فى موضعه وقد خرب ما على مجريه من الضياع ويشرب منه عدة ضياع ولهذا الخليج مغيض معمول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء فى زمان تكاثره ثم ينتهى الخليج الاعظم الى *(خليج دله)* وهو من المطاطية وحكمه فى السد والفتح والتعديل والتحسين كما تقدم وهو على يسرة من يريد المدينة وله بابان يوسفيان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان وربع ومنـه شرب عدة ضياع أمهات وغيرها وفي وسطه مفيض لزمان الاستبحار يفتح فيفيض الماء الى البركة العظمى وفي أقصى هذه البركة أيضا مفيض له أبواب يقـال انها كانت من حديد فاذا زادت فتحت الابواب فيمضى الماء الى الغرب وقيل انه يمر الى سنترية وكان على هذين الخليجين بساتين وكروم كثيرة تشرب على أعناق البقر وينتهى الخليج الاعظم الى *(خليج المجنونة)* سمى بذلك لعظم مايصير اليه من الماء وحكمه في السد وغيره على ما ذكر ومنه شرب ضياع كثيرة وبه تدار طواحين واليه تصير مصالات مياه الضياع القبلية والى بركة في أقصى مدينة الفيوم تجاور الجبل المعروف بأبي قطران ويلقى ماينصب من مصالات الضياع البحرية فيها وهى البركة العظمى ثم ينتهي الخليج الاعظم الى *(خليج تلاله)* وله بابان يوسفيان متينان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان وثلثا ذراع وليس فيـه رسم سد ولا فتح ولا تعديل ولا تحييز الا في تقصير النيل فانه يحيز بحشيش ومنـه شرب طوائف المدينة وعدة

أراض وضياع وفيه فوهة خليج البطش الذى اليه مفاضل المياه وفيه أبواب تسد حتى يصعد الماء الى أراض مرتفعة بقدر معلوم واذا حدث بالسد حدث يفسده كانت النفقة عليه من الضياع التي تشرب منه بقدر استحقاقها ثم ينتهى الخليج الاعظم الى خلجان من جانبيه في قبليه وبحريه ثم ينتهى الى *(خليج سموه)* وهو على يمنة من يريد مدينة الفيوم وهو من المطاطئة وله بابان يوسفيان سعة كل منهما ذراعان ونصف وحكمه حكم ماتقدم ومنه شرب طوائف كثيرة وعدة ضياع وينتهى الى أربعة مقاسم بأبواب والى خلجان تسق ضياعا كثيرة منها *(خليج تبدود)* فيه عين حلوة فاذا سد هذا الخليج سق منها أراضى ما جاورها وظهرت هـذه العين لما عدم الماء وحفر هذا الموضع ليعمل بئرا فظهرت منه هـذه العين فا كتفى بها ثم ينتهى الخليج الاعظم الى خلجان بها شاذروانات ومقاسم قديمة يوسفية وبها أبواب يوسفية بها رسوم في السد والفتح يشرب منها ضياع كثيرة ورسم الترع أن يسد جميعها على استقبال عشرة أيام تخلو من هاتور الى سلخه وتفتح على استقبال كيهك مدة عشرين يوما وتسد لعشر تبقى منه الى الغطاس وتفتح يوم الغطاس الى سلخ طوبة وتسد على استقبال أمشير عشرين يوما ثم تفتح لعشر تبقى منه الي عشرين من برمهات وتفتح عشرة أيام تخلو من برمودة ثم تعدل فيهم بعمارتها وهم في التعديل قسم تعطي منه كل ناحية شربها بالعدل بقوانين معروفة عندهم وقد اختصرت أسماء الضياع التى ذكرها لخراب أكثرها الآن والله أعلم

﴿ ذكر فتح الفيوم ومبلغ خراجها وما فيها من المرافق ﴾

قال ابن عبد الحكم فلما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو بن العاص جرائد الخيل الى القرى التي حولها فأقامت الفيوم سنة لايعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم فأرسل عمرو معه وبيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي فلما سلكوا في المجابة لم يروا شيئاً فهموا بالانصراف فقالوا لاتعجلوا سيروا فان كان قد كذب فما أقدركم على ماأردتم فلم يسيروا الا قليلا حتي طلع لهم سواد الفيوم فهجموا عليها فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم قال ويقال بل خرج مالك بن ناعمة الصدفي وهو صاحب الاشقر على فرسه ينفض المجابة ولا علم له بما خلفها من الفيوم فلما رأى سوادها رجع الى عمرو فأخبره بذلك قال ويقال بل بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث الى الصعيد فسار حتى أتى القيس فنزل بهاوبه سميت القيس فراث على عمرو خبره فقال وبيعة بن حبيش كفيت فركب فرسه فأجاز عليه البحر وكانت أنثى فأتاه بالخبر ويقال انه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى الى الفيوم وكان يقال لفرسه الاعمى والله أعلم * وقال ابن الكندي في كتاب فضائل مصر ومنها كورة الفيوم وهي ثلثمائة وستون قرية دبرت على عدد أيام السنة لاتنقص عن الري فان قصر النيل في سنة

من السنين مار بلد مصر كل يوم قرية وليس في الدنيا مابني بالوحى غير هـذه الكورة ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا ولو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار البصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل ولقد عد جماعة من أهل العقل والمعرفة مرافق الفيوم وخيرها فاذا هي لا تحصي فتركوا ذلك وعدوا ما فيها من المباح مما ليس عليه ملك لاحد من مسلم ولا معاهد يستعين به القوي والضعيف فاذا هو فوق السبعين صنفا * وقال ابن زولاق في كتاب الدلائل على امراء مصر للكندى وعقدت لكافور الاخشيدي الفيوم في هذه السنة يعني سنة ست وخمسين وثلثمائة ستمائة ألف دينار ونيفا وعشرين ألف دينار * وقال القاضى الفاضل في كتاب متجددات الحوادث ومن خطه نقلت ان الفيوم بلغت في سنة خمس وثمانين وخمسمائة مبلغ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير وقال البكري والفيوم معروف هنالك يغل في كل يوم ألفي مثقال ذهبا

مدينة النحريرية

كانت أرضا مقطعة لعشرة من أجناد الحلقة من جملتهم شمس الدين سنقر السعدي فأخذ قطعة من أراضى زراعتها وجعلها اصطبلا لدوابه وخيله فشكاه شركاؤه الى السلطان الملك المنصور قلاون فسأله عن ذلك فقال أريد أن أجعله جامعا تقام فيه الخطبة فأذن له السلطان في ذلك فابتدأ عمارته في اخريات سنة ثلاث وثمانين وستمائة حتي كمل في سنة خمس وثمانين فعمل له السلطان منبرا وأقيمت به الجمعة واستمرت الى يومنا هذا وأنشأ السعدى حوانيت حول الجامع فلم تزل بيده حتى مات وورثها ابناه عز الدين خليل وركن الدين عمر فباعاها بعد مدة للامير شيخو العمري فجعلها مما وقفه على الخانكاه والجامع اللذين انشأهما بخط صليبة جامع ابن طولون خارج القاهرة فعمرت هذه الارض بعمارة الجامع وسكنها الناس فصارت مدينة من مدائن أراضى مصر بحيث بلغت انوال القزازين فيها (٣) وترقي سنقر السعدى في الخدم حتى صار من الامراء وولي نقيب المماليك السلطانية وأنشأ المدرسة السعدية خارج القاهرة قريبا من حدرة البقر فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل في سنة خمس عشرة وسبعمائة وبنى أيضا رباطا للنساء وكان شديد الرغبة في العمائر محبا للزراعة كثير المال ظاهر الغنى ثم انه أخرج الي طرابلس وبها مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

(تم الجزء الأول من الخطط المقريزية ويليه الجزء الثاني وأوله ذكر تاريخ الخليقة)

كتاب الخطط المقريزية

المسماة

بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص
ذلك باخبار أقليم مصر والنيل وذكر القاهرة
وما يتعلق بها وباقليمها (تأليف) سيدنا
الشيخ الامام علامة الأنام تقي الدين
أحمد بن على بن عبد القادر بن
محمد المعروف بالمقريزى
رحمه الله ونفع
بعلومه آمين

الجزء الثاني

(مبيعه بمكتبة ملتزمه)
(حضرة الفاضل الشيخ احمد علي المليجي الكتبي الشهير)
« بمصر قريباً من الجامع الازهر المنير »
(طبع بمطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذكر تاريخ الخليقة ﴾

اعلم أنه لما كانت الحوادث لابد من ضبطها وكان لايضبط ما بين العصور وبين ازمنة الحوادث الا بالتاريخ المستعمل العام الذى لاينكره الجماعة أو أكثرهاوذلك أن التاريخ المجمع عليه لايكون الامن حادث عظيم يملأ ذكره الاسماع وكانت زيادة ماء النيل ونقصانه انما يعتبرهما أهل مصر ويحسبون أيامهما بأشهر القبط وكذلك خراج أراضى مصرانما يحسبون أوقاته بذلك وهكذا زراعات الاراضى انما يعتمدون في أوقاتها أيام الاشهر القبطية عادة وسلكوا فيها سبيل أسلافهم واقتفوا مناهج قدمائهم وما برح الناس من قديم الدهر أسراء العوايد احتيج في هذا الكتاب الى ايراد جملة من تاريخ الخليقة لتعيين موقع تاريخ القبط منها فان بذكرا ذلك يتم الغرض فأقول التاريخ عبارة عن يوم ينسب اليه ما يأتي بعده ويقال أيضا التاريخ عبارة عن مدة معلومة تعد من أول زمن مفروض لتعرف بها الاوقات المحدودة ولا غني عن التاريخ في جميع الاحوال الدنيوية والامور الدينية ولكل أمة من أمم البشر تاريخ تحتاج اليه في معاملاتها وفي معرفة أزمنتها تنفرد به دون غيرها من بقية الامم وأول الاوائل القديمة وأشهرها هو كون مبدأ البشر ولاهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس في كيفيته وسياقة التاريخ منه خلاف لايجوز مثله في التواريخ وكل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة فانه مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد وعجز المعتنى به عن حفظه وقد قال الله سبحانه وتعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله فالاولى أن لايقبل من ذلك الا مايشهد به كتاب أنزل من عند الله يعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرقه تبديل أو خبر ينقله الثقات واذا نظرنا في التاريخ وجدنا فيه بين الامم خلافا كثيرا وسأتلو عليك من ذلك ما لأأظنك تجده مجموعا في كتاب وأقدم بين يدى هذا القول ماقيل في مدة بقاء الدنيا

﴿ ذكر ماقيل في مدة أيام الدنيا ماضيها وباقيها ﴾

اعلم أن الناس قد اختلفوا قديما وحديثا في هذه المسألة فقال قوم من القدماء الاول بالاكوار والادوار وهم الدهرية وهؤلاء هم القائلون بعود العوالم كلها على ما كانت

عليه بعد ألوف من السنين معدودة وهم في ذلك غالطون من جهة طول أدوار النجوم وذلك أنهم وجدوا قوما من الهندوالفرس قد عملوا أدوارا للنجوم ليصححوا بها في كل وقت مواضع الكواكب فظنوا أن العدد المشترك لجميعها هو عدد سني العالم أو أيام العالم وانه كلما مضى ذلك العدد عادت الاشياء الى حالها الاول وقد وقع في هذا الظن ناس كثير مثل أبي معشر وغيره وتبع هؤلاء خلق وانت تقف على فساد هذا الظن ان كنت تخبر من العدد شيئاً ما وذلك انك اذا طلبت عددا مشتركا بعده أعداد معلومة فانك تقدر أن تضع لكل زيج أياما معلومة كالذي وضعه الهند والفرس فهؤلاء حيث جهلوا صورة الحال في هذه الادوار ظنوا انها عدد أيام العالم فتفطن ترشد وعندهؤلاء أن الدور هوأخذ الكواكب من نقطة وهي سائرة حتى تعود الى تلك النقطة وأن الكور هو استئناف الكواكب في أدوارها سيرا آخر الى أن تعود الى مواضعها مرة بعد أخرى وزعم أهل هذه المقالة أن الادوار منحصرة في أنواع خمسة • الاول أدوار الكواكب السيارة في أفلاك تداويرها* الثاني أدوار مراكز أفلاك التدوير في أفلاكها الحاملة * الثالث أدوار أفلاكها الحالة في فلك البروج * الرابع أدوار الكواكب الثابتة في فلك البروج * الخامس أدوار الفلك المحيط بالكل حول الاركان الاربعة وهذه الادوار المذكورة منها مايكون في كل زمان طويل مرة واحدة ومنها ما يكون في كل زمان قصير مرة واحدة فأقصر هذه الادوار أدوار الفلك المحيط بالكل حول الاركان الاربعة فانه يدور في كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة وباقي الادوار يكون في أزمنة اخر أطول من هذه لا حاجة بنا في هذه المسألة الى ذكرها قالوا وأدوار الكواكب الثابتة فى فلك البروج تكون في كل ستة وثلاثين ألف سنة شمسية مرة واحدة وحينئذ تنتقل أوجات الكواكب وجوزهراتها الى مواضع حضيضها ونوبهراتها وبالعكس فيوجب ذلك عندهم عود العوالم كلها الى ما كانت عليه من الاحوال في الزمان والمكان والاشخاص والاوضاع بحيث لايخالف ذرة واحدة وهم مع ذلك مختلفون في كمية مامضي من أيام العالم وما بقي فقال البراهمة من الهند فى ذلك قولا غريبا وهو ما حكاه عنهم الاستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب القانون المسعودي انهم يسمون الطبيعة باسم ملك يقال له براهيم ويزعمون انه محدث محصور الموت بين مبدأ وانتهاء عمره كعمرها مائة سنة برهموية كل سنة منها ثلثمائة وستون يوما زمان النهار منها بقدر مدة دوران الافلاك والكواكب لاثارة الكون والفساد وهذه المدة بقدر مابين كل اجتماعين للكواكب السبعة في أول برج الحمل باوجاتها وجوزهراتها ومقدارها أربعة آلاف ألف سنة وثلثمائة ألف ألف سنة وعشرون ألف ألف سنة شمسية وهو زمان اثنى عشر ألف دورة للكواكب الثابتة على أن زمان الدورة الواحدة ثلثمائة ألف سنة وستون ألف سنة شمسية واسم هذا النهار

باغتهم الكلية وزمان الليل عندهم كزمان النهار وفي الليل تسكن المتحركات وتستريح الطبيعة من اثارة الكون والفساد ثم يثور في مبدا اليوم الثاني بالحركة والتكون فيكون زمان اليوم بليلته من سني الناس ثمانية آلاف ألف سنة وستمائة ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة فاذا ضربنا ذلك في ثلثمائة وستين تبلغ سنو أيام السنة البرهموية ثلاثة آلاف ألف ألف ألف سنة وعشرة آلاف ألف ألف سنة وأربعمائة ألف ألف سنة شمسية فاذا ضربناها في مائة يبلغ عمر الملك الطبيعي البرهموى من سني الناس ثلثمائة ألف ألف ألف ألف سنة وأحد عشر ألف ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة شمسية فاذا تمت هذه السنون بطل العالم عن الحركة والتكوين ماشاء الله ثم يستأنف من جديد على الوضع المذكور وقسموا زمان النهار المذكور الى تسع وعشرين قطعة سموا كل أربع عشرة قطعة منها نوبا وسموا الخمس عشرة قطعة الباقيــة فصولا وجعلوا كل نوبة محصورة بين فصلين وكل فصل محصورا بين نوبتين وقدموا زمان الفصل على النوبة الى تمام المدة وزمان الفصل هو خمسا الدور والدور جزء من ألف جزء من المدة فاذا قسمنا المدة على ألف تحصل زمان الدور أربعة آلاف ألف سنة وثلثمائة ألف سنة وعشرين ألف سنة وخمساه أعني زمان الفصل ألف ألف سنة وسبعمائة ألف سنة وثمانية وعشرون ألف سنة وزمان النوبة عندهم أحد وسبعون دورا مقدارها من السنين ثلثمائة ألف ألف سنة وستة آلاف ألف سنة وسبعمائة ألف سنة وعشرون ألف سنة وقد قسموا الدور أيضا بأربع قطع أولها أعظمها وهي مدة الفصل المذكور وثانيها ثلاثة أرباع الفصل ومدتها ألف ألف سـنة ومائتا ألف سنة وستة وتسعون ألف سـنة وثالثها نصف الفصل ومدته ثمانمائة ألف سنة وأربعة وستون الف سنة ورابعها ربع الفصل وهو عشر الدور المذكور ومدته أربعمائة ألف سنة واثنان وثلاثون ألف سـنة ولـكل واحد من هذه القطع الاربع اسم يعرف به فاسم القطعة الرابعة عندهم كلكال لانهم يزعمون انهم في زمانها وان الذى مضى من عمر الملك الطبيعي على زعم حكيمهم الاعظم المسمى عنـدهم برهمكوت ثمان سنين وخمسة أشهر وأربعة أيام ونحن الآن في نهار اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة التاسعة ومضى من النهار الخامس ست نوب وسبعة فصول وسبعة وعشرون دورا من النوبة السابعة وثلاث قطع من الدور المذكور أعني تسعة أعشاره ومضى من القطعة الرابعــة أعني من أول كلكال الى هلاك شككال عظيم ملوكهم الواقع في آخر سنة ثمـان وثمانين وثلثمائة للاسكندر ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وتسع وسبعون سنة وقال انما عرفنا هذا الزمان من علم الهى وقع الينا من عظماء انبيائنا المتألهين برواياتهم جيلا بعد جيل على ممر الدهور والازمان وزعموا أن في مبدا كل دور أو فصل أو قطعة أو نوبة تجدد أزمنة العوالم وتنتقل من حال الى حال وأن الماضي من أول كلكال الى شككال ثلاثة آلاف ومائة

وتسع وسبعون سنة والماضى من النهار المذكور الى آخر سنة ثمان وثمانين وثلثمائة للاسكندر ألف ألف ألف سنة وتسعمائة ألف ألف سنة واثنان وسبعون ألف ألف سنة وتسعمائة ألف سنة وسبعة وأربعون ألف سنة ومائة سنة وسبع وسبعون سنة فيكون الماضى من عمر الملك الطبيعي الى آخر هذه السنة ستة وعشرين ألف ألف ألف ألف سنة وثلثمائة ألف ألف ألف سنة وخمسة عشر ألف ألف ألف سنة وسبعمائة ألف ألف سنة واثنين وثلاثين ألف ألف سنة وتسعمائة ألف سنة وسبعة وأربعين ألف سنة ومائة سنة وتسعا وسبعين سنة فاذا زدنا عليها الباقي من تاريخ الاسكندر بعد نقصان السنين المذكورة منه تحصل الماضي من عمر الملك بالوقت المفروض والله أعلم بحقيقة ذلك وقال الخطا والايغر في ذلك قولا أعجب من قول الهند وأغرب على مانقلته من زيج أدوار الانوار وقد لخص هذا القول من كتب أهل الصين وذلك انهم جعلوا مبادى سنيهم مبنية على ثلاثة أدوار الاول يعرف بالعشرى مدته عشر سنين لكل سنة منها اسم يعرف به والثاني يعرف بالدور الاثنى عشرى وهو أشهرها خصوصا فى بلاد الترك يسمون سنيه بأسماء حيوانات بلغتي الخطا والايغر والثالث مركب من الدورين جميعا ومدته ستون سنة وبه يؤرخون سنى العالم وأيامه ويقوم عندهم مقام أيام الاسبوع عند العرب وغيرها واسم كل سنة منها مركب من اسميها فى الدورين جميعا وكذلك كل يوم من أيام السنة ولهذا الدور ثلاثة أسماء وهى شانكون وجونكون وخاون ويصير بحسبها مرة أعظم ومرة أوسط ومرة أصغر فيقال دورشانكون الاعظم ودورجونكون الاوسط ودورخاون الاصغر وبهذه الادوار يعتبرون سنى العالم وأيامه وجملتها مائة وثمانون سنة ثم تدور الادوار الثلاثة عليها مرة أخرى واتفق وقوع مبدا الدور الاعظم فى الشهر الاول من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ليزد جرد واسمها بلغتهم كادره وبلغة العرب سنة الغار وكان دخول أول فرودين هذه السنة من سنى العرب يوم الخميس وهو بلغتهم سن جن ومن هذا اليوم وعلى هذا التاريخ تترتب مبادى سنيهم وأيامهم في الماضى والمستقبل وشهورهم اثنا عشر شهرا لكل شهر منها اسم بلغة الخطا وبلغة الايغر لاحاجة بنا هنا الى ذكرها ويقسمون اليوم الاول بليلته اثنى عشر قسما كل قسم منها يقال له جاغ وكل جاغ ثمانية أقسام كل قسم منها يقال له كه ويقسمون اليوم بليلته أيضا عشرة آلاف فنك وكل فنك منها مائة ميساو فيصيب كل جاغ ثمانمائة وثلاثة وثلاثين فنكا وثلث فنك وكل كه مائة وأربعة أفناك وسدس فنك وينسبون كل جاغ الى صورة من الصور الاثنى عشرة ومبدأ اليوم بليلته عندهم من نصف الليل وفى منتصف جاغ كسكو يتغير أول النهار وآخره بحسب الطول والقصر من قبل أن كل جاغ ساعتان مستويتان وفى منتصف النهار ينتصف جاغ يوند وهم يكبسون فى كل ثلاث سنين قمرية شهرا واحدا يسمونه سيون ليحفظوا بالكبس مبادى سنى الشمس فى

زمان واحد من سنة أخرى ويكبسون أحد عشر شهرا فى كل ثلاثين سنة قمرية ولا يقع عندهم شهر الكبس فى موضع واحد بعينه من السنة بل يقع في كل موضع منها وكل شهر عدة ايامه اما ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون يوما ولا يمكن عندهم أ كثر من ثلاثة أشهر متوالية تامة ولا أ كثر من شهرين ناقصين ومبادى شهورهم يوم الاجتماع ان وقع اجتماع النيرين نهارا فان وقع الاجتماع ليلا كان أول الشهر فى اليوم الذى بعد الاجتماع وزمان السنة الشمسية بحسب أرصادهم ثلثمائة وخمسة وستون يوما وألفان وأربعمائة وستة وثلاثة فنكا والسنة أربعة وعشرون قسما كل قسم منها خمسة عشر يوما وألفان ومائة وأربعة وثمانون فنكا وخمسة اسداس فنك ولكل قسم من هذه الاقسام اسم وكل ستة أقسام منها فصل من فصول السنة فاسم أول قسم من فصولها الحن وأوله أبدا حيث تكون الشمس فى ست عشرة درجة من برج الدلو وهكذا أوائل كل فصل انما تكون في حدود أواسط البروج الثابتة وكان بعد مدخل الحن من أول الدور الستيني في السنة المذكورة احد عشر يوما وسبعة آلاف وستمائة وستين فنكا واسم مدخله بى خايني وكان بعد دخول السنة الفارسية المذكورة بنحو عشرين يوما ويبعد مدخله عن أول الدور في كل سنة بقدر فضل سنة الشمس على سنة الدور وهو خمسة أيام وأربعة وعشرون فنكا فان زادت الايام على ستين يوما كان الباقي بعد الحن في تلك السنة عن أول الدور الستيني ويتفاضل البعد بينهما في كل سنة بقدر فضل سنة الشمس على سنة القمر التي هي ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وثلاثة آلاف وستمائة واثنان وسبعون فنكا ومقدار الفضل بينهما عشرة أيام وثمانية آلاف وسبعمائة وأربعة وستون فنكا فان زادت الايام على زمان الشهر القمرى الاوسط الذي هو تسعة وعشرون يوما وخمسة آلاف وثمانمائة وستة أفناك نقص منها هذا العدد واحتسب بالباقي فاذا عرفت هذا من حسابهم فاعلم أن عمر العالم عندهم ثلثمائة ألف ون وستون ألف ون كل ون عشرة آلاف سنة مضى من ذلك الى أول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ليزدجرد وهى دور شانكون الاعظم ثمانية آلاف ون وثمانمائة ون وثلاثة وستون ونا وتسعة آلاف وسبعمائة وأربعون سنة فتكون المدة العظمي على هذا ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ألف سنة وستمائة ألف ألف ألف سنة بهذه الصورة ٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠ والماضى منها الى السنة المذكورة ثمانية وثمانون ألف ألف سنة وستمائة ألف سنة وتسعة وثلاثون ألف سنة وسبعمائة سنة وأربعون سنة بهذه الصورة ٨٨٦٣٩٧٤٠ ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله وانما ذكرت طرفا من حساب سني البراهمة وطرفا من حساب سنى الخطا والايغر المستخرج من حساب الصين ليعلم المنصف أن ذلك لم يضعه حكماؤهم عبثا ولا مرما جدع قصير أنفه وكم من جاهل بالتعالم اذا سمع أقوالهم في مدة سنى العالم يبادر الى تكذيبهم

من غير علم بدليلهم عليه وطريق الحق أن يتوقف فيما لا يعلمه حتى يتبين أحد طرفيه فيرجحه على الآخر والله يعلم وأنتم لا تعلمون * وقال أصحاب السند هند ومعناه الدهر الداهر ان الكواكب وأوجاتها وجوزهراتها تجتمع كلها في أول برج الحمل عند كل أربعة آلاف ألف ألف سنة وثلثمائة ألف ألف سنة وعشرين ألف ألف سنة شمسية وهذه مدة سني العالم قالوا واذا جمعت برأس الحمل فسدت المكونات الثلاث التي يحويها عالم السكون والفساد المعبر عنه بالحياة الدنيا وهذه المكونات هى المعدن والنبات والحيوان فاذا فسدت بقى العالم السفلي خرابا دهرا طويلا الى أن تتفرق الكواكب والاوجات والجوزهرات في بروج الفلك فاذا تفرقت فيها بدأ السكون بعد الفساد فعادت أحوال العالم السفلي الى الامر الاول وهذا يكون عودا بعد بدء الى غير نهاية قالوا ولكل واحد من الكواكب والاوجات والجو زهرات عدة أدوار فى هذه المدة يدل كل دور منها على شئ من المكونات كما هو مذكور فى كتبهم مما لا حاجة بنا هنا الى ذكره وهذا القول منتزع من قول البراهمة الذى تقدم ذكره * وقال أصحاب الهازروان من قدماء الهند ان كل ثلثمائة ألف سنة وستين ألف سنة شمسية يهلك العالم بأسره ويبقى مثل هذه المدة ثم يعود بعينه ويعقبه البدل وهكذا أبدا يكون الحال لا الى نهاية قالوا ومضى من أيام العالم المذكورة الى طوفان نوح عليه السلام مائة ألف وثمانون ألف سنة شمسية ومضي من الطوفان الى سنة الهجرة المحمدية ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وعشرون سنة وأربعة أشهر وأيام وبقى من سني العالم حتى يبتدئ ويفنى مائة ألف وبضع وسبعون ألف سنة شمسية أولها تاريخ الهجرة الذى يؤرخ به أهل الاسلام * وقال أصحاب الازجهير مدة العالم التي تجتمع فيها الكواكب برأس الحمل هي وأوجاتها وجوزهراتها جزء من ألف جزء من مدة السند هند وهذا أيضا منتزع من قول البراهمة * وقال أبو معشر وابن بوبخت ان بعض الفرس يرى أن عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة بعدة البروج لكل برج ألف سنة فكان ابتداء أمر الدنيا في أول ألف الحمل لان الحمل والثور والجوزاء تسمي أشرف الشرف وينسب الى الحمل الفضل وفيها تكون الشمس في شرفها وعلوها وطول نهارها ولذلك الدنيا كانت الى ثلاثة آلاف سنة علوية روحانية طاهرة ولان السرطان والاسد والسنبلة منتقصة فان الشمس تنحط من علوها فى أول دقيقة من السرطان وكان قدر الدنيا وأبنائها منحطا فى الثلاثة آلاف الثانية ولان الميزان أهبط الهبوط وبئر الآبار وضد البرج الذي فيه شرف الشمس دل على أنه أصابت الدنيا واكتسب أهلها المعصية والميزان والعقرب والقوس اذا نزلتها الشمس لم تزدد الا انحطاطا والايام الا نقصانا فلذلك دلت على البلايا والضيق والشدة والشر وحيث تبلغ الآلاف الى أول الجدى الذى فيه أول ارتفاع الشمس واشرافها على شرفها

وفيه تزداد الايام طولا والدلو والحوت* اللذان تزداد الشمس فيهما صعودا حتى تصل اشرفها فيدل على ظهور الخير وضعف الشر وثبات الدين والعقل والعمل بالحق والعدل ومعرفة فضل العلم والادب فى تلك الثلاثة الآلاف سنة وما يكون فى ذلك فعلى قدر صاحب الالف والمائة والعشرة وعلى حسب اتفاق الكواكب في أول سلطان صاحب الالف فلا يزال ذلك في زيادة حتي يعود أمر الدنيا فى آخرها الي مثل ما كان عليه ابتداؤها وهى في ألف الحمل وكلما تقارب آخر كل ألف من هذه الالوف اشتد الزمان وكثرت البلايا لان أواخر البرج في حدود النحوس وكذلك فى آخر المئين والعشرات فعلى هذا الانقضاء للدنيا اذا كان الزمان يعود الى الحمل كما بدا أول مرة وزعموا أن ابتداء الخلق بالتحرك كان والشمس في ابتداء المسير فدار الفلك وجرت المياه وهبت الرياح واتقدت النيران وتحرك سائر الخلائق بما هم عليه من خير وشر والطالع تلك الساعة تسع عشرة درجة من برج السرطان وفيه المشترى وفى البيت الرابع الذى هو بيت العافية وهو برج الميزان زحل وكان الذنب في القوس والمريخ والجدى والزهرة وعطارد فى الحوت ووسط السماء برج الحمل وفى أول دقيقة منه الشمس وكان القمر فى الثور وفي بيت السعادة وكان الرأس في برج الجوزاء وهو بيت الشقاء وفى تلك الدقيقة من الساعة كان استقبال أمر الدنيا فكان خيرها وشرها وانحطاطها وارتفاعها وسائر ما فيها على قدر مجارى البروج والنجوم وولاية أصحاب الالوف وغير ذلك من احوالها ولان المشترى كان فى السرطان في شرفه وزحل في الميزان فى شرفه والمريخ والشمس والقمر فى اشرافها دلت على كائنة جليلة فكان نشو العالم وانبرز زحل فتولى الالف هو والميزان وكان المشترى فى الطالع مقبولا وكذلك جميع الكواكب كانت مقبولة فدل على نماء العالم وحسن نشوه وكان زحل هو المستولي والعالى فى الفلك والبرج طويل المطالع فطالت اعمار تلك الالف وقويت ابدانهم وكثرت مياههم وكون الميزان تحت الارض دل على خفاء اول حدوث العالم وعلى ان اهل ذلك الزمان ينظرون فى عمارة الارضين وتشييد البنيان ثم ولى الالف الثاني العقرب والمريخ وكان فى الطالع المريخ فدل على القتل في ذلك الالف وسفك الدماء والسبي والظلم والجور والخوف والهم والاحزان والفساد وجور الملوك وولي الالف الثالث القوس وشاركه عطارد والزهرة بطلوعهما وكان الذنب فى القوس فدل المشترى على النجدة فى تلك الألف والشدة والجلد والبأس والرياسة والعدل وتقسيم الملوك الدنيا وسفك الدماء بسبب ذلك ودلت الزهرة على ظهور بيوت العبادة وعلى الانبياء ودل عطارد على ظهور العقل والادب والكلام وكون البرج مجسدا دل على انقلاب الخير والشر فى تلك الالف مرات وعلى ظهور ألوان من آيات الحق والعدل والجور ثم ولى الالف الرابع الجدى وكان فيه المريخ فدل على ما كان

فى تلك الالف من اهراق الدماء ودلت الشمس على ظهور الخير والعلم ومعرفة الله تعالى وعبادته وطاعته وطاعة أنبيائه والرغبة فى الدين مع الشجاعة والجلد وكون البرج منقلبا هو والبرج الذى فيه الشمس دل على انقلاب ذلك فى آخرها وظهور الشر والتفرق والقسم والقتل وسفك الدماء والغصب فى اصناف كثيرة وتحول ذلك وتلونه وكون الجدي منحطا دل على انه يظهر فى آخر تلك الالف الحسن الشبيه بصفة زحل والمريخ وانقطاع العظماء والحكماء وبوارهم وارتفاع السفلة وخراب العامر وعمارة الخراب وكثرة تلون الاشياء وولي الالف الخامس الدلو بطلوع القمر وكان القمر في الثور فدل الدلو لبرودته وعسره على سقوط العظماء وعطلة امرهم وارتفاع السفلة والعبيد ومحمدة البخلاء وظهور الجيش الاسود والسواد وعلى كثرة التفتيش والتفكر وظهور الكلام فى الاديان ومحبة الخصومات وكون القمر في شرفه يدل على قهر الملوك وظهور ولاة الحق ونفاذ الخير وظهور بيوت العبادة والكف عن الدماء والراحة والسعادة في العامة وثبات ما يكون من العدل والخير وطول المدة فيه. وكون البرج مائيا يدل على كثرة الامطار والغرق وآفة من البرد يهلك فيها الكثير ويلى الالف السادس برج الحوت بطلوع المشترى والرأس فيدل على المحمدة فى الناس عامة وعلى الصلاح والخير والسرور وذهاب الشر وحسن العيش ولكل واحد من الكواكب ولاية ألف سنة فصار عطارد خاتما في برج السنبلة وزعم ابن بوبخت أن من يوم سارت الشمس الى تمام خمس وعشرين من ملك انوشروان ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبع وستون سنة وذلك في ألف الجدي وتدبير الشمس ومنه الى اليوم الاول من الهجرة سبع وثمانون سنة شمسية وستة وعشرون يوما ومن الهجرة الى قيام يزدجرد تسع سنين وثلثمائة وسبعة وثلاثون يوما فذلك الجميع الى أن قام يزدجرد ثلاثة آلاف وتسعمائة وست وستون سنة * وقال ابو معشر وزعم قوم من الفرس أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة بعدة الكواكب السبعة * وزعم ابو معشر أن عمر الدنيا ثلثمائة ألف سنة وستون ألف سنة وأن الطوفان كان في النصف من ذلك على رأس مائة ألف وثمانين ألف سنة * وقال قوم عمر الدنيا تسعة آلاف سنة لكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة ألف سنة وللرأس ألف سنة وللذنب ألف سنة وشرها ألف الذنب وأن الاعمار طالت في تدبير آلاف الثلاثة العلوية وقصرت فى آلاف الكواكب السفلية وقال قوم عمر الدنيا تسعة عشر ألف سنة بعدد البروج الاثنى عشر لكل برج ألف سنة وبعدد الكواكب السبعة السيارة لكل كوكب ألف سنة وقال قوم عمر الدنيا احد وعشرون ألف سنة بزيادة ألف للرأس وألف للذنب وقال قوم عمر الدنيا ثمانية وسبعون ألف سنة فى تدبير برج الحمل اثنا عشر ألف سنة وفى تدبير برج الثور احد عشر ألف

سنة وفى تدبير الجوزاء عشرة آلاف سنة فكانت الاعمار في هذا الربع اطول والزمان أجد ثم تدبير الربع الثانى مدة أربعة وعشرين ألف سنة فتكون الاعمار دون ما كانت في الربع الاول وتدبير الربع الثالث خمسة عشر ألف سنة وتدبير الربع الرابع ستة آلاف سنة وقال قوم كانت المدة من آدم الى الطوفان الفين وثمانين سنة واربعة اشهر وخمسة عشر يوما ومن الطوفان الى ابراهيم عليه السلام تسعمائة واثنتين وأربعين سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما فذلك ثلاثة آلاف ومائتان وثلاث وعشرون سنة وقال قوم من اليهود عمر الدنيا سبعون ألف سنة منحصرة فى ألف جيل ولفقوا ذلك من قول موسى عليه السلام فى صلاته ان الجيل سبعون سنة ومن قوله في الزبور ان ابراهيم عليه السلام قطع معه الله تعالى عهد البقاء البشر ألف جيل فجاء من ذلك أن مدة الدنيا سبعون ألف سنة واستظهروا لقولهم هذا بما فى التوراة من قوله واعلم أن الله الملك هو القادر المهيمن الحافظ العهد والفضل لمحبيه وحافظي وصاياه لالف جيل * وذكر أبو الحسن على بن الحسين المسعودي فى كتاب أخبار الزمان عن الاوائل أنهم قالوا كان في الارض ثمان وعشرون أمة ذات ارواح وأيد وبطش وصور مختلفات بعدد منازل القمر لكل منزلة أمة منفردة تعرف بها تلك الامة ويزعمون أن تلك الامم كانت الكواكب الثابتة تدبرها وكانوا يعبدونها ويقال لما خلق الله تعالى البروج الاثنى عشر قسم دوامها فى سلطانها فجعل للحمل اثنى عشر ألف عام وللثور أحد عشر ألف عام وللجوزاء عشرة آلاف عام وللسرطان تسعة آلاف عام وللاسد ثمانية آلاف عام وللسنبلة سبعة آلاف عام وللميزان ستة آلاف عام وللعقرب خمسة آلاف عام وللقوس أربعة آلاف عام وللجدى ثلاثة آلاف عام وللدلو ألفى عام وللحوت ألف عام فصار الجميع ثمانية وسبعين ألف عام فلم يكن في عالم الحمل والثور والجوزاء حيوان وذلك ثلاثة وثلاثون ألف عام فلما كان عالم السرطان تكونت دواب الماء وهوام الارض فلما كان عالم الاسد تكونت ذوات الاربع من الوحش والبهائم وذلك بعد تسعة آلاف عام من خلق دواب الماء والهوام فلما كان عالم السنبلة تكون الانسانان الاولان وهما أدمانوس وحنوانوس وذلك لتمام سبعة عشر ألف عام لخلق دواب الماء وهوام الارض ولتمام ثمانية آلاف عام من خلق ذوات الاربع وخلقت الارض في عالم الميزان ويقال بل خلقت الارض اولا وأقامت خالية ثلاثة وثلاثين ألف عام ليس فيها حيوان ولا عالم روحانى ثم خلق الله تعالى هوام الماء ودواب الارض وما بعد ذلك على ما تقدم ذكره فلما تم أربعة وعشرون ألف عام لخلق دواب الماء وهوام الارض ولتمام خمسة عشر ألف عام من خلق ذوات الاربع ولتتمة سبعة آلاف عام من لدن تكون الانسانين خلقت الطيور ويقال ان مدة مقام الانسانين ونسلهما في الارض مائة ألف وثلاثة وثلاثون ألف عام منها لزحل ستة وخمسون

ألف عام وللمشتري أربعة وأربعون ألف عام وللمريخ ثلاثة وثلاثون ألف عام ويقال ان الامم المخلوقات قبل آدم هي كانت الجبلة الاولى وهي ثمان وعشرون امة بازاء منازل القمر خلقت من أمزجة مختلفة اصلها الماء والهواء والارض والنار فتباين خلقها فمنها أمة خلقت طوالا زرقا ذوات اجنحة كلامهم قرقعة على صفة الاسود ومنها امة أبدانهم أبدان الاسود ورؤسهم رؤس الطير لهم شعور وآذان طوال وكلامهم دوى ومنها امة لها وجهان وجه أمامها ووجه خلفها ولها أرجل كثيرة وكلامهم كلام الطير ومنها أمة ضعيفة في صور الكلاب لها أذناب وكلامهم همهمة لا يعرف ومنها امة تشبه بني آدم أفواههم في صدورهم يصفرون اذا تكلموا تصفيرا ومنها امة يشبهون نصف انسان لهم عين واحدة ورجل يقفزون بها قفزا ويصيحون كصياح الطير ومنها أمة لها وجوه كوجوه الناس وأصلاب كاصلاب السلاحف في رؤسهم قرون طوال لا يفهم كلامهم ومنها أمة مدورة الوجوه لهم شعور بيض وأذنات كاذناب البقر ورؤسهم في صدورهم لهم شعور وثدى وهم اناث كلهن ليس فيهن ذكر يلقحن من الريح ويلدن امثالهن ولهن اصوات مطربة يجتمع اليهن كثير من هذه الامم لحسن اصواتهن ومنها امة على خلق بني آدم سود وجوههم ورؤسهم كرؤس الغربان ومنها امة في خلق الهوام والحشرات الا انها عظيمة الاجسام تأكل وتشرب مثل الانعام ومنها أمة كوجوه دواب البحر لها أنياب كانياب الخنازير وآذان طوال ويقال ان هذه الثمانية والعشرين أمة تناكحت فصارت مائة وعشرين أمة * وسئل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه هل كان في الارض خلق قبل آدم يعبدون الله تعالى فقال نعم خلق الله الارض وخلق فيها الجن يسبحون الله ويقدسونه لا يفترون وكانوا يطيرون الى السماء ويلقون الملائكة ويسلمون عليهم ويستعلمون منهم خبر ما في السماء ثم ان طائفة منهم تمردت وعتت عن أمر ربها وبغت في الارض بغير الحق وعدا بعضهم على بعض وجحدوا الربوبية وكفروا بالله وعبدوا ما سواه وتغايروا على الملك حتى سفكوا الدماء وأظهروا في الارض الفساد وكثر تقاتلهم وعلا بعضهم على بعض وأقام المطيعون لله تعالى على دينهم وكان ابليس من الطائفة المطيعة لله والمسبحين له وكان يصعد الى السماء فلا يحجب عنها لحسن طاعته ويروى أن الجن كانت تفترق على احدى وعشرين قبيلة وأن بعد خمسة آلاف سنة ملكوا عليهم ملكا يقال له شملال بن ارس ثم افترقوا فملكوا عليهم خمسة ملوك وأقاموا على ذلك دهرا طويلا ثم أغار بعضهم على بعض وتحاسدوا فكانت بينهم وقائع كثيرة فأهبط الله تعالى اليهم ابليس وكان اسمه بالعربية الحارث وكنيته ابو مرة ومعه عدد كثير من الملائكة فهزمهم وقتلهم وصار ابليس ملكا على وجه الارض فتكبر وطغى وكان من امتناعه من السجود لآدم ما كان فأهبطه الله تعالى الى الارض فسكن البحر وجعل عرشه على الماء فألقيت

عليه شهوة الجماع وجعل اقاحه لقاح الطير وبيضه ويقال ان قبائل الجن من الشياطين خمس وثلاثون قبيلة خمس عشرة قبيلة تطير في الهواء وعشر قبائل مع لهب النار وثلاثون قبيلة يسترقون السمع من السماء ولكل قبيلة ملك موكل يدفع شرهـا ومنهم صنف من السعالى يتصورون فى صور النسـاء الحسان ويتزوجن برجال الانس ويلدن منهم ومنهم صنف على صور الحيات اذا قتل أحد منهم واحدة هلك من وقته فان كانت صغيرة هلك ولده أو عزيز عنده * وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ان الـكلاب من الجن فاذا رأوكم تأ كلون فألقوا اليهم من طعامكم فان لهم انفسا يعني انهم يأخذون بالعين وقد روى ان الارض كانت معمورة بأمم كثيرة منهم الطم والرم والجن والبن والحسن والبسن وان الله تعالى لماخلق السماء عمرها بالملائكة ولماخلق الله الارض عمرها بالجن فعاثوا وسفكوا الدماء فأنزل الله اليهم جنـدا من الملائكة فأتوا على أكثرهم قتلا وأسرا فكان ممن اسر ابليس وكان اسمه عزازيل فلما صعد به الى السماء أخذ نفسه بالاجتهاد فى العبادة والطاعة رجاء أن يتوب الله عليه فلما لم يجد ذلك عليه شيئاً خامر الملائكة القنوط فأراد الله أن يظهرلهم خبث طويته وفساد نيته فخلق آدم فامتحنه بالسجود له ليظهر للملائكة تكبره وابانة ماخفى عنهم من مكتوم أنبائه والى عمارة الارض قبـل آدم ممن أفسد فيها أشار بقوله تعالى حكاية عن الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء يعنون كما فعـل بها من قبل والله أعلم بمراده وقال أبو بكر بن احمد بن على بن وحشية في كتاب الفلاحة انه عرب هذا الـكتاب ونقله من لسان الـكلدانيين الى اللغـة العربية وانه وجده من وضع ثلاثة حكماء قدماء وهم صعريت وسوساد وفوقاى ابتداء الاول وكان ظهوره في الالف السابعة من سبعة آلاف سنى زحل وهي الالف التي يشارك فيها زحل القمر وتممه الثانى وكان ظهوره فى آخر هذه الالف واكمله الثالث وكان ظهوره بعد مضي أربعة آلاف سنة من دور الشمس الذى هو سبعة آلاف سنة وانه نظر الى ما بين زمان الاول والثالث فكان ثمـانية عشر ألف سنة شمسـية وبعض الالف التاسعة عشر قد اختلف أهل الاسـلام في هذه المسألة أيضاً فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال الدنيـا جمعة من جمع الآخرة واليوم الف سنة فذلك سبعة آلاف سنة وروى سفيان عن الاعمش عن أبي صالح قال قال كعب الاحبار الدنيا ستة آلاف سـنة * وعن وهب بن منبه أنه قال قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة انى لاعرف كل زمان منها ومن فيه من الانبياء فقيل له فكم الدنيا قال ستة آلاف سنة وروى عبد الله بن دينار عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس وفي حديث أبي هريرة الحقب ثمـانون

عاما اليوم منها سدس الدنيا والحقب هنا بكسر الحاء وضمها * قال أبو محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمداني في كتاب الاكليل وكأن الدنيا جزء من أربعة آلاف وسبعمائة وثلاثة وعشرين جزأ وثلث جزء من الحقب على أن السنة القمرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم فاذا كانت الدنيا ستة آلاف سنة واليوم ألف سنة تكون سنين قمرية ستة آلاف ألف سنة فاذا جعلناه جزأ وضربناه في أجزاء الحقب وهى أربعة آلاف وسبعمائة سنة وثلاث وعشرون وثلث خرج من السنين ثمانية وعشرون ألف ألف ألف وثلثمائة ألف ألف وأربعون ألف ألف واذا كانت جمعة من جمع الآخرة زدنا مع هذا العدد مثل سدسه وهذا عدد الحقب * وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى الصواب من القول مادل على صحته الخبر الوارد فذكر قوله عليه السلام أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس وقوله عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وقوله عليه السلام بعثت أنا والساعة جميعا ان كادت لتسبقني قال فمعلوم ان كان اليوم أوله طلوع الشمس وآخره غروب الشمس وكان صحيحا عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى مغرب الشمس وقوله بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وكان قدر مابين أوسط أوقات صلاة العصر وذلك اذا صار ظل كل شئ مثليه على التحرى انما يكون قدر نصف سبع اليوم يزيد قليلا أو ينقص قليلا وكذلك فضل مابين الوسطى والسبابة انما يكون نحوا من ذلك وكان صحيحا مع ذلك قوله عليه السلام لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم يعنى نصف اليوم الذى مقداره ألف سنة فأولى القولين اللذين أحدهما عن ابن عباس والآخر عن كعب قول ابن عباس ان الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف واذا كان كذلك وكان قد جاء عنه عليه السلام أن الباقى من ذلك في حياته نصف يوم وذلك خمسمائة عام اذا كان ذلك نصف يوم من الايام التي قدر الواحد منها ألف عام كان معلوما أن الماضى من الدنيا الى وقت قوله عليه السلام ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة أونحو ذلك وقد جاء عنه عليه السلام خبر يدل على صحة قول من قال ان الدنيا كلها ستة آلاف سنة لو كان صحيحا لم يعد القول به الى غيره وهو حديث أبى هريرة يرفعه الحقب ثمانون عاما اليوم منها سدس الدنيا فتبين من هذا الخبر أن الدنيا كلها ستة آلاف سنة وذلك انه حيث كان اليوم الذى هو من أيام الآخرة مقداره الف سنة من سنى الدنيا وكان اليوم الواحد من ذلك سدس الدنيا كان معلوما أن جميعها ستة أيام من أيام الآخرة وذلك ستة آلاف سنة وقال أبو القاسم السهيلي وقد مضت الخمسمائة من وفاته صلى الله عليه وسلم الى اليوم بنيف عليها وليس في قوله لن يعجز الله أن يؤخر هذه الامة نصف يوم ماينفى الزيادة على النصف ولا فى قوله بعثت انا والساعة كهاتين ما يقطع به على صحة تأويله يعني الطبرى فقد نقل في

تأويله غير هذا وهو أنه ليس بينه وبين الساعة نبي ولا شرعة غير شرعته مع التقريب لحينها كما قال تعالى اقتربت الساعة وقال أتى أمر الله فلا تستعجلوه ولكن اذا قلنا انه عليه السلام انما بعث في الالف الآخر بعد ما مضت منه سنون ونظرنا الى الحروف المقطعة في أوائل السور وجدناها أربعة عشر حرفا يجمعها قولك *(ألم يسطع نص حق كره)* (٣) ثم تأخذ العدد على حساب أبي جاد فيجيء تسعمائة وثلاثة ولم يسم الله تعالى أوائل السور الا هذه الحروف فليس يبعد أن يكون من بعض مقتضياتها وبعض فوائدها الاشارة الى هذا العدد من السنين لما قدمناه من حديث الالف السابع الذى بعث عليه السلام فيه غير ان الحساب يحتمل أن يكون من مبعثه أو من وفاته أو من هجرته وكل قريب بعضه من بعض فقد جاء أشراطها ولكن لا تأتيكم الا بغتة وقد روى انه عليه السلام قال ان احسنت امتي فبقاؤها يوم من ايام الآخرة وذلك الف سنة وان اساءت فنصف يوم ففي الحديث تتميم للحديث المتقدم وبيان له اذ قد انقضت الخمسمائة والامة باقية وقال شاذ ان البلخي المنجم مدة ملة الاسلام ثلثمائة وعشر سنين وقد ظهر كذب قوله ولله الحمد وقال ابو معشر يظهر بعد المائة والخمسين من سني الهجرة اختلاف كثير وقال حراس ان المنجمين أخبروا كسرى انوشروان بتملك العرب وظهور النبوة فيهم وان دليلهم الزهرة وهي في شرفها والزهرة دليل العرب فتكون مدة ملك نبوتهم الفا وستين سنة ولان طالع القران الدال على ذلك برج الميزان والزهرة صاحبته في شرفها قال وسأل كسرى وزيره بزر جمهر عن ذلك فأعلمه ان الملك يخرج من فارس وينتقل الى العرب وتكون ولادة القائم بامرة العرب لخمس واربعين سنة من وقت القران وان العرب تملك المشرق والمغرب من اجل ان المشترى دليل فارس قد قبل تدبير الزهرة دليل العرب والقران قد انتقل من المثلثة الهوائيـة الى المثلثة المائية والى برج العقرب منها وهو دليل العرب ايضا وهذه الادلة تقتضى بقاء الملة الاسلامية بقدر دور الزهرة وهو الف وستون سنة شمسية وقال نفيل الرومي وكان في ايام بني امية تبقى ملة الاسلام بقدر مدة القران الكبيرة وهي تسعمائة وستون سنة شمسية فاذا عاد القران بعد هذه المدة الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع تشكيل الفلك عن هيئته في الابتداء فحينئذ يفتر العمل ويتجدد مايوجب خلاف الظن * قال واتفقوا على ان خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك المكونات بأسرها وذلك اذا قطع قلب الاسد أربعا وعشرين درجة من برج الاسد الذى هو حد المريخ بعد تسعمائة وستين سنة شمسية من قران الملة ويقال ان ملك رابلستان وهي عزبة بعث الى عبد الله أمير المؤمنين المأمون بحكيم اسمه دوبان في جملة هدية فأعجب به المأمون وساله عن مدة ملك بني العباس فاخبره بخروج الملك عن عقبه واتصاله في عقب أخيه وأن العجم تغلبهم على الخلافة فيتغلب الديلم أولا ثم يسوء حالهم حتى يظهر

الترك من شمال المشرق فيملكون الفرات والروم والشام وقال يعقوب بن اسحاق الكندي مدة ملة الاسلام ستمائة وثلاث وتسعون سنة * وقال الفقيه الحافظ أبو محمد على بن أحمد ابن سعيد بن حزم وأما اختلاف الناس في التاريخ فان اليهود يقولون أربعة آلاف سنة والنصارى يقولون الدنيا خمسة آلاف سنة وأما نحن يعنى أهل الاسلام فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة او أكثر أو اقل فقد قال مالم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لفظة تصح بل صح عنه عليه السلام خلافه بل نقطع على أن للدنيا أمدا لا يعلمه الا الله تعالى قال الله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنتم في الامم قبلكم الا كالشعرة البيضاء في الثور الاسود والشعرة السوداء في الثور الابيض وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ونسبة ما بأيديهم من معمور الارض وانه الاكثر علم أن للدنيا أمدا لا يعلمه الا الله تعالى وكذلك قوله عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين وضم اصبعيه المقدستين السبابة والوسطى وقدجاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون الا الله تعالى لا أحد سواه فصح أنه صلى الله عليه وسلم انما عنى شدة القرب لافضل السبابة على السباحة اذ لو أراد ذلك لاخذت نسبة مابين الاصبعين ونسب من طول الاصبع فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة وهذا باطل وأيضا فكان تكون نسبته صلى الله عليه وسلم ايانا الى من قبلنا بأننا كالشعرة فى الثور كذبا ومعاذ الله من ذلك فصح أنه عليه السلام انما أراد شدة القرب وله صلى الله عليه وسلم منذ بعث أربعمائة عام ونيف والله تعالى أعلم بما بقى للدنيا فاذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ماسلف لقلته وتفاهته بالاضافة الى مامضى فهو الذى قاله صلى الله عليه وسلم من انا فيمن مضى كالشعرة في الثور او الرقمة في ذراع الحمار وقدرأيت بخط الامير أبي محمد عبد الله بن الناصر قال حدثني محمد بن معاوية القرشي أنه رأى بالهند بلدا له اثنتان وسبعون ألف سنة وقد وجد محمود بن سبكتكين بالهند مدينة يؤرخون بأربعمائة ألف سنة قال أبو محمد الا أن لكل ذلك أولا ولابد ونهاية لم يكن شئ من العالم موجودا قبله ولله الامر من قبل ومن بعد والله أعلم

ذكر التواريخ التي كانت للامم قبل تاريخ القبط

التاريخ كلمة فارسية أصلها ماروز ثم عرب * قال محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الباخي فى كتاب مفاتيح العلوم وهو كتاب جليل القدر وهذا اشتقاق بعيد لولا أن الرواية جاءت به وقال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج تاريخ كل شئ آخره وهو في الوقت غايته يقال فلان تاريخ قومه اى اليه ينتهى شرفهم ويقال ورخت الكتاب توريخا وأرخته تأريخا اللغة الاولى لتميم والثانية لقيس ولكل أهل ملة تاريخ فكانت الامم تؤرخ أولا بتاريخ

الخليقة وهو ابتداء كون النسل من آدم عليه السلام ثم أرخت بالطوفان وأرخت بخت نصر وأرخت بفيلبش وأرخت بالاسكندر ثم بأغشطش ثم بأنطيس ثم بدقلطيانوس وبه تؤرخ القبط ثم لم يكن بعد تاريخ القبط الا تاريخ الهجرة ثم تاريخ يزدجرد فهذه تواريخ الامم المشهورة وللناس تواريخ أخر قد انقطع ذكرها * فأما تاريخ الخليقة ويقال له ابتداء كون النسل وبعضهم يقول بدو التحرك فان لاهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس في كيفيته وسياقة التاريخ منه خلافا كثيرا قال المجوس والفرس عمر العالم اثناعشر ألف عام على عدد بروج الفلك وشهور السنة وزعموا أن زرادست صاحب شريعتهم قال ان الماضي من الدنيا الى وقت ظهوره ثلاثة آلاف سنة مكبوسة الارباع وبين ظهور زرادست وأول تاريخ الاسكندر ثلاثة آلاف ومائتا سنة وثمان وخمسون سنة واذا حسبنا من أول يوم كيومرت الذي هو عندهم الانسان الاول وجمعنا مدة كل من ملك بعده فان الملك ملاصق فيهم غير منقطع عنهم كان العدد منه الى الاسكندر ثلاثة آلاف وثلثمائة وأربعا وخمسين سنة فاذا لم يتفق التفصيل مع الجملة وقال قوم الثلاثة الآلاف الماضية انما هي من خلق كيومرت فانه مضي قبله ألف سنة والفلك فيها واقف غير متحرك والطبائع غير مستحيلة والامهات غير ممتازجة والكون والفساد غير موجود فيها والارض غير عامرة فلما تحرك الفلك حدث الانسان الاول في معدن النهار وتولد الحيوان وتوالد وتناسل الانس فكثروا وامتزجت أجزاء العناصر للكون والفساد فعمرت الدنيا وانتظم العالم * وقال اليهود الماضي من آدم الى الاسكندر ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان وأربعون سنة وقال النصارى المدة بينهما خمسة آلاف ومائة وثمانون سنة وزعموا أن اليهود نقصوها ليقع خروج عيسي ابن مريم عليه السلام في الالف الرابع وسط السبعة آلاف التي هي مقدار العالم عندهم حتى تخالف ذلك الوقت الذي سبقت البشارة من الانبياء الذين كانوا بعد موسى بن عمران عليه السلام بولادة المسيح عيسى واذا جمع ما في التوراة التي بيد اليهود من المدة التى بين آدم عليه السلام وبين الطوفان كانت ألفاً وستمائة وستاً وخمسين سنة وعند النصارى في انجيلهم ألفان ومائتا سنة واثنتان وأربعون سنة وتزعم اليهود أن توراتهم بعيدة عن التخاليط وتزعم النصارى أن توراة السبعين التي هي بأيديهم لم يقع فيها تحريف ولا تبديل وتقول اليهود فيها خلاف ذلك وتقول السامرية بأن توراتهم هي الحق وما عداها باطل وليس في اختلافهم ما يزيل الشك بل يقوى الجالبة له وهذا الاختلاف بعينه بين النصاري أيضاً في الانجيل وذلك ان له عند النصاري أربع نسخ مجموعة في مصحف واحد أحدها انجيل متي والثاني لمارقوس والثالث للوقا والرابع ليوحنا قد ألف كل من هؤلاء الاربعة انجيلا على حسب دعوته في بلاده وهي مختلفة اختلافا كثيرا حتى في صفات المسيح عليه السلام

وأيام دعوته ووقت الصلب بزعمهم وفى نسبه أيضاً وهذا الاختلاف لا يحتمل مثله ومع هذا فعند كل من أصحاب مرقيون وأصحاب ابن ديصان انجيل يخالف بعضه هذه الاناجيل ولاصحاب مانى انجيل على حدة يخالف ما عليه النصارى من أوله الى آخره ويزعمون أنه هو الصحيح وما عداه باطل ولهم أيضاً انجيل يسمى انجيل السبعين ينسب الى تلامس والنصارى وغيرهم ينكرونه واذا كان الامر من الاختلاف بين أهل الكتاب كما قد رأيت ولم يكن للقياس والرأى مدخل فى تمييز حق ذلك من باطله امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم ولم يعول على شئ من أقوالهم فيه وأما غير أهل الكتاب فانهم أيضاً مختلفون في ذلك * قال أسوش بين خلق آدم وبين ليلة الجمعة أول الطوفان ألفا سنة ومائتا سنة وست وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يوما وأربع ساعات وقال ماشاه واسمه منشا ابن أثرى منجم المنصور والمأمون في كتاب القرانات أول قران وقع بين زحل والمشترى في بدء التحرك يعنى ابتداء النسل من آدم كان على مضى خمسمائة وتسع سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوما مضت من ألف المريخ فوقع القران في برج الثور من المثلثة الارضية على سبع درج واثنتين وأربعين دقيقة وكان انتقال الممر من برج الميزان ومثلثه الهوائية الى برج العقرب ومثلثته المائية بعد ذلك بألفى سنة وأربعمائة سنة واثنتى عشرة سنة وستة أشهر وستة وعشرين يوما ووقع الطوفان فى الشهر الخامس من السنة الاولى من القران الثانى من قرانات هذه المثلثة المائية وكان بين وقت القران الاول الكائن في بدء التحرك وبين الشهر الذى كان فيه الطوفان ألفان وأربعمائة وثلاث وعشرون سنة وستة أشهر واثنا عشر يوما قال وفى كل سبعة آلاف سنة وسنتين وعشرة أشهر وستة أيام يرجع القران الى موضعه من برج الثور الذي كان في بدء التحرك وهذا القول أعزك الله هو الذى اشهر حتي ظن كثير من الملل أن مدة بقاء الدنيا سبعة آلاف سنة فلا تغتر به وتنبه الي أصله تجده أوهي من بيت العنكبوت فاطرحه وقيل كان بين آدم وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وقيل كانت بينهما مدة ألفين ومائتين وست وخمسين سنة وقيل ألفان وثمانون سنة * وأما تاريخ الطوفان فانه يتلو تاريخ الخليقة وفيه من الاختلاف ما لا يطمع فى حقيقته مثل أجل الاختلاف فيما بين آدم وبينه وفيما بينه وبين تاريخ الاسكندر فان اليهود عندهم أن بين الطوفان وبين الاسكندر ألفاً وسبعمائة واثنتين وتسعين سنة وعند النصارى بينهما ألفا سنة وتسعمائة وثمان وثلاثون سنة والفرس وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الامم المشرقية ينكرون الطوفان وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب ولم يعم العمران كله ولا غرق الا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان ولا بلغ الي ممالك المشرق قالوا ووقع

في زمان طمهورت وان أهل المغرب لما أنذر حكماؤهم بالطوفان اتخذوا المباني العظيمة كالهرمين بمصر ونحوهما ليدخلوا فيها عند حدوثه ولما بلغ طمهورت الانذار بالطوفان قبل كونه بمائة واحدى وثلاثين سنة أمر باختيار مواضع في مملكته صحيحة الهواء والتربة فوجد ذلك باصبهان فأمر بتجليد العلوم ودفنها فيها في أسلم المواضع ويشهد لهذا ما وجد بعد الثلثمائة من سنى الهجرة فى حى من مدينة أصبهان من التلال التى انشقت عن بيوت مملوءة أعدالا عدة كثيرة قد ملئت من لحاء الشجر التي تلبس بها القسي وتسمى التور مكتوبة بكتابة لم يدر أحد ما هى وأما المنجمون فانهم صححوا هذه السنين من القران الاول من قرانات العلويين زحل والمشترى التى أثبت علماء أهل بابل والكلدانيين مثلها اذا كان الطوفان ظهوره من ناحيتهم فان السفينة استقرت على الجودى وهو غير بعيد من تلك النواحي قالوا وكان هذا القران قبل الطوفان بمائتين وعشرين سنة ومائة وثمانية أيام واعتنوا بامرها وصححوا ما بعدها فوجدوا ما بين الطوفان وبين أول ملك بخت نصر الاول ألفي سنة وستمائة وأربع سنين وبين بخت نصر هذا وبين الاسكندر أربعمائة وست وثلاثون سنة وعلى ذلك بني أبو معشر أوساط الكواكب في زيجه وقال كان الطوفان عند اجتماع الكواكب فى آخر برج الحوت وأول برج الحمل وكان بين وقت الطوفان وبين تاريخ الاسكندر قدر ألفي سنة وسبعمائة وتسعين سنة مكبوسة وسبعة أشهر وستة وعشرين يوما وبينه وبين يوم الخميس أول المحرم من السنة الاولى من سنى الهجرة النبوية ألف ألف يوم وثلثمائة ألف يوم وتسعة وخمسون ألف يوم وتسعمائة يوم وثلاثة وسبعون يوما يكون من السنين الفارسية المصرية ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة وخمساً وعشرين سنة وثلثمائة يوم وثمانية وأربعين يوما ومنهم من يرى أن الطوفان كان يوم الجمعة وعند أبى معشر أنه كان يوم الخميس ولما تقرر عنده الجملة المذكورة وخرجت له المدة التى تسمى أدوار الكواكب وهى بزعمهم ثلثمائة ألف وستون ألف سنة شمسية وأولها متقدم على وقت الطوفان بمائة ألف وثمانين ألف سنة شمسية حكم بان الطوفان كان في مائة ألف وثمانين ألف سنة وسيكون فيما بعد كذلك ومثل هذا لا يقبل الا بحجة أو من معصوم * وأما تاريخ بخت نصر فانه على سني القبط وعليه يعمل في استخراج مواضع الكواكب من كتاب المجسطى ثم أدوار قاليبس وأول أدواره فى سنة ثماني عشرة وأربعمائة لبخت نصر وكل دور منها ست وسبعون سنة شمسية وكان قاليبس من جلة أصحاب التعاليم وبخت نصر هذا ليس هو الذى خرب بيت المقدس وانما هو آخر كان قبل بخت نصر مخرب بيت المقدس بمائة وثلاث وأربعين سنة وهو اسم فارسى أصله بخت برسى ومعناه كثير البكاء والانين ويقال له بالعبرانية نصار وقيل تفسيره عطارد وهو ينطق وذلك لنجيبه على الحكمة وتقريب أهلها ثم عرب

فقيل بخت نصر * وأما تاريخ فيلبش فانه على سني القبط وكثيرا ما يستعمل هـذا التاريخ من موت الاسكندر البناء المقدوني وكلا الامرين سواء فان القائم بعـد البناء هو فيلبش فسواء كان من موت الاول أو من قيام الآخر فان الحالة المؤرخة هي كالفصل المشـترك بينهما وفيلبش هذا هو أبو الاسكندر المقدوني ويعرف هذا التاريخ بتاريخ الاسكندرانيين وعليه بني تاون الاسكندراني في تاريخه المعروف بالقانون والله أعلم * وأما تاريخ الاسكندر فانه على سني الروم وعليـه يعمل أكثر الامم الى وقتنا هـذا من أهل الشام وأهل بلاد الروم وأهـل المغرب والاندلس والفرنج واليهود وقد تقـدم الـكلام عليه عند ذكر الاسكندرية من هذا الكتاب * وأما تاريخ أغشطش فانه لا يعرف اليوم أحد يسـتعمله واغشطش هذا هو أول القياصرة ومعنى قيصر بالرومية شق عنه فان أغشطش هذا لما حملت به أمه ماتت في المخاض فشق بطنها حتى أخرج منه فقيل قيصر وبه يلقب من بعده من ملوك الروم ويزعم النصارى أن المسيح عليه السلام ولد لاربعين سنة من ملـكه وفي هذا القول نظر فانه لا يصح عند سياقة السـنين والتواريخ بل يجيء تعـديل ولادته عليه السلام في السنة السابعة عشر من ملكه * وأما تاريخ أنطينس فان بطليموس صحح الكواكب الثابتة في كتابه المعروف بالمجسطى لاول ملكه على الروم وسنو هذا التاريخ رومية

﴿ ذكر تاريخ القبط ﴾

اعـلم أن السنة الشمسية عبارة عن عود الشمس في فلك البروج اذا تحركت على خلاف حركة الـكل الى أي نقطة فرضت ابتداء حركتها وذلك أنها تستوفى الازمنة الاربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء وتحوز طبائعها الاربع وتنتهى الى حيث بدأت وفي هـذه المدة يستوفى القمر اثنتي عشرة عودة وأقل من نصف عودة ويستهل اثنتي عشرة مرة فجعلت المدة التي فيها عودات القمر الاثنتا عشرة في فلك البروج سنة للقمر على جهة الاصطلاح وأسقط الـكسر الذي هو أحد عشر يوما بالتقريب فصارت السنة على قسـمين سنة شمسية وسنة قمرية وجميع من على وجه الارض من الامم أخذوا تواريخ سنيهم من مسير الشمس والقمر فالآخذون بسير الشمس خمس أمم هم اليونانيون والسريانيون والقبط والروم والفرس والآخذون بسير القمر خمس أمم هم الهند والعرب واليهود والنصـارى والمسـلمون * فأهل قسطنطينية والاسكندرية وسائر الروم والسريانيون والـكلدانيون وأهل مصر ومن يعمل برأي المعتضد أخذوا بالسنة الشمسية التي هي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم بالتقريب وصيروا السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما وألحقوا الارباع بها في كل أربع سنين يوما حتى انجبرت السنة وسموا تلك السنة كبيسة لانكباس الارباع فيها * وأما قبط مصر القدماء فانهم كانوا يتركون الارباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامة وذلك في كل ألف وأربعمائة

وستين سنة ثم يكبسونها سنة واحدة ويتفقون حينئذ فى أول تلك السنة مع أهل الاسكندرية وقسطنطينية * وأما الفرس فانهم جعلوا السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما من غير كبس حتى اجتمع لهم من ربع اليوم فى مائة وعشرين سنة أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها فى كل مائة وست عشرة سنة واقتفى أثرهم فى هذا أهل خوارزم القدماء والصفد ومن دان بدين فارس وكانت الملوك البيشدادية منهم وهم الذين ملكوا الدنيا بحذافيرها يعملون السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما كل شهر منها ثلاثون يوما سواء وكانوا يكبسون السنة كل ست سنين بيوم ويسمونها كبيسة وكل مائة وعشرين سنة بشهرين أحدهما بسبب خمسة الايام والثانى بسبب ربع اليوم وكانوا يعظمون تلك السنة ويسمونها المباركة * وأما قدماء القبط وأهل فارس فى الاسلام وأهل خوارزم والصفد فتركوا الكسور أعنى الربع وما يتبعه أصلا * وأما العبرانيون وجميع بنى اسرائيل والصابئون والحرانيون فانهم أخذوا السنة من مسير الشمس وشهورها من مسير القمر لتكون أعيادهم وصيامهم على حساب قمرى وتكون مع ذلك حافظة لاوقاتها من السنة فكبسوا كل تسع عشرة سنة قمرية بستة أشهر ووافقهم النصارى فى صومهم وبعض أعيادهم لان مدار أمرهم على نسخ اليهود وخالفوهم فى الشهور الى مذهب الروم والسريانيين وكانت العرب فى جاهليتها تنظر الى فضل ما بين سنتهم وسنة القمر وهو عشرة أيام واحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة فيلحقون ذلك بها شهرا كلما تم منها ما يستوفى أيام شهر ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة وكان يتولى ذلك النسأة من بنى كنانة المعروفون بالقلامس واحدهم قلمس وهو البحر الغزير وهو أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع وأول من فعل ذلك منهم حذيفة بن عبد فقيم وآخر من فعله أبو ثمامة وأخذ العرب الكبيس من اليهود قبل مجئ دين الاسلام بنحو المائتى سنة وكانوا يكبسون فى كل أربع وعشرين سنة تسعة أشهر حتى تبقى أشهر السنة ثابتة مع الازمنة على حالة واحدة لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم الى أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله تعالى عليه انما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين فخطب صلى الله عليه وسلم وقال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض فبطل النسئ وزالت شهور العرب عما كانت عليه وصارت أسماؤها غير دالة على معانيها * وأما أهل الهند فانهم يستعملون رؤية الاهلة فى شهورهم ويكبسون كل تسعمائة سنة وسبعين يوما بشهر قمرى ويجعلون ابتداء تاريخهم اتفاق اجتماع فى أول دقيقة من برج ما وأكثر طلبهم لهذا الاجتماع أن يتفق فى احدى

نقطتي الاعتدالين ويسمون السنة الكبيسة بذمات فهذه آراء الخليقة في السنة * وأما اليوم فانه عبارة عن عود الشمس بدوران الكل الى دائرة قد فرضت وقد اختلف فيه فجعله العرب من غروب الشمس الي غروبها من الغد ومن أجل أن شهور العرب مبنية على مسير القمر وأوائلها مقيدة برؤية الهلال والهلال يري لدن غروب الشمس صارت الليلة عندهم قبل النهار وعند الفرس والروم اليوم بليلته من طلوع الشمس بارزة من أفق المشرق الى وقت طلوعها من الغد فصار النهار عندهم قبل الليل واحتجوا على قولهم بأن النور وجود والظلمة عدم والحركة تغلب على السكون لانها وجود لا عدم وحياة لا موت والسماء أفضل من الارض والعامل الشاب أصح والماء الجاري لا يقبل عفونة كالراكد واحتج الآخرون بأن الظلمة أقدم من النور والنور طارئ عليها فالاقدم يبدأ به وغلبوا السكون على الحركة باضافة الراحة والدعة اليه وقالوا الحركة انما هي الحاجة والضرورة والتعب نتيجة الحركة والسكون اذا دام في الاستقصاآت مدة لم يولد فسادا فاذا دامت الحركة في الاستقصاآت واستحكمت أفسدت وذلك كالزلازل والعواصف والامواج وشبهها وعند أصحاب التنجيم أن اليوم بليلته من موافاة الشمس فلك نصف النهار الي موافاتها اياه في الغد وذلك من وقت الظهر الى وقت العصر وبنوا على ذلك حساب أزياجهم وبعضهم ابتدأ باليوم من نصف الليل وهو صاحب زيج شهر باراز انساه وهذا هو حد اليوم على الاطلاق اذا اشترط الليلة في التركيب فاما على التفصيل فاليوم بانفراده والنهار بمعني واحد وهو من طلوع جرم الشمس الى غروب جرمها والليل خلاف ذلك وعكسه وحد بعضهم أول النهار بطلوع الفجر وآخره بغروب الشمس لقوله تعالى وكلوا واشربوا حتي يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل وقال هذان الحدان هما طرفا النهار وعورض بأن الآية انما فيها بيان طرفي الصوم لا تعريف أول النهار وبأن الشفق من جهة المغرب نظير الفجر من جهة المشرق وهما متساويان في العلة فلو كان طلوع الفجر أول النهار لكان غروب الشفق آخره وقد التزم ذلك بعض الشيعة فاذا تقرر ذلك فنقول تاريخ القبط يعرف عند نصاري مصر الآن بتاريخ الشهداء ويسميه بعضهم تاريخ دقلطيانوس

ذكر دقلطيانوس الذى يعرف تاريخ القبط به

اعلم أن دقلطيانوس هذا أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة ملك فى منتصف سنة خمس وتسعين وخمسمائة من سنى الاسكندر وكان من غير بيت الملك فلما ملك تجبر وامتد ملكه الى مدائن الاكاسرة ومدينة بابل فاستخلف ابنه على مملكة رومة واتخذ تخت ملكه بمدينة أنطاكية وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر الى أقصى المغرب فلما كان في السنة التاسعة

عشر من ملكه وقيل الثانيــة عشر خالف عليه أهل مصر والاسكندرية فبعث اليهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأوقع بالنصارى فاستباح دماءهم وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى وحمــل الناس على عبادة الاصنام وبالغ في الاسراف في قتل النصارى وأقام ملكا احــدى وعشرين سنة وهلك بعــد علل صعبة دود منها بدنه وسقطت أسنانه وهو آخر من عبد الاصنام من ملوك الروم وكل من ملك بعده فانما كان على دين النصرانيــة فان الذى ملك بعده ابنه سنةواحدة وقيل أكثر من ذلك ثم ملك قسطنطين الاكبر فأظهر دين النصرانية ونشره في الارض ويقــال ان رجلا ثار بمصر يقال له أجله وخرج عن طاعة الروم فسار اليه دقلطيانوس وحصر الاسكندرية دار الملك يومئذ ثمانية أشهر حتى أخذ أجله وقتله وعم أرض مصر كلها بالسبي والقتل وبعث قائده لحارب سابور ملك فارس وقتل أكثر عسكره وهزمه وأسر امرأته واخوته وأثخن في بلاده وعاد بأسرى كثيرة من رجال فارس ثم أوقع بعامة بلاد رومة فأكثر في قتلهم وسبيهم فكانت أيامه شنعة قتل فيها من أصناف الامم وهــدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت حصر وكانت واقعته بالنصــارى هى الشدة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها لانها دامت عليهم مدة عشر سنين لايفتر يوما واحدا يحرق فيها كنائسهم ويعذب رجالهم ويطلب من استتر منهم أوهرب ليقتل يريد بذلك قطع أثر النصارى وابطال دين النصرانية من الارض فلهذا اتخذوا ابتداء ملك دقلطيانوس تاريخا وكان ابتداء ملكه يوم الجمعة وبينــه وبين يوم الاثنين أول يوم من توت وهو أول أيام ملك الاسكندر بن فيلبش المقــدوني خمسمائة وأربع وتسعون ســنة وأحد عشر شهرا وثلاثة أيام وبين يوم الجمعة أول يوم من تاريخ دقلطيانوس وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة النبوية ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قمرية وتسعة وثلاثون يوما وجعلوا شهورالسنة القبطية اثنى عشر شهرا كل شهر منها عدده ثلاثون يوما سواء فاذا تمت الاشهر الاثنا عشر أتبعوها بخمسة أيام زيادة على عدد أيامها وسموا هذه الخمسة الايام أبو عمنا وتعرف اليــوم بأيام النسئ فيكون الحال فى النسئ على ذلك ثلاث سنين متواليات فاذا كان في السنة الرابعة جعلواالنسئ ستة أيام فتكون سنوهم ثلاث سنين متواليــات كل سنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما والرابعة يصير عددها ثلثمائة وستة وستين يوما ويرجع حكم سنتهم الى حكم سنة اليونانيين بأن تصيرسنتهم الوسطي ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم الا أن الــكبس يختلف فاذا كان كبس القبط في سنة كان كبس اليونانيين في السنة الداخلة *(وأسماء شهور القبط)* توت بابه • هاتور • كيهك • طوبه • أمشير • برمهــات • برموده • بشنس • بؤونه • أبيب • مسرى • فهذه اثنا عشر شهرا كل شهر منها عدده ثلاثون يوما واذا كانت عدة شهر مسرى وهو الشهر الثاني عشر زادوا أيام النسئ بعد ذلك وعملوا النوروز أول يوم من شهر توت

﴿ ذكر أسابيع الأيام ﴾

اعلم أن القدماء من الفرس والصفد وقبط مصر الاول لم يكونوا يستعملون الاسابيع من الايام في الشهور وأول من استعملها أهل الجانب الغربي من الارض لاسيما أهل الشام وما حواليه من أجل ظهور الانبياء عليهم السلام فيما هنالك وأخبارهم عن الاسبوع الاول وبدء العالم فيه وأن الله خالق السموات والارض في ستة أيام من الاسبوع ثم انتشر ذلك منهم في سائر الامم واستعملته العرب العاربة بسبب تجاور ديارهم وديار أهل الشام فانهم كانوا قبل تحولهم الى اليمن ببابل وعندهم أخبار نوح عليه السلام ثم بعث الله تعالى اليهم هودا ثم صالحا عليهما السلام وأنزل فيهم ابراهيم خليل الرحمن ابنه اسمعيل عليهما السلام فتعرب اسمعيل وكانت القبط الاول تستعمل اسماء الايام الثلاثين من كل شهر فتجعل لكل يوم منها اسما كما هو العمل في تاريخ الفرس وما زالت القبط على هذا الى أن ملك مصر اغشطش بن بوحس فأراد أن يحملهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبدا فيها فوجدوا الباقي حينئذ الى تمام السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين ثم حملهم على كبس الشهور في كل أربع سنين يوم كما تفعل الروم فترك القبط من حينئذ استعمال اسماء الايام الثلاثين لاحتياجهم في يوم الكبس الى اسم يخصه وانقرض بعد ذلك مستعملو اسماء الايام الثلاثين من أهل مصر والعارفون بها ولم يبق لها ذكر يعرف في العالم بين الناس بل دثرت كما دثر غيرها من اسماء الرسوم القديمة والعادات الاول سنة الله في الذين خلوا من قبل وكانت اسماء شهور القبط في الزمن القديم توت بؤونى أتور سواق طوبى ما كير فامينوت برموتى باحون باونى افيفي ابيفا وكل شهر منها ثلاثون يوما ولكل يوم اسم يخصه ثم أحدث بعض رؤساء القبط بعد استعمالهم الكبس الاسماء التي هي اليوم متداولة بين الناس بمصر الا أن من الناس من يسمي كيهك كياك ويقول في برمهات برمهوط وفى بشنس بشانس وفى مسرى ماسورى ومن الناس من يسمى الخمسة الايام الزائدة أيام النسئ ومنهم من يسميها أبو عمنا ومعنى ذلك الشهر الصغير وهي كما تقدم تلحق فى آخر مسرى وفيه يزاد اليوم الكبيس فيكون أبو عمنا ستة أيام حينئذ ويسمون السنة الكبيسة النقط ومعناه العلامة ومن خرافات القبط أن شهورهم هي شهور سني نوح وشيث وآدم منذ ابتداء العالم وانها لم تزل على ذلك الى أن خرج موسى ببني اسرائيل من مصر فعملوا أول سنتهم خامس عشر نيسان كما أمروا به في التوراة الى أن نقل الاسكندر رأس سنتهم الى أول تشرين وكذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أول سنتهم الى أول يوم من ملكه فصار أول توت عندهم يتقدم أول يوم خلق فيه العالم بمائتين وثمانية أيام أولها يوم الثلاثاء وآخرها يوم السبت وكان توت أوله فى ذلك الوقت يوم الاحد وهو أول يوم خلق الله فيه

العالم الذي يقال له الآن تاسع عشرى برمهات وذلك أن أول من ملك على الارض بعد الطوفان نمرود بن كنعان بن حام بن نوح فعمر بابل وهو أبو الكلدانيين وملك بنو مصرايم ابن حام بن نوح عليه السلام منش فبني منف بمصر على النيل وسماها باسم جده مصرايم وهو ثاني ملك ملك على الارض وهذان الملكان استعملا تاريخ جدهما نوح عليه السلام واستن بسنتهم من جاء بعدهم حتى تغيرت كما تقدم

ذكر أعياد القبط من النصارى بديار مصر

روى يونس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال اجتنبوا عيد اليهود والنصارى فان السخط ينزل عليهم في مجامعهم ولا تتعلموا رطانتهم فتخلقوا ببعض خلقهم * وعن ابن عباس في قوله تعالى والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما قال أعياد المشركين فقيل له أو ما هذا في الشهادة بالزور فقال لا انما آية شهادة الزور ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا * اعلم أن نصارى مصر من القبط ينتحلون مذهب اليعقوبية كما تقدم ذكره وأعيادهم الآن التي هي مشهورة بديار مصر أربعة عشر عيدا في كل سنة من سنيهم القبطية منها سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا وسبعة يسمونها أعيادا صغارا * فالاعياد الكبار عندهم عيد البشارة • وعيد الزيتونة • وعيد الفصح • وعيد خميس الاربعين • وعيد الخميس • وعيد الميلاد • وعيد الغطاس • والاعياد الصغار • عيد الختان • وعيد الاربعين • وخميس العهد • وسبت النور • واحد الحدود • والتجلي • وعيد الصليب ولهم مواسم أخر ليست هي عندهم من الاعياد الشرعية لكنها عندهم من المواسم العادية وهو يوم النوروز وسأذكر من خبر هذه الاعياد مالا تجده مجموعا في غير هذا الكتاب على ما استخرجته من كتب النصارى وتواريخ أهل الاسلام * عيد البشارة هذا العيد عيد النصارى أصله بشارة جبريل مريم بميلاد المسيح عليهما السلام وهم يسمون جبريل غبريال ويقولون مارت مريم ويسمون المسيح ياشوع وربما قالوا السيد يشوع وهذا العيد تعمله نصارى مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات * عيد الزيتونة * ويعرف عندهم بعيد الشعانين ومعناه التسبيح ويكون في سابع أحد من صومهم وسنتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو وهو الحمار في القدس ودخوله الى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف ويحث على عمل الخير وينهى عن المنكر ويباعد عنه وكان عيد الشعانين من مواسم النصارى بمصر التي تزين فيها كنائسهم فلما كان لعشر خلون من شهر رجب سنة ثمان وسبعين وثلثمائة كان عيد الشعانين فمنع الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز بالله النصارى من تزيين كنائسهم وحملهم الخوص على ما كانت عادتهم وقبض على عدة ممن وجد معه شيأ من ذلك وأمر بالقبض

على ماهو محبس على الكنائس من الاملاك وأدخلها في الديوان وكتب لسائر الاعمال بذلك وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة * عيد الفصح * هذا العيد عندهم هو العيد الكبير ويزعمون أن المسيح عليه السلام لما تمالأ اليهود عليه واجتمعوا على تضليله وقتله قبضوا عليه وأحضروه الى خشبة ليصلب عليها فصلب على خشبة عليها لصان وعندنا وهو الحق أن الله تعالى رفعه اليه ولم يصلب ولم يقتل وأن الذى صلب على الخشبة مع اللصين غير المسيح ألقى الله عليه شبه المسيح قالوا واقتسم الجند ثيابه وغشي الارض ظلمة من الساعة السادسة من النهار الى الساعة التاسعة من يوم الجمعة خامس عشر هلال نيسان للعبرانيين وتاسع عشرى برمهات وخامس عشرى آذار سنة (٣) ودفن الشبيه آخر النهار بقبر وأطبق عليه حجر عظيم وختم عليه رؤساء اليهود وأقاموا عليه الحرس باكر يوم السبت كيلا يسرق فزعموا أن المقبور قام من القبر ليلة الاحد سحرا و مضى بطرس ويوحنا التلميذان الى القبر واذا الثياب التي كانت على المقبور بغير ميت وعلى القبر ملاك الله بثياب بيض فأخبرهما بقيام المقبور من القبر قالوا وفي عشية يوم الاحد هذا دخل المسيح على تلاميذه وسلم عليهم وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم وأمرهم بأمور قد تضمنها انجيلهم وهذا العيد عندهم بعد عيد الصلبوت بثلاثة أيام *(خميس الاربعين)* ويعرف عند أهل الشام بالمسلاق ويقال له أيضاً عيد الصعود وهو الثاني والاربعون من الفطر ويزعمون أن المسيح عليه السلام بعد أربعين يوماً من قيامته خرج الى بيت عينا والتلاميذ معه فرفع يديه وبارك عليهم وصعد الى السماء وذلك عند اكماله ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر فرجع التلامذة الى اوراسليم يعني بيت المقدس وقد وعدهم باشتهار أمرهم وغير ذلك مما هو معروف عندهم فهذا اعتقادهم في كيفية رفع المسيح ومن أصدق من الله حديثا *(عيد الخميس)* وهو العنصرة ويعملونه بعد خمسين يوما من يوم القيام وزعموا أن بعد عشرة أيام من الصعود وخمسين يوما من قيامة المسيح اجتمع التلاميذ في علية صهيون فتجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار فامتلأوا من روح القدس وتكلموا بجميع الالسن وظهرت على أيديهم آيات كثيرة فعاداهم اليهود وحبسوهم فنجاهم الله منهم وخرجوا من السجن فساروا في الارض متفرقين يدعون الناس الى دين المسيح *(عيد الميلاد)* يزعمون أنه اليوم الذى ولد فيه المسيح وهو يوم الاثنين فيحيون عشية ليلة الميلاد وسنتهم فيه كثرة الوقود بالكنائس وتزيينها ويعملونه بمصر في التاسع والعشرين من كيهك ولم يزل بديار مصر من المواسم المشهورة فكان يفرق فيه أيام الدولة الفاطمية على أرباب الرسوم من الاستاذين المحنكين والامراء المطوقين وسائر الموالى من الكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية والمثارد التى فيها السميذ وقربات الجلاب وطمافير الزلابية والسمك المعروف بالبورى * ومن رسم النصارى في الميلاد اللعب

بالنار * ومن أحسن ما قيل

ما اللعب بالنار في الميلاد من سفه * وانما فيه للاسلام مقصود
ففيه بهت النصارى ان ربهم * عيسى بن مريم مخلوق ومولود

وأدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر أقليم مصر موسما جليلا يباع فيه من الشموع المزهرة بالاصباغ المليحة والتماثيل البديعة بأموال لا تحصر فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشترى من ذلك لاولاده وأهله وكانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالات في أثمانها حتى لقد أدركت شمعة عملت فبلغ مصروفها ألف درهم وخمسمائة درهم فضة عنها يومئذ ما ينيف على سبعين مثقالا من الذهب وأعرف السؤال في الطرقات أيام هذه المواسم وهم يسألون الله أن يتصدق عليهم بفانوس فيشترى لهم من صغار الفوانيس ما يبلغ ثمنه الدرهم وما حوله ثم لما اختلت أمور مصر كان من جملة ما بطل من عوايد الترف عمل الفوانيس في الميلاد الا قليلا *(الغطاس)* ويعمل بمصر في اليوم الحادى عشر من شهر طوبه وأصله عند النصارى أن يحيى بن زكرياء عليهما السلام المعروف عندهم بيوحنا المعمداني عمد المسيح أى غسله فى بحيرة الاردن وعند ما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم وينزلون فيه بأجمعهم ولا يكون ذلك الا في شدة البرد ويسمونه يوم الغطاس وكان له بمصر موسم عظيم الى الغاية * قال المسعودى ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة الحادى عشر من طوبه ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج أمير مصر فى داره المعروفة بالمختار في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فأسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين ومن النصارى منهم فى الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر والملاهى والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء * وقال المسبحي في تاريخه من حوادث سنة سبع وستين وثلثمائة منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهي ونودى أن من عمل ذلك نفي من الحضرة وقال في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل ونصبت

اسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان وأوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب الى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف* وقال في سنة احدى وأربعمائة وفي ثامن عشرى جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس أحد منهم فى البحر وقال في حوادث سنة خمس عشرة وأربعمائة وفي ليلة الاربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ونزل أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله لقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في البحر فى النيل وضرب بدر الدولة الخادم الاسود متولى الشرطتين خيمة عند الجسر وجلس فيها وأمر أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيدا كثيرا وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسسوا هناك طويلا الى أن غطسوا * وقال ابن المأمون في تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة وخمسمائة وذكر الغطاس ففرق أهل الدولة ما جرت به العادة لاهل الرسوم من الاترج والنارنج والليمون في المراكب وأطنان القصب والبورى بحسب الرسوم المقررة بالديوان لكل واحد *(الختان)* يعمل في سادس شهر بؤونه ويزعمون أن المسيح ختن في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد والقبط من دون النصارى تختن بخلاف غيرهم *(الاربعون)* وهو عندهم دخول المسيح الهيكل ويزعمون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح مع أمه وبارك عليه ويعمل في ثامن شهر أمشير *(خميس العهد)* ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام وسنتهم فيه أن يملؤا اناء من ماء ويزمزمون عليه ثم يغسل للتبرك به أرجل سائر النصارى ويزعمون أن المسيح فعل هذا بتلامذته في مثل هذا اليوم كى يعلمهم التواضع ثم أخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض وعوام أهل مصر فى وقتنا يقولون خميس العدس من أجل أن النصارى تطبخ فيه العدس المصفى ويقول أهل الشام خميس الارز وخميس البيض ويقول أهل الاندلس خميس ابريل وابريل اسم شهر من شهورهم وكان في الدولة الفاطمية تضرب في خميس العدس هذا خمسمائة دينار فتعمل خراريب تفرق فى أهل الدولة برسوم مفردة كما ذكر في أخبار القصر من القاهرة عند ذكر دار الضرب من هذا الكتاب وأدركنا خميس العدس هذا فى القاهرة ومصر وأعمالها من جملة المواسم العظيمة فيباع فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدة ألوان ما يجاوز حد الكثرة فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء وينتدب لذلك من جهة المحتسب من يردعهم في بعض الاحيان ويهادى النصارى بعضهم بعضاً ويهدون الى المسلمين أنواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض وقد بطل ذلك لما حل بالناس وبقيت منه بقية *(سبت النور)* وهو قبل الفصح بيوم ويزعمون أن النور يظهر على

قبر المسيح بزعمهم في هـذا اليوم بكنيسة القمامة من القدس فتشـعل مصابيح الكنيسة كلها وقد وقف أهل الفحص والتفتيش على أن هـذا من جملة مخاريق النصارى لصناعة يعملونها وكان بمصر هذا اليوم من جملة المواسم ويكون ثالث يوم من خميس العدس ومن توابعه *(حد الحدود)* وهو بعد الفصح بثمانيـة أيام فيعمل أول أحد بعد الفطر لان الآحاد قبله مشغولة بالصوم وفيه يجددون الآلات والاثاث واللباس ويأخذون في المعاملات والامور الدنيوية والمعاش *(عيد التجلي)* يعمل في ثالث عشر شهر مسرى يزعمون أن المسيح تجلى لتلاميذه بعد ما رفع وتمنوا عليه أن يحضر لهم ايلياء وموسى عليهما السـلام فأحضرهما اليهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد الى السماء وتركهم *(عيد الصليب)* ويعمل في اليوم السابع عشر من شهر توت وهو من الاعياد المحـدثة وسببه ظهور الصليب بزعمهم على يد هيلانة أم قسطنطين وله خبر طويل عندهم ملخصه ما أنت تراه *(ذكر قسطنطين)* وقسطنطين هذا هو ابن قسطنش بن وليطنوش بن ارشميوش بن دقيون بن كلوديش بن عايش بن كتبيان اعسب الاعظم الملقب قيصر وهو أول من ثبت دين النصرانية وأمر بقطع الاوثان وهدم هياكلها وبنيان البيع وآمن من الملوك بالمسيح وكانت أمه هيلانة من مدينة الرها فنشأ بها مع أمه وتعلم العلوم ولم يزل في غاية من الظفر والسعادة معانا منصورا على كل من حاربه وكان في أول أمره على دين المجوس شديدا على النصارى ماقتاً لدينهم وكان سبب رجوعه عن ذلك الى دين النصرانية انه ابتلى بجذام ظهر عليه فاغتم لذلك غماً شديدا وجمع الحذاق من الاطباء فاتفقوا على أدوية دبروها له وأوجبوا أن يستنقع بعد أخذ تلك الادوية في صهريج مملوء من دماء أطفال رضع ساعة يسيل منهم فتقدم أمره بجمع جملة من أطفال النـاس وأمر بذبحهـم في صهريج ليستنقع في دمائهـم وهي طرية فجمعت الاطفال لذلك وبرز ليمضي فيهم ما تقدم به من ذبحهـم فسمع ضجيج النساء اللاتي أخـذ أولادهن فرحمهن وأمر فـدفع لكل واحدة ابنها وقال احتمال علتي أولى بي وأوجب من هلاك هذه العـدة العظيمة من البشر فانصرف النساء بأولادهن وقد سررن سرورا كثيرا فلما صار من الليل الى مضجعه رأى في منامه شيخا يقول له انك رحمت الاطفال وأمهاتهم ورأيت احتمال علتك أولى من ذبحهم فقد رحمك الله ووهبك السلامة من علتك فابعث الى رجل من أهل الايمان يدعى شلبشقر قد فر خوفا منك وقف عندما يأمرك به والتزم ما يحضك عليه تتم لك العافية فانتبه مذعورا وبعث في طلب شلبشقر الاسقف فأتى به اليه وهو يظن أنه يريد قتله لما عهده من غلظته على النصارى ومقته لدينهم فعند ما رآه تلقاه بالبشر وأعلمه بما رآه في منامه فقص عليه دين النصرانية وكانت له معه أخبار طويلة مذكورة عندهم فبعث قسطنطين في جمع الاساقفـة المنفيين والمسيرين والتزم دين النصرانية وشفاه الله من

الجذام فأيد الديانة وأعلن بالايمان بدين المسيح وبينا هو في ذلك اذ توقع وثوب أهل رومة عليه وايقاعهم به فخرج عنها وبني مدينة قسطنطينية بنيانا جليلا فعرفت به وسكنها فصارت موضع تخت الملك من عهده وقد كان النصارى من لدن زمان بيرون الملك الذى قبل الحواريين ومن بعده ممن ملك رومة في كل وقت يقتلون ويحبسون ويشردون بالنفي فلما سكن قسطنطين مدينة قسطنطينية جمع الى نفسه أهل المسيح وقوى وجوههم وأذل عباد الاوثان فشق ذلك على أهل رومة وخلعوا طاعته وقدموا عليهم ملكا فأهمه ذلك ومرت له معهم عدة أخبار مذكورة في تاريخ رومة ثم انه خرج من قسطنطينية يريد رومة وقد استعدوا لحربه فلما قاربهم أذعنوا له والتزموا طاعته فدخلها فأقام الى أن رجع لحرب الفرس وخرج اليهم فقهرهم ودانت له أكثر ممالك الدنيا فلما كان في عشرين سنة من دولته خرجت الفرس على بعض اطرافه فغزاهم وأخرجهم عن بلاده ورأى في منامه كأن بنود أشبه الصليب قد رفعت وقائلا يقول له ان أردت أن تظفر بمن خالفك فاجعل هذه العلامات على جميع بركك وسككك فلما انتبه أمر بتجهيز أمه هيلانة الى بيت المقدس في طلب آثار المسيح عليه السلام وبناء الكنائس واقامة شعائر النصرانية فسارت الى بيت المقدس وبنت الكنائس فيقال ان الاسقف مقاريوس دلها على الخشبة التي زعموا أن المسيح صلب عليها وقد قص عليها ما عمل به اليهود فحفرت فاذا قبر وثلاث خشبات على شكل الصليب فزعموا انهم ألقوا الثلاث خشبات على ميت واحدة بعد واحدة فقام حيا عندما وضعت عليه الخشبة الثالثة منها فاتخذوا ذلك اليوم عيدا وسموه عيد الصليب وكان في اليوم الرابع عشر من أيلول والسابع عشر من توت وذلك بعد ولادة المسيح بثلثمائة وثمان وعشرين سنة وجعلت هيلانة لخشبات الصليب غلافا من ذهب وبنت كنيسة القمامة ببيت المقدس على قبر المسيح بزعمهم وكانت لها مع اليهود أخبار كثيرة قد ذكرت عندهم ثم انصرفت بالصليب معها الى ابنها ومازال قسطنطين على ممالك الروم الى أن مات بعد أربع وعشرين سنة من ولايته فقام من بعده بممالك الروم ابنه قسطنطين الاصغر وقد كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من أنواع المحرمات ويمر لهم فيه مايتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة أمير المؤمنين العزيز بالله أمر فى رابع شهر رجب فى سنة احدى وثمانين وثلثمائة وهو يوم الصليب فمنع الناس من الخروج الى بني وائل وضبط الطرق والدروب ثم لما كان عيد الصليب فى اليوم الرابع عشر من شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة خرج الناس فيه الى بني وائل وجروا على عادتهم فى الاجتماع واللهو وفى صفر سنة اثنتين وأربعمائة قرئ فى سابعه سجل بالجامع العتيق وفى الطرقات كتب عن الحاكم بأمر الله يشتمل على

منع النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب وأن لايظهروا بزينتهم فيه ولا يقربوا كنائسهم وأن يمنعوا منها ثم بطل ذلك حتى لم يكد يعرف اليوم بديار مصر البتة *(النيروز)* هو أول السنة القبطية بمصر وهو أول يوم من توت وسنتهم فيه اشعال النيران والتراش بالماء وكان من مواسم لهو المصريين قديما وحديثا قال وهب بردت النار فى الليلة التى ألقى فيها ابراهيم وفى صبيحتها على الارض كلها فلم ينتفع بها أحد فى الدنيا تلك الليلة وذلك الصباح فمن أجل ذلك بات الناس على النار فى تلك الليلة التي رمي فيها ابراهيم عليه السلام ووثبوا عليها وتبخروا بها وسموا تلك الليلة نيروزا والنيروز فى اللسان السريانى العيد وسئل ابن عباس عن النيروز لم اتخذوه عيدا فقال انه أول السنة المستأنفة وآخر السنة المنقطعة فكانوا يستحبون أن يقدموا فيه على ملوكهم بالطرف والهدايا فاتخذته الاعاجم سنة قال الحافظ أبو القاسم على بن عساكر في تاريخ دمشق من طريق ابن عباس رضي الله عنهما قال ان فرعون لما قال للملأ من قومه ان هذا لساحر عليم قالوا له ابعث الى السحرة فقال فرعون لموسى ياموسى اجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت فتجتمع انت وهرون وتجتمع السحرة فقال موسى موعدكم يوم الزينة قال ووافق ذلك يوم السبت فى أول يوم من السنة وهو يوم النيروز وفى رواية ان السحرة قالوا لفرعون أيها الملك واعد الرجل فقال قد واعدته يوم الزينة وهو عيدكم الاكبر ووافق ذلك يوم السبت فخرج النـاس لذلك اليوم قال والنوروز أول سنة الفرس وهو الرابع عشر من آذار وفى شهر برمهات ويقـال أول من أحدثه جمشيد من ملوك الفرس وانه ملك الاقاليم السبعة فلما كمل ملكه ولم يبق له عدو اتخذ ذلك اليوم عيدا وسماه نوروزا فى اليوم الجديد وقيل ان سليمان بن داود عليهما السلام أول من وضعه فى اليوم الذى رجع اليه فيه خاتمه وقيل هو اليوم الذى شفى فيه أيوب عليه السلام وقال الله سبحانه وتعالى له اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فجعل ذلك اليوم عيدا وسنوا فيه رش الماء ويقال كان بالشام سبط من بنى اسرائيل اصابهم الطاعون فخرجوا الى العراق فبلغ ملك العجم خبرهم فأمر أن تبني عليهم حظيرة يجعلون فيها فلما صاروا فيها ماتوا وكانوا أربعة آلاف رجل ثم ان الله تعالى أوحي الى نبي ذلك الزمان أرأيت بلاد كذا وكذا فخاربهم بسبط بني فلان فقـال يارب كيف أحارب بهم وقد ماتوا فأوحى الله اليه اني أحييهم لك فأمطرهم الله ليلة من الليالي في الحظيرة فأصبحوا أحيـاء فهم الذين قال الله فيهم ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم فرفع أمرهم الى ملك فارس فقال تبركوا بهذا اليوم وليصب بعضكم على بعض الماء فكان ذلك اليوم يوم النوروز فصارت سنة الى اليوم وسئل الخليفة المأمون عن رش الماء في النوروز فقال قول الله تعالى ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم

أحياهم هؤلاء قوم أجدبوا تقول مات فلان هزالا فعيشوا في هذا اليوم برشة من مطر فماشوا فأخصب بلادهم فلما أحياهم الله بالغيث والغيث يسمى الحيا جعلوا صب الماء في مثل هـذا اليوم سنة يتبركون بها الى يومنا هذا * وقد روى أن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف قوم من بني اسرائيل فروا من الطاعون وقيل أمروا بالجهاد فخافوا الموت بالقتل في الجهاد فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك فأماتهم الله ليعرفهم انه لا ينجيهم من الموت شيء ثم أحياهم على يد حز قيل أحد انبياء بني اسرائيل في خبر طويل قد ذكره أهل التفسير * وقال علي ابن حمزة الاصفهاني في كتاب أعياد الفرس ان أول من اتخذ النيروز جمشيد ويقال جمشاد أحد ملوك الفرس الاول ومعنى النوروز اليوم الجديد والنوروز عند الفرس يكون يوم الاعتدال الربيعي كما أن المهرجان أول الاعتدال الخريفي ويزعمون أن النوروز أقدم من المهرجان فيقولون ان المهرجان كان في أيام أفريدون وانه أول من عمله لما قتل الضحاك وهو بيوراسب فجعل يوم قتله عيدا سماه المهرجان وكان حدوثه بعد النوروز بألفي سنة وعشرين سنة * وقال ابن وصيف شاه في ذكر مناوش بن منقاوش أحد ملوك القبط في الدهر القديم وهو أول من عمل النوروز بمصر فكانوا يقيمون سبعة أيام يأكلون ويشربون اكراما للكواكب * وقال ابن رضوان ولما كان النيل هو السبب الاعظم في عمارة أرض مصر رأى المصريون القدماء وخاصة الذين كانوا في عهد قلديانوس الملك أن يجعلوا أول السنة في أول الخريف عند استكمال النيل الحاجة في الامر الاكثر فجعلوا أول شهورهم توت ثم بابه ثم هاتور وعلى هذا الولاء بحسب المشهور من ترتيب هذه الشهور * وقال ابن زولاق وفي هذه السنة يعني سنة ثلاث وستين وثلثمائة منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز في السكك ومن صب الماء يوم النوروز * وقال في سنة أربع وستين وفي يوم النوروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران وطاف أهل الاسواق وعملوا فيه وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام وأظهروا السماجات والحلي في الاسواق ثم أمر المعز بالنداء بالكف وأن لا توقد نار ولا يصب ماء وأخذ قوم فحبسوا وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال * وقال ابن المأمون في تاريخه وحل موسم النوروز في اليوم التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز وثغر الاسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريري والسوادج وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الاصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها واسماء أربابها واصناف النوروز البطيخ والرمان وعناقيد الموز وأفراد البسر وأقفاص التمر القوصي وأقفاص السفرجل وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ومن لحم الضأن ومن لحم البقر من كل لون بكلة مع خبز مارق قال وأحضر كاتب الدفتر الحسابات بما جرت به العادة من اطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها في

يوم النوروز وغير ذلك من جميع الاصناف وهو أربعة آلاف دينار ذهبا وخمسة عشر ألف درهم فضة والكسوات عدة كثيرة من شقق ديبقية مذهبات وحريريات ومعاجر وعصائب نسائيات ملونات وسقولاد مذهب وحريري ومسقع وفوط ديبقية حريرية فأما العين والورق والكسوات فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والاصحاب والحواشي والمستخدمين ورؤساء العشاريات وبحاريها ولم يكن لاحد من الامراء على اختلاف درجاتهم في ذلك نصيب * وأما الاصناف من البطيخ والرمان والبسر والموز والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ويشركهم فيه جميع الامراء أرباب الاطواق والانصاف وغيرهم من الاماثل والاعيان ممن له جاه ورسم فى الدولة * وقال القاضى الفاضل في متجددات سنة أربع وثمانين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت أول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضية والدولة الخالية من مواسم بطالاتهم ومواقيت ضلالاتهم فكانت المنكرات ظاهرة فيه والفواحش صريحة فيه ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه ويرسم على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج الطير ويقنع بالميسور من الهبات ويجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء وبالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالاقذار وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فاما أن يفدى نفسه وأما أن يفضح ولم يجر الحال على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وقد أحيا المنكرات في الدور أرباب الخسارات * وقال في متجددات سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وجرى الامر فى النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى أن كانت أعوام بضع وثمانين وسبعمائة وأمر الدولة بديار مصر وتدبيرها الى الامير الكبير برقوق قبل أن يجلس على سرير الملك ويتسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فانكف الناس عن اللعب في القاهرة وصاروا يعملون شيئا من ذلك في الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل فى يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور وقلما انقضى يوم نوروز الا وقتل فيه قتيل أو أكثر ولم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضي ذلك ولا من الرفه

والبطر ما يوجب لهم عمله وما أحسن قول بعضهم

كيف ابتهاجك بالنوروز يا سكني * وكل ما فيه يحكيني وأحكيه

فتارة كلهيب النار في كبدى * وتارة كتوالى دمعي فيه

(وقال آخر)

نورز الناس ونورزت ولكن بدموعي

وذكت نارهم والنار ما بين ضلوعى

(وقال آخر)

ولما أتي النوروز يا غاية المنى * وأنت على الاعراض والهجر والصد

بعثت بنار الشوق ليلا الى الحشا * فنورزت صبحا بالدموع على الخد

(ذكر ما يوافق أيام الشهور القبطية من الاعمال في الزراعات وزيادة النيل وغير ذلك)

(على ما نقله أهل مصر عن قدمائهم واعتمدوا عليه في أمورهم)

اعلم أن المصريين القدماء اعتمدوا في تاريخهم السنة الشمسية كما تقدم ذكره ليصير الزمان محفوظا وأعمالهم واقعة في أوقات معلومة من كل سنة لا يتغير وقت عمل من أعمالهم بتقديم ولا تأخير البتة *(توت)* بالقبطى هو أيلول وكانت عادة مصر مذ عهد فراعنتها فى استخراج خراجها وجباية أموالها انه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها الا عند تمام الماء وافتراشه على سائر أرضها ويقع اتمامه في شهر توت فاذا كان كذلك وربما كانت زيادة عن ذلك أطلق الماء فى جميع نواحيها من ترعها ثم لا يزال يترجح في الزيادة والنقصان حتي يفرغ توت وفى أوله يكون يوم النوروز ورابعه أول أيلول وسابعه يلقط الزيتون وثانى عشره يطلع الفجر بالصرفة وسابع عشره عيد الصليب فيشرط البلسان ويستخرج دهنه ويفتح ما يتأخر من الاجر والترع وترتب المدامسة لحفظ الجسور وفي ثامن عشره تنتقل الشمس الى برج الميزان فيدخل فصل الخريف وفى خامس عشريه يطلع الفجر بالعوا ويكبر صغار السمك وفي هذا الشهر يعم ماء النيل أراضى مصر وفيه تسجل النواحى وتسترفع السجلات والقوانين وتطلق التقاوي من الغلال لتخضير الاراضي وفيه يدرك الرمان والبسر والرطب والزيتون والقطن والسفرجل وفيه يكون هبوب ريح الشمال أقوى من هبوب ريح الجنوب وهبوب الصبا أقوى من الدبور وكان قدماء المصريين لا ينصبون فيه أساسا وفيه يكثر بمصر العنب الشتوي وتبذر المحمضات * (بابه) في أوله يحصد الارز ويزرع الفول والبرسيم وسائر الحبوب التى لا تشق لها الارض وفي رابعه أول تشرين الاول وفي ثامنه طلوع الفجر بالسماك وهو نهاية زيادة النيل وابتداء نقصه وقد لا يتم الماء فيه فيعجز بعض الارض عن أن يركبها الماء فيكون من ذلك نقص الخراج عن الكمال وفى تاسعه يكون

مجئ الكراكي الى أرض مصر وفي عاشره يزرع الكتان وفى ثانى عشره يكون ابتداءشق الارض بصعيد مصر لبذر القمح والشعير وفى ثامن عشره تنقل الشمس الى برج العقرب ويقطع الخشب وفي تاسع عشره يكون ابتداء نقص ماء النيل ويكثر البعوض وفي حادى عشريه يطلع الفجر بالغفر * وفي هذا الشهر تصرف المياه عن الاراضي ويخرج المزارعون لتخضير الاراضى فيبدؤن ببذر زراعة القرط ثم بزراعة الغلة البدرية أولا فأولا وفيه يستخرج دهن الآس ودهن النيلوفر ويدرك التمر والزبيب والسمسم والقاقاس وفيه يكثر صغار السمك ويقل كباره ويسمن الراى والابرميس من السمك خاصة وتستحكم حلاوة الرمان ويكون فيه أطيب منه فى سائر الشهور التى يكون فيها ويضع الضأن والمعز والبقر الخيسية وفيه يملح السمك المعروف بالبورى ويهزل الضأن والمعز والبقر ولا تطيب لحومها وتدرك المحمضات وفيه يجب كتابة التذاكر بالاعمال القوصية وفيه يغرس المنثور ويزرع السلجم * (هاتور) فى خامسه يكون أول تشرين الثانى ويطلع الفجر بالزبانا فى رابعهوفي سادسه يزرع الخشخاش وفى سابعه يصرف ماء النيل عن أراضى الكتان ويبذرفى النصف منه وبعد تمام شهر يسبخ وفى ثامنه أوان المطر الوسمي وفي حادى عشره تهب ريح الجنوب وفي خامس عشره تبرد المياه بمصر وفي سابع عشره يطلع الفجر بالاكليل وفي ثامن عشره تحل الشمس برج القوس وفي تاسع عشره يغلق البحر الملح وفي سابع عشريه تهب الرياح اللواقح * وفي هذا الشهر يلبس أهل مصر الصوف من سابعه وفيه يكسر ما يحتاج اليه من قصب السكر برسم المعاصر وبراح الغلة في جميع ما يحتاج اليه فيها ويهتم بعلف أبقارها وجمالها بعد بيع شارفها وعاجزها والتعويض عنه بغيره وأفراد الاتبان برسم وقود القنود وترتيب القوامصة لعمل الاباليج والقواديس والامطار برسم القنود والاعسال وفيه يدرك البنفسج والنيلوفر والمنثور ومن البقولات الاسباناخ والبلسان واختار قدماء المصريين في هاتور نصب الاساسات وزرع القمح وأطيب حملان السنة حمله وفيه يكثر العنب الذى كان يحمل من قوص * (كيهك) أوله الاربعينات بمصر ويدخل الطير وكره وفي سادسه بشارة مريم بحمل عيسي عليهما السلام وفي سابعه أول كانون الاول وفي عاشره آخر الليالى البلق وأولها أول هاتور وفي حادى عشره أول الليالى السود ويدخل النمل الاحجرة وفي ثالث عشره يطلع الفجر بالشولة وتظهر البراغيث ويسخن باطن الارض وفي سادس عشره يسقط ورق الشجر وفي سابع عشره تنقل الشمس الى برج الجدى فيدخل فصل الشتاء ويزرع الهليون وفي حادى عشريه يكون آخر الليالى البلق وفي ثانى عشريه عيد البشارة وفي ثالث عشريه تزرع الحلبة والترمس وفي سادس عشريه يطلع الفجر بالنعائم وفي ثامن عشريه يبيض النعام وفى تاسع عشريه الميلاد * وفي هذا الشهر يزرع الخيار بعد

اغراق أرضه وفيه يتكامل بذر القمح والشعير والبرسيم الحراثى وفيه يستخرج خراج البرسيم بدار الوجه القبلي وفيه ترتب حراس الطير وفيه كسر قصب السكر واعتصاره واستخدام الطباخين لطبخ القنود وفيه يكون ادراك النرجس والحمضات والفول الاخضر والكرنب والجزر والكراث الابيض واللفت وفيه يقل هبوب ريح الشمال ويكثر هبوب ريح الجنوب وفيه يجود الجدا ويكون أطيب منها فى جميع الشهور التي يكون فيها وفيه يزرع أكثر حبوب الحرث ولا يزرع بعده فى شيء من أرض مصر غير السمسم والمقاثى والقطن *(طوبه)* فى ثالثه ابتداء زراعة الحمص والجلبان والعدس وفى سادسه أول كانون الثانى وفى تاسعه يطلع الفجر بالبلد وعاشره صوم الغطاس وحادى عشره الغطاس وفى ثانى عشره يشتد البرد وفى رابع عشره يرتفع الوباء بمصر ويغرس النخل وفى سابع عشره تحل الشمس أول برج الدلو ويكثر الندى ويكون ابتداء غرس الاشجار وفى العشرين منه يكون آخر الليالي السود وحادى عشريه الليالى البلق الثانية وفى ثانى عشريه يطلع الفجر بسعد الذابح وفى ثالث عشريه تهب الرياح الباردة وفى رابع عشريه تفرخ جوارح الطير وفى خامس عشريه يكون نتاج الابل المحمودة وفى سابع عشريه يصفو ماء النيل وفى ثامن عشريه يتكامل ادراك القرط * وفى هذا الشهر تقلم الكروم وينظف زرع الغلة من اللبسان وغيره وينظف زرع الكتان من الفجل وغيره وفيه تبرش الاراضي أول سكة برسم الصيافى والمقاثى والقطن والسمسم وينتهى برشها في أول أمشير وفيه تسقى أرض القلقاس والقصب وتشق الجسور فى آخره وفيه تستخرج أراضي الخرس ويكثر القصب الراس بعد افراز ما يحتاج اليه من الزريعة وهو لكل فدان طين قيراط طيب قصب راس وفيه يهتم بعمارة السواقي وحفر الآبار وابتياع الابقار وفيه يظهر اللوز الاخضر والنبق والهليون وفيه أيضا يكون هبوب ريح الجنوب أكثر من هبوب الشمال وهبوب الصبا أكثر من هبوب الدبور وفيه يكون الباقلا الاخضر والجزر أطيب منهما في غيره وفيه يتناهى ماء النيل في صفائه ويخزن فلا يتغير في أوانيه ولو طال لبثه فيها وفيه تطيب لحوم الضأن أطيب منها فى سائر الشهور وفيه تربط الخيول والبغال على القرط من أجل ربيعها وبطوبه يطالب الناس بافتتاح الخراج ومحاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات من جميع ما بأيديهم من المحلول والمعقود *(أمشير)* في أوله تختلف الرياح وفي خامسه يطلع الفجر بسعد بلع وفى سادسه يكون أول شباط وفي تاسعه يجرى الماء في العود وحادى عشره أول جمرة باردة وسادس عشره تحل الشمس بأول برج الحوت وفى سابع عشره يخرج النمل من الاحجرة وفى ثامن عشره يطلع الفجر بسعد السعود وفى العشرين منه ثانى جمرة فاترة وفى ثالث عشريه تقلم الكروم وخامس عشريه يفرخ النحل وسابع عشريه ثالث جمرة حامية ويورق الشجر وهو آخر غرسها وفى آخره

يكون آخر الليالي البلق * وفي هذا الشهر يقلع السلجم ويستخرج خراجه وفيه يثنى برش الصيافي وتبرش أيضا ثالث سكة وفيه يعمل مقاطع الجسور وتمسح الاراضى ويرقد البيض في المعامل أربعة أشهر آخرها بشنس و فيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوبا وفيه ينبغي أن تعمل أواني الخزف للماء لتستعمل فيه طول السنة فان ما عمل فيه من أواني الخزف يبرد الماء في الصيف أكثر من تبريد ما يعمل في غيره من الشهور وفيه يتكامل غرس الشجر وتقليم الكروم وفيه يدرك النبق واللوز الاخضر ويكثر البنفسج والمنثور * ويقال أمشير يقول للزرع سير وياحق بالطويل القصير وفيه يقل البرد ويهب الهواء الذى فيه سخونة ما وفي أمشير يؤخذ الناس فيه باتمام ربع الخراج من السجلات *(برمهات)* أول يوم منه يطلع الفجر بالاخبية وفي خامسه يحضن دود القز وسادسه يزرع السمسم وثاني عشره يقلع الكتان ورابع عشره يكون أول الاعجاز ويطلع الفجر بالفرغ المقدم وفي سادس عشره تفتح الحيات أعينها وفي سابع عشره تنقل الشمس الى برج الحمل وهو أول فصل الربيع ورأس سنة الجند ورأس سنة العالم وفي العشرين منه يكون آخر الاعجاز وثاني عشريه نتاج الخيل المحمودة وثالث عشريه يظهر الذباب الازرق وخامس عشريه تظهر هوام الارض وسابع عشريه يطلع الفجر بالفرغ المؤخر وفي آخره يتفرق السحاب * وفي هذا الشهر تجرى المراكب السفرية في البحر الملح الى ديار مصر من المغرب والروم ويهتم فيه بتجريد الاجناد الى الثغور كالاسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد وفيه كانت تجهز الاساطيل ومراكب الشواني لحفظ الثغور وفيه زرع المقاثى والصيفى ويدرك الفول والعدس ويقلع الكتان وتزرع اقصاب السكر في الارض المبروشة المختارة لذلك البعيدة العهد عن الزراعة ويأخذ المقشرون في تنظيف الارض المزروعة من القش في وقت الزراعة ويأخذ القطاعون في قطع الزريعة ويأخذ المزارعون في رمي قطع القصب وفيه يؤخذ فى تحصيل النطرون وحمله من وادى هبيت الى الشونة السلطانية وفيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوبا وفيه تزهر الاشجار وينعقد أكثر ثمارها وفيه يكون اللبن الرائب أطيب منه فى جميع الشهور التي يعمل فيها وفي برمهات يطالب الناس بالربع الثانى والثمن من الخراج *(برموده)* فى سادسه أول نيسان وفى عاشره يطلع الفجر بالرشاء وفى ثانى عشره يقلع الفجل وفى سابع عشره تحل الشمس أول برج الثور وفى ثالث عشريه يطلع الفجر بالشرطين وهو رأس الحمل وأول منازل القمر وفيه ابتداء كسار الفول وحصاد القمح وهو ختام الزرع * وفى هذا الشهر يهتم بقطع خشب السنط من الخراج الذى كان بمصر فى القديم أيام الدولة الفاطمية والايوبية ويجر الى السواحل لتيسر حمله فى زمن النيل الى ساحل مصر ليعمل شوانى وأحطابا برسم الوقود في المطابخ السلطانية وفيه يكثر الورد ويزرع الخيار شنبر

والملوخيا والباذنجان وفيه يقطف أوائل عسل النحل وينفض بزر الكتان وأحسن ما يكون الورد فيه من جميع زمانه وفيه يظهر البطن الاول من الجميز وفيه تقع المساحة على أهل الاعمال ويطالب الناس باغلاق نصف الخراج من سجلاتهم ويحصد بدري الزرع *(بشنس)* في خامسه تكثر الفاكهة وسادسه أول ايار وفيه طلوع الفجر بالبطين وثامنه عيد الشهيد وتاسعه انفتاح البحر المالح ورابع عشره يزرع الارز وثامن عشره تحل الشمس أول برج الجوزاء وفيه يطيب الحصاد وفي تاسع عشره يطلع الفجر بالثريا وفيه زراعة الارز والسمسم ورابع عشريه يكون عيد البلسان بالمطرية ويزعمون انه اليوم الذي دخلت فيه مريم الى مصر* وفي هذا الشهر يكون دراس الغلة وهدار الكتان ونفض البزر والتقاوي والاتبا ونوحماها وفيه زراعة البلسان وتقليمه وسقيه وتكريم أراضيه من بؤونة الى آخر هاتور واستخراج دهنه بعد شرطه في نصف توت وان كان في أوله فهو أصلح الى آخر هاتور وصلاح أيامه أيام الندى ويقيم في الندى سنة كاملة الى أن يشرب أعكاره وأوساخه ويطبخ الدهن في الفصل الربيعي في شهر برمهات فيعمل لكل رطل مصري أربعة وأربعون رطلا من مائة فيحصل منه قدر عشرين درهما وما حولها من الدهن * وفي هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمالية وفيه يدرك التفاح القاسمي ويبتدي فيه التفاح المسكي والبطيخ العبدلي ويقال انه أول ما عرف بمصر عندما قدم اليها عبد الله بن طاهر بعد المائتين من سني الهجرة فنسب اليه وقيل له العبدلي وفيه أيضا يبتدئ البطيخ الجربي والمشمش والخوخ الزهري ويجني الورد الابيض وفيه تقرر المساحة ويطالب الناس بما يضاف الى المساحة من أبواب وجوه المال كالصرف والجهبذة وحق المراعي والقرط والكتان على رسوم كل ناحية ويستخرج فيه اتمام الربع مما تقررت عليه العقود والمساحة ويطلق الحصاد لجميع الناس *(بؤونه)* في ثانيه يطلع الفجر بالدبران وفي خامسه يتنفس النيل وفي تاسعه أوان قطف النحل وفي حادي عشره تهب رياح السموم وفي ثاني عشره عيد ميكائيل فيؤخذ قاع النيل وفي ثالث عشره يشتد الحر وفي خامس عشره يطلع الفجر بالهنعة وفي سادس عشريه تحل الشمس أول برج السرطان وهو أول فصل الصيف وفي سابع عشريه ينادى على النيل بما زاده من الاصابع وفي ثامن عشريه يطلع الفجر بالهقعة * وفي هذا الشهر تسفر المراكب لاحضار الغلال والتبن والقنود والاعسال وغير ذلك من الاعمال القوصية ونواحي الوجه البحري وفيه يقطف عسل النحل وتخرص الكروم ويستخرج زكاتها وفيه يبدى الكتان ويقلب أربعة أوجه في بؤونة وأبيب وفيه زراعة النيلة بالصعيد الاعلى وتحصد بعد مائة يوم ثم تترك وتحصد في كل مائة يوم حصدة ويحصل في أول كيهك وطوبه وأمشير وبرمهات ويطلع في برمودة وتحصد في عشرة أيام من أبيب وتقيم في الارض الجيدة ثلاث

سنين وتسقى كل عشرة أيام دفعتين وثاني سنة ثلاث دفعات وثالث سنة أربع دفعات وفي هذا الشهر يكون التين الفيومي والخوخ الزهري والكمثرى والقراصيا والقثاء والبلح والحصرم ويبتدئ ادراك العصفر وفيه يدخل بعض العنب ويطيب التوت الاسود ويقطف جمهور العسل فتكون رياحه قليلة والتين يكون فيه أطيب منه في سائر الشهور وفيه يطلع النخل وفيه يستخرج تمام نصف الخراج مما بقي بعد المساحة *(أبيب)* في سابعه أول تموز وفى عاشره آخر قطع الخشب وفى حادي عشره يطلع الفجر بالذراع وثاني عشره ابتداء تعطين الكتان وفي خامس عشره يقل ماء الآبار وتدرك الفواكه ويموت الدود وفى حادى عشريه تحل الشمس بأول برج الاسد وتذهب البراغيث ويبرد باطن الارض وتهيج أوجاع العين وفي خامس عشريه يطلع الفجر بالنثرة وفي سادس عشريه تطلع الشعرى العبور اليمانية* وفي هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمال ويكثر فيه العنب ويجود وفيه يطيب التين المقرون بمجيء العنب ويتغير البطيخ العبدلى وتقل حلاوته وتكثر الكمثرى السكرية ويطيب البلح وفيه يقطف بقايا عسل النحل وتقوى زيادة ماء النيل فيقال فى أبيب يدب الماء دبيب وفيه ينقع الكتان بالمبلات ويباع برسيم البذر برسم زراعة القرط والكتان وفيه تدرك ثمرة العنب ويحصد القرطم وفيه تستتم ثلاثة أرباع الخراج * (مسرى) فى سابعه يطلع الفجر بالطرف وفى ثامنه أول آب وفى حادى عشره يجمع القطن وفى رابع عشره يحمى الماء ولا يبرد وفى سابع عشره استكمال الثمار وفي عشريه يطلع الفجر بالجبهة وفى حادي عشريه تحل الشمس برج السنبلة وفى ثالث عشريه يتغير طعم الفاكهة لغلبة ماء النيل على الارض وفي خامس عشريه يكون آخر السموم وفي تاسع عشريه يطلع سهيل بمصر * وفي هذا الشهر يكون وفاء النيل ستة عشر ذراعا فى غالب السنين حتى قيل ان لم يوف النيل فى مسرى فانتظره فى السنة الاخرى وفيه يجرى ماء النيل فى خليج الاسكندرية ويسافر فيه المراكب بالغلال والبهار والسكر وسائر أصناف المتاجر وفيه يكثر البسر وكانوا يخرصون النخل ويخرجون زكاة الثمار فى هذا الشهر عند ما كانت الزكوات يجبيها السلطان من الرعية وأكثر ما يهب فى هذا الشهر ريح الشمال وفيه يعصر قبط مصر الخمر ويعمل الخل من العنب وفيه يدرك الموز وأطيب ما يكون الموز بمصر فى هذا الشهر وفيه يدرك الليمون التفاحى وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه وفيه يكون ابتداء ادراك الرمان واذا انقضت أيام مسرى ابتدأت أيام النسيء ففى أولها ابتداء هيج النعام وفى رابعها يطلع الفجر بالخراتان وفى مسرى يغلق الفلاحون خراج أراضي زراعاتهم وكانوا يؤخرون البقايا على دق الكتان فى مسرى وأبيب لان الكتان يبل فى توت ويدق فى بابه

﴿ ذكر تحويل السنة الخراجية القبطية الى السنة الهلالية العربية ﴾

وكيف عمل ذلك فى الاسلام قد تقدم فيما سلف من هذا الكتاب التعريف بالسنة الشمسية والسنة القمرية وما للامم في كبس السنين من الآراء فلما جاء الله تعالى بالاسلام تحرز المسلمون من كبس السنين خشية الوقوع في النسيء الذى قال الله سبحانه وتعالى فيه انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ثم لما رأوا تداخل السنين القمرية فى السنين الشمسية أسقطوا عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة قمرية سنة وسموا ذلك الازدلاق لان لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب وسأتلو عليك من نبأ ذلك مالم أره مجموعا * قال أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن أبي طاهر في كتاب أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن أبي أحمد طلحة الموفق ابن المتوكل ومنه نقلت وخرج أمر المعتضد في ذى الحجة سنة احدى وثمانين ومائتين بتصيير النوروز لاحدى عشرة ليلة خلت من حزيران رأفة بالرعية وايثارا لارفاقها وقالوا خرج التوقيع في المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين بانشاء الكتب الى جميع العمال في النواحي والامصار بترك افتتاح الخراج في النوروز الفارسى الذى يقع يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر وأن يجعل مايفتتح من خراج سنة اثنتين وثمانين ومائتين يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر من هذه السنة وهو اليوم الحادى عشر من حزيران ويسمى هذا النوروز المعتضدى تر فيها لاهل الخراج ونظرا لهم ونسخة التوقيع الخارج في تصيير افتتاح الخراج فى حزيران (أما بعد) فان الله لما حول أمير المؤمنين للمحل الذى أحله به من أمور عباده وبلاده رأى أن من حق الله عليه أن لايكلفها الا مابه العدل والانصاف لها والسيرة القاصدة وأن يتولى لها صلاح أمورها ويستقرئ السير والمعاملات التي كانت تعامل بها ويقر منها ماأوجب الحق اقراره ويزيل ماأوجب ازالته غير مستكثر لها كثير ما يسقطه العدل ولا مستقل لها قليل مايلزمه اياها الجور وقد وفق الله أمير المؤمنين لما يرجو أن يكون لحق الله فيها قاضيا ولنصيبها من العدل موازيا وبالله يستعين أمير المؤمنين على حفظ ما استرعاه منها وحياطة ما قلده من أمورها وهو خير موفق ومعين وان أبا القاسم عبيد الله رفع الى أمير المؤمنين فيما أمر أمير المؤمنين به من رد النوروز الذى يفتتح به الخراج بالعراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما من الوقت الذي صار فيه من الزمان الى الوقت الذى كان عليه متقدما مع ما أمر به في مستقبل السنين من الكبس حتى يصير العدل عاما في الزمان كله باقيا على غابر الدهر ومر الايام مؤامرة أمير المؤمنين فأمر بتسجيلها لك في آخر كتابه مع ما وقع به فيها لتمثيله فاعمل ذلك ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة احدى وثمانين

ومائتين * نسخة المؤامرة أنهيت الى أمير المؤمنين أن مما أنعم الله به على رعيته ورزقها اياه من رأفته وحسن نظره واقامته عليها من عدله وانصافه ورفعه عنها في خلافتــه من الظلم الشامل ماكان الاقصى والادنى والصغير والكبير والمسلم والذمي فيه سواء ماحررته من نقل كتب الخراج عن السنة التي كانت تنسب اليها من سنى الهجرة الى السنة التي فيها تدرك الغلات ويستخرج المال وان ذلك ماكان بعض أهل الجهل حاوله وبعض المتغلبين استعمله من تثبيت الخراج على أهله ومطالبتهم به قبل وقت الزراعة واعيائهم بذكر سنة من السنتين اللتين ينسب الخراج لاحداهما وتدرك الغلات ويقع الاستخراج في الاخرى منهما في حساب شهور الفرس التي عليها يجرى العمل في الخراج بالسواد وما يليه والاهواز وفارس والجبل وما يتصل به من جميع نواحى المشرق وما يضاف اليه اذا كان عمل الشأم والجزيرة والموصل جرى على حساب شهور الروم الموافقة للازمنة فليست تختلف أوقاتها مع الكبيسة المستعملة فيها والعمل فى خراج مصر وماوالاها على شهور القبط الموافقــة لشهور الروم وكانت من شهور الفرس قد خالفت موافقها من الزمان بما ترك من الكبس منذ أزال الله ملك فارس وفتح للمسلمين بلادهم فصار النوروز الذى كان الخراج يفتتح فيه بالعراق والمشرق قدتقدم فى ترك الكبس شهرين وصارا بينه وبين ادراك الغلة فأمر أمير المؤمنين بما جبل الله عليه رأيه فى التوصل الى كل ماعاد بصلاح رعيته وحسما للاسباب المؤدية الى اعيائها بتأخير النوروز الذى يقع فى شهور سنة اثنتين وثمانين ومائتين من سنى الهجرة عن الوقت الذي يتفق فيه أيام سنة الفرس وهو يوم الجمعة لاحدى عشرة تخلو من صفر مثل عدة أيام الشهرين من شهور الفرس التي ترك كبسها وهى ستون يوما حتى يكون نوروز السنة واقعا يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين وهو الحادى عشر من حزيران وهو يتصل بهما ويجرى مجراها وينسب ويضاف اليهما وبسائر أعمالهم وبما يعمله اصحاب الحساب من التقويمات وجميع الاعمال وما بعده الفرس من شهورهم الى شهوره الكبيسة الاول والآخر ثم يكبس بعــد ذلك فى كل أربع سنين من سنى الفرس ولا يقع تفاوت بينه وبينها على مرور الايام وليكن أبدا واقعا في حزيران وغير خارج عنه وأن يلغى ذكر كل سنة من أربع سنين تنسب الى الخراج بالعراق وفي المشرق والمغرب وسائر النواحى والآفاق اذ كان مقدار سنى أيام الهجرة والسنة الجامعة للازمنة التي تتكامل فيها الغلات وأن يخرج التوقيع بذلك تنشأ الكتب به من ديوان الرسائل الى ولاة المعاون والاحكام وتقرأ على المنابر ويحمل أصحاب المعاون الرعية عليه وتأخذها بامتثال ما أمر به أمير المؤمنين وسنة الحكام في ديوان حكمهم لتمثيل الضمان والمقاطعين ذلك على حسبه وأستطلع رأى أمير المؤمنين في ذلك فرأى أمير المؤمنين في ذلك موفق ان شاء الله تعالى وتكتب نسخة التوقيع بتنفيذ

ذلك ان شاء الله تعالى وكتب في شهر ذي الحجة لسنة احدى وثمانين ومائتين * قال وكان السبب في نقل الخراج الى حزيران في أيام المعتضد ماحدثني به أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم القديم قال كنت أحدث أمير المؤمنين المعتضد فذكرت خبر المتوكل في تأخير النوروز فاستحسنه وقال لي كيف كان ذلك قلت حدثني أبي قال دخل المتوكل قبل تأخير النوروز بعض بساتينه الخاصة التي كانت في يدي وهو متوكئ على يحادثني وينظر الى ما أحدث في ذلك البستان فمر بزرع فرآه أخضر فقال يا علي ان الزرع اخضر بعد ما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيي في استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النوروز والزرع لم يدرك بعد قال فقلت له ليس يجرى الامر اليوم على ما كان يجرى عليه في أيام الفرس ولا النوروز في هذه الايام في وقته الذى كان في أيامها قال وكيف ذاك فقلت لانها كانت تكبس في كل مائة وعشرين سنة شهرا وكان النوروز اذا تقدم شهرا وصار فى خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار فى خمس من ايار وأسقطت شهرا وردته الى خمس من حزيران فكان لا يجاوز هذا فلما تقلد العراق خالد بن عبد الله القسرى وحضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعها من ذلك وقال هذا من النسيء الذى نهى الله عنه فقال انما النسيء زيادة فى الكفر وأنا لا أطلقه حتى أستأمر فيه أمير المؤمنين فبذلوا على ذلك مالا جليلا فامتنع عليهم من قبوله وكتب الى هشام بن عبد الملك يعرفه ذلك ويستأمره ويعلمه انه من النسيء الذى نهى الله عنه فأمر بمنعهم من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النوروز تقدما شديدا حتى صار يقع فى نيسان والزرع أخضر فقال له المتوكل فاعمل لهذا يا علي عملا ترد النوروز فيه الى وقته الذي كان يقع فيه فى أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله ابن يحيي وأد اليه رسالة مني فى أن يجعل استفتاح الخراج فيه قال فصرت الى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى وعرفته ماجرى بيني وبين المتوكل وأديت اليه رسالته فقال لي يا أبا الحسن قد والله فرجت عني وعن الناس وعملت عملا كثيرا يعظم ثوابك عليه وكسبت لامير المؤمنين أجرا وشكرا فأحسن الله جزاءك فتلك من مجالس الخلفاء وأحب أن يتقدم بالعمل الذى أمر به المتوكل وينفذه الى حتى أجرى الامر عليه وأتقدم فى كتب الكتب باستفتاح الخراج قال فرجعت وجررت الحساب فوجدت النوروز لم يكن يتقدم في أيام الفرس أكثر من شهر يتقدم من خمس تخلو من حزيران فيصير فى خمسة أيام تخلو من ايار فتكبس سنتها وترده الى خمسة أيام من حزيران وأنفذته الى عبيد الله بن يحيي فأمر أن يستفتح الخراج فى خمس من حزيران وتقدم الى ابراهيم بن العباس فى أن ينشئ كتابا عن أمير المؤمنين فى ذلك ينفذ نسخته الى النواحي فعمل ابراهيم بن العباس كتابه المشهور فى أيدى الناس* قال أبو أحمد فقال لي المعتضد يا يحيي هذا والله فعل حسن وينبغي أن يعمل به فقلت ما أحد

أولى بفعل الحسن واحياء السنن الشريفة من سيدنا ومولانا أمير المؤمنين لما جمعه الله فيه من المحاسن ووهبه له من الفضائل فدعا بعبيد الله بن سليمان وقال له اسمع من يحيى ما يخبرك به وأمض الامر فى استفتاح الخراج عليه قال فصرت مع عبيد الله بن سليمان الى الديوان وعرفته الخبر فأحب تأخيره عن ذلك لئلا يجرى الامر المجرى الاول بعينه فجعله فى أحد عشر من حزيران واستأمر المعتضد فى ذلك فأمضاه فقلت فى ذلك شعرا انشدته للمعتضد فى هذا المعنى

يوم نوروزك يوم * واحد لا يتأخر
من حزيران يوافى * أبدا في أحد عشر

قال وأخبرنى بعض مشايخ الكتاب قال وكانت الخلفاء تؤخر النوروز عن وقته عشرين يوما وأقل وأكثر ليكون ذلك سببا لتأخير افتتاح الخراج على أهله * وأما المهرجان فلم تكن تؤخره عن وقته يوما واحدا فكان أول من قدمه عن وقته بيوم المعتمد بمدينة السلام فى سنة خمس وستين ومائتين وأمر المعتضد بتأخير النوروز عن وقته ستين يوما وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ومنه نقلت ماذكر ابن أبى طاهر وزاد ونفذت الكتب الى الآفاق يعني عن المتوكل في محرم سنة ثلاث وأربعين ومائتين وقتل المتوكل ولم يتم له مادبر واستمر الامر حتى قام المعتضد فاحتذى ما فعله المتوكل في تأخير النوروز غير أنه نظر فاذا المتوكل أخذ ما بين سنته و بين أول تاريخ يزدجرد فأخذ المعتضد ما بين سنته و بين السنة التي زال فيها ملك الفرس بهلاك يزدجرد ظنا أن اهمالهم أمر الكبس من ذلك الوقت فوجده مائتي سنة وثلاثا وأربعين سنة حصتها من الارباع ستون يوما وكسر فزاد ذلك على النوروز فى سنة وجعله منتهى تلك الايام وهو من خردادماه في تلك السنة وكان يوم الاربعاء ويوافقه اليوم الحادى عشر من حزيران ثم وضع النوروز على شهور الروم لتكبس شهوره اذا كبست الروم شهورها وقال القاضى السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسن على بن القاضي المؤتمن ثقة الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف المخزومي في كتاب المنهاج في علم الخراج والسنة الخراجية مركبة على حكم السنة الشمسية لان السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ورتب المصريون سنتهم على ذلك ليكون أداء الخراج عند ادراك الغلات من كل سنة ووافقها السنة القبطية لان أيام شهورها ثلثمائة وستون يوما ويتبعها خمسة أيام النسىء وربع يوم بعد تقضى مسرى وفى كل أربع سنين تكون أيام النسىء ستة أيام لينجبر الكسر ويسمون تلك السنة كبيسة وفى كل ثلاث وثلاثين سنة تسقط سنة فيحتاج الى نقلها لاجل الفصل بين السنين الشمسية والسنين الهلالية لان السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم والسنة الهلالية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وكسر ولما

كان كذلك احتيج الى استعمال النقل الذى تطابق به احدى السنتين الأخرى وقد قال أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب رحمه الله عهدت جباية أموال الخراج في سنين قبل سنة احدى وأربعين ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله رحمة الله عليه تجرى كل سنة في السنة التي بعدها بسبب تأخير الشهور الشمسية عن الشهور القمرية في كل سنة أحد عشر يوما وربع يوم وزيادة الكسر عليه فلما دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين كان قد انقضى من السنين التي قبلها ثلاث وثلاثون سنة أولهن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة الله عليه واجتمع من هذا المتأخر فيها أيام سنة شمسية كاملة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وزيادة الكسر وبها ادراك غلات وثمار سنة احدى وأربعين ومائتين في صفر سنة اثنتين وأربعين ومائتين وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله رحمة الله عليه بالغاء ذكر سنة احدى وأربعين ومائتين اذ كانت قد انقضت وينسب الخراج الى سنة اثنتين وأربعين ومائتين فجرت الاعمال على ذلك سنة بعد سنة الى أن انقضت ثلاث وثلاثون سنة آخرهن انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين فلم ينبه كتاب أمير المؤمنين المعتمد على الله رحمة الله عليه على ذلك اذ كان رؤساؤهم في ذلك الوقت اسماعيل بن بلبل وبني الفرات ولم يكونوا عملوا في ديوان الخراج والضياع في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله رحمة الله عليه ولا كانت اسنانهم اسنانا بلغت معرفتهم معها هذا النقل بل كان مولد أحمد بن محمد بن الفرات قبل هذه السنة بخمس سنين ومولد على أخيه فيها وكان اسماعيل بن بلبل يتعلم في مجلس لم يبلغ أن ينسخ فلما تقلدت لناصر الدين أبي أحمد طلحة الموفق رحمه الله أعمال الضياع بقزوين ونواحيها لسنة ست وسبعين ومائتين وكان مقيما بأذربيجان وخليفته بالجبل جرادة بن محمد وأحمد بن محمد كاتبه واحتجت الى رفع جماعتي اليه ترجمتها بجماعة سنة ست وسبعين ومائتين التي أدركت غلاتها وثمارها في سنة سبع وسبعين ومائتين ووجب الغاء ذكر سنة ست وسبعين ومائتين فلما وقفا على هذه الترجمة انكراها وسألاني عن السبب فيها فشرحت لهما وأكدت ذلك بأن عرفتهما اني قد استخرجت حساب السنين الشمسية والسنين القمرية من القرآن الكريم بعد ماعرضته على اصحاب التفسير فذكروا انه لم يأت فيه شيء من الأثر فكان ذلك اوكد في لطف استخراجي وهو أن الله تعالى قال في سورة الكهف ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا فلم أجد أحدا من المفسرين عرف معنى قوله وازدادوا تسعا وانما خاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بكلام العرب وما تعرفه من الحساب فمعنى هذه التسع أن الثلثمائة كانت شمسية بحساب العجم ومن كان لايعرف السنين القمرية فاذا أضيف الى الثلثمائة القمرية زيادة التسع كانت سنين شمسية صحيحة فاستحسناه فلما انصرف جرادة مع الناصر لدين الله الى مدينة السلام وتوفى الناصر رحمه الله وتقلد القاسم عبيد الله بن

سليمان كتابة أمير المؤمنين المعتضد بالله أجرى له جرادة ذكر هذا النقل وشرح له سببه تقربا اليه وطعنا على أبي القاسم عبيد الله في تأخيره اياه فلما وقف المعتضد على ذلك تقدم الى أبي القاسم بانشاء الكتب بنقل سنة ثمان وسبعين الى سنة تسع وسبعين ومائتين وكان هذا النقل بعد أربع سنين من وجوبه ثم مضت السنون سنة بعد سنة الى أن انقضت الآن ثلاث وثلاثون سنة أولاهن السنة التي كان النقل وجب فيها وهي سنة خمس وسبعين ومائتين وآخرتهن انقضاء سنة سبع وثلثمائة وقد تهيأ ادراك الغلات والثمار في صدر سنة ثمان وثلثمائة ونسبته اليها وقد عملت نسخة هذا النقل نسختها تحت هذا الموضع ليوقف عليها وقد كان اصحاب الدواوين في أيام المتوكل لما نقل سنة احدى وأربعين ومائتين الى سنة اثنتين وأربعين ومائتين جبوا الجوالي والصدقات لسنتي احدى واثنتين وأربعين ومائتين في وقت واحد لان الجوالي بسر من رأى ومدينة السلام وقصب المدن المشهورة كانت تجبى على شهور الاهلة وما كان من جماجم أهل القرى في الخراج والضياع والصدقات والمستغلات كان يجبى على شهور الشمس وفي ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالي ورفعها العمال في حساباتهم فمن لم يرفعها ألزموه بجوالي السنة الزائدة فأحفظ انه اجتمع من ذلك ألوف دراهم ثم جددت الكتب الى العمال بأن تكون حساباتهم الجوالي على شهور الاهلة فجرى الامر على ذلك قال القاضي أبو الحسن وقد كان النقل اغفل في الديار المصرية حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة الهلالية تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية فنقلت سنة سبع وتسعين وأربعمائة الى سنة احدى وخمسمائة هكذا رأيت في تعليقات أبي رحمه الله وآخر ما نقلت السنة في وقتنا هذا سنة خمس وستين وخمسمائة الى سنة سبع وستين وخمسمائة الهلالية فتطابقت السنتان وذلك انني لما قلت للقاضي الفاضل أبي على عبد الرحيم بن علي البيساني انه قد آن نقل السنة فانشأ سجلا بنقلها نسخ الدواوين وحمل الامر على حكمه وما برح الملوك والوزراء يعتنون بنقل السنين في أحيانها * وقال أبو الحسين هلال ابن المحسن الصابي حدثني أبو على قال لما أراد الوزير أبو محمد المهلبي نقل سنة خمس وثلثمائة الهلالية امر أبا اسحاق والدى وغيره من كتابه في الخراج والرسائل بانشاء كتاب عن المطيع لله في هذا المعنى فكتب كل منهم وكتب والدى الكتاب الموجود في رسائله وعرضت النسخ على الوزير فاختاره منها وتقدم بأن يكتب الى أصحاب الاطراف وقال لابي الفرج بن أبي هشام خليفته اكتب الى العمال بذلك كتبا محققة وانسخ في أواخرها هذا الكتاب السلطاني فغاظ أبا الفرج وقوع التفضيل والاختيار لكتاب والدى وقد كان عمل نسخة اطرحت في جملة ما أطرح وكتب قد رأينا نقل سنة خمسين الى احدى وخمسين فاعمل على ذلك ولم ينسخ الكتاب السلطاني وعرف الوزير ما كتب به أبو الفرج فقال له لماذا أغفلت

نسخ الكتاب السلطانى فى آخر الكتب الى العمال واثباته في الديوان فأجاب جوابا علك فيه فقال له ياأبا الفرج ماتركت ذلك الاحسدا لابى اسحاق وهو والله في هذا الفن اكتب أهل زمانه فأعد الآن الكتب وانسخ الكتاب فى أواخرها قال القاضى أبو الحسن وأنا أذكر بمشيئة الله نسخة الكتاب الذى أشار اليه أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب وكتاب أبى اسحاق وكتاب القاضى الفاضل ليستبين للناظر طريق نقل السنين الخراجية الى السنين الهلالية فاذا قاربت الموافقة وحسنت فيها المطابقة فالكتاب الفاضلي أكثر مجازا وأعظم اعجازا ولا يخفى على المتأمل قدر ما أورد فيه من البلاغة كما لا يخفى على العارف قدر ما تضمنه كتاب الصابى من الصناعة * نسخة الكتاب الذي أشار اليه أبو الحسن الكاتب * ان أولى ما صرف اليه أمير المؤمنين عنايته وأعمل فيه فكره ورويته وشغل فيه تفقده ورعايته أمر الفيء الذي خصه الله به وألزمه جمعه وتوفيره وحياطته وتكثيره وجعله عماد الدين وقوام أمر المسلمين وفيما يصرف منه الى اعطيات الاولياء والجنود ومن يستعان به لتحصين البيضة والذب عن الحريم وحج البيت وجهاد العدو وسد الثغور وأمن السبيل وحقن الدماء واصلاح ذات البين وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى راغبا اليه ومتوكلا عليه أن يحسن عونه على ما حمله منه ويديم توفيقه بما أرضاه وارشاده الى أن يقضى عنه وله وقد نظر أمير المؤمنين فيما كان يجري عليه أمر جباية هذا الفيء في خلافة آبائه الراشدين صلوات الله عليهم فوجده على حسب ما كان يدرك من الغلات والثمار فى كل سنة أولا أولا على مجاري شهور سنى الشمس في النجوم التي يحل مال كل صنف منها فيها ووجد شهور السنة الشمسية تتأخر عن شهور السنة الهلالية أحد عشر يوما وربعا وزيادة عليه ويكون ادراك الغلات والثمار في كل سنة بحسب تأخرها فلا تزال السنون تمضى على ذلك سنة بعد سنة حتى تنقضى منها ثلاث وثلاثون سنة وتكون عدة الايام المتأخرة منها أيام سنة شمسية كاملة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وزيادة عليه فحينئذ يتهيأ بمشيئة الله تعالى وقدرته ادراك الغلات التي تجري عليها الضرائب والطسوق فى استقبال المحرم من سنى الاهلة ويجب مع ذلك الغاء السنة الخارجة اذا كانت قد انقضت ونسبتها الى السنة التي أدركت الغلات والثمار فيها لانه وجد ذلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله رحمة الله عليه عند انقضاء ثلاث وثلاثين سنة آخرتهن سنة احدى وأربعين ومائتين فجرت المكاتبات والحسبانات وسائر الاعمال بعد ذلك سنة بعد سنة الى أن مضت ثلاث وثلاثون سنة آخرتهن انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ووجب انشاء الكتب بالغاء ذكر سنة أربع وسبعين ومائتين ونسبتها الى سنة خمس وسبعين ومائتين فذهب ذلك على كتاب أمير المؤمنين المعتمد على الله وتأخر الامر أربع سنين الى أن أمر أمير المؤمنين المعتضد بالله رحمة الله عليه في سنة سبع وسبعين

ومائتين بنقل خراج سنة ثمان وسبعين الى سنة تسع وسبعين ومائتين فجرى الامر على ذلك الى أن انقضت في هذا الوقت ثلاث وثلاثون سنة أولاهن السنة التي كان يجب نقلها فيها وهى سنة خمس وسبعين ومائتين وآخرتهن انقضاء شهور خراج سنة سبع وثلثمائة ووجب افتتاح خراج ما يجري على الضرائب والطسوق في أولها وان من صواب التدبير واستقامة الاعمال واستعمال مايخف على الرعيـة معاملاتها به نقل سنة الخراج سنة سبع وثلثمائة الى سـنة ثمان وثلثمائة فرأى أمير المؤمنين لما يلزمه نفسه ويؤاخذها به من العناية بهذا الفئ وحياطة اسبابه واجرائها مجاريها وسلوك سبيل آبائه الراشدين رحمة الله عليهم أجمعين فيها أن يكتب اليك والى سائر العمال في النواحي بالعمل على ذلك وأن يكون ما يصـدر اليكم من الكتب وتصدرونه منكم وتجري عليه أعمالكم ورفوعكم وحسباناتكم وسائر مناظراتكم على هذا النقل فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين واعمل به مستشعرا فيه وفي كل مضنة تقوى الله وطاعته ومستعملا عليه ثقات الاعوان وكفاتهم ومشرفا عليهم ومقوما لهم واكتب بما يكون منك في ذلك ان شاء الله تعالى *(نسخة أبي اسحاق الصابى)* أما بعـد فان أمير المؤمنين لازال مجتهدا في مصالح المسلمين وباعثا لهم على مراشد الدنيـا والدين ومهيأ لهم احسن الاختيار فيما يوردون ويصدرون وأصوب الرأى فيما يبرمون وينقضون فلا يلوح له خلة داخلة على أمورهم الا سدها وتلافاها ولا حال عائدة بحظ عليهم الا اعتمدها وأتاها ولا سـنة عادلة الا أخذهم باقامة رسمها وامضاء حكمها والاقتداء بالسلف الصالح في العمل بها والاتباع لها واذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصـة بوفور ألبابها وتجهله العامة بقصور أفهامها وكانت أوامره فيه خارجة اليك والى امثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله الذين يكتفون بالاشارة ويجتزون بيسير الابانة والعبارة لم يدع أن يبالغ من تخليص اللفظ وايضاح المعنى الى الحد الذي يلحق المتأخر بالمتقدم ويجمع بين العالم والمتعلم ولا سيما اذا كان ذلك فيما يتعلق بمعاملات الرعيـة ومن لا يعرف الا الظواهر الجلية دون البواطن الخفية ولا يسهل عليـه الانتقال عن العادات المتكررة الى الرسوم المتغيرة ليكون القول بالمشروح لمن برز في المعرفة مذكرا ولمن تأخر فيها مبصرا ولانه ليس من الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورها ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة في مخاطبـة جمهورها حتى اذا استوت الاقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به وفقه مادعوا اليـه وصاروا على حكمه سواء لا يعترضهم شك الشاكين ولا استرابة المستريبين اطمأنت قلوبهم وانشرحت صدورهم وسقط الخلاف بينهم واستمر الاتفاق بهم واستيقنوا أنهم مؤسسون على استقامة من المنهاج ومحروسون من حزائر الزيغ والاعوجاج فكان الانقياد منهم وهم دارون عالمون لا مقلدون مسلمون وطائعون مختارون لا مكرهون ولا مجبرون وأمير المؤمنين يستمد الله تعالى في جميع أغراضه ومراميه

ومطالبه ومغازيه مادة من صنعه يقف بها على سنن الصلاح ويفتح له أبواب النجاح وينهضه بما أهله لحمله من الأعباء التي لايدعي الاستقلال بها الا بتوفيقه ومعونته ولا يتوجه فيها الا بدلالته وهدايته وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل يرى أن اولى الاقوال أن يكون سدادا وأحرى الافعال أن يكون رشادا ما وجد له في السابق من حكم الله أصول وقواعد وفي النص من كتابه آيات وشواهد وكان منصبا بالامة الى قوام من دين أو دنيا ووفاق في آخرة او أولى فذلك هو البناء الذي يثبت ويعلو والغرس الذي ينبت ويزكو والسعي الذي تنجح مباديه وهو اديه وتبهج عواقبه وتواليه وتستنير سبله لسالكيها وتوردهم موارد السعود في مقاصدهم فيها غير ضالين ولا عادلين ولا منحرفين ولا زائلين وقد جعل الله عز وجل لعباده من هذه الافلاك الدائرة والنجوم السائرة فيما تتقلب عليه من اتصال وافتراق ويتعاقب عليها من اختلاف واتفاق منافع تظهر في كرور الشهور والاعوام ومرور الليالي والايام وتفاوت الضياء والظلام واعتدال المسالك والاوطان وتغاير الفصول والازمان ونشو النبات والحيوان مما ليس في نظام ذلك خلل ولا في صنعه زلل بل هو منوط بعضه ببعض ومحوط من كل ثلمة ونقض قال الله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق وقال جل من قائل ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى وان الله بما تعملون خبير وقال تعالى والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم وقال عزت قدرته والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ففضل الله تعالى بهذه الآيات بين الشمس والقمر وأنبأنا في الباهر من حكمه والمعجز من كلامه أن لكل منهما طريقا سخر فيها وطبيعة جبل عليها وأن تلك المباينة والمخالفة في المسير يؤديان الى موافقة وملازمة في التدبير فمن هنالك زادت السنة الشمسية فصارت ثلثمائة وخمسة وستين يوما وربعاً بالتقريب المعمول عليه وهي المدة التي تقطع الشمس فيها الفلك مرة واحدة ونقصت الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعة وخمسين يوما وهي المدة التي يجامع القمر فيها الشمس اثنتي عشرة مرة واحتيج اذا انساق هذا الفضل الى استعمال النقل الذي يطابق احدى السنتين بالاخرى اذا افترقتا ويداني بينهما اذا تفاوتتا وما زالت الامم السالفة تكبس زيادات السنين على افتنان من طرقها ومذاهبها وفي كتاب الله عز وجل شهادة بذلك اذ يقول في قصة أهل الكهف ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا فكانت هذه الزيادة بأن الفضل في السنين المذكورة على تقريب التقريب فأما الفرس فانهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التي شهورها اثنا عشر شهرا وأيامها ثلثمائة وستون يوما ولقبوا الشهور باثني عشر لقبا وسموا أيام الشهر منها بثلاثين اسما وأفردوا الخمسة الايام الزائدة وسموها المسترقة وكبسوا الربع في كل مائة وعشرين سنة

شهرا فلما انقرض ملكهم بطل في كبس هـذا الربع تدبيرهم وزال نوروزهم عن سنته وانفرج ما بينـه وبين حقيقة وقتـه انفراجا هو زائد لا يقف ودائر لا ينقطع حتي ان موضوعهم في النوروز أن يقع في مدخل الصيف وسينتهى الى أن يقع في مدخل الشتـاء ويجاوز ذلك وموضوعهم في المهرجان أن يقع في مدخل الشتاء وينتهى الى أن يقع في مدخل الصيف ويجاوز وأما الروم فكانوا أتقن منهم حكمة وأبعد نظراً في العاقبـة لانهم رتبوا شهور السنة على ارصاد شهروها وأنواء عرفوها وفضوا الخمسة الايام على الشهور وساقوها على الدهور وكبسوا الربع في كل أربع سـنين يوما ورسموا أن يكون الى شباط مضافا فقربوا ما بعده غيرهم وسهلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم لا جرم ان المعتضد بالله رحمـه الله على أصولهم بنى ولمثالهم احتذى في تصييره نوروزه اليوم الحـادي عشر من حزيران حتى سلم ممـا لحق النواريز في سالف الازمان وتلافوا الامر في عجز سنى الهلال عن سني الشمس بأن جبروها بالكبس فكلما اجتمع من فصول سنى الشمس وما بقى تمـام شهر جملوا السنة الهلالية يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالا فربما تم الشهر الثالث عشر في ثلاث سنين وربما تم في سـنتين بحسب ما يوجبه الحساب فتصير سنتا الشمس والهـلال عندهم متقاربتين أبدا لايتباعد ما بينهما وأما العرب فان الله تعـالى فضلها على الامم الماضية وورثها ثمرات مشاقها المتعبة وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها وزكاة أهل ملتها وجزية أهل ذمتها على السنة الهلالية وتعبدها فيها برؤية الاهلة ارادة منه أن تكون مناهجها واضحة وأعلامها لائحة فيتكافأ في معرفة الغرض ودخول الوقت الخاص منها والعـام والنـاقص الفقه والتام والانثى والذكر والصغير والكبير والاكبر فصاروا حينئذ يحسبون في سـنة الشمس حاصل الغلات المقسومة وخراج الارض الممسوحة ويجبون في سنة الهلال الجوالى والصدقات والارجاء والمقاطعات والمستغلات وسائر ما يجري على المشاهرات وحدث من التداخل بين السنين مالو استمر لقبح جدا وازداد بعدا اذ كانت الجباية الخراجية في السنة التي ينتهى اليها تنسب الى الشمسية والى ماقبلها فوجب مع هذا أن تطرح تلك السنة وتلغى ويجاوز الى مابعدها ويتخطى ولم يجز لهم أن يعتدوا لمخالفتهم في كبس السنة الهلالية بشهر ثالث عشر ولانهم لوفعلوا ذلك لزحزحت الاشهر الحرم عن موافقها وارتجت المناسك عن حقائقها ونقصت الجباية في سني الاهلة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها فانتظروا بذلك الفضل الى أن تم السنة وأوجب الحساب المقرب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثا وثلاثين هلالية فنقلوا المتقدمة الى المتأخرة نقلا لايتجاوز الشمسية وكانت هذه الكلفة في دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة في دينهم وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلثمائة الخراجية الى سـنة احدى وخمسين وثلثمائة الهلالية جمعا بينهما ولزوما لتلك السنة فيهما فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك

وتضمنه كتابه هـذا اليك ومن الـكتاب قبلك أن يحتذوا رسمه فيما يكتبون به الى عمال نواحيك ويخلدونه في الدواوين من ذكورهم ورفوعهم ويعدونه من خروج الاموال وينظمونه في الدواوين والاعمال ويثبتون عليه الجماعات والحسبانات ويوعزون بكتبه من الروزنامجات والبرا آت وليكن المنسوب من ذلك الى سنة خمسين وثلثمائة التي وقع النقل اليها وأقم في نفوس من بحضرتك من اصناف الجند والرعية وأهل الملة والذمة أن هذا النقل لا يغير لهم رسما ولا يلحق بهم ثلما ولا يعود على قابضي العطاء بنقصان ما استحقوا قبضه ولا على مؤدى حق بيت المال باغضاء عما وجب أداؤه فان قرائح أكثرهم فقيرة الى افهام أمير المؤمنين الذى اثر أن تزاح فيه العلة ويسد به سهم الخلة اذ كان هذا الشأن لا يتجدد الا في المدد الطوال التى في مثلها يحتاج الى تعريف الناسي وأجب بما يكون منك جوابا يحسن موقعه لك ان شاء الله تعالى * وقال ابن المأمون في تاريخه من حوادث سنة احدى وخمسمائة وأول ما تحدث فيه نقل السنة الشمسية الى العربية وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين فتحدث القائد أبو عبدالله محمد بن فاتك البطائحي مع الافضل بن أمير الجيوش فى ذلك فأجاب اليه وخرج أمره الى الشيخ أبى القـاسم بن الصيرفى بانشاء سجل به فأنشأ ما نسخته بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى ارتضى أمير المؤمنين أمينه فى أرضه وخليفته • وألهمه أن يعم بحسن التدبير عبيده وخليقته • ووفقه لمصالح يستمد أسبابها • ويفتح بحسن نظره أبوابها • وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر • وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة فى المحشر وعناهم بقوله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر • وأعلى منار سلطانه بمدبر افلاك دولته ومبيد أعداء مملكته • وأشرف من نصب للجند علما وراية • ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه • وأرشد بهدايته الالباب الحائرة • وأذهب بمعدلته الاحكام الجائرة • السيد الاجل الافضل ونتمم النعوت بالدعاء للذى كمل تدبيره نظام الصلاح وتممه • وسدد تقريره الامور فى كل ماقصده ويممه • ونبه فى السياسة على ما أهمله من سبقه • وأغفله من تقدمه • وتتبع احوال المملكة فلم يدع مشكلا الا أوضحه وبين الواجب فيه • ولا خللا الا أصلحه وبادر بتـلافيه • ولا مهملا الا استعمله على ما يوافق الصواب ولا ينافيه ايثارا لعمارة الاعمال • وقصدا لما يقضي بتوفير الاموال • وتوخيا لما عاد بضروب الاستغلال • واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها • واهتماما بمصالحهم التي ضعفت قواهم عن ارتيادها • ورعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا • وحملا لهم على اعدل السنن وأفضل القضايا • يحمده أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للامة • وادخره لايامه من الفضائل التي صفت بها ملابس النعمة • ووفقه لما يعود على الكافة بشمول الانتفاع حتى صار استبدال الحقوق بواجبات الشريعة الواضحة الادلة • واستيفاؤها بمقتضى المعدلة فيما يجرى على أحكام الخراج وأوضاع الاهلة • ويرغب اليه بالصلاة على محمد

الذى ميزه بالحكمة وفصل الخطاب • وبين به ما استبهم من سبل الصواب • وأنزل عليه في محكم الكتاب • هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب • صلي الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كافيه فيما اعضل لماعدم المساعد • وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد • وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون ويفعلون • والذين يهدون بالحق وبه يعدلون • وان أولى ما أولاه أمير المؤمنين حظا وافياً من تفقده • وأسهم له جزأ وافرا من كريم تعهده • ونظر اليه بعين اهتمامه واختصه بالقسم الاجزل • من استمالة أمر الاموال التي يستعان بها على سد الخلل • وبرجائها يستدفع ما يطرق من الحادث الجلل • وبوفورها تستثبت شؤون المملكة وتستقيم أحوال الدول • وباستخراجها على حكم العدل الشامل • ووصية انصاف المعامل • تكون العمارة التى هى أصل زيادتها • ومادة كثرتها وغزارتها • ولما كانت جباياتها على حكمين أحدهما يجبى هلاليا وذلك مالا يدخله عارض ولا اشكال ولا ابهام • ولا يحتاج فيه الي ايضاح ولا افهام لان شهور الهلال يشترك فى معرفتها الامير والمقصر • ويستوى فى الفهم بها المتقدم فى العلم والمتأخر • اذ كان الناس آلفين لازمنة متعبداتهم السنين مما يحفظ لهم نظام موسومهم والآخر يجبى خراجيا ويثبت بنسبته الي الخراج لانها تضبط أوقات ما يجرى ذلك لاجله من النيل المبارك والزراعة • وتحفظ أحيانه دون السنة الهلالية وتحرس أوضاعه • ولا يستقل بمعرفته الا من باشره • وعرف موارده ومصادره • فوجب أن يقصر على السنة الخراجية النظر • ويفعل فيها ماتعظم به الفائدة ويحسن فيه الاثر • ويعتمد فى ايضاح أمرها وتقديم حكمها على ماتحلى به التواريخ وتزين به السير • ويكون ذلك شاهدا لمساعى السيد الاجل الافضل الذى لايزال ساهرا ليله في حياطة الهاجعين • شاهرا سيفه في حماية الوادعين • مطلعا للدولة بدور السعادة وشموسها • مذللا لها صعب الحوادث وشموسها • ناطقة تارة بأن أمة هو راعيها • قد فضل الله سائسها وأسعد مسوسها • وهذا حين التبصير والارشاد • وأوان التبيين للغرض والمراد • لتتساوى العامة والخاصة فى علمه • وتسمهم الفائدة في معرفة حكمه • وتحقق المنفعة لهم فيما يمنع من تداخل السنين واستقبالها • وتتيقن المعدلة عليهم فيما يؤمن من المضار التى يحتاج الى استدرا كها ومعلوم أن أيام السنة الخراجية • وهى السنة الشمسية بخلاف السنة الهلالية • لان أيام السنة الخراجية من استقبال النوروز الى آخر النسئ ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وأيام السنة الهلالية لاستقبال المحرم الى آخر ذى الحجة ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما والخلاف في كل سنة بالتقريب أحد عشر يوما وفي كل ثلاث وثلاثين سنة سنة واحدة على حكم التقريب • ويقتضيه ما تقدم من الترتيب • فاذا اتفق أن يكون أول الهلالية • موافقا لمدخل السنة الخراجية • وكانت نسبتهما واحدة استمر اتفاق التسمية فيهما • وبقى ذلك جاريا

عليهما . ولم يزالا متداخلين لكون مدخل الخراجية في أثناء شهور الهلالية الى انقضاء ثلاث وثلاثين سنة فاذا انقضت هذه المدة بطلت المداخلة وخلت السنة الهلالية من نوروز يكون فيها . وبحكم ذلك بطل اتفاق التسمية ويكون التفاوت سنة واحدة للعلة المقدم ذكرها . ومن اين يستمر بينهما ائتلاف . أو يعدم لهما اختلاف . أم كيف يعتقد ذلك أحد من البشر . والله تعالى يقول لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر . فقد وضح دليل التباعد بما جاء منصوصا في الكتاب . وظهر برهانه بما اقتضاه موجب الحساب . فيحتاج بحكم ذلك الى نقل السنة الشمسية الى التي تليها . لتكون موافقة للهلالية وجارية معها . وفائدة النقل أن لاتخلو السنة الهلالية من مال خاص ينسب الى السنة الموافقة لها لان واجبات العسكرية على عظمها واتساعها . وأرزاق المرتزقة على اختلاف أجناسها وأوضاعها . جارية على أحكام الهلالية غير معدول بها عن ذلك في حال من الاحوال والمحافظة على ثمرة ارتفاعها متعينة ومنفعة العناية بما تجري عليه واضحة مبينة . ولما أهلت سنة احدى وخمسمائة ودخلت فيها سنة تسع وتسعين وأربعمائة الخراجية . الموافقة لسنة احدى وخمسمائة الهلالية . كان في ذلك من التباين والتعارض والتفاوت والتنافر بحكم اهمال النقل فيما تقدم ما صارت السنة الهلالية الحاضرة لايجبى خراج ما يوافقها فيها . ولا تدرك غلات السنة المجرى مالها عليها الا في السنة التي تليها . فهي تستهل وتنقضي وليس لها في الخراجي ارتفاع . والاعمال تطيف بالزراعة ولا حظ لها في ذلك ولا انتفاع . وهذه الحال المضرة بها على بيت المال غير خفية والاذية فيها للرجال المقطعين بادية . وأسباب لحوقها اياهم مستمرة متمادية . ولا سيما من وقع له باثبات . وأنعم عليه بزيادات . فانهم يتعجلون الاستقبال . ويتأجلون الاستغلال . ومتى لم تنقل هذه السنة الخراجية كانت متداخلة بين سنين هلالية وهى موافقة لغيرها ومالها يجري على سنة تجري بينهما لان مدخلها في اليوم العاشر من المحرم سنة احدى وخمسمائة وانقضاؤها في العشرين من المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وهى متداخلة بين هاتين السنتين ومالهما يجرى على سنة احدى وخمسمائة والحال في ذلك لاينتهي الى أمده . ولا يزال الفساد يتزايد طول الابد وقد رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه ماخرج به أمره الى السيد الاجل الافضل الذى نبه على هذا الامر وكشف غامضه . وأزال بحسن توصله تنافيه وتناقضه . أن يوعز الى ديوان الانشاء بكتب هذا السجل مضمنا ما رآه ودبره . مودعا انفاذ ما أحكمه وقرره . من نقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة الى سنة احدى وخمسمائة لتكون موافقة لها . ويجرى عليها ما لها . ويكون ما يستأدونه من أقطاعاتهم ويستخرجونه من واجباتهم جاريا على نظام محروس . ونطاق محيط غير منحوس . وشاهدا بنصيب موفى غير منقوص ويتضح ما أبهم اشكاله التعمية . ويزول الاستكراه في اختلاف التسمية . ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية الى سنة أربع وثلاثين

وخمسمائة وينسب مال الخراج والمقاسمات • وما يستغل ويجبي من الاقطاعات • مما كان جاريا على ذكر سنة تسع وتسعين وأربعمائة الى سنة احدى وخمسمائة وتجرى الاضافة اليها مجرى ما يرتفع من الهلالي فيها لتكون سنة احدى من هذه مشتملة على ما يخصها من مالها • وعلى مال السنة الخراجية بما يشرح من انتقالها • وكذلك نقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة الخراجية الثابتة بالتسمية الى سنة احدى وخمسمائة المشار اليها ويكون مالها جاريا عليها فليعتمد ذلك في الدواوين بالحضرة وفي سائر اعمال الدولة قاصيها ودانيها وفارسها وشاميها وليتنبه كافة الكتاب والمستخدمين • وجميع العمال والمتصرفين • الى اقتفاء هذا السنن واتباعه • وليحذروا الخروج عن أحكامه المقررة وأوضاعه • وليبادروا الى امتثال المرسوم فيه • وليحذروا من تجاوزه وتعديه • ولينسخ في دواوين الاموال والجيوش المنصورة • وليخلد بعد ذلك في بيوت المال المعمورة • وكتب في محرم سنة احدى وخمسمائة * وقال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة ومن خطه نقلت * مستهل المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية الى السنة الهلالية والمطابقة بين اسميهما لموافقة الشهور العربية للشهور القبطية وخلو سنة سبع من نوروز فنقلت سنة خمس وستين وخمسمائة الخراجية الى هذه السنة وكان آخر نقل نقلته هذه السنة في الايام الافضلية فان سنة ثمان وتسعين وأربعمائة وسنة تسع وتسعين الخراجيتين نقلتا الى سنة احدى وخمسمائة الخراجية وسبب هذا الانفراج بينهما زيادة عدد السنة الشمسية على عدد الهلالية أحد عشر يوما واغفال النقل في سنة ثلاث وثلاثين في أيام الوزير الافضل رضوان بن ولخشي وانسحب ذيل هذه الزيادة وتداخل السنين بعضها في بعض الى أن صار التفاوت بينهما سنتين في هذه السنة فنقلت وهو انتقال لا يتعدى التسمية ولا يجاوز اللفظ ولا ينقص مالا لديوان ولا لمقطع وانما يقصد به ازالة الالباس وحل الاشكال * وقال القاضي أبو الحسين ونسخة الكتاب الذى انشأه القاضى الفاضل خرجت الاوامر الملكية الناصرية زاد الله في اعلائها بابداع هذا المنشور انا نؤثر من حسن النظر ما يؤثر أحسن الخبر ولا ينصرف بنا الفكر عما تحلى به السير وتجلى به الغير ولا تزال خواطرنا تعتلى فتطالع الدرارى وتغوص فتخرج الدرر وان أولى ما استحدث به البصائر وحرست فيه المصائر كل أمر يصحح المعاملات ويشرحها ويطلق عقولهم من عقول الاشكال ويسرحها ولما وجب نقل السنة الخراجية والمطابقة بينها وبين الهلالية لانفراجهما بسنتين وموافقة الشهور الخراجية والهلالية في هذه السنة مطلع المستهلين امضينا هذه السنة الخالية في هذه السنة الآتية واستخرنا الله تعالى في نقل سنتى خمس وست وستين وخمسمائة الى سنة سبع وستين وخمسمائة التى سميت بهذا النقل هلالية خراجية نفيا للامور المشتبهة والتسمية المموهة وتنزيها لسنى الاسلام عن التكبيس ولتاريخه عن ملابسة التلبيس واعلاما

بالوفاق الذى استشعرته آباؤها وبنوها واعلانا باتباعه عناية بعوايد السلف التي خلفوها للخلف وبنوها وفي ذلك ما تحمد به العواقب وتنفسح به المذاهب وتتيسر به المطالب ويزول به الاشكال ويؤمن به الاختلال ويحسم به الغلط في الحساب ويؤلف بين السنين المختلفة الانساب ويحفظ على القمر معاملته ويبعد عن التاريخ معاظلته ويقرب على الكاتب محاولته ويصرف عن نعمة الله هجنة كونها مقدمة في التسنية مؤخرة في التسمية وعن معاملة بيت المال وصمة كونها معذوقة بالمطل وقد بالغت في التوفية لان من أعطى في سنة سبع وستين وخمسمائة استحقاق سنة خمس فلا ريب أنه قد مطل بحكم السمع وان كان قد انجز بحكم الشرع فتوسم هذه السنة المباركة بالهلالية الخراجية وترفع الحسبانات بهذا الوضع ويعمل في التقريرات والتسجيلات على هذا فليفعل في ذلك ما يقضى بارتاج هذا الانفراج وجبر هذا الصدع وليعلم في الدواوين عامه ولينفذ فيها حكمه بعد ثبوته الى حيث يثبت مثله ان شاء الله تعالى *(وأما تاريخ العرب)* فانه لم يزل في الجاهلية والاسلام يعمل بشهور الاهلة وعدة شهور السنة عندهم اثنا عشر شهرا الا انهم اختلفوا في اسمائها فكانت العرب العاربة تسميها ناتق • ونقيل • وطليق • واسح • وأنخ • وحلك • وكسح • وزاهر • ونوط • وحرف وبغش • فناتق هو المحرم • ونقيل هو صفر • وهكذا ما بعده على سرد الشهور وكانت ثمود تسميها • موجب • وموجر • ومورد • وملزم • ومصدر • وهوبر • وهوبل • وموها وديمر • ودابر • وحيقل • ومسبل • فموجب هو المحرم • وموجر صفر • الا انهم كانوا يبدؤن بالشهور من ديمر وهو شهر رمضان فيكون أول شهور السنة عندهم ثم كانت العرب تسميها بأسماء أخر وهى • مؤتمر • وناجر • وخوان • وصوان • وحنتم • وزبا • والاصم وعادل • ونافق • ووعل • وهواع • وبرك • و معنى المؤتمر أنه يأتمر بكل شئ مما تأتي به السنة من اقضيتها وناجر من النجر وهو شدة الحر وخوان فعال من الخيانة وصوان بكسر الصاد وضمها فعال من الصيانة والزبا الداهية العظيمة المتكاثفة سمى بذلك لكثرة القتال فيه ومنهم من يقول بعد صوان الزبا وبعد الزبا بائدة وبعد بائدة الاصم ثم واغل وباطل وعادل ورنه وبرك فالبائد من القتال اذ كان فيه يبيد كثير من الناس وجرى المثل بذلك فقيل العجب كل العجب بين جمادى ورجب وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ الثار والغارات قبل رجب فانه شهر حرام ويقولون له الاصم لانهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح والواغل الداخل على شرب ولم يدعوه وذلك لانه تهجم على شهر رمضان وكان يكثر في شهر رمضان شربهم الخمر لان الذى يتلوه هى شهور الحج وباطل هو مكيال الخمر سمى به لافراطهم فيه في الشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال وأما العادل فهو من العدل لانه من أشهر الحج وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل وأما الزبا فلان الانعام

كانت تزب فيه لقرب النحر وأما برك فهو لبروك الابل اذا حضرت المنحر وقد روى انهم كانوا يسمون المحرم مؤتمر • وصفر ناجر • وربيع الاول نصار • وربيع الآخر خوان وجمادى الاولى حنتن • وجمادى الآخرة الرنة • ورجب الاصم وهو شهر مضر • وكانت العرب تصومه فى الجاهلية وكانت تمتار فيه وتمير أهلها وكان يأمن بعضهم بعضافيه ويخرجون الى الاسفار ولا يخافون وشعبان عادل • ورمضان ناتق • وشوال واغل • وذوالقعدة هواع • وذو الحجة برك • ويقال فيه أيضا أبروك وكانوا يسمونه الميمون ثم سمت العرب أشهرها بالمحرم • وصفر • وربيع الاول • وربيع الآخر • وجمادى الاولى • وجمادى الآخرة • ورجب • وشعبان ورمضان • وشوال • وذى القعدة • وذى الحجة • واشتقوا اسماءها من أمور اتفق وقوعها عند تسميتها فالمحرم كانوا يحرمون فيـه القتال وصفر كانت تصفر فيه بيوتهم لخروجهم الى الغزو وشهرا ربيع كانا زمن الربيع وشهرا جمادى كانا يجمد فيهما الماء لشدة البرد ورجب الوسط وشعبان يشعب فيه القتال ورمضان من الرمضاء لانه كان يأتي فيه القيظ وشوال تشيل فيـه الابل أذنابها وذو القعدة لقعودهم في دورهم وذو الحجة لانه شهر الحج وأنت اذا تأملت اشتقاق أسماء شهور الجاهلية أولا ثم اشتقاقها ثانيا تبين لك أن بين التسميتين زمانا طويلا فان صفر في أحدها هو صميم الحروب وفي الآخر رمضان ولا يمكن ذلك في وقت واحد أو وقتين متقاربين وكانت العرب أولا تستعمل هذه الشهور على نحو مايستعمله أهل الاسلام اما بطريق الهى او لان العرب لم يكن لها دراية بمراعاة حساب حركات النيرين فاحتاجت الى استعمال مبادئ الشهور لرؤية الاهلة وجعلت زمان الشهر بحسب ما يقع بين كل هلالين فربما كان بعض الشهور تاما أعني ثلاثين يوما وربما كان ناقصا أعني تسـعة وعشرين يوما وربما كانت أشهر متوالية تامة أكثرها أربعة وهذا نادر وربما كانت أشهر متوالية ناقصة أكثرها ثلاثة وكان يقع حج العرب في أزمنة السـنة كلها وهو أبدا عاشر ذى الحجة من عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فاذا انقضى موسم الحج تفرقت العرب طالبة أماكنها وأقام أهل مكة بها فلم يزالوا على ذلك دهرا طويلا الى أن غيروا دين ابراهيم واسماعيـل فأحبوا أن يتوسعوا في معيشتهم ويجعلوا حجهم فى وقت ادراك شغلهم من الادم والجلود والثمار ونحوها وأن يثبت ذلك على حالة واحدة في أطيب الازمنة وأخصبها فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يثرب من عهد شمويل نبى بنى اسرائيل وعملوا النسيء قبل الهجرة بنحو مائتى سنة وكان الذى يلى النسيء يقال له القلمس يعنى الشريف وقد اختلف في أول من أنسأ الشهور منهم فقيل القلمس هو عدي بن زيد وقيل القلمس هو سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة وانه قال أرى شهور الاهلة ثلثمائة وأربعة وخمسـين يوما وأرى شهور العجم ثلثمائة وخمسة وستين يومافبيننا وبينهم احد عشر يوما ففى كل ثلاث

سنين ثلاثة وثلاثون يوما ففي كل ثلاث سنين شهر وكان اذا جاءت ثلاث سنين قدم الحج في ذي القعدة فاذا جاءت ثلاث سنين أخر في المحرم وكانت العرب اذا حجت قلدت الابل النعال وألبستها الجلال وأشعرتها فلا يتعرض لها أحـد الا خثعم وكان النسيء في بني كنانة ثم في بني ثعلبة بن مالك بن كنانة وكان الذي يلي ذلك منهم أبو ثمامـة المالكي ثم من بني فقيم وبنو فقيم هم النساءة وهو منسئ الشهور وكان يقوم على باب الكعبة فيقول ان آلهتكم العزى قد أنسأت صفر الاول وكان يحله عاما ويحرمه عاما وكان اتباعهم على ذلك غطفان وهوازن وسليم وتميم وآخر النساءة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة ابن عبد بن فقيم وقيـل القلمس هو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة ثم توارث ذلك منه بنوه من بعده حتى كان آخرهم الذي قام عليه الاسـلام ابو ثمامة جنادة وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فأحل لهم من الشهور وحرم فأحلوا ما أحل وحرموا ما حرم وكان اذا أراد أن ينسئ منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الاربعة فاذا أرادوا الهـدى اجتمعوا اليه فقال اللهم اني لا أحاب ولا أعاب في أمري والامر لمـا قضيت اللهم اني قد احللت دماء المحلين من طي وخثعم فاقتـلوهم حيث ثقفتموهم اي ظفرتم بهم اللهم اني قد احللت احد الصفرين الصفر الاول وانسأت الآخر من العام المقبـل وانما احل دم طي وخثعم لانهم كانوا يعدون على الناس في الشهر الحرام من بين جميع العرب * وقيل اول من انسأ سرير بن ثعلبة وانقرض فأنسأ من بعده ابن اخيه القلمس واسـمه عدي بن عامر ابن ثعلبة بن الحرث بن كنانة ثم صار النسيء في ولده وكان آخرهم ابو ثمامة جنادة وقيل عوف بن امية بن قلع عن ابيه امية بن قلع عن جده قلع بن عباد عن جد ابيه عباد بن حذيفة عن جد جده حذيفة بن عبد بن فقيم وكان يقال لحذيفـة القلمس وهو اول من انسأ الشهور على العرب فأحل منها ما احل وحرم ما حرم ثم كان بعـد عوف المذكور ولده ابو ثمامة جنادة بن عوف وعليه قام الاسلام وكان ابعدهم ذكرا واطولهم امدا يقال انه انسأ اربعين سنة ولهم يقول عمير بن قيس جذل الطعان يفتخر

وای الناس لم يسبق بوتر * وای الناس لم يعلك لجاما
السنا الناسئين على معـد * شهور الحل نجعلها حراما

وقال آخر

أتزعم اني من فقيم بن مالك * لعمري لقد غيرت ما كنت اعلم
لهم ناسئ يمشـون تحت لوائه * يحل اذا شاء الشهور ويحـرم

وقيل كانت العرب تكبس في كل اربع وعشرين سنة قمرية بتسعة اشهر فكانت شهورهم

ثابتة مع الازمنة جارية على سنن واحد لا تتأخر عن اوقاتها ولا تتقدم وكان النسيء الاول للمحرم فسمى صفر باسمه وشهر ربيع الاول باسم صفر ثم والوا بين اسماء الشهور فكان النسيء الثانى بصفر فسمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً وكذلك حتى دار النسيء فى الشهور الاثنى عشر وعاد الى المحرم فأعادوا فعلهم الاول وكانوا يعدون أدوار النسيء ويحدون بها الازمنة فيقولون قد دارت السنون من لدن زمان كذا الى زمان كذا كذا وكذا دورة فان ظهر لهم مع ذلك تقدم شهر عن فصله من الفصول الاربعة لما يجتمع من كسور سنة الشمس بقية فضل ما بينها و بين سنة القمر الذى ألحقوه بها كبسوها كبساً ثانيا وكان يظهر لهم ذلك بطلوع منازل القمر وسقوطها حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وكانت نوبة النسيء بلغت شعبان فسمي محرما وشهر رمضان صفر وقيل ان الناسيء الاول نسأ المحرم وجعله كبساً وأخر المحرم الى صفر وصفر الى ربيع الاول وكذا بقية الشهورفوقع لهم في تلك السنة عاشر المحرم وجعل تلك السنة ثلاثة عشر شهرا ونقل الحج بعد كل ثلاث سنين شهراً فمضى على ذلك مائتان وعشر سنين وكان انقضاؤها سنة حجة الوداع وكان وقوع الحج في السنة التاسعة من الهجرة عاشر ذى القعدة وهى السنة التى حج فيها أبو بكر الصديق رضى الله عنه بالناس ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة حجة الوداع لوقوع الحج فيها عاشر ذي الحجة كما كان في عهد ابراهيم واسماعيل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في حجته هذه ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض يعني رجوع الحج والشهور الى الوضع وأنزل الله تعالى ابطال النسيء بقوله تعالى انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم فبطل ما أحدثته الجاهلية من النسيء واستمر وقوع الحج والصوم برؤية الاهلة ولله الحمد * وكانت العرب لها تواريخ معروفة عندها قد بادت فمما كانت تؤرخ به ان كنانة أرخت من موت كعب بن لؤى حتى كان عام الفيل فأرخوا به وهو عام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بين كعب بن لؤى والفيل خمسمائة وعشرون سنة وكان بين الفيل وبين الفجار أربعون سنة ثم عدوا من الفجار الى وفاة هشام بن المغيرة فكان ست سنين ثم عدوا من وفاة هشام بن المغيرة الى بنيان الكعبة فكان تسع سنين ثم كان بين بنائها وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة سنة ثم وقع التاريخ من الهجرة النبوية فعن سعيد بن المسيب قال جمع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الناس فسألهم من أي يوم يكتب التاريخ فقال على بن أبي طالب من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك أرض الشرك ففعله عمر وعن سهل ابن سعد الساعدى قال أخطأ الناس فى العدد ما عدوا من مبعثه ولا من وفاته انما عدوا

من مقدمه المدينة وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان التاريخ من السنة التي قدم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وقال قرة بن خالد عن محمد كان عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه عامل جاء من اليمن فقال لعمر أما تؤرخون تكتبون في سنة كذا وكذا من شهر كذا وكذا فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا من عند وفاته ثم أرادوا أن يكون ذلك من الهجرة ثم قالوا من أى شهر فأرادوا أن يكون من رمضان ثم بدا لهم فقالوا من المحرم وقال ميمون بن مهران رفع الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه صك محله شعبان فقال أى شعبان هو أشعبان الذى نحن فيه أو الآتي ثم جمع وجوه الصحابة فقال ان الاموال قد كثرت وما قسمنا منها غير موقت فكيف التوصل الى ما يضبط به ذلك فقالوا يجب أن يعرف ذلك من رسوم الفرس فعندها استحضر عمر رضى الله عنه الهرمزان وسأله عن ذلك فقال ان لنا حسابا نسميه ماهروز معناه حساب الشهور والايام فعربوا الكلمة وقالوا مؤرخ ثم جعلوه اسم التاريخ واستعملوه ثم طلبوا وقتاً يجعلونه أولا لتاريخ دولة الاسلام فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة وكانت الهجرة النبوية من مكة الى المدينة وقد تصرم من شهور السنة وأيامها المحرم وصفر وأيام من ربيع الاول فلما عزموا على تأسيس الهجرة رجعوا القهقرى ثمانية وستين يوما وجعلوا التاريخ من أول محرم هذه السنة ثم أحصوا من أول يوم فى المحرم الى آخر عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عشر سنين وشهرين وأما اذا حسب عمره المقدس من الهجرة حقيقة فيكون قد عاش صلى الله عليه وسلم بعدها تسع سنين وأحد عشر شهرا واثنين وعشرين يوما وكان بين مولده صلى الله عليه وسلم وبين مولد المسيح عليه السلام خمسمائة وثمان وسبعون سنة تنقص شهرين وثمانية أيام وأبتداء تاريخ الهجرة يوم الخميس أول شهر الله المحرم وبينه وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما على ما عرفنا من الخلاف فى ذلك وبينه وبين تاريخ الاسكندر بن فيلبيش المقدوني الرومي تسعمائة واحدى وستون سنة قمرية وأربعة وخمسون يوما تكون من السنين الشمسية تسعمائة واثنتين وثلاثين سنة ومائتين وتسعة وثمانين يوما عنها تسعة أشهر وتسعة عشر يوما وبينه وبين تاريخ القبط ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وتسعة وثلاثون يوما (١) وقال ابن ما شاالله ان انتقال المر من المثلثة الهوائية التي هى برج الجوزاء دولتها الى برج السرطان ومثلثته المائية التي كانت دولة الاسلام فيها عند تمام ستة آلاف وثلثمائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما من وقت القران

(١) قوله وقال ابن الخ هكذا هذه العبارة في جميع النسخ التي بيدى ولا تخلو عن تحريف ظاهر ككثير من عبارات هذا الكتاب ولا يعلم الغيب الا الله ا هـ

الاول الواقع في بدء التحرك يعني خلق آدم عليه السلام وان القران من هـذه المثلثة وقع في أربع درج ودقيقة واحدة من برج العقرب وهو قران الملة الاسـلامية قال وفى السنة الثانية من هذا القران ولد رسول الله صلى الله عليه وسـلم وكان بين دخول الشمس برج الحمل في هذه السنة وبين أول يوم من سنة الهجرة سنون فارسية عدتها احدى وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام وست عشرة ساعة فكان من وقت الطوفان الى وقت قران الملة ثلاثة آلاف و تسعمائة واثنتا عشرةسنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما * وزعمت اليهود أن من آدم عليه السلام الي سنة الهجرة أربعة آلاف واثنين وأربعين سنة وثلاثة أشهر * وزعمت النصارى أن بينهما خمسة آلاف وتسعمائة وتسعين سنة وثلاثة أشهر * وزعمت المجوس أعنى الفرس أن بينهما أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسـعة عشر يوما وقـد عرفت أن شهور تاريخ الهجرة قمرية وأيام كل سنة منها عدتها ثلثمائة وأربعـة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم وجميع الاحكام الشرعية مبنية على رؤية الهـلال عند جميع فرق الاسلام ما عدا الشيعة فان الاحكام مبنية عندهم على عمل شهور السنة بالحساب على ما ستراه في ذكر القاهرة وخلفائها ثم لما احتاج منجمو الاسلام الى استخراج مالابد منه من معرفة الاهلة وسمت القبـلة وغير ذلك بنو أزياجهم على التاريخ العربي وجعلوا شهور السنة العربية شهرا كاملا وشهرا ناقصا وابتدؤا بالمحرم اقتداء بالصحابة رضي الله عنهم فجعلوا المحرم ثلاثين يوما وصفر تسعة وعشرين يوما وربيعا الاول ثلاثين يوما وربيعا الآخر تسعة وعشرين يوما وجمـادى الاولى ثلاثين يوما وجمادى الآخرة تسـعة وعشرين يوما ورجب ثلاثين يوما وشعبان تسعة وعشرين يوما ورمضان ثلاثين يوما وشوالا تسعة وعشرين يوما وذا القعدة ثلاثين يوما وذا الحجة تسـعة وعشرين يوما وزادوا من أجل كسر اليوم الذى هو خمس وسدس يوما في ذى الحجة اذا صار هـذا الكسر أكثر من نصف يوم فيكون شهر ذى الحجة في تلك السنة ثلاثين يوما ويسمون تلك السنة كبيسة ويصير عددها ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما ويجتمع في كل ثلاثين من الكبس أحد عشر يوما والله أعلم * وأما تاريخ الفرس ويعرف أيضا بتاريخ يزدجرد فانه من ابتداء تملك يزدجرد بن شهريار ابن كسرى ابرويز أرخ به الفرس من أجل أن يزدجرد قام في المملكة بعد ما تبدد ملك فارس واستولى عليه النساء والمتغلبون وهو أيضاً آخر ملوك فارس وبقتـله تمزق ملكهم وأول هذا التاريخ يوم الثلاثاء وبينه وبين تاريخ الهجرة تسع سنين وثلثمائة وثمانية وثلاثون يوما وأيام سنة هذا التاريخ تنقص عن السنة الشمسية ربع يوم فيكون فى كل مائة وعشرين سنة شهرا واحدا ولهم في كبس السنة آراء ليس هذا موضع ايرادها وعلى هذا التاريخ يعتمد في زمننا أهل العراق وبلاد العجم ولله عاقبة الامور

﴿ ذكر فسطاط مصر ﴾

قال الجوهرى الفسطاط بيت من شعر قال ومنه فسطاط مدينة مصر اعلم أن فسطاط مصر اختط في الاسلام بعدما فتحت أرض مصر وصارت دار اسلام وقد كانت بيد الروم والقبط وهم نصارى ملكانيــة ويعقوبية وميانية وحين اختط المســلمون الفسطاط انتقل كرسى المملكة من مدينة الاسكندرية بعد ما كانت منزل الملك ودار الامارة زيادة على تسعمائة سنة وصار من حينئذ الفسطاط دار امارة ينزل به أمراء مصر فلم يزل على ذلك حتى بنى العسكر بظاهر الفسطاط فنزل فيه أمراء مصر وسكنوه وربما سكن بعضهم الفسطاط فلمـا أنشأ الامير أبو العباس أحمد بن طولون القطائع بجانب العسكر سكن فيها واتخذها الامراء من بعده منزلا الى أن انقرضت دولة بني طولون فصار أمراء مصر من بعد ذلك ينزلون بالعسكر خارج الفسطاط وما زالوا على ذلك حتى قدمت عساكر الامام المعز لدين الله أبي تميم معد الفاطمي مع كاتبه جوهر القائد فبنى القاهرة وصارت خلافة واستمر سكنى الرعية بالفسطاط وبلغ من وفور العمارة وكثرة الخلائق ما أربى على عامة مدن المعمور حاشا بغداد وما زال على ذلك حتي تغلب الفرنج على سواحل البــلاد الشامية ونزل مرى ملك الفرنج بجموعه الكثيرة على بركة الحبش يريد الاستيلاء على مملكة مصر وأخذ الفسطاط والقاهرة فعجز الوزير شاور بن مجير السعدى عن حفظ البلدين معاً فأمر الناس باخلاء مدينة الفسطاط واللحاق بالقاهرة للامتناع من الفرنج وكانت القاهرة اذ ذاك من الحصانة والامتناع بحيث لا ترام فارتحل الناس من الفسطاط وساروا بأسرهم الى القاهرة وأمر شاور فألقى العبيد النار في الفسطاط فلم تزل به بضعا وخمسين يوما حتي احترقت أكثر مساكنه فلما رحل مري عن القاهرة واستولى شيركوه على الوزارة تراجع الناس الى الفسطاط ورموا بعض شعثه ولم يزل في نقص وخراب الى يومنا هذا وقد صار الفسطاط يعرف في زمننا بمدينــة مصر والله أعلم

﴿ ذكر ما كان عليه موضع الفسطاط قبل الاسلام الى أن اختطه المسلمون مدينة ﴾

اعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ويقيم فيه ما شاء ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية وكان هذا الحصن مطلا على النيل وتصل السفن في النيــل الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد ومنه ركب المقوقس فى السفن فى النيل من بابه الغربي حين غلبه المسلمون على الحصن المذكور وصار فيه الى الجزيرة التي تجاه الحصن

وهي التي تعرف اليوم بالروضة قبالة مصر وكان مقياس النيل بجانب الحصن * وقال ابن المتوج وعمود المقياس موجود في زقاق مسجد ابن النعمان قلت وهو باق الى يومنا هذا أعني سنة عشرين وثمانمائة وكان هذا الحصن لا يزال مشحونا بالمقاتلة وسيرد في هذا الكتاب خبره ان شاء الله تعالى وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهي الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصاري فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة وبجانب الحصن فيما بين الكروم التي كانت بجانبه وبين الجرف الذي يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان يعرف في أوائل الاسلام بالحمراء وعرف الآن بخط قناطر السباع والسبع سقايات وبقى بالحمراء عدة من الديارات الى أن هدمت في سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون على ما ذكر في هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى فلما افتتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية الفتح الاول نزل بجوار هذا الحصن واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق فصار المسلمون يوقفون هناك دوابهم ثم اختطوا فيه المساكن شيئاً بعد شئ وصار ساحل البلد حيث الموضع الذى يقال له اليوم فى مصر المعاريج مارا الى الكوم الذى على يسرة الداخل من باب مصر بحد الكبارة وفى موضع هذا الكوم كانت الدور المطلة على النيل ويمر الساحل من باب مصر المذكور الى حيث بستان بن كيسان الذى يعرف اليوم ببستان الطواشي في أول مراغة مصر وجميع الاماكن التى تعرف اليوم بمراغة مصر وبالجرف الى الخليج عرضاً ومن حيث قنطرة السد الى سوق المعاريج طولا كان غامراً بماء النيل الى أن انحسر عنه ماء النيل بعد سنة ستمائة من سني الهجرة فصار رملة ثم اختط فيه الامراء مما يلي النيل آدرا عندما عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة واختط بعضه شونا الى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون جامعه المعروف بالجامع الجديد الناصري ظاهر مصر فعمر ماحوله وقد كان عند فتح مصر سائر المواضع التي من منشأة المهراني الى بركة الحبش طولا ومن ساحل النيل بموردة الحلفاء وتجاه الجامع الجديد الى سوق المعاريج وما على سمته الى تجاه المشهد الذي يقال له مشهد الرأس وتسميه العامة اليوم مشهد زين العابدين كلها بحرا لا يحول بين الحصن والجامع وما على سمتهما الى الحمراء الدنيا التي منها اليوم خط قناطر السباع وبين جزيرة مصر التي تعرف اليوم بالروضة شئ سوى ماء النيل وجميع ما فى هذه المواضع من الابنية انكشف عنه النيل قليلا قليلا واختط على ما يتبين لك في هذا الكتاب

﴿ ذكر الحصن الذي يعرف بقصر الشمع ﴾

اعلم أن هـذا القصر احدث بعـد خراب مصر على يد بخت نصر وقد اختلف فى الوقت الذي بني فيه ومن أنشأه من الملوك فذكر الواقدى أن الذى بناه اسمه الريان بن الوليـد ابن ارسلاوس وكان هـذا القصر يوقد عليـه الشمع في رأس كل شهر وذلك انه اذا حلت الشمس في برج من البروج اوقد في تلك الليلة الشمع على رأس ذلك القصر فيعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس انتقلت من البرج الذى كانت فيه الى برج آخر غيره ولم يزل القصر على حاله الى أن خربت مصر زمن بخت نصر بن نيروز الـكلداني فأقام خرابا خمسمائة سنة ولم يبق منـه الا أثره فقط فلما غلب الروم على مصر وملكوها من أيدى اليونانيين ولي مصر من قبلهم رجل يقال له ارجاليس بن مقراطيس فبني القصر على ما وجد من أساسه وقال ابن سعيد وصارت مصر والشام بعد بخت نصر في مملكة الفرس فوليها منهم كشرجوش الفارسى باني قصر الشمع وبعده طخارست الطويل الولاية وتوالت بعد نواب الفرس الى ظهور الاسكندر وقال غيره ان الذى بناه طخشاشت أحد ملوك الفرس عنـد ماسار لمحاربة أهل مصر فلما غلب قسطو ملك مصر الذى يعرف بفرعون سابان وفر منه الى مقدونيـة غلب على ملك مصر واستولى عليها وبنى للفرس قصرا وجعل فيـه بيت نار على شاطئ النيل الشرقي وعرف بقصر الشمع لانه كان له باب يقال له باب الشمع وجعل في القصر بيت نار وهو باق * وقال ابن عبد الحـكم عن الليث بن سعد وكانت الفرس قد أسست بناء الحصن الذى يقال له باب اليون وهو الحصن الذى بفسطاط مصر اليوم فلما انكشفت جموع فارس عن الروم وأخرجتهـم الروم من الشام أتمت بنـاء ذلك الحصن وأقامت به فلم تزل مصر في ملك الروم حتى فتحها الله تعالى على المسلمين قال وكان أبو الاسود نصر بن عبـد الجبار يقولها بالميم يعني باب اليوم ويقال انما سمي كذا لانهم كانوا يقولون من يقاتل اليوم * وقال القضاعي ذكر الحصن المعروف بقصر الشمع يقـال ان فارس لما ظهرت على الروم وملكت عليهم الشـام وملكت مصر بدأت ببناء هـذا القصر وبنت فيـه هيكلا لبيت النار ولم يتم بناؤه على أيديهم الى أن ظهرت الروم عليهم فتممت بناءه وحصنته ولم تزل فيـه الى حين الفتح وهيكل النار هو القبـة المعروفة اليـوم بقبة الدخان وبحضرتها مسجد معلق احدثه المسلمون * وقال أبو عبيد البكرى باب اليون بمصر ان كان عربيا فانه مثل يوم ويوح مما فاؤه ياء وعينه واو وقد يجوز أن يكون فعلا من بين وهو اسم موضع على مذهب أبي الحسن في فعل من البيع بوع قال وليست الالف واللام فيه للتعريف فعلى هذا يجب أن تثبت في الرسم وقال أبو صخر

وحلوا بها مى ارضنا وتبدلوا * بمكة باب اليون والربط بالعصب

والرواية في شعر كثير عزة في قوله

جرى بين باب البون والعصب * دونه رياح اشفت بالنقى واشمت

بالباء وبفتح النون غير مجرور للعجمة على أن همزته مقطوعة وصلها للضرورة وقال الحازمى باب البون بالباء اسم مدينة مصر فتحها المسلمون وسموها الفسطاط وقال عبد الملك بن هشام بابليون المنسوب اليه مصر هو بابليون بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وان من ولده عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبا وهو الملك على مصر لما قدم اليها ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه والقبط تسمي عمرا هذا طوطيس ومن ولده حلوان ابن بابليون بن عمرو بن امرئ القيس وبه سميت حلوان * وقال القاضى القضاعى في ظاهر الفسطاط القصر المعروف بباب ليون بالشرف ليون اسم بلد مصر بلغة السودان والروم وقد بقيت من بنائه بقية مبنية بالحجارة على طرف الجبل بالشرف وعليه اليوم مسجد قال المؤلف فهذا كما ترى صريح في أن قصر باب اليون غير قصر الشمع فان قصر الشمع في داخل الفسطاط وقصر باب اليون هذا عند القضاعي على الجبل المعروف بالشرف والشرف خارج الفسطاط وهو خلاف ما قاله ابن عبد الحكم في كتاب فتوح مصر والله أعلم * ويقال ان في زمن ناحور بن شاروع وهو الثامن عشر من آدم ملك مصر رجل اسمه افطوطس مدة اثنتين وثلاثين سنة وانه أول من اظهر علم الحساب والسحر وحمل كتب ذلك من بلاد الكلدانيين الى مصر وفي ذلك الزمان بنيت بابليون على بحر النيل بمصر وذلك لتمام ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعين للعالم وقال ابن سعيد في كتاب المغرب وأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه وهذا وهم من ابن سعيد فان فسطاط عمرو انما كان مضروبا عند درب حمام شمول بخط الجامع هكذا هو بخط الشريف محمد بن أسعد الجواني النسابة وهو أقعد بخطط مصر وأعرف من ابن سعيد وأما موضع الجامع فكان كروما وجنانا وحاز موضعه قيسبة التجيبي ثم تصدق به على المسلمين فعمل المسجد وستقف على هذا ان شاء الله تعالى فى ذكر جامع عمرو عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب * وقال ابن المتوج خط قصر الشمع هذا الخط يعرف بقصر الشمع وفيه قصر الروم وفيه ازقة ودروب قال وكنيسة المعلقة بمصر بباب القصر وهو قصر الروم * وقال ابن عبد الحكم وأقر عمرو بن العاص القصر لم يقسمه ووقفه * وقال أبو عمرو الكندى في كتاب الامراء وقد ذكر قيام على بن محمد بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن أبي طالب وطروق المسجد في امارة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة على مصر وورد كتاب أبي جعفر المنصور على يزيد بن حاتم يأمره بالتحول من

العسكر الى الفسطاط وأن يجعل الديوان في كنائس القصر وذلك في سنة ست وأربعين ومائة والله أعلم

ذكر حصار المسلمين للقصر وفتح مصر

اختلف الناس في فتح مصر فقال محمد بن اسحق وأبو معشر ومحمد بن عمرو الواقدي ويزيد بن أبي حبيب وأبو عمرو الكندي فتحت سنة عشرين وقال سيف بن عمر فتحت سنة ست عشرة وقيل فتحت سنة ست وعشرين وقيل سنة احدى وعشرين وقيل سنة اثنتين وعشرين والاول اصح وأشهر * قال ابن عبد الحكم لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية قام اليه عمرو بن العاص فخلا به فقال ياأمير المؤمنين ائذن لي ان أسير الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهي أكثر الارض أموالا وأعجز عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة وقال له عمر سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعا ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيأ من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك عمرا الكتاب اذ هو برفح فتخوف عمرو ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش فسأل عنها فقيل انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو لمن معه ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى قال فان أمير المؤمنين عهد الى وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن ارجع ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله ويقال بل كان عمرو بفلسطين فتقدم عمرو بأصحابه الى مصر بغير اذن فكتب فيه الى عمر رضى الله عنه فكتب اليه عمر وهو دون العريش فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش فقرأه فاذا فيه من عمر بن الخطاب الى العاصى بن العاصي أما بعد فانك سرت الى مصر ومن معك وبها جموع الروم وانما معك نفر يسير ولعمرى لو ثكل بك ما سرت بهم فان لم تكن بلغت مصر فارجع فقال عمرو الحمد لله أية أرض هذه قالوا من مصر فتقدم كما هو ويقال بل كان عمرو في جنده على قيسارية مع من كان بها من اجناد المسلمين وعمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ ذاك بالجابية فكتب سرا فاستأذن أن يسير الى

مصر وأمر أصحابه فتنحوا كالقـوم الذين يريدون أن يتنحوا من منزل الى منزل قريب ثم سار بهم ليلا فلما فقده امراء الاجناد استنكروا الذى فعل ورأوا أن قد غدر فرفعوا ذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليـه عمر الى العاصي ابن العاصى أما بعد فانك قد غررت بمن معك فان ادركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع وان ادركك وقد دخلت فامض واعلم أنى ممدك * ويقال ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العـاص بعـد ما فتح الشام أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به وبعث به مع شريك ابن عبدة فندبهم عمرو فأسرعوا الى الخروج مع عمرو ثم ان عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على عمر بن الخطاب فقال عمر كتبت الى عمرو بن العاص يسير الى مصر من الشام فقال عثمان يا أمير المؤمنين ان عمرا لجرئ وفيه اقدام وحب للامارة فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جمـاعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لايدري تكون أم لافندم عمر على كتابه الى عمرو واشفق مما قال عثمان فكتب اليه أن أدركك كتابي قبل أن تدخل الى مصر فارجع الى موضعك وان كنت دخلت فامض لوجهك فلما بلغ المقـوقس قدوم عمرو بن العاص الى مصر توجه الى موضع الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعيرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس وأقبل عمرو حتى اذا كان بجبل الجلال نفرت معه راشـدة وقبائل من لخم فتوجه عمرو حتى اذا كان بالعريش أدركه النحر فضحى عن أصحابه يومئذ بكبش وتقدم فكان أول موضع قوتل فيـه الفرما قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منـذ توجه من قيسارية الى أن فرغ من حربه وكان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له ابو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ثم توجه عمرو لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواصر فسمع رجل من لخم نفرا من القبط يقول بعضهم لبعض ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقـدمون على جموع الروم وانما هم في قلة من الناس فأجابه رجل منهم فقال إن هؤلاء القوم لا يتوجهون الى احد الاظهروا عليه حتى يقتلوا خيرهم وتقدم عمرو لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتـلوه بها نحوا من الشهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع الا بالامر الخفيف حتى اتى ام دنين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف وقيل بل أمده باثنى عشر ألفا فوصلوا اليه ارسالا يتبع بعضهم بعضا فكان فيهم أربعة آلاف عليهم اربعة الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم

احاط المسلمون بالحصن واميره يومئذ المندقور الذي يقال له الاعيرج من قبل المقوقس ابن قرقت اليوناني وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو في سلطان هرقل غير أنه كان حاضر الحصن حين حاصره المسلمون فقاتل عمرو بن العاص من بالحصن وجاء رجل الى عمرو فقال اندب معي خيلا حتى آتي من ورائهم عند القتال فأخرج معه خمسمائة فارس عليهم خارجة بن حذافة في قول فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل قبل الصبح وكانت الروم قد خندقوا خندقا وجعلوا له أبوابا وبثوا في افنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين أصبحوا وخرج خارجة من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن وكانوا قد خندقوا حوله فنزل عمرو على الحصن وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم وقيل انه لما أبطأ الفتح على عمرو كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك فأمده بأربعة آلاف رجل على كل الف رجل منهم مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل بل خارجة بن حذافة لايعدون مسلمة وقال عمر اعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة وقيل قدم الزبير في اثنى عشر ألفا وان عمرا لما قدم من الشام كان في عدة قليلة فكان يفرق اصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم فلما انتهى الى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت وانما معك من أصحابك كذا وكذا فلم يخطئوا برجل واحد فأقام عمرو على ذلك اياما يغدو في السحر فيصف اصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح فبينما هو على ذلك اذ جاءه خبر الزبير بن العوام انه قدم فى اثنى عشر ألفا فتلقاه عمرو ثم أقبلا يسير ان ثم لم يلبث الزبير أن ركب ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق والح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق ودخل عمرو الى صاحب الحصن فتناظرا في شيء مما هم فيه فقال عمرو أخرج وأستشير أصحابي وقد كان صاحب الحصن أوصى الذي على الباب اذا مر به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب فقال له قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو الى صاحب الحصن فقال له اني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت فقال العلج في نفسه قتل جماعة أحب الى من قتل واحد وأرسل الى الذى كان أمره بما أمره به من قتل عمرو أن لايتعرض له رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم فخرج عمرو وعبادة بن الصامت في ناحية يصلي وفرسه عنده فرآه قوم من الروم فخرجوا اليه وعليهم حلية وبزة فلما دنوا منه سلم من صلاته ووثب على فرسه ثم حمل عليهم فلما رأوه ولوا راجعين فاتبعهم فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم وهو لايلتفت اليه حتى دخلوا الحصن ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوا من متاعهم حتى رجع الى موضعه الذى كان به فاستقبل الصلاة وخرج الروم الى متاعهم يجمعونه فلما ابطأ

الفتح على عمرو وقال الزبير اني أهب الله نفسي أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد فأمرهم اذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر قال وقد سمعت في فتح القصر وجها آخر هو أن المسلمين لما حصروا باب اليون كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس فقاتلوهم شهرا فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم وأمروا بقطع الجسر وذلك في جرى النيل ويقال ان الاعيرج تخلف في الحصن بعد المقوقس وقيل خرج معهم فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى في أيدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الامر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا ان كان الامر مخالفا لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لاصحابه أترون انهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك في دينهم وانما اراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين فرد عليهم عمرو مع رسله انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما أن دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم

ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لازالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقووا على الخروج من موضعهم فرد اليهم المقوقس رسله ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة اشبار وأمره أن يكون متكلم القوم ولا يجيبهم الى شئ دعوه اليه الا احدى هذه الثلاث خصال فان أمير المؤمنين قد تقدم الى في ذلك وأمرني ان لا أقبل شيأ سوى خصلة من هذه الثلاث خصال وكان عبادة اسود فلما ركبوا السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده وقال نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني فقالوا جميعا ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الامير دوننا بما أمره وأمرنا أن لانخالف رأيه وقوله قال وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم وانما ينبغي أن يكون هو دونكم قالوا كلا انه وان كان اسود كما ترى فانه من افضلنا موضعا وافضلنا سابقة وعقلا ورأيا وليس ينكر السواد فينا فقال المقوقس لعبادة تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك وان اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة فتقدم عليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من اصحابي ألف رجل اسود كلهم أشد سوادا مني وافظع منظرا ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي وأنا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا وكذلك اصحابي وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب الاستكثار منها الا أن الله عز وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا وما يبالي احدنا ان كان له قنطار من ذهب ام كان لا يملك الا درهما لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لايملك الا ذلك كفاه • وان كان له قنطار من ذهب انفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده • ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لاتكون همة احدنا من الدنيا الا مايمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب عندى من منظره ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها ثم اقبل

المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم من لقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم لم تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرا وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين ايديكم ونحب تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولا ميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا قوام لكم به فقال عبادة بن الصامت ياهذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ماهذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا من آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وما شيء أقر لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولانها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عز وجل قال لنا في كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى اهله وولده وليس لاحد مناهم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا واما قولك انا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث فاختر ايتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك امرني الامير وبها أمره امير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الينا اما ان أجبتم الى الاسلام الذى هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته امرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وان أبيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام ابدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم اذ كنتم في ذمتنا

وكان لكم به عهد علينا وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا أو نصيب ما نريد منكم هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم فقال المقوقس هذا ما لا يكون ابدا ما تريدون الا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا فقال له عبادة هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت فقال المقوقس افلا تجيبونا الى خصلة غير هذه الثلاث خصال فرفع عبادة يديه الى السماء فقال لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شئ مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم فالتفت المقوقس عند ذلك الى أصحابه فقال قد فرغ القوم فما ترون فقالوا أو يرضى أحد بهذا الذل أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابدا أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه وأما ما ارادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون فقال عبادة واصحابه لا فقال المقوقس عند ذلك لاصحابه اطيعوني وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوا اليها طائعين لتجيبنهم الى ما هو أعظم كارهين فقالوا واي خصلة نجيبهم اليها قال اذاً أخبركم أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به وأما قتالهم فانا أعلم انكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة قالوا فنكون لهم عبيدا ابدا قال نعم تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا من آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا انتم واهاليكم وذراريكم قالوا فالموت أهون علينا وامروا بقطع الجسر من الفسطاط وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم كثير فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر وانجرت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون يراقبونهم وقد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المدن والقرى والمقوقس يقول لاصحابه ألم اعلمكم وأخافه عليكم ما تنتظرون فوالله لتجيبنهم الى ما أرادوا طوعا أو لتجيبنهم الى ما هو أعظم منه كرها فأطيعوني من قبل أن تندموا فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه وأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص اني لم ازل حريصا على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال التي ارسلت الي بها فأبى على من حضرني من الروم والقبط فلم يكن لي أن افتات عليهم فى اموالهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم ورجعوا الى قولي فأعطني امانا اجتمع انا وانت انا في نفر من اصحابي وانت في نفر من

اصحابك فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعا وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار عمرو اصحابه في ذلك فقالوا لا تجيبهم الى شئ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيأ وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه فقال عمرو قد علمتم ما عهد الي امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد الي فيها اجبتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض لهم على جميع من بمصر اعلاها واسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين او اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة ايام مفترضة عليهم وان لهم ارضهم واموالهم لا تعرض لهم في شئ منها فشرط ذلك كله على القبط خاصة واحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من احصى يومئذ بمصر اعلاها واسفلها من جميع القبط فيما احصوا وكتبوا ورفعوا اكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة * وقال ابن لهيعة عن يحي ابن ميمون الحضرمي لما فتح عمرو مصر صالح عن جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي فأحصوا بذلك على دينارين دينارين فبلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف قال وشرط المقوقس للروم ان يخيروا فمن احب منهم ان يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من ارض مصر كلها ومن اراد الخروج منها الى ارض الروم خرج وعلى ان للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم ويعلمه ما فعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم كتابا يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول فى كتابه انما اتاك من العرب اثنا عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال واحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك اكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم فى حال القبط اذلاء فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كا كلة ناهضهم القتال ولا يكن لك رأي غير ذلك وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا الى جماعة الروم

فقال المقوقس لما اتاه كتاب ملك الروم والله اعلم انهم على قلتهم وضعفهم اقوى واشد منا على قوتنا وكثرتنا ان الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك انهم قوم الموت احب الى احدهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل يتمنى ان لا يرجع الى اهله ولا بلده ولا ولده ويرون ان لهم اجرا عظيما فيمن قتلوه مناويقولون انهم ان قتلوا دخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة الا قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم واعلموا معشر الروم والله اني لا اخرج مما دخلت فيه ولا صالحت العرب عليه واني لاعلم انكم سترجعون غدا الى قولي ورأيي وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني وذلك اني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ثم أقبل المقوقس الى عمرو فقال له ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب الىّ والى جماعة الروم ان لا نرضى بمصالحتك وامرهم بقتالك حتي يظفروا بك او تظفر بهم ولم اكن لاخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه وعاقدتهم وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب اليك أن تعطيني ثلاث خصال لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني مالزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاقدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتي تجعلهم فيأ وعبيداً فانهم أهل ذلك لانى نصحتهم فاستغشوني ونظرت لهم فاتهموني وأما الثالثة أطلب اليك ان انا مت أن تأمرهم ان يدفنوني بجسر الاسكندرية فأنعم له عمرو بذلك واجابه الي ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعا ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا وصارت لهم القبط اعوانا كما جاء في الحديث وقال ابن وهب في حديثه عن عبد الرحمن بن شريح فسار عمرو بمن معه حتي نزل على الحصن فحاصرهم حتي سألوه أن يسير منهم بضعة عشر أهل بيت ويفتحوا له الحصن ففعل ذلك ففرض عليهم عمرو لكل رجل من اصحابه دينارا وجبة وبرنساً وعمامة وخفين وسألوه ان يأذن لهم ان يهيئوا له ولاصحابه صنيعا ففعل وأمر عمرو اصحابه فتهيئوا ولبسوا البرود ثم اقبلوا فلما فرغوا من طعامهم سألهم عمرو كم انفقتم قالوا عشرين الف دينار قال عمرو لا حاجة لنا بصنيعكم بعد اليوم أدوا الينا عشرين الف دينار فجاءه النفر من القبط فاستأذنوه الى قراهم وأهليهم فقال لهم عمرو كيف رأيتم امرنا قالوا لم نر الا حسنا فقال الرجل الذى قال فى المرة الاولى انكم لن تزالوا تظهرون على كل من لقيتم حتي تقتلوا خيركم رجلا فغضب عمرو وامر به

فطلب اليه اصحابه واخبروه انه لا يدرى ما يقول حتى خلصوه فلما بلغ عمرا قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ارسل فى طلب ذلك القبطى فوجدوه قد هلك فعجب عمرو من قوله ويقال ان عمرو بن العاص قال فلما طعن عمر بن الخطاب قلت هو ما قال القبطى فلما حدثت انه انما قتله ابولؤلؤة رجل نصرانى قلت لم يعن هذا انما عنى من قتله المسلمون فلما قتل عثمان عرفت ان ما قال الرجل حق فلما فرغ القبط من صنيعهم امر عمرو بن العاص بطعام فصنع لهم وأمرهم أن يحضروا لذلك فصنع لهم الثريد والعراق وأمر اصحابه بلباس الاكسية واشتمال الصماء والقعود على الركب فلما حضرت الروم وضعوا كراسي الديباج فجلسوا عليها وجلست العرب الى جوانبهم فجعل الرجل من العرب يلتقم اللقمة العظيمة من الثريد وينهش من ذلك اللحم فيتطاير على من الى جنبه من الروم فبشعت الروم ذلك وقالت اين أولئك الذين كانوا أتونا قبل فقيل لهم أولئك اصحاب المشورة وهؤلاء أصحاب الحرب * وقال الكندى وذكر يزيد بن أبي حبيب أن عدد الجيش الذين كانوا مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة وذكر عبد الرحمن بن سعيد بن مقلاص أن الذين جرت سهمانهم في الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا وثلثمائة بعد من أصيب منهم في الحصار بالقتل والموت ويقال ان الذين قتلوا في هذا الحصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن * وذكر القضاعى أن مصر فتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وقيل فتحت سنة ست عشرة وهو قول الواقدى وقيل فتحت والاسكندرية سنة خمس وعشرين والاكثر على انها فتحت قبل عام الرمادة وكانت الرمادة في آخر سنة سبع عشرة وأول ثمان عشرة

﴿ ذكر ماقيل في مصر هل فتحت بصلح أو عنوة ﴾

وقد اختلف في فتح مصر فقال قوم فتحت صلحا وقال آخرون انما فتحت عنوة فأما الذين قالوا كان فتح مصر بصلح فان حسين بن شفي قال لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية بقي من الاساري بها ممن بلغ الخراج وأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمهم فكان أكثر المسلمين يريد قسمها فقال عمرو لا أقدر على قسمها حتى اكتب الى أمير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بفتحها وشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمها فكتب اليه عمر رضي الله عنه لاتقسمها وذرهم يكون خراجهم فيأ للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر كلها صلحا بفريضة دينارين دينارين الا انه يلزم بقدر مايتوسع فيه من الارض والزرع الا الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر مايرى من وليهم لان الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة * وقال الليث عن يزيد بن أبي حبيب مصر كلها صلح الا الاسكندرية فانها فتحت عنوة * وقال عبد الله بن أبي جعفر حدثني رجل

ممن أدرك عمرو بن العاص قال للقبط عهد عند فلان وعهد عند فلان فسمى ثلاثة نفر وفي رواية ان عهد أهل مصر كان عند كبرائهم وفي رواية سألت شيخا من القدماء عن فتح مصر قلت له فان ناسا يذكرون انه لم يكن لهم عهد فقال مايبالي أن لا يصلي من قال انه ليس لهم عهد فقلت فهل كان لهم كتاب فقال نعم كتب ثلاثة كتاب عند طلما صاحب اخنا وكتاب عند قرمان صاحب رشيد وكتاب عند يحنس صاحب البرلس قلت كيف كان صلحهم قال ديناران على كل انسان جزية وأرزاق المسلمين قلت فتعلم ما كان من الشروط قال نعم ستة شروط لايخرجون من ديارهم ولا تنزع نساؤهم ولا كفورهم ولا أراضيهم ولا يزاد عليهم * وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي جمعة مولى عقبة قال كتب عقبة بن عامر الى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله ارضا يسترفق بها عند قرية عقبة فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع فقال له مولى له كان عنده أنظرا صلحك الله أرضا صالحة فقال له عقبة ليس لنا ذلك ان في عهدهم شروطا ستة لايؤخذ من أنفسهم شيء ولا من نسائهم ولا من أولادهم ولا يزاد عليهم ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم وأنا شاهد لهم بذلك * وعن يزيد بن أبي حبيب عن عوف بن حطان انه كان لقريات من مصر منهن أم دنين وبلهيت عهد وان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع بذلك كتب الى عمرو يأمره أن يخيرهم فان دخلوا في الاسلام فذاك وان كرهوا فارددهم الى قراهم وقال يحيى بن أيوب وخالد بن حميد ففتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهرت الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت فانه كان للروم جمع فظاهروا الروم على المسلمين فلما ظهر عليها المسلمون استحلوها وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط كله قوة للمسلمين لايجعلون فيأ ولا عبيدا ففعلوا ذلك الى اليوم * وقال آخرون بل فتحت مصر عنوة بلا عهد ولا عقد قال سفيان بن وهب الخولاني لما افتتحنا مصر بغير عهد ولا عقد قام الزبير بن العوام فقال اقسمها ياعمرو بن العاص فقال عمرو والله لا أقسمها فقال الزبير والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فقال عمرو والله لا أقسمها حتى اكتب الى أمير المؤمنين فكتب الى عمر فكتب اليه عمر أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة وصولح الزبير على شيء أرضى به وقال ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة ان مصر فتحت عنوة وعن عبد الرحمن بن زياد بن انعم قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد منهم أبي يحدثنا عن أبيه وكان فيمن شهد فتح مصر وعن أبي الاسود عن عروة ان مصر فتحت عنوة وعن عمرو بن العاص انه قال لقد قعدت مقعدي هذا وما لاحد من قبط

مصر على عهد ولا عقد الا أهل انطابلس كان لهم عهـد يوفى به ان شئت قبلت وان شئت خمست وان شئت بعت وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أن عمرو بن العاص فتح مصر بغير عهـد ولا عقد وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه حبس درها وضرعها أن يخرج منه شئ نظرا للاسلام وأهله * وعن زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لاهل مصر عهد فمن أسلم منهم اقامه ومن أقام منهم قومه وكتب حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز يسأله أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم فسأل عمر عراك ابن مالك فقال عراك ما سمعت لهم بعهد ولا عقد وانما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد فكتب عمر الى حيان أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم وقال يحيي ابن عبد الله بن بكير خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الاسكندرية في سفينة فاحتاج الى رجل يجذف فسخر رجلا من القبط فكلم في ذلك فقـال انما هم بمنزلة العبيد ان احتجنا اليهم وقال ابن لهيعة عن الصلت بن أبي عاصم انه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان ابن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهـد ولا عقد وعن عبيد الله بن أبي جعفر أن كاتب حيان حدثه انه احتيج الى خشب لصناعة الجزيرة فكتب حيان الى عمر بن عبـد العزيز يذكر ذلك له وانه وجد خشبا عند بعض أهل الذمة وانه كره أن يأخذها منهم حتي يعلمه فكتب اليه عمر خذها منهم بقيمة عدل فاني لم أجد لاهل مصر عهدا أفي لهم به وقال عمر ابن عبد العزيز لسالم أنت تقول ليس لاهل مصر عهد قال نعم وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب في رهبان يترهبون بمصر فيموت أحدهم وليس له وارث فكتب اليه عمر أن من كان منهم له عقب فادفع ميراثه الى عقبه فان لم يكن له عقب فاجعل ماله في بيت مال المسلمين فان ولاءه للمسلمين * وقال ابن شهاب كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه جميعها ذمة وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم الى اليوم واشترى الليث بن سعد شيأ من أرض مصر لانه كان يحدث عن يزيد بن أبي حبيب ان مصر صلح وكان مالك بن أنس ينكر على الليث ذلك وانكر عليه أيضا عبد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد لان مصر عندهم كانت عنوة

﴿ ذكر من شهد فتح مصر من الصحابة رضى الله عنهم ﴾

قال ابن عبد الحكم وكان من حفظ من الذين شهدوا فتح مصر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم وممن لم يكن له برسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة الزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وكان امير القوم وعبد الله بن عمرو وخارجة ابن حذافة العدوي وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن ابي العاص السهمي والمقداد بن الاسود وعبد الله بن ابي سعد بن ابي سرح العامري ونافع بن عبد قيس الفهري ويقال بل

هو عقبة بن نافع وابو عبـد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري وابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عبدة وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة وورد ان مولى عمرو بن العاص وكان حامل لواء عمرو بن العاص وقد اختلف في سعد بن ابي وقاص فقيل انما دخلها بعد الفتح وشهد الفتح من الانصار عبادة بن الصامت وقد شهد بدرا وبيعة العقبة ومحمد بن مسلمة الانصارى وقد شهد بدرا وهو الذى بعثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مصر فقاسم عمرو بن العاص ماله وهو أحد من كان صعد الحصن مع الزبير بن العوام ومسلمة بن مخلد الانصارى يقال له صحبة وأبو أيوب خالد بن زيد الانصاري وأبو الدرداء عويمر بن عامر وقيل عويمر بن زيد ومن أحياء القبائل ابو نصرة جميل بن نصرة الغفارى وأبو ذر جندب بن جنادة الغفارى وشهد الفتح مع عمرو بن العاص وهبيب بن معقل واليه ينسب وادى هبيب الذى بالمغرب وعبـد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى وكعب بن ضـبة العبسي ويقال كعب بن يسار بن ضبة وعقبة بن عامر الجهني وهو كان رسول عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص حين كتب اليه يأمره أن يرجع ان لم يكن دخل أرض مصر وأبو زمعة البلوى وبرح بن حسكل ويقال برح بن عسكر وشهد فتح مصر واختط بها .وجنادة بن أبي أمية الازدى وسفيان بن وهب الخولانى وله صحبة ومعاوية بن خديج السكندى وهو كان رسول عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية وقد اختلف فيه فقال قوم له صحبة وقال آخرون ليست له صحبة وعامر مولى جمل الذى يقال له عامر جمل شهد الفتح وهو مملوك وعمار بن ياسر ولكن دخل بعد الفتح في أيام عثمان وجهه اليها في بعض أموره قال ابن عبد الحكم منهم من اختط بالبلد فذكرنا خطته ومنهم من لم يذكر له خطة قال فاختط عمرو بن العاص داره التي عند باب المسجد بينهما الطريق وداره الأخرى اللاصقة الى جنبها وفيها دفن عبد الله بن عمرو فيما زعم بعض مشايخ البلد لحدث كان يومئذ في البلد والحمام الذى يقال له حمام الفار وانما قيل له حمام الفـار لان حمامات الروم كانت ديماسات كبارا فلما بني هذا الحمام ورأوا صغره قالوا من يدخل هذا هذا حمام الفار

(ذكر السبب في تسمية مدينة مصر بالفسطاط)

قال ابن عبـد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو انى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط. قال وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى

والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن اركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط قال وانما سميت الفسطاط لان عمرو بن العاص لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو لقد تحرم منا بمتحرم فأمر به فأقر كما هو وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا أين ننزل قالوا الفسطاط لفسطاط عمرو الذى كان خلفه وكان مضروبا في موضع الدار التي تعرف اليوم بدار الحصار عند دار عمرو الصغيرة* قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى كان فسطاط عمرو عند درب حمام شمول بخط الجامع وقال ابن قتيبة في كتاب غريب الحديث في حديث النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط يرويه سويد بن عبد العزيز عن النعمان بن المنذر عن مكحول عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم والفسطاط المدينة وكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط وقال البكرى الفسطاط بضم أوله وكسره واسكان ثانيه اسم لمصر ويقال فسطاط وبسطاط قال المطرزى وفصطاط وفستاد وبكسر أوائل جميعها فهى عشر لغات وقال ابن قتيبة كل مدينة فسطاط وذكر حديث عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط وأخبرنى أبو حاتم عن الاصمعي أنه قال حدثني رجل من بنى تميم قال قرأت في كتاب رجل من قريش هذا ما اشترى فلان ابن فلان من عجلان مولى زياد اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط يريد البصرة ومنه قول الشعبي في الآبق اذا أخذ في الفسطاط عشرة واذا أخذ خارجا عن الفسطاط أربعون وأراد ان يد الله على أهل الامصار وأن من شذ عنهم وفارقهم في الرأى فقد خرج عن يد الله وفي ذلك آثار والله أعلم

(ذكر الخطط التي كانت بمدينة الفسطاط)

اعلم ان الخطط التي كانت بمدينة فسطاط مصر بمنزلة الحارات التي هى اليوم بالقاهرة فقيل لتلك في مصر خطة وقيل لها في القاهرة حارة* قال القضاعي ولما رجع عمرو من الاسكندرية ونزل موضع فسطاطه انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمي الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المغافرى وكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك في سنة احدى وعشرين* (خطة أهل الراية) أهل الراية جماعة من قريش والانصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس بن بغيض وحرش من بنى كنانة وليث بن بكر والعتقاء منهم الا أن منزل العتقاء في غير الراية وانما سموا أهل الراية ونسبت الخطة اليهم

لانهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها الى أحد فقال يكون موقفكم تحتها فكانت لهم كالنسب الجامع وكان ديوانهم عليها وكان اجتماع هذه القبائل لما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاية بينهم وهذه الخطة محيطة بالجامع من جميع جوانبه ابتدؤا من المصف الذى كانوا عليه في حصارهم الحصن وهو باب الحصن الذى يقال له باب الشمع ثم مضوا بخططهم الى حمام الفار وشرعوا بغربيها الى النيل فاذا بلغت الى النحاسين فالجانبان لاهل الراية الى باب المسجد الجامع المعروف بباب الوراقين ثم يسلك على حمام شمول وفي هذه الخطة زقاق القناديل الى تربة عفان الي سوق الحمام الى باب القصر الذى بدأنا بذكره * (خطة مهرة) بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير * وخطة مهرة هذه قبلى خطة الراية واختطت مهرة أيضاً على سفح الجبل الذى يقال له جبل يشكر مما يلي الخندق الى شرقي العسكر الى جنان بني مسكين ومن جملة خطة مهرة الموضع الذى يعرف اليوم بمساطب الطباخ واسمه حمد ويقال ان الخطة التى لهم قبلي الراية كانت حوزالهم يربطون فيها خيلهم اذا رجعوا الى الجمعة ثم انقطعوا اليها وتركوا منازلهم بيشكر * (خطة تجيب) وتجيب هم بنو عدى وسعد ابنى الاشرس ابن شبيب بن السكن بن الاشرس بن كندة فمن كان من ولد عدى وسعد يقال لهم تجيب وتجيب أمهم وهذه الخطة تلى خطة مهرة وفيها درب المنصوصة آخره حائط من الحصن الشرقي * (وخطط لخم في موضعين) فمنها خطة لخم بن عدى بن مرة بن أدد ومن خالطها من جذام فابتدأت لخم بخطتها من الذى انتهت اليه خطة الراية وأصعدت ذات الشمال وفي هذه الخطة سوق بربر وشارعه مختلط فيما بين لخم والراية ولهم خطتان أخريان احداهما منسوبة الى بنى رية بن عمرو بن الحارث بن وائل بن راشدة من لخم وأولها شرقي الكنيسة المعروفة بمكائيل التى عند خليج بنى وائل وهذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق بالقرب من باب القنطرة خارج مصر والخطة الثانية خطة راشدة بن أدب بن جزيلة من لخم وهى متاخمة للخطة التى قبلها وفي هذه الخطة جامع راشدة وجنان كهمس بن معمر الذى عرف بالمادرانى ثم عرف بجنان الامير تميم وهو اليوم يقال له المعشوق بجوار الآثار النبوية ولهم مواضع مع اللفيف وخطط أيضاً بالحمراء * (خطط اللفيف) انما سموا بذلك لالتفاف بعضهم ببعض وسبب ذلك أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أخبر ان مراكب الروم قد توجهت الى الاسكندرية لقتال المسلمين فبعث عمرو بعمرو بن جمالة الازدى الحجرى ليأتيه بالخبر فمضى وأسرعت هذه القبائل التى تدعى اللفيف وتعاقدوا على اللحاق به واستأذنوا عمرو بن العاص في ذلك فأذن لهم وهم جمع كثير فلما رآهم عمرو بن جمالة استكثرهم

وقال تالله ما رأيت قوما قد سدوا الافق مثلكم وانكم كما قال الله تعالى فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً فبذلك سموا من يومئذ اللفيف وسألوا عمرو بن العاص أن يفرد لهم دعوة فامتنعت عشائرهم من ذلك فقالوا لعمرو فانا نجتمع في المنزل حيث كنا فأجابهم الى ذلك فكانوا مجتمعين في المنزل متفرقين في الديوان اذا دعي كل بطن منهم انضم الى بنى ابيه قال قتادة ومجاهد والضحاك بن مزاحم في قوله جئنا بكم لفيفا قال جميعا وكان عامتهم من الازد من الحجر ومن غسان ومن شجاعة والتف بهم نفر من جذام ولخم والزحاف وتنوخ من قضاعة فهم مجتمعون فى المنزل متفرقون في الديوان وهذه الخطة أولها مما يلى الراية سالكا ذات الشمال الى نقاشي البلاط وفيها دار ابن عشرات الى نحو من سوق وردان* (خطط أهل الظاهر) انما سمي هذا المنزل بالظاهر لان القبائل التي نزلته كانت بالاسكندرية ثم قفلت بعد قفول عمرو بن العاص وبعد أن اختط الناس خططهم فخاصمت الى عمرو فقال لهم معاوية بن خديج وكان ممن يتولى الخطط يومئذ أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل فتتخذوا منزلا فسمي الظاهر بذلك وكانت القبائل التى نزلت الظاهر العتقاء وهم جماع من القبائل كانوا يقطعون على أيام النبي صلى الله عليه وسلم فبعث اليهم فأتي بهم أسرى فأعتقهم فقيل لهم العتقاء وديوانهم مع أهل الراية وخطتهم بالظاهر متوسطة فيه وكان فيهم طوائف من الازد وفهم واول هذه الخطة من شرقى خطة لخم وتتصل بموضع العسكر ومن هذه الخطة سويقة العراقيين وعرفت بذلك لان زيادا لما ولاه معاوية بن ابى سفيان البصرة غرب جماعة من الازد الى مصر وبها مسلمة بن مخلد في سنة ثلاث وخمسين فنزل منهم هنا نحو من مائة وثلاثين فقيل لموضعهم من خطة الظاهر سويقة العراقيين (خطط غافق)هو غافق بن الحارث بن عك بن عدثان بن عبد الله بن الازد وهذه الخطة تلى خطة لخم الى خطة الظاهر بجوار درب الاعلام * (خطط الصدف) واسمه مالك بن سهل بن عمرو ابن قيس بن حمير ودعوتهم مع كندة * (خطط الفارسيين) واستبد بخطة خولان من حضر فتح مصر من الفارسيين وهم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام اسلموا بالشأم ورغبوا في الجهاد فنفروا مع عمرو بن العاص الى مصر فاختطوا بها وأخذوا في سفح الجبل الذى يقال له جبل باب البون وهذا الجبل اليوم شرقي من وراء خطة جامع ابن طولون تعرف أرضه بالارض الصفراء وهى من جملة العسكر *(خطة مذحج)* بالحاء قبل الجيم وهو مالك بن مرة بن ادد بن زيد بن كهلان (خطة غطيف) بن مراد *(خطة وعلان)* بن قرن بن ناجية بن مراد وكلهم من مذحج فاختطت وعلان من الزقاق الذى فيه الصنم المعروف بسرية فرعون وهذا الزقاق أوله باب السوق الكبير واختطت أيضا بخولان ثم انفردت وعلان بخططها مقابل المسجد المعروف بالدينورى واسندت الى خولان

وهذه الخطة اليوم كيمان تطل على قبر القاضي بكار *(خطة يحصب)* بن مالك بن أسلم بن زيد بن غوث وهذه الخطة موضعها كيمان وهي تتصل بالشرف الذى يعرف اليوم بالرصد المطل على واشدة *(خطة رعين)* بن زيد بن سهل *(خطه ذى الكلاع)* بن شرحبيل ابن سعد من حمير *(خطة المغافر)* بن يعفر بن مرة بن أدد وهذه الخطة من الرصد الى سقاية بن طولون وهي القناطر التي تطل على عفصة وتفصل بين القرافتين والقناطر للمغافر ولهم الى مصلى خولان والى الكوم المشرف على المصلى (خطة سبا وخطة الرحبة) ابن زوعة بن كعب (خطة السلف بن سعد) فيما بين الكوم المطل على القاضي بكار و بين المغافر (خطة بني وائل) بن زيد مناة بن افصى بن اياس بن حرام بن جذام بن عدى وهي من سفح الشرف المعروف بالرصد الى خطة خولان (خطة القبض) بالتحريك بن مرثد وهي بجانب خطة بني وائل الى نحو بركة الحبش قال وكان سبب نزول بني وائل والقبض ورية وراشدة والفارسيين هذه المواضع انهم كانوا في طوالع عمرو بن العاص فنزلوا في مقدمة الناس وحازوا هذه المواضع قبل الفتح *(خطط الحمراوات الثلاث)* قال الكندى وكانت الحمراء على ثلاثة بنو نبه وروبيل والازرق وكانوا ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام الى مصر من عجم الشأم ممن كان رغب في الاسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية وغيرهم وقال القضاعى وانما قيل الحمراء لنزول الروم بها وهي خطط بلى بن عمر بن الحاف ابن قضاعة وفهم وعدوان وبعض الازد وهم ثراد وبني بحر وبني سلامان ويشكر بن لخم وهذيل بن مدركة بن الياس بن مضر وبني نبه وبني الازرق وهم من الروم وبنى روبيل وكان يهوديا فاسلم * فأول ذلك الحمراء الدنيا خطة بلى بن عمر بن الحاف بن قضاعة ومنها خطة ثراد من الازد وخطة فهم بن عمر بن قيس عيلان ومنها خطة بنى بحر بن سوادة من الازد * ومن ذلك الحمراء الوسطى منها خطة بنى نبه وهم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل ومنها خطة هذيل بن مدركة بن اليـاس بن مضر ومنها خطة بنى سلامان من الازد ومنها خطه عدوان * ومن ذلك الحمراء القصوى وهي خطة بنى الازرق وكان روميا حضر الفتح منهم أربعمائة وخطة بنى روبيل وكان يهوديا فأسلم وحضر الفتح منهم ألف رجل وخطة بنى يشكر بن جزيلة بن لخم وكانت منازل يشكر مفرقة في الجبـل فدثرت قديما وعادت صحراء حتى جاءت المسودة يعني جيوش بنى العباس فعمروها وهي الآن خراب* وقال ابن المتـوج الحمراوات ثلاث أولى ووسطى وقصوى فأما الاولى فتجمع جابر الاور وعقبة العداسين وسوق وردان وخطة الزبير الى نقاشي البلاط طولا وعرضا على قدر ذلك وأما الوسطى فمن درب نقاشي البلاط الى درب معانى طولا وعرضا على قدره وأما القصوى فمن درب معانى الى القناطر الظاهرية يعني قناطر السباع وهي حد ولاية مصر من القـاهرة

وكانت هـذه الحمراوات جل عمارة مصر في زمن الروم فاذا الحمراء الاولى والوسطى هما الآن خراب وموضعهما فيما بين سوق المعاريج وحمام طن من شرقيهما الى مايقابل المراغة فى الشرق وأما الحمراء الدنيا فهى الآن تعرف بخط قناطر السباع وبخط السبع سقايات وبحكر الخليلي وحكر أقبغا والكوم حيث الأسرى ومنها أيضا خط الكبش وخط الجامع الطولونى والعسكر ومنها حدرة بن قميحة الى حيث قنطرة السد وبستان الطواشي وما في شرقيه الى مشهد الرأس المعروف بزين العابدين وسيأتي لذلك مزيد بيان ان شاء الله تعالى عند ذكر العسكر وكانت مدينة الفسطاط على قسمين هما عمل فوق وعمل أسفل * فعمل فوق له طرفان غربى وشرقي فالغربى من شاطئ النيل في الجهة القبلية وأنت مار في الشرف المعروف اليوم بالرصد الى القرافة الكبرى والشرقى من القرافة الكبرى الى العسكر * وعمل أسفل ماعدا ذلك الى حدّ القاهرة

(ذكر امراء الفسطاط من حين فتحت مصر الى ان بنى العسكر)

اعلم أن عدة من ولي مصر من الامراء في الاسلام منذ فتحت وسكن الفسطاط الى أن بنى العسكر تسعة وعشرون أميرا في مدة مائة وثلاث عشرة سنة وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة النبوية وهو يوم فتح مصر وآخرها سلخ شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائة آخر ولاية صالح بن على بن عبد الله بن عباس على مصر وأول ولاية أبي عون عبد الملك وهو أول من سكن العسكر من أمراء مصر * وأول أمراء الفسطاط بعد الفتح على ماذكر الكندى وغيره (عمرو بن العاص) بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك أبو عبد الله كان تاجرا في الجاهلية وكان يختلف بتجارته الى مصر وهى الادم والعطر ثم ضرب الدهر ضرباته حتى فتح المسلمون الشأم فخلا بعمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستأذنه في المسير الى مصر فسار في سنة تسع عشرة وأتى الحصن فحاصره سبعة أشهر الى أن فتحه في يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وقيل كان فتح مصر في ثاني عشر بؤنة سنة سبع وخمسين وثلثمائة لدقلطيانوس فعلى هذا يكون فتح مصر في سنة تسع عشرة من الهجرة وتحرير ذلك أن الذى بين يوم الجمعة أول يوم من ملك دقلطيانوس وبين يوم الخميس أول سنة الهجرة ثمان وثلاثون وثلثمائة سنة فارسية وتسعة وثلاثون يوما فاذا ألقينا ذلك من تاريخ مصر في ثانى عشر بؤنة سنة سبع وخمسين وثلثمائة بقى ثمان عشرة سنة وثمانية أشهر وثلاثة أيام وهذه سنون شمسية عنها من سنى القمر تسع عشرة سنة وشهر وثلاثة عشر يوما فيكون ذلك في ثالث عشر ربيع الاول سنة عشرين فلعل الوهم وقع في الشهر القبطي وحاز الحصن بما فيه وسار الى الاسكندرية في ربيع الاول منها فحاصرها

ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وهو الفتح الاول ويقال بل فتحها مستهل سنة احدى وعشرين ثم سار عنها الى برقة فافتتحها عنوة في سنة اثنتين وعشرين وقيل في سنة ثلاث وعشرين وقدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدمتين استخلف في احداهما زكريا ابن جهم العبدرى وفي الثانية ابنه عبد الله وتوفى عمر رضي الله عنه في ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وبويع أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فوفد عليه عمرو وسأله عزل عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن صعيد مصر وكان عمر ولاه الصعيد فامتنع من ذلك عثمان وعقد لعبد الله بن سعد على مصر كلها فكانت ولاية عمرو على مصر صلاتها وخراجها منذ افتتحها الى أن صرف عنها أربع سنين وأشهرا * (عبد الله بن سعد) بن أبى سرح واسمه الحسام بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ولى من قبل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه فجاءه الكتاب بالفيوم فجعل لاهل اطواف جعلا فقدموا به الفسطاط ثم ان منويل الخصى سار الى الاسكندرية في سنة أربع وعشرين فسأل أهل مصر عثمان أن يرد عمرو بن العاص لمحاربته فرده واليا على الاسكندرية فحارب الروم بها حتى افتتحها وعبد الله بن سعد مقيم بالفسطاط حتى فتحت الاسكندرية الفتح الثانى عنوة في سنة خمس وعشرين ثم جمع لعبد الله بن سعد أمير مصر صلاتها وخراجها ومكث أميرا مدة ولاية عثمان رضى الله عنه كلها محمودا في ولايته وغزا ثلاث غزوات كلها لها شأن غزا افريقية سنة سبع وعشرين وقتل ملكها جرجير وغزا غزوة الاساود حتى بلغ دنقلة في سنة احدى وثلاثين وغزا ذا الصوارى في سنة أربع وثلاثين فلقيهم قسطنطين بن هرقل في ألف مركب وقيل في سبعمائة مركب والمسلمون في مائتي مركب فهزم الله الروم وانما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها ووفد على عثمان حين تكلم الناس بالطعن على عثمان واستخلف عقبة بن عامر الجهنى وقيل السائب بن هشام العامرى وجعل على خراجها سليمان بن عتر التجيبي وكان ذلك سنة خمس وثلاثين في رجب * (محمد بن أبي حذيفة) بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف أمر في شوال سنة خمس وثلاثين على عقبة بن عامر خليفة عبد الله بن سعد فأخرجه من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وحرض على عثمان بكل شر يقدر عليه فاعتزله شيعة عثمان ونابذوه وهم معاوية بن خديج وخارجة بن حذافة وبسر بن ارطاة ومسلمة بن مخلد فى جمع كثير وبعثوا الى عثمان بامرهم وبصنيع ابن أبى حذيفة فبعث سعد بن أبى وقاص ليصلح أمرهم فخرج اليه جماعة فقلبوا عليه فسطاطه وشجوه وسبوه فركب وعاد راجعا ودعا عليهم واقبل عبد الله بن سعد فمنعوه أن يدخل فانصرف الى عسقلان وقتل عثمان رضى الله عنه وابن سعد بعسقلان ثم أجمع ابن أبى حذيفة على بعث جيش الى عثمان فجهز اليه ستمائة رجل

عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ثم قتل عثمان في ذى الحجة منها فثار شيعة عثمان بمصر وعقدوا لمعاوية بن خديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان وساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن أبي حذيفة خيلا فهزمت ومضى ابن خديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليه ابن أبى حذيفة بجيش آخر فاقتتلوا بخربتا فى أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين فانهزم الجيش وأقامت شيعة عثمان بخربتا وقدم معاوية بن أبى سفيان يريد الفسطاط فنزل سلمنت في شوال فخرج اليه ابن أبى حذيفة في أهل مصر فمنعوه ثم اتفقا على أن يجعلا رهنا ويتركا الحرب فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم بن الصلت وخرج في الرهن هو وابن عديس وعدة من قتلة عثمان فلما بلغوا لدا سجنهم معاوية بها وسار الى دمشق فهربوا من السجن وتبعهم أمير فلسطين فقتلهم فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين * (قيس بن سعد) بن عبادة الانصارى ولاه أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه لما بلغه مصاب بن أبي حذيفة وجمع له الخراج والصلات فدخل مصر مستهل ربيع الاول سنة سبع وثلاثين فاستمال الخارجية بخربتا شيعة عثمان وبعث اليهم أعطياتهم ووفد عليه وفدهم فأكرمهم وكان من ذوى الرأى فجهد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها فانها كانت من جيش على رضي الله عنه فامتنع منهما بالدهاء والمكايدة فلم يقدرا على مصر حتى كاد معاوية قيسا من قبل على رضى الله عنه فأشاع أن قيسا من شيعته وأنه يبعث اليه بالكتب والنصيحة سراً فسمع ذلك جواسيس على رضى الله عنه وما زال به محمد ابن أبى بكر وعبد الله بن جعفر حتى كتب الى قيس بن سعد يأمره بالقدوم اليه فوليها الى أن عزل أربعة أشهر وخمسة أيام وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين فوليها * (الاشتر مالك بن الحارث) بن خالد النخعي من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فلما قدم القلزم شرب عسلا فمات فبلغ ذلك عمرا ومعاوية فقال عمرو ان لله جنودا من عسل * ثم وليها (محمد بن أبى بكر الصديق) من قبل على رضى الله عنه وجمع له صلاتها وخراجها فدخلها للنصف من رمضان سنة سبع وثلاثين فهدم دور شيعة عثمان ونهب اموالهم وسجن ذراريهم فنصبوا له الحرب ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية فلحقوا بمعاوية بالشأم فبعث معاوية عمرو بن العاص في جيوش أهل الشأم الى الفسطاط وتغيب ابن أبى بكر فظفر به معاوية بن خديج فقتله ثم جعله في جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار لاربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين فكانت ولايته خمسة أشهر * ثم وليها (عمرو بن العاص) ولايته الثانية من قبل معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه فاستقبل بولايته شهر ربيع الاول سنة ثمان وثلاثين وجعل اليه الصلات والخراج جميعاً وجعلت مصر له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها ثم خرج عمر وللحكومة واستخلف على مصر ابنه عبد الله وقيل بل

خارجة بن حذافة ورجع الى مصر وتعاقد بنو لخم عبد الرحمن وقيس ويزيد على قتل علي ومعاوية وعمرو وتواعدوا ليلة من رمضان سنة أربعين فمضى كل منهم الى صاحبه وكان يزيد هو صاحب عمرو فعرضت لعمرو علة منعته من حضور المسجد فصلى خارجة بالناس فشد عليه يزيد فضربه حتى قتله فدخل به على عمرو فقال أما والله ماأردت غيرك ياعمرو قال عمرو ولكن الله أراد خارجة ولله در القائل

وليتها اذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شاءت من البشر

وعقد عمرو لشريك بن سمى على غزو لواتة من البربر فغزاهم في سنة أربعين وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع في سنة احدى وأربعين فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة أيضاً على غزو هوارة وعقد لشريك بن سمى على غزو لبدة فغزواهما في سنة ثلاث وأربعين فقفلا وعمرو شديد الدنف في مرض موته وتوفى ليلة الفطر فغسله عبد الله بن عمرو وأخرجه الى المصلى وصلى عليه فلم يبق أحد شهد العيد الا صلى عليه ثم صلى بالناس صلاة العيد وكان أبوه استخلفه وخلف عمرو بن العاص سبعين بهارا دنانير والبهار جلد ثور ومبلغه اردبان بالمصرى فلما حضرته الوفاة أخرجه وقال من يأخذه بما فيه فأبى ولداه أخذه وقالا حتى ترد الى كل ذي حق حقه فقال والله ما أجمع بين اثنين منهم فبلغ معاوية فقال نحن نأخذه بما فيه * ثم وليها (عتبة بن أبي سفيان) من قبل أخيه معاوية بن أبي سفيان على صلاتها فقدم في ذى القعدة سنة ثلاث وأربعين وأقام شهرا ثم وفد على أخيه واستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان فيه شدة فكره الناس ولايته وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فرجع الى مصر وصعد المنبر فقال يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم وقد وليكم من اذا قال فعل فان أبيتم درأكم بيده فان أبيتم درأكم بسيفه ثم رجا في الاخير ما أدرك في الاول ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه فناداه المصريون من جنبات المسجد سمعا سمعا فناداهم عدلا عدلا ثم نزل ثم جمع له معاوية الصلات والخراج وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثنى عشر ألفا من أهل الديوان تكون لها رابطة ثم خرج اليها مرابطا في ذى الحجة سنة أربع وأربعين فمات بها واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني فكانت ولايته ستة أشهر * ثم وليها (عقبة بن عامر) بن عبس الجهني من قبل معاوية وجعل له صلاتها وخراجها وكان قارئا فقيها مفرضا شاعرا له الهجرة والصحبة والسابقة ثم وفد مسلمة محمد بن الانصارى على معاوية فولاه مصر وأمره أن يكتم ذلك عن عقبة بن عامر وجعل عقبة على البحر وأمره أن يسير الى رودس فقدم مسلمة فلم يعلم بامارته وخرج مع عقبة الى الاسكندرية فلما توجه سائرا استوى مسلمة على سرير امارته فبلغ ذلك عقبة فقال اخلعا وغربة وكان صرفه لعشر بقين من ربيع

الاول سنة سبع وأربعين وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر * فولى (مسلمة بن مخلد) بن صامت بن نيار الانصارى من قبل معاوية وجمع له الصلات والخراج والغزو فانتظمت غزواته في البر والبحر وفي امارته نزلت الروم البرلس في سنة ثلاث وخمسين فاستشهد يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وهدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد وبناه وأمر بابتداء منارات المساجد كلها الا خولان وتجيب وخرج الى الاسكندرية فى سنة ستين واستخلف عابس بن سعيد ومات معاوية بن أبي سفيان في رجب منها واستخلف ابنه يزيد بن معاوية فأقر مسلمة وكتب اليه بأخذ البيعة فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو ابن العاص فدعا عابس بالنار ليحرق عليه بابه فحينئذ بايع ليزيد وقدم مسلمة من الاسكندرية فجمع لعابس مع الشرط القضاء فى سنة احدى وستين وقال مجاهد صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ سورة البقرة فما ترك ألفا ولا واوا وقال ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد كان مسلمة ابن مخلد يصلى بنا فيقوم في الظهر فربما قرأ الرجل البقرة وتوفى مسلمة وهو وال لخمس بقين من رجب سنة اثنتين وستين فكانت ولايته خمس عشرة سنة وأربعة أشهر واستخلف عابس بن سعيد * ثم وليها (سعيد بن يزيد) بن علقمة بن يزيد بن عوف الازدى من أهل فلسطين فقدم مستهل رمضان سنة اثنتين وستين فتلقاه عمرو بن قحزم الخولاني فقال يغفر الله لامير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولى علينا أحدهم ولم تزل أهل مصر على الشنآن له والاعراض عنه والتكبر عليه حتى توفى يزيد بن معاوية ودعا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه الى نفسه فقامت الخوارج الذين بمصر وأظهروا دعوته وسار منهم اليه فبعث لعبد الرحمن بن حجدم فقدم واعتزل سعيدا فكانت ولايته سنتين غير شهر * ثم وليها (عبد الرحمن بن عتبة) بن حجدم من قبل عبد الله بن الزبير فدخل فى شعبان سنة أربع وستين فى جمع كثير من الخوارج فأظهروا التحكيم ودعوا اليه فاستعظم الجند ذلك وبايعه الناس على غل في قلوب شيعة بني أمية ثم بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى أهل الشام وأهل مصر معه في الباطن فسار اليها وبعث ابنه عبد العزيز فى جيش الى أيلة ليدخل مصر من هناك وأجمع ابن حجدم على حربه وحفر الخندق فى شهر وهو الذى فى شرقى القرافة وقدم مروان فحاربه ابن حجدم وقتل بينهما كثير من الناس ثم اصطلحا ودخل مروان لعشر من جمادى الاولى سنة خمس وستين فكانت مدة ابن حجدم تسعة أشهر ووضع مروان العطاء فبايعه الناس الا نفرا من المغافر قالوا لانخلع بيعة ابن الزبير فضرب أعناقهم وكانوا ثمانين رجلا وذلك للنصف من جمادى الآخرة ويومئذ مات عبد الله بن عمرو بن العاص فلم يستطع أن يخرج بجنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان وجعل مروان صلات مصر وخراجها الى ابنه عبد العزيز وسار وقد اقام بها شهرين لهلال رمضان (عبد العزيز بن مروان) بن

الحكم بن أبي العاص أبو الاصبغ ولي من قبل أبيه لهلال رجب سنة خمس وستين على الصلات والخراج ومات أبوه وبويع من بعده عبد الملك بن مروان فأقر أخاه عبد العزيز ووقع الطاعون بمصر سنة سبعين فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها دارا وسكنها وجعل بها الاعوان وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرمها وعرف بمصر وهو أول من عرف بها في سنة احدى وسبعين وجهز البعث في البحر لقتال ابن الزبير في سنة اثنتين وسبعين ثم مات لثلاث عشرة خلت من جمادى الاولى سنة ست وثمانين فكانت ولايته عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما فولي (عبد الله بن عبد الملك) بن مروان من قبل أبيه على صلاتها وخراجها فدخل يوم الاثنين لاحدى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وهو ابن تسع وعشرين سنة وقد تقدم اليه أبوه أن يقتفي آثار عمه عبد العزيز فاستبدل بالعمال وبالاصحاب ومات عبد الملك وبويع ابنه الوليد بن عبد الملك فأقر أخاه عبد الله وأمر عبد الله فنسخت دواوين مصر بالعربية وكانت بالقبطية وفي ولايته غلت الاسعار فتشاءم الناس به وهي أول شدة رأوها بمصر وكان يرتشي ثم وفد على أخيه في صفر سنة ثمان وثمانين واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن محزم الخولاني وأهل مصر في شدة عظيمة ورفع سقف المسجد الجامع في سنة تسع وثمانين ثم صرف فكانت ولايته ثلاث سنين وعشرة أشهر * فولي (قرة بن شريك) بن مرثد بن الحرث العبسي للوليد بن عبد الملك على صلات مصر وخراجها فقدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة تسعين وخرج عبد الله بن عبد الملك من مصر بكل ماملكه فأحيط به في الاردن وأخذ سائر مامعه وحمل الى أخيه وأمر الوليد بهدم مابناه عبد العزيز في المسجد فهدم أول سنة اثنتين وتسعين وبنى واستنبط قرة بن شريك بركة الحبش من الموات وأحياها وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القاش ثم مات وهو وال ليلة الخميس لست بقين من ربيع الاول سنة ست وتسعين واستخلف على الجند والخراج عبد الملك بن رفاعة فكانت ولايته ست سنين واياما * ثم ولي (عبد الملك بن رفاعة) بن خالد بن ثابت الفهمي من قبل الوليد بن عبد الملك على صلاتها وتوفي الوليد واستخلف سليمان بن عبد الملك فأقر ابن رفاعة وتوفي سليمان وبويع عمر بن عبد العزيز فعزل ابن رفاعة فكانت ولايته ثلاث سنين * ثم ولي (أيوب بن شرحبيل) بن اكسوم بن ابرهة ابن الصباح من قبل عمر بن عبد العزيز على صلاتها في ربيع الاول سنة تسع وتسعين فورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالزيادة في أعطيات الناس عامة وخمرت الخمر وكسرت وعطلت حاناتها وقسم للغارمين بخمسة وعشرين ألف دينار ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها ومنع الناس الحمامات وتوفي عمر بن عبد العزيز

واستخلف يزيد بن عبد الملك فأقر أيوب على الصلات الى أن مات لاحدى عشرة وقيل لسبع عشرة خلت من رمضان سنة احدى ومائة فكانت ولايته سنتين ونصفا * فولي (بشر ابن صفوان) الكلبي من قبل يزيد بن عبد الملك قدمها لسبع عشرة خلت من رمضان سنة احدى ومائة وفي امرته نزل الروم تنيس ثم ولاه يزيد على أفريقية فخرج اليها في شوال سنة اثنتين ومائة واستخلف اخاه حنظلة * فولى (حنظلة بن صفوان) باستخلاف أخيه فأقره يزيد بن عبد الملك وخرج الى الاسكندرية في سنة ثلاث ومائة واستخلف عقبة بن مسلمة التجيبي وكتب يزيد بن عبد الملك في سنة أربع ومائة بكسر الاصنام والتماثيل فكسرت كلها ومحيت التماثيل ومات يزيد بن عبد الملك وبويع هشام بن عبد الملك فصرف حنظلة في شوال سنة خمس ومائة فكانت ولايته ثلاث سنين * وولي (محمد بن عبد الملك بن مروان) ابن الحكم من قبل أخيه هشام بن عبد الملك على الصلات فدخل مصر لاحدى عشرة خلت من شوّال سنة خمس ومائة ووقع وباء شديد بمصر فترفع محمد الى الصعيد هاربا من الوباء اياما ثم قدم وخرج عن مصر لم يلها الا نحوا من شهر وانصرف الى الاردن فولى (الحر بن يوسف) بن يحيي بن الحكم من قبل هشام بن عبد الملك على صلاتها فدخل لثلاث خلون من ذى الحجة سنة خمس ومائة وفى امرته كان أول انتقاض القبط في سنة سبع ومائة ورابط بدمياط ثلاثة أشهر ثم وفد الى هشام بن عبد الملك فاستخلف حفص بن الوليد وقدم في ذى القعدة من سنة سبع وانكشف النيل عن الارض فبني فيها وصرف في ذى القعدة سنة ثمان ومائة باستعفائه لمغاضبة كانت بينه وبين عبد الله بن الحبحاب متولى خراج مصر فكانت ولايته ثلاث سنين سواء * وولى (حفص بن الوليد) ابن سيف بن عبد الله من قبل هشام بن عبد الملك ثم صرف بعد جمعتين يوم الاضحي بشكوى ابن الحبحاب منه وقيل صرف سلخ ثمان ومائة * فولى (عبد الملك بن رفاعة) ثانياً على الصلات فقدم من الشام عليلا لثنتي عشرة بقيت من المحرم سنة تسع ومائة وكان أخوه الوليد يخلفه من أول المحرم وقيل بل ولى أول المحرم ومات للنصف منه وكانت ولايته خمس عشرة ليلة * ثم ولى أخوه (الوليد بن رفاعة) باستخلاف أخيه فأقره هشام بن عبد الملك على الصلات وفي ولايته نقلت قيس الى مصر ولم يكن بها أحد منهم وخرج وهيب اليحصبي شاردا في سنة سبع عشرة ومائة من أجل ان الوليد اذن للنصارى في ابتناء كنيسة يومنا بالحمراء وتوفي وهو وال أول جمادى الآخرة سنة سبع عشرة واستخلف عبدالرحمن ابن خالد فكانت امرته تسع سنين وخمسة أشهر * فولى (عبد الرحمن بن خالد) بن مسافر الفهمى أبو الوليد من قبل هشام بن عبد الملك على صلاتها وفي امرته نزل الروم على تروجة فحاصروها ثم اقتتلوا فأسروا فصرفه هشام فكانت ولايته سبعة أشهر * (وولى حنظلة

ابن صفوان ثانياً) فقدم لخمس خلون من المحرم سنة تسع ومائة فانتقض القبط وحاربهم
في سنة احدى وعشرين ومائة وقدم رأس زيد بن على الى مصر في سنة اثنتين وعشرين
ومائة ثم ولاه هشام افريقية فاستخلف حفص بن الوليد بامرة هشام وخرج لسبع خلون
من ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة فكانت ولايته هذه خمس سنين وثلاثة أشهر *
وولى (حفص بن الوليد) الحضرمي ثانيا باستخلاف حنظلة له على صلاتها فأقره هشام بن
عبد الملك الى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة أربع وعشرين فجمع له الصلات
والخراج جميعاً واستسقى بالناس وخطب ودعا ثم صلى بهم ومات هشام بن عبد الملك واستخلف
من بعده الوليد بن يزيد فأقر حفصاً على الصلات والخراج ثم صرف عن الخراج بعيسى
ابن أبي عطاء لسبع بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائة وانفرد بالصلات ووفد على
الوليد بن يزيد واستخلف عقبة بن نعيم الرعيني وقتل الوليد بن يزيد وحفص بالشام
وبويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأمر حفصاً بالالحاق بجنده وأمره على ثلاثين ألفا
وفرض الفروض وبعث بيعة أهل مصر الى يزيد بن الوليد ثم توفي يزيد وبويع ابراهيم
ابن الوليد وخلعه مروان بن محمد الجعدى فكتب حفص يستعفيه من ولاية مصر فأعفاه
مروان فكانت ولاية حفص هذه ثلاث سنين الا شهرا * وولى (حسان بن عتاهية) بن عبد
الرحمن التجيبي وهو بالشام فكتب الى خير بن نعيم باستخلافه فسلم حفص الى خير ثم قدم
حسان لثنتى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة على الصلات وعيسى
ابن أبي عطاء على الخراج فأسقط حسان فروض حفص كلها فوثبوا به وقالوا لا نرضى الا
بحفص وركبوا الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحصروا حسان في داره وقالوا له
اخرج عنا فانك لا تقيم معنا ببلد وأخرجوا عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج وذلك في
آخر جمادى الآخرة وأقاموا حفصا فكانت ولاية حسان ستة عشر يوما * فولى (حفص
ابن الوليد) الثالثة كرها أخذه قواد الفروض بذلك فأقام على مصر رجب وشعبان ولحق
حسان بمروان وقدم حنظلة بن صفوان من أفريقية وقد أخرجه أهلها فنزل الجيزة وكتب
مروان بولايته على مصر فامتنع المصريون من ولاية حنظلة وأظهروا الخلع وأخرجوا
حنظلة الى الحوف الشرقي ومنعوه من المقام بالفسطاط وهرب ثابت بن نعيم من فلسطين
يريد الفسطاط فحاربوه وهزموه وسكت مروان عن مصر بقية سنة سبع وعشرين ومائة
ثم عزل حفصاً مستهل سنة ثمان وعشرين * وولى (الحوثرة بن سهيل) بن العجلان
الباهلي فسار اليها في آلاف وقدم أول المحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص
فخافوا حوثرة وسألوه الامان فأمنهم ونزل ظاهر الفسطاط وقد اطمأنوا اليه فخرج اليه حفص
ووجوه الجند فقبض عليهم وقيدهم فانهزم الجند ودخل معه عيسى بن أبي عطاء على الخراج

اثنتي عشرة خلت من المحرم وبعث في طلب رؤساء الفتنة فجمعوا له وضرب أعناقهم وقتل حفص بن الوليد ثم صرف في جمادى الاولى سنة احدى وثلاثين ومائة وبعثه مروان الى العراق فقتل واستخلف على مصر حسان بن عتاهية وقيل أبا الجراح بشر بن اوس وخرج لعشر خلون من رجب وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر * ثم ولى (المغيرة بن عبيد الله) بن المغيرة الفزارى على الصلات من قبل مروان فقدم لست بقين من رجب سنة احدى وثلاثين وخرج الى الاسكندرية واستخلف أبا الجراح الحرشي وتوفى لثنتي عشرة خلت من جمادى الاولى سنة اثنتين وثلاثين ومائة فكانت ولايته عشرة أشهر واستخلف ابنه الوليد بن المغيرة ثم صرف الوليد في النصف من جمادى الآخرة * وولي (عبد الملك بن مروان) بن موسى بن نصير من قبل مروان على الصلات والخراج وكان واليا على الخراج قبل أن يولى الصلات في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة فأمر باتخاذ المنابر في الكور ولم تكن قبله وانما كانت ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة وخرج القبط فحاربهم وقتل كثيرا منهم وخالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان واجتمع عليه جمع من قيس في الحوف الشرقي فبعث اليهم عبد الملك بجيش فلم يكن حرب وسار مروان بن محمد الى مصر منهزما من بني العباس فقدم يوم الثلاثاء لثمان بقين من شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقد سود أهل الحوف الشرقي وأهل الاسكندرية وأهل الصعيد واسوان فعزم مروان على تعدية النيل وأحرق دار آل مروان المذهبة ثم رحل الى الجيزة وخرق الجسرين وبعث بجيش الى الاسكندرية فاقتتلوا بالكريون وخالفت القبط برشيد فبعث اليهم وهزمهم وبعث الى الصعيد فقدم صالح بن على بن عبد الله بن عباس في طلب مروان هو وأبو عون عبد الملك بن يزيد يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة فأدرك صالح مروان ببوصير من الجيزة بعد ما استخلف على الفسطاط معاوية بن بحيرة بن ريسان فحارب مروان حتى قتل ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة ودخل صالح الى الفسطاط يوم الاحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة وبعث برأس مروان الى العراق وانقضت أيام بني أمية * فولى (صالح بن على) بن عبد الله بن عباس ولي من قبل أمير المؤمنين أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح فاستقبل بولايته المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة وبعث بوفد أهل مصر الى أبي العباس السفاح ببيعة أهل مصر وأسر عبد الملك بن موسى بن نصير وجماعة وقتل كثيرا من شيعة بني أمية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقلنسوة من أرض فلسطين وأمر للناس بأعطياتهم للمقاتلة والعيال وقسمت الصدقات على اليتامى والمساكين وزاد صالح في المسجد وورد عليه كتاب أمير المؤمنين السفاح بامارته على فلسطين والاستخلاف على مصر فاستخلف اباعون مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين وسار ومعه عبد الملك بن نصير

مازما وعدة من أهل مصر صحابة لامير المؤمنين وأقطع الذين سودوا قطائع منها منية ولاق وقرى اهناس وغيرها ثم من بعد صالح بن علي سكن امراء مصر العسكر وأول من سكنه أبو عون والله تعالى اعلم

﴿ ذكر العسكر الذى بني بظاهر مدينة فسطاط مصر ﴾

اعلم أن موضع العسكر قد كان يعرف في صدر الاسلام بالحمراء القصوى وقد تقدم أن الحمراء القصوى كانت خطة بني الازرق وبني روبيل وبني يشكر بن جزيلة ثم دثرت هذه الخطط بعد العمارة بتلك القبائل حتى صارت صحراء فلما قدم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية الى مصر منهزما من بني العباس نزلت عساكر صالح بن علي وأبي عون عبد الملك بن يزيد في هذه الصحراء حيث جبل يشكر حتى ماؤا الفضاء وأمر أبو عون اصحابه بالبناء فيه فبنوا وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائة فلما خرج صالح بن علي من مصر خرب أكثر ما بني فيه الى زمن موسى بن عيسى الهاشمي فابتنى فيه دارا أنزل فيها حشمه وعبيده وعمر الناس ثم ولي السرى بن الحكم فاذن للناس في البناء فابتنوا فيه وصار مملوكا بأيديهم واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه دار الامارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وعملت الشرطة أيضا في العسكر وقيل لها الشرطة العليا والى جانبها بني أحمد ابن طولون جامعه الموجود الآن وسمى من حينئذ ذلك الفضاء بالعسكر وصار أمراء مصر اذا ولوا ينزلون به من بعد أبي عون فقال الناس من يومئذ كنا بالعسكر وخرجنا الى العسكر وكتب من العسكر وصار مدينة ذات محال واسواق ودور عظيمة وفيه بني أحمد بن طولون مارستانه فأنفق عليه وعلى مستغله ستين ألف دينار وكان بالقرب من بركة قارون التي صارت كيمانا وبعضها بركة على يسرة من سار من حدرة ابن قميحة يريد قنطرة السند وعلى بركة قارون هذه كانت جنان بني مسكين وبنى كافور الاخشيدى دارا أنفق عليها مائة ألف دينار وسكنها في رجب سنة ست وأربعين وثلثمائة وانتقل منها بعد أيام لوباء وقع في غلمانه من بخار البركة وعظمت العمارة في العسكر جداً الى أن قدم أحمد بن طولون من العراق الى مصر فنزل بدار الامارة من العسكر وكان لها باب الى جامع العسكر وينزلها الامراء منذ بناها صالح بن علي بعد قتله مروان وما زال بها أحمد بن طولون الى أن بنى القصر والميدان بالقطائع فتحول من العسكر وسكن قصره بالقطائع فلما ولي أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون بعد أبيه جعل دار الامارة ديوان الخراج ثم فرقت حجرا بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب الى مصر وزوال دولة بنى طولون فسكن محمد بن سليمان بدار الامارة في العسكر عند المصلى القديم وكان المصلى القديم حيث الكوم المطل الآن على قبر القاضي بكار وما زالت الامراء تنزل بالعسكر الى أن قدم القائد جوهر من المغرب وبنى القاهرة المعزية

ولما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر و بنى جامعه على جبل يشكر فعمر ما هنالك عمارة عظيمة تخرج عن الحد في الكثرة وقدم جوهر القائد بعساكر مولاه المعز لدين الله في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة والعسكر عامر الا انه منذ بنيت القطائع هجر اسم العسكر وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع وربما قيل والعسكر أحيانا فلما خرب محمد بن سليمان قصر ابن طولون وميدانه بقي في القطائع مساكن جليلة حيث كان العسكر وأنزل المعز لدين الله عمه أبا علي في دار الامارة فلم يزل أهله بها الى أن خربت القطائع في الشدة العظمى التي كانت فى خلافة المستنصر أعوام بضع وخمسين وأربعمائة فيقال انه كان هناك زيادة على مائة ألف دار سوى البساتين وما هذا ببعيد فان ذلك كان مابين سفح الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل وبين ساحل مصر القديم حيث الآن الكبارة خارج مصر وما على سمتها الى كوم الجارح ومن كوم الجارح الى جامع ابن طولون وخط قناطر السباع وخط السبع سقايات الى قنطرة السد ومراغة مصر الى المعاريج بمصر والى كوم الجارح ففى هذه المواضع كان العسكر والقطائع ويخص العسكر من ذلك مابين قناطر السباع وحدرة ابن قميحة الى كوم الجارح حيث الفضاء الذى يتوسط مابين قنطرة السد وبين سور القرافة الذى يعرف بباب المجدم فهذا هو العسكر ولما استولى الخراب فى المحنة أمر ببناء حائط يستر الخراب عن نظر الخليفة اذا سار من القاهرة الى مصر فيما بين العسكر والقطائع وبين الطريق وأمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون فلما كان في خلافة الآمر بأحكام الله أبي على منصور ابن المستعلى أمر وزيره أبو عبد الله محمد بن فاتك المنعوت بالاجل المأمون بن البطائحي فنودى مدة ثلاثة أيام في القاهرة ومصر بأن من كان له دار في الخراب أو مكان فليعمره ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شئ من أنقاضه ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له ولا حكر يلزمه وأباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق وكان سبب هذا النداء أنه لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالي في آخر الشدة العظمى وقام بعمارة أقليم مصر أخذ الناس في نقل ما كان بالقطائع والعسكر من أنقاض المساكن حتى أتى على معظم ماهنالك الهدم فصار موحشا وخرب مابين القاهرة ومصر من المساكن ولم يبق هنالك الا بعض البساتين فلما نادى الوزير المأمون عمر الناس ما كان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى الى ظاهر باب زويلة كما يرد خبر ذلك في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى ونقلت أنقاض العسكر كما تقدم فصار هذا الفضاء الذى يتوصل اليه من مشهد السيدة نفيسة ومن الجامع الطولوني ومن قنطرة السد ومن باب المجدم فى سور القرافة ويسلك في هذا الفضاء الى كوم الجارح ولم يبق الآن من العسكر ماهو عامر سوى جبل يشكر الذى عليه جامع ابن طولون وما حوله من الكبش وحدرة ابن قميحة الى خط السبع سقايات وخط قناطر

السباع الى جامع ابن طولون وأما سوق الجامع من قبليه وما وراء ذلك الى المشهد النفيسي والى القبيبات والرميلة تحت القلعة فانما هو من القطائع كما ستقف عليه عند ذكر القطائع وعند ذكر هذه الخطط ان شاء الله تعالى وطالما سلكت هذا الفضاء الذى بين جامع ابن طولون وكوم الجارح حيث كان العسكر وتذكرت ماكان هنالك من الدور الجليلة والمنازل العظيمة والمساجد والاسواق والحمامات والبساتين والبركة البديعة والمارستان العجيب وكيف بادت حتى لم يبق لشئ منها أثر البتة فأنشدت أقول

وبادوا فلا مخبر عنهم * وماتوا جميعا وهذا الخبر
فمن كان ذاعبرة فليكن * فطينا ففي من مضى معتبر
وكان لهـم أثر صالح * فأين هم ثم أين الاثر

وسيأتي لذلك مزيد بيان عند ذكر القطائع وعند ذكر خط قناطر السباع وغيره من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

﴿ ذكر من نزل العسكر من امراء مصر من حين بنى الى أن بنيت القطائع ﴾

اعلم أن امراء مصر مابرحوا ينزلون فسطاط مصر منـذ اختط بعـد الفتح الى أن بنى أبو عون العسكر فصارت امراء مصر من عهد أبي عون انما ينزلون بالعسكر وما برحوا على ذلك الى أن أنشأ الامير أبو العباس أحمد بن طولون القصر والميدان والقطائع فتحول من العسكر الى القصر وسكن فيه وسكنه الامراء من أولاده بعده الى أن زالت دولتهم فسكن الامراء بعد ذلك العسكر الى أن زالت دولة الاخشيدية بقدوم جوهر القائد من المغرب * وأول من سكن العسكر من امراء مصر (أبوعون) عبد الملك بن يزيد من أهل جرجان ولي صلات مصر وخراجها باستخلاف صالح بن على له في مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائة ووقع الوباء بمصر فهرب أبو عون الى يشكر واستخلف صاحب شرطته عكرمة بن عبد الله بن عمرو بن قحزم وخرج الى دمياط في سنة خمس وثلاثين ومائة واستخلف عكرمة وجعل على الخراج عطاء بن شرحبيل وخرج القبط بسمنود فبعث اليهم وقتلهم وورد الكتاب بولاية صالح بن علي على مصر وفلسطين والمغرب جمعت له ووردت الجيوش من قبل أمير المؤمنين السفاح لغزو المغرب فولي (صالح بن على) الثانية على الصلات والخراج فدخل لخمس خلون من ربيع الآخر سـنة ست وثلاثين ومائة فأقر عكرمة على شرطة الفسطاط وجعل على شرطته بالعسكر يزيد بن هاني الكندى وولى أبا عون جيوش المغرب وقدم أمامه دعاة لاهل أفريقية وخرج أبو عون في جمادي الآخرة وجهزت المراكب من الاسكندرية الى برقة فمات السفاح في ذي الحجة واستخلف أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور فأقر صالحا وكتب الى أبي عون بالرجوع ورد الدعاة وقد بلغوا شبرت وبلغ أبو عون برقة فأقام بهـا

أحد عشر يوما ثم عاد الى مصر في جيشه فجهزه صالح الى فلسطين لحربه فغلب وسير الى مصر ثلاثة آلاف رأس ثم خرج صالح الى فلسطين واستخلف ابنه الفضل فبلغ بلبيس ورجع ثم خرج لاربع خلون من رمضان سنة سبع وثلاثين فلقى أبا عون بالفرما فأمره على مصر صلاتها وخراجها ومضى فدخل أبو عون الفسطاط لاربع بقين من رمضان فولى *(أبوعون) ولايته الثانية من قبل صالح بن على ثم أفرده أبو جعفر بولايتها وقدم أبو جعفر بيت المقدس وكتب الى أبي عون بأن يستخلف على مصر ويخرج اليه فاستخلف عكرمة على الصلات وعطاء على الخراج وخرج للنصف من ربيع الاول سنة احدى وأربعين ومائة فلما صار الى أبي جعفر ببيت المقدس بعث أبو جعفر موسى بن كعب فكانت ولاية أبي عون هذه ثلاث سنين وستة أشهر فوليها (موسى بن كعب) بن عيينة ابن عائشة أبو عيينة من تميم من قبل أبي جعفر المنصور وكان أحد نقباء بنى العباس فدخلها لاربع عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة احدى وأربعين ومائة على صلاتها وخراجها ونزل العسكر وبها الناس من الجند يغدون ويروحون اليه كما كانوا يفعلون بالامراء قبله فانتهوا عنه حتى لم يكن أحد يلزم بابه وكان قداتهم في خراسان بأمر أبي مسلم فأمر به أسد بن عبد الله البجلى والى خراسان فألجم بلجام ثم كسرت أسنانه فكان يقول بمصر كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان وكتب اليه أبو جعفر اني عزلتك من غير سخطة ولكن بلغني أن غلاما يقتل بمصر يقال له موسى فكرهت أن تكونه فكان ذلك موسى بن مصعب زمن المهدى كما يأتي ان شاء الله تعالى فولى موسى بن كعب سبعة أشهر وصرف في ذي القعدة واستخلف على الجند ابن خاله ابن حبيب وعلى الخراج نوفل بن الفرات وخرج است بقين منه فولى (محمد بن الاشعث) ابن عقبة الخزاعي من قبل أبي جعفر على الصلات والخراج وقدم لخمس خلون من ذي الحجة سنة احدى وأربعين ومائة وبعث أبو جعفر الى نوفل بن الفرات أن اعرض على محمد بن الاشعث ضمان خراج مصر فان ضمنه فأشهد عليه وأشخص الى وان أبى فاعمل على الخراج فعرض عليه ذلك فأبى فانتقل نوفل الدواوين فافتقد ابن الاشعث الناس فقيل له هم عند صاحب الخراج فندم على تسليمه وعقد على جيش بعث به الى المغرب لحربه فانهزم وخرج ابن الاشعث يوم الاضحى سنة اثنتين وأربعين وتوجه الى الاسكندرية واستخلف محمد بن معاوية بن بجير بن ريسان صاحب شرطته ثم صرف ابن الاشعث فكانت ولايته سنة وشهرا وولى (حميد بن قحطبة) بن شبيب بن خالد ابن سعد ان الطائي من قبل أبي جعفر على الصلات والخراج فدخل في عشرين ألفا من الجند لخمس خلون من رمضان سنة ثلاث وأربعين ومائة ثم قدم عسكر آخر في شوال وقدم على ابن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن داعية لابيه وعمه فدس اليه حميد فتغيب فكتب

بذلك الى أبي جعفر فصرفه في ذي القعدة وخرج لثمان بقين من ذى القعدة سنة أربع وأربعين فولى (يزيد بن حاتم) بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة من قبل أبي جعفر على الصلات والخراج فقدم على البريد للنصف من ذى القعدة فاستخلف على الخراج معاوية بن مروان ابن موسى بن نصير وفي امرته ظهرت دعوة بنى الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله وطرق المسجد لعشر خلون من شوال سنة خمس وأربعين كما يذكر فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي فى ذى الحجة فنصبت في المسجد وورد كتاب أبى جعفر بأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط وأن يجعل الديوان فى كنائس القصر وذلك فى سنة ست وأربعين ومائة من أجل ليلة المسجد ومنع يزيد أهل مصر من الحج سنة خمس وأربعين فلم يحج أحد منهم ولا من أهل الشام لما كان بالحجاز من الاضطراب بامر بنى حسن ثم حج يزيد فى سنة سبع وأربعين واستخلف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج صاحب شرطته وبعث جيشا لغزو الحبشة من أجل خارجى ظهر هناك فظفر به الجيش وقدم رأسه في عدة رؤس فحملت الى بغداد وضم يزيد برقة الى عمل مصر وهو أول من ضمها الى مصر وذلك في سنة ثمان وأربعين وخرج القبط بسخا في سنة خمسين ومائة فبعث اليهم جيشا فشتته القبط ورجع منهزما فصرفه أبو جعفر في ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين ومائة فكانت ولايته سبع سنين وأربعة أشهر وولى (عبد الله بن عبد الرحمن) بن معاوية بن خديج من قبل أبي جعفر على الصلات لثنتي عشرة بقيت من ربيع الآخر وهو أول من خطب بالسواد وخرج الى أبي جعفر لعشر بقين من رمضان سنة أربع وخمسين ومائة واستخلف أخاه محمدا ورجع في آخرها ومات وهو وال مستهل صفر سنة خمس وخمسين ومائة واستخلف أخاه محمدا فكانت ولايته سنتين وشهرين فولى (محمد بن عبد الرحمن) بن معاوية بن خديج باستخلاف أخيه فأقره أبو جعفر على الصلات ومات وهو وال للنصف من شوال فكانت ولايته ثمانية أشهر ونصفا واستخلف موسى بن علي فولى (موسى بن علي) بن رباح باستخلاف محمد بن خديج فأقره أبو جعفر على الصلات وخرج القبط ببيب في سنة ست وخمسين فبعث اليهم وهزمهم وكان يروح الى المسجد ماشيا وصاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة واذا أقام صاحب الشرطة الحدود يقول له ارحم أهل البلاد فيقول أيها الامير مايصلح الناس الا مايفعل بهم وكان يحدث فيكتب الناس عنه ومات أبو جعفر لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وبويع ابنه محمد المهدى فأقر موسى بن علي الى سابع عشر ذى الحجة سنة احدى وستين ومائة فكانت ولايته ست سنين وشهرين وولى (عيسى بن لقمان) بن محمد الجمحي من قبل المهدى على الصلات

والخراج فقدم لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة سنة احدى وستين ومائة وصرف لثنتى عشرة بقيت من جمادى الاولى سنة اثنتين وستين ومائة فوليها أربعة أشهر ثم ولى (واضح مولى أبي جعفر) من قبل المهدى على الصلات والخراج فدخل لست بقين من جمادى الاولى وصرف في رمضان فولى (منصور بن يزيد) بن منصور الرعيني وهو ابن خال المهدى على الصلات فقدم لاحدى عشرة خلت من رمضان سنة اثنتين وستين ومائة وصرف للنصف من ذى الحجة فكان مقامه شهرين وثلاثة أيام ثم ولى (يحيى بن داود) أبو صالح من أهل خراسان من قبل المهدى على الصلات والخراج فقدم في ذى الحجة وكان أبوه تركيا وهو من أشد الناس وأعظمهم هيبة وأقدمهم على الدم وأكثرهم عقوبة فمنع من غلق الدروب بالليل ومن غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال من ضاع له شيء فعلى اداؤه وكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول يا أبا صالح احرسها فكانت الامور على هذا مدة ولايته وأمر الاشراف والفقهاء وأهل النوبات بلبس القلانس الطوال والدخول بها على السلطان يوم الاثنين والخميس بلا أردية وكان أبو جعفر المنصور اذا ذكره قال هو رجل يخافني ولا يخاف الله فولى الى المحرم سنة أربع وستين وقدم *(سالم بن سوادة)* التميمى من قبل المهدى على الصلات ومعه أبو قطيعة اسماعيل بن ابراهيم على الخراج لثنتى عشرة خلت من المحرم ثم ولى (ابراهيم ابن صالح) بن علي بن عبد الله بن عباس من قبل المهدى على الصلات والخراج فقدم لاحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وستين وابتنى دارا عظيمة بالموقف من العسكر وخرج دحية بن المصعب بن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان بالصعيد ونابذ ودعا الى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بأمره حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدى لذلك وعزله عزلا قبيحا لسبع خلون من ذى الحجة سنة سبع وستين فوليها ثلاث سنين ثم ولى (موسى بن مصعب) بن الربيع من أهل الموصل على الصلات والخراج من قبل المهدى فقدم لسبع خلون من ذي الحجة المذكور فرد ابراهيم وأخذ منه وممن عمل له ثلثمائة ألف دينار ثم سيره الى بغداد وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل به وارتشى في الاحكام وجعل خراجا على أهل الاسواق وعلى الدواب فكرهه الجند ونابذوه وثارت قيس واليمانية وكاتبوا أهل الفسطاط فاتفقوا عليه وبعث بجيش الى قتال دحية بالصعيد وخرج فى جند مصر كلهم لقتال أهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه أهل مصر بأجمعهم وأسلموا فقتل من غير أن يتكلم أحد من أهل مصر لتسع خلون من شوال سنة ثمان وستين ومائة فكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالما غاشما سمعه الليث بن سعد يقرأ في خطبته انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها فقال الليث اللهم لاتمقتنا ثم ولي

(عسامة بن عمرو) باستخلاف موسى بن مصعب وبعث الى دحية جيشا مع أخيه بكار ابن عمرو فحارب يوسف بن نصير وهو على جيش دحية فتطاعنا ووضع يوسف الرمح في خاصرة بكار ووضع بكار الرمح في خاصرة يوسف فقتلا معا ورجع الجيشان منهزمين وذلك في ذى الحجة وصرف عسامة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة بكتاب ورد عليه من الفضل بن صالح بأنه ولى مصر وقد استخلفه فخلعه الى سلخ المحرم سنة تسع وستين ومائة ثم قدم (الفضل بن صالح) بن على بن عبد الله بن عباس سلخ المحرم المذكور في جيوش الشام ومات المهدى في المحرم هذا وبويع موسى الهادى فأقر الفضل وقدم مصر يضطرب من أهل الحوف ومن خروج دحية فان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير العساكر حتى هزم دحية وأسر وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه وصلب في جمادى الآخرة سنة تسع وستين فكان الفضل يقول أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامي في أمر دحية وقد عجز عنه غيري فعزل وندم على قتل دحية والفضل هو الذى بنى الجامع بالعسكر فى سنة تسع وستين فكانوا يجمعون فيه ثم ولى (على بن سليمان) بن على ابن عبد الله بن عباس من قبل الهادي على الصلات والخراج فدخل في سنة تسع وستين ومائة ومات الهادى للنصف من ربيع الاول سنة سبعين ومائة وبويع هرون بن محمد الرشيد فأقر على بن سليمان وأظهر في ولايته الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومنع الملاهى والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر وبذل له فى تركها خمسون ألف دينار فامتنع وكان كثير الصدقة في الليل وأظهر أنه تصلح له الخلافة وطمع فيها فسخط عليه هرون الرشيد وعزله لاربع بقين من ربيع الاول سنة احدى وسبعين ومائة ثم ولى (موسى ابن عيسي) بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس من قبل الرشيد على الصلات فاذن للنصارى في بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان فبنيت بمشورة الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة ثم صرف لاربع عشرة خلت من رمضان سنة اثنين وسبعين ومائة فكانت ولايته سنة وخمسة أشهر ونصفا ثم ولى (مسلمة بن يحيي) بن قرة بن عبيد الله البجلي من أهل جرجان من قبل الرشيد على الصلات ثم صرف فى شعبان سنة ثلاث وسبعين فوليها أحد عشر شهرا ثم ولى (محمد بن زهير) الازدى على الصلات والخراج لخمس خلون من شعبان فبادر الجند لعمر بن غيلان صاحب الخراج فلم يدفع عنه فصرف بعد خمسة أشهر في سلخ ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين ومائة فولى (داود بن يزيد) بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة وقدم هو وابراهيم بن صالح بن على فولى داود الصلات وبعث بابراهيم لاخراج الجند الذين ثاروا من مصر فدخل لاربع عشرة خلت من المحرم سنة أربع وسبعين ومائة فأخرجت الجند العديدة الي المشرق والمغرب في عالم كثير

فساروا في البحر فأسرتهم الروم وصرف لست خلون من المحرم سنة خمس وسبعين فكانت ولايته سنة ونصف شهر ثم ولى (موسى بن عيسى) بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات والخراج من قبل الرشيد فدخل لسبع خلون من صفر سنة خمس وسبعين وصرف لليلتين بقيتا من صفر سنة ست وسبعين ومائة فولى سنة واحدة ثم ولى (ابراهيم بن صالح) بن على بن عبد الله بن عباس ثانيا من قبل الرشيد فكتب الى عسامة ابن عمرو فاستخلفه ثم قدم نصر بن كلثوم خليفته على الخراج مستهل ربيع الأول وتوفي عسامة لسبع بقين من ربيع الآخر فقدم روح بن روح بن زنباع خليفة لابراهيم على الصلات والخراج ثم قدم ابراهيم للنصف من جمادى الاولى وتوفى وهو وال لثلاث خلون من شعبان فكان مقامه بمصر شهرين وثمانية عشر يوما وقام بالامر بعده ابنه صالح بن ابراهيم مع صاحب شرطته خالد بن يزيد ثم ولى (عبد الله بن المسيب) بن زهير بن عمرو الضبي من قبل الرشيد على الصلات لاحدى عشرة بقيت من رمضان سنة ست وسبعين ومائة وصرف في رجب سنة سبع وسبعين ومائة فولى (اسحاق بن سليمان) بن على بن عبد الله بن عباس من قبل الرشيد على الصلات والخراج مستهل رجب فكشف أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه أهل الحوف فحاربهم فقتل كثير من أصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله فكان صرف اسحق في رجب سنة ثمان وسبعين ومائة فولى (هرثمة بن أعين) من قبل الرشيد على الصلات والخراج لليلتين خلتا من شعبان ثم سار الى افريقية لثنتي عشرة خلت من شوال فأقام بمصر شهرين ونصفا ثم ولى (عبد الملك بن صالح) بن على بن عبد الله بن عباس من قبل الرشيد على الصلات والخراج فلم يدخل مصر واستخلف عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي وصرف في سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة فولى (عبيد الله بن المهدى) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عباس من قبل الرشيد على الصلات والخراج في يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من المحرم سنة تسع وسبعين ومائة فاستخلف ابن المسيب ثم قدم لاحدى عشرة خلت من ربيع الاول وصرف في شهر رمضان فولى تسعة أشهر وخرج من مصر لليلتين خلتا من شوال فاعاد الرشيد (موسى ابن عيسى) وولاه مرة ثالثة على الصلات فقدم ابنه يحيى بن موسى خليفة له لثلاث خلون من رمضان ثم قدم آخر ذى القعدة وصرف في جمادى الآخرة سنة ثمانين ومائة فولى الرشيد (عبيد الله بن المهدى) ثانيا على الصلات فقدم داود بن حباش خليفة له لسبع خلون من جمادى الآخرة ثم قدم لاربع خلون من شعبان وصرف لثلاث خلون من رمضان سنة احدى وثمانين ومائة فولى (اسمعيل بن صالح) بن على بن عبد الله بن عباس على

الصلات لسبع خلون من رمضان فاستخلف عون بن وهب الخزاعي ثم قدم لخمس بقين منه قال ابن عفير مارأيت على هذه الاعواد أخطب من اسماعيل بن صالح ثم صرف في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين ومائة فولى (اسمعيل بن عيسى) بن موسى بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس من قبل الرشيد على الصلات فقدم لاربع عشرة بقيت من جمادى الآخرة وصرف في رمضان فولي (الليث بن الفضل) البيوردى من أهل بيورد على الصلات والخراج وقدم لخمس خلون من شوال ثم خرج الى الرشيد لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة بالمال والهدايا واستخلف (١) أخاه الفضل بن على ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانيا بالمال لتسع بقين من رمضان سنة خمس وثمانين واستخلف هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج وقدم لاربع عشرة خلت من المحرم سنة ست وثمانين فكان كما غلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى أمير المؤمنين هرون الرشيد ومعه الحساب ثم خرج عليه أهل الحوف وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم في أربعة آلاف ليومين بقيا من شعبان سنة ست وثمانين ومائة واستخلف عبد الرحمن بن موسى بن على بن رباح على الجند والخراج فواقع أهل الحوف وانهزم عنه الجند فبقى في نحو المائتين فحمل بهم وهزم القوم من أرض الجب الى غيفة وبعث الى الفسطاط بثمانين رأسا وقدم فرجع أهل الحوف ومنعوا الخراج فخرج ليث الى الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش فانه لايقدر على استخراج الخراج من أهل الاحواف الا بجيش فرفع محفوظ بن سليمان انه يضمن خراج مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا فولاه الرشيد الخراج وصرف ليثا عن الصلات والخراج وبعث أحمد بن اسحق على الصلات مع محفوظ وكانت ولاية ليث أربع سنين وسبعة أشهر فولى (أحمد بن اسمعيل) بن على بن عبد الله بن عباس من قبل الرشيد على الصلات والخراج وقدم لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين ثم صرف لثمان عشرة خلت من شعبان سنة تسع وثمانين فولي سنتين وشهرا ونصفا ثم ولى (عبيدالله بن محمد) بن ابراهيم ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات واستخلف لهيعة بن عيسى بن لهيعة الحضرمي ثم قدم للنصف من شوال وصرف لاحدي عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين ومائة وخرج واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج فولى (الحسين ابن جميل) من قبل الرشيد على الصلات وقدم لعشر خلون من رمضان ثم جمع له الخراج مع الصلات في رجب سنة احدى وتسعين وخرج أهل الحوف وامتنعوا من اداء الخراج وخرج أبو النداء بايلة في نحو ألف رجل فقطع الطريق بايلة وشعيب ومدين وأغار على بعض قرى الشام وضوى اليه من جذام جماعة فبلغ من النهب والقتل مبلغا عظيما فبعث الرشيد من بغداد

(١) قوله أخاه الفضل بن على هكذا في النسخ التي بيدى ولعله أباه الفضل الخ تأمل اهـ مصححه

جيشا لذلك وبعث الحسين بن جميل من مصر عبد العزيز بن الوزير بن صابى الجروى في عسكر فالتقى العسكران بأيلة فظفر عبد العزيز بأبي النداء وسار جيش الرشيد الى بلبيس في شوال سنة احدى وتسعين ومائة فأذ عن أهل الحوف بالخراج وصرف ابن جميل لثنتى عشرة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين ومائة فولى (مالك بن دلهم) بن عمير الكلبي على الصلات والخراج وقدم لسبع بقين من ربيع الآخر وفرغ يحيي بن معاذ أمير جيش الرشيد من أمر الحوف وقدم الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة فكتب الى أهل الاحواف أن اقدموا حتي أوصى بكم مالك بن دلهم فدخل الرؤساء من اليمانيــة والقيسية فأخذت عليهم الابواب وقيدوا وسار بهم للنصف من رجب وصرف مالك لاربع خلت من صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة فولى (الحسن بن التختاح) بن التختكان على الصلات والخراج فاستخلف العلاء بن عاصم الخولانى وقدم لثلاث خلون من ربيع الاول ثم مات الرشيد واستخلف ابنه محمد الامين فثار الجند بمصر ووقعت فتنة عظيمة قتل فيها عدة وسير الحسن مال مصر فوثب أهل الرملة وأخذوه وبلغ الحسن عزله فسار من طريق الحجاز لفساد طريق الشام لثمان بقين من ربيع الاول سنة أربع وتسعين ومائة واستخلف عوف بن وهب على الصلات ومحمد بن زياد بن طبق القيسي على الخراج فولى (حاتم بن هرثمة) بن أعين من قبل الامين على الصلات والخراج وقدم في ألف من الابناء فنزل بلبيس فصالحه أهــل الاحواف على خراجهم وثار عليه أهل تنو وتمي وعسكروا فبعث اليهم جيشا فانهزموا ودخل حاتم الى الفسطاط ومعه نحو مائة من الرهائن لاربع خلون من شوال وصرف في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة فولى (جابر بن الاشعث) بن يحيي الطائى من قبل الامين على الصلات والخراج لخمس بقين من جمادى الآخرة وكان لينا فلما حــدثت فتنة الامين والمأمون قام السرى بن الحكم غضبا للمأمون ودعا الناس الى خلع الامين فأجابوه وبايعوا المأمون لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وأخرجوا جابر بن الاشعث وكانت ولايته سنة فولى (عباد بن محمد) بن حيان أبو نصر من قبل المأمون على الصلات والخراج لثمان خلون من رجب بكتاب هرثمة بن أعين وكان وكيله على ضياعه بمصر في الثامن من رجب سنة ست وتسعين فبلغ الامين ما كان بمصر فكتب الى ربيعة بن قيس بن الزبير الجرشي رئيس قيس الحوف بولاية مصر وكتب الى جماعة بمعاونته فقاموا ببيعة الامين وخلعوا المأمون وساروا لمحاربة أهل الفسطاط فخندق عباد وكانت حروب فقتل الامين وصرف عباد في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر فولي (المطلب بن عبــد الله) بن مالك الخزاعي من قبل المأمون على الصلات والخراج فدخل من مكة للنصف من ربيع الاول فكانت في أيامه حروب وصرف في شوال بعد سبعة أشهر فولى (العباس بن موسى)

ابن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس من قبل المأمون على الصلات والخراج فقدم ابنه عبد الله ومعه الحسين بن عبيد بن لوط الانصارى فى آخر شوال فسجنا المطلب فثار الجند مرارا فمنعهم الانصارى اعطياتهم وتهددهم وتحامل على الرعية وعسفها وتهدد الجميع فثاروا واخرجوا المطلب من الحبس وأقاموه لاربع عشرة خلت من المحرم سنة تسع وتسعين ومائة وأقبل العباس فنزل ببلبيس ودعا قيسا الى نصرته ومضى الى الجروى بتنيس ثم عاد فمات في بلبيس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة ويقال ان المطلب دس اليه سما في طعامه فمات منه وكانت حروب وفتن فكانت ولاية المطلب هذه سنة وثمانية أشهر ثم ولى (السرى بن الحكم) بن يوسف من قوم الزط ومن أهل بلخ باجماع الجند عليه عند قيامه على المطلب فى مستهل رمضان سنة مائتين ثم ولى (سليمان بن غالب) بن جبريل البجلى على الصلات والخراج بمبايعة الجند له لاربع خلون من ربيع الاول سنة احدى ومائتين فكانت حروب ثم صرف بعد خمسة أشهر واعيد (السرى بن الحكم) ثانيا من قبل المأمون على الصلات والخراج فذمت ولايته وأخرجه الجند من الحبس لثنتى عشرة خلت من شعبان وتتبع من حاربه وقوى أمره ومات وهو وال لانسلاخ جمادى الاولى سنة خمس ومائتين فكانت ولايته هذه ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما فولى ابنه (محمد بن السرى) أبو نصر أول جمادى الآخرة على الصلات والخراج وكان الجروى قد غلب على أسفل الارض فجرت بينهما حروب ثم مات لثمان خلون من شعبان سنة ست ومائتين وكانت ولايته أربعة عشر شهرا ثم ولى (عبيد الله بن السرى) بن الحكم بمبايعة الجند لتسع خلون من شعبان على الصلات والخراج فكانت بينه وبين الجروى حروب الى أن قدم عبد الله بن طاهر وأذعن له عبيد الله في آخر صفر سنة احدى عشرة ومائتين فولى (عبدالله بن طاهر) ابن الحسين بن مصعب من قبل المأمون على الصلات والخراج فدخل يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الاول سنة احدى عشرة ومائتين وأقام في معسكره حتى خرج عبد الله بن السرى الى بغداد للنصف من جمادى الاولى ثم سار الى الاسكندرية مستهل صفر سنة اثنتى عشرة واستخلف عيسى بن يزيد الجلودى فحصرها بضع عشرة ليلة ورجع في جمادى الآخرة وأمر بالزيادة فى الجامع العتيق فزيد فيه مثله وركب النيل متوجها الى العراق لخمس بقين من رجب وكان مقامه بمصر واليا سبعة عشر شهرا وعشرة أيام ثم ولى (عيسى بن يزيد) الجلودى باستخلاف بن طاهر على صلاتها الى سابع عشر ذى القعدة سنة ثلاث عشرة فصرف ابن طاهر وولى الامير أبو اسحق بن هرون الرشيد مصر فأقر عيسى على الصلات فقط وجعل على الخراج صالح بن شيرازاد فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أهل أسفل الارض وعسكروا فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش فحاربوه فانهزم وقتل أصحابه في صفر

سنة أربع عشرة فولى (عمير بن الوليد) التميمي باستخلاف أبي اسحاق بن الرشيد على الصلات لسبع عشرة خلت من صفر وخرج ومعه عيسى الجلودي لقتال أهل الحوف فى ربيع الآخر واستخلف ابنه محمد بن عمير فاقتتلوا وكانت بينهم معارك قتل فيها عمير لست عشرة خلت من ربيع الآخر فكانت مدة امرته ستين يوما فولى (عيسى الجلودي) ثانيا لابي اسحاق على الصلات فحارب أهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب وأقبل أبو اسحاق الى مصر فى أربعة آلاف من اتراكه فقاتل أهل الحوف فى شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط لثمان بقين منه وقتل أكابر الحوف ثم خرج الى الشام غرة المحرم سنة خمس عشرة ومائتين فى اتراكه ومعه جمع من الاسارى فى ضر وجهد شديد وولى على مصر (عبدويه بن جبلة) من الابناء على الصلات فخرج ناس بالحوف فى شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الصفدي الى مصر لثلاث خلون من ذى الحجة ومعه على بن عبد العزيز الجروى لاخذ ماله فلم يدفع اليه شيأ فقتله وصرف عبدويه وخرج الى برقة (وولى عيسى بن منصور) بن موسى بن عيسى الرافعى فولى من قبل أبي اسحاق أول سنة ست عشرة على الصلات فانتقضت أسفل الارض عربها وقبطها فى جمادى الاولى وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة للنصف من جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فأوقعا بالقوم وأسرا منهم وقتلا ومضى الافشين ورجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى أن قدم أمير المؤمنين عبد الله المأمون لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين فسخط على عيسى وحل لواءه فأخذه بلباس البياض ونسب الحدث اليه والى عماله وسير الجيوش وأوقع بأهل الفساد وسبى القبط وقتل مقاتلتهم ثم رحل لثمان عشرة خلت من صفر بعد تسعة وأربعين يوما وولى (كيدر) وهو نصر بن عبد الله أبو مالك الصفدى فورد كتاب المأمون عليه بأخذ الناس بالمحنة في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة والقاضي بمصر يومئذ هارون بن عبد الله الزهرى فأجاب وأجاب الشهود ومن وقف منهم سقطت شهادته وأخذ بها القضاة والمحدثون والمؤذنون فكانوا على ذلك من سنة ثمان عشرة الى سنة اثنتين وثلاثين ومات المأمون فى رجب سنة ثمان عشرة وبويع أبو اسحق المعتصم فورد كتابه على كيدر ببيعته ويأمره باسقاط من في الديوان من العرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك فخرج يحيي بن الوزير الجروى في جمع من لخم وجذام ومات كيدر في ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين فولى ابنه (المظفر بن كيدر) باستخلاف أبيه وخرج الي يحيي بن وزير وقاتله وأسره في جمادى الآخرة ثم صرفت مصر الى أبي جعفر اشناس فدعي له بها وصرف مظفر في شعبان فولى (موسى بن أبي العباس) ثابت من قبل أشناس على الصلات مستهل شهر رمضان سنة تسع عشرة وصرف

في ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائتين فكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر فولى (مالك بن كيدر) بن عبد الله الصفدى من قبل اشناس على الصلات وقدم لسبع بقين من ربيع الآخر وصرف لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ست وعشرين فولى سنتين وأحد عشر يوما وتوفى لعشر خلون من شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائتين فولى (على بن يحيى) الارمني من قبل اشناس على صلاتها وقدم لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين ومات المعتصم في ربيع الاول سنة سبع وعشرين وبويع الواثق بالله فأقره الى سابع ذى الحجة سنة ثمان وعشرين ومائتين فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر ثم ولي (عيسى ابن منصور) الثانية من قبل اشناس على صلاتها فدخل لسبع خلون من المحرم سنة تسع وعشرين ومائتين ومات اشناس سنة ثلاثين وجعل مكانه ايتاخ فأقر عيسى ومات الواثق وبويع المتوكل فصرف عيسى للنصف من ربيع الاول سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وقدم على ابن مهرويه خليفة هرثمة بن النضر ثم مات عيسى في قبة الهواء بعد عزله لاحدى عشرة خلت من ربيع الآخر فولى (هرثمة بن نضر) الجبلى من أهل الجبل لايتاخ على الصلات وقدم لست خلون من رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائتين فورد كتاب المتوكل بترك الجدال في القرآن لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين ومائتين ومات هرثمة وهو وال لسبع بقين من رجب سنة أربع واستخلف ابنه حاتم بن هرثمة فولى (حاتم بن هرثمة) ابن النضر باستخلاف أبيه له على الصلات وصرف لست خلون من رمضان فولى (على بن يحيى) بن الارمني الثانية من قبل ايتاخ على الصلات لست خلون من رمضان وصرف ايتاخ في المحرم سنة خمس وثلاثين واستصفيت أمواله بمصر وترك الدعاء له ودعى للمنتصر مكانه وصرف على في ذى الحجة منها فولى (اسحق بن يحيى) بن معاذ بن مسلم الجبلى من قبل المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل على الله على الصلات والخراج فقدم لاحدى عشرة خلت من ذى الحجة فورد كتاب المتوكل والمنتصر باخراج الطالبيين من مصر الى العراق فأخرجوا ومات اسحق بعد عزله أول ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ومائتين فولى (خوط عبد الواحد بن يحيى) بن منصور بن طلحة بن زريق من قبل المنتصر على الصلات والخراج فقدم لتسع بقين من ذى القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين وصرف عن الخراج لتسع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين وأقر على الصلات ثم صرف سلخ صفر سنة ثمان وثلاثين بخليفته عنبسة على الصلات والشركة في الخراج مستهل ربيع الاول فولي (عنبسة بن اسحق) ابن شمر بن عبس أبو جابر من قبل المنتصر على الصلات وشريكا لاحمد بن خالد الضريفسي صاحب الخراج فقدم لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وأخذ العمال برد المظالم وأقامهم للناس وأنصف منهم وأظهر من العدل مالم يسمع بمثله فى زمانه وكان يروح

ماشيا الى المسجد الجامع من العسكر وكان ينادى في شهر رمضان السحور وكان يرمى بمذهب الخوارج وفي ولايته نزل الروم دمياط وملكوها وما فيها وقتلوا بها جمعا كثيرا من الناس وسبوا النساء والاطفال فنفر اليهم يوم النحر من سنة ثمان وثلاثين فى جيشه وكثير من الناس فلم يدركهم واضيف له الخراج مع الصلات ثم صرف عن الخراج أول جمادى الآخرة سنة احدى واربعين وأفرد بالصلات وورد الكتاب بالدعاء للفتح بن خاقان فى ربيع الاول سنة اثنتين وأربعين فدعا له وعنبسة هذا آخر من ولي مصر من العرب وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع وصرف أول رجب منها فقدم العباس بن عبد الله بن دينار خليفة يزيد ابن عبد الله بولاية يزيد وكانت ولاية عنبسة أربع سنين وأربعة أشهر وخرج الى العراق فى رمضان سنة أربع وأربعين فولى (يزيد بن عبد الله) بن دينار أبو خالد من الموالى ولاه المنتصر على الصلات فقدم لعشر بقين من رجب سنة اثنتين وأربعين فأخرج المؤنثين من مصر وضربهم وطاف بهم ومنع من النداء على الجنائز وضرب فيه وخرج الى دمياط مرابطا فى المحرم سنة خمس وأربعين ورجع في ربيع الاول فبلغه نزول الروم الفرما فرجع اليها فلم يلقهم وعطل الرهان وباع الخيل التي تتخذ للسلطان فلم تجر الى سنة تسع وأربعين وتتبع الروافض وحملهم الى العراق وبنى مقياس النيل فى سنة سبع وأربعين وجرت على العلويين فى ولايته شدائد ومات المتوكل فى شوال وبويع ابنه محمد المنتصر ومات الفتح بن خاقان فأقر المنتصر يزيد على مصر ثم مات المنتصر فى ربيع الاول سنة ثمان وأربعين وبويع المستعين فورد كتابه بالاستسقاء لقحط كان بالعراق فاستسقوا لسبع عشرة خلت من ذى القعدة واستسقى أهل الآفاق فى يوم واحد وخلع المستعين فى المحرم سنة اثنتين وخمسين وبويع المعتز فخرج جابر بن الوليد بأرض الاسكندرية وكانت هناك حروب ابتدأت من ربيع الآخر فقدم مزاحم ابن خاقان من العراق معينا ليزيد فى جيش كثيف لثلاث عشرة بقيت من رجب فواقعهم حتى ظفر بهم ثم صرف يزيد وكانت مدته عشر سنين وسبعة أشهر وعشرة أيام فولى (مزاحم بن خاقان) بن عرطوج أبو الفوارس التركى لثلاث خلون من ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين ومائتين على الصلات من قبل المعتز وخرج الى الحوف فأوقع بأهله وعاد ثم خرج الى الجيزة فسار الى تروجة فأوقع بأهلها وأسر عدة من أهل البلاد وقتل كثيرا وسار الى الفيوم فطاش سيفه وكثر ايقاعه بسكان النواحي وعاد وولى الشرطة أرجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح ومنع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع في رجب سنة ثلاث وخمسين ولم يزل أهل مصر على الجهر بها فى الجامع منذ الاسلام الى أن منع منها أرجوز وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف ووكل بذلك رجلا من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد وأمر أهل الحلق بالتحول الى القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التى يستند

اليها ومن الحصر التى كانت للمجالس في الجامع وأمر أن تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح ولم يزل أهل مصر يصلونها ستاً الى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين ومنع من التثويب وأمر بالاذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد وأن يغلس بصلاة الصبح ونهى أن يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة وعاقب فى ذلك وشدد فيه ثم مات مزاحم لخمس مضين من المحرم سنة أربع وخمسين فاستخلف ابنه (احمد بن مزاحم) فولى باستخلاف أبيه على الصلات الى أن مات لسبع خلون من ربيع الآخر فكانت ولايته شهرين ويوما فاستخلف (ارجوز بن اولع طرخان التركي) على الصلات فولى خمسة أشهر ونصفا وخرج أول ذى القعدة بعد أن صرف بأحمد بن طولون فى شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين واليه كان أمر البلد جميعه من أيام مزاحم وفى أيام ابنه أحمد أيضاً والله تعالى أعلم

﴿ ذكر القطائع ودولة بنى طولون ﴾

اعلم أن القطائع قد زالت آثارها ولم يبق لها رسم يعرف وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل الى جامع ابن طولون وهذا أشبه أن يكون طول القطائع وأما عرضها فانه من أول الرميلة تحت القلعة الى الموضع الذى يعرف اليوم بالارض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل فقبة الهواء كانت في سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل وتحت قبة الهواء قصر ابن طولون وموضع هذا القصر الميدان السلطانى تحت القلعة والرميلة التي تحت القلعة مكان سوق الخيل والحمير والجمال كان البستان ويجاورها الميدان في الموضع الذى يعرف اليوم بالقبيبات فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذى أنشأه احمد بن طولون وبحذاء الجامع دار الامارة فى جهته القبلية ولها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة المحيطة بمصلى الامير الى جوار المحراب وهنالك أيضاً دار الحرم والقطائع عدة قطع تسكن فيها عبيد ابن طولون وعساكره وغلمانه وكل قطيعة لطائفة فيقال قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين ونحو ذلك فكانت كل قطيعة لسكنى جماعة بمنزلة الحارات التي بالقاهرة وكان ابتداء عمارة هذه القطائع وسببها أن أمير المؤمنين المعتصم بالله أبا اسحاق محمد بن هارون الرشيد لما اختص بالاتراك ووضع من العرب وأخرجهم من الديوان وأسقط أسماءهم ومنعهم العطاء وجعل الاتراك أنصار دولته وأعلام دعوته كان من عظمت عنده منزلته قلده الاعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة فيستخلف على ذلك العمل الذى تقلده من يقوم بأمره ويحمل اليه ماله ويدعى له على منابره كما يدعى للخليفة وكانت مصر عندهم بهذه السبيل وقصد المعتصم ومن بعده من الخلفاء بذلك العمل مع الاتراك محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح والمأمون بطاهر بن الحسين ففعل

المعتصم مثل ذلك بالاتراك فقلد اشناس وقلد الواثق ايتاخ وقلد المتوكل نقا ووصيف وقلد المهتدى ماجور وغير من ذكرنا من أعمال الاقاليم ما قد تضمنته كتب التاريخ فتقلد باكباك مصر وطلب من يخلفه عليها وكان احمد بن طولون قد مات أبوه في سنة أربعين ومائتين ولاحمد عشرون سنة منذ ولد من جارية كانت تدعى قاسم وكان مولده في سنة عشرين ومائتين وولدت أيضاً أخاه موسى وحبسية وسمانة وكان طولون من الطغرغر مما حمله نوح ابن أسد عامل بخارى الى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك في كل سنة وذلك في سنة مائتين فنشأ أحمد بن طولون نشأ جميلا غير نشء أولاد العجم فوصف بعلو الهمة وحسن الادب والذهاب بنفسه عما كان يترامى اليه أهل طبقته وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج الى طرسوس مرات ولقى المحدثين وسمع منهم وكتب العلم وصحب الزهاد وأهل الورع فتأدب بآدابهم وظهر فضله فاشتهر عند الاولياء وتميز على الاتراك وصار في عداد من يوثق به ويؤتمن على الاموال والاسرار فزوجه ماجور ابنته وهى أم ابنه العباس وابنته فاطمة ثم انه سأل الوزير عبيد الله بن يحيى أن يكتب له برزقه على الثغر فأجابه وخرج الى طرسوس فأقام بها وشق على أمه مفارقته فكاتبته بما أقلقه فلما قفل الناس الى سر من رأى سار معهم الى لقاء أمه وكان فى القافلة نحو خمسمائة رجل والخليفة اذ ذاك المستعين بالله احمد بن المعتصم وكان قد أنفذ خادما الى بلاد الروم لعمل أشياء نفيسة فلما عاد بها وهى وقر بغل الى طرسوس خرج مع القافلة وكان من رسم الغزاة أن يسيروا متفرقين فطرق الاعراب بعض سوادهم وجاء الصائح فبدر احمد بن طولون لقتالهم وتبعوه فوضع السيف في الاعراب ورمى بنفسه فيهم حتى استنقذ منهم جميع ما أخذوه وفروا منه وكان من جملة ما استنقذ من الاعراب البغل المحمل بمتاع الخليفة فعظم أحمد بما فعل عند الخادم وكبر في أعين القافلة فلما وصلوا الى العراق وشاهد المستعين ما أحضره الخادم أعجب به وعرفه الخادم خروج الاعراب وأخذهم البغل بما عليه وما كان من صنع احمد ابن طولون فأمر له بألف دينار وسلم عليه مع الخادم وأمره أن يعرفه به اذا دخل مع المسلمين ففعل ذلك وتوالت عليه صلات الخليفة حتى حسنت حاله ووهبه جارية اسمها مياس استولدها ابنه خمارويه في النصف من المحرم سنة خمسين ومائتين فلما خلع المستعين وبويع المعتز اخرج المستعين الى واسط واختار الاتراك أحمد بن طولون أن يكون معه فسلم اليه ومضى به فأحسن عشرته وأطلق له التنزه والصيد وخشى أن يلحقه منه احتشام فألزمه كاتبه احمد بن محمد الواسطى وهو اذ ذاك غلام حسن الشاهد حاضر النادرة فأنس به المستعين ثم ان قبيحة أم المعتز كتبت الى أحمد بن طولون بقتل المستعين وقلدته واسط فامتنع من ذلك وكتب الى الاتراك يخبرهم بأنه لا يقتل خليفة له في رقبته بيعة فراد محله عند الاتراك

بذلك ووجهوا سعيد الحاجب وكتبوا الى ابن طولون بتسليم المستعين له فتسلمه منه وقتله وواراه ابن طولون وعاد الى سر من رأى وقد تقلد باكباك مصر وطلب من يوجهه اليها فذكر له احمد بن طولون فقلده خلافته وضم اليه جيشاً وسار الى مصر فدخلها يوم الاربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين متقلدا للقصبة دون غيرها من الاعمال الخارجة عنها كالاسكندرية ونحوها ودخل معه احمد بن محمد الواسطى وجلس الناس لرؤيته فسأل بعضهم غلام أبي قبيل صاحب الملاحم وكان مكفوفا عما يجده في كتبهم فقال هذا رجل نجد صفته كذا وكذا وانه يتقلد الملك هو وولده قريباً من أربعين سنة فما تم كلامه حتى أقبل أحمد بن طولون واذا هو على النعت الذي قال * ولما تسلم أحمد بن طولون مصر كان على الخراج احمد بن محمد بن المدبر وهو من دهاة الناس وشياطين الكتاب فأهدى الى أحمد بن طولون هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار بعد ما خرج الى لقائه هو وشقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدى ابن المدبر مائة غلام من الغور قد انتخبهم وصيرهم عدة وجمالا وكان لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس فاذا ركب ركبوا بين يديه فيصير له بهم هيبة عظيمة فى صدور الناس فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه فقال ابن المدبر ان هذه لهمة عظيمة من كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الاطراف فخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير أيام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددتها توفيرا عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك فأنا اليهم أحوج منك فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاعراض والاموال ويستهدى الرجال ويشاير عليهم ولم يجد بدا من أن بعثهم اليه فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون ونقصت مهابة ابن المدبر بمفارقة الغلمان مجلسه فكتب ابن المدبر فيه الى الحضرة يغرى به ويحرض على عزله فبلغ ذلك ابن طولون فكتم في نفسه ولم يبده واتفق موت المعتز في رجب سنة خمس وخمسين وقيام المهتدى بالله محمد بن الواثق وقتل باكباك ورد جميع ما كان بيده الى ماجور التركي حموا بن طولون فكتب اليه تسلم من نفسك لنفسك وزاده الاعمال الخارجة عن قصبة مصر وكتب الى اسحق بن دينار وهو يتقلد الاسكندرية أن يسلمها لاحمد بن طولون فعظمت لذلك منزلته وكثر قلق ابن المدبر وغمه ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون الى ملاطفته والتقرب من خاطره وخرج ابن طولون الى

الاسكندرية وتسلمها من اسحق بن دينار وأقره عليها وكان أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات وثب ابنه على الاعمال واستبد بها فبعث ابن المدبر سبعمائة ألف وخمسين ألف دينار حملا من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في أصحابه وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انه يريد مصر فلما قتل المهتدى في رجب سنة ست وخمسين وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له ولا بايع هو ولا أصحابه فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على مامعه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عمله فدعا حينئذ للمعتمد وكتب الى ابن طولون أن يتاهب لحرب ابن شيخ وأن يزيد في عدته وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال مايريد فعرض ابن طولون الرجال وأثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان وعمل سائر مايحتاج اليه وخرج في تجمل كبير وجيش عظيم وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ورد ماأخذ من المال فأجاب بجواب قبيح فصار لست خلون من جمادى الآخرة واستخلف أخاه موسى بن طولون على مصر ثم رجع من الطريق بكتاب ورد عليه من العراق ودخل الفسطاط في شعبان وقدم من العراق ماجور التركي لمحاربة ابن شيخ فلقيه أصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه فانهزموا منه وقتل الابن واستولى ماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بنواحي أرمينية وتقلد ماجور أعمال الشام كله وصار أحمد بن طولون من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق به داره ولا يتسع له فركب الى سفح الجبل في شعبان وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى واختط موضعها فبنى القصر والميدان وتقدم الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لانفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء لعمارة الفسطاط ثم قطعت القطائع وسميت كل قطعية باسم من سكنها فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبنى القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والافران وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين فكان في دكاكين الفاميين جميع مافي دكاكين نظرائهم في المدينة وأكثر وأحسن وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه وجعل له ميدانا كبيرا يضرب فيه بالصوالجة فسمى القصر كله الميدان وكان كل من أراد الخروج من صغير وكبير اذا سئل عن ذهابه يقول الى الميدان وعمل للميدان أبوابا لكل باب اسم وهي باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالجة وباب

الخاصة ولا يدخل منه الا خاصة ابن طولون وباب الجبل لانه مما يلى جبل المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه الا خادم خصى أو حرمة وباب الدرمون لانه كان يجلس عنده حاجب اسود عظيم الخلقة يتقلد جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط يقال له الدرمون وباب دعناج لانه كان يجلس عنده حاجب يقال له دعناج وباب الساج لانه عمل من خشب الساج وباب الصلاة لانه كان فى الشارع الاعظم ومنه يتوصل الى جامع ابن طولون وعرف هذا الباب أيضاً بباب السباع لانه كان عليه صورة سبعين من جبس وكان الطريق الذى يخرج منه ابن طولون وهو الذى يعرج منه الى القصر طريقا واسعا فقطعه بحائط وعمل فيه ثلاثة أبواب كأكبر مايكون من الابواب وكانت متصلة بعضها ببعض واحدا بجانب الآخر وكان ابن طولون اذا ركب يخرج معه عسكر متكاثف الخروج على ترتيب حسن بغير زحمة ثم يخرج ابن طولون من الباب الاوسط من الابواب الثلاثة بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس وكانت الابواب المذكورة تفتح كلها في يوم العيــد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وما عدا هذه الايام لا تفتح الا بترتيب في أوقات معروفة وكان القصر له مجلس يشرف منــه ابن طولون يوم العرض ويوم الصــدقة لينظر من اعلاه من يدخل ويخرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم في حوائجهم فاذا رأى فى حال أحد منهم نقصا أو خللا أمر له بمـا يتسع به ويزيد في تجمله وكان يشرف منــه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلي ذلك فكان منتزها حسنا وبنى الجامع فعرف بالجامع الجديد وبنى العين والسقاية بالمغافر وبنى تنور فرعون فوق الجبل واتسعت أحواله وكثرت اصطبلاته وكراعه وعظم صيته فخـافه ماجور وكتب فيه الى الحضرة يغرى به وكتب فيه ابن المدبر وشقير الخادم وكانت لابن طولون أعين وأصحاب أخبار يطالعونه بسائر مايحدث فلما بلغه ذلك تلطف أصحاب الأخبار له ببغداد عند الوزير حتى سير الى ابن طولون بكتب ابن المدبر وكتب شقير من غير أن يعلما بذلك فاذا فيها ان أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر والعصيان بها فكتم خــبر الكتب وما زال بشقير حتى مات وكتب الى الحضرة يسأل صرف ابن المدبر عن الخراج وتقليد هلال فأجيب الى ذلك وقبض على ابن المــدبر وحبسه وكانت له معه أمور آلت الى خروج ابن المدبر عن مصر وتقلد ابن طولون خراج مصر مع المعونة والثغور الشامية فأسقط المعاون والمرافق وكانت بمصر خاصة في كل سنة مائة ألف دينار فأظفره الله عقيب ذلك بكنز فيــه ألف ألف دينار بنى منه المارستان وخرج الى الشام وقد تقلدها فتسلم دمشق وحمص ونازل انطاكية حتى أخذها وكانت صــدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة وكان راتبــه لذلك في

كل شهر ألفي دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر وكانت تعمل في داره وينادى من أحب أن يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذى تقدم ذكره ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطغان وكان على صدقاته أيد الله الامير انا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشا والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم فقال ياهذا كل من مد يده اليك فأعطه فهذه هي الطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فاحذر أن ترد يدا امتدت اليك وأعط كل من يطلب منك فلما مات أحمد بن طولون وقام من بعده ابنه خمارويه أقبل على قصر أبيه وزاد فيه وأخذ الميدان الذى كان لابيه فجعله كله بستانا وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ونقل اليه الودى اللطيف الذى ينال ثمره القائم ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساقي معمولة ويفيض منها الماء الى مجار تسقي سائر البستان وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة وزرع فيه النيلوفر الاحمر والازرق والاصفر والجنوى العجيب وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وزوقه بأصناف الاصباغ وبلط أرضه وجعل في تضاعيفه أنهارا لطافا جدا ولها يجرى فيها الماء مدبرا من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الاشجار وغيرها وسرح في هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الانهار الجارية في البرج وجعل فيه أوكارا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها وعارض لها فيه عيدانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيأ كثيرا وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول

في أحسن نقش وأظرف تفصيل وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير وابهج تزويق وجعل على رؤسهن الاكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الاجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة وهى مسمرة في الحيطان ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا وجعل بين يدى هذا البيت فسقية مقدرة وملأها زئبقا وذلك انه شكا الى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك وقال لااقدر على وضع يد أحد على فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعا طولا فى خمسين ذراعا عرضا وملأها من الزئبق فأنفق في ذلك أموالا عظيمة وجعل في أركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة وعمل فرشا من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق وتشد زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه وكانت هذه البركة من أعظم ماسمع به من الهمم الملوكية فكان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب اذا تألف نور القمر بنور الزئبق ولقد أقام الناس بعد خراب القصر مدة يحفرون لاخذ الزئبق من شقوق البركة وما عرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذه البركة وبنى أيضا في القصر قبة تضاهى قبة الهواء سماها الدكة فكانت أحسن شئ بنى وجعل لها الستر التى تقى الحر والبرد فتسبل اذا شاء وترفع اذا أحب وفرش أرضها بالفرش السرية وعمل لكل فصل فرشا يليق به وكان كثيرا مايجلس في هذه القبة ليشرف منها على جميع مافي داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة وبنى ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه وكان أحمد بن طولون قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سماهم بالمكبرين عدتهم اثنا عشر رجلا يبيت منهم في كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل نوبا يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ويقرؤن القرآن تطريبا بألحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذنون أوقات الاذان فلما ولى خمارويه أقرهم على حالهم وأجراهم على رسمهم وكان يجلس للشرب مع حظاياه فى الليل وقيناته تغنيه فاذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح في يده وضعه بالارض وأسكت مغنياته وذكر الله معهم أبدا حتى يسكت القوم لايضجره ذلك ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذته بالسماع وبنى أيضا فى داره دارا للسباع عمل فيها بيوتا بآزاج كل بيت يسع سبعا ولبوته وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من اعلاها بحركات ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالزبل وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء وبين

يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته أو وضع وظيفة اللحم التى لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ويرد الباب ثم ينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد مايخلص مافيه من الغدد ويقطعه لهما ويغسل الحوض ويملأه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من اعلاه وقد عرف السبع ذلك فحال مايرفع السائس باب البيت دخل اليه الاسد فأكل ماهيئ له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته فكانت هذه مملوءة من السباع ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج الى القاعة وتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا فتقيم يوما كاملا الى العشى فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لايتخطاه الى غيره وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقا فى الدار لايؤذى أحدا ويقام له بوظيفته من الغذاء فى كل يوم فاذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه فرمي اليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدى ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به وكانت له لبوة لم تستأنس كما أنس فكانت مقصورة فى بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدى السرير وجعل يراعيه مادام نائما وان كان انما نام على الارض بقى قريبا منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه لايغفل عن ذلك لحظة واحدة وكان على ذلك دهره قد ألف ذلك ودرب عليه وكان فى عنقه طوق من ذهب فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه مادام نائما لمراعاة زريق له وحراسته اياه حتى اذا شاء الله انفاذ قضائه في خمارويه كان بدمشق وزريق غائب عنه بمصر ليعلم انه لايغنى حذر من قدر وبنى أيضا دار الحرم ونقل اليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده وأفرد لكل واحدة حجرة واسعة نزل فى كل حجرة منها بعد زوال دولتهم قائد جليل فوسعته وفضل عنه منها شئ وأقام لكل حجرة من الانزال والوظائف الواسعة ماكان يفضل عن أهلها منه شئ كثير فكان الخدم الموكلون بالحرم من الطباخين وغيرهم يفضل لكل منهم مع كثرة عددهم بعد التوسع في قوته الزلة الكبيرة والتى فيها العدة من الدجاج فمنها ماقلع فخذها ومنها ماقد تشعب صدرها ومن الفراخ مثل ذلك مع القطع الكبار من الجدى ولحوم الضأن والعدة من ألوان عديدة والقطع الصالحة من الفالوذج والكثير من اللوز ينج والقطائف والهرائس من المصيدة التى تعرف اليوم في وقتنا هذا بالمامونية وأشباه ذلك مع الارغفة الكبار واشتهر بمصر بيعهم لذلك وعرفوا به فكان الناس يتناوبونهم لذلك وأكثر ما تباع الزلة الكبيرة

منها بدرهمين ومنها ما يباع بدرهم فكان كثير من الناس يتفكهون من هذه الزلات وكان شياه موجودا في كل وقت لكثرته واتساعه بحيث ان الرجل اذا طرقه ضيف خرج من فوره الى باب دار الحرم فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لايقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك واتسعت أيضا اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفردا فكان للخيل الخاص اصطبل مفرد والدواب الغلمان اصطبلات عدة ولبغال القباب اصطبلات ولبغال النقل غير بغال القباب اصطبلات وللنجائب والبخاتي اصطبلات لكل صنف اصطبل مفرد للاتساع في المواضع والتفنن في الأثقال وعمل للنمور دارا مفردة وللفهود دارا مفردة وللفيلة دارا وللزرافات دارا كل ذلك سوى الاصطبلات التي بالجيزة فانه كان له في عدة ضياع من الجيزة اصطبلات مثل نهيا ووسيم وسفط وطهرمس وغيرها وكانت هذه الضياع لا تزرع الا القرط برسم الدواب وكان للخليفة أيضاً بمصر اصطبلات سوى ما ذكر تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله تعالى برسم الغزو وكان لكل دار من الدور المذكورة ولكل اصطبل وكلاء لهم الرزق السني والوظائف الكثيرة والاموال المتسعة وبلغ رزق الجيش في أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار في كل سنة وقام مطبخه المعروف بمطبخ العامة بثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر سوى ما هو موظف لجواريه وأرزاق من يخدمهن ويتصرف في حوائجهن وكان قد اتخذ لنفسه من ولد الحوف وشنارة الضياع قوما معروفين بالشجاعة والبأس لهم خلق عظيم تام وعظم أجسام وأدر عليهم الارزاق ووسع لهم في العطاء وشغلهم عما كانوا فيه من قطع الطريق وأذية الناس بخدمته وألبسهم الاقبية وجواشن الديباج وصاغ لهم المناطق العراض الثقال وقلدهم السيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم فاذا مشوا بين يديه وموكبه على ترتيبه ومضت أصناف العسكر وطوائفه تلاهم السودان وعدتهم ألف اسود لهم درق من حديد محكم الصنعة وعليهم أقبية سود وعمائم سود فيخالهم الناظر اليهم بحرا اسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ويصير لبريق درقهم وحلى سيوفهم والبيض التي تلمع على رؤسهم من تحت العمائم زى بهج فاذا مضى السودان قدم خمارويه وقد انفرد عن موكبه وصار بينه وبين الموكب نحو نصف غلوة سهم والمختارة تحف به وكان تام الظهر ويركب فرسا تاما فيصير كالكوكب اذا أقبل لا يخفى على أحد كانه قطعة جبل في وسط المختارة وكان مهابا ذا سطوة وقد وقع في قلوب الكافة انه متى أشار اليه أحد بأصبعه أو تكلم أو قرب منه لحقه مكروه عظيم فكان اذا أقبل كما ذكرنا لا يسمع من أحد كلمة ولاسعلة ولا عطسة ولا نحنحة البتة كانما على رؤسهم الطير وكان يتقلد في يوم العيد سيفا بحمائل ولا يزال يتفرج ويتنزه ويخرج الى مواضع لم يكن أبوه يهش اليها كالاهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك لاجل الصيد

فانه كان مشغوفا به لا يكاد يسمع بسبع الا قصده ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون الى الاسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سالم فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم فاذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص وفيه السبع بين يديه وكانت حلبة السباق في أيامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون في الاعياد وتطاق الخيل من غايتها فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق قال القضاعي المنظر بناه احمد بن طولون في ولايته لعرض الخيل وكان عرض الخيل من عجائب الاسلام الاربعة التي منها هذا العرض ورمضان بمكة والعيد كان بطرسوس والجمعة ببغداد فبقي من هذه الاربعة شهر رمضان بمكة والجمعة ببغداد وذهبت اثنتان قال كاتبه وقد ذهبت الجمعة ببغداد أيضا بعد القضاعي بقتل هولاكو للخليفة المستعصم وزوال شعائر الاسلام من العراق وبقيت مكة شرفها الله تعالى وليس في شهر رمضان الآن بها ما يقال فيه انه من عجائب الاسلام ولما تكامل عز خمارويه وانتهى أمره بدا يسترجع منه الدهر ما أعطاه فأول ما طرقه موت حظيته بوران التي من أجلها بنى بيت الذهب وصور فيه صورتها وصورته كما تقدم وكان يرى أن الدنيا لا تطيب له الا بسلامتها وبنظره اليها وتمتعه بها فكدر موتها عيشه وانكسر انكسارا بان عليه ثم انه أخذ في تجهيز ابنته فجهزها جهازا ضاهى به نعم الخلافة فلم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها فكان من جملته دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب * قال القضاعي وعقد المعتضد النكاح على ابنته يعني ابنة خمارويه قطر الندى فحملها أبو الجيش خمارويه مع عبد الله بن الجصاص وحمل معها مالم ير مثله ولا يسمع به ولما دخل اليه ابن الجصاص يودعه قال له خمارويه هل بقي بيني وبينك حساب فقال لا فقال انظر حسابك فقال كسر بقي من الجهاز فقال أحضروه فأخرج ربع طومار فيه سبت ذكر النفقة فاذا هي أربعمائة ألف دينار قال محمد ابن علي المادراني فنظرت في الطومار فاذا فيه وألف تكة الثمن عنها عشرة آلاف دينار فاطلق له الكل * قال القضاعي وانما ذكرت هذا الخبر لتستدل به على اشياء منها سعة نفس أبي الجيش ومنها كثرة ما كان يملكه ابن الجصاص حتى انه قال كسر بقي من الجهاز وهو أربعمائة ألف دينار لولم يقتضه ذلك لم يذكره ومنها ميسور ذلك الزمان لما طلب فيه ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها في أيسر وقت وبأهون سعي ولو طلب اليوم خمسون لم يقدر عليها قال كاتبه ولا يعرف اليوم في أسواق القاهرة ومصر تكة بعشرة دنانير اذا طلبت توجد في الحال ولا بعد شهر الا أن يتعنى بعملها فتعمل ولما فرغ خمارويه من جهاز

ابنته أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة مع ابن الجصاص فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع مايحتاج اليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الاقامة فكانت في مسيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين فزفت على الخليفة المعتضد وبعد ذلك قتل خمارويه بدمشق وكانت مدة بنى طولون بمصر سبعا وثلاثين سنة وستة أشهر واثنين وعشرين يوما وولى منهم خمسة امراء أولهم (أحمد بن طولون) ولى مصر من قبل المعتز على صلاتها فدخل يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين وخرج بغا الاصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا فيما بين برقة والاسكندرية في جمادى الاولى سنة خمس وخمسين وسار الى الصعيد فقتل في الحرب وحمل رأسه الى الفسطاط لاحدى عشرة بقيت من شعبان وخرج ابن الصوفي العلوى وهو ابراهيم ابن محمد بن يحيي بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبي طالب ودخل اسنا في ذى القعدة فنهب وقتل فبعث اليه ابن طولون جيشا فهزم الجيش في ربيع الاول سنة ست وخمسين فبعث بجيش آخر فواقعه باخميم في ربيع الآخر فانهزم ابن الصوفي الى الواح فأقام به وخرج أحمد بن طولون يريد حرب عيسى بن الشيخ ثم عاد فابتدأ فى بناء الميدان وقدم العباس وخمارويه ابنا أحمد بن طولون من العراق على طريق مكة سنة سبع وخمسين وورد كتاب ماجور بتسلم أحمد بن طولون الاعمال الخارجة عن يده من أرض مصر فتسلم الاسكندرية وخرج اليها لثمان خلون من شهر رمضان واستخلف طفج صاحب الشرط ثم قدم لاربع عشرة بقيت من شوال وسخط على أخيه موسى وأمره بلباس البياض وخرج الى الاسكندرية ثانيا لثمان بقين من شعبان سنة تسع وخمسين واستخلف ابنه العباس وقدم لثمان خلون من شوال وأمر ببناء المسجد الجامع على الجبل في صفر سنة تسع وخمسين وببناء المارستان للمرضى وورد كتاب المعتمد يستحثه في حمل الاموال فكتب اليه لست أطيق ذلك والخراج بيد غيرى فأنفذ المعتمد نفيسا الخادم بتقليد أحمد ابن طولون الخراج وبولايته على الثغور الشامية فأقر أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج خليفة له عليه وعقد لطخشى بن بلبرد على الثغور فخرج في جمادى الاولى سنة أربع وستين وتقدم أبو أحمد الموفق الى موسى بن بغا في صرف أحمد بن طولون وتقليدها ماجور التركي والى دمشق فكتب اليه بذلك فتوقف لعجزه عن مقاومة ابن طولون فخرج موسى بن بغا ونزل الرقة فبلغ ابن طولون انه سائر اليه فابتدأ في بناء

الحصن بالجزيرة ليكون معقلا لما له وحرمه فى سنة ثلاث وستين واجتهد في عمل المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة فأقام موسى بالرقة عشرة أشهر واضطربت أموره ومات في صفر سنة أربع وستين ومات ماجور بدمشق، واستخلف ابنه على بن ماجور فحرك ذلك أحمد ابن طولون على المسير وكتب الى ابن ماجور انه سائر اليه وأمره باقامة الانزال والميرة فأجاب بجواب حسن وشكا أهل مصر الى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر فابتدأ ببنائه في سنة أربع وتم في سنة ست وستين ومائتين وخرج فى جيوشه لثمان بقين من شعبان سنة أربع وستين واستخلف ابنه العباس وضم اليه أحمد بن محمد الواسطي مدبرا ووزيرا فبلغ الرملة وتلقاه محمد بن رافع واليها وأقام له بها الدعوة فأقره ومضى الى دمشق فتلقاه على بن ماجور وأقام له بها الدعوة فأقام بها حتى استوثق له أمرها ومضى الى حمص فتسلمها وبعث الى سيما الطويل وهو بانطاكية يأمره بالدعاء له فأبى فسار اليه في جيش عظيم وحاصره ورماه بالمجانيق حتى دخلها فى المحرم سنة خمس وستين فقتل سيما واستباح أمواله ورجاله ومضى الى طرسوس فدخلها في ربيع الاول فضاقت به وغلا السعر بها فنابذه أهلها فقاتلهم وأمر أصحابه أن ينهزموا عن أهل طرسوس ليبلغ طاغية الروم فيعلم أن جيوش ابن طولون مع كثرتها وشدتها لم تقم لاهل طرسوس فانهزموا وخرج عنهم واستخلف عليها طخشي فورد الخبر عليه بأن ابنه العباس قد خالف عليه فازعجه ذلك وسار فخاف العباس وقيد الواسطى وخرج بطائفته الى الجيزة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وستين ومائتين فعسكر بها واستخلف أخاه ربيعة بن أحمد واظهر أنه يريد الاسكندرية وسار الى برقة فقدم أحمد بن طولون من الشام لاربع خلون من رمضان فأنفذ القاضي بكار ابن قتيبة فى نفر بكتابه الى العباس فسار واليه ببرقة فأبى أن يرجع وعاد بكار في أول ذى الحجة ومضى العباس يريد افريقية في جمادى الاولى سنة ست وستين فنهب لبدة وقتل من أهلها عدة وضجت نساؤهم فاجتمع عليه جيش ابن الاغلب والاباضية فقاتلهم بنفسه وحسن بلاؤه يومئذ وقال

لله درى اذ أعدوا على فرسي * الى الهياج ونار الحرب تستعر
وفي يدى صارم أفرى الرؤس به * في حده الموت لايبقى ولا يذر
ان كنت سائلة عني وعن خبرى * فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلي ان سألت فما * فوقي لمفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة اذ * بالسيف أضرب والهامات تبتدر
اذا لعاينت مني ما تبادره * عني الاحاديث والانباء والخبر

وقتل يومئذ صناديد عسكره ووجوه أصحابه ونهبت أمواله وفر الى برقة في ضر وعقد

أحمد بن طولون على جيش وبعث به الى برقة في رمضان سنة سبع وستين ثم خرج بنفسه في عسكر عظيم يقال انه بلغ مائة ألف لثنتي عشرة خلت من ربيع الاول سنة ثمان وستين فأقام بالاسكندرية وفر اليه أحمد بن محمد الواسطي من عند العباس فصغر عنده أمر العباس فعقد على جيش سيره الى برقة فواقعوا أصحاب العباس وهزموهم وقتلوا منهم كثيرا وأدركوا العباس لاربع خلون من رجب وعاد أحمد الى الفسطاط لثلاث عشرة خلت منه وقدم العباس والاسرى في شوال ثم أخرجوا أول ذى القعدة وقد بنيت لهم دكة عالية فضربوا وألقوا من أعلاها ثم بعث بلؤلؤ في جيش الى الشام فخالف على أحمد ومال مع الموفق وصار اليه فخرج أحمد واستخلف ابنه خمارويه في صفر سنة تسع وستين فنزل دمشق ومعه ابنه العباس مقيدا فخالف عليه أهل طرسوس فخرج يريد محاربتهم ثم توقف لورود كتاب المعتمد عليه أنه قادم عليه ليلتجئ اليه فخرج كالمتصيد من بغداد وتوجه نحو الرقة فبلغ أبا أحمد الموفق مسيره وهو محارب لصاحب الزنج فعمل عليه حتى عاد الى سامرا ووكل به جماعة وعقد لاسحق بن كنداج الخزرى على مصر فبلغ ذلك ابن طولون فرجع الى دمشق وأحضر القضاة والفقهاء من الاعمال وكتب الى مصر كتابا قرئ على الناس بأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره في دار أحمد بن الخصيب وان المعتمد قد صار من ذلك الى مالا يجوز ذكره وانه بكي بكاء شديدا فلما خطب الخطيب يوم الجمعة ذكر مانيل من المعتمد وقال اللهم فاكفه من حصره وظلمه وخرج من مصر بكار بن قتيبة وجماعة الى دمشق وقد حضر أهل الشامات والثغور فأمر ابن طولون بكتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفة المعتمد وحصره اياه وكتب فيه ان أبا أحمد الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الامة وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة وآخرين وقال بكار لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه وامتنع من الشهادة والخلع وكان ذلك لاحدى عشرة خلت من ذى القعدة فبلغ ذلك الموفق فكتب الى عماله بلعن أحمد بن طولون على المنابر فلعن عليها بما صيغته اللهم العنه لعنا يفل حده ويتعس جده واجعله مثلا للغابرين انك لاتصلح عمل المفسدين ومضى أحمد الى طرسوس فنازلها وكان البرد شديدا ثم رحل عنها الى أذنة وسار الى المصيصة فنزلت به علة الموت فأعد السير يريد مصر حتى بلغ الفرما فركب النيل الى الفسطاط فدخل لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبعين فأوقف بكار بن قتيبة وبعث به الى السجن وتزايدت به العلة حتى مات ليلة الاحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين فلما بلغ المعتمد موته اشتد وجده وجزعه عليه وقال يرثيه

الى الله اشكو أسى * عراني كوقع الاسل * على رجل اروع * يرى منه فضل الوجل

شهاب خبا وقده * وعارض غيث أقل * شكت دولتي فقده * وكان يزين الدول

فقام بعده ابنه (أبو الجيش خمارويه) بن أحمد بن طولون وبايعه الجند يوم الاحد لعشر خلون من ذى القعدة فأمر بقتل أخيه العباس لامتناعه من مبايعته وعقد لابي عبد الله أحمد الواسطى على جيش الى الشام لست خلون من ذى الحجة وعقد لسعد الاعسر على جيش آخر وبعث بمراكب في البحر لتقيم على السواحل الشامية فنزل الواسطى فلسطين وهو خائف من خمارويه أن يوقع به لانه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس فكتب الى أبي أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه ويحرضه على المسير اليه فأقبل من بغداد وانضم اليه اسحاق بن كنداج ومحمد بن أبى الساج ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم وسار الى شيرز فقاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق فخرج خمارويه في جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة احدى وسبعين فالتقى مع أحمد بن الموفق بنهر أبى بطرس المعروف بالطواحين من أرض فلسطين واقتتلا فانهزم أصحاب خمارويه وكان في سبعين ألفا وابن الموفق في نحو أربعة آلاف واحتوى على عسكر خمارويه بما فيه ومضى خمارويه الى الفسطاط وأقبل كمين له عليه سعد الاعسر ولم يعلم بهزيمة خمارويه فحارب ابن الموفق حتى ازاله عن المعسكر وهزمه اثنى عشر ميلا ومضى الى دمشق فلم يفتح له ودخل خمارويه الى الفسطاط لثلاث خلون من ربيع الاول وسار سعد الاعسر والواسطى فملكا دمشق وخرج خمارويه من مصر لسبع بقين من رمضان فوصل الى فلسطين ثم عاد لاثنتى عشرة بقيت من شوال ثم خرج في ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين فقتل سعدا الاعسر ودخل دمشق لسبع خلون من المحرم سنة ثلاث وسبعين وسار لقتال ابن كنداج فكانت على خمارويه فانهزم أصحابه وثبت هو في طائفة فهزم ابن كنداج وأتبعه حتى بلغ أصحابه سر من رأى ثم اصطلحا وتظاهرا وأقبل الى خمارويه فأقام فى عسكره ودعا له في اعماله التي بيده وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق في الصلح فأجابه الى ذلك وكتب له بذلك كتابا فورد عليه به فائق الخادم الى مصر في رجب ذكر فيه أن المعتمد والموفق وابنه كتبوه بأيديهم وبولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات ثم قدم خمارويه سلخ رجب فأمر بالدعاء لابى أحمد الموفق وترك الدعاء عليه وجعل على المظالم بمصر محمد بن عبدة بن حرب وبلغه مسير محمد بن أبى الساج الى أعماله فخرج اليه في ذى القعدة ولقيه بثنية العقاب من دمشق فانهزم أصحاب خمارويه وثبت هو فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة وعاد الى مصر فدخلها لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ثم خرج الى الاسكندرية لاربع خلون من شوال وورد الخبر أنه دعى له بطرسوس فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وخرج الى الشام لسبع عشرة من ذى القعدة ومات الموفق فى سنة ثمان وسبعين ثم مات المعتمد في رجب سنة تسع وسبعين وبويع

المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق فبعث اليه خمارويه بالهدايا وقدم من الشام لست خلون من ربيع الاول سنة ثمانين فورد كتاب المعتضد بولاية خمارويه على مصر هو وولده ثلاثين سنة من الفرات الى برقة وجعل له الصلات والخراج والقضاء وجميع الاعمال على أن يحمل في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى وثلثمائة ألف المستقبل ثم قدم رسول المعتضد بالخلع وهي اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم في رمضان وعقد المعتضد نكاح قطر الندى بنت خمارويه في سنة احدى وثمانين وفيها خرج خمارويه الى نزهته ببربوط في شعبان ومضى الى الصعيد فبلغ سيوط ثم رجع من الشرق الى الفسطاط أول ذي القعدة وخرج الى الشام لثمان خلون من شعبان سنة اثنتين وثمانين فأقام بمنية الاصبغ ومنية مطر ثم رحل حتى أتى دمشق فقتل بها على فراشه ذبحه جواريه وخدمه وحمل في صندوق الى مصر وكان لدخول تابوته يوم عظيم واستقبله جواريه وجواري غلمانه ونساء قواده ونساء القطائع بالصياح وما يصنع في المآتم وخرج الغلمان وقد حلوا أقبيتهم وفيهم من سود ثيابه وشققها وكانت في البلد ضجة عظيمة وصرخة تتقطع القلوب حتى دفن وكانت مدته اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوما ثم ولي (أبو العساكر جيش بن خمارويه) بن أحمد بن طولون لليلة بقيت من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين بدمشق فسار الى مصر واشتمل على أمور أنكرت عليه فاستوحش من عظماء الجند وتنكر لهم فخافوه ودأبوا في الفساد فخرج متنزها الى منية الاصبغ ففر جماعة من عظماء الدولة الى المعتضد وخلعه أحمد بن طغان وكان على الثغر وخلعه طغج بن جف بدمشق فوثب جيش على عمه مضر بن أحمد بن طولون فقتله فوثب عليه الجيش وخلعوه وجمعوا الفقهاء والقضاة فتبرأ من بيعته وحللهم منها وكان خلعه لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين فولي ستة أشهر واثنى عشر يوما ومات في السجن بعد أيام ثم ولي (أبو موسى هرون بن خمارويه) يوم خلع جيش فقام طائفة من الجند وكاتبوا ربيعة بن أحمد بن طولون وكان بالاسكندرية ودعوه ووعدوه بالقيام معه فجمع جمعا كثيرا من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم وسار حتى نزل ظاهر فسطاط مصر فخذله القوم وخرج اليه القواد فقاتلوه وأسروه لاحدى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة أربع وثمانين وضرب ألف سوط ومائتي سوط فمات ومات المعتضد في ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وبويع ابنه محمد المكتفي بالله وخرج القرمطي بالشام في سنة تسعين فخرج القواد من مصر وحاربوه فهزمهم وبعث المكتفي محمد بن سليمان الكاتب فنزل حمص وبعث بالمراكب من الثغر الى سواحل مصر وأقبل الى فلسطين فخرج هارون يوم التروية سنة احدى وتسعين وسير المراكب الحربية فالتقوا بمراكب محمد بن سليمان في تنيس فغلبوا وملك أصحاب محمد ابن سليمان تنيس ودمياط فسار هرون الى العباسة ومعه أهله وأعمامه في ضيق وجهد

فتفرق عنه كثير من أصحابه وبقي في نفر يسير وهو متشاغل باللهو فأجمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله فدخلا عليه وهو ثمل فقتلاه ليلة الاحد لاحدى عشرة بقيت من صفر سـنة اثنتين وتسعين وسنه يومئذ اثنان وعشرون سنة فكانت ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر وأياما ثم ولى (شيبان بن أحمد بن طولون) أبو المواقيت لعشر بقين من صفر فرجع الى الفسطاط وبلغ طغج بن جف وغيره من القواد قتل هرون فأنكروه وخالفوا على شيبان وبعثوا الى محمد بن سليمان فأمنهم وحركوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل العباسة فلقيه طغج في ناس من القواد كثير فساروا به الى الفسطاط وأقبل اليهم عامة أصحاب شيبان فخاف حينئذ شيبان وطلب الامان فأمنه محمد بن سليمان وخرج اليـه لليلة خلت من ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين ومائتين وكانت ولايته اثنى عشر يوما ودخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الاول فألقى النار في القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا الدور واستباحوا الحريم وهتكوا الرعية وافتضوا الابكار وساقوا النساء وفعـلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون انسانا وأخرج قوادهم فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الايام ثم سيق أصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه وقتل من السودان سكان القطائع خلقا كثيرا فقال أحمد بن محمد الحبيشي

الحمد لله اقرارا بما وهبـا * قد لم بالامن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب * فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمـدها * وفرج الظلم والاظلام والكربا
لاريب رب هياج يقتضى دعة * وفي القصاص حياة تذهب الريبا
رمى الامام به عـذراء غادرة * فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمـد بن سليمان أعزهم * نفسا وأكرمهم في الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرا * اضحى عرينهم الخطى لا القضبا
جم الفضاء على اليحموم حين أتوا * مثل الزبا يتحون الزبية الذأبا
أيها علوت على الايام مرتبـة * أبا على ترى من دونها الرتبـا
لما اطال بنـو طولون خطبتهم * من الخطوب وعافت منهم الخطبا
هارت بهارون من ذكراك بقعته * وشيب الرعب شيبانا وقد رعبا
وكم ترى لهم من جنـة أنف * ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا

فأصبحوا لاترى الا مساكنهم * كأنها من زمان غابر ذهبا

(وقال أحمد بن يعقوب)

ان كنت تسأل عن جلالة ملكهم * فارتع وعج بمرابع الميدان
وانظر الى تلك القصور وما حوت * واسرح بزهرة ذلك البستان
وان اعتبرت ففيه أيضاً عبرة * تنبيك كيف تصرف العصر ان
ياقتل هرون اجتثت أصولهم * وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنكم بأس قيس اذ غدا * في جحفل لجب ولا غسان
وعديه البطل الكمي وخزرج * لم ينصرا بأخيهما عدنان
زفت الى آل النبوة والهدى * وتمزقت عن شيعة الشيطان

(وقال اسمعيل بن أبي هاشم)

قف وقفة بقباب باب الساج * والقصر ذى الشرفات والابراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم * بعد الاقامة أيما ازعاج
كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى * يسرى بها السارون في الادلاج
وكأن أوجههم اذا أبصرتها * من فضة بيضاء أو من عاج
كانوا ليوثاً لايرام حماهم * في كل ملحمة وكل هياج
فانظر الى آثارهم تلقى لهم * علما بكل ثنية وفجاج
وعليهم ما عشت لا أدع البكا * مع كل ذى نظر وطرف ساجي

(وقال سعيد القاص)

جرى دمعه ما بين سحر الى نحر * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وبات وقيذ اللذى خامر الحشا * يئن كما أن الاسير من الاسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث يضيقن صبره * وغدر من الايام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الانوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها * بفقد بنى طولون والانجم الزهر
وفقد بنى طولون في كل موطن * أمر على الاسلام فقداً من القطر
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة * أحاديث لاتخفى على كل ذى حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا * جميل المحيا لايبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها * واشراقها في عصره ليلة القدر
يدل على فضل ابن طولون همة * محلقة بين السماكين والغفر

فان كنت تبغي شاهدا اذا عدالة * يخبر عنه بالجلي من الامر
فبالجيل الغربي خطة يشكر * له مسجد يغنى عن المنطق الهذر
يدل ذوى الالباب أن بناءه * وبانيه لا بالضنين ولا الغمر
بناه بآجر وساج وعرعر * وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الاقطار سام بناؤه * وثيق المباني من عقود ومن جدر
فسيح رحاب يحصر الطرف دونه * رقيق نسيم طيب العرف والنشر
وتنور فرعون الذى فوق قلة * على جبل عال على شاهق وعر
بنى مسجدا فيه يروق بناؤه * ويهدى به في الليل ان ضل من يسري
تخال سنا قنديله وضياءه * سهيلا اذا مالاح في الليل للسفر
وعين معين الشرب عين زكية * وعين اجاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيل في جنباتها * تروح وتغدو بين مد الى جزر
فأرك بها مستنبطا لمعينها * من الارض من بطن عميق الى ظهر
بناء لو ان الجن جاءت بمثله * لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر
يمر على أرض المغافر كلها * وشعبان والاحمور والحي من بشر
قبائل لانوء السحاب يمدها * ولا النيل يرويها ولا جدول يجري
ولا تنس مارستانه واتساعه * وتوسعة الارزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته * ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه * وللحي رفق في علاج وفى جبر
وان جئت رأس الجسر فانظر تأملا * الى الحصن أو فاعبر اليه على الجسر
ترى أثرا لم يبق من يستطيعه * من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وان باد أهلها * ومجد يؤدى وارثيه الى الفخر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعه * أجل اذا ماقيس من قبتي حجر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته * كما قام ليث الغاب فى الاسل السمر
أتته المنايا وهو في أمن داره * فأصبح مسلوبا من النهى والامر
كذاك الليالي من اعارته بهجة * فيالك من ناب حديد ومن ظفر
وورث هرون ابنه تاج ملكه * كذاك أبو الاشبال ذو الناب والهصر
وقد كان جيش قبله في محله * ولكن جيشا كان مستقصر العمر
فقام بأمر الملك هارون مدة * على كظظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشح * عقارب من كل ناحية تسرى

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا * كما ارفض سالك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيأ ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بني طولون أذبان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر

(وقال أيضا)

من لم ير الهدم للميدان لم يره * تبارك الله ما اعلى واقدره
لو ان عين الذى انشاه تبصره * والحادثات تعاديه لاكبره
كانت عيون الورى تعشو لهيبته * اذا أضاف اليه الملك عسكره
أين الملوك التي كانت تحل به * وأين من كان بالانفاذ دبره
وأين من كان يحميه ويحرسه * من كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم * وحط ريب البلى فيه فد عثره
وأخلق الدهر منه حسن جدته * مثل الكتاب محا العصران اسطره
دكت مناظره واجتث جوسقه * كانما الخسف فاجاه فدمره
أوهب أعصار نار في جوانبه * فعاد معروفه للعين منكره
كم كان يأوى اليه في مقاصره * احوى أغن غضيض الطرف أحوره
كم كان فيه لهم من مشرب غدق * فعب صرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه * أماته الملك الاعلى فأقبره
ما أوضح الامر لو صحت لنا فكر * طوبى لمن خصه رشد فذكره

(وقال أحمد بن اسحق الجفر)

واذا ما أردت اعجوبة الدهر تراها فانظر الى الميدان
تنظر البين والهموم وانوا عاتوا لت به من الاشجان
يعلم العالم المبصر أن الدهر فيما يراه ذو ألوان
اين ما فيه من نعيم ومن عيش رخي ونضرة وحسان
اين ذاك المسك الذى ديف بالعنبر بحتا وعل بالزعفران
اين ذاك الخز المضاعف والوشي وما استخلصوا من الكتان
اين تلك القيان تشدو على العرس بما استحسنوا من الالحان
حوز الدهر آل طولون في هوة نقر مسكونها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليه ذئابا تعوى بتلك المغانى

ثم أمر الحسين بن أحمد المادراني متولى خراج مصر بهدم الديوان فابتدئ في هدمه في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وبيعت أنقاضه ودثر كانه لم يكن * فقال محمد بن طسويه

وكأن الميـدان ثكلى اصيبت * بحبيب قد ضاع ليـلة عرس
تتفشى الرياح منـه محـــلا * كان للصون في ستور الدمقس
وبفرش الاضريج والبسط الديـ * ـباج في نعـمة وفي لـين لمس
ووجوه من الوجوه حسـان * وخـدود مثل اللآلئ ملس
كل نجـلاء كالغزال ونجـلا * ورداح من بين حور ولعس
آل طولون كنتم زينـة الار * ض فأضحى الجديد أهدام لبس

(وقال ابن أبي هاشم)

يامنزلا لبني طولون قـد دثرا * سقاك صرف الغوادى القطر والمطرا
يامنزلا صرت اجفوه وأهجره * وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عنـدك عـلم من احبتنا * أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

(وقال)

ألا فاسأل الميدان ثم اسأل الجبل * عن الملك الماضى ابن طولون مافعل
وعن ابنه العباس ان كنت سائلا * وأين أبو الجيش النصافصة البطل
وجيش وهارون الذى قام بعده * وشيبان بالامس الذى خانه الامل
ومن قبله أردى ربيعة يومه * وكان هزبرا لا يطاق اذا حمل
وأين ذراريهم وأين جموعهم * وكيف تقضى عنهم الملك فاضمحل
وأين بناء القصر والجوسق الذى * عهدناه معمور الفناء له زجل
لقد ملكوه برهة من زماننا * بدولتهم ثم انقضوا بانقضا الدول
فما منهم خلق يحس ولا يرى * بذكر طوال الدهر لما انقضى الاجل
وصاروا أحاديثا لمن جاء بعدهم * وكان بهم في ملكهم يضرب المثل

(وقال)

قف وقفة وانظر الى الميدان * والقصر ذى الشرفات والايوان
والجوسق العالي المنيف بناؤه * مابا له قفر من السكان
أين الذين لهـوا به وعنـوا به * زمنـا مع القينـات والنسوان
يجبي الخراج اليهم في دارهم * لايرهبون غوائل الحـدثان
جمعوا الجموع مع الجموع فأ كثروا * واسـتأثروا بالروم والسودان
فانظر الى ماشيدوا من بعدهم * هل فيه غـير البوم والغربان
أين الاولى حفروا العيون بأرضه * وتأنقوا فيـه وفي البنيـان
غرسوا صنوف النخل في ساحاته * وغرائب الاعنـاب والرمان

والزعفران مع البهار بأرضه * والورد بين الآس والريحان
كانوا ملوك الارض في ايامهم * كبراء كل مدينة ومكان
فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبلون في الاكفان
ألا اغيلمة اسارى بعدهم * في دار مضيعة ودار هوان
متلذذين بأسرهم قد شرّدوا * ونفوا عن الاهلين والاوطان
والله وارث كل حي بعدهم * وله البقاء وكل شيء فان

(وقال)

ان في قبة الهواء لذى اللب معتبر * والقصور المشيدات مع الدور والحجر
والبساتين والمجالس والبيت والزهر * والجوارى المغنيات ذوى الدل والخفر
يتبخترن في الحرير وفي الوشي والحبر * وملوك عبيدهم عدد الشوك والشجر
وجيوش مؤيدون لدى البأس بالظفر * من صنوف السودان والترك والروم والخزر
عمروا الارض مدة ثم صاروا الى الحفر * واستبدّ الزمان من عاش منهم فلم يذر
فهم في الهوان والذل اسرى على خطر * وهم بعد صفو عيش من الذل في كدر
يال طولون مالكم صرتم للورى سمر * يال طولون كنتم خبرا فانقضى الخبر

(وقال)

مررت على الميدان معتبرا به * فناديته أين الجبال الشوامخ
خمار وعباس واحمد قبلهم * وأين ترى شبانهم والمشايخ
وأين ذرارى آل طولون بعدهم * أما فيك منهم أيها الربع صارخ
وأين ثياب الخز والوشي والحلى * وأربابها أم اين تلك المطابخ
وأين فتات المسك والعنبر الذي * عنيت به دهرا وتلك اللطائخ
لقد غالك الدهر الخؤون بصرفه * فأصبحت منحطا وغيرك باذخ

(وقال)

مررت على الميدان بالامس ضاحيا * فأبصرته قفر الجناب فراعني
فناديت فيه يال طولون مالكم * فهو دفما حلق بحرف اجابني
فأذريت عينا ذات دمع غزيرة * ورحت كئيب القلب مما اصابني
واني عليهم مابقيت لموجع * ولست أبالي من لحاني وعابني

وحدث محمد بن أبي يعقوب الكاتب قال لما كانت ليلة عيد الفطر من سنة اثنتين وتسعين ومائتين تذكرت ما كان فيه آل طولون في مثل هذه الليلة من الزى الحسن بالسلاح وملونات البنود والاعلام وشهرة الثياب وكثرة الكراع وأصوات الابواق والطبول فاعتراني لذلك فكرة

ونمت في ليلتي فسمعت هاتفا يقول ذهب الملك والتملك والزينة لما مضى بنو طولون وقال القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في كتاب حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة رأيت كتابا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى لاحمد بن طولون قال فاذا كانت أسماء الشعراء في ثنتي عشرة كراسة كم يكون شعرهم مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد وقال أبو الخطاب بن دحية في كتاب النبراس وخربت قطائع أحمد بن طولون يعنى في الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر وهلك جميع من كان بها من الساكنين وكانت نيفا على مائة ألف دار نزهة للناظرين محدقة بالجنان والبساتين والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

﴿ ذكر من ولى مصر من الامراء بعد خراب القطائع الى أن بنيت قاهرة المعز على يد القائد جوهر ﴾

وكان أول من ولى مصر بعد زوال دولة بني طولون وخراب القطائع (محمد بن سليمان الكاتب) كاتب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون دخل مصر يوم الخميس مستهل ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين ومائتين ودعا على المنبر لامير المؤمنين المكتفى بالله وحده وجعل أبا على الحسين بن أحمد المادراني على الخراج عوضا عن أحمد بن على المادراني ثم ورد كتاب المكتفى بولاية (عيسى بن محمد) النوشرى أبي موسى فولى على الصلات ودخل خليفته لاربع عشرة خلت من جمادى الاولى فتسلم الشرطتين وسائر الاعمال ثم قدم عيسى لسبع خلون من جمادى الآخرة وخرج محمد بن سليمان مستهل رجب وكان مقامه بمصر أربعة أشهر فأخرج كل من بقي من الطولونية فلما بلغوا دمشق انخنس عنهم محمد بن على الخليج فى جمع كثير ممن كره مفارقة مصر من القواد فعقدوا له عليهم وبايعوه بالامرة في شعبان ورجع الى مصر فبعث اليه النوشرى بجيش أول رمضان وقد دخل أرض مصر ثم خرج اليه النوشرى وعسكر بباب المدينة أول ذى القعدة وسار الى العباسة ثم رجع لثلاث عشرة خلت منه وخرج الى الجيزة من غده واحرق الجسرين وسار يريد الاسكندرية ففرعنه طائفة الى ابن الخليج فبعث اليه بجيش فهزمه وسار الى الصعيد ودخل (محمد بن الخليج) القسطاط لاربع عشرة بقيت من ذى القعدة فوضع العطاء وفرض الفروض وقدم أبو الاعز من قبل المكتفى فى طلب ابن الخليج فخرج اليه لثلاث خلون من المحرم سنة ثلاث وتسعين وحاربه فانهزم منه أبو الاعز وأسر من أصحابه جمعا كثيرا وعاد لثمان بقين منه فقدم فاتك المعتضدى من بغداد في البر فعسكر وقدم دميانة في المراكب فنزل فاتك النويرة فخرج ابن الخليج وعسكر بباب المدينة وقام في الليل بأربعة آلاف من أصحابه ليبيت فاتكا فأضلوا الطريق وأصبحوا قبل أن يبلغوا النويرة فعلم بهم فاتك فنهض بأصحابه وحارب ابن الخليج فانهزم عنه أصحابه وثبت في طائفة ثم انهزم الى الفسطاط لثلاث خلون من رجب فاستتر

ودخل دميانة في مراكب الثغور وأقبل عيسى النوشري ومعه الحسين المادراني ومن كان معهما لخمس خلون منه فعاد النوشري الى ما كان عليه من صلاتها والمادراني الى ما كان عليه من الخراج وعرف النوشري بمكان ابن الخليج فهجم عليه وقيده لست خلون من رجب وكانت مدة ابن الخليج بمصر سبعة أشهر وعشرين يوما ودخل فاتك في عسكره الى الفسطاط لعشر خلون من رجب فأخرج ابن الخليج في البحر لست خلون من شعبان فلما قدم بغداد طيف به وبأصحابه وهم ثلاثون نفرا فكان يوما مذكورا وابتدئ في هدم ميدان بني طولون في شهر رمضان وبيعت انقاضه وخرج فاتك الى العراق للنصف من جمادى الاولى سنة أربع وتسعين وأمر النوشري بنفي المؤنثين ومنع النوح والنداء على الجنائز وأمر باغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلاتين ثم أمر بفتحه بعد أيام ومات المكتفي في ذى القعدة سنة خمس وتسعين فشغب الجند بمصر وحاربوا النوشري على طلب مال البيعة فظفر بجماعة منهم وبويع جعفر المقتدر فأقر النوشري على الصلات وقدم زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب أمير أفريقية مهزوما من أبي عبد الله الشيعي فى رمضان سنة ست وتسعين الى الجيزة فنمعه النوشري من العبور وكانت بين أصحابه وبين جند مصر منافسة ثم اذن له أن يعبر وحده ومات النوشري لاربع بقين من شعبان سنة سبع وتسعين وهو وال فكانت ولايته خمس سنين وشهرين ونصفا منها مدة ابن الخليج سبعة أشهر وعشرون يوما وقام من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى ثم ولى (تكين الخزرى أبو منصور) من قبل المقتدر على الصلات فدعى له بها يوم الجمعة لاحدى عشرة خلت من شوال وقدم خليفته لسبع بقين منه ثم قدم تكين لليلتين خلتا من ذى الحجة وتقدم اليه بالجد في أمر المغرب والاحتراس منه فبعث جيشا الى برقة عليه أبو اليمن فحاربه حباسة بن يوسف بعساكر المهدى عبيد الله الفاطمي صاحب أفريقية واستولى على برقة وسار الى الاسكندرية فى زيادة على مائة ألف فدخلها فى المحرم سنة اثنتين وثلثمائة فقدمت الجيوش من العراق مددا لتكين في صفر وقدم الحسين المادراني واحمد بن كيغلغ فى جمع من القواد وبرزت العساكر الى الجيزة في جمادى الاولى وخرج تكين فكانت واقعة حباسة قتل فيها آلاف من الناس وعاد حباسة الى المغرب وقدم مؤنس الخادم من بغداد في جيوشه للنصف من رمضان ومعه جمع من الامراء فنزل الحمراء ولقى الناس منهم شدائد وخرج ابن كيغلغ الى الشام في رمضان وصرف تكين لاربع عشرة خلت من ذى القعدة صرفه مؤنس فخرج لسبع خلون من ذى الحجة وأقام مؤنس يدعي ويخاطب بالاستاذ ثم ولى (ذكا الرومى) أبو الحسن الاعور من قبل المقتدر على الصلات فدخل لثنتى عشرة خلت من صفر سنة ثلاث وثلثمائة وخرج موسى بجميع جيوشه لثمان خلون من ربيع الآخر وخرج ذكا الى الاسكندرية في المحرم سنة أربع وثلثمائة ثم عاد فى ثامن ربيع الاول وتتبع

كل من يومأ اليه بمكاتبة المهدى صاحب أفريقية فسجن منهم وقطع أيدى اناس وأرجلهم وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من صاحب برقة وسير العساكر الى الاسكندرية ثم فسد ما بينه وبين الرعية بسبب سب الصحابة رضي الله عنهم وسب القرآن وقدمت عساكر المهدى صاحب أفريقية الى لوبية ومراقية عليها أبو القاسم فدخل الاسكندرية ثامن صفر سنة سبع وثلثمائة وفر الناس من مصر الى الشام في البر والبحر فهلك أكثرهم وأخرج ذكا الجند المخالفون له فعسكر بالجيزة وقدم أبو الحسن بن أحمد المادرانى واليا على الخراج فوضع العطاء وجد ذكا في أمر الحرب واحتفر خندقا على عسكره بالجيزة فمرض ومات لاحدى عشرة خلت من ربيع الاول بالجيزة فكانت امرته أربع سنين وشهرا فولى (تكين) مرة ثانية من قبل المقتدر وقدمت جيوش العراق عليها محمود بن حمل وابراهيم بن كيغلغ في ربيع الاول ودخل تكين لاحدى عشرة خلت من شعبان فنزل الجيزة وحفر خندقا ثانيا وأقبلت مراكب المغرب فظفر بها في شوال وقدم مؤنس الخادم من بغداد بعساكره لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وثلثمائة فنزل الجيزة وكان في نحو ثلاثة آلاف وسير ابن كيغلغ الى الاشمونين فمات بالبهنساء أول ذى القعدة وملك أصحاب المهدى الفيوم وجزيرة الاشمونين فقدم جنى الخادم من بغداد في عسكر آخر ذى الحجة فعسكر بالجيزة فكانت حروب مع أصحاب المهدى بالفيوم والاسكندرية ورجع أبو القاسم بن المهدى الى برقة وصرف تكين لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة تسع وثلثمائة فولى مؤنس (أبا قابوس محمود بن حمل) فأقام ثلاثة أيام وعزله ورد تكين لخمس بقين من ربيع الاول ثم صرفه بعد أربعة أيام وأخرجه الى الشام في أربعة آلاف من أهل الديوان ثم ولى (هلال بن بدر) من قبل المقتدر على الصلات فدخل لست خلون من ربيع الآخر وخرج مؤنس لثمان عشرة خلت منه ومعه ابن حمل فشغب الجند على هلال وخرجوا الى منية الاصبغ ومعهم محمد بن طاهر صاحب الشرط فكثر النهب والقتل والفساد بمصر الى أن صرف عنها في ربيع الآخر سنة احدى عشرة وثلثمائة وخرج في نفر من أصحابه فولى (أحمد بن كيغلغ) من قبل المقتدر على الصلات وقدم ابنه أبو العباس خليفة له أول جمادى الاولى ثم قدم ومعه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب المادرانى على الخراج في رجب فأحضرا الجند ووضعا العطاء وأسقطا كثيرا من الرجالة وكان ذلك بمنية الاصبغ فثار الرجالة به ففر الى فاقوس وأدخل المادرانى الى المدينة لثمان خلون من شوال وأقام ابن كيغلغ بفاقوس الى أن صرف بقدوم رسول تكين في ثالث ذى القعدة فولى (تكين) المرة الثالثة من قبل المقتدر على الصلات وخلفه ابن منجور الى أن قدم يوم عاشوراء سنة اثنتى عشرة وثلثمائة فأسقط كثيرا من الرجالة وكانوا أهل الشر والنهب ونادى ببراءة الذمة ممن أقام منهم بالفسطاط وصلى الجمعة في دار الامارة بالعسكر وترك حضور الجمعة في

مسجد العسكر والمسجد الجامع العتيق فى سنة سبع عشرة ولم يصل قبله أحد من الامراء في دار الامارة الجمعة ثم قتل المقتدر في شوال سنة عشرين وبويع أبو منصور القاهر بالله فأقر تكين حتى مات في سادس عشر ربيع الاول سنة احدى وعشرين وثلثمائة فحمل الى بيت المقدس وكانت امرته هذه تسع سنين وشهرين وخمسة أيام فقام ابنه محمد بن تكين موضعه وقام أبو بكر محمد بن على المادراني بأمر البلد كله ونظر في أعماله فشغب الجند عليه في طلب أرزاقهم وأحرقوا دوره ودور أهله فخرج ابن تكين الى منية الاصبغ فبعث اليه المادرانى يأمره بالخروج من أرض مصر وعسكر بباب المدينة وأقام هناك بعد مارحل ابن تكين الى سلخ ربيع الاول فلحق ابن تكين بدمشق ثم أقبل يريد مصر فمنعه المادرانى ثم ولى (محمد ابن طفج) بن جف الفرغاني أبو بكر من قبل القاهر بالله على الصلات فورد كتابه لسبع خلون من رمضان سنة احدى وعشرين ودعى له وهو بدمشق مدة اثنين وثلاثين يوما الى أن قدم رسول (أحمد بن كيغلغ) بولايته الثانية من قبل القاهر بالله لتسع خلون من شوال واستخلف أبا الفتح بن عيسي النوشري فشغب الجند فى أرزاقهم على المادراني صاحب الخراج فاستتر منهم فأحرقوا دوره ودور أهله وكانت فتن قتل فيها جماعة الى أن أتاهم محمد بن تكين من فلسطين لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين فأنكر المادرانى ولايته وتعصب له طائفة ودعي له بالامارة وخرج قوم الى الصعيد فيهم ابن النوشرى فامروه عليهم وهم على الدعاء لابن كيغلغ فنزل منية الاصبغ لثلاث خلون من رجب فلحق به كثير من أصحاب تكين ففر ابن تكين ليلا ودخل ابن كيغلغ المدينة لست خلون منه وكان مقام ابن تكين بالفسطاط مائة يوم واثنى عشر يوما وخلع القاهر وبويع أبو العباس الراضي بالله فعاد ابن تكين وأظهر أن الراضى ولاه فخرج اليه العسكر وحاربوه فيما بين بلبيس وفاقوس فانهزم وجيء به الى المدينة فحمل الى الصعيد فورد الخبر بأن محمد بن طفج سار الى مصر بولاية الراضى له فبعث اليه ابن كيغلغ بجيش ليمنعوه من دخول الفرما فأقبلت مراكب ابن طفج الى تنيس وسارت مقدمته في البر وكانت بينهما حروب في تاسع عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين كانت لاصحاب ابن طفج وأقبلت مراكبه الى الفسطاط سلخ شعبان وأقبل فعسكر ابن كيغلغ للنصف من رمضان ولاقاه لسبع بقين منه فسلم ابن كيغلغ الى محمد بن طفج من غير قتال وولى (محمد بن طفج) الثانية من قبل الراضي على الصلات والخراج فدخل لست بقين من رمضان وقدم أبو الفتح الفضل ابن جعفر بن محمد بن فرات بالخلع لمحمد بن طفج وكانت حروب مع أصحاب ابن كيغلغ انهزموا منها الى برقة وساروا الى القائم بأمر الله محمد بن المهدى بالمغرب فحرضوه على أخذ مصر فجهز جيشا سار الى مصر فبعث ابن طفج عسكره الى الاسكندرية والصعيد ثم ورد الكتاب من بغداد بالزيادة في اسم الامير محمد بن طفج فلقب الاخشيد ودعى له بذلك على المنبر في رمضان سنة

سبع وعشرين وسار محمد بن رائق الى الشامات ثم سار في المحرم سنة ثمان وعشرين واستخلف أخاه الحسن بن طفج فنزل الفرما وابن رائق بالرملة فسفر بينهما الحسن بن طاهر بن يحيي العلوى في الصلح حتي تم وعاد الى الفسطاط مستهل جمادى الاولى ثم اقبل ابن رائق من دمشق في شعبان فسير اليه الاخشيد الجيوش ثم خرج لست عشرة خلت من شعبان والتقيا للنصف من رمضان بالعريش فكانت بينهما وقعة عظيمة انكسرت فيها ميسرة الاخشيد ثم حمل بنفسه فهزم أصحاب ابن رائق وأسر كثيرا منهم وأثخنهم قتلا وأسرا ومضى ابن رائق فقتل الحسين ابن طفج باللجون ودخل الاخشيد الرملة بخمسمائة اسير فتداعى ابن طفج وابن رائق الى الصلح فمضى ابن رائق الى دمشق على صلح وقدم الاخشيد محمد بن طفج الى مصر لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وعشرين ومات الراضي بالله وبويع المتقى لله ابراهيم في شعبان فأقر الاخشيد وقتل محمد بن رائق بالموصل قتله بنو حمدان في شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة فبعث الاخشيد بجيوشه الى الشام ثم سار لست خلون من شوال واستخلف أخاه أبا المظفر الحسن ابن طفج ودخل دمشق ثم عاد لثلاث عشرة خلت من جمادى الاولى سنة احدى وثلاثين فنزل البستان الذى يعرف اليوم بالكافورى من القاهرة ثم دخل داره وأخذ البيعة لابنه أبي القاسم اونوجور على جميع القواد آخر ذى القعدة وسار المتقى لله الى بلاد الشام ومعه بنو حمدان فسار الاخشيد لثمان خلون من رجب سنة اثنتين وثلاثين واستخلف أخاه الحسن فلقى المتقى ثم رجع فنزل البستان لاربع خلون من جمادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين وخلع المتقى وبويع عبد الله المستكفى لسبع خلون من جمادى الآخرة فأقر الاخشيد وبعث الاخشيد بحانك وكافور في الجيوش الى الشام ثم خرج لخمس خلون من شعبان سنة ست وثلاثين واستخلف أخاه الحسن فلقى على بن عبد الله بن حمدان بأرض قنسرين وحاربه ومضى فأخذ منه حلب وخلع المستكفى ودعى للمطيع لله الفضل بن جعفر في شوال سنة أربع وثلاثين فأقر الاخشيد الى أن مات بدمشق يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة فولى بعده ابنه (اونوجور) أبو القاسم باستخلافه اياه وقبض على أبي بكر محمد بن على بن مقاتل في ثالث المحرم سنة خمس وثلاثين وجعل مكانه على الخراج محمد بن على المادرانى وقدم العسكر من الشام أول صفر فلم يزل أونوجور واليا الى أن مات لسبع خلون من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وثلثمائة وحمل الى القدس فدفن عند أبيه وكان كافور متحكما في أيامه ويطلق له فى السنة أربعمائة ألف دينار فلما مات قوى كافور وكانت ولايته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر فأقام كافور أخاه (على بن الاخشيد) أبا الحسن لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة فأقره المطيع لله على الحرب والخراج بمصر والشام والحرمين وصار خليفته على ذلك كافور غلام أبيه وأطلق له ما كان يطلق لاخيه في كل سنة وفى سنة احدى وخمسين ترفع السعر واضطربت الاسكندرية

والبحيرة بسبب المغاربة الواردين اليها وتزايد الغلاء وعز وجود القمح وقدم القرمطى الى الشام في سنة ثلاث وخمسين وقلّ ماء النيل ونهبت ضياع مصر وتزايد الغلاء وسار ملك النوبة الى اسوان ووصل الى أخميم فقتل ونهب وأحرق واشتد اضطراب الاعمال وفسد ما بين كافور وبين على بن الاخشيد فمنع كافور من الاجتماع به واعتلّ على بعد ذلك علة أخيه ومات لاحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة فحمل الى القدس وبقيت مصر بغير أمير اياما ولم يدع بها الا للمطيع لله وحده وكافور يدبر أمورها ومعه ابو الفضل جعفر بن الفرات ثم ولى (كافور) الخصى الاسود مولى الاخشيد من قبل المطيع على الحرب والخراج وجميع أمور مصر والشام والحرمين فلم يغير لقبه وانما كان يدعى ويخاطب بالاستاذ وأخرج كتاب المطيع بولايته لاربع بقين من المحرم سنة خمس وخمسين فلم يزل الى أن توفى لعشر بقين من جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فولى (أحمد بن علي الاخشيد أبو الفوارس) وسنه احدى عشرة سنة في يوم وفاة كافور وجعل الحسين بن عبيد الله بن طغج يخلفه وأبو الفضل جعفر بن الفرات يدبر الامور وسمول الاخشيدى العساكر الى أن قدم جوهر القائد من المغرب بجيوش المعز لدين الله في سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ففر الحسين بن عبيد الله وتسلم جوهر البلاد كما سيأتي ان شاء الله تعالى فكانت مدة الدعاء لبني العباس بمصر منذ ابتدئت دولتهم الى أن قدم القائد جوهر الى مصر مائتي سنة وخمساً وعشرين سنة ومدة لدولة الاخشيدية بها اربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما ومنذ افتتحت مصر الى أن انتقل كرسى الامارة منها الى القاهرة ثلثمائة سنة وسبع وثلاثون سنة وأشهر والله تعالى أعلم

(ذكر ماكانت عليه مدينة الفسطاط من كثرة العمارة)

قال ابن يونس عن الليث بن سعدان حكيم بن ابي راشد حدثه عن ابى سلمة بن عبدالرحمن انه وقف على جزار فسأله عن السعر فقال بأربعة أفلس الرطل فقال له أبو سلمة هل لك أن تعطينا بهذا السعر مابدالنا وبدا لك قال نعم فأخذ منه أبو سلمة ومر فى القصبة حتى اذا أراد أن يوفيه قال بعثي بدينار ثم قال اصرفه فلوسا ثم وفه وقال الشريف أبو عبد الله محمد ابن أسعد الجوانى النسابة في كتاب النقط على الخطط سمعت الامير تأييد الدولة تميم بن محمد المعروف بالضمضام يقول في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وحدثني القاضي ابو الحسين على بن الحسين الخامي عن القاضى أبي عبد الله القضاعي قال كان في مصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون الف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حماما وان حمام جنادة في القرافة ما كان يتوصل اليها الابعد عناء من الزحام وان قبالتها في كل يوم جمعة خمسمائة درهم * وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى في كتاب

الخطط انه طلب لقطر الندى ابنة خمارويه بن احمد بن طولون الف تكة بعشرة آلاف دينار من أثمان كل تكة بعشرة دنانير فوجدت في السوق في ايسر وقت وبأهون سعى وذكر عن القاضي أبي عبيد أنه لما صرف عن قضاء مصر كان في المودع مائة الف دينار وان فائقاً مولى أحمد بن طولون اشترى دارا بعشرين الف دينار وسلم الثمن الى البائعين وأجلهم شهرين فلما انقضى الاجل سمع فائق صياحا عظيما وبكاء فسأل عن ذلك فقيل هم الذين باعوا الدار فدعاهم وسألهم عن ذلك فقالوا انما نبكي على جوارك فأطرق وأمر بالكتب فردت عليهم ووهب لهم الثمن وركب الى احمد بن طولون فأخبره فاستصوب رأيه واستحسن فعله ويقال انه كان لفائق ثمانمائة فرشة كل فرشة لحظية مثمنة وان دار الحرم بناها خمارويه لحرمه وكان أبوه اشتراها له فقام عليه الثمن وأجرة الصناع والبناء بسبعمائة الف دينار وان عبد الله بن احمد بن طباطبا الحسيني دخل الجامع فلم يجد مكانا في الصف الاول فوقف في الصف الثاني فالتفت أبو حفص بن الجلاب فلما رآه تأخر وتقدم الشريف مكانه فكافأه على ذلك بنعمة حملها اليه ودار ابتاعها له ونقل اهله اليها بعد ان كساهم وحلاهم وذكر غير القضاعي أنه دفع اليه خمسمائة دينار قال ويقال انه أهدى الى أبي جعفر الطحاوي كتباً قيمتها الف دينار وان رشيقاً الاخشيدى استحجبه ابو بكر محمد بن علي المادرانى فلما مضت عليه سنة رفع فيه أنه كسب عشرة آلاف دينار فخاطبه في ذلك فحلف بالايمان الغليظة على بطلان ذلك فأقسم أبو بكر المادرانى بمثل ما أقسم به لئن خرجت سنتنا هذه ولم تكسب هذه الجملة لاصحبتنى ولم يزل في صحبته الى أن صودر أبو بكر فأخذ منه ومن رشيق مال جزيل وذكر أن الحسن بن أبي المهاجر موسى بن اسماعيل بن عبد الحميد بن بحر بن سعد كان على البريد في زمن احمد بن طولون وقتله خمارويه وسبب ذلك ما كان في نفس علي بن احمد المادرانى منه فأغرى خمارويه به وقال قد بقي لابيك مال غير الذي ذكره في وصيته ولم يقف عليه غير ابن مهاجر فطالبه فلم يزل خمارويه بابن مهاجر الى أن وصف له موضع المال من دار خمارويه فأخرج فكان مبلغه ألف ألف دينار فسلمه الى أحمد المادرانى فحمله الى داره واقبلت توقيعات خمارويه ترد اليه بالصلات والنفقات فيخرجها من فضول أموال الضياع والمرافق وحصلت له تلك الاموال ولم يضع يده عليها الى أن قتل وصودر أبو بكر محمد بن علي في ايام الاخشيد وقبضت ضياعه فعاد الى تلك الالف ألف دينار مع ماسواها من ذخائره وأعراضه وعقده فما ظنك برجل ذخيرته ألف ألف دينار سوى ماذكر عن أبي بكر محمد بن علي المادرانى انه قال بعث الي ابو الجيش خمارويه أن اشترى له أردية وأقنعة للجوارى وعمل دعوة خلافيها بنفسه وبهم وغدوت متعرفا لخبره فقيل لى انه طرب لما هو فيه فنثر دنانير على الجواري والغلمان وتقدم اليهم أن ماسقط من ذلك في البركة فهو لمحمد بن على كاتبي

فلما حضرت وبلغني ذلك أمرت الغلمان فنزلوا في البركة فأصعدوا الى منها سبعين الف دينار فما ظنك بمال نثر على اناس فتطاير منه الى بركة ماء هذا المبلغ وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب في حلى المغرب وفي الفسطاط دار تعرف بعبد العزيز يصب فيها لمن بها في كل يوم اربعمائة راوية ماء وحسبك من دار واحدة يحتاج اهلها فى كل يوم الى هذا القدر من الماء * وقال ابن المتوج في كتاب ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل عن ساحل مصر ورأيت من نقل عمن نقل عمن رأى الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل وكان عددها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر وأطناب بها ترخى وتملا أخبرني بذلك من اثق بنقله قال وكان بالفسطاط في جهته الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن احمد بن طولون قال الراوى دخلتها فى زمن خمارويه بن احمد بن طولون وطلبت بها صانعاً يخدمنى فلم أجد فيها صانعاً متفرغا لخدمتي وقيل لي أن كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فأخبرت ان بها سبعين صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج قال فخرجت ولم ادخلها لعدم من يخدمني بها ثم طفت غيرها فلم اقدر على من أجده فارغا الا بعد أربع حمامات وكان الذي خدمنى فيها نائباً فانظر رحمك الله مااشتمل عليه هذا الخبر مع ما ذكره القضاعي من عدد الحمامات وأنها ألف ومائة وسبعون حماما تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس هذا والسعر راخ والقمح كل خمسة أرادب بدينار وبيعت عشرة أرادب بدينار فى زمن احمد بن طولون قال ابن المتوج خطة مسجد عبد الله ادركت بها آثار دار عظيمة قيل انها كانت دار كافور الاخشيدى ويقال ان هذه الخطة تعرف بسوق العسكر وكان به مسجد الزكاة وقيل انه كان منه قصبة سوق متصلة الى جامع أحمد بن طولون وأخبرنى بعض المشايخ العدول عن والده وكان من أكابر الصلحاء انه قال عددت من مسجد عبد الله الى جامع بن طولون ثلثمائة وتسعين قدر حمص مصلوق بقصبة هذا السوق بالارض سوى المقاعد والحوانيت التي بها الحمص فتأمل اعزك الله ما فى هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر فان هذا السوق كان خارج مدينة الفسطاط وموضعه اليوم الفضاء الذى بين كوم الجارح وبين جامع ابن طولون ومن المعروف ان الاسواق التي تكون بداخل المدينة أعظم من الاسواق التي هى خارجها ومع ذلك ففي هذا السوق من صنف واحد من المآكل هذا القدر فكم ترى تكون جملة مافيه من سائر أصناف المآكل وقدكان اذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق وقال ودرب السفافير بني فيه زقاق بني الرصاص كان به جماعة اذا عقد عندهم عقد لايحتاجون الى غريب وكانوا هم وأولادهم نحوا من أربعين نفساً * وقال ابن زولاق فى كتاب سيرة المادرائيين ولما قدم الاستاذ مؤنس الخادم من بغداد الى مصر استدعى ابو على الحسين بن احمد المادرائي المعروف بأبي زنبور الدقاق وهو الذى نسميه اليوم الطحان

وقال ان الاستاذ مؤنسا قد وافى ولى يشتول قدر ستين ألف أردب قمحاً فاذا وافى فقم له بالوظيفة فكان يقوم له بما يحتاج اليه من دقيق حوارى مدة شهر فلما كمل الشهر قال كاتب مونس للدقاق كم لك حتى ندفعه اليك فأعلمه الخبر فقال ما أحسب الاستاذ يرضى ان يكون في ضيافة أبي علي وأعلم مونسا بذلك فقال انا آكل خبز حسين لا يبرح الرجل حتى يقبض ماله فمضى الدقاق وأعلم إبازنبور فقام من فوره الى مونس فأكب على رجليه فاحتشم منه وقال والله لا أجيبك الا هذا الشهر الذى مضى ولا تعاود ثم رجع فقال للدقاق قم له بالوظيفة في المستقبل واعمل ما يريده قال فجئته وقد فرغ القمح ومعي الحساب واربعمائة دينار قال ايش هـذا فقلت بقية ذلك القمح فقال اعفني منه وتركه فتأمل ما اشتمل عليه هذا الخبر من سعة حال كاتب من كتاب مصر كيف كان له في قرية واحدة هذا القدر من صنف القمح وكيف صار مما يفضل عنه حتى يجعله ضيافة وكيف لم يعبأ باربعمائة دينار حتى وهبها لدقاق قمح وما ذاك الامن كثرة المعاش وقس عليه باقي الاحوال وقال عن أبي بكر محمد بن علي المادرانى انه حج اثنتين وعشرين حجة متوالية أنفق في كل حجة مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار وانه كان يخرج معه بتسعين ناقة اقبته التي يركبها وأربعمائة لجهازه وميرته ومعه المحامل فيها أحواض البقل وأحواض الرياحين وكلاب الصيد وينفق على الاشراف وأولاد الصحابة ولهم عنده ديوان بأسمائهم وانه أنفق في خمس حجات أخر ألفى ألف دينار ومائتي ألف دينار وكانت جاريته تواصل ... الحج ومعها لنفسها ثلاثون ناقة لقبتها ومائة وخمسون عربيا لجهازها وأحصى ما يعطيه كل شهر لحاشيته وأهل الستر وذوى الاقدار جراية من الدقيق الحوارى فكان بضعا وثمانين ألف رطل وكان سنة القر مطى بمكة فمن جملة ما ذهب له به مائتا قميص ديبقى ثمن كل ثوب منها خمسون دينارا وقال مرة وهو فى عطالته أخذ مني محمد بن طغج الاخشيد عينـا وعرضا يبلغ نيفا وثمانين ويبة دنانير فاستعظم من حضر ذلك فقال ابنه الذى أخذ اكثر وانا اوقفه عليه ثم قال لابيه يامولاى أليس نكبت ثلاث مرات قال بلى قال اليس أخذت ضياعك بالشام قال نعم قال فكم ثمنها قال ألف ألف دينار قال وضياعك بمصر قال قريب منها قال وعرض وعين قال كذلك فأمر بعض الحساب بضبط ذلك فجاء ما ينيف عن ثلاثين اردبا من ذهب فانظر ما تضمنته أخبار المادراني وقس عليها بقية احوال مصر فما كان سوى كاتب الخراج وهذه أمواله كما قد رأيت وقال الشريف الجوانى ان أباعبدالله محمد بن مفسر قاضي مصر سمع بأن المادراني عمل فى أيامه الكعك المحشو بالسكر والقرص الصغار المسمى أفطن له فأمرهم بعمل الفستق الملبس بالسكر الابيض الفانيد المطيب بالمسك وعمل منه في أول الحال أشياء عوض لبه اب ذهب فى صحن واحد فمضى عليه جملة وخدف قدامه تخاطفه الحاضرون ولم يدلهم له بل الفستق الملبس وكان قد سمع في سيرة المادرانيين انه عمل له هذا الافطن له وفي كل

واحدة خمسة دنانير ووقف استاذ على السماط فقال لاحد الجلساء افطن له وكان عمل على السماط عدة صحون من ذلك الجنس لكن مافيه الدنانير صحن واحد فلما رمز الاستاذ لذلك الرجل بقوله افطن له وأشار الى الصحن تناول ذلك الرجل منه فأصاب الذهب واعتمد عليه فحصل له جملة ورآه الناس وهو اذا أكل يخرج من فمه ويجمع بيده ويحط في حجره فتنبهوا له وتزاحموا عليه فقيل لذلك من يومئذ افطن له *وقال ابو سعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس في تاريخ مصر حدثني بعض أصحابنا بتفسير رؤيا رآها غلام ابن عقيل الخشاب عجيبة فكانت حقا كما فسرت فسألت غلام ابن عقيل عنها فقال لي أنا أخبرك كان أبي في سوق الخشابين فانفق بضاعته ورثت حاله ومات فأسلمتني أمي الى ابن عقيل وكان صديقا لابي فكنت أخدمه وأفتح حانوته وأكنسها ثم أفرش له مايجلس عليه فكان يجرى على رزقا اقوت به فأتى يوما في الحانوت وقد جلس استاذى ابن عقيل فجاء ابن العسال مع رجل من أهل الريف يطلب عود خشب لطاحونة فاشترى من ابن عقيل عود طاحونة بخمسة دنانير فسمعت قوما من اهل السوق يقولون هذا ابن العسال المفسر للرؤيا عند ابن عقيل فجاء منهم قوم وقصوا عليه منامات رأوها ففسرها لهم فذكرت رؤيا رأيتها في لياتي فقلت له اني رأيت البارحة في نومي كذا وكذا فقصصت عليه الرؤيا فقال لي أي وقت رأيتها من الليل فقلت انتبهت بعد رؤياي في وقت كذا فقال لي هذه رؤيا لست أفسرها الا بدنانير كثيرة فألححت عليه فقال استاذى ابن عقيل فرج عنه هذا غلام صغير فقير لا يملك شيئا فقال لست آخذ الا عشرين دينارا فقال له ابن عقيل ان قربت علينا وزنت انا لك ذلك من عنـدى فلم يزل به ينزله حتى قال والله لا آخذ أقل من ثمن العود الخشب خمسة دنانير فقال له ابن عقيل ان صحت الرؤيا دفعت اليك العود بلا ثمن فقال له يأخذ مثل هذا اليوم ألف دينار قال استاذى فاذا لم يصح هذا فقال يكون العود عندك الى مثل هذا اليوم فان كان لم يصح أخذ ماقلت له في ذلك اليوم فليس لى عندك شيء ولا أفسر رؤيا أبدا فقال له أستاذى قد أنصفت ومضت الجمعة فلما كان مثل ذلك اليوم غدوت مثل ما كنت اغدو الى دكان استاذى ففتحتها ورششتها واستلقيت على ظهرى افكر فيما قال لى ومن أين يمكن أن يصير الى ألف دينار فقلت لعل سقف المكان ينفرج فيسقط منه هذا المال وجعلت اجيل فكرى وأنى كذلك الى ضحى اذ وقف على جماعة من أعوان الخراج معهم ناس فقالوا هذه دكان ابن عقيل ثم قالوا لى قم فقلت لهم لست ابن عقيل انا غلامه فقالوا بل أنت ابنه وجبذونى فأخرجونى من الدكان فقلت الى أين فقالوا الى ديوان الاستاذ أبي على الحسين بن أحمد يعنون ابا زنبور فقلت وما يصنع بي فقالوا اذا جئت سمعت كلامه وما يريده منك وكنت بعقب علة ضعيف البدن فقلت ما أقدر أمشي فقالوا اكتر حمارا تركبه ولم يكن معي ما اكترى به حمارا فنزعت تكة سراويلي من

وسطي ودفعتها على درهمين لمن أكرانيُ الحمار ومضيت معهم فجاؤا بي الى دار أبي زنبور
فلما دخلت قال لي أنت ابن عقيل فقلت لا ياسيدى انا غلام في حانوته قال أفايس تبصر
قيمة الخشب قلت بلى قال فاذهب مع هؤلاء فقوم لنا هذا الخشب فانظر بحيث لا يزيدولا
ينقص فمضيت معهم فجاؤابي الى شط البحر الى خشب كثير من أثل وسنط جاف وغير
ذلك مما يصلح لبناء المراكب فقومته تقويم جزع حتى بلغت قيمته ألفي دينار فقالوالي انظر
هذا الموضع الآخر فيه من الخشب ايضا فنظرت فاذاهو أكثر مما قومت بنحو مرتين
فأعجلوني ولم أضبط قيمة الخشب فردوني الى أبي زنبور فقال لي قومت الخشب كما أمرتك
ففزعت فقلت نعم فقال هات كم قومته فقلت ألفا دينار فقلت انظر لا تغلط فقلت هو قيمته
عندي فقال لي تأخذه أنت بألفي دينار فقلت انا فقير لاأملك دينارا واحدا فكيف لي بقيمته
قال ألست تحسن تدبيره وتبيعه فقلت بلى قال فدبره وبعه ونحن نصبر عليك بالثمن الى ان
تبيع شيأ شيأ وتؤدى ثمنه فقلت افعل فأمر بكتاب يكتب علي في الديوان بالمال فكتب
علي ورجعت الى الشط أعرف عدد الخشب وأوصى به الحراس فوافيت جماعة أهل سوقنا
وشيوخهم قد أتوا الى موضع الخشب فقالوا لي ايش صنعت قومت الخشب قلت نعم قالوا
بكم قومته فقلت بألفي دينار فقالوا لي وأنت تحسن تقوم لا يساوى هذا هذه القيمة فقلت لهم قد
كتب علي كتاب في الديوان وهو عندي يساوى أضعاف هذا فقالوا لي اسكت لا يسمعك
احد وكانوا قد قوموه قبلي لابي زنبور بألف دينار فقال بعضهم لبعض أعطوا هذا ربحه
وتسلموه أنتم فقال قائل أعطوه ربحه خمسمائة دينار فقلت لا والله لاآخذ فقالوا قد رأى
رؤيا فزيدوه فقلت لا والله لاآخذ اقل من ألف دينار قالوا فلك ألف دينار فحول اسمك
من الديوان نعطك اذا بعنا ألف دينار فقلت لا والله لا أفعل حتى آخذ الالف دينار في وقتي
هذا فمضوا الى حوانيتهم والى منازلهم حتى جاؤني بالف دينار فقلت لاآخذها الا بنقد الصيرفي
وميزانه فمضيت معهم الى صيرفي الناحية حتى وزنوا عنده الالف دينار ونقدتها وأخذتها
فشددتها في طرف ردائي ومضيت معهم الى الديوان وحولت اسماءهم مكان اسمى ووفوا
حق الديوان من عندهم ورجعت وقت الظهر الى استاذى فقال لي قبضت الف دينار منهم
فقلت نعم ببركتك وتركت الدنانير بين يديه وقلت له يا أستاذ خذ ثمن العود الخشب فقال
لا والله لاآخذ منك شيأ أنت عندى مقام ابنى وجاء في الوقت ابن العسال فدفع اليه استاذى
العود الخشب فمضى فهذا خبر رؤياى وتفسيرها فتأمل اعزك الله مايشتمل عليه من عظم
ماكانت عليه مصر وسعة حال الديوان وكيف فضل فيه خشب يساوى آلافا من الذهب ونحن
اليوم في زمن اذا احتيج فيه الى عمارة شيء من الاماكن السلطانية بخشب اوغيره اخذ من
الناس امابغير ثمن او باخس القيم مع ما يصيب مالكه من الخوف والخسارة للاعوان وكيف لما

قوم هذا الخشب لم يكلف المشترى دفع المال في الحال وفي زمننا اذا طرحت البضاعة السلطانية على الباعة يكلفون حمل ثمنها بالسرعة حتى ان فيهم من يبيعها بأقل من نصف ما اشتراها به ويكمل الثمن امامن ماله أو يقترضه بربح وكيف لما علم أهل السوق ان الخشب بيع بدون القيمة لم يمضوا الى الديوان ويدفعون فيه زيادة اما لقلة شره الناس اذ ذاك وتركهم الاخلاق الرذيلة من الحسد ونحوه أو لعلمهم بعدل السلطان وانه لاينكث ماعقده وفي زمننا لو ادعى عدو على عدوه أن البضاعة التي كان اشتراها من الديوان قيمتها أكثر مما أخذها به لقبل قوله وغرم زيادة على ماادعاه عدوه من قلة القيمة جملة أخرى لاجرم أنه تظاهر سفهاء الناس بكل رذيلة وذميمة من الاخلاق فان الملك سوق يجبي اليه مانفق به وكيف لما علم ابن عقيل أن غلامه استفاد على اسمه ألف دينار لم يشره الى أخذها بل دفع عنه خمسة الدنانير وما ذاك الامن انتشار الخير في الناس وكثرة أموالهم وسعة حال كل أحد بحسبه وطيب نفوس الكافة ولعمرى لو سمع في زمننا أحد من الامراء والوزراء فضلا عن الباعة أن غلاما من غلمانه أخذ على اسمه عشر هـذا المبلغ لقامت قيامته وكيف اتسعت أحوال الخشابين حتى وزنوا ألف دينار في ساعـة وانه ليعسر اليوم على الخشابين أن يزنوا في يوم مائة دينار وهذا كله من وفور غني الناس بمصر وعظم أمرهم وكثرة سعاداتهـم وكان الفسطاط نحو ثلث بغـداد ومقداره فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة وكانت مساكن أهلها خمس طبقات وستا وسبعا وربمـا سكن في الدار الواحدة المائتان من الناس وكان فيه دار عبد العزيز بن مروان يصب فيها لمن فيها في كل يوم أربعمائة راوية ماء وكان فيها خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها وقد قال أبو داود في كتاب السنن شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر اشبرا ورأيت اترجة على بعير قطعتين قطعت وصيرت على مثل عـدلين ذكره في باب صدقة الزرع من كتاب الزكاة قلت وقد ذكر أن هذا كان في جنان بنى سنان البصرى خارج مدينة الفسطاط وكانت بحيث لم ير أبدع منها فلماقدم أمير المؤمنين عبدالله المأمون بن هارون الرشيد مصر سنة سبع عشرة ومائتين رأي جنان بنى سنان هذه فاعجب بها وسأل ابراهيم بن سنان كم عليه من الخراج لجنانه فذكر أنه يحمل الى الديوان في كل سنة عشرين ألف دينار فقال المأمون وكم ترد عليك هـذه الجنان قال لااستطيع حصره الا أن مازاد على مائة ألف دينار اتصدق به ولو درهما هذا وله ولد اسمه أحمد بن ابراهيم بن سنان يوصف بعلم وزهد والله تعالى اعلم

* (ذكر الآثار الواردة في خراب مصر) *

روى قاسم بن أصبغ عن كعب الاحبار قال الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب ارمينية ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة والكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة

ولا يخرج الدجال حتى تفتح القسطنطينية * وعن وهب بن منبه انه قال الجزيرة آمنة من الخراب حتي تخرب ارمينية وأرمينية آمنة من الخراب حتى تخرب مصر ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت القسطنطينية على يد رجل من بني هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب أفريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من قبل الجوع والسيف وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحفرهم حتى لايستطيعوا أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل العراق وخراب الايلة من قبل عدو يحفرهم مرة برا ومرة بحرا وخراب الرى من قبل الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الصين من قبل الهند وخراب اليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من قبل الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وفي رواية وخراب أرمينية من قبل الرجف والصواعق وخراب الاندلس * وخراب الجزيرة من سنابك الخيل واختلاف الجيوش * وعن عبد الله بن الصامت قال ان أسرع الارضين خرابا البصرة ومصر فقيل له وما يخربهما وفيهما عيون الرجال والاموال فقال يخربهما القتل الاحمر والجوع الاغبر كأني بالبصرة كأنها نعامة جاثمة وأما مصر فان نيلها ينضب أو أوقال ييبس فيكون ذلك خرابها وعن الاوزاعى اذا دخل أصحاب الرايات الصفر مصر فلتحفر أهل الشام أسرابا تحت الارض * وعن كعب علامة خروج المهدى الوية تقبل من قبل المغرب عليها رجل من كندة أعرج فاذا ظهر أهل المغرب على مصر فبطن الارض يومئذ خير لاهل الشام * وعن سفيان الثورى قال يخرج عنق من البربر فويل لاهل مصر وقال ابن لهيعة عن أبي الاسود عن مولى لشرحبيل بن حسنة أو لعمرو بن العاص قال سمعته يوما واستقبلنا فقال أيها لك مصر اذا رميت بالقسى الاربع قوس الاندلس وقوس الحبشة وقوس الترك وقوس الروم * وعن قاسم بن أصبغ حدثنا أحمد بن زهير حدثنا هرون بن معروف حدثنا ضمرة عن الشيباني قال تهلك مصر غرقا أو حرقا * وعن عبد الله بن مغلا أنه قال لابنته اذا بلغك أن الاسكندرية قد فتحت فان كان خمارك بالمغرب فلا تأخذيه حتى تلحقي بالمشرق * وذكر مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس يرفعه قال أنزل الله تعالى من الجنة الى الارض خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل عليه السلام واستودعها الجبال وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم وذلك قوله عز وجل وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى

جبريل عليه السلام فرفع من الارض القرآن كله والعلم كله والحجر من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله تعالى وانا على ذهاب به لقادرون فاذا رفعت هذه الاشياء من الارض فقدت أهلها خير الدنيا والدين وقال ابن لهيعة عن عقبة بن عامر الحضرمى عن حيان بن الاعين عن عبد الله بن عمرو قال ان أول مصر خرابا انطابلس وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سالم بن أبي سالم عن عبد الله بن عمرو قال انى لا علم السنة التي تخرجون فيها من مصر قال فقلت له مايخرجنا منها ياأبا محمد أعدو قال لا ولكن يخرجكم منها نيلكم هذا يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل وتأكل سباع الارض حيتانه

* (ذكر خراب الفسطاط) *

وكان لخراب مدينة فسطاط مصر سببان أحدهما الشدة العظمى التي كانت فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى والثاني حريق مصر فى وزارة شاور بن مجير السعدى * (فاما الشدة العظمى) * فان سببها أن السعرار تفع بمصر في سنة ست وأربعين وأربعمائة وتبع الغلاء وباء فبعث الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن على الى متملك الروم بقسطنطينية أن يحمل الغلال الى مصر فأطلق أربعمائة ألف أردب وعزم على حملها الى مصر فأدركه أجله ومات قبل ذلك فقام في الملك بعده امرأة وكتبت الى المستنصر تسأله أن يكون عونا لها ويمدها بعساكر مصر اذا ثار عليها أحد فأبى أن يسعفها في طلبتها فحردت لذلك وعاقت الغلال عن المسير الى مصر فحنق المستنصر وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم وسارت الى اللاذقية فحاربتها بسبب نقض الهدنة وامساك الغلال عن الوصول الى مصر وامدها بالعساكر الكثيرة ونودى فى بلاد الشام بالغزو فنزل ابن ملهم قريبا من فامية وضايق أهلها وجال في أعمال انطاكية فسبى ونهب فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة في البحر فحاربها ابن ملهم عدة مرار وكانت عليه وأسر هو وجماعة كثيرة فى شهر ربيع الاول منها فبعث المستنصر في سنة سبع وأربعين أبا عبد الله القضاعى برسالة الى القسطنطينية فوافى اليها رسول طغريل السلجوقى من العراق بكتابة يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة فى جامع القسطنطينية فأذن له فى ذلك فدخل اليه وصلى فيه صلاة الجمعة وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى فبعث القاضى القضاعى الى المستنصر يخبره بذلك فأرسل الى كنيسة قمامة بيت المقدس وقبض على جميع مافيها وكان شيأ كثيرا من أموال النصارى ففسد من حينئذ مابين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها وحاصروا القاهرة كما يرد في موضعه ان شاء الله تعالى واشتد فى هذه السنة الغلاء وكثر الوباء بمصر والقاهرة وأعمالها الى سنة أربع وخمسين وأربعمائة فحدث مع ذلك الفتنة العظيمة

التي خرب بسببها اقليم مصر كله وذلك أن المستنصر لما خرج على عادته في كل سنة على النجب مع النساء والحشم الى أرض الجب خارج القاهرة جرد بعض الاتراك سيفا وهو سكران على أحد عبيد الشراء فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه فحنق لقتله الاتراك وساروا بجميعهم الى المستنصر وقالوا ان كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة وان كان من غير رضى أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك فتبرأ المستنصر مما جرى وأنكره فتجمع الاتراك لمحاربة العبيد وكانت بينهما حروب شديدة بناحية كوم شريك قتل فيها عدة من العبيد وانهزم من بقي منهم فشق ذلك على أم المستنصر فانها كانت السبب في كثرة العبيد السود بمصر وذلك انها كانت جارية سوداء فأحبت الاستكثار من جنسها واشترتهم من كل مكان وعرفت رغبتها في هذا الجنس فجلبت الناس الى مصر منهم حتى يقال انه صار في مصر اذ ذاك زيادة على خمسين ألف عبد أسود فلما كانت وقعة كوم شريك أمدت العبيد بالاموال والسلاح سرا وكانت أم المستنصر قد تحكمت في الدولة وحقدت على الاتراك وحثت على قتلهم مولاها أبا سعد التسترى فقويت العبيد لذلك حتى صار الواحد منهم يحكم بما يختار فكرهت الاتراك ذلك وكان ما ذكر فظفر بعض الاتراك يوما بشيء من المال والسلاح قد بعثت به أم المستنصر الى العبيد تمدهم به بعد انهزامهم من كوم شريك فاجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر واغلظوا في القول فحلف انه لم يكن عنده علم بما ذكر وصار الى أمه فانكرت مافعلت وخرج الاتراك فصار السيف قائما ووقعت الفتنة ثانيا فانتدب المستنصر أبا الفرج بن المغربي ليصلح بين الطائفتين فاصطلحا على غل وخرج العبيد الى شبرا دمنهور فكان هذا أول اختلال أحوال أهل مصر ودبت عقارب العداوة بين الفئتين الى سنة تسع وخمسين فقويت شوكة الاتراك وضروا على المستنصر وزاد طمعهم فيه وطلبوا منه الزيادة في واجباتهم وضاقت أحوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقل مال السلطان واستضعف جانبه فبعثت أم المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجيزة وخرج اليهم الاتراك ومقدمهم ناصر الدين حسين بن حمدان فاقتتلا عدة مرار ظهر في آخرها الاتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ابن حمدان الى القاهرة وقد عظم أمره وقوى جاشه وكبرت نفسه واستخف بالخليفة فجاءه الخبر أنه قد تجمع من العبيد ببلاد الصعيد نحو خمسة عشر ألف فارس فقلق وبعث بمقدمي الاتراك الى المستنصر فأنكر ما كان من اجتماع العبيد وجفوا في خطابهم وفارقوه على غير رضي منهم فبعثت أم المستنصر الى من بحضرتها من العبيد تأمرهم بالايقاع على غفلة بالاتراك فهجموا عليهم وقتلوا منهم عدة فبادر ابن حمدان الى الخروج ظاهر القاهرة وتلاحق به الاتراك وبرز اليهم العبيد المقيمون بالقاهرة ومصر وحاربوهم عدة أيام فحلف ابن حمدان أنه لاينزل عن فرسه حتى ينفصل الامر اماله أو عليه وجد كل من الفريقين في القتال فظهرت

الاتراك على العبيد وأثخنوا فى قتلهم وأسرهم فعادوا الى القاهرة وتتبع ابن حمـدان من في البلد منهم حتى أفنى معظمهم هذا والعبيد ببلاد الصعيد على حالهم وبالاسكندرية أيضا منهم جمع كثير فسار ابن حمدان الى الاسكندرية وحاصرهم فى مدة حتى سألوه الامان فأخرجهم وأقام فيها من يثق به وانقضت هذه السنة كلها فى قتال العبيد ودخلت سنة ستين وأربعمائة وقد خرق الاتراك ناموس المستنصر واستها نوابه واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر أربعمائة ألف دينار بعد ما كان ثمانية وعشرين ألف دينار ولم يبق فى الخزائن مال فبعثوا يطالبونه بالمال فاعتذر اليهم بعجزه عما طلبوه فلم يعذروه وقالوا بع ذخائرك فلم يجد بدا من اجابتهم واخرج ما كان فى القصر من الذخائر فصاروا يقومون مايخرج اليهم بأخس القيم وأقل الاثمان ويأخذون ذلك فى واجباتهم وتجهز ابن حمدان وسار الى الصعيد يريد قتال العبيد وكانت شرورهم قد كثرت وضررهم وفسادهم قد تزايد فلقيهم وواقعهم غـير مرة والاتراك تنكسر منهم وتعود الى محاربتهم الى أن حمل العبيد عليهم حملة انهزموا فيها الى الجيزة فأفحشوا عند ذلك فى أمر المستنصر ونسبوه الى مباطنة العبيد وتقويتهم فأنكر ذلك وحلف عليه فأخذوا في اصلاح شأنهم ولم شعثهم وساروا لقتال العبيد وما زالوا يلحون فى قتالهم حتى انكسرت العبيـد كسرة شنيعة وقتل منهم خلق كثير وفر من بقى فذهبت شوكتهم وزالت دولتهم ورجع ابن حمدان وقد كشف قناع الحياء وجهر بالسوء للمستنصر واستبد بسلطنة البلاد ودخلت سنة احدى وستين وابن حمدان مستبد بالامر مجاف للمستنصر فثقل مكانه على الاتراك وتفرغوا من العبيد والتفتوا اليه وقد استبد بالامور دونهم واستأثر بالاموال عليهم ففسد مابينهم وبينه وشكوا منه الى الوزير خطير الملك فأغراهم به ولامهم على ما كان من تقويته وحسن لهم الثورة به فصاروا الى المستنصر ووافقوه على ذلك فبعث الى ابن حمدان يأمره بالخروج عن مصر ويهدده ان امتنع فلم يقدر على الامتناع منه لفساد الاتراك عليه وميلهم مع المستنصر فخرج الى الجيزة وانتهب الناس دوره ودور حواشيه فلما جن عليه الليل عاد من الجيزة سرا الى دار القائد تاج الملوك شادى وترامى عليه وقبل رجليه وسأله النصرة على الذكر والوزير الخطير فانهما قاما بهذه الفتنة فأجابه الى ذلك ووعده بقتل المذكورين وفارقه ابن حمـدان فلما كان من الغد ركب شادى فى أصحابه وأخذ يسير بين القصرين بالقاهرة وأقبل الوزير الخطير في موكبه فبادره شادى على حين غفلة وقتـله ففر الذكر الى القصر والتجأ بالمستنصر فلم يكن بأسرع من قدوم ابن حمدان وقد استعد للحرب فيمن معه فركب المستنصر بلامة الحرب واجتمع اليه الاجناد والعامة وصار فى عدد لاينحصر وبرزت الفرسان فكانت بين الخليفة وابن حمدان حروب آلت الى هزيمة ابن حمدان وقتل كثير من أصحابه فمضى فى طائفة الى البحيرة وترامي على بني سيس وتزوج منهم فعظم الامر

بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الاقوات لما فسد من الاعمال بكثرة النهب وقطع الطريق حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقف أرباب الفساد فى الطريق فصاروا يقتلون من ظفروا به فى أزقة مصر فهلك من أهل مصر فى هذه الحروب والفتن مالا يمكن حصره وامتد ذلك الى أن دخلت سنة ثلاث وستين فجهز المستنصر عساكره لقتال ابن حمدان بالبحيرة فسارت اليه ولم يوفق فى محاربته فكسرها كلها واحتوى على ما كان معها من سلاح وكراع ومال فتقوى به وقطع الميرة عن البلد ونهب أكثر الوجه البحرى وقطع منه الخطبة للمستنصر ودعا للخليفة القائم بأمر الله العباسي بالاسكندرية ودمياط وعامة الوجه البحرى فاشتد الجوع وتزايد الموتان بالقاهرة ومصر حتى انه كان يموت الواحد من أهل البيت فلا يمضى يوم وليلة من موته حتى يموت سائر من في ذلك البيت ولا يوجد من يستولى عليه ومدّت الاجناد أيديها الى النهب فخرج الامر عن الحد ونجا أهل القوة بأنفسهم من مصر وساروا الى الشام والعراق وخرج من خزائن القصر ما يجل وصفه وقد ذكر طرف من ذلك في أخبار القاهرة عند ذكر خزائن القصر فاضطر الاجناد ماهم فيه من شدة الجوع الى مصالحة ابن حمدان بشرط أن يقيم في مكانه ويحمل اليه مال مقرر وينوب عنه شادى بالقاهرة فرضى بذلك وسير الغلال الى القاهرة ومصر فسكن ما بالناس من شدة الجوع قليلا ولم يكن ذلك الا نحو شهر ووقع الاختلاف عليه فقدم من البحيرة الى مصر وحاصرها وانتهبها وأحرق دورا عديدة بالساحل ورجع الى البحيرة فدخلت سنة أربع وستين والحال على ذلك وشادى قد استبد بأمر الدولة وفسد ما بينه وبين ابن حمدان ومنعه من المال الذي تقرر له وشح به عليه فلم يوصله الا القليل فخرد من ذلك ابن حمدان وجمع العربان وسار الى الجيزة وخادع شادى حتى صار اليه ليلا في عدة من الاكابر فقبض عليه وعليهم وبعث أصحابه فنهبوا مصر وأطلقوا فيها النار فخرج اليهم عسكر المستنصر من القاهرة وهزموهم فعاد الى البحيرة وبعث رسولا الى الخليفة القائم بأمر الله ببغداد باقامة الخطبة له وسأله الخلع والتشاريف فاضمحل أمر المستنصر وتلاشى ذكره وتفاقم الامر في الشدة من الغلاء حتى هلكوا فسار ابن حمدان الى البلد وليس في أحد قوة يمنعه بها فملك القاهرة وامتنع المستنصر بالقصر فسير اليه رسولا يطلب منه المال فوجده وقد ذهب سائر ما كان يعهده من ابهة الخلافة حتى جلس على حصير ولم يبق معه سوى ثلاثة من الخدم فبلغه رسالة ابن حمدان فقال المستنصر للرسول مايكفى ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على هذا الحال فبكى الرسول رقة له وعاد الى ابن حمدان فأخبره بما شاهد من اتضاع أمر المستنصر وسوء حاله فكفت عنه وأطلق له في كل شهر مائة دينار وامتدت يده وتحكم وبالغ في اهانة المستنصر مبالغة عظيمة وقبض على أمه وعاقبها أشد العقوبة واستصفى أموالها فحاز منها شيأ كثيرا فتفرق حينئذ عن المستنصر جميع أقاربه

وأولاده من الجوع فنهم من سار الى المغرب ومنهم من سار الى الشام والعراق * قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة في كتاب النقط حل بمصر غلاء شديد في خلافة المستنصر بالله في سنة سبع وخمسين وأربعمائة وأقام الى سنة أربع وستين وأربعمائة وعم مع الغلاء وباء شديد فأقام ذلك سبع سنين والنيل يمد وينزل فلا يجد من يزرع وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد فانقطعت الطرقات برا وبحرا الا بالخفارة الكثيرة مع ركوب الغرر ونزا المارقون بعضهم على بعض واستولى الجوع لعدم القوت وصار الحال الى أن بيع رغيف من الخبز الذي وزنه رطل بزقاق القناديل كبيع الطرف في النداء بأربعة عشر درهما وبيع أردب من القمح بثمانين دينارا ثم عدم ذلك وأكلت الكلاب والقطاط ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتا قصيرة السقوف قريبة ممن يسعى في الطرقات ويطوف وقد أعدوا سلبا وخطاطيف فاذا مر بهم أحد شالوه في أقرب وقت ثم ضربوه بالاخشاب وشرحوا لحمه وأكلوه * قال وحدثني بعض نسائنا الصالحات قالت كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر فكنا نسألها فتقول أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة فأخذني انسان وكنت ذات جسم وسمن فأدخلني الى بيت فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتلى فأضجعني على وجهي وربط في يدي ورجلي سلبا الى أوتاد حديد عريانة ثم شرح من أفخاذي شرائح وأنا أستغيث ولا أحد يجيبني ثم أضرم الفحم وشوى من لحمي وأكل أكلا كثيرا ثم سكر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو فأخذت في الحركة الى أن انحل أحد الاوتاد وأعان الله على الخلاص وتخلصت وحللت الرباط وأخذت خرقا من داره ولففت بها أفخاذي وزحفت الى باب الدار وخرجت أزحف الى أن وقعت الى المأمن وجئت الى بيتي وعرفتهم بموضعه فمضوا الى الوالي فكبس عليه وضرب عنقه وأقام الدواء في أفخاذي سنة الى أن ختم الجرح وبقي كذا حفرا وبسبب هذا الغلاء خرب الفسطاط وخلا موضع العسكر والقطائع وظاهر مصر مما يلي القرافة حيث الكيمان الآن الى بركة الحبش فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالي الى مصر وقام بتدبير أمرها نقلت أنقاض ظاهر مصر مما يلي القاهرة حيث كان العسكر والقطائع وصار فضاء وكيمانا فيما بين مصر والقاهرة وفيما بين مصر والقرافة وتراجعت أحوال الفسطاط بعد ذلك حتى قارب ما كان عليه قبل الشدة *(وأما حريق مصر)* فكان سببه أن الفرنج لما تغلبوا على ممالك الشام واستولوا على السواحل حتى صار بايديهم ما بين ملطية الى بلبيس الا مدينة دمشق فقط وصار أمر الوزارة بديار مصر لشاور بن مجير السعدي والخليفة يومئذ العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف اسم لا معنى له وقام في منصب الوزارة بالقوة في صفر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وتلقب بأمير الجيوش وأخذ أموال بني رزيك

وزراء مصر وملوكها من قبله فلما استبد بالامرة حسده ضرغام صاحب الباب وجمع جموعا كثيرة وغلب شاور على الوزارة في شهر رمضان منها فسار شاور الى الشام واستقل ضرغام بسلطنة مصر فكان بمصر في هذه السنة ثلاثة وزراءهم العادل بن رزيك بن طلائع بن رزيك وشاور بن مجير وضرغام فأساء ضرغام السيرة في قتل أمراء الدولة وضعفت من أجل ذلك دولة الفاطميين بذهاب رجالها الاكابر ثم ان شاور استنجد بالسلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأنجده وبعث معه عسكرا كثيرا في جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وقدم عليه أسد الدين شيركوه على أن يكون لنور الدين اذا عاد شاور الى منصب الوزارة ثلث خراج مصر بعد اقطاعات العساكر وأن يكون شيركوه عنده بعساكره في مصر ولا يتصرف الا بأمر نور الدين فخرج ضرغام بالعسكر وحاربه في بلبيس فانهزم وعاد الى مصر فنزل شاور بمن معه عند التاج خارج القاهرة وانتشر عسكره في البلاد وبعث ضرغام الى أهل البلاد فأتوه خوفا من الترك القادمين معه وأتته الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية فامتنعوا بالقاهرة وتطاردوا مع طلائع شاور بأرض الطبالة فنزل شاور في المقس وحارب أهل القاهرة فغلبوه حتى ارتفع الى بركة الحبش فنزل على الرصد واستولى على مدينة مصر وأقام أياما فمال الناس اليه وانحرفوا عن ضرغام لامور فنزل شاور باللوق وكانت بينه وبين ضرغام حروب آلت الى احراق الدور من باب سعادة الى باب القنطرة خارج القاهرة وقتل كثير من الفريقين واختل أمر ضرغام وانهزم فملك شاور القاهرة وقتل ضرغام آخر جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين فأخلف شيركوه ماوعد به السلطان نور الدين وأمره بالخروج عن مصر فأبى عليه واقتتلا وكان شيركوه قد بعث بابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب الى بلبيس ليجمع له الغلال وغيرها من الاموال فحشد شاور وقاتل الشاميين فجرت وقائع واحترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسره وقطعة من حارة زويلة فبعث شاور الى الفرنج واستنجد بهم فطمعوا في البلاد وخرج ملكهم مرى من عسقلان بجموعه فبلغ ذلك شيركوه فرحل عن القاهرة بعد طول محاصرتها ونزل بلبيس فاجتمع على قتاله بها شاور وملك الفرنج وحصروه بها وكانت اذ ذاك حصينة ذات أسوار فأقام محصورا مدة ثلاثة أشهر وبلغ ذلك نور الدين فأغار على ماقرب منه من بلاد الفرنج وأخذها من أيديهم فخافوه ووقع الصلح مع شيركوه على عوده الى الشام فخرج في ذي الحجة ولحق بنور الدين فأقام وفي نفسه من مصر أمر عظيم الى أن دخلت سنة اثنتين وستين فجهزه نور الدين الى مصر في جيش قوي في ربيع الاول وسيره فبلغ ذلك شاور فبعث الى مرى ملك الفرنج مستنجدا به فسار بجموع الفرنج حتى نزل بلبيس فوافاه شاور وأقام حتى قدم شيركوه الى اطراف مصر فلم يطق لقاء القوم فسار حتى خرج من أطفيح الى جهة بلاد الصعيد من ناحية بحر

القلزم فبلغ شاور أن شيركوه قد ملك بلاد الصعيد فسقط في يده ونهض للفور من بلبيس ومعه الفرنج فكان من حروبه مع شيركوه ماكان حتى انهزم بالاشمونين وسار منها بعد الهزيمة الى الاسكندرية فملكها واقر بها ابن أخيه صلاح الدين وخرج الى الصعيد فخرج شاور بالفرنج وحصر الاسكندرية أشد حصار فسار شيركوه من قوص ونزل على القاهرة وحاصرها فرحل اليه شاور وكانت أمور آلت الى الصلح وسار شيركوه بمن معه الى الشام في شوال فطمع مرى في البلاد وجعل له شحنة بالقاهرة وصارت أسوارها بيد فرسان الفرنج وتقرر لهم في كل سنة مائة ألف دينار ثم رحل الى بلاده وترك بالقاهرة من يثق به من الفرنج وسار شيركوه الى الشام فتحكم الفرنج في القاهرة حكما جائرا وركبوا المسلمين بالاذى العظيم وتيقنوا عجز الدولة عن مقاومتهم وانكشفت لهم عورات الناس الى أن دخلت سنة أربع وستين فجمع مرى جمعا عظيما من أجناس الفرنج وأقطعهم بلاد مصر وسار يريد أخذ مصر فبعث اليه شاور يسأله عن سبب مسيره فاعتل بأن الفرنج غلبوه على قصد ديار مصر وأنه يريد ألفي ألف دينار يرضيهم بها وسار فنزل على بلبيس وحاصرها حتى أخذها عنوة في صفر فسبي أهلها وقصد القاهرة فسير العاضد كتبه الى نور الدين وفيها شعور نسائه وبناته يسأله انقاذ المسلمين من الفرنج وسار مرى من بلبيس فنزل على بركة الحبش وقد انضم النـاس من الاعمال الى القاهرة فنـادى شاور بمصر أن لايقيم بها أحد وأزعج الناس في النقلة منها فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد ماج النـاس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر لايعبأ والد بولده ولا يلتفت أخ الى أخيه وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر دينارا وكراء الحمل الى ثلاثين دينارا ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والازقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيـالهم وأولادهم وقد سلبوا سائر أموالهم وينتظرون هجوم العـدو على القاهرة بالسيف كما فعـل بمدينة بلبيس وبعث شاور الى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرّق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظرا مهولا فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعـة وخمسين يوما والنهابة من العبيد ورجال الاسطول وغيرهم بهذه المنـازل في طلب الخبايا فلما وقع الحريق بمصر رحل مرى من بركة الحبش ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقيـة وقاتل أهلها قتالا كثيرا حتى زلزلوا زلزالا شـديدا وضعفت نفوسهم وكادوا يؤخذون عنوة فعاد شاور الى مقاتلة الفرنج وجرت أمور آلت الى الصلح على مال فبيناهم في جبايته اذ بلغ الفرنج مجيء أسد الدين شيركوه بعساكر الشام من عند السلطان نور الدين محمود فرحلوا في سابع ربيع الآخر الى بلبيس وساروا منها الى فاقوس فصاروا الى بلادهم بالساحل ونزل شيركوه بالمقس خارج القاهرة وكان من قتـل

شاور واستيلاء شيركوه على مصر ما كان فمن حينئذ خربت مصر الفسطاط هـذا الخراب الذى هو الآن كيان مصر وتلاشى أمرها وافتقر أهلها وذهبت أموالهم وزالت نعمهم فلما استبد شيركوه بوزارة العاضد أمر باحضار أعيان أهل مصر الذين خلوا عن ديارهم في الفتنة وصاروا بالقاهرة وتغمم لمصابهم وسفه رأى شاور في احراق المدينـة وأمرهم بالعود اليها فشكوا اليه ما بهم من الفقر والفاقة وخراب المنازل وقالوا الى أى مكان نرجع وفي أى مكان ننزل ونأوى وقد صارت كما ترى وبكوا وأبكوا فوعدهم جميلا وترفق بهم وأمر فنودى في الناس بالرجوع الى مصر فتراجع اليها الناس قليلا قليلا وعمروا ماحول الجامع الى أن كانت المحنة من الغلاء والوباء العظيم في سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب لسنتي خمس وست وخمسمائة فخرب من مصر جانب كبير ثم تحايا الناس بها وأكثروا من العمارة بجانب مصر الغربي على شاطئ النيل لما عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة وصار بمصر عدة آدر جليلة وأسواق ضخمة فلما كان غلاء مصر والوباء الكائن في سلطنة الملك العادل كتبغا سنة ست وتسعين وستمائة خرب كثير من مساكن مصر وتراجع الناس بعد ذلك في العمارة الى سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحدث الفناء الكبير الذى اقفر منه معظم دور مصر وخربت ثم تحايا الناس من بعد الوباء وصار ما يحيط بالجامع العتيق وما على شط النيل عامرا الى سنة ست وسبعين وسبعمائة فشرقت بلاد مصر وحدث الوباء بعد الغلاء فخرب كثير من عامر مصر ولم يزل يخرب شيأ بعد شئ الى سنة تسعين وسبعمائة فعظم الخراب في خط زقاق القناديل وخط النحاسين وشرع الناس في هدم دور مصر وبيع أنقاضها حتى صارت على ما هى عليه الآن وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا

(ذكر ما قيل في مدينة فسطاط مصر)

قال ابن رضوان والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء الفسطاط والقـاهرة والجزيرة والجيزة وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة والجبل المقطم في شرقيها وبينها وبين مقابر المدينة وقد قالت الاطباء ان أردأ المواضع ما كان الجبل في شرقيه يعوق ريح الصبا عنه وأعظم أجزائها هو الفسطاط ويلى الفسطاط من الغرب النيل وعلى شط النيل الغربي أشجار طوال وقصار وأعظم أجزاء الفسطاط موضع فى غور فانه يعلوه من المشرق المقطم ومن الجنوب الشرف ومن الشمال الموضع العالي من عمل فوق أعنى الموقف والعسكر وجامع ابن طولون ومتى نظرت الى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال رأيت وضعها فى غور وقد بين ابقراط أن المواضع المتسفلة أسخن من المواضع المرتفعة وأردأ هواء لاحتقان البخار فيها ولان ما حولهـا من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وابنيتها عالية وقد قال روفس اذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الازقة

مرتفعة البناء فاهرب منها لانها وبيئة أراد أن البخار لايتحل منها كما ينبغي لضيق الازقة وارتفاع البناء * ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا مايموت في دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط النـاس في شوارعهم وأزقتهم فتعفن وتخالط عفونتها الهواء ومن شأنهم أيضا أن يرموا في النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها وخرارات كنفهم تصب فيه وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط وهى أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها حتى انك ترى الهواء فى أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس ويتسخ الثوب النظيف فى اليوم الواحد واذا مر الانسان فى حاجة لم يرجع الا وقد اجتمع فى وجهه ولحيته غبار كثير ويعلوها فى العشيات خاصة فى أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر سيما اذا كان الهواء ساكنا من الرياح واذا كانت هذه الاشياء كما وصفنا فمن البين انه يصير الروح الحيوانى الذى فيهما حاله كهذه الحال فيتولد اذا فى البدن من هذه الاعراض فضول كثيرة واستعدادات نحو العفن الا أن ألف أهل الفسطاط لهذه الحال وأنسهم بها يعوق عنهم أكثر شرها وان كانوا على كل حال أسرع أهل مصر وقوعا فى الامراض وما يلى النيل من الفسطاط يجب أن يكون أرطب مما يلى الصحراء وأهل الشرق أصاح حالا لتخرق الرياح لدورهم وكذلك عمل فوق والحمراء الا أن أهل الشرف الذى يشربونه أجود لانه يستقى قبـل أن تخالطه عفونة الفسطاط فأما القرافة فأجود هذه المواضع لان المقطم يعوق بخار الفسطاط من المرور بها واذا هبت ريح الشمال مرت بأجزاء كثيرة من بخار الفسطاط والقاهرة على الشرف فغيرت حاله وظاهر أن المواضع المكشوفة في هذه المدينة هى أصح هواء وكذلك حال المواضع المرتفعة وأردأ موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق الى ما يلى النيل والسواحل واذا كان فى الشتاء وأول الربيع حمل من بحر الملح سمك كثير فيصل الى هـذه المدينة وقد عفن وصارت له رائحة منكرة جدا فيباع فى القـاهرة ويأكله أهلها وأهل الفسطاط فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة فلولا اعتدال أمزجتهم وصحة أبدانهم في هـذا الزمان لكان ذلك يولد فى أبدانهم امراضا كثيرة قاتلة الا أن قوة الاستمرار تعوق عن ذلك وربما انقطع النيل فى آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط فيعفن بكثرة ما يلقى فيه الى أن يبلغ عفنه الى أن تصير له رائحة منكرة محسوسة وظاهر أن هـذا الماء اذا صار على هذه الحال غير مزاج الناس تغيرا محسوسا قال فمن البين أن أهل هذه المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الامراض من جميع أهل هذه الارض ماخلا أهل الفيوم فانها أيضا قريبة وأردأ مافى المدينة الموضع الغائر من الفسطاط ولذلك غلب على أهلها الجبن وقلة الكرم وأنه ليس أحد منهم يغيث ولا يضيف الغريب الا فى النادر وصاروا من السعاية والاغتياب

على أمر عظيم ولقد بلغ بهم الجبن الى أن خمسة أعوان تسوق منهم مائة رجل وأ كثر ويسوق الاعوان المذكورين رجل واحد من أهل البلدان الاخر وممن قد تدرب في الحرب فقد استبان اذا العلة والسبب في أن صار أهل المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا في الامراض من جميع أهل هذه الارض وأضعف انفسا ولعل لهذا السبب اختار القدماء اتخاذ المدينة في غير هذا الموضع فمنهم من جعلها بمنف وهى مصر القديمة ومنهم من جعلها بالاسكندرية ومنهم من جعلها بغير هذه المواضع ويدل على ذلك آثارهم * وقال ابن سعيد عن كتاب الكمائم وأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ونسبت المدينة اليه فقيل فسطاط عمرو وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سريرا للسلطنة وتضاعفت عمارتها فأقبل الناس من كل جانب اليها وقصروا أمانيهم عليها الى أن رسخت بها دولة بني طولون فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن الى جانب القاهرة وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ولها منتزهات وهى فى الاقليم الثالث ولا ينزل فيها مطر الا في النادر وترابها تثيره الارجل وهو قبيح اللون تتكدر منه ارجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ولها أسواق ضخمة الا أنها ضيقة ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط في الاغتباط بها بعد الافراط وبينهما نحو ميلين وأنشد فيها الشريف العقيلي

أحن الى الفسطاط شوقا وانني * لادعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها * وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها * ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب آخر فالفسطاط هي قصبة مصر والجبل المقطم شرقها وهو متصل بجبل الزمرذ * وقال عن كتاب ابن حوقل والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهي كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات على ممر الايام خضرة وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها كالبصرة والكوفة الا انها أقل من ذلك وهي سبخة الارض غير نقية التربة وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا وربما يسكن في الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم بالطوب وأسفل دورهم غير مسكون وبها مسجد ان للجمعة بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط والآخر على الموقف بناه

أحمد بن طولون وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا في ميل يسكنها جنده تعرف بالقطائع كما بنى بنو الاغلب خارج القيروان وقادة وقد خربتا في وقتنا هذا وأخاف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة * قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معي أحد أصحاب العزمة فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لاعهد لي بمثلها في بلد فركب منها حمارا وأشار الى أن اركب حمارا آخر فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته في بلاد المغرب فأعلمني انه غير معيب على أعيان مصر وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والسادة الظاهرة يركبونها فركبت وعند ما استويت راكباً أشار المكارى على الحمار فطار بي وأثار من الغبار الاسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكارى وقفت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت

لقيت بمصر أشد البوار * ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح * لايعرف الرفق بهمي استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى * الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقي رواق الثرى * وألحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له احسانك الى أن تتركني أمشي على رجلي ومشيت الى أن بلغتها وقدرت الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققت بعد ذلك نحو الميلين ولما اقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض الى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الاسود والازبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الطريف فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال الى أن سرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام النـاس فيها بحوائج السوق والروايا التي على الجمال مالايفي به الا مشاهدته ومقاساته الى أن انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الاسواق التي حوله ما ذكرت به ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش ثم دخلت اليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا مايحصل لهم منهم رزقا وفضلات ما كلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه

في السقوف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة الا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس مالا تجده في جامع اشبيلية مع زخرفته والبستان الذى في صحنه ولقد تأملت ماوجدت فيه من الارتياح والانس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب الا بالجاه والتعب ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التي تصل من جميع أقطار الارض والنيل ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني أقول حقا والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة وهو غير طويل ومن الجانب الآخر الى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة اليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم في المراكب لان هذين الجسرين قد احترما بحصولهما في حيز قلعة السلطان ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الجزيرة والفسطاط راكبا احتراما لموضع السلطان وبتنا في ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل فقلت

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل * بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة * كسرب قطا أضحى يزف على ورد
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى * ويطغو حنانا وهو يلعب بالنرد
غدا ماؤه كالريق ممن أحبه * فمدت عليه حلية من حلى الخد
وقدكان مثل الزهر من قبل مده * فأصبح لما زاده المد كالورد

قلت هذا لانى لم أذق في المياه أحلى من مائه وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على اقطاره أبيض فاذا كان عباب النيل صار أحمر * وأنشدنى علم الدين فخر الترك ايدمر عتيق وزير الجزيرة في مدح الفسطاط وأهلها

حبذا الفسطاط من والدة * جنبت أولادها در الجفا
يرد النيل اليها كدرا * فاذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمزن لا يألفهم * خجلا لما رآهم ألطفا

ولم ارفى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى انهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين وجملة الحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازجة والالفة مايطول ذكره وأماما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها تجهز الى القاهرة وسائر البلاد وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم مايجري هذا المجرى لان القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ماينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الاشياء الرفيعة السلطانية والخراب فى الفسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر يعني ابن سعيد ما بنى على شقة مصر من جهة النيل

ذكر ماعليه مدينة مصر الآن وصفتها

قد تقدم من الاخبار جملة تدل على عظم ما كان بمدينة فسطاط مصر من المباني وكثرتها ثم الاسباب التي أوجبت خرابها وآخر مارأيت من الكتب التي صنفت في خطط مصر كتاب ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل تأليف القاضي الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيري رحمه الله وقطع على سنة خمس وعشرين وسبعمائة فذكر من الاخطاط المشهورة بذاتها لعهده اثنين وخمسين خطا ومن الحارات ثنتى عشرة حارة ومن الازقة المشهورة ستة وثمانين زقاقا ومن الدروب المشهورة ثلاثة وخمسين دربا ومن الخوخ المشهورة خمساً وعشرين خوخة ومن الاسواق المشهورة تسعة عشر سوقا ومن الخطط المشهورة بالدور ثلاثة عشر خطا ومن الرحاب المشهورة خمس عشرة رحبة ومن العقبات المشهورة احدى عشرة عقبة ومن الكيمان المسماة ستة كيمان ومن الاقباء عشرة أقباء ومن البرك خمس برك ومن السقائف خمساً وستين سقيفة ومن القياسر سبع قياسر ومن مطابخ السكر العامرة ستة وستين مطبخاً ومن الشوارع ستة شوارع ومن المحارس عشرين محرساً ومن الجوامع التي تقام فيها الجمعة بمصر وظاهرها من الجزيرة والقرافة أربعة عشر جامعاً ومن المساجد أربعمائة وثمانين مسجداً ومن المدارس سبع عشرة مدرسة ومن الزوايا ثماني زوايا ومن الربط التي بمصر والقرافة بضعاً وأربعين رباطا ومن الاحباس والاوقاف كثيراً ومن الحمامات بضعاً وسبعين حماما ومن الكنائس وديارات النصارى ثلاثين مابين دير وكنيسة وقد باد أكثر ماذكره ودثر وسيرد ماقاله من ذلك في مواضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى (فأقول) ان مدينة مصر محدودة الآن بحدود أربعة * فحدها الشرقي اليوم من قلعة الجبل وأنت آخذ

الى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر الى كوم الجارح وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهي الى الرصد حيث أول بركة الحبش فهذا طول مصر من جهة المشرق وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق * وحدها الغربي من قناطر السباع خارج القاهرة الى موردة الحلفاء وتأخذ على شاطئ النيل الى دير الطين فهذا أيضاً طولها من جهة المغرب * وحدها القبلي من شاطئ النيل بدير الطين حيث ينتهي الحد الغربي الى بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقي فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التي تسميها أهل مصر الجهة القبلية * وحدها البحري من قناطر السباع حيث ابتداء الحد الغربي الى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقي فهذا عرض مصر من جهة الشمال التي تعرف بمصر بالجهة البحرية وما بين هذه الجهات الاربع فانه يطلق عليه الآن مصر فيكون أول عرض مصر في الغرب بحر النيل وآخر عرضها في الشرق أول القرافة وأول طولها من قناطر السباع وآخره بركة الحبش فاذا عرفت ذلك ففي الجهة الغربية خط السبع سقايات ويجاوره الخليج وعليه من شرقيه حكر أقبغا ومن غربيه المريس ومنشأة المهراني ويحاذي المنشأة من شرقي الخليج خط قنطرة السد وخط بين الزقاقين وخط موردة الحلفاء وخط الجامع الجديد ومن شرقي خط الجامع الجديد خط المراغة ويتصل به خط الكبارة وخط المعاريج ويجاور خط الجامع الجديد من بحريه الدور التي تطل على النيل وهي متصلة الى جسر الافرم المتصل بدير الطين وما جاوره الى بركة الحبش وهذه الجهة هي أعمر ما في مصر الآن وأما الجهة الشرقية فليس فيها شيء عامر الا قلعة الجبل وخط المراغة المجاور لباب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة ويجاور خط مشهد السيدة نفيسة من قبليه الفضاء الذي كان موضع الموقف والعسكر الى كوم الجارح ثم خط كوم الجارح وما بين كوم الجارح الى آخر حدّ طول مصر عند بركة الحبش تحت الرصد فانه كيمان وهي الخطط التي ذكرها القضاعي وخربت في الشدة العظمى زمن المستنصر وعند حريق شاور لمصر كما تقدم وأما عرض مصر الذي من قناطر السباع الى القلعة فانه عامر ويشتمل على بركة الفيل الصغرى بجوار خط السبع سقايات ويجاور الدور التي على هذه البركة من شرقيها خط الكبش ثم خط جامع أحمد بن طولون ثم خط القبيبات وينتهي الى الفضاء الذي يتصل بقلعة الجبل وأما عرض مصر الذي من شاطئ النيل بخط دير الطين الى تحت الرصد حيث بركة الحبش فليس فيه عمارة سوى خط دير الطين وما عدا ذلك فقد خرب بخراب الخطط وكان فيه خط بني وائل وخط راشدة فأما خط السبع سقايات فانه من جملة الحمراء الدنيا وسيرد عند ذكر الاخطاط ان شاء الله تعالى وما عدا ذلك فانه يتبين من ذكر ساحل مصر

﴿ ذكر ساحل النيل بمدينة مصر ﴾

قد تقدم أن مدينة فسطاط مصر اختطها المسلمون حول جامع عمرو بن العاص وقصر الشمع وأن بحر النيل كان ينتهي الى باب قصر الشمع الغربي المعروف بالباب الجديد ولم يكن عند فتح أرض مصر بين جامع عمرو وبين النيل حائل ثم انحسر ماء النيل عن أرض تجاه الجامع وقصر الشمع فابتنى فيها عبد العزيز بن مروان وحاز منه بشر بن مروان لما قدم على أخيه عبد العزيز ثم حاز منه هشام بن عبد الملك في خلافته وبنى فيه فلما زالت دولة بني أمية قبض ذلك في الصوافي ثم أقطعه الرشيد السري بن الحكم فصار في يد ورثته من بعده يكترونه ويأخذون حكره وذلك أنه كان قد اختط فيها المسلمون شيأ بعد شيء وصار شاطئ النيل بعد انحسار ماء النيل عن الارض المذكورة حيث الموضع الذي يعرف اليوم بسوق المعاريج * قال القضاعي كان ساحل أسفل الارض بازاء المعاريج القديم وكانت آثار المعاريج قائمة سبع درج حول ساحل البيما الى ساحل البوري اليوم فعرف ساحل البوري بالمعاريج الجديد يعني بالمعاريج الجديد موضع سوق المعاريج اليوم وكان من جملة خطط مدينة فسطاط مصر الحمراوات الثلاث فالحمراء الاولى من جملتها سوق وردان وكان يشرف بغربيه على النيل ويجاوره الحمراء الوسطى ومن بعضها الموضع الذي يعرف اليوم بالكبارة وكانت على النيل أيضاً وبجانب الكبارة الحمراء القصوى وهي من بحرى الحمراء الوسطى الى الموضع الذي هو اليوم خط قناطر السباع ومن جملة الحمراء القصوى خط خليج مصر من حد قناطر السباع الى تجاه قنطرة السد من شرقيها وبآخر الحمراء القصوى الكبش وجبل يشكر وكان الكبش يشرف على النيل من غربيه وكان الساحل القديم فيما بين سوق المعاريج اليوم الى دار التفاح بمصر وأنت مار الى باب مصر بجوار الكبارة وموضع الكوم المجاور لباب مصر من شرقيه فلما خربت مصر بحريق شاور بن مجير اياها صار هذا الكوم من حينئذ وعرف بكوم المشانيق فانه كان يشنق بأعلاه أرباب الجرائم ثم بنى الناس فوقه دورا فعرف الى يومنا هذا بكوم الكبارة وكان يقال لما بين سوق المعاريج وهذا الكوم لما كان ساحل النيل القالوص * قال القضاعي رأيت بخط جماعة من العلماء القالوص بألف والذي يكتب في هذا الزمان القلوص بحذف الالف فأما القلوص بحذف الالف فهي من الابل والنعام الشابة وجمعها قلص وقلاص وقلائص والقلوص من الحبارى الانثى الصغيرة فلعل هذا المكان سمي بالقلوص لانه في مقابلة الجمل الذي كان على باب الريحان الذي يأتي ذكره في عجائب مصر وأما القالوص بالالف فهي كلمة رومية ومعناها بالعربية مرحبا بك ولعل الروم كانوا يصفقون لراكب هذا الجمل ويقولون هذه الكلمة على عادتهم * وقال ابن المتوج والساحل القديم أوله من باب مصر المذكور يعني المجاور للكبارة والى المعاريج جميعه كان بحرا يجرى فيه ماء النيل وقيل ان سوق المعاريج

كان موردة سوق السمك يعني ماذكره القضاعي من أنه كان يعرف بساحل البوري ثم عرف بالمعاريج الجديد قال ابن المتوج ونقل أن بستان الجرف المقابل لبستان حوض ابن كيسان كان صناعة العمارة وأدركت أنا فيه بابها ورأيت زريبة من ركن المسجد المجاور للحوض من غربيه تتصل الى قبالة مسجد العادل الذى بمراغة الدواب الآن * (قال مؤلفه رحمه الله) بستان الجرف يعرف بذلك الى اليوم وهو على يمنة من سلك الى مصر من طريق المراغة وهو جار في وقف الخانقاه التي تعرف بالواصلة بين الزقاقين وحوض ابن كيسان يعرف اليوم بحوض الطواشي تجاه غيط الجرف المذكور يجاوره بستان ابن كيسان الذى صار صناعة وقد ذكر خبر هذه الصناعة عند ذكر مناظر الخلفاء ويعرف بستان ابن كيسان اليوم ببستان الطواشي أيضاً وبين بستان الجرف وبستان الطواشي هـذا مراغة مصر المسلوك منها الى الكبارة وباب مصر * قال ابن المتوج ورأيت من نقل عمن نقل عمن رأى هذا القلوص يتصل الى آدر الساحل القديم وأنه شاهد ماعاينه من العمائر المطلة على بحر النيل من الرباع والدور المطلة وعـد الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على بحر النيل فكانت عدتها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر مؤبد فيها أطناب ترخى بها وتملأ أخبرني بذلك من أثق بنقله وقال انه أخبره به من يثق به متصلا بالمشاهد له الموثوق به قال وباب مصر الآن بين البستان الذى قبلي الجامع الجـديد يعنى بستان العالمة وبين كوم المشانيق يعني كوم الكبارة ورأيت السور يتصل به الى دار النحاس وجميع مابظاهره شون ولم يزل هذا السور القديم الذى هو قبلي بستان العالمة موجوداً أراه وأعرفه الى أن اشترى أرضه من باب مصر الى موقف المكارية بالخشابين القديمة الامير حسام الدين طرنطاى المنصورى فأجر مكانه للعامة وصار كل من استأجر قطعة هدم مابها من البناء بالطوب اللبن وقلع الاساس الحجر وبنى به فزال السور المذكور ثم حدث الساحل الجديد * قال مؤلفه رحمه الله وهـذا الباب الذى ذكره ابن المتوج كان يقال له باب الساحل وأول حفر ساحل مصر في سـنة ست وثلاثين وثلثمائة وذلك أنه جف النيل عن بر مصر حتى احتاج الناس أن يستقوا من بحر الجيزة الذى هو فيما بين جزيرة مصر التي تدعى الآن بالروضة وبين الجيزة وصار الناس يمشون هم والدواب الى الجزيرة فحفر الاستاذ كافور الاخشيدى وهو يومئذ مقدم امراء الدولة لاونوجور بن الاخشيد خليجا حتى اتصل بخليج بني وائل ودخل الماء الى ساحل مصر ثم انه لما كان قبل سـنة ستمائة تقاص الماء عن ساحل مصر القديمة وصار فى زمن الاحتراق يقل حتى تصير الطريق الى المقياس يبسا فلما كان فى سنة ثمان وعشرين وستمائة خاف السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب من تباعد البحر عن العمران بمصر فأهم بحفر البحر من دار الوكالة بمصر الى صناعة التمر الفاضلية وعمل فيه بنفسه فوافقه على العمل في ذلك الجم

الغفير واستوى في المساعدة السوقة والامير وقسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس فاستمر العمل فيه من مستهل شعبان الى سلخ شوال مدة ثلاثة أشهر حتى صار المـاء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائماً بعد ما كان عند الزيادة يصير جرولا رقيقا في ذيل الروضة فاذا اتصل بحر بولاق في شهر أبيب كان ذلك من الايام المشهودة بمصر فلما كانت أيام الملك الصالح وعمر قلعة الروضة أراد أن يكون الماء طول السـنة كثيراً فيما دار بالروضة فأخذ في الاهتمام بذلك وغرق عدة مراكب مملوءة بالحجارة في بر الجيزة تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر ومن قبليّ جزيرة الروضة فانعكس الماء وجعل البحر حينئذ يمر قليلا قليلا وتكاثر أولا فأولا في بر مصر من دار الملك الى قريب المقس وقطع المنشأة الفاضلية * قال ابن المتوج عن موضع الجامع الجديد وكان في الدولة الصالحية يعني الملك الصالح نجم الدين أيوب رملة تمرغ الناس فيها الدواب في زمن احـتراق النيل وجفاف البحر الذي هو أمامها فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة وصار في كل سنة يحفر هذا البحر بجنده ونفسه ويطرح بعض رمله في هذه البقعة شرع خواص السلطان فى العمارة على شاطئ هذا البحر فذكر من عمر على هـذا البحر من قبالة موضع الجامع الجديد الآن الى المدرسة المعزية وذكر ماوراء هذه الدور من بستان العالمة المطل عليه الجامع الجديد وغيره ثم قال وانما عرف بالعالمة لانه كان قد حله السلطان الملك الصالح لهذه العالمة فعمرت بجانبه منظرة لها وكان الماء يدخل من النيل لباب المنظرة المذكورة فلما توفيت بقي البستان مدة في يد ورثتها ثم أخـذ منهم وذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبل عمـارته شونا للاتبان السلطانية وكذلك مايجاورها فلمـا عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون الجامع الجـديد كثرت العمائر من حد موردة الحلفاء على شاطئ النيل حتى اتصلت بدير الطين وعمر أيضاً ماوراء الجامع من حد باب مصر الذي كان بحراً كما تقدم الى حد قنطرة السد وأدركنا ذلك كله على غاية العمارة وقد اختل منـذ الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فخرب خط بين الزقاقين المطل من غربيه على الخليج ومن شرقيه على بستان الجرف ولم يبق به الا قليل من الدور وموضعه كما تقدم كان فى قديم الزمان غامراً بماء النيل ثم ربي جرفا وهو بين الزقاقين المذكور فعمر عمارة كبيرة ثم خرب الآن وخرب أيضاً خط موردة الحلفاء وكان فى القديم غامراً بالماء فلما ربي النيل الجرف المذكور وتربت الجزيرة قدام الساحل القديم الذي هو الآن الكبارة الى المعاريج وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الجامع الجديد عمرت موردة الحلفاء هـذه واتصلت من بحريها بمنشأة المهراني ومن قبليها بالاملاك التي تمتد من تجاه الجامع الجديد الى دير الطين وصارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال وغيرها ويملأ منها الناس الروايا وكان البحر لايبرح طول السنة هناك ثم صار ينشف في فصل الربيع

والصيف واستمر على ذلك الى يومنا هذا وخرب ماخلف الجامع الجديد أيضاً من الاماكن التي كانت بحراً تجاه الساحل القـديم ثم لما انحسر الماء صارت مراغة للدواب فعرفت اليوم بالمراغة وهي من آخر خط قنطرة السد الى قريب من الكبارة ويحصرها من غربيها بستان الجرف المقدم ذكره وعدة دور كانت بستانا وشونا الى باب مصر ومن شرقيها بستان ابن كيسان الذى صار صناعـة وعرف الآن ببستان الطواشي ولم يبق الآن بخط المراغة الا مساكن يسيرة حقيرة

ذكر المنشأة

اعلم أن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل فيمر بطريق الحمراء القصوى وكان في الجانب الغربى من هذا الخليج عدة بساتين من جملتها بستان عرف ببستان الخشاب ثم خرب هذا البستان وموضعه الآن يعرف بالمريس فلما كان بعد الخمسمائة من سنى الهجرة انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان اللوق الآتى ذكره في الاحكار ظاهر القاهرة ان شاء الله تعالى وبين بستان الخشاب المذكور فعرفت هذه الارض بمنشأة الفاضل لان القاضي الفاضل عبد الرحيم بن على البيساني انشأ بها بستانا عظيماً كان يمير أهل القاهرة من ثماره وأعنابه وعمر بجانبه جامعاً وبنى حوله فقيل لتلك الخطة منشأة الفاضل وكثرت بها العمارة وأنشأ بها موفق الدين محمد بن أبي بكر المهدوى العثماني الديباجي بستانا دفع له فيه ألف دينار في أيام الظاهر بيبرس وكان الصرف قد بلغ كل دينار ثمانية وعشرين درهما ونصفاً فاستولى البحر على بستان الفاضل وجامعـه وعلى سائر ما كان بمنشأة الفاضل من البساتين والدور وقطع ذلك حتى لم يبق لشيءٍ منـه أثر وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادى على العنب بعد خراب بستان الفاضل هذا عدة سنين (رحم الله الفاضل ياعنب) اشارة لكثرة أعناب بستان الفاضل وحسنها وكان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ستين وستمائة وكان الموفق الديباجي المذكور يتولى خطابة جامع الفاضل الذي كان بالمنشأة فلماتلف الجامع باستيلاء النيل عليه سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا وألح عليه وكان من ألزامه حتى قام في عمارة الجامع بمنشأة المهراني ومنشأة المهراني هذه موضعها فيما بين النيل والخليج وفيها من الحمراء القصوى فوهة الخليج انحسر عنها ماء النيل قديماً وعرف موضعها بالكوم الاحمر من أجل انه كان يعمل فيها اقمنة الطوب فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ليقوم مقام الجامع الذى كان بمنشأة الفاضـل أجابه الى ذلك وانشأ الجامع بخط الكوم الاحمر كما ذكر في خبره عند ذكر الجوامع فأنشأ هناك الامير سيف الدين بلبان المهراني داراً وسكنها وبنى مسجداً فعرفت هذه الخطة به وقيل لها منشأة المهراني فان المهراني المذكور أول من ابتنى فيها بعـد بناء الجامع وتتابع الناس في البناء بمنشأة المهراني وأكثروا من العمائر حتى

يقال انه كان بها فوق الاربعين من امراء الدولة سوى من كان هناك من الوزراء وأماثل الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء عن الجهة الشرقية فخربت وبها الآن بقية يسيرة من الدور ويتصل بخط الجامع الجديد خط دار النحاس وهو مطل على النيل * ودار النحاس هذه من الدور القديمة وقد دثرت وصار الخط يعرف بها * قال القضاعي دار النحاس اختطها وردان مولى عمرو بن العاص فكتب مسلمة بن مخلد وهو أمير مصر الى معاوية يسأله أن يجعلها ديوانا فكتب معاوية الى وردان يسأله فيها وعوضه فيها دار وردان التي بسوقه الآن وقال وبيعة كانت هذه الدار من خطة الحجر من الازد فاشتراها عمر بن مروان وبناها فكانت في يد ولده وقبضت عنهم وبيعت في الصوافي سنة ثمان وثلثمائة ثم صارت الى شمول الاخشيدي فبناها قيسارية وحماما فصارت دار النحاس قيسارية شمول * وقال ابن المتوج دار النحاس خط نسب لدار النحاس وهو الآن فندق الاشراف ذو البابين أحدهما من رحبة امامة والثاني شارع بالساحل القديم وبآخر هذه الشقة التي تطل على النيل (جسر الافرم) وهو في طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار كان مطلا على النيل دائما والآن يحسر الماء عنه عند هبوط النيل وعرف بالامير عز الدين أيدمر الافرم الصالحي النجمي أمير جندار وذلك أنه لما استأجر بركة الشعيبية كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب جعل منها فدانين من غربيها أذن للناس في تحكيرها فحكرت وبنى عليها عدة دور بلغت الغاية في اتقان العمارة وتنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاون من الوزراء وأعيان الكتاب في المساكن بهذا الجسر وبنوا وتأنقوا وتفننوا في بديع الزخرفة وبالغوا في تحسين الرخام وخرجوا عن الحد في كثرة انفاق الاموال العظيمة على ذلك بحيث صار خط الجسر خلاصة العامر من أقليم مصر وسكانه ارق الناس عيشا وأترف المتنعمين حياة وأوفرهم نعمة ثم خرب هذا الجسر بأسره وذهبت دوره * وأما الجهة الشرقية من مصر ففيها قلعة الجبل وقد أفردنا لها خبرا مستقلا يحتوى على فوائد كثيرة تضمنه هذا الكتاب فانظره ويتصل آخر قلعة الجبل بخط باب القرافة وهو من أطراف القطائع والعسكر ويلي خط باب القرافة الفضاء الذى كان يعرف بالعسكر وقد تقدم ذكره وكان بأطراف العسكر مما يلي كوم الجارح * (الموقف) قال ابن وصيف شاه فى أخبار الريان بن الوليد وهو فرعون نبي الله يوسف صلوات الله عليه ودخل الى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه اخوته وباعوه وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم فأوقف الغلام ونودى عليه وهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم فاشتراه أطفين العزيز ويقال ان الذى أخرج يوسف من الجب مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن

زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان * وقال القضاعي كان الموقف فضاء لأم عبد الله بن مسلمة بن مخلد فتصدقت به على المسلمين فكان موقفاً تباع فيه الدواب ثم ملك بعد وقد ذكرته في الظاهر يعني في خطط أهل الظاهر فان الموقف من جملة خطط أهل الظاهر * وقال ابن المتوج بقعة (خط الصفاء) هذا الخط دثر جميعه ولم يبق له أثر وهو قبلي الفسطاط أوله بجوار المصنع وخط الطحانين أدركته كان صفين طواحين متلاصقة متصلة من درب الصفاء الى كوم الجارح وأدركت به جماعة من أكابر المصريين أكثرهم عدول وكان المار بين هذين الصفين لا يسمع حديث رفيقه اذا حدثه لقوة دوران الطواحين وكان من جملتها طاحون واحد فيه سبعة أحجار دثر جميع ذلك ولم يبق له أثر * قال وبقعة درب الصفاء هو الدرب الذي كان باب مصر وقيل انه كان بظاهره سوق يوسف عليه السلام وكان بابا بمصراعين يعلوهما عقد كبير وهو بعتبة كبيرة سفلى من صوان وكان بجوار المصنع الخراب الموجود الآن وكان حول المصنع عمد رخام بدائرة حاملة الساباط يعلوه مسجد معلق هدم ذلك جميعه في ولاية سيف الدين المعروف بابن سلار والى مصر في دولة الظاهر بيبرس وهذا الدرب يسلك منه الى درب الصفاء والطحانين * (قال مؤلفه رحمه الله) * كان هذا الباب المذكور أحد أبواب مدينة مصر وبابها الآخر من ناحية الساحل الذي موضعه اليوم باب مصر بجوار الكبارة وأنا أدركت آثار درب الصفاء المذكور والمصنع الخراب وكان يصب فيه الماء للسبيل وهو قريب من كوم الجارح وسيأتي ذكر كوم الجارح في ذكر الكيمان من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى * وأما الذي يلي كوم الجارح الى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش فانها الخطط القديمة وأدركتها عامرة لاسيما خط النخالين وخط زقاق القناديل وخط المصاصة وقد خرب جميع ذلك وبيعت أنقاضه من بعد سنة تسعين وسبعمائة * وأما الجهة القبلية من مصر فان خط دير الطين حدثت العمارة فيه بعد سنة ستمائة لما أنشأ الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن حنا الجامع هناك وعمر الناس في جسر الافرم وكان قبل ذلك آخر عمارة مدينة مصر دار الملك التي موضعها الآن بجوار المدرسة المعزية وأما موضع الجسر فانه كان بركة ماء تتصل بخط راشدة حيث جامع راشدة ومن قبلي هذه البركة البستان الذي كان يعرف ببستان الامير تميم بن المعز ويعرف اليوم بالمعشوق وهو وقف على رباط الآثار ويجاور المعشوق بركة الحبش وما بين خط دير الطين وآخر عرض مصر من الجهة القبلية طرف خط راشدة * وأما الجهة البحرية من مصر فانه يتصل بخط السبع سقايات الدور المطلة على البركة التي يقال لها بركة قارون وهي التي تجاور الآن حدرة ابن قميحة وهي من جملة الحمراء القصوى ويقبلي البركة المذكورة الكوم المعروف بالاسرى وهو من جملة العسكر وسيرد ان شاء الله تعالى ذكره عند ذكر الكيمان ويجاور البركة المذكورة خط الكبش

وقد ذكر في الجبال ويأتي ان شاء الله تعالى له خبر عند ذكر الاخطاط ويلى خط الكبش خط الجامع الطولوني ويلى خط الجامع القيبيات وخط المشهد النفيسي وجميع ذلك الى قلعة الجبل من جملة القطائع

ذكر أبواب مدينة مصر

وكان لفسطاط مصر أبواب في القديم خربت وتجدد لها بعد ذلك أبواب أخر *(باب الصفاء)* هذا الباب كان هو في الحقيقة باب مدينة مصر وهي في كالها ومنه تخرج العساكر وتعبر القوافل وموضعه الآن بالقرب من كوم الجارح وهدم في أيام الملك الظاهر بيبرس *(باب الساحل)* كان يفضى بسالكه الى ساحل النيل القديم وموضعه قريب من الكبارة *(باب مصر)* هذا الباب هو الذى بناه قراقوش ومنه يسلك الآن من دخل الى مدينة مصر من الطريق التي تعرف بالمراغة وهو مجاور للكوم الذى يقال له كوم المشانيق ويعرف اليوم بالكبارة وكان موضع هذا الباب غامرا بماء النيل فلما انحسر الماء عن ساحل مصر صار الموضع المعروف بالمراغة والموضع المعروف بغيط الجرف الى موردة الحلفاء فضاء لا يصل اليه ماء النيل البتة فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل فزاد في سور القاهرة على يد قراقوش من باب القنطرة الى باب الشعرية والى باب البحر يريد أن يمد السور من باب البحر الى الكوم الاحمر الذى هو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين ليصل أيضا من الكوم الاحمر الى باب مصر هذا فلم يتهيأ له هذا وانقطع السور من عند جامع المقس وزاد في سور القاهرة أيضا من باب النصر الى قلعة الجبل فلم يكمل له ومد السور من قلعة الجبل الى باب القنطرة خارج مصر فصار هذا الباب غير متصل بالسور *(باب القنطرة)* هذا الباب في قبلي مدينة مصر عرف بقنطرة بني وائل التي كانت هناك وهو أيضا من بناء قراقوش

ذكر القاهرة قاهرة المعز لدين الله

اعلم أن القاهرة المعزية رابع موضع انتقل سرير السلطنة اليه من أرض مصر في الدولة الاسلامية وذلك أن الامارة كانت بمدينة الفسطاط ثم صار محلها العسكر خارج الفسطاط فلما عمرت القطائع صارت دار الامارة الى أن خربت فسكن الامراء بالعسكر الى أن قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله معد فبنى القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى المدينة وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه الى أن انقرضت الدولة الفاطمية فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وابنه الملك العزيز عثمان وابنه الملك المنصور محمد ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وابنه الملك الكامل محمد وانتقل من القاهرة الى قلعة الجبل فسكنها بحرمه وخواصه وسكنها الملوك من بعده الى يومنا هذا فصارت القاهرة

مدينة سكنى بعد ما كانت حصنا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ اليها فهانت بعد العز وابتذلت بعد الاحترام وهذا شأن الملوك مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون وكذلك كانوا أيام العجم وفي جاهلية العرب وهم على ذلك في أيام الاسلام فقد هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان وهدم الآطام التي كانت بالمدينة وقد هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وقد هدم بنو العباس مدن الشام لبني مروان (واذا تأملت البقاع وجدتها * تشقى كما تشقى الرجال وتسعد) وسيأتي من أخبار القاهرة والكلام على خططها وآثارها ماتنتهى اليه قدرتي ويصل الى معرفته علمي وفوق كل ذي علم عليم

ذكر ماقيل في نسب الخلفاء الفاطميين بناة القاهرة

اعلم أن القوم كانوا ينسبون الى الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنهما والناس فريقان في أمرهم فريق يثبت صحة ذلك وفريق يمنعه وينفيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزعم انهم أدعياء من ولد ديصان البوني الذي ينسب اليه الثنوية وان ديصان كان له ابن اسمه ميمون القداح كان له مذهب في الغلو فولد ميمون عبد الله وكان عبد الله عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب وأنه رتب سبع دعوات يتدرج الانسان فيها حتى ينحل عن الاديان كلها ويصير معطلا أباحيا لا يرجو ثوابا ولايخاف عقابا ويرى انه وأهل نحلته على هدى وجميع من خالفهم أهل ضلالة وأنه قصد بذلك أن يجعل له أتباعا وكان يدعو الى الامام من آل البيت محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق وأنه كان من الاهواز واشتهر بالعلم والتشيع وصار له دعاة وقصد بالمكروه ففر الى البصرة فاشتهر أمره وسار منها الى سلمية من أرض الشام فولد له ابن بها اسمه أحمد ومات فقام من بعده أحمد وبعث بالحسين الاهوازى داعية الى العراق فلقى أحمد بن الاشعث المعروف بقرمط في سواد الكوفة ودعاه الى مذهبه فأجابه وقام هناك بالامر والى قرمط هذا تنسب القرامطة وولد لاحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الحسين ومحمد المعروف بأبي الشلعلع فلما مات أحمد خلفه ابنه الحسين في الدعوة حتى مات فقام من بعده أخوه أبو الشلعلع وكان لاحمد بن عبد الله ولد اسمه سعيد فصار تحت حجر عمه وبعث أبو الشلعلع بداعيين الى المغرب وهما أبو عبد الله وأخوه أبو العباس فنزلا في البربر ودعوها واشتهر سعيد بسلمية بعد موت عمه وكثر ماله فطلبه السلطان ففر من سلمية الى مصر يريد المغرب وكان على مصر عيسى النوشرى فورد عليه كتاب الخليفة ببغداد بالقبض عليه ففاته وصار بسلجماسة فى زى التجار فبعث المعتضد من بغداد في طلبه فأخذ وحبس حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعي من محبسه فتسمي حينئذ بعبيد الله وتكنى بأبي محمد وتلقب بالمهدى وصار اماما علويا من ولد محمد بن جعفر الصادق وانما هو سعيد بن الحسين بن أحمد

ابن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى الاهوازى وأصله من المجوس فهـذا قول من ينكر نسبهم وبعض منكرى نسبهم في العلوية يقول ان عبيد الله من اليهود وان الحسين ابن أحمد المذكور تزوج امرأة يهودية من نساء سلمية كان لها ابن من يهودى حداد مات وتركه لها فرباه الحسين وأدبه وعلمه ثم مات عن غير ولد فعهد الى ابن امرأته هذا فكان هو عبيد الله المهدى وهـذه أقوال ان أنصفت تبين لك انها موضوعة فان بنى على بن أبى طالب رضي الله عنه قد كانوا اذ ذاك على غاية من وفور العـدد وجلالة القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسي أو لابن يهودى فهذا مما لايفعله أحد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف وانما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباس عند ماغصوا بمكان الفاطميين فانهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا من بني العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبـة وعجزت عساكر بني العباس عن مقاومتهم فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم باشاعة الطعن فى نسبهم وبث ذلك عنهم خلفاؤهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين كى يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم ودفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين حتى اشتهر ذلك ببغداد وأسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الاسفرايني والقدورى في عدة وافرة عند ماجمعوا لذلك في سنة اثنتين وأربعمائة أيام القـادر وكانت شهادة القوم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وأهلها انما هم شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب والمتطيرون من بني على بن أبي طالب الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الافاعيل القبيحة فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه ورووه حسب ما تلقوه من غير تدبر والحق من وراء هـذا وكفاك بكتاب المعتضد من خلائف بنى العباس حجة فانه كتب في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسلجماسة بالقبض على عبيد الله فتفطن أعزك الله لصحة هذا الشاهد فان المعتضد لولا صحة نسب عبيد الله عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه اذ القوم حينئذ لايدعون لدعى البتة ولا يذعنون له بوجه وانما ينقادون لمن كان علويا فخاف مما وقع ولو كان عنده من الادعياء لما مر له بفكر ولا خافه على ضيعة من ضياع الارض وانما كان القوم أعنى بني على بن أبى طالب تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم في كل وقت وقصدهم اياهم دائما بأنواع من العقاب فصاروا مابين طريد شريد وبين خائف يترقب ومع ذلك فان لشيعتهم الكثيرة المنتشرة في أقطارهم من المحبة لهم والاقبال عليهم مالا مزيد عليه وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة والطلب عليهم من ورائهم فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون

حتى تسمى محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدى بالمكتوم سماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم وكانت الشيعة فرقا فمنهم من كان يذهب الى أن الامام من ولد جعفر الصادق هو اسمعيل ابنه وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالاسماعيلية من أجل أنهم يرون أن الامام من بعد جعفر ابنه اسماعيل وأن الامام بعد اسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم وبعد ابنه محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق ومن بعد جعفر الصادق ابنه محمد الحبيب وكانوا أهل غلو فى دعاويهم فى هؤلاء الائمة وكان محمد بن جعفر هذا يؤمل ظهوره وأنه يصير له دولة وكان باليمن من أهل هذا المذهب كثير بعدن وبافريقية وفى كتامة ونفره تلقوا ذلك من عهد جعفر الصادق فقدم على محمد بن جعفر والد عبيد الله رجل من شيعته باليمن فبعث معه الحسن بن حوشب فى سنة ثمان وستين ومائتين فأظهرا أمرهما باليمن وأشهرا الدعوة فى سنة سبعين وصار لابن حوشب دولة بصنعاء وبث الدعاة بأقطار الارض وكان من جملة دعاته أبو عبد الله الشيعي فسيره الى المغرب فلقى كتامة ودعاهم فلما مات محمد بن جعفر عهد لابنه عبيد الله فطلبه المكتفى العباسي وكان يسكن عسكر مكرم فسار الى الشام ثم سار الى المغرب فكان من أمره ما كان وكانت رجال هذه الدولة الذين قاموا ببلاد المغرب وديار مصر (٣) عشر رجلا هذه خلاصة أخبارهم فى أنسابهم فتفطن ولا تغتر بزخرف القول الذى لفقوه من الطعن فيهم والله يهدي من يشاء

(ذكر الخلفاء الفاطميين)

وكان ابتداء الدولة الفاطمية أن أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الشيعي سار الى أبي القسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي القائم ببلاد اليمن وصار من كبار أصحابه وله علم وعنده دهاء ومكر فورد على ابن حوشب من المغرب خبر موت الحلواني داعيه في المغرب ورفيقه فقال لابى عبد الله الشيعي قد خرب الحلواني وأبو يوسف بلاد المغرب وقد ماتا وليس للبلاد الا أنت فانها موطأة ممهدة فخرج أبو عبد الله الى مكة وقصد حجاج كتامة فجلس قريباً منهم وسمعهم يتحدثون بفضائل البيت فحدثهم في معناه فمالوا اليه وسألوه أن يأذن لهم في زيارته فلما زاروه سألوه عن مقصده فلم يخبرهم وأوهمهم أنه يريد مصر فسروا بصحبته ورحلوا وهو رفيقهم فشاهدوا من عبادته وزهده مازادهم رغبة فيه هذا وهو يسألهم عن أحوالهم وقبائلهم حتى صار يعرف جميع أمورهم فلما وصلوا مصر همّ بمفارقتهم فقالوا أي شئ تطلب من مصر فقال أطلب التعليم بها فقالوا اذا كان قصدك هذا فبلادنا أنفع لك وما زالوا به حتى سار معهم فلما وصلوا بلادهم اقترعوا فيمن يضيفه منهم ومن بقية أصحابهم ووصلوا به أرض كتامة للنصف من ربيع الاول سنة ثمان وثمانين ومائتين وكادوا يحتربون

(٣) هكذا بياض بالاصل ولعله أربعة عشر رجلا كما يعلم من بعض التواريخ اه

عليه أيهم ينزل عنده فأبى أن ينزل عندهم وقال أين يكون فج الاخيار فعجبوا لذلك اذ لم يكونوا ذكروه له قط فدلوه عليه فسار اليه وقال هذا فج الاخيار وما سمي الا بكم ولقد جاء في الآثار للمهدي هجرة عن الاوطان ينصره فيها الاخيار من أهل ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من الكتمان وبخروجكم في هذا الفج سمي فج الاخيار فتسامعت به القبائل وأتوه فعظم أمره وهو لايذكر اسم المهدي البتة فبلغ خبره ابراهيم بن أحمد بن الاغلب أمير أفريقية فبعث يسأل عن خبره وكانت له معه قصص آلت الى قيام أبي عبدالله ومحاربته لمن خالفه فظفر بهم وصارت اليه أموالهم وغلب على مدائن وهزم جيوش ابن الاغلب وقتل كثيرا من أصحابه فمات ابراهيم بن الاغلب وولي زيادة الله بن الاغلب وكان كثير اللهو فقوى أمر أبي عبد الله وانتشرت جنوده في البلاد وصار يقول المهدي يخرج في هذه الايام ويملك الارض فياطوبى لمن هاجر الي وأطاعني ويغرى الناس بزيادة الله بن الاغلب ويعيبه وكان أكثر خواص زيادة الله شيعة فلم يكن يسوءهم ظفر أبي عبد الله وأكثر من ذكر كرامات المهدي والارسال الى أصحاب زيادة الله الى أن تمكن فبعث برجال من كتامة الى سلمية من أرض الشام فقدموا على عبيد الله وأخبروه بما فتح الله عليه وكان قد اشتهر هناك وطلبه الخليفة المكتفي فخرج من سلمية فارا ومعه ابنه أبو القاسم نزار ومعهما أهلهما ومواليهما فأقاما بمصر مستترين فوردت على عيسى النوشري أمير مصر الكتب من بغداد بصفة عبيدالله وحليته وانه يأخذ عليه الطريق ويقبضه فبلغ ذلك عبيد الله فخرج والاعوان في طلبه ويقال ان النوشري ظفر به فناشده الله في أمره فخلى عنه ووصله فسار الى طرابلس وقد سبق خبره الى زيادة الله فسار الى قسطيلية فقدم كتاب زيادة الله بن الاغلب الى عامل طرابلس بأخذ عبيد الله وقد فاتهم فلم يدركوه فرحل الى سلجماسة وأقام بها وقد أقيمت له المراصد بالطرقات فتلطف باليسع بن مدرار صاحب سلجماسة وأهدى اليه فكف عنه ووافاه كتاب زيادة الله بالقبض على عبيد الله فلم يجد بدا من أن قبض عليه وسجنه واشتغل زيادة الله بجمع العساكر لمحاربة أبي عبد الله وتجهيزهم اليه فغلبهم أبو عبد الله وغنم سائر مامعهم وقتل أكثرهم وبلغه ماكان من سجن عبيد الله فكتب اليه يبشره فوصل اليه الكتاب وهو بالسجن مع قصاب دخل به اليه وهو يبيع اللحم وما زال أبو عبد الله يضايق زيادة الله الى أن فر الى مصر وقام من بعده ابراهيم بن الاغلب فلم يتم له أمر وملك أبو عبد الله القيروان ونزل برقادة مستهل رجب سنة ست وتسعين ومائتين فأمر ونهى وبث العمال في الاعمال وقتل من يخاف شره وأمر فنقش على السكة في أحد الوجهين بلغت حجة الله وفي الآخر تفرق أعداء الله ونقش على السلاح عدة في سبيل الله ووسم الخيل على أفخاذها الملك لله وأقام على ماكان عليه من لبس الخشن الدون وتناول القليل الغليظ من الطعام فلما

دخل شهر رمضان سار من رقادة في جيوش عظيمة اهتزلها المغرب بأسره يريد سلجماسة فحاربه اليسع يوما كاملا الى الليل ثم فر في خاصته فدخل أبو عبدالله من الغد الى البلد وأخرج عبيد الله وابنه ومشى في ركابهما بجميع رؤساء القبائل وهو يقول للناس هذا مولاكم وهو يبكي من شدة الفرح حتى وصل بهما الى فسطاط ضربه في العسكر فأنزلهما فيه وبعث الخيل في طلب اليسع فأدركته وجاءت به فقتله وأقام عبيد الله بسلجماسة أربعين يوما ثم سار الى أفريقية في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ونزل برقادة وأمر يوم الجمعة أن يذكر في الخطبة وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين فدعى له في جميع البلاد بذلك وجلس بعد الصلاة الدعاة ودعوا الناس كافة الى مذهبهم فمن أجاب قبل منه ومن أبي قتل وعرض جوارى زيادة الله واختار منهن لنفسه ولولده وفرق ما بقي على وجوه كتامة وقسم عليهم أعمال أفريقية ودون الدواوين وجبى الاموال ودانت له البلاد فشق ذلك على أبي عبد الله ونافس المهدى وحسده من أجل انه كف يده ويد أخيه أبي العباس فعظم عليه الفطام عن الامر والنهي والاخذ والعطاء وأقبل أبو العباس يزرى على المهدى في مجلس أخيه ويؤنب أخاه على ما فعل حتى أثر في نفسه فسأل المهدى أن يفوض اليه الامور ويجلس في القصر وكان قد بلغ المهدى ما يجهر به أبو العباس من السوء في حقه فرد أبا عبد الله ردا لطيفا وأسرها في نفسه وأكثر أبو العباس من قوله حتى أغرى المقدمين بالمهدى وقال ما هذا بالذى كنا نعتقد طاعته وندعو اليه لان المهدى يأتي بالآيات الباهرة فمال اليه جماعة وواجه بعضهم المهدى بذلك وقال له ان كنت المهدى فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك فبعد ما بين المهدى وبين أبي عبدالله وأوجس كل منهما فى نفسه خيفة من الآخر وأخذ أبو العباس يدبر في قتل المهدي والمهدي يحل ما كان يبرمه ثم رتب رجالا فلما ركب أبو عبدالله وأخوه الى قصر المهدى ثار بهما الرجال فقال أبو عبد الله لاتفعلوا فقالوا له ان الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك فقتل هو وأخوه للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين بمدينة رقادة فثارت فتنة بسبب قتلهما فركب المهدى حتى سكنت وتتبع جماعة منهم فقتلهم فلما استقام له الامر عهد الى ابنه أبي القاسم وتتبع بني الاغلب فقتل منهم جماعة وجهز في سنة احدى وثلثمائة ابنه أبا القاسم بالعساكر الى مصر فأخذ برقة والاسكندرية والفيوم وكانت له مع عساكر مصر وعساكر العراق الواردة الى مصر مع مؤنس الخادم عدة حروب وعاد الى الغرب فجهز المهدى في سنة اثنتين وثلثمائة حباسة بجيوش الى مصر فغلب على الاسكندرية وكان من أمره ما تقدم ذكره وكان للمهدى ببلاد المغرب عدة حروب وكان يوجد فى الكتب خروج أبي يزيد النكارى على دولته فبنى المهدية وأدار عليها سورا جعل فيه أبوابا زنة كل مصراع منها مائة قنطار من حديد وكان ابتداء بنائها فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلثمائة وبنى المصلى بظاهرها

وقال الى هنا يصل صاحب الحمار يعنى أبا يزيد فكان كذلك وأنشأ صناعة فيها تسعمائة شونة وقال انما بنيت هـذه لتعتصم الفواطم بها ساعة من نهار فكان كذلك ثم انه جهز ابنه أبا القاسم فى سنة ست وثلثمائة على جيش الى مصر فأخذ الاسكندرية وملك جزيرة الاشمونين وكثيرا من صعيد مصر وكانت هناك حروب مع عساكر مصر والعراق ثم عاد الى المغرب وخرج أبو القاسم فى سنة خمس عشرة بالجيوش الى المغرب فحارب قوما وعاد فمات عبيدالله فى ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة بالمهدية من القيروان عن ثلاث وستين سنة وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما ولما مات أخفى ابنه موته وقام من بعد عبيد الله المهدى ولي عهده (القائم بأمر الله أبو القاسم محمد) ويقال كان اسمه بالمشرق عبد الرحمن فتسمى فى بلاد المغرب بمحمد وذلك بسلمية فى المحرم سنة ثمانين ومائتين فلما فرغ من جميع ما يريده وتمكن أظهر موت أبيه واستقل بالامر وله سبع وأربعون سنة وتبع سيرة أبيه وثار عليه جماعة فظفر بهم وبث جيوشه في البر والبحر فسبوا وغنموا من بلد جنوة وبعث جيشا الى مصر فملكوا الاسكندرية والاخشيد يومئذ أمير مصر فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة خرج عليه أبو يزيد مخلد بن كندار البكارى الخارجي بأفريقية واشتدت شوكته وكثرت أتباعه وهزم جيوش القائم غير مرة وكان مذهبه تكفير أهل الملة واراقة دمائهم ديانة فملك باجة وحرقها وقتل الاطفال وسبى النسوان ثم ملك القيروان فاضطرب القائم وخاف الناس وهموا بالنقلة من زويلة وقوى أمر أبى يزيد ونازل المهدية وحصر القائم بها وكاد أن يغلب عليها فلما بلغ المصلى حيث أشار المهدى أنه يصل هزمه أصحاب القائم وقتلوا كثيرا من أصحابه وكانت له قصص وأنباء الى أن مات القائم لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلثمائة عن أربع وخمسين سنة وتسعة أشهر ولم يرق منبرا ولا ركب دابة لصيد مدة خلافته حتى مات وصلي مرة على جنازة وصلى بالناس العيد مرة واحدة وكانت مدة خلافته اثنى عشرة سنة وستة أشهر وأياما وترك أبا الظاهر اسمعيل وأبا عبد الله جعفر أو حمزة وعدنان وعدة أخر وقام من بعده ابنه *(المنصور بنصر الله أبو الظاهر اسمعيل)* وكتم موت أبيه خوفا أن يعلم أبو يزيد فانه كان قريبا منه وأبقى الامور على حالها ولم يتسم بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود وجد فى حرب أبي يزيد حتى ظفر به وحمل اليه فمات من جراحات كانت به سلخ المحرم سنة ست وثلاثين وثلثمائة ولم يزل المنصور الى أن مات سلخ شوال سنة احدى وأربعين وثلثمائة عن احدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وكانت مدة خلافته ثمان سنين وقيل سبع سنين وعشرة أيام وقد اختلف فى تاريخ ولادته فقيل ولد أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلثمائة بالمهدية وقيل بل ولد في سنة اثنتين وقيل سنة احدى وثلثمائة وكان خطيبا بليغا يرتجل الخطبة لوقته شجاعا

عاقلا وقام من بعده ابنه *(المعز لدين الله أبو تميم معد)* وعمره نحو أربع وعشرين سنة فانه ولد للنصف من رمضان سنة سبع عشرة وثلثمائة فانقاد اليه البربر وأحسن اليهم فعظم أمره واختص من مواليه بجوهر وكناه بأبي الحسين وأعلى قدره وصيره في رتبة الوزارة وعقد له على جيش كثيف فيهم الامير زيري بن مناد الصنهاجي فدوخ المغرب وافتتح مدنا وقهر عدة أكابر وأسرهم حتى أتى البحر المحيط فأمر باصطياد سمكة منه وسيرها فى قلة من ماء الى المعز اشارة الى أنه ملك حتى سكان البحر المحيط الذى لاعمارة بعده ثم قدم غانما مظفرا فعظم قدره عند المعز ولما كان في بعض الايام استدعى المعز في يوم شات عدة من شيوخ كتامة فدخلوا عليه في مجلس قد فرش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب فقال يا اخواننا أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لام الامراء وانها الآن بحيث تسمع كلامى أترى اخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم واني لا أفضلكم في أحوالكم الا بما لابد لي منه من دنياكم وبما خصنى الله به من امامتكم وانى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى واني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع اضدادكم فافعلوا ياشيوخ في خلواتكم مثل ما افعله ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم انهضوا رحمكم الله ونصركم فخرجوا عنه واستدعى يوما أبا جعفر حسين بن مهذب صاحب بيت المال وهو في وسط القصر قد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة فقال له هذه صناديق مال وقد شذ عني ترتيبها فانظرها ورتبها قال فأخذت أجمعها الى أن صارت مرتبة وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين فأنفذت اليه أعلمه فأمر برفعها في الخزائن على ترتيبها وأن يغلق عليها وتختم بخاتمه وقال قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار وذلك في سنة سبع وخمسين وثلثمائة فأنفقها أجمع على العساكر التي سيرها الى مصر من سنة ثمان وخمسين الى سنة اثنتين وستين وثلثمائة * ولما أخذ في تجهيز

جوهر بالعساكر الى أخذ ديار مصر حتى تهيأ أمره وبرز للمسير بعث المعز خفيفا الصقلبي الى شيوخ كتامة يقول يااخواننا قد رأينا أن ننفذ رجالا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها عليهم في بلادهم فاذا احتجنا اليها انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغه ذلك قل لمولانا والله لافعلنا هذا أبدا كيف تؤدى كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديما بالاسلام وحديثا معكم بالايمان وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب فعاد خفيف الى المعز بذلك فأمر باحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال ماهذا الجواب الذى صدر عنكم فقالوا هذا جواب جماعتنا ما كنا يامولانا بالذي يؤدى جزية تبقى علينا فقام المعز في ركابه وقال بارك الله فيكم فهكذا أريد أن تكونوا وانما أردت أن أختبركم فأنظر كيف أنتم بعدى فسار جوهر وأخذ مصر كما قد ذكر في ترجمته عند ذكر سور القاهرة من هذا الكتاب * فلما ثبتت قدم جوهر بمصر كتب اليه المعز جوابا عن كتابه وأما ما ذكرت ياجوهر من أن جماعة بني حمدان وصلت اليك كتبهم يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة في المسير اليك فاسمع لما أذكره لك احذر ان تبتدئ أحدا من آل حمدان بمكاتبة ترهيبا له ولا ترغيبا ومن كتب اليك كتابا منهم فأجبه بالحسن الجميل ولا تستدعه اليك ومن ورد اليك منهم فأحسن اليه ولا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش ولا ملك طرف فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة فاحذر كل الحذر من الاستناد الى أحد منهم * ولما عزم المعز على المسير الى مصر أجال فكره فيمن يخلفه في بلاد المغرب فوقع اختياره على جعفر بن على الامير فاستدعاه وأسر اليه أنه يريد استخلافه بالمغرب فقال تترك معي أحد أولادك أواخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر ولا تسألني عن شئ من الاموال لان ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه من الاموال واذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد مابين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره الى فغضب المعز وقال ياجعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمرى واستبددت بالاعمال والاموال دوني قم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك فخرج عنه ثم انه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجي وقال له تأهب لخلافة المغرب فأكبر ذلك وقال يامولانا أنت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماصفا لكم المغرب فكيف يصفو لى وأنا صنهاجي بربرى قتلتني يامولانا بغير سيف ولا رمح فما زال به المعز حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ويجعل الخبر لمن يثق به ويجعله قائما بين ايدى هؤلاء فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب ويكون الامر لهم

ويصير كالخادم بين أولئك فأحب المعز ماقال وشكره فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز يامولانا وتثق بهـذا القول من يوسف وأنه يقوم بوفاء ماذكر فقال المعز ياعمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر فاعلم ياعم أن الامر الذى طلبه جعفر ابتداء هوآخر مايصير اليه امر يوسف واذا تطاولت المدة سينفرد بالامر ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل وهو نهاية مايفعله وكانت أم الامراء قد وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر فعرضها وكيلها في مصر للبيع وطلب فيها ألف دينار فحضر اليه في بعض الايام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هي ابنة الاخشيد محمد ابن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الاخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز ياإخواننا انهضوا الى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا اليهم فقالوا السمع والطاعة فقال خذوا فى حوائجكم فنحن نقدم الاختيار لمسيرنا ان شاء الله تعالى وكان قيصر ومظفر الصقلبيان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والد المعز وكان المظفر يدل على المعز من أجل أنه علمه الخط في صغره فحرد عليه مرة وولى فسمعه المعز يتكلم بكلمة صقلبية استراب منها ولقنها منـه وأنفت نفسه من السؤال عن معناها فأخذ يحفظ اللغات فابتدأ بتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها ثم تعـلم الرومية والسودانية حتى أتقنهما ثم أخذ يتعلم الصقلبية فمرت به تلك الكلمة فاذا هي سب قبيح فأمر بمظفر فقتل من أجـل تلك الكلمة وبلغه أمر الحرب التي كانت بين بنى حسن وبنى جعفر بالحجاز حتى قتل من بني حسن أكثر ممن قتل من بنى جعفر فأنفذ مالا ورجالا في السر مازالوا بالطائفتين حتى اصطلحتا وتحمل الرجال عن كل منهما الحمالات فجاء التفاضل في القتلى لبني حسن عند بنى جعفر نحو سبعين قتيلا فأدوا عنهم وعقـدوا بينهم الصلح في الحرم تجاه الكعبة وتحملوا عنهم الديات من مال المعز وكان ذلك في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة فصارت هذه الفعلة يدا عند بني حسن للمعز فلما ملك جوهر مصر بادر حسن بن جعفر الحسنى بالدعاء للمعز في مكة وبعث الى جوهر بالخبر فسيرالى المعز يعرفه باقامة الدعوة له بمكة فأنفذ اليه بتقليده الحرم وأعماله وسار المعز بعساكره من المغرب حتى نزل بالجيزة فعقد له جوهر جسراً جديداً عند المختار بالجزيرة فسار عليه وقد زينت له مدينة الفسطاط فلم يشقها ودخل الى القاهرة بجميع أولاده واخوته وسائر أولاد عبيد الله المهدى وبنوا بيت آبائه وذلك لسبع خلون من رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة فعند مادخل القصر صلى ركعتين فاقتـدى به من حضر وبات به ثم أصبح

فجلس للهناء وأمر فكتب في سائر مدينة مصر خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأثبت اسم المعز لدين الله واسم أبيه عبد الله الامير وجلس في القصر على السرير الذهب وصلى بالناس صلاة عيد الفطر في المصلى فسبح في كل ركعة وفى كل سجدة ثلاثين تسبيحة ثم خطب بعد الصلاة وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء وعمل عيد غدير خم ومات بعض بنى عمه فصلى عليه وكبر سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً وقدمت القرامطة الى مصر فسير اليهم الجيوش وهزموهم وما زال الى أن توفى من علة اعتلها بعد دخوله الى القاهرة بسنتين وسبعة أشهر وعشرة أيام وعمره خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريباً فان مولده بالمهدية في حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة ووفاته بالقاهرة لاربع عشرة خلت من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة وكانت مدة خلافته بالمغرب وديار مصر ثلاثا وعشرين سنة وعشرة أيام وهو أول الخلفاء الفاطميين بمصر واليه تنسب القاهرة المعزية لان عبده جوهرا القائد بناها حسب مارسم له كما ذكر في خبر بنائها * وكان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفاً للرعية مغرما بالنجوم أقيمت له الدعوة بالمغرب كله وديار مصر والشام والحرمين وبعض أعمال العراق * وقام من بعده ابنه (العزيز بالله أبو منصور نزار) * فأقام في الخلافة احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما في الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة بمدينة بلبيس وحمل الى القاهرة * وقام من بعده ابنه (الحاكم بأمر الله أبو على منصور) * وكانت مدة خلافته الى أن فقد خمساً وعشرين سنة وشهراً وفقد وعمره ست وثلاثون سنة وسبعة أشهر في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة وقد بسطت خبر العزيز والحاكم عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب * وقام من بعده ابنه (الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على) بن الحاكم بأمر الله ولد بالقاهرة يوم الاربعاء لعشر خلون من رمضان سنة خمس وتسعين وثلثمائة وبويع له بالخلافة يوم عيد النحر سنة احدى عشرة وأربعمائة وعمره ست عشرة سنة فخرج الى صلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع وأكل الملوخيا وجميع الاسماك فأقبل الناس على اللهو ووزر له الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد وكان يلى ديوان الانشاء وغيره واستوزره الحاكم الى أن فقد فتولى البيعة للظاهر ثم قتل بعد سبعة أشهر في ربيع الاول سنة اثنتى عشرة فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولى ديوان الانشاء بعد ابن خيران وصرف عن الوزارة فى المحرم سنة ثلاث عشرة وقبض عليه في شوال وقتل فوجد له من العين ستمائة ألف دينار

وعشرون ألف دينار وولى بعده الوزارة الامير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر *
وفى سنة أربع عشرة قلد منتخب الدولة الدريزى متولى قيسارية ولاية فلسطين فكانت له
مع حسان بن مفرج بن جراح الطائى حروب وفيها نزع السعر بمصر وتعذر وجود الخبز وفى
المحرم سنة خمس عشرة لقب الخادم الاسود معضاد بالقائد عز الدولة وسناءها أبى الفوارس
معضاد الظاهر وخلع عليه وثار رجل من بني الحسين ببلاد الصعيد فقبض عليه وأقر أنه قتل
الحاكم بأمر الله ووجد معه قطعة من جلد رأسه وقطعة من الفوطة التي كانت عليه فسئل
عن سبب قتله اياه فقال غرت لله وللاسلام ثم قتل نفسه بسكين كانت معه فقطعت رأسه
وسيرت الى القاهرة وفيها اشتد الغلاء بمصر وكثر نقص النيل * وفيها قرر الشريف الكبير
العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجراى والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد
أن لايدخل على الظاهر أحد غيرهم وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون
فى سائر أمور الدولة والظاهر مشغول بلذاته وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة وابن
خيران صاحب الانشاء وداعى الدعاة ونقيب نقباء الطالبيين وقاضي القضاة ربما دخلوا على
الظاهر فى كل عشرين يوما مرة ومن عداهم لايصل الى الظاهر البتة والثلاثة الاول هم
الذين يقضون الاشغال ويمضون الامور بعد الاجتماع عند القائد معضاد ومنع الناس من ذبح
الابقار لقلتها وعزت الاقوات بمصر وقلت البهائم كلها حتى بيع الرأس البقر بخمسين دينارا
وكثر الخوف فى ظواهر البلد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجار
فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج طوائف العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا
وتحاسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه واشتد الغلاء وفشت الامراض
وكثر الموت فى الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج وعز الماء لقلة الظهر فعم
البلاء من كل جهة وعرض الناس أمتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع
عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب وأخذت أموالهم وقتل منهم كثير وعاد من بقى
فلم يحج أحد من أهل مصر وتفاقم الامر فى شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر الجوع الجوع
يا أمير المؤمنين لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك فالله الله فى أمرنا وطرقت عساكر بن جراح
الفرما ففر أهلها الى القاهرة وأصبح الناس بمصر على أقبح حال من الامراض والموتان
وشدة الغلاء وعدم الاقوات وكثر الخوف من الدعار التي تكبس حتى انه لما عمل سماط عيد
النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصيحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه ونهبت
الارياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت أمور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر الى القرض
فحمل بعض أهل الدولة اليه مالا وامتنع آخرون واجتمع نحو الالف عبد لتنهب البلد من
الجوع فنودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله وندب جماعة لحفظ البلد واستعد

الناس فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى أن خندقوا عليهم خنادق وعملوا الدروب على الازقة والشوارع وخرج معضاد في عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب أعناقهم وأخذ العبيد في طلب الجرجراى وغيره من وجوه الدولة فحرسوا أنفسهم وامتنعوا في دورهم وانقضت السنة والناس في أنواع من البلاء * وفي سنة ست عشرة أمر الظاهر فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية وغيرهم وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير وجعل لمن حفظ ذلك مالا * وفي سنة سبع عشرة ثار بمصر رعاف عظيم بالناس وكثرة زيادة النيل عن العادة وتصدق الظاهر بمائة الف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم * وفي سنة ثمان عشرة وقعت الهدنة مع صاحب الروم وخطب للظاهر في بلاده وأعاد الجامع بقسطنطينية وعمل فيه مؤذنا فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس وأذن لمن أظهر الاسلام في أيام الحاكم أن يعود الى النصرانية فرجع اليها كثير منهم وصرف الظاهر وزيره عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذبادى وأقام بدله ابا القاسم على بن أحمد الجرجراي * وفي سنة عشرين كانت فتنة بين المغاربة والاتراك قتل فيها كثير * وفي سنة احدي وعشرين بويع لابن الظاهر بولاية العهد وعمره ثمانية أشهر وأنفق على ذلك في خلع لاهل الدولة وطعام ونثار للعامة ما يجل وصفه * وفي سنة اثنتين وعشرين تحرك السعر لنقص ماء النيل ثم زاد بعد أوانه باربعة أشهر * وفي سنة ثلاث وعشرين قتل الظاهر أحد الدعاة فاضطربت الرعية والجند وتحدث الناس بخلعه ثم سكنت الفتنة بعد انفاق مال جزيل * وفي سنة أربع وعشرين ركب ولى العهد من القاهرة الى مصر وقد زينت الطرقات فكان اذا مر بقوم قبلوا له الارض ونثر يومئذ على العامة مبلغ خمسة آلاف دينار فكان يوما عظيما * وفي سنة خمس وعشرين بث الظاهر دعاته ببغداد عند اختلاف الاتراك بها فكثرت دعاته هناك واستجاب لهم خلق كثير فلما كان في سنة ست وعشرين كثر الوباء بمصر ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة عن اثنتين وثلاثين سنة الا اياما فكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية اشهر وأياما وكان مشغوفا باللهو محبا للغناء فتأنق الناس في أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما واتخذ حجرا لمماليكه وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب واتخذ خزانة البنود وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع وراسل الملوك واستكثر من شراء الجواهر وكانت مملكته بافريقية ومصر والشام والحجاز وغلب صالح بن مرداس على حلب في أيامه واستولى على ما يليها وتغلب حسان بن جراح على أكثر بلاد الشام فتضعضعت الدولة * وقام من بعده ابنه ولي العهد وبويع له وهو (المستنصر بالله أبو تميم معد) * ومولده في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة عشرين واربعمائة

وبويع بالخلافة لنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وعمره يومئذ سبع سنين فأقام ستين سنة وأشهرا في الخلافة كانت فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر منها أن أمه كانت أمة سوداء لتاجر يهودى يقال له أبو سعد سهل بن هرون التسترى فابتاعها منه الظاهر واستولدها المستنصر فلما أفضت الخلافة اليه استدنت أمه أبا سعد ورقته درجة علية وكان الوزير يومئذ ابا القاسم الجرجراى فلم يتمكن ابو سعد من اظهار ما في نفسه حتى مات الجرجراى وتولى أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي الوزارة فانبسطت يد أبي سعد وصار الفلاحي يأتمر بأمره فعمل عليه وقتله كما ذكر في خبر خزانة البنود فحقدت أم المستنصر على الفلاحي وصرفته عن الوزارة واستقر أبو البركات صفي الدين الحسين بن محمد بن احمد الجرجراى في الوزارة * وفى سنة أربعين سار ناصر الدولة الحسين بن حمدان متولي دمشق بالعساكر الى حلب وحارب متوليها ثمال بن صالح بن مرداس ثم رجع بغير طائل فقلد مظافر الصقلبي دمشق وقبض على ابن حمدان وصادره واعتقله بصور ثم بالرملة وخرج أمير الامراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو الثلاثين الفا بلغت النفقة عليه اربعمائة الف دينار يريد الشام ومحاربة بني مرداس * وفي المحرم سنة احدى وأربعين صرف قاضى القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء بعد ما باشره ثلاث عشرة سنة وشهرا وأربعة أيام وتقلد وظيفة القضاء بعده القاضى الاجل خطير الملك أبو محمد البازورى * وفيها حارب رفق بني مرداس فظفروا به وأسروه فمات بقلعة حلب فأفرج عن ابن حمدان وبقى بالحضرة وقبض على الوزير أبي البركات الجرجراى ونفى الى الشام وعمل أبو الفضل صاعد ابن مسعود واسطة لا وزيرا ثم قلد قاضى القضاة ابو محمد البازورى الوزارة مع وظيفة القضاء ولقب بسيد الوزراء * وفي سنة اثنتين وأربعين كانت حروب البحيرة واخراج بنى قرة منها وانزال بني سنبس بعدهم بها وفيها دعا على بن محمد الصليحي باليمن للمستنصر وبعث اليه بمال النجوة والهدن * وفي سنة أربع وأربعين كتب ببغداد محاضر بالقدح في نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الانتساب الى على بن أبي طالب وسيرت الى الآفاق وقصر مد النيل فتحرك السعر بمصر ثم قصر أيضاً مد النيل في سنة ست وأربعين فقوى الغلاء وكثر الموت في الناس * وفى سنة ثمان وأربعين خرج أبو الحارث البساسيرى من بغداد منتميا للمستنصر فسيرت اليه الاموال والخلع * وفي سنة ثمان وأربعين عادت حلب الى مملكة المستنصر * وفي سنة خمسين قبض على الوزير الناصر للدين أبي محمد البازورى وتقلد بعده الوزارة أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى ابن عبد الله بن محمد وولى القضاء بعد البازورى أبو علي أحمد بن عبد الحكيم ثم صرف بعبد الحاكم المليجي وفيها أخذ البساسيرى بغداد وأقام فيها الخطبة للمستنصر وفر الخليفة القائم بأمر الله العباسى الى قريش بن بدران فبعث به الى

غانةوسيرت ثياب القائم وعمامته وغير ذلك من الاموال الى مصر وفيها سار ناصر الدولة الى دمشق أميراً عليها * وفي سنة احدى وخمسين أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الاعمال فقدم طغريل الى بغداد وأعاد الخليفة القائم بعد ماخطب للمستنصر ببغداد أربعون خطبة وقتل البساسيري وفيها قطعت خطبة المستنصر أيضاً من حلب فسار اليها ابن حمدان وحارب أهلها فانكسر كسرة شديدة شنيعة وعاد الى دمشق وفيها صرف أبو الفرج بن المغربي عن الوزارة وعبد الحاكم عن القضاء وأعيد الى الوزارة أبو الفرج البابلي واستقر في وظيفة القضاء أحمد بن أبي زكري * وفي سنة ثلاث وخمسين كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة وتقدم الاراذل بحيث كان يصل اليه في كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات فاشتبهت عليه الامور وتناقضت الاحوال ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم وخربت الاعمال وقل ارتفاعها وتغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالامور وطغيان الاكابر الى أن آل الامر الى حدوث الشدة العظمى كما قد ذكر في موضعه من هذا الكتاب وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ست وستين وأربعمائة وقيامه بسلطنة مصر ماذكر في ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ماجما عن التصرف الى أن مات في سنة سبع وثمانين فأقام العسكر من بعده في الوزارة ابنه الافضل شاهنشاه فباشر الامور يسيراً ومات المستنصر ليلة الخميس لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة سبع وثمانين عن سبع وستين سنة وخمسة أشهر منها في الخلافة ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام مرت فيها أهوال عظيمة وشدائد آلت به الى أن جلس على نخ وفقد القوت فلم تقدر عليه حتى كانت امرأة من الاشراف تتصدق عليه في كل يوم بقعب فيه فتيت فلا يأكل سواه مرة في كل يوم وقد مر في غير موضع من هذا الكتاب كثير من أخباره فلما مات المستنصر أقام الافضل بن أمير الجيوش في الخلافة من بعده ابنه (المستعلي بالله أبا القاسم أحمد) * وكان مولده في العشرين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة فخالف عليه أخوه نزار وفر الى الاسكندرية وكان القائم بالامور كلها الافضل فحاربه حتى ظفر به وقتله كما تقدم في خبر أفتكين عند خزائن القصر * وفي سنة تسعين وقع بمصر غلاء ووباء وقطعت الخطبة من دمشق للمستعلي وخطب بها للعباسي وخرج الفرنج من قسطنطينية لاخذ سواحل الشام وغيرها من ايدى المسلمين فملكوا انطاكية * وفي سنة احدى وتسعين خرج الافضل بعسكر عظيم من القاهرة فأخذ بيت المقدس من الارمن وعاد الى القاهرة * وفي سنة أثنتين وتسعين ملك الفرنج الرملة وبيت المقدس فخرج الافضل بالعساكر وسار الى عسقلان فسار اليه الفرنج وقاتلوه وقتلوا كثيرا من أصحابه وغنموا منه شيأ كثيرا وحصروه فنجا بنفسه

في البحر وصار الى القاهرة * وفى سنة ثلاث وتسعين عم الوباء أكثر البلاد فهلك بمصر عالم عظيم * وفى سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة * وفى سنة خمس وتسعين وأربعمائة مات المستعلى بالله لثلاث عشرة بقيت من صفر وعمره سبع وعشرون سنة وسبعة وعشرون يوما ومدة خلافته سبع سنين وشهران وفى أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام فانها صارت بين الاتراك والفرنج وصارت الاسماعيلية فرقتين فرقة نزارية تطعن في امامة المستعلى وفرقة ترى صحة خلافته ولم يكن للمستعلى مع الافضل أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة وقيل انه سم وقيل بل قتل سرا * فلما مات أقام الافضل من بعده في الخلافة ابنه (الآمر باحكام الله أبا على منصورا) وعمره خمس سنين وشهر وأيام فقتل الافضل فى أيامه وأقام في الخلافة تسعاً وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصفا وقد ذكرت ترجمته عند ذكر الجامع الاقمر في ذكر الجوامع من هذا الكتاب ولما قتل الآمر باحكام الله أقيم من بعده (الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد) ابن الامير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله وكان قد ولد بعسقلان في المحرم سنة سبع وقيل في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة فلذلك كان يقال له في أيام الآمر باحكام الله الامير عبد المجيد العسقلاني ابن عم مولانا * ولما قتل النزارية الخليفة الآمر أقام برغش وهزار الملوك الامير عبد المجيد في دست الخلافة ولقباه بالحافظ لدين الله وانه يكون كفيلا لمنتظر في بطن أمه من أولاد الآمر واستقر هزار الملوك وزيرا فثار العسكر وأقاموا أبا على بن الافضل وزيرا وقتل هزار الملوك ونهب شارع القاهرة وذلك كله في يوم واحد فاستبد أبو على بالوزارة يوم السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقبض على الحافظ وسجنه مقيدا فاستمر الى أن قتل أبو على في سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين فأخرج من معتقله وأخذ له العهد على انه ولي عهد كفيل لمن يذكر اسمه فاتخذ الحافظ هذا اليوم عيدا سماه عيد النصر وصار يعمل كل سنة ونهبت القاهرة يومئذ وقام يانس صاحب الباب بالوزارة الى أن هلك في ذي الحجة منها بعد تسعة أشهر فلم يستوزر الحافظ بعده أحداً وتولى الامور بنفسه الى سنة ثمان وعشرين فأقام ابنه سليمان ولي عهده مقام وزير فلم تطل أيامه سوى شهرين ومات فجعل مكانه ابن حيدرة فخنق ابنه حسن وثار بالفتنة وكان من أمره ما ذكر في خبر الحارة اليانسية من هذا الكتاب فلما قتل حسن قام بهرام الارمني وأخذ الوزارة فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وكان نصرانيا فاشتد ضرر المسلمين من النصارى وكثرت أذيتهم فسار رضوان بن ولخشي وهو يومئذ متولي الغربية وجمع الناس لحرب بهرام وسار الى القاهرة فانهزم بهرام ودخل رضوان القاهرة واستولى على الوزارة في جمادى الاولى سنة احدى

وثلاثين فاوقع بالنصارى وأذلهم فشكره الناس الا أنه كان خفيفاً عجولا فأخذ في اهانة حواشي الخليفة وهم بخلعه وقال ما هو بامام وانمـا هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح فتوحش الحافظ منه وما زال يدبر عليـه حتى ثارت فتنة انهزم فيها رضوان وخرج الى الشام فجمع وعاد فى سنة أربع وثلاثين فجهز له الحافظ العساكر لمحاربته فقاتلهم وانهزم منهم الى الصعيد فقبض عليه واعتقل فلم يستوزر الحافظ أحداً بعده الى أن كانت سنة ست وثلاثين فغلت الأسعار بمصر وكثر الوباء وامتد الى سنة سبع وثلاثين فعظم الوباء * وفي سنة اثنتين وأربعين خلص رضوان من معتقله بالقصر وخرج من نقب وثار بجماعة وكانت فتنة آلت الى قتله * وفي سنة أربع وأربعين ثارت فتنة بالقاهرة بين طوائف العسكر فمات الحافظ ليلة الخامس من جمادى الآخرة عن سبع وسبعين سنة منها مدة خلافته ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما أصابته فيها شدائد كثيرة وكان حازما سيوساً كثير المداراة عارفاً جماعاً للمال مغري بعلم النجوم يغلب عليه الحلم * فلما مات والفتنة قائمة أقيم ابنه (الظاهر بأمرالله أبو منصور اسمعيل)* ومولده للنصف من ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة فأقام فى الخلافة أربع سنين وثمـانية أشهر الا خمسة أيام وكان محكوماً عليه من الوزارة وفي أيامه أخذت عسقلان فظهر الخلل في الدولة وقد ذكرت أخباره في خط الخشيبة عند ذكر الخطط من هذا الـكتاب * فلما قتل أقيم من بعده ابنه (الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى)* أقامه فى الخلافة بعد مقتل أبيه الوزير عباس وعمره خمس سنين فقدم طلائع بن رزيك والي الاشمونين بجموعه الى القاهرة ففر عباس واستولى طلائع على الوزارة وتلقب بالصالح وقام بأمر الدولة الى أن مات الفائز لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين عن احدى عشرة سنة وستة أشهر ويومين منها في الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وأيام لم ير فيها خيرا فانه لمـا أخرج ليقام خليفة رأى أعمامه قتلى وسمع الصراخ فاختل عقـله وصار يصرخ حتى مات * فأقام الصالح بن رزيك في الخلافة بعده (العاضد لدين الله أبا محمد عبد الله)* ابن الامير يوسف بن الحافظ لدين الله ومولده لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة وكان عمره يوم بويع نحو احدى عشرة سنة وقام الصالح بتدبير الامور الى أن قتل في رمضان سنة ست وخمسين كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع فقام من بعـده ابنه رزيك بن طلائع وحسنت سيرته فعزل شاور بن مجير السعدي عن ولاية قوص فلم يقبـل العزل وحشد وسار على طريق الواحات فى البرية الى تروجة فجمع الناس وسار الى القاهرة فلم يثبت رزيك وفر فقبض عليه باطفيح واستقر شاور فى الوزارة لايام خلت من صفر سنة ثمـان وخمسين فأقام الى أن ثار ضرغام صاحب الباب ففر منه الى الشام واستبد ضرغام بالوزارة فقتل أمراء الدولة وأضعفها بسبب ذهاب

أكابرها فقدم الفرنج ونازلوا مدينة بلبيس مدة ودافعهم المسلمون عدة مرار حتى عادوا الى بلادهم بالساحل ورجع العسكر الى القاهرة وقد قتل منهم كثير فوصل شاور بعساكر الشام في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين فحاربه ضرغام على بلبيس بعساكر مصر وكانت لهم منه معارك انهزموا في آخرها وغنم شاور ومن معه سائر ماخرجوا به وكان شيئاً جليلا فسروا بذلك وساروا الى القاهرة فكانت بين الفريقين حروب آلت الى هزيمة ضرغام وقتله فى شهر رمضان منها فاستولى شاور على الوزارة مرة ثانية واختلف مع الغز القادمين معه من الشام وكانت له معهم حروب آلت الى أن شاور كتب الى مرى ملك الفرنج يستدعيه الى القاهرة ليعينه على محاربة شيركوه ومن معه من الغز فحضر وقد صار شيركوه في مدينة بلبيس فخرج شاور من القاهرة ونزل هو ومري على بلبيس وحصرا شيركوه ثلاثة أشهر ثم وقع الصلح فسار شيركوه بالغز الى الشام ورحل الفرنج وعاد شاور الى القاهرة فى سنة ستين وخمسمائة فلم يزل الى أن قدم شيركوه من الشام بالعساكر مرة ثانية فى ربيع الآخر فخرج شاور من القاهرة الى لقائه واستدعى مرى ملك الفرنج فسار شيركوه على الشرق وخرج من اطفيح فسار اليه شاور بالفرنج وكانت له معه الوقعة المشهورة فسار شيركوه بعد الوقعة من الاشمونين وأخذ الاسكندرية وعاد شاور الى القاهرة وخرج شيركوه من الاسكندرية بعد أن استخلف عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولم يزل يسير من الاسكندرية الى قوص وهو يجبي البلاد فخرج شاور من القاهرة بالفرنج ونازل الاسكندرية فبلغ شيركوه ذلك فعاد من قوص الى القاهرة وحصرها ثم كانت أمور آخرها مسير شيركوه وأصحابه من أرض مصر الى الشام فى شوال وقد طمع الفرنج فى البلاد وتسلموا أسوار القاهرة وأقاموا فيها شحنة معه عدة من الفرنج لمقاسمة المسلمين ما يتحصل من مال البلد وفحش أمر شاور وساءت سيرته وكثر تجريه على الدماء واتلافه للاموال فلما كان فى سنة أربع وستين قوى تمكن الفرنج فى القاهرة وجاروا فى حكمهم بها وركبوا المسلمين بأنواع الاهانة فسار مرى يريد أخذ القاهرة ونزل على مدينة بلبيس وأخذها عنوة فكتب العاضد الى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستصرخه ويحثه على نجدة الاسلام وانقاذ المسلمين من الفرنج فجهز أسد الدين شيركوه فى عسكر كثير وجهزهم وسيرهم الى مصر وقد أحرق شاور مدينة مصر كما تقدم ونزل مرى ملك الفرنج على القاهرة وألح فى قتال أهلها حتى كاد أن يأخذها عنوة فسير اليه شاور وخادعه حتى رضي بمال يجمعه له فشرع فى جبايته واذا بالخبر ورد بقدوم شيركوه فرحل الفرنج عن القاهرة فى سابع ربيع الآخر ونزل شيركوه على القاهرة بالغز ثالث مرة فخلع عليه العاضد وأكرمه فأخذ شاور يفتك بالغز على عادته فكان من قتله ماذكر

فى موضعه وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر المذكور وتقلد شيركوه وزارة العاضد وقام بالدولة شهرين وخمسة أيام ومات فى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ففوض العاضد الوزارة لصلاح الدين يوسف بن أيوب فساس الامور ودبر انفسه فبذل الاموال وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من المال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمود نور الدين وأقطع أصحابه البلاد وأبعد أهل مصر وأضعفهم واستبد بالامور ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة الى أن كان من واقعة العبيد ما ذكرنا فأبادهم وأفناهم ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ولم يبق له سوى اقامة ذكره في الخطبة فقط هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه في كل يوم ليضعفه فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لايخرج من القصر البتة وتتبع صلاح الدين جند العاضد وأخذ دور الامراء واقطاعاتهم فوهبها لاصحابه وبعث الى أبيه واخوته وأهله فقدموا من الشام عليه فلما كان في سنة ست وستين أبطل المكوس من ديار مصر وهدم دار المعونة بمصر وعمرها مدرسة للشافعية وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية وعزل قضاة مصر الشيعة وقلد القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي وجعل اليه الحكم في اقليم مصر كله فعزل سائر القضاة واستناب قضاة شافعية فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعي رضى الله عنهما واختفى مذهب الشيعة الى نسى من مصر وأخذ في غزو الفرنج فخرج الى الرملة وعاد فى ربيع الاول ثم سار الى ايلة ونازل قلعتها حتى أخذها من الفرنج في ربيع الآخر ثم سار الى الاسكندرية ولم شعث سورها وعاد وسير توران شاه فاوقع باهل الصعيد وأخذ منهم مالا يمكن وصفه كثرة وعاد فكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذم العاضد وتحدثوا بخلعه واقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة وأنزل أصحابه في دورهم فى ليلة واحدة فأصبح في البلد من العويل والبكاء ما يذهل . وتحكم أصحابه في البلد بايديهم وأخرج اقطاعات سائر المصريين لاصحابه وقبض على بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده وقبض على القصور وسلمها الى الطواشي بهاء الدين قراقوش الاسدى وجعله زمامها فضيق على أهل القصر وصار العاضد معتقلا تحت يده وأبطل من الأذان حي على خير العمل وأزال شعار الدولة وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد فمرض ومات وعمره احدى وعشرون سنة الا عشرة أيام منها في الخلافة احدى عشرة سنة وستة أشهر وسبعة أيام وذلك في ليلة يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة بعد قطع اسمه من الخطبة والدعاء للمستنجد العباسي بثلاثة أيام.وكان كريما لين الجانب مرت بهمخاوف وشدائدوهو

آخر الخلفاء الفاطميين بمصر وكانت مدتهم بالمغرب ومصر منذ قام عبيد الله المهدي الى أن مات العاضد مائتي سنة واثنتين وسبعين سنة وأياما بالقاهرة منها مائتان وثماني سنين فسبحان الباقي

ذكر ما كان عليه موضع القاهرة قبل وضعها

اعلم أن مدينة الاقليم منذ كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه كانت مدينة الفسطاط المعروفة في زماننا بمدينة مصر قبلي القاهرة وبها كان محل الامراء ومنزل ملسكهم واليها تجبي ثمرات الاقاليم وتاوى الكافة وكانت قد بلغت من وفور العمارة وكثرة الناس وسعة الارزاق والتفنن في أنواع الحضارة والتأنق في النعيم ما اربت به على كل مدينة في المعمور حاشا بغداد فانها كانت سوق العالم وقد زاحمتها مصر وكادت أن تساميها الا قليلا ثم لما انقضت الدولة الاخشيدية من مصر واختل حال الاقليم بتوالي الغلوات وتواتر الاوباء والفنوات حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز لدين الله ابي تميم معد أمير المؤمنين على يد عبده وكاتبه القائد جوهر فنزل حيث القاهرة الآن وأناخ هناك وكانت حينئذ رملة فيما بين مصر وعين شمس يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس وكانت فيما بين الخليج المعروف في أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين ثم قيل له خليج القاهرة ثم هو الآن يعرف بالخليج الكبير وبالخليج الحاكمي وبين الخليج المعروف باليحاميم وهو الجبل الاحمر وكان الخليج المذكور فاصلا بين الرملة المذكورة وبين القرية التى يقال لها أم دنين ثم عرفت الآن بالمقس وكان من يسافر من الفسطاط الى بلاد الشام ينزل بطرف هذه الرملة فى الموضع الذى كان يعرف بمنية الاصبغ ثم عرف الى يومنا بالخندق وتمر العساكر والتجار وغيرهم من منية الاصبغ الى بنى جعفر على غيفة وسلمنت الى بلبيس وبينها وبين مدينة الفسطاط أربعة وعشرون ميلا ومن بلبيس الى العلاقة الى الفرما ولم يكن الدرب الذى يسلك في وقتنا من القاهرة الى العريش في الرمل يعرف في القديم وانما عرف بعد خراب تنيس والفرما وازاحة الفرنج عن بلاد الساحل بعد تملكهم له مدة من السنين وكان من يسافر في البر من الفسطاط الى الحجاز ينزل بجب عميرة المعروف اليوم ببركة الجب وببركة الحاج ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هي بستان الاخشيد محمد بن طغج المعروف اليوم بالكافوري من القاهرة ودير للنصارى يعرف بدير العظام تزعم النصارى أن فيه بعض من أدرك المسيح عليه السلام وبقى الآن بئر هذا الدير وتعرف ببئر العظام والعامة تقول بئر العظمة وهي بجوار الجامع الاقمر من القاهرة ومنها ينقل الماء اليه وكان بهذه الرملة أيضاً مكان ثالث يعرف بقصير الشوك بصيغة التصغير تنزله بنو عذرة فى الجاهلية وصار موضعه عند بناء القاهرة يعرف

بقصر الشوك من جملة القصور الزاهرة هذا الذى اطلعت عليه أنه كان في موضع القاهرة قبل بنائها بعد الفحص والتفتيش وكان النيل حينئذ بشاطئ المقس يمر من موضع الساحل القديم بمصر الذى هو الآن سوق المعاريج وحمام طن والمراغة وبستان الجرف وموردة الحلفاء ومنشأة المهراني على ساحل الحمراء وهي موضع قناطر السباع فيمر النيل بساحل الحمراء الى المقس موضع جامع المقس الآن وفيما بين الخليج وبين ساحل النيل بساتين الفسطاط فاذا صار النيل الى المقس حيث الجامع الآن مر من هناك على طرف الارض التى تعرف اليوم بأرض الطبالة من الموضع المعروف اليوم بالجرف وصار الى البعل ومر على طرف منية الاصبغ من غربي الخليج الى المنية وكان فيما بين الخليج والجبل مما يلى بحرى موضع القاهرة مسجد بنى على رأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبي طالب ثم مسجد تبر الاخشيدى فعرف بمسجد تبر والعامة تقول مسجد التبن ولم يكن الممر من الفسطاط الى عين شمس والى الحوف الشرقي والى البلاد الشامية الا بمحافة الخليج ولا يكاد يمر بالرملة التي في موضعها الآن مدينة القاهرة كثير جدا ولذلك كان بها دير للنصارى الا أنه لما عمر الاخشيد البستان المعروف بالكافورى أنشأ بجانبه ميدانا وكان كثيرا ما يقيم به وكان كافور أيضاً يقيم به وكان فيما بين موضع القاهرة ومدينة الفسطاط مما يلى الخليج المذكور أرض تعرف في القديم منذ فتح مصر بالحمراء القصوى وهي موضع قناطر السباع وجبل يشكر حيث الجامع الطولوني وما دار به وفي هذه الحمراء عدة كنائس وديارات للنصارى خربت شيئاً بعد شيء الى أن خرب آخرها في أيام الملك الناصر محمد بن قلاون وجميع مابين القاهرة ومصر مما هو موجود الآن من العمائر فانه حادث بعد بناء القاهرة ولم يكن هناك قبل بنائها شيء البتة سوى كنائس الحمراء وسيأتى بيان ذلك مفصلا في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

ذكر حد القاهرة

قال ابن عبد الظاهر في كتاب الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة الذي استقر عليه الحال أن حد القاهرة من مصر من السبع سقايات وكان قبل ذلك من المجنونة الى مشهد السيدة رقية عرضا اه والآن تطلق القاهرة على ماحازه السور الحجر الذي طوله من باب زويلة الكبير الى باب الفتوح وباب النصر وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة الى باب البرقية والباب المحروق ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر الى أن انتهت العمائر الى الريدانية وبنوا خارج باب القنطرة الى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطئ النيل وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطئ الى أن اتصلت بمنشأة المهراني وبنوا

خارج باب البرقية والباب المحروق الى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين أحدهما يقال له القاهرة والآخر يقال له مصر فاما مصر فان حدها على ما وقع عليه الاصطلاح في زمننا هذا الذي نحن فيه من حد أول قناطر السباع الى طرف بركة الحبش القبلى مما يلى بساتين الوزير وهذا هو طول حد مصر وحدها في العرض من شاطئ النيل الذى يعرف قديما بالساحل الجديد حيث فم الخليج الكبير وقنطرة السد الى أول القرافة الكبرى * وأما حد القاهرة فان طولها من قناطر السباع الى الريدانية وعرضها من شاطئ النيل ببولاق الى الجبل الاحمر ويطلق على ذلك كله مصر والقاهرة وفى الحقيقة قاهرة المعز التي أنشأها القائد جوهر عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد الى مصر في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة انما هي ما دار عليه السور فقط غير أن السور المذكور الذى أداره القائد جوهر تغير وعمل منذ بنيت الى زمننا هذا ثلاث مرات ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة فصار يقال لداخل السور القاهرة ولما خرج عن السور ظاهر القاهرة وظاهر القاهرة أربع جهات الجهة القبلية وفيها الآن معظم العمارة وحد هذه الجهة طولا من عتبة باب زويلة الى الجامع الطولوني وما بعد الجامع الطولوني فانه من حد مصر وحدها عرضا من الجامع الطيبرسي بشاطئ النيل غربى المريس الى قلعة الجبل وفي الاصطلاح الآن أن القلعة من حكم مصر والجهة البحرية وكانت قبل السبعمائة من سني الهجرة وبعدها الى قبيل الوباء الكبير فيها أكثر العمائر والمساكن ثم تلاشت من بعد ذلك وطول هذه الجهة من باب الفتوح وباب النصر الى الريدانية وعرضها من منية الامراء المعروفة في زمننا الذى نحن فيه بمنية الشيرج الى الجبل الاحمر ويدخل في هذا الحد مسجد تبر والريدانية والجهة الشرقية فانها حيث ترب أهل القاهرة ولم تحدث بها العمائر من التربة الا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وحد هذه الجهة طولا من باب القلعة المعروف بباب السلسلة الى ما يحاذى مسجد تبر فى سفح الجبل وحدها عرضا فيما بين سور القاهرة والجبل والجهة الغربية فاكثر العمائر بها لم يحدث أيضا الا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وانما كانت بساتين وبحرا وحد هذه الجهة طولا من منية الشيرج الى منشأة المهرانى بحافة بحر النيل وحدها عرضا من باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة الى ساحل النيل وهذه الاربع جهات من خارج السور يطلق عليها ظاهر القاهرة * وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجليلة والمناظر البهجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بأصناف الانواع والاسواق المملوءة مما تشتهى الانفس والخانات المشحونة بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان والترب التي تحكى القصور مالا يمكن حصره ولا يعرف ماهو قدره الا أن قدر ذلك بالتقريب الذى

يصدقه الاختبار طولا بريدا وما يزيدعليه وهو من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلي بركة الحبش وعرضا يكون نصف بريد فما فوقه وهو من ساحل النيل الى الجبل ويدخل في هذا الطول والعرض بركة الحبش وما دار بها وسطح الجرف المسمى بالرصد ومدينة الفسطاط التي يقال لها مدينة مصر والقرافة الكبرى والصغرى وجزيرة الحصن المعروف اليوم بالروضة ومنشأة المهراني وقطائع ابن طولون التي تعرف الآن بجدرة ابن قميحة وخط جامع ابن طولون والرميلة تحت القلعة والقبيبات وقلعة الجبل والميدان الاسود الذى هو اليوم مقابر أهل القاهرة خارج باب البرقية الى قبة النصر والقاهرة المعزية وهو مادار عليه السور الحجر والحسينية والريدانية والخندق وكوم الريش وجزيرة الفيل وبولاق والجزيرة الوسطى المعروفة بجزيرة اروى وزريبة قوصون وحكر ابن الاثير ومنشأة الكاتب والاحكار التي فيما بين القاهرة وساحل النيل وأراضي اللوق والخليج الكبير الذى تسميه العامة بالخليج الحاكمي والحبانية والصليبية والتبانة ومشهد السيدة نفيسة وباب القرافة وأرض الطبالة والخليج الناصرى والمقس والدكة وغير ذلك مما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى وقد أدركنا هذه المواضع وهى عامرة والمشيخة تقول هي خراب بالنسبة لما كانت عليه قبل حدوث طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة الذى يسميه أهل مصر الفناء الكبير وقد تلاشت هذه الاماكن وعمها الخراب منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ولله عاقبة الامور

ذكر بناء القاهرة وما كانت عليه في الدولة الفاطمية

وذلك أن القائد جوهرا الكاتب لما قدم الجيزة بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله أبى تميم معد أقبل في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة وسارت عساكره بعد زوال الشمس وعبرت الجسر أفواجا وجوهر في فرسانه الى المناخ الذى رسم له المعز موضع القاهرة الآن فاستقر هناك واختط القصر وبات المصريون فلما أصبحوا حضروا للهناء فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل وكانت فيه ازورارات غير معتدلة فلما شاهدها جوهر لم يعجبه ثم قال قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام ويقال ان القاهرة اختطها جوهر في يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها فزويلة بنت الحارة المعروفة بها واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين حارة الروم الآن وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر وقصد جوهر باختطاط القاهرة حيث هى اليوم أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة الى

القاهرة وما وراءها من المدينة وكان مقدار القاهرة حينئذ أقل من مقدارها اليوم فان أبوابها كانت من الجهات الاربعة ففى الجهة القبلية التي تفضى بالسالك منها الى مدينة مصر بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة وموضعهما الآن بحذاء المسجد الذى تسميه العامة بسام بن نوح ولم يبق الى هذا العهد سوى عقده ويعرف بباب القوس وما بين باب القوس هذا وباب زويلة الكبير ليس هو من المدينة التي أسسها القائد جوهر وانما هي زيادة حدثت بعد ذلك وكان في جهة القاهرة البحرية وهي التي يسلك منها الى عين شمس بابان أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التى قدام الجامع الحاكمي الآن وأدركت قطعة منه كانت قدام الركن الغربى من المدرسة القاصدية وما بين هذا المكان وباب النصر الآن مما زيد في مقدار القاهرة بعد جوهر والباب الآخر من الجهة البحرية باب الفتوح وعقده باق الى يومنا هذا مع عضادته اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفي وموضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرحلين وأول رأس حارة بهاء الدين مما يلى باب الجامع الحاكمي وفيما بين هذا العقد وباب الفتوح من الزيادات التى زيدت في القاهرة من بعد جوهر وكان في الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التي يسلك منها الى الجبل بابان أحدهما يعرف الآن بالباب المحروق والآخر يقال له باب البرقية وموضعهما دون مكانهما الآن ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة بين السورين وأحد البابين القديمين موجود الى الآن أسكفته وكان في الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير بابان أحدهما باب سعادة والآخر باب الفرج وباب ثالث يعرف بباب الخوخة أظنه حدث بعد جوهر وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع يقال لاحد القصرين القصر الكبير الشرقي وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك وهو الذى أسسه القائد جوهر وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء والآخر تجاه هذا القصر ويعرف بالقصر الغربى وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول اليه الخليفة في أيام النيل للنزهة على الخليج وعلى ما كان اذ ذاك بجانب الخليج الغربى من البركة التى يقال لها بطن البقرة ومن البستان المعروف بالبغدادية وغيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهرى وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الازهر * فأما القصر الكبير الشرقي فانه كان من باب الذهب الذي موضعه الآن محراب المدرسة الظاهرية التى انشأها الظاهر ركن الدين بيبرس البند قدارى وكان يعلو عقد باب الذهب منظرة يشرف الخليفة فيها من طاقات في أوقات معروفة وكان باب الذهب هذا هو أعظم أبواب القصر ويسلك من باب الذهب المذكور الى باب البحر وهو الباب الذى يعرف اليوم بباب قصر بشتاك مقابل المدرسة الكاملية وهو

باب البحر الى الركن المخلق ومنه الى باب الريح وقد أدركنا منه عضادتيه وأسكفته وعليها أسطر بالقلم الكوفي وجميع ذلك مبنى بالحجر الى أن هدمه الامير الوزير المشير جمال الدين يوسف الاستادار وفي موضعه الآن قيسارية انشأها المذكور بجوار مدرسته من رحبة باب العيد ويسلك من باب الريح المذكور الى باب الزمرذ وهو موضع المدرسة الحجازية الآن ومن باب الزمرذ الى باب العيد وعقده باق وفوقه قبة الى الآن في درب السلامي بخط رحبة باب العيد وكان قبالة باب العيد هذا رحبة عظيمة في غاية الاتساع تقف فيها العساكر الكثيرة من الفارس والراجل في يومى العيدين تعرف برحبة العيد وهى من باب الريح الى خزانة البنود وكان يلى باب العيد السفينة وبجوار السفينة خزانة البنود ويسلك من خزانة البنود الى باب قصر الشوك وأدركت منه قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه الحمام التى عرفت بحمام الايدمرى ثم قيل لها في زمننا حمام يونس بجوار المكان المعروف بخزانة البنود وقد عمل موضع هذا الباب زقاق يسلك منه الى المارستان العتيق وقصر الشوك ودرب السلامي وغيره ويسلك من باب قصر الشوك الى باب الديلم وموضعه الآن المشهد الحسيني وكان فيما بين قصر الشوك وباب الديلم رحبة عظيمة تعرف برحبة قصر الشوك أولها من رحبة خزانة البنود وآخرها حيث المشهد الحسيني الآن وكان قصر الشوك يشرف على اصطبل الطارمة ويسلك من باب الديلم الى باب تربة الزعفران وهى مقبرة أهل القصر من الخلفاء وأولادهم ونسائهم وموضع باب تربة الزعفران فندق الخليلي في هذا الوقت ويعرف بخط الزراكشة العتيق وكان فيما بين الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع التي يتوصل منها الخليفة الى الجامع الازهر في ليالي الوقدات فيجلس بمنظرة الجامع الازهر ومعه حرمه لمشاهدة الوقيد والجمع وبجوار الخوخ السبع اصطبل الطارمة وهو برسم الخيل الخاص المعدة لركاب الخليفة وكان مقابل باب الديلم ومن وراء اصطبل الطارمة الجامع المعد لصلاة الخليفة بالناس أيام الجمع وهو الذى يعرف في وقتنا هذا بالجامع الازهر ويسمى في كتب التاريخ بجامع القاهرة وقدام هذا الجامع رحبة متسعة من حد اصطبل الطارمة الى الموضع الذى يعرف اليوم بالا كفانيين ويسلك من باب تربة الزعفران الى باب الزهومة وموضعه الآن باب سر قاعة مدرسة الحنابلة من المدارس الصالحية وفيما بين تربة الزعفران وباب الزهومة دراس العلم وخزانة الدرق ويسلك من باب الزهومة الى باب الذهب المذكور أولا وهذا هو دور القصر الشرقى الكبير وكان بحذاء رحبة باب العيد دار الضيافة وهى الدار المعروفة بدار سعيد السعداء التي هى اليوم خانقاه للصوفية ويقابلها دار الوزارة وهى حيث الزقاق المقابل لباب سعيد السعداء والمدرسة القراسنقرية وخانقاه بيبرس وما يجاورها الى باب الجوانية وما وراء هذه الاماكن وبجوار

دار الوزارة الحجر وهي من حذاء دار الوزارة بجوار باب الجوانية الى باب النصر القديم ومن وراء دار الوزارة المناخ السعيد ويجاوره حارة المطوفية وحارة الروم الجوانية وكان جامع الخطبة الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم خارجا عن القاهرة وفي غربيه الزيادة التي هي باقية الى اليوم وكانت أهراء لخزن الغلال التي تدخر بالقاهرة كما هي عادة الحصون وكان في غربي الجامع الازهر حارة الديلم وحارة الروم البرانية وحارة الاتراك وهي تعرف اليوم بدرب الاتراك وحارة الباطلية وفيما بين باب الزهومة والجامع الازهر وهذه الحارات خزائن القصر وهي خزانة الكتب وخزانة الاشربة وخزانة السروج وخزانة الخيم وخزائن الفرش وخزائن الكسوات وخزائن دار افتكين ودار الفطرة ودار التعبية وغير ذلك من الخزائن هذا ما كان في الجهة الشرقية من القاهرة * وأما القصر الصغير الغربي فانه موضع المارستان الكبير المنصورى الى جوار حارة برجوان وبين هذا القصر وبين القصر الكبير الشرقى فضاء متسع يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ما بين فارس وراجل يقال له بين القصرين وبجوار القصر الغربى الميدان وهو الموضع الذى يعرف بالخرنشف واصطبل الطارمة وبحذاء الميدان البستان الكافورى المطل من غربيه على الخليج الكبير ويجاور الميدان دار برجوان العزيزي وبحذائها رحبة الافيال ودار الضيافة القديمة ويقال لهذه المواضع الثلاثة حارة برجوان ويقابل دار برجوان المنحر وموضعه الآن يعرف بالدرب الاصفر ويدخل اليه من قبالة خانقاه بيبرس وفيما بين ظهر المنحر وباب حارة برجوان سوق أمير الجيوش وهو من باب حارة برجوان الآن الى باب الجامع الحاكمي ويجاور حارة برجوان من بحريها اصطبل الحجرية وهو متصل بباب الفتوح الاول وموضع باب اصطبل الحجرية يعرف اليوم بخان الوراقة والقيسارية تجاه الجملون الصغير وسوق المرحلين وتجاه اصطبل الحجرية الزيادة وفيما بين الزيادة والمنحر درب الفرنجية وبجوار البستان الكافورى حارة زويلة وهي تتصل بالخليج الكبير من غربيها وتجاه حارة زويلة اصطبل الجميزة وفيه خيول الخليفة أيضاً وفي هذا الاصطبل بئر زويلة وموضعها الآن قيسارية معقودة على البئر المذكورة يعلوها ربع يعرف بقيسارية يونس من خط البندقانيين فكان اصطبل الجميزة المذكور فيما بين القصر الغربى من بحريه وبين حارة زويلة وموضعه الآن قبالة باب سر المارستان المنصورى الى البندقانيين وبحذاء القصر الغربى من قبليه مطبخ القصر تجاه باب الزهومة المذكور والمطبخ موضعه الآن الصاغة قبالة المدارس الصالحية وبجوار المطبخ الحارة العدوية وهي من الموضع الذى يعرف بحمام خشيبة الى حيث الفندق الذى يقال له فندق الزمام وبجوار العدوية حارة الامراء ويقال لها اليوم سوق الزجاجين وسوق الحريريين الشرابيين ويجاور الصاغة القديمة حبس المعونة وهو موضع قيسارية العنبر وتجاه حبس

المعونة عقبة الصباغين وسوق القشاشين وهو يعرف اليوم بالخراطين ويجاور حبس المعونة دكة الحسبة ودار العيار ويعرف موضع دكة الحسبة الآن بالابزاريين وفيما بين دكة الحسبة وحارتي الروم والديلم سوق السراجين ويقال له الآن الشوايين وبطرف سوق السراجين مسجد ابن البناء الذى تسميه العامة سام بن نوح ويجاور هذا المسجد باب زويلة وكان من حذاء حارة زويلة من ناحية باب الخوخة دار الوزير يعقوب بن كلس وصارت بعده دار الديباج ودار الاستعمال وموضعها الآن المدرسة الصالحية وما وراءها ويتصل دار الديباج بالحارة الوزيرية والى جانب الوزيرية الميدان الآخر الى باب سعادة وفيما بين باب سعادة وباب زويلة اهراء أيضاً وسطاح هذا ما كانت عليه صفة القاهرة في الدولة الفاطمية وحدثت هذه الاماكن شيأ بعد شيء ولم تزل القاهرة دار خلافة ومنزل ملك ومعقل قتال لاينزلها الا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرفهم بقربه فقط * (وأما ظاهر القاهرة من جهاتها الاربع) * فانه كان فى الدولة الفاطمية على ما أذكر * أما الجهة القبلية وهي التي فيما بين باب زويلة ومصر طولا وفيما بين الخليج الكبير والجبل عرضا فانها كانت قسمين ماحاذى يمينك اذا خرجت من باب زويلة تريد مصر وما حاذى شمالك اذا خرجت منه نحو الجبل فأما ماحاذى يمينك وهي المواضع التي تعرف اليوم بدار التفاح وتحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الخرق وما على حافتي الخليج من جانبيه طولا الى الحمراء التي يقال لها اليوم خط قناطر السباع ويدخل في ذلك سويقة عصفور وحارة الحمزيين وحارة بني سوس الى الشارع وبركة الفيل والهلالية والمحمودية الى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة فان هذه الاماكن كلها كانت بساتين تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الاسلام وغير ذلك ثم حدث في الدولة هناك حارات للسودان وعمر الباب الجديد وهو الذى يعرف اليوم بباب القوس من سوق الطيور في الشارع عند رأس

(٣)

وحدثت الحارة الهلالية والحارة المحمودية وأما ماحاذى شمالك حيث الجامع المعروف بجامع الصالح والدرب الاحمر الى قطائع ابن طولون التي هي الآن الرميلة والميدان تحت القلعة فان ذلك كان مقابر أهل القاهرة * وأما جهة القاهرة الغربية وهي التى فيها الخليج الكبير وهي من باب القنطرة الى المقس وما جاور ذلك فانها كانت بساتين من غربيها النيل وكان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن فيمر من المقس الى المكان الذى يقال له الجرف ويمضى على شمالى أرض الطبالة الى البعل وموضع كوم الريش الى المنية ومواضع هذه البساتين اليوم أراضى اللوق والزهرى وغيرها من الحكورة التي فى بر الخليج الغربى الى بركة قرموط والخور وبولاق وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابنيان فيه والمناظر تشرف على مافى غربى الخليج من البساتين التي وراءها بحر النيل ويخرج الناس

فيما بين المناظر والخليج للنزهة فيجتمع هناك من أرباب البطالة واللهو مالا يحصى عددهم ويمر لهم هنالك من اللذات والمسرات مالا تسع الاوارق حكايته خصوصاً في أيام النيل عند مايتحول الخليفة الى اللؤلؤة ويتحول خاصته الى دار الذهب وما جاورها فانه يكثر حينئذ الملاذ بسعة الارزاق وادرار النعم فى تلك المدة كما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى * وأما جهة القاهرة البحرية فانها كانت قسمين خارج باب الفتوح وخارج باب النصر أما خارج باب الفتوح فانه كان هناك منظرة من مناظر الخلفاء وقدامها البستانان الكبيران وأولهما من زقاق الكحل وآخرهما منية مطر التى تعرف اليوم بالمطرية ومن غربى هذه المنظرة في جانب الخليج الغربى منظرة البعل فيما بين أرض الطبالة والخندق وبالقرب منها مناظر الخمس وجوه والتاج ذات البساتين الانيقة المنصوبة لتنزه الخليفة وأما خارج باب النصر فكان به مصلى العيد التي عمل من بعضها مصلى الأموات لاغير والفضاء من المصلى الى الريدانية وكان بستانا عظيما ثم حدث فيما خرج من باب النصر تربة أمير الجيوش بدر الجمالي وعمر الناس الترب بالقرب منها وحدث فيما خرج عن باب الفتوح عمائر منها الحسينية وغيرها * وأما جهة القاهرة الشرقية وهى ما بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيول أن تدخل الى القاهرة فصار منها الكيمان التى تعرف بكيمان البرقية ولم تزل هذه الجهة خالية من العمارة الى أن انقرضت الدولة الفاطمية فسبحان الباقي بعد فناء خلقه

﴿ ذكر ماصارت اليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الايوبية عليها ﴾

قد تقدم أن القاهرة انما وضعت منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجأ اليها وانها مابرحت هكذا حتى كانت السنة العظمى في خلافة المستنصر ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي وسكن القاهرة وهي بياب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة فأباح للناس من العسكرية والملحية والارمن وكل من وصلت قدرته الى عمارة بأن يعمر ماشاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل في القاهرة وسكنوها فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان الى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى في سنة سبع وستين وخمسمائة فنقلها عما كانت عليه من الصيانة وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور وحط من مقدار قصور الخلافة واسكن في بعضها وتهدم البعض وازيلت معالمه وتغيرت معاهده فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة ونزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان السلطان صلاح لدين يتردد اليها ويقيم بها وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر فلما

كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب تحول من دار الوزارة الى القلعة وسكنها ونقل سوق الخيل والجمال والحمير الى الرميلة تحت القلعة فلما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكزخان فى أعوام بضع عشرة وستمائة الى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد في صفر سنة ست وخمسين وستمائة كثر قدوم المشارقة الى مصر وعمرت حافتي الخليج الكبير وما دار على بركة الفيل وعظمت عمارة الحسينية فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون الثالثة بعد سنة احدى عشرة وسبعمائة واستجد بقلعة الجبل المباني الكثيرة من القصور وغيرها حدثت فيما بين القلعة وقبة النصر عدة ترب بعد ما كان ذلك المكان فضاء يعرف بالميدان الاسود وميدان القبق وتزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية الى باب الفتوح وعمر جميع ما حول بركة الفيل والصليبة الى جامع ابن طولون وما جاوره الى المشهد النفيسي وحكر الناس أرض الزهرى وما قرب منها وهو من قناطر السباع الى منشأة المهرانى ومن قناطر السباع الى البركة الناصرية الى اللوق الى المقس فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصري اتسعت الخطة فيما بين المقس والدكة الى ساحل النيل وأنشأ الناس فيها البساتين العظيمة والمساكن الكثيرة والاسواق والجوامع والمساجد والحمامات والشون وهى من المواضع التي من باب البحر خارج المقس الى ساحل النيل المسمى ببولاق ومن بولاق الى منية الشيرج ومنه فى القبلة الى منشأة المهراني وعمر ما خرج عن باب زويلة يمنة ويسرة من قنطرة الخرق الى الخليج ومن باب زويلة الى المشهد النفيسي وعمرت القرافة من باب القرافة الى بركة الحبش طولا ومن القرافة الكبرى الى الجبل عرضا حتى انه استجد فى أيام الناصر بن قلاون بضع وستون حكرا ولم يبق مكان يحكر واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارا بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والاسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والازقة والدروب والخطط والحارات والاحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات متصلا جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلي بركة الحبش ومن شاطئ النيل بالجيزة الى الجبل المقطم وما زالت هذه الاماكن في كثرة العمارة وزيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتهم وتختال عجبا بهم لما بالغوا في تحسينها وتأنقوا في جودتها وتنميقها الى أن حدث الفناء الكبير في سنة تسع وأربعين وسبعمائة فخلا كثير من هذه المواضع وبقى كثير أدركناه فلما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة وقصر جرى النيل في مده وخربت البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمور لنك وتحريقها وقتل أهلها وارتفاع أسعار الديار المصرية وكثرة الغلاء فيها وطول مدته وتلاف النقود المتعامل بها وفسادها وكثرة الحروب والفتن

بين أهل الدولة وخراب الصعيد وجلاء أهله عنه وتداعي أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية والغربية الى الخراب واتضاع أمور ملوك مصر وسوء حال الرعية واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور وتتبع أرباب الاموال واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة وطرح البضائع مما يجر فيه السلطان وأصحابه على التجار والباعة باغلى الاثمان الى غير ذلك مما لايتسع لاحد ضبطه ولا تسع الاوراق حكايته كثر الخراب بالاماكن التي تقدم ذكرها وعم سائرها وصارت كيانا وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم والرخم أو مستهدمة واقعة أو آيلة الى السقوط والدثور سنة الله التي قد خابت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

ذكر طرف مما قيل في القاهرة ومنتزهاتها

قال أبو الحسن على بن رضوان الطبيب ويلى الفسطاط في العظم وكثرة الناس القاهرة وهى فى شمال الفسطاط وفي شرقيها أيضا الجبل المقطم يعوق عنها ريح الصبا والنيل منها ابعد قليلا وجميعها مكشوف للهواء وان كان عمل فوق وبما عاق عن بعض ذلك وليس ارتفاع الابنية بها كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيرا وأزقتها وشوارعها بالقياس الى أزقة الفسطاط وشوارعها انظف وأقل وسخا وأبعد عن العفن وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار واذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيأ كثيرا وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الارض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل اليها بالرشح من عفونة الكنف شيء ما وبين القاهرة والفسطاط بطائح تمتلئ من رشح الارض في أيام فيض النيل ويصب فيها بعض خرارات القاهرة ومياه البطائح هذه رديئة وسخة أرضها وما يصب فيها من العفونة يقتضى أن يكون البخار المرتفع منها على القاهرة والفسطاط زائداً في رداءة الهواء بهما ويطرح في جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية وكذلك يطرح في وسط حارة العبيد الا انه اذا تأملنا حال القاهرة كانت بالاضافة الى الفسطاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالا لان أكثر عفوناتهم ترمى خارج المدينة والبخار يحل منها أكثر وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة في أيام دخوله الخليج وهذا الماء يستقى بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها قال وقد اقتصر أمر الفسطاط والجيزة والجزيرة فظاهر أن اصح اجزاء المدينة الكبرى القرافة ثم القاهرة والشرف وعمل فوق مع الحمراء والجيزة وشمال القاهرة أصح من جميع هذه لبعده عن بخار الفسطاط وقربه من الشمال وأرقى موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق الى مايلى النيل والسواحل والى جانب القاهرة من الشمال الخندق وهو في غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب فاما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب * وقال ابن سعيد في كتاب المعرب في حلى المغرب عن البيهقي وأما مدينة

القاهرة فهي الحالية الباهرة التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها واتخذوها وطنا لخلافتهم ومركزا لارجائها فنسي الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط قال وسميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها وقدّروا أن منها يملكون الارض ويستولون على قهر الامم وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به قال ابن سعيد هـذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ماعاينته لانها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط وخطب له في البحرين من جزيرة عند القرامطة وفي مكة والمدينة وبلاد اليمن وما جاورها وقدعلت كلمته وسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر لاسيما وقد عاين مباني أبيه المنصور فى مدينة المنصورية التي الى جانب القيروان وعاين المهدية مدينة جده عبيد الله المهدى لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهي ناطقة الى الآن بألسن الآثار ولله درالقائل

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * اضحى يدل على عظيم الشان

واهتم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة فى تلك القصور وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بني على قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن وكان يجلس فيـه خلفاؤهم ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار وأبصرت في قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ذكر لي انهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة والمكان المعروف فى القاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطانى لان هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين مابين القصرين ولو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ولـكن ذلك أمد قليـل ثم تسير منه الى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ماتضيق منه الصدور وتسخن منه العيون ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه امراء الدولة وهو فى موكب جليل وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قدضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى ويدركني وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين * ومن عيوب القـاهرة انها فى أرض النيل الاعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها واذا احتاج الانسان

الى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس وجوّها لايبرح كدرا بما تثيره الا رجل من التراب الاسود وقدقلت فيهاحين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها

يقولون سافر الى القاهره * ومالي بها راحة ظاهره
زحام وضيق وكرب وما * تثير بها أرجل السائره

وعند مايقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوا مغبرا فتنقبض نفسه ويفر أنسه وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة لاسيما أرض القرط والكتان فقلت

سقى الله أرضا كلما زرت أرضها * كساها وحلاها بزينته القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها * وفي كل قطر من جوانبها قرط

وفيها خليج لايزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافي

مازالت الانحال تأخذه * حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نوّار الكتان على جانبي هذا الخليج

انظر الى النهر والكتان يرمقه * من جانبيه بأجفان لها حدق
رأته سيفاً عليه للصبا شطب * فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت في يد الارواح تنسجها * حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فقم وزرها ووجه الافق متضح * أو عند صفرته ان كنت تغتبق

واعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لانها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول

انظر الى بركة الفيل التي اكتنفت * بها المناظر كالاهداب للبصر
كانما هى والابصار ترمقها * كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت

انظر الى بركة الفيل التى نحرت * لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها * تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص اسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط فالمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع مايصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لانه بعيد عن المدينة والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لانها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا لسكنى الامراء فيها لانها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها فأمور السلطنة كلها فيها ايسر واكثر وبها الطراز وسائر الاشياء التي

تتزين بها الرجال والنساء الا أن في هذا الوقت لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التي أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط وانتقل اليها كثير من الامراء وضخمت أسواقها وبني فيها للسلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة تنقل اليها من القاهرة سوق الاجناد التي يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك ومعاملة القاهرة والفسطاط بالدراهم المعروفة بالسوداء كل درهم منها ثلث من الدرهم الناصري وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء ومخاصمة مع الفريقين وكان بها في القديم الفلوس فقطعها الملك الكامل فبقيت الى الآن مقطوعة منها وهي في الاقليم الثالث وهواؤها رديء لاسيما اذا هب المريسي من جهة القبلة وأيضا رمد العين فيها كثير والمعايش فيها متعذرة نزرة لاسيما أصناف الفضلاء وجوامك المدارس قليلة كدرة وأكثر مايتعيش بها اليهود والنصارى في كتابة الخراج والطب والنصارى بها يمتازون بالزنار في أوساطهم واليهود بعلامة صفراء في عمائمهم ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة ومآكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ ولا تصنع النيدة وهي حلاوة القمح الا بها وبغيرها من الديار المصرية وفيها جوار طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين لهن في الطبيخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة ومطابخ السكر والمطابخ التي يصنع فيها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ويصنع فيها من الانطاع المستحسنة مايسفر الى الشام وغيرها ولها من المشروب الدمياطية وأنواعها ما اختصت به وفيها صناع للقسي كثيرون متقدمون ولكن قسي دمشق بها يضرب المثل واليها النهاية ويسفر من القاهرة الى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات وخرائط الجلد والسيور وما أشبه ذلك وهي الآن عظيمة آهلة يجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال مالا يحيط بجملته وتفصيله الا خالق الكل جل وعلا وهي مستحسنة للفقير الذي لايخاف على طلب زكاة ولا ترسيما وعذابا ولا يطالب برفيق له اذا مات فيقال له ترك عندك مالا فربما سجن في شأنه أو ضرب وعصر والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماعات والفرج في ظواهرها ودواخلها وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص في السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو غيرها أو صحبة المردان وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب وسائر الفقراء لايعترضون بالقبض للاسطول الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر فقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لايعرف وهم في القدوم عليها بين حالين ان كان المغربي غنيا طولب بالزكاة وضيقت عليه أنفاسه حتى يفر منها وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يجيء وقت الاسطول وفي القاهرة ازاهير كثيرة غير منقطعة الاتصال وهذا الشان في الديار المصرية تفضل به كثيرا من البلاد وفي اجتماع النرجس والورد فيها أقول.

من فضل النرجس وهو الذى * يرضى بحكم الورد اذ يرأس
أما ترى الورد غـدا قاعـدا * وقام في خـدمتـه النرجس

وا كثر مافيها من الثمرات والفوا كه الرمان والموز والتفاح وأما الاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ وفيها الورد والنرجس والنسرين والاينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الاخضر والاصفر وأما العنب والتين فقليل غال ولكثرة مايعصرون العنب في أرياف النيل لايصل منه الا القليل ومع هـذا فشراؤه عندهم في نهاية الغلاء وعامتها يشربون المزر الابيض المتخذ من القمح حتى ان القمح يطالع عندهم سعره بسببه فينادى المنادى من قبل الوالي بقطعه وكسر أوانيه ولا ينكر فيها اظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيـه من ذلك العجائب وربمـا وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الاحيان وهو ضيق عليـه في الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والخالعـة حتى ان المحتشمين والرؤساء لايجيزون العبور به فى مركب وللسرج في جانبيه بالليل منظرفتان وكثيرا مايتفرج فيه أهل الستر بالليل وفي ذلك أقول

لاتركبن في خليج مصر * الا اذا أسدل الظلام
فقـد علمت الذى عليه * من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أطلا * سـلاح مابينهم كلام
ياسـيدي لاتسر اليـه * الا اذا هوّم النيـام
والليل سـتر على التصابى * عليـه من فضله اثسام
والسرج قد بددت عليـه * منها دنانـير لاترام
وهو قد امتـد والمباني * عليه في خدمـة قيام
لله كم دوحـة جنينا * هناك اثمـارها الاثام

انتهى

وفيه تحامل كثير * وقال زكي الدين الحسين من رسالة كتبها من مصر في شهر رجب سنة اثنتين وسـتين وسبعمائة الى أخيـه وهو بدمشق يتشوق اليها ويذكر مافيها من المواضع والمتنزهات ويذم من مصر بقوله فكيف يبقى لمن حـل في جنـة النعيم ورياضها ويرتع في ميادين المسرات وغياضها تلفت الى من سلمته يد الاقدار الى أرض ليست بذات قرار وبدلوا بجنتهم ذات البان المتفاوح والورق المتصادح والنشر المتقادح والمـاء المطلق المسلسل والنسيم الصحيح العليل جنتين ذواتى أ كل خمط وأثل وشيء من سدر قليل وتقصدتهم يد القضاء

فأخذتهم بالبأساء والضراء وأوقعتهم بمصر وشموسها وحميمها وغمومها وحزونهـا ووعورها وحرورها وزفيرها وسعيرها وكيانها ونيرانها وسودائها وفلاحيها وملاحيها ومشاربها ومساربها ومسالـكها ومهالـكها وسخاتها وعصفورها وبوريها وعقورها ومخاوف نوروزها وحرارة تموزها ودارس طلولها ورائس اسطولهـا وتعكر مائها وتكدر هوائها فلو تراهم في أرجائها القصوى كالاباعر الهمل وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل * فأجابه من دمشق بكتاب من جملته على لسان دمشق كأنها تخاطبه ويا أيها الولد العزيز كيف سمحت فطرتك السليمة ومروءتك الكريمة وسيرتك المستقيمة وصبرك المحافظ ودينك المراقب الملاحظ بذم من جنيت نعمها وسكنت حرمها وقات مصر وشموسها وسقت عليها القول من كل جانب واستمرت لها التكدير حتى في المشارب والمسارب وهلا ذكرتها وقد باكرها نيل النعيم بغيثة بليل النسيم بكاس من تسنيمه وطما البحر عليها زاخرا فأغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه وعم معظم أرضها وعب عبابه في طولها وعرضها حتى كاد يعلو رفيع قصورها ويتسور بسورته شاخ سورها ومع ذا لا تراه جسورا على ضعاف جسورها قد طبق التهائم والانجاد وغرق الآكام والوهاد وعلا أعلى الصعيد والصعاد وأعاد البر سلطانه بحرا بالازدياد فاذا ارتوى أوام أكباد البـلاد وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد وذهب املاق الارض بكل ملقة وخليج وانجاب عنها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج بدت روضـة نضرة بأملاق مقطعة كزمردة خضراء بلآل مرصعة فكم من غدير مستدير كبدر منير ودقيق مستطيل كسيف صقيل وكم من قليب قلاب بمـاء كجلاب وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه وزهت بزهو نيلوفرها فعرفها بعرفه وكم ترى من ملقة لبقة عليها عيون النرجس محدقة كصحن خد عروس منمقة والنوار قد دارت بمدام الندى كؤوسه وجالت في مراح الافراح نفوسه ونجم نجمه وابتسم عروسه وسامره الرذاذ المنهل وباكره الطل فـكلله بلؤلؤه وقلده وزاره النسيم المعتل فأقامه وأقعـده ونمق أرضه وروضه فذهبه وفضضه قد تاهت برياضها الغناء وزهت بزخرفها وزينتها الحسناء وامتد بساطها الزمردي وانبسط مدادها الزبرجدى فلا يدرك أقصاه ناظر مسافر ولا يحيط بمنتهاه خيال ولا خاطر فلله درها من روضة مزن وكعبة حسن ومقطعات بماء غير آسن وحرم بحر لحجاج طيره آمن أتاها حجيج الطير من كل فج عميق ملبيا داعى حسنها من كل مكان سحيق قد امتطى ركبها متون الرياح وعلا جثمانها عالم الارواح ووصلن الادلاج بالصباح وقطعن اجناح الليل بخفاق الجناح كأنهن الدراري السوارى أو المنشآت الجوارى أو المطايا المهارى

تواصل من جو حوائض نيله * صعود على حكم الطريق نزول

رفاق تعاهدن على الوفاء وتحالفن على النعماء والبلاء خرجن مهاجرات من الاوطان ألوفا وقد من صافات كالمصلين صفوفا يقدمهن دليل كأنه امام قد قتل طرق الآفاق خبرا واستوى لديه الاضواء والاظلام أبصر من زرقاء اليمامه وأطير من الورقاء والحمامه وأهدى من النجم وأشد من السهم يتناجين بلغات أعجميات مسبحات بألحان مطربات فطفن في حرمها الآمن واعتمرن بتلك المحاسن فتراها عند اقبال نوّها وحومها في جوها ما تستقيم خطا مستقيما وان كانت تصعف صفا عظيما فمنها ما يستهل هلالا ومنها ما يحكي بنات نعش حالا ومنها ما ينثني بادلاله دالا ومنها ما يخط نونا نونا فيحكي حاجبا مقرونا ومنها ما يكتب زينا فيبدها عينا ومنها ما يصور ميم الهجاء فيشاهد مبسم السماء ومنها ما يأتي زرافات ووحدانا فيبدع في اعجابه حسنا واحسانا فكم من حبل أوز معلق بالسماء يحاق الى ذلك الماء وأوانس عريسات أنيسات كيسات وصور صور كأمثال حور وطير لغالغ مكتس بديباج مصبغ وجليل حبرج كعاج متوج وكركي عريض طويل كبير كبير جميل وغرير غر مغرر متغير وسبيطر شديد شويطر وكم ضخم الدسيعة جوّال ككوهي بالقوة المنيعة صوال ورخام مرزم كذي أمرة محتشم وجلالة نسر في الشائع الذائع والحاضر الواقع أبهى من النسر الطائر والواقع وعظم عقاب تم الحسن بحسنه وكل الصيد في ضمنه وكم من خضاري وحرمان وباشون وشهرمان صنوان وغير صنوان وكم من بط على شط وخاط وقطقط منقط وغروغرنوق وكرسوغ ممشوق ونورس مستأنس وقد امتلأت بهن الآفاق وتكللت بجو بهن الاملاق وشربن من جريا لها فأسكرهن الاصطباح والاغتباق فكم من مسود كخال بخد وأزرق كلاز ورد وأشقر كزهر ورد أحمر ناصع وأصفر فاقع وأبيض ذي خضاب عندمي بلطيف منقار بقمي ومبرقش ومبقع ومعمم ومقنع وأشقر منقش وأرقش مرشش وعودي وهندي وصيني مسني وعينين كياقوتتين قد رصعتا في لجين وكم من طائر ابهى من قمر سائر بفرق مثل صبح سافر فتراهن في الماء صموتا وقوفا صفوفا عكوفا كصور أصنام أو حجارة مبددة في آكام وكم من أطيار ظراف ملاح لطاف ذوات ألحان ونضرة وألوان وخلق وأخلاق ونطق وأطواق وايناس مع شماس قد ازدانت الارض بأصواتها واختلاف لغاتها وعجائب صفاتها فبرزت بأنواع الاعاجيب وتجلت بأجمل الجلابيب وابدعت في صور الاحسان وتصورت في بدائع الالوان فاذا بدت زرقاء في زهر كتانها مذهبة بأزهار لبسانها مفضضة بنجوم اقحوانها خلعت السماء عليها خلعة جميل اردانها واذا فاح نشر نوّار قرطها شممت المسك الذكي من مرطها ورأيت لآلئ سمطها مبسوطة على خضر بسطها ومغالاتها

بغالية نور فوطها وهزاتها اذا رفل النسيم في ذيولهـا قد رصت اغصانه بفصوص لجينها ونقطته من حسنها بسواد عينها فعيونه كعيون غزلانها في فنكها وأحداقه كاحداق ولدانها من تركها وكم لها من طرة معتبرة وجبهة منورة ووجنة مزعفرة وملاءة منشورة معصفرة وخد مورد وطرف مهند ولماها صيغ من عقيق الشقيق وسكرها من ذلك الريق على التحقيق واين بزوغ بشنينها وامتداد يقطينها وأين حلاوة عرائس نخلاتها وطلاوة أوانس قاماتها بمشابهتها في صفاتها وغرائس فسيلاتها وأين نضيد طلعها وحميد فرعها ومديد جذعها وفر جمارها عن غرة جمارها واخضرار أكمامها واحمرار اثمارها وبنان بسرها المطرف وبنان نشرها المشرف وانتظام سرورها بابتسام منثورها وورد واديها ومنحناها وندى ندها وتمرحناها وآس آسها وطيب طيب انفاسها وتبرجها باترجها وتبهرجها بنارنجها وتختمها بختمها وتبسمها عن بلسمها وتشقق أبرادها عن نهود كبادها وتضاعف أرجها بضعف بنفسجها وجلالة مقدارها اذا فتحت أزرارها عن جل نارها وطيب شميمها من اشمومها ونسيمها ووسميها بأوسيمها وجنان قليوبها وحرمان قليبها وأحواضها ببهنها ورياضها وطربتها بعطربتها ونفيس انسها بقسها وغريب غرسها ببلقسها وعظيم آسها بعحاق مقياسها وكريم تحيتها من قبل اليمن هبوب أنفاسها واجتماع أسعدها وارتفاع رصدها وسواقيها الحنانة في سجعها المتانة يسكبها من دمعها وجنة لوقها ولجة بولاقها وبركة فيلها من بركة نيلها وجزيرة ذهبها وقلعة الجزيرة بذهبها من عجبها حكت فلكها في بحرها واحكمت مملكتها في برها وعظم جلالها بقامة جبلها واعتلاء أعلامها ببناء أهرامها واذا نظرت الى سعود صعودها الى سعيد صعيدها واغتباطها بانحطاطها الى صوب سكندريتها ودمياطها ألهتك عن حسن الثريا ومناطها ولا تنس الجوارى المنشآت في البحر كالاعلام التي تسبق عند صباب الرياح مفوقات السهام واعجابها بغرباتها البحرية وحراقاتها الحربية وشوانيها وهول مبانيهـا وجلال شكلها وجمال معانيها تبدو موشـاة بالنضار الاحمر منقشة باللون الاخضر فهى كالارقم المنمر اوكتلون النمر او الطاوس الذكر او الناوس لبنى الاصفر معمرة ببأس الحديد والاحجار محمولة على سيح الماء التيار مشحونة بالرجال منصورة عنـد القتال مصونة بالمجن والنبال تبرز مذكرة بالآية النوحية وتضمن احراز الهمة العليـة الفتحية حصون امنع من اعز قلاع تطير اذا فتح لها جناح القلاع فتسبق وفد الريح عند الاسراع وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع فهن مع العقبان في النيق حوم وهن مع البنيان في البحر عوم لو اقسم من رآها ولو قال مشاهد مبناها ان الله نفخ فيها الروح فأحياها لبر في يمينه التى اقسم وتلاها وكم من مركب لحسنه معجب وكم من سفين قوى امين

وخضارى جليل وعشارى طويل ومسمارى طويل جميل وقستراوى عكاوى ولكة ودرمونه ومعدية مكينه وسلور دقيق وشختور رشيق وقرقور رقيق وزورق ذي زواريق وطريدة بخيل الطراد معمورة دهماء بحمل الجياد والاجناد مشهورة ومخلوف في الآفاق بالمعروف معروف وما احلى بنان رطبها المخضب ورشيق قامة قصبها المقصب وبهجة فوزها بطلح موزها وخضر أعلام اوراقها وصفر كرام اعلاقها فلا البلاغة تبلغ من احصاء فضلها مراما ولا الفصاحة تصوغ لوصف تشبيهها كلاما فنسأل الله تعالى أن يكنفها بركنه الذى لايرام ويحرسها بعينه التي لا تنام بمنه وكرمه * وقال الرئيس شهاب الدين احمد بن محيي الدين يحيي بن فضل الله العمرى كاتب السر

لمصر فضل باهر * بعيشها الرغد النضر
في كل سفح يلتقى * ماء الحياة والخضر

وقال ابراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق يتشوق الى مصر وقد خرج عنها في سنة ست وثمانين وثلثمائة من قصيدة

هل الريح ان سارت مشرقة تسرى * تؤدى تحياتي الى سا كنى مصر
فما خطرت الا بكيت صبابة * وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى
لانى اذا هبت قبولا بنشرهم * شممت نسيم المسك من ذلك النشر
فكم لى بالاهرام اودير نهية * مصايد غزلان المطايد والقفر
الى جيزة الدنيا وما قد تضمنت * جزيرتها ذات المواخر والجسر
وبالمقس والبستان للعين منظرة * انيق الى شاطي الخليج الى القصر
وفى بئر دوس مستراد وملعب * الى دير مرحنا الى ساحل البحر
فكم بين بستان الامير وقصره * الى البركة النضراء من زهر نضر
تراها كمرآة بدت في رفارف * من السندس الموشى تنشر للتجر
وكم ليلة لي بالقرافة خلتها * لما نلت من لذاتها ليلة القدر

وقال احمد بن رستم بن اسفهسلار الديلمي يخاطب الوزير نجم الدين ابا يوسف بن الحسين المجاور وتوفي فى رابع عشر ذى الحجة سنة احدى وعشرين وستمائة

حي الديار بشاطئ مقياسها * فالمقسم الفياح بين دهاسها
فالروضتين وقد تضوع عرفها * أرج البنفسج في غضارة آسها
فمنازل العين المنيفة أصبحت * يغنى سناها عن سنا نبراسها
نخليجها لذاته مطلوبة * تسمو محاسنه علا بأناسها
حافاته محفوفة بمنازل * نزلت بها الآرام دون كناسها

وقال العلامة جلال الدين محمد الشيرازى المعروف بإمام منكلي بغا

حيا الحيا مصرا وسكانها * وباكر الوسمي كثبانها
وجاد صوب المزن من ارضها * معاهد الانس وأوطانها
معاهد بالانس معمورة * لم انس مهما عشت احسانها
كم ايقظتني في ذرادوحها * عجماء لا تفقه ألحانها
وكم نعيم قد تخيلته * فيها وكم غازلت غزلانها
وعاينت عيني بها اغيدا * منعس المقلة وسنانها
تسحر بالتفتير ألحاظه * كأن من بابل شيطانها
وكم شجت قلبي بها غادة * قد كحلت بالغنج أجفانها
اذا دعت صبا الى حبها * لا يستطيع الصب عصيانها
وكم ليال لى بها قد مضت * تسحب بالاعجاب أردانها
والهف نفسي كيف شطت بها * حوادث قوضن بنيانها
فارقتها لاعن قلى صدنى * عنها فراق الروح جسمانها
واعتضت عن غزلانها والمها * نعاج جيرون وثيرانها
ياسائلى عن حالتي بعدها * ها أنا ذا أذكر عنوانها
ماحال من فارق اصحابه * وفارق الدنيا وجيرانها
تقلب فوق الجمر أحشاؤه * تؤجج الاشواق نيرانها
والعين لا تنفك من عبرة * ترسل فوق الخد طوفانها
يا سائق النوق يبث السرى * كمثل بث السحب تهتانها
حي ربا مصر وجناتها * وحورها العين وولدانها
ودورها الزهر وساحاتها * وبين قصريها وميدانها
وأرضها المخصب أرجاؤها * ونيلها الزاهى وخلجانها
والروضة الفيحاء تلك التى * تجلو عن الانفس احزانها
ومنية السيرج لا تنسها * وقرطها الاحوى وكتانها
والتاج والخمس وجوه التي * اضحت من الاعين انسانها
وحي يابرق وجد بالحيا * جزيرة الفيل وغيطانها
وبانها الغض ونسرينها * ووردها البكر وريحانها
وظلها الضافي وأزهارها * وماءها الصافى وغدرانها
والمعهد المأنوس من ربعها * وحي أهليها وسكانها .

لم أنس لا أنسى اصطباحي بها * ولا اغتباقاتي وابانها
ولا أويقات التصابي ولا * تلك الخلاعات وأزمانها
أيام لا انفك من صبوة * أهوى اللذاذات واعلانها
أخطرتها في رياض الصبا * مرنح الاعطاف كسلانها
وخيل لهوى في ميادينها * تجرجر الصبوة أرسانها
ودوحتي ناضرة غضة * تعطف ريح اللهو أغصانها
حاشاى أن أنقض عهدا لها * حاشاى أن أصبح خوانها
حاشاى أن أهجرها قاليا * حاشاى أن أحدث سلوانها
حاشاى أن أرضى بديلا بها * روابي الشام وقيعانها
وماءها الثج وحصباءها * وصخرها الصلد وصوانها
قد تاقت النفس الى الفها * وحنت الاشواق أظعانها
وادكرت في البعد أحبابها * فهيج التبريح أشجانها
وما لها غيرك من ملتجا * يا أوحد الدنيا وانسانها

﴿ ذكر ما قيل في مدة بقاء القاهرة ووقت خرابها ﴾

قال العارف محيي الدين محمد بن العربي الطائى الحاتمي في الملحمة المنسوبة اليه قاهرة تعمر في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة وتخرب سنة ثمانين وسبعمائة ووقفت لها على شرح لم أعرف تصنيف من هو فانه لم يسم في النسخة التي وقفت عليها وهو شرح لطيف قليل الفائدة فانه ترك كلام المصنف فيما مضى على ما هو معروف في كتب التاريخ ولم يبين مراده فيما يستقبل وكانت الحاجة ماسة الى معرفة ما يستقبل أكثر من المعرفة بحال ما مضى لكن أخبرني غير واحد من الثقات أنه وقف لهذه الملحمة على شرح كبير في مجلدين قال هذا الشارح كانت بداية عمارة القاهرة والنيران في شرفهما الشمس فى برج الحمل والقمر في برج الثور وهو برج ثابت قال فعمر القاهرة ومدتها أربعمائة واحدى وستون سنة قال فى الاصل واذا نزل زحل برج الجوزاء عزت الاقوات بمصر وقل أغنياؤهم وكثر فقراؤهم ويكون الموت فيهم ويخرج أهل برقة عن أوطانهم لاسيما اذا قارن زحل الجوزهر فان الحال يكون أشد وأقوى قال الشارح كان ذلك في سنة أربع وستين وستمائة في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فانه نزل زحل برج الجوزاء فوقع الغلاء وفي آخر سنة أربع وأول سنة خمس وتسعين وستمائة في أيام الملك العادل كتبغا حل زحل في برج الجوزاء وكان معه الجوزهر فكانت أشد وأقوى وكثر الغلاء والوباء قال سئل المعز عن الترك ماهم فقال قوم مسلمون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الحدود والواجبات ويقاتلون في سبيل الله

أعداء الله فقيل له أتطول مدتهم قال لاتطول مدتهم قيل فكيف يكون زوالهم قال يكون هكذا وكان الى جانبه طبق كيزان فحرّكه حركة شديدة فتكسرت الكيزان فقال هكذا يكون زوالهم يقتل بعضهم بعضا قال

احذر بني من القران العاشر * وارحل بأهلك قبل نقر الناقر

قال الشارح أول القران العاشر في سنة خمس وثمانين وسبعمائة وفيه تكون حالات رديئة بأرض مصر وهذا يوافق مافي القول عن القاهرة وتخرب في سنة خمس وثمانين وسبعمائة يعنى بداية انحطاطها من سنة خمس وثمانين وسبعمائة التي فيها القران العاشر ويثبت في عشرين سنة التي هى أيام القران وقد ذكر في الربع الآخر أربعمائة واحدى وستين سنة وقد تخيلت انها مدة عمر القاهرة فاذا زدتها على تاريخ عمارتها بلغ ذلك ثمانمائة وتسع عشرة سنة وفي ذلك الوقت يكون زوالها وهو مابين سنة ثمانين وسبعمائة الى سنة تسع عشرة وثمانمائة ويكون ذلك سببه قحط عظيم وقلة خير وكثرة شر حتى تخرب ويضعف أهلها قال قران زحل والمريخ في برج الجدى يكون في سنة سبعين وسبعمائة فتعد لكل مائة سنة من سنى الهجرة ثلاث سنين فيكون ثلاثا وعشرين سنة تزيدها على سبعمائة وسبعين سنة تبلغ سبعمائة وثلاثا وتسعين سنة ففى مثلها من سنى الهجرة يكون أول أوقات خراب القاهرة انتهى * وتهذيب هذا القول أن زحل كلما حل برج الجوزاء اتضعت أحوال مصر وقلت أموالهم وكثر الغلاء والفناء عندهم بحسب الاوضاع الفلكية وزحل يحل فى برج الجوزاء كل ثلاثين سنة شمسية فيقيم فيه نحوا من ثلاثين شهرا وانت اذا اعتبرت أمور العالم وجدت الحال كما ذكرنا فانه كلما حل زحل برج الجوزاء وقع الغلاء بمصر وذكر ان القران العاشر تتضع فيه أحوال القاهرة ورأينا الامر كما ذكرنا فان القران العاشر كان فى سنة ست وثمانين وسبعمائة ومدة سنيه عشرون سنة شمسية آخرها سابع عشر رجب سنة سبع وثمانمائة وفى هذه المدة اتضع حال القاهرة وأهلها اتضاعا قبيحا ومن الاوقات المحذورة لها أيضا اقتران زحل والمريخ فى برج السرطان ويكون ذلك فى كل ثلاثين سنة شمسية ويقترنان فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة وفى مدته تنقضى الاربعمائة والاحدى والستون سنة التي ذكر أنها عمر القاهرة فى سنة تسع عشرة وثمانمائة وشواهد الحال اليوم تصدق ذلك لما عليه أهل القاهرة الآن من الفقر والفاقة وقلة المال وخراب الضياع والقرى وتداعى الدور للسقوط وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة واختلاف أهل الدولة وقرب انقضاء مدتهم وغلاء سعر الاسعار ولقد سمعت عمن يرجع اليه فى مثل ذلك أن العمارة تنتقل من القاهرة الى بركة الحبش فيصير هنالك مدينة والله تعالى أعلم

﴿ ذكر مسالك القاهرة وشوارعها على ماهي عليه الآن ﴾

وقبل أن نذكر خطط القاهرة فلنبتدئ بذكر شوارعها ومسالكها المسلوك منها الى الازقة والحارات لتعرف بها الحارات والخطط والازقة والدروب وغير ذلك مما ستقف عليه ان شاء الله تعالى * فالشارع الاعظم قصبة القاهرة من باب زويلة الى بين القصرين عليه باب الخرنفش أو الخرنشف ومن باب الخرنفش يتفرق من هنالك طريقان ذات اليمين ويسلك منها الى الركن المخلق ورحبة باب العيد الى باب النصر وذات اليسار ويسلك منها الى الجامع الاقمر والى حارة برجوان الى باب الفتوح فاذا ابتدأ السالك بالدخول من باب زويلة فانه يجد يمنة الزقاق الضيق الذي يعرف اليوم بسوق الحاميين وكان قديما يعرف بالخشابين ويسلك من هذا الزقاق الى حارة الباطلية وخوخة حارة الروم البرانية ثم يسلك الداخل أمامه فيجد على يسرته سجن متولى القاهرة المعروف بخزانة شمايل وقيسارية سنقر الاشقر ودرب الصفيرة ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته حمام الفاضل المعدة لدخول الرجال وعلى يسرته تجاه هذه الحمام قيسارية الامير بهاء الدين رسلان الدوادار الناصرى الى أن ينتهى بين الحوانيت والرباع فوقها الى بابى زويلة الاول ولم يبق منهما سوى عقد أحدهما ويعرف الآن بباب القوس ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه الى سوق الحدادين والحجارين المعروف اليوم بسوق الانماطيين وسكن الملاهي والى المحمودية والى سوق الاخفافيين وحارة الجودرية والصوافين والقصارين والنحاسين وغير ذلك ويجد تجاه هذا الزقاق عن يمينه المسجد المعروف قديما بابن البناء وتسميه العامة الآن بسام بن نوح وهو فى وسط سوق الغرابليين والمناخليين ومن معهم من الضببيين ثم يسلك أمامه فيجد سوق السراجين ويعرف اليوم بالشوّايين وفي هذا السوق على يمينه الجامع الظافرى المعروف بجامع الفكاهين وبجانبه الزقاق المسلوك منه الى حارة الديلم وسوق القفاصين وسوق الطيوريين والاكفانيين القديمة المعروفة الآن بسكنى دقاق الثياب ويجد على يسرته الزقاق المسلوك منه الى حارة الجودرية ودرب كركامة ودكة الحسبة المعروفة قديما بسوق الحدادين وسوق الوراقين القديمة والى سوق الفاميين المعروف اليوم بالابازرة والى غير ذلك ثم يسلك أمامه الى سوق الحلاويين الآن فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الكعكيين المعروف قديما بالقطانين وسكنى الاساكفة والى بابى قيسارية جهاركس وعن يسرته قيسارية الشرب ثم يسلك أمامه الى سوق الشرابشيين المعروف قديما بسكن الحالقيين وعن يمنته درب قيطون ثم يسلك أمامه شاقا في سوق الشرابشيين فيجد عن يمنته قيسارية أمير على ويجد عن يسرته سوق الجملون الكبير المسلوك فيه الى قيسارية ابن قريش والى سوق العطارين والوراقين والى سوق الكفتيين والصيارف والاخفافيين والى بئر زويلة والبندقانيين والى غير ذلك ثم يسلك أمامه

فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الفرايين الآن وكان يعرف أولا بدروب البيضاء والى درب الاسواني والى الجامع الازهر وغير ذلك ويجد عن يسرته قيسارية بني اسامة ثم يسلك أمامه شاقافي سوق الجوخيين واللجميين فيجد عن يمينه قيسارية السروج وعن يسرته قيسارية (٣) ثم يسلك أمامه الى سوق السقطيين والمهامزيين فيجدعن يمينه درب الشمسي ويقابله باب قيسارية الامير علم الدين الخياط وتعرف اليوم بقيسارية العصفر ثم يسلك أمامه شاقافي السوق المذكور فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق القشاشين وعقبة الصباغين المعروف اليوم بالخراطين والى سوق الخيميين والى الجامع الازهر وغير ذلك ويجد قبالة هذا الزقاق عن يسرته قيسارية العنبر المعروفة قديما بحبس المعونة ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه الى سوق الوراقين وسوق الحريريين الشرابيين المعروف قديما بسوق الصاغة القديمة والى درب شمس الدولة والى سوق الحريريين والى بئر زويلة والبندقانيين والى سويقة الصاحب والحارة الوزيرية والى باب سعادة وغير ذلك ثم يسلك أمامه شاقافي بعض سوق الحريريين وسوق المتعيشين وكان قديما سكنى الدجاجين والكعكيين وقبل ذلك أولا سكنى السيوفيين فيجد عن يمينه قيسارية الصنادقيين وكانت قديما تعرف بفندق الدبابليين ويجد عن يسرته مقابلها دار المأمون البطائحي المعروفة بمدرسة الحنفية ثم عرفت اليوم بالمدرسة السيوفية لانها كانت فى سوق السيوفيين ثم يسلك أمامه في سوق السيوفيين الذي هو الآن سوق المتعيشين فيجدعن يمينه خان مسرور وحجرتي الرقيق ودكة المماليك بينهما ولم تزل موضعاً لجلوس من يعرض من المماليك الترك والروم ونحوهم للبيع الي أوائل أيام الملك الظاهر برقوق ثم بطل ذلك ويجدعن يسرته قيسارية الرماحين وخان الحجر ويعرف اليوم هذا الخط بسوق باب الزهومة ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته الزقاق والساباط المسلوك فيه الى حمام خشيبة ودرب شمس الدولة والى حارة العدوية المعروفة اليوم بفندق الزمام والى حارة زويلة وغير ذلك ويجد بعد هذا الزقاق قريباً منه في صفه درب السلسلة ومن هنا ابتداء خط بين القصرين وكان قديماً في أيام الدولة الفاطمية مراحا واسعاً ليس فيه عمارة ألبتة يقف فيه عشرة آلاف فارس والقصران هما موضع سكنى الخليفة أحدهما شرقي وهو القصر الكبير وكان على يمنة السالك من موضع خان مسرور طالبا باب النصر وباب الفتوح وموضعه الآن المدارس الصالحية النجمية والمدرسة الظاهرية الركنية ومافي صفها من الحوانيت والرباع الى رحبة العيد وما وراء ذلك الى البرقية ويقابل هذا القصر الشرقي القصر الغربي وهو القصر الصغير ومكانه الآن المارستان المنصوري وما في صفه من المدارس والحوانيت الي تجاه باب الجامع الاقمر فاذا ابتدأ السالك بدخول بين القصرين من جهة خان مسرور فانه يجد على يسرته درب السلسلة ثم يسلك أمامه فيجد

على يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الامشاطيين المقابل لمدرسة الصالحية التي للحنفية والحنابلة والى الزقاق الملاصق لسور المدرسة المذكورة المسلوك فيه الى خط الزراكشة العتيق حيث خان الخليلي وخان منجك والى الخوخ السبع حيث الآن سوق الابارين والى الجامع الازهر والى المشهد الحسيني وغير ذلك ثم يسلك أمامه شاقاً في سوق السيوفيين الآن فيجد على يساره دكاكين السيوفيين وعلى يمينه دكاكين النقليين ظاهر سوق الكتبيين الآن وعلى يساره سوق الصيارف برأس باب الصاغة وكان قديماً مطبخ القصر قبالة باب الزهومة ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه باب المدارس الصالحية تجاه باب الصاغة ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه القبة الصالحية وبجوارها المدرسة الظاهرية الركنية ويجد على يساره باب المارستان المنصوري وفي داخله القبــة المنصورية التي فيها قبور الملوك وتحت شبابيكها دكاك القفصيات التي فيها الخواتيم ونحوها فيما بين القبــة المذكورة والمدرسة الظاهرية المذكورة وفي داخله أيضا المدرسة المنصورية وتحت شبابيكها أيضا دكاك القفصيات فيما بين شبابيكها وشبابيك المدرسة الصالحية التي للشافعية والمالكية وتحتها خيمة الغلمان بجوار قبة الصالح وفي داخله أيضا المارستان الكبير المنصوري المتوصل من باب سره الى حارة زويلة والى الخرنشف والى الكافوري والى البندقانيين وغير ذلك ثم يسلك من باب المارستان فيجد على يمنته سوق السلاح والنشابين الآن تحت الربع المعروف بوقف أمير سعيد ويجد على يسرته المدرســة الناصرية الملاصقة لمئذنة القبة المنصورية ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته خان بشتاك وفوقه الربع وعرف الآن هذا الخان بالمستخرج ويجد على يسرته المدرسة الظاهرية الجديدة بجوار المدرسة الناصرية وكانت قبل انشائها مدرسة فندقا يعرف بخان الزكاة ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته باب قصر بشتاك ويجد على يسرته المدرســة الكاملية المعروفة بدار الحديث وهي ملاصقة للمدرســة الظاهرية الجديدة ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته الزقاق المسلوك فيــه الى بيت أمير سلاح المعروف بقصر أمير سلاح وهو الامير فخر الدين بكتاش الفخري الصالحي النجمي والى دار الامير سلار نائب السلطنة والى دار الطواشي سابق الدين ومدرسته التي يقال لها المدرسة السابقية وكان في داخل هذا الزقاق مكان يتوصل اليه من تحت قبو المدرسة السابقية يعرف بالسودوس فيه عدة مساكن صارت كلها اليوم دارا واحدة انشاء الامير جمال الدين الاستادار وكان تجاه باب المدرســة السابقية ربع تحته فرن ومن ورائه عــدة مساكن يعرف مكانها بالحدرة فهدم الامير جمال الدين المذكور الربع وما وراءه وحفر فيه صهريجا وأنشأ به عدة آدر هي الآن جارية في أوقافه وكان يسلك من باب السابقيــة على باب الربع والفــرن المذكور الى دهلــيز طويل مظلم ينتهي الى باب القصر تجاه سور ســعيد السعداء ومنــه يخرج السالك الى رحبة باب العيــد والى الركن المخلق فهدمه الامير جمال الدين وجعل

مكانه قيسارية وركب على رأس هذا الزقاق تجاه حمام البيسرى دربا في داخله دروب ليصون أمواله وانقطع التطرق من هذا الزقاق وصار دربا غير نافذ ويجد السالك عن يسرته قبالة هذا الزقاق وصار دربا مدربا باب قصر البيسرية وقد بني في وجهه حوانيت بجانبيها حمام البيسري ومن هنا ينقسم شارع القاهرة المذكور الى طريقين احداهما ذات اليمين والاخرى ذات اليسار فأما ذات اليسار فانها تمة القصبة المذكورة فاذا مر السالك من باب حمام الامير بيسري فانه يجد على يسرته باب الخرنشف المسلوك فيه الى باب سر البيسرية والى باب حارة برجوان الذي يقال له أبو تراب والى الخرنشف واصطبل القطبية والى الكافورى والى حارة زويلة والى البندقانيين وغير ذلك ثم يسلك أمامه فيجد سوقا يعرف أخيراً بالوزازين والدجاجين يباع فيه الاوز والدجاج والعصافير وغير ذلك من الطيور وأدركناه عامراً سوقا كبيراً من جملته دكان لايباع فيها غير العصافير فيشتريها الصغار للعب بها وفى هذا السوق على يمنة السالك قيسارية يعلوها ربع كانت مدة سوقا يباع فيه الكتب ثم صارت لعمل الجلود وكانت من جملة أوقاف المارستان المنصوري فهدمها بعض من كان يحدث في نظره عن الامير ايتمش في سنة احدى وثمانمائة وعمرها على ماهي عليه الآن وعلى يسرة السالك في هذا السوق ربع يجرى في وقف المدرسة الكاملية وكان هذا السوق يعرف قديماً بالتبانين والقماحين ثم يمر سالكا أمامه فيجد سوق الشماعين متصلا بسوق الدجاجين وكان سوقا كبيراً فيه صفان عن اليمين والشمال من حوانيت باعة الشمع أدركته عامراً وقد بقي منه الآن يسير وفي آخر هذا السوق على يمنة السالك الجامع الاقمر وكان موضعه قديماً سوق القماحين وقبالته درب الخضري وبجانب الجامع الاقمر من شرقيه الزقاق الذي يعرف بالمحايريين ويسلك فيه الى الركن المخلق وغيره وقبالة هذا الزقاق بئر الدلاء ثم يسلك المار أمامه فيجد على يمنته زقاقا ضيقاً ينتهي الى دور ومدرسة تعرف بالشرابشية يتوصل من باب سرها الى الدرب الاصفر تجاه خانقاه بيبرس ثم يسلك أمامه فى سوق المتعيشين فيجد على يسرته باب حارة برجوان ثم يسلك أمامه شاقا في سوق المتعيشين وقد أدركته سوقا عظيماً لايكاد يعدم فيه شيء مما يحتاج اليه من المأكولات وغيرها بحيث اذا طلب منه شيء من ذلك في ليل أو نهار وجد وقد خرب الآن ولم يبق منه الا اليسير وكان هذا السوق قديماً يعرف بسوق أمير الجيوش وبآخره خان الرواسين وهو زقاق على يمنة السالك غير نافذ ويقابل هذا الزقاق على يسرة السالك الى باب الفتوح شارع يسلك فيه الى سوق يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش وكان قبل اليوم يعرف بسوق الخروقيين ويسلك من هذا السوق الى باب القنطرة في شارع معمور بالحوانيت من جانبيه ويعلوها الرباع وفيما بين الحوانيت دروب ذات مساكن كثيرة ثم يسلك أمامه من رأس سويقة أمير الجيوش فيجد على يمينه الجملون

الصغير المعروف بجملون ابن صيرم وكان مسكناً للبزازين فيه عدة حوانيت عامرة باصناف الثياب أدركتها عامرة وفيه مدرسة ابن صيرم المعروفة بالمدرسة الصيرمية وفي آخره باب زيادة الجامع الحاكمي وكان على بابها عدة حوانيت تعمل فيها الضبب التي برسم الابواب ويخرج من هذا الجملون الى طريقين احداها يسلك فيها الى درب الفرنجية والى دار الوكالة وشارع باب النصر والاخرى الى درب الرشيدى النافذ الى درب الجوّانية ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته شباك المدرسة الصيرمية ويقابله باب قيسارية خوندادركين الاشرفية ثم يسلك أمامه شاقا في سوق المرحلين وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع مايحتاج اليه في ترحيل الجمال وقدخرب وبقي منه قليل وفي هذا السوق على يسرة السالك زقاق يعرف بحارة الورّاقة وفيه أحد أبواب قيسارية خوند المذكورة وعدة مساكن وكان مكانه يعرف قديماً باصطبل الحجرية ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته أحد أبواب الجامع الحاكمي وميضأته ويجد باب الفتوح القديم ولم يبق منه سوى عقدته وشئ من عضادته وبجواره شارع على يسرة السالك يتوصل منه الى حارة بهاء الدين وباب القنطرة ثم يسلك أمامه شاقا في سوق المتعيشين فيجد على يمينه بابا آخر من أبواب الجامع الحاكمي ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته زقاقا بساباط ينفذ الى حارة بهاء الدين فيه كثير من المساكن ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه باب الجامع الحاكمي الكبير ويجد عن يساره فندق العادل ويشق فى سوق عظيم الى باب الفتوح وهو آخر قصبة القاهرة وأما ذات اليمين من شارع بين القصرين فان المار اذا سلك من الدرب الذى يقابل حمام البيسرى طالباً الركن المخلق فانه يشق في سوق القصاصين وسوق الحصريين الى الركن المخلق ويباع فيه الآن النعال وبه حوض في ظهر الجامع الاقمر لشرب الدواب تسميه العامة حوض النبي ويقابله مسجد يعرف بمراكع موسى وينتهي هذا السوق الى طريقين احداها الى بئر العظام التي تسميها العامة بئر العظمة ومنها ينقل الماء الى الجامع الاقمر والحوض المذكور بالركن المخلق ويسلك منه الى المحايريين والطريق الاخرى تنتهي الى الفندق المعروف بقيسارية الجلود ويعلوها ربع أنشأت ذلك خوند بركة أم الملك الاشرف شعبان بن حسين وبجوار هذه القيسارية بوابة عظيمة قد سترت بحوانيت يتوصل منها الى ساحة عظيمة هي من حقوق المنحر كانت خوند المذكورة قد شرعت في عمارتها قصراً لها ففاتت دون اكماله ثم يسلك أمامه فيجد الرباع التى تعلو الحوانيت والقيسارية المستجدة فى مكان باب القصر الذى كان ينتهي الى مدرسة سابق الدين وبين القصرين وكان أحد أبواب القصر ويعرف بباب الريح وهذه الرباع والقيسارية من جملة انشاء الامير جمال الدين الاستادار وكانت قبله حوانيت ورباعا فهدمها وأنشأها على ماهي عليه اليوم ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه مدرسة الامير جمال الدين المذكور وكان موضعها خانا وظاهره

حوانيت فبنى مكانها مدرسة وحوضاً للسبيل وغير ذلك ويقال لهـذه الاماكن رحبة باب العيد ويسلك منها الى طريقين احداهما ذات اليمين والاخرى ذات اليسار فأما ذات اليمين فانها تنتهي الى المدرسة الحجازية والى درب قراصيا والى حبس الرحبة والى درب السلامى المسلوك منه الى باب العيد الذى تسميه العامة بالقاهرة والى المارستان العتيق والى قصر الشوك ودار الضرب والى باب سر المدارس الصالحية والى خزانة البنود ويسلك من رأس درب السلامى هذا في رحبة باب العيد الى السفينة وخط خزانة البنود ورحبة الايدمري والمشهد الحسيني ودرب الملوخيا والجامع الازهر والحارة الصالحية والحارة البرقية الى باب البرقيـة والباب المحروق والباب الجديد وأما ذات اليسار من رحبة باب العيد فان المار يسلك من باب مدرسة الامير جمال الدين الى باب زاوية الخدام الى باب الخانقاه المعروفة بدار سعيد السعداء فيجد عن يمينه زقاقا بجوار سور دار الوزارة يسلك فيـه الى خرائب تتر والى خط الفهادين والى درب ملوخيا وغير ذلك ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه المدرسة القراسنقرية وخانقـاه ركن الدين بيبرس وهما من جملة دار الوزارة وما جاور الخانقاه الى باب الجوانية وتجاه خانقاه بيبرس الدرب الاصفر وهو المنحر الذى كانت الخلفاء تنحر فيه الاضاحي ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته دار الامير قزمان بجوار خانقاه بيبرس وبجوارهما دار الامير شمس الدين سنقر الاعسر الوزير وقد عرفت الآن بدار خوند طولوباى زوجة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وبجوارها حمام الاعسر المذكور وجميع هذا من دار الوزارة ويجد على يسرته درب الرشيدى تجاه حمام الاعسر المسلوك فيـه الى درب الفرنجية وجملون ابن صيرم ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الشارع المسلوك فيه الى الجوانية والى خط الفهادين والى درب ملوخيا والى العطوفية وقد خربت هذه الاماكن ويجد على يسرته الوكالة المستجدة من انشاء الملك الظاهر برقوق ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته زقاقا يسلك فيه الى جملون ابن صيرم والى درب الفرنجية ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته دار الامير شهاب الدين احمد ابن خالة الملك الناصر محمد بن قلاوون ودار الامير علم الدين سنجر الجاولي وهما من حقوق الحجر التي كانت بها مماليك الخلفاء وأجنادهم ويجد على يسرته وكالة الامير قوصون ثم يسلك من باب الوكالة فيجد مقابل باب قاعة الجاولي خان الجاولي وبعدها باب النصر القديم وأدركت فيه قطعة كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى وقد زال ويسلك منه الى رحبة الجامع الحاكمي فيجد على يمنته المدرسة القاصدية وعلى يسرته بابى الجامع الحاكمي وتجاه أحدهما الشارع المسلوك فيـه الى حارة المبدانية وحارة العطوفية وغير ذلك ومن باب الجامع الحاكمي ينتهي الى باب النصر فيما بين حوانيت ورباع ودور فهذه صفة القاهرة الآن . وستقف ان شاء الله تعـالى على

كيفية ابتداء وضع هذه الاماكن وما صارت اليه وذكر التعريف بمن نسبت اليه أو عرفت به على ما التقطت ذلك من كتب التواريخ ومجامع الفضلاء ووقفت عليه بخطوط الثقاة وأخبرني بذلك من أدركته من المشيخة وما شاهدته من ذلك سالكا فيه سبيل التوسط في القول بين الاكثار والاختصار والله الموفق بمنه وكرمه لا اله غيره

ذكر سور القاهرة

اعلم أن القاهرة مذ أسست عمل سورها ثلاث مرات الاولى وضعه القائد جوهر والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام الخليفة المستنصر والمرة الثالثة بناه الامير الخصي بهاء الدين قراقوش الاسدى في سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول ملوك القاهرة * السور الاول كان من لبن وضعه جوهر القائد على مناخه الذى نزل به هو وعساكره حيث القاهرة الآن فأداره على القصر والجامع وذلك انه لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعساكره وقصد الى مناخه الذى رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح المصريون يهنونه فوجدوه قد حفر الاساس في الليل فأدار السور اللبن وسماها المنصورية الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها فسماها القاهرة ويقال في سبب تسميتها ان القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الاساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا فاختاروا طالعاً لوضع الاساس وطالعاً لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس وقالوا للعمال اذا تحركت الاجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون القاهر فى الطالع فمضى ذلك وفاتهم ماقصدوه ويقال ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة واقتضى نظرهم انها لا تزال تحت القهر وأدخل في دائر هذا السور بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز وعمر القصر بترتيب ألقاه اليه المعز ويقال ان المعز لما رأى القاهرة لم يعجبه مكانها وقال لجوهر لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل كان ينبغي عمارتها بهذا الجبل يعني سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد المشرف على جامع راشدة ورتب في القصر جميع ما يحتاج اليه الخلفاء بحيث لا تراهم الأعين في النقلة من مكان الى مكان وجعل في ساحاته البحرة والميدان والبستان وتقدم بعمارة المصلى بظاهر القاهرة

وقد أدركت من هذا السور اللبن قطعا وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط هدمها شخص من الناس فى سنة ثلاث وثمانمائة فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمننا حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان وكان بعيداً عن السور الحجر الموجود الآن وبينهما نحو الخمسين ذراعا وما أحسب انه بقى الآن من هذا السور اللبن شئ *(وجوهر) هذا مملوك رومى رباه المعز لدين الله أبو تميم معد وكناه بأبي الحسن وعظم محله عنده في سنة سبع وأربعين وثلثمائة وصار في رتبة الوزارة فصيره قائد جيوشه وبعثه في صفر منها ومعه عساكر كثيرة فيهم الامير زيرى بن مناد الصنهاجي وغيره من الاكابر فسار الى تاهرت وأوقع بعدة أقوام وافتتح مدناً وسار الى فاس فنازلها مدة ولم ينل منها شيئاً فرحل عنها الى سجلماسة وحارب تاثرا فاسره بها وانتهى فى مسيره الى البحر المحيط واصطاد منه سمكا وبعثه في قلة ماء الى مولاه المعز وأعلمه انه قد استولى على ما مر به من المدائن والامم حتى انتهى الى البحر المحيط ثم عاد الى فاس فألح عليها بالقتال الى أن أخذها عنوة وأسر صاحبها وحمله هو والتاثر بسجلماسة في قفصين مع هدية الى المعز وعاد في أخريات السنة وقد عظم شانه وبعد صيته ثم لما قوى عزم المعز على تسيير الجيوش لاخذ مصر وتهيأ أمرها فقدم عليها القائد جوهرا وبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديه أكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه في كل يوم ويخلو به وأطلق يده فى بيوت أمواله فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه وخرج اليه يوما فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلن الى مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا وأمر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر أهل الدولة أن يمشوا في خدمته وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجله ومشيه في ركابه بخمسين الف دينار ذهبا فأبى جوهر الا أن يمشي في ركابه ورد المال فمشى ولما رحل من القيروان الى مصر في يوم السبت رابع عشر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة أنشد محمد بن هاني في ذلك

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع * وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سد بمثله * فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ ودعت كيف أودع * ولم أدر اذ شيعت كيف أشيع

الا ان هـذا حشد من لم يذق له * غرار الكرى جفن ولابات يهجع
اذا حل في ارض بناها مدائنا * وان سار عن ارض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله * وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله اذ بدا * وظل السلاح المنتضي يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله * ورق كمارق الصباح الملمع
رحلت الى الفسطاط أول رحلة * بأيمن فال بالذى انت تجمع
فان يك في مصر ظماء لمورد * فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغار بنعمة * فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

ولما دخل الى مصر واختط القاهرة وكتب بالبشارة الى المعز قال ابن هاني

تقول بنو العباس قد فتحت مصر * فقل لبني العباس قد قضي الامر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر * تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

ولم يزل معظما مطاعا وله حكم ما فتح من بلاد الشام حتى ورد المعز من المغرب الى القاهرة وكان جعفر بن فلاح يرى نفسه أجل من جوهر فلما قدم معه الى مصر سيره جوهر الى بلاد الشام في العساكر فاخذ الرملة وغلب الحسن بن عبد الله بن طفيج وسار فملك طبرية ودمشق فلما صارت الشام له شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر فأنفذ كتبه من دمشق الى المعز وهو بالمغرب سرا من جوهر يذكر فيها طاعته ويقع في جوهر ويصف ما فتح الله للمعز على يده فغضب المعز لذلك ورد كتبه كما هي مختومة وكتب اليه قد أخطأت الرأى لنفسك نحن قد انفذناك مع قائدنا جوهر فاكتب اليه فما وصل منك الينا على يده قرأناه ولا تجاوزه بعد فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى اردته وان كنت اهلا عندنا ولكننا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا فزاد غضب جعفر بن فلاح وانكشف ذلك لجوهر فلم يبعث ابن فلاح لجوهر يسأله نجدة خوفا أن لا يجده بعسكر وأقام مكانه لا يكاتب جوهرا بشيء من أمره الى أن قدم عليه الحسن بن احمد القرمطى وكان من أمره ما قد ذكر في موضعه * ولما مات المعز واستخلف من بعده ابنه العزيز وورد الى دمشق هفتكين الشرابي من بغداد ندب العزيز بالله جوهرا القائد الى الشام فخرج اليها بخزائن السلاح والاموال والعساكر العظيمة فنزل على دمشق لثمان بقين من ذى القعدة سنة خمس وستين وثلثمائة فأقام عليها وهو يحارب اهلها الى أن قدم الحسن بن احمد القرمطى من الاحساء الى الشام فرحل جوهر في ثالث جمادى الاولى سنة ست وستين فنزل على الرملة والقرمطى في أثره فهلك وقام من بعده جعفر القرمطى فحارب جوهرا واشتد الامر على جوهر وسار الى عسقلان وحصره هفتكين بها حتى بلغ من الجهد مبلغا عظيما فصالح هفتكين وخرج

من عسقلان الى مصر بعد أن أقام بها وبظاهر الرملة نحوا من سبعة عشر شهرا فقدم على العزيز وهو يريد الخروج الى الشام فلما ظفر العزيز بهفتكين واصطنعه في سنة ثمانين وثلثمائة واصطنع منجوتكين التركي أيضاً أخرجه راكبا من القصر وحده في سنة إحدى وثمانين والقائد جوهر وابن عمار ومن دونهما من أهل الدولة مشاة في ركابه وكانت يد جوهر في يد ابن عمار فزفر ابن عمار زفرة كاد أن ينشق لها وقال لا حول ولا قوة الا بالله فنزع جوهر يده منه وقال قد كنت عندى يا أبا محمد أثبت من هذا فظهر منك انكار في هذا المقام لاحدثنك حديثا عسى يسليك عما انت فيه والله ما وقف على هذا الحديث احد غيرى لما خرجت الى مصر وأنفذت الى مولانا المعز من اسرته ثم حصل في يدي آخرون اعتقلتهم وهم نيف على ثلثمائة اسير من مذكوريهم والمعروفين فيهم فلما ورد مولانا المعز الى مصر أعلمته بهم فقال اعرضهم على واذكر في كل واحد حاله ففعلت وكان في يده كتاب مجلد يقرأ فيه فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة وأقدمه اليه وأقول هذا فلان ومن حاله وحاله فيرفع رأسه وينظر اليه ويقول يجوز ويعود الى قراءة ما في الكتاب حتى احضرت له الجماعة وكان آخرهم غلاما تركيا فنظر اليه وتأمله ولما ولى أتبعه بصره فلما لم يبق أحد قبلت الارض وقلت يا مولانا رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه فقال يا جوهر يكون عندك مكتوما حتى ترى انه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتفق له فتوحات عظيمة في بلاد كثيرة ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره وأنا أظن انه ذاك الذي قال لى مولانا المعز ولا علينا اذا فتح الله لموالينا على ايدينا او على يد من كان يا أبا محمد لكل زمان دولة ورجال أريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا لقد أرجل لى مولانا المعز لما سرت الى مصر أولاده واخوته وولي عهده وسائر أهل دولته فتعجب الناس من ذلك وها أنا اليوم أمشي رجلا بين يدى منجوتكين أعزونا وأعزوا بنا غيرنا وبعد هذا فأقول اللهم قرب أجلى ومدتى فقد انفت على الثمانين أو أنا فيها فمات في تلك السنة وذلك أنه اعتل فركب اليه العزيز بالله عائدا وحمل اليه قبل ركوبه خمسة آلاف دينار ومرتبة مثقل وبعث اليه الامير منصور بن العزيز بالله خمسة آلاف دينار وتوفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى القعدة سنة احدى وثمانين وثلثمائة فبعث اليه العزيز بالحنوط والكفن وأرسل اليه الامير منصور بن العزيز أيضاً الكفن وأرسلت اليه السيدة العزيزية الكفن فكفن فى سبعين ثوبا ما بين مثقل ووشى مذهب وصلى عليه العزيز بالله وخلع على ابنه الحسين وحمله وجعله في مرتبة ابيه ولقبه بالقائد ابن القائد ومكنه من جميع ما خلفه ابوه وكان جوهر عاقلا محسنا الى الناس كاتبا بليغا فمن مستحسن توقيعاته على قصة رفعت اليه بمصر سوء الاجترام . أوقع بكم حلول الانتقام . وكفر الانعام . أخرجكم

من حفظ الذمام . فالواجب فيكم ترك الايجاب . واللازم لكم ملازمة الاحتساب . لانكم بدأتم فأسأتم . وعدتم فتعديتم . فابتداؤكم ملوم . وعودكم مذموم . وليس بينهما فرجة الا تقتضي الذم لكم . والاعراض عنكم . ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم . ولما مات رثاه كثير من الشعراء (السور الثاني) بناه أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ثمانين وأربعمائة وزاد فيه الزيادات التي فيما بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير وفيما بين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن وزاد عند باب النصر أيضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الآن الى باب النصر وجعل السور من لبن وأقام الابواب من حجارة وفي نصف جمادى الآخرة سنة ثماني عشرة وثمانمائة ابتدئ بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج عند ما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبني جامعه فوجد عرض السور في الاماكن نحو العشرة أذرع (السور الثالث) ابتدأ في عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ست وستين وخمسمائة وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله فلما كانت سنة تسع وستين قد استولى على المملكة انتدب لعمل السور الطواشي بهاء الدين قراقوش الاسدي فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحدا فزاد في سور القاهرة القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر وبنى قلعة المقس وهي برج كبير وجعله على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك وكان في أمله مد السور من المقس الى أن يتصل بسور مصر وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لموته والى الآن آثار الجدر ظاهرة لمن تأملها فيما بين آخر السور الى جهة القلعة وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع وذراعين بذراع العمل وهو الذراع الهاشمي من ذلك ما بين قلعة المقس على شاطئ النيل والبرج بالكوم الاحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ومن قلعة المقس الى حائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعا ومن جانب حائط قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة الى البرج بالكوم الاحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ومن وراء القلعة بجيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة اذرع وذلك طول قوسه في ابراجه من النيل الى النيل وقلعة المقس المذكورة كانت برجا مطلا على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل الى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقسي عند ما جدد الجامع المذكور في سنة سبعين وسبعمائة وجعل في مكان البرج المذكور جنينته وذكر أنه

وجد في البرج مالا وانه انما جدد الجامع منه والعامة تقول اليوم جامع المقسي بالاضافة وكان يحيط بسور القاهرة خندق شرع فى حفره من باب الفتوح الى المقس في المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وكان أيضا من الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده وشاهدت آثار الخندق باقية ومن ورائه سورا براج له عرض كبير مبنى بالحجارة الا أن الخندق انطم وتهدمت الاسوار التى كانت من ورائه وهذا السور هو الذى ذكره القاضي الفاضل فى كتابه الى السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب فقال والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ويمتد عليهما رواقه فما عقيلة ماكان معصمها ليترك بغير سوار ولا خصرها ليتحلى بغير منطقة نضار والآن قد استقرت خواطر الناس وأمنوا به من يد تتخطف ومن يد مجرم يقدم ولا يتوقف

ذكر أبواب القاهرة

وكان للقاهرة من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة ومن جهتها البحرية بابان متباعدان احدهما باب الفتوح والآخر باب النصر ومن جهتها الشرقية ثلاثة ابواب متفرقة أحدها يعرف الآن بباب البرقية والآخر بالباب الجديد والآخر بالباب المحروق ومن جهتها الغربية ثلاثة ابواب باب القنطرة وباب الفرج وباب سعادة وباب آخر يعرف بباب الخوخة ولم تكن هذه الابواب على ماهي عليه الآن ولافى مكانها عند ماوضعها جوهر

(باب زويلة)

كان باب زويلة عند ماوضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من احدهما وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه الى اليوم عقد ويعرف بباب القوس فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الالسنة أن من مر به لاتقضى له حاجة وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم الا انه يفضى الى الموضع الذى يعرف اليوم بالحجارين حيث تباع آلات الطرب من الطنابير والعيدان ونحوهما والى الآن مشهور بين الناس أن من يسلك من هناك لاتقضى له حاجة ويقول بعضهم من اجل أن هنالك آلات المنكر وأهل البطالة من المغنين والمغنيات وليس الامر كما زعم فان هذا القول جار على ألسنة اهل القاهرة من حين دخل المعز اليها قبل أن يكون هذا الموضع سوقا للمعازف وموضعا لجلوس اهل المعاصى * فلما كان في سنة خمس وثمانين وأربعمائة بنى امير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله باب زويلة الكبير الذى هو باق الى الآن وعلى أبراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من أن يكون في كل باب عطف حتى لاتهجم عليه العساكر فى وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة لكنه عمل فى

بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوان عظيمة بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لاتثبت قوائم الخيل على الصوان فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل ابي بكر بن ايوب فاتفق مروره من هنالك فاختل فرسه وزلق به وأحسبه سقط عنه فامر بنقضها فقضت وبقي منها شيء يسير ظاهر فلما ابتنى الامير جمال الدين يوسف الاستادار المسجد المقابل لباب زويلة وجعله باسم الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ظهر عند حفره الصهريج الذي به بعض هذه الزلاقة وأخرج منها حجارة من صوان لا تعمل فيها العدة الماضية وأشكالها في غاية من الكبر لا يستطيع جرها الأربعة أرؤس بقر فاخذ الامير جمال الدين منها شيئاً والى الآن حجر منها ماقي تجاه قبو الخرنشف من القاهرة * ويذكر أن ثلاثة اخوة قدموا من الرها بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح كل واحد بنى بابا وأن باب زويلة هذا بنى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأن باب الفتوح بنى في سنة ثمانين وأربعمائة * وقد ذكر ابن عبد الظاهر في كتاب خطط القاهرة أن باب زويلة هذا بناء العزيز بالله نزار بن المعز وتممه أمير الجيوش وأنشد لعلي بن محمد النيلي

يا صاح لو أبصرت باب زويلة * لعلمت قدر محله بنيانا
باب تأزر بالمجرة وارتدى الشعرى ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعونا بناه لم يرد * صرحا ولا أوصى به هامانا اه

* وسمعت غير واحد يذكر أن فردتيه يدوران في سكرجتين من زجاج * وذكر جامع سيرة الناصر محمد بن قلاون أن في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة رتب ايدكين والي القاهرة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاون على باب زويلة خليلية تضرب كل ليلة بعد العصر * وقد أخبرني من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد في مدينة من المدائن عظم باب زويلة ولا يرى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه ومن تأمل الاسطر التي قد كتبت على أعلاه من خارجه فانه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة وعمر على البدنتين منارتين ولذلك خبر تجده في ذكر الجوامع عند ذكر الجامع المؤيدى

(باب النصر)

كان باب النصر أولا دون موضعه اليوم وأدركت قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربي بحيث تكون الرحبة التي فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابي جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة ولذلك تجد في أخبار الجامع الحاكمي أنه وضع خارج القاهرة فلما كان في أيام المستنصر وقدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا وتقلد وزارته وعمر

سور القاهرة نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن فصار قريباً من مصلى العيد وجعل له باشورة أدركت بعضها الى أن احتفرت أخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب النصر فهدمته وأقامت السبيل مكانه وعلى باب النصر مكتوب بالكوفى في أعلاه لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولى الله صلوات الله عليهما

(باب الفتوح)

وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن وبقى منه الى يومنا هذا عقده وعضادته اليسرى وعليه أسطر من الكتابة بالكوفى وهو برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح فانه من وضع أمير الجيوش وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح *(أمير الجيوش)* أبو النجم بدر الجمالى كان مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار فلذلك عرف بالجمالي ومازال يأخذ بالجد من زمن سبيه فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم ويتنقل في الخدم حتي ولى امارة دمشق من قبل المستنصر في يوم الاربعاء ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة ثم سار منها كالهارب في ليلة الثلاثاء لاربع عشرة خلت من رجب سنة ست وخمسين ثم وليها ثانيا يوم الاحد سادس شعبان سنة ثمان وخمسين فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان فخرج فى شهر رمضان سنة ستين وأربعمائة فثار العسكر وأخربوا قصره وتقلد نيابة عكا فلما كانت الشدة بمصر من شدة الغلاء وكثرة الفتن والاحوال بالحضرة قد فسدت والامور قد تغيرت وطوائف العسكر قد شغبت والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الامر والنهى والرخاء قد أيس منه والصلاح لا مطمع فيه ولواتة قد ملكت الريف والصعيد بأيدى العبيد والطرقات قد انقطعت براً وبحراً الا بالخفارة الثقيلة فلما قتل بلدكوش ناصر الدولة حسين بن حمدان كتب المستنصر اليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته فاشترط ان يحضر معه من يختاره من العساكر ولا يبقى أحدا من عسكر مصر فاجابه المستنصر الى ذلك فاستخدم معه عسكراً وركب البحر من عكا فى أول كانون وسار بمائة مركب بعد أن قيل له ان العادة لم تجر بركوب البحر في الشتاء لهيجانه وخوف التلف فابى عليهم وأقلع فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوما حتى كثر التعجب من ذلك وعد من سعادته فوصل الى تنيس ودمياط واقترض المال من تجارها ومياسيرها وقام بامر ضيافته وما يحتاج اليه من الغلال سليمان اللواتى كبير أهل البحيرة وسار الى قليوب فنزل بها وأرسل الى المستنصر يقول لا أدخل الى مصر حتى تقبض على بلدكوش وكان أحد الامراء وقد اشتد على المستنصر بعد قتل ابن حمدان فبادر المستنصر وقبض عليه واعتقله بخزانة البنود فقدم بدر عشية الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة خمس

وستين وأربعمائة فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة وذلك أنه لما قدم لم يكن عند الامراء علم من استدعائه فما منهم الا من أضافه وقدم اليه فلما انقضت نوبهم في ضيافته استدعاهم الى منزله في دعوة صنعها لهم وبيت مع أصحابه أن القوم اذا أجنهم الليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك ووكل بكل واحد واحداً من أصحابه وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤسهم بين يديه فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده وزيد في ألقابه أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وتتبع المفسدين فلم يبق منهم أحداً حتى قتله وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة ثم خرج الى الوجه البحرى فأسرف فى قتل من هنالك من لواتة واستصفى أموالهم وأزاح المفسدين وأفناهم بأنواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منه كثيرا من المفسدين ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الاوحد فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الاول سنة تسع وسبعين وأربعمائة ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الاموال مالا يعرف قدره كثرة فصلح به حال الاقليم بعد فساده ثم جهز العساكر لمحاربة البلاد الشامية فسارت اليها غير مرة وحاربت أهلها ولم يظفر منها بطائل واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولى عهده * فلما كان في سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات فى ربيع الآخر وقيل فى جمادى الاولى منها وقد تحكم في مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبد بالامور فضبطها أحسن ضبط وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف انسان الى غير ذلك من أهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر الا أنه عمر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها باتلاف المفسدين من أهلها وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة وكانت له محاسن • منها أنه أباح الارض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا في أيامه • ومنها حضور التجار الى مصر لكثرة عدله بعد انتزاحهم منها في أيام الشدة • ومنها كثرة كرمه وكانت مدة أيامه بمصر احدى وعشرين سنة وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر * ومن آثاره الباقية بالقاهرة باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر وقام من بعده بالامر ابنه شاهنشاه الملقب بالافضل بن

أمير الجيوش وبه وبابنه الافضل أبهة الخلفاء الفاطمية بعد تلاشى أمرها وعمرت الديار المصرية بعد خرابها واضمحلال أحوال أهلها وأظنه هو الذي أخبر عنه المعز فيما تقدم من حكاية جوهر عنه فانه لم يتفق ذلك لاحد من رجال دولتهم غيره والله يعلم وأنتم لا تعلمون

(باب القنطرة)

عرف بذلك لان جوهراً القائد بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليمشى عليها الى المقس عند مسير القرامطة الى مصر في شوال سنة ستين وثلثمائة

(باب الشعرية)

يعرف بطائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية هم ومزانة وزيارة وهوارة من أحلاف لواتة الذين نزلوا بالمنوفية

(باب سعادة)

عرف بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله لانه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القائد جوهر القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر الى لقائه فلما عاين سعادة جوهراً ترجل وسار الى القاهرة في رجب سنة ستين وثلثمائة فدخل اليها من هـذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ووافى سعادة هذا القاهرة بجيش كبير معه فلما كان في شوال سيره جوهر في عسكر مجر عند ورود الخبر من دمشق بمجيء الحسين بن احمد القرمطي المعروف بالاعصم الى الشام وقتل جعفر بن فلاح فسار سعادة يريد الرملة فوجد القرمطي قد قصدها فانحاز بمن معه الى يافا ورجع الى مصر ثم خرج الى الرملة فملكها في سنة أحدى وستين فأقبل اليه القرمطي ففر منه الى القاهرة وبها مات لخمس بقين من المحرم سنة أثنتين وستين وثلثمائة وحضر جوهر جنازته وصلى عليه الشريف أبو جعفر مسلم وكان فيه بر واحسان

(الباب المحروق)

كان يعرف قديماً بباب القراطين فلما زالت دولة بني أيوب واستقل بالملك الملك المعز عز الدين ايبك التركماني أول من ملك من المماليك بمملكة مصر في سنة خمسين وستمائة كان حينئذ أكبر الامراء البحرية مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب الفارس اقطاى الجمدار وقد استفحل أمره وكثرت أتباعه ونافس المعز أيبك وتزوج بابنة الملك المظفر صاحب حماه وبعث الى المعز بأن ينزل من قلعة الجبل ويخليها له حتى يسكنها بامرأته المذكورة فقلق المعز منه وأهمه شأنه وأخذ يدبر عليه فقرر مع عدة من مماليكه أن يقفوا بموضع من القلعة عينه لهم واذا جاء الفارس اقطاى فتكوا به وأرسل اليه وقت القائلة يستدعيه ليشاوره في أمر مهم فركب في قائلة يوم الاثنين حادى عشر شعبان سنة أثنتين وخمسين وستمائة في نفر من مماليكه وهو آمن مطمئن بما صار له في الانفس من الحرمة والمهابة وبما يثق به من

شجاعته فلما صار بقلعة الجبل وانتهى الى قاعة العواميد عوق من معه من المماليك عن الدخول معه ووثب به المماليك الذين أعدهم المعز وتناولوه بالسيوف فهلك لوقته وغلقت أبواب القلعة وانتشر الصوت بقتله في البلد فركب أصحابه وخشداشيته وهم نحو السبعمائة فارس الى تحت القلعة وفي ظنهم أن الفارس اقطاى لم يقتل وانما قبض عليه السلطان وانهم يقاتلونه حتى يطلقه لهم فلم يشعروا الا برأس الفارس اقطاى وقد ألقيت عليهم من القلعة فانفضوا لوقتهم وتواعدوا على الخروج من مصر الى الشام وأكابرهم يومئذ بيبرس البندقداري وقلاون الالفي وسنقر الاشقر وبيسرى وسكر وبرامق فخرجوا في الليل من بيوتهم بالقاهرة الى جهة باب القراطين ومن العادة أن تغلق أبواب القاهرة بالليل فألقوا النار في الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه فقيل له من ذلك الوقت الباب المحروق وعرف به وأما القوم فانهم ساروا الى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب الشام فقبلهم وأنعم عليهم وأقطعهم اقطاعات واستكثر بهم وأصبح المعز وقد علم بخروجهم الى الشام فأوقع الحوطة على جميع أموالهم ونسائهم وأولادهم وعامة تعلقاتهم وسائر أسبابهم وتتبعهم ونادى عليهم في الاسواق بطلب البحرية وتحذير العامة من اخفائهم فصار اليه من أموالهم ما ملأ عينه واستمرت البحرية في الشام الى أن قتل المعز أيبك وخلع ابنه المنصور وتسلطن الامير قطز فتراجعوا في أيامه الى مصر وآلت أحوالهم الى أن تسلطن منهم بيبرس وقلاون والله عاقبة الامور

(باب البرقية)

﴿ ذكر قصور الخلفاء ومناظرهم والالماع بطرف من مآثرهم وما صارت اليه أحوالها من بعدهم ﴾

اعلم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر منها القصر الكبير الشرقي الذى وضعه القائد جوهر عند ما أناخ في موضع القاهرة ومنها القصر الصغير الغربي والقصر اليافعي وقصر الذهب وقصر الاقيال وقصر الظافر وقصر الشجرة وقصر الشوك وقصر الزمرذ وقصر النسيم وقصر الحريم وقصر البحر وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ويقال لها القصور الزاهرة ويسمى مجموعها القصر وكان بجوار القصر الغربي الميدان والبستان الكافوري وكان لهم عدة مناظر وآدر سلطانية غير هذه القصور منها دار الضيافة ودار الوزارة ودار الوزارة القديمة ودار الضرب والمنظرة بالجامع الازهر والمنظرة بجوار الجامع الاقمر ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ومنظرة الغزالة ودار الذهب ومنظرة المقس ومنظرة الدكة والبعل والخمس وجوه والتاج وقبة الهواء والبساتين الجيوشية والبستان الكبير ومنظرة السكرة والمنظرة ظاهر باب الفتوح

ودار الملك بمدينة مصر ومنازل العز بها ومنظرة الصناعة بالساحل ومنظرة بجوار جامع القرافة الكبرى المعروف اليوم بجامع الاولياء والاندلس بالقرافة والمنظرة ببركة الحبش وسأذكر من أخبار هذه الاماكن في مدة الدولة الفاطمية وما آل اليه حالها بحسب ما انتهى الي علمه ان شاء الله تعالى

(القصر الكبير)

هذا القصر كان فى الجهة الشرقية من القاهرة فلذلك يقال له القصر الكبير الشرقى ويسمى القصر المعزى لان المعز لدين الله أبا تميم معدا هو الذى أمر عبده وكاتبه جوهراً ببنائه حين سيره من رمادة أحد بلاد افريقية بالعساكر الى مصر وألقى اليه ترتيبه فوضعه على الترتيب الذى رسمه له ويقال ان جوهراً لما أسسه في الليلة التي أناخ فيها في موضعه وأصبح رأى فيه ازورارات غير معتدلة لم تعجبه فقيل له في تغييرها فقال قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله * وكان ابتداء وضعه مع وضع أساس سور القاهرة في ليلة الاربعاء الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة وركب عليه بابان يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من جمادى الاولى سنة تسع وخمسين ثم انه أدار عليه سوراً محيطاً به فى سنة ستين وثلثمائة وهذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء الى آخر أيامهم فلما انقرضت الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخرج أهل القصر منه وأسكن فيه الامراء ثم خرب أولا فأولا * وذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة عن مرهف بواب باب الزهومة أنه قال أعلم هذا الباب المدة الطويلة وما رأيته دخل اليه حطب ولا رمى منه تراب قال وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه قال ولما أخذه صلاح الدين وأخرج من كان به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده فأسكنهم دار المظفر بحارة برجوان وكانت تعرف بدار الضيافة قال ووجد الى جانب القصر بئر تعرف ببئر الصنم كان الخلفاء يرمون فيها القتلى فقيل ان فيها مطلباً وقصد تغويرها فقيل انها معمورة بالجان وقتل عمارها جماعة من أشياعه فردمت وتركت انتهى وكان صلاح الدين لما أزال الدولة أعطى هذا القصر الكبير لامراء دولته وأنزلهم فيه فسكنوه وأعطى القصر الصغير الغربي لاخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب فسكنه وفيه ولد له ابنه الكامل ناصر الدين محمد وكان قد أنزل والده نجم الدين أيوب بن شادى في منظرة اللؤلؤة ولما قبض على الامير داود ابن الخليفة العاضد وكان ولي عهد أبيه وينعت بالحامد لله اعتقله وجميع اخوته وهم أبو الامانة جبريل وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبي الطاهر بن جبريل

وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة فلم يزالوا فى الاعتقال بدار المظفر وغيرها الى أن انتقل الكامل محمد بن العادل من دار الوزارة بالقاهرة الى قلعة الجبل فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه واعتقلهم بها وفيها مات داود بن العاضد ولم يزل بقيتهم معتقلين بالقلعة الى أن استبد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فامر فى سنة ستين بالاشهاد على كمال الدين اسمعيل بن العاضد وعماد الدين أبي القاسم ابن الامير أبي الفتوح بن العاضد وبدر الدين عبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد أن جميع المواضع التي قبلي المدارس الصالحية من القصر الكبير والموضع المعروف بالتربة باطناً وظاهراً بخط الخوخ السبع وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعي بالخط المذكور وجميع الموضع المعروف بالجباسة بالخط المذكور وجميع الموضع المعروف بخزائن السلاح السلطانية وما هو بخطه وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ وغيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربي وجميع الموضع المعروف بدار القنطرة بخط المشهد الحسينى وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان وجميع الموضع المعروف بدار الذهب بظاهر القاهرة وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة وجميع قصر الزمرذ وجميع البستان الكافورى ملك لبيت المال بالنظر المولوى السلطانى الملكي الظاهرى من وجه صحيح شرعى لارجعة لهم فيه ولا لواحد منهم في ذلك ولا في شيء منه ولاء ولا شبهة بسبب يدولا ملك ولا وجه من الوجوه كلها خلا مافي ذلك من مسجد لله تعالى أو مدفن لآبائهم فأشهدوا عليهم بذلك وورخوا الاشهاد بالثالث عشر من جمادي الاولى سنة ستين وستمائة وأثبت على يد قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الاعز الشافعي وتقرر مع المذكورين أنه مهما كان قبضوه من اثمان بعض الاماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم واتصلوا اليه يحاسبوا به من جملة ماتحرر ثمنه عند وكيل بيت المال وقبضت ايدى المذكورين عن التصرف فى الاماكن المذكورة وغيرها مما هو منسوب الى آبائهم ورسم ببيع ذلك فباعه وكيل بيت المال كمال الدين ظافر شيأ بعد شيء ونقضت تلك المبانى وابتني فى مواضعها على غير تلك الصفة من المساكن وغيرها كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها *(قاعة الذهب)* وكان يقال لقاعة الذهب قصر الذهب وهو أحد قاعات القصر الذى هو قصر المعز لدين الله معد وبنى قصر الذهب العزيز بالله نزار ابن المعز وكان يدخل اليه من باب الذهب الذى كان مقابلا للدار القطبية التى هى اليوم المارستان المنصورى ويدخل اليه أيضا من باب البحر الذى هو الآن تجاه المدرسة الكاملية وجدد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر فى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وبهذه

القاعة كانت الخلفاء تجلس فى الموكب يوم الاثنين ويوم الخميس وبها كان يعمل سماط شهر رمضان للامراء وسماط العيدين وبهـا كان سرير الملك *(هيئة جلوس الخليفـة بمجلس الملك)* قال الفقيه ابو محمد الحسن بن ابراهيم بن زولاق فى كتاب سيرة المعز وكان وصول المعز لدين الله الى قصره بمصر فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ولما وصل الى قصره خرسا جدا ثم طلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر فى قصره بأولاده وحشمه وخواص عبيده والقصر يومئذ يشتمل على مافيه من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم وبيت المال بحاله بما فيه وفيه جميع مايكون للملوك وللنصف من رمضان جلس المعز فى قصره على السرير الذهب الذى عمله عبده القائد جوهر فى الايوان الجديد وأذن بدخول الاشراف أولا ثم اذن بعدهم للاولياء ولسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقـدم الناس قوما بعد قوم ثم مضى القائد جوهر وأقبل بهديته التي عباها ظاهرة يراها الناس وهى من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها معنبر واحدى وثلاثون قبة على نوق بخاتي بالديباج والمناطق والفرش منها تسعة بديباج مثقل وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل وثلاثة وثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة ومائة وثلاثون بغلا للنقل وتسعون نجيبا واربعة صناديق مشبكة يري ما فيها وفيها أوانى الذهب والفضة ومائة سيف محلي بالذهب والفضة ودرجان من فضة مخرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة فى غلاف وتسعمائة ما بين سفط وتخت فيها سائر ما أعـد له من ذخائر مصر * وفى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التي عملها للكعبة على ايوان قصره وسعتها اثنا عشر شبرا في اثني عشر شبرا وأرضها ديباج احمر ودورها اثنا عشر هلال ذهب في كل هلال أترجة ذهب مشبك جوف كل اترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام وفيها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق وفي دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله وحشوا الشمسية المسك المسحوق يراها الناس في القصر ومن خارج القصر لعلوّ موضعها وانما نصبها عدّة فراشين وجرّوها لثقل وزنها * وقال فى كتاب الذخائر والتحف وما كان بالقصر من ذلك ان وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال ووزن ما حلى به الستر الذي انشأه سيد الوزراء ابو محمد البازورى من الذهب ايضا ثلاثون ألف مثقال وانه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه وذكر ان في الشمسية الكبيرة ثلاثين الف مثقال ذهبا وعشرين ألف درهم مخرّقة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه وان في الشمسية التى لم تتم من الذهب سبعة عشر الف مثقال * وقال المرتضى ابو محمد عبد السلام بن محمد بن

الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهري القيسراني الكاتب المصري في كتاب نزهة المقلتين في أخبار الدولتين الفاطمية والصلاحية الفصل العاشر في ذكر هيئتهم في الجلوس العام بمجلس الملك ولا يتعدى ذلك يومي الاثنين والخميس ومن كان أقرب الناس اليهم وهم خدم لا تخرج عنهم وينتظر لجلوس الخليفة أحد اليومين المذكورين وليس على التوالي بل على التفاريق فاذا تهيأ ذلك في يوم من هذه الايام استدعي الوزير من داره صاحب الرسالة على الرسم المعتاد في سرعة الحركة فركب في أبهته وجماعته على الترتيب المقدم ذكره . يعني في ذكر الركوب اول العام وسيأتي ان شاء الله تعالى في موضعه من هذا الكتاب فيسير من مكان ترجله عن دابته بدهليز العمود الى مقطع الوزارة وبين يديه اجلاء أهل الامارة كل ذلك بقاعة الذهب التي كان يسكنها السلطان بالقصر وكان الجلوس قبل ذلك بالايوان الكبير الذي هو خزائن السلاح في صدره على سرير الملك وهو باق في مكانه الى الآن من هذا المكان الى آخر أيام المستعلي ثم ان الآمر نقل الجلوس الى هذا المكان واسمه مكتوب بأعلى باذهنجه الى اليوم ويكون المجلس المذكور معلقا فيه ستور الديباج شتاء والدبيقي صيفا وفرش الشتاء بسط الحرير عوضا عن الصوف مطابقا لستور الديباج وفرش الصيف مطابقا لستور الدبيقي ما بين طبري وطبرستاني مذهب معدوم المثل وفي صدره المرتبة المؤهلة لجلوسه في هيئة جليلة على سرير الملك المغشي بالقرقوبي فيكون وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه فاذا تهيأ الجلوس استدعي الوزير من المقطع الى باب المجلس المذكور وهو مغلق وعليه ستر فيقف بحذائه وعن يمينه زمام القصر وعن يساره زمام بيت المال فاذا انتصب الخليفة على المرتبة وضع امين الملك مفلح احد الاستاذين المحنكين الخواص الدواة مكانها من المرتبة وخرج من المقطع الذي يقال له فرد الكم فاذا ألوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الامراء المطوقون ارباب الخدم الجليلة وغيرهم وفي خلالهم قراء الحضرة فيشير صاحب المجلس الى الاستاذين فيرفع كل منهم جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا بمنصبه المذكور فتستفتح القراء بقراءة القرآن الكريم ويسلم الوزير بعد دخوله اليه فيقبل يديه ورجليه ويتأخر مقدار ثلاثة اذرع وهو قائم قدر ساعة زمانية ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الايمن وتطرح له مخدة تشريفا ويقف الامراء في اماكنهم المقروءة فصاحب الباب واسفهسلار العساكر من جانبي الباب يمينا ويسارا ويليهم من خارجه لاصقا بعتبته زمام الآمرية والحافظية كذلك ثم يرتبهم على مقاديرهم فكل واحد لا يتعدى مكانه هكذا الى آخر الرواق وهو الافريز العالي عن ارض القاعة ويملوه الساباط على عقود القناطر التي على المهد هناك ثم أرباب القصب والعماريات يمنة ويسرة كذلك ثم الاماثل والاعيان من الاجناد المترشحين للتقدمة ويقف مستندا للصدر الذي يقابل باب المجلس

بواب الباب والحجاب ولصاحب الباب في ذلك المحل الدخول والخروج وهو الموصل عن كل قائل ما يقول فاذا انتظم ذلك النظام واستقر بهم المقام فأول ماثل للخدمة بالسلام قاضي القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام فيجيز صاحب الباب القاضي دون من معه فيسلم متأدبا ويقف قريبا ومعنى الادب في السلام أنه يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع السلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فيتخصص بهذا الكلام دون غيره من اهل السلام ثم يسلم بالاشراف الاقارب زمامهم وهو من الاستاذين المحنكين وبالاشراف الطالبيين نقيبهم وهو من الشهود المعدلين وتارة يكون من الاشراف المميزين فيمضى عليهم كذلك ساعتان زمانيتان او ثلاث ويخص بالسلام في ذلك الوقت من خلع عليه لقوص أو الشرقية أو الغربية أو الاسكندرية فيشرفون بتقبيل القبة فان دعت حاجة الوزير الى مخاطبة الخليفة في امر قام من مكانه وقرب منه منحنيا على سيفه فيخاطبه مرة أو مرتين ثم يؤمر الحاضرون فيخرجون حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ويخرج فيركب على عادته الى داره وهو مخدوم بأولئك ثم يرخي الستر ويغلق باب المجلس الى يوم مثله فيكون الحال كما ذكر ويدخل الخليفة الى مكانه المستقر فيه ومعه خواص استاذيه وكان أقرب الناس الى الخلفاء الاستاذون المحنكون وهم اصحاب الانس لهم ولهم من الخدم مالا يتطرق اليه سواهم ومنهم زمام القصر وشاد التاج الشريف وصاحب بيت المال وصاحب الدفتر وصاحب الرسالة وزمام الاشراف الاقارب وصاحب المجلس وهم المطلعون على أسرار الخليفة وكانت لهم طريقة محمودة في بعضهم بعضا منها انه متى ترشح استاذ للتحنيك وحنك حمل اليه كل واحد من المحنكين بدلة من ثياب ومنديلا وفرشا وسيفا فيصبح لاحقا بهم وفي يديه مثل مافى ايديهم وكان لايركب أحد في القصر الا الخليفة ولا ينصرف ليلا ونهارا الا كذلك وله في الليل شدّدات من النساء يخدمن البغلات والحمير الاناث للجواز في السراديب القصيرة الاقباء والطلوع على الزلاقات الى أعالى المناظر والاماكن وفي كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق فى الليل

(كيفية سماط شهر رمضان بهذه القاعة)

قال ابن الطوير فاذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان رتب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر الى السادس والعشرين منه ويستدعى له قاضى القضاة ليالى الجمع توقيرا له فأما الامراء ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة ولا يحرمونهم الافطار مع أولادهم وأهاليهم ويكون حضورهم بمسطور يخرج الى صاحب الباب واسفهسلاره فيعرف صاحب كل نوبة ليلته فلا يتأخر ويحضر الوزير فيجلس صدره فان تأخر كان ولده أو أخوه وان لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب ويهتم فيه اهتماما عظيما تاما بحيث لايفوته شيء من أصناف

المأكولات الفائقة والاغذية الرائقة وهو مبسوط فى طول القاعة ماد من الرواق الى ثاني القاعة المذكورة والفراشون قيام لخدمة الحاضرين وحواشى الاستاذين يحضرون الماء المبخر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين ويكون انفصالهم العشاء الآخرة فيعمهم ذلك ويصل منه شيء الى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض ويأخذ الرجل الواحد ما يكفى جماعة فاذا حضر الوزير أخرج اليه مما هو بحضرة الخليفة وكانت يده فيه تشريفا له وتطييبا لنفسه وربما حمل لسحوره من خاص مايعين لسحور الخليفة نصيب وافر ثم يتفرق الناس الى اماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين قال ومبلغ ماينفق فى شهر رمضان لسماطه مدّة سبعة وعشرين يوما ثلاثة آلاف دينار

(عمل سماط عيد الفطر بهذه القاعة)

قال الامير المختار عز الملك بن عبيد الله بن احمد بن اسماعيل بن عبد العزيز المسيحيّ فى تاريخه الكبير وفى آخر يوم منه يعني شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة حمل يانس الصقلي صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل حلوى وحمل أيضا علىّ بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر * وقال ابن الطوير فأما الاسمطة الباطنة التي يحضرها الخليفة بنفسه ففى يوم عيد الفطر اثنان ويوم عيد النحر واحد فأما الاوّل من عيد الفطر فانه يعبى فى الليل بالايوان قدّام الشباك الذى يجلس فيه الخليفة فيمدّ مامقداره ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة اذرع من الخشكنان والفانيذ والبسندود المقدّم ذكر عمله بدار الفطرة فاذا صلى الفجر فى أوّل الوقت حضر اليه الوزير وهو جالس فى الشباك ومكن الناس من ذلك الممدود فأخذ وحمل ونهب فيأخذه من يأكله فى يومه ومن يدخره لغده ومن لاحاجة له به فيبيعه ويتسلط عليه أيضاً حواشي القصر المقيمون هناك فاذا فرغ من ذلك وقد بزغت الشمس ركب من باب الملك بالايوان وخرج من باب العيد الى المصلى والوزير معه كما وصفنا فى هيئة ركوب هذا العيد فى فصله مخليا لقاعة الذهب لسماط الطعام فينصب له سرير الملك قدام باب المجلس في الرواق وينصب فيه مائدة من فضة ويقال لها المدورة وعليها اوانى الفضيات والذهبيات والصيني الحاوية للاطعمة الخاص الفائحة الطيب الشهية من غير خضراوات سوى الدجاج الفائق المسمن المعمول بالامزجة الطيبة النافعة ثم ينصب السماط أمام السرير الى باب المجالس قبالته ويعرف بالمحول طول القاعة وهو اليوم الباب الذى يدخل منه اليها من باب البحر الذى هو باب القصر اليوم والسماط خشب مدهون شبه الدكك اللاطية فيصير من جمعه للاوانى سماطا عاليا فى ذلك الطول وبعرض عشرة اذرع فيفرش فوق ذلك الازهار ويرص الخبز على حافتيه سواميذ كل واحد ثلاثة ارطال من نقى الدقيق ويدهن وجهها عند خبزها بالماء فيحصل لها بريق ويحسن منظرها ويعمر داخل ذلك السماط على

طوله باحد وعشرين طبقا فى كل طبق احد وعشرون ثنيا سمينا مشويا وفى كل من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلثمائة وخمسون طائرا فيبقى طائلا مستطيلا فيكون كقامة الرجل الطويل ويسور بشرائح الحلواء اليابسة ويزين بألوانها المصبغة ثم يسد خلل تلك الاطباق بالصحون الخزفية التي في كل واحد منها سبع دجاجات وهي مترعة بالالوان الفائقة من الحلواء المائعة والطباهجة المشققة والطيب غالب على ذلك كله فلا يبعد أن تناهز عدة الصحون المذكورة خمسمائة صحن ويرتب ذلك أحسن ترتيب من نصف الليل بالقاعة الى حين عود الخليفة من المصلى والوزير معه فاذا دخل القاعة وقف الوزير على باب دخول الخليفة لينزع عنه الثياب العيدية التي فى عمامتها السمة ويلبس سواها من خزائن الكسوات الخاصة التي قدمنا ذكرها وقد عمل بدار الفطرة قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطارا وحملا فمنهما واحد يمضى به من طريق قصر الشوك الى باب الذهب والآخر يشق به بين القصرين يحملهما العتالون فينصبان اول السماط وآخره وهما شكل مليح مدهونان بأوراق الذهب وفيهما شخوص نائتة كأنها مسبوكة فى قوالب لوحالوحا فاذا عبر الخليفة راكبا ونزل على السرير الذى عليه المدورة الفضة وجلس قام على رأسه أربعة من كبار الاستاذين المحنكين وأربعة من خواص الفراشين ثم يستدعى الوزير فيطلع اليه ويجلس عن يمينه ويستدعى الامراء المطوقين ومن يليهم من الامراء دونهم فيجلسون على السماط كقيامهم بين يديه فيأكل من اراد من غير الزام فان في الحاضرين من لا يعتقد الفطر فى ذلك اليوم فيستولى على ذلك المعمول الآكلون وينقل الى دار أرباب الرسوم ويباح فلا يبقى منه الا السماط فقط فيعم أهل القاهرة ومصر من ذلك نصيب وافر فاذا انقضى ذلك عند صلاة الظهر انفض الناس وخرج الوزير الى داره مخدوما بالجماعة الحاضرين وقد عمل سماطا لاهله وحواشيه ومن يعز عليه لايلحق بأيسر يسير من سماط الخليفة وعلى هذا العمل يكون سماط عيد النحر اول يوم منه وركوبه الى المصلى كما ذكرنا ولا يخرج عن هذا المنوال ولا ينقص عن هذا المثال ويكون الناس كلهم مفطرين ولا يفوت أحدا منهم شيء كما ذكرنا في عيد الفطر قال ومبلغ ماينفق في سماطي الفطر والاضحي اربعة آلاف دينار وكان يجلس على اسمطة الاعياد في كل سنة رجلان من الاجناد يقال لاحدهما ابن فائز والآخر الديلمي يأكل كل واحد منهما خروفا مشويا وعشر دجاجات محلاة وجام حلوى عشرة ارطال ولهما رسوم تحمل اليهما بعد ذلك من الاسمطة لبيوتهما ودنانير وافرة على حكم الهبة وكان أحدهما أسر بعسقلان فى تجريدة جرد اليها وأقام مدة في الاسر فاتفق أنه كان عندهم عجل سمين فيه عدة قناطير لحم فقال له الذي أسره وهو يداعبه ان اكلت هذا العجل أعتقتك ثم ذبحه وسوى لحمه وأطعمه حتى أتى على جميعه فوفى له وأعتقه فقدم على اهله بالقاهرة ورأيته يأكل على السماط

(الايوان الكبير)

قال القاضى الرئيس محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر الروحي الكاتب فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة الايوان الكبير بناه العزيز بالله ابو منصور نزار بن المعز لدين الله معد فى سنة تسع وستين وثلثمائة انتهى وكان الخلفاء أولا يجلسون به في يومى الاثنين والخميس الى أن نقل الخليفة الآمر بأحكام الله الجلوس منه فى اليومين المذكورين الى قاعة الذهب كما تقدم وبصدر هذا الايوان كان الشباك الذى يجلس فيه الخليفة وكان يعلو هذا الشباك قبة وفى هذا الايوان كان يمد سماط الفطرة بكرة يوم عيد الفطر كما تقدم وبه أيضا كان يعمل الاجتماع والخطبة فى يوم عيد الغدير وكان بجانب هذا الايوان الدواوين وكان بهذا الايوان ضلعا سمكة اذا أقيما وار يا الفارس بفرسه ولم يزالا حتى بعثهما السلطان صلاح الدين يوسف الى بغداد في هدية *(عيد الغدير)* اعلم أن عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا ولا عمله أحد من سالف الامة المقتدى بهم وأول ماعرف في الاسلام بالعراق ايام معز الدولة على بن بويه فانه أحدثه في سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا وأصلهم فيه ماخرجه الامام احمد فى مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر لنا فنزلنا بغدير خم ونودى الصلاة جامعة وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد على بن ابي طالب رضى الله عنه فقال ألستم تعلمون أنى اولى بالمؤمنين من انفسهم قالوا بلى قال ألستم تعلمون أنى اولى بكل مؤمن من نفسه قالوا بلى فقال من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه قال فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال هنيأ لك يا ابن ابى طالب اصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة *(وغدير خم)* على ثلاثة اميال من الجحفة بسرة الطريق وتصب فيه عين وحوله شجر كثير ومن سنتهم فى هذا العيد وهو أبدا يوم الثامن عشر من ذى الحجة أن يحيوا ليلته بالصلاة ويصلوا في صبيحته ركعتين قبل الزوال ويلبسوا فيه الجديد ويعتقوا الرقاب ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق ارادت عوام السنية مضاهاة فعلهم ونكايتهم فاتخذوا في سنة تسع وثمانين وثلثمائة بعد عيد الغدير بثمانية ايام عيدا أكثروا فيه من السرور واللهو وقالوا هذا يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وبالغوا فى هذا اليوم فى اظهار الزينة ونصب القباب وايقاد النيران ولهم في ذلك اعمال مذكورة فى أخبار بغداد * وقال ابن زولاق وفي يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وهو يوم الغدير تجمع خلق من اهل مصر والمغاربة ومن تبعهم للدعاء لانه يوم عيد لان

رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى امير المؤمنين على بن أبي طالب فيه واستخلفه فأعجب المعز ذلك من فعلهم وكان هذا اول ما عمل بمصر * قال المسيحي وفي يوم الغدير وهو ثامن عشر ذى الحجة اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعا عظيما أقاموا الى الظهر ثم خرجوا الى القصر فخرجت اليهم الجائزة وذكر أن الحاكم بأمر الله كان قد منع من عمل عيد الغدير قال ابن الطوير اذا كان العشر الاوسط من ذى الحجة اهتم الامراء والاجناد بركوب عيد الغدير وهو في الثامن عشر منه وفيه خطبة وركوب الخليفة بغير مظلة ولا سمة ولا خروج عن القاهرة ولا يخرج لاحد شىء فاذا كان ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجارى به العادة فيدخل القصر وفي دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسى على عادته فيخدم ويخرج ويركب من مكانه من الدهليز ويخرج فيقف قبالة باب القصر ويكون ظهره الى دار فخر الدين جهاركس اليوم ثم يخرج الخليفة راكبا أيضاً فيقف فى الباب و يقال له القوس وحواليه الاستاذون المحنكون رجالة ومن الامراء المطوقين من يأمره الوزير باشارة خدمة الخليفة على خدمته ثم يجوز زى كل من له زى على مقدار همته فأول ما يجوز زى الخليفة وهو الظاهر فى ركوبه فتجد الجنائب الخاص التي قدمنا ذكرها اولا ثم زى الامراء المطوقين لانهم غلمانه واحدا فواحدا بعددهم وأسلحتهم وجنائبهم الى آخر ارباب القصب والعماريات ثم طوائف العسكر أزمتها أمامها وأولادهم مكانهم لانهم في خدمة الخليفة وقوف بالباب طائفة طائفة فيكونون اكثر عددا من خمسة آلاف فارس ثم المترجلة الرماة بالقسي بالايدى والارجل وتكون عدتهم قريبا من ألف ثم الراجل من الطوائف الذين قدمنا ذكرهم فى الركوب فتكون عدتهم قريبا من سبعة آلاف كل منهم بزمام وبنود ورايات وغيرها بترتيب مليح مستحسن ثم يأتي زى الوزير مع ولده أو أحد أقاربه وفيه جماعته وحاشيته في جمع عظيم وهيئة هائلة ثم زى صاحب الباب وهم اصحابه وأجناده ونواب الباب وسائر الحجاب ثم يأتي زى اسفهسلار العساكر بأصحابه وأجناده في عدة وافرة ثم يأتي زى والى القاهرة وزى والى مصر فاذا فرغ خرج الخليفة من الباب والوقوف بين يديه مشاة في ركابه خارجا عن صبيان ركابه الخاص فاذا وصل الى باب الزهومة بالقصر انعطف على يساره داخلا من الدرب هناك جائزا على الخوخ فاذا وصل الى باب الديلم الذى داخله المشهد الحسيني فيجد في دهليز ذلك الباب قاضي القضاة والشهود فاذا وازاهم خرجوا للخدمة والسلام عليه فيسلم القاضي كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التى تليه والشهود أمام رأس الدابة بمقدار قصبة ثم يعودون ويدخلون من ذلك الدهليز الى الايوان الكبير وقد علق عليه الستور القرقوبية جميعه على سعته وغير القرقوبية سترا فسترا ثم يعلق بدائره على سعته ثلاثة صفوف الاوسط طوارق فارسيات مدهونة

والاعلى والاسفل درق وقد نصب فيه كرسي الدعوة وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب في هذا العيد فيجلس القاضي والشهود تحته والعالم من الامراء والاجناد والمتشيعين ومن يرى هذا الرأى من الاكابر والاصاغر فيدخل الخليفة من باب العيد الى الايوان الى باب الملك فيجلس بالشباك وهو ينظر القوم ويخدمه الوزير عند ما ينزل ويأتى هو ومن معه فيجلس بمفرده على يسار منبر الخطيب ويكون قد سير لخطيبه بدلة حرير يخطب فيها وثلاثون دينارا ويدفع له كراس محرر من ديوان الانشاء يتضمن نص الخلافة من النبي صلى الله عليه وسلم الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضى عنه بزعمهم فاذا فرغ ونزل صلى قاضى القضاة بالناس ركعتين فاذا قضيت الصلاة قام الوزير الى الشباك فيخدم الخليفة وينفض الناس بعد التهانى من الاسماعيلية بعضهم بعضا وهو عندهم اعظم من عيد النحر وينحر فيه اكثرهم قال وكان الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد لما سلم من يد أبي علي بن الافضل الملقب كتيفات لما وزر له وخرج عليه عمل عيدا في ذلك اليوم وهو السادس عشر من المحرم من غير ركوب ولا حركة بل ان الايوان باق على فرشه وتعليقه من يوم الغدير فيفرش المجلس المحول اليوم في الايوان الذى بابه خورنق وكان يقابل الايوان الكبير الذى هو اليوم خزائن السلاح بأحسن فرش وينصب له مرتبة هائلة قريبا من باذهنجه فيجتمع ارباب الدولة سيفا وقلما ويحضرون الى الايوان الى باب الملك المجاور للشباك فيخرج الخليفة راكبا الى المجلس فيترجل على بابه وبين يديه الخواص فيجلس على المرتبة ويقفون بين يديه صفين الى باب المجلس ثم يجعل قدامه كرسى الدعوة وعليه غشاء قرقوبي وحواليه الامراء الاعيان وارباب الرتب فيصعد قاضى القضاة ويخرج من كمه كراسة مسطحة تتضمن فصولا كالفرج بعد الشدة بنظم مليح يذكر فيه كل من اصابه من الانبياء والصالحين والملوك شدة وفرج الله عنه واحدا فواحدا حتي يصل الى الحافظ وتكون هذه الكراسة محمولة من ديوان الانشاء فاذا تكاملت قراءتها نزل عن المنبر ودخل الى الخليفة ولا يكون عنده من الثياب اجل مما لبسه ويكون قد حمل الى القاضى قبل خطابته بدلة مميزة يلبسها للخطابة ويوصل اليه بعد الخطابة خمسون دينارا * وقال الامير جمال الدين ابو على موسى بن المامون أبي عبد الله محمد بن فاتك بن مختار البطائحي في تاريخه واستهل عيد الغدير يعني من سنة ست عشرة وخمسمائة وهاجر الى باب الاجل يعني الوزير المأمون البطائحي الضعفاء والمساكين من البلاد ومن انضم اليهم من العوالي والاداني على عادتهم في طلب الحلال وتزويج الايامى وصار موسما يرصده كل احد ويرتقبه كل غني وفقير فجرى في معروفه على رسمه وبالغ الشعراء في مدحه بذلك ووصلت كسوة العيد المذكور فحمل ما يختص بالخليفة والوزير وأمر بتفرقة ما يختص بأزمة العساكر فارسها وراجلها من عين وكسوة ومبلغ ما يختص بهم من

العين سبعمائة وتسعون دينارا ومن الكسوات مائة وأربع وأربعون قطعة والهيئة المختصة بهذا العيد برسم كبراء الدولة وشيوخها وأمرائها وضيوفها والاستاذين المحنكين والمميزين منهم خارجا عن أولاد الوزير واخوته ويفرق من مال الوزير بعد الخلع عليه الفان وخمسمائة دينار وثمانون دينارا وأمر بتعليق جميع ابواب القصور وتفرقة المؤذنين بالجوامع والمساجد عليها وتقدم بأن تكون الاسمطة بقاعة الذهب على حكم سماط أول يوم من عيد النحر وفي باكر هذا اليوم توجه الخليفة الى الميدان وذبح ماجرت به العادة وذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة في عيد النحر وأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم وجلس الخليفة في المنظرة وخدمت الرهجية وتقدم الوزير والامراء وسلموا فلما حان وقت الصلاة والمؤذنون على ابواب القصر يكبرون تكبير العيد الى أن دخل الوزير فوجد الخطيب على المنبر قد فرغ فتقدم القاضي ابو الحجاج يوسف بن ايوب فصلى به وبالجماعة صلاة العيد وطلع الشريف بن انس الدولة وخطب خطبة العيد ثم توجه الوزير الى باب الملك فوجد الخليفة قد جلس قاصدا للقائه وقد ضربت المقدمة فأمره بالمضي اليها وخلع عليه خلعة مكملة من بدلات النحر وثوبها أحمر بالشدة الدائمية وقلده سيفا مرصعا بالياقوت والجوهر وعند ما نهض ليقبل الارض وجده قد أعد له العقد الجوهر وربطه في عنقه بيده وبالغ في اكرامه وخرج من باب الملك فتلقاه المقربون وسارع الناس الى خدمته وخرج من باب العيد وأولاده واخوته والامراء المميزون بحجبه وخدمت الرهجية وضربت العربيــة والموكب جميعه بزيه وقد اصطفت العساكر وتقدم الى ولده بالجلوس على اسمطته وتفرقتها برسومها وتوجه الى القصر واستفتح المقرئون فسلم الحاضرون وجرى الرسم في السماط الاول والثاني وتفرقة الرسوم والموائد على حكم اول يوم من عيد النحر وتوجه الخليفة بعد ذلك الى السماط الثالث الخاص بالدار الجليلة لاقاربه وجلسائه ولمــا انقضى حكم التعييد جلس الوزير في مجلسه واستفتح المقرئون وحضر الكبراء وبياض البلدين لتهنىء بالعيد والخلع وخرج الرسم وتقدم الشعراء فأنشدوا وشرحوا الحال وحضر متولي خزائن الكسوة الخاص بالثياب التي كانت على المأمون قبل الخلع وقبضوا الرسم الجاري به العادة وهو مائة دينار وحضر متولى بيت المال وصحبته صندوق فيه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهر والسيف المرصع فأمر الوزير المأمون الشيخ أبا الحسن بن أبي اسامة كاتب الدست الشريف بكتب مطالعة الى الخليفة بما حمل اليه من المـال برسم منديل الكم وهو الف دينار ورسم الاخوة والاقارب ألف دينار وتسلم متولى الدولة بقية المـال ليفرق على الامراء المطوقين والمميزين والضيوف والمستخدمين

(المحول) قال ابن عبد الظاهر المحول هو مجلس الداعي ويدخل اليـه من باب الريح وبابه من باب البحر ويعرف بقصر البحر وكان في أوقات الاجتماع يصلى الداعي بالناس

في رواقه * وقال المسيحي وفي ربيع الاول يعني من سنة خمس وثمانين وثلثمائة جلس القاضي محمد بن النعمان على كرسي بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد المتقدم له ولاخيه بمصر ولابيه بالمغرب فمات في الزحمة أحد عشر رجلا فكفنهم العزيز بالله وقال ابن الطوير وأما داعي الدعاة فانه يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره ووصفه أنه يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيبا وله نواب كنواب الحكم في سائر البلاد ويحضر اليه فقهاء الدولة ولهم مكان يقال له دار العلم ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة وكان الفقهاء منهم يتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة في كل يوم اثنين وخميس ويحضر مبيضا الى داعي الدعاة فينفذه اليهم ويأخذه منهم ويدخل به الى الخليفة في هذين اليومين المذكورين فيتلوه عليه ان أمكن ويأخذ علامته بظاهره ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين في مكانين للرجال على كرسي الدعوة بالايوان الكبير وللنساء بمجلس الداعي وكان من اعظم المباني وأوسعها فاذافرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا اليه لتقبيل يديه فيمسح على رؤسهم بمكان العلامة أعني خط الخليفة وله أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لاسيما الصعيد ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله الى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته في ذلك مع الله تعالى فيفرض له الخليفة منه مايعينه لنفسه وللنقباء وفي الاسما عليةالمولين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثي دينار على حكم النجوى وصحبة ذلك رقعة مكتوبة باسمه فيتميز في المحول فيخرج له عليها خط الخليفة بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك فيدخر ذلك ويتفاخر به وكانت هذه الخدمة متعلقة بقوم يقال لهم بنو عبد القوي أبا عن جد آخرهم الجليس وكان الافضل بن أمير الجيوش نفاهم الى المغرب فولد الجليس بالمغرب وربي به وكان يميل الى مذهب أهل السنة وولي القضاء مع الدعوة وأدركه أسد الدين شيركوه وأكرمه وجعله واسطة عند الخليفة العاضد وكان قد حجر على العاضد ولولاه لم يبق في الخزائن شيء لكرمه وكانه علم أنه آخر الخلفاء * قال المسيحي وكان الداعي يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الاولياء والدعاوي المتصلة فكان يفرد للاولياء مجلسا وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلسا وللنساء في جامع القاهرة المعروف بالجامع الازهر مجلسا وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا وكان يعمل المجالس في داره ثم ينفذها الى من يختص بخدمة الدولة ويتخذ لهذه المجالس كتبا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة وكان يقبض في كل مجلس من هذه المجالس مايتحصل من النجوى من كل من يدفع شيأ من ذلك عينا وورقا من الرجال والنساء ويكتب أسماء من يدفع شيأ على مايدفعه وكذلك في عيد الفطر يكتب ما يدفع عن الفطرة ويحصل

من ذلك مال جليل يدفع الى بيت المال شيئاً بعد شيء وكانت تسمى مجالس الدعوة مجالس الحكمة وفى سنة اربعمائة كتب سجل عن الحاكم بأمر الله فيه رفع الخمس والزكاة والفطرة والنجوى التى كانت تحمل ويتقرب بها وتجرى على ايدى القضاة وكتب سجل آخر بقطع مجالس الحكمة التى تقرأ على الاولياء يوم الخميس والجمعة انتهى ووظيفة داعي الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية وقد لخصت من أمر الدعوة طرفا أحببت ايراده هنا *(وصف الدعوة وترتيبها)* وكانت الدعوة مرتبة على منازل دعوة بعد دعوة *(الدعوة الاولى)* سؤال الداعي لمن يدعوه الى مذهبه عن المشكلات وتأويل الآيات ومعاني الامور الشرعية وشيء من الطبيعيات ومن الامور الغامضة فان كان المدعو عارفا سلم له الداعي والا تركه يعمل فكره فيما ألقاه عليه من الاسئلة وقال له ياهذا ان الدين لمكتوم وان الاكثر له منكرون وبه جاهلون ولو علمت هذه الامة ماخص الله به الائمة من العلم لم تختلف فيتشوق حينئذ المدعو الى معرفة ماعند الداعي من العلم فاذا علم منه الاقبال أخذ في ذكر معاني القراآت وشرائع الدين وتقرير أن الآفة التى نزلت بالامة وشتتت الكلمة وأورثت الاهواء المضلة ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها غير أن الناس لما عدلوا عن الائمة ونظروا فى الامور بعقولهم واتبعوا ماحسن في رأيهم وقلدوا سفلتهم وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعا للملوك وطلبا للدنيا التى هى ايدى متبعي الاثم واجناد الظلمة وأعوان الفسقة الذين يحبون العاجلة ويجتهدون فى طلب الرياسة على الضعفاء ومكايدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته وتغيير كتاب الله عز وجل وتبديل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفة دعوته وافساد شريعته وسلوك غير طريقته ومعاندة الخلفاء الائمة من بعده بختر من قبل ذلك وصار الناس الى أنواع الضلالات فان دين محمد صلى الله عليه وسلم ماجاء بالتحلي ولا بأماني الرجال ولا شهوات الناس ولا بما خف على الالسنة وعرفته دهماء العامة ولكنه صعب مستصعب وأمر مستقبل وعلم خفى غامض ستره الله فى حجبه وعظم شأنه عن ابتذال أسراره فهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لايطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله الا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى فاذا ارتبط المدعو على الداعي وأنس له نقله الى غير ذلك * فمن مسائلهم مامعنى رمي الجمار والعدو بين الصفا والمروة ولم كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضى الصلاة وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر وما بال الله خالق الدنيا في ستة ايام أعجز عن خلقها في ساعة واحدة وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلا والكاتبين الحافظين وما لنا لانراهما أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون وأقام علينا الشهود

وقيد ذلك فى القرطاس بالكتابة وما تبديل الارض غير الارض وما عذاب جهنم وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب وما معنى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وما ابليس وما الشياطين وما وصفوا به وأين مستقرهم وما مقدار قدرهم وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم وما سبعة ابواب النار وما ثمانية ابواب الجنة وما شجرة الزقوم النابتة في الجحيم وما دابة الارض ورؤس الشياطين والشجرة الملعونة فى القرآن والتين والزيتون وما الخنس الكنس وما معنى ألم وألمص وما معنى كهيعص وحمعسق ولم جعلت السموات سبعا والارضون سبعا والمثانى من القرآن سبع آيات ولم فجرت العيون اثنتي عشرة عينا ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ومعانى الفرائض اللازمة فكروا أولا في انفسكم أين أرواحكم وكيف صورها وأين مستقرها وما أول أمرها والانسان ماهو وما حقيقته وما الفرق بين حياته وحياة البهائم وفضل مابين حياة البهائم وحياة الحشرات وما الذى بانت به حياة الحشرات من حياة النبات وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقت حواء من ضلع آدم وما معنى قول الفلاسفة الانسان عالم صغير والعالم انسان كبير ولم كانت قامة الانسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ولم كان فى يديه من الاصابع عشر وفي رجليه عشر أصابع وفي كل اصبع من اصابع يديه ثلاثة شقوق الا الابهام فان فيه شقين فقط ولم كان في وجهه سبع ثقب وفي سائر بدنه ثقبان ولم كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة وفي عنقه سبع عقد ولم جعل عنقه صورة ميم ويداه حاء و بطنه ميما ورجلاه دالا حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ولم جعلت قامته اذا انتصب صورة الف واذا ركع صارت صورة لام واذا سجد صارت صورة هاء فكان كتابا يدل على الله ولم جعلت أعداد عظام الانسان كذا وأعداد أسنانه كذا والاعضاء الرئيسة كذا الى غير ذلك من التشريح والقول في العروق والاعضاء ووجوه منافع الحيوان ثم يقول الداعى ألا تتفكرون في حالكم وتعتبرون وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف وأنه فعل جميع ذلك لحكمة وله فيها أسرار خفية حتى جمع ماجمع وفرق مافرق فكيف يسعكم الاعراض عن هذه الامور وانتم تسمعون قول الله عز وجل وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم أفلا تبصرون و يضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق فأي شيء رآه الكفار فى انفسهم وفى الآفاق حتى عرفوا أنه الحق وأي حق عرفه من جحد الديانة ألا يدلكم هذا على أن الله جل اسمه اراد أن يرشدكم الى بواطن الامور الخفية وأسرار فيها مكتومة لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ودحضت كل شبهة وظهرت لكم المعارف السنية ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التي من جهلها كان حريا أن لا يعلم غيرها أليس الله تعالى يقول ومن

كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ونحو ذلك من تأويل القرآن وتفسير السنن والاحكام وايراد ابواب من التجويز والتعليل فاذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه وطلب منه الجواب عنها قال له حينئذ لاتعجل فان دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ويجعل غرضا للعب وجرت عادة الله وسنته في عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده ولذلك قال واذأخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا وقال عز وجل من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم ينتظر وما بدلوا تبديلا وقال جل جلاله يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا وقال لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل ومن أمثال هذا فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه الا لمن أخذ عهده فأعطنا صفقة يمينك وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعقودك أن لاتفشي لنا سرا ولا تظاهر علينا أحدا ولا تطلب لنا غيلة ولا تكتمنا نصحا ولا توالي لنا عدوا فاذا أعطى العهد قال له الداعي أعطنا جعلا من مالك نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الامور وتعريفك اياها والرسم في هذا الجعل بحسب ما يراه الداعي فان امتنع المدعو أمسك عنه الداعي وان أجاب وأعطى نقله الى الدعوة الثانية وانما سميت الاسماعيلية بالباطنية لانهم يقولون لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطن ولكل تنزيل تأويل* (الدعوة الثانية)* لا تكون الا بعد تقدم الدعوى الاولى فاذا تقرر في نفس المدعو جميع ما تقدم وأعطى الجعل قال له الداعي ان الله تعالى لم يرض في اقامة حقه وما شرعه لعباده الا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته على ما اراده الله تعالى ويسلك في تقرير هذا ويستدل عليه بامور مقررة في كتبهم حتى يعلم أن اعتقاد الأئمة قد ثبت في نفس المدعو فاذا اعتقد ذلك نقله الى الدعوة الثالثة *(الدعوة الثالثة)* مرتبة على الثانية وذلك أنه اذا علم الداعي ممن دعاه أن ارتباطه على دين الله لا يعلم الا من قبل الأئمة قرر حينئذ عنده أن الأئمة سبعة قد رتبهم الباري تعالى كما رتب الامور الجليلة فانه جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السموات سبعا وجعل الارضين سبعا ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات* وهؤلاء الأئمة السبعة هم علي بن ابي طالب والحسن بن علي والحسين بن علي وعلي بن الحسين الملقب زين العابدين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد الصادق والسابع هو القائم صاحب الزمان وهم اعني الشيعة مختلفون في هذا القائم فمنهم من يجعله محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق ويسقط اسماعيل بن جعفر ومنهم من يعد اسماعيل بن جعفر اماما ثم يعد ابنه محمد بن اسمعيل فاذا تقرر عند المدعو أن الأئمة سبعة انحل عن معتقد الامامية من الشيعة

القائلين بامامة اثنى عشر اماما وصـار الى معتقد الاسماعيلية بأن الامامة انتقلت الى محمـد ابن اسمعيل بن جعفر فاذا علم الداعي ثبات هذا العقد في نفس المدعو شرع في ثلب بقية الأئمة الذين قد اعتقد الامامية فيهم الامامة وقرر عند المدعو أن محمد بن اسمعيل عنده علم المستورات وبواطن المعلومات التي لا يمكن أن توجد عند احد غيره وأن عنده أيضا علم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر الامور وعنده سر الله تعـالى في وجه تدبيره المكتوم واتقان دلالته في كل امر يسأل عنه في جميع المعدومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله والتأويلات وتأويل التأويلات وأن دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لأنهم أخذوا عنه ومن جهته رووا وان احدا من الناس المخالفين لهم لا يستطيع أن يساويهم ولا يقدر على التحقق بما عندهم الا منهم ويحتج لذلك بما هو معروف في كتبهم مما لا يسع هـذا الكتاب حكايته لطوله فاذا انقاد المدعو وأذعن لما تقرر نقـله الى الدعوة الرابعة * (الدعوة الرابعة) * لا يشرع الداعي في تقريرها حتى يتيقن صحة انقياد المدعو لجميع ما تقدم فاذا تيقن منه صحة الانقياد قرر عنده أن عدد الأنبياء النـاسخين للشرائع المبدلين لاحكامها اصحاب الادوار وتقليب الاحوال النـاطقين بالامور سبعة فقط كعدد الأئمة سواء وكل واحد من هؤلاء الانبياء لا بد له من صـاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ويكون معه ظهيرا له في حياته وخليفة له من بعد وفاته الى أن يبلغ شريعته الى أحد يكون سبيله معه كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه ثم كذلك كل مستخلف خليفة الى أن يأتي منهم على تلك الشريعة سبعة اشخاص ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو اولهم ويسمى الاول من هؤلاء السبعة السوس وانه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبي ينسخ شرع من مضى من قبله وتكون الخلفاء من بعده امورهم تجرى كأمر من كان قبلهم ثم يكون من بعدهم نبي ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت ابدا وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التي كانت قبله ويكون صاحب الزمان الاخير فكان اول هؤلاء الانبياء النطقاء آدم عليه السلام وكان صاحبه وسوسه ابنه شيث وعدوا تمام السبعة الصامتين على شريعة آدم وكان الثاني من الانبياء النطقاء نوح عليه السلام فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم وكان صاحبه وسوسه ابنه سام وتلاه بقية السبعة الصـامتين على شريعـة نوح ثم كان الثالث من الانبياء النطقاء ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح وآدم عليهما السلام وكان صاحبه وسوسه في حياته والخليفـة القائم من بعـده المبلغ شريعته ابنه اسمعيل عليه السلام ولم يزل يخلفه صامت بعد صامت على شريعة ابراهيم حتى تم دور السبعة الصمت وكان الرابع من الانبياء النطقاء موسى بن عمران عليه السلام فانه

نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم ونوح وابراهيم وكان صاحبه وسوسه اخوه هرون ولما مات هرون في حياة موسى قام من بعد موسى يوشع بن نون خليفة له صمت على شريعته وباغها فأخذها عنه واحد بعد واحد الى أن كان آخر الصمت على شريعة موسى يحيي بن زكرياء وهو آخر الصمت ثم كان الخامس من الانبياء النطقاء المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه فانه نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله وكان صاحبه وسوسه شمعون الصفا ومن بعده تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح الى أن كان السادس من الانبياء النطقاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فانه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التي جاء بها الانبياء من قبله وكان صاحبه وسوسه علي بن ابي طالب رضي الله عنه ثم من بعد علي ستة صمتوا على الشريعة المحمدية وقاموا بميراث أسرارها وهم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم جعفر بن محمد ثم اسماعيل بن جعفر الصادق وهو آخر الصمت من الائمة المستورين والسابع من النطقاء هو صاحب الزمان وعند هؤلاء الاسماعيلية انه محمد ابن اسمعيل بن جعفر وانه الذى انتهى اليه علم الاولين وقام بعلم بواطن الامور وكشفها واليه المرجع في تفسيرها دون غيره وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد اليه والتسليم له لان الهداية في موافقته واتباعه والضلال والحيرة في العدول عنه فاذا تقرر ذلك عند المدعو انتقل الداعي الى الدعوة الخامسة *(الدعوة الخامسة)* مترتبة على ما قبلها وذلك أنه اذا صار المدعو في الرتبة الرابعة من الاعتقاد أخذ الداعي يقرر أنه لا بد مع كل امام قائم في كل عصر حجج متفرقون في جميع الارض عليهم تقوم وعدة هؤلاء الحجج ابدا اثنا عشر رجلا في كل زمان كما أن عدد الائمة سبعة ويستدل لذلك بامور منها ان الله تعالى لم يخلق شيئا عبثا ولا بد في خلق كل شيء من حكمة والا فلم خلق النجوم التي بها قوام العالم سبعة وجعل ايضا السموات سبعا والارضين سبعا والبروج اثنى عشر والشهور اثنى عشر شهرا ونقباء بنى اسرائيل اثنى عشر نقيبا ونقباء رسول الله صلى الله عليه وسلم من الانصار اثنى عشر نقيبا وخلق تعالى في كف كل انسان أربع اصابع وفي كل اصبع ثلاث شقوق تكون جملتها اثنى عشر شقا على انه في يد كل ابهام شقان دلالة على ان الانسان بدنه كالارض واصابعه كالجزائر الاربع والشقوق التي في الاصابع كالحجج والابهام الذي به قوام جميع الكف وسداد الاصابع كالذى يقوم الارض بقدر ما فيها والشقان اللذان في الابهام اشارة الي ان الامام وسوسه لا يفترقان ولذلك صار في ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة اشارة الى الحجج الاثنى عشر وصار فى عنقه سبع فكان العنق عاليا على خرزات الظهر وذلك اشارة الى الانبياء النطقاء والائمة السبعة وكذلك الاثقاب السبعة التي في وجه الانسان العالى على بدنه وأشياء من هذا النوع كثيرة فاذا تمهد عند المدعو ما دعاه اليه الداعي وتقرر نقله حينئذ الى الدعوة السادسة *(الدعوة السادسة)* لا تكون الا بعد ثبوت جميع ما تقدم

فى نفس المدعو وذلك أنه اذا صار الى الرتبة الخامسة أخذ الداعى فى تفسير معاني شرائع الاسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة وغير ذلك من الفرائض بأمور مخالفة للظاهر بعد تمهيد قواعد تبين فى ازمنة من غير عجلة تؤدى الى أن هذه الاشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض وتصدهم عن الفساد فى الارض حكمة من الناصبين للشرائع وقوة فى حسن سياستهم لاتباعهم واتقانا منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك حتى يتمكن هذا الاعتقاد في نفس المدعو فاذا طال الزمان وصار المدعو يعتقد أن أحكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة وأن لها معاني أخر غير ما يدل عليه الظاهر نقله الداعي الى الكلام فى الفلسفة وحضه على النظر في كلام افلاطون وأرسطو وفيثاغورس ومن في معناهم ونهاه عن قبول الاخبار والاحتجاج بالسمعيات وزين له الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها فاذا استقر ذلك عنده واعتقده نقله بعد ذلك الى الدعوة السابعة ويحتاج ذلك الى زمان طويل *(الدعوة السابعة)* لا يفصح بها الداعى مالم يكثر أنسه بمن دعاه ويتيقن أنه قد تأهل الى الانتقال الى رتبة اعلى مما هو فيه فاذا علم ذلك منه قال ان صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ولا بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الاصل والآخر عنه كان وصدر وهذا انما هو اشارة العالم السفلي لما يحويه العالم العلوي فان مدبر العالم في اصل الترتيب وقوام النظام صدر عنه اول موجود بغير واسطة ولا سبب نشأ عنه واليه الاشارة بقوله تعالى انما امره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون اشارة الى الاول فى الرتبة والآخر هو القدر الذى قال فيه انا كل شيء خلقناه بقدر وهذا معنى ماسمعه من أن الله اول ماخلق القلم فقال للقلم اكتب فكتب فى اللوح ماهو كائن وأشياء من هذا النوع موجودة فى كتبهم وأصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين الواحد لا يصدر عنه الا واحد وقد أخذ هذا المعنى المتصوفة و بسطوه بعبارات أخر فى كتبهم فان كنت ممن ارتاض وعرف مقالات الناس تبين لك ماذكرت ولا يحتمل هذا الكتاب بسط القول في هذا المعنى واذا تقرر ماذكر في هذه الدعوة عند المدعو نقله الداعى الى الدعوة الثامنة *(الدعوة الثامنة)* متوقفة على اعتقاد سائر ماتقدم فاذا استقر ذلك عند المدعو دينا له قال له الداعى اعلم أن أحد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود والصادر عنه انما تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول فكانت الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثاني بترتيب معروف في بعضهم ومع ذلك فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد فلا يقال هو موجود ولا معدوم ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز وكذلك سائر الصفات فان الاثبات عندهم يقتضي شركة بينه و بين المحدثات والنفي يقتضي التعطيل وقالوا ليس بقديم ولا محدث بل

القديم امره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته كما هو مبسوط في كتبهم فاذا استقر ذلك عند المدعو قرر عنده الداعي أن التالي يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق وأن الصامت في الارض يدأب في أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء وأن الداعي يدأب في أعماله حتى يبلغ منزلة السوس وحاله سواء وهكذا تجرى امور العالم في أكواره وأدواره ولهذا القول بسط كثير فاذا اعتقده المدعو قرر عنده الداعي أن معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير أشياء ينتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوي معاني فلسفية تنبئ عن حقيقة انية السماء والارض وما يشتمل العالم عليه باسره من الجواهر والاعراض فتارة برموز يعقلها العالمون وتارة بافصاح يعرفه كل أحد فينتظم بذلك للنبي شريعة يتبعها الناس ويقرر عنده أيضا أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى مايفهمه العامة وغير مايتبادر الذهن اليه وليس هو الاحدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع كما قد بسطه الفلاسفة في كتبهم فاذا استقر هذا العقد عند المدعو نقله الداعي الى الدعوة التاسعة *(الدعوة التاسعة)* هي النتيجة التي يحاول الداعي بتقرير جميع ماتقدم رسوخها في نفس من يدعوه فاذا تيقن أن المدعو تأهل لكشف السر والافصاح عن الرموز أحاله على ماتقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه وقال ماذكر من الحدوث والاصول رموز الى معاني المبادي وتقلب الجواهر وان الوحي انما هو صفاء النفس فيجد النبي في فهمه مايلقى اليه ويتنزل عليه فيبرزه الى الناس ويعبر عنه بكلام الله الذي ينظم به النبيّ شريعته بحسب مايراه من المصلحة في سياسة الكافة ولا يجب حينئذ العمل بها الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء بخلاف العارف فانه لايلزمه العمل بها ويكفيه معرفته فانها اليقين الذي يجب المصير اليه وما عدا المعرفة من سائر المشروعات فانما هي أثقال وآصار حملها الكفار أهل الجهالة لمعرفة الاعراض والاسباب ومن جملة المعرفة عندهم أن الانبياء النطقاء أصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة وأن الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة وأن الامام انما وجوده في العالم الروحاني اذا صرنا بالرياضة في المعارف اليه وظهوره الآن انما هو ظهور امره ونهيه على لسان اوليائه ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتبهم وهذا حاصل علم الداعي ولهم في ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره (ابتداء هذه الدعوة) اعلم أن هذه الدعوة منسوبة الى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح وكان من غلاة الشيعة فولد ابنا عرف بعبد الله بن ميمون اتسع علمه وكثرت معارفه وكاد أن يطلع على جميع مقالات الخليقة فرتب له مذهبا وجعله في تسع دعوات ودعا الناس الى مذهبه فاستجاب له خلق

وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل وظهر من الاهواز ونزل بعسكر مكرم فصار له مال واشتهرت دعاته فأنكر الناس عليه وهموا به ففر الى البصرة ومعه من اصحابه الحسين الاهوازى فلما انتشر ذكره بها طلب فصار الى بلاد الشام وأقام بسلمية وبها ولد له ابنه احمد فقام من بعد أبيه عبد الله بن ميمون فسير الحسين الاهوازى داعية له الى العراق فلقي حمدان بن الاشعث المعروف بقرمط بسواد الكوفة فدعاه واستجاب له وأنزله عنده وكان من أمره ماهو مذكور فى أخبار القرامطة من كتابنا هذا عند ذكر المعز لدين الله معد ثم انه ولد لاحمد بن عبد الله ابنه الحسين ومحمد المعروف بأبي الشلعلع فلما هلك أحمد خلفه ابنه الحسين ثم قام من بعده أخوه ابو الشلعلع وكان من امرهم ماهو مذكور في موضعه فانتشرت الدعاة فى اقطار الارض وتفقهوا في الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة وصارت علما من العلوم المدونة ثم اضمحلت الآن وذهبت بذهاب اهلها ولهذا يقال ان اصل دعوة الاسماعيلية مأخوذ من القرامطة ونسبوا من أجلها الى الالحاد *(صفة العهد الذى يؤخذ على المدعو)* وهو أن الداعي يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلفه جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله وما أخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق أنك تستر جميع ماتسمعه وسمعته وعلمته وتعلمه وعرفته وتعرفه من امري وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الامام الذى عرفت اقرارى له ونصحى لمن عقد ذمته وأمور اخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ومخالصته له من الذكور والاناث والصغار والكبار فلا تظهر من ذلك شيأ قليلا ولا كثيرا ولا شيأ يدل عليه الا ما أطلقت لك أن تتكلم به أو أطلقه لك صاحب الامر المقيم بهذا البلد فتعمل في ذلك بامرنا ولا تتعداه ولا تزيد عليه وليكن ماتعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك أن تشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له وتشهد أن محمدا عبده ورسوله وتشهد أن الجنة حق وأن النار حق وأن الموت حق وأن البعث حق وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وتقيم الصلاة لوقتها وتؤتي الزكاة لحقها وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده على ماأمر الله به ورسوله وتوالى أولياء الله وتعادى اعداء الله وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ظاهرا وباطنا وعلانية سرا وجهرا فان ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه ويثبته ولا يزيله ويقربه ولا يباعده ويشده ولا يضعفه ويوجب ذلك ولا يبطله ويوضحه ولا يعميه كذلك هو الظاهر والباطن وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين على الشرائط المبينة في هذا العهد جعلت على نفسك الوفاء بذلك قل نعم فيقول المدعو نعم ثم يقول الداعي له والصيانة له بذلك وأداء الامانة على أن لاتظهر شيأ أخذ عليك

في هذا العهد فى حياتنا ولا بعد وفاتنا لافى غضب ولا على حال رضى ولا على رغبة ولافى حال رهبة ولا عند شدة ولا في حال رخاء ولا على طمع ولا على حرمان تاتى الله على الستر لذلك والصيانة له على الشرائط المبينة في هذا العهد وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن تمنعني وجميع من أسميه لك وأثبته عندك مما تمنع منه نفسك وتنصح لنا ولوليك ولى الله نصحا ظاهراً وباطنا فلا تخن الله ووليه ولا احدامن إخواننا وأوليائنا ومن تعلم أنه منا بسبب فى أهل ولا مال ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتاول عليه بما يبطله فان فعلت شيأ من ذلك وأنت تعلم أنك قد خالفته وانت على ذكر منه فأنت برىء من الله خالق السموات والارض الذى سوى خلقك وألف تركيبك وأحسن اليك في دينك ودنياك وآخرتك وتبرأ من رسله الاولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبيين والروحانيين والكلمات التامات والسبع المثاني والقرآن العظيم وتبرأ من التوراة والانجيل والزبور والذكر الحكيم ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الآخرة ومن كل عبد رضى الله عنه وانت خارج من حزب الله وحزب اوليائه وخذلك الله خذلانا بينا يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير الى نار جهنم التى ليس لله فيها رحمة وانت برىء من حول الله وقوته ملجأ الى حول نفسك وقوتك وعليك لعنة الله التى لعن الله بها ابليس وحرم عليه بها الجنة وخلده في النار ان خالفت شيئا من ذلك ولقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ولله عليك أن تحج الى بيته الحرام ثلاثين حجة حجا واجبا ماشيا حافيا لايقبل الله منـك الا الوفاء بذلك وكل ماتملك فى الوقت الذى تخالفه فيـه فهو صدقة على الفقراء والمساكين الذين لارحم بينك وبينهم لايأجرك الله عليه ولا يدخل عليك بذلك منفعـة وكل مملوك لك من ذكر أو أنثى في ملكك أو تستفيده الى وقت وفاتك ان خالفت شيأ من ذلك فهم أحرار لوجـه الله عز وجل وكل امرأة لك أو تتزوجها الى وقت وفاتك ان خالفت شيأ من ذلك فهن طوالق ثلاثا بتة طلاق الحرج لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة وكل ما كان لك من اهل ومال وغيرها فهو عليك حرام وكل ظهار فهو لازم لك وانا المستحلف لك لامامك وحجتك وانت الحالف لهما وان نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحلفك عليه وأحلفك به فهذه اليمين من أولها الى آخرها مجددة عليك لازمة لك لا يقبل الله منك الا الوفاء بها والقيام بما عاهدت بيني وبينك قل نعم فيقول نعم ولهم مع ذلك وصايا كثيرة أضربنا عنها خشية الاطالة وفيما ذكرناه كفاية لمن عقل

(الدواوين)

وكانت دواوين الدولة الفاطمية لمـا قدم المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره في القاهرة محلها بدار الامارة من جوار الجامع الطولوني فلمـا مات المعز وقلد العزيز بالله الوزارة

ليعقوب بن كلس نقل الدواوين الى داره فلما مات يعقوب نقلها العزيز بعد موته الى القصر فلم تزل به الى ان استبد الافضل بن امير الجيوش وعمر دار الملك بمصر فنقل اليها الدواوين فلما قتل عادت من بعده الى القصر وما زالت هناك حتى زالت الدولة * قال في كتاب الذخائر والتحف وحدثني من أثق به قال كنت بالقاهرة يوما من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة وقد استفحل امر المارقين وقويت شوكتهم وامتدت ايديهم الى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير امره فرأيت وقد دخل من باب الديلم احد أبواب القصور المعمورة الزاهرة المعروف بتاج الملوك شادى وفخر العرب عليّ بن ناصر الدولة بن حمدان ورضى الدولة بن رضى الدولة وامير الامراء بختكين بن بسكتكين وامير العرب بن كيغلغ والاعز بن سنان وعدة من الامراء اصحابهم البغداديين وغيرهم وصاروا في الايوان الصغير فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم وكان معهم احد الفراشين المستخدمين برسم القصور المعمورة فدخلوا الى حيث كان الديوان النظرى في الديوان المذكور وصحبتهم فعلة وانتهوا الى حائط مجير فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه فظهرت حنية باب مسدود فأمروا بهدمه فتوصلوا منه الى خزانة ذكر أنها عزيزية من ايام العزيز بالله فوجدوا فيها من السلاح ما يروق الناظر ومن الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب ذات مهارك فضة مجراة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن عدة رزم اعوادها من الزان الجيد ومن السيوف المجوهرة النصول ومن النشاب الخلنجي وغيره ومن الدرق اللمطي والحجف التيني وغير ذلك ومن الدروع المكلل سلاح بعضها والمحلى بعضها بالفضة المركبة عليه ومن التخافيف والجواشن والكراعيدات الملبسة ديباجا المكوكبة بكواكب فضة وغير ذلك مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب ولقد شاهدت بعض حواشيهم وركابياتهم يكسرون الرماح ويتلفون بذلك اعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة ومنهم من يجعل ذلك في سراويله وعمامته وجيبه ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عدة حملوا منها ما قدروا عليه وبقي منها ما كسره الركابية ومن يجري مجراهم كانوا يبيعونه للغزليين ولصناع المراذن حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة ولم تعترضهم الدولة ولا التفتت الى قدر ذلك ولا احتفلت به وجعلته هو وغيره فداء لاموال المسلمين وحفظا لما فى منازلهم

(ديوان المجلس)

قال ابن الطوير ديوان المجلس هو أصل الدواوين قديما وفيه علوم الدولة بأجمعها وفيه عدة كتاب ولكل واحد مجلس مفرد وعنده معين أو معينان وصاحب هذا الديوان هو المتحدث فى الاقطاعات ويلحق بديوان النظر ويخلع عليه وينشأ له السجل وله المرتبة

والمسند والدواة والحاجب الى غير ذلك قال ذكر خدمهم الخاصة المتصلة بهم فأولها دفتر المجلس وصاحبه من الاستاذين المحنكين ثم يتولاه أجل كتاب الدولة ممن يكون مترشحا لرأس الدواوين ويتضمن ذلك الدفتر وله مكان ديوان بالقصر الباطن من الانعام في العطايا والظاهر من الرسوم المعروفة في غرة السنة والضحايا والمرتب من الكسوات للاولاد والاقارب والجهات وارباب الرتب على اختلاف الطبقات وما يرد من ملوك الدنيا من التحف والهدايا وما يرسل اليهم من الملاطفات ومقادير الصلات للمترسلين بالمكاتبات وما يخرج من الاكفان لمن يموت من ارباب الجهات المحترمات ثم يضبط ما ينفق في الدولة من المهمات ليعلم ما بين كل سنة من التفاوت فالصرة المنعم بها في اول العام من الدنانير والرباعية والقراريط تقرب من ثلاثة آلاف دينار وثمن الضحايا يقرب من ألفي دينار وما ينفق في دار الفطرة فيما يفرق على الناس سبعة آلاف دينار وما ينفق في دار الطراز للاستعمالات الخاص وغيرها في كل سنة عشرة آلاف دينار وما ينفق في مهم فتح الخليج غير المطاعم ألفا دينار وما ينفق في شهر رمضان في سماطه ثلاثة آلاف دينار وما ينفق في سماطي الفطر والنحر أربعة آلاف دينار وهذا خارج عما يطلق للناس اصنافا من خزائنه من المآكل والمشارب والمواصلة من الهبات وما تخرج به الخطوط من التشريفات والمسامحات وما يطلق من الاهراء من الغلات حتى لا يفوتهم علم شيء من هذه المطلقات وفي هذه الخدمة كاتب مستقل بين يدي صاحب ديوانه الاصلي ومعه كاتبان آخران لتنزيل ذلك في الدفتر والدفتر عبارة عن جرائد مسطوحات ينزل ذلك فيها في اوقاته من غير فوات قال واذا انقضى عيد النحر من كل سنة تقدم بعمل الاستيمار لتلك السنة تمام ذي الحجة منها فيجتمع كتاب ديوان الرواتب عند متوليه وتحمل العروض اليه فاذا تحررت نسخة التحرير بيضت بعد أن يستدعي من المجلس اوراق بالادرار الذي يقبض بغير خرج وفي الادرار ما هو مستقر بالوجهين فيضاف هذا المبلغ بجهاته الى المبالغ المعلومة بديوان الرواتب وجهاتها حتى لا يفوت من الاستيمار شيء من كل ما تقرر شرحه ويعلم مقداره عينا وورقا وغلة وغير ذلك فيحرر ذلك كله باسماء المرتزقين واولهم الوزير ومن يلوذ به وعلى ذلك الى أن ينتهي الجميع الى ارباب الضر فاذا تكمل استدعى له من خزانة الفرش وطاء حرير لشده وشرابة لمسكه اما خضراء أو حمراء ويعمل له صدر من الكلام اللائق بما بعده وهذا كله خارج عن الكسوات المطلقة لاربابها والرسوم المعدة في كل سنة وما يحمل من دار الفطرة من الاصناف برسم عيد الفطر ومما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية والرسوم وقد انعقد مرة وانا أتولى ديوان الرواتب على ما مبلغه نيف ومائة الف دينار أو قريب من مائتي ألف دينار ومن القمح والشعير على عشرة آلاف اردب فاذا فرغ من مسكه في الشرابة

حمل الى صاحب ديوان النظر ان كان والا فلصاحب ديوان المجلس ليعرضه على الخليفة ان كان يعني مستبدا أو الوزير لاستقبال المحرّم من السنة الآتية في أوقات معلومة فيتأخر في العرض وربما يستوعب المحرم ليحيط العلم بما فيه فاذا كمل العرض أخرج الى الديوان وقد شطب على بعضه وكانوا يخرجون من الاقامات على مال الدولة التي لا اصل لها وعلى غير متوفر ويتنجزها أربابها بالمستقبلات على الخلفاء والوزراء وينقص قوم للاستكثار ويزاد قوم للاستحقاق ويصرف قوم ويستخدم آخرون على ما تقتضيه الآراء في ذلك الوقت ثم يسلم لرب هذا الديوان فيحمل الامر على ما شطب عليه وعلامة الاطلاق خروجه من العرض وقيل انه عمل مرة في ايام المستنصر بالله فلما استؤذن على عرضه قال هل وقع أحد بما فيه غيرنا قيل له معاذالله يامولانا ماتم انعام الالك ولا رزق الا من الله على يديك فقال ماينقض به امرنا ولا خطنا وما صرفناه في دولتنا باذننا وتقدم الى ولى الدولة ابن جبران كاتب الانشاء بامضائه للناس من غير عرض وحمل الامر على حكمه ووقع عن الخليفة بظاهره الفقر مرّ المذاق • والحاجة تذل الاعناق • وحراسة النعم بادرار الارزاق • فايجروا على رسومهم فى الاطلاق • ما عندكم ينفد وما عند الله باق • ووقع فى خلافة الحافظ لدين الله على استيمار الرواتب مانصه أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثير الاعطاء • ولا يكدّره بالتأخير له والتسويف والابطاء • ولما انتهى اليه ماارباب الرواتب عليه من القلق للامتناع من ايجاباتهم • وحمل خروجاتهم • قد ضعفت قلوبهم • وقنطت نفوسهم • وساءت ظنونهم • شملهم برحمته ورأفته • وآمنهم مما كانوا وجلين من مخافته • وجعل التوقيع بذلك بخط يده تأكيدا للانعام والمن • وتهنئة بصدقة لا تتبع بالاذى والمن • فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصورة اجراء ماتضمنت هذه الاوراق ذكرهم • على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم • وايجابها على سياقها لكافتهم • من غير تأول ولا تعنت • ولا استدراك ولا تعقب • وليجروا في نسبياتهم على عادتهم لا ينقض من امرهم ما كان مبرما • ولا ينسخ من رسمهم ما كان محكما • كرما من امير المؤمنين وفعلا مبرورا • وعملا بما اخبر به عز وجل فى قوله تعالى انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا • ولينسخ في جميع الدواوين بالحضرة أن شاء الله تعالى * وقال فى كتاب كنز الدرر ان فى سنة ست واربعمائة عرض على الحاكم بأمر الله الاستيمار باسم المتفقهين والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر وكانت الجملة في كل سنة احدا وسبعين الف دينار وسبعمائة وثلاثة وثلاثين دينارا وثلثي دينار وربع دينار فأمضى جميع ذلك * وقال ابن المأمون وأما الاستيمار فبلغني ممن أثق به أنه كان في الايام الافضلية اثنى عشر ألف دينار وصار فى الايام المامونية لاستقبال سنة ست عشرة وخمسمائة ستة عشر الف دينار وأما تذكرة الطراز فالحكم فيها مثل الاستيمار والشائع فيها أنها كانت تشتمل في الايام الافضلية على أحد وثلاثين الف دينار ثم اشتملت في الايام

المأمونية على ثلاثة واربعين الف دينار وتضاعفت في الايام الآمرية وعرض روزنامج بما انفق عينا من بيت المال في مدة أولها محرم سنة سبع عشرة وخمسمائة وآخرها سلخ ذى الحجة منها فى العساكر المسيرة لجهاد الفرنج براً والاساطيل بحرا والمنفق في ارباب النفقات من الحجرية والمصطنعية والسودان على اختلاف قبوضهم وما ينصرف برسم خزانة القصور الزاهرة وما يبتاع من الحيوان برسم المطابخ وما هو برسم منديل الكم الشريف في كل سنة مائة دينار والمطلق فى الاعياد والمواسم وما ينعم به عند الركوبات من الرسوم والصدقات وعند العود منها وثمن الامتعة المبتاعة من التجار على ايدى الوكلاء والمطلق برسم الرسل والضيوف ومن يصل مستأمنا ودار الطراز ودار الديباج والمطلق برسم الصلات والصدقات ومن يهتدي للاسلام وما ينعم به على الولاة عند استخدامهم في الخدم ونفقات بيت المال والعمائر وهو من العين اربعمائة ألف وثمانية وستون ألفا وسبعمائة وسبعة وتسعون دينارا ونصف من جملة خمسمائة الف وسبعة وستين ألفا ومائة واربعين دينارا ونصف يكون الحاصل بعد ذلك مما يحمل الى الصناديق الخاص برسم المهمات لما يتجدد من تسفير العساكر وما يحمل الى الثغور عند نفاد ما بها ثمانية وتسعين الفا ومائة وسبعة وتسعين دينارا وربما وسدنا ولم يكن يكتب من بيت المال وصول ولا مجرى ولا تعرف وذلك خارج عما يحمل مشاهرة برسم الديوان المأموني والاجلاء اخوته وأولاده وما أنعم به على ماتضمنت اسمه مشاهرة من الاصحاب والحواشي وأرباب الخدم والكتاب والاطباء والشعراء والفراشين الخاص والجوق والمؤدبين والخياطين والرفائين وصبيان بيت المال ونواب الباب ونقباء الرسائل وأرباب الرواتب المستقرة من ذوى النسب والبيوتات والضعفاء والصعاليك من الرجال والنساء عن مشاهرتهم ستة عشر ألفا وستمائة واثنان وثمانون دينارا وثلثا دينار يكون في السنة مائتي الف ومائة دينار فتكون الجملة سبعمائة الف وسبعة وستين ألفا ومائتين وأربعة وتسعين دينارا ونصفا * قال وفى هذا الوقت يعني شوال سنة سبع عشرة وخمسمائة وقعت مرافعة فى ابى البركات بن أبي الليث متولي ديوان المجلس صورتها المملوك يقبل الارض وينهي انه ما واصل انهاء حال هذا الرجل وما يعتمده لانه أهل أن ينال خدمة وانما هى نصيحة تلزمه في حق سلطانه وقد حصل له من الاموال والذخائر مالا عدد له ولا قيمة عليه ويضرب المملوك عن وجوه الجناية التي هى ظاهرة لان السلطان لايرضى بذكرها في عالى مجلسه ولاسماعها في دولته وله ولاهله مستخدمون في الدولة ست عشرة سنة بالجاري الثقيل لكل منهم ويذكر المملوك ماوصلت قدرته الى علمه ماهو باسمه خاصة دون من هو مستخدم في الدواوين من أهله وأصحابه ويبدأ بما باسمه مياومة ادرارا من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الحطب وهو مابين برسم البقولات والتوابل نصف دينار ومن

الضأن رأس واحد ومن الحيوان ثلاثة اطيار ومن الحطب حملة واحدة ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ومن الخبز عشرون وظيفة ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصريتان وشمامة وفي كل اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفور خاص وصحن من الاوائل وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز المواندي والسميذ وفي كل يوم احد وأربعاء من الاسمطة بالدار المأمونية مثل ذلك وفي كل يوم سبت وثلاثاء من اسمطة الركوبات خروف مشوى وجام حلوى ورباعي عنبا ويحضر اليه في كل يوم من الاصطبلات بغلة بمركوب محلى وبغلة برسم الراجل وفراشين من الجوق برسم خدمته وتبيت على بابه واذا خرج من بين يدي السلطان في الليل كان له شمعة من الموكبيات توصله الى داره وزنها سبعة عشر رطلا ولا تعود وبرسم ولده في كل يوم ثلاثة ارطال لحم وعشرة ارطال دقيق وفى ايام الركوبات رباعى والمشاهرة جاري ديوان الخاص والمجلس برسمه مائة وعشرون دينارا وبرسم ولده راتبا عشرة دنانير وأثبت أربعة غلمان نصارى ونسبهم للاسلام في جملة المستخدمين فى الركاب ولم يخدموا الا في الليل ولا في النهار بما مبلغه سبعة دنانير ومن السكر خمسة عشر رطلا ومن عسل النحل عشرة ارطال ومن قلب الفستق ثلاثة ارطال وقلب البندق خمسة ارطال وقلب اللوز أربعة ارطال وورد مربى رطلان زيت طيب عشرة ارطال شيرج خمسة ارطال زيت حار ثلاثون رطلا خل ثلاث جرار أرز نصف ويبة سماق اربعة ارطال حصرم وكشك وحب رمان وقراصيا بالسوية اثنا عشر رطلا سدر وأثنان ويبة ومن الكيزان عشرون شربة عزيزية وثلجية واحدة ومن الشمع ست شمعات منهن أثنتان منويات وأربعة رطليات والمسانهة فى بكور الغرة برسم الخاصة خمسة دنانير وخمس رباعية وعشرة قراريط جدد وبرسم ولده دينار ورباعى وثلاثة قراريط وخروف مقموم وخمسة أرؤس وربع قنطار خبز برماذق وصحن أرز بابن وسكر ومن السماط بالقصر في اليوم المذكور خروف شواء وزبادى وجام حلوى والخبز وقطعة منفوخ ومن القمح ثلثمائة أردب ومن الشعير مائة وخمسون أردبا وفي المواليد الاربعة اربع صوانى فطرة وكسوة الشتاء برسمه خاصة منديل حريرى وشقة ديبقى حرير وشقة ديباج ورداء اطلس وشقة ديباج دارى وشقتان سقلاطون احداهما اسكندرانية وشقتان عتابي وشقتان خز مغربي وشقتان اسكندراني وشقتان دمياطي وشقة طلى مرش وفوطة خاص وبرسم ولده شقة سقلاطون دارى وشقة عتابي دارى وشقة خز مغربى وشقتان دمياطي وشقتان اسكندراني وشقة طلى وفوطة وبرسم من عنده منديلا كم أحدهما خزائني خاص ونصفى اردية ديبقى وشقة سقلاطون دارى وشقة عتابي وشقة سوسى وشقة دمياطي وشقتان اسكندراني وفوطة وبرسمه أيضا فى عيد الفطر طيفوران فطرة مشورة ومائة حبة بورى وبدلة مذهبة مكملة ولولده بدلة حرير وبرسم من عنده حلة

مذهبة وفي عيد النحر رسمه مثل عيد الفطر ويزيد عنه هبة مائة دينار ولولده مثل عيد الفطر وزيادة عشرة دنانير ويساق اليه من الغنم ما لم يكن باسمه وفي موسم فتح الخليج اربعون دينارا وصينية فطرة وطيفور خاص من القصر وخروف شواء وجام حلواء وبرسم ولده خمسة دنانير وللخاصه في النوروز ثلاثون دينارا وشقة ديبقي حريري وشقة لاذ ومعجر حريري ومنديل كم حريري وفوطة ومائة بطيخة وسبعمائة حبة رمان وأربعة عناقيد موز وفرد بسر وثلاثة أقفاص تمر قوصي وقفصان سفر جل وثلاث بكالي هريسة واحدة بدجاج واخرى بلحم ضان والثالثة بلحم بقري وأربعون رطلا خبز برماذق ولولده خمسة دنانير وحوائج النوروز بما تقدم ذكره وبرسمه في الميلاد جام قاهرية ومتردسميد مختصي وزلابية وست قرابات جلاب وعشر حبات بوري وبرسم الغيطاس خمسمائة حبة ترنج ونارنج وليمون مركب وخمسة عشر طن قصب وعشر حبات بوري وباسمه في عيد الغدير من السماط بالقصر مثل عيد النحر وله هبة عن رسم الخلع من المجلس المأموني يعني مجلس الوزارة ثلاثون دينارا ولولده خمسة دنانير ومن تكون هذه رسومه في أي وجه تنصرف أمواله والذى باسم أخيه نظير ذلك وكذلك صهره في ديوان الوزارة وابن أخيه في الديوان التاجي ووجوه الاموال من كل جهة واصلة اليهم والامانة مصروفة عنهم وقد اختصر المملوك فيما ذكر والذى باسمه أكثر واذا أمر بكشف ذلك من الدواوين تبين صحة قول المملوك وعلم أنه ممن يتجنب قول المحال ولا يرضاه لنفسه سيما ان رفعه الى المقام الكريم وشنع ذلك بكثرة القول فيهم وعرض بالقبض عليهم وأوجب على نفسه أنه يثبت في جهاتهم من الاموال التى تخرج عن هذا الانعام مايجده حاضرا مدخورا عند من يعرفه مائة الف دينار فلم يسمع كلامه الى أن ظهر الراهب في الايام الآمرية فوجد هو وغيره الفرصة فيهم وكثر الوقائع عليهم فقبض عليهم عن آخرهم ومن يعرفهم وأخذ منهم الجملة الكبيرة ثم بعد ذلك عادوا الى خدمهم بما كان من اسمائهم وتجدد من جاههم وانتقامهم من اعدائهم أكثر مما كان أولا انتهى فانظر أعزك الله الى سعة أحوال الدولة من معلوم رجل واحد من كتاب دواوينها يتبين لك بما تقدم ذكره في هذه المرافعة من عظم الشأن وكثرة العطاء مايكون دليلا على باقي أحوال الدولة

(ديوان النظر)

قال ابن الطوير أما دواوين الاموال فان أجلها من يتولى النظر عليهم وله العزل والولاية ومن يده عرض الاوراق في أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ولم يرفيه نصراني الا الاحزه ولم يتوصل اليه الا بالضمان وله الاعتقال بكل مكان يتعلق بنواب الدولة وله الجلوس بالمرتبة والمسند و بين يديه حاجب من أمراء الدولة وتخرج له الدواة بغير

كرسي وهو ينذب المترسلين لطلب الحساب والحث على طلب الاموال ومطالبة أرباب الدولة ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة

(ديوان التحقيق)

هو ديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين وكان لا يتولاه الا كاتب خبير وله الخلع والمرتبة والحاجب ويلحق برأس الديوان يعني متولى النظر ويفتقر اليه في أكثر الاوقات *وقال ابن المأمون وفي هذه السنة يعني سنة احدى وخمسمائة فتح ديوان المجلس قال ولما كثرت الاموال عند ابن أبي الليث صاحب الديوان رغب في التبجح على الافضل بن أمير الجيوش ينهضه ويسأله أن يشاهده قبل حمله وذكر أنه سبعمائة ألف دينار خارجا عن نفقات الرجال فجعلت الدنانير في صناديق بجانب والدراهم في صناديق بجانب وقال ابن أبي الليث بين الصفين فلما شاهد الافضل بن أمير الجيوش ذلك قال لابن أبي الليث ياشيخ تفرحني بالمال وتربة أمير الجيوش أن بلغني أن بئرا معطلة أو أرضا بائرة أو بلدا خراب لاضرب عنقك فقال وحق نعمتك لقد حاشا الله ايامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة أو أرض بور فأبى أن يكشف عما ذكر انتهى وقتل ابن أبي الليث في سنة ثمان عشرة وخمسمائة

(ديوان الجيوش والرواتب)

قال ابن الطوير أما الخدمة في ديوان الجيوش فتنقسم قسمين • الاول ديوان الجيش وفيه مستوف أصيل ولا يكون الا مسلما وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدي الخليفة داخل عتبة باب المجلس وله الطراحة والمسند وبين يديه الحاجب وترد عليه أمور الاجناد وله العرض والحلى والثياب ولهذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد واذا عرض أحد الاجناد ورضى به عرض دوابه فلا يثبت له الا الفرس الجيد من ذكور الخيل واناثها ولا يترك لاحد منهم برذون ولا بغل وان كان عندهم البراذين والبغال وليس لهم تغيير أحد من الاجناد الا بمرسوم وكذلك اقطاعهم ويكون بين يدى هذا المستوفى نقباء الامراء ينهون اليه متجددات الاجناد من الحياة والموت والمرض والصحة وكان قد فسح للأجناد في مقايضة بعضهم بعضا في الاقطاع بالتوقيعات بغير علامة بل بتخريج صاحب ديوان المجلس ومن هذا الديوان تعمل أوراق أرباب الجرايات وما كان لامير وان علا قدره بلد مقور الانادراء وأما القسم الثاني من هذا الديوان فهو ديوان الرواتب ويشتمل على أسماء كل مرتزق وجار وجارية وفيه كاتب أصيل بطراحة وفيه من المعينين والمبيضين نحو عشرة أنفس والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمر ومباشرة من استجد وموت من مات ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم وفي هذا الديوان عدة عروض *العرض الاول يشتمل على راتب الوزير وهو في الشهر خمسة آلاف دينار ومن يليه من ولد وأخ من ثلثمائة

دينارا الى مائتي دينار ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى شجاع بن شاور المنعوت بالكامل ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من خمسمائة الى أربعمائة الى ثلثمائة خارجا عن الاقطاعات * العرض الثانى حواشى الخليفة وأولهم الاستاذون المحنكون على رتبهم وجوارى خدمهم التى لا يباشرها سواهم فزمام القصر وصاحب بيت المال وحامل الرسالة وصاحب الدفتر ومشاد التاج وزمام الاشراف الاقارب وصاحب المجلس لكل واحد منهم مائة دينار في كل شهر ومن دونهم ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير وتزيد عدتهم على ألف نفس ولطبيبي الخاص لكل واحد خمسون دينارا ولمن دونهما من الاطباء برسم المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير * العرض الثالث يتضمن ارباب الرتب بحضرة الخليفة فاوله كاتب الدست الشريف وجاريه مائة وخمسون دينارا ولكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا ثم صاحب الباب وجاريه مائة وعشرون دينارا ثم حامل السيف وحامل الرمح لكل منهما سبعون دينارا وبقية الازمة على العساكر والسودان من خمسين الى أربعين دينارا الى ثلاثين دينارا * العرض الرابع يشتمل على المستقر لقاضى القضاة ومن يلى قاضى القضاة مائة دينار وداعى الدعاة مائة دينار ولكل من قراء الحضرة عشرون دينارا الى خمسة عشر الى عشرة ولخطباء الجوامع من عشرين دينارا الى عشرة وللشعراء من عشرين دينارا الى عشرة دنانير * العرض الخامس يشتمل على ارباب الدواوين ومن يجري مجراهم وأولهم من يتولى ديوان النظر وجاريه سبعون دينارا وديوان التحقيق جاريه خمسون دينارا وديوان المجلس أربعون دينارا وصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون دينارا وكاتبه خمسة دنانير وديوان الجيوش وجاريه أربعون دينارا والموقع بالقلم الجليل ثلاثون دينارا ولجميع اصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات لكل واحد عشرون دينارا ولكل معين من عشرة دنانير الى سبعة الى خمسة دنانير * العرض السادس يشتمل على المستخدمين بالقاهرة ومصر لكل واحد من المستخدمين في ولاية القاهرة وولاية مصر في الشهر خمسون دينارا والحماة بالاهراء والمناخات والجوالي والبساتين والاملاك وغيرها لكل منهم من عشرين دينارا الى خمسة عشر الى عشرة الى خمسة دنانير * العرض السابع الفراشون بالقصور برسم خدمها وتنظيفها خارجا وداخلا ونصب الستائر المحتاج اليها وخدمة المناظر الخارجية عن القصر فمنهم خاص برسم خدمة الخليفة وعدتهم خمسة عشر رجلا منهم صاحب المائدة وحامى المطابخ من ثلاثين دينارا الى ما حولها ولهم رسوم متميزة ويقربون من الخليفة فى الاسمطة التي يجلس عليها ويليهم الرشاشون داخل القصر وخارجه ولهم عرفاء ويتولى أمرهم استاذ من خواص الخليفة وعدتهم نحو الثلثمائة رجل وجاريهم من عشرة دنانير الى خمسة دنانير * العرض الثامن صبيان الركاب وعدتهم تزيد على ألفي رجل

ومقدموهم أصحاب ركاب الخليفة وعدتهم اثنا عشر مقدما منهم مقدم المقدمين وهو صاحب الركاب اليمين ولكل من هؤلاء المقدمين في كل شهر خمسون دينارا ولهم نقباء من جهة المذكورين يعرفونهم وهم مقررون جوقا على قدر جواريهم جوقة لكل منهم خمسة عشر دينارا وجوقة لكل منهم عشرة دنانير وجوقة لكل منهم خمسة دنانير ومنهم من ينتدب في الخدم السلطانية ويكون لهم نصيب في الاعمال التي يدخلونها وهم الذين يحملون الملحقات لركوب الخليفة في المواسم وغيرها وأول من قرر العطاء لغلمانه وخدمه وأولادهم الذكور والاناث ولنسائهم وقرر لهم أيضاً الكسوة العزيز بالله نزار بن المعز

(ديوان الانشاء والمكاتبات)

وكان لا يتولاه الا أجل كتاب البلاغة ويخاطب بالشيخ الاجل ويقال له كاتب الدست الشريف ويسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من يده وهو الذى يأمر بتنزيلها والاجابة عنها للكتاب والخليفة يستشيره في اكثر اموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه وهذا أمر لا يصل اليه غيره وربما بات عند الخليفة ليالى وكان جاريه مائة وعشرين دينارا في الشهر وهو اول أرباب الاقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات ولا سبيل أن يدخل الى ديوانه بالقصر ولا يجتمع بكتابه أحد الا الخواص وله حاجب من الامراء الشيوخ وفراشون وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة لكنها بغير كرسى وهى من أخص الدوى ويحملها استاذ من استاذى الخليفة

(التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم)

وكان لا بد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله وتجويد الخط وأخبار الانبياء والخلفاء فهو يجتمع به في اكثر الايام ومعه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك فيكون الاستاذ ثالثهما ويقرأ على الخليفة ملخص السير ويكرر عليه ذكر مكارم الاخلاق وله بذلك رتبة عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست ويكون صحبته للجلوس دواة محلاة فاذا فرغ من المجالسة ألتى في الدواة كاغد فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثاني مرة وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق وله طراحة ومسند وفراش يقدم اليه ما يوقع عليه وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات لا يدخل اليه أحد الا باذن وهو يلي صاحب ديوان المكاتبات فى الرسوم والكساوى وغيرها

(التوقيع بالقلم الجليل)

وهي رتبة جليلة ويقال لها الخدمة الصغرى ولها الطراحة والمسند بغير حاجب بل الفراش لترتيب ما يوقع فيه

(مجلس النظر في المظالم)

كانت الدولة اذا خلت من وزير صاحب سيف جلس صاحب الباب في باب الذهب بالقصر وبين يديه النقباء والحجاب فينادي المنادي بين يديه يا أرباب الظلامات فيحضرون فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت الى الولاة والقضاة رسالة بكشفها ومن تظلم ممن ليس من أهل البلدين أحضر قصة بأمره فيتسلمها الحاجب منه فاذا جمعها أحضرها الى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها ثم تحمل الى الموقع بالقلم الجليل فيبسط ما أشار اليه الموقع الاول ثم تحمل في خريطة الى الخليفة فيوقع عليها ثم تخرج في الخريطة الى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه فان كان وزيره صاحب سيف جلس للمظالم بنفسه وقبالته قاضي القضاة ومن جانبيه شاهدان معتبران ومن جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ويليه صاحب ديوان المال وبين يديه صاحب الباب واسفهسلار العساكر وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم ويكون الجلوس بالقصر فى مجلس المظالم في يومين من الاسبوع. وكان الخليفة اذا رفعت اليه القصة وقع عليها يعتمد ذلك ان شاء الله تعالى ويوقع في الجانب الايمن منها يوقع بذلك فتخرج الى صاحب ديوان المجلس فيوقع عليها جليلا ويخلي مكان العلامة فيعلم عليها الخليفة وتثبت وكانت علامتهم أبدا الحمد لله رب العالمين وكان الخليفة يوقع في المسامحة والتسويغ والتحبيس قد أمضينا بذلك وقد أمضينا ذلك وكان اذا أراد أن يعلم ذلك الشيء الذي أنهى وقع ليخرج الحال فى ذلك فاذا أحضر اليه اخراج الحال علم عليه فان كان حينئذ وزير وقع الخليفة بخطه وزيرنا السيد الاجل وذكر نعته المعروف به أمتعنا الله ببقائه يتقدم بجاز ذلك ان شاء الله تعالى فيكتب الوزير تحت خط الخليفة يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ويثبت فى الدواوين

(رتب الامراء)

وكان أجل خدم الامراء أرباب السيوف خدمة الباب ويقال لمتولي هذه الخدمة صاحب الباب وينعت أولا بالمعظم وأول من خدم بها المعظم خمرتاش في أيام الخليفة الحافظ وكان من العقلاء وناب عن الحافظ فى مرضه فلما عوفى اراده على الوزارة فامتنع وله نائب يقال له النائب وتسمى الخدمة فيها بالنيابة الشريفة ومقتضاها أنها مميزة ولا يليها الا أعيان العدول وأرباب العمائم وينعت أبدا بعدى الملك وهو الذى يتلقى الرسل الواصلة من الدول ومعه نواب الباب في خدمته ويحفظهم وينزلهم بالاماكن المعدة لهم ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب فيكون صاحب الباب يميناً وهو يسار ويتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم ولا يمكن من التقصير فى حقوقهم واجتماع الناس بهم والاطلاع على ماجاؤا فيه ولا من ينقل الاخبار اليهم ويلي رتبة صاحب الباب الاسفهسلار وهو زمام كل زمام واليه أمور

الاجناد ثم يليه حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة واليتيمة ثم من يزم طائفتي الحافظية والآمرية وهما وجه الاجناد وهؤلاء أرباب الاطواق ويليهم أرباب القصب والعماريات وهى الاعلام ثم زى الطوائف ثم من يترشح لذلك من الاماثل وكانت الدولة لا تسند ذلك الا الى أرباب الشجاعة والنجدة ولهذا دخل فيه أخلاط الناس من الارمن والروم وغيرهم وعلى ذلك كان عملهم لا للزينة والتباهى

(قاضى القضاة)

وكان من عادة الدولة أنه اذا كان وزير رب سيف فانه يقلد القضاء رجلا نيابة عنه وهذا انما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالي واذا كان الخليفة مستبداً قلد القضاء رجلا ونعته بقاضى القضاة وتكون رتبته أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الاقلام ويكون في بعض الاوقات داعياً فيقال له حينئذ قاضى القضاة وداعى الدعاة ولا يخرج شئ من الامور الدينية عنه ويجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص بمصر على طراحة ومسند حرير فلما ولي ابن عقيل القضاء رفع المرتبة والمسند وجلس على طراحات السامان فاستمر هذا الرسم ويجلس الشهود حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم وبين يديه خمسة من الحجاب أثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم اليه وله أربعة من الموقعين بين يديه اثنان يقابلان اثنين وله كرسى الدواة وهى دواة محلاة بالفضة تحمل اليه من خزائن القصور ولها حامل بجامكية فى الشهر على الدولة ويقدم له من الاصطبلات برسم ركوبه على الدوام بغلة شهباء وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة وعليها من خزانة السروج سرج محلى ثقيل ووراءه دفتر فضة ومكان الجلد حرير وتأتيه فى المواسم الاطواق ويخلع عليه الخلع المذهبة بلا طبل ولا بوق الا اذا ولى الدعوة مع الحكم فان للدعوة في خلعها الطبل والبوق والبنود الخاص وهى نظير البنود التي يشرف بها الوزير صاحب السيف واذا كان للحكم خاصة كان حواليه القراء رجالة وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة والوزير ان كان ثم ويحمل بنواب الباب والحجاب ولا يتقدم عليه أحد فى محضر هو حاضره من رب سيف وقلم ولا يحضر لاملاك ولا جنازة الا باذن ولا سبيل الى قيامه لاحد وهو فى مجلس الحكم ولا يعدل شاهد الا بأمره ويجلس بالقصر في يومى الاثنين والخميس أول النهار للسلام على الخليفة ونوابه لايفترون عن الاحكام ويحضر اليه وكيل بيت المال وكان له النظر في ديوان الضرب لضبط مايضرب من الدنانير فكان يحضر مباشرة التغليق بنفسه ويختم عليه ويحضر لفتحه وكان القاضى لا يصرف الا بجنحة ولا يعدل أحداً الا بتزكية عشرين شاهداً عشرة من مصر وعشرة من القاهرة ورضى الشهود به ولا يحتمى أحد على الشرع ومن فعل ذلك أدب

(قاعة الفضة)

وهي من جملة قاعات القصر

(قاعة السدرة)

كانت بجوار المدرسة والتربة الصالحية واشتراها قاضي القضاة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسي الحنبلي مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية بألف وخمسة وتسعين ديناراً في رابع شهر ربيع الآخر سنة ستين وستمائة من كمال الدين ظافر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال ثم باعها شمس الدين المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى ربيع الآخر المذكور وكان يتوصل اليها من باب البحر

(قاعة الخيم)

كانت شرقي قاعة السدرة وقد دخلت قاعة السدرة وقاعة الخيم فى مكان المدرسة الظاهرية العتيقة

(المناظر الثلاث)

استجدهن الوزير المأمون البطائحي وزير الخليفة الآمر بأحكام الله احداهن بين باب الذهب وباب البحر والاخرى على قوس باب الذهب ومنظرة ثالثة وكان يقال لها الزاهرة والفاخرة والناضرة وكان يجلس الخليفة في احداها لعرض العساكر يوم عيد الغدير ويقف الوزير في قوس باب الذهب

(قصر الشوك)

قال ابن عبد الظاهر كان منزلا لبني عذرة قبل القاهرة يعرف بقصر الشوك وهو الآن أحد أبواب القصر انتهى والعامة تقول قصر الشوق وأدركت مكانه داراً استجدت بعد الدولة الفاطمية هدمها الامير جمال الدين يوسف الاستادار في سنة احدى عشرة وثمانمائة لينشئها داراً فمات قبل ذلك وموضعه اليوم بالقرب من دار الضرب فيما بينه وبين المارستان العتيق

(قصر أولاد الشيخ)

هذا المكان من جملة القصر الكبير وكان قاعة فسكنها الوزير الصاحب الامير الكبير معين الدين حسين ابن شيخ الشيوخ صدرالدين بن حمويه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فعرف به وأدركت هذا المكان خطاً يعرف بالقصر يتوصل اليه من زقاق تجاه حمام بيسرى وفيه عدة دور منها دار الطواشي سابق الدين ومدرسته المعروفة بالمدرسة السابقية وكان يتوصل اليه من الركن المخلق أيضاً من الباب المظلم تجاه سور سعيد السعداء المعروف قديماً بباب الريح ثم عرف بقصر ابن الشيخ وعرف فى زمننا بباب القصر الى أن هدمه

جمال الدين الاستادار كما يأتي ان شاء الله تعالى

(قصر الزمرذ)

هو من جملة القصر الكبير وعرف أخيرا بقصر قوصون ثم عرف في زمننا بقصر الحجازية وقيل له قصر الزمرذ لانه كان بجوار باب الزمرذ أحد أبواب القصر ووجد به في سنة بضع وسبعين وسبعمائة تحت التراب عمودان عظيمان من الرخام الابيض فعمل لهما ابن عابد رئيس الحراريق السلطانية اساقيل وجرهما الى المدرسة التي انشأها الملك الاشرف شعبان بن حسين تجاه الطبلخاناة من قلعة الجبل وأدركنا لجر هذين العمودين اوقاتا في ايام تجمع الناس فيها من كل أوب لمشاهدة ذلك ولهجوا بذكرهما زمناوقالوا فيهما شعراوغناء كثيرا/وعملوا نموذجات من ثياب الحرير وتطريز المناديل عرفت بجر العمود وكانت الانفس حينئذ منبسطة والقلوب خالية من الهموم وللناس اقبال على اللهو لكثرة نعمهم وطول فراغهم وكان العمودان المذكوران مما ارتدم من أنقاض القصر فسبحان الوارث

(الركن المخلق)

موضعه الآن تجاه حوض الجامع الاقمر على يمنة من أراد الدخول الى المسجد المعروف الآن بمعبد موسى وقيل له الركن المخلق لانه ظهر في سنة ستين وستمائة في هذا الموضع حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى عليه السلام نخلق بالزعفران وسمي من ذلك اليوم بالركن المخلق وأخبرني الامير الوزير ابو المعالي يلبغا السالمي أنه قرأ في الاسطر المكتوبة بأسكفة باب الجامع الاقمر كلاما من جملته والحوانيت التي بالركن المخوق بواو بعد الخاء فرأيت بعد ذلك في الامالي للقال وقال ابو عبيدة عن أبي عمرو الخوقاء الصحراء التي لا ماء بها ويقال الواسعة وأخوق واسع فلعله سمي المخوق بمعنى الاتساع فكان ركنا متسعا وفي بناء واسع أو يكون المخلق باللام من قولهم قدح مخلق بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام وفتحها اى مستو أملس وكل مالين وماس فقد خلق فكل مملس مخلق وسمته العامة بعد ذلك الركن المخلق عند ما خلقوه بالزعفران والله أعلم

(السقيفة ٣)

وكان من جملة القصر الكبير موضع يعرف بالسقيفة يقف عنده المتظلمون وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين فاذا ظلم احد وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله فيسمعه الخليفة فيأمر باحضاره اليه او يفوض امره الى الوزير أو القاضي او الوالى • ومن غريب ماوقع أن الموفق بن الخلال لما كان

(٣) قوله السقيفة هكذا هنا في النسخ بالقاف والفاء وهو الظاهر المتبادر خلافا لما مرّ من أنها سفينة بالفاء والنون اه مصححه

يحدث في امور الدواوين ايام الخليفة الحافظ لدين الله وخرج من انتدب بعد انحطاط النيل من العدول والنصارى الكتاب الى الاعمال لتحرير ما شمله الرى وزرع من الاراضى وكتابة المكلفات فخرج الى بعض النواحي من يمسحها من شاد وناظر وعدول وتأخر الكاتب النصراني ثم لحقهم وأراد التعدية الى الناحية فحمله ضامن تلك المعدية الى البر وطلب منه اجرة التعدية فنفر فيه النصراني وسبه وقال أنا ماسح هذه البلدة وتريدمنى حق التعدية فقال له الضامن ان كان لى زرع خذه وقلع لجام بغلة النصراني وألقاه في معديته فلم يجد النصرانى بدا من دفع الاجرة اليه حين أخذ لجام بغلته فلما تم مساحة البلد وبيض مكلفة المساحة ليحملها الى دواوين الباب وكانت عادتهم حينئذ كتب الجملة بزيادة عشرين فدانا ترك بياضا في بعض الاوراق وقابل العدول على المكلفة وأخذ الخطوط عليها بالصحة ثم كتب في البياض الذي تركه ارض اللجام باسم ضامن المعدية عشرين فدانا قطيعة كل فدان اربعة دنانير عن ذلك ثمانون دينارا و حمل المكلفة الى ديوان الاصل وكانت العادة اذا مضى من السنة الخراجية اربعة اشهر ندب من الجند من فيه حماسة وشدة ومن الكتاب العدول وكاتب نصرانى فيخرجون الى سائر الاعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة فينفق في الاجناد فانه لم يكن حينئذ للاجناد اقطاعات كما هو الآن وكان من العادة أن يخرج الى كل ناحية ممن ذكر من لم يكن خرج وقت المساحة بل ينتدب قوم سواهم فلما خرج الشاد والكاتب والعدول لاستخراج ثلث مال الناحية استدعوا ارباب الزرع على ما تشهد به المكلفة ومن جملتهم ضامن المعدية فلما حضر ألزم بستة وعشرين دينارا وثلثى دينار عن نظير ثلث المال الثمانين دينارا التى تشهد بها المكلفة عن خراج ارض اللجام فانكر الضامن أن تكون له زراعة بالناحية وصدقه اهل البلد فلم يقبل الشاد ذلك وكان عسوفا وأمر به فضرب بالمقارع واحتج بخط العدول على المكلفة وما زال به حتى باع معديته وغيرها وأورد ثلث المال الثابت فى المكلفة وسار الى القاهرة فوقف تحت السقيفة وأعلن بما تقدم ذكره فأمر الخليفة الحافظ باحضاره فلمامثل بحضرته قص عليه ظلامته مشافهة وحكى له ما اتفق منه في حق النصرانى وما كاده به فأحضر ابن الخلال وجميع ارباب الدواوين وأحضرت المكلفات التى عملت للناحية المذكورة في عدة سنين ماضية وتصفحت بين يديه سنة سنة فلم يوجد لارض اللجام ذكر ألبتة فحينئذ أمر الخليفة الحافظ باحضار ذلك النصرانى وسمر في مركب وأقام له من يطعمه ويسقيه وتقدم بأن يطاف به سائر الاعمال وينادى عليه ففعل ذلك وأمر بكف ايدى النصرانية كلها عن الخدم في سائر المملكة فتعطلوا مدة الى أن ساءت احوالهم وكان الحافظ مغرما بعلم النجوم وله عدة من المنجمين من جملتهم شخص صار اليه عدة من أكابر كتاب النصارى ودفعوا

اليه جملة من المال ومعهم رجل منهم يعرف بالاخرم بن أبي زكريا وسألوه أن يذكر للحافظ في أحكام تلك السنة حلية هذا الرجل فانه ان أقامه في تدبير دولته زاد النيل ونما الارتفاع وزكت الزروع ونتجت الاغنام ودرت الضروع وتضاعفت الاسماك وورد التجار وجرت قوانين المملكة على اجمل الاوضاع فطمع ذلك المنجم في كثرة ما عاينه من الذهب وعمل ما قرره النصارى معه فلما رأى الحافظ ذلك تعلقت نفسه بمشاهدة تلك الصفة فأمر باحضار الكتاب من النصارى وصار يتصفح وجوههم من غير أن يطلع أحدا على ما يريده وهم يؤخرون الاخرم عن الحضور اليه قصدا منهم وخشية أن يفطن بمكرهم الى أن اشتد الزامهم باحضار سائر من بقي منهم فأحضروه بعد أن وضعوا من قدره فلما رآه الحافظ رأى فيه الصفات التي عينها منجمه فاستدناه اليه وقربه وآل أمره الى أن ولاه أمير الدواوين فأعاد كتاب النصارى أوفر ما كانوا عليه وشرعوا في التجبر وبالغوا فى اظهار الفخر وتظاهروا بالملابس العظيمة وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسروج المحلاة واللجم الثقيلة وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الاحباس الدينية والاوقاف الشرعية واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات وصودر بعض كتاب المسلمين فألجأته الضرورة الى بيع أولاده وبناته فيقال انه اشتراهم بعض النصارى وفى ذلك يقول ابن الخلال

اذا حكم النصارى في الفروج * وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرا * وصار الامر فى ايدى العلوج
فقل للاعور الدجال هذا * زمانك ان عزمت على الخروج

وموضع السقيفة فيما بين درب السلامي وبين خزانة البنود يتوصل اليه من تجاه البئر التي قدام دار كانت تعرف بقاعة ابن كتيلة ثم استولى عليها جمال الدين الاستادار وجعلها مسكنا لاخيه ناصر الدين الخطيب وغير بابها

(دار الضرب)

هذا المكان الذى هو الآن دار الضرب من بعض القصر فكان خزانة بجوار الايوان الكبير سجن بها الخليفة الحافظ لدين الله ابو الميمون عبد المجيد ابن الامير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله ابي تميم معد وذلك أن الآمر لما قتل فى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة اربع وعشرين وخمسمائة قام العادل برغش وهزار الملوك جوامرد وكانا أخص غلمان الآمر بالامير عبد المجيد ونصباه خليفة ونعتاه بالحافظ لدين الله وهو يومئذ أكبر الاقارب سنا وذكر أن الآمر قال قبل أن يقتل باسبوع عن نفسه المسكين المقتول بالسكين وأنه أشار الى أن بعض جهاته حامل منه وأنه رأى انها ستلد ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفالته للامير عبد المجيد فجلس على أنه كافل للمذكور وندب هزار الملوك

للوزارة وخلع عليه فلم ترض الاجناد به وثاروا بين القصرين وكبيرهم رضوان بن ولخشى وقاموا بأبي علي بن الافضل الملقب بكتيفات وقالوا لا نرضي الا أن يصرف هزار الملوك وتفوض الوزارة لاحمد بن الافضل في سادس عشر دفكان اول ما بدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ وسجنه بالقاعة المذكورة وقيده وهم بخلعه فلم يتأت له ذلك وكان اماميا فأبطل ذكر الحافظ من الخطبة وصار يدعو للقائم المنتظر ونقش على السكة الله الصمد الامام محمد فلما قتل في يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة بالميدان خارج باب الفتوح سارع صبيان الخاص الذين تولوا قتله الى الحافظ وأخرجوه من الخزانة المذكورة وفكوا عنه قيده وكان كبيرهم يانس وأجلسوه في الشباك على منصب الخلافةوطيف برأس أحمد ابن الافضل وخلع على يانس خلع الوزارة وما زالت الخلافة في يد الحافظ حتى مات ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة عن سبع وستين سنة منها خليفة من حين قتل ابن الافضل ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وأيام

(خزائن السلاح)

كانت بالايوان الكبير الذى تقدم ذكره فى صدر الشباك الذى يجلس فيه الخليفةتحت القبة التي هدمت في سنة سبع وثمانين وسبعمائة كما تقدم وخزائن السلاح المذكورة هى الآن باقية بجوار دار الضرب خلف المشهد الحسيني وعقد الايوان باق وقد تشعث

(المارستان العتيق)

قال القاضى الفاضل في متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة فى تاسع ذي القعدة أمر السلطان يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير له مكان بالقصر وأفرد برسمه من اجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلات جهاتها الفيوم واستخدم له أطباء وطبائعيين وجرائحيين ومشارف وعاملا وخداما ووجد الناس به رفقا واليه مستروحا وبه نفعا وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم وأفرد برسمه من ديوان الاحباس ما تقدير ارتفاعه عشرون دينارا واستخدم له طبيب وعامل ومشارف وارتفق به الضعفاء وكثر بسبب ذلك الدعاء وقال ابن عبد الظاهر كان قاعة بناها العزيز بالله في سنة اربع وثمانين وثلثمائة وقيل ان القرآن مكتوب في حيطانهاومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلسم بها ولما قيل ذلك لصلاح الدين رحمه الله قال هذا يصلح أن يكون مارستانا وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا انه صحيح وكان قديما المارستان فيما بلغني القشاشين وأظنه المكان المعروف بدار الديلم انتهى والقشاشين المذكورة تعرف اليوم بالخراطين المسلوك فيها الى الخيميين والجامع الازهر

(التربة المعزية)

كان من جملة القصر الكبير التربة المعزية وفيها دفن المعز لدين الله آباءه الذين أحضرهم في توابيت معه من بلاد المغرب وهم الامام المهدى عبيد الله وابنه القائم بامر الله محمد وابنه الامام المنصور بنصر الله اسماعيل واستقرت مدفنا يدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساءهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وهو مكان كبير من جملتها الموضع الذى يعرف اليوم بخط الزراكشة العتيق ومن هناك بابها ولما أنشأ الامير جهاركس الخليلي خانه المعروف به في الخط المذكور أخرج ما شاء الله من عظامهم فألقيت في المزابل على كيمان البرقية ويمتد من هناك من حيث المدرسة البديرية خلف المدارس الصالحية النجمية وبها الى اليوم بقايا من قبورهم وكان لهذه التربة أعوايد ورسوم منها أن الخليفة كلما ركب بمظلة وعاد الى القصر لا بد أن يدخل الى زيارة آبائه بهذه التربة وكذلك لا بد أن يدخل في يوم الجمعة دائما وفى عيدى الفطر والاضحى مع صدقات ورسوم تفرق قال ابن المأمون وفي هذا الشهر يعني شوال سنة ست عشرة وخمسمائة تنبه ذكر الطائفة النزارية وتقرر بين يدى الخليفة الآمر باحكام الله أن يسير رسول الى صاحب الموق بعد أن جمعوا الفقهاء من الاسماعيلية والامامية وقال لهم الوزير المأمون البطائحي ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الاسماعيلية فقال كل منهم لم يكن لنزار امامة ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله وذكروا حججهم فكتب الكتاب ووصلت كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قويت شوكتهم واشتدت في البلاد طمعتهم وأنهم سيروا الآن ثلاثة آلاف برسم النجوى وبرسم المؤمنين الذين تنزل الرسل عندهم ويختفون في محلهم فتقدم الوزير بالفحص عنهم والاحتراز التام على الخليفة فى ركوبه ومنتزهاته وحفظ الدور والاسواق ولم يزل البحث في طلبهم الى أن وجدوا فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلون بالمال فصلبوا وأما المال وهو الفا دينار فان الخليفة أبى قبوله وأمر أن ينفق في السودان عبيد الشراء وأحضر من بيت المال نظير المبلغ وتقدم بأن يصاغ به قنديلان من ذهب وقنديلان من فضة وأن يحمل منها قنديل ذهب وقنديل فضة الى مشهد الحسين بثغر عسقلان وقنديل الى التربة المقدسة تربة الائمة بالقصر وأمر الوزير المأمون باطلاق الفي دينار من ماله وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسم المشهد العسقلاني وأن يصاغ على المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبي طالب بالجامع العتيق بمصر من فوق الفضة ذهب وأطلق حاصل الصناديق التى تشتمل على مال النجاوى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامع الثلاثة الازهر بالقاهرة والعتيق بمصر وجامع القرافة وعلى فقراء المؤمنين على ابواب القصور وأطلق من الاهراء ألفي اردب قمحا وتصدق على عدة من الجهات بجملة

كثيرة واشتريت عدة جوار من الحجر وكتب عتقهن للوقت وأطلق سراحهن وقال في كتاب الذخائر ان الاتراك طلبوا من المستنصر نفقة في أيام الشدة فماطلهم وانهم هجموا على التربة المدفون فيها اجداده فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب وكانت قيمة ذلك مع ما اجتمع اليه من الآلات الموجودة هناك مثل المداخن والمجامر وحلى المحاريب وغير ذلك خمسين ألف دينار

(القصر النافعي)

قال ابن عبد الظاهر القصر النافعي قرب التربة يقرب من جهة السبع خوخ كان فيه عجائز من عجائز القصر وأقارب الاشراف انتهى وموضع هذا القصر اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب وما في قبليه من خان منجك ودار خواجا عبد العزيز المجاورة المسجد الذى بحذاء خان منجك وما بجوار دار خواجا من الزقاق المعروف بدرب الحبشي وكان حد هذا القصر الغربي ينتهي الى الفندق الذى بالخيميين المعروف قديما بخان منكورس ويعرف اليوم بخان القاضي واشترى بعض هذا القصر لما بيع بعد زوال الدولة الامير ناصر الدين عثمان بن سنقر الكاملي المهمندار الذى يعرف بفندق المهمندار بعد أن كان اصطبلا له واشترى بعضه الامير حسام الدين لاجين الايدمرى المعروف بالدرفيل دوادار الملك الظاهر بيبرس وعمره اصطبلا ودارا وهى الدار التي تعرف اليوم بخواجا عبد العزيز على باب درب الحبشي ثم عمل الاصطبل الخان الذى يعرف اليوم بخان منجك وابتنى الناس في مكان درب الحبشي الدور وزال أثر القصر فلم يبق منه شيء البتة

(الخزائن التي كانت بالقصر)

وكانت بالقصر الكبير عدة خزائن منها خزانة الكتب وخزانة البنود وخزائن السلاح وخزائن الدرق وخزائن السروج وخزانة الفرش وخزانة الكسوات وخزائن الادم وخزائن الشراب وخزانة التوابل وخزائن الخيم ودار التعبية وخزائن دار افتكين ودار الفطرة ودار العلم وخزانة الجوهر والطيب وكان الخليفة يمضى الى موضع من هذه الخزائن وفي كل خزانة دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها طول السنة وله جار في كل شهر فيطوفها كلها فى السنة

(خزانة الكتب)

قال المسبحي وذكر عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل بن أحمد وحمل اليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة

بخطه وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها وقال في كتاب الذخائر عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة وأن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدة المستنصر ألفان وأربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرها وأن جميع ذلك كله ذهب فيما أخذه الاتراك في واجباتهم ببعض قيمته ولم يبق في خزائن القصر البرانية منه شيء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل اليها ووجدت صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما قال وكنت بمصر في العشر الاول من محرم سنة احدى وستين واربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا محمولة الى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين بايجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجيليين وان حصة الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار وذكر لي من له خبرة بالكتب انها تبلغ أكثر من مائة الف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما هذا سوى ماكان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى ماصار الى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب وسوى ماظفرت به لواتة محمولا مع ماصار اليه بالابتياع والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين وأربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل مايلبسونه في أرجلهم وأحرق ورقها تأولا منهم انها خرجت من قصر السلطان أعز الله أنصاره وان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ماغرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها مالم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالا باقية الى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب وقال ابن الطوير خزانة الكتب كانت في أحد مجالس المارستان اليوم يعني المارستان العتيق فيجيء الخليفة راكبا ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر اليه من يتولاها وكان في ذلك الوقت الجليس بن عبد القوي فيحضر اليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب فان عنّ له أخذ شيء منها أخذه ثم يعيده وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من

المجلدات و يسير من المجردات فنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ ومنها النواقص التى ماتممت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة ومافيها من المصاحف الكريمة في مكان فوقها وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البواب وغيره وتولى بيعها ابن صورة في ايام الملك الناصر صلاح الدين فاذا أراد الخليفة الانفصال مشى فيهــا مشية لنظرها وفيها ناسخان وفراشان صاحب المرتبة وآخر فيعطى الشاهد عشرين ديناراويخرج الى غيرها وقال ابن أبي طي بعد ماذكر استيلاء صلاح الدين على القصر ومن جملة ماباعوه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا ويقال انه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة في القصر ومن عجائبهــا أنه كان فيهــا ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى الى غير ذلك ويقال انهــا كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة اشياء كثيرة انتهى ومما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد وباع ابن صورة دلال الكتب منها جملة فى مدة أعوام فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عن القاضي الفاضل منهــا شيء وذكر ابن أبي واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد

(خزانة الكسوات)

قال ابن أبى طى وعمل يعنى المعز لدين الله دارا وسماها دار الكسوة كان يفصل فيهــا من جميع أنواع الثياب والبز ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف وكانت لاولاد الناس ونسائهم كذلك وجعل ذلك رسما يتوارثونه في الاعقاب وكتب بذلك كتبا وسمي هذا الموضع خزانة الكسوة وقال عنــد ذكر انقراض الدولة ومن أخبارهم انهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة الى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كسوات الصيف والشتاء من العمامة الى السراويل وما دونه من الملابس والمناديل من فاخر الثياب ونفيس الملبوس ويقومون لهم بجميع مايحتاجون اليــه من نفيس المطعومات والمشروبات وسمعت من يقول انه حضر كسا القصر التي تخــرج فى الصيف والشتاء فكان مقدارها ستمائة ألف دينار وزيادة وكانت خلعهم على الامراء الثياب الديبقى والعمائم بالطراز الذهب وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ويخلع على أكابر الامراء الاطواق والاسورة والسيوف المحلاة وكان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر وقال ابن المأمون وجلس الاجل يعني الوزير المأمون في مجلس الوزارة لتنفيذ الامور وعرض المطالعات وحضر الكتاب ومن جملتهم ابن أبي الليث كاتب الدفتر ومعه ما كان

أمر به من عمل جرائد الكسوة للشتاء بحكم حلوله وأوان تفرقتها فكان ما اشتمل عليه المنفق فيها لسنة ست عشرة وخمسمائة من الاصناف أربعة عشر ألفا وثلثمائة وخمس قطع وان أكثر ما أنفق عن مثل ذلك فى الايام الافضلية في طول مدتها لسنة ثلاث عشرة وخمسمائة ثمانية آلاف وسبعمائة وخمس وسبعون قطعة يكون الزائد عنها بحكم مارسم به في منفق سنة ست عشرة خمسة آلاف وستمائة وأربعا وثلاثين قطعة ووصلات الكسوة المختصة بالعيد فى آخر الشهر وقد تضاعفت عما كانت عليه فى الايام الافضلية لهذا الموسم وهى تشتمل على ذهوب وسلف دون العشرين ألف دينار وهو عندهم الموسم الكبير ويسمى بعيد الحلل لان الحلل فيه تعم الجماعة وفى غيره للاعيان خاصة فأحضر الامير افتخار الدولة مقدم خزانة الكسوة الخاص ليتسلم ما يختص بالخليفة وهو برسم الموكب (٣) بدلة خاص جليلة مذهبة ثوبها موشح مجاوم مذايل عدتها باللفافتين احدى عشرة قطعة السلف عنها مائة وستة وسبعون دينارا ونصف ومن الذهب العالي المغزول ثلثمائة وسبعة وخمسون مثقالا ونصف كل مثقال اجرة غزله ثمن دينار ومن الذهب العراقي ألفان وتسعمائة وأربع وتسعون قصبة * تفصيل ذلك شاشية طميم السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا منديل بعمود ذهب السلف سبعون وألفان ومائتان وخمسون قصبة ذهبا عراقيا فان كان الذهب نظير المصرى كان الذي يرقم فيه ثلثمائة وخمسة وعشرين مثقالا لان كل مثقال نظير تسع قصبات ذهبا عراقيا وسط سرب بطانة للمنديل السلف عشرة دنانير وسبعون قصبة ذهبا عراقيا ثوب موشح مجاوم مطرف السلف خمسون دينارا وثلثمائة وأحد وخمسون مثقالا ونصف ذهبا عاليا اجرة كل مثقال ثمن دينار تكون جملة مبلغه وقيمة ذهبه ثلثمائة وأربعة وتسعين دينارا ونصفا ثوب ديبقى حريرى وسطاني السلف اثنا عشر دينارا غلالة ديبقى حريرى السلف عشرون دينارا منديل كم أول مذهب السلف خمسة دنانير ومائتان وأربع قصبات ذهبا عراقيا منديل كم ثان حريرى السلف خمسة دنانير حجرة السلف أربعة دنانير عرضي مذهب السلف خمسة دنانير وخمسة عشر مثقالا ذهبا عاليا عرضى لفافة للتخت دينار واحد ونصف بدلة ثانية برسم الجلوس على السماط عدتها باللفافتين عشر قطع السلف مائة وأربعة عشر دينارا ومن الذهب العالى خمسة وخمسون مثقالا ومن الذهب العراقي سبعمائة وأربعون قصبة تفصيل ذلك شاشية طميم السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا منديل السلف ستون دينارا وستمائة قصبة ذهبا عراقيا شقة وكم السلف ستة عشر دينارا وخمسة وخمسون مثقالا ذهبا عاليا اجرة كل مثقال ثمن

(٣) قوله بدلة خاص الخ ما ذكره فى هذه البدلة وما بعدها من الكسوات والحلل تفصيله في الغالب لم يوافق اجماله على مقتضى ما بيدي من النسخ ولا يخفى ما في عباراته في هذا المقام وأمثاله من القلق ومخالفة العربية اهـ مصححه

دينار شقة ديبقي حريري وسطاني اثنا عشر دينارا شقة ديبقي غلالة ثمانية دنانير منديل الكم الحريري خمسة دنانير حجرة أربعة دنانير عرضي خمسة دنانير عرضي برسم التخت دينار واحد ونصف وهذه البدلة لم تكن فيما تقدم في ايام الافضل لانه لم يكن ثم سماط يجلس عليه الخليفة فانه كان قد نقل ما يعمل في القصور من الاسمطة والدواوين الى داره فصار يعمل هناك ما هو برسم الاجل أبي الفضل جعفر أخي الخليفة الآمر بدلة مذهبة مبلغها تسعون دينارا ونصف وخمسة وعشرون مثقالا ذهبا عاليا واربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا تفصيل ذلك منديل السالف خمسون دينارا وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا شقة ديبقي حريري وسطاني السلف عشرة دنانير شقة غلالة ديبقي السالف ثمانية دنانير حجرة ثلاثة دنانير وثلث عرضي ديبقي ثلاثة دنانير الجهة العالية بالدار الجديدة التي يقوم بخدمتها جوهر حلة مذهبة موشح مجاوم مذايل مطرف عدتها خمس عشرة قطعة سلفها ستة آلاف وثلثمائة وثلاثون قصبة تفصيل ذلك مذهب مكلف موشح مجاوم السلف خمسة عشر دينارا وستمائة وستون قصبة سداسي مذهب السالف ثمانية عشر دينارا ومائتا قصبة معجر اول مذهب موشح مجاوم مطرف السلف خمسون دينارا وألف وتسعمائة قصبة معجر ثان حريري السلف خمسة وثلاثون دينارا ونصف رداء حريري اول السالف عشرة دنانير ونصف رداء حريري ثان السالف تسعة دنانير دراعة موشح مجاوم مذايل مذهبة السلف خمسة وتسعون دينارا ومن الذهب العراقي ألفان وستمائة وخمس وخمسون قصبة شقة ديبقي حريري وسطاني السلف عشرون دينارا ونصف شقة ديبقي بغير رقم برسم عجز التفصيل ثلاثة دنانير ملاءة ديبقي السلف أربعة وعشرون دينارا وستمائة قصبة منديل كم أول السلف ستة دنانير ومائة وستون قصبة منديل كم ثان السلف خمسة دنانير ومائة وستون قصبة منديل كم ثالث السالف خمسة دنانير حجرة ثلاثة دنانير عرضي ديبقي ثلاثة دنانير جهة مكنون القاضي بمثل ذلك على الشرح والعدة جهة مرشد حلة مذهبة عدتها أربع عشرة قطعة السالف مائة وأحد وأربعون دينارا ومن الذهب العراقي ألف وستمائة وتسع وثمانون قصبة جهة عنبر مثل ذلك السيدة جهة ظل مثل ذلك جهة منجب مثل ذلك الامير ابو القاسم عبد الصمد بدلة مذهبة الامير داود مثله السيدة العمة حلة مذهبة السيدة العابدة العمة مثل ذلك الموالي الجلساء من بني الاعمام وهم ابو الميمون بن عبد المجيد والامير ابو اليسر ابن الامير محسن والامير ابو علي ابن الامير جعفر والامير حيدرة ابن الامير عبد المجيد والامير موسى ابن الامير عبد الله والامير أبو عبد الله ابن الامير داود لكل منهم بدلة مذهبة البنون والبنات من بني الاعمام غير الجلساء لكل منهم بدلة حريري

ست سيدات لكل منهن حلة حريرى جهة المولى ابى الفضل جعفر التي يقوم بخدمتها ريحان حلة مذهبة جهة المولى عبد الصمد حلة حريرى ما يختص بالدار الجيوشية والمظفرية فعلى ماكان باسمائهم المستخدمات لخزانة الكسوة الخاص زين الخزان المقدمة حلة مذهبة ست خزان لكل منهن حلة حريرى عشر وقافات لكل منهن كذلك المعلمة مقدمة المائدة كذلك رايات مقدمة خزانة الشراب كذلك المستخدمات من أرباب الصنائع من القصوريات وممن انضاف اليهن من الافضليات مائة وسبعون حلة مذهبة وحريرى على التفصيل المتقدم المستخدمات عند الجهات العالية جهة جوهر عشرون حلة مذهبة وحريرى وكذلك المستخدمات عند مكنون الامراء الاستاذون المحنكون الامير الثقة زمام القصور بدلة مذهبة الامير نسيب الدولة مرشد متولى الدفتر كذلك الامير خاصة الدولة ريحان متولى بيت المال كذلك الامير عظيم الدولة وسيفها حامل المظلة كذلك الامير صارم الدولة صاف متولى الستر كذلك وفي الدولة اسعاف متولى المائدة مثله الامير افتخار الدولة جندب بدلة مذهبة نظير البدلة المختصة بالامير الثقة ولكل من غير هؤلاء المذكورين حلة حريرى أربع قطع ولفافة فوطة مختار الدولة ظل بدلة حريرى ستة استاذين في خزانة الكسوة الخاص عند الامير افتخار الدولة جندب لكل منهم بدلة مذهبة جوهر زمام الدار الجديدة بدلة حريرى تاج الملك امين بيت المال مثله مفلح برسم الخدمة في المجلس مثله مكنون متولى خدمة الجهة العالية مثله فنون متولى خدمة التربة مثله مرشد الخاصي مثله النواب عن الامير الثقة فى زمام القصور وعدتهم أربعة لكل منهم بدلة حريرى خسرواني العظمى مقدم خزانة الشراب ورفيقه لكل منهما بدلة كذلك الصقالبة أرباب المداب وعدتهم أربعة لكل منهم بدلة حريرى وشقة وفوطة نائب الستر مثل ذلك الاستاذون برسم خدمة المظلة وعدتهم خمسة لكل منهم منديل سوسى وشقة دمياطي وشقة اسكندرانى وفوطة الاستاذون الشدادون برسم الدواب وعدتهم ستة كذلك ما حمل برسم السيد الاجل المأمون يعني الوزير بدلة خاصة مذهبة كبيرة موكبية عدتها احدى عشرة قطعة وما هو برسم جهاته وبرسم أولاده الاجل تاج الرياسة وتاج الخلافة وسعد الملك محمود وشرف الخلافة جمال الملك موسى وهو صاحب التاريخ نظير ماكان باسم اولاد الافضل بن امير الجيوش وهم حسن وحسين واحمد الاجل المؤتمن سلطان الملوك يعني أخا الوزير عن تقدمة العساكر وزم الأزمة وبرسم الجهة المختصة به وركن الدولة عز الملوك ابو الفضل جعفر عن حمل السيف الشريف خارجا عماله من حماية خزانة الكسوات وصناديق النفقات وما يحمل أيضا للخزائن المأمونية مما ينفق منها على من يحسن في الرأى من الحاشية المأمونية ثلاثون بدلة الشيخ الاجل ابو الحسن بن ابي اسامة كاتب الدست الشريف بدلة مذهبة عدتها خمس قطع وكم وعرضى الامير فخر

الخلافة حسام الملك متولى حجبة الباب بدلة مذهبة كذلك القاضى ثقة الملك ابن النائب فى الحكم بدلة مذهبة عدتها أربع قطع وكم وعرضى الشيخ الداعى ولى الدولة ابن ابي الحقيق بدلة مذهبة الامير الشريف ابو علي احمد بن عقيل نقيب الاشراف بدلة حريرى ثلاث قطع وفوطة الشريف أنس الدولة متولى ديوان الانشاء بدلة كذلك ديوان المكاتبات الشيخ ابو الرضى ابن الشيخ الاجل أبي الحسن النائب عن والده في الديوان المذكور بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع وكم ابو المكارم هبة الله اخوه بدلة مذهبة ثلاث قطع وفوطة ابو محمد حسن أخوهما كذلك أخوهم ابو الفتح بدلة حريرى قطعتان وفوطة الشيخ ابو الفضل يحيي بن سعيد الندمي منشئ ما يصدر عن ديوان المكاتبات ومحرر ما يؤمر به من المهمات بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع وكم ومزنر ابو سعيد الكاتب بدلة حريرى ابو الفضل الكاتب كذلك الحاج موسى المعين في الالصاق كذلك وأما الكتاب بديوان الانشاء فلم يتفق وجود الحساب الذي فيه اسماؤهم فيذكروا ومن القياس أن يكونوا قريبا من ذلك الشيخ ولى الدولة ابو البركات متولى ديوان المجلس والخاص بدلة مذهبة عدتها خمس قطع وكم وعرضى ولامرأته حلة مذهبة الشيخ أبو الفضائل هبة الله بن ابى الليث متولى الدفتر وما جمع اليه بدلة ابو المجد ولده بدلة حريرى عدي الملك ابو البركات متولى دار الضيافة بدلة مذهبة وبعده الضيوف الواردون الى الدولة جميعهم منهم من له بدلة مذهبة ومنهم من له بدلة حريرى وكذلك من يتفق حضوره من الرسل على هذا الحكم مقدمو الركاب عفيف الدولة مقبل بدلة مذهبة القائد موفق والقائد تمم مثل ذلك أربعة من المقدمين برسم الشكيمة لكل منهم بدلة حريرى الروّاض عدتهم ثلاثة لكل منهم بدلة حريرى الخاص من الفراشين وهم اثنان وعشرون رجلا منهم أربعة مميزون لكل منهم بدلة مذهبة وبقيتهم لكل واحد بدلة حريرى الاطباء الشديد ابو الحسن علي بن ابى الشديد بدلة حريرى ابو الفضل النسطورى بدلة حريرى وكذلك الفئة المستخدمون برسم الحمام وهم ثمانية مقدمهم بدلة مذهبة وبقيتهم لكل واحد بدلة حريرى والى القاهرة ووالى مصر لكل منهما بدلة مذهبة المستخدمون في المواكب الامير كوكب الدولة حامل الرمح الشريف وراء الموكب والدرقة المعزية بدلة حريرى حاملا الرمحين المعزية أيضا أمام الموكب بغير درق لكل منهما منديل وشقة وفوطة وهؤلاء الثلاثة رماح ما هى عربية بل هي خشوت قدم بها المعز من المغرب حاملا لواء الحمد المختصان بالخليفة عن يمينه ويساره لكل منهما بدلة متولى بغل الموكب الذى يحمل عليه جميع العدة المغربية بدلة حريرى متولى حمل المظلة كذلك عشرة نفر من صبيان الخاص برسم حمل العشرة رماح العربية المغشاة بالديباج وراء الموكب لكل منهم منديل وشقة وفوطة حامل السبع وراء الموكب

بدلة حريرى المقدمون من صبيان الخاص وهم عشرون لكل منهم بدلة عرفاء الفراشين الذين ينحطون عن فراشي الخاص وفراشي المجلس وفراشي خزائن الكسوة الخاص لكل منهم بدلة حريرى الفراشون في خزائن الكسوات المستخدمون بالايوان وهم الذين يشدون ألوية الحمد بين يدى الخليفة ليلة الموسم فانها لا تشد الا بين يديه ويبدأ هو باللف عليها بيده على سبيل البركة ويكمل المستخدمون بقية شدها وما سوى ذلك من القضب الفضة وألوية الوزارة وغيرها وعدتهم سبعة لكل منهم منديل سوسى وشقتان اسكندراني المستخدمون برسم حمل القضب الفضة ولواءى الوزارة أربعة عشر كذلك مشارف خزانة الطيب وكانت من الخدم الجليلة وكان بها أعلام الجوهر التي يركب بها الخليفة في الاعياد ويستدعى منها عند الحاجة ويعاد اليها عند الغنى عنها وكذلك السيف والثلاثة رماح المعزية مشارف خزائن السروج بدلة حريرى مشارف خزائن الفرش وكاتب بيت المال ومشارف خزائن الشراب ومشارف خزائن الكتب كل منهم بدلة حريرى بركات الادمى والمستخدمون بالدولة بالباب وسنان الدولة من الكركندي عن زم الرهجية والمبيت على ابواب القصور وكانت من الخدم الجليلة والصبيان الحجرية المشدون بلواء الموكب بعد المقربين وعدتهم عشرون لكل منهم الكسوة فى الشتاء والعيدين وغيرها وعدة الذين يقبضون الكسوة فى العيدين من الفراشين اكثر من صبيان الركاب وذلك انهم يتولون الاسمطة ويقفون في تقدمتها وينفرد عنهم المستخدمون فى الركاب بما لهم من المتحصل في المخلفات فى العيدين وهو ما مبلغه ستة آلاف دينار ما لاحد منهم فيها نصيب وكان يكتب في كل كسوة هى برسم وجوه الدولة رقعة من ديوان الانشاء فمما كتب به من انشاء ابن الصيرفى مقترنة بكسوة عيد الفطر من سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ولم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب • موليا احسانه كل حاضر من أوليائه وغائب • مجزلا حظهم من منائحه ومواهبه • موصلا اليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه • وأنك أيها الامير لاولاهم من ذلك بجسيمه • وأحراهم باستنشاق نسيمه • وأخلقهم بالجزء الاوفى منه عند فضه وتقسيمه • اذ كنت فى سماء المسابقة بدرا • وفي جرائد المناصحة صدرا • وممن أخلص فى الطاعة سرا وجهرا • وحظي فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا • ولما أقبل هذا العيد السعيد والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم • ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم • ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه • وفي المواسم التي تجاريه • بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال • ولا يبقى بعدها مطمع للآمال • وكنت من أخص الامراء المقدمين قال ووصلت الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعتيه برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة وبرسم الجامع الازهر للجمعة الاولى من

الشهر بدلة موكبية حريرى مكملة منديلها وطيلسانها بياض وبرسم الجامع الانور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى وما هو برسم أخى الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة ويرسم له مع جهات الخليفة أربع حلل مذهبات وبرسم الوزير للغرة بدلة مذهبة مكملة موكبية وبرسم الجمعتين بدلتان حريرى ولم يكن لغير الخليفة وأخيه والوزير في ذلك شيء فيذكر ووصلات الكسوة المختصة بفتح الخليج وهي برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان احداها منديلها وطيلسانها طميم برسم المضي والاخري جميعها حريرى برسم العود وكذلك مايختص باخوته وجهاته بدلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبة وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة في تخت وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة وبرسم جهته حلة مذهبة في تخت وبقية مايخص المستخدمين وابن أبى الردّاد في تخوت كل تخت عدة بدلات وحضر متولي الدفتر واستأذن على مايحمل برسم الخليفة وما يفرق ويفصل برسم الخاع وما يخرج من حاصل الخزائن عن الواصل وهو مايفصل برسم الخاص من الغلمان برسم سبعمائة قباء وخمسمائة وشقين سقلا طون دارى وبرسم رؤساء العشاريات من الشقق الدمياطي والمناديل السوسى والفوط الحرير الحمر وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندرانى والكلوتات وقد تقدم تفصيل الكسوات جميعها وعددها وأسماء المستمرين لقبضها* وقال في كتاب الذخائر وحدثني من أثق به عن ابن عبد العزيز أنه قال قومنا ما اخرج من خزائن القصر يعني في سني الشدة أيام المستنصر من سائر ألوان الخسروانى مايزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب وسألت ابن عبد العزيز فقال أخرج من الخزائن مما حررت قيمته على يدي وبحضرتى أكثر من ألف قطعة وحدثني أبو الفضل يحيي بن ابراهيم البغدادى أحد أصحاب الدواوين بالحضرة أن الذى تولى أبو سعيد النهاوندى المعروف بالمعتمد بيعه خاصة من مخرج القصر دون غيره من الامناء فى مدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور ويحكم منها مايساوى الالف دينار الى عشرة دنانير ونيف وعشرون ألف قطعة خسر وانى وحدثني عميد الملك أبو الحسن على بن عبد الكريم فخر الوزراء بن عبد الحاكم أن ناصر الدولة أرسل يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه فذكر أنه لم يبق عنده شيء الا ملابسه فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة فقومت وحملت اليه وقال ابن الطوير الخدمة فى خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة فى المباشرات وهما خزانتان فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة اما أستاذ أوغيره وفيهما من الحواصل مايدل على اسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس الشروب والخاص الدبيقى الملونة رجالية ونسائية والديباج الملونة والسقلاطون واليها يحمل مايستعمل في دار الطراز بتنيس ودمياط واسكندرية من خاص المستعمل وبها صاحب المقص وهو مقدم

الخياطين ولا صحابه مكان لخياطتهم والتفصيل يعمل على مقدار الاوامر وما تدعو الحاجة اليه ثم ينقل الى خزانة الكسوة الباطنة ماهو خاص للباس الخليفة و يتولاها امرأة تنعت بزين الخزان أبدا و بين يديها ثلاثون جارية فلا يغير الخليفة أبدا ثيابه الا عندها ولباسه خافيا الثياب الدارية وسعة أكمامها سعة نصف أكمام الظاهر وليس في جهة من جهاته ثياب أصلا ولا يلبس الا من هذه الخزانة وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطيء الخليج يعني أبدا فيه النسرين والياسمين فيحمل في كل يوم منه شيء في الصيف والشتاء لاينقطع ألبتة برسم الثياب والصناديق فاذا كان أوان التفرقة الصيفية أو الشتوية شد لمن تقدم ذكره من أولاد الخليفة وجهاته وأقاربه وأرباب الرواتب والرسوم من كل صنف شدة على ترتيب المفروض من شقق الديبياج الملون والسقلاطون الى السوسي والاسكندراني على مقدار الفصول من الزمان مايقرب من مائتي شدة فالخواص فى المراضى الدبيقى ودونهم فى أوطية حرير ودونهم في فوط اسكندرية ويدخل فى ذلك كتاب ديواني الانشاء والمكاتبات دون غيرهم من الكتاب على مقدارهم وذلك يخرج من الحوارى فى الشهر المطلقات * وقال القاضى الفاضل في متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة بعد وفاة العاضد وكشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر فقيل ان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش

(خزائن الجوهر والطيب والطرائف)

قال ابن المأمون وكان بها الاعلام والجوهر التي يركب بها الخليفة فى الاعياد ويستدعى منها عند الحاجة ويعاد اليها عند الغنى عنها وكذلك السيف الخاص والثلاثة رماح المعزية وقال في كتاب الذخائر والتحف وذكر بعض شيوخ دار الجوهر بمصر أنه استدعى يوما هو وغيره من الجوهريين من أهل الخبرة بقيمة الجوهر الى بعض خزائن القصر يعنى في أيام الشدة زمن المستنصر فأخرج صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرذ قيمتها على الاقل ثلثمائة ألف دينار وكان هناك جالسا فخر العرب بن حمدان وابن سنان وابن أبي كدينة وبعض المخالفين فقال بعض من حضر من الوزراء المعطلين للجوهريين كم قيمة هذا الزمرذ فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجودا ومثل هذا لاقيمة له ولا مثل فاغتاظ وقال ابن أبي كدينة فخر العرب كثير المؤنة وعليه خرج فالتفت الى كتاب الجيش وبيت المال فقال يحسب عليه فيه خمسمائة دينار فكتب ذلك وقبضه وأخرج عقد جوهر قيمته على الاقل من ثمانين ألف دينار فصاعدا فتحريا فيه فقال يكتب بألفي دينار وتشاغلوا بنظر ما سواه وانقطع سلكه فتناثر حبه فأخذ واحد منهم واحدة فجعلها في جيبه وأخذ ابن ابي كدينة اخرى واخذ فخر

العرب بعض الحب وباقي المخالفين التقطوا ما بقي منه وغاض كأن لم يكن واخذ ما كان انفذه الصليحي من نفيس الدر الرفيع الرائع وكيله على ما ذكر سبع ويبات وأخذوا ألفا ومائتي خاتم ذهبا وفضة فصوصها من سائر انواع الجوهر المختلف الالوان والقيم والاثمان والانواع مما كان لاجداده وله وصار اليه من وجوه دولته منها ثلاثة خواتم ذهب مربعة عليها ثلاثة فصوص احدها زمرذ والاثنان ياقوت سماقي ورماني بيعت باثني عشر ألف دينار بعد ذلك وأحضر خريطة فيها نحو ويبة جوهر وأحضر الخبراء من الجوهريين وتقدم اليهم بقيمتها فذكروا أن لا قيمة لها ولا يشترى مثلها الا الملوك فقومت بعشرين ألف دينار فدخل جوهر الكاتب المعروف بالمختار عن الملك الى المستنصر وأعلمه أن هذا الجوهر اشتراه جده بسبعمائة الف دينار واسترخصه فتقدم بانفاقه في الاتراك فقبض كل واحد منهم جزأ بقيمة الوقت وفرق عليهم قال فأما ما أخذ مما في خزائن البلور والمحكم والمينا المجرى بالذهب والمجرود والبغدادي والخيار والمدهون والخلنج والعيقي والدهيمي والامدي وخزائن الفرش والبسط والستور والتعاليق فلا يحصى كثرة وحدثني من أثق به من المستخدمين في بيت المال انه أخرج يوما في جملة ما أخرج من خزائن القصر عدة صناديق وان واحدا منها فتح فوجد فيه على مثال كيزان الفقاع من صافي البلور المنقوش والمجرود شيء كثير وان جميعها مملوء من ذلك وغيره وحدثني من أثق به أنه رأى قدح بلور بيع مجرودا بمائتين وعشرين دينارا ورأى خردادي بلور بيع بثلثمائة وستين دينارا وكوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ورأى صحون مينا كثيرة تباع من المائة دينار الى ما دونها وحدثني من أثق بقوله انه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الساذج الغاية في النقاء وحسن الصنعة احداهما خردادي والاخرى باطية مكتوب على جانب كل واحدة منهما اسم العزيز بالله تسع الباطية سبعة ارطال بالمصرى ماء والخردادى تسعة وانه عرضهما على جلال الملك أبي الحسن علي ابن عمار فدفع فيهما ثمانمائة دينار فامتنع من بيعهما وكان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن وأن الذي تولى بيعه ابو سعيد النهاوندي من مخرج القصر دون غيره من الامناء في مديدة يسيرة ثمانية عشر الف قطعة من بلور ومحكم منها ما يساوى الالف دينار الى عشرة دنانير وأخرج من صواني الذهب المجراة بالمينا وغير المجراة المنقوشة بسائر أنواع النقوش المملوء جميعها من سائر أنواعه وألوانه وأجناسه شيء كثير جدا ووجد فيها وجد غلف خيار مبطنة بالحرير محلاة بالذهب مختلفة الاشكال خالية مما فيها من الاواني عدتها سبعة عشر الف غلاف كان في كل قطعة اما بلور مجرود أو محكم أو ما يشاكله ووجد أكثر من مائة كاس بادزهر ونصب وأشباهها على أكثرها اسم هارون الرشيد وغيره ووجد في خزائن القصر عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة

من سائر الجواهر وصناديق كثيرة مملوءة من أنواع الدوى المربعة والمدورة والصغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والآبنوس الزنجي والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة وسائر الانواع الغريبة والصنعة المعجزة الدقيقة بجميع آلاتها فيها مايساوى الالف دينار والاكثر والاقل سوى ماعليها من الجواهر وصناديق مملوءة مشاوب ذهب وفضة مخرقة بالسواد صغار وكبار مصنوعة بأحسن مايكون من الصنعة وعدة ازيار صيني كبار مختلفة الالوان مملوءة كافورا قيصوريا وعدة من جماجم العنبر الشحري ونوافج المسك التبتي وقواريره وشجر العود وقطعه ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ماقيمته ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار من جملته ثلاثون ثوب خز مقطوع واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا ومائة قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومما وجد لها معممات بجواهرها من أيام المعز وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذى مات فيه بطوس وكان من ولى من الخلفاء ينتظرون وفاتها فلم يقض ذلك الا للمستنصر بالله فحازه في خزانته ووجد لعبدة بنت المعز أيضا وماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة مالا يحصى حدثنى بعض خزان القصر أن خزائن السيدة عبدة ومقاصيرها وصناديقها وما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع فى خواتيمه على الصحة والمشاهدة أربعون رطلا بالمصرى وأن بطائق المتاع الموجود كتبت فى ثلاثين رزمة ورق ومما وجد لها ايضاً أربعمائة قطرة وألف وثلثمائة قطعة مينا فضة مخرقة زنة كل مينا عشرة آلاف درهم وأربعمائة سيف محلي بالذهب وثلاثون ألف شقة صقلية ومن الجوهر مالايحد كثرة وزمرذ كيله أردب واحد وأن سيد الوزراء أبامحمد البازورى وجد فى موجوداتها طستا وابريقا فأفرط استحسانه لهما سأل المستنصر فيهما فوهبهما له ووجد مدهن ياقوت احمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا واخرج أيضاً تسعون طستا وتسعون ابريقا من صافي البلور ووجد في القصر خزائن مملوءة من سائر أنواع الصيني منها اجاجين صيني كبار محلاة كل اجانة منها على ثلاثة أرجل على صورة الوحوش والسباع قيمة كل قطعة منها ألف دينار معمولة لغسل الثياب ووجد عدة اقفاص مملوءة ببيض صيني معمول على هيئة البيض في خلقته وبياضه يجعل فيها ماء البيض النيمبرشت يوم الفصاد ووجد حصير ذهب وزنها ثمانية عشر رطلا ذكر أنها الحصير التى جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون وأخرج ثمان وعشرون صينية مينا مجرا بالذهب بكعوب كان أرسلها ملك الروم الى العزيز بالله قومت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار أنفذ جميعها الى ناصر الدولة ووجد عدة صناديق مملوءة مراءى حديد من صيني ومن زجاج المينا لايحصى مافيها كثرة جميعها محلى بالذهب المشبك والفضة ومنها المكلل بالجوهر في غلف الكيمخت وسائر أنواع الحرير

والخيزران وغيره مضبب بالذهب والفضة ولها المقابض من العقيق وغيره وأخرج من المظال وقضبها الفضة والذهب شيء كثير وأخرج من خزائن الفضــة مايقارب الالف درهم من الآلات المصنوعة من الفضة المجراة بالذهب فيها مازنة القطعة الواحــدة منه خمسة آلاف درهم الغريبة النقش والصنعة التى تساوى خمسة دراهم بدينار وان جميعــه بيع كل عشرين درهما بدينار سوى ماأخذ من المشاريات الموكبية وأعمدة الخيام وقضب المظال والمتحوقات والاعــلام والقناديل والصناديق والتوقات والروازين والسروج واللجم والمنــاطق التى للعماريات والقباب وغيرها مثــل ذلك وأضعافه وأخرج من الشطرنج والنرد المعمولة من سائر أنواع الجوهر والذهب والفضة والعاج والآبنوس ورقاع الحرير والمذهب مالا يحد كثرة ونفاسة وأخرج آلات فضة وزنها ثلثمائة ألف ونيف وأربعون ألف درهم تساوى ستة دراهم بدينار وأخرج أقفاص مملوءة من سائر آلات مصوغــة مجراة بالذهب عدتهــا أربعمائة قفص كبار سبكت جميعها وفرقت على المخالفين وأخرجت أربعــة آلاف نرجسية مجوفة بالذهب يعمل فيها النرجس وألفا بنفسجية كذلك وأخرج من خزانة الطرائف ستة وثلاثون ألف قطعــة من محكم وبلور وقوم السكاكين بأقل القيم فجاءت قيمتها على ذلك ستة وثلاثين ألف دينار وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر منا وأكبره يجاوز ذلك ومن تماثيل الخليفة مالا يحد من جملتها ثمانمائة بطيخة كافور وأخرجت الكلوتة المرصعة بالجوهر وكانت من غريب مافي القصر ونفيسه ذكر أن قيمتها ثلاثون ألف دينار ومائة ألف دينار قومت بثمانين ألف دينار وكان وزن مافيها من الجوهر ســبعة عشر رطلا اقتسمها فخر العرب وتاج الملوك فصار الى فخر العرب منهــا قطعة بلخش وزنها ثلاثة وعشرون مثقالا وصار الى تاج الدين مما وقع اليــه حبات در كل حبة ثلاثة مثاقيل عدتها مائة حبة فلمــا كانت هزيمتهم من مصر نهبت وأخرج من خزائن الطيب خمســة صوارى عود هندى كل واحد من تســعة أذرع الى عشرة أذرع وكافور قيصورى زنة كل حبة من خمسة مثاقيل الى مادونها وقطع عنــبر وزن القطعة ثلاثة آلاف مثقال وأخرج متارد صيني محمولة على ثلاثة أرجل ملء كل وعاء منهــا مائتا رطل من الطعام وعدة قطع شب وباد زهر منها جام سعته ثلاثة أشبار ونصف وعمقه شبر مليح الصنعة وقاطر ميز بلور فيــه صور ثابتــة تسع سبعة عشر رطلا وبلوجة بلور مجرود تسع عشرين رطلا وقصرية نصب كبيرة جــدا وطابع ند فيــه ألف مثقال كان لفخر الدولة أبو الحسن عليّ بن ركن الدولة بن بويه الديلمي عمله مكتوب في وسطه فخر الدولة شمس الملة أوسيات منها

ومن يكن شمس أهل الارض قاطبة * فنــده طابع من ألف مثقــال

وطاوس ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاوس وديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر مايكون من أعراف الديوك من الياقوت الاحمر مرصع بسائر الدر والجوهر وعيناه ياقوت وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر وبطنه أبيض قد نظم من در رائع ومجمع سكارج من بلور تخرج منه وتعود فيه فتحته أربعة أشبار مليح الصنعة في غلاف خيزران وبطيخة من الكافور في شباك ذهب مرصعة وزنها خالصة سبعون مثقالا من كافور وقطعة عنبر تسمى الخروف وزنها سوى مايمسكها من الذهب ثمانون منا وبطيخة كافور أيضا وجد ماعليها من الذهب ثلاثة آلاف مثقال ومائدة نصب كبيرة واسعة قوائمها منها وبيضة بلخش وزنها سبعة وعشرون مثقالا أشد صفاء من الياقوت الاحمر وقاطرميز بلور مليح التقدير يسع مروقتين قوم في المخرج بثمانمائة دينار دفع الى تاج الملوك فيه بعد ذلك ألفا دينار فامتنع من بيعه ومائدة جزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة منها ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة ذهب تجمع الطالع والبالح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقيمة لها وكوز زير بلور يحمل عشرة أرطال ماء ودارج مرصع بنفيس الجوهر لاقيمة له ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقبة العشارى وكارته وكسوة رحله الذى استعمله على بن أحمد الجرجراى وفيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم نقرة وأطلق للصناع عن أجرة صياغته وثمن ذهب للطلاء ألفان وتسعمائة دينار وكان سعر الفضة حينئذ كل مائة درهم بستة دنانير وربع سعر ستة عشر درهما بدينار وأخرج العشارى الفضي الذى استعمله على بن أحمد لأمّ المستنصر وكان فيه مائة ألف وعشرون ألف درهم نقرة وصرف أجرة صياغة وطلاء ألفان وأربعمائة دينار وكسوة بمال جليل وأخرج جميع كسا العشاريات التي برسم البرية والبحرية وعددها ومناطقها ورؤس منحرفات وأهلة وصفريات وكانت أربعمائة ألف دينار لستة وثلاثين عشاريا وعدة ميا كيم فضة فيها ماوزنه مائة وتسعة ارطال فضة وأخرج بستان أرضه فضة مخرقة مذهبة وطينه ند وأشجاره فضة مذهبة مصوغة وأثماره عنبر وغيره وزنه ثلثمائة وستة أرطال وبطيخة كافور وزنها ستة عشر ألف مثقال وقطع ياقوت أزرق زنة كل قطعة سبعون درهما وقطع زمردزنة كل قطعة ثمانون درهما ونصاب مرآة من زمرذ له طول ونحن كل ذلك أخذه المخالفون

(خزائن الفرش والامتعة)

قال في كتاب الذخائر وحدثني من أثق به عن ابن عبد العزيز الانماطي قال قومنا ما أخرج من خزائن القصر من سائر الخسرواني مايزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب وسألت ابن لعبدالعزيز فقال أخرج من الخزائن ماحررت قيمته على يدى وبحضرتي

أكثر من مائة ألف قطعة وأخرج مرتبة خسرواني حمراء بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ومرتبة قلموني بيعت بألفين وأربعمائة دينار وثلاثون سندسية بيعت كل واحدة منها بثلاثين دينارا ونيف وعشرون ألف قطعة خسرواني في هدبه لم يقطع منها شيء وكانت قيمة العرض المبيع بأقل القيم وأبرز الاثمان في مدة خمسة عشر يوما من صفر سنة ستين وأربعمائة سوى ما نهب وسرق ثلاثون ألف ألف دينار قبض جميعها الجند والاتراك ليس لاحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق وحدثني الامير أبو الحسن على ابن الحسن أحد مقدمي الحيميين بالقصر أن الفراشين دخلوا الى بعض خزائن الفرش لما اشتدت مطالبة المارقي للمستنصر بالمال الى الخزانة المعروفة بخزانة الرفوف وسميت بذلك لكثرة رفوفها ولكل رف منها سلم مفرد فأنزلوا منها ألفي عدل شقق طمم بهدبها من سائر أنواع الخسرواني وغيره لم تستعمل بعد وجميع ما فيها مذهب معمول بسائر الاشكال والصور وأنهم فتحوا عدلا منها فوجدوا مافيه أجلة معمولة للفيلة من خسرواني أحمر مذهب كأحسن ما يكون من العمل وموضع نزول اتخاذ الفيل ورجليه ساذجة بغير ذهب وأخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض في هدبها لم يفصل من كسابيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه وعتبه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه فيه قال وأخرج من خزائن الفرش من البيوت الكاملة الفرش من القلموني والديبقي من سائر ألوانه وأنواعه المخمل والخسرواني والديباج الملكي والخز وسائر الحرير من جميع ألوانه وأنواعه مالا يحصي كثرة ولا يعرف قدره ونفاسة وأخرج من الحصر والانخاخ السامان المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة والطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور شيء كثير والتمس بعض الاتراك من المستنصر مقرمة يعني ستارة سندس أخضر مذهبة فأخرج عدل منها مكتوب عليه مائة وثمانية وثمانون من جملة أعداد أعدال فيها من المتاع ووجد من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها عدة مثين تقارب الالف فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله واخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد باقية على حالها لم تمس وصار الى فخر العرب مقطع من الحرير الازرق التستري القرقوبي غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة فيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه جغرافيا وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد

ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير وفي آخره مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار وصار الى تاج الملوك بيت أرمني أحمر منسوج بالذهب عمل المتوكل على الله لا مثل له ولا قيمة وبساط خسرواني دفع اليه فيه ألف دينار فامتنع من بيعه وقال ابن الطوير خزانة الفرش وهي قريبة من باب الملك يحضر اليها الخليفة من غير جلوس ويطوف فيها ويستخبر عن أحوالها ويأمر بادامة الاستعمال وكان من حقوقها استعمال السامان في أماكن خارجها بالقاهرة ومصر ويعطى مستخدمها خمسة عشر دينارا يعني يوم يطوف بها الخليفة

(خزائن السلاح)

قال في كتاب الذخائر فأما خزائن السيوف والآلات والسلاح فان بعضها أخذ وقسم بين العشرة الثائرين على المستنصر وهم (٣) ناصر الدولة بن حمدان واخواه وبلدكوس وابن سبكتكين وسلام عليك وشاور بن حسين حتى صار ذو الفقار الى تاج الملوك وصمصامة عمرو بن معدي كرب وسيف عبد الله بن وهب الراسي وسيف كافور وسيف المعز وسيف ابي المعز الى الاعز بن سنان ودرع المعز لدين الله وكانت تساوي ألف دينار وسيف الحسين ابن علي بن ابي طالب عليهما السلام ودرقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وسيف جعفر الصادق رضي الله عنه ومن الخود والدروع والتخافيف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية وصناديق النصول وجعاب السهام الخلنج وصناديق القسي ورزم الرماح الزان الخطية وشدات القسي الطوال والزرد والبيض مئين ألوف وكان كل صنف مفردا عشرات ألوف * وقال ابن الطوير خزانة السلاح يدخل اليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك ويتأمل حواصلها من السكراغندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة الصناعة والجواشن المبطنة المذهبة والزرديات السابلة برؤسها والخود المحلاة بالفضة وكذلك اكثر الزرديات والسيوف على اختلافها من العربيات والقلجوريات والرماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة والاسنة البرصانية والقسي لرماية اليد المنسوبة الى صناعها مثل الخطوط المنسوبة الى اربابها فيحضر اليه منها ما يجربه ويتأمل النشاب وكانت نصوله مثلثة الاركان على اختلافها ثم قسي الرجل والركاب وقسي اللوالب الذي زنة نصله خمسة ارطال ويرمي من كل سهم بين يديه فينظر كيف مجراه والنشاب الذي يقال له الجراد وطوله شبر يرمي به عن قسي في مجار معمولة برسمه فلا يدري به الفارس أو الراجل الا وقد نفذ فاذا فرغ من نظر ذلك كله خرج من خزانة الدرق وكانت في المكان الذي هو خان مسرور

(٣) (قوله وهم الخ) هكذا في النسخ ولم يستوف العشرة فليحرر اه مصححه

وهى برسم الاستعمالات للاساطيل من الكبورة الخرجية والخود الجلودية الى غير ذلك فيعطى مستخدمها خمسة وعشرون دينارا ويخلع على متقدم الاستعمالات جوكانية مزيدة حريرا وعمامة لطيفة

(خزائن السروج)

قال في كتاب الذخائر أخرج فيما أخرج صناديق سروج محلاه بفضة مجراة بسواد ممسوحة وجد على صندوق منها الثامن والتسعون والثلثمائة وعدة ما فيها زيادة على اربعة آلاف سرج وأخرج المستنصر من خزائن السروج خمسة آلاف سرج كان أبوسعد ابراهيم ابن سهل التسترى ادخرها له فيها وتقدم بحنظها كل سرج منها يساوى من سبعة آلاف دينار الى الف واكثرها عال سبك جميعها وفرق في الاتراك كان برسم ركابه منها أربعة آلاف سرج وأخذ من خزائن السيدة والدته أربعة آلاف سرج مثالها ودونها صنع بها مثل ذلك * وقال ابن الطوير خزانة السروج تحتوى على ما لا يحتوى عليه مملكة من الممالك وهى قاعة كبيرة بدورها مصطبة علوها ذراعا ومجالسها كذلك وعلى تلك المصطبة متكآت مخلصة الجانبين على كل متكا ثلاثة سرج متطابقة وفوقه في الحائط وتد مدهون مضروب في الحائط قبل تبييضه وهو بارز بروزا متكئا عليه المركبات الحلى على لجم تلك السروج الثلاثة من الذهب خاصة أو الفضة خاصة أو الذهب والفضة وقلائدها وأطواقها لاعناق الخيل وهى لخاص الخليفة وأرباب الرتب مايزيد على ألف سرج ومنها الجام هو الخاص ومنها الوسط ومنها الدون وهى خيار غيرها برسم العوارى لارباب الرتب والخدم ومنها ماهو قريب من الخاص فيكون عند المستخدم بشداده الدائم وجاريه على الخليفة مادام مستخدما والعلف مطلق من الاهراء وأما الصاغة فان فيها منهم ومن المركبين والخرازين عددا جما دائمين لايفترون عن العمل وكل مجلس مضبوط بعد متكآته وما عليها من السروج والاوتاد واللجم وكل مجلس لذلك عند مستخدميه في العرض فلا يختل عليهم منها شيء وكذلك وسط قاعتها بعدة متوالية أيضا والشدادون مطلوبون بالنقائص منها أيام المواسم وهم يحضرونها أو قيمتها فيعرض ويركب ويحضر اليها الخليفة ويطوفها من غير جلوس ويعطى حاميها للتفرقة في المستخدمين عشرين دينارا ويقال ان الحافظ لدين الله عرضت له فيها حاجة فجاء اليها مع الحامى فوجد الشاهد غير حاضر وختمه عليها فرجع الى مكانه وقال لا يفك ختم العدل الا هو ونحن نعود في وقت حضوره انتهى وكان الخليفة الآمر بأحكام الله تحدثه نفسه بالسفر الى المشرق والغارة على بغداد فأعد لذلك سروجا مجوفة القرابيص وبطنها بصفائح من قصدير ليجعل فيها الماء وجعل لها فما فيه صفارة فاذا دعت الحاجة الى الماء شرب منه الفارس وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء وعمل عدة مخال للخيل من ديباج وقال فى ذلك

دع اللوم عني لست مني بموثق * فلا بد لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة * وأجمع شمل الدين بعد التفرق

وأول من ركب المتصرفين في دولته من خيوله بالمراكب الذهب في المواسم العزيز بالله نزار بن المعز

(خزائن الخيم)

قال في كتاب الذخائر وأخبرني سناء الرؤساء أبو الحسن علي بن احمد بن مدبر وزير ناصر الدولة قال أخرج فيما أخرج من خزائن القصر عدة لم تحص من أعدال الخيم والمضارب والفازات والمسطحات والجركاوات والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المعمولة من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج الملكي والارمني والبهنساوي والكردواني والجيد من الحلبي وما أشبه ذلك من سائر ألوانه وأنواعه ومن السندس والطميم أيضاً منها المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغير ذلك من سائر الوحوش والطير والآدميين من سائر الاشكال والصور البديعة الرائعة ومنها الساذج والمنقوش في ظاهره بغرائب النقوش بجميع آلاتها من الاعمدة الملبسة انابيب الفضة والثياب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها والصفريات الفضة على أقدارها والحبال الملبسة القطن والحرير والاوتاد وسائر ما يحتاج اليه من جميع آلاتها وعدتها المبطن جميعها بالديبقي الطميم المذهب والخسرواني المذهب وثياب الحرير الصيني والتستري والمضبب والرجيح والشرفي والشعري والديباج والمريش وسائر أنواع الحرير من سائر الالوان وأنواعها كبارا وصغارا منها ما يحمل خرقه وأوتاده وعمده وسائر عدته على عشرين بعيرا ودون ذلك وفوقه فالمسطح بيت مربع له أربعة حيطان وسقف بستة أعمدة منها عمودان للحائط الواحد المرفوع للدخول والخروج والخيمة ظهرها حائط مربع وسقيفتها الى الباب حائط مربع وأركانها شوارك من الجانبين على قدر القائم وفيها أربعة أعمدة اثنان في الباب واثنان في وسطها وكلما زادت زاد عمدها وسقفها ولها حدان مشروكان من الجانبين والشراع حائط في الظهر مسقف على الرأس بعمودين من أي موضع دارت الشمس حول الى ناحية الشمس والمشرعة فيه مثل المظلة على عمود واحد تام وشراع سابل خلفها من أي موضع دارت الشمس أدير والقبة على حالها * وحدثني ابو الحسن علي بن الحسن الخيمي قال أخرجنا في جملة ما أخرج من خزائن القصر أيام المارقين حين اشتدت المطالبة على السلطان فسطاطا كبيرا اكبر ما يكون يسمى المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا بالكبير ودائر فلكته عشرون ذراعا وقطرها ستة اذرع وثلثا ذراع ودائره خمسمائة ذراع وعدة قطع خرقه اربع وستون قطعة كل قطعة منها تحزم في عدل

واحد بجمع بعضه الى بعض بعرى وشراريب حتى ينصب يحمل خرقه وحباله وعدته على مائة جمل وفي صفريته المعمولة من الفضة ثلاثة قناطير مصرية يحملها من داخلها قضبان حديد من سائر نواحيها تمتلئ ماء من راوية جمل قد صور في رفرفه كل صورة حيوان في الارض وكل عقد مليح وشكل ظريف وفيه باذهنج طوله ثلاثون ذراعا في اعلاه كان ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازورى أمر بعمله ايام وزارته فعمله الصناع وعدتهم مائة وخمسون صانعا في مدة تسع سنين واشتملت النفقة عليه على ثلاثين ألف دينار وكان عمله على مثال القاتول الذى كان العزيز بالله أمر بعمله ايام خلافته الا أن هـذا أعلى عمودا منه وأوسع وأعظم وأحسن وكان الخليفة أنفذ الى متملك الروم في طلب عمودين للفسطاط طول كل واحد منهما سبعون ذراعا بعد أن غرم عليهما ألف دينار أحدهما في هذا الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع والآخر حمله ناصر الدولة بن حمدان حين خرج على الخليفة المستنصر بالله الى الاسكندرية وما أدري ما فعل به قال وأقنا مدة طويلة في تفصيل بعضه من بعض وتقطيعه خرقا وشققا قومت على المذكورين بأقل القيم وتفرق في الآفاق وقال لى أيضا أخرجنا مسطحا قلمونيا مخملا موجها من جانبيه عمل بتنيس للعزيز بالله يسمى دار البطيخ وسطه بكنيس على ستة أعمدة أربعة منها في اركان الكنيس وفى أربعة الاركان أربع قباب ومن القبة الى القبة رواق دائر عليـه والقباب دونه وفي كل قبة أربعة أعمـدة طول كل عمود من أعمدة الكنيس ثمانية عشر ذراعا وكذلك طول قائم القباب وفعلنا به مثل ما فعلنا في الاول وقال لى أخرجنا مسطحا عمل للظاهر لاعزاز دين الله بتنيس ذهب فى ذهب طميم قائم على عمود له ست صفارى بلور وستة أعمدة فضة أنفق عليـه أربعة عشر ألف دينار ومسطحا ديبقيا كبيرا مذهبا بدوائر كردواني منقوش وأخرجنا قصورا تحيط بالخيام بشرفات من المخمل والقلموني والديبقي والديباج الخسرواني والحرير من سائر أنواعه وألوانه المذهبة المنقوشة بحياضها ودككها ومصاطبها وقدورها وزجاجها وسائر عـددها وأخرجنا من الخيام الكردواني شيئا كثيرا وأخرجنا خيمة كبيرة مـدورة كردوانى مليحة النقش والصنعة عدتها قطع كثيرة طول عمودها خمسة وثلاثون ذراعا فعلنا بجميعها مثل ما فعلنا بالاول وأخرج فى جملتها الفسطاط الكبير المعروف بالمدورة الكبيرة المتولى عمله بحلب الحسـن علي بن احمـد المعروف بابن الايسر فى سـنى نيف وأربعين وأربعمائة المنفق على خرقه ونقشه وعمله وعدته ثلاثون ألف دينار الذى عموده أطول ما يكون من صوارى درامـين الروم البنـادقة أربعون ذراعا ودائر فلكة عموده أربعـة وعشرون شبرا ويحمل على سبعين جملا ووزن صفريته الفضة قنطاران سوى أنابيب عمده ويتولى اتقان عمده ونصبه مائتا رجل من فراش ومعين وهو شبيه بالقاتول العزيزى وسمى

بالقانول لانه ما نصب قط الا وقتل رجلا أو رجلين ممن يتولى اتقانه من فراش وغيره قال ووجد في خزائن مملوءة من سائر أنواع الصواني المدهونة ببغداد المذهبة التي حشيت كل واحدة منها بما دونها في السعة الى ما سعته دون الدرهم ومن سائر أنواع الاطباق الخلع الرازي في هذه السعة وفوق ذلك ودونه قد حشيت بطونها بما دونها في السعة الى ما سعته دون الدينار ومن الموائد القوائمية الصغار والكبار ألوف ومن موائد السكرم وما أشبهها شيء كثير ومن الجفان الحور الواسعة التي قد عملت مقابضها من الفضة وحليت بأنواع الحلى التي لا يقدر الجمل القوى على حمل جفنتين منها لعظمها تساوى الواحدة منها مائة دينار وفوقها ودونها شيء كثير ووجد من الدكك والمحاريب والاسرة العود والصندل والعاج والآبنوس والبقم شيء كثير مليح الصنعة * وقال ابن ميسر وعمل الافضل بن امير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرح اشتملت على ألف الف وأربعمائة ألف ذراع وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل صرف عليها عشرة آلاف دينار ومدحها جماعة من الشعراء

(خزانة الشراب)

قال ابن المأمون ولم يكن فى الايوان فيما تقدم شراب حلو بل انها قررت لاستقبال النظر المأمونى وأطلق لها من السكر مائة وخمسة عشر قنطارا وبرسم الورد المربي خمسة عشر قنطارا وأما مايستعمل بالكافورى من الحلو النانيذ والحامض فالمبلغ في ذلك على ما حصره شاهده في السنة ستة آلاف وخمسمائة دينار وما يحمل للكافورى أيضا برسم كرك الماورد ما يستدعيه متولى الشراب * وقال ابن الطوير خزانة الشراب وهى أحد مجالسه أيضا يعنى القاعة التي هى الآن المارستان العتيق فاذا جلس الخليفة على السرير عرض عليه ما فيها حاميها وهو من كبار الاستاذين وشاهدها فيحضر اليه فراشوها بين يدى مستخدمها من عيون الاصناف العالية من المعاجين العجيبة في الصيني والطيافير الخلنج فيذوق ذلك شاهدها بحضرته ويستخبر عن احوالها بحضور اطباء الخاص وفيها من الآلات والازيار الصيني والبراني عدة عظيمة للورد والبنفسج والمرسين وأصناف الادوية من الراوند الصيني وما يجرى مجراه مما لايقدر احد على مثله الا هناك ومايدخل في الادوية من آلات العطر الى ذلك ويسأل عن الدرياق الفاروق ويأمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه ويؤكد في ذلك تأكيدا عظيما ويستأذن على مايطلق منها برقاع أطباء الخاص للجهات وحواشى القصر فيأذن في ذلك ويعطى الحامى للتفرقة فى الجماعة ثلاثين دينارا

(خزانة التوابل)

وقال ابن المأمون فأما التوابل العالى منها والدون فانها جملة كثيرة ولم يقع لى شاهد بها بل انى اجتمعت بأحد من كان مستخدما في خزانة التوابل فذكر أنها تشتمل على خمسين ألف دينار فى السنة وذلك خارج عما يحمل من البقولات وهى باب مفرد مع المستخدم فى الكافورى والذى استقر اطلاقه على حكم الاستمرار من الجرايات المختصة بالقصور والرواتب المستجدة والمطلق من الطيب ويذكر الطراز وما يبتاع من الثغور ويستعمل بها وغير ذلك فاولها جراية القصور وما يطلق لها من بيت المال ادرارا لاستقبال النظر المأمونى ستة آلاف وثلثمائة وثلاثة وأربعون دينارا تفصيله منديل الكم الخاص الآمرى فى الشهر ثلاثة آلاف دينار عن مائة دينار كل يوم اربع جمع الحمام فى كل جمعة مائة دينار أربعمائة دينار وبرسم الاخوة والاخوات والسيدة الملكة والسيدات والامير أبى على واخوته والموالى والمستخدمات ومن استجد من الافضليات ألفان وتسعمائة وثلاثة وأربعون دينارا ولم يكن للقصور فى الايام الافضلية من الطيب راتب فيذكر بل كان اذا وصلت الهدية والجاوى من البلاد اليمنية تحمل برمتها الى الايوان فينقل منها بعد ذلك للافضل والطيب المطاق للخليفة من جملتها فانفسخ هذا الحكم وصار المرتب من الطيب مياومة ومشاهرة على ما يأتى ذكره ما هو برسم الخاص الشريف فى كل شهر ند مثلث ثلاثون مثقالا عود صيفى مائة وخمسة دراهم كافور قديم خمسة عشر درهما عنبر خام عشرة مثاقيل زعفران عشرون درهما ماء ورد ثلاثون رطلا برسم بخور المجالس الشريف في كل شهر في أيام السلام ند مثلث عشرة مثاقيل عود صيفى عشرون درهما كافور قديم ثمانية دراهم زعفران شعر عشرة دراهم ماهو برسم بخور الحمام في كل ليلة جمعة عن أربع جمع في الشهر ند مثلث أربعة مثاقيل عود صيفى عشرة مثاقيل ما هو برسم السيدات والجهات والاخوة فى كل شهر ند مثلث خمسة وثلاثون مثقالا عود صيفى مائة وعشرون درهما زعفران شعر خمسون درهما عنبر خام عشرون مثقالا كافور قديم عشرون درهما مسك خمسة عشر مثقالا ماء ورد أربعون رطلا ما هو برسم المائدة الشريفة ما تستلمه المعلمة مسك خمسة عشر مثقالا ماء ورد خمسة عشر رطلا ماهو برسم خزانة الشراب الخاص مسك ثلاثة مثاقيل ند مثلث سبعة مثاقيل عود صيفى خمسة وثلاثون درهما ماء ورد عشرون رطلا ماهو برسم بخور المواكب الستة وهى الجمعتان الكائنتان في شهر رمضان برسم الجامعين بالقاهرة يعنى الجامع الازهر والجامع الحاكمى والعيدان وعيد الغدير وأول السنة بالجوامع والمصلى ند خاص جملة كثيرة لم تتحقق فتذكر ولم يكن للغرتين غرة السنة وغرة شهر رمضان وفتح الخليج بخور فيذكر وعدة المبخرين في المواكب ستة ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال وكل منهم

مشدود الوسط وفي كمه فحم برسم تعجيل المدخنـة والمداخن فضة وحامل الدرج الفضـة الذى فيه البخور أحد مقدمى بيت المال وهو فيما بين المبخرين طول الطريق و يضع بيده البخور في المدخنة واذا مات أحد هؤلاء المبخرين لايخدم عوضا عنه الا من يتبرع بمدخنة فضة لان لهم رسوما كثيرة في المواسم مع قربهم فى المواكب من الخليفة ومن الوقت الذى يتبرع فيه بالمدخنة يرجع في حاصل بيت المال واذا توفي حاملها لاترجع لورثته وعـدة مايبخر في الجوامع والمصلى غير هؤلاء في مداخن كبار في صوانى فضـة ثلاث صوان في المحراب احداهن وعن يمين المنبر وشماله اثنتان وفى الموضع الذى يجلس فيـه الخليفة الى أن تقام الصلاة صينية رابعـة وأما البخور المطلق برسم المـأمون فهو في كل شهر ندمثلث خمسة عشر مثقالا عود صيفي ستون درهما عنبر خامستة مثاقيل كافور ثمانية دراهم زعفران شعر عشرة دراهم ماء ورد خمسةعشر رطلا ومنها مقرر الجوامع وما قرر من خزانة التفرقة في كل يوم اثنا عشر مجمعا كل بيت عياره رطل واحد ولكل مجمع ثلاثة ارطال جبن قريش وفاكهة بنصف درهم والمستقر لهذه الجوامع فى كل يوم من اللبن خمسة وثمانون رطلا ومنها مقرر الحلوى والفستق ومما استجد مايعمل في الايوان برسم الخاص في كل يوم من الحلوي اثنا عشر جاما رطبة و يابسـة نصفين وزن كل جام من الرطب عشرة أرطال ومن اليابس ثمانية أرطال ومقرر الخشكنانج والبسندود في كل ليلة على الاستمرار برسم الخاص الآمرى والمأمونى قنطار واحد سكر ومثقالان مسك وديناران برسم المؤن لعمل خشكنانج و بسندود في قعبان وسلال صفصاف ويحمل ثلثا ذلك الى القصر والثلث الى الدار المأمونية قال وجرت مفاوضة بين متولى بيت المـال ودار الفطرة بسبب الاصناف ومن جملتها الفستق وقلة وجوده وتزايد سعره الى أن بلغ رطل ونصف بدينار وقد وقف منـه لارباب الرسوم ماحصل شكواهم بسببه فجاوبه متولى الديوان بأن قال ماتم موجب الانفاق لما هو راتب من الديوان وطالعا المقام العالى بأنه لمـا رسم لهما ذكرا جميع مااشتمل عليه ماهو مستقر الانفاق من قلب الفستق والذى يطلق من الخزائن من قلب الفستق ادرارا مستقرا بغير استـدعاء ولا توقيع مياومة كل يوم حسابا في الشهر التام عن ثلاثين يوما خمسمائة وخمسة وثمانون رطلا وفي الشهر الناقص عن تسعة وعشرين يوما خمسمائة وخمسة وستون رطلا حسابا عن كل يوم تسعة عشر رطلا ونصف من ذلك مايسـتلمه الصناع الحلاويون والمستخدمون بالايوان مما يصنع به خاص خارجا عما يصنع بالمطابخ الآمرية عن اثنى عشر جام حلوى خاص وزنها مائة وثمانية أرطال منها رطب سـتون رطلا ويابس وغيره ثمانية وأربعون رطلا مما يحمل فى يومه وساعته منها ما يحمل مختوما برسم المـائدتين الآمريتين بالباذهنج والدار الجديدة الاثنين مايحضرهما الا من كبرت منزلته وعظمت وجاهته جامان رطبا

ويابسا وما يفرق فى العوالى من الموالى والجهات على أوضاع مختلفة تسع جامات وما يحمل الى الدار المأمونية برسم المائدة بالداردون السماط جام واحد تمة المياومة المذكورة مايتسلمه مقدم الفراشين في خدمة المائدة الشريفة التى تتولاها المعامة بالقصور الزاهرة أربعة أرطال فستق مايتسلمه الشاهد والمشارف على المطابخ الآمرية مما يصنع فيها برسم الجامات الحلوى وغيره مما يكون على المدورة فى الاسمطة المستمرة بقاعة الذهب فى أيام السلام وفي أيام الركوبات وحلول الركاب بالمناظر أربعة ارطال وما يتسلمه الحاج مقبل الفراش برسم المائدة المأمونية مما يوصله لزمام الداردون المطابخ الرجالية رطلان الحكم الثانى يطلق مشاهرة بغير توقيع ولا استدعاء باسماء كبراء الجهات والمستخدمين من الاصحاب والحواشى فى الخدم المميزة وهو فى الشهر ثلاثة عشر رطلا والديوان شاهد باسماء أربابه وما يطلق من هذه الخزائن السعيدة بالاستدعاآت والمطالعات ويوقع عليه بالاطلاق من هذا الصنف فى كل سنة على مايأتي ذكره وما يستدعي برسم التوسعة في الراتب عند تحويل الركاب العالى الى اللؤلؤة مدة أيام النيل المبارك في كل يوم رطلان وما يستدعي برسم الصيام مدة تسعة وخمسين يوما رجب وشعبان حسابا عن كل يوم رطلان مائة وثمانية عشر رطلا وما يستدعى لما يصنع بدار الفطرة في كل ليلة برسم الخاص خشكنانج لطيفة وبسندود وجوارشات ونواطف ويحمل في سلال صفصاف لوقته عن مدة أولها مستهل رجب وآخرها سلخ رمضان عن تسعة وثمانين يوما مائة وثمانية وسبعون رطلا لكل ليلة رطلان ويسمى ذلك بالتعبية وما يستدعيه صاحب بيت المال ومتولي الديوان فيما يصنع بالايوان الشريف برسم الموالد الشريفة الاربعة النبوىّ والعلوىّ والفاطمىّ والآمرىّ مما هو برسم الخاص والموالي والجهات بالقصور الزاهرة والدار المأمونية والاصحاب والحواشي خارجا عما يطلق مما يصنع بدار الوكالة ويفرق على الشهود والمتصدرين والفقراء والمساكين مما يكون حسابه من غير هذه الخزائن عشرون رطلا قلب فستق حسابا لكل يوم مؤبد منها خمسة ارطال مايستدعي برسم ليالي الوقود الاربع الكائنات فى رجب وشعبان مما يعمل بالايوان برسم الخاصين والقصور خاصة عشرون رطلا لكل ليلة خمسة أرطال وأما ماينصرف في الاسمطة والليالى المذكورات في الجامع الازهر بالقاهرة والجامع الظاهرىّ بالقرافة فالحكم في ذلك يخرج عن هذه الخزائن ويرجع الى مشارف الدار السعيدة وكذلك مايستدعيه المستخدمون في المطابخ الآمرية من التوسعة من هذا الصنف المذكور في جملة غيره برسم الاسمطة لمدة تسعة وعشرين يوما من شهر رمضان وسلخه لاسماط فيه وفي الأعياد جميعها بقاعة الذهب وما يستدعيه النائب برسم ضيافة من يصرف من الامراء في الخدم الكبار ويعود الى الباب ومن يرد اليه من جميع الضيوف وما يستدعيه المستخدمون فى دار الفطرة برسم فتح الخليج

وهي الجملتان الكبيرتان فجميع ذلك لم يكن في هذه الخزائن محاسبته ولا ذكر جملته والمعاملة فيه مع مشارف الدار السعيدة وأماما يطلق من هذا الصنف من هذه الخزائن في هذه الولائم والافراح وارسال الانعام فهو شيء لم تتحقق أوقاته ولا مبلغ استدعائه أنهى المملوكان ذلك والمجلس فضل السمو والقدرة فيما يأمر به ان شاء الله تعالى

(دار التعبية)

قال ابن المأمون دار التعبية كانت فى الايام الافضلية تشتمل على مبلغ يسير فانتهى الامر فيها الى عشرة دنانير كل يوم خارجا عما هو موظف على البساتين السلطانية وهو النرجس والنينوفران الاصفر والاحمر والنخل الموقوف برسم الخاص وما يصل اليه من الفيوم وثغر الاسكندرية ومن جملتها تعبية القصور للجهات والخاص والسيدات ولدار الوزارة وتعبية المناظر فى الركوبات الى الجمع في شهر رمضان خارجا عن تعبية الحمامات وما يحمل كل يوم من الزهرة و برسم خزانة الكسوة الخاص وبرسم المائدة وتفرقة الثمرة الصيفية فى كل سنة على الجهات والامراء والمستخدمين والحواشى والاصحاب وما يحمل لدار الوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة

(خزانة الادم)

قال وأما الراتب من عند بركات الادمي فانه فى كل شهر ثمانون زوجا أوطية من ذلك برسم الخاص ثلاثون زوجا برسم الجهات أربعون زوجا برسم الوزارة عشرة أزواج خارجا عن السباعيات فانها تستدعى من خزانة الكسوة وفي كل موسم تكون مذهبة

(خزائن دار افتكين)

قال ابن الطوير وكانت لهم دار كبرى يسكنها نصر الدولة أفتكين الذى رافق نزار ابن المستنصر بالاسكندرية جعلوها برسم الخزن فقيل خزائن دار أفتكين وتحتوي على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الاسكندرية وغيرها وجميع القلوب المأكولة من الفستق وغيره والاعسال على اختلاف أصنافها والسكر والقند والشيرج والزيت فيخرج من هذه الخزائن بيد حاميها وهو من الاستاذين المميزين ومشارفها وهو من المعدلين راتب المطابخ خاصا وعاما ليوم أو لايام ينفق منها للمستخدمين ثم لارباب التوقيعات من الجهات وأرباب الرسوم في كل شهر من أرباب الرتب حتى لايخرج عما يحتاجون فيها الا اللحم والخضراوات فهي أبدا معمورة بذلك انتهى

(خبر نزار وأفتكين) لمامات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد ابن الامام الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن علىّ بن الحاكم بأمر الله أبي علىّ منصور فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة بادر الافضل شاهنشاه بن أمير الجيوش

بدر الجمالي الى القصر وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلى بالله وسير الى الامير نزار والامير عبد الله والامير اسماعيل أولاد المستنصر فجاؤا اليه فاذا أخوهم أحمد وهو أصغرهم قد جلس على سرير الخلافة فامتعضوا لذلك وشق عليهم وأمرهم الافضل بتقبيل الارض وقال لهم قبلوا الارض لمولانا المستعلى بالله وبايعوه فهو الذى نص عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده فامتنعوا من ذلك وقال كل منهم ان أباه قد وعده بالخلافة وقال نزار لوقطعت مابايعت من هو أصغر مني سنا وخط والدى عندى بأني ولى عهده وأنا أحضره وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى لايدرى به أحد وتوجه الى الاسكندرية فلما أبطأ مجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعلم له خبرا فانزعج لذلك انزعاجا عظيما وكانت نفرة نزار من الافضل لامور منها أنه خرج يوما فاذا بالافضل قد دخل من باب القصر وهو راكب فصاح به نزار انزل ياأرمني الجنس فحقدها عليه وصار كل منهما يكره الآخر ومنها أن الافضل كان يعارض نزارا في أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبطش بغلمانه فلما مات المستنصر خافه لانه كان رجلا كبيرا وله حاشية وأعوان فقدم لذلك أحمد بن المستنصر بعد مااجتمع بالامراء وخوفهم من نزار ومازال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه وكان من جملتهم محمود بن مصال فسير خفية الى نزار وأعلمه بما كان من اتفاق الافضل مع الأمراء على اقامة أخيه أحمد وادارته لهم عنه فاستعد الى المسير الى الاسكندرية هو وابن مصال فلما فارق الافضل ليحضر اليه بخط أبيه خرج من القصر متنكرا وسار هو وابن مصال الى الاسكندرية وبها الامير نصر الدولة أفتكين أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي ودخلا عليه ليلا وأعلماه بما كان من الافضل وترامياعليه ووعده نزار بأن يجعله وزيرا مكان الافضل فقبلهما أتم قبول وبايع نزارا وأحضر أهل الثغر لمبايعته فبايعوه ونعته بالمصطفى لدين الله فبلغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر المحرم سنة ثمان وثمانين بعساكره وسار الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وأفتكين وكانت بين الفريقين عدة حروب شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معه منهزما الى القاهرة فقوى نزار وأفتكين وسار اليهما كثير من العرب واشتد أمر نزار وعظم واستولى على بلاد الوجه البحرى وأخذ الافضل يتجهز ثانيا الى المسير لمحاربة نزار ودس الى أكابر العربان ووجوه أصحاب نزار وافتكين وصاروا الى الاسكندرية فنزل الافضل اليها وحاصرها حصارا شديدا وألح في مقاتلتهم وبعث الى أكابر أصحاب نزار ووعدهم فلما كان في ذى القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفر في البحر الى جهة بلاد المغرب ففت ذلك في عضد نزار وتبين فيه الانكسار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وأفتكين اليه يطلبان الامان منه فأمنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار

وأفتكين و بعث بهما الى القاهرة فأما نزار فانه قتل في القصر بان أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما وأما أفتكين فانه قتله الافضل بعد قدومه ودار أفتكين هذه كانت خارج القصر وموضعها الآن حيث مدرسة القاضي الفاضل وآدره بدرب ملوخيا

(خزانة البنود)

البنود هي الرايات والاعلام ويشبه أن تكون هي التي يقال لها في زمننا العصائب السلطانية وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك وباب العيد بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم علىّ بن الحاكم بأمر الله وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة وكان مشتغلا بالاكل والشرب والنزه وسماع الاغاني وفي زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة في اتخاذ الاغاني والرقاصات و بلغ من ذلك المبالغ العجيبة واتخذت له حجرة المماليك وكانوا يعلمونهم فيها أنواع العلوم وأنواع آلة الحرب وصنوف حيلها من الرماية والمطاعنة والمسابقة وغير ذلك * وقال في كتاب الذخائر والتحف ولما وهب السلطان يعني الخليفة المستنصر لسعد الدولة المعروف بسلام عليك مافي خزانة البنود من جميع المتاع والآلات وغير ذلك في اليوم السادس من صفر سنة احدى وستين وأربعمائة حمل جميعه ليلا وكان فيما وجد سعد الدولة فيها ألفا وتسعمائة درقة الى ماسوى ذلك من آلات الحرب وما سواه وغير ذلك من القضب الفضة والذهب والبنود وما سواه وفي خلال ذلك سقط من بعض الفراشين مقط شمع موقد نارا فصادف هناك أعدال كتان ومتاعا كثيرا فاحترق جميعه وكانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والاسواق وأعلمني من له خبرة بما كان في خزانة البنود أن مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات والامتعة و لذخائر لايعرف له قيمة عظما وان المنفق فيها كل سنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار من وقت دخول القائد جوهر وبناء القصر من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة الى هذا الوقت وذلك زائد عن مائة سنة وان جميعه باق فيها على الايام لم يتغير وأن جميعه احترق حتى لم يبق منهم باقية ولا أثر وانه احترق في هذه الليلة من قربات النفط عشرات الوف ومن زراقات النفط أمثالها فأما الدرق والسيوف والرماح والنشاب فلا تحصى بوجه ولا سبب مع مافيها من قضب الفضة وثيابها المذهبة وغيرها والبنود المجملة وسروج ولجم وثياب الفرحية المصبغات والبادين وغيرها بعد أن أخذوا ماقدروا عليه حتى لواء الحمد وسائر البنود وجميع العلامات والالوية وحدثني من أثق به أيضا انه احترق فيها من السيوف عشرات ألوف ومالا يحصى كثرة وأن السلطان بعد ذلك بمدة طويلة احتاج الى اخراج شيء من السلاح لبعض مهماته فاخرج من خزانة واحدة مما بقي وسلم خمسة عشر ألف سيف مجوهرة سوى

غيرها حدثني بجميعه الاجل عظيم الدولة متولى الستر الشريف انتهى * وجعلت خزانة البنود بعد هذا الحريق حبسا وفيها يقول القاضي المهذب بن الزبير لما اعتقل بها وكتب بها للكامل بن شاور

أيا صاحبي سجن الخزانة خليا * نسيم الصبا يرسل الى كبدي نفحا
وقولا لضوء الصبح هل أنت عائد * الى نظري أم لا أرى بعدها صبحا
ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى * سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا

وقال

أيا صاحبي سجن الخزانة خليا * من الصبح مايبدو سناه لنا ظرى
فو الله ماأدري أطرفي ساهر * على طول هذا الليل أم غير ساهر
ومالى من أشكو اليه أذا كما * سوى ملك الدنيا شجاع بن شاور

واستمرت سجنا للامراء والوزراء والاعيان الى أن زالت الدولة فاتخذها ملوك بني أيوب أيضا سجنا تعتقل فيه الامراء والمماليك * ومن غريب ماوقع بها أن الوزير أحمد ابن على الجرجراي لما توفي طلب الوزارة الحسن بن على الانباري فاجيب اليها فتعجل من سوء التدبير قبل تمامه مافوته مراده وضيع ماله ونفسه وذلك أنه كان قد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله أخوان يهوديان يتصرف أحدهما في التجارة والآخر في الصرف وبيع مايحمله التجار من العراق وهما أبو سعد ابراهيم وأبو نصر هرون ابنا سهل التستري واشتهر من أمرهما في البيوع واظهار مايحصل عندهما من الودائع الخفية ان يفقدمن التجار فى القرب والبعد ماينشأ به جميل الذكر في الآفاق فاتسع حالها لذلك واستخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعد ابراهيم بن سهل التستري في ابتياع مايحتاج اليه من صنوف الامتعة وتقدم عنده فباع له جارية سوداء فتحظي بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر فرعت لابي سعد ذلك فلما أفضت الخلافة الى المستنصر ولدها قدمت أبا سعد وتخصصت به فى خدمتها فلما مات الوزير الجرجراي وتكلم ابن الانباري في الوزارة قصده أبو نصر اخو أبى سعد فجبهه أحد أصحابه بكلام مؤلم فظن أبو نصر أن الوزير ابن الانباري اذا بلغه ذلك ينكر على غلامه ويعتذر اليه فجاء منه خلاف ماظنه وبلغه عنه أضعاف ماسمعه من الغلام فشكا ذلك الى أخيه أبي سعد وأعلمه بأن الوزير متغير النية لهما فلم يفتر أبو سعد عن ابن الانبارى وأغرى به أم المستنصر مولاته فتحدثت مع ابنها الخليفة المستنصر في أمره حتى عزله عن الوزارة فسعى أبو سعد عند أم المستنصر لابي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي في الوزارة فاستوزره المستنصر وتولى أبو سعد الاشراف عليه وصار الوزير الفلاحي منقادا لابى سعد تحت حكمه وأخذ الفلاحي يعمل على ابن الانباري ويغرى به ويصنع عليه ديونا

ويذكر عنه مايوجب الغضب عليه حتى تم ما يريد فقبض عليه وخرج عليه من الدواوين أموالا كثيرة مما كان يتولاه قديما وألزمه بحملها ونوع له أصناف العذاب واستصفى أمواله وهو معتقل بخزانة البنود ثم قتله في يوم الاثنين الخامس من المحرم سنة أربعين وار بعمائة بها فاتفق ان الفلاحي لما صرف عن الوزارة اعتقل بخزانة البنود حيث كان ابن الانبارى ثم قتل بها وحفر له ليدفن فظهر في الحفر رأس ابن الانبارى قبل أن يمضى فيه القتل فقال لا اله الا الله هذا رأس ابن الانبارى انا قتلته ودفنته ههنا وأنشد

رب لحد قد صار لحدا مرارا * ضاحكا من تزاحم الاضداد

فقتل ودفن في تلك الحفرة مع ابن الانبارى فعد ذلك من غرائب الاتفاق * ثم ان خزانة البنود جعلت منازل للاسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية ايام كانت محاربة المسلمين لهم فانزل بها الملك الناصر محمد بن قلاون الاسارى بعد حضوره من الكرك وأبطل السجن بها فلم يزالوا فيها بأهاليهم واولادهم في ايام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون فصار لهم فيها افعال قبيحة وأمور منكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمر والتظاهر بالزنا واللياطة وحماية من يدخل اليها من أرباب الديون واصحاب الجرائم وغيرهم فلا يقدر أحد ولو جل على اخذ من صار اليهم واحتمى بهم والسلطان يغضى عنهم لما يرى فى ذلك من مراعاة المصلحة والسياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج وكان يسكن بالقرب منها الامير الحاج آل ملك الجوكندار ويبلغه ما يفعله الفرنج من العظائم الشنيعة فلا يقدر على منعهم وفحش أمرهم فرفع الخبر الى السلطان واكثر من شكايتهم غير مرة والسلطان يتغافل عن ذلك الى أن كثرت مفاوضة الحاج آل ملك للسلطان في امرهم فقال له السلطان انتقل أنت عنهم يا أمير فلم يسعه الا الاعراض عن ذلك وعمر داره التي بالحسينية والاصطبل والجامع المعروف بآل ملك والحمام والفندق وانتقل من داره التي كان فيها بجوار خزانة البنود وسكن بالحسينية الى أن مات السلطان الملك الناصر فى اخريات سنة احدى وأربعين وسبعمائة وتنقل الملك في اولاده الى أن جلس الملك الصالح عماد الدين اسمعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاون وضرب شورى على من يكون نائب السلطنة بالديار المصرية يدبر أحوال المملكة كما كانت العادة في ذلك مدة الدولة التركية فأشير بتولية الامير بدر الدين جنكل بن البابا فنصل من ذلك وأبى قبوله فعرضت النيابة على الامير الحاج آل ملك فاستبشر وقال لى شروط أشرطها على السلطان فان أجابني اليها فعلت ما يرسم به وهي أن لا يفعل شيء في المملكة الا برأيي وأن يمنع الناس من شرب الخمر ويقام منار الشرع ولا يعترض على أمر من الامور فأجيب الى ما سأل وأحضرت التشاريف فأفيضت عليه بالجامع من قلعة الجبل في يوم الجمعة الثاني عشر من المحرم سنة أربع وأربعين

وسبعمائة وأصبح يوم السبت جالسا في دار النيابة من القلعة وحكم بين الناس وأول ما بدأ به أن أمر والى القاهرة بالنزول الى خزانة البنود وأن يحتاط على جميع ما فيها من الخمر والفواحش ويخرج الاسرى منها ويهدمها حتى يجعلها دكا ويسوي بها الارض فنزل اليها ومعه الحاجب في عدة وافرة وهجموا على من فيها وهم آمنون وأحاطوا بسائر ما تشتمل عليه وقد اجتمع من العامة والغوغاء ما لا يقع عليه حصر فأراقوا منها خمورا كثيرة تجاوز الحد فى الكثرة وأخرج من كان فيها من النساء البغايا وغيرهن من الشباب وأرباب الفساد وقبض على الفرنج والارمن وهدمها حتى لم يبق لها اثر ونودى فى الناس فحكروها وبنوا فيها الدور والطواحين على ما هى عليه الآن وأمر بالاسرى فأنزلوا بالقرب من المشهد النفيسى بجوار كيمان مصر فهم هناك الى الآن وأنزل من كان منهم أيضا بقلعة الجبل فأسكنوا معهم وطهر الله تلك الارض منهم وأراح العباد من شرهم فانها كانت شر بقعة من بقاع الارض يباع فيها لحم الخنزير على الوضم كما يباع لحم الضأن ويعصر فيها من الخمور في كل سنة مالا يستطيع أحد حصره حتى يقال انه كان يعصر بها في كل سنة اثنان وثلاثون ألف جرة خمر ويباع فيها الخمر نحو اثنى عشر رطلا بدرهم الى غير ذلك من سائر انواع الفسوق

(دار الفطرة)

قال ابن الطوير دار الفطرة خارج القصر بناها العزيز بالله وهو أول من بناها وقرر فيها ما يعمل مما يحمل الى الناس فى العيد وهى قبالة باب الديلم من القصر الذى يدخل منه الى المشهد الحسينى ويكون مبدأ الاستعمال فيها وتحصيل جميع اصنافها من السكر والعسل والقلوب والزعفران والطيب والدقيق لاستقبال النصف الثانى من شهر رجب كل سنة ليلا ونهارا من الخشكنانج والبسندود وأصناف الفانيذ الذي يقال له كعب الغزال والبرما وورد والفستق وهو شوابير مثال الصنج والمستخدمون يرفعون ذلك الى اماكن وسيعة مصونة فيحصل منه في الحاصل شيء عظيم هائل بيد مائة صانع للحلاويين مقدم وللخشكنانيين آخر ثم يندب لها مائة فراش لحمل طيافير للتفرقة على أرباب الرسوم خارجا عمن هو مرتب لخدمتها من الفراشين الذين يحفظون رسومها ومواعينها الحاصلة بالدائم وعدتهم خمسة فيحضر اليها الخليفة والوزير معه ولا يصحبه في غيرها من الخزائن لانها خارج القصر وكلها للتفرقة فيجلس على سريره بها ويجلس الوزير على كرسى ملبن على عادته فى النصف الثانى من شهر رمضان ويدخل معه قوم من الخواص ثم يشاهد ما فيها من تلك الحواصل المعمولة المعباة مثل الجبال من كل صنف فيفرقها من ربع قنطار الى عشرة ارطال الى رطل واحد وهو أقلها ثم ينصرف الخليفة والوزير بعد أن ينعم على مستخدميها بستين دينارا ثم يحضر الى حاميها ومشارفها الادعية المعمولة المخرجة من دفتر المجلس كل دعو لتفريق

فريق من خاص وغيره حتى لا يبقى أحد من ارباب الرسوم الا واسمه وارد في دعو من تلك الادعية وينذب صاحب الديوان الكتاب المسلمين في الديوان فيسيرهم الى مستخدميها فيسلم كل كاتب دعوا أو دعوين أو ثلاثة على كثرة ما يحتويه وقلته ويؤمر بالتفرقة من ذلك اليوم فيقدمون أبدا مائتى طيفور من العالى والوسط والدون فيحملها الفراشون برقاع من كتاب الادعية باسم صاحب ذلك الطيفور علا أو دنا وينزل اسم الفراش بالدعو أو عريفه حتى لا يضيع منها شيء ولا يختلط ولا يزال الفراشون يخرجون بالطيافير ملأى ويدخلون بها فارغة فبمقدار ما تحمل المائة الاولى عبيت المائة الثانية فلا يفتر ذلك طول التفرقة فأجل الطيافير ما عدد خشكنانه مائة حبة ثم الى سبعين وخمسين ويكون على صاحب المائة طرحة فوق قوارته ثم الى خمسين ثم الى ثلاث وثلاثين ثم الى خمس وعشرين ثم الى عشرين ونسبة منثور كل واحد على عدد خشكنانه ثم العبيد السودان بغير طيافير كل طائفة يتسلمه لها عرفاؤها في افراد الخواص لكل طائفة على مقدارها الثلاثة الافراد والخمسة والسبعة الى العشرة فلا يزالون كذلك الى أن ينقضى شهر رمضان ولا يفوت أحدا شيء من ذلك ويتهاداه الناس في جميع الاقليم قال وما ينفق في دار الفطرة فيما يفرق على الناس منها سبعة آلاف دينار * وقال ابن عبد الظاهر دار الفطرة بالقاهرة قبالة مشهد الامام الحسين عليه السلام وهى الفندق الذى بناه الامير سيف الدين بهادر الآن في سنة ست وخمسين وستمائة اول من رتبها الامام العزيز بالله وهو اول من سنها وكانت الفطرة قبل أن ينتقل الافضل الى مصر تعمل بالايوان وتفرق منه وعند ما تحول الى مصر نقل الدواوين من القصر اليها واستجد لها مكانا قبالة دار الملك بايوانى المكاتبات والانشاء فانهما كانا بقرب الدار ويتوصل اليهما من القاعة الكبرى التي فيها جلوسه ثم استجد للفطرة دارا عملت بعد ذلك وراقة وهى الآن دار الامير عز الدين الافرم بمصر قبالة دار الوكالة وعملت بها الفطرة مدة وفرق منها الاما يخص الخليفة والجهات والسيدات والمستخدمات والاستاذين فانه كان يعمل بالايوان على العادة ولما توفى الافضل وعادت الدواوين الى مواضعها أنهى خاصة الدولة ريحان وكان يتولى بيت المال ان المكان بالايوان يضيق بالفطرة فأمره المأمون أن يجمع المهندسين ويقطع قطعة من اصطبل الطارمة يبنيه دار الفطرة فانشأ الدار المذكورة قبالة مشهد الحسين والباب الذى بمشهد الحسين يعرف بباب الديلم وصار يعمل بها ما استجد من رسوم المواليد والوقودات وعقدت لها جملتان احداها وجدت فسطرت وهى عشرة آلاف دينار خارجا عن جوارى المستخدمين والجملة الثانية فصلت فيها الاصناف وشرحها دقيق ألف حملة سكر سبعمائة قنطار قلب فستق ستة قناطير قلب لوز ثمانية قناطير قلب بندق أربعة قناطير تمر أربعمائة اردب زبيب ثلثمائة

أردب خل ثلاثة قناطير عسل نحل خمسة عشر قنطارا شيرج مائتا قنطار حطب ألف ومائتا حملة سمسم أردبان أنيسون أردبان زيت طيب برسم الوقود ثلاثون قنطارا ماء ورد خمسون رطلا مسك خمس نوافج كافور قديم عشرة مثاقيل زعفران مطحون مائة وخمسون درهما وبيد الوكيل برسم المواعين والبيض والسقائين وغير ذلك من المؤن على ما يحاسب به وبرفع المحازم خمسمائة دينار * ووجدت بخط ابن ساكن قال كان المرتب في دار الفطرة ولها ما يذكر وهو زيت طيب برسم القناديل خمسة عشر قنطارا مقاطع سكندري برسم القوارات ثلثمائة مقطع طيافير جدد برسم السماط ثلثمائة طيفور شمع برسم السماط وتوديع الامراء ثلاثون قنطارا أجرة الصناع ثلثمائة دينار جاري الحامي مائة وعشرون دينارا جاري العامل والمشارف مائة وثمانون دينارا وشقة ديبقي بياض حريري ومنديل ديبقي كبير حريري وشقة سقلاطون اندلسي يلبسها قدام الفطرة يوم حملها ليفرق طيافير الفطرة على الامراء وأرباب الرسومات وعلى طبقات الناس حتى يعم الكبير والصغير والضعيف والقوي ويبدأ بها من أول رجب الى آخر رمضان *(ذكر ما اختص من صفة الطيافير)* الاعلى منها طيفور فيه مائة حبة خشكنانج وزنها مائة رطل وخمسة عشر قطعة حلاوة زنتها مائة رطل سكر سليماني وغيره عشرة ارطال قلوبات ستة ارطال بسندود عشرون حبة كعك وزبيب وتمر قنطار جملة الطيفور ثلاثة قناطير وثلث الى ما دون ذلك على قدر الطبقات الى عشر حبات * وقال ابن أبي طي وعمل المعز لدين الله دارا اسماها دار الفطرة فكان يعمل فيها من الخشكنانج والحلواء والبسندود والفانيذ والكعك والتمر والبندق شيء كثير من اول رجب الى نصف رمضان فيفرق جميع ذلك في جميع الناس الخاص والعام على قدر منازلهم في أوان لا تستعاد وكان قبل ليلة العيد يفرق على الامراء الخيول بالمراكب الذهب والخلع النفيسة والطراز الذهب والثياب برسم النساء

(المشهد الحسيني)

قال الفاضل محمد بن علي بن يوسف بن ميسر وفي شعبان سنة احدى وتسعين وأربعمائة خرج الافضل بن أمير الجيوش بعساكر جمة الى بيت المقدس وبه سكان وايلغازي ابنا ارتق في جماعة من اقاربهما ورجالهما وعساكر كثيرة من الاتراك فراسلهما الافضل يلتمس منهما تسليم القدس اليه بغير حرب فلم يجيباه لذلك فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانبا فلم يجدا بدا من الاذعان له وسلماه اليه فخلع عليهما وأطلقهما وعاد في عساكره وقد ملك القدس فدخل عسقلان وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما فأخرجه وعطره وحمله في سفط الى أجل دار بها وعمر المشهد فلما تكامل حمل الافضل الرأس الشريف على صدره وسعى به ماشيا الى أن أحله في مقره

وقيل ان المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وكمله ابنه الافضل وكان حمل الرأس الى القاهرة من عسقلان ووصوله اليها في يوم الاحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وكان الذى وصل بالرأس من عسقلان الامير سيف المملكة تميم واليها كان والقاضى المؤتمن بن مسكين مشارفها وحصل في القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة المذكور * ويذكر أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان وجد دمه لم يجف وله ريح كريح المسك فقدم به الاستاذ مكنون في عشارى من عشاريات الخدمة وأنزل به الى الكافورى ثم حمل في السرداب الى قصر الزمرذ ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة فكان كل من يدخل الخدمة يقبل الارض أمام القبر وكانوا ينحرون في يوم عاشوراء عند القبر الابل والبقر والغنم ويكثرون النوح والبكاء ويسبون من قتل الحسين ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم * وقال ابن عبد الظاهر مشهد الامام الحسين صلوات الله عليه قد ذكرنا أن طلائع بن رزيك المنعوت بالصالح كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان لما خاف عليها من الفرنج وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا لا يكون ذلك الا عندنا فعمدوا الى هذا المكان وبنوه له ونقلوا الرخام اليه وذلك في خلافة الفائز على يد طلائع في سنة تسع وأربعين وخمسمائة * وسمعت من يحكي حكاية يستدل بها على بعض شرف هذا الرأس الكريم المبارك وهى أن السلطان الملك الناصر رحمه الله لما أخذ هذا القصر وشى اليه بخادم له قدر في الدولة المصرية وكان زمام القصر وقيل له انه يعرف الاموال التى بالقصر والدفائن فأخذ وسئل فلم يجب بشيء وتجاهل فأمر صلاح الدين نوابه بتعذيبه فأخذه متولى العقوبة وجعل على رأسه خنافس وشدّ عليها قرمزية وقيل ان هذه أشد العقوبات وان الانسان لا يطيق الصبر عليها ساعة الا تنقب دماغه وتقتله ففعل ذلك به مرارا وهو لا يتأوّه وتوجد الخنافس ميتة فعجب من ذلك وأحضره وقال له هذا سر فيك ولا بدّ أن تعرفني به فقال والله ما سبب هذا الا أني لما وصلت رأس الامام الحسين حملتها قال واي سر أعظم من هذا وراجع في شأنه فعفا عنه * ولما ملك السلطان الملك الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء وفوّضها للفقيه البهاء الدمشقي وكان يجلس للتدريس عند المحراب الذى الضريح خلفه فلما وزر معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ بن حمويه ورد اليه أمر هذا المشهد بعد اخوته جمع من أوقافه ما بني به ايوان التدريس الآن وبيوت الفقهاء العلوية خاصة واحترق هذا المشهد في الايام الصالحية في سنة بضع وأربعين وستمائة وكان الامير جمال الدين بن يغمور نائبا عن الملك الصالح في القاهرة وسببه أن أحد خزان الشمع دخل ليأخذ شيأ فسقطت منه شعلة فوقف الامير جمال الدين المذكور

بنفسه حتى طفئ وأنشدته حينئذ فقلت

قالوا تعصب للحسين ولم يزل * بالنفس للهول المخوف معرّضا

حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح السود من تلك المخاوف أبيضا

أرضى الاله بما أتى نكأنه * بين الأنام بفعله موسى الرضى

قال ولحفظة الآثار وأصحاب الحديث ونقلة الاخبار ما اذا طولع وقف منه على المسطور وعلم منه ما هو غير المشهور وانما هذه البركات مشاهدة مرئية وهي بصحة الدعوى ملية والعمل بالنية *وقال في كتاب الدر النظيم في أوصاف القاضي الفاضل عبد الرحيم ومن جملة مبانيه الميضأة قريب مشهد الامام الحسين بالقاهرة والمسجد والساقية ووقف عليها أراضي قريب الخندق ظاهر القاهرة ووقفها دارّ جار والانتفاع بهذه المثوبة عظيم ولما هدم المكان الذى بنى موضعه مئذنة وجد فيه شيء من طلسم لم يعلم لاى شيء هو فيه اسم الظاهرين الحاكم واسم امه رصد *(خبر الحسين)* هو الحسين بن علىّ بن أبي طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله وامه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد لخمس خلون من شعبان سنة اربع وقيل سنة ثلاث وعق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سابعه بكبش وحلق رأسه وأمر أن يتصدق بزنته فضة وقال أروني ابني ما سميتموه فقال على بن أبي طالب حربا فقال بل هو حسين وكان أشبه الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من صدره وكان فاضلا دينا كثير الصوم والصلاة والحج وقتل يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء سنة احدى وستين من الهجرة بموضع يقال له كربلاء من أرض العراق بناحية الكوفة ويعرف الموضع أيضا بالطف قتله سنان ابن انس اليحصبي وقيل قتله رجل من مذحج وقيل قتله شمر بن ذى الجوشن وكان ابرص وأجهز عليه خولى بن يزيد الاصبحي من حمير حز رأسه واتي عبيد الله بن زياد وقال

أوقر ركابى فضة وذهبا * اني قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا * وخيرهم اذ ينسبون نسبا

وقيل قتله عمرو بن سعد بن أبي وقاص وكان الامير على الخيل التى أخرجها عبيد الله ابن زياد الى قتل الحسين وأمر عليهم عمرو بن سعد ووعده أن يوليه الرى ان ظفر بالحسين وقتله وقال ابن عباس رضي الله عنهما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم نصف النهار وهو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم فقلت بابى أنت وأمى ما هذا قال هذا دم الحسين لم أزل ألتقطه منذ اليوم فوجدته قد قتل فى ذلك اليوم وهذا البيت زعموا قديما لايدرى قائله

اترجو أمة قتلت حسينا * شفاعة جده يوم الحساب

وقتل مع الحسين سبعة عشر رجلا كلهم من ولد فاطمة وقيل قتل معه من أهل بيته واخوته ثلاثة وعشرون رجلا * وكان سبب قتله أنه لما مات معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه فى سنة ستين وردت بيعة اليزيد على الوليد بن عقبة بالمدينة ليأخذ البيعة على أهلها فأرسل الى الحسين بن على والى عبد الله بن الزبير ليلا فأتي بهما فقال بايعا فقالا مثلنا لا يبايع سرا ولكننا نبايع على رؤس الناس اذا أصبحنا فرجعا الى بيوتهما وخرجا من ليلهما الي مكة وذلك ليلة الاحد لليلتين بقيتا من رجب فأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشو الاوذا القعدة وخرج يوم التروية يريد الكوفة بكتب أهل العراق اليه فلما بلغ عبيد الله بن زياد مسير الحسين من مكة بعث الحصين بن تميم التميمي صاحب شرطته فنزل القادسية و نظم الخيل ما بينها و بين جبل لعلع فبلغ الحسين الحاجز له عن البلاد فكتب الى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه مع قيس بن مسهر فظفر به الحصين و بعث به الى ابن زياد فقتله وأقبل الحسين يسير نحو الكوفة فأتاه خبر قتل مسلم بن عقيل وخبر قتل اخيه من الرضاعة فقام حتى أعلم الناس بذلك وقال قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف فليس عليه ذمام منا فتفرقوا حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤا معه من مكة وسار فادركته الخيل وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي ونزل الحسين فوقفوا تجاهه وذلك فى نحر الظهيرة فسقى الحسين الخيل وحضرت صلاة الظهر فأذن مؤذنه وخرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم انى لم آتكم حتى اتتني كتبكم ورسلكم أن اقدم علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى وقد جئتكم فان تعطوني ما اطمئن اليه من عهودكم أقدم مصركم وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه فسكتوا وقال للمؤذن اقم فأقام وقال الحسين للحر أتريد أن تصلي أنت بأصحابك قال بل صل أنت ونصلى بصلاتك فصلى بهم ودخل فاجتمع اليه أصحابه وانصرف الحر الى مكانه ثم صلى بهم العصر واستقبلهم فحمد الله وأثنى عليه وقال يا أيها الناس انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لاهله يكن أرضى لله ونحن أهل البيت اولى بولاية هذا الامر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم السائرين فيكم بالجور والعدوان فان انتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم انصرفت عنكم فقال الحر انا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر فأخرج خرجين مملوءين صحفا فنشرها بين أيديهم فقال الحر انا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك وقد أمرنا اذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت ادني اليك من ذلك ثم أمر اصحابه لينصرفوا فركبوا فمنعهم الحر من ذلك فقال له الحسين ثكلتك امك ما تريد فقال له والله لو كان غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائنا من

كان والله مالي الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن ما نقدر عليه فقال له الحسين ما تريد قال أريد أن أنطلق بك الى ابن زياد وترك الكلام فقال له الحر اني لم أومر بقتالك وانما أمرت أن لا أفارقك حتى أدخلك الكوفة فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تزول الى المدينة حتى أكتب الى ابن زياد وتكتب انت الى يزيد أو الى ابن زياد فلعل الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك فتياسر عن طريق العذيب والقادسية والحر يسايره فلما كان يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة احدى وستين قدم عمرو بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف وبعث الى الحسين رسولا يسأله ما الذي جاء به فقال كتب الي اهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فاذا كرهوني فأنا أنصرف عنهم فكتب عمرو الى ابن زياد يعرفه ذلك فكتب اليه أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فان فعل رأينا فيه رأينا والا تمنعه ومن معه الماء فأرسل عمرو بن سعد خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتله بثلاثة أيام ونادى مناد يا حسين ألا تنظر الماء لا ترى منه قطرة حتى تموت عطشا ثم التقى الحسين بعمرو بن سعد مرارا فكتب عمرو بن سعد الى عبيد الله بن زياد أما بعد فان الله قد أطفأ الثائرة وجمع الكلمة وقد أعطاني الحسين أن يرجع الى المكان الذي أتى منه أو أن تسيره الى اى ثغر من الثغور شاء أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده وفي هذا لكم رضى وللامة صلاح فقال ابن زياد لشمر بن ذي الجوشن اخرج بهذا الكتاب الى عمرو فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي فان فعلوا فليبعث بهم وان ابوا فليقاتلهم فان فعل فاسمع له وأطع وان أبى فأنت الامير عليه وعلى الناس واضرب عنقه وابعث الي برأسه وكتب الى عمرو بن سعد أما بعد فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاوله ولا لتقعد له عندي شافعا انظر فان نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الي سلما وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون فان قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فانه عاق شاق قاطع ظلوم فان انت مضيت لامرنا جزيناك جزاء السامع المطيع وان انت ابيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر وبين العسكر والسلام فلما أتاه الكتاب ركب والناس معه بعد العصر فأرسل اليهم الحسين ما لكم فقالوا جاء امر الأمير بكذا فاستمهلهم الى غدوة فلما أمسوا قام الحسين ومن معه الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون فلما صلى عمرو بن سعد الغداة يوم السبت وقيل يوم الجمعة يوم عاشوراء خرج فيمن معه وعبى الحسين أصحابه وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا وركب ومعه مصحف بين يديه وضعه أمامه واقتتل أصحابه بين يديه وأخذ عمرو بن سعد سهما فرمى به وقال اشهدوا اني اول من رمي الناس

وحمل أصحابه فصرعوا رجالا وأحاطوا بالحسين من كل جانب وهم يقاتلون قتالا شديدا حتى انتصف النهار ولا يقدرون يأتونهم الا من وجه واحد وحمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين وحضر وقت الصلاة فسأل الحسين أن يكفوا عن القتال حتى يصلي ففعلوا ثم اقتتلوا بعد الظهر أشد قتال ووصل الى الحسين وقد صرعت أصحابه ومكث طويلا من النهار كلما انتهي اليه رجل من الناس رجع عنه وكره أن يتولى قتله فأقبل عليه رجل من كندة يقال له مالك فضربه على رأسه بالسيف قطع البرنس وأدماه فأخذ الحسين دمه بيده فصبه في الارض ثم قال اللهم ان كنت حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم من هؤلاء الظالمين واشتد عطشه فدنا ليشرب فرماه حصين بن تميم بسهم فوقع في فمه فتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه اللهم انى أشكو اليك ما يصنع بابن بنت نبيك اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا فأقبل شمر في نحو عشرة الى منزل الحسين وحالوا بينه وبين رحله وأقدم عليه وهو يحمل عليهم وقد بقى فى ثلاثة ومكث طويلا من النهار ولو شاؤا أن يقتلوه لقتلوه ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء فنادى شمر في الناس ويحكم ماتنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم امكم فحملوا عليه من كل جانب فضرب زرعة بن شريك التميمى كفه الايسر وضرب عاتقه وهو يقوم ويكبو فحمل عليه في تلك الحال سنان بن انس النخعي فطعنه بالرمح فوقع وقال لخولى بن يزيد الاصبحي احتز رأسه فأرعد وضعف فنزل عليه وذبحه وأخذ رأسه فدفعه الى خولى وسلب الحسين ما كان عليه حتي سراويله ومال الناس فانتهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة ونادى عمر بن سعد في أصحابه من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه فانتدب عشرة فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل معه اثنين وسبعين رجلا ومن أصحاب عمرو بن سعد ثمانية وثمانين رجلا غير الجرحى ودفن أهل العاصرية من بنى اسد الحسين بعد قتله بيوم وبعد أن أخذ عمرو بن سعد رأسه ورؤس أصحابه وبعث بها الى ابن زياد فأحضر الرؤس بين يديه وجعل ينكت بقضيب ثنايا الحسين وزيد بن ارقم حاضر وأقام ابن سعد بعد قتل الحسين يومين ثم رحل الى الكوفة ومعه ثياب الحسين واخوانه ومن كان معه من الصبيان وعلى بن الحسين مريض فأدخلهم على زياد ولما مرت زينب بالحسين صريعا صاحت يا محمداه هذا حسين بالعراء مزمل بالدماء مقطع الأعضاء يا محمد بناتك سبايا وذريتك مقتلة فأبكت كل عدو وصديق وطيف برأسه بالكوفة على خشبة ثم ارسل بها الى يزيد بن معاوية وأرسل النساء والصبيان وفي عنق على بن الحسين ويديه الغل وحملوا على الاقتاب فدخل بعض بني أمية على يزيد فقال أبشر يا أمير المؤمنين فقد

أمكنك الله من عدو الله وعدوك قد قتل ووجه برأسه اليك فلم يلبث الا اياما حتى جئ برأس الحسين فوضع بين يدى يزيد في طشت فأمر الغلام فرفع الثوب الذى كان عليه فحين رآه خمر وجهه بكمه كانه شم منه رائحة وقال الحمد لله الذى كفانا المؤنة بغير مؤنة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله قالت ريا حاضنة يزيد فدنوت منه فنظرت اليه وبه ردغ من حناء والذى أذهب نفسه وهو قادر على أن يغفر له لقد رأيته يقرع ثناياه بقضيب في يده ويقول أبياتا من شعر ابن الزبعرى ومكث الرأس مصلوبا بدمشق ثلاثة أيام ثم أنزل في خزائن السلاح حتى ولى سليمان بن عبد الملك الملك فبعث اليه فجئ به وقد محل وبقى عظما أبيض فجعله في سفط وطيبه وجعل عليه ثوبا ودفنه في مقابر المسلمين فلما ولى عمر بن عبد العزيز بعث الى خازن بيت السلاح وأن وجه الىّ برأس الحسين بن على فكتب اليه ان سليمان أخذه وجعله فى سفط وصلى عليه ودفنه فلما دخلت المسودّة سألوا عن موضع الرأس الكريمة الشريفة فنبشوه وأخذوه والله أعلم ما صنع به * وقال السرى لما قتل الحسين بن على بكت السماء عليه وبكاؤها حمرتها وعن عطاء في قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض قال بكاؤها حمرة أطرافها وعن على بن مسهر قال حدثتنى جدتى قالت كنت أيام الحسين جارية شابة فكانت السماء اياما كأنها علقة وعن الزهرى بلغني أنه لم يقلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين الا وجد تحته دم عبيط ويقال ان الدنيا أظلمت يوم قتل ثلاثا ولم يمس أحد من زعفرانهم شيأ فجعله على وجهه الا احترق وانهم اصابوا ابلا في عسكر الحسين يوم قتل فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيأ وروى أن السماء أمطرت دما فأصبح كل شئ لهم ملآن دما

(ماكان يعمل في يوم عاشوراء)

قال ابن زولاق في كتاب سيرة المعز لدين الله في يوم عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلثمائة انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم الى المشهدين قبر كلثوم ونفيسة ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام وكسروا أوانى السقائين في الاسواق وشققوا الروايا وسبوا من ينفق في هذا اليوم ونزلوا حتى بلغوا مسجد الريح وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل فخرج أبو محمد الحسين بن عمار وكان يسكن هناك في دار محمد بن أبي بكر وأغلق الدرب ومنع الفريقين ورجع الجميع فحسن موقع ذلك عند المعز ولولا ذلك لعظمت الفتنة لان الناس قد أغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وعطلوا الاسواق وانما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الاخشيدية والكافورية في يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة وكان السودان

وكافور يتعصبون على الشيعة وتتعلق السودان في الطرقات بالناس ويقولون للرجل من خالك فان قال معاوية أكرموه وان سكت اتى المكروه وأخذت ثيابه وما معه حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ومنع الناس من الخروج * وقال المسيحي وفي يوم عاشوراء يعني من سنة ست وتسعين وثلثمائة جرى الامر فيه على ما يجري كل سنة من تعطيل الأسواق وخروج المنشدين الى جامع القاهرة ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد ثم جمع بعد هذا اليوم قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح والنشيد وقال لهم لا تلزموا الناس أخذ شيء منهم اذا وقفتم على حوانيتهم ولا تؤذوهم ولا تتكسبوا بالنوح والنشيد ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة في الجامع العتيق بعد الصلاة وأنشدوا وخرجوا على الشارع بجمعهم وسبوا السلف فقبضوا على رجل ونودي عليه هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه * وقال ابن المأمون وفي يوم عاشوراء يعني من سنة خمس عشرة وخمسمائة عبي السماط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر التي كان يسكنها الافضل بن أمير الجيوش وهو السماط المختص بعاشوراء وهو يعبى في غير المكان الجاري به العادة في الاعياد ولا يعمل مدورة خشب بل سفرة كبيرة من أدم والسماط يعلوها من غير مرافع نحاس وجميع الزبادي أجبان وسلائط ومخللات وجميع الخبز من شعير وخرج الافضل من باب فرد الكم وجلس على بساط صوف من غير مشورة واستفتح المقرئون واستدعى الاشراف على طبقاتهم وحمل السماط لهم وقد عمل في الصحن الاول الذي بين يدي الافضل الى آخر السماط عدس أسود ثم بعده عدس مصفى الى آخر السماط ثم رفع وقدمت صحون جميعها عسل نحل ولما كان يوم عاشوراء من سنة ست عشر وخمسمائة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب الباذهنج يعني من القصر بعد قتل الافضل وعود الاسمطة الى القصر على كرسي جريد بغير مخدة متلثما هو وجميع حاشيته فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الامراء الكبار والصغار بالقراميز وأذن للقاضي والداعي والأشراف والامراء بالسلام عليه وهم بغير مناديل ملثمون حفاة وعبي السماط في غير موضعه المعتاد وجميع ما عليه خبز الشعير والحواضر على ما كان في الايام الافضلية وتقدم الى والى مصر والقاهرة بأن لا يمكنا أحدا من جمع ولا قراءة مصرع الحسين وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء الخاص والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم قال وفي ليلة عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة اعتمد الاجل الوزير المأمون على السنة الافضلية من المضي فيها الى التربة الجيوشية وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن الى آخر الليل وعوده الى داره واعتمد في صبيحة الليلة المذكورة

مثل ذلك وجلس الخليفة على الارض متلثما يرى به الحزن وحضر من شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة * قال ابن الطوير اذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس فاذا علا النهار ركب قاضى القضاة والشهود وقد غيروا زيهم فيكونون كما هم اليوم ثم صاروا الى المشهد الحسيني وكان قبل ذلك يعمل فى الجامع الازهر فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع جاء الوزير فجلس صدرا والقاضي والداعي من جانبيه والقراء يقرؤن نوبة بنوبة وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعرا يرثون به أهل البيت عليهم السلام فان كان الوزير رافضيا تغالوا وأن كان سنيا اقتصدوا ولا يزالون كذلك الى أن تمضى ثلاث ساعات فيستدعون الى القصر بنقباء الرسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير الى داره ويدخل قاضى القضاة والداعى ومن معهما الى باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط وينصب في الاماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ويجدون صاحب الباب جالسا هناك فيجلس القاضى والداعي الى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضاً ثم يفرش عليها سماط الحزن مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والاجبان والالبان الساذجة والاعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وأدخل الناس للاكل منه فيدخل القاضي والداعي ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران الى جانبه وفي الناس من لا يدخل ولا يلزم أحد بذلك فاذا فرغ القوم انفصلوا الى أماكنهم ركبانا بذلك الزى الذى ظهروا فيه وطاف النوّاح بالقاهرة ذلك اليوم وأغلق البياعون حوانيتهم الى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون

(ذكر أبواب القصر الكبير الشرقي)

وكان لهذا القصر الكبير الشرقى تسعة أبواب أكبرها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر ثم باب الريح ثم باب الزمرذ ثم باب العيد ثم باب قصر الشوك ثم باب الديلم ثم باب تربة الزعفران ثم باب الزهومة .

(باب الذهب) وهو باب القصر الذى تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة في يومي الاثنين والخميس للموكب المقدم ذكره بقاعة الذهب قال ابن أبى طيء عن المعز لدين الله انه لما خرج من بلاد المغرب أخرج أموالا كانت له ببلاد المغرب وأمر بسبكها أرحية كارحية الطواحين وأمر بها حين دخل الى مصر فألقيت على باب قصره وهى التى كان الناس يسمونها الجشمرات ولم تزل على باب القصر الى أن كان زمن الغلاء في أيام الخليفة المستنصر بالله فلما ضاق بالناس الامر أذن لهم أن يبردوا منها ببارد فاتخذ الناس

مبارد حادة وغرهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها فأمر بحمل الباقي الى القصر فلم تر بعد ذلك * وقال ابن ميسر ان المعز لما قدم الى القاهرة كان معه مائة جمل عليها الطواحين من الذهب وقال غيره كانت خمسمائة جمل على كل جمل ثلاثة ارحية ذهبا وانه عمل عضادتى الباب من تلك الارحية واحدة فوق اخرى فسمى باب الذهب

(جلوس الخليفة في الموالد بالمنظرة علو باب الذهب) قال ابن المأمون في أخبار سنة ست عشرة وخمسمائة وفي الثاني عشر من المحرم كان المولد الآمرى واتفق كونه في هذا الشهر يوم الخميس وكان قد تقرر أن يعمل أربعون صينية خشكنانج وحلوى وكعك وأطلق برسم المشاهد المحتوية على الضرائح الشريفة لكل مشهد سكر وعسل ولوز ودقيق وشيرج وتقدم بأن يعمل خمسمائة رطل حلوى وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء للمتصدرين ومن معهم في صحون وللفقراء على أرغفة السميذ ثم حضر في الليلة المذكورة القاضى والداعي والشهود وجميع المتصدرين وقراء الحضرة وفتحت الطاقات التي قبلي باب الذهب وجلس الخليفة وسلموا عليه ثم خرج متولى بيت المال بصندوق مختوم ضمنه عينا مائة دينار وألف وثمانمائة وعشرون درهما برسم أهل القرافة وساكنيها وغيرهم وفرقت الصواني بعد ما حمل منها للخاص وزمام القصر ومتولى الدفتر خاصة والى دار الوزارة والأجلاء الاخوة والاولاد وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب والقاضى والداعي ومفتي الدولة ومتولى دار العلم والمقرئين الخاص وأئمة الجوامع بالقاهرة ومصر وبقية الاشراف قال وخرج الآمر يعني في سنة سبع عشرة وخمسمائة باطلاق ما يخص المولد الآمرى برسم المشاهد الشريفة من سكر وعسل وشيرج ودقيق وما يصنع مما يفرق على المساكين بالجامعين الازهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة خمسة قناطير حلوى وألف رطل دقيق وما يعمل بدار الفطرة ويحمل للاعيان والمستخدمين من بعد القصور والدار المأمونية صينية خشكنانج وحضر القاضى والداعي والمستخدمون بدار العيد والشهود في عشية اليوم المذكور وقطع سلوك الطريق بين القصرين وجلس الخليفة فى المنظرة وقبلوا الارض بين يديه والمقرئون الخاص جميعهم يقرؤن القرآن وتقدم الخطيب وخطب خطبة وسع القول فيها وذكر الخليفة والوزير ثم حضر من أنشد وذكر فضيلة الشهر والمولود فيه ثم خرج متولى بيت المال ومعه صندوق من مال النجاوى خاصة مما يفرق على الحكم المتقدم ذكره قال واستهل ربيع الاول ونبدأ بما شرف به الشهر المذكور وهو ذكر مولد سيد الاولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم لثلاث عشرة منه وأطلق ماهو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم ومن الاصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ومن الخزائن برسم المتولين والسدنة للمشاهد الشريفة التى بين الجبل والقرافة التى

فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد وما يتولى تفرقته سنا الملك ابن ميسر أربعمائة ألف رطل حلاوة وألف رطل خبزا قال وكان الافضل بن أمير الجيوش قد أبطل أمر الموالد الاربعة النبوى والعلوى والفاطمى والامام الحاضر وما يهتم به وقدم العهد به حتى نسى ذكرها فأخذ الاستاذون يجددون ذكرها للخليفة الآمر باحكام الله ويرددون الحديث معه فيها ويحسنون له معارضة الوزير بسببها واعادتها واقامة الجوارى والرسوم فيها فأجاب الى ذلك وعمل ما ذكر وقال ابن الطوير ذكر جلوس الخليفة فى الموالد الستة في تواريخ مختلفة وما يطلق فيها وهى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أمير المؤمنين على بن أبي طالب ومولد فاطمة عليها السلام ومولد الحسن ومولد الحسين عليهما السلام ومولد الخليفة الحاضر ويكون هذا الجلوس في المنظرة التى هى أنزل المناظر وأقرب الى الارض قبالة دار فخر الدين جهاركس والفندق المستجد فاذا كان اليوم الثاني عشر من ربيع الاول تقدم بان يعمل في دار الفطرة عشرون قنطارا من السكر اليابس حلواء يابسة من طرائفها وتعبى في ثلثمائة صينية من النحاس وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم فتفرق تلك الصواني في أرباب الرسوم من أرباب الرتب وكل صينية في قوارة من أول النهار الى ظهره فأول أرباب الرسوم قاضى القضاة ثم داعى الدعاة ويدخل في ذلك القراء بالحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشاهد ولا يخرج ذلك مما يتعلق بهذا الجانب بدعو يخرج من دفتر المجلس كما قدمناه فاذا صلي الظهر ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم الى الجامع الازهر ومعهم أرباب تفرقة الصوانى فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة ثم يستدعى قاضي القضاة ومن معه فان كانت الدعوة مضافة اليه والاحضر الداعى معه بنقباء الرسائل فيركبون ويسيرون الى أن يصلوا الى آخر المضيق من السيوفيين قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين فيقفون هناك وقد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك وكنست الطريق فيما بين ذلك ورشت بالماء رشا خفيفا وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الاصفر ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة ووالى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق هو وقت استدعاء القاضي ومن معه من مكان وقوفهم فيقربون من المنظرة ويترجلون قبل الوصول اليها بخطوات فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشوف لانتظار الخليفة فتفتح احدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل وعلى رأسه عدة من الاستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم ويفتح بعض الاستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ويده اليمنى في كمه ويشير

به قائلا أمير المؤمنين يرد عليكم السلام فيسلم بقاضي القضاة أولا بنعوته وبصاحب الباب بعده كذلك وبالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعيين احد فيستفتح قراء الحضرة بالقراءة ويكونون قياما في الصدر وجوههم للحاضرين وظهورهم الى حائط المنظرة فيقدم خطيب الجامع الانور المعروف بجامع الحاكم فيخطب كما يخطب فوق المنبر الى أن يصل الى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيقول وان هـذا يوم مولده الى ما من الله به على ملة الاسلام من رسالته ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ثم يؤخر ويقدم خطيب الجامع الازهر فيخطب كذلك ثم خطيب الجـامع الأقمر فيخطب كذلك والقراء في خلال خطابة الخطباء يقرؤن فاذا انتهت خطابة الخطباء أخرج الاستاذ رأسه ويده في كمه من طاقته ورد على الجماعة السلام ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس ويجري أمر الموالد الخمسة الباقية على هـذا النظام الى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولا نقص انتهى .وهـذا الباب صـار بعد زوال الدولة الفاطمية يقابل دار الامير فخر الدين جهاركس الصلاحي التي عرفت بعد ذلك بالدار القطبية وهي الآ ن المـارستان المنصوري وصار موضع هـذا الباب محراب مدرسة الظاهر ركن الدين بيبرس

(باب البحر) هو من انشاء الحاكم بأمر الله أبي على منصور وهدم في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري وشوهد فيه أمر عجيب * قال جامع السيرة الظاهرية لمـا كان يوم عاشوراء يعني من سنة اثنتين وسبعين وستمائة رسم بنقض علو أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر قبالة المدرسة دار الحـديث الكاملية لاجل نقل عمـد فيـه لبعض العمائر السلطانية فظهر صندوق في حائط مبني عليه فالوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة وفتح الصندوق فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسي شبه الهرم ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الـكرسي والصنم جالس متوركا وله يدان مرفوعتان ارتفاعا جيداً يحمل صحيفة دورها قدر ثلاثة أشبار وفي هذه الصحيفة أشـكال ثابتة وفي الوسط صورة رأس بغير جسد ودائره مكتوب كتابة بالقبطي وبالقلفطيريات والى جانبها في الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة والى الجانب الآخر شكل آخر وعلى رأسه صليب والآخر في يده عكاز وعلى رأسه صليب .وتحت أرجلهم أشكال طيور وفوق رؤس الاشكال كتابة ووجد مع هـذا الصنم في الصندوق لوح من ألواح الصبيان التي يكتبون فيهـا بالمـكاتب مدهون وجهه الواحد أبيض ووجهه الواحد أحمر وفيه كتابة قـد تكشط أكثرها من طول المدة وقـد بلى اللوح وما بقيت الـكتابة تلتئم ولا الخط يفهم وهـذا نص ما فيـه وأخليت مكان كتابته التي تـكشطت وأما الوجه الابيض فهو مكتوب بقلم الصحيفة القبطي والمكـتوب في الوجـه الاحمر على هذه الصورة السطر الاول بقي منـه مكتوبا

الاسكندر السطر الثاني الارض وهبها له السطر الثالث وجرب لكل السطر الرابع أصحاب السطر الخامس وهو بحرس السطر السادس واحترازه بقوة السطر السابع الملك مرجو وابواب السطر الثامن غير بيته سبعة السطر التاسع عالم حكيم تالم في عقله السطر العاشر وصفها فلا تفسد السطر الحادى عشر طارد كل سوء والذى صاغها النبياء السطر الثاني عشر سد أيضا كل آثار اسدية بيبرس وهى احد السطر الثالث عشر بيبرس ملك الزمان والحكمة كلة الله عز وجل هذا صورة ما وجد في اللوح مما بقى من الكتابة والبقية قد تكشط وقيل ان هذا اللوح بخط الخليفة الحاكم وأعجب ما فيه اسم السلطان وهو بيبرس ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته فعرض على قراء الاقلام فقرئ وذلك بالقلم القبطى ومضمونه طلسم عمل للظاهرين الحاكم واسم أمه رصد وفيه أسماء الملائكة وعزائم ورقى وأسماء روحانية وصور ملائكة أكثره حرس لديار مصر وثغورها وصرف الأعداء عنها وكفهم عن طروقهم اليها وابتهال الى الله تعالى بأقسام كثيرة لحماية الديار المصرية وصونها من الاعداء وحفظها من كل طارق من جميع الاجناس وتضمن هذا الطلسم كتابة بالقلفطيريات وأوفاقا وصورا وخواص لايعلمها الا الله تعالى وحمل هذا الطلسم الى السلطان وبقى في ذخائره قال ورأيت فى كتاب عتيق رث سماه مصنفه وصية الامام العزيز بالله والد الامام الحاكم بأمر الله لولده المذكور وقد ذكر فيه الطلسمات التى على أبواب القصر ومن جملتها أن أول البروج الحمل وهو بيت المريخ وشرف الشمس وله القوة على جميع سلطان الفلك لانه صاحب السيف واسفهسلارية العسكر بين يدى الشمس الملك وله الامر والحرب والسلطان والقوة والمستولى لقوة روحانيته على مدينتنا وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه لقهر الاعداء وذل المنافقين في مكان أحكمناه على اشرافه عليه والحصن الجامع لقصر مجاور ألاول باب بنيناه هذا نص مارأيته انتهى ولعل معنى كتابة بيبرس فى هذا اللوح اشارة الى ان هدم هذا الباب يكون على زمان بيبرس فان القوم كانت لهم معارف كثيرة وعنايتهم بهذا الفن وافرة كبيرة والله أعلم وموضع باب البحر هذا اليوم يعرف بباب قصر بشتاق قبالة المدرسة الكاملية

(باب الريح) كان على ماأدركته تجاه سور سعيد السعداء على يمنة السالك من الركن المخلق الى رحبة باب العيد وكان بابا مربعاً يسلك فيه من دهليز مستطيل مظلم الى حيث المدرسة السابقية ودار الطواشى سابق الدين وقصر أمير السلاح وينتهي الى ما بين القصرين تجاه حمام البيسرى وعرف هذا الباب في الدولة الايوبية بباب قصر ابن الشيخ وذلك أن الوزير الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب كان يسكن بالقصر الذى في داخل هذا الباب ثم قيل له في زمننا باب القصر وكان

على حاله له عضادتان من حجارة ويعلوه أسكفة حجر مكتوب فيها نقرا في الحجر عدة أسطر بالقلم الكوفي لم يتهيأ لى قراءة مافيهاوكان دهليزهذا الباب عريضا يتجاوز عرضه فيما أقدر العشرة أذرع في طول كبيرجدا و يعلو هذا الباب دور للسكنى تشرف على الطريق ومازال على ذلك الى أن أنشأ الامير الوزير المشير جمال الدين يوسف الاستادار مدرسته برحبة باب العيد واغتصب لها أملاك الناس وكان مما اغتصب مابجوار المدرسة المذكورة من الحوانيت والرباع التى فوقها وما جاور ذلك وهدمها ليبنيها على مايريد فهدم هذا الباب فى صفر سنة احدى عشرة وثمانمائة وبنى فى مكانه ومكان الدهليز المظلم الذى كان ينتهى بالسالك فيه من هذا الباب الى المدرسة السابقية هذه القيسارية الكبيرة ذات الحوانيت والسقيفة والابواب الجديدة ودخل فيها بعض مما كان بجاني هذا الباب من الحوانيت وعلوها ولما هدم هذا الباب ظهر فى داخل بنيانه شخص و بلغنى ذلك فسرت الى الأمير المذكور وكان بنى وبينه صحبة لاشاهد هذاالشخص المذكور والتمست منه احضاره فأخبرنى أنه أحضر اليه شخص من حجارة قصير القامة احدى عينيه أصغر من الاخرى فقلت لابدلى من مشاهدته فأمر باحضاره الموكل بالعمارة وأنا معه اذ ذاك في موضع الباب وقد هدم ما كان فيه من البناء فذكر أنه رماه بين أحجار العمارة وأنه تكسر وصار فيما بينها ولا يستطيع تمييزه منها فأغلظ عليه وبالغ في الفحص عنه فأعياهم احضاره فسألت الرجل حينئذ عنه فقال لى انهم لما انتهوا في الهدم الى حيث كان هذا الشخص اذا بدائرة فيها كتابة وبوسطها شخص قصير صغير احدي العينين من حجارة وهذه كانت صفة جمال الدين فانه كان قصير القامة احدى عينيه أصغر من الاخرى ويشبه والله أعلم أن يكون قد عين فى تلك الكتابة التى كانت حول الشخص أن هذا الباب يهدمه من هذه صفته كما وجد في باب البحر اسم بيبرس الذى هدم على يديه وبأمره وقد ظفر جمال الدين هذا بأموال عظيمة وجدها في داخل هذا القصر لما أنشأ داره الاولى في الحدرة من داخل هذا الباب فى سنة ست وتسعين وسبعمائة وكان لكثرة هذا المال لايستطيع كتمانه ومن شدة خوفه يومئذ من الظاهر برقوق أن يظهر عليه لايقدر أن يصرح به فكان يقول لاصحابه وخواصه وجدت فى هذا المكان سبعين قفة من حديد أخبرنى اثنان رئيسان من أعيان الدولة عنه أنه قال لهما هذا القول وكنت اذ ذاك أيام عمارته لهذه القاعة أتردد لشيخنا سراج الدين عمر بن الملقن رحمه الله تعالى بالمدرسة السابقية وبها كان يسكن فتعرفت بجمال الدين منه وكان يومئذ من عرض الجند ويعرف باستادار نحاس فاشتهر هناك أنه وجد حال هدمه وعمارته القاعة والرواق بالحدرة مكانا مبنياً تحت الارض مبيض الحيطان فيه مال فما كان عندى شك أنه من أموال خبايا الفاطميين فانه قد ذكر غير واحد من الاخباريين أن السلطان صلاح الدين لما استولى

على القصر بعد موت العاضد لم يظفر بشيء من الخبايا وعاقب جماعة فلم يوقفوه على أمرها

(باب الزمرذ) سمي بذلك لانه كان يتوصل منه الى قصر الزمرذ وموضعه الآن المدرسة الحجازية بخط رحبة باب العيد

(باب العيد) هذا الباب مكانه اليوم فى داخل درب السلامى بخط رحبة باب العيد وهو عقد محكم البناء ويعلوه قبة قد عملت مسجدا وتحتها حانوت يسكنه سقاء ويقابله مصطبة وأدركت العامة وهم يسمون هذه القبة بالقاهرة ويزعمون أن الخليفة كان يجلس بها ويرخي كمه فتأتى الناس وتقبله وهذا غير صحيح وقيل لهذا الباب باب العيد لان الخليفة كان يخرج منه فى يومي العيد الى المصلى بظاهر باب النصر فيخطب بعد أن يصلي بالناس صلاة العيد كما ستقف عليه عند ذكر المصلى ان شاء الله تعالى وفي سنة احدى وستين وستمائة بنى الملك الظاهر بيبرس خانا للسبيل بظاهر مدينة القدس ونقل اليه باب العيد هذا فعمله بابا له وتم بناؤه في سنة اثنتين وستين

(باب قصر الشوك) وهو الذى كان يتوصل منه الى قصر الشوك وموضعه الآن تجاه حمام عرفت بحمام الايدمرى ويقال لها اليوم حمام يونس عند موقف المكارية بجوار خزانة البنود على يمنة السالك منها الى رحبة الايدمرى وهو الآن زقاق ينتهى الى بئر يسقى منها بالدلاء ويتوصل من هناك الى المارستان العتيق وغيره وأدركت منه قطعة من جانبه الايسر

(باب الديلم) وكان يدخل منه الى المشهد الحسيني وموضعه الآن درج ينزل منها الى المشهد تجاه الفندق الذى كان دار الفطرة ولم يبق لهذا الباب أثر ألبتة

(باب تربة الزعفران) مكانه الآن بجوار خان الخليلى من بحريه مقابل فندق المهمندار الذى يدق فيه ورق الذهب وقد بنى بأعلاه طبقة ورواق ولا يكاد يعرفه كثير من الناس وعليه كتابة بالقلم الكوفي وهذا الباب كان يتوصل منه الى تربة القصر المذكورة فيما تقدم

(باب الزهومة) كان في آخر ركن القصر مقابل خزانة الدرق التى هى اليوم خان مسرور وقيل له باب الزهومة لان اللحوم وحوائج الطعام التى كانت تدخل الى مطبخ القصر الذى للحوم انما يدخل بها من هذا الباب فقيل له باب الزهومة يعني باب الزفر وكان تجاهه أيضاً درب السلسلة الآتى ذكره ان شاء الله تعالى وموضعه الآن باب قاعة الحنابلة من المدارس الصالحية تجاه فندق مسرور الصغير ومن بعد باب الزهومة المذكور باب الذهب الذى تقدم ذكره فهذه أبواب القصر الكبير المتقدمة

(ذكر المنحر)

وكان بجوار هذا القصر الكبير المنحر وهو الموضع الذى اتخذه الخلفاء لنحر الاضاحي

في عيد النحر وعيد الغدير وكان تجاه رحبة باب العيد وموضعه الآن يعرف بالدرب الاصفر تجاه خانقاه بيبرس وصار موضعه ما في داخل هذا الدرب من الدور والطاحون وغيرها وظاهره تجاه رأس حارة برجوان يفصل بينه وبين حارة برجوان الحوانيت التي تقابل باب الحارة ومن جملة المنحر الساحة العظيمة التي عملت لها خوند بركة ام السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين البوابة العظيمة بخط الركن المخلق بجوار قيسارية الجلود التي عمل فيها حوانيت الاساكفة وكان الخليفة اذا صلى صلاة عيد النحر وخطب يحر بالمصلى ثم يأتي المنحر المذكور وخلفه المؤذنون يجهرون بالتكبير ويرفعون أصواتهم كلما نحر الخليفة شيأ وتكون الحربة في يد قاضي القضاة وهو بجانب الخليفة ليناوله اياها اذا نحر واول من سن منهم اعطاء الضحايا وتفرقتها في اولياء الدولة على قدر رتبهم العزيز بالله نزار *(ما كان يعمل في عيد النحر)* قال المسبحي وفي يوم عرفة يعني من سنة ثمانين وثلثمائة حمل يانس صاحب الشرطة السماط وحمل أيضا علي بن سعد المحتسب سماطا آخر وركب العزيز بالله يوم النحر فصلى وخطب على العادة ثم نحر عدة نوق بيده وانصرف الى قصره فنصب السماط والموائد وأكل ونحر بين يديه وأمر بتفرقة الضحايا على اهل الدولة وذكر مثل ذلك في باقي السنين وقال ابن المأمون في عيد النحر من سنة خمس عشرة وخمسمائة وأمر بتفرقة عيد النحر والهبة وجملة العين ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعون دينارا ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الامراء المطوقين والاستاذين المحنكين وكاتب الدست ومتولي حجبة الباب وغيرهم من المستخدمين وعدة ما ذبح ثلاثة ايام النحر في هذا العيد وعيد الغدير ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا تفصيله نوق مائة وسبعة عشر رأسا بقر أربعة وعشرون رأسا جاموس عشرون رأسا هذا الذي يحره ويذبحه الخليفة بيده في المصلى والمنحر وباب الساباط ويذبح الجزارون من الكباش ألفين وأربعمائة رأس والذي اشتملت عليه نفقات الاسمطة في الايام المذكورة خارجا عما يعمل بالدار المأمونية من الاسمطة وخارجا عن اسمطة القصور عند الحرم وخارجا عن القصور الحلواء والقصور المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة ألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار ومن السكر برسم القصور والقطع المنفوخ أربعة وعشرون قنطارا تفصيله عن قصرين في اول يوم خاصة اثنا عشر قنطارا المنفوخ عن ثلاثة الايام اثنا عشر قنطارا وقال في سنة ست عشرة وخمسمائة وحضر وقت تفرقة كسوة عيد النحر ووصل ما تأخر فيها بالطراز وفرقت الرسوم على من جرت عادته خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته وخارجا عما يفرق على سبيل المناخ ومن باب الساباط مذبوحا ومنحورا ستمائة دينار وسبعة عشر دينارا وفي التاسع من ذي الحجة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على سرير الملك وحضر الوزير واولاده وقاموا بما يجب

من السلام واستفتح المقرئون وتقدم حامل المظلة وعرض ما جرت عادته من المظال الخمسة التي جميعها مذهب وسلم الامراء على طبقاتهم وختم المقرئون وعرضت الدواب جميعها والعماريات والوحوش وعاد الخليفة الى محله فلما أسفر الصبح خرج الخليفة وسلم على من جرت عادته بالسلام عليه ولم يخرج شيء عما جرت به العادة في الركوب والعود وغير الخليفة ثيابه ولبس ما يختص بالنحر وهي البدلة الحمراء بالشدة التي تسمى بشدة الوقار والعلم الجوهر في وجهه بغير قضيب الملك في يده الى أن دخل المنحر وفرشت الملاءة الدبيقي الحمراء وثلاث بطائن مصبوغة حمر ليتقى بها الدم مع كون كل من الجزارين بيده مكبة صفصاف مدهونة يأتي بها الدم عن الملاءة وكبر المؤذنون ونحر الخليفة أربعا وثلاثين ناقة وقصد المسجد الذى آخر صف المنحر وهو مغلق بالشروب والفاكهة المعباة فيه بمقدار ما غسل يديه ثم ركب من فوره وجملة ما نحره وذبحه الخليفة خاصة في المنحر وباب الساباط دون الاجل الوزير المأمون وأولاده واخوته في ثلاثة الايام ما عدته ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا تفصيله نوق مائة وثلاث عشرة ناقة نحر منها في المصلى عقيب الخطبة ناقة وهي التي تهدى وتطلب من آفاق الارض للتبرك بلحمها ونحر في المناخ مائة ناقة وهي التي يحمل منها للوزير وأولاده واخوته والامراء والضيوف والاجناد والعسكرية والمميزين من الراجل وفي كل يوم يتصدق منها على الضعفاء والمساكين بناقة واحدة وفي اليوم الثالث من العيد تحمل ناقة منحورة للفقراء في القرافة وبحر في باب الساباط ما يحمل الى من حوته القصور والى دار الوزارة والى الاصحاب والحواشي اثنتا عشرة ناقة وثماني عشرة بقرة وخمس عشرة جاموسة ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس ويتصدق كل يوم في باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر وأما مبلغ المنصرف على الاسمطة في ثلاثة الايام خارجا عن الاسمطة بالدار المأمونية فألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار ومن السكر برسم قصور الحلاوة والقطع المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة خارجا عن المطابخ ثمانية وأربعون قنطارا * وقال ابن الطوير فاذا انقضى ذو القعدة وأهل ذو الحجة اهتم بالركوب في عيد النحر وهو يوم عاشره فيجرى حاله كما جرى في عيد الفطر من الزى والركوب الى المصلى ويكون لباس الخليفة فيه الاحمر الموشح ولا يخرم منه شيء وركوبه ثلاثة أيام متوالية فأولها يوم الخروج الى المصلى والخطابة كعيد الفطر وثاني يوم وثالثه الى المنحر وهو المقابل لباب الريح الذى في ركن القصر المقابل لسوردار سعيد السعداء الخانقاه اليوم وكان براحا خاليا لا عمارة فيه فيخرج من هذا الباب الخليفة بنفسه ويكون الوزير واقفا عليه فيترجل ويدخل ماشيا بين يديه بقربه هذا بعد انفصالهما من المصلى ويكون قد قيد الى هذا المنحر احد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة مفروشة يطلع عليها الخليفة والوزير

ثم اكابر الدولة وهو بين الاستاذين المحنكين فيقدم الفراشون له الى المصطبة رأسا ويكون بيده حربة من رأسها الذى لا سنان فيه ويد قاضى القضاة فى اصل سنانها فيجعله القاضى فى نحر النحيرة ويطعن بها الخليفة وتجر من بين يديه حتي يأتي على العدة المذكورة فأول نحيرة هي التى تقدد وتسير الى داعي اليمن وهو الملك فيـه فيفرقها على المعتقدين من وزن نصف درهم الى ربع درهم ثم يعمل ثاني يوم كذلك فيكون عـدد ما ينحر سبعـا وعشرين ثم يعمل في اليوم الثالث كذلك وعدة ما ينحر ثلاث وعشرون هـذا وفي مدة هذه الايام الثلاثة يسير رسم الاضحية الى ارباب الرتب والرسوم كما سيرت الغرة فى اول السنة من الدنانير بغير رباعية ولا قراريط على مثال الغرة من عشرة دنانير الى دينار وأما لحم الجزور فانه يفرق في أرباب الرسوم للتبرك فى أطباق مع ادوان الفراشين وا كثر ذلك تفرقة قاضى القضاة وداعى الدعاة للطلبة بدار العلم والمتصدرين بجوامع القاهرة ونقباء المؤمنين بهـا من الشيعة للتبرك فاذا انقضى ذلك خلع الخليفة على الوزير ثيابه الحمر التى كانت عليه ومنديلا آخر بغير السمة والعقد المنظوم من القصر عند عود الخليفة من المنحر فيركب الوزير من القصر بالخلع المذكورة شاقا القاهرة فاذا خرج من باب زويلة انعطف على يمينه سالـكا على الخليج فيدخل من باب القنطرة الى دار الوزارة وبذلك انفصـال عيد النحر * وقال ابن أبي طي" عدة ما يذبح في هـذا العيد في ثلاثة ايام النحر وفي يوم عيد الغدير ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا تفصيله نوق مائة وسبعة عشر رأسابقرأربعة وعشرون رأسا جاموس عشرون رأسا هـذا الذى يحره الخليفة ويذبحه بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط ويذبح الجزارون بين يديه من الكباش ألفا وأربعمائة رأس * وقال ابن عبد الظاهر كان الخليفة ينحر بالمنحر مائة رأس ويعود الى خزانة الـكسوة فيغير قماشه ويتوجه الى الميدان وهو الخرنشف بباب الساباط للنحر والذبح ويعود بعد ذلك الى الحمام ويغير ثيابه للجلوس على الاسمطة وعـدة ما يذبحه ألف وسبعمائة وسـتة وأربعون رأسـا مائة وثلاث عشرة ناقة والباقي بقر وغنم * قال ابن الطوير وثمن الضحايا على ما تقرر ما يقرب من ألفي دينار وكانت تخرج المخلقات الى الاعمـال بشائر بركوب الخليفة في يوم عيد النحر فمما كتب به الاستاذ البارع ابو القسم على" بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المنعوت بتاج الرياسة أما بعد فالحمد لله الذى رفع منار الشرع وحفظ نظامه • ونشر راية هذا الدين وأوجب اعظامه • وأطلع بخلافة أمير المؤمنين كواكب سعوده • وأظهر للمؤلف والمخالف عزة أحزابه وقوة جنوده • وجعل فرعه ساميا ناميا وأصله ثابتا راسخا • وشرفه على الاديان بأسرها وكان لعراها فاصما ولا حكامها ناسخا • يحمده أمير المؤمنين أن ألزم طاعته الخليقة • وجعل كراماته الاسباب الجديرة بالامارة الخليقة • ويرغب اليه فى الصلاة على

جده محمد الذي حاز الفخار أجمعه • وضمن الجنة لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه • ورفعه الى أعلى منزلة تخيرله منها المحل • وأرسله بالهدى ودين الحق فزهق الباطل وخمدت ناره واضمحل • صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب خير الامة وامامها • وحبر الملة وبدر تمامها • والموفي يومه في الطاعات على ماضي أمسه • ومن أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المباهلة مقام نفسه • واختصه بأبعد غاية في سورة براءة فنادى في الحج بأولها ولم يكن غيره ينفذ نفاذه ولا يسد مكانه • لانه قال لا يبلغ عنى الا رجل من أهل بيتى عملا في ذلك بما أمر الله به سبحانه • وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله في أرضه • والقائمين في سياسة خلقه • بصريح الايمان ومحضه • والمحكمين من أمر الدين ما لا وجه لحله ولا سبيل الى نقضه • وسلم عليهم أجمعين سلاما يتصل دوامه • ولا يخشى انصرامه • ومجد وكرم • وشرف وعظم • وكتاب أمير المؤمنين هذا اليك يوم الاحد عيد النحر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة الذي تبلج فجره عن سيئات محصت • ونفوس من آثار الذنوب خلصت • ورحمة امتدت ظلالها وانتشرت • ومغفرة هنأت ونشرت • وكان من خبر هذا اليوم أن أمير المؤمنين برز لكافة من بحضرته من اوليائه • متوجها لقضاء حق هذا العيد السعيد وأدائه • في عترة راسخة قواعدها متمكنة • وعساكر جمة تضيق عنها ظروف الامكنة • ومواكب تتوالى كتوالى السيل • وتهاب هيبة مجيئه فى الليل • بأسلحة تحسر لها الابصار وتبرق • وترتاع الافئدة منها وتفرق • فمن مشرفي اذا ورد تورد • ومن سمهرى اذا قصد تقصد • ومن عمد اذا عمدت • تبرأت المغافر من ضمانها • ومن قسى اذا ارسلت بنانها وصلت الى القلوب بغير استئذانها • ولم يزل سائرا فى هدى الامامة وأنوارها • وسكينة الخلافة ووقارها • الى أن وصل الى المصلى قدام المحراب • وأدى الصلاة اذ لم يكن بينه وبين التقبيل حجاب • ثم علا المنبر فاستوى على ذروته • ثم هلل الله وكبر وأثنى على عظمته • وأحسن الى الكافة ببليغ موعظته • وتوجه الى ما أعد من البدن فنحره تكميلا لقربته • وانتهى فى ذلك الى ما أمر الله عز وجل وعاد الى قصوره المكرمة • ومنازله المقدسة • قد رضى الله عمله • وشكر فعله وتقبله • أعلمك أمير المؤمنين بذلك لتشكر الله على النعمة فيه • وتذيعه قبلك على الرسم مما تجاريه • فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى

(ذكر دار الوزارة الكبرى)

وكان بجوار هذا القصر الكبير الشرقي تجاه رحبة باب العيد دار الوزارة الكبرى ويقال لها الدار الافضلية والدار السلطانية * قال ابن عبد الظاهر دار الوزارة بناها بدر الجمالى أمير الجيوش ثم لم يزل يسكنها من يلى امرة الجيوش الى أن انتقل الامر عن المصريين وصار الى بني أيوب فاستقر سكن الملك الكامل بقلعة الجبل خارج القاهرة وسكنها

السلطان الملك الصالح ولده ثم أرصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة الى هذا الوقت وكانت دار الوزارة قديما تعرف بدار القباب وأضافها الافضل الى دور بني هريسة وعمرها دارا وسماها دار الوزارة انتهى والذي تدل عليه كتب ابتياعات الاملاك القديمة التي بتلك الخطة أنها من بناء الافضل لا من عمارة ابيه بدر والدار التي عمرها أمير الجيوش بدر هي داره بحارة برجوان التي قيل لها دار المظفر ومازال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الافضل بن أمير الجيوش يسكنون بدار الوزارة هذه الى أن زالت الدولة فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب وابنه من بعده الملك العزيز عثمان ثم ابنه الملك المنصور ثم الملك العادل ابو بكر بن ايوب ثم ابنه الملك الكامل وصاروا يسمونها الدار السلطانية وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن بالقلعة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن ايوب وجعلها منزلا للرسل فلما ولي قطز سلطنة ديار مصر وتلقب بالملك العادل في سنة سبع وخمسين وستمائة وحضر اليه البحرية وفيهم بيبرس البندقداري وقلاون الالفي من الشام خرج الملك العادل قطز الى لقائهم وأنزل الامير ركن الدين بيبرس بدار الوزارة فلم يزل بها حتى سافر صحبة قطز الى الشام وقتله وعاد الى مصر فتسلطن وسكن بقلعة الجبل * وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة لما قتل الاشرف خليل بن قلاون في واقعة بيدرا ثم قتل بيدرا وأجلس الملك الملك الناصر محمد على تخت الملك وثارت الأشرفية من المماليك على الامراء وقتل من قتل منهم خاف بقية الامراء من شر المماليك الاشرفية فقبض منهم على نحو الستمائة مملوك وأنزل بهم من القلعة وأسكن منهم نحو الثلثمائة بدار الوزارة وأسكن منهم كثير في مناظر الكبش وأجريت عليهم الرواتب ومنعوا من الركوب الى أن كان من أمرهم ما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب * ولما كانت سنة سبعمائة أخذ الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة في ايام الملك المنصور حسام الدين لاجين قطعة من دار الوزارة فبنى بها الربع المقابل خانقاه سعيد السعداء ثم بني المدرسة المعروفة بالقراسنقرية ومكتب الايتام فلما كانت دولة البرجية بني الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية والرباط بجانبها من جملة دار الوزارة وذلك في سنة تسع وسبعمائة ثم استولى الناس على مابقي من دار الوزارة وبنوا فيها فمن حقوقها الربع تجاه الخانقاه الصلاحية دار سعيد السعداء والمدرسة القراسنقرية وخانقاه ركن الدين بيبرس وما بجوارها من دار قزمان ودار الامير شمس الدين سنقر الاعسر الوزير المعروفة بدار خوند طولوباي الناصرية جهة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون وحمام الاعسر التي بجانبها والحمام المجاورة لها وما وراء هذه الاماكن من الآدر وغيرها وهي الفرن والطاحون التي قبلي

المدرسة القراسنقرية ومن الآدر والخربة التى قبلىّ ربع قراسنقروما جاور باب سر المدرسة القراسنقرية من الآدر وخربة أخرى هناك والدار الكبرى المعروفة بدار الامير سيف الدين برلغي الصغير صهر الملك المظفر بيبرس الجاشنكير المعروفة اليوم بدار الغزاوى وفيها السرداب الذى كان رزيك بن الصالح رزيك فتحه فى أيام وزاته من دار الوزارة الى سعيد السعداء وهو باق الى الآن فى صدر قاعتها وذكر أن فيه حية عظيمة ومن حقوق دار الوزارة المناخ المجاور لهذه القاعة وكان على دار الوزارة سور مبني بالحجارة وقد بقي الآن منه قطعة في حد دار الوزارة الغربى وفي حدها القبلي وهو الجدار الذى فيه باب الطاحون والساقية تجاه باب سعيد السعداء من الزقاق الذى يعرف اليوم بخرائب تتر ومنه قطعة في حدها الشرقى عند باب الحمام والمستوقد بباب الجوانية وكان بدار الوزارة هذا الشباك الكبير المعمول من الحديد في القبة التى دفن تحتها بيبرس الجاشنكير من خانقاهه وهو الشباك الذى يقرأ فيه القراء وكان موضوعا في دار الخلافة ببغداد يجلس فيه الخلفاء من بنى العباس فلما استولى الامير أبو الحرث البساسيرى على بغداد وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى أربعين جمعة وانتهب قصر الخلافة وصار الخليفة القائم بأمر الله العباسى الى عانة وسير البساسيرى الاموال والتحف من بغداد الى المستنصر بالله بمصر في سنة سبع وأربعين وأربعمائة كان من جملة مابعث به منديل الخليفة القائم بأمر الله الذى عممه بيده في قالب من رخام قد وضع فيه كما هو حتى لاتتغير شدته ومع هذا المنديل رداءه والشباك الذى كان يجلس فيه ويتكئ عليه فاحتفظ بذلك الى أن عمرت دار الوزارة على يد الافضل بن أمير الجيوش فجعل هذا الشباك بها يجلس فيه الوزير ويتكئ عليه وما زال بها الى أن عمر الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية وأخذ من دار الوزارة أنقاضا منها هذا الشباك فجعله في القبة وهو شباك جليل وأما العمامة والرداء فما زالا بالقصر حتى مات العاضد وتملك السلطان صلاح الدين ديار مصر فسيرها في جملة مابعث من مصر الى الخليفة المستضيء بالله العباسى ببغداد ومعهما الكتاب الذى كتبه الخليفة القائم على نفسه وأشهد عليه المدول فيه أنه لاحق لبنى العباس ولاله من جملتهم في الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام وكان البساسيرى ألزمه حتى أشهد على نفسه بذلك وبعث بالاشهاد الى مصر فأنفذه صلاح الدين الى بغداد مع ماسير به من التحف التى كانت بالقصر وأخبرنى شيخ معمر يعرف بالشيخ على السعودى ولد فى سنة سبع وسبعمائة قال رأيت مرة وقد سقط من ظهر الرباط المجاور لخانقاه بيبرس من جملة مابقى من سور دار الوزارة جانب ظهرت منه علبة فيها رأس انسان كبير وعندى أن هذا الرأس من جملة رؤس الامراء البرقية الذين قتلهم ضرغام في أيام وزارته للعاضد بعد شاور فانه كان عمل الحيلة عليهم بدار

الوزارة وصار يستدعي واحدا بعد واحد الى خزانة بالدار ويوهم أنه يخلع عليهم فاذا صار واحد منهم في الخزانة قتل وقطع رأسه وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وكانت دار الوزارة فى الدولة الفاطمية تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان وغيره وكان فيها مائة وعشرون مقسما للماء الذى يجرى فى بركها ومطابخها ونحو ذلك

(ذكر رتبة الوزارة وهيئة خلعهم ومقدار جاريهم وما يتعلق بذلك)

أما المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بديار مصر فانه لم يوقع اسم الوزارة على أحد فى أيامه وأول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز واليه تنسب الحارة الوزيرية كما ستقف عليه عند ذكر الحارات من هذا الكتاب فلما مات ابن كلس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحدا وانما كان رجل يلى الوساطة والسفارة فاستقر في ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبى على منصور الحاكم بأمر الله ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجراى فى أيام الظاهر أبى هاشم على بن الحاكم وما زال الوزراء من بعده واحدا بعد واحد وهم أرباب أقلام حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالى * قال ابن الطوير وكان من زي هؤلاء الوزراء أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالاحناك تحت حلوقهم مثل العدول الآن وينفردون بلبس ثياب قصار يقال لها الدراريع واحدها دراعة وهى مشقوقة أمام وجهه الى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعرى ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ومنهم من أزراره لؤلؤ وهذه علامة الوزارة ويحمل له الدواة المحلاة بالذهب ويقف بين يديه الحجاب وأمره نافذ فى أرباب السيوف من الاجناد وأرباب الاقلام وكان آخرهم الوزير ابن المغربي الذي قدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ووزر للمستنصر وزير سيف ولم يتقدمه فى ذلك أحد انتهى وترتيب وزارته بأن تكون وزارته وزارة صاحب سيف بأن تكون الامور كلها مردودة اليه ومنه الى الخليفة دون سائر خدمه فعقد له هذا العقد وأنشئ له السجل ونعت بالسيد الاجل أمير الجيوش وهو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق وأضيف اليه كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وجعل القاضى والداعي نائبين عنه ومقلدين من قبله وكتب له في سجله وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ماوراء سريره فباشر ماقلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ومصلحاً للفساد ومدمرا أهل العناد وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقوّرزى قاضى القضاة وذلك في سنة سبع وستين وأربعمائة فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض ويقال لمتوليها أمير الجيوش وبطل اسم الوزارة فلما قام شاهنشاه بن أمير الجيوش من بعد أبيه ومات الخليفة المستنصر وأجلس ابن بدر

في الخلافة احمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلي صار يقال له الافضل ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب به أيضا وأول من لقب بالملك منهم مضافا الى بقية الالقاب رضوان بن ولخشي عند ماوزر للحافظ لدين الله فقيل له السيد الاجل الملك الافضل وذلك في سنة ثلاثين وخمسمائة وفعل ذلك من بعده فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور وتلقب ابنه رزيك بن طلائع بالملك العادل وتلقب شاور بالملك المنصور وتلقب آخرهم صلاح الدين يوسف بن ايوب بالملك الناصر وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد واليه الحكم في الكافة من الامراء والاجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية وصار حال الخليفة معه كما هو حال ملوك مصر من الاتراك اذا كان السلطان صغيرا والقائم بأمره من الامراء وهو الذى يتولى تدبير الامور كما كان الامير يلبغا الخاصكي مع الاشرف شعبان وكما ادركنا الامير برقوق قبل سلطنته مع ولدى الاشرف وكما كان الامير ايتمش مع الملك الناصر فرج بعد موت الظاهر برقوق * قال ابن أبي طي وكانت خلعهم يعني الخلفاء الفاطميين على الامراء الثياب الديبقي والعمائم القصب بالطراز الذهب وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ويخلع على اكابر الامراء الاطواق الذهب والاسورة والسيوف المحلاة وكان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر * قال ابن الطوير وخلع عليه يعنى على امير الجيوش بدر الجمالى بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور زى قاضي القضاة وهذه الخلع تشابه خلع الوزراء وأرباب الاقلام في زمننا هذا غير أنه لقصور أحوال الدولة جعل عوض العقد الجوهر الذى كان للوزير ويفك بخمسة آلاف مثقال ذهبا قلادة من عنبر مغشوش يقال لها العنبرية ويتميز بها الوزير خاصة ويلبس أيضا الطيلسان المقور ويسمى اليوم بالطرحة ويشاركه فيها جميع أرباب العمائم اذا خلع عليهم فانه تكون خلعهم بالطرحة وترك أيضا اليوم من خلعة الوزير وغيره الذؤابة المرخاة وهى العذبة وصارت الآن من زى القضاة فقط وهجرها الوزراء ويشبه والله أعلم أن يكون وضعها في الدولة الفاطمية للوزير في خلعه اشارة الى أنه كبير أرباب السيوف والاقلام فانه كان مع ذلك يتقلد بالسيف وكذلك ترك في الدولة التركية من خلع الوزارة تقليد السيف لانه لا حكم له على أرباب السيوف ولما قام الافضل بن امير الجيوش خلع أيضا عليه بالسيف والطيلسان المقور وبعد الافضل لم يخلع على احد من الوزراء كذلك الى أن قدم طلائع بن رزيك ولقب بالملك الصالح عند ما خلع عليه للوزارة وجعل في خلعته السيف والطيلسان المقور * قال ابن المامون وفي يوم الجمعة ثانيه يعني ثاني ذى الحجة يعني سنة خمس عشرة وخمسمائة خلع على القائد ابن فاتك البطائحي من

الملابس الخاص الشريفة في قردكم مجلس الكعبة وطوق بطوق ذهب مرصع وسيف ذهب كذلك وسلم على الخليفة الامر باحكام الله وأمر الخليفة الاستاذين المحنكين بالخروج بين يديه وأن يركب من المكان الذى كان الافضل بن أمير الجيوش يركب منه ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه وخرج بتشريف الوزارة يعنى من باب الذهب ودخل من باب العيد راكبا وجرى الحكم فيه على ما تقدم للافضل ووصل الى داره فضاعف الرسوم وأطلق الهبات ولما كان يوم الاثنين خامس ذى الحجة اجتمع امراء الدولة لتقبيل الارض بين يدى الخليفة الآمر على العادة التى قررها مستجدة واستدعى الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة فلما حضر أمر باحضار السجل للاجل الوزير المأمون من يده فقبله وسلمه لزمام النصر وامر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس عن يمينه وقرئ السجل على باب المجلس وهو اول سجل قرئ في هذا المكان وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان ورسم للشيخ أبي الحسن أن ينقل النسبة للامراء والمحنكين من الامراء الى المأموني للناس أجمع ولم يكن أحد منهم ينتسب للافضل ولا لامير الجيوش وقدمت الدواة للمأمون فعلم في مجلس الخليفة وتقدمت الامراء والاجناد فقبلوا الارض وشكروا على هذا الاحسان وأمر الخليفة باحضار الخلع لحاجب الحجاب حسام الملك وطوق بطوق ذهب وسيف ذهب ومنطقة ذهب ثم امر بالخلع للشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة باستمراره على ما بيده من كتابة الدست الشريف وشرفه بالدخول الى مجلس الخليفة ثم استدعى الشيخ أبا البركات بن أبي الليث وخلع عليه بدلة مذهبة وكذلك ابو الرضى سالم ابن الشيخ أبي الحسن وكذلك ابو المكارم أخوه وأبو محمد أخوهما ثم ابو الفضل بن الميدمى ووهبه دنانير كثيرة بحكم أنه الذى قرأ السجل وخلع على الشيخ أبي الفضائل بن أبي الليث صاحب دفتر المجالس ثم استدعى عدى الملك سعيد بن عماد الضيف متولى امور الضيافات والرسل الواصلين الى الحضرة من مجلس الافضل ولا يصل لعتبته أحد لا حاجب الحجاب ولا غيره سوى عدى الملك هذا فانه كان يقف من داخل العتبة وكانت هذه الخدمة في ذلك الوقت من أجل الخدم واكبرها ثم عادت من أهون الخدم وأقلها فعند ذلك قال القاضي ابو الفتح بن قادوس يمدح الوزير المأمون عند مثوله بين يديه وقد زيد في نعوته

قالوا أتاه النعت وهو السيد الـ * ـمأمون حقا والاجل الاشرف
ومغيث أمة احمد ومجيرها * ما زادنا شيأ على ما نعرف

قال ولما استمر حسن نظر المأمون للدولة وجميل أفعاله بلغ الخليفة الآمر باحكام الله فشكره وأثنى عليه فقال له المأمون ثم كلام يحتاج الى خلوة فقال الخليفة تكون فى هذا الوقت وأمر بخلو المجلس فعند ذلك مثل بين يدى الخليفة وقال له يا مولانا استأثانا الامر

صعب ومخالفته أصعب وما يتسع خلافه قدام امراء دولته وهو في دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده وما في قواى ما يرومه منى ويكفيني هذا المقدار وهيهات أن أقوم بهوالامر كبير فعند ذلك تغير الخليفة وأقسم ان كان لى وزير غيرك وهو في نفسي من ايام الافضل وهو مستمر على الاستعفاء الى أن بان له التغير في وجه الخليفة وقال ما اعتقدت أنك تخرج عن أمرى ولا تخالفني فقال له المأمون عند ذلك لى شروط وأنا أذكرها فقال له مهما شئت اشترط فقال له قدكنت بالامس مع الافضل وكان قداجتهد في النعوت وحل المنطقة فلم أفعل فقال الخليفة علمت ذلك في وقته قال وكان أولاده يكتبون اليه بما يلامه مولاى من كونى قد خنته في المال والاهل وما كان والله العظيم ذلك منى يوما قط ثم مع ذلك معاداة الاهل جميعا والاجناد وارباب الطيالس والاقلام وهو يعطيني كل رقعة تصل اليه منهم وما سمع كلام أحد منهم في فعندذلك قال له الخليفة فاذاكان فعل الافضل معك ما ذكرته ايش يكون فعلى انا فقال المأمون يعرفني المولى ما يأمر به فأمتثله بشرط أن لا يكون عليه زائد فأول ما ابتدأ به أن قال أريد الاموال لا تجبى الا بالقصر ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور الا اليه ولا تفرق الا منه وتكون أسمطة الاعياد فيه ويوسع في رواتب القصور من كل صنف وزيادة رسم منديل الكم فعند ذلك قال له المأمون سمعا وطاعة أما الكسوات والجباية من الاسمطة فما تكون الا بالقصور وأما توسعة الرواتب فما ثم من يخالف الامر وأما زيادة رسم منديل الكم فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين دينارا يكون فى كل يوم مائة دينار ومولانا سلام الله عليه يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الاعياد وغيرها في سائر الايام ففرح الخليفة وعظمت مسرته ثم قال المأمون أريد بهذا مسطورا بخط امير المؤمنين ويقسم لى فيه بآبائه الطاهرين أن لا يلتفت لحاسد ولا مبغض ومهما ذكر في يطلعني عليه ولا يأمر في بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسي وانحطاط قدري وهذه الايمان باقية الى وقت وفاتي فاذا توفيت تكون لاولادى ولمن أخلفه بعدى فحضرت الدواة وكتب ذلك جميعه وأشهد الله تعالى في آخرها على نفسه فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الارض وجعله على رأسه وكان الخط بالايمان نسختين احداهما في قصبة فضة قال فلما قبض على المأمون في شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة أنفذ الخليفة الآمر باحكام الله يطلب الايمان فنفذ له التى في القصبة الفضة فخرقها الوقتها وبقيت النسخة الاخرى عندى فعدمت فى الحركات التي جرت * وقال ابن ميسر في حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة وفيها تشرف القائد ابو عبد الله محمد ابن الامير نور الدولة أبي شجاع فاتك ابن الامير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصرى المعروف بابن البطائحي في الخامس من ذى الحجة وكان قبل ذلك عند الافضل استاداره وهوالذى

قدمه الى هذه المرتبة واستقرت نعوته في سجله المقرر على كافة الامراء والاجناد بالاجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذخر امير المؤمنين ثم تجدد له من النعوت بعد ذلك الاجل المأمون تاج الخلافة عز الاسلام فخر الانام نظام الدين والدنيا ثم نعت بما كان ينعت به الافضل وهو السيد الاجل المأمون أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الانام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ولما كان يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة وهو يوم الهناء بعيد النحر جلس المأمون في داره عند أذان الصبح وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والاقلام ثم الامراء والأستاذون المحنكون والشعراء بعدهم فركب الى القصر وأتى باب الذهب فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجارى به العادة وأغلق الباب الذى عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والاقلام وهذا الباب يعرف بباب السرداب فعند ما شاهد الحال في المرتبة توقف عن الجلوس عليها لانها حالة لم يجر معه حديث فيها ثم ألجأته الضرورة لاجل حضور الامراء الى الجلوس فجلس عليها وجلس اولاده الثلاثة عن يمينه وأخواه عن يساره والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه فانه لا يصل أحد الى هذا المكان سواهم فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الاستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين وخرج اليه الامير الثقة تولى الرسالة وزمام القصور فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وأخواه فطالع عند خروجه قبالة المرتبة وقال أمير المؤمنين يرد على السيد الاجل المأمون السلام فوقف عند ذلك المأمون وقبل الارض وعاد فجلس مكانه وتأخر الامير الى أن نزل من المصطبة وقبل الارض وقبل يد المأمون ودخل من فوره من الباب وأغلق الباب على حاله على ما كان عليه الافضل وكان الافضل يقول ما أزال أعد نفسى سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة والباب يغلق في وجهى والدخان في انفى فان الحمام كانت من خلف الباب في السرداب ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول الى القصر فدخل الى المكان الذى هيئ له وعاد لمجلس الوزارة وبقى الامراء بالدهاليز الى أن جلس الخليفة واستفتح القراء واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده واخوته وأحل الامراء على قدر طبقاتهم أولهم أرباب الاطواق ويليهم أرباب العماريات والاقصاب ثم الضيوف والاشراف ثم دخل ديوان المكاتبات وسلم بهم الشيخ ابو الحسن بن أبى اسامة ثم ديوان الانشاء وسلم بهم الشريف ابن انس الدولة ثم بقية الطالبيين من الاشراف ثم سلم القاضي ابن الرسعنى بشهوده والداعى ابن عبد الحق بالمؤمنين ثم سلم القائد مقبل مقدم الركاب الآمرى بجميع المقدمين الآمرية ثم سلم بعدهم الشيخ ابو البركات بن أبى الليث متولى ديوان المملكة ثم دخل الاجناد من باب البحر وسلم كل طائفة بمقدمها فلما انقضى ذلك دخل والى القاهرة ووالى مصر وسلم كل منهما ببياض

اهل البلدين ثم دخل البطرك بالنصارى وفيهم كتاب الدولة من النصارى ورئيس اليهود ومعه الكتاب من اليهود ثم سلم المقربون وقد قارب القصر ودخل الشعراء على طبقاتهم وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته قال فكان هذا رتبة الوزير المأمون قال ابن المأمون وأما ما قرر للوزارة عينا في الشهر بغير ايجاب بل يقبض من بيت المال فهو ثلاثة آلاف دينار تفيصلها ما هو على حكم النيابة في العلامة ألف دينار وما هو على حكم الراتب ألف وخمسمائة دينار وما هو عن مائة غلام برسم مجلسه وخدمته لكل غلام خمسة دنانير في الشهر فاما الغلمان الركابية وغيرهم من الفراشين والطباخين فعلى حكم ما يرغب في اثباته وفي السنة من الاقطاعات خمسون ألف دينار منها دهشور وجزيرة الذهب وبقية الجملة صفقات ومن البساتين ثلاثة بستان الامير تميم وبستانان بكوم أشفين ومن القوت يعنى القمح ومن القضم يعنى الشعير والبرسيم في السنة عشرون ألف أردب قمحا وشعيرا ومن الغنم برسم مطابخه ساقة من المراحات ثمانية آلاف رأس وأما الحيوان والاحطاب وجميع التوابل العال منها والدون فهما استدعاه متولى المطابخ يطلق من دار أفتكين وشون الاحطاب وغير ذلك وقد تقدم مقرر كسوة الوزارة في العيدين وفصلي الشتاء والصيف وموسم عيد الغدير وفتح الخليج وغير ذلك من غرتي شهر رمضان وأول العام وغيره كما سيرد في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وقد استقصيت سير الوزراء في كتابي الذى سميته تلقيح العقول والآراء في تنقيح أخبار الجلة الوزراء فانظره

(ذكر الحجر التي كانت برسم الصبيان الحجرية)

وكان بجوار دار الوزارة مكان كبير يعرف بالحجر جمع حجرة فيها الغلمان المختصون بالخلفاء كما أدركنا بالقلعة البيوت التي كان يقال لها الطباق وكانت هذه الحجر من جانب حارة الجوانية والى حيث المسجد الذى يعرف بمسجد القاصد تجاه باب الجامع الحاكمي الذى يفضى الى باب النصر فمن حقوق هذه الحجر دار الامير بهادر اليوسفي السلاحدار الناصرى التي تجاور المسجد الكائن على يمنة من سلك من باب الجوانية طالبا باب النصر ومنها الحوض المجاوز لهذه الدار ودار الامير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاون والمسجد المعروف بالنخلة وما بجواره من القاعتين اللتين تعرف احداها بقاعة الامير علم الدين سنجر الجاولى وما في جانبها الى مسجد القاصد وما وراء هذه الدور وكان لهؤلاء الحجرية اصطبل برسم دوابهم سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى وما زالت هذه الحجر باقية بعد انقضاء دولة الخلفاء الفاطميين الى ما بعد السبعمائة فهدمت وابتنى الناس مكانها الاماكن المذكورة * قال ابن أبي طي عن المعز لدين الله وجعل كل ماهر في صنعة صانعا للخاص وأفرد لهم مكانا برسمهم وكذلك فعل بالكتاب والافاضل وشرط على ولاة الاعمال عرض

أولاد الناس بأعمالهم فمن كان ذا شهامة وحسن خلقة أرسله ليخدم في الركاب فسيروا اليه عالما من أولاد الناس فأفرد لهم دورا وسماها الحجر * وقال ابن الطوير وكوتب الافضل ابن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج فاهتم للتوجه اليها فلم يبق ممكنا من مال وسلاح وخيل ورجال واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر بين يدى الخليفة مكانه وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج فوصل الى عسقلان وزحف عليها بذلك العسكر فخذل من جهة عسكره وهي نوبة النصة وعلم أن السبب في ذلك من جنده ولما غلب حرق جميع ما كان معه من الآلات وكان عند الفرنج شاعر متنجع اليهم فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج

نصرت بسيفك دين المسيح * فلله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما رووه * بأقبح من كسرة الافضل

فتوصل الافضل الى ذبح هذا الشاعر ولم ينتفع بعد هذه النوبة أحد من الاجناد بالافضل وحظر عليهم النعوت ولم يسمع لاحد منهم كلمة وأنشأ سبع حجر واختار من أولاد الاجناد ثلاثة آلاف راجل وقسمهم في الحجر وجعل لكل مائة زماما ونقيبا وزم الكل بأمير يقال له الموفق وأطلق لكل منهم ما يحتاج اليه من خيل وسلاح وغيره وعنى بهؤلاء الاجناد فكان اذا دهمه أمر مهم جهزهم اليه مع الزمام الاكبر * وقال ابن المأمون وكان من جملة الحجرية الذين يحضرون السماط رجل يعرف بابن زحل وكان يأكل خروفا كبيرا مشويا ويستوفيه الى آخره ثم يقدم له صحن كبير من القصور المعمولة بالسكر وجميع صنوف الحيوانات على اختلاف أجناسها ما لم يعمل قط مثله من الاطعمة فيأكل معظمه وكان يقعد في طرف المدورة حتى يكون بالقرب من نظر الخليفة لا لميزته وكان من الاجناد وأسر في أيام الافضل وقيده الفرنجي الذى أسره وعذبه وطالت مدته في الاسر وكان فقيرا فاتفق ان ذكر للفرنجي كثرة أكله فأراد أن يمتحنه فقال له احضر لى عجلا أكبر عجل عندكم آكله الى آخره فضحك منه الفرنجي ونقص عقله وأتاه بعجل كبير ويقال بخنزير فقال له اذبحه واشوه وائتنى معه بجرة خل ثم قال اذا أكلته ما يكون لى عندك فغلط الفرنجي وقال له أطلقك تمضى الى أهلك فاستحلفه على ذلك وغلظ عليه اليمين وأحضر الفرنجي عدة من أصحابه ليشاهدوا فعله فلما استوفى العجل جميعه صلب كل من الحاضرين على وجهه وتعجب من فعله وأطلقه فقال أخاف من أن يعتقد انى هربت فأرد اليكم فأحضر الفرنجي من العربان من سلمه اليهم ولم يشعر به الا بباب عسقلان فطلع منها وأعفى بعد ذلك من السفر وبقي برسم الاسمطة * وقال ابن عبد الظاهر الحجر قريب من باب النصر وهو مكان كبير في صف دار الوزارة الى جانبه باب القوس الذى يسمى باب

النصر قديماً على يمنة الخارج من القاهرة كان تربى فيه جماعة من الشباب يسمون صبيان الحجر يكونون في جهات متعددة وهم يناهزون خمسة آلاف نسمة ولكل حجرة اسم تعرف به وهي المنصورة والفتح والجديدة وغير ذلك مفردة لهم وعندهم سلاحهم فاذا جردوا خرج كل منهم لوقته لا يكون له ما يمنعه وكانوا في ذلك على مثال الذؤابة والاستار وكانوا اذا سمى الرجل منهم بعقل وشجاعة خرج من هناك الى الامرة أو التقدمة مثل على بن السلار وغيره ولا يأوى أحد منهم الا بحجرته بفرسه وعدته وقماشه وللصبيان الحجرية حجرة مفردة عليهم أستاذون يبيتون عندهم وخدام برسمهم

(ذكر المناخ السعيد)

وكان من وراء القصر الكبير فيما يلى ظهر دار الوزارة الكبرى والحجر المناخ وهو موضع برسم طواحين القمح التي تطحن جرايات القصور وبرسم مخازن الاخشاب والحديد ونحو ذلك * قال ابن الطوير وأما المناخات ففيها من الحواصل مالا يحصره الا القلم من الاخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة وآلات الاساطيل من الاساحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه والقنب والكتان والمنجنيقات المعدة والطواحين الدائرة برسم الجرايات المقدم ذكرها والزفت في المخازن الذى عليه الاتربة ولا ينقطع الا بالمعاول وقد أدركت هذه الدولة يعنى دولة بنى أيوب منه شيئاً كثيراً في هذا المكان انتفع به واليه يأوى الفرنج في بيوت برسمهم وكانت عدتهم كثيرة ففيه من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والفعلة ومن العجانين والطحانين في تلك الطواحين والفرانين في أفران الجرايات وفي هذا المكان مادة أكثر أهل الدولة وحاميه أمير من الامراء ومشارفه من العدول وفيه أيضاً شاهد النفقات وعامل يتولى التنفيذ مع المشارف وعامل برسم نظم الحساب من تعلقاتهما بجار غير جواريهم لان أوقاتهم مستغرقة في مباشرة الاطلاقات وغيرها وذكر ابن الطوير أن المأمون بن البطائحي استجد طواحين برسم الرواتب

(ذكر اصطبل الطارمة)

الطارمة بيت من خشب وهو دخيل وكان بجوار القصر الكبير تجاه باب الديلم من شرقي الجامع الازهر اصطبل * قال ابن الطوير وكان لهم أصطبلان أحدهما يعرف بالطارمة يقابل قصر الشوك والآخر بحارة زويلة يعرف بالجميزة وكان للخليفة الحاضر ما يقرب من ألف رأس في كل اصطبل النصف من ذلك منها ما هو برسم الخاص ومنها مايخرج برسم العوارى لارباب الرتب والمستخدمين دائماً ومنها ما يخرج أيام المواسم وهي التغيرات المتقدم ذكر ارسالها لارباب الرتب والحجم والمرتب لكل اصطبل منها لكل ثلاثة أرؤس سائس واحد ملازم ولكل واحد منها شداد برسم تسييرها وفي كل اصطبل بئر بساقية

تدور الى أحواض ومخازن فيها الشعير والاقراط اليابسة المحمولة من البلاد اليها ولكل عشرين رجلا من السواس عريف يلتزم دركهم بالضمان لانهم الذين يتسلمون من خزائن السروج المركبات بالحلى ويعيدونها اليها كما تقدم ذكره في خزائن السروج ولكل من الاصطبلين رائض كامير اخور ولهما ميرة وجامكية متسعة وللعرفاء على السواس ميرة وللجماعات الجرايات من القمح والخبز خارجا عن الجامكيات فاذا بقي لايام المواسم التي يركب فيها الخليفة بالمظلة مدة أسبوع أخرج الى كل رائض في الاصطبل مع استاذ مظلة ديبقى مركبة على قنطارية مدهونة ويختص الرائض على ما يركبه الخليفة اما فرسين أو ثلاثة وعليهما المركبات الحلى التى يركبها الخليفة فيركبها الرائض بحائل بينه وبين السرج ويركب الاستاذ بغلة مظلة ويحمل تلك المظلة ويسير في براح الاصطبل وفيه سعة عظيمة مارّا وعائدا وحولها البوق والطبل فيكرر ذلك عدة دفعات في كل يوم مدة ذلك الاسبوع ليستقر مايركبه الخليفة من الدواب على ذلك ولا ينفر منه في حال الركوب عليه فيعمل كذلك في كل اصطبل من الاصطبلين والدواب والبغلة التي تتهيأ هى التي يركبها الخليفة وصاحب المظلة يوم الموسم ولا يختل ذلك ويقال انه ما راثت دابة ولا بالت والخليفة راكبها ولا بغلة صاحب المظلة أيضا الى حين نزولهما عنهما وكان فى الساحل بطريق مصر من القاهرة فى البساتين المنسوبة الى الملك صارم الدين خلالباشونتان مملوءتان تبنا مبيتان كتعبيته في المراكب كالجبلين الشاهقين ولهما مستخدمون حام ومشارف وعامل بجامكية جيدة تصل بذلك المراكب التبانة الموهلة له من موظف الاتبان بالبلاد الساحلية وغيرها مما يدخل اليه في ايام النيل ولها رؤساء وأمرها جار فى ديوان العمائر والصناعة والانفاق منها بالتوقيعات السلطانية للاصطبلات المذكورة وغيرها من الاواسي الديوانية وعوامل بساتين الملك واذاجرى بين المستخدمين خلف في الشنف التبن المعتبر عادوا الى قبضه بالوزن فيكون الشنف التبن ثلثمائة وستين رطلا بالمصرى نقيا واذا أنفقوا دريسا قد تغيرت صورة قته كان عن القتة أثنا عشر رطلا ولم يزل ذلك كذلك الى آخر وقته ومما يخبر عنهم أنهم لم يركبوا حصانا أدهم قط ولا يزون اضافته الى دوابهم بالاصطبلات وقال ابن عبد الظاهر اصطبل الطارمة كان اصطبلا للخليفة فلما زالت تلك الايام اختط وبنى آدرا

(ذكر دار الضرب وما يتعلق بها)

وكان بجوار خزانة الدرق التي هى اليوم خان مسرور الكبير دار الضرب وموضعها حينئذ كان بالقشاشين التى تعرف اليوم بالخراطين وصار مكان دار الضرب اليوم درب يعرف بدرب الشمسى في وسط سوق السقطيين المهامزيين وباب هذا الدرب تجاه قيسارية العصفر فاذا دخلت هذا الدرب فما كان على يسارك من الدور فهو موضع دار الضرب

وبجوارها دار الوكالة الحافظية فجعلت الحوانيت التي على يمنة من سلك من رأس الخراطين تجاه سوق العنبر طالبا الجامع الازهر في ظهر دار الضرب وانشأ هذه الحوانيت وما كان يعلوها من البيوت الامير المعظم خمرتاش الحافظي وجعلها وقفا وقال في كتاب وقفها وحد هذه الحوانيت الغربي ينتهي الى دار الضرب والى دار الوكالة وقد صارت هذه الحوانيت الآن من جملة أوقاف المدرسة الجمالية مما اغتصب من الاوقاف وما زالت دار الضرب هذه في الدولة الفاطمية باقية الى أن استبد السلطان صلاح الدين فصارت دار الضرب حيث هي اليوم كما تقدم ذكره وكان لدار الضرب المذكورة في أيامهم أعمال ويعمل بها دنانير الغرة ودنانير خميس العدس ويتولاها قاضي القضاة لجلالة قدرها عندهم * قال ابن المأمون وفي شوال منها وهي سنة ست عشرة وخمسمائة أمر الاجل ببناء دار الضرب بالقاهرة المحروسة لكونها مقر الخلافة وموطن الامامة فبنيت بالقشاشين قبالة المارستان وسميت بالدار الآمرية واستخدم لها العدول وصار دينارها أعلى عيارا من جميع مايضرب بجميع الامصار انتهى وكانت دار الضرب المذكورة تجاه المارستان فكان المارستان بجوار خزانة الدرق فما عن يمينك الآن اذا سلكت من رأس الخراطين فهو موضع دار الضرب ودار الوكالة هكذا الى الحمام التي بالخراطين وما وراءها وما عن يسارك فهو موضع المارستان * قال ابن عبد الظاهر في ايام المأمون بن البطائحي وزير الآمر بأحكام الله بنيت دار الضرب في القشاشين قبالة المارستان الذي هناك وسميت بالدار الآمرية

(دار العلم الجديدة) وكان بجوار القصر الكبير الشرقي دار في ظهر خزانة الدرق من باب تربة الزعفران لما أغلق الافضل بن أمير الجيوش دار العلم التي كان الحاكم بأمر الله فتحها في باب التبانين اقتضى الحال بعد قتله أعادة دار العلم فامتنع الوزير المأمون من اعادتها في موضعها فأشار الثقة زمام القصور بهذا الموضع فعمل دار العلم في شهر ربيع الاول سنة سبع عشرة وخمسمائة وولاها لابي محمد حسن بن آدم واستخدم فيها مقرئين ولم تزل دار العلم عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية * قال ابن عبد الظاهر رأيت في بعض كتب الاملاك القديمة ما يدل على انها قريبة من القصر النافعي وكذا ذكر لي السيد الشريف الحلبي أنها دار ابن أزدمر المجاورة لدار سكني الآن خلف فندق مسرور الكبير وكذلك قال لي والدي رحمه الله وقد بناها جمال الدين الاستادار الحلبي دارا عظيمة غرم عليها مائة ألف وأكثر من ذلك على ما ذكره انتهى وموضع دار العلم هذه دار كبيرة ذات زلاقة بجوار درب ابن عبد الظاهر قريبا من خان الخليلي بخط الزراكشة العتيق

(موسم اول العام) قال ابن المأمون وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة وبادر المستخدمون في الخزائن وصناديق الانفاق بحمل ما يحضر بين يدي الخليفة من عين

وورق من ضرب السنة المستجدة ورسم جميع من يختص به من اخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات وجميع الاستاذين الموالى والادوان وثنوا بحمل ما يختص بالاجل المأمون وأولاده واخوته واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالاجل المأمون وأولاده والاصحاب والحواشي والامراء والضيوف والاجناد فأمروا بتفرقته والذى اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ماكان قبلها وجلس المأمون باكرا على السماط بداره وفرقت الرسوم على أرباب الخدم والمميزين من جميع اصنافه على ما تضمنته الاوراق وحضرت التعاشير والتشريفات وزي الموكب الى الدار المأمونية وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصفات العساكر وترتيب الاسمطة وأصمد كل منهم الى شغله وتوجه لخدمته ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ثم خرج من باب الذهب وقد نشرت مظلته وخدمت الرهجية ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين وغيرهم قدزينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة وخرج من باب الفتوح والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزيها وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور ودخل من باب النصر والصدقات تعم المساكين والرسوم تفرق على المستقرين الى أن دخل من باب الذهب فلاقيه المقرئون بالقرآن الكريم في طول الدهاليز الى أن دخل خزانة الكسوة الخاص وغير ثياب الموكب بغيرها وتوجه الى تربة آبائه للترحيم على عادته وبعد ذلك الى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة وعبيت الاسمطة وجرى الحال فيها وفي جلوس الخليفة ومن جرت عادته وتهيئة قصور الخلافة وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر وتوجه الاجل المأمون الى داره فوجد الحال في الاسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها اكثر مما تقدمها وكذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء وبعدهم الشعراء على طبقاتهم وعادت الامور في ايام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات مما تحتاج اليه الدولة في طول السنة وينعم به ويتصدق ويحمل الى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد المندوبين ويحمل الى الثغور ويخزن من سائر الاصناف ما يستعمل ويباع في الثغور والبلاد والاستيمار وجريدة الابواب وتذكرة الطراز والتوقيع عليها * وقال ابن الطوير فاذا كان العشر الاخير من ذى الحجة في كل سنة انتصب كل من المستخدمين بالاماكن لاخراج آلات الموكب من الاسلحة وغيرها فيخرج من خزائن الاسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة من الاسلحة وهو الصماصم المصقولة المذهبة مكان السيوف المحدبة والدبابيس الكيمخت الاحمر والاسود ورؤسها مدورة

مضرسة والتوت كذلك ورؤسها مستطيلة مضرسة أيضا وآلات يقال لها المستوفيات وهي عمد حديد من طول ذراعين مربعة الاشكال بمقابض مدورة في ايديهم بعدة معلومة من كل صنف فيتسلمها نقباؤهم وهي في ضمانهم وعليهم اعادتها الى الخزائن بعد تقضي الخدمة بها ويخرج للطائفة من العبيد الاقوياء السودان الشباب ويقال لهم أرباب السلاح الصغر وهم ثلثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين في شرابة وثلثمائة درقة بكوابخ فضة يتسلم ذلك عرفاؤهم على ما تقدم فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودرقة ثم يخرج من خزانة التجمل وهي من حقوق خزائن السلاح القصب الفضة برسم تشريف الوزير والامراء أرباب الرتب وأزمة العساكر والطوائف من الفارس والراجل وهي رماح ملبسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب الا ذراعين منها فيشد في ذلك الخالي من الانابيب عدة من المعاجر الشرب الملونة ويترك أطرافها المرقومة مسبلة كالصناجق وبرؤسها رمامين منفوخة فضة مذهبة واهلة مجوفة كذلك وفيها جلاجل لها حس اذا تحركت وتكون عدتها ما يقرب من مائة ومن العماريات وهي شبه السكخاوات من الديباج الاحمر وهو اجلها والاصفر والقرقوبي والسقلاطون مبطنة مضبوطة بزنانير حرير وعلى دائر التربيع منها مناطق بكوابخ فضة مسمورة في جلد نظير عدد القصب فيسير من القصب عشرة ومن العماريات مثلها من الحمر خاصة ويخرج للوزير خاصة لوا آن على رمحين طويلين ملبسين بمثل تلك الانابيب ونفس اللواء ملفوف غير منشور وهذا التشريف يسير أمام الوزير وهو للامراء من ورائهم ثم يسير للامراء أرباب الرتب في الخدم وأولهم صاحب الباب وهو أجلهم خمس قصبات وخمس عماريات ويرسل لاسفهسلار العساكر أربع قصبات وأربع عماريات من عدة ألوان ومن سواهما من الامراء على قدر طبقاتهم ثلاث ثلاث واثنتان اثنتان وواحدة واحدة ثم يخرج من البنود الخاص الدبيقي المرقوم الملون عشرة برماح ملبسة بالانابيب وعلى رؤسها الرمامين والاهلة للوزير خاصة ودون هذه البنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبسة ورؤسها ورمامينها من نحاس مجوف مطلي بالذهب فتكون هذه أمام الامراء المذكورين من تسعة الى سبعة اذرع برأسها طلمة مصقولة وهي من خشب القنطاريات داخلة في الطلمة وعقبها حديد مدور أسفل فهي في كتف حاملها الايمن وهو يفتلها فيه فتلا متدارك الدوران وفي يده اليسرى نشابة كبيرة يخطر بها وعدتها ستون مع ستين رجلا يسيرون رجالة في الموكب يسيرون يمنة ويسرة ثم يخرج من النقارات حمل عشرين بغلا على كل بغل ثلاث مثل نقارات الكوسات بغير كوسات يقال لها طبول فيتسلمها صناعها ويسيرون في الموكب اثنين اثنين ولها حس مستحسن وكان لها ميزة عندهم في التشريف ثم يخرج لقوم متطوعين بغير جار ولا جراية تقرب عدتهم من مائة رجل لكل واحد

درقة من درق اللمط وهى واسعة وسيف ويسيرون أيضا رجالة في الموكب هـذا وظيفة خزائن السلاح ثم يحضر حامى خزائن السروج وهو من الاستاذين المحنكين اليها مع مشارفها وهو من الشهود المعدلين فيخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلي ما هو برسم ركوبه وما يجنب في موكبه مائة سرج منها سبعون على سبعين حصانا ومنها ثلاثون على ثلاثين بغلة كل مركب مصوغ من ذهب أو من ذهب وفضة أو من ذهب منزل فيه المينا أو من فضة منزلة بالمينا ورروادفها وقرابيسها من نسبتها ومنها ما هو مرصع بالجواهر الفائقة وفي اعنـاقها الاطواق الذهب وقلائد العنبر وربمـا يكون في أيدى وأرجل اكثرها خلاخل مسطوحة دائرة عليها ومكان الجلد من السروج الديبـاج الاحمر والاصفر وغيرهما من الالوان وانسقلاطون المنقوش بألوان الحرير قيمة كل دابة وما عليها من العدة ألف دينار فيشرف الوزير من هـذه بعشرة حصن لركوبه وأولاده واخوته ومن يعز عليه من أقاربه ويسلم ذلك لعرفاء الاصطبلات بالعرض عليهم من الجرائد التى هى ثابتة فيها بعلاماتها في اماكنها وأعدادها وعدد كل مركب منقوش عليه مثل اول وثان وثالث الى آخرها كما هو مسطور في الجرائد فيعرف بذلك قطعة قطعة ويسلمها العرفاء للشدادين بضمان عرفائهم الى أن تعود وعليهم غرامة ما نقص منها واعادتها برمتها ثم يخرج من الخزائن المذكورة لارباب الدواوين المرتبـين في الخدم على مقاديرهم مركبات أيضا من الحلى دون ما تقـدم ذكره ما تقرب عدته من ثلثمائة مركب على خيل وبغلات وبغال يتسلمها العرفاء المتقدم ذكرهم على الوجه المذكور وينتدب حاجب يحضر على التفرقة لفلان وفلان من أرباب الخدم سيفا وقلما فيعرف كل شداد صاحبه فيحضر اليه بالقاهرة ومصر سحر يوم الركوب ولهم من الركاب رسوم من دينار الى نصف دينار الى ثلث دينار فاذا تكمل هـذا الامر وسلم أيضـا الجمـالون المناخات أغشية العماريات ويكون اراحة فى ذلك كله الى آخر الثامن والعشرين من ذى الحجة وأصبح اليوم التاسع والعشرون من سلخه على رأي القوم عزم الخليفة على الجلوس في الشباك لعرض دوابه الخاص المقدم ذكرها ويقال له يوم عرض الخيل فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة وهو من كبار الأستاذين المحنكين وفصحائهم وعقلائهم ومحصليهم فيمضى الى استدعائه في هيئة المسرعين على حصان دهراج امتثالا لامر الخليفـة بالاسراع على خلاف حركته المعتادة فاذا عاد مثـل بين يدى الخليفة وأعلمه باستدعائه الوزير فيخرج راكبا من مكانه في القصر ولا يركب أحد في القصر الا الخليفـة وينزل في السدلا بدهاليز باب الملك الذى فيـه الشباك وعليه من ظاهره للناس ستر فيقف من جانبه الايمن زمام القصر ومن جانبـه الايسر صاحب بيت المال وهما من الاستاذين المحنكين فيركب الوزير من داره وبين يديه الامراء فاذا وصل الى باب القصر ترجل الامراء وهو راكب ويكون

دخوله في هذا اليوم من باب العيد ولا يزال راكبا الى اول باب من الدهاليز الطوال فينزل هناك ويمشي فيها وحواليه حاشيته وغلمانه وأصحابه ومن يراه من أولاده وأقاربه ويصل الى الشباك فيجد تحته كرسيا كبيرا من كراسى البلق الجيد فيجلس عليه ورجلاه تطأ الارض فاذا استوى جالسا رفع كل استاذ الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسا في المرتبة الهائلة فيقف ويسلم ويخدم بيده الى الارض ثلاث مرات ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس ويستفتح القراء بالقراءة قبل كل شيء بآيات لائقة بذلك الحال مقدار نصف ساعة ثم يسلم الامراء ويسرع في عرض الخيل والبغال الخاص المقدم ذكرها دابة دابة وهي هادئة كالمرائس بايدي شداديها الى أن يكمل عرضها فيقرأ القرّاء لختم ذلك الجلوس ويرخي الاستاذان الستر فيقدم الوزير ويدخل اليه ويقبل يديه ورجليه وينصرف عنه الى داره فيركب من مكان نزوله والامراء بين يديه لوداعه الى داره ركبانا ومشاة الى قريب المكان فاذا صلى الخليفة الظهر بعد انفضاض ما تقدم جلس لعرض ما يلبسه في عيد تلك الليلة وهو يوم افتتاح العام بخزائن الكسوات الخاص ويكون لباسه فيه البياض غير الموشح فيعين على منديل خاص وبدلة فأما المنديل فيسلم لشادالتاج الشريف ويقال له شدة الوقار وهو من الاستاذين المحنكين وله ميزة لمماسة ما يعلو تاج الخليفة فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواه شكل الاهليلجة ثم يحضر اليه اليتيمة وهي جوهرة عظيمة لايعرف لها قيمة فتنظم هي وحواليها ما دونها من الجواهر وهي موضوعة في الحافر وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا فتنتظم على خرقة حرير أحسن وضع ويخيطها شاد التاج بخياطة خفيفة ممكنة فتكون بأعلى جبهة الخليفة ويقال ان زنة الجوهرة سبعة دراهم وزنة الحافر أحد عشر مثقالا وبدائرها قصبة زمرد ذبابي له قدر عظيم ثم يؤمر بشد المظلة التي تشابهها تلك البدلة المحضرة بين يديه وهي مناسبة للثياب ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة وهي اثنا عشر شوركا عرض سفل كل شورك شبر وطوله ثلاثة اذرع وثلث وآخر الشورك من فوق دقيق جدا فيجتمع ما بين الشوارك في رأس عودها بدائره وهو قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب وفي آخر أنبوبة تلي الرأس من جسمه فلكة بارزة مقدار عرض ابهام فيشد آخر الشوارك في حلقة من ذهب ويترك متسعا فى رأس الرمح وهو مفروض فتلتقي تلك الفلكة فتمنع المظلة من الحدور فى العمود المذكور ولها أضلاع من خشب الخلنج مربعات مكسوة بوزن الذهب على عدد الشوارك خفاف في الوزن طولها طول الشوارك وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها بعض وهي تنضم وتنفتح على طريقة شوكة السكيزان ولها رأس شبه الرمانة ويعلوه رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان ولها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر ونصف وسفل الرمانة فاصل يكون

مقـداره ثلاث أصابع فاذا أدخلت الحلقـة الذهب الجامعة لآخر شوارك المظلة فى رأس العمود ركبت الرمانة عليها ولفت في عرض دبيقي مذهب.فلا يكشفها منه الا حاملها عنـد تسليمها اليـه اول وقت الركوبة ثم يؤمر بشد لواءي الحمد المختصين بالخليفة وهما رمحان طويلان ملبسان بمثل أنابيب عمود المظلة الى حد نصفهما وهما من الحرير الابيض المرقوم بالذهب وغير منشورين بل ملفوفين علي جسم الرمحين فيشدان ليخرجا بخروج المظلة الى أميرين من حاشـية الخليفة برسم حملهما ويخرج احدى وعشرون راية لطاف من الحرير المرقوم ملونة بكتابة تخالف ألوانها من غيره ونص كتابتها نصر من الله وفتح قريب على رماح مقومة من القنا المنتقى طول كل راية ذراعان فى عرض ذراع ونصف في كل واحدة ثلاث طرازات فتسلم لاحد وعشرين رجلا من فرسان صبيان الخاص ولهم بشارة عود الخليفة سالما عشرون دينارا ثم يخرج رمحان رؤسهما أهلة من ذهب صامتة في كل واحد سبع من ديباج أحمر وأصفر وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيهـا الريح فينفتحان فيظهر شكلهما ويتسلمهما فارسان من صبيان الخاص فيكونان أمام الرايات ثم يخرج السيف الخاص وهو من صاعقـة وقعت على ما يقال وحليته ذهب مرصعة بالجوهر في خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر الا رأسه ليسلم الى حامله وهو أمير عظيم القدر وهـذه عندهم رتبة جليلة المقـدار وهو اكبر حامل ثم يخرج الرمح وهو رمح لطيف في غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية ذهب ودرقة بكواكب ذهب فيها سمة منسوبة الى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنـه في غشاء من حرير لتخرج الى حاملها وهو أمير مميز ولهـذه الخدمة وصاحبها عندهم جلالة ثم تشعر الناس بطريق الموكب وسلوكه لا يتعدى دورتين احداهما كبرى والاخرى صغرى أما الـكبرى فمن باب القصر الى باب النصر مارا الى حوض عز الملك نبا ومسجده هنالك وهو أقصاها ثم ينعطف على يساره طالبا باب الفتوح الى القصر والاخرى اذا خرج من باب النصر سار حافا بالسور ودخل من باب الفتوح فيعلم النـاس بسلوك احداها فيسيرون اذا ركب الخليفة فيها من غير تبـديل للموكب ولا تشويش ولا اختـلال فلا يصبح الصبح من يوم الركوب الا وقد اجتمع من بالقاهرة ومصر من أرباب الرتب وأرباب التميزات من أرباب السيوف والاقلام قيـاما بين القصرين وكان براحا واسعا خاليا من البناء الذى فيـه اليوم فيسع القوم لانتظار الخليفة ويبكر الامراء الى الوزير الى داره فيركب الى القصر من غير استدعاء لانها خدمة لازمة للخليفة فيسير أمامه تشريفه المقـدم ذكره والامراء بين يديه ركبانا ومشاة وأمامه أولاده واخوته وكل منهم مرخي الذؤابة بلا حنك وهو فى أبهة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل وهو بالحنك ويتقلد بالسيف المذهب فاذا وصل القصر ترجل قبله أهله فى أخص مكان لا يصل

الامراء اليه ودخل من باب القصر وهو راكب دون الحاضرين الى دهليز يقال له دهليز العمود فيترجل على مصطبة هناك ويمشى بقية الدهليز الى القاعة فيدخل مقطع الوزارة هو وأولاده واخوته وخواص حاشيته ويجلس الامراء بالقاعة على دكاك معدة لذلك مكسوة فى الصيف بالحصر السامان وفي الشتاء بالبسط الجهرميسة المحفورة فاذا أدخلت الدابة لركوب الخليفة وأسندت الى الكرسيّ الذى يركب عليه من باب المجلس أخرجت المظلة الى حاملها فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مطوية فيتسلمها باعانة أربعة من الصقالبة برسم خدمتها فيركزها فى آلة حديد متخذة شكل القرن وهو مشدود في ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأكيد فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف ولم يذكر قط انها اضطربت فى ريح عاصف ثم يخرج بالسيف فيتسلمه حامله فاذا تسلمه أرخيت ذؤابته مادام حاملا له ثم تخرج الدواة فتسلم لحاملها وهو من الاستاذين المحنكين وكان الوزراء حملوها لقوم من الشهود المعدلين وهى الدواة التى كانت من أعاجيب الزمان وهى فى نفسها من الذهب وحليتها مرجان وهى ملفوفة في منديل شرب بياض مذهب وقد قال فيها بعض الشعراء يخاطب الخليفة التى صنعت حلية المرجان في وقته وهذا من أغرب مايكون ذكر ذلك فى بيتين وهما

ألين لداود الحديد كرامة * فقدر منه السرد كيف يريد
ولانلك المرجان وهو حجارة * ومقطعه صعب المرام شديد

فيخرج الوزير ومن كان معه من المقطع وتنضم اليه الامراء ويقفون الى جانب الراية فيرفع صاحب المجلس الستر فيخرج من كان عند الخليفة للخدمة منهم وفي أثرهم يبرز الخليفة بالهيئة المشروح حالها فى لباسه الثياب المعروضة عليه والمنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته وهو محنك مرخي الذؤابة مما يلي جانبه الايسر ويتقلد بالسيف المغربى وبيده قضيب الملك وهو طول شبر ونصف من عود مكسو بالذهب المرصع بالدر والجوهر فيسلم على الوزير قوم مرتبون لذلك وعلى أهله وعلى الامراء بعدهم ثم يخرج أولئك أولا فأولا والوزير يخرج بعد الامراء فيركب ويقف قبالة باب القصر بهيئته ويخرج الخليفة وحواليه الاستاذون ودابته ماشية على بسط مفروشة خيفة من زلقها على الرخام فاذا قارب الباب وظهر وجهه ضرب رجل ببوق لطيف من ذهب معوج الرأس يقال له الغربية بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات فاذا سمع ذلك ضربت الابواق في الموكب ونشرت المظلة وبرز الخليفة من الباب ووقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الاستاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المظلة وهو يبالغ أن لايزول عنه ظلها ثم يكتنف الخليفة مقدمو صبيان الركاب منهم اثنان فى الشكيمة واثنان في عنق الدابة من الجانبين واثنان في ركابه فالايمن مقدم المقدمين وهو صاحب المقرعة

التي يتناولها ويناولها وهو المؤدى عن الخليفة مدة ركوبه الاوامر والنواهي ويسير الموكب بالحث فأوله فروع الامراء وأولادهم وأخلاط بعض العسكر الاماثل الى أرباب القصب الى أرباب الاطواق الى الاستاذين المحنكين الى حامل اللواءين من الجانبين الى حامل الدواة وهي بينه وبين قربوس السرج الى صاحب السيف وهما في الجانب الايسر كل واحد ممن تقدم ذكره بين عشرة الى عشرين من أصحابه ويحجبه أهل الوزير المقدم ذكرهم من الجانب الايمن بعد الاستاذين المحنكين ثم يأتي الخليفة وحواليه صبيان الركاب المذكورة تفرقة السلاح فيهم وهم أكثر من ألف رجل وعليهم المناديل الطبقيات ويتقلدون بالسيوف وأوساطهم مشدودة بمناديل وفي أيديهم السلاح مشهور وهم من جانبي الخليفة كالجناحين المادين وبينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان للمذبتين وهما مرفوعتان كالنخلتين لما يسقط من طائر وغيره وهو سائر على تؤدة ورفق وفي طول الموكب من أوله الى آخره والى القاهرة مار وعائد يفسح الطرقات ويسير الركبان فيلقى في عوده الاسفهسلار كذلك مارا وعائدا لحث الاجناد في الحركة والانكار على المزاحمين المعترضين ويلقى في عوده صاحب الباب ومروره في زمرة الخليفة الى أن يصل الى الاسفهسلار فيعود لترتيب الموكب وحراسة طرقات الخليفة وفي يد كل منهم دبوس وهو راكب خير دوابه وأسرعها هذا لمن أمام الموكب ثم يسير خلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه ثم عشرة يحملون عشرة سيوف في خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب غزيرة يقال لها سيوف الدم برسم ضرب الاعناق ثم يسير بعدهم صبيان السلاح الصغير أرباب الفرنجيات المقدم ذكرهم أولا ثم يأتي الوزير في هيبة وفي ركابه من أصحابه قوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الاجناد يختارهم لنفسه مامقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة وكأنه على وفز من حراسة الخليفة ويجتهد أن لا يغيب عن نظره وخلفه الطبول والصنوج والصفافير وهو مع عدة كثيرة تدوى بأصواتها وحسها الدنيا ثم يأتي حامل الرمح المقدم ذكره ودرقته حمراء ثم طوائف الراجل من الركابية والجيوشية وقبالهما المصامدة ثم الفرنجية ثم الوزيرية زمرة زمرة في عدة وافرة تزيد على أربعة آلاف في الوقت الحاضر وهم أضعاف ذلك ثم أصحاب الرايات والسبعين ثم طوائف العساكر من الآمرية والحجرية الكبار والحافظية والحجرية الصغار المنقولين والافضلية والجيوشية ثم الاتراك المصطنعون ثم الديلم ثم الاكراد ثم الغز المصطنعة وقد كان تقدم هؤلاء الفرسان عدة وافرة من المترجلة أرباب قسي اليد وقسي الرجل في أكثر من خمسمائة وهم المعدون للاساطيل ويكون من الفرسان المقدم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف وهذا كله بعض من كل فاذا انتهى الموكب الى المكان المحدود عادوا على أدراجهم ويدخلون

من باب الفتوح ويقفون بين القصرين بعد الرجوع كما كانوا قبله فاذا وصل الخليفة الى الجامع الاقمر بالقماحين اليوم وقف وقفة بجماعته في موكبه وانفرج الموكب للوزير فتحرك مسرعا ليصير أمام الخليفة حتى يدخل بين يديه فيمر الخليفة ويسلم له سلمة ظاهرة فيشير الخليفة للسلام عليه اشارة خفية وهذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ولا تكون الا للوزير صاحب السيف وسبقه الى دخول باب القصر راكبا على عادته الى موضعه ويكون الامراء قد ترجلوا قبله لانهم في أوائل الموكب فاذا وصل الخليفة الى باب القصر ودخله ترجل الوزير ودخل قبله الاستاذون المحنكون وأحدقوا به والوزير أمام وجه الفرس مكان ترجله الى الكرسي الذى ركب منه فينزل عليه ويدخل الى مكانه بعد خدمة المذكورين له فيخرج الوزير ويركب من مكانه الجارى به على عادته والامراء بين يديه وأقاربه حواليه فيركبون من أماكنهم ويسيرون صحبته الى داره فيدخل وينزل أيضاً الى مكانه على كرسي فتخدمه الجماعة بالوداع ويتفرق الناس الى أماكنهم فيجدون قد أحضر اليهم الغرة وهو أنه يقدم الخليفة بأن يضرب بدار الضرب في العشر الأخر من ذى الحجة بتاريخ السنة التي ركب أولها في هذا اليوم جملة من الدنانير والرباعية والدراهم المدورة المقسقلة فيحمل الى الوزير منها ثلثمائة وستون دينارا وثلثمائة وستون رباعيا وثلثمائة وستون قيراطا والى أولاده واخوته من كل صنف من ذلك خمسون والى ارباب الرتب من أصحاب السيوف والاقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط الى دينار واحد ورباعي واحد وقيراط واحد فيقبلون ذلك على حكم البركة من مبلغ الخليفة قال ومبلغ الغرة التي ينعم بها في أول العام المقدم ذكرها من الدنانير والرباعيات والقراريط ما يقرب من ثلاثة آلاف دينار والله تعالى أعلم

(ذكر ما كان يضرب في خميس العدس من خراريب الذهب)

قال ابن المأمون وأحضر الاجل المأمون كاتب الدفتر وأمره بالكشف عما كان يضرب برسم خميس العدس من الخراريب الذهب وهو خمسمائة دينار عن عشرين الف خروبة واستدعى كاتب بيت المال ووقع له باطلاق ألف دينار وأمره باحضار مشارف دار الضرب وسلمها اليه فاعتمد ذلك وضربت عشرون ألف خروبة وأحضرها فامر بحملها الى الخليفة فسير الخليفة منها الى المأمون ثلثمائة دينار وذكر أنها لم تضرب في مدة خلافة الحافظ لدين الله غير سنة واحدة ثم بطل حكمها ونسى ذكرها قال وصارما يضرب باسم الخليفة يعني الآمر باحكام الله في ستة مواضع القاهرة ومصر وقوص وعسقلان وصور والاسكندرية * وقال ابن عبد الظاهر خميس العدس كان يضرب فيه خمسمائة تعمل عشرة آلاف خروبة كان الافضل بن أمير الجيوش يحمل منها للخليفة مائتى دينار والبقية

برسمه ثم جعلت في الايام المأمونية ألف دينار وربما زادت أو نقصت يسيرا وقد تقدم أن قاضي القضاة كان يتولى عيار دار الضرب ويحضر التعليق بنفسه ويختم عليه ويحضر الموعد الآخر لفتحه

(ذكر دار الوكالة الآمرية)

كانت دار الوكالة المذكورة بجانب دار الضرب وموضعها الآن على يمنة السالك من رأس الخراطين الى سوق الخيميين والجامع الازهر * قال ابن المأمون في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة ثم أنشأ يعني المأمون بن البطائحي وزير الخليفة الآمر باحكام الله دار الوكالة بالقاهرة المحروسة لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التجار ولم يسبق الى ذلك

(ذكر مصلى العيد)

وكان في شرقي القصر الكبير مصلى العيد من خارج باب النصر وهذا المصلى بناه القائد جوهر لاجل صلاة العيد في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ثم جدده العزيز بالله وقد بقي الى الآن بعض هذا المصلى واتخذ في جانب منه موضع مصلى الاموات اليوم

(ذكر هيئة صلاة العيد وما يتعلق بها)

قال ابن زولاق وركب المعز لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد الى مصلى القاهرة التي بناها القائد جوهر وكان محمد بن أحمد بن الادرع الحسني قد بكر وجلس في المصلى تحت القبة في موضع فجاء الخدم وأقاموه وأقعدوا موضعه أبا جعفر مسلما وأقعدوه هو دونه وكان أبو جعفر مسلم خلف المعز عن يمينه وهو يصلي وأقبل المعز في زيه وبنوده وقبابه وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة قرأ في الاولى بأم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال وسجد فأطال انا سبحت خلفه في كل ركعة وفي كل سجدة نيفا وثلاثين تسبيحة وكان القاضي النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير وقرأ في الثانية بأم الكتاب وسورة والضحى ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهي صلاة جده عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأطال أيضاً في الثانية الركوع والسجود أنا سبحت خلفه نيفا وثلاثين تسبيحة في كل ركعة وفي كل سجدة وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وأنكر جماعات يتوسمون بالعلم قراءته قبل التكبير لقلة علمهم وتقصيرهم في العلوم . حدثنا محمد بن أحمد قال حدثنا عمر بن شبة حدثنا عبد الله ورجاء عن اسرائيل عن أبي اسحق عن الحارث عن عليّ عليه السلام أنه كان يقرأ في صلاة العيد قبل التكبير فلما فرغ المعز من الصلاة صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا ثم ستر بالسترين اللذين كانا على المنبر فخطب وراءهما على رسمه وكان في أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل فجلس عليها بين الخطبتين واستفتح الخطبة ببسم الله الرحمن الرحيم وكان معه على المنبر القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع

صاحب المظلة ثم قال الله أكبر الله أكبر واستفتح بذلك وخطب وأبلغ وأبكى الناس وكانت خطبة بخشوع وخضوع فلما فرغ من خطبته انصرف في عساكره وخلفه أولاده الاربعة بالجواشن والخود على الخيل بأحسن زى وساروا بين يديه بالفيلين فلما حضر في قصره أحضر الناس فأكلوا وقدمت اليهم السمط ونشطهم الى الطعام وعتب على من تأخر وهدد من بلغه عنه صيام العيد * وقال المسيحي في حوادث آخر يوم من رمضان سنة ثمانين وثلثمائة وبقيت مصاطب ما بين القصور والمصلى الجديدة ظاهر باب النصر عليها المؤذنون حتى يتصل التكبير من المصلى الى القصر وفيه تقدم أمر القاضي محمد بن النعمان باحضار المتفقهة والمؤمنين يعني الشيعة وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب ولم يزل يرتب الناس وكتب رقاعا فيها أسماء الناس فكانت تخرج رقعة رقعة فيجلس الناس على مصطبة مصطبة بالترتيب وفي يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى والعسكر في زيه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرّاقة وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف * وقال ابن المأمون ولما توفي أمير الجيوش بدر الجمالي وانتقل الامر الى ولده الافضل بن أمير الجيوش جرى على سنن والده في صلاة العيد ويقف فى قوس باب داره الذى عند باب النصر يعنى دار الوزارة فلما سكن بمصر صار يطلع من مصر باكرا ويقف على باب داره على الحالة الاولى حتى تستحق الصلاة فيدخل من باب العيد الى الايوان ويصلي به القاضى ابن الرسعني ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة الى أن تنقضى الخطبة فيدخل من باب الملك ويسلم على الخليفة بحيث لايراه أحد غيره ثم يخلع عليه ويتوجه الى داره بمصر فيكون السماط بها مدى الاعياد فلما قتل الافضل واستقر بعده المأمون بن البطائحي فى الوزارة قال هذا نقص في حق العيد ولا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر فقال له الخليفة الآمر باحكام الله فما تراه أنت فقال يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدت بين باب الذهب وباب البحر فاذا جلس مولانا فى المنظرة وفتحت الطاقات وقف المملوك بين يديه في قوس باب الذهب وتجوز العساكر فارسها وراجلها وتشملها بركة نظر مولانا اليها فاذا حان وقت الصلاة توجه المملوك بالموكب والزى وجميع الامراء والاجناد واجتاز بأبواب القصر ودخل الايوان فاستحسن ذلك منه واستصوب رأيه وبالغ فى شكره ثم عاد المأمون الى مجلسه وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات يعنى في عيد النحر سنة خمس عشرة وخمسمائة وجملة العين ثلاثة آلاف وثلثمائة دينار وسبعة دنانير ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع

برسم الامراء المطوقين والاستاذين المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم قال ووصلت الكسوة المختصة بالعيد في آخر شهر رمضان يعني من سنة ست عشرة وخمسمائة وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار وهو عندهم الموسم الكبير ويسمى بعيد الحلل لان الحلل فيه تعم الجماعة وفي غيره للاعيان خاصة وقد تقدم تفصيلها عند ذكر خزانة الكسوة من هذا الكتاب • قال ولما كان في التاسع والعشرين من شهر رمضان خرجت الاوامر بأضعاف ماهو مستقر للمقرئين والمؤذنين في كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر وحضر المأمون في آخر النهار الى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الاسمطة على العادة وحضر اخوته وعمومته وجميع الجلساء وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور بلاحي وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة في عراضي دبيقي وجعلت أمام المذكورين ليشملها بركة ختم القرآن واستفتح المقرئون من الحمد الى خاتمة القرآن تلاوة وتطريباً ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ودعا فأبلغ ورفع الفراشون ماأعدوه برسم الجهات ثم كبر المؤذنون وهللوا وأخذوا فى الصوفيات الى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ورباعيات وقدمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوى فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب وغيرهم ودراهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين ورسم أن تحمل الفطرة الى قاعة الذهب وأن تكون التعبية في مجلس الملك وتعبى الطيافير المشورة الكبار من السرير الى باب المجلس وتعبي من باب المجلس الى ثلثى القاعة سماطاً واحدا مثل سماط الطعام ويكون جميعه سداً واحدامن حلاوة الموسم ويزين بالقطع المنفوخ فامتثل الامر وحضر الخليفة الى الايوان واستدعى المأمون وأولاده واخوته وعرضت المظال المذهبة الحاومة وكان المقرئون يلوحون عند ذكرها بالآيات التى فيسورة النحل والله جعل لكم مما خلق ظلالا الى آخرها وجلس الخليفة ورفعت الستور واستفتح المقرئون وجدد المأمون السلام عليه وجلس على المرتبة عن يمينه وسلم الامراء جميعهم على حكم منازلهم لايتعدى أحد منهم مكانه والنواب جميعهم يستدعونهم بنعوتهم وترتيب وقوفهم وسلم الرسل الواصلون من جميع الاقاليم ووقفوا في آخر الايوان وختم المقرئون وسلموا وخدمت الرهجية وتقدم متولى كل اصطبل من الرواض وغيرهم يقبل الارض ويقف ودخلت الدواب من باب الديلم والمستخدمون فى الركاب بالمناديل يتسلمونها من الشدادين ويدورون بها حول الايوان ودواب المظالة متميزة عن غيرها يتسلمها الاستاذون والمستخدمون في الركاب ويعلون بها الى قريب من الشباك الذى فيه الخليفة وكلما عرض دواب اصطبل قبل الارض متوليه وانصرف وتقدم متولى غيره على حكمه الى أن يعرض جميع ماأحضروه

وهو مايزيد على ألف فرس خارجا عن البغال وما تأخر من العشاريات والحجور والمهارة ولما عرضت الدواب أبطلت الرهجية وعاد استفتاح المقرئين وكانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم مما يوافق الحال مثل الآية من آل عمران زين للناس حب الشهوات الى آخرها ثم بعدها قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء الى آخرها وعرضت الوحوش بالاجلة الديباج والديبقى بقباب الذهب والمناطق والاهلة وبعدها النجب والبخاتي بالاقتاب الملبسة بالديبقي الملون المرقوم وعرض السلاح وآلات الموكب جميعها ونصبت الكسوات على باب العيد وضربت طول الليل وحمات الفطرة الخاص التي يفطر عليها الخليفة باصناف الجوارشات بالمسك والعود والكافور والزعفران والتمور المصبغة التي يستخرج مافيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم وسلمت للمستخدمين في القصور وعبيت في مواعين الذهب المكللة بالجواهر وخرجت الاعلام والبنود وركب المأمون فلما حصل بقاعة الذهب أخذ في مشاهدة السماط من سرير الملك الى آخرها وخرج الخليفة لوقته من الباذهنج وطلع الى سرير ملكه وبين يديه الصواني المقدم ذكرها واستدعي بالمأمون فجلس عن يمينه بعد أداء حق السلام وأمر باحضار الامراء المميزين والقاضى والداعى والضيوف وسلم كل منهم على حكم ميزته وقدمت الرسل وشرفوا بتقبيل الارض والمقرئون يتلون والمؤذنون يهللون ويكبرون وكشفت القوارات الشرب المذهبات عما هو بين يدى الخليفة فبدأ وكبر وأخذ بيده تمرة فأفطر عليها وناول مثلها الوزير فأظهر الفطر عليها وأخذ الخليفة في أن يستعمل من جميع ماحضر ويناول وزيره منه وهو يقبله ويجعله في كمه وتقدمت الاجلاء اخوة الوزير وأولاده من تحت السرير وهو يناولهم من يده فيجعلونه في أكمامهم بعد تقبيله وأخذ كل من الحاضرين كذلك ويومئ بالفطور ويجعله في كمه على سبيل البركة فمن كان رأيه الفطور أفطر ومن لم يكن رأيه أومأ وجعله في كمه لاينتقد على أحد فعله ثم قال المأمون بعد ذلك ما على من يأخذ من هذا المكان نقيصة بل له به الشرف والميزة ومد يده وأخذ من الطيفور الذى كان بين يديه عود نبات وجعله فى كمه بعد تقبيله وأشار الى الامراء فاعتمد كل من الحاضرين ذلك وملاؤا أكمامهم ودخل الناس فأخذوا جميع ذلك ثم خرج الوزير الى داره والجماعة في ركابه فوجد التعبية فيها من صدر المجلس الى آخره على ما أمر به ولم يعدم مما كان بالقصر غير الصوانى الخاص فجلس على مرتبته والاجلاء أولاده واستدعى بالعوالى من الامراء والقاضى والداعى والضيوف فحضروا وشرفوا بجلوسهم معه وحصل من مسرتهم بذلك مابسطهم ورفعوا اليسير مما حضر على سبيل الشرف ثم انصرفوا وحضرت الطوائف والرسل على طبقاتهم الى أن حمل جميع ما كان بالدار بأسره وانقضى حكم الفطور وعاد للتنفيذ فى غيره وضربت الطبول والابواق على أبواب القصور

والدار المأمونية وأحضرت التغايير وفرقت على أربابها من الاجنادوالمستخدمين وخرجت أزمة العساكر فارسها وراجلها وندب الحاجب الذى بيده الدعو لترتيب صفوفها من باب القصر الى المصلى ثم حضر الى الدار المأمونية الشيوخ المميزون وجلس المأمون في مجلسه وأولاده بهيئة العيد وزينته ورفعت الستور وابتدأ المقرئون وسلم متولى الباب والشيوخ ولم يدخل المجلس غير كاتب الدست ومتولى الحجبة وبالغ كل منهما في زيه وملبوسه وجروا على رسمهم في تقبيل الارض وعتبة المجلس ووصل الى الدار المأمونية التجمل الخاص الذى برسم الخليفة جميعه القصب الفضة والاعلام والمنجوقات والعقبات والعماريات ولوا آ الوزارة لركوب الخليفة بالمظلة بالطميم والمراكيب الذهب المرصعة بالجوهر وغيرذلك من التجملات وركب المأمون من داره وجميع التشاريف الخاص بين يديهوخدمت الرهجية ومن جملتهم الغريبة وهي أبواق لطاف عجيبة غريبة الشكل تضرب كل وقت يركب فيه الخليفة ولا تضرب قدام الوزير الافي المواسم خاصة وفي أيام الخلع عليه والامراء مصطفون عن يمينه وعن شماله ويليهم اخوته وبعدهم أولاده ودخل الى الايوان وجلس على المرتبة المختصة به وعن يمينه جميع الاجلاء والمميزون وقوف أمامه ومن انحط عنهم من باب الملك الى الايوان قيام ويخرج خاصة الدولة ريحان الى المصلى بالفرش الخاص وآلات الصلاة وعلق المحراب بالشروب المذهبة وفرش فيه ثلاث سجادات متراكبة وأعلاها السجادة اللطيفة التي كانت عندهم معظمة وهي قطعة من حصير ذكر أنها كانت من جملة حصير لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يصلى عليها وفرش الارض جميعها بالحصر المحاريب ثم علق على جانبي المنبر وفرش جميع درجه وجعل أعلاه المخاد التي يجلس عليها الخليفة وعلق اللواآن عليه وقعد تحت القبة خاصة الدولة ريحان والقاضي وأطلق البخور ولم يفتح من أبوابه الاباب واحد وهو الذى يدخل منه الخليفة ويقعد الداعي في الدهليز ونقباء المؤمنين بين يديه وكذلك الامراء والاشراف والشيوخ والشهود ومن سواهم من أرباب الحرف ولا يمكن من الدخول الا من يعرفه الداعي ويكون في ضمانه واستفتحت الصلاة وأقبل الخليفة من قصوره بغاية زيه والعلم الجوهر في منديله وقضيب الملك بيده وبنو عمه واخوته وأستاذوه في ركابه وتلقاه المقرئون عند وصوله والخواص واستدعى بالمأمون فتقدم بمفرده وقبل الارض وأخذ السيف والرمح من مقدمي خزائن الكسوة والرهجية تخدم وحمل لواء الحمد بين يديه الى أن خرج من باب العيد فوجد المظلة قد نشرت عن يمينه والذى بيده الدعو في ترتيب الحجبة لمن شرف بها لايتعدى أحد حكمه وسائر المواكب بالجنائب الخاص وخيل التخافيف ومصفات العساكر والطوائف جميعها بزيها وراياتها وراء الموكب الى أن وصل الى قريب المصلى والعماريات والزراقات وقد شد على الفيلة بالاسرة مملوءة رجالا مشبكة بالسلاح لايتبين

منهم الا الاحداق وبأيديهم السيوف المجردة والدرق الحديد الصيني والعساكر قد اجتمعت وترادفت صفوفا من الجانبين الى باب المصلى والنظارة قد ملأت الفضاء لمشاهدة مالم يبلغوه والموكب سائر بهم وقد أحاط بالخليفة والوزير صبيان الخاص وبعدهم الاجناد بالدروع المسبلة والزرديات بالمغافر ملثمة والبروك الحديد بالصماصم والدبابيس ولما طلع الموكب من ربوة المصلى ترجل متولى الباب والحجاب ووقف الخليفة بجمعه بالمظلة الى أن اجتاز المأمون راكبا بمن حول ركابه ورد الخليفة السلام عليه بكمه وصار أمامه وترجل الامراء المميزون والاستاذون المحنكون بعدهم وجميع الاجلاء وصار كل منهم يبدأ بالسلام على الوزير ثم على الخليفة الى أن صار الجميع فى ركابه ولم يدخل من باب المصلى راكبا غير الوزير خاصة ثم ترجل على بابه الثاني الى أن وصل الخليفة اليه فاستدعى به فسلم وأخذ الشكيمة بيده الى أن ترجل الخليفة في الدهليز الآخر وقصد المحراب والمؤذنون يكبرون قدامه واستفتح الخليفة في المحراب وسامته فيه وزيره والقاضى والداعي عن يمينه وشماله ليوصلوا التكبير لجماعة المؤذنين من الجانبين ويتصل منهم التكبير الى مؤذني مصلى الرجال والنساء الخارجين عن المصلى الكبير وكاتب الدست وأهله ومتولى ديوان الانشاء يصلون تحت عقد المنبر ولا يمكن غيرهم أن يكون معهم ولما قضى الخليفة الصلاة وهى ركعتان قرأ في الاولى بفاتحة الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية وكبر سبع تكبيرات وركع وسجد وفي الثانية بالفاتحة وسورة والشمس وضحاها وكبر خمس تكبيرات وهذه سنة الجميع ومن ينوب عنهم فى صلاة العيدين على الاستمرار وسلم وخرج من المحراب وعطف عن يمينه والحرص عليه شديد ولا يصل اليه الا من كان خصيصا به وصعد المنبر بالخشوع والسكينة وجميع من بالمصلى والتربة لا يسأم نظره ويكثرون من الدعاء له ولما حصل في أعلى المنبر أشار الى المأمون فقبل الارض وسارع في الطلوع اليه وأدى ما يجب من سلامه وتعظيم مقامه ووقف بأعلى درجة وأشار الى القاضى فتقدم وقبل كل درجة الى أن يصل الى الدرجة الثالثة وقف عندها وأخرج الدعو من كمه وقبله ووضعه على رأسه وأعلى بما تضمنه وهو ما جرت به العادة من تسمية يوم العيد وسنته والدعاء للدولة وكانت الحال في أيام وزراء الاقلام والسيوف اذا حصل الخليفة فى أعلى المنبر بقى الوزير مع غيره وأشار الخليفة الى القاضي فيقبل الارض ويطلع الى الدرجة الثالثة ويخرج الدعو من كمه ويقبله ويضعه على رأسه ويذكر يوم العيد وسنته والدعاء للدولة ثم يستدعى بالوزير بعد ذلك فيصعد بعد القاضى فراعى الخليفة ذلك الامر في حق الوزير فجعل الاشارة منه اليه أولا ورفعه عن أن يكون مأمورا مثل غيره وجعلها له ميزة على غيره ممن تقدمه واستمرت فيما بعد واستفتح الخليفة بالتكبير الجارى به العادة فى الفطر والخطبتين الى آخرها وكبر المؤذنون ورفع اللوا آن وترجل كل أحد من

موضعه كما كان ركوبه وصار الجميع فى ركاب الخليفة وجرى الامر فى رجوعه على ما تقدم شرحه ومضى الى تربة آبائه وهى سنتهم في كل ركبة بمظلة وفى كل يوم جمعة مع صدقات ورسوم تفرق وأما الوزير المأمون فانه توجه وخرج من باب العيد والامراء بين يديه الى أن وصل الى باب الذهب فدخل منه بعد أن أمر ولده الاكبر بالوصول الى داره والجلوس على سماط العيد على عادته ولما دخل المأمون بقاعة الذهب وجد الشروع قد وقع من المستخدمين بتعبية السماط فأمر بتفرقة الرسوم على أربابها وهو ما يحمل الى مجلس الوزارة برسم الحاشية ولكل من حاشية أولاده وإخوته وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب ومتولى الديوان وكاتب الدفتر والنائب لكل منهم رسم يصرف قبل جلوس الخليفة وعند انقضاء الاسمطة لغير المذكورين على قدر منزلة كل منهم ثم حضر أبو الفضائل بن أبي الليث واستأذن على طيافير الفطرة الكبار التي في مجلس الخليفة فامره الوزير بأن يعتمد فى تفرقتها على ما كان يعتمده في الايام الافضلية وهو لكل من يصعد المنبر مع الخليفة طيفور فلما أخذ الخليفة راحة بعد مضيه الى التربة جلس على السرير وبين يديه المائدة اللطيفة الذهب بالمينا معباة بالزبادى الذهب واستدعى الوزير واصطف الناس من المدورة الى آخر السماط من الجانبين على طبقاتهم ورفعت الستور واستفتح المقرئون ووفى الدولة اسعاف متولى المائدة مشدود الوسط ومقدم خزانة الشراب بيده شربة فى مرفع ذهب وغطاء مرصعين بالجوهر والياقوت ومتولى خزائن الانفاق بيده خريطة مملوءة دنانير لمن يقف يطلب صدقة وانعاما فيؤمر بما يدفع اليه وتفرقة الرسوم الجارى بها العادة ولعبت المنافقون والتخسارية وتناوب القراء والمنشدون وأرخيت الستور وعبى السماط ثانيا على ما كان عليه أولا ثم رفعت الستور وجلس على المدورة والسماط من جرت العادة به وفرقت الدنانير على المقرئين والمنشدين والتخسارية والمنافقين ومن هو معروف بكثرة الاكل ونهبت قصور الخليفة وفرق من الاصناف ماجرت به العادة وأرخيت الستور وأحضر متولى خزانة الكسوة الخاص للخليفة بدلة الى أعلى السرير حسبما كان أمره فلبسها وخلع الثياب التى كانت عليه على الوزير بعد ما بالغ في شكره والثناء عليه وتوجه الى داره فوصل اليه من الخليفة الصواني الخاص المكللة معباة على ما كانت بين يديه وغيرها من الموائد وكذلك الى أولاده واخوته صينية صينية ولكاتب الدست ومتولى حجبة الباب مثل ذلك ويكبر الوزير بجلوسه في داره فمثلنا وتسارع الناس على طبقاتهم بالعيد والخلع وبما جرى في صعود المنبر وحضر الشعراء وأسنيت لهم الجوائز وجرى الحال يومئذ في جلوس الخليفة وفي السلام لجميع الشيوخ والقضاة والشهود والامراء والكتاب ومقدمي الركاب والمتصدرين بالجوامع والفقهاء والقاهريين والمصريين واليهود برئيسهم والنصارى ببطريقهم على ماجرت به عادتهم وختم المقرئون وقدمت الشعراء على

طبقاتهم الى آخرهم وجدد لكل من الحاضرين سلامه وانكفأ الخليفة الى الباذهنج لاداء فريضة الصلاة والراحة بمقدار ما عبيت المائدة الخاص واستحضر المأمون وأولاده واخوته على عادتهم واستدعى من شرف بحضور المائدة وهم الشيخ أبو الحسن كاتب الدست وأبو الرضى سالم ابنه ومتولى حجبة الباب وظهير الدين الكناني على ما كان عليه الحال قبل الصيام وانقضى حكم العيد * وقال ابن الطوير اذا قرب آخر العشر الاخر من شهر رمضان خرج الزي من أماكنه على ما وصفنا في ركوب أول العام ولكن فيه زيادات يأتي ذكرها ويركب في مستهل شوال بعد تمام شهر رمضان وعدته عندهم أبدا ثلاثون يوما فاذا تهيأت الامور من الخليفة والوزير والامراء وأرباب الرتب على ما تقدم وصار الوزير بجماعته الى باب القصر ركب الخليفة بهيئة الخلافة من المظلة واليتيمة والآلات المقدم ذكرها ولباسه في هذا اليوم الثياب البياض الموشحة المحومة وهى أجل لباسهم والمظلة كذلك فانها أبدا تابعة لثيابه كيف كانت الثياب كانت ويكون خروجه من باب العيد الى المصلى والزيادة ظاهرة في هذا اليوم فى العساكر وقد انتظم القوم له صفين من باب القصر الى باب المصلى ويكون صاحب بيت المال قد تقدم على الرسم لفرش المصلى فيفرش الطراحات على رسمها في المحراب مطابقة ويعلق سترين يمنة ويسرة فى الايمن البسملة والفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى وفي الايسر مثل ذلك وهل أتاك حديث الغاشية ثم يركز في جانب المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة وهما مستوران مرخيان فيدخل الخليفة من شرقي المصلى الى مكان ليستريح فيه دقيقة ثم يخرج محفوظا كما يحفظ فى جامع القاهرة فيصير الى المحراب ويصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة والوزير وراءه والقاضى ويقرأ في كل ركعة ما هو مرقوم في السترين فاذا فرغ وسلم صعد المنبر للخطابة العيدية يوم الفطر فاذا جلس في الذروة وهناك طراحة سامان أو دبيقى على قدرها وباقيه يستر ببياض على مقداره في تقطيع درجه وهو مضبوط لا يتغير فيراه أهل ذلك الجمع جالسا في الذروة ويكون قد وقف أسفل المنبر الوزير وقاضى القضاة وصاحب الباب اسفهسلار العساكر وصاحب السيف وصاحب الرسالة وزمام القصر وصاحب دفتر المجالس وصاحب المظلة وزمام الاشراف الاقارب وصاحب بيت المال وحامل الرمح ونقيب الاشراف الطالبيين ووجه الوزير اليه فيشير اليه فيصعد ويقرب وقوفه منه ويكون وجهه موازيا رجليه فيقبلهما بحيث يراه العالم ثم يقوم ويقف على يمينه فاذا وقف أشار الى قاضي القضاة فيصعد الى سابع درجة ويتطلع اليه صاغيا لما يقول فيشير اليه فيخرج من كمه مدرجا قد أحضر اليه أمس من ديوان الانشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير فيعلن بقراءة مضمونه ويقول بسم الله الرحمن الرحيم ثبت بمن شرف بصعوده المنبر الشريف في يوم كذا وهو عيد الفطر من سنة كذا من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه

الطاهرين وأبنائه الاكرمين بعد صعود السيد الاجل ونعوته المقررة ودعائه المحرر فان أراد الخليفة أن يشرف أحدا من أولاد الوزير واخوته استدعاه القاضي بالنعت المذكور ثم يتلو ذلك ذكر القاضي وهو القارئ فلا يتسع له أن يقول عن نفسه نعوته ولا دعاءه بل يقول المملوك فلان بن فلان وقرأه مرة القاضي ابن أبي عقيل فلما وصل الى اسمه قال العبد الذليل المعترف بالصنع الجميل في المقام الجليل أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل فاستحسن ذلك منه ثم حذا حذوه الاعز بن سلامة وقد استقضى في آخر الوقت فقال المملوك في محل الكرامه • الذي عليه من الولاء أصدق علامه • حسن بن على بن سلامه • ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم وذكر خدمهم ودعائهم على الترتيب فاذا طلع الجماعة وكل منهم يعرف مقامه فى المنبر يمنة ويسرة أشار الوزير اليهم فأخذ من هو من كل جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه فيستر الخليفة ويسترون وينادى في الناس بأن ينصتوا فيخطب الخليفة من المسطور على العادة وهى خطبة بليغة موافقة لذلك اليوم فاذا فرغ ألقى كل من في يده من اللواء شئ خارج المنبر فينكشفون وينزلون أولا فأولا الاقرب فالاقرب الى القهقرى فاذا خلا المنبر منهم قام الخليفة هابطا ودخل الى المكان الذى خرج منه فلبث يسيرا وركب في زيه المفخم وعاد من طريقه بعينها الى أن يصل الى قريب القصر فيتقدمه الوزير كما شرحنا ثم يدخل من باب العيد فيجلس فى الشباك وقد نصب منه الى فسقية كانت في وسط الايوان مقدار عشرين قصبة سماط من الخشكنان والبسندود والبرماورد مثل الجبل الشاهق وفيه القطعة وزنها من ربع قنطار الى رطل فيدخل ذلك الجمع اليه ويفطر منه من يفطر وينقل منه من ينقل ويباح ولا يحجر عليه ولا مانع دونه فيمر ذلك بأيدى الناس وليس هو مما يعتد به ولا يعبي مما يفرق للناس ويحمل الى دورهم ويعمل في هذا اليوم سماط من الطعام في القاعة يحضر عليه الخليفة والوزير فاذا انقضى ذو القعدة وهل هلال ذى الحجة اهتم بركوب عيد النحر فيجرى حاله كما جرى في عيد الفطر من الزى والركوب الى المصلى ويكون لباس الخليفة فيه الاحمر الموشح ولا يخرم منه شيء انتهى * وصعد مرة الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد المنبر يوم عيد فوقف الشريف ابن أنس الدولة بازائه وقال مشيرا الى الحاضرين.

خشوعا فان الله هذا مقامه * وهمسا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذى في كل وقت بروزه * تحياته من ربنا وسلامه

فضرب الحافظ الجانب الايسر من المنبر فرقي اليه زمام القصر فقال له قل للشريف حسبك قضيت حاجتك ولم يدعه يقول شيئاً آخر وكانت تكتب المخلقات بركوب أمير المؤمنين لصلاة العيد ويبعث بها الى الاعمال فمما كتب به من انشاء ابن الصيرفى * أما بعد فالحمد لله

الذي رفع بأمير المؤمنين عماد الايمان وثبت قواعده • وأعز بخلافته معتقده وأذل بمهابته معانده • وأظهر من نوره ما انبسط في الآفاق وزال معه الاظلام • ونسخ به ما تقدمه من الملل فقال ان الدين عند الله الاسلام • وجعل المعتصم بحبله مفضلا على من يفاخره ويباهيه وأوجب دخول الجنة وخلودها لمن عمل بأوامره ونواهيه • وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي اصطفى له الدين • وبعثه الى الاقربين والابعدين • وأيده في الارشاد حتى صار العاصي مطيعا • ودخل الناس في التوحيد فرادى وجميعا • وغدوا بعروته الوثقى متمسكين • وأنزل عليه قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين • وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب امام الامة • وكاشف الغمة • وأوجه الشفعاء لشيعته يوم العرض • ومن الاخلاص في ولائه قيام بحق وأداء فرض • وعلى الائمة من ذريتهما سادة البريه • والعادلين في القضيه • والعاملين بالسيرة المرضية • وسلم وكرم • وشرف وعظم • وكتاب أمير المؤمنين هذا اليك يوم الثلاثاء عيد الفطر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة وقد كان من قيام أمير المؤمنين بحقه وأدائه • وجريه فى ذلك على عادته وعادة من قبله من آبائه • ما ينبئك به • ويطالعك على مستوره عنك ومغيبه • وذلك أن دنس ثوب الليل لما بيضه الصباح • وعاد المحرم المحظور بما أطلقه المحلل المباح • توجهت عساكر أمير المؤمنين من مظانها الى بابه • وأفطرت بين يديه بعد ما حازته من أجر الصيام وثوابه • ثم انثنت الى مصافها في الهيآت • التي يقصر عنها تجريد الصفات • وتغني مهابتها عن تجريد المرهفات • وتشهد أسلحتها وعددها بالتنافس في الهمم • وتقلق مواضيها في أغمادها شوقا الى الطلى والقمم • وقد امتلأت الارض بازدحام الرجل والخيل • وثار العجاج فلم ير أغرب من اجتماع النهار والليل • وبرز أمير المؤمنين من قصوره • وظهر للابصار على أنه محتجب بضيائه ونوره • وتوجه الى المصلى في هدى جده وأبيه • والوقار الذي ارتفع فيه عن النظير والشبيه • ولما انتهى اليه قصد المحراب واستقبله • وأدى الصلاة على وضع رضيه الله وتقبله • وأجرى أمرها على أفضل المعهود • ووفاها حقها من القراءة والتكبير والركوع والسجود • وانتهى الى المنبر فعلا وكبر الله • وهلله على ما أولاه • وذكر الثواب على اخراج الفطرة وبشربه • وان المسارعة اليه من وسائل المحافظة على الخير وقربه • ووعظ وعظا ينتفع قابله في عاجلته ومنقلبه • ثم عاد الى قصوره الزاهرة مشمولا بالوقايه مكنوفا بالكفايه • منتهيا في ارشاد عبيده ورعاياه أقصى الغاية • أعلمك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتعلم منه ما تسكن اليه • وتعلن بتلاوته على الكافة ليشتركوا فى معرفته ويشكروا الله عليه • فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى * وكان من أهل برقة طائفة تعرف بصبيان الخف لها اقطاعات وجرايات وكسوات ورسوم فاذا ركب الخليفة فى العيدين مدوا حبالين

مسطوحين من أعلى باب النصر الى الارض حبلا عن يمين الباب وحبلا عن شماله فاذا عاد الخليفة من المصلى نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون وفي أيديهم رايات وخاف كل واحد منهم رديف وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه ويعملون أعمالا تذهل العقول ويركب منهم جماعة في الموكب على خيول فيركضون وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت ابط الفرس وهو يركض ويعود يركب من الجانب الآخر ويعود وهو على حاله لايتوقف ولا يسقط منه شئ الى الارض ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف

﴿ ذكر القصر الصغير الغربي ﴾

وكان تجاه القصر الكبير الشرقي الذي تقدم ذكره في غربيه قصر آخر صغير يعرف بالقصر الغربي ومكانه الآن حيث المارستان المنصوري وما في صفه من المدارس ودار الامير بيسرى وباب قبو الخرنشف وربع الملك الكامل المطل على سوق الدجاجين اليوم المعروف قديما بالتبانين وما يجاوره من الدرب المعروف اليوم بدرب الخضيرى تجاه الجامع الاقمر وما وراء هذه الاماكن الى الخليج وكان هــذا القصر الغربي يعرف أيضاً بقصر البحر والذي بناه العزيز بالله نزار بن المعز * قال المسبحي ولم يبن مثله في شرق ولا في غرب * وقال ابن أبي طي في أخبار سنة سبع وخمسين وأربعمائة ففيها تمم الخليفة المستنصر بناء القصر الغربي وسكنه وغرم عليه ألفي ألف دينار وكان ابتداء بنيانه في سنة خمسين وأربعمائة وكان سبب بنائه أنه عزم على أن يجعله منزلا للخليفة القائم بأمر الله صاحب بغــداد ويجمع بني العباس اليه ويجعله كالمجلس لهم لخانه أمله وتممه في هــذه السنة وجعله لنفسه وسكنه * وقال ابن ميسر ان ست الملك أخت الحاكم كانت أكبر من أخيها الحاكم وان والدها العزيز بالله كان قد أفردها بسكنى القصر الغربي وجعل لها طائفة برسمها كانوا يسمون بالقصرية وهذا يدلك على أن القصر الغربي كان قد بني قبل المستنصر وهو الصحيح وكان هذا القصر يشتمل أيضا على عدة أماكن

(الميدان) وكان بجوار القصر الغربي ومن حقوقه الميدان ويعرف هــذا الميدان اليوم بالخرنشف واصطبل القطبية

(البستان الكافوري) وكان من حقوق القصر الصغير الغربي البستان الكافوري وكان بستانا أنشأه الامير أبو بكر محمد بن طفج بن جف الاخشيد أمير مصر وكان مطلا على الخليج فاعتنى به الاخشيد وجعل له أبوابا من حديد وكان ينزل به ويقيم فيه الايام واهتم بشأنه من بعد الاخشيد ابناه الامير أبو القاسم أونوجور بن الاخشيد والامير أبو الحسن على ابن الاخشيد في أيام امارتهما بعــد أبيهما فلما استبد من بعــدهما الاستاذ أبو المسك كافور

الاخشيدي بامارة مصر كان كثيرا ما يتنزه به ويواصل الركوب الى الميدان الذى كان فيه وكانت خيوله بهذا الميدان فلما قدم القائد جوهر من المغرب بجيوش مولاه المعز لدين الله لاخذ ديار مصر أناخ بجوار هذا البستان وجعله من جملة القاهرة وكان متنزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم وكانوا يتوصلون اليه من سراديب مبنية تحت الارض ينزلون اليها من القصر الكبير الشرقي ويسيرون فيها بالدواب الى البستان الكافوري ومناظر اللؤلؤة بحيث لا تراهم الاعين وما زال البستان عامرا الى أن زالت الدولة فحكر وبني فيه فى سنة احدى وخمسين وستمائة كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر الحارات والخطط من هذا الكتاب وأما الاقباء والسراديب فانها عملت أسربة للمراحيض وهى باقية الى يومنا هذا تصب في الخليج

(القاعة) وكان من جملة القصر الغربي قاعة كبيرة هى الآن المارستان المنصورى حيث المرضى كانت سكن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله وكانت أحوالها متسعة جداً ٠ قال فى كتاب الذخائر والتحف وأهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الى أخيها يوم الثلاثاء التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وعشرون بغلة بسروجها ولجمها وخمسون خادما منهم عشرة صقالبة ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبديعه وشاشية مرصعة وأسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر قال وخلفت حين ماتت في مستهل جمادى الآخرة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة مالا يحصى كثرة وكان اقطاعها فى كل سنة يغل خمسين ألف دينار ووجد لها بعد وفاتها ثمانية آلاف جارية منها بنيات ألف وخمسمائة وكانت سمحة نبيلة كريمة الاخلاق والفعل وكان في جملة موجودها نيف وثلاثون زيرا صينيا مملوأ جميعها مسكا مسحوقا ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت ذكر أن نها عشرة مثاقيل * قال المسبحي ولدت بالمغرب فى ذى القعدة سنة خمس وثلثمائة ولما زالت الدولة عرفت هذه الدار بالامير فخر الدين جهاركس (٣) موسك ثم بالملك المفضل قطب الدين (٣) بن الملك العادل فلما كان فى شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين وستمائة شرع الملك المنصور قلاوون الالفي في بنائها مارستانا ومدرسة وتربة وتولى عمارتها الامير علم الدين سنجر الشجاعي مدبر الممالك ويقال انذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع

(أبواب القصر الغربي)

كان لهذا القصر عدة أبواب منها باب الساباط وباب التبانين وباب الزمرذ

(باب الساباط) هذا الباب موضعه الآن باب سر المارستان المنصوري الذي يخرج منه

الآن الى الخرنشف وكان من الرسم أن يذبح في باب الساباط المذكور مدة أيام النحر وفى عيد الغدير عدة ذبائح تفرق على سبيل الشرف *قال ابن المأمون في سنة ست عشرة وخمسمائة وجملة مانحره الخليفة الآمر بأحكام الله وذبحه خاصة فى المنحر وباب الساباط دون المأمون وأولاده واخوته فى ثلاثة الايام ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا فذكر ما كان بالمنحر قال وفى باب الساباط مما يحمل الى من حوته القصور والى دار الوزارة والاصحاب والحواشي أثنتا عشرة ناقة وثمانيـة عشر رأس بقر وخمسة عشر رأس جاموس ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس ويتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط مايذبح من النوق والبقر *وقال ابن عبد الظاهر كان في القصر باب يعرف بباب الساباط كان الخليفة في العيد يخرج منه الى الميدان وهو الخرنشف الآن لينحر فيه الضحايا

(باب التبانين) هذا الباب مكان باب الخرنشف الآن وجعل فى موضعه دار العلم التي بناها الحاكم الآتي ذكرها ان شاء الله تعالى

(باب الزمرذ) كان موضع اصطبل القطبية قريبا من باب البستان الكافوري الموجود الآن

(ذكر دار العلم)

وكان بجوار القصر الغربي من بحريه دار العلم ويدخل اليها من باب التبانين الذي هو الآن يعرف بقبو الخرنشف وصار مكان دار العلم الآن الدار المعروفة بدار الخضيري الكائنة بدرب الخضيري المقابل للجامع الاقمر ودار العلم هذه اتخذها الحاكم بامر الله فاستمرت الى أن أبطلها الافضل بن أمير الجيوش * قال الامير المختار عز الملك محمد بن عبد الله المسبحى وفى يوم السبت هذا يعني العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس اليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والاطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعا لاحد قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التى لم يسمع بمثلها من اجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر وهي الدار المعروفة بمختار الصقلبي

قال وفي سنة ثلاث وأربعمائة أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد وجماعة من الاطباء الى حضرة الحاكم بأمر الله وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع ووصلهم ووقف الحاكم بامر الله أماكن في فسطاط مصر على عدة مواضع وضمنها كتابا ثبت على قاضي القضاة مالك بن سعيد وقد ذكر عند ذكر الجامع الازهر وقال فيه وقد ذكر دار العلم ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج اليه في كل سنة من العين المغربي مائتان وسبعة وخمسون دينارا من ذلك لثمن الحصر العبداني وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير ومن ذلك لورق الكاتب يعني الناسخ تسعون دينارا ومن ذلك للخازن بها ثمانية وأربعون دينارا ومن ذلك لثمن الماء اثنا عشر دينارا ومن ذلك للفراش خمسة عشر دينارا ومن ذلك للورق والحبر والاقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء اثنا عشر دينارا ومن ذلك لمرمة الستارة دينار واحد ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها اثنا عشر دينارا ومن ذلك لثمن لبود للفرش في الشتاء خمسة دنانير ومن ذلك لثمن طنافس في الشتاء أربعة دنانير * وقال ابن المأمون وفى هذا الشهر يعني شهر ذى الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة جرت نوبة القصار وهى طويلة وأولها من الايام الافضلية وكان فيهم رجلان يسمى أحدهما بركات والآخر حميد بن مكي الاطفيحي القصار مع جماعة يعرفون بالبديعية وهم على الاسلام والمذاهب الثلاثة المشهورة وكانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة وأخرجهم عن الصواب وكان ذلك فى أيام الافضل فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور فهرب وكان من جملة من استفسد عقله بركات المذكور استاذان من القصر فلما طلب بركات المذكور واستتر دق الاستاذان الحيلة الى أن أدخلاه عندهما فى زى جارية اشترياها وقاما بحقه وجميع ما يحتاج اليه وصار أهله يدخلون اليه فى بعض الاوقات فمرض بركات عند الاستاذين فحارا فى أمره ومداواته وتعذر عليهما احضار طبيب له واشتد مرضه ومات فأعملا الحيلة وعرفا زمام القصر أن احدى عجائزهما قد توفيت وأن عجائزهما يغسلنها على عادة القصور ويشيعنها الى تربة النعمان بالقرافة وكتبا عدة من يخرج ففسح لهما فى العدة وأخذا في غسله وألبساه ما أخذاه من أهله وهو ثياب معلمة وشاشية ومنديل وطيلسان مقور وأدرجوه فى الديبقي وتوجه مع التابوت الاستاذان المشار اليهما فلما قطعوا به بعض الطريق أرادا تكميل الاجر له على قدر عقولهما فقالا للحمالين هو رجل تربيته عندنا فنادوا عليه نداء الرجال واكتموا الحال وهذه أربعة دنانير لكم فسر الحمالون بذلك فلما عادوا الى صاحب الدكان عرفوه بما جرى وقاسموه الدنانير فخافت نفسه وعلم أنها قضية لاتخفى فمضى بهم الى الوالي وشرح له

القضية فأودعهم في الاعتقال وأخذ الذهب منهم وكتب مطالعة بالحال فمن اول ما سمع القائد أبو عبد الله بن فاتك الذى قيل له بعد ذلك المأمون بالقضية وكان مدبر الامور فى الايام الافضلية قال هو ركات المطلوب وامر باحضار الاستاذين والكشف عن القضية واحضار الحمالين والكشف عن القبر بحضورهم فاذا تحققوا ه أمرهم بلعنه فمن أجاب الى ذلك منهم أطلقوه ومن أبى أحضروه فحققوا معرفته فمنهم من بصق في وجهه وتبرأ منه ومنهم من همّ بتقبيله ولم يتبرأ منه فجلس الافضل واستدعى الوالي والسياف واستدعى من كان تحت الحوطة من أصحابه فكل من تبرأ منه ولعنه أطلق سبيله وبقى من الجماعة ممن لم يتبرأ منه خمسة نفر وصبي لم يبلغ الحلم فأمر بضرب رقابهم وطلب الاستاذين فلم يقدر عليهما وقال للصبي من لفظه تبرأ منه وأنعم عليك وأطلق سبيلك فقال له الله يطالبك ان لم تلحقني بهم فاني مشاهد ما هم فيه وأخذ بسيفه على الافضل فأمر بضرب عنقه فلما توفى الافضل أمر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي باتخاذ دار العلم وفتحها على الاوضاع الشرعية ثم عاد حميد القصار المثنى بذكره وظهر وسكن مصر يدق الثياب بها ويطالع الى دار العلم وأفسد عقل استاذ وخياط وجماعة وادعي الربوبية فحضر الداعى ابن عبد الحقيق الى الوزير المأمون وعرفه بان هذا قد تعرف بطرف من علم الكلام على مذهب أبي الحسن الاشعرى ثم انسلخ عن الاسلام وسلك طريق الحلاج في التمويه فاستهوى من ضعف عقله وقلت بصيرته فان الحلاج في أول أمره كان يدعى أنه داعية المهدى ثم ادعي أنه المهدى ثم ادعى الالهية وأن الجن تخدمه وأنه أحيا عدة من الطيور وكان هذا القصار شيعيّ الدين وجرت له امور فى الايام الافضلية ونفى دفعة واعتقل أخرى ثم هرب بعد ذلك ثم حضر وصار يواصل طلوع الجبل واستصحب من استهواه من أصحابه فاذا أبعد قال لبعضهم بعد أن يصلى ركعتين نطلب شيأ تأكله أصحابنا فيمضى ولا يلبث دون أن يعود ومعه ما كان أعده مع بعض خاصته الذين يطلعون على باطنه فكانوا يهابونه ويعظمونه حتى أنهم يخافون الاثم في تأمل صورته فلا ينفكون مطرقين بين يديه وكان قصيرا دميم الخلقة وادعي مع ذلك الربوبية وكان ممن اختص بحميد رجل خياط وخصيّ فرسم المأمون بالقبض على المذكور وعلى جميع اصحابه فهرب الخياط وطلب فلم يوجد ونودى عليه وبذل لمن يحضر به مال فلم يقدر عليه واعتقل القصار وأصحابه وقرروا فلم يقرّوا بشيء من حاله وبعد أيام تماوت في الحبس فلما استؤمر عليه أمر بدفنه فلما حمل ليدفن ظهر أنه حيّ فأعيد الى الاعتقال وبقى كل من لم يتبرأ منه معتقلا ما خلا الخصي فانه لم يتبرأ منه وذكر أن القتل لا يصل اليه فأمر بقطع لسانه ورمى قدامه وهو مصر على ما في نفسه فأخرج القصار والخصي ومن لم يتبرأ منه من أصحابه فصلبوا على الخشب وضربوا

بالنشاب فماتوا لوقتهم ثم نودى على الخياط ثانيا فاحضر وفعل به ما فعل بأصحابه بعد أن قيل له ها أنت تنظره فلم يتبرأ منه وصاب الى جانبه وذكر أن بعض أصحاب هذا القصار ممن لم يعرف أنه كان يشترى الكافور ويرميه بالقرب من خشبته التى هو مصلوب عليها فيستقبل رائحته من سلك تلك الطريق ويقصد بذلك أن يربط عقول من كان القصار قد أضله فأمر المأمون أن يحطوا عن الخشب وأن تخلط رممهم ويدفنوا متفرقين حتى لا يعرف قبر القصار من قبورهم وكان قتلهم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وابتداء هذه القضية سنة ثلاث عشرة وخمسمائة قال وكان الشريف عبد الله يحدث عن صديق له مأمون القول أنه أخبره أنه لما شاع خبر هذا القصار وما ظهر منه أراد أن يمتحنه فتسبب الى أن خالطه وصار في جملة أصحابه وممن يعظمه ويطلع معه الى الجبل فافسد عقله وغير معتقده وأخرجه عن الاسلام وأنه لامه على ذلك وردعه فحدثه بعجائب منها أنه قال والله ما من الجماعة الذين يطلعون معه الى الجبل أحد الا ويسأله ويستدعيه ما يريد على سبيل الامتحان فيحضره اليه لوقته وان بيده سكينا لا تقطع الا بيده واذا أمسك طائرا وقبضه أحد من الحاضرين يدفع السكين التى معه له ويقول له اذبحه فلا تمشى في يده فيأخذها هو ويذبحه بها ويجرى دمه ثم يعود ويمسكه بيده ويسرحه فيطير ويقول ان الحديد لا يعمل فيه ويوسع القول فيما يشاهده منه ويسمعه فلما اعتقل القصار بقى هذا الرجل مصرا على اعتقاده فلما قتل وخرج اليه وشاهده وتحقق موته علم أن ما كان فيه سحر وزور وافك فتصدق بجملة من ماله وعاد الى مذهبه وصح معتقده *

وقال ابن عبد الظاهر دار العلم كان الافضل بن أمير الجيوش قد أبطلها وهى بجوار باب التبانين وهى متصلة بالقصر الصغير وفيها مدفون الداعي المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الاعجمى وكان لابطالها امور سببها اجتماع الناس والخوض في المذاهب والخوف من الاجتماع على المذهب النزارى ولم يزل الخدام يتوصلون الى الخليفة الآمر باحكام الله حتى تحدث في ذلك مع الوزير المأمون فقال أين تكون هذه الدار فقال بعض الخدام تكون بالدار التى كانت اولا فقال المأمون هذا لا يكون لانه باب صار من جملة ابواب القصر وبرسم الحوائج ولا يمكن الاجتماع ولا يؤمن من غريب يحصل به فأشار كل من الاستاذين بشيء فأشار بعضهم أن تكون فى بيت المال القديم فقال المأمون يا سبحان الله قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير الذى هو سكن الخليفة نجعلها ملاصقة فقال الثقة زمام القصور في جوارى موضع ليس ملاصقا للقصر ولا مخالطا له يجوز أن يعمر ويكون دار العلم فأجاب المأمون الى ذلك وقال بشرط أن يكون متوليها رجلا دينا والداعى الناظر فيها ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن فاستخدم فيها ابو محمد حسن بن آدم فتولاها وشرط عليه ما تقدم ذكره واستخدم فيها مقرئون

(ذكر دار الضيافة)

خرج مالك في الموطا عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال كان ابراهيم عليه السلام اول من ضيف الضيف واول من اتخذ دار ضيافة في الاسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة سبع عشرة وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره وجعل بين مكة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء الى ماء حتى يوصلهم الى البلد فلما استخلف عثمان ابن عفان رضي الله عنه أقام الضيافة لابناء السبيل والمتعبدين في المسجد وأول من بنى دار الضيافة بمصر للناس عثمان بن قيس بن أبي العاص السهمي أحد من شهد فتح مصر من الصحابة وكان ميدان القصر الغربي الذي هو الآن الخرنشف دار الضيافة بحارة برجوان وكانت هذه الدار أولا تعرف بدار الأستاذ برجوان وفيها كان يسكن حيث الموضع المعروف بحارة برجوان ثم لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام الخليفة المستنصر من عكا واستبد بامر الدولة أنشأ هناك دارا عظيمة وسكنها ولم يسكن بدار الديباج التي كانت دار الوزارة القديمة فلما مات أمير الجيوش بدر واستولى سلطنة ديار مصر ابنه الافضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وأنشأ دار القباب التي عرفت بدار الوزارة الكبرى قريباً من رحبة باب العيد أقر أخاه أبا محمد جعفراً المنعوت بالمظفر بن أمير الجيوش بدار أمير الجيوش من حارة برجوان فعرفت بدار المظفر ومازال بها حتى مات وقبر بها والى اليوم قبره بها وتسميه العامة جعفرا الصادق ولما مات المظفر اتخذت داره المذكورة دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك واستمرت كذلك الى أن انقرضت الدولة فانزل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد الى أن نقلهم الى قلعة الجبل الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب فلما كان في سنة تسع وسبعين وستمائة تقدم أمر الملك المنصور قلاون لوكيل بيت المال القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب ببيع دار المظفر فباع القاعة الكبرى وما هو من حقوقها وبيعت دار المظفر الصغرى وهدمها الناس وبنوا في مكانها دورا وموضعها الآن دار قاضي القضاة شمس الدين محمد الطرابلسي الحنفي وما بجوارها الى الدار التي بها سكني اليوم وهي من حقوق دار المظفر الصغرى على ما في كتبها القديمة ولما أنشأ قاضي القضاة شمس الدين المذكور داره في سنة سبع أو سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ظهر من تحت الارض عند حفر الاساس حجر عظيم قيل انه عتبة دار المظفر الكبرى وكان اذ ذاك الامير جهاركس الخليلي يتولى عمارة مدرسة الملك الظاهر برقوق التي في خط بين القصرين فلما بلغه خبر هذا الحجر بعث اليه وأمر بجره الى العمارة فعمل عتبة باب المزملة التي للمدرسة وكان من وراء هذه الدار رحبة الافيال أدركتها ساحة ثم عمر فيها * قال ابن الطوير الخدمة المعروفة بالنيابة للقاء المرسلين وهي خدمة جليلة يقال لمتوليها النائب وينعت بعدى الملك وهو ينوب عن صاحب الباب في لقاء الرسل الوافدين

على مسافة وانزال كل واحد فى دار تصلح له ويقيم له من يقوم بخدمته وله نظير في دار الضيافة وهو يسمى اليوم بمهمندار ويرتب لهم ما يحتاجون اليه ولا يمكن أحدا من الاجتماع بهم ويذكر صاحب الباب بهم ويبالغ في نجاز ما وصلوا فيه وهو الذي يسلم بهم أبدا عند الخليفة والوزير وينفذ بهم ويستأذن عليهم ويدخل الرسول وصاحب الباب قابض على يده اليمنى والنائب بيده اليسرى فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم ويجتهد في انفصالهم على أحسن الوجوه وبين يديه من الفراشين المقدم ذكرهم عدة لاعانته واذا غاب أقام عنه نائبا الى أن يعود وله من الجارى خمسون دينارا في كل شهر وفي اليوم نصف قنطار خبز وقد يهدى اليه المرسلون طرفا فلا يتناولها الا باذن انتهى * وفي هذه الدولة التركية يقال لمتولى هذه الوظيفة مهمندار ولا يليها عندهم الاصاحب سيف من الامراء العشراوات وكانت فى الدولة الفاطمية على ما ذكره ابن الطوير لا يليها الا أعيان العدول وأرباب العمائم وينعت أبدا بعدى الملك وأصل هذه الكلمة بالفارسية مهمان دار (ومعناها ملتقى الضيوف)

(ذكر اصطبل الحجرية)

وكان بجوار دار الضيافة اصطبل الصبيان الحجرية المقدم ذكرهم وموضع هذا الاصطبل اليوم يعرف بخان الوراقة داخل باب الفتوح القديم بسوق المرحلين على يسرة من أراد الخروج من باب الفتوح القديم تجاه زيادة الجامع الحاكمي ومن حقوق هذا الاصطبل أيضاً الموضع الذى فيه الآن القيسارية المعروفة بقيسارية الست التى هى اليوم تجاه المدرسة الصيرمية والجملون الصغير وكانت بهذا الاصطبل خيول الصبيان الحجرية احدى طوائف العساكر في زمن الخلفاء الفاطميين

(ذكر مطبخ القصر)

وكان بجوار القصر الغربي قبالة باب الزهومة من القصر الكبير مطبخ القصر وموضعه الآن الصاغة تجاه المدارس الصالحية ولما كانت مطبخا كان يخرج اليه من باب الزهومة وذكر ابن عبد الظاهر أنه كان يخرج من المطبخ المذكور مدة شهر رمضان ألف ومائتا قدر من جميع ألوان الطعام تفرق كل يوم على أرباب الرسوم والضعفاء .

(درب السلسلة) وكان بجوار مطبخ القصر درب السلسلة قال ابن الطوير ويبيت خارج باب القصر في كل ليلة خمسون فارسا فاذا أذن بالعشاء الآخرة داخل القاعة وصلى الامام الراتب بها بالمقيمين فيها من الاستاذين وغيرهم وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة ابن الكركندى فاذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق ولواحقهما من عدة وافرة بطرائق مستحسنة مدة ساعة زمانية ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام فيصقع ويغرس حربة على

الباب ثم يرفعها بيده فاذا رفعها أغلق الباب وسار حوالى القصر سبع دورات فاذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين والفراشين المقدم ذكرهم وانصرف المؤذنون الى خزائنهم هناك وترمى السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين فينقطع المار من ذلك المكان الى أن تضرب التوبة سحرا قرب الفجر فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة * وقال ابن عبد الظاهر درب السلسلة الذى هو الآن الى جانب السيوفيين كانت عنده سلسلة منه الى قبالته تعلق كل يوم من الظهر حتى لا يعبر راكب تحت القصر وهذا الدرب يعرف ببستان الدولة بن الكركندى وهذا الدرب هو المختص بالتقفيزة وهذه التقفيزة أمرها مستظرف لا من قبل الحسن بل من قبل التعجب من العقول ولها خمسة أوقات وهى ليالى العيدين وغرة السنة وغرة شهر رمضان ويوم فتح الخليج وهو أنه يقف راكباً في وسط الزلاقة التي لباب الذهب قبالة الدار القطبية فيخرج اليه السلام من الخليفة ثم يخدم الرهجية ثم يصعد على كندرة باب الزهومة وقدامه دواب المظلة يمنة ويسرة والرهجية تخدم وأرباب الضوء ومستخدمو الطرق على السلسلة فاذا كان الطرف وصلوا اليه واجتمعت الرهجية كلهم وركب فرسا وعليه ثياب حسنة وكشف عن راياته وأخذ بيده رمحا واجتمعت الرهجية حوله ويعبر مشورا وأولئك خلفه بالصراخ والصياح بشعار الامام ثم يسير بذلك الجمع وخيل المظلة الى أبواب القصر فيقف عند كل باب تخدم الرهجية الى أن يعودوا الى باب الذهب ثم الى دار الوزارة للهناء فلم يزالوا كذلك الى ولاية ابن الكركندى فبطلت هذه السنة فى الايام الآمرية وصاحب التقفيزة ممن وصل آباؤه صحبة المعز لدين الله من بلاد المغرب فكانت هذه سنتهم

(ذكر الدار المأمونية)

وكان بجوار درب السلسلة الدار المأمونية وهي المدرسة السيوفية وكانت هذه الدار سكن المأمون بن البطائحي وعرفت قديما بقوام الدولة حبوب ثم جددها المأمون محمد بن فاتك *(المأمون البطائحي)* هو أبو عبد الله محمد ابن الامير نور الدولة أبي شجاع فاتك ابن الامير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصرى اتصل بخدمة الافضل بن أمير الجيوش في شهر شوال سنة احدى وخمسمائة عند ما تغير على تاج المعالى مختار الذى كان اصطنعه ونخم أمره وسلم اليه خزائن أمواله وكسواته وسلم ما كان بيده من الخدمة لمحمد بن فاتك فتصرف فيها وقرر له الافضل ما كان باسم مختار من العين خاصة دون الاقطاع وهو مائة دينار في كل شهر وثلاثون دينارا عن جارى الخزائن مضافا الى الاصناف الراتبة مياومة ومشاهرة ومسانهة فحسن عند الافضل موقع خدمته فاعتمد عليه وسلم له جميع أموره وصرفه في كل أحواله فلما كثر عليه الشغل استعان باخويه أبي تراب حيدرة وأبي الفضل

جعفر فأطلق الافضل لهما ما وسع به عليهما من المياومة والمشاهرة والمسانهة ونعته الافضل بالقائد فصار يخاطب بالقائد ويكاتب به وصار عنده بمنزلة الاستادار فلما قتل الافضل ليلة عيد الفطر من سنة خمس عشرة وخمسمائة قام القائد أبو عبد الله بن فاتك لخدمة الخليفة الآمر باحكام الله وأطلعه على أموال الافضل وبالغ في مناصحته حتى لقد اتهم أنه هو الذى دبر في قتل الافضل باشارة الخليفة فخلع عليه الآمر في مستهل ذى القعدة بمجلس اللعبة من القصر وهو المجلس الذى يجلس فيه الخليفة ولم يخلع قبله على أحد فيه وحل المنطقة من وسطه وخلع على ولده وحل منطقته وخلع على اخوته واستمر تنفيذ الامور اليه الى أن استهل ذو الحجة ففي يوم الجمعة ثانيه خلع عليه من الملابس الخاص في فردكم مجلس اللعبة طوق ذهب مرصع وسيف ذهب كذلك وسلم على الخليفة وتقدم الامر للامراء وكافة الاستاذين المحنكين بالخروج بين يديه وأن يركب من المكان الذى كان الافضل يركب منه ومشى في ركابه القواد على عادة من تقدمه وخرج بتشريف الوزارة ودخل من باب العيد راكبا ووصل الى داره فضاعف الرسوم وأطلق الهبات فلما كان يوم الاثنين خامسه اجتمع الامراء بين يدى الخليفة وأحضر السجل في لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة له من يده فقبله وسلمه لزمام القصر فأمره الخليفة بالجلوس الى جانبه عن يمينه وقرئ السجل على باب المجلس وهو أول سجل قرئ هناك وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان ورسم للشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست أن ينقل نسبة الامراء والمحنكين من الآمريّ الى المأمونيّ وكذا الناس أجمع ولم يكن أحد ينتسب الى الافضل ولا لامير الجيوش وقدمت له الدواة فعلم في مجلس الخليفة ونعت بالسيد الاجل المأمون تاج الخلافة ووجيه الملك فخر الصنائع ذخر أمير المؤمنين عز الاسلام فخر الانام نظام الدين أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الانام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وكان يجلس بداره في يومي الاحد والاربعاء للراحة والنفقة في العسكر البساطية الى الظهر ثم يرفع النفقة ويحط السماط ويجلس بعد العصر والكتاب بين يديه فينفق في الراجل الى آخر النهار وفي يوم الجمعة يطلق للمقرئين بحضرته خمسة دنانير ولكل من هو مستمر القراءة على بابه من الضعفاء والاجراء مما هو ثابت بأسمائهم خمسمائة درهم ولبقية الضعفاء والمساكين خمسمائة درهم أخرى فاذا توجه يوم الجمعة الى القرافة يكون المبلغ المذكور مستقرا لاربابه ولم يزل الى ليلة السبت الرابع من رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض الآمر المذكور عليه وعلى اخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه وأهله واعتقله ثم صلبه مع اخوته في سنة اثنتين وعشرين * قيل ان سبب القبض عليه مابلغ الآمر عنه أنه بعث الى الامير جعفر بن المستعلي يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه في الخلافة وكان الذى بلغ الآمر ذلك الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة وبلغه

ايضا عنه أنه سير نجيب الدولة أبا الحسن الى اليمن ليضرب سكة عليها الامام المختار محمد بن نزار وذكر عنه أنه سم شيأ ودفعه لقصاد الخليفة فنم عليه القصاد وكان مولد المأمون في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول كريما واسع الصدر سفاكا للدماء كثير التحرز والتطلع الى معرفة أحوال الناس من العامة والجند فكثر الوشاة في أيامه

(حبس المعونة) وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة وموضعه اليوم قيسارية العنبر قال ابن المأمون في سنة سبع عشرة وخمسمائة تقدم أمر المأمون الى الواليين بمصر والقاهرة باحضار عرفاء السقائين وأخذ الحجج على المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة اليهم ليلا ونهارا وكذلك يعتمد في القربيين وأن يبيتوا على باب كل معونة ومعهم عشرة من الفعلة بالطوارى والمساحي وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما بحكم فقرهم انتهى وكان حبس المعونة هذا يسجن فيه أرباب الجرائم كما هو اليوم السجن المعروف بخزانة شمائل وأما الامراء والاعيان فيسجنون بخزانة البنود كما تقدم ولم يزل هذا الموضع سجنا مدة الدولة الفاطمية ومدة دولة بنى أيوب الى أن عمره الملك المنصور قلاون قيسارية أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ثمانين وستمائة

(ذكر الحسبة ودار العيار)

وكان بجوار حبس المعونة دكة الحسبة ومكانها اليوم يعرف بالابازرة ومكسر الحطب بجوار سوق القصارين والفحامين * قال ابن الطوير وأما الحسبة فان من تسند اليه لايكون الا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لانها خدمة دينية وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم وله الجلوس بجامعي القاهرة ومصر يوما بعد يوم ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزاره وكذلك الطباخون ويتتبعون الطرقات ويمنعون من المضايقة فيها ويلزمون رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسق السلامة وكذلك مع الحمالين على البهائم ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالاكسية ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا كل دلو أربعون رطلا وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهى زرق وينذرون معلمى المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا في مقتل وكذلك معلمو العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ويقفون على من يكون سيئ المعاملة فينهونه بالردع والادب وينظرون المكاييل والموازين وللمحتسب النظر في دار العيار ويخلع عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ولا يحال بينه وبين مصلحة اذا رآها والولاة تشد معه اذا احتاج الى ذلك وجاريه ثلاثون دينارا في كل شهر انتهى * وكان للعيار مكان يعرف بدار

العيار تعير فيـه الموازين بأسرها وجميع الصنج وكان ينفق على هـذه الدار من الديوان السلطاني فيما تحتاج اليه من الاصناف كالنحاس والحديد والخشب والزجاج وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم ويحضر المحتسب أونائبـه الى هذه الدار ليعير المعمول فيها بحضوره فان صح ذلك أمضاه والا أمر باعادة عمله حتى يصح وكان بهذه الدار أمثـلة يصحح بها العيار فلا تباع الصنج والموازين والاكيال الا بهذه الدار ويحضر جميع الباعة الى هذه الدار باسـتدعاء المحتسب لهم ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم فتعير في كل قايل فان وجد فيها الناقص استهلك وأخذ من صاحبه لهذه الدار وألزم بشراء نظيره ممـا هو محرر بهذه الدار والقيام بثمنـه ثم سومح الناس وصار يلزم من يظهر في ميزانه أو صنجه خلل باصلاح مافيها من فساد فقط والقيام باجرته فقط وما زالت هـذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية فلما استولى صلاح الدين على السلطنة أقر هـذه الدار وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا في أوقاف السور من الرباع والنواحي الجارية في ديوان الاسوار وما زالت هذه الدار باقية

(اصطبل الجميزة) وكان بجوار القصر الغربي من قبليه اصطبل الجميزة من جانب باب الساباط الذى هو الآن باب سر المـارستان المنصورى وقيـل له اصطبل الجميزة من أجل أنه كان فى وسطه شجرة جميز كبيرة وكان موضع هذا الاصطبل تجاه من يخرج من باب الساباط فينزل من الحدرة التي هى الآن تجاه باب سر المـارستان المتوصـل منها الى حارة زويلة ويمتد فيما حاذاه يسارك اذا وقفت بأول هذه الحدرة حيث الطاحون الكبيرة التى هي الآن فى أوقاف المارستان وما وراءها ويحاذيها الى الموضع المعروف اليوم بالبندقانيين وكانت بئره تعرف ببئر زويلة وعليها ساقية تنقل الماء لشرب الخيول وموضع هذا البئر اليوم قيسارية تعرف بقيسارية يونس تجاه درب الانجب وقد شاهدت هذه البئر لمـا أنشأ الامير يونس الدوادار هذه القيسارية والربع علوها فرأيت بئرا كبيرة جدا وقد عقد على فوهتها عقد ركب فوقه بعض القيسارية وترك منها شيء ومنها الآن الناس تسـتقى بالدلاء وما زال هذا الاصطبل باقياً الى أن انقرضت الدولة الفاطمية فحـكر وبنى في مكانه الآدر التي هى موجودة الآن وحكره جار فى أوقاف الصـلاح الأزبكي وقد تقدم ذكر هذا الاصطبل عند ذكر اصطبل الطارمة فانظر رسومه هناك

(دار الديباج) وكان بجوار اصطبل الطارمة من غربيه دار الديباج وهي حيث المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب وما جاورها من جانبيها وما خلفها الى الوزيرية وكانت هى دار الوزارة القـديمة وأول من أنشأها الوزير يعقوب بن يونس بن كلس وزير العزيز بالله ثم سكنها الوزير الناصر للدين قاضى القضاة وداعي الدعاة علم المجد أبو محمد الحسن بن

عليّ بن عبد الرحمن البازوري وما زالت سكن الوزراء الى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا ووزره المستنصر وصار وزيرا مستبدا فأنشأ داره بحارة برجوان وسكنها وسكن من بعده ابنه الافضل بن أمير الجيوش بدار القباب التي عرفت بدار الوزارة الكبرى وصارت هـذه الدار تعرف بدار الديباج لانه يعمل فيها الحرير الديباج ويتولاها الاماثل والاعيان فممن وليها أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح وخزائن السروج والصناعات فلما انقرضت الدولة الفاطمية بنى الناس في مكان دار الديباج المدرسة السيفية وماوراءها من المواضع التى تعرف أماكنها اليوم بدرب الحريرى وما جاور هذا الدرب الى المدرسة الصاحبية.وما بجوارها وما هو فى ظهرها فصار يعـرف خط دار الديباج في زمننا بخط سويقة الصاحب

(الاهراء السلطانية) وكانت اهراء الغـلال السلطانية في دولة الخلفاء الفاطميين حيث المواضع التي فيها الآن خزانة شمائل وما وراءها الى قرب الحارة الوزيرية *قال ابن الطوير وأما الاهراء فانها كانت في عدة أماكن بالقاهرة هى اليوم اصطبلات ومناخات وكانت تحتوى على ثلثمائة ألف اردب من الغلات وأكثر من ذلك وكان فيها مخازن يسمى أحدها بغداي وآخر الفول وآخر القرافة ولها الحماة من الامراء والمشارفين من العدول والمراكب واصلة اليها بأصناف الغـلات الى ساحل مصر وساحل المقس والحمـالون يحملون ذلك اليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانية وأكثر ذلك من الوجه القبلي ومنها اطلاق الاقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد وجرايات العبيد السودان بتعريفات وما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفة وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو حتى لاتقارب زبل الدواب ويحمل دقيقها للخاص ومايختص بالجهات في خرائط من شقق حلبية ومن الاهراء تخرج جرايات رجال الاسطول وفيها ماهو قديم يقطع بالمساحى ويخلط فى بعض الجرايات بالجديد بجرايات المذكورين وجرايات السودان ومنها مايستدعي بدار الضيافة لاخباز الرسل ومن يتبعهم ومايعمل من القمح برسم الكعك لزاد الاسطول فلا يفتر مستخدموها من دخل وخرج ولهم جامكية مميزة وجرايات برسم أقواتهم وشعير لدوابهم وما يقبض من الواصلين بالغلال الامايعـاثل العيون المختومة معهم والاذرى وطلب العجز بالنسبة * وذكر ابن المأمون أن غلات الوجـه القبلي كانت تحمل الى الاهراء وأما الاعمال البحرية والبحيرة والجزيرتان والغربية.والكفور والاعمال الشرقيـة فيحمل منها اليسير ويحمل باقيها الى الاسكندرية ودمياط وتنيس ليسير الى ثغر عسقلان وثغر صور وانه كان يسير اليهما في كل سنة مائة وعشرون ألف اردب منها لعسقلان خمسون ألفاً ولصور سبعون ألفاً فيصير هناك ذخيرة ويباع منها عنـد الغنى عنها قال وكان

متحصل الديوان فى كل سنة ألف ألف أردب * وذكر جامع السيرة البازورية أن المتجر كان يقام به للديوان من الغلة وأن الوزير أبا محمد البازورى قال للخليفة المستنصر وهو يومئذ يتقلد وظيفة قاضى القضاة وقد قصر النيل في سنة أربع وأربعين وأربعمائة ولم يكن بالمخازن السلطانية غلال فاشتدت المسغبة بأمير المؤمنين ان المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفي مضرة على المسلمين وربما أقحط السعر من مشتراها ولا يمكن بيعها فتتغير في المخازن وتتلف وانه يقام متجر لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغير فى المخازن ولا انحطاط سعر وهو الصابون والخشب والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك فأمضى الخليفة مارآه واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس وتوسعوا

(ذكر المناظر التى كانت للخلفاء الفاطميين ومواضع نزههم وما كان لهم فيها من أمور جميلة)

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة وكانت لهم عدة متنزهات أيضاً، فمن مناظرهم التى بالقاهرة منظرة الجامع الازهر ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة باب الفتوح ومنظرة البعل ومنظرة التاج والخمس وجوه ومنظرة الصناعة بمصر ودار الملك ومنازل العز والهودج بالروضة ومنظرة بركة الحبش والاندلس بالقرافة وقبة الهواء ومنظرة السكرة وكان من منتزهاتهم كسر خليج أبي المنجا وقصر الورد بالخرقانية وبركة الجب

(منظرة الجامع الازهر) وكان بجوار الجامع الازهر من قبليه منظرة تشرف على الجامع الأزهر يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالى الوقود

(ذكر ليالى الوقود) قال المسبحي فى حوادث شهر رجب من سنة ثمانين وثلثمائة وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم في ليالى الجمع وليلة النصف الى جامع القاهرة يعني الجامع الأزهر عوضاً عن القرافة وزيد فيه في الوقيد على حافات الجامع وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة والاطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد وقدمت اليه سلال الحلوى والطعام وجلس بين يديه القراء وغيرهم والمنشدون والنائحة وأقام الى نصف الليل وانصرف الى داره بعد أن قدم الى من معه أطعمة من عنده وبخرهم * وقال فى شعبان وكان الناس فى كل ليلة جمعة وليلة النصف على مثل ما كانوا عليه في رجب وأزيد وفي ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء وحمل اليهم العزيز بالله الاطعمة والحلوى والبخور فكان جمعاً عظيما * قال وفي شهر رجب

سنة اثنتين وأربعمائة قطع الرسم الجاري من الخبز والحلوى الذي يقام في هذه الثلاثة الأشهر لمن يبيت بجامع القاهرة في ليالي الجمع والانصاف وحضر قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي الى جامع القاهرة ليلة النصف من رجب واجتمع الناس بالقرافة على ماجرت به رسومهم من كثرة اللعب والمزاح * روى الفاكهي في كتاب مكة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يصيح في أهل مكة ويقول ياأهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم فأوضحوا لحجاجكم لحاج بيت الله واحرسوهم ليلة هلال المحرم حتى يصبحوا وكان الامر على ذلك بمكة في هذه الليلة حتى كانت ولاية عبد الله بن محمد بن داود على مكة فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب فيحرسوا عمار أهل اليمن ففعلوا ذلك في ولايته ثم تركوه بعد * وفي ليلة النصف من رجب سنة خمس عشرة وأربعمائة حضر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم علي بن الحاكم بأمر الله ومعه السيدات وخدم الخاصة وغيرهم وسائر العامة والرعايا فجلس الخليفة في المنظرة وكان في ليلة شعبان أيضاً اجتماع لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد وكان مشهداً عظيماً بعد عهد الناس بمثله لان الحاكم بأمر الله كان أبطل ذلك فانقطع عمله * وقال ابن المأمون ولما كانت ليلة مستهل رجب يعني من سنة ست عشرة وخمسمائة عملت الاسمطة الجاري بها العادة وجلس الخليفة الآمر بأحكام الله عليها والاجل المأمون الوزير ومن جرت عادته بين يديه وأظهر الخليفة من المسرة والانشراح مالم تجر به عادته وبالغ في شكر وزيره واطرائه وقال قد أعدت لدولتي بهجتها وجددت فيها من المحاسن مالم يكن وقد أخذت الايام نصيبها من ذلك وبقيت الليالي وقد كان بها مواسم قد زال حكمها وكان فيها توسعة وبر ونفقات وهي ليالي الوقود الاربع وقد آن وقتهن فأشتهي نظرهن فامتثل الامر وتقدم بأن يحمل الى القاضي خمسون ديناراً يصرفها في ثمن الشمع وأن يعتمد الركوب في الاربع الليالي وهي ليلة مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه وأن يتقدم الى جميع الشهود بأن يركبوا بصحبته وأن يطلق للجوامع والمساجد توسعة في الزيت برسم الوقود ويتقدم الى متولي بيت المال بأن يهتم برسم هذه الليالي من أصناف الحلاوات مما يجب برسم القصور ودار الوزارة خاصة * وقال في سنة سبع عشرة وخمسمائة وفي الليلة التي صبيحتها مستهل رجب حضر القاضي أبو الحجاج يوسف بن أيوب المغربي ووقع له بما استجد اطلاقه في العام الماضي وهو خمسون ديناراً من بيت المال لابتياع الشمع برسم أول ليلة من رجب واستدعى ماهو برسم التعبيتين احداهما للمقصورة والاخرى للدار المأمونية بحكم الصيام من مستهل رجب الى سلخ رمضان مايصنع في دار الفطرة خشكنانج صغير وبسندود في كل يوم قنطار سكر ومثقالان مسكا وديناران مؤنة وكان يطلق في أربع ليالي الوقود برسم الجوامع الستة

الأزهر والاقمر والانور بالقاهرة والطولونى والعتيق بمصر وجامع القرافة والمشاهد التى تضمنت الاعضاء الشريفة وبعض المساجد التى لاربابها وجاهة جملة كبيرة من الزيت الطيب ويخص بجامع راشدة وجامع ساحل الغلة بمصر والجامع بالمقس يسير قال ولقد حدثنى القاضى المكين بن حيدرة وهو من أعيان الشهود أن من جملة الخدم التى كانت بيده مشارفة الجامع العتيق وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدة الى أن يكملوا ثمانية عشر ألف فتيلة وأن المطلق برسمه خاصة في كل ليلة برسم وقوده أحد عشر قنطارا ونصف قنطار زيت طيب وذكر ركوب القاضى والشهود في الليلة المذكورة على جارى العادة قال وتوجه الوزير المأمون يوم الجمعة ثانى الشهر بموكبه الى مشهد السيدة نفيسة وما بعده من المشاهد ثم الى جامع القرافة وبعده الى الجامع العتيق بمصر وقد عم معروفه جميع الضعفاء وقومة المساجد والمشاهد وصلى الجمعة وعند انقضاء الصلاة أحضر اليه الشريف الخطيب المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه فوقع باطلاق ألف دينار من ماله وأن يصاغ عليه فوق حلية الفضة حلية ذهب وكتب عليه اسمه وفى الخامس عشر من الشهر المذكور ليلة الوقود جرى الحال فى ركوب القاضى وشهوده على الترتيب الذى تقدم في أول الشهر ولما وصل الى الجامع وجده قد عبى فى الرواق الذى عن يمين الخارج منه سماط كعك وخشكنانج وحلوى فجلس عليه بشهوده ونهبه الفقراء والمساكين وتوجه بعده الى ما سواه من جامع القرافة وغيره فوجد في رواق الجامع المذكور سماطا مثل السماط المذكور فاعتمد فيه على ما ذكره وله أيضا رسم صدقة في هذا النصف للفقراء وأهل الربط مما يفرقه القاضي عشرة دنانير يفرقها القاضى * وقال ابن الطوير اذا مضى النصف من جمادى الآخرة وكان عدده عندهم تسعة وعشرين يوما أمر أن يسبك في خزائن دار أفتكين ستون شمعة وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى وحملت الى دار قاضى القضاة لركوب ليلة مستهل رجب فاذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم اهتم الشهود أيضا فمنهم من يركب بثلاث شمعات الى ثنتين الى واحدة ويمضى أهل مصر منهم الى القاهرة فيصلون المغرب في الجوامع والمساجد ثم ينتظرون ركوب القاضى فيركب من داره بهيئته وأمامه الشمع المحمول اليه موقودا مع المندوبين لذلك من الفراشين من الطبقة السفلى من كل جانب ثلاثون شمعة وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ وينتدب في حجبته ثلاثة من نواب الباب وعشرة من الحجاب خارجا عن حجاب الحكم المستقرين وعدتهم خمسة في زى الامراء وفي ركابه القراء يطربون بالقراءة والشهود وراءه على الترتيب في جلوسهم بمجلس الحكم الاقدم فالاقدم وحوالى كل واحد ماله من شمع فيشقون من اول شارع فيه دار

القاضى الى بين القصرين وقد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم ما لا يحصى كثرة رجالا ونساء وصبيانا بحيث لا يعرف الرئيس من المرءوس وهو مارّ الى أن يأتي هو والشهود باب الزمرذ من أبواب القصر فى الرحبة الوسيعة تحت المنظرة العالية في السمة العظيمة من الرحبة المذكورة وهى التي تقابل درب قراصيا فيحضر صاحب الباب ووالى القاهرة والقراء والخطباء كما شرحنا في المواليد الستة ويترجلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ويبين شخصه ويحضر بين يديه الخطباء الثلاثة ويخطبون كالمواليد ويذكرون استهلال رجب وأن هذا الركوب علامته ثم يسلم الاستاذ من الطاقة الاخرى استفتاحا وانصرافا كما ذكرنا ثم يركب الناس الى دار الوزارة فيدخل القاضي والشهود الى الوزير فيجلس لهم في مجلسه ويسلمون عليه ويخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة ويدعون له ويخرجون عنه فيشق القاضي والجماعة القاهرة وينزل على باب كل جامع بها ويصلى ركعتين ثم يخرج من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام ووالى القاهرة في خدمته اليوم مستكثرا من الاعوان والحفظة في الطرقات الى جامع ابن طولون فيدخل القاضى اليه للصلاة فيجد والى مصر عنده للقاء القوم وخدمتهم فيدخل المشاهد التى فى طريقه أيضا فاذا وصل الى باب مصر ترتب كما ترتب في القاهرة وصار شاقا الشارع الأعظم الى باب الجامع من الزيادة التى يحكم فيها فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقا فيه وكان مليحا فى شكله وتعليقه غير منافر في الطول والعرض واسع التدوير فيه عشر مناطق في كل منطقة مائة وعشرون بزاقة وفيه سروات بارزة مثل النخيل في كل واحدة عدة بزاقات تقرب عدة ذلك من ثلثمائة ومعاق بداثر سفله مائة قنديل نجومية ويخرج له الحاكم فان كان ساكنا بمصر استقر بها وان كان ساكنا بالقاهرة وقف له والى القاهرة بجامع ابن طولون فيودعه والى مصر ويسير معه والى القاهرة الى داره فاذا مضى من رجب أربعة عشر يوما ركب ليلة الخامس عشر كذلك وفيه زيادة طلوعه بعد صلاته بجامع مصر الى القرافة ليصلى فى جامعها والناس يجتمعون له لينظروه ومن معه في كل مكان ولا يملون من ذلك فاذا انقضت هذه الليلة استدعي مثمنه الشمع ليكمل بعضه حتى يركب به في أول شعبان ونصبه على الهيئة المذكورة والاسواق معمورة بالحلواء ويتفرغ الناس لذلك هذه الاربع الليالى

(منظرة اللؤلؤة) وكان للخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بقصر اللؤلؤة وبمنظرة اللؤلؤة على الخليج بالقرب من باب القنطرة وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة وهو أحد منتزهات الدنيا المذكورة فانه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ويطل من غربيه على الخليج وكان غربي الخليج اذ ذاك ليس فيه من المباني شيء وانما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض

الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبلها ويرى بحر النيل من وراء البساتين * قال ابن ميسر هذه المنظرة بناها العزيز بالله ولما ولي برجوان وزارة الحاكم بأمر الله بعد أمين الدولة ابن عمار الكتامى سكن بمنظرة اللؤلؤة في جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة الى أن قتل وفي السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين واربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها فهدمت ونهبت وبيع ما فيها * وقال المسبحى وفي سادس عشرى ربيع الآخر يعني سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم الموضع المعروف باللؤلؤة على الخليج موازاة المقس وأمر بنهب أنقاضه فنهبت كلها ثم قبض على من وجد عنده شيء من نهب أنقاض اللؤلؤة واعتقلوا * وقال ابن المأمون ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة والمقام فيها مدة النيل على الحكم الاول يعني قبل وزارة أمير الجيوش بدر وابنه الافضل أمر بازالة ما لم تكن العادة جارية به من مضايقها بالبناء ولما بدت زيادة النيل وعول الخليفة الآمر باحكام الله على السكن باللؤلؤة أمر الاجل الوزير المأمون بأخذ جماعة الفراشين الموقوفين برسم خدمتها بالمبيت بها على سبيل الحراسة لا على سبيل السكن بها وعند ما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر باخراج الخيم وعند ما قارب النيل الوفاء تحول الخليفة في الليل من قصوره بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته الى اللؤلؤة وتحول المأمون الى دار الذهب وأسكن الشيخ ابا الحسن محمد بن أبي أسامة الغزالة على شاطئ الخليج وسكن حسام الملك حاجب الباب داره على الخليج وأمر متولي المعونة أن يكشف الادر المطلة على الخليج قبلي اللؤلؤة ولا يمكن أحدا من السكن في شيء منها الا من كان له ملك ومن كان ساكنا بالاجرة ينقل ويقام بالاجرة لرب الملك ليسكن بها حواشي الخليفة مدة سنة وقرر من التوسعة في النفقات وما يكون برسم المستخدمين في المبيتات ما يختص برواتب القصور مدة المقام في اللؤلؤة في أيام النيل مياومة من الغنم والحيوان وجميع الاصناف وهي جملة كبيرة وأمر متولي الباب أن يندب في كل يوم خروف شواء وقنطار خبز وكذلك جميع الدروب من يحرسها ويطلق لهم برسم الغداء مثل ذلك وتكون نوبة دائرة بينهم وبقية مستخدمي الركاب ملازمون لابواب القصر على رسمهم وفي يومي الركوب يجتمعون للخدمة الا من هو في نوبته فيما رسم له وأمر متولي زمام المماليك الخاص أن يكونوا باجمعهم حيث يكون الخليفة وفي الليل يبيت منهم عدة برسم الخدمة تحت اللؤلؤة ولهم في كل يوم مثل ما تقدم والرهجية تقسم قسمين أحدهما على أبواب القصور والآخر على ابواب اللؤلؤة وأصحاب الضوء مثل ذلك وقرر للجماعة المقدم ذكرها في الليل عن رسم المبيت وعن ثمن الوقود ما يخرج اليهم مختوما بأسماء كل منهم ويعرضهم متولي الباب في كل ليلة بنفسه عند رواحه وعوده وكذلك ما يختص بدار الذهب من الحرس عليها من

باب سعادة ومن باب الخوخة ولهم رسوم كما تقدم لغيرهم والمتفرجون يخرجون كل ليلة للنزهة عليهم ويقيمون الى بعض الليل حتى ينصرفوا من غير خروج في شيء من ذلك عما يوجبه الشرع وفي يومي السلام يمضي الخليفة من قصوره بحيث لا يراه الا استاذوه وخواصه الى قاعة الذهب من القصر الكبير الشرقي ويحضر الوزير على عادته اليه فيكون السلام بها على مستمر العادة والاسمطة بها في يومي الاثنين والخميس وتكون الركوبات من اللؤلؤة في يومي السبت والثلاثاء الى المتنزهات * وقال في سنة سبع عشرة وخمسمائة ولما جرى النيل وبلغ خمسة عشر ذراعا أمر باخراج الخيام والمضارب الديبقي والديباج وتحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة بحاشيته وأطلقت التوسعة في كل يوم لما يخص الخاص والجهات والاستاذين من جميع الاصناف وانضاف اليها ما يطلق كل ليلة عينا وورقا وأطعمة للبياتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار والسهر في طول الليل من باب القنطرة بمادار الى مسجد اليمونة من الترين من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب كل طائفة بنقيبها والعرض من متولي الباب واقع بالعدة في طرفي كل ليلة ولا يمكن بعضهم بعضا من المنام والرهجية تخدم على الدوام وتحول الوزير المأمون الى دار الذهب وأطلقت التوسعة والحال في اطلاق الاسمطة لهم في الليل والنهار مستمر *وقال ابن عبد الظاهر المنظرة المعروفة باللؤلؤة على بر الخليج بناها الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم يعني بعد ما هدمها ابوه الحاكم وكانت معدة لنزهة الخلفاء وكان التوصل اليها من القصر يعني القصر الغربي من باب مراد وأظنه فيما ذكره لي علم الدين بن مماتي الوراق أنه شاهد في كتب دار ابن كوخيا العتيقة أنه بابها وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل ولما حصل التوهم من النزارية والحشيشية قبل تصرفهم لا سيما لصغر سن الخليفة وقلة حواشيه أمر بسد باب مراد المذكور الذي يتوصل منه الى الكافوري والى اللؤلؤة وأسكن في بعضها فراشين لحفظها فاذا كان في صبيحة كسر الخليج استؤذن الافضل بن أمير الجيوش في فتح باب مراد الذي يتوصل منه الى اللؤلؤة وغيرها فيفتح ويروح الخليفة ليتفرج هو وأهله من النساء ثم يعود ويسد الباب هذا الى آخر أيام الافضل فلما راجع الوزير المأمون في ذلك سارع اليه فأصلحت وأزيل ما كان أنشئ قبالتها على ما سيذكر في مكانه ان شاء الله تعالى اهـ ومات بقصر اللؤلؤة من خلفاء الفاطميين الآمر بأحكام الله والحافظ لدين الله والفائز وحملوا الى القصر الكبير الشرقي من السراديب ولما قدم نجم الدين أيوب بن شادي من الشام على ولده صلاح الدين يوسف وخرج الخليفة العاضد لدين الله الى لقائه بصحراء الهليلج بآخر الحسينية عند مسجد تبر أنزل بمنظرة اللؤلؤة فسكنها حتى مات في سنة سبع وستين وخمسمائة واتفق أن حضر يوما عنده الفقيه نجم الدين عمارة اليمني والرضي أبو سالم يحيي الاحدب بن

أبي حصيبة الشاعر في قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد فأنشد ابن أبي حصيبة نجم الدين أيوب فقال

يا مالك الارض لا أرضى له طرفا * منها وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هـذي الدار تسكنها * وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها * فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صـدفا والدار لؤلؤة * وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فقال الفقيه عمارة يرد عليه

أثمت يا من هجا السادات والخلفا * وقلت ما قلته في ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة * والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وانمـا هي دار حل جوهرهم * فيها وشف فاسناها الذي وصفا
فقال لؤلؤة عجبا ببهجتهـا * وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات اذ سكنوا * فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعـرفه * من البرية لا كل من عرفا
لولا تجسمهم فيه لكان على * ضعف البصائر للابصار مختطفا
فالكلب يا كلب اسنى منك مكرمة * لان فيـه حفاظا دائمـا ووفا

فلله در عمارة لقد قام بحق الوفاء ووفى بحسن الحفاظ كما هي عادته لا جرم أنه قتل في واجب من يهوى كما هي سنة المحبين فالله يرحمه ويتجاوز عنه

* (منظرة الغزالة) * وكان بجوار منظرة اللؤلؤة منظرة تعرف بالغزالة على شاطئ الخليج تقابل حمام ابن قرقة وقد خربت هـذه المنظرة أيضاً وموضعها الآن تجاه باب جامع ابن المغربي الذي من ناحية الخليج وقد خربت أيضاً حمام ابن قرقة وصار موضعها فندقا بجوار حمام السلطان التي هناك يعرف بفندق عماد وموضع منظرة الغزالة اليوم ربع يعرف بربع غزالة الى جانب قنطرة الموسكي في الحد الشرقي وكان يسكن بهذه المنظرة الامير أبو القاسم ابن المستنصر والد الحافظ لدين الله ثم سكنها أبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست وكان بعد ذلك ينزلها من يتولى الخدمة في الطراز أيام الخلفاء * قال ابن المأمون لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة وأسكن الشيخ أبا الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست الغزالة التي على شاطئ الخليج ولم يسكن أحد فيها قبله ممن يجري مجراه ولا كانت الاسكن الامير أبي القاسم ولد المستنصر والد الامام الحافظ قال وأما ما يذكره الطراز فالحكم فيه مثل الاستيمار والشائع فيها أنها كانت تشتمل في الايام الافضلية على أحد وثلاثين ألف دينار فمن ذلك السلف خاصـة خمسة عشر ألف دينار قيمة الذهب العراقي والمصري ستة عشر

ألف دينار ثم اشتملت في الايام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار وتضاعفت في الايام الآمرية * وقال ابن الطوير الخدمة في الطراز وينعت بالطراز الشريف ولا يتولاه الا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ومقامه بدمياط وتنيس وغيرها وجاريه أمير الجواري وبين يديه من المندوبين مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى وله عشاري دعماس مجرد معه وثلاثة مراكب من الدكاسات ولها رؤساء ونواتيه لا يبرحون ونفقاتهم جارية من مال الديوان فاذا وصل بالاستعمالات الخاصة التي منها المظلة وبدلتها والبدنة واللباس الخاص الجمي وغيره هيئ بكرامة عظيمة وندب له دابة من مراكيب الخليفة لا تزال تحته حتى يعود الى خدمته وينزل في الغزالة على شاطيء الخليج وكانت من المناظر السلطانية وجددها شجاع بن شاور ولو كان لصاحب الطراز في القاهرة عشرة دور لا يمكن من نزوله الا بالغزالة وتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيتمثل بين يدى الخليفة بعد حمل الاسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء بيد فراشى الخاص في دار الخليفة مكان سكنه ولهذا حرمة عظيمة ولا سيما اذا وافق استعماله غرضهم فاذا انقضى عرض ذلك بالمدرج الذى يحضره سلم لمستخدم الكسوات وخلع عليه بين يدى الخليفة باطنا ولا يخلع على أحد كذلك سواه ثم ينكفئ الى مكانه وله في بعض الاوقات التي لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك غير غريب منه ولا يمكن أن يكون الا ولداً أو أخاً لان الرتبة عظيمة والمطلق له من الجامكية في الشهر سبعون ديناراً ولهذا النائب عشرون ديناراً لانه يتولى عنه اذا وصل بنفسه ويقوم اذا غاب في الاستعمال مقامه ومن أدواته أنه اذا عبى ذلك في الاسفاط استدعى والى ذلك المكان ليشاهده عند ذلك ويكون الناس كلهم قياما لحلول نفس المظلة وما يليها من خاص الخليفة في مجلس دار الطراز وهو جالس في مرتبته والوالى واقف على رأسه خدمة لذلك وهذا من رسوم خدمته وميزتها

* (دار الذهب) * وكان بجوار الغزالة دار الذهب وموضعها الآن على يسرة الخارج من باب الخوخة فيما بينه وبين باب سعادة وكانت مطلة على الخليج وفي مكانها اليوم دار تعرف ببهادر الاعسر وبقى منها عقد بجوار دار الاعسر يعرف الآن بقبو الذهب من خطة بين السورين * قال ابن المأمون لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة ثم أحضر الوزير المأمون وكيله أبا البركات محمد بن عثمان وأمره أن يمضى الى دارى الفلك والذهب اللتين على شاطيء الخليج فالدار الاولى التى من حيز باب الخوخة بناها فلك الملك وذكر أنه من الاستاذين الحاكمية ولم تكن تعرف الابدار الفلك ولما بنى الافضل ابن أمير الجيوش الدار الملاصقة لها التى من حيز باب سعادة وسماها دار الذهب غلب الاسم

على الدارين ويصلح ما فسد منهما ويضيف اليهما دار الشابورة وذكر أن هذه الدار لم تسم بهذا الاسم الا لأن جزأ منها بيع في أيام الشدة في زمن المستنصر بشابورة قال وعند ماقارب النيل الوفاء تحول الخليفة في الليل من قصوره بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته الى اللؤلؤة وتحول الاجل المأمون بالاجلاء أولاده الى دار الذهب وما أضيف اليها * وقال ابن عبد الظاهر دار الذهب بناها الافضل بن أمير الجيوش وكانت عادة الافضل أن يستريح بها اذا كان الخليفة باللؤلؤة يكون هو بدار الذهب وكذلك كان المأمون من بعده وكان حرس دار الذهب يسلم للوزيرية من باب سعادة يسلم لهم ومن باب الخوخة للمصامدة أرباب الشعور وصبيان الخاص وكان المقرر لهم فى كل يوم سماطين أحدهما بقاعة الفلك للمماليك الخاص والحاشية وأرباب الرسوم والآخر على باب الدار برسم المصامدة حتى انه من اجتاز ورأى أنه يجلس معهم على السماط لا يمنع والضعفاء والصعاليك يقصدون بعدهم وفي أول الليل بمثل ذلك ولكل منهم رسم لجميع من يبيت من أرباب الضوء الى الاعلى

* (منظرة السكرة) * وكان من جملة مناظر الخلفاء منظرة تعرف بمنظرة السكرة فى بر الخليج الغربي يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج وكان لها بستان عظيم بناها العزيز بالله ابن المعز وقد دثرت هذه المنظرة ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذي يقال له اليوم المريس قريبا من قنطرة السد وكانت السكرة من جنات الدنيا المزخرفة وفيها عدة أماكن معدة لنزول الوزير وغيره من الاستاذين

* (ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج) *

قال ابن زولاق في كتاب سيرة المعز لدين الله وفي ذى القعدة يعني من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وهي السنة التي قدم فيها الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة من بلاد المغرب ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة فكسر بين يديه ثم سار على شاطئ النيل حتى بلغ الى بني وائل ومر على سطح الجرف فى موكب عظيم وخلفه وجوه أهل الدولة ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر يسير معه ويعرفه بالمواضع التي يجتاز عليها ونجمت له الرعية بالدعاء ثم عطف على بركة الحبش ثم على الصحراء على الخندق الذى حفره القائد جوهر ومر على قبر كافور وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طبا طبا الحسنى وعرفه به ثم عاد الى قصره * وذكر الامير المسبحي في تاريخه الكبير ركوب العزيز بالله بن المعز وركوب الحاكم بأمر الله بن العزيز وركوب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم في كل سنة لفتح الخليج * وقال ابن المأمون في سنة ست عشرة وخمسمائة وعند مابلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر باخراج الخيم وأن يضرب الثوب الكبير الافضلي المعروف بالقاتول وهو أعظم مافي الحاصل بأربعة دهاليز

وأربع قاعات خارجا عن القاعة الكبيرة ومساحته على ماذكر ألف ألف ذراع وأربعمائة ذراع بالذراع الكبير خارجا عن سرادقه وعمود القاعة الكبيرة منه ارتفاعه خمسون ذراعا ولما كمل استعماله في أيام الافضل ونصب تأذى منه جماعة ومات رجلان فسمى بالقاتول لاجل ذلك وما زال لايضرب الا بحضور المهندسين وتنصب له أساقيل عدة بأخشاب كثيرة والمستخدمون يكرهون ضربه ويرغبون في ضرب أحد الثوبين الجيوشيين وان كانا عظيمين الا انهما لايصلان بجملتهما الى مقايسته ولا مؤنته ولاصنعته وأقام هذا الثوب في الاستعمال عدة سنين مع جمع الصناع عليه وما يضرب منه سوى القاعة الكبيرة لاغير وأربعة الدهاليز وبعض السرادق الذى هو سور عليه لضيق المكان الذى يضرب فيه وكونه لايسعه بجملته قال ووصلت كسوة موسم فتح الخليج وهي مايختص بالخليفة وأخيه وبعض جهاته والوزير * فأما مايختص بالخليفة خاصة فبدلة شرحها بدنة طميم منديل سلفه مائة وعشرون دينارا وأحد طرفيه ثلاثة عشر ذراعا ذهبا عراقيا دمجا لوحا واحدا والثاني ثلاثة أذرع سلفه أربعة وعشرون دينارا ثوب طميم سلفه خمسون دينارا والذهب الذى في الثوب والمنديل والحنك ألف دينار وخمسة دنانير فتكون جملتها بالسلف ألف دينار ومائة وخمسة وسبعين دينارا شاشية طميم للسلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا فتكون جملة سلفها وقيمة ذهبها ثمانية دنانير منديل سلام سلفه ديناران وسبعون قصبة قيمته كذلك وسط برسم المنديل بخوص ذهب سلفه اثنا عشر دينارا وسبعون قصبة قيمة ذلك عشرون دينارا شقة دبيقى وسطانى حريرى السلف اثناعشر دينارا غلالة دبيقى حريرى السلف عشرة دنانير منديل كم مذهب السلف خمسة دنانير ومائتا قصبة وأربع قصبات ذهبا عراقيا قيمة ذلك خمسة وعشرون دينارا منديل كم ثان حريرى خمسة دنانير حجره أربعة دنانير عرضي لفافة خاص خمسة دنانير وستة عشر مثقالا ذهبا مصريا فتكون سلفه وذهبه خمسة وعشرين دينارا عرضي ثان برسم تغطية التخت دينار واحد ونصف تخت ثان ضمنه بدلة خاص حريرى برسم العود من السكرة شرحها منديل حريرى سلفه ستون دينارا وسط شرب رسمه اثنا عشر دينارا شقة دبيقى وكم عشرون دينارا شقة وسطانى اثناعشر دينارا غلالة خمسة عشر دينارا غلالة عشرة دنانير منديل سلام ديناران منديل كم خمسة دنانير منديل كم ثان أيضاً خمسة دنانير شاشية حريرى ديناران حجره أربعة دنانير عرضي لفافة خمسة دنانير عرضي ثان برسم لفافة التخت دينار واحد ونصف * قال ورأيت شاهدا أن بقيمة كل حلة من هذه الحلل وسلفها اذا كانت حريرى ثلثمائة وستة دنانير واذا كانت مذهبة ألف دينار واختصر مابإسم أبي الفضل جعفر أخي الخليفة وأربع جهات * وأما مايختص بالوزير فبدلة مذهبة شرحها منديل سلفه سبعون دينارا وخمسمائة وسبعون قصبة عراقي جملة سلفه وذهبه

مائه وأربعة عشر دينارا شقة ديبقي وكم السالف ستة عشر دينارا وثمانية وعشرون مثقالا ذهباً عالياً تكون جملة ذلك خمسين دينارا نصف شقة ديبقي وسطاني اثنا عشر دينارا ونصف شقة وسطاني برسم العود ثلاثة دنانير غلالة ديبقي سبعة دنانير ونصف شقة برسم الغلالة ديناران ونصف منديل كم سبعة دنانير واثنا عشر مثقالا ذهباً تكون قيمته تسعة عشر دينارا حجره ثلاثة دنانير عرضي أربعة دنانير وأحد عشر مثقالا تكون سلفه وذهبه سبعة عشر دينارا ثم ذكر بعد ذلك مايكون لجهة الوزير وما يكون برسم صبيان الحمام وما يفصل برسم المماليك الخاص صبيان الرايات والرماح خمسمائة شقة سقلاطون داري تكون قيمتها سبعمائة وخمسين قباء يحمل منها برسم غلمان الوزير مائة قباء ويفرق جميع ذلك قال ولم يكن لاحد من الاصحاب والحواشي وغيرهم في هذا الموسم شيء فيذكر بل لهم من الهبات العين والرسوم الخارجة عن ذلك ما يأتي ذكره في موضعه وفي صبيحة هذا الموسم خلع على ابن أبي الرداد وعلى رؤساء المراكب وغيرهم وحمل الى المقياس برسم المبيت وركوب الخليفة بتجمله ومواكبه الى السكرة مافصله وبينه مما يطول ذكره * وقال في سنة سبع عشرة وخمسمائة ولما جرى النيل وبلغ خمسة عشر ذراعا أمر باخراج الخيام والمضارب الديبقي والديباج وتحول الخليفة الى اللؤلؤة بحاشيته وتحول المأمون الى دار الذهب ووصلت كسوة الموسم المذكور من الطراز وان كانت يسيرة المدة فهي كثيرة القيمة ولم تكن للعموم من الحاشية والمستخدمين بل للخليفة خاصة واخوته وأربع من خواص جهاته والوزير وأولاده وابن أبي الرداد فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما ثم عديا في أحدهما الى المقياس وصليا ونزل الثقة صدقة ابن أبي الرداد منزلته وخلق العامود وعاد الخليفة على فوره وركب البحر في العشارى الفضي والوزير صحبته والرهجية تخدم برا وبحرا والعساكر طول البر قبالته الى أن وصل الى المقس ورتب الموكب وقدم العشاري بالخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون وسار الموكب والرهجية تخدم والصدقات والرسوم تفرق ودخل من باب القنطرة وقصد باب العيد واعتمد ماجرت به العادة من تقديم الوزير وترجله في ركابه الى أن دخل من باب العيد الى قصره وتقدم بالخلع على ابن أبي الرداد بدلة مذهبة وثوب ديبقي حريري وطيلسان مقور وبياض مذهب وشقة سقلاطون وشقة تحتاني وشقة خز وشقة ديبقي وأربعة أكياس دراهم ونشرت قدامه الاعلام الخاص الديبقي المحاومة بالالوان المختلفة التي لاترى الاقدامه لانها من جملة تجمل الخليفة وأطلق له برسم المبيت من البخور والشموع والاغنام والحلاوات كثير * قال وهيئت المقصورة في منظرة السكرة برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه وقد وقعت المبالغة في تعليقها وفرشها وتعبيتها وقدم بين يديه الصواني الذهب التي وقع التناهي فيها من

همم الجهات من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها المعمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد من الصور الوحشية مايشبه الفيلة جميعها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب يجرى سواده وعليه سرير منجور من عود بتكات فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان وعليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة ثم صور السباع منجورة من عود وعيناه ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وبقية الوحوش وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة * قال ومن جملة ماوقع الاهتمام به في هذا الموسم ماصار يستعمل في الطراز وان لم يتقدم نظيره للولائم التى تتخذ برسم تغطية الصوانى عدة من عراضى ديبقى ثم قوارات شرب تكون من تحت العراضى على الصوانى مفتح كل قوارة منهن دون أربعة أشبار سلف كل واحدة منهن خمسة عشر دينارا ورقم في كل منهن سجف ذهب عراقى ثمنه من أربعين الى ثلاثين دينارا تكون الواحدة بخمسين دينارا ويستعمل أيضا برسم الطرح من فوق القوارات الاسكندرانى التى تشد على الموائد التى تحمل من عند كل جهة قوارات ديبقى مقصور من كل لون محاومة بالرقم الحريرى مفتح كل قوارة أربعة أذرع يكون الثمن عن كل واحدة أربعين دينارا ولقد بيعت عدة من القوارات الشرب فسارع التجار العراقيون الى شرائها ونهاية مابلغ ثمن كل واحدة منهن ستة عشر دينارا وسافروا بها الى البلاد فلم يبع لهم منها سوى اثنتين وعادوا بالبقية الى الديار المصرية فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وحفظوا منهن شيأ عن السوق فلم يحفظ لهم رأس مالهن قال وكان ماتقدم من الزبادى فى الطيافير من الصينى الى آخر أيام الافضل بن أمير الجيوش وأيام المأمون وانما استجدت الأوانى الذهب فى أواخر الايام الآمرية والذى يعبي بين يدى الخليفة قوائمية ضمنها عدة من الطيافير المحمولة بالمرافع الفضة برسم الاطباق الحارة وليس في المواسم مائدة بغير سماط للامراء ويجلس عليها الخليفة غير هذا الموسم وان كان يجرى مجرى الاعياد وله البخور مطابق مثلها وينفرد بالجلوس معه الجلساء المميزون والمستخدمون وعند كمال تعبيتها وبخورها جلس الخليفة عليها عن يمينه وزيره وعن يساره أخوه ومن شرف بحضوره وفي آخرها فرق منها ماجرت به العادة على سبيل البركة * وقال في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج وهى برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان احداها منديلها وثوبها طميم برسم المضى والاخرى جميعها حريرى برسم العود وكذلك مايخص اخوته وجهاته بدلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبة وبرسم الوزير بدلة موكبة مذهبة في تخت وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت وهؤلاء

المميزون لكل منهم تخت وبقية مايخص المستخدمين وابن أبي الرداد في تخوت كل تخت فيه عدة بدلات وحضر متولى الدفتر واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة وما يفرق وما يفصل برسم الخلع وما يخرج من حاصل الخزائن غير الواصل وهو مايفصل برسم الغلمان الخاص عن سبعمائة قباء خمسمائة وشقتان سقلاطون داري وبرسم رؤساء العشاري من الشقق الدمياطي والمناديل السوسي والفوط الحرير الاحمر وبرسم النواتية التي برسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندراني والكلوتات فوقع بانفاق جميع ذلك وتفصيل مايجب منه ثم ابتيع ذلك بمطالعة ثانية برسم ماهو مستمر العموم من النقد العين والورق للموسم المذكور وهو من العين أربعة آلاف وخمسمائة دينار ومن الورق خمسة عشر ألف درهم فوقع باطلاق ذلك وذكر تفصيل الكسوات والهبات بأسماء أربابها وحضر متولى المائدة الآمرية بمطالعة يستدعى ماجرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر وغير ذلك من الأصناف برسم التفرقة والاسمطة وحضر متولى دار التعبية يستدعى مايبتاع به الثمرة والزهرة وهيئة المتعينين لتعبية السكرة لاجل حلول الركاب بها ومقامه فيها وتعبية جميع مقاصيرها التي برسم الاستاذين والاصحاب والحواشي وهو مائة دينار فوقع باطلاقها وفى العاشر من الشهر المذكور يعني شهر رجب وفي النيل ستة عشر ذراعا فتوجه المأمون الى صناعة العمائر بمصر ورميت العشاريات بين يديه وقد جددت وزينت جميعها بالستور الديبقى الملونة والكوامخ والاهلة الذهب والفضة وشمل الانعام أرباب الرسوم على عادتهم وعدى في احدى العشاريات الى المقياس وخلق العمود بما جرت به عادتهم من الطيب وفرقت رسوم الاطلاق وانكفأ الى دار الذهب وأمر باطلاق ما يخص المبيت في المقياس بجميع الشهود والمتصدرين وهي العشرات من الخبز عشرة قناطير وعشرة خراف شوى وعشر جامات حلوى وعشر شمعات وأول من يحضر المبيت الشريف الخطيب سيد المقربين وامام المتصدرين وله وللجماعة من الدراهم التي تفرق أوفى نصيب قال وخرج الخليفة بزى الخلافة ووقارها وناموسها بالثياب الطميم التي تذهل الابصار والمنديل بالشدة العربية التي ينفرد بلباسها فى الاعياد والمواسم خاصة لاعلى الدوام وكانت تسمى عندهم شدة الوقار مرصعة بغالي الياقوت والزمرذ والجوهر وعند لباسها تخفق لها الاعلام ويجتنب الكلام ويهاب ولا يكون سلام قريب منه وخليل غير الوزير الا بتقبيل الارض من بعيد من غير دنو ثم بين يديه من مقدمي خزائنه من يحمل سيفه ورمحه المرصعين بأنخر ما يكون ثم المذاب التي كل منها عمودها ذهب وينفرد بحملها الصقالبة ويمشى بين الصفين المرتبين راجلا على بسط حرير فرشت له وكل من الصفين يتناهي في مواصلة تقبيل الارض الى أن وصل الى مجلس خلافته وصعد على الكرسى المغشى بالديباج المنصوب برسم ركوبه وقد صفت الرواض وأزمة الاصطبلات خيل المظلة بعد أن أزالت

الاغشية الحرير والشقق الديبقي المذهبة عن السروج وبقيت كما وصفها الله تعالى في كتابه فقــدّم اليه ما وقع اختياره عليه وأمر بأن يجنب البقية في الموكب بين يديه ولما علا ما قدّم اليه استفتح مقرئو الحضرة وتسلم جميع مقدمي الركاب ركابه والرواض الشكيمة وزال حكم الاستاذين المستخدمين في الركاب وعادت الموالى والاقارب الى محالهم واسـتدعى بالوزير بجميع نعوته فواصل تقبيل الارض الى أن قبل ركابه وشرفه بتقبيل يديه بحكم خلوها من قضيب الملك في هذه المواسم ولمـا أدى ما يجب من فرض السلام أخذ السيف من الامير افتخار الدولة أحــد الامراء الاستاذين المميزين المحنكين متولى خزانة الـكسوة الخاص وسلمه بعــد أن قبله لاخيه الذي يتولى حمله في الموكب بعد أن أرخيت عذبته تشريفاً له مدة حمله خاصة وترفع بعــد ذلك وشد وسطه بالمنطقة الذهب تأدبا وتعظيما لمـا معه وسلم الرمح والدرقة لمن يتولى حملهما بلواء الموكب ولم يكن للخدمة المذكورة عذبة مرخاة ولا منعلقة واستدعى ركوب الوزير وأولاده من عند باب قاعة الذهب وخرج الخليفة من القاعة المذكورة الى أول دهليز فتلقته جماعة صبيان ركابه العشرة المقدمين أرباب الميمنة والميسرة وصبيان وراء صبيان الرسائل وصبيان السلام كل منهم في الخدمة المعينة لايخرج عنها لسواها وجميعهم بالمناديل الشروب المعلمة وبأوساطهم العراض الديبقي المقصورة وليس الجميع عبيدا بشراء ولا سودان بل مولدة وأولاد أعيان وأهل فهم ولسان ثم احتاط بركابه بعدهم من هو على غير زيهم بل بالقنابيز المفرجة والمناديل السوسي وهم المتولون لحمل السلاح الخاص الذي لا يكون الا في موكبه خاصــة على الاستمرار من الصوارى والفرنجيات والدبابيس واللتوت والصماصم بالدرق الصيني والمغي بالكوامخ الفضة والذهب ويحصل الاســتدعاء من صبيان السلام في مسافة الدهاليز لكل من هو مستخدم في الموكب وركوبه من محل حجبته الى أن خرج الخليفة من باب الذهب وقد ضربت الغربية وأبواق السلام واجتمع الرهج من كل مكان ونشرت المظالة فاجتمع اليها الزويلية بالعدد الغربية وظلل بها وسارت بسيره والقرآن الكريم عن يمينــه ويساره والحجرية الصبيان المنشدون واجتمع الموكب بجملته على ما ذكر أولا والترتيب أمامــه لمتولى الباب وحجابه وتلوم لمتولى الستر وكل منهم على حكم المدارج التى وصلت اليه لا سبيل الى الخروج عمـا رسم فيها وسار بجملة موكبه على ترتيب أوضاعه بين حصنين مانعين من طوارق عسا كره فارسها وراجلها كل طائفة يقدمها زمامها وقد ازدحموا في المصفات بالعدد المذهبة الحربية والآلات اللائمة المضيئة وليس بينهم طريق لسالك وقد زين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق جميعها حوانيتها وآدرها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها بأنواع من الستور والديباج والديبقي على اختــلاف أجناسها ثم بأصناف الســلاح وملأت النظارة الفجاج والبطاح والوهاد والربا والصدقات والرسوم تم

أهل الجانبين من أرباب الجوامع والمساجد وبوابي الابواب والسقائين والفقراء والمساكين
في طول الطريق الى أن أظل على الخيام المنصوبة فوقف بموكبه واستدعى الوزير بعده
من مقدمي ركابه فاجتاز راكباً بمفرده وجمع حاشيته بسلاحهم رجالة في ركابه بعد أن بالغ
في الايماء بتقبيل الارض أمامه فرد عليه بكمه السلام وعاد الخليفة في سيره بالموكب بعد
أن حصل الوزير أمامه وترجل جميع من شرف بحجبته في ركابه وآخرهم متولي حمل
سيفه ورمحه وصبيان السلام يستدعون كل منهم الى تقبيل الارض بجميع نعوته اكباراله
وتمييزا واحتاطوا بركابه ووصل الى المضارب في الحرس الشديد على أبوابها وسرادقاتها
من كل جانب وقد تبين وجاهة من حصل بها ومكن من الدخول اليها وترجل الوزير في
الدهليز الثالث من دهاليزها وتقدم الى الخليفة وأخذ شكيمة الفرس من يد الرواض وشق
به الخيام التي جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية وقد فرشت جميعها بالبسط الجهرمية
والاندلسية الى أن وصل الى القاعة الكبرى فيها وترجل على سرير خلافته وجلس في محل
عظمته وأجلس وزيره على الكرسي الذى أعد له واحتاط به المستخدمون حملة السلاح
المنتصب جميعه وحجبوا العيون عن النظر اليه وصف بين يديه الامراء والضيوف والمشرفون
بحجبته وختم المقرئون القرآن العظيم وقدم عدى الملك النائب شعراء المجلس على طبقاتهم
وعند انقضاء خدمة آخرهم عادت المستخدمون والرواض مقدمة ما أمروا به من الدواب
فعلاه الخليفة والوزير يمسك الشكيمة بيده وانتظم موكباعظيما والقراء عوض الرهجية والجماعة
في ركابه رجالة على حكم ما كانوا عليه أولا وصعد من القاعة التي في دهاليز الباب القبلي منها
نخرج منه وانفصلت خدمة جميع الامراء والضيوف من ركابه بأحسن وداع من تقبيل الارض
وصعد الخليفة ووزيره وأولاده واخوته والاصحاب والحواشي الى السكرة وهي من جنات الدنيا
المزخرفة وتلقاه أخوه بعظمة سلامه وتقبيل الارض بين يديه وجلس لوقته وفتحت الطاقات
التي في المنظرة وعن يمينه وزيره وعن يساره أخوه جالسان واعتمد الناس جميعهم عند
مشاهدته تقبيل الارض له وادامة النظر نحوه والمستخدمون جميعهم على السد مشدودي
الاوساط واقفين عليه فلما أمرهم الوزير أن يكسروه قبلوا الارض جميعاً وانصرفوا عنه
وتولته الفعلة في البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين والقرآن والتكبير من الجانب
الغربي حيث الخليفة والرهج واللعب من الجانب الشرقي ولما كمل فتحه انحدرت العشاريات
عن آخرها اللطيف منها يقدم الكبير والجميع مزينة بالذهب والفضة والستور المرقومة
ورؤساؤهم وخدامهم بالكسوات الجميلة وبعد ذلك غلقت الطاقات وحل الخليفة بالمقصورة
التي لراحته وكذلك الوزير وأولاده واخوته وجميع الامراء الاستاذين والاصحاب والحواشي
واستدعى للوقت والي مصر من البر الشرقي وخلع عليه بدلة منديلها وثوبها مذهبان وثوبان

عتابي وسقلاطون وقبل الارض من تحت المنظرة وعـدى في البحر الى حفظ مكانه ثم استدعى بعـده حامي البساتين ومشارفها فخلع عليهما بدلتين حريرى وثوبين سقلاطون وعتابى ثم متولى ديوان العمائر كذلك ثم مقدمى الرؤساء كذلك واعتمد كل من سلم اليه الاثباتات المشتملة على أصناف الانعام من العين والورق وصواني الفطرة والموائد التي يهتم بها جميع الجهات والخراف المشوية والجامات الحلواء تفرقة ذلك على ما رسم وهو شامل غير مخصص من أخي الخليفة والوزير الى الاصحاب والحواشى من أرباب السيوف والاقلام ثم الامراء المستخدمين والضيوف المميزين من الاجناد وغيرهم من الادوان ممن يتعلق به خدمة تختص بالموسم من البحارة وأرباب اللعب وغيرهم وعبيت الاسمطة في المسطحات المنصوبة لها بالجانب من الباب الغربي من الخيام وأمر الوزير أخاه بالمضى اليها والجلوس عليها فتوجه وبين يديه متولى حجبة الباب ونوابه والمعروفية والحجاب واستدعت الامراء والضيوف بالسقاة من خيامهم وأجلس كل منهم على السماط في موضعه على عادتهم وتلاهم العساكر على طبقاتهم ولم يمنع حضورهم مايسير لكل منهم من جميع ما ذكر على حكم ميزته ولما انقضى حكم الاسمطة المختصة بالامراء الكبار عاد أخو الوزير الى حيث مقر الخلافة وبقى متولى الباب جالسا لأسمطة العبيد وجميع المستخدمين من الراجل والسودان وعبيت المائدة الخاص بالسكرة التى ما يحضرها الا العوالى الخاص المستخدمون فى الخدم الكبار ويجمع له حالتان حضوره في أشرف مقـام وجلوسه في محل يحصل له به حرمة وذمام. وجلس الخليفـة عليها وأخوه على شماله ووزيره على يمينه بعد أن أدى كل منهما ما يجب من سلامه وتعظيمه وحضر أولاد الوزير واخوته والشيخ أبو الحسن كاتب الدست وابنه سالم ومن الاستاذين المحنكين أرباب الخدم وجرى الحال فى المـائدة الشريفة على ما هو مألوف وفرق من جملتها لكل من أرباب الخدم الذين لم يحضروا عليها ما هو لكل منهم على سبيل الشرف وتميز في ذلك اليوم خاصة ما يختص بالقاضي وشهوده والداعي وابن خاله الذين يخصصون عن سواهم بمقامهم دون غيرهم في قاعة الخيمة الكبرى أمام سرير الخلافة المنصوب مدة النهار مع ما يحمل اليهم من الموائد وغيرها ممـا هو بأسمائهم في الاثباتات مذكور ولمـا تكامل وضع المائدة وانقضى حكمها قبل كل من الحاضرين الارض وانصرف بعد أن استصحب منها ما تقتضيه نفسه على حكم الشرف والبركة ويقضى بعد ذلك الفرائض الواجبة في وقتها ولا بد من راحة بعدها وحضر مقدّما الركاب وحاسبا كاتب الدفتر على ما معهما برسم تفرقة الرسوم والصدقات في مسافة الطريق فكمل لهما على ما بقى معهما مثل ما كان اوّلا ولما استحق العود عاد كل من المستخدمين الى شغله من ترتيب الموكب ومصفات العساكر وترتيب من يتشرف بالحضرة من الامراء والضيوف وفرقت الصواني الخـاص التي تكون

بين يدى الخليفة مدة النهار الجامعة للثروة من كل جهة والزينة من كل معنى والغرابة من كل صنف وقد جمعت ملاذ جميع الحواس والعدة منها يسيرة وليس ذلك لتقصير من همم الجهات التي تتنوع فيها بالغرائب بل للتعب الشديد عليها ثم اضيق الزمان لان كلا منها لا مندوحة أن يكون فيه زهرة وثمرة وطول المكث كذلك يتلف مافيها واذا شملت مع قلتها من له الوجاهة العالية من أخي الخليفة والوزير لم يكن له غير صينية واحدة وأخذ كل من الحاشية أهبة تجمله لموضع ميزته وغير الخليفة ثيابه بما يقتضيه الموكب وهو بدلة حريرى بشدة الوقار وعلم الجوهر وسير الى الوزير صحبة مقدم خزانة الكسوة الخاص على يد المستخدمين عنده من الاستاذين من جملة بدلات الجمع التي يتوجه منها الى زيه ما يؤمر به من يسمى اليه بدلة مكملة حريرى ومنديلها بياض بالشدة الدانية غير العربية ولما لبس ماسيراليه وحضر بين يديه لشكر نعمته أمره بركوب أخيه في احدى المشاريات فامتثل أمره وتوجه صحبته من السكرة بجميع خواصه وحواشيه وفتح لهم الباب الذي هو منها بشاطئ الخليج وقدم له احدى المشاريات الموكبية وفيها مقدم رياسة البحرية فركب فيها بجمعه والوزير واقف راجل على شاطئ الخليج خدمة له الى أن انحدرت المشاريات جميعها قدامه ومراكب اللعب بغير احد من أرباب الرهج والمستخدمون في البرين يمنعون من يقاربه والمتفرجون لايصدهم ويردهم ما يحل بهم بل يرمون أنفسهم من على الدواب ويسيرون بسيره وعاد الوزير الى السكرة فلما شاهد الخليفة الدواب الخاص التي برسم ركوبه أمره بما وقع عليه اختياره منها وعلاه فاحتاط بركابه مقدمو الركاب واستفتح القراء وخرج من باب السكرة ودخل من باب الخليفة القبلي وشق قاعتها على سرير مماسكته وخص بالسلام فيها شيوخ الكتاب العوالي والقاضي والداعي ومن معهما ولهم بذلك ميزة عظيمة يختصون بها دون غيرهم وخرج منها الى البستان المعروف ببزار وسار في ميدانه وجميعه من الجانبين سور معقود من شجر نارنج اصولها مفترقة وفروعها مجتمعة وظللت الطريق وعليها من الثمرة التي أخرجها من وقته الى هذا اليوم وقد خرجت بهجتها عن المعتاد وحصل عليها ثمرة سنتين احداهما انتهت والاخرى في الابتداء وهو بهيئته وزيه وترتيب عساكره وأمرائه وخرج من الباب بعد أن عم من له رسم بانعامه وعاد الرهج والموكب على ما كان عليه فلما وصل الى السد الذى على بركة الحبش كسر بين يديه *(وقال في كتاب الذخائر)* ان مما أخرج من القصر في سنة احدى وستين وأربعمائة في خلافة المستنصر قبة المشارى وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير أحمد بن على الجرجراى في سنة ست وثلاثين وأربعمائة وكان فيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة ألفان وسبعمائة دينار وعمل ابو سهل التسترى

لوالدة المستنصر عشاريا يعرف بالفضي وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم ولزم ذلك اجرة الصناعة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وأنفق على العشاريات التى برسم النزه البحرية التى عدتها ستة وثلاثون عشاريا بالتقدير بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤس منجوقات واهلة وصفريات وغير ذلك أربعمائة ألف دينار * وقال ابن الطوير اذا اذن الله سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك طالع ابن أبي الرداد بما استقر عليه أذرع القاع في اليوم الخامس والعشرين من بؤونة وأرخه بما يوافقه من أيام الشهور العربي فعلم ذلك من مطالعته وأخرجت الى ديوان المكاتبات فنزلت في السير المرتب بأصل القاع والزيادة بعد ذلك في كل يوم تؤرخ بيومه من الشهر العربي وماوافقه من ايام الشهر القبطي لا يزال كذلك وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير فاذا انتهى فى ذراع الوفاء وهو السادس عشر الى أن يبقى منه أصبع أو اصبعان وعلم ذلك من مطالعته أمر أن يحمل الى المقياس فى تلك الليلة من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السميذ وعشرة من الخراف المشوية وعشرة من الجامات الحلواء وعشر شمعات ويؤمر بالمبيت في تلك الليلة بالمقياس فيحضر اليه قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم فيستعملون ذلك ويقدون الشمع عليهم من العشاء الآخرة وهم يتلون القرآن برفق ويطربون بمكان التطريب فيختمون الختمة الشريفة ويكون هذا الاجتماع في جامع المقياس فيوفى الماء ستة عشر ذراعا فى تلك الليلة ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ويبتهجون به ابتهاجا زائدا وذلك لانه عمارة الديار وبه التئام الخلق على فضل الله فيحسن عند الخليفة موقعه ويهتم بأمره اهتماما عظيما أكثر من كل المواسم فاذا أصبح الصبح من هذا اليوم وحضرت مطالعة ابن أبي الرداد اليه بالوفاء ركب الى المقياس لتخليقه فيستدعى الوزير على العادة فيحضر الى القصر فيركب الخليفة بزى أيام الركوب من غير مظلة ولا ما يجرى مجراها بل في هيئة عظيمة من الثياب والوزير تابعه فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب ويخرج شاقا من باب زويلة وسالكا الشارع الى آخر الركن من بستان عباس المعروف اليوم بسيف الاسلام فيعطف سالكا على جامع ابن طولون والجسر الاعظم بين الركنين الى الساحل بمصر الي الطريق المسلوكة على طرف الخشابين الشرقي على دار الفاضل الى باب الصاغة بجوارها وله دهليز مادّ بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانيّ بسطا وتأزيرا فيشقها والوزير تابعه فيخرج منها منعطفا على الصناعة الاخرى وكانت برسم المكس الي السيوفيين ثم على منازل العز التى هى اليوم مدرسة ثم الى دار الملك فيدخل من الباب المقابل لسلوكه فيترجل الوزير عنده للدخول بين يديه ماشيا الي المكان المعدله ويكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعشاري

الخاص وهو بيت مثمن من عاج وآبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل تام فيجمع بين الاجزاء الثمانية فيصير بيتا دوره أربعة وعشرون ذراعا وعليه قبة من خشب محكم الصناعة وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب فيتسلمه رئيس المشاريات الخاص ويركبه على المشارى المختص بالخليفة ويجعل باكر ذلك اليوم الذى يركب فيه الخليفة على الباب الذى يخرج منه للركوب الى المقياس فاذا استقر الخليفة بالمنظرة بدار الملك التي يخرج من بابها الى المشارى وأسند اليه استدعي الوزير من مكانه فيحضر اليه ويخرج بين يديه الى أن يركب في المشارى فيدخل البيت المذهب وحده ومعه من الاستاذين المحنكين من يأمره من ثلاثة الى أربعة ثم يطلع في المشارى خواص الخليفة خاصة ورسم الوزير اثنان أو ثلاثة من خواصه وليس في المشارى من هو جالس سوي الخليفة باطنا والوزير ظاهرا في رواق من باب البيت الذى هو بعرانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخف الخشب وهى مدهونة مذهبة وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها فاذا اجتمع في المشارى من جرت عادته بالاجتماع اندفع من باب القنطرة طالبا باب المقياس العالي على الدرج التي يعلوها النيل فيدخل الوزير ومعه الاستاذون بين يدى الخليفة الى الفسقية فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده فاذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك فيديفها بيده بآلة ويتناولها صاحب بيت المال فيناولها لابن أبي الرداد فيلقى نفسه في الفسقية وعليه غلالته وعمامته والعمود قريب من درج الفسقية فيتعلق فيه برجليه ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرؤن القرآن نوبة بنوبة ثم يخرج على فوره راكبا في المشارى المذكور وهو بالخيار اما أن يعود الى دار الملك ويركب منها عائدا الى القاهرة أو ينحدر في المشارى الى المقس فيتبعه الموكب الى القاهرة ويكون في البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحا بوفاء النيل وبنظر الخليفة فاذا استقر بالقصر اهتم بركوب فتح الخليج وفيه همة عظيمة ظاهرة للابتهاج بذلك ثم يصير ابن أبي الرداد باكر ثاني ذلك اليوم الى القصر بالايوان الكبير الذى في الشباك الى باب الملك بجواره فيجد خلعة معباة هناك فيؤمر بلبسها ويخرج من باب العيد شاقا بها بين القصرين من أوله قصد الاشاعة ذلك فان ذلك من علامة وفاء النيل ولاهل البلاد الى ذلك تطلع وتكون خلعة مذهبة وكان من المدول المحنكين فيشرف في الخلعة بالطيلسان المقور وينتدب له من التغييرات ولمن يريده خمس تغييرات مركبات بالحلي ويحمل أمامه على أربع بغال مع أربعة من مستخدمى بيت المال اربعة أكياس في كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة في اكفهم ويصحبته أقاربه وبنو عمه وأصدقاؤه وينتدب له الطبل والبوق ويكتنف به عدة كثيرة من المتصرفين الرجالة فيخرج من باب العيد ويركب احدى التغييرات وهي أميزها وشرف أمامه

بجملين من النقارات التي قدمنا ذكرها يعني في ركوب أول العام من زى الموكب فيسير شاقا القاهرة والابواق تضرب أمامه كبارا وصغارا والطبل وراءه مثل الامراء وينزل على كل باب يدخل منه الخليفة ويخرج من باب القصر فيقبله ويركب وهكذا يعمل كل من يخلع عليه من كبير وصغير من الامراء المطوقين الى من دونهم سيفا وقلما ويخرج من باب زويلة طالبا مصر من الشارع الاعظم الى مسجد عبد الله الى دار الانماط جائزا على الجامع الى شاطئ البحر فيعدى الى المقياس بخلعه وأكياسه وهذه الاكياس معدة لارباب الرسوم عليه في خلعه ولنفسه ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان فاذا انقضى هذا الشأن شرع في الركوب الى فتح الخليج ثاني يوم وقد كان وقع الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما فيعمل في بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدة وافرة منها ما هو ملبس بالعنبر ومنها ما هو ملبس بالصندل ثم شكل التفاح والاترج اللطيف والوحوش مفسرة الاعين والاعضاء بالذهب الى غير ذلك ثم تخرج الخيمة التي يقال لها القاتول لان فراشا سقط من أعلى عمودها فمات فسميت بذلك وطوله سبعون ذراعا واعلاه صفرية فضة تسع راوية ماء وعليه الفلكة التي كانت في الايوان الى قريب الوقت ثم يعمل في أول العمود شقة دائرة ثم أوسع منها ويتوالى ذلك الى احدى عشرة شقة فتصير سعة الخيمة ما يزيد على فدانين مستديرة وتنصب في بر الخليج الغربي على حافته مكان بستان الحلي اليوم وكانت ثم منظرة يقال لها السكرة برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج في مثل هذا اليوم وينصب أرباب الرتب من الامراء من مجرى تلك الخيمة الكبرى خياما كثيرة ويتمايزون فيها على قدر هممهم وضربهم اياها في الاماكن الاقرب فالاقرب على قدر رتبهم فاذا تم ذلك وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه أخرج كل من المستخدمين في المواضع المقدم ذكرها في ركوب أول العام آلات الموكب على عادته ويزاد فيه اخراج أربعين بوقا عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ويكون بواقوها ركبانا وأرباب الابواق النحاس مشاة ومن الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة عشرة فاذا حضر الوزير الى باب القصر خرج الخليفة في هيئة عظيمة وهمة عالية وقد تضاعفت همم الاجناد في ذلك اليوم فارسها وراجلها ويخرج زى الخليفة من المظلة والسيف والرمح والالوية والدواة وغير ذلك من الاستاذين المحنكين ويركب في ذلك اليوم من الاقارب المقيمين بالقصر عشرون أو ثلاثون وهم بالنوبة في كل سنة فيتقدمون الى المنظرة في مكان لهم صحبة أستاذين لخدمتهم وحفظهم ويكون قد لف عمودا الخيمة الكبرى المشار اليها اما بديباج أبيض أو أحمر أو أصفر من أعلاه الى أسفله وينصب مسنداً اليه سرير الملك ويغشى بقرقوبي وعرانيسه ذهب ظاهرة فيخرج الخليفة للركوب ويركب فيخرج من باب القصر وعليه ثوب يقال له

البدنة وهو كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ولا يلبس هذا الثوب في غير هذا اليوم ويسير بالموكب الهائل شاقا القاهرة من الطريق التي ركب منها لتخليق المقياس الا انه لا يدخل طرق مصر من الخشابين بل خارجها من طريق الساحل فاذا جاز على جامع ابن طولون وجد قد ربط من رأس المنارة من مكان المشاري النحاس حبل طويل قوي موضوع آخره في الطريق وفيه قوم يقال لهم النحتبارية واحد في زيّ فارس على شكل فرس وفي يده رمح ويكتفه درقة فينحدر على بكرة وفي رجليه آخر ممسكها وهو يتقلب في الهواء بطنا وظهرا حتى يصل الى الارض ويكون قاضي القضاة وأعيان الشهود جلوسافي باب الجامع من هذه الجهة فاذا وازاهم الخليفة وكانوا قد ركبوا وقف لهم وقفة فيسلم على القاضي ثم يدخل فيقبل الرجل التي من جانبه لا غير ويدخل بالشهود في الفرجة أمام وجه الدابة بمقدار قصبة المساحة فيسلم عليهم ويرجعون الى دوابهم فيركبون ويكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان احداهما ديباج أحمر والاخرى ديبقي أبيض بصفارى فضة لكل واحدة فيتم الخليفة بهيئته الى أن يدخل من باب الخيمة ويكون الوزير قدتقدمه على العادة ليخدمه فيجده راجلا على باب الخيمة فيمشي بين يديه الى سرير الملك فينزل ويجلس على المرتبة المنصوبة فيه ويحيط به الاستاذون المحنكون والامراء المطوقون بعدهم ويوضع للوزير الكرسي الجاري به عادته فيجلس عليه ورجلاه تحك الارض ويقف أرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك الى ناحية الخيمة والقراء يقرؤن القرآن ساعة زمانية فاذا ختموا قراءتهم استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يطلق هذا اليوم فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ولهم منازل على مقدار أقدارهم فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الانشاد وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب وتقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشأ قصيدة منها

فتح الخليج فسال منه الماء * وعلت عليه الراية البيضاء

فصفت موارده لنا فكأنه * كف الامام فعرفها الاعطاء

فانتقد الناس عليه في قوله فسال منه الماء وقالوا أي شئ يخرج من البحر غير الماء فضيع ماقاله بعد هذا المطلع وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير وأنشد

مازال هذا السد ينظر فتحه * أذن الخليفة بالنوال المرسل

حتى اذا برز الامام بوجهه * وسطا عليه كل حامل معول

فجرى كأنقد ديف فيه عنبر * يعلوه كافور بطيب المندل

فانتقدوا عليه أيضاً قوله في البيت الثاني وقالوا أهلك وجه الامام بسطوات المعاول عليه وان كان قصد فتح السد بالمعاول لكنه مانظمه الا قلقا ثم تقدم له شاعر شاهد يقال له كافى

الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الاثير بن سنان فانه عملها بحضوره بديها

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد * للنيل أم لك يابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معافي موطـن * وافيتما فيـه لأصدق موعد
ليس اجتماع الخلق الا للـذي * حاز الفضيلة منكما في المولد
شكروا لـكل منكما لوفائه * بالسعي لكن ميلهـم للاجود
ولمن اذا اعتمد الوفاء ففعله * بالقصد ليس له كمن لم يقصد
هـذا يفي ويعود ينقص تارة * وتسد أنت النقص ان لم يردد
وقواه ان بلغ النهاية قصرت * واذا بلغت الى النهاية تبتدى
فالآن قد ضاقت مسالك سـعيه * بالسد فهو به بحال مقيـد
فاذا أردت صلاحـه فافتح له * ليرى جنابا مخصبا وترى ندي
وأمر بفصد العرق منه فما شكا * جسم فصح الجسم ان لم يفصد
واسلم الى امثال يومك هكذا * في عيش مغبوط وعز مخلد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا وخلع عليه وزيد في جاريه ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا والوزير بين يديه حتى يطلع على المنظرة المعروفة بالسكرة وقد فرشت بالفرش المعدة لها فيجلس فيها ويتهيأ أيضاً للوزير مكان يجلس فيه ويحيط بالسد حامي البساتين ومشارفها لانه من حقوق خـدمتهما فتفتح احدى طاقات المنظرة ويطل منها الخليفة على الخليج وطاقة تقاربها يتطلع منها استاذ من الخواص ويشير بالفتح فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول ويخـدم بالطبل والبوق من البرين فاذا اعتدل الماء في الخليج دخلت المشاريات اللطاف ويقال لها السماويات وكأنها خدم بين يدى العشاري الذهبي المقدم ذكره ثم العشاريات الخاص الكبار وهى ستة الذهبي المذكور والفضيّ والاحمر والاصفر واللازوردى والصقلي وكان أنشأه نجار من رؤساء الصناعة صقلي وزاد فيه على الانشاء المعتاد فنسب اليه وهـذه العشاريات لا تخرج عن خاص الخليفة في أيام النيل وتحوله الى اللؤلؤة للفرجة وسارت في الخليج وعلى بيت كل منها الستور الديبقي الملونة وبرؤسها وفى أعناقها الاهلة وقلائد من الخرز فتستند الى البرّ الذى فيـه المنظرة الجالس فيها الخليفة فاذا استقر جـلوس الخليفة والوزير بالمنظرة ودخل قاضي القضاة والشهود الخيمة الديبقى البيضاء وصلت المـائدة من القصر في الجانب الغربي من الخليج على رؤس الفراشين صحبة صاحب المـائدة وعدتها مائة شدة في الطيافير الواسعة وعليها القوارات الحرير وفوقها الطراحات ولهـا رواء عظيم ومسك فائح فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك ويحمل للوزير ماهو مستقرله بعادة جارية ومن

صواني التماثيل المذكورة ثلاث صوان ويخصص منها أيضا لاولاده واخوته خارجا عن ذلك اكراما وافتقادا ويحمل الى قاضي القضاة والشهود شدة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيرا للشرع ويحمل الى كل أمير في خيمته شدة طعام وصينية تماثيل ويصل من ذلك الى الناس شيء كثير ولا يزالون كذلك الى أن يؤذن بالظهر فيصلون ويقيمون الى العصر فاذا أذن به صلى وركب الموكب كله لانتظار ركوب الخليفة فيركب لابسا غير البدلة بل بهيئته والمظلة مناسبة لثيابه التي عليه واليتيمة والترتيب بأجمعه على حاله ويسير في البر الغربي من الخليج شاقا البساتين هناك حتى يدخل من باب القنطرة الى القصر والوزير تابعه على الرسم المعتاد ويمر فيه للقوم أحسن الايام ويمضى الوزير الى داره مخدوما على العادة * وقال فى كتاب الذخائر والتحف ان المستعمل من الفضة قبة العشارى المعروف بالمقدم وقاربه وكسوة رحله في سنة ست وثلاثين وأربعمائة فى وزارة على بن أحمد الجرجراى مائة ألف وسبعة وستون ألفاً وسبعمائة درهم نقرة وان المطلق للصناع عن أجرة الصناعة وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ألفان وتسعمائة دينار وسبعون وكانت الفضة في ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربع سعر ستة عشر درهما بدينار ولما تولى أبو سعيد سهل التسترى الوساطة سنة ست وثلاثين وأربعمائة استعمل لأم المستنصر عشاريا يعرف بالفضى وحلي رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم ولزم ذلك أجرة الصناعة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار سوى كسوة له بمال جليل والمنفق على ستة وثلاثين عشاريا برسم النزه البحرية لآلاتها وحلاها من مناطق ورؤس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك أربعمائة ألف دينار وكانت العادة عندهم اذا حصل وفاء النيل أن يكتب الى العمال فمما كتب من انشاء تاج الرياسة أبي القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى * أما بعد فان أحق ماوجبت به التهنئة والبشرى • وغدت المسار منتشرة تتوالى وتترى • وكان من اللطائف التي غمرت بالمنة العظمى والنعمة الجسيمة الكبرى • ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه • وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه • وتلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره الله تعالى وله الحمد يوم كذا فان هذه العطية تؤدى الى خصب البلاد وعمارتها • وشمول المصالح وغزارتها • وتفضى بتضاعف المنافع والخيرات • وتكاثر الارزاق والاقوات • ويتساهم الفائدة فيها جميع العباد • وتنتهى البركة بها الى كل دان وناء وكل حاضر وباد • فأذع هذه النعمة قبلك • وانشرها فى كل من يتدبر عملك • وحثهم على مواصلة الشكر لهذه الالطاف الشاملة لهم ولك • فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى • وكتب أيضاً ان أولى ماتضاعف به الابتهاج والجذل • وانفتح فيه الرجاء واتسع الأمل • ماعم نفعه صامت الحيوان وناطقه • وأحدث لكل أحد اغتباطاً لزمه وآلى أن لايفارقه • وذلك مامن الله به من وفاء النيل المبارك الذى

تحيا به كل أرض موات • وتكتسي بعد اقشعرارها حلة النبات • ويكون سبباً لتوافر الاقوات • فانه وفي المقدار الذي يحتاج اليه فلتذع هذه المنة في القاصي والداني • لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر والتهاني • ان شاء الله تعالى • وكتب أيضاً من لطف الله الواجب حمده اللازم شكره • وفضله الذي لا يمل بشره ولا يسأم ذكره • ومنه الذي استبشر به الانام • وتضاعف فيه الانعام • ومثل الله الحياة به في قوله تعالى انما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام • أمر النيل المبارك الذي يعم النجود والتهائم • وتنتفع به الخلائق وترتع فيما يظهره البهائم • وقد توجه اليك بهذا الكتاب بهذه البشرى فلان فأجره على رسمه في اظهاره مجملا • وايصاله الى رسمه مكملا • واذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها • ويبالغوا في الشكر لله سبحانه وتعالى بمقتضاها وعلى حسبها • فاعلم ذلك واعمل به ان شاء الله تعالى

(منظرة الدكة) وكان من جملة مناظر الخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بالدكة لها بستان عظيم بجوار المقس فيما بينه وبين أراضي اللوق وما زالت باقية حتى زالت الدولة وحكر مكان البستان وصار خطة تعرف الى اليوم بخط الدكة فخربت المنظرة وزال أثرها قال ابن عبد الظاهر الدكة بالمقس كانت بستانا وكان الخليفة اذا ركب من كسر الخليج من السكرة بمظلته يسير في البر الغربي ومضارب الناس والامراء وخيمهم عن يمينه وشماله الى أن يصل الى هذا البستان المعروف بالدكة وقد غلقت أبوابه ودهاليزه فيدخل اليه بمفرده ويسقي منه الفرس الذي تحته وهي قضية ذكر المؤرخ للسيرة المأمونية أنهم كانوا يعتمدونها الى آخر وقت ولم يعلم سببها ثم يخرج ويسير الى أن يقف على الترعة الآتي ذكرها ويدخل من باب القنطرة وينزل الى القصر والدكة الآن آدر وحارات شهرتها تغني عن وصفها فسبحان من لا يتغير * وقال ابن الطوير عن الظاهر لاعزاز دين الله أبي هاشم على بن الحاكم بأمر الله كان بمنظرة يقال لها الدكة بساحل المقس يعني أنه مات بها

(منظرة المقس) وكان من جملة مناظرهم أيضاً منظرة بجوار جامع المقس الذي تسميه العامة اليوم جامع المقسي وكانت هذه المنظرة بحري الجامع المذكور وهي مطلة على النيل الاعظم وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس وكانت هذه المنظرة معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الاسطول الى غزو الفرنج فتحضر رؤساء المراكب بالشواني وهي مزينة بأنواع العدد والسلاح ويلعبون بها في النيل حيث الآن الخليج الناصري تجاه الجامع وما وراء الخليج من غربيه قال ابن المأمون وذكر تجهيز العساكر في البر عند ورود كتب صاحبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمسمائة مايحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك وركب الخليفة الآمر بأحكام الله وتوجه الى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة في أعلاه

واستدعى مقدم الاسطول الثاني وخلع عليه وانحدرت الاساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والاسلحة واعتمد ماجرت العادة به من الانعام عليهم وعاد الخليفة الى البستان المعروف بالبعل الى آخر النهار وتوجه الى قصره بعد تفرقة جميع الرسوم والصدقات والهبات الجارى بها العادة في الركوبات * وقال ابن الطوير فاذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس وكان هناك على شاطئ البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه يعنى الاسطول ولقائه اذاعاد فاذا جلس هو والوزير للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات في البحر بين يديه وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح ويحضر بين يدى الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة و يعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين ديناراً وتنحدر الى دمياط وتخرج الى البحر الملح فيكون لها ببلاد العدوّ صيت وهيبة فاذا وقع لهم مركب لايسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح وماعدا ذلك فللاسطول واتفق مرة أن قدم على الاسطول سيف الملك الجمل فكسب بطشة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال وقتل منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا وحضر الى القاهرة ففرح الخليفة وركب الى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم وأطافوا الاسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر فاستدعيت الجمال لركوبهم وشق بهم القاهرة ومصر وهم كل اثنين على جمل ظهر الظهر وعاد الخليفة الى القصر فجلس في احدى مناظره لنظرهم في جوازهم فلما عادوا بهم من مصر صاروا بهم الى المناخات فصح منهم ألف رجل فانضافوا الى من فى المناخ وأما النساء والصبيان فانهم دخلوا بهم الى القصر بعد أن حمل منهم للوزير نصيب وافر وأخذ الجهات والاقارب بقيتهن فيستخدمونهن ويعلمونهن الصنائع ويتولى الاستاذون تربية الصبيان وتعليمهم الخط والرماية ويقال لهم الترابى ومن استريب به من الاسرى ونبه عليه بقوة أوقع به والشيخ الذى لاينتفع به يمضى فيه حكم السيف بمكان يقال له بئر المنامة في الخراب قريب مصر ولم يسمع على الدولة قط أنها فادت أسيرا بمال ولا بأسير مثله وهذه الحال في كل سنة آخذة في الزيادة لا النقص وقدم على الاسطول مرة أمير يقال له حرب بن فور صاحب الحاجب لؤلؤ فكسب بطشة حصل فيها خمسمائة رجل انتهى وقد خربت هذه المنظرة وكان موضعها برج كبير صار يعرف في الدولة الايوبية بقلعة المقس مشرف على النيل فلما جدد الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسى جامع المقس على ماهو عليه الآن في سنة سبعين وسبعمائة هدم هذا البرج وجعل مكانه جنينة شرقي الجامع وتحدث الناس أنه وجد فيه مالا والله أعلم

(منظرة البعل) وكان من مناظرهم بظاهر القاهرة منظرة في بستان أنيق يعرف بالبعل أنشأه الافضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى وموضع هذا البستان الى اليوم يعرف بالبعل وصارت أرضه مزرعة في جانب الخليج الغربيّ بجرى أرض الطبالة في كوم الريش مقابل قناطر الاوز وقد خربت المنظرة وبقى منها آثار أدركتها يعطن بها الكتان تدل على عظمها وجلالتها في حال عمارتها وكانت منظرة البعل من أجل متنزهاتهم وكان لهم بها أوقات عميمة المبرات جليلة الخيرات* قال ابن المأمون فأما يوم السبت والثلاثاء فيكون ركوب الوزير من داره بالرحبية ويتوجه الى القصر فيركب الخليفة الى ضواحى القاهرة للنزهة في مثل الروضة والمشتهى ودار الملك والتاج والبعل وقبة الهواء والخمسة وجوه والبستان الكبير وكان لكل منظرة منهن فرش معلوم مستقر فيها من الايام الافضلية للصيف والشتاء وتفرق الرسوم ويسلم لمقدمي الركاب اليمين والشمال لكل واحد عشرون دينارا وخمسون رباعيا ولتالى مقدم الركاب اليمين مائة كاغدة في كل كاغدة ثلاثة دراهم ومائة كاغدة فى كل كاغدة درهمان ولتالى مقدم الشمال مثل ذلك فأما الدنانير فلكل باب يخرج منه من البلد دينار ولكل باب يدخل منه دينار ولكل جامع يجتاز عليه دينار ما خلا جامع مصر فان رسمه خمسة دنانير ولكل مسجد يجتاز عليه رباعىّ ولكل من يقف ويتلو القرآن كاغدة والفقراء والمساكين من الرجال والنساء لكل من يقف كاغدة ولكل من يركب الخليفة دينار ان ويكون مع هذا متولى صناديق الانفاق يحجب الخليفة وبيده خريطة ديباج فيها خمسمائة دينار لما عساه يؤمر به فاذا حصل فى احدى المناظر المذكورة فرّق من العين ما مبلغه سبعة وخمسون دينارا ومن الرباعية مائة وستة وثمانون دينارا للحواشي والأستاذين وأصحاب الدواوين والشعراء والمؤذنين والمقرئين والمنجمين وغيرهم ومن الخراف الشواء خمسون رأسا منها طبقان حارّة مكملة مشورة برسم المائدة الخاص مضافا لما يحضر من القصور من الموائد الخاص والحلاوات وطبق واحد برسم مائدة الوزير وبقية ذلك باسماء أربابه ورأسا بقر برسم الهرائس فاذا جلس الخليفة على المائدة استدعي الوزير وخواصه ومن جرت العادة بجلوسه معه ومن تأخر عن المائدة ممن جرت عادته بحضورها حمل اليه من بين يدي الخليفة على سبيل التشريف وعند عود الخليفة الى القصر يحاسب متولى الدفتر مقدمي الركاب على ما أنفق عليه في مسافة الطريق من جامع ومسجد وباب ودابة وأما تفرقة الصدقات فهم فيها على حكم الامانة قال واذا وقع الركوب الى الميادين جرى الحال فيها على الرسم المستقر من الانعام ويؤمر متولى خزائن الخاص وصناديق الانفاق أن يكون معه خريطة في السرج ديباج تسمى خريطة الموكب فيها ألف دينار معدة لمن يؤمر بالانعام عليه في حال الركوب

(منظرة التاج) هى من جملة المناظر التى كانت الخلفاء تنزلها للنزهة بناها الافضل ابن أمير الجيوش وكان لها فرش معدلها للشتاء والصيف وقد خربت ولم يبق لها سوى أثر كوم توجد تحته الحجارة الكبار وما حول هذا الكوم صار مزارع من جملة أراضى منية الشيرج قال ابن عبد الظاهر وأما التاج فكان حوله البساتين عدة وأعظم ما كان حوله قبة الهواء وبعدها الخمس وجوه التى هى باقية

(منظرة الخمس وجوه) كانت أيضا من مناظرهم التى يتنزهون فيها وهى من انشاء الافضل بن أمير الجيوش وكان لها فرش معد لها وبقى منها آثار بناء جليل على بئر متسعة كان بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان العظيم الوصف البديع الزى البهيج الهيئة والعامة تقول التاج والسبع وجوه الى الآن وموضعها الى وقتنا هذا من أعظم متفرجات القاهرة وينبت هناك فى أيام النيل عند ما يعم تلك الاراضى البشنين فتفتن رؤيته وتبهج النفوس نضارته وزينته فاذا نضب ماء النيل زرعت تلك البسطة قرطا وكتانا يقصر الوصف عن تعداد حسنه وأدركت حول الخمس وجوه غروسا من نخل وغيره تشبه أن تكون من بقايا البستان القديم وقد تلاشت الآن ثم ان السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى جدد عمارة منظرة فوق الخمس وجوه ابتدأ بناءها فى يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة

(منظرة باب الفتوح) وكان للخلفاء الفاطميين منظرة خارج باب الفتوح وكان يومئذ ما خرج عن باب الفتوح براحا فيما بين الباب وبين البساتين الجيوشية وكانت هذه المنظرة معدة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكر ووداعها اذا سارت فى البر الى البلاد الشأمية قال ابن المأمون وفى هذا الشهر يعنى المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة وصلت رسل ظهير الدين طغدكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب بكتب الى الخليفة الآمر باحكام الله والى الوزير المأمون الى القصر فاستدعوا لتقبيل الارض كما جرت العادة من اظهار التجمل وكان مضمون الكتب بعد التصدير والتعظيم والسؤال والضراعة أن الاخبار تظافرت بقلة الفرنج بالاعمال الفلسطينية والثغور الساحلية وأن الفرصة قد أمكنت فيهم والله قد أذن بهلاكهم وأنهم ينتظرون انعام الدولة العلوية وعوايد انضالها ويستنصرون بقوتها ويحثون على نصرة الاسلام وقطع دابر الكفر وتجهيز العساكر المنصورة والاساطيل المظفرة والمساعدة على التوجه نحوهم لئلا يتواصل مددهم وتعود الى القوة شوكتهم فقوى العزم على النفقة فى العساكر فارسها وراجلها وتجريدها وتقدم الى الازمة باحضار الرجال الاقوياء وابتدئ بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب وأحضر الوزانون وصناديق المال وأفرغت الاكياس على البساط واستمر الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية وتردد

الرأى فيمن يتقدم فوقع الاتفاق على حسام الملك البرني وأحضر مقدم الاساطيل الثانيـة لان الاساطيل توجهت فى الغزو وخلع عليه وأمر بأن ينزل الى الصناعتين بمصر والجزيرة وينفق في أربعين شينيا ويكمل نفقاتها وعددها ويكون التوجه بها صحبة العسكر وأنفق في عشرين من الامراء المتوجه صحبته فكملت النفقة في الفارس والراجل وفي الامراء السائرين وفي الاطباء والمؤذنين والقراء وندب من الحجاب عدة وجعل لكل منهم خدمة فمنهم من يتولى خزانة الخيام وسير معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم ومنهم حاجب على خزائن السلاح وأنفق في عدة من كتاب ديوان الجيش لعرض العساكر وفى كتاب العربان وأحضر مقدمو الحراسين بالخفار وتقدم اليها بأنه من تأخر عن العرض بعسـقلان وقبض النفقة فـلا واجب له ولا اقطـاع وكتبت الـكتب الى المستخدمين بالثغور الثلاثة الاسكندرية ودمياط وعسقلان باطلاق وابتياع ما يستدعي برسم الاسمطة على ثغر عسقلان للعساكر والعربان من الاصناف والغلال ووقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين وكتبت الاجوبة عن كتبهم وجهز المـال والخلع المذهبات والاطواق والسيوف والمناطق الذهب والخيل بالمراكب الحلى الثقال وغير ذلك من التجملات وخلع على الرسل وأطلق لهم التسيير وسلمت اليهم الكتب والتذاكر وتوجهوا صحبة العسكر وركب الخليفة الآمر بأحكام الله الى باب الفتوح ونظر بالمنظرة واستدعى حسام الملك وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة وطوقه بطوق ذهب وقلده ومنطقه بمثل ذلك ثم قال الوزير المأمون للامراء بحيث يسمع الخليفة هذا الأمير مقدمكم ومقدم العساكر كلها وما وعـد به أنجزته وما قرره أمضيته فقبلوا الارض وخرجوا من بين يديه وسـلم متولى بيت المـال وخزائن الـكسوة لحسام الملك الـكتب بما ضمنته الصناديق من المـال وأعدال الـكسوات وحملت قدامه وفتحت طاقات المنظرة فلما شاهد العساكر الخليفة قبلوا الارض فأشـار اليهم بالتوجه فساروا باجمعهم وركب الخليفة وتوجه الى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة واستدعى مقدم الاسطول وخلع عليه وانحدرت الاساطيل مشحونة بالرجال والعدة

(منظرة الصناعة) وكان من جملة مناظر الخلفاء منظرة بالصناعة فى الساحل القديم من مصر يجلس بها الخليفة تارة حتى تقدم له المشاريات فيركبها ويسير للمقياس حتى يخلق بين يديه عند الوفاء وكان بهذه الصناعة ديوان العمائر وأنشأ هذه المنظرة والصناعـة التي هى فيها الوزير المأمون ولم تزل الى آخر الدولة ودهليزها مادّ بمصاطب مفروشة بالحصر العبداني بسطا وتأزيرا وقد خربت هذه الصناعة والمنظرة وصار موضعهما الآن بستانا كان يعرف ببستان ابن كيسان ويعرف فى زمننا هذا الذى نحن فيه الآن ببستان الطواشي وهو بأول مراغة مصر تجاه غيط الجرف على يسرة من يسلك من المراغة يريد الكبارة

وباب مصر قال ابن المأمون وكانت جميع مراكب الاساطيل ماتنشأ الا بالصناعة التي بالجزيرة فأنكر الوزير المأمون ذلك وأمر بان يكون انشاء الشواني وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر وأضاف اليها دار الزبيب وانشأ المنظرة بها واسمه باق الى الآن عليها وقصد بذلك أن يكون حلول الخليفة يوم تقدمة الاساطيل ورميها بالمنظرة المذكورة وأن يكون ما ينشأ من الجراني والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة قال ولما وفي النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما ثم عديا في احداها الى المقياس وقال ابن الطوير الخدمة في ديوان الجهاد ويقال له ديوان العمائر وكان محله بصناعة الانشاء بمصر للاسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والاحطاب وغيرها وكانت تزيد على خمسين عشاريا ويليها عشرون ديماسا منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها ولكل منها رئيس ونواتي لا يبرحون ينفق فيهم من مال هذا الديوان وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الاعمال المميزة فهي تجر لهم وينفق في رؤسائها ورجالها أيضا كانوا من مال هذا الديوان وتقيم مع أحدهم مدة مقامه فاذا صرف عاد فيه وخرج المتولى الجديد في العشاري المرسى بالصناعة ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه والانفاق فيه وللمشارفين بالاعمال عشاريات دون هذه وفى هذا الديوان برسم خدمة ما يجرى فى الأساطيل نائبان من قبل مقدم الاسطول وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شئ كثير واذا لم يف ارتفاعه بما يحتاج اليه استدعى له من بيت المال مايسد خلله قال وكان من أهم أمورهم احتفالهم بالاساطيل والاجناد ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات الى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم مثل صور وعكا وعسقلان وكانت جريدة قواده أكثر من خمسة آلاف مدوّنة منهم عشرة أعيان تصل جامكية كل منهم الى عشرين ديناراً ثم الى خمسة عشر ثم الى عشرة دنانير ثم الى ثمانية ثم الى دينارين وهي أقلها ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيه من النطرون فيصل دينارهم بالمناسبة الى نصف دينار وحواليه ويعين من هؤلاء القواد العشرة من يقع الاجماع عليه لرياسة الاسطول المتوجه للغزو فيكون معه الفانوس وكلهم يهتدون به ويقلعون باقلاعه ويرسون بارسائه ويقدم على الاسطول أمير كبير من أعيان الامراء وأقواهم جنانا ويتولى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة وكانت آخر وقت تزيد على خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالة فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال ويسمع بذلك من هو خارج مصر والقاهرة فيدخل اليها ولهم المشاهرة والجرايات المتقررة مدة أيام السفر وهم معروفون عند عشرين نقيبا ولا يعترض أحد أحدا الا من رغب فى ذلك من نفسه فاذا اجتمعت العدة المغلقة للمراكب المطلوبة أعلم المقدم بذلك الوزير فطالع الخليفة

بالحال وفرز يوم للنفقة فحضر الوزير بالاستدعاء على العادة فيجلس الخليفة على هيئته فى المجلس ويجلس الوزير فى مكانه ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفى وهو أميرهما ويجلس داخل عتبة المجلس وهذه رتبة له مميزة وكاتب الجيش الاصل ويجلس بجانبه تحت العتبة على حصر مفروشة بالقاعة ولا يخلو المستوفي أن يكون عدلا أو من أعيان الكتاب المسلمين وأما كاتب الجيش فيهودى في الاغاب ويفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم ويحضر الوزانون ببيت المال لذلك فاذا تهيأ الانفاق أدخل القابضون مائة مائة ويقفون في آخر الوقوف بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة وتكون أسماؤهم قد رتبت في أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة ويستدعى مستوفى الجيش من تلك الاوراق واحدا واحدا فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه الى الجانب الخالى فاذا تكمل عشرة رجال وزن الوزانون لهم النفقة وكانت لكل واحد خمسة دنانير صرف كل دينار ستة وثلاثون درهما فيتسلمها النقيب وتكتب بيده وباسمه وتمضي النفقة كذلك الى آخرها فاذا تم ذلك اليوم ركب الوزير من بين يدى الخليفة وانفض ذلك الجمع فيحمل من عند الخليفة مائدة يقال لها غداء الوزير وهى سبع مجيفات أوساط احداها بلحم دجاج وفستق والبقية من شواء وهى مكمورة بالازهار فتكون هذه عدة أيام تارة متوالية وتارة متفرقة فاذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس وذكر ابن أبي طي أن المعز لدين الله انشأ ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر على مدينة وعمل دار صناعة بالمقس

(دار الملك) وكان من جملة مناظرهم دار الملك بمصر وهى من انشاء الافضل ابن أمير الجيوش ابتدأ فى بنائها وانشائها في سنة احدى وخمسمائة فلما كملت تحول اليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول اليها الدواوين من القصر فصارت بها وجعل فيها الاسمطة واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه فلما قتل الافضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء وكان بها بستان عظيم وما زالت عظيمة الى أن انقرضت الدولة فجعلها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب دار متجر ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة وموضع دار الملك ما وراء جبة الخروب بجوار المدرسة المعزية وبقى منها جدار يجلس تحته بياعوا الحناء * قال ابن المأمون ومن جملة ما قرره القائد أبو عبد الله من تعظيم المملكة وتفخيم أمر السلطنة أن المجلس الذى يجلس فيه الافضل بدار الملك يسمى مجلس العطايا فقال القائد مجلس يدعى بهذا الاسم ما يشاهد فيه دينار يدفع لمن يسأل وأمر بتفصيل ثمان ظروف ديباج أطلس من كل لون اثنين وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف دينار سكب وبطاقة بوزنه وعدده

وشرابة حرير كبيرة من ذلك ستة ظروف دنانير بالنوبة عن اليمين والشمال في مجلس العطايا الذي برسم الجلوس وعند مرتبة الافضل بقاعة اللؤلؤة ظرفان أحدهما دنانير والآخر دراهم جدد فالذي في اللؤلؤة برسم ما يستدعيه الافضل اذا كان عند الحرم وأما الذي في مجلس العطايا فان جميع الشعراء لم يكن لهم في الايام الافضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار وانما كان لهم اذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف وكذلك من يتضرع ويسأل في طلب صدقة أو ينعم عليه ابتداء بغير سؤال يخرج ذلك من الظروف واذا انصرف الحاضرون نزل القائد المبلغ بخطه في البطاقة ويكتب عليه الافضل بخطه صح ويعاد الى الظرف ويختم عليه فلما استهل رجب من سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وجلس الافضل في مجلس العطايا على عادته وحضر الاجل المظفر أخوه للهناء وجلس بين يديه وشاهد الظروف والقائد وولده وأخوه قيام على رأسه وتقدمت الشعراء على طبقاتهم أمر لكل منهم بجائزة وشاع خبر الظروف وكثر القول فيها واستعظم أمرها وضوعف مبلغها واتسع هذا الانعام بالصدقات الجارى بها العادة في مثل هذا الشهر لفقهاء مصر والرباطات بالقرافة وفقرائها * وقال ابن الطوير وقد ذكر ركوب الخليفة في أول العام وحضور الغرة وينقطع الركوب بعد هذا اليوم الذى هو أول العام فيركبون في آحاد الايام الى أن يكمل شهر ولا يتعدى ذلك يومى السبت والثلاثاء فاذا عزم الخليفة على الركوب فى احد هذه الايام أعلم بذلك وعلامته انفاق الاسلحة في صبيان الركاب من خزانة السلاح خاصة دون ماسواها وأكثر ذلك الى مصر ويركب الوزير صحبته من ورائه على أخصر من النظام المتقدم يعنى في ركوب أول العام وأقل جمع فيخرج شاقا القاهرة وشوارعها على الجامع الطولوني على المشاهد الى درب الصفاء ويقال له الشارع الاعظم الى دار الانماط الى الجامع العتيق فاذا وصل الى بابه وجد الشريف الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب مفروشة بحصر معلق عليها سجادة وفي يده المصحف المنسوب خطه الى على بن أبي طالب رضى الله عنه وهو من حاصله فاذا وازاه وقف في موضعه وناوله المصحف من يده فيتسلمه منه ويقبله ويتبرك به مرارا ويعطيه صاحب الخريطة المرسومة للصلات ثلاثين دينارا وهى رسمه متى اجتاز به فيوصلها الشريف الى مشارف الجامع فيكون نصيبهما منها خمسة عشر دينارا والباقى للقومة والمؤذنين دون غيرهم ويسير الى أن يصل دار الملك فينزلها والوزير معه ومنذ يخرج من باب القصر الى أن يصل الى دار الملك لايمر بمسجد الا أعطى قيمه من الخريطة دينارا فلا يزال بدار الملك نهاره فتأتيه المائدة من القصر وعدتها خمسون شدة على رؤس الفراشين مع صاحب المائدة وهو أستاذ جليل غير محنك وكل شدة فيها طيفور

فيها الأوانى الخاص وفيها من الاطعمة الخاص من كل نوع شهى وكل صـنف من المطاعم العالية ولهـا رواء ورائحة المسك فائحة منها وعلى كل شدة طرحة حرير تعلو القوارة التى هى الشدة فيحمل الى الوزير منها جزء وافر ولمن صحبه وللامراء ولكافة الحاضرين فى الخدمة ويصل منها الى الناس بمصر من بعضهم بعضاً شيء كثير ولايزال الى أن يؤذن عليه بالعصر فيصلى ويتحرك الى العود الى القاهرة والناس فى طريقه لنظره فيركب وزيه في هذه الايام انه يلبس الثياب المذهبة البياض والملونة والمنديل من النسبة وهو مشدود شدة مفردة عن شدات الناس وذؤابته مرخاة من جانبه الأيسر ويتقلد بالسيف العربى المجوهر بغير حنك ولا مظلة ولا يتيمة فان ذلك في أوقات مخصوصـة ولا يمر أيضا بمسجد في سلوكه في هذه الطريق بالساحل الاويعطي قيمه دينارا أيضا كما جرى في الرواح ويتعطف من باب الخرق ويدخل من باب زويلة شاقا القاهرة حتى يدخـل القصر فيكون ذلك من المحرم الى شهر رمضان اما أربع مرات أو خمس مرات ومن شعر الاسعد اسعد بن مهذب بن زكريا بن أبي مليح مما فى دار الملك هذه

حللت بدار الملك والنيل آخذ * بأطرافها والموج يوسعها ضربا
تخيلته قـد غار لمـا وطئتهـا * عليها فأضحى عند ذاك لها حربا

(منازل العز)

بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز ولم يكن بمصر أحسن منها وكانت مطلة على النيل لايحجبها شيء عن نظره وما زال الخلفاء من بعدالمعز يتداولونها وكانت معدة لنزهتهم وكان بجوارها حمـام ولهـا منها باب وموضعها الآن مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة للملك المظفر تقيّ الدين عمرو بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى

(الهودج) وكان من منتزهاتهم العظيمة البناء العجيبة البديعة الزى بناء في جزيرة الفسطاط التي تعرف اليوم بالروضة يقال له الهودج بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية التي غلب عليه حبها بجوار البستان المختار وكان يتردد اليه كثيرا وقتل وهو متوجه اليه وما زال متنزهاً للخلفاء من بعده قال ابن سعيد فى كتاب المحلى بالاشعار قال القرطبي في تاريخه تذاكر الناس في حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك والاختصار منه أن يقال ان الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات وصارت له عيون بالبوادى فبلغه أن جارية بالصعيد من أكمـل العرب وأظرفهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزى بداة الاعراب وكان يجول في الاحياء الى أن انتهى الى حيها وبات هناك في ضائفة وتحيل حتى عاينها هنالك فمـا ملك صبره ورجع الى مقر ملكه وأرسـل الى أهلها يخطبها

وتزوجها فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج وكان غريب الشكل على شط النيل وبقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه من قصر الآمر

يا ابن مياح اليك المشتكي * مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حي مطاعا آمرا * نائلا ما شئت منكم مدركا
فانا الآن بقصر مرصد * لا أرى الا خبيثا ممسكا
كم تثنينا كأغصان اللوا * حيث لا نخشى علينا دركا

فأجابها

بنت عمي والتي غذيتها * بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها * لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الامر اليه أشتكي * مالك وهو الذي قد ملكا

قال وللناس في طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول وكان من عرب طيّ في قصر الآمر طراد بن مهلهل السنبسي فبلغته هذه القضية فقال

ألا بلغوا الآمر المصطفى * مقال طراد ونعم المقال
قطعت الاليفين عن ألفة * بها سمر الحي بين الرجال
كذا كان آباؤك الاكرمون * سألت فقل لي جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الابيات جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله وطلب في أحياء العرب فلم يوجد فقالت العرب ما أخسر صفقة طراد باع أبيات الحي بثلاثة أبيات وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد له مروأة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة وللشعراء فيه أمداح كثيرة مدحه ظافر الحداد وأمية بن أبي الصلت وغيرهما وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام وهو قطعة واحدة وينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره وكان يجد في نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم والمباهاة في عصره فوشى به للبدوية محبوبة الآمر فسألت الخليفة الآمر في حمل الجرن اليها فأرسل الى ابن حديد باحضار الجرن فلم يجد بدا من حمله من البستان فلما صار الى الآمر أمر بعمله في الهودج فقلق ابن حديد وصارت في قلبه حرارة من أخذ الجرن فأخذ يخدم البدوية ومن يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد في الكثرة حتى قالت البدوية هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا فلما قيل له هذا القول عنها قال مالي حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها

في عز غير رد الفسقية التي قلعت من داري التي بنيتها في أيامهم من أممتهم ترد الى مكانها فتعجبت من ذلك وردتها عليه فقيل له حصلت في حد أن خيرتك البدوية في جميع المطالب فنزلت همتك الى قطعة حجر فقال أنا أعرف بنفسي ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب في أخذ ذلك الحجر من مكانه وقد بلغها الله أملها وكان هذا المكين متولي قضاء الاسكندرية ونظرها في أيام الآمر وبلغ من علو همته وعظم مروأته أن سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحي لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية في سنة سبع عشرة وخمسمائة وأضاف اليه الاعمال البحرية ووصل الى الثغر ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضي المذكور فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضي الى داره لاحضار دهن شمع فما كان أكثر من مسافة الطريق الا أن أحضر حقا مختوما فك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر بيت دهن بمسك وبيت دهن بكافور وبيت دهن بعنبر طيب ولم يكن فيه شئ مصنوع لوقته فعند ما احضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته فعند ماشاهد القاضي ذلك بالغ في شكر انعامه وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه فكان جواب المؤتمن قد قبلته منك لالحاجة اليه ولا لنظر في قيمته بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار فانظر رحمك الله الى من يكون دهن الشمع عنده في اناء قيمته خمسمائة دينار ودهن الشمع لايكاد أكثر الناس يحتاج اليه البتة فماذا تكون ثيابه وحلي نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات وهذا انما هو حال قاضي الاسكندرية ومن قاضي الاسكندرية بالنسبة الى أعيان الدولة بالحضرة وما نسبة أعيان الدولة وان عظمت أحوالهم الى أمر الخلافة وأبهتها الا يسير حقير وما زال الخليفة الآمر يتردد الى الهودج المذكور الى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة يريد الهودج وقد كمن له عدة من النزارية في فرن عند رأس الجسر من ناحية الروضة فوثبوا عليه وأثخنوه بالجراحة حتى هلك وحمل في العشاري الى اللؤلؤة فمات بها وقيل قبل أن يصل اليها وقد خرب هذا الهودج وجهل مكانه من الروضة ولله عاقبة الامور

(قصر القرافة) وكان لهم بالقرافة قصر بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز في سنة ست وستين وثلثمائة على يد الحسين بن عبد العزيز الفارسي المحتسب هو والحمام الذي في غربيه وبنت البئر والبستان وجامع القرافة وكان هذا القصر نزهة من النزه من أحسن الآثار في اتقان بنيانه وصحة أركانه وله منظرة مليحة كبيرة محمولة على قبو ماد تجوز المارة من تحته ويقيل المسافرون في أيام القيظ هنالك ويركب الراكب اليه على زلاقة وكان كأحسن مايكون من البناء وتحته حوض لسقي الدواب يوم الحلول فيه وكان مكانه بالقرب من مسجد

الفتح ولما كان في سنة عشرين وأربعمائة جدده الخليفة الآمر وعمل تحته مصطبة للصوفية وكان يجلس فى الطاق بأعلى القصر ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالالوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ومدت لهم الاسمطة التى عليها كل نوع لذيذ ولون شهى من الاطعمة والحلوى أصنافا مصنفة فاتفق أن تواجد الشيخ أبو عبد الله بن الجوهرى الواعظ ومزق مرقعته وفرقت على العادة خرقا وسأل الشيخ أبو اسحاق ابراهيم المعروف بالقارح المقرى خرقة منها ووضعها في رأسه فلما فرغ التمزيق قال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة ياشيخ أبا اسحق قال لبيك يامولانا قال أين خرقتي فقال مجيباً له في الحال هاهى على رأسى ياأمير المؤمنين فاستحسن الآمر ذلك وأعجبه موقعه فأمر في الساعة والوقت فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار فتخاطفها الحاضرون وتعاهد المغربلون الارض التى هناك أياماً لاخذ مايواريه التراب وما برح قصر الاندلس بالقرافة حتى زالت الدولة فهدم في شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة

(المنظرة ببركة الحبش) وكانت لهم منظرة تشرف على بركة الحبش قال الشريف أبو عبد الله محمد الجوانى في كتاب النقط على الخطط ان الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على المنظرة التى يقال لها بئر دكة الخركة منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش وصور فيها الشعراء كل شاعر وبلده واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح وذكر الخركاة وكتب ذلك عند رأس كل شاعر وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهب فلما دخل الآمر وقرأ الاشعار أمر أن يحط على كل رف صرّة مختومة فيها خمسون دينارا وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ففعلوا ذلك وأخذوا صررهم وكانوا عدة شعراء

(البساتين) وكان للخلفاء عدة بساتين يتنزهون بها منها البساتين الجيوشية وهما بستانان كبيران أحدهما مُمتَدّ عند زقاق الكحل خارج باب الفتوح الى المطرية والآخر يمتد من خارج باب القنطرة الى الخندق وكان لهما شأن عظيم ومن شدة غرام الافضل بالبستان الذى كان يجاور بستان البعل عمل له سورا مثل سور القاهرة وعمل فيه بحرا كبيرا وقبة عشارى تحمل ثمانية أرادب وبنى في وسط البحر منظرة محمولة على اربع عواميد من احسن الرخام وحفها بشجر النارنج فكان نارنجها لا يقطع حتى يتساقط وسلط على هذا البحر أربع سواقى وجعل له معبرا من نحاس مخروط زنته قنطار وكان يملأ فى عدة أيام وجلب اليه من الطيور المسموعة شيأ كثيرا واستخدم للحمام الذي كان به عدة مطيرين وعمر به أبراجا عدة للحمام والطيور المسموعة وسرح فيه كثيرا من الطاوس وكان البستانان اللذان

على يسار الخارج من باب الفتوح بينهما بستان الخندق لكل منهما أربعة ابواب من الاربع جهات على كل منها عدة من الارمن وجميع الدهاليز مؤزرة بالحصر العبداني وعلى أبوابها سلاسل كثيرة من حديد ولا يدخل منهما الا السلطان وأولاده وأقاربه * قال ابن عبد الظاهر واتفقت جماعة على أن الذى يشتمل عليه مبيعهما في السنة من زهر وثمر نيف وثلاثون الف دينار وانها لا تقوم بمؤنهما على حكم اليقين لا الشك وكان الحاصل بالبستان الكبير والمحسن الى آخر الايام الآمرية وهى سنة اربع وعشرين وخمسمائة ثمانمائة وأحد عشر رأسا من البقر ومن الجمال مائة وثلاثة رؤس ومن العمال وغيرهم ألف رجل وذكر أن الذى دار سور البستانين من سنط وجميز وأثل من أول حدهما الشرقي وهو ركن بركة الارمن مع حدهما البحرى والغربي جميعا الى آخر زقاق الكحل في هذه المسافة الطويلة سبعة عشر ألف ألف ومائتا شجرة وبقى قبليهما جميعا لم يحصن وان السنط تقصن حتى الحق بالجميز في العظم وان معظم قرظه يسقط الى الطريق فيأخذه الناس وبعد ذلك يباع بأربعمائة دينار وكان به كل ثمرة لها دويرة مفردة وعليها سياج وفيها نخل منقوش فى ألواح عليها برسم الخاص لا تجنى الا بحضور المشارف وكان فيه الليمون تفاحي يؤكل بقشره بغير سكر وأقام هذان البستانان بيد الورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم مدة أيام الوزير المأمون لم تخرج عنهم وكشف ذلك فى أيام الخليفة الحافظ فكان فيهما ستمائة رأس من البقر وثمانون جملا وقوم ما عليهما من الاثل والجميز فكانت قيمته مائتي ألف دينار وطلب الأمير شرف الدين وكانت له حرمة عظيمة من الخليفة الحافظ قطع شجرة واحدة من سنط فأبي عليه فتشفع اليه وقومت بسبعين دينارا فرسم الخليفة ان كانت وسط البستان تقطع والا فلا ولما جرى في آخر أيام الحافظ ما جرى من الخلف ذبحت أبقاره وجماله ونهب مافيه من الآلات والانقاض ولم يبق الا الجميز والسنط والاثل لعدم من يشتريه انتهى وكان هذان البستانان من جملة الحبس الجيوشي وهو أن أمير الجيوش بدرا الجمالى حبس عدة بلاد وغيرها منها في البر الشرقى بناحية بهتيت والأميرية والمنية وفي البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم مع هذين البستانين المذكورين على عقبه فاستأجر هذا الحبس الوزراء مدة سنين باجرة يسيرة وصار يزرع فى الشرقى منه الكتان ومنه ما تبلغ قطيعته ثلاثة دنانير ونصفا وربعا عن كل فدان فيتناولون فيه ربحا جزيلا لانفسهم فلما بعد العهد انقرضت أعقابه ولم يبق من ذريته سوى امرأة كبيرة فأفتى الفقهاء بان هذا الحبس باطل فصار للديوان السلطاني يتصرف فيه ويحمل متحصله مع أموال بيت المال وتلاشت البساتين وبني في أماكنها ماياتي ذكره ان شاء الله تعالى وبني العزيز بالله بستانا بناحية سردوس

(قبة الهواء) وكان من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين قبة الهواء وهي مستشرفة

بهج بديع فيما بين التاج والخمس وجوه يحيط به عدة بساتين لكل بستان منها اسم ولهذه القبة فرش معدة في الشتاء والصيف ويركب اليها الخليفة في أيام الركوبات التي هي يوم السبت والثلاثاء

(بحر أبي المنجا) وكان من منتزهات الخلفاء يوم فتح بحر أبي المنجا قال ابن المأمون وكان الماء لا يصل الى الشرقية الا من السردوسى ومن الصماصم ومن المواضع البعيدة فكان أكثرها يشرق في أكثر السنين وكان أبو المنجا اليهودى مشارف الاعمال المذكورة فتضرر المزارعون اليه وسألوا فى فتح ترعة يصل الماء منها في ابتدائه اليهم فابتدأ بحفر خليج أبي المنجا في يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسمائة وركب الافضل ابن أمير الجيوش ضحى وصحبته القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي وجميع اخوته والعساكر تحاذيه في البر وجمعت شيوخ البلاد وأولادها وركبوا في المراكب ومعهم حزم البوص فى البحر وصار العشارى والمراكب تتبعها الى أن رماها الموج الى الموضع الذى حفروا فيه البحر وأقام الحفر فيه سنتين وفى كل سنة تتبين الفائدة فيه ويتضاعف من ارتفاع البلاد ما يهون الغرامة عليه * ولما عرض على الافضل جملة ما أنفق فيه استعظمه وقال غرمنا هذا المال جميعه والاسم لابى المنجا فغير اسمه ودعى بالبحر الافضلى فلم يتم ذلك ولم يعرف الا بأبى المنجا ثم جرى بين أبى المنجا وبين ابن أبى الليث صاحب الديوان بسبب الذي أنفق خطوب أدت الى اعتقال أبى المنجا عدة سنين ثم نفى الى الاسكندرية بعد أن كادت نفسه تتلف ولم يزل القائد أبو عبد الله بن فاتك يتلطف بحاله الى تضاعف من عبرة البلاد ما سهل أمر النفقة فيه ورأيت بخط ابن عبد الظاهر وهذا ابو المنجا هو جد بنى صغير الحكماء اليهود والذين أسلموا منهم ولما طال اعتقال أبي المنجا في الاسكندرية في مكان بمفرده مضيقاً عليه تحيل في تحصيل مصحف وكتب ختمة وكتب في آخرها كتبها أبو المنجا اليهودى وبعثها الى السوق ليبيعها فقامت قيامة أهل الثغر وطولع بأمره الى الخليفة فأخرج وقيل له ماحملك على هذا فقال طلب الخلاص بالقتل فأدب وأطلق سبيله وقيل انه كان فى محبسه حية عظيمة فأحضر اليه في بعض الايام لبن فرأى الحية وقد شربت منه ودخلت جحرها فصار في كل يوم يحضر لها لبنا فتخرج وتشرب منه وتدخل مكانها ولم تؤذه ولما ولى المأمون البطائحي وزارة الآمر بأحكام الله بعد الافضل بن أمير الجيوش تحدث الآمر معه في رؤية فتح هذا الخليج وأن يكون له يوم كخليج القاهرة فندب الآمر معه عدي الملك أبا البركات بن عثمان وكيله وأمره بأن يبنى على مكان السد منظرة متسعة تكون من بحرى السد وشرع فى عمارتها بعد كمال النيل وما زال يوم فتح سد هذا البحر يوما مشهودا الى أن زالت الدولة الفاطمية فلما استولى بنو أيوب من بعدهم على مملكة مصر أجروا

الحال فيه على ما كان قال القاضي الفاضل في متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة وركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لفتح بحر أبي المنجا وعاد قال وفي سنة تسعين وخمسمائة كسر بحر أبي المنجا بعد أن تأخر كسره عن عيد الصليب بسبعة ايام وكان ذلك لقصور النيل في هذه السنة ولم يباشر السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين بنفسه وركب أخوه شرف الدين يعقوب الطواشي لكسره وبدت في هذا اليوم من مخايل القبوط ما يوجبه سوء الافعال من المجاهرة بالمنكرات والاعلان بالفواحش وقد أفرط هذا الامر واشترك فيه الآمر والمأمور ولم ينسلخ شهر رمضان الا وقد شهد مالم يشهده رمضان قبله في الاسلام وبدا عقاب الله في الماء الذي كانت المعاصي على ظهره فان المراكب كان يركب فيها في رمضان الرجال والنساء مختلطين مكشفات الوجوه وأيدي الرجال تنال منها ماتنال في الخلوات والطبول والعيدان مرتفعات الاصوات والصنجات واستنابوا في الليل عن الخمر بالماء والجلاب ظاهرا وقيل انهم شربوا الخمر مستورا وقربت المراكب بعضها من بعض وعجز المنكر عن الانكار الا بقلبه ورفع الامر الى السلطان فندب حاجبه في بعض الليالي ففرق منهم من وجده في الحالة الحاضرة ثم عادوا بعد عوده وذكر أنه وجد في بعض المعادي خمرا فأراقه ولما استهل شوال وهو مطموع فيه تضاعف هذا المنكر وفشت هذه الفاحشة ونسأل الله العفو والعافية عن الكبائر والتجاوز عما تسقط فيه المعاذر * وقال في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كسر بحر أبي المنجا وباشر العزيز كسره وزاد النيل فيه أصبعاً وهي الاصبع الثامنة عشرة من ثماني عشر ذراعا وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى وقد تلاشى في زمننا امر الاجتماع في يوم فتح سد بحر أبي المنجا وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة

(قصر الورد بالخاقانية) وكان من أيام منتزهات الخلفاء يوم قصر الورد بناحية الخاقانية وهي قرية من قرى قليوب كانت من خاص الخليفة وبها جنان كثيرة للخليفة وكانت من أحسن المنتزهات المصرية وكان بها عدة دويرات يزرع فيها الورد فيسير اليها الخليفة يوماً ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد ويخدم بضيافة عظيمة * قال ابن الطوير عن الخليفة الآمر بأحكام الله وعمل له بالخاقانية وكانت من خاص الخليفة قصر من ورد فسار اليها يوما وخدم بضيافة عظيمة فلما استقر هناك خرج اليه أمير يقال له حسام الملك من الامراء الذين كانوا مع المؤتمن أخي المأمون البطائحي وتخاذلوا عنه فوصل الى الخاقانية وهو لابس لامة حربه والتمس المثول بين يديه يعني الخليفة فاستقل ما جاء به في ذلك الوقت مما ينافي مافيه الخليفة من الراحة والنزهة وحيل بينه وبين مقصوده فقال لجماعة من حواشي الخليفة أنتم منافقون على الخليفة ان لم أصل اليه فانه يعاقبكم بذلك فأطلعوا الخليفة على أمره وحليته بالسلاح وقوله فأمر باحضاره فلما وقعت عينه عليه قال يامولانا لمن تركت أعداءك يعني

الوزير المأمون البطائحي وأخاه وكان الآمر قد قبض عليهما واعتقلهما هـذا والعهد قريب غير بعيد ألمنت الغدر فما أجابه الاوهو على الرهاويج من الخيل فلم تمض ساعة الا وهو بالقصر فمضى الى مكان اعتقال المأمون وأخيه فزادهما وثاقا وحراسة وفى أثناء ذلك وصل ابن نجيب الدولة الذى كان سيره المأمون فى وزارته الى اليمن لتحقيق نسبه أنه ولد من جارية نزار بن المستنصر لما خرجت من القصر وهى به حامل ويدعو اليـه بقيـة الناس وأحضر الى القاهرة على جمل مشوه فأدخـل خزانة البنود وقتل هو والمأمون وجمـاعة فى تلك الليلة وصلبوا ظاهر القاهرة

(بركة الجب) هى بظاهر القاهرة من بحريها وتسميها العامة فى زمننا هذا الذى نحن فيه بركة الحاج لنزول الحجاج بها عندمسيرهم من القاهرة الى الحج فى كل سنة ونزولهم عند العود بها ومنها يدخـلون الى القاهرة ومن الناس من يقول جب يوسف وهو خطأ وانمـا هى أرض جب عميرة وعميرة هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبي من بني القرناء نسبت هذه الارض اليـه فقيل لها أرض جب عميرة ذكره ابن يونس وكان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر بن الحاكم في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم الي جب عميرة هذا وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج الى الحج على سبيل اللعب والمجانة وربمـا حمل معه الخمر فى الروايا عوضاً عن المـاء ويسقيه من معه وأنشـده مرة الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى فى يوم عرفة

قم فانحر الراح يوم النحر بالمـاء * ولا تضح ضحى الا بصهباء
وادرك حجيج الندامى قبل نفرهم * الى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكراً * فطف بها حول ركن العود والنائي

قال ابن دحية فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجي بنغمات حداة المـلاهى وتساق • حتي أناخ بعين شمس في كبكبة من الفساق • فاقام بها سوق الفسوق على ساق • وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين • حتى بيع فى أيامه الرغيف بالثمن الثمين • وعاد ماء النيل بعد عذوبته كالغسلين • ولم يبق بشاطئيه أحد بعد ان كانا محفوفين بحور عين • وقال ابن ميسر فلما كان في جمادى الآخرة من سنة أربع وخمسين وأربعمائة خرج المستنصر على عادته الى بركة الجب فاتفق أن بعض الاتراك جرد سيفاً في سكر منه على بعض عبيد الشراء فاجتمع عليه طائفة من العبيد وقتلوه فاجتمع الاتراك بالمستنصر وقالوا ان كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة وان كان عن غير رضاك فلا نرضى بذلك فأنكر المستنصر ماوقع وتبرأ مما فعله العبيد فتجمع الاتراك لحرب العبيد وبرز بعضهم الى بعض وكان بين الفريقين قتال شديد على كوم شريك انهزم فيه العبيد وقتل منهم عدد كثير وكانت أم المستنصر تعين العبيد وتمدهم

بالاموال والاسلحة فاتفق في بعض الايام أن بعض الاتراك ظفر بشئ مما تبعث به أم المستنصر الى العبيد فأعلم بذلك أصحابه وقد قويت شوكتهم بانهزام العبيد فاجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر وخاطبوه في ذلك وأغلظوا في القول وجهروا بما لاينبغي وصار السيف قائماً والحروب متتابعة الى أن كان من خراب مصر بالغلاء والفتن ما كان وكان من قبل المستنصر يترددون الى بركة الجب قال المسبحيّ ولاثنتي عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة عرض العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب فنصب له مضرب ديباج رومي فيه الف ثوب بصفرية فضة ونصبت له فازة مثقل وقبة مثقل بالجوهر وضرب لابنه الامير أبي على منصور مضرب آخر وعرضت العساكر وكان عدتها مائة عسكري وأقبلت أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسون فطيف بهم وكان يوماً عظيماً حسناً لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار الى صلاة المغرب ومازالت بركة الجب متنزهاً للخلفاء والملوك من بني أيوب وكان السلطان صلاح الدين يبرز اليها للصيد ويقيم فيها الايام وفعل ذلك الملوك من بعده واعتنى بها الملك الناصر محمد بن قلاون وبنى بها أحواشا وميدانا كما سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى وبركة الجب وما يليها فى درك بنى صبرة وهم ينسبون الى صبرة بن بطيح بن مغالة بن دعجان بن عنب بن الكليب بن أبي عمرو بن دمية ابن جدس بن اريش بن اراش بن جزيلة بن لخم فهم أحد بطون لخم وفيهم بنو جذام ابن صبرة بن بصرة بن غنم بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام أخى لخم

(المشتهى) وكان من مواضعهم التى أعدت للنزهة المشتهى

ذكر الايام التى كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم

وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم وهى موسم رأس السنة وموسم اول العام ويوم عاشوراء ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه ومولد الحسن ومولد الحسين عليهما السلام ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام ومولد الخليفة الحاضر وليلة اول رجب وليلة نصفه وليلة اول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وسماط رمضان وليلة الختم وموسم عيد الفطر وموسم عيد النحر وعيد الغدير وكسوة الشتاء وكسوة الصيف وموسم فتح الخليج ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العدس وأيام الركوبات

(موسم رأس السنة) وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء بليلة اول المحرم فى كل عام لانها اول ليالى السنة وابتداء أوقاتها وكان من رسومهم في ليلة رأس السنة أن يعمل بمطبخ القصر عدة كثيرة من الخراف المقموم والكثير من الرؤس المقموم وتفرق على جميع أرباب

الرتب وأصحاب الدواوين من العوالى والادوان أرباب السيوف والاقلام مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلواء فيعم ذلك سائر الناس من خاص الخليفة وجهاته والاستاذين المحنكين الى أرباب الضوء وهم المشاعلية وينتقل ذلك فى ايدى اهل القاهرة ومصر

(موسم أول العام) وكان لهم بأول العام عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزيه المفخم وهيئته العظيمة كما تقدم ويفرق فيه دنانير الغرة التى مر ذكرها عند ذكر دار الضرب ويفرق من السماط الذى يعمل بالقصر لاعيان أرباب الخدم من أرباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلواء وخبز وقطع منفوخة من سكر وأرز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجل وصفه ويتبسطون بما يصل اليهم من دنانير الغرة من رسوم الركوب كما شرح فيما تقدم

(يوم عاشوراء) كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الاسواق ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن وقد ذكر عند ذكر المشهد الحسينى فانظره وكان يصل الى الناس منه شئ كثير فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون فى المطاعم ويصنعون الحلاوات ويتخذون الاوانى الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشأم التى سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن فيه على الحسين بن على لانه قتل فيه وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط وكلا الفعلين غير جيد والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط * وما أحسن قول أبي الحسين الجزار الشاعر يخاطب الشريف شهاب الدين ناظر الاهراء وكتب بها اليه ليلة عاشوراء عند ما أخر عنه ما كان من جاريه في الاهراء

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندى * والسيد بن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلى الصمد * ان لم يبادر لنجاز موعدى
لأحضرن للهناء فى غد * مكحل العينين مخضوب اليد

يعرض للشريف بما يرمى به الاشراف من التشيع وانه اذا جاءه بهيئة السرور في يوم عاشوراء غاظه ذلك لانه من أفعال النصب وهو من أحسن ماسمعته في التعريض فلله دره

(عيد النصر) وهو السادس عشر من المحرم عمله الخليفة الحافظ لدين الله لانه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه ويفعل فيه مايفعل فى الاعياد من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة فى النفقة وكتب فيه أبو القاسم على بن الصيرفى الى بعض الخطباء عيد النصر وهو أفضل الاعياد وأسناها وأعلاها وأدلها على تقصير الواصف اذا بلغ وتناهى ونحن

نأمرك أن تبرز في يوم الاحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في الاعياد وتوعد بأن تقرأ على الناس الخطبة التي سيرناها اليك قرين هذا الامر بشرح هذا اليوم وتفصيله وذكر ماخصه الله به من تشريفه وتفضيله وتعتمد في ذلك ماجرى الرسم فيه في كل عيد وتنتهي فيه الى الغاية التى ليس عليها مزيد فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى

(المواليد الستة) كانت مواسم جليلة يعمل الناس فيها ميزات من ذهب وفضة وخشكنانج وحلواء كما مر ذلك

(ليالى الوقود الاربع) كانت من أبهج الليالى وأحسنها يحشر الناس لمشاهدتها من كل أوب وتصل الى الناس فيها أنواع من البر وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد فانظره في موضعه تجده

(موسم شهر رمضان) وكان لهم في شهر رمضان عدة أنواع من البر منها كشف المساجد قال الشريف الجواني في كتاب النقط كان القضاة بمصر اذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوما على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر فيبدءون بجامع المقس ثم بجوامع القاهرة ثم بالمشاهد ثم بالقرافة ثم بجامع مصر ثم بمشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وازالة شعثه وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضى لحضور السماط

(ابطال المسكرات) قال ابن المأمون وكانت العادة جارية من الايام الافضلية في آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم ويحذر من بيع الخمر فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الافضل بن أمير الجيوش أن يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة فكتب به الى جميع ولاة الاعمال وأن ينادى بأنه من تعرض لبيع شئ من المسكرات أو لشرائها سرا أو جهرا فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها

(ومنها غرة رمضان) وكان فى أول يوم من شهر رمضان يرسل لجميع الامراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلواء وبوسطه صرة من ذهب فيعم ذلك سائر أهل الدولة ويقال لذلك غرة رمضان

(ومنها ركوب الخليفة في أول شهر رمضان) قال ابن الطوير فاذا انقضى شعبان اهتم بركوب أول شهر رمضان وهو يقوم مقام الرؤية عند المتشيعين فيجرى أمره فى اللباس والآلات والاسلحة والعرض والركوب والترتيب والموكب والطريق المسلوكة كما وصفناه في أول العام لايختل بوجه ويكتب الى الولاة والنواب والاعمال بمساطير مخلقة يذكر فيها ركوب الخليفة

(ومنها سماط شهر رمضان) وقد تقدم ذكر السماط فى قاعة الذهب من القصر

(سحور الخليفة) قال ابن المأمون وقد ذكر أسمطة رمضان وجلوس الخليفة بعد ذلك في الروشن الى وقت السحور والمقرئون تحته يتلون عشرا ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة ثم حضر بعدهم المؤذنون وأخذوا في التكبير وذكر فضائل السحور وختموا بالدعاء وقدمت المخاد للوعاظ فذكروا فضائل الشهر ومدح الخليفة والصوفيات وقام كل من الجماعة للرقص ولم يزالوا الى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه فحضر بين يدى الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين وأحضرت جفان القطائف وجرار الجلاب برسمهم فأكلوا وملؤا أكمامهم وفضل عنهم ماتخطفه الفراشون ثم جلس الخليفة في السدلا التى كان بها عند الفطور وبين يديه المائدة معباة جميعها من جميع الحيوان وغيره والقعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة وحضر الجلساء واستعمل كل منهم مااقتدر عليه وأومأ الخليفة بأن يستعمل من القعبة فيفرق الفراشون عليهم أجمعين وكل من تناول شيأ قام وقبل الارض وأخذ منه على سبيل البركة لاولاده وأهله لان ذلك كان مستفاضاً عندهم غير معيب على فاعله ثم قدمت الصحون الصيني مملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة الكفاية وقام الخليفة وجلس بالباذهنج وبين يديه السحورات المطيبات من لبنين رطب ومخض وعدة أنواع عصارات وافطلوات وسويق ناعم وجريش جميع ذلك بقلوبات وموز ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفا وحضر الجلساء وأخذ كل منهم في تقبيل الارض والسؤال بما ينعم عليه منه فتناوله المستخدمون والاستاذون وفرقوه فأخذه القوم في أكمامهم ثم سلم الجميع وانصرفوا

(ومنها الختم في آخر رمضان) وكان يعمل في التاسع والعشرين منه * قال ابن المأمون ولما كان التاسع والعشرون من شهر رمضان خرج الأمر باضعاف ماهو مستقر للمقرئين والمؤذنين في كل ليلة برسم السحور بحكم انها ليلة ختم الشهر وحضر الاجل الوزير المأمون في آخر النهار الى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الاسمطة على العادة وحضر اخوته وعمومته وجميع الجلساء وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور ثلاجي وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضي ديبقي وجعلها أمام المذكورين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم واستفتح المقرئون من الحمد الى خاتمة القرآن تلاوة وتطريباً ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ودعا فأبلغ ورفع الفراشون ماأعدوه برسم الجهات ثم كبر المؤذنون وهللوا وأخذوا في الصوفيات الى أن نثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم ورباعيات وقدمت جفان القطائف على الرسم مع البسندود والحلواء فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ودراهم تفرق على

الطائفتين من المقرئين والمؤذنين

(ذكر مذاهبهم في أوّل الشهور)

اعلم أن القوم كانوا شيعة ثم غلوا حتى عدّوا من غلاة أهل الرفض وللشيعة في أثناء الشهور عمل أحسن ما رأيت فيه ما حكاه أبو الريحان محمد بن أحمد البيروتيّ فى كتاب الآثار العافية عن القرون الخالية قال (٣) وفي سنين من الهجرة نجمت ناجمة لاجل أخذهم بالتأويل الى اليهود والنصارى فاذا لهم جداول وحسبانات يستخرجون بها شهورهم ويعرفون منها صيامهم والمسلمون مضطرون الي رؤية الهلال وتفقد ما اكتساه القمر من النور وجدوهم شاكين في ذلك مختلفين فيه مقلدين بعضهم بعضاً فى عمل رؤية الهلال بطريق الزيجات فرجعوا الى أصحاب علم الهيئة فالفوا زيجاتهم مفتتحة بمعرفة أوائل ما يراد من شهور العرب بصنوف الحسبانات فظنوا أنها معمولة لرؤية الاهلة فأخذوا بعضها ونسبوه الى جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام وزعموا أنه سرّ من أسرار النبوة وتلك الحسبانات مبنية على حركات التدبير الوسطى دون المعدلة أو معمولة على سنة القمر التى هي ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً وخمس يوم وسدس يوم وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وان كل ناقص منها فهو تال لتام فلما قصدوا استخراج الصوم والفطر بها خرجت قبل الواجب بيوم في أغلب الاحوال فأولوا قوله عليه السلام صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته وقالوا معني صوموا لرؤيته أى صوموا اليوم الذى يرى فى عشيته كما يقال تهيؤا لاستقباله فيقدم التهيؤ على الاستقبال قال ورمضان لاينقص عن ثلاثين يوماً أبداً

(قافلة الحاج) قال في كتاب الذخائر والتحف أن المنفق على الموسم كان فى كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار منها ثمن الطيب والحلواء والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ومنها نفقة الوفد الواصلين الى الحضرة أربعون ألف دينار ومنها في ثمن الحمايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار وأن النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت في كل سنة وبلغت الى مائتى ألف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول

(موسم عيد الفطر) وكان لهم في موسم عيد الفطر عدة وجوه من الخيرات منها تفرقة الفطرة وتفرقة الكسوة وعمل السماط وركوب الخليفة لصلاة العيد وقد تقدم ذكر ذلك كله فيما سبق

(قوله وفي سنين الخ) هكذا هذه العبارة موجودة فى الاصل ولا يخفى ما فيها من الركاكة والسقامة فلتحرر ولتراجع اهـ مصححه

(عيد النحر) فيه تفرقة الرسوم من الذهب والفضة وتفرقة الكسوة لارباب الخدم من أهل السيف والقلم وفيه ركوب الخليفة لصلاة العيد وفيه تفرقة الاضاحي كما مرّ ذلك مبيناً في موضعه من هذا الكتاب

(عيد الغدير) فيه تزويج الايامي وفيه الكسوة وتفرقة الهبات لكبراء الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وضيوفها والاستاذين المحنكين والمميزين وفيه النحر أيضاً وتفرقة النحائر على أرباب الرسوم وعتق الرقاب وغير ذلك كما سبق بيانه فيما تقدم

(كسوة الشتاء والصيف) وكان لهم في كل من فصلي الشتاء والصيف كسوة تفرق على أهل الدولة وعلى أولادهم ونسائهم وقد مر ذكر ذلك

(موسم فتح الخليج) وكانت لهم في موسم فتح الخليج وجوه من البر منها الركوب لتخليق المقياس ومبيت القراء بجامع المقياس وتشريف ابن أبي الردّاد بالخلع وغيرها وركوب الخليفة الى فتح الخليج وتفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة والعين والمآكل والتحف وقد تقدم تفصيل ذلك

(ذكر النوروز)

وكان النوروز القبطي في أيامهم من جملة المواسم فتتعطل فيه الاسواق ويقل فيه سعي الناس فى الطرقات وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النوروز * قال ابن زولاق وفى هذه السنة يعني سنة ثلاث وستين وثلثمائة منع المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ومن صب الماء يوم النوروز وقال في سنة أربع وستين وثلثمائة وفى يوم النوروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران وطاف أهل الاسواق وعملوا فيلة وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام وأظهروا السماجات والحلي في الاسواق ثم أمر المعز بالنداء بالكف وأن لاتوقد نار ولا يصب ماء وأخذ قوم فحبسوا وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال وقال ابن ميسر فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة وفيها أراد الآمر بأحكام الله أن يحضر الى دار الملك في النوروز الكائن في جمادي الآخرة في المراكب على ما كان عليه الافضل بن أمير الجيوش فاعاد المأمون عليه أنه لايمكن فان الافضل لايجري مجراه مجرى الخليفة وحمل اليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات ماله قيمة جليلة وقال ابن المأمون وحل موسم النوروز في التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ووصلت الكسوة المختصة به من الطراز وثغر الاسكندرية مع مايبتاع من المذاب المذهبة والحريرى والسوادج وأطلق جميع ماهو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الاصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأسماء أربابها وأصناف النوروز البطيخ والرمان وعراجين الموز وأفراد البسر وأقفاص التمر القوصى وأقفاص

السفرجل وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر من كل لون بكلة مع خبز بر مارق قال وأحضر كاتب الدفتر الأثباتات بما جرت العادة به من اطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها في يوم النوروز وغير ذلك من جميع الأصناف وهو أربعة آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة والكسوات عدة كثيرة من شقق ديبقي مذهبات وحريريات ومعاجر وعصائب مشاومات ملونات وشقق لاذ مذهب وحريرى ومشفع وفوط ديبقي حريرى فأما العين والورق والكسوات فذلك لايخرج عمن تحوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والاصحاب والحواشي والمستخدمون ورؤساء المشاريات وبحارتها ولم يكن لاحد من الامراء على اختلاف درجاتهم في ذلك نصيب وأما الاصناف من البطيخ والرمان والبسر والتمر والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ويشركهم فى ذلك جميع الامراء أرباب الاطواق والاقصاب وسائر الاماثل وقد تقدم شرح ذلك فوقع الوزير المأمون على جميع ذلك بالانفاق وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت أول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضية والدولة الخالية يعني دولة الخلفاء الفاطميين من مواسم بطالاتهم ومواقيت ضلالاتهم فكانت المنكرات ظاهرة فيه والفواحش صريحة فى يومه ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبه على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مترسمين كل ذلك يخرج مخرج الطير ويقنع بالميسور من الهبات ويجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي وترتفع الاصوات وتشرب الخمر والمز وشربا ظاهرا بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء وبالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالاقذار فان غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فاما فدى نفسه وأما فضح ولم يجر الحال في هذا النوروز على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وأحيا المنكر في الدور أرباب الخسارات وقال في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وجرى الامر فى النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة وخرق به * قال مؤلفه رحمه الله تعالى أن أول من اتخذ النوروز جمشيد ويقال في اسمه أيضاً جمشاد أحد ملوك الفرس الاول ومعناه اليوم الجديد وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم غير أنه في غير هذا اليوم وقد صنف على بن حمزة الاصفهاني كتاباً مفيداً في أعياد الفرس وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال كان اليوم الذى رد الله فيه الى سليمان بن داود خاتمه

يوم النوروز فجاءت اليه الشياطين بالتحف وكانت تحفة الخطاطيف أن جاءت بالماء في مناقيرها فرشته بين يدى سليمان فاتخذ الناس رش الماء من ذلك اليوم وعن مقاتل بن سليمان قال سمي ذلك اليوم نيروزاً وذلك أنه وافق هذا اليوم الذي يسمونه النيروز فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم واتخذوه عيداً وكانوا يرشون الماء فى ذلك اليوم ويهدون كفعل الخطاف ويتيمنون بذلك ولله در القائل

كيف ابتهاجك بالنوروز ياسكني * وكل مافيه يحكيني وأحكيه
فناره كلهيب النار فى كبدى * وماؤه كتو الى دمعتي فيه

(وقال آخر)

نورز الناس ونورز * ت ولكن بدموعى
وذكت نارهم والنار مابين ضلوعى

(وقال غيره)

ولما أتي النوروز ياغاية المني * وأنت على الاعراض والهجر والصد
بعثت بنار الشوق ليلا الى الحشى * فنورزت صبحاً بالدموع على الخد

(الميلاد) وهو اليوم الذى ولد فيه عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم والنصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيداً وتعمله قبط مصر في التاسع والعشرين من كيهك وما برح لاهل مصر به اعتناء وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمتارد التي فيها السمك وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية والبوري فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والاقلام بتقرير معلوم على ما ذكره ابن المأمون فى تاريخه

(الغطاس) ومن مواسم النصارى بمصر عمل الغطاس فى اليوم الحادى عشر من طوبة * قال المسعودي في مروج الذهب ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لاينام الناس فيها وهى ليلة احدى عشرة من طوبة ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طفج في داره المعروفة بالمختار في الجزيرة الراكبة على النيل والنيل مطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو ألوف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء وقال المسبحي

في سنة ثمان وثمانين وثلثمائة كان غطاس النصارى فضربت الخيام والمضارب والاشرعـة في عدة مواضع على شاطئ النيل فنصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان وأوقـدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب الى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف * وقال في سنة خمس عشرة وأربعمائة وفي ليلة الاربعاء رابع ذى القـعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه والضأن وغيره ونزل أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جـده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم الى البحر في الليل وضرب بدر الدولة الخادم الاسود متولى الشرطتين خيمة عنـد الجسر وجلس فيها وأمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بأن توقد المشاعل والنار في الليل فكان وقيـداً كثيراً وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسسوا هناك طويلا الى أن غطسوا وقال ابن المأمون انه كان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر أهل الدولة الترنج والنارنج والليمون المراكبي وأطنان القصب والسمك والبورى برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والاقلام

(خميس العهد) ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ويتهادون فيه وكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية فى خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهباً عشرة آلاف خروبة وتفرقتها على جميع أرباب الرسوم كما تقدم

(أيام الركوبات) وكان الخليفـة يركب فى كل يوم سبت وثلاثاء الى متنزهاته بالبساتين والتاج وقبة الهواء والخمس وجوه وبستان البعل ودار الملك ومنازل العز والروضة فيعم الناس فى هذه الايام من الصدقات أنواع مابين ذهب ومآكل وأشربة وحلاوات وغير ذلك كما تقدم بيانه فى موضعه من هذا الكتاب

(صلاة الجمعة) وكان الخليفة يركب في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القـاهرة الذى يعرف بالجامع الازهر مرة وفى جامع الخطبـة المعروف بالجامع الحاكمي مرة وفى جامع عمرو بن العاص بمصر أخرى فينال الناس منه في هذه الجوامع الثلاث رسوم وهبات وصدقات كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر الجامع الازهر ولله در الفقيه عمارة اليمنى فقد ضمن مرثيته أهل القصر جملا مما ذكر وهى القصيدة التي قال ابن سعد فيها ولم يسمع فيما يكتب في دولة بعد انقراضها أحسن منها

رميت يادهر كف المجد بالشلل * وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
سعيت في منهج الرأى العثور فان * قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الاقنى فأنفك لا * ينفك مابين قرع السن والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل * سعيت مهلا أما تمشي على مهل
لهفي و لهف بني الآمال قاطبة * على فجيعتها في أكرم الدول *
قدمت مصر فاولتني خلائفها * من المكارم ما أربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن * كمالها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حين سما * رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة * وخلة حرست من عارض الخلل
ياعاذلي في هوى أبناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت فى عذلي
بالله در ساحة القصرين وابك معي * عليهما لاعلى صفين والجمل
وقل لأهليهما والله ما التحمت * فيكم جراحي ولا قرحي بمندمل
ماذا عسى كانت الافرنج فاعلة * في نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الامر شيء غير قسمة ما * ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم * محمد وأبوكم غير منتقل *
مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد * من الاعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت * رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ماتراءت من مكارمكم * حال الزمان عليها وهي لم تحل
داز الضيافة كانت أنس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم اذ أضحت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست * ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم * يأتي تجملكم فيه على الجمل *
وأول العام والعيدين كم لكم * فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز فى يوم الغدير كما * يهتز مابين قصريكم من الاسل
والخيل تعرض فى وشي وفي شية * مثل العرائس في حلى وفي حلل
ولاحملتم قرى الاضياف من سعة الأ * طباق الا على الاكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم * حتى عممتم به الاقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللـ * ـضيف المقيم وللطاري من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذ عظمت * منه الصلات لاهل الارض والدول
وللجوامع من احسانكم نعم * لمن تصدر فى علم وفى عمل
وربما عادت الدنيا فمعقلها * منكم وأضحت بكم محلولة العقل *

والله لافاز يوم الحشر مبغضكم * ولا نجا من عذاب الله غير ولى
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ * من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التي خلقت * من خان عهد الامام العاضد بن على
* أئمتي وهداتي والذخيرة لى * اذا ارتهنت بما قدمت من عملى
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم * لان فضلهم كالوابل الهطل *
ولو تضاعفت الاقوال واتسعت * ماكنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم دنيا وآخرة * وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجي ومحـ * ـل الغيث ان ربت الانواء فى المحل
* أئمة خلقوا نوراً فنورهم * من محض خالص نور الله لم يفل
والله مازلت عن حبي لهم أبداً * ما أخر الله لى فى مدة الاجل

وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله وتمحلت له الذنوب انتهى ماذكره رحمه الله تعالى

﴿ ذكر ماكان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية ﴾

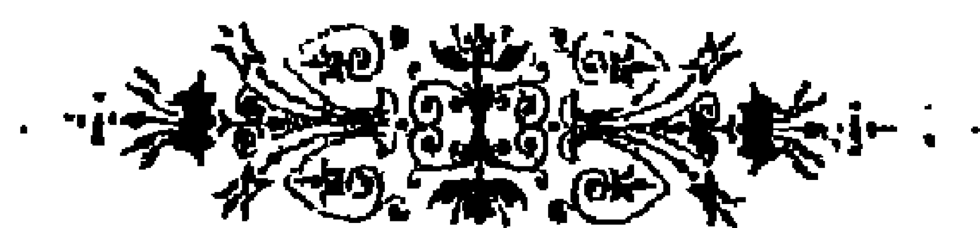
ولما مات العاضد لدين الله فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد وأولاده فكانت عدة الاشراف فى القصور مائة وثلاثين والاطفال خمسة وسبعين وجعلهم فى مكان أفرد لهم خارج القصر وجمع عمومته وعشيرته فى ايوان بالقصر واحترز عليهم وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا وليكون ذلك أسرع لانقراضهم وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الاموال والنفائس وكانت عظيمة الوصف واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد فأطلق من كان حرا ووهب واستخدم باقيهم وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها أمراءه وضرب الالواح على ماكان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع وأقطع خواصه منها وباع بعضها ثم قسم القصور فأعطي القصر الكبير للامراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين أيوب ابن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج وأخذ أصحابه دور من كان ينسب الى الدولة الفاطمية فكان الرجل اذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها قال القاضى الفاضل وفى ثالث عشريه يعنى ربيعاً الآخر سنة سبع وستين كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر فقيل ان الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش وبيان وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الامير موسك والاميرابو الهيجاء السمين وغيره من الغز

أو مـدفن لآبائهم وورخ ذلك الاشهاد بثالث عشر ربيع الاول سنة ستين وستمائة وأثبت على قاضي القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الاعز الشافعي رحمه الله تعالى وتقرر مع المذكورين أن مهما كان قبضوه من أثمان بعض الاماكن المذكورة التي عاقد عليها وكلاؤهم واتصلوا اليه يحاسبوا به من جملة ما يحرز ثمنه عند وكيل بيت المال وقبضت ايدي المذكورين عن التصرف في الاماكن المذكورة وغيرها ورسم ببيعها فباعها وكيل بيت المال كمال الدين ظافر أولا فأولا ونقضت شيأ فشيأ وبقي في أماكنها ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى واشترى قاعة السدرة بجوار المدرسة والتربة الصالحية قاضي القضاة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن مسرور المقدسي الحنبلي مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية بألف وخمسة وسبعين دينارا في رابع جمادى الآخرة سنة ستين وستمائة من كمال الدين ظافر بن الفقيه نصر وكيل بيت المال ثم باعها المذكور للملك الظاهر بيبرس في حادي عشري جمادى الآخرة المذكور وقاعة السدرة هذه قدصارت هي وقاعة الخيم أصل المدرسة الظاهرية الركنية البيبرسية البندقدارية قال القاضي الفاضل وفي يوم الاثنين سادس شهر رجب يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة ظهر تسحب رجلين من المعتقلين في القصر أحدهما من أقارب المستنصر والآخر من أقارب الحافظ وأكبرهما سنا كان معتقلا بالايوان حدث به مرض وأثخن فيه ففك حديده ونقل الى القصر الغربي في أوائل سنة ثلاث وثمانين واستمر لمابه ولم يستقل من المرض وطلب ففقد واسمه موسى بن عبدالرحمن أبي حمزة بن حيدرة بن أبي الحسن أخي الحافظ واسم الآخر موسى بن عبد الرحمن بن أبي محمد بن أبي اليسر بن محسن بن المستنصر وكان طفلا في وقت الكائنة بأهله وأقام بالقصر الغربي مع من أسر به الى أن كبر وشب قال وذكر أن القصر الغربي قد استولى عليه الخراب وعلا على جسدر انه التشعث والهدم وانه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين وربما تسلق اليه للتطرق للنساء المعتقلات والمتساق منه اذا قويت نفسه على التسحب لم تكن عقلته في القصر المذكور مانعة من التسحب قال وعدد من بقي من هذه الذرية بدار المظفر والقصر الغربي والايوان مائتان واثنان وخمسون شخصاً ذكور ثمانية وتسعون واناث مائة وأربعة وخمسون تفصيله المقيمون بدار المظفر أحد وثلاثون ذكوراً حد عشر كلهم أولاد العاضد لصلبه اناث عشرون بنات العاضد خمسة اخوته أربع جهات العاضد أربع بنات الحافظ ثلاث جهات يوسف ابنه وجبريل ابن عمه أربع المعتقلون بالايوان خمسة وخمسون رجلا منهم الامير أبو الظاهر بن جبريل بن الحافظ المقيمون بالقصر الغربي مائة وستة وستون شخصاً ذكور اثنان وثلاثون أكبرهم عمره عشرون سنة وأصغرهم عمره سبع عشرة سنة اناث مائة وأربع وثلاثون بنات أربع وستون اخوات وعمات وزوجات

وملئت المناظر المصونة عن الناظر والمنتزهات التي لم يخطر ابتذالها في الخاطر فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ووارث الارض وموروثها قال ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر مابين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لايفي به ملك الاكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه الا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة * وقال الحافظ جمال الدين يوسف اليغموري وجدت بخط المهذب أبي طالب محمد بن على بن الخيمي حدثني الامير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويدا لدولة بن منقذ أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة عشرة آلاف شريف وشريفة وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة وتربية * وقال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين وأخرج من به كان فيه أثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ولما أخرجوا منه أسكنوا في دار المظفر وقبض أيضاً صلاح الدين على الامير داود بن العاضد وكان ولى العهد وينعت بالحامد لله واعتقل معه جميع اخوته الامير أبو الامانة جبريل وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم وسليمان بن داود وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبي الظاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة من بني أعمامه فلم يزالوا في الاعتقال بدار الافضل من حارة برجوان الى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة الى قلعة الجبل فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة وبها مات العاضد واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الايوبية وملك الاتراك الى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فلما كان في سنة ستين وستمائة أشهد على من بقي منهم وهم كمال الدين اسماعيل بن العاضد وعماد الدين أبو القاسم ابن الامير أبي الفتوح بن العاضد وبدر الدين عبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد أن جميع المواضع التي قبلي المدارس الصالحية من القصر الكبير والموضع المعروف بالتربة ظاهرا وباطنا بخط الخوخ السبع وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعي بالخط المذكور وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ وغيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربي وجميع الموضع المعروف بدار الفطرة بخط المشهد الحسيني وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة وجميع قصر الزمرذ وجميع البستان الكافوري ملك لبيت المال المولوى السلطاني الملكي الظاهري من وجه صحيح شرعي لا رجعة لهم فيه ولا لواحد منهم في ذلك ولا في شئ منه ولا مثوبة بسبب يد ولا ملك ولا وجه من الوجوه كلها خلا مافي ذلك من مسجد لله تبارك وتعالى

سبعون * قال وفي جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة كانت عدة من في
دار المظفر بحارة برجوان والقصر الغربي والايوان من أولاد العاضد
وأقاربه ومن معهم مضافا اليهم ثلثمائة واثنين وسبعين نفسا دار المظفر
أحرار ومماليك مائة وست وستون نفساً القصر الغربي احرار مائة
وأربعون نفساً الايوان تسعة وسبعون رجلا بالقون وأما
منازل العز فاشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر بن
شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى في نصف
شعبان سنة ست وستين وخمسمائة وجعلها
مدرسة للفقهاء الشافعية واشترى الروضة
وجعلها وقفاً على المدرسة
المذكورة والله تعالى أعلم
بالصواب واليه المرجع
والمآب وصلى الله
على سيدنا محمد
وآله وسلم

تم الجزء الثاني ويتلوه الجزء الثالث وأوله الحارات



{ فهرست }

الجزء الثانى من كتاب الخطط للعلامة المقريزي

(تمت الفهرست)

